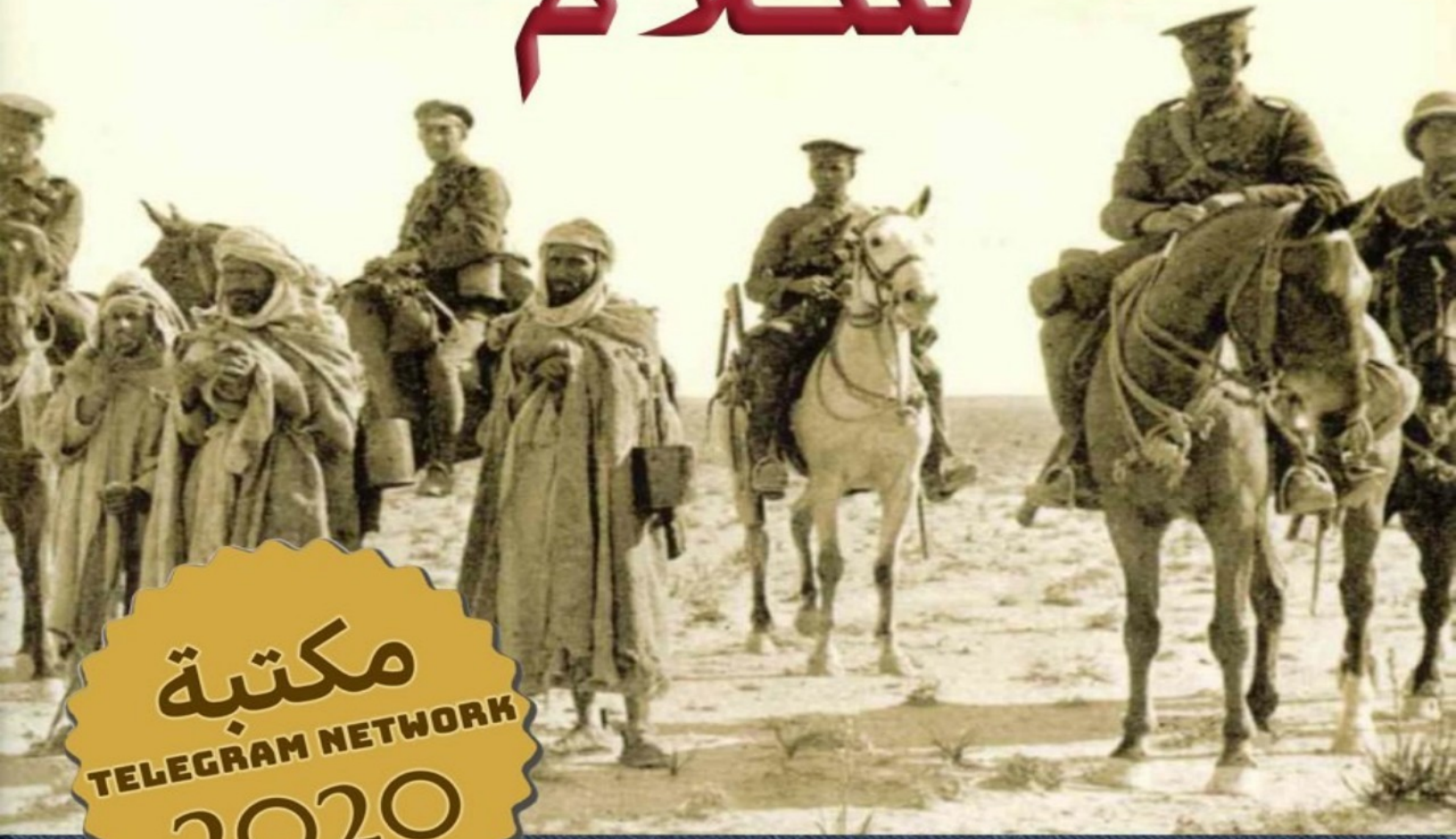


الكتاب الأكثر مبيعاً على قائمة نيويورك تايمز

# سَلام ما بعده سَلام



مكتبة  
TELEGRAM NETWORK  
2020

ولادة الشرق الأوسط

١٩١٤ - ١٩٢٢

دافيد فرومكين

مكتبة  
Telegram Network  
2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل كتاب:

(سلام ما بعده سلام)

«ولادة الشرق الأوسط 1914-1922»

لـ «دافيد فرومكين»

إلى صيغة نصية:

([فريق الكتب النادرة](#))

## **وهم:**

محمد القباطي، اليمن  
أديب أبوراس، سُورِيَا  
أحمد محمد عميش، مِصْرُ  
أحمد لحاف، لبنان  
غدير الجهني، السعودية  
حذيفة مُحمد، سُورِيَا  
علي ابن بطوطة، المغرب  
ماجد حنّا، مِصْرُ  
طلال حسن، سُورِيَا  
مروة قواس، سُورِيَا  
محمد ماهر، مِصْرُ  
مروة جمال، مِصْرُ  
السيد جواد محمد، البَحْرَيْن  
تيسير عثمان، مِصْرُ  
طارق دردوري، الجَزَائِر  
فتح الله الرحماوي، المغرب  
عبادة سهوان، سُورِيَا  
محمد بدوي، مِصْرُ  
ضحى محمد، السعودية  
ريام عيسى، العراق  
سماهر، العراق

## **قام بعمل استثنائي:**

محمد بدوي، مصر

عبادة سهوان، سوريا

طارق دردوري، الجزائر

**تصميم الغلاف: احمد لحاف**

**تنسيق: ماجدة**



دافيد فرومكين  
سَلام ما بعده سَلام  
ولادة الشرق الأوسط 1914-  
1922

ترجمة: أسعد كامل اليّاس

**A PEACE TO END ALL PEACE**  
**Creating The Modern Middle EAST**  
**1922 -1914**  
**:By**  
**DAVID FROMKIN**

**«بعد الحرب التي قُصد بها انتهاء الحروب، يبدو انهم نجحوا في بارييس نجاحًا تامًا في تحقيق «سلام ينهي السلام»».**

إرشيبالد ويفل (في ما بعد الفيلد مارشال إيرل ويفل)،

الضابط الذي خدم تحت قيادة اللنبي في حملة فلسطين،

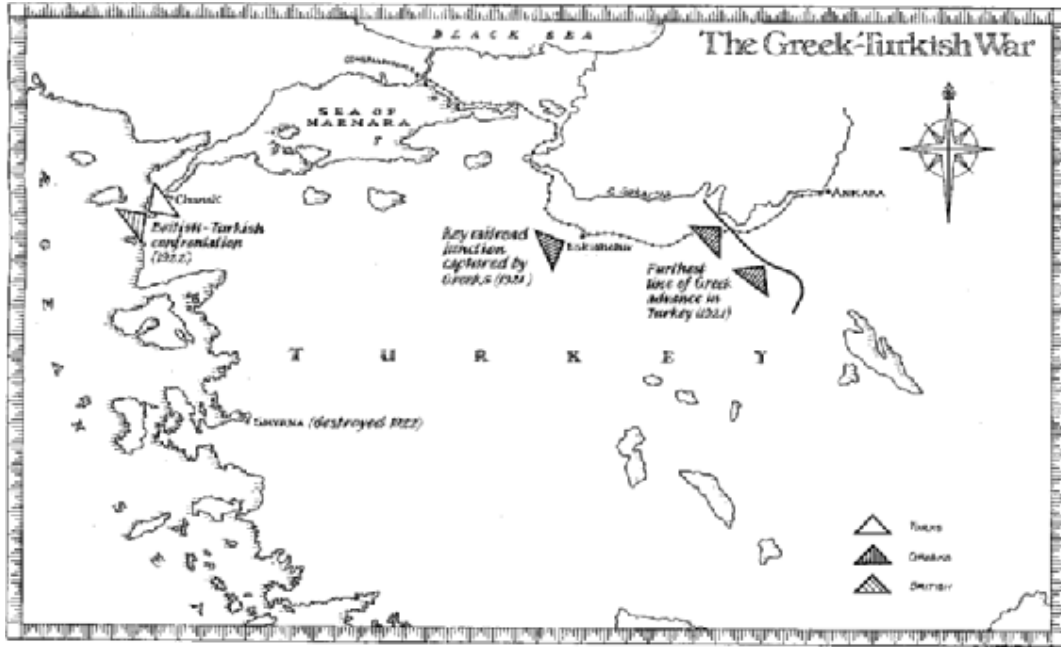
تعقيبًا على المعاهدات التي وُضعت نهاية للحرب العالمية الأولى.

## خريطه: الحملة في آسيا الوسطى





## خريطة: الحرب التركية اليونانية (1919-1922)



## مقدمة

الشرق الأوسط، كما نعرفه من العناوين الرئيسة للصحف حالياً، انبثق من قرارات اتخذها الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها. وفي هذا الكتاب شرعْتُ في سرد القصة التي تروي في مجلد واحد كيف ولماذا - ومن منطلق أية آمال ومخاوف ومشاعر محبة وكره واخطاء وحالات سوء تفاهم - اتخذت تلك القرارات.

إن الروايات الرسمية الروسية والفرنسية لما كانوا يفعلونه آنذاك في الشرق الأوسط كانت - وهذا ليس بالأمر غير الطبيعي - من عمل الدعاية. والروايات الرسمية البريطانية - بل والمذكرات اللاحقة التي كتبها المسؤولون المعنيون - لم تكن صادقة أيضاً. فالمسؤولون البريطانيون الذين قاموا بدور رئيس في اتخاذ تلك القرارات قدّموا لنا رواية للأحداث كانت في أحسن حالاتها موجهة حسب أهوائهم وفي أسوأ حالاتها من صنع الخيال. فقد سعوا لإخفاء دس أنوفهم في الشؤون الدينية الإسلامية وللتظاهر بأنهم دخلوا الشرق الأوسط بصفتهم أولياء أمر الاستقلال العربي - وهذا الاستقلال قضية لم يؤمنوا بها في الواقع.

علاوة على ذلك، فإن الثورة العربية، التي شكلت محور حكايتهم لم تحدث في الواقع بقدر ما حدثت في خيال توماس ادوارد لورنس العجيب. فقد كان لورنس راوية حكايات خيالية، وقد جعل منه مخرج العروض المسرحية الأميركي (لويل توماس) «لورنس العرب».

أما الحقيقة فقد تكتشفت على مدى عقود من السنين تتفاً تتفاً، ثم تكتشفت، في نهاية الأمر، في كومة كبيرة، عقب فتح محفوظات (أرشيف) الوثائق الرسمية والأوراق الخاصة التي ظلت حتى الآن سرية، وبدا لي - عام 1979، عندما بدأت هذا البحث - أننا وصلنا إلى نقطة يمكن عندها رواية القصة الحقيقية لما حدث. ولهذا شرعت في كتابة هذا الكتاب.

لقد دأبت خلال العقد الماضي على قراءة المحفوظات ودرست ما توفر من مؤلفات، وجمعت ما توصل اليه الدارسون الحديثون بغية إظهار الصورة التي تتشكل عندما نضع قطع لعبة الأحجية في أمكنتها. إن المؤلفين الذين استشهدت بأعمالهم في حواشي الكتاب حققوا معظم الاكتشافات الجديدة، مع أنني أيضاً حققت بعض الاكتشافات الجديدة: مثلاً، ما الذي يمكن أن يكون قادة حزب تركيا الفتاة قد فعلوه من أجل اقناع الألمان بالتحالف معهم بتاريخ 1 آب (أغسطس) 1914؟ وهل يمكن أن يكون المفاوض العربي

الفاروقي قد رسم خطأً عبر داخل سورية باعتبار أن هذا الخط يشكل حداً للاستقلال الوطني العربي.

ثم إنني أيضاً قد أكون أول من حل ألغاز حالات سوء التفاهم العديدة، أو على الأقل لفت الانتباه إليها، تلك الحالات من سوء التفاهم التي أشعلت في عام 1916 صراعاً خفياً داخل جهاز البيروقراطية البريطانية بين (سير مارك سايكس) مسؤول شؤون الشرق الأوسط في لندن، وصديقه (جيلبرت كلايتون) رئيس المخابرات في القاهرة. وقد تبين لي أن لا سايكس ولا كلايتون أدرك قط أن سايكس، في مفاوضات عام 1916 مع فرنسا، أخطأ في فهم ما طلب منه كلايتون أن يفعله. ذلك أن سايكس فعل العكس تماماً معتقداً بكل براءة أنه كان ينفذ رغبات كلايتون، في حين أن كلايتون شعر شعوراً أكيداً أن سايكس قد خذله عامداً. وبما أن كلايتون لم يفتح سايكس بالأمر، فقد ظل سايكس يجهل أن خلافات قد نشأت بينه وبين زميله، وهكذا ظل سايكس يعتقد خطأً في الشهور والسنين التي تلت ذلك أنه وكلايتون ما زالا على وفاق، في حين أن كلايتون أصبح في الحقيقة خصماً لسياسته داخل الجهاز البيروقراطي - ولعله كان الخصم الأخطر.

لقد كانت إحدى محاولاتي الرئيسة أن أضع السياسة البيروقراطية في إطارها الصحيح - وأمل أن أكون قد وفقت في ذلك. ولكنني حاولت ألا أكتفي بإيضاح عمليات ووقائع محددة. إن الغاية من هذا الكتاب هي إعطاء مشهد فسيح لما كان يحدث للشرق الأوسط بكامله، وتبيان أن إعادة تشكيله كان عملاً من أعمال سياسة القوى الكبرى في زمن فريد:

أي في اللحظة عينها التي كانت عندها موجات التوسع الامبراطوري الأوروبي تندفع إلى الأمام لتبلغ ذروتها، ثم شعرت هذه الموجات بأولى عوامل الجذب القوية للمد الذي سوف يصدها ويعيدها إلى الوراء.

والشرق الأوسط، كما أتصوره، لا يعني فقط مصر وإسرائيل وإيران وتركيا والدول العربية الآسيوية، بل يعني أيضاً آسيا الوسطى السوفياتية وأفغانستان، أي كامل الساحة التي حاربت فيها بريطانيا، بدءاً من الحروب النابوليونية، لحماية طريق الهند من هجمات فرنسا أولاً ثم هجمات روسيا في ما أصبح يعرف باسم «اللعبة الكبرى».

إن الدراسات الأخرى المتعلقة بالحرب العالمية الأولى وعاقبتها في المنطقة كانت تميل إلى معالجة شؤون بلد واحد أو منطقة واحدة. وحتى الذين عالجوا السياسية الأوروبية في الشرق العربي أو الشرق التركي بأكمله، قد ركزوا، مثلاً، على دور بريطانيا وحده، أو ري بريطانيا وفرنسا. أما أنا فأضع خلق الشرق الأوسط الحديث في إطار أوسع: ذلك أنني أرى أن ما حدث هو ذروة اللعبة الكبرى في القرن التاسع عشر، ولذلك فإنني

أَيِّنَ أن روسيا، أيضاً لعبت دوراً رئيساً في القصة. وبسبب روسيا كلياً أو جزئياً، شرع كيتشنر ينشئ تحالفاً بريطانياً مع العالم العربي الإسلامي. وبسبب روسيا قررت بريطانيا وفرنسا احتلال الشرق الأوسط واقتسامه، مع أنهما كانتا تفضلان الاحتفاظ بالإمبراطورية التركية في المنطقة. وبسبب روسيا أعلنت وزارة الخارجية البريطانية جهاراً تأييد بريطانيا للإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين، ثم للسبب نفسه شعر عدد من المسؤولين البريطانيين، بعد الحرب، أن بريطانيا مضطرة لأن تشكل حاجزاً في الشرق الأوسط لصد الحملة البلشفية. ومع ذلك، حسب علمي، هذا أول كتاب يروي القصة على أنها قصة الشرق الأوسط بمفهومها الأوسع؛ مفهوم «اللعبة الكبرى» التي تلعب فيها روسيا دوراً مركزياً.

وسترون عند قراءة الكتاب أن شخصيات الشرق الأوسط، وظروفه، وثقافته السياسية لا تبرز كثيراً في رواية الكتاب إلا عندما أَيْنَ الخطوط العامة والأبعاد لما أهمله السياسيون الأوروبيون عندما كانوا يتخذون قراراتهم.

هذا الكتاب يتناول عملية اتخاذ القرارات. وفي المدة 1914 - 1922 كان الأوروبيون والأميريكيون الوحيدين الذين جلسوا حول الطاولة عندما اتخذت القرارات.

لقد كان عصراً اصطُنعت فيه بلدان الشرق الأوسط وحدوده في أوروبا. فالعراق وما نسميه الآن الأردن، على سبيل المثال، هما اختراعا بريطانيا، والخطوط رُسمت على خارطة بيضاء من قبل سياسيين بريطانيين بعد الحرب العالمية الأولى، بينما أنشئت حدود المملكة العربية السعودية، والكويت والعراق من قبل موظف مدني بريطاني عام 1922. ورسمت فرنسا الحدود بين المسلمين والمسيحيين في سوريا ولبنان. ورسمت روسيا الحدود بين المسلمين والمسيحيين في أرمينيا وأذربيجان السوفياتية.

وقد اعتقدت الدول الأوروبية آنذاك أن باستطاعتها أن تغيّر آسيا الإسلامية في صميم أساسيات وجودها السياسي، وإذ حاولت الدول الأوروبية هذا التغيير فقد استحدثت نظام دول مصطنعة في الشرق الأوسط، مما جعل منه منطقة لبلدان لم تصبح أمماً حتى يومنا هذا. لقد وضع الروس موضع المسألة أساس الحياة السياسية في الشرق الأوسط - أي الدين - فاقترحوا الشيوعية، وفعل مثلهم البريطانيون فاقترحوا القومية أو الولاء للأسر الحاكمة، عوضاً عن الدين. إن إيران الخميني في العالم الشيعي والإخوان المسلمين في مصر وسورية وغيرهما من العالم السني قد أبقيا هذه القضية حية. وأما الحكومة الفرنسية التي سمحت فعلاً للدين أن يكون



أساس السياسة - حتى أساس السياسة الفرنسية - فقد ساندت طائفة ضد طوائف أخرى، وهذه أيضاً قضية أقيمت حية، لا سيما في النزاع الطائفي الذي دمر لبنان في السبعينيات والثمانينيات.

ويبدو لي أن عام 1922 كان نقطة اللاعودة من حيث وضع مختلف العشائر في الشرق الأوسط على طرقها المؤدية إلى التصادم، مما يعني أن ما تتسم به السنوات التي يُعنى بها هذا الكتاب، من إثارة للاهتمام، أي السنوات من 1914 إلى 1922، سببه أنها كانت سنوات إبداع وتشكيل بدا فيها (وربما كان الأمر كذلك فعلاً) كل شيء ممكناً. كان ذلك زمناً اعتقد فيه الأوروبيون، وليس بغير أساس للتصديق، أن القوميتين العربية واليهودية هما حليفتان طبيعيتان، وكان زمناً كان فيه الفرنسيون، وليس العرب، أعداء الحركة الصهيونية الخطرين، ولم يكن النفط آنذاك عاملاً هاماً من عوامل السياسة في الشرق الأوسط.

يبدو أن الخيارات ضاقت والمناهج تحددت مع حلول عام 1922. لقد بدأ الشرق الأوسط في ذلك العام السير على طريق كان من شأنه أن يقود إلى حروب لا نهاية لها (من ضمنها الحروب بين إسرائيل وجاراتها، وبين الميليشيات المتناحرة في لبنان) ويقود أيضاً إلى أعمال إرهاب دائمة التصاعد (أعمال خطف واغتيال ومجازر عشوائية) مما شكل سمة مميزة للحياة الدولية في السبعينيات والثمانينيات، وهذا كله جزء من تركة التاريخ الذي يعاد سرده على صفحات هذا الكتاب.

يروى هذا الكتاب قصتين لا تلبثان أن تندمجا في قصة واحدة. تبدأ القصة الأولى بقرار اللورد كيتشنر عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، تقسيم الشرق الأوسط بعد الحرب بين بريطانيا وفرنسا وروسيا، وبتعيينه (سير مارك سايكس) لإعداد التفصيلات، ويقتفي الكتاب أثر سايكس خلال سنوات الحرب وهو يعدّ الصيغة البريطانية لمستقبل الشرق الأوسط. ويمضي الكتاب فيبين أن البرنامج الذي صاغه سايكس تحقق، في جزء كبير منه، بعد الحرب، وأنه تجسد في وثائق أقرت رسمياً (في الجزء الأكبر منها) عام 1922.

هذه هي القصة التي انطلقت أصلاً لكتابتها. وكانت الغاية منها إظهار أنه إذا وضعنا عدداً من وثائق وقرارات 1922 معاً: إعلان اللوبي الذي أوجد استقلالاً اسمياً لمصر، الانتداب على فلسطين والكتاب الأبيض الذي وضعه تشرشل بشأن فلسطين (ومنه انبثقت إسرائيل والأردن)، المعاهدة البريطانية التي أوجدت مكانة للعراق، الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان، وضع بريطانيا ملكين جديدين على عرش مصر وعرش العراق ورعايتها أميراً بصفته حاكماً جديداً لما سيصبح الأردن، والإعلان الروسي عن

قيام اتحاد سوفياتي تعيد فيه روسيا تثبيت حكمها في آسيا الوسطى الإسلامية - هذه كلها سترون أنها إذا أخذناها معاً نجد أنها تعادل تسوية شاملة لمسألة الشرق الأوسط. علاوة على ذلك، فإن تسوية عام 1922 هذه (وقد أطلقت عليها هذا الاسم لأن معظم عناصرها تجمعت في ذلك العام أو نحوه) نبعت من مفاوضات زمن الحرب التي أجراها سير مارك سايكس مع فرنسا وروسيا من أجل الاتفاق على اقتسام الشرق الأوسط بعد الحرب بين هذه الدول، لقد نال الفرنسيون حصة أقل قليلاً مما اتفق عليه، وسمح للروس بالاحتفاظ فقط بما كانوا قد حصلوا عليه قبل الحرب، ولكن ظل محترماً مبدأ السماح لهم بأن يشتركوا مع بريطانيا في اقتسام وحكم آسيا الإسلامية. أما في دائرة النفوذ البريطاني فقد سار كل شيء وفق مخطط سايكس: لقد حكمت بريطانيا في الأغلب حكماً غير مباشر بصفة دولة حماية لبلدان عربية ذات أنظمة ملكية مستقلة استقلالاً اسمياً، وطرحت نفسها راعية القوميتين العربية واليهودية.

وإضافة إلى إثباتي أنه كانت هنالك تسوية عام 1922 في الشرق الأوسط، فإنني أبين في هذا الكتاب أن خصومتنا مع تلك التسوية (إلى حد أنه لو نظرنا إلى الوراء لكنا رسمنا الشرق الأوسط الجديد بصورة مختلفة) ليست هي ما نعتقد أحياناً أنها هي خصومتنا معها. بل إن الحكومة البريطانية لم تخفق آنذاك في استنباط تسوية تلبي احتياجات ورغبات شعوب الشرق الأوسط فحسب، وإنما حاولت أن تفعل شيئاً مختلفاً تماماً الاختلاف. وبالنسبة للورد كيتشنر ووكيله المفوض مارك سايكس كانت مسألة الشرق الأوسط هي ما كانته لأكثر من قرن: أي أين ينبغي رسم خط الحدود الفرنسية في الشرق الأوسط؟ وأهم من ذلك أين ينبغي أن يرسم خط الحدود الروسية في الشرق الأوسط؟

هذه، كما قلت، هي القصة التي انطلقت لأروها. ولكن في روايتي لها انبثقت قصة أخرى: قصة كيف تغيرت بريطانيا وغير المسؤولين والسياسيون البريطانيون أفكارهم في ما بين 1914 و1922، بحيث أنهم مع حلول عام 1922 - عندما ألزموا أنفسهم رسمياً ببرنامجهم لإعادة تكوين الشرق الأوسط - لم يعودوا يؤمنون بهذا البرنامج. وسنرى خلال رواية القصة أن الحكومة البريطانية للأعوام 1914 و1915 و1916، التي رحبت بوجودين روسي وفرنسي في الشرق الأوسط لما بعد الحرب، تتحول بعد الحرب إلى حكومة تعتبر روسيا في الشرق الأوسط خطراً وتعتبر فرنسا في المنطقة كارثة. وسنرى أن أنصار الصهيونية في عام 1917 يتحولون إلى معادين للصهيونية في عام 1921 وعام 1922، وأن المتحمسين لحركة فيصل العربية يتحولون خصوماً لفيصل باعتباره غير جدير بالثقة وخصوماً لشقيقه عبد الله باعتباره رجلاً لا أمل في أن يكون ذا فاعلية. وفق كل ذلك

سنرى بريطانيا تباشر مشروعاً امبراطورياً جديداً في الشرق الأوسط - مشروعاً يتطلب تحقيقه أجيالاً إذا كانت الغاية منه إعادة تكوين الشرق الأوسط على غرار إعادة تكوين الهند - وذلك في الوقت عينه الذي كان فيه الرأي العام البريطاني يتجه إلى سياسة خفض التزامات بريطانيا في ما وراء البحار ويقرر أنه لم يعد راعياً في مزيد من المغامرات الإمبراطورية.

ولعل أزمة التمدين السياسي التي يجتازها الشرق الأوسط الآن لا تنبثق فقط من تدمير بريطانيا للنظام القديم في المنطقة عام 1918، ومن قراراتها عام 1922 بشأن كيفية استبدال ذلك النظام، بل تنبثق أيضاً من غياب القناعة في السنين اللاحقة، ببرنامجهما الذي فرض التسوية عام 1922.

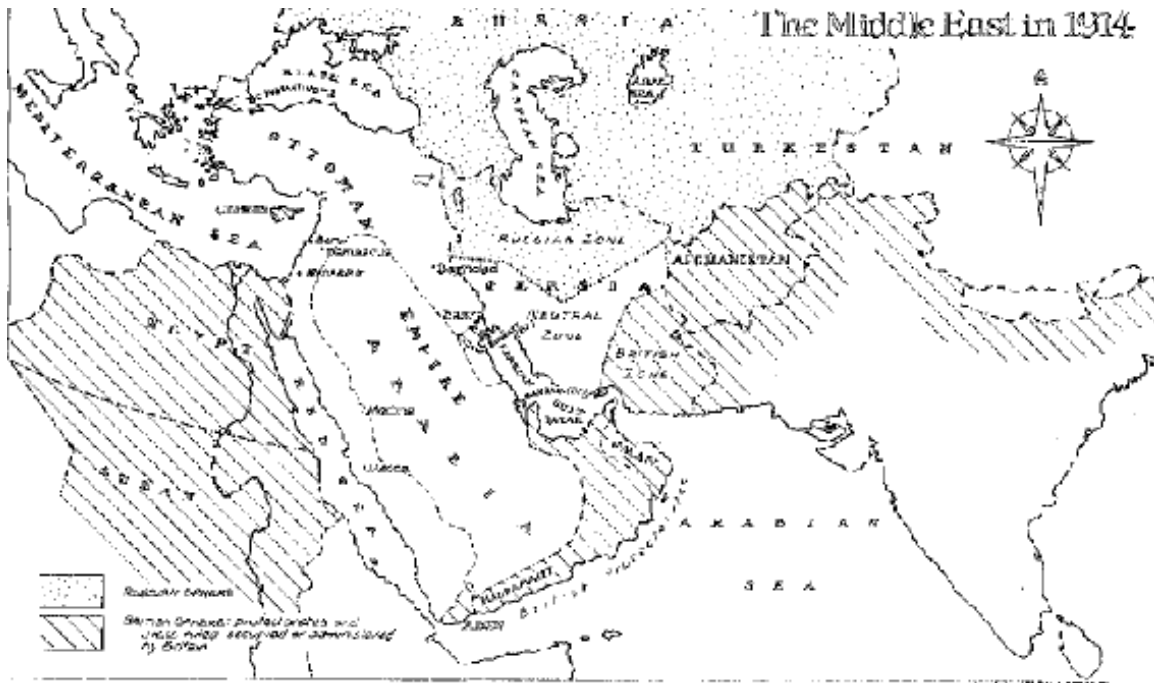
الكتاب الذي كان في نيتي أن أكتبه كان محصوراً بالطريقة التي عكفت بها أوروبا على تغيير الشرق الأوسط، فانهت بي الأمر إلى كتاب يعالج كيف تبدلت أوروبا في الوقت نفسه وكيف تفاعلت الحركتان.

إن لويد جورج، و وودرو ويلسون، و كيتشنر الخرطوم، ولورنس العرب، ولينين، وستالين، وموسوليني - وهم رجال كانت لهم يد في إعطاء القرن العشرين شكله - إنما هم ضمن أولئك الذين قاموا بأدوار قيادية في الدراما التي تتكشف أحداثها في كتاب (سلام ينهي كل سلام)، وكانوا رجالاً عملوا جاهدين لإعادة تكوين العالم في ضوء نظرتهم إليه. وفوق كل ذلك يبرز ونستون تشرشل على صفحات هذا الكتاب كشخصية طاغية بعثت عبقريته الروح في الأحداث. وصبغت شخصيته هذه الأحداث بصبغتها ومنحتها الحيوية.

بالنسبة لتشرشل، كما للويد جورج، وويلسون، ولينين، وستالين وآخرين - وكما لأشخاص مثل جان كريستيان سمطس، وليو إيميري، واللورد ميلنر - كان الشرق الأوسط عنصراً جوهرياً أو منطقة تجارب لنظرتهم إلى العالم. كانت رؤيتهم لمستقبل الشرق الأوسط أساسية في فكرتهم عن نوع القرن العشرين الذي اعتقدوا اعتقاداً شديداً أنه سينبثق أو ينبغي أن ينبثق كطائر الفينيق من رماد الحرب العالمية الأولى. وبهذا المعنى.

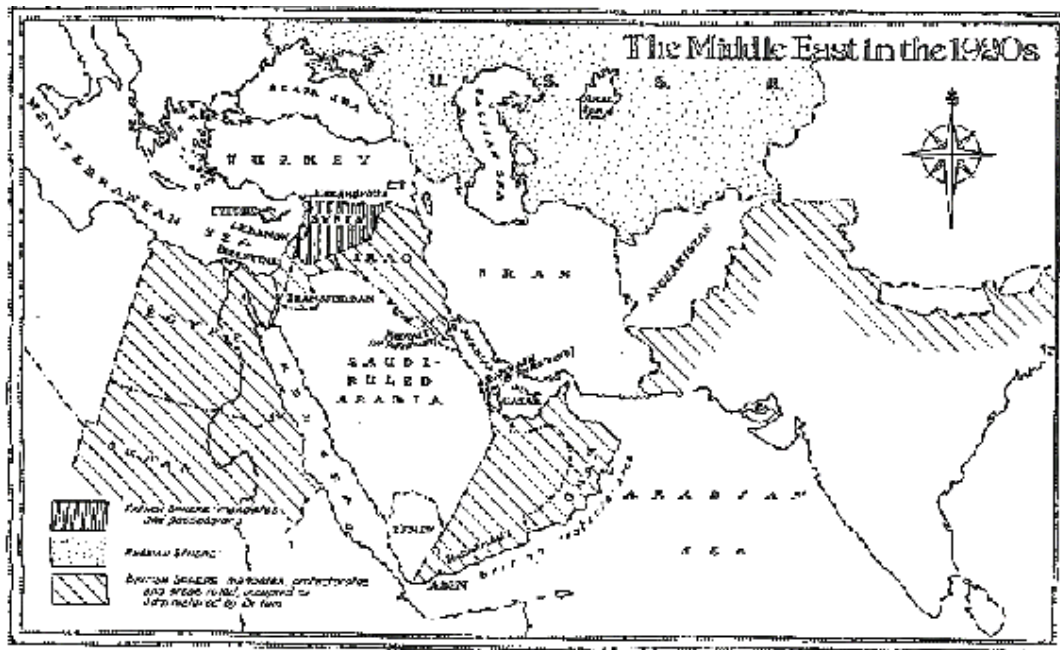
فإن التاريخ الذي تعيد روايته صفحات هذا الكتاب هو قصة خلق القرن العشرين وكذلك خلق الشرق الأوسط الحديث.

# الشرق الأوسط عام 1914





# الشرق الأوسط عام 1920



# الجزء الأول

## عند مفترق الطرق في التاريخ

# الفصل الأول

## آخر أيام أوروبا القديمة

### (1)

في أواخر ربيع عام 1912، أبحر اليخت الرشيق انشانترس من ميناء جنوا بجوّه الممطر، منطلقاً في نزهة بحرية في البحر الأبيض المتوسط - كانت رحلة خلواً من الهموم، لا جدول زمنياً لها ولا خط سير محدد. وما إن ابتعد اليخت جنوباً حتى ازدادت السماء بهاء، وسرعان ما كان اليخت يستحم بأشعة الشمس.

كان اليخت انشانترس ملكاً للأميرالية البريطانية. أما الإقامة على متنه فكانت بما هي عليه من فخامة، صنو الإقامة على يخت الملك الخاص. وناهز عدد بحارته المئة، كانوا في خدمة نحو اثني عشر ضيفاً جاؤوا من بريطانيا عبر باريس، حيث حلوا في فندق ريتز، بين هؤلاء الضيوف رئيس وزراء بريطانيا، هيربرت اسكويث، وابنته الفاتنة فيوليت، وكانت في الخامسة والعشرين من عمرها. وبينهم أيضاً رئيس الاميرالية المدني، ونستون تشرشل، ومجموعة صغيرة من أفراد أسرته والمقرّبين إليه من الزملاء. وقد كانوا خلال سنوات العزّ الأخيرة، قبل أن تضع الحرب العالمية الأولى نهاية لعالمهم، من أكثر الفئات التي عرفها العالم حظاً وتمتعاً بالامتيازات.

كانت فيوليت اسكويث تحتفظ بمفكرة تدوّن فيها ملاحظاتها خلال الرحلة. وعند الوصول إلى بومبي تجولت هي وأصدقائها «في الشوارع الطويلة الجميلة التي لفها السكون» والتي كانت ذات يوم تنبض بحياة روما الإمبراطورية. أما الآن، كما ذكرت في مفكرتها، فقد نما العشب في هذه الشوارع التي كانت تضجّ بالحياة<sup>[1]</sup>. وفي صقلية تسلق مرافقوها خرائب قلعة يونانية قديمة، وتناولوا، وسط زهور اللاوند والأعشاب البرية، غداءً خفيفاً مما يتناوله الناس في النزهات، وهم جلوس على كتل من الحجارة تساقطت من جدران القلعة. بعد ذلك صعدوا إلى موقع أعلى ليرقبوا غياب الشمس فوق صفحة ماء البحر، من مكانهم بين خرائب المسرح اليوناني القديم القائمة على المرتفعات التي صعدوا إليها. وهناك استلقوا «وسط عطر السعتر البري وطنين النحل، وأخذوا يرقبون تبدل لون البحر من

الأزرق إلى الناري ثم إلى الأخضر الزمردي فيما كانت الشمس تغطس في البحر والنجوم تظهر في السماء»[2].

آن دورات الفلك - التحركات السماوية التي تسبب تبدل الليل والنهار وفصول السنة من ربيع وصيف إلى خريف وشتاء - قد وجدت انعكاساً لها في ملاحظات فيوليت عن المشاهد على الأرض والأضواء التي تغمرها. إن إحساس فيوليت بزوال الحضارات والقوى السياسية وسيطرة الأقوياء، لم تحجب نشوتها وابتهاجها برحلتها وهي في سن الشباب إلى أراضى الماضي العتيق. لقد كان والدها يرأس إمبراطورية تكاد تبلغ ضعف مساحة الإمبراطورية الرومانية في أوجها، ولعله تراءى لها أن إمبراطورية والدها ستستمر ضعفي عمر الإمبراطورية الرومانية.

أما والدها رئيس الوزراء، فقد كان شديد الحرص على أن يتمتع نظره بالمشاهد التي يراها، فلا يفارقه الكتاب الدليل تأليف بايدكر، وكان متقد الحماسة للآداب القديمة، يقرأ ويكتب اليونانية واللاتينية الكلاسيكية بيسر وسرور، أما ونستون تشرشل الذي لم يكن ضليعاً باللغات أو الآداب القديمة، فكان يغار غير الأولاد. فقد قال: «هؤلاء الإغريق والرومان، ثمة مبالغة في تقديرهم، كل ما في الأمر أنهم كانوا الأوائل في قول كل شيء. أنا نفسي قلت أشياء لا تقل جودة. ولكنهم سبقوني»[3].

كتبت فيوليت في مفكرتها: «عبثاً نؤه والدي بأن العالم مضى في مسيرته زمناً طويلاً قبل ظهور الإغريق والرومان على مسرح الحياة»[4].

لقد كان رئيس الوزراء مفكراً، مدركاً أن الاتجاه بين مؤرخي العالم القديم يميل إلى النأي عن حصر اهتمامهم بحضارتي الإغريق والرومان الأوروبيتين، وقد نالت قبولاً واسعاً مقولة الأستاذ الأميركي جيمس هنري بريستد أن المدينة الحديثة - أي المدينة الأوروبية - لم تكن بداياتها في اليونان وروما، بل في الشرق الأوسط: في مصر وبيهودا، وبابل وأشور، وسومر وأكد. هذه المدينة الحديثة - التي تمتد جذورها آلاف السنين في غابر القرون، وفي تربة تلك الممالك الشرق أوسطية التي اندثرت منذ زمن بعيد - إنما كان يُنظر إليها على أنها بلغت أوجها في سيادة الشعوب الأوروبية، وأفكارها المثلى ونمط حياتها، على الكرة الأرضية.

كان أمراً مألوفاً في بدايات القرن العشرين، عندما كان تشرشل وضيوفه يمضون الوقت في رحلتهم على متن اليخت انشانترس، أن يفترض المرء أن الشعوب الأوروبية ستواصل القيام بدور السيطرة الذي تمارسه في الشؤون العالمية إلى أبعد ما تستطيع البصيرة أن ترى. وكان من الشائع أيضاً الافتراض أن الشعوب الأوروبية بعد أن أنجزت معظم ما اعتبره



كثيرون رسالة الغرب التاريخية - أي تحديد المصير السياسي للشعوب الأخرى على الكرة الأرضية - فلا بد أنها متممة هذه الرسالة. وكانت بلدان الشرق الأوسط بارزة بين البلدان التي كان على الأوروبيين التعامل معها، إذ هي بين قلة من المناطق المتبقية على كوكبنا دون أن يعاد تكوين شكلها اجتماعياً وثقافياً وسياسياً على صورة أوروبا ومثالها.

## (2)

ومع أن الشرق الأوسط كان خلال القرن التاسع عشر موضع اهتمام عظيم من قبل الدبلوماسيين والسياسيين الغربيين؛ إذ هو ساحة تجري على أرضها منافسات اللعبة الكبرى، فقد تضاعف اهتمامهم به وصار هامشياً في السنوات الأولى من القرن العشرين، عندما بدا أن تلك المنافسات وجدت طريقها إلى الحل. لقد أصبحت المنطقة منطقة راکدة سياسياً، وكان الرأي أن الدول الأوروبية ستضع يدها على المنطقة يوماً ما، ولكن زال الشعور بأن هذا أمر ملح.

قلة من الأوروبيين من جيل تشرشل كانت تعرف، أو يهتمها، ما يجري في إمبراطوريتي السلطان العثماني والشاه الفارسي السقيمتين. قد تحدث من حين إلى آخر مذبحة للأرمن على أيدي الأتراك فيتعالى صراخ الرأي العام في الغرب، ولكن الاهتمام بها لا يدوم أكثر مما كان يدوم الاهتمام بمذابح اليهود على أيدي الروس.

أما رجال الدولة الدنيويون، فكانوا في دخيلة نفوسهم يعتقدون أن ليس ما يمكن عمله، ولكنهم تجاوباً مع عواطف الرأي العام كانوا يحثون السلطان على تنفيذ إصلاحات، ثم يقف الأمر عند هذا الحد. والصورة التي ارتسمت في أذهان الأوروبيين عن شؤون المنطقة هي صورة مكائد تدبر في بلاط السلطان، وجهاز حكومي فاسد، وتحالفات قبلية متبدلة، وشعب فاجر الهمة عديم المبالاة. ولم يكن في الصورة إلا القليل مما يجعل الإنسان العادي الذي يعيش في لندن أو باريس أو نيويورك يعتقد أن ذلك يؤثر على حياته أو مصالحه. ومع أن المخططين في برلين تطلعوا إلى إنشاء خطوط سكك حديدية وفتح أسواق جديدة في المنطقة، فقد كانت هذه مشاريع تجارية [5].

ولم تكن قد تأججت بعد المشاعر التي استحوذت على اهتمام الجنود والإرهابيين، والتي ساقطهم ليكونوا قاتلين أو مقتولين.

في الوقت عينه، كانت الخريطة السياسية للشرق الأوسط تبدو مختلفة عما هي الآن. فلم تكن قد وجدت بعد إسرائيل، والأردن، وسورية، والعراق، والمملكة العربية السعودية. كان معظم الشرق الأوسط لا يزال على حاله، مثلما كان على مدى قرون، مستكيناً تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية المصاية بالمرض والاهمال، أي منطقة هادئة نسبياً يتحرك فيها التاريخ، ككل شيء آخر، حركة متمهلة.

أما الآن، وقد أشرف القرن العشرون على ختامه، فإن سياسات الشرق الأوسط تقدم لنا وجهاً مختلفاً كل الاختلاف: انها قابلة للانفجار، وما من أحد قام بدور أكثر حسماً - أحياناً من دون قصد - في ولادة الشرق الأوسط، الذي نتعايش معه حالياً، من الدور الذي قام به ونستون تشرشل، الذي كان قبل الحرب العالمية الأولى سياسية انكليزية صاعداً ولكنه كان موضع ريبة، ولم يكن عنده اهتمام خاص بآسيا الاسلامية. إن مصيراً عجيباً دفع بتشرشل والشرق الأوسط إلى تدخل أحدهما تكراراً بحياة الآخر السياسية. ولم يحدث ذلك دون أن يترك أثراً؛ فثمة خطوط حدود مرتسمة الآن على صفحة الشرق الأوسط؛ هي ندب خلفتها تلك المجابهات معه.

# الفصل الثاني

## تركة اللعبة الكبرى في آسيا

### (1)

قُيِّض لكل من تشرشل، واسكويث وزملاء لهما في مجلس الوزراء، كوزير الخارجية سير ادوارد غراي، ووزير المالية ديفيد لويد جورج، وفي ما بعد وزير الحربية اللورد كيتشنر، أن يقوم بدور حاسم في خلق الشرق الأوسط الحديث، وهم في أدائهم لهذه الأدوار لم يستطيعوا التخلص من تركة سياسية ورثوها من العصر الفيكتوري، ظنت حكومة حزب الأحرار برئاسة اسكويث أنها نبذتها. ذلك أن اسكويث وغراي، بعد أن أدارا الظهر لمزاحمة القرن التاسع عشر مع فرنسا وروسيا في الشرق الأوسط، اعتقدا أن بمقدورهما أن يبتعدا عنها، فإذا بالأحداث تثبت خطأهما.

## (2)

إن الصراع على الشرق الأوسط، الذي زج بريطانيا في مزاحمة منافساتها الأوروبية، إنما كان نتيجة التوسع الإمبراطوري الذي مهدت له الرحلات البحرية التي قام بها كولومبوس، وفاسكو دي غاما، وماجيلان، ودريك. فبعد اكتشافها الطرق البحرية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، راحت الدول الأوروبية تتبارى في السيطرة على بقية العالم. وكانت انكلترا متأخرة نسبياً في دخول هذه المباراة، ولكنها ما لبثت أن برزت البلدان الأخرى.

ونجحت الجزر البريطانية خلال القرن الثامن عشر، بالرغم من صغر حجمها، في تأسيس إمبراطورية مترامية الأطراف تحيط بالكرة الأرضية. وصار البريطانيون، شأنهم شأن الإسبان والهولنديين من قبل، يتباهون بأن عاهلهم يملك ممتلكات لا تغيب عنها الشمس. وعندما كان ونستون تشرشل وهيربرت اسكويث يتنزهان في نزهتهما البحرية على متن اليخت انشانتيرس عام 1912، كان ملكهما، جورج الخامس، يحكم ربع مساحة اليابسة على الكرة الأرضية.

ولم يفخر البريطانيون بأي من فتوحاتهم قدر فخرهم بفتوحات الشرق التي رويت عنها القصص. غير أن هذه الانتصارات لم تخلُ من غرابة. ذلك أن بريطانيا إذ برزت فرنسا في آسيا والمحيط الهادي، وتوجت هذا الانجاز بامتلاك الهند، مددت خط مواصلاتها واتصالاتها بعيداً جداً بحيث صار بالإمكان قطعه في نقاط عديدة.

لقد كشف نابوليون بوناپرت نقطة الضعف هذه عام 1798 عندما غزا مصر وزحف على سورية؛ وكان في نيته، كما قال في ما بعد، أن ينطلق من سورية على طريق الأساطير والمجد، ماراً ببابل، إلى الهند. ومع أن خطط نابوليون قد خابت، فإنه أقنع في ما بعد القيصر الروسي بولس المعتوه بأن يرسل جيشه على الطريق عينها.

وكان رد بريطانيا على هذا الوضع هو أن تساند أنظمة الحكم الأهلية في الشرق الأوسط لمنع التوسع الأوروبي. فلم تكن هي راغبة في السيطرة على المنطقة، بل كان همها أن تحول دون سيطرة دولة أوروبية أخرى عليها.

وهكذا اتبعت الحكومات البريطانية المتعاقبة طوال القرن التاسع عشر سياسة دعم الممالك الإسلامية المتهاوية في آسيا، لحمايتها من التدخل والتخريب والغزو من قبل الدول الأوروبية.

وهي إذ سارت على هذا النهج سرعان ما وجدت أن الإمبراطورية الروسية هي خصمها الرئيس، فأصبح دحر الأهداف الروسية في آسيا هاجس أجيال من المسؤولين المدنيين والعسكريين البريطانيين. وصارت محاولة دحر هذه الأهداف بالنسبة إليهم «اللعبة الكبرى»<sup>[6]</sup> والرهانات فيها عالية. وقد حدّد جورج كورزون، الذي شغل مستقبلاً منصب نائب الملك في الهند، الرهانات تحديداً واضحاً: «تركستان، وأفغانستان، وما وراء بحر قزوين وبلاد فارس (وهذه أسماء لا توحى إلا بالبعد المطلق) وأعترف أنها، بالنسبة لي، بيدق على رقعة الشطرنج واللعبة التي تدور على هذه الرقعة هي لعبة السيطرة على العالم»<sup>[7]</sup>. أما الملكة فكتوريا، فكانت أوضح تعبيراً، إذ قالت أن المسألة هي «مسألة السيادة الروسية أو البريطانية على العالم»<sup>[8]</sup>.

### (3)

يبدو أن ضابطاً بريطانياً يدعي آرثر كونولي هو أول من أطلق تسمية «اللعبة الكبرى». وقد لعبها بشهامة على حدود جبال الهمالايا وفي صحاري وواحات آسيا الوسطى، وخسر اللعبة بطريقة مروعة: فقد حبسه أمير أوزبكي شهرين في بئر ملأى بالقوارض والزواحف. وما بقي من جثته بعد الشهرين انتشل وضرب عنق الجثة. وقد عثر على عبارة «اللعبة الكبرى» في أوراقه واقتبسها أحد مؤرخي الحرب الأفغانية الأولى [9]. ثم أكسبها روديارد كيبلنغ شهرة في روايته «كيم»، وهي قصة صبي هندي \_ انكليزي ومرشده الأفغاني اللذين أحبطا المكائد الروسية على الطرق المؤدية الى الهند [10].

بداية اللعبة كانت قبل عام 1829، عندما شرع دوق ولينغتون، الذي كان آنذاك رئيساً للوزراء، في مراسلات رسمية تبحث موضوع أفضل سبيل لحماية الهند من هجوم روسي عبر أفغانستان. وكان الرأي أن الطريقة المثلى هي إبعاد روسيا عن أفغانستان. وهكذا صارت استراتيجية بريطانيا منذئذ استخدام أنظمة الحكم الهرمة في آسيا الإسلامية كحاجز ضخم بين الهند البريطانية من جهة، وطريقها إلى مصر والخطر الروسي من جهة أخرى، وقد اقترنت هذه السياسة خصوصاً باسم اللورد بالمرستون، الذي طورها على مدى سنين عديدة بصفته وزيراً للخارجية (1830 - 1834، 1836 - 1841 و 1846 - 1851) ثم بصفته رئيساً للوزراء (1855 - 1858 و 1859 - 1865).

لقد احتدمت معركة تأييد أنظمة الحاجز الصديقة، بحدة شديدة عند طرفي القارة الآسيوية الغربي والشرقي، حيث كان السباق على السيطرة على مواقع استراتيجية. أما في غرب آسيا فقد كان مركز الاهتمام الاستراتيجي هو القسطنطينية (استانبول)، بيزنطة القديمة، التي تحكمت منذ قرون بمفترق الطرق في السياسة العالمية. فهي بموقعها عند مضائق الدردنيل تتحكم بالمرور شرقاً / غرباً بين أوروبا وآسيا، وشمالاً / جنوباً بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود.

وما دامت القسطنطينية لم تنتقل الى أيدي غير صديقة، كان باستطاعة الأسطول البريطاني القوي أن يبحر عبر الدردنيل إلى البحر الأسود ليفرض سيطرته على خط الساحل الروسي. أما إذا قُدِّر للروس أن يستولوا على المضائق، فعندها لن يمنعوا الأسطول البريطاني من الوصول الى البحر الأسود فحسب، بل يستطيعون أيضاً أن يرسلوا أسطولهم عبر المضائق إلى

البحر الأبيض المتوسط، وهناك يستطيع وجوده أن يهدد شريان الحياة البريطاني.

أما عند الطرف الأبعد للقارة الآسيوية، فإن مكان الاهتمام الاستراتيجي هو سلاسل الجبال الشاهقة الواقعة داخل أفغانستان والملاصقة لها، حيث يستطيع الغزاة أن يتدفقوا، عبر هذه الجبال، على سهول الهند البريطانية. وكان هدف بريطانيا في شرق آسيا أن تحول دون قيام أي شكل من أشكال الوجود الروسي على هذه المرتفعات المسيطرة على ما حولها.

ظل الصراع محتدماً بين بريطانيا وروسيا بين الدردنيل وجبال الهمالايا زهاء مئة عام، فيتخذ أحياناً شكل حرب باردة، وأخرى شكل حرب ساخنة، وكانت النتيجة نوعاً من التكافؤ.



## (4)

كانت هناك أمور حيوية يدور عليها الرهان في صراع بريطانيا الطويل مع روسيا. ومع أن بعض هذه الأمور كانت تتضاءل أهميته، فالبعض الآخر بقي وأضيفت إليه أمور أحدث عهداً.

لقد عبر وليم بيت، رئيس وزراء بريطانيا، في عام 1791 عن الخوف من أن تقلب الإمبراطورية الروسية ميزان القوى الأوروبي. وتجدد هذا الخوف بعد أن لعبت روسيا دوراً حاسماً في هزيمة نابليون النهائية في العامين 1814 - 1815، ثم عاد يتضاءل إثر هزيمة روسيا في حرب القرم. ومنذ عام 1830 فصاعداً، خشي اللورد بالمرستون وخلفاؤه أن تنشب حرب كبرى في السباق بين الدول الأوروبية على حيازة أجزاء الإمبراطورية العثمانية إذا ما تمكنت روسيا من تدمير هذه الإمبراطورية. ومنذئذٍ ظل هذا همّاً بريطانياً دائماً.

ومع انتصاف القرن التاسع عشر، أخذت التجارة البريطانية مع الإمبراطورية العثمانية تكتسب أهمية كبيرة، فأضيفت المسائل الاقتصادية إلى مواضيع الخلاف بين بريطانيا المنادية بحرية التجارة، وروسيا التي تطبق الحماية لمنتجاتها. ثم إن عمق ضلوع فرنسا وإيطاليا المالي في الشؤون العثمانية، وما أعقبه من توغل اقتصادي ألماني، قد جعل من المنطقة التي كانت تتصارع فيها روسيا وبريطانيا، حقل ألغام من المصالح الاقتصادية القومية.

لم يدخل النفط إلى الصورة إلا في مطلع القرن العشرين. ولكنه حتى في ذلك الحين لم يكن له دور كبير في اللعبة الكبرى، لأن قلة من السياسيين أدركت ما سيكون للنفط من أهمية، ولأنه لم يكن بعد معروفاً أن الشرق الأوسط يحتوي على النفط بهذه الضخامة. ومعظم استهلاك بريطانيا من النفط (أكثر من ثمانين بالمئة قبل الحرب العالمية الأولى وخلالها) كان مصدره الولايات المتحدة.

آنذاك كانت بلاد فارس البلد الوحيد في الشرق الأوسط المنتج لكمية تذكر من النفط، عدا روسيا، ولكن إنتاج فارس لم يكن ذا بال بمقياس الانتاج العالمي. ففي عام 1913 مثلاً كان إنتاج الولايات المتحدة من النفط أكثر من مئة وأربعين ضعفاً من انتاج فارس<sup>[11]</sup>.

ومنذ بداية اللعبة الكبرى وحتى زمن متقدم من القرن العشرين، كان الهم الأكبر للقادة البريطانيين هو سلامة الطريق إلى الشرق. وعندما لُقبت الملكة فيكتوريا بلقب إمبراطورة الهند في عام 1977 كان هذا اعترافاً رسمياً بنشوء نوع من الملكية المزدوجة في بريطانيا: الإمبراطورية

البريطانية وإمبراطورية الهند. وهكذا كان الخط الواصل بينهما شريان حياة، ولكن فوق هذا الخط كان سيف القياصرة الروس مصلتاً ويلقي ظلاً طويلاً عليه.

ولعل القادة البريطانيين لم يضعوا في حسابهم إمكانية أن يكون الروس بتوسعهم جنوباً وشرقاً مكرهين على هذا التوسع بحتميات تاريخية داخلية لا علاقة لها بالهند أو بريطانيا. فقياصرة روسيا ووزراؤهم كانوا مؤمنين أن فتوحاتهم في الجنوب والشرق هي قدر بلادهم، تماماً كمايمان الأميركيين آنذاك أن قدرهم الواضح هو الاستيلاء على الغرب. وفي كلتا الحالتين كان حلم الحالمين أن يملؤوا قارة بتمامها من المحيط إلى المحيط. وهذا ما بينه المستشار الإمبراطوري الروسي الأمير غورتشاكوف عام 1864 في مذكرة حددت أهداف بلاده. كانت حجتُه أن الحاجة إلى حدود أمنة هي التي تجبر الروس على الاستمرار في التهام أنظمة الحكم العفنة الواقعة إلى الجنوب من بلادهم. وقد نوه بأن: «الولايات المتحدة في أميركا، وفرنسا في الجزائر، وهولندا في مستعمراتها - قد سبقت جميعها إلى مسار للطموح فيه دور أصغر من دور الضرورة الملحة، وأصعب ما في الأمر معرفة نقطة التوقف» [12].

وهذا ما خشيه البريطانيون، كانت خشيتهم أن روسيا لا تعرف أين ينبغي لها أن تتوقف. ومع انهماك مجتمع ترقى ديموقراطيته رقباً متزايداً، جيلاً إثر جيل، في الصراع مع روسيا ذات النظام المستبد، نشأت في نفوس البريطانيين كراهية لروسيا تجاوزت حدود الخلافات السياسية والاقتصادية المحددة التي تفرق بين البلدين. لقد أخذ البريطانيون يكرهون الروس لا لمجرد ما يفعلون، وإنما لكونهم روساً.

بيد أن أعضاء حزب الأحرار البريطاني، داخل البرلمان وخارجه، أخذوا في الآن نفسه يعبرون عن مقتهم لأنظمة الحكم الفاسدة المستبدة في الشرق الأوسط، التي كانت الحكومة البريطانية تساندها لحمايتها من التهديد الروسي. وهذا المقت إنما كان يضرب على وتر حساس في أوساط الناخبين في البلاد. فالفضائع التي اقترفتها الإمبراطورية العثمانية وكانت الأقليات المسيحية ضحيتها، ندد بها تنديداً مدوياً زعيم حزب الأحرار وليم إيوارت غلادستون في حملته الانتخابية عام 1880 التي أسقط فيها رئيس الوزراء المحافظ بنيامين ديزرائيلي، إيرل بيكونسفيلد، فحل محله في رئاسة الحكومة.

لقد ادعى غلادستون أن نظام حكم السلطان العثماني «هوة لا قعر لها ملأى بالغش والتزوير» [13] فأعلن خلال ولاية حكومته التي استمرت من عام 1880 إلى 1885 براءة بريطانيا من العلاقة العثمانية، وسحبت الحكومة

البريطانية حمايتها لاستانبول ونفوذها فيها. ولما كان الأتراك عاجزين عن الصمود وحدهم، فقد اتجهوا إلى دولة أخرى طلباً للمساندة، إلى ألمانيا بسمارك. وهكذا حلت ألمانيا محل بريطانيا لدى الباب العالي.

وعندما عاد المحافظون إلى السلطة، كانت عودتهم بعد فوات الأوان للتراجع عن سياستهم. أن روبرت سيسيل، مركز سالزبوري الثالث (كان رئيساً للوزراء 1885 - 1886، 1886 - 1886، 1892 - 1895، 1900 - 1900 - 1902) أدرك أن الحكام العثمانيين يعرضون، بسوء الإدارة، سيادة بلادهم للخطر، وبدا له أن يستخدم ما تستطيع بريطانيا أن تمارس من نفوذ، لتوجيه نظام الحكم العثماني وإصلاحه إلى حدٍ ما. أما وقد بدد غلادستون هذا النفوذ، فقد قال سيسيل متفجعاً «لقد ألقوا بهذا النفوذ في اليم، ولم ينالوا شيئاً بالمقابل» [14].

## (5)

كان دخول ألمانيا إلى مسرح الأحداث، في استانبول وغيرها، اشارة بدء عصر جديد في السياسة العالمية. إن الإمبراطورية الألمانية، التي أنشئت رسمياً في 18 كانون الثاني (يناير) 1871، أخذت خلال عقود من السنين مكان روسيا، باعتبارها الخطر الرئيس على المصالح البريطانية.

كان هذا في جانب منه عائداً إلى الهبوط الصناعي النسبي في بريطانيا. ففي منتصف القرن التاسع عشر، كانت بريطانيا تنتج نحو ثلثي الإنتاج العالمي من الفحم الحجري، ونحو نصف إنتاج العالم من الحديد، وأكثر من سبعين بالمئة من إنتاج الفولاذ، وكانت الجزر البريطانية تنتج آنذاك ما يربو على أربعين بالمئة من تجارة السلع المصنعة في العالم. وكان نصف الانتاج الصناعي في العالم ملكاً لبريطانيا، غير أن هذا الرقم هبط في عام 1870 إلى اثنين وثلاثين بالمئة، وهبط مرة أخرى في عام 1910 إلى 15 بالمئة<sup>[15]</sup>. وتفوقت ألمانيا في صناعات أحدث وذات أهمية متزايدة كصناعة الكيماويات والآلات الميكانيكية. بل إن وضع بريطانيا المتميز سابقاً في عالم المال - كانت لها في عام 1914 نسبة 41 بالمئة من مجمل الاستثمارات الدولية<sup>[16]</sup> - كان واجهة تخفي وراءها الانحدار. فقد أثر المستثمرون البريطانيون أن يضعوا أموالهم في مشروعات اقتصادية ناشطة في الأمريكيتين وغيرهما من المناطق خارج بريطانيا.

وللعوامل العسكرية أيضاً دخل في الوضع. فإنشاء السكك الحديدية بدل تديلاً جذرياً التوازن الاستراتيجي بين القوة البرية والقوة البحرية على حساب الثانية. إن سير هالفورد ماكيندر، الذي كان يوصف بأنه متنبئ الشؤون السياسية - الجغرافية، أكد حقائق الواقع في وضع جديد، إذ يستطيع العدو في هذا الوضع أن ينقل بسرعة على الخطوط الحديدية جنوده وذخائره إلى مقصدها مباشرة بواسطة الخط المستقيم، الذي يعني هندسياً أقرب مسافة بين نقطتين، بينما يتحتم على الأسطول البريطاني أن يبحر ببطء حول محيط قارة بكاملها فيصل متأخراً جداً.

وقد امتازت الإمبراطورية الألمانية بشبكة خطوط حديدية جعلت من مملكة قيصر ألمانيا القوة العسكرية الأكثر تقدماً في العالم، وتضاءلت في ما يبدو سيادة بريطانيا البحرية المحفوفة بالخطر.

إن الاستنتاج الذي استخلصه وولتر بيجهوت، رئيس تحرير «الإكونومست» المجلة اللندنية ذات التأثير، هو أنه بفضل ألمانيا، لم يعد هناك ما يستدعي الخوف من التوسع الروسي: «... إن الفكرة القديمة القائلة أن روسيا بلغت

شأواً بعيداً في القوة يستدعي أن ترهبها أوروبا... هي فكرة تعود إلى عصر ما قبل ألمانيا»<sup>[17]</sup>. ثم إن كارثة الهزيمة التي حلت بروسيا على يد اليابان (1904 - 1905)، وما أعقبها من انتفاضات ثورية في سانت بيترسبورغ وفي سائر أنحاء روسيا عام 1905، دلت على أن جيوش القيصر الروسي لم تعد، بأية حال، ذات قوة تستدعي القلق.

وبالرغم من ذلك استمرت حكومة المحافظين البريطانيين برئاسة آرثر جيمس بلفور (1902 - 1905) في متابعة التنافس القديم إلى جانب تنافس جديد، إذ لم تتحالف مع اليابان ضد روسيا فحسب، بل تحالفت أيضاً مع فرنسا ضد ألمانيا. غير أن سير ادوارد غراي، وزير الخارجية في حكومة الأحرار برئاسة هنري كامبل - بانرمان، التي خلفت حكومة المحافظين (1905 - 1908) رسم صورة لهاتين السياستين تظهر تناقضهما، فكتب يقول:

«إن روسيا حليفة فرنسا، ولا يسعنا أن ننتهج في الحين عينه سياسة اتفاق مع فرنسا وسياسة تحالفات مناوئة لروسيا»<sup>[18]</sup>.

ولذلك تفاوض غراي مع روسيا على معاهدة أنجزت عام 1907 وسوت الخلافات بين البلدين في آسيا. وبموجبها حُددت التبت، وتخلت روسيا عن اهتمامها بأفغانستان تاركة لبريطانيا الإشراف على السياسة الخارجية لذلك البلد، وقسمت بلاد فارس إلى ثلاث مناطق إحداها منطقة روسية، والثانية محايدة، والثالثة بريطانية. وبدأت اللعبة الكبرى وكأنها بلغت نهايتها.

عندما تمت تسوية عام 1907 كان بإمكان من يعنيه الأمر أن يتوقعوا إثارة مخاوف استانبول من أن تكف بريطانيا عن حماية تركيا من الروس. ولعله كان باستطاعة بالمرستون أوستراتفورد كاننغ أن يبذّر هذه المخاوف، أما سير ادوارد غراي وسفيره في استانبول فلم يكلفا نفسيهما عناء تبديدها.

## (6)

كان ثمة فرق زمني في الفكر بين لندن وأطراف الإمبراطورية. لقد اعتبر غراي واسكويث وزملاؤهما من حزب الأحرار منافستي بريطانية التقليديتين، فرنسا وروسيا، صديقتين وحليفتين في زمن ما بعد العصر الفيكتوري. أما الضباط والوكلاء والموظفون المدنيون البريطانيون الذين يؤدون خدمتهم في أماكن تقع على القوس الكبير الممتد من مصر والسودان إلى الهند، فقد نأوا في كثير من الحالات عن الأخذ بهذه النظرة الجديدة. فبعد أن أمضوا حياتهم في مجابهة المكائد الروسية والفرنسية في الشرق الأوسط، ظلوا يعتبرون روسيا وفرنسا عدوتين لبلادهم. غير أن أحداث عام 1914 والسنوات التي أعقبتها، قد أعادت وجهات نظرهم السياسية الموروثة من العصر الفيكتوري إلى البروز على نحو غير متوقع.

في حالة واحدة كان ثمة اتفاق في الرأي بين الموظفين العاملين في مناطق الإمبراطورية والوزراء في لندن: كانوا شركاء في الاعتقاد بأن ما تبقى مستقلاً من الشرق الأوسط واقع لا محالة تحت النفوذ والتوجيه الأوروبيين. ولم تكن لدى اسكويث وغراي رغبة في مزيد من التوسع البريطاني في الشرق الأوسط، بينما كان موظفون بريطانيون أدنى مرتبة في القاهرة والخرطوم، يضمرون أهدافاً في المقاطعات الناطقة بالعربية والواقعة إلى الشرق من مصر والسودان. بيد أن كلا الجانبين كانا مؤمنين أن الإمبراطورية العثمانية في الشرق الأوسط مقبلة يوماً ما على الانهيار وأنه لا مفر من أن تستولي دولة أوروبية على أكثر أجزائها - وقد تبين أن هذا الاعتقاد بأن أوروبا ستحل محل الإمبراطورية العثمانية عند زوالها - كان أحد المحركات الدافعة لحركة التاريخ.

# الفصل الثالث

## الشرق الأوسط قبل الحرب

### (1)

على مدى عقود من السنين، بل قرون، قبل نشوب الحرب العالمية الأولى في عام 1914، كانت أنظمة الحكم الأهلية في الشرق الأوسط تؤول، بكل معنى، إلى الخضوع لأوروبا. فامارات خانات آسيا الوسطى، ومن ضمنها خيفا وبخارى، سقطت في يد روسيا، مثلما سقطت أجزاء من الإمبراطورية الفارسية. ووقعت المشيخات العربية على طول طريق ساحل الخليج من السويس إلى الهند، تحت سيطرة بريطانيا. أما قبرص ومصر، بالرغم من تبعيتهما رسمياً لتركيا، فكانتا في الواقع تحت الاحتلال البريطاني والحكم البريطاني ثم إن اتفاقية عام 1907 الانكليزية - الروسية قد نقلت أفغانستان إلى منطقة النفوذ البريطانية وقسمت معظم بلاد فارس بين بريطانيا وروسيا. أما في الشرق الأوسط المسلم، فوحدها الإمبراطورية العثمانية حافظت على استقلالها الفعلي - ولكنه استقلال محفوف بالخطر إذ تزايد الضغط على حدودها.

ولقد بدت السلطنة التركية المحافظة على استقلالها غريبة عن عالمها المعاصر. كانت أشبه بهيكل من ماثور الماضي الأثيل أصابه الدمار فبقي بعض أعمدته المهشمة منتصباً ومرئياً من السياح أمثال من كانوا على متن اليخت انشانترس. كانت الإمبراطورية العثمانية، في حقيقة الأمر، كياناً استمر بعد انقضاء العصر الذي ينتمي إليه، وأثراً خلفته غزوات انطلقت من الشرق قبل ألف من السنين. فمنذ نحو السنة ألف للميلاد، تدفقت موجات من الفرسان الرُّحل من سهوب وصحاري وسط وشمال شرقي آسيا، فقهرت هذه الموجات شعوباً وفتحت أراضي، إذ هي تنهب الأرض غرباً. هؤلاء الغزاة الوثنيون عبدة الأرواح، الذين كانوا يتكلمون لغة أو أخرى من اللغات المغولية والتركية، وقد اقتطعوا لأنفسهم إمارات وممالك، بينها إمبراطوريتا جنكيزخان وتيمورلنك. كانت الإمبراطورية العثمانية (أو العثملي)، التي أوجدها فرسان يتكلمون اللغة التركية واعتنقوا الديانة الإسلامية، إحدى هذه الإمبراطوريات. وقد استمدت هذه الإمبراطورية العثمانية اسمها من عثمان، وهو غاز (مجاهد في سبيل الدين الإسلامي) ولد

في القرن الثالث عشر وحارب على أطراف الإمبراطورية الرومانية الشرقية (أو بيزنطة) في بلاد الأناضول.

فتح خلفاء عثمان إمبراطورية بيزنطة وحلوا مكانها في القرن الخامس عشر. وتابع الأتراك العثمانيون فتوحاتهم فتوسعوا في كل الاتجاهات: شمالاً إلى القرم، وشرقاً إلى بغداد والبصرة، وجنوباً إلى سواحل شبه جزيرة العرب والخليج، وغرباً إلى مصر وشمال أفريقيا، وبالتالي إلى أوروبا. وكانت الإمبراطورية العثمانية عندما بلغت أوجها في القرن السادس عشر تضم معظم الشرق الأوسط، وشمال أفريقيا، وما يعرف الآن ببلدان البلقان الأوروبية - اليونان، ويوغسلافيا، وألبانيا، ورومانيا - وجزءاً كبيراً من هنغاريا، فامتدت على مساحة من الخليج الفارسي إلى نهر الدانوب، ولم تتوقف جيوشها إلا عند أبواب فيينا. وكان تقدير عدد سكانها يتراوح بين ثلاثين مليون وخمسين مليون نسمة عندما كان عدد سكان انكلترا أربعة ملايين. وكانت تبسط حكمها على أكثر من عشرين قومية [19].

ولم يتجاوز العثمانيون قط أصولهم تجاوزاً كاملاً إذ هم عُصَب نهب وحرب، ثراؤهم ناشئ عن استيلائهم على ثروات الغير وعلى العبيد، وهؤلاء العبيد يجندون في القوات العثمانية فيترقون في مناصبهم فيأخذون أمكنة قادتهم الذين تقاعدوا، ويبدؤون بدورهم السعي للاستيلاء على الثروة والعبيد. ولم يعرف العثمانيون سبيلاً للنمو الاقتصادي سوى غزو مناطق جديدة. فلما انقلبت فتوحاتهم في القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى هزائم ونكوص، فقدوا محرك الوجود العثماني. لقد برع الأتراك في فنون الحرب ولم يبرعوا في فن الحكم.

حاول القادة العثمانيون في القرن التاسع عشر أن ينفذوا برامج إصلاح شامل. كانت أهدافهم من وراء هذه البرامج تحقيق مركزية الحكم، وإقامة سلطة تنفيذية برئاسة الصدر الأعظم، كبير وزراء السلطان، وعقلنة الضرائب والتجنيد، وإنشاء ضمانات دستورية، وتأسيس مدارس عامة علمانية توفر لتلامذتها التدريب الفني والحرفي وأنواع التدريب الأخرى، وما شاكل ذلك من إصلاحات. كانت ثمة بداية - بداية لا أكثر - في هذا المضمار، إذ أن معظم الإصلاحات كانت حبراً على ورق، ولذلك فإن نظام الحكم في الإمبراطورية العثمانية، بما هو نظام مضعضع موقعه خارج الزمان والمكان في العالم الحديث، بدا محكوماً عليه بالزوال.

لم تكن الامبراطورية متماسكة. والحكام العثمانيون لم يكونوا جماعة اثنية واحدة، صحيح أنهم يتكلمون التركية، ولكن كثيرين منهم كانوا متحدرين ممن كانوا يوماً عبيداً مسيحيين جيء بهم من بلدان البلقان الأوروبية ومناطق أخرى. ورعايا الامبراطورية (وهم شعوب واسعة التنوع يتكلمون اللغات



التركية، والسامية، والكردية والسلافية، والأرمنية، واليونانية ولغات أخرى) لم تكن تجمعهم رابطة مشتركة؛ وفي حالات كثيرة قلما كانت المحبة شعوراً متبادلاً بينهم. ومع أن المراقبين الأوروبيين مالوا في ما بعد إلى التعميم، بالنسبة «للعرب» على سبيل المثال، فالواقع أن المصريين، وسكان شبه جزيرة العرب. والسوريين والعراقيين إنما هم شعوب تاريخها مختلف وخلفيتها الأثنية مختلفة، ونظرتها إلى الأمور مختلفة. لذلك فإن هذه الإمبراطورية المتعددة القوميات واللغات كانت فسيفساء من الشعوب التي لا تتمازج، فكانت كل جماعة من سكان المدن الأرمن واليونانيين واليهود وغيرهم، تعيش في حي منعزل خاص بها.

كان للدين شيء من الأثر التوحيدي، لأن الإمبراطورية كانت دولة تقوم على أساس الدين - دولة إسلامية أكثر مما هي دولة تركية - ومعظم رعاياها مسلمون. وكان السلطان العثماني في نظر فئة الأكثرية من المسلمين، أي السنة، هو الخليفة (خليفة النبي محمد الديوي والروحي). أما في أوساط الرعايا الآخرين المنتمين إلى واحد وسبعين مذهباً من مذاهب الإسلام، ولا سيما الشيعة بأعدادهم الوفيرة، فكانت ثمة معارضة عقائدية للمذهب السني الذي هو مذهب السلطان، وكذلك لادعائه الخلافة. أما بالنسبة لغير المسلمين (كانوا يمثلون خمسة وعشرين بالمئة من مجموع السكان في مطلع القرن العشرين) وهم من الروم الأرثوذكس، ومن الكاثوليك التابعين لكنيسة روما، والأرمن الكاثوليك، والأرمن الأرثوذكس، واليهود، والبروتستانت، والموارنة، والسامريين، والنساطرة المسيحيين والكنيسة الأرثوذكسية الموحدة السورية، واليعاقبة المؤمنين بطبيعة واحدة للسيد المسيح. أما بالنسبة لغير هذه من الطوائف، فقد كان الدين عامل تفريق سياسي لا عامل توحيد.

لقد أذهل الزوار الأوروبيين في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مدى تحكم الدين بالحياة اليومية للناس في الشرق الأوسط، لأن الدين كف منذ قرون عن أن يكون له مثل هذا الدور في أوروبا. كان هؤلاء الزوار يأتون لرؤية الأماكن التوراتية، أو روائع العالم القديم التي كشفت عنها الحفريات، أو لمشاهدة البدو الرحل يعيشون حياتهم كما كانت في زمن إبراهيم.

وبدا الباب العالي أيضاً وكأنه يعيش في الماضي. فالمسؤولون العثمانيون ظلوا يتظاهرون، على سبيل المثال، بأن بلغاريا جزء من الإمبراطورية حتى بعد مضي زمن طويل على فقدانهم السيطرة عليها في عام 1878، وظلوا يحسبون المصريين بين رعايا الإمبراطورية حتى بعد أن احتلت بريطانيا مصر في عام 1882. ولهذا السبب ولأسباب أخرى، لم يركن أحد إلى الاحصاءات العثمانية، ويمكن القول على وجه التقريب فقط أنه ربما كان

عدد سكان الإمبراطورية في أوائل القرن العشرين نحو عشرين مليوناً إلى خمسة وعشرين مليون نسمة، يعيشون في أرض مساحتها - تبعاً لطريقة تحديد حدودها - نحو ستة أضعاف مساحة ولاية تكساس الأميركية. وكانت مؤلفة، إجمالاً، من معظم شبه جزيرة العرب، وتركيا الراهنة، وإسرائيل، ولبنان، والأردن، وسورية، والعراق.

وحتى مطلع القرن العشرين كانت الإمبراطورية العثمانية معظم الوقت تحت حكم السلطان الشخصي المطلق. وكان السلطان، على أقل تقدير من أحد الوجوه، مختلفاً عن ملوك أوروبا: فهو ابن إحدى نساء الحريم، وبالتالي، فهو نصف عبد بالولادة، وتحت حكمه كان المرء يلحظ تطبيق القوانين المدنية والإدارة العسكرية والشريعة الإسلامية في إمبراطورية مقسمة تقسيماً واضحاً إلى ولايات ومتصرفيات. أما مظهر الإدارة المنتظمة - بل الإدارة الفعالة من أي نوع - فكان مظهراً خداعاً. وفي هذا كتبت جيرترود بل، الرحالة الانكليزية ذات الخبرة الواسعة في بلدان الشرق الأوسط، قائلة: «ما من بلد يبدو للعالم في مظهر ثبات الحكم ومركزية الحكومة، هو أكثر خداعاً وإيهاماً للناظر من الإمبراطورية العثمانية» [20]. نعم، كانت هناك حاميات عسكرية موزعة في أنحاء الإمبراطورية، ولكن القوة بخلاف ذلك موزعة والسلطة المركزية خرافة أكثر مما هي الآن واقع. لقد وجدت جيرترود بل، في رحلاتها، أن الإدارة العثمانية تتلاشى خارج المدن فيكون الحاكم عندئذ هو شيخ المنطقة أو كبير القوم. وهناك مناطق يعيث فيها قطاع الطرق على هواهم. وبلغت الحكومة التركية من الهزال حد العجز عن جباية الضرائب، وهذه الجباية هي أهم عمل أساسي من أعمال الإدارة الإمبراطورية. وعشية الحرب العالمية الأولى كانت جباية الحكومة للضرائب في حدود خمسة بالمئة، أما الخمسة والتسعون الأخرى فكان يجبيها جباة مستقلون [21].

مارست البلدان الأجنبية النفوذ والإشراف في الإمبراطورية بدرجات متفاوتة. كان الحكم في مصر وقبرص لبريطانيا التي احتلتها في أواخر القرن التاسع عشر، ومشيكات ساحل الخليج كانت خاضعة للإشراف البريطاني. ولبنان، وهو متصرفية منفصلة بموجب ترتيبات أقرت في عام 1864، كان يحكمه حاكم عسكري مسيحي يتبع للباب العالي مباشرة، ولكن الباب العالي لا يملك التصرف في لبنان إلا بالتشاور مع ست دول أوروبية. واحتفظت روسيا وفرنسا لنفسيهما بحق حماية السكان الأرثوذكس بالنسبة للأولى، والموارنة بالنسبة للثانية. وثمة دول أخرى أكدت حقها في التدخل في الشؤون التركية لمصلحة جماعات وضعتها تحت رعايتها.

وهكذا فقد كان مغايراً للواقع الادعاء بأن السلطان وحكومته يحكمان ممتلكاتهما بمعنى الحكم والادارة الذي يفهمه الأوروبيون. وكل ما هو حقيقي في الإمبراطورية العثمانية إنما كان محلياً: القبيلة، والعشيرة، والمذهب، والبلدة، فهذه هي الوحدات السياسية الحقيقية والولاء يعود إليها. هذا الواقع أربك المراقبين الأوروبيين الذين لم تنطبق أفكارهم عن المواطنة والجنسية على السياسة العثمانية بنسجها الغريب، وتبادر للأوروبيين أنهم في زمن مقبل سيضعون أيديهم على الممتلكات العثمانية وينظمونها على أسس أكثر عقلانية، وكان مما يوافق المنطق في السنوات الأولى من القرن العشرين الاعتقاد بأن أيام الممتلكات العثمانية صارت معدودة.

ومع حلول عام 1914 تقلصت الإمبراطورية العثمانية كثيراً، فانحسر حكمها عن شمال أفريقيا وعن هنغاريا ومعظم جنوب شرق أوروبا. كانت في حالة تراجع منذ القرن الثامن عشر، وبدا هذا التراجع هزيمة في نهاية الأمر. ومرت عقود من السنين كان الحديث خلالها في أوساط الناقمين في الجيش العثماني وفي المدارس العثمانية، يدور في اجتماعات سرية، حول حاجة الإمبراطورية إلى تغيير سريع لتتمكن من مواجهة تحديات أوروبا العصرية فكرياً، وصناعياً، وعسكرياً. وأخذ المفكرون من مختلف الشعوب الناطقة بالتركية والناطقة بالعربية في الإمبراطورية، يسعون لاكتشاف أو لإيجاد مفهوم لهويتهم السياسية الخاصة بهم، تحدوهم إلى ذلك العقيدة القومية التي سادت في أوروبا.

وفي السنوات الأخيرة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الأولى، تولى السلطة في الإمبراطورية العثمانية رجال جدد مغمورون ولكنهم طموحون، وجعلوا من السلطان صاحب منصب رمزي.

هؤلاء الرجال الجدد، قادة حزب تركيا الفتاة، كانوا في آن واحد نتيجة وسبباً لجيشان شهدته استانبول، العاصمة العثمانية، إذ اضطلعوا بتحدي نقل الإمبراطورية التركية إلى القرن العشرين قبل أن يتوفر للعالم العصري الوقت اللازم لتدميرها.

## (2)

كانت القسطنطينية - عرفت هذه المدينة أصلاً باسم بيزنطة وتعرف اليوم باسم استانبول - عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية لمدة تربو على أحد عشر قرناً، ثم كانت لأكثر من أربعة قرون عاصمة الإمبراطورية العثمانية التي خلفت الامبراطورية البيزنطية. والقسطنطينية، شأنها شأن روما، مبنية على سبعة تلال، وكانت، مثل روما، مدينة خالدة: إن موقعها الاستراتيجي أكسبها أهمية تفرض نفسها في الشؤون العالمية.

والقسطنطينية عبارة عن تجمع بلدات تقع بصورة رئيسة على الجانب الأوروبي للممر المائي العظيم الذي يصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأسود، عند نقطة تضيق عندها القناة التي تفصل أوروبا عن آسيا فلا يزيد عرضها على نصف ميل. وهذا الموقع هو قلعة طبيعية يصعب اقتحامها بل مهاجمتها. وثمة خليج بطول أربعة أميال، يعرف باسم القرن الذهبي، يشكل مرفأً طبيعياً رائعاً يوفر الملجأ والحماية للأسطول المدافع عن المدينة.

كان عدد سكان القسطنطينية العاصمة عام 1914 في حدود أربعة ملايين. سكانها متعددو اللغات، معظمهم مسلمون ويونانيون وأرمن، وفيها جالية كبيرة من الأوروبيين وغيرهم من الأجانب. وكان التأثير الأوروبي جلياً في الأسلوب المعماري للمباني الجديدة، وفي أزياء اللباس، وفي تجديدات أدخلت على المدينة كإنارة الشوارع.

كان التحديث في بدايته، بل كان قد بدأ للتو. فالإنارة الكهربائية أدخلت إلى القسطنطينية لأول مرة في عام 1912<sup>[22]</sup>. وشهدت المدينة بداية العمل لإنشاء شبكة صرف صحي لخدمة شوارعها الضيقة القذرة. أما قطاع الكلاب السائبة التي ظلت خلال قرون ترتع في الشوارع فقد نقلت بحراً، بأمر من المجلس البلدي، إلى جزيرة خالية من الماء، لتنفي فيها<sup>[23]</sup>. وأنجز بعض العمل لتعبيد الطرق ولكنه لم يكن عملاً يذكر، أما الشوارع فظلت تتوحد عند هطل الأمطار، أو تنفث الغبار في الجو كلما هبت رياح على المدينة.

تتحكم بمناخ المدينة رياح عنيفة تهب تارة من الشمال وطوراً من الجنوب فتسبب تبدلات فجائية من القبط الشديد إلى القر الشديد. كذلك كان المناخ السياسي في بداية القرن العشرين يخضع لتبدلات فجائية قصوى، وخلال سنوات عديدة سبقت عام 1914 لم تكن لدى المراقبين البريطانيين فكرة عن مصدر الرياح ولا عن وجهتها. وكانت المناورات السياسية في الباب العالي، الباب المؤدي إلى مكاتب الصدر الأعظم ومنه استمدت

الحكومة العثمانية اسمها، تدور وراء حجاب من الغموض الذي لم تتمكن  
السفارة البريطانية من هتكه.

### (3)

كان موقع السفارة البريطانية، مثلها مثل سفارات الدول الكبرى الأخرى، في حي بير، وهو الحي الأوروبي في المدينة الواقع شمال القرن الذهبي. وقد كبرت الجاليات الأجنبية على مقربة من سفاراتها، وكانت تعيش حياتها الخاصة، بمعزل عن حياة المدينة. وكانت الفرنسية لغة البعثات الدبلوماسية والحفلات، أما لغة الشارع فكانت اليونانية وليس التركية، وكانت في المدينة ثلاثة مسارح تعرض تمثيليات وبرامج ترفيهية مستوردة من باريس. وكان فندق «قصر بير» يقدم خدمات تضاوي ما تقدمه الفنادق الفخمة في المدن الأوروبية الكبرى.

لقد انساق معظم الأوروبيين وراء إغراء العيش في عزلة الجيوب التي تسكنها جالياتهم، ونادراً ما كان أحدهم يشعر بالراحة في الشوارع الضيقة الوسخة في «استانبول»، القسم القديم من المدينة جنوب القرن الذهبي، بأسواره وتحصيناته الآيلة إلى الخراب. وأحد الذين كانوا يشعرون بالراحة على كلا جانبي القرن الذهبي، رجل إنكليزي يدعى ويندهام ديدز، وكان قد وصل إلى المدينة ليقوم بدور هام في حكومة حزب تركيا الفتاة الجديدة.

كان ديدز من أسرة ريفية من مقاطعة كنت، وحسبه يعود إلى أربعة قرون مضت. وبعد تخرجه من جامعة إيتون، نال رتبة ضابط في فرقة حرس الملك، وظل ضابطاً بريطانياً مدة اثنين وعشرين عاماً. (سئل مرة عن أهوال حرب البوير، فأجاب: «كل شيء يهون أمام آيتون»)[24]. في أوائل حياته العسكرية تطوع ديدز للخدمة في قوة الدرك العثماني، وهي قوة من الشرطة التركية أنشئت حديثاً بقيادة ضباط أوروبيين. وكان إنشاؤها شكلاً من أشكال الإصلاح فرضته الدول الأوروبية على السلطان، بعد أن استحال التمييز بين قوة الشرطة القديمة وعُصَب اللصوص التي يفترض أنها تقوم بقمعها. وقد عين ديدز وزملاؤه الأوروبيون ضباطاً من القوة الجديدة، محتفظين في الوقت عينه برتبهم في جيوش أوطانهم.

عند النظر إلى صورته الفوتوغرافية القديمة، يبدو ديدز غريباً عن المحيط الشرقي الذي ساقته إليه الخدمة في الدرك. كان ضئيل الجسم، نحيلاً أشقر البشرة، ولم ينسجم مع طبيعة الأرض العثمانية. كان زاهداً ومسيحياً متديناً، لا يأبه بالنوم والراحة والطعام. يعمل خمس عشرة ساعة في اليوم، غير مبال بهناء العيش ولا بالخطر. كان بعيداً كل البعد عن الشبه بالضباط الأتراك الذين، إذا صدقت الروايات الأوروبية، كانوا في معظم الأحيان يتصفون بالفساد والجبن. لقد نجح في مهمته الشاقة، واكتسب شعبية بين الأتراك.

عندما انتسب ديدز إلى قوة الدرك في عام 1910 كان شخصاً مجهولاً. فلم تنقُض أربع سنوات حتى بلغ مكانة رفيعة أهله لأن يقع عليه اختيار الشخصية الرئيسة في الحكومة العثمانية الجديدة لمساعدته في إدارة شؤون وزارة الداخلية. وقد تعلم الحديث باللغة التركية بطلاقة، وعندما بلغ الحادية والثلاثين من عمره، أصبح أحد قلة من الانكليز الذين يفهمون الشؤون التركية. ولكن حكومته لم تفد إفادة حقيقية من خبرته وإطلاعه. وخلال السنوات اللاحقة، كان أحد الأقوال المأثورة أن ديدز شبيه «كاساندرًا»: لقد شاءت حكومته أن تستهين بتحذيراته وأن تهمل تحليلاته الدقيقة للدوافع السياسية التركية.

أما الوزير الذي عمل ديدز تحت رئاسته في الحكومة العثمانية عام 1914 فهو محمد طلعت. إن معظم ما عرفتُه الحكومة البريطانية آنذاك عن طلعت وعن الحزب السياسي الذي يتزعمه، كان مبنياً على الخطأ، وكان في وسع ديدز أن يصوّب بعض هذه المعلومات على أقل تقدير. ولكن السفارة البريطانية في القسطنطينية اعتقدت أن ما تعرفه هو الصواب فلا داعي لمزيد من البحث والاستيضاح.

## (4)

كان محمد طلعت وزير الداخلية زعيم الفئة الأكبر حجماً ضمن الحزب السياسي الحاكم، ولكن الدبلوماسيين البريطانيين لم ينظروا إليه نظرهم إلى رجل ذي حسب. وكان رأيهم فيه أنه يفتقر إلى عراقة النسب وحسن التنشئة، فكانوا يزدرونه ويشيعون عنه أنه من أصل غجري. كان يكسو هامته شعر أسود كث، وحاجباه كثيفان في مثل سواد شعر رأسه، وأنفه معقوف، وفي عينيه، على حد وصف أحد قلة من المراقبين البريطانيين المتعاطفين معه، «وميض قلما تراه في الإنسان بل تلحظه أحياناً في الحيوانات عند الغسق» [25].

كان طلعت أهم انسان فرد في السياسة التركية. وإلى حد بعيد كان رجلاً عصامياً. ولا يعرف الناس إلا القليل عن منبته وخلفيته، اللهم إلا أنه من أصل وضع. بدأ حياته مستخدماً صغيراً في مكتب البريد والبرق، وثمة اعتقاد بأنه كان «بكتاشياً»، أي عضواً في إحدى الجماعات الكبرى من الدراويش الأتراك، (والدراويش هم أخويات دينية اسلامية). ويعتقد أنه انضم الى أحد المحافل الماسونية، وأنه قام بتنظيم جمعية سياسية سرية، وسجن مدة من الزمن بسبب أنشطته السرية.

لقد كان الانتساب الى منظمة سرية من الأنشطة الشائعة في الإمبراطورية العثمانية في زمن شباب طلعت. فقد كان النشاط السياسي المكشوف خطراً على صاحبه في عهد السلطان عبد الحميد المستبد، الذي اعتلى العرش بين عامي 1876 و1909. ان هذا السلطان الذي علق الدستور، وحل البرلمان (مجلس المبعوثان)، كان غير متسامح مع من يخالفة الرأي، مستخدماً الشرطة السرية للتعامل مع المخالفين. وهكذا انتقلت الحياة السياسية في الامبراطورية الى العمل في الخفاء، فانتشرت الجمعيات السرية، والأسبق من هذه الجمعيات الى النشوء استلهمت أفكارها من جماعات القرن التاسع عشر الثورية في أوروبا، وخصوصاً من «الكاربوناري» الايطالية، ونظمت نفسها في خلايا، لا يتجاوز عدد أفراد الخلية عدد أصابع اليد، ولا يعرف إلا واحد من أفراد الخلية أحد أعضاء خلية أخرى. والكثرة من هذه الجمعيات، ومن ضمنها الجمعية التي تطورت الى حزب تركيا الفتاة، أسسها طلبة الجامعات والكلية العسكرية. وكان الجيش أيضاً تربة خصبة لنشوء هذه الجمعيات، وصغار السن في الجيش كانوا يخجلون من أداء الامبراطورية الكارثي في ساحات المعارك. وقد نجحت شرطة عبد الحميد السرية في سحق الجمعيات السرية في القسطنطينية وغيرها، ولكن مدينة سالونيك، الميناء غير التركي المقدوني في اليونان



الحالية، بقيت خارج متناول يدها. وفي سالونيك أقام عدد من الجمعيات السرية مقارها الرئيسية، وأنشأت علاقة وثيقة مع أفراد من الجيش الثالث العثماني، الذي كان مقر قيادته في سالونيك. أن حالة الفوضى والتفكك التي كان على الجيش الثالث أن يتعامل معها في مقدونيا - وهي منطقة حدودية في الامبراطورية - كانت في حد ذاتها تجربة غنية ساعدت الجمعيات السرية على اجتذاب المجندين في صفوف الجيش الى عضويتها.

كان طلعت، الذي عاش وعمل في سالونيك، أحد مؤسسي إحدى هذه الجمعيات السرية التي ما لبثت أن أصبحت الفئة الكبرى ضمن مجموعة مختلطة أطلقت على نفسها اسم جمعية الاتحاد والترقي، وعرفت أيضاً باسم حزب تركيا الفتاة، وأطلقت على أعضائها تسمية الأتراك الفتیان. كانوا عند الانتساب اليها يقسمون اليمين على المصحف والمسدس، وأول مجندي طلعت من ضباط قيادة الجيش الثالث، هو جمال بك، الضابط الركن الذي قام لاحقاً بدور كبير في السياسة الشرق أوسطية.

ذات يوم من أيام عام 1908 صدر أمر الى ضابط صغير من ضباط الجيش يدعى أنور، مكان عمله في سالونيك، بالعودة الى القسطنطينية. ولما كان أنور قد انضم الى طلعت، فقد شعر بالوجل من اكتشاف الشرطة السرية أمر عضويته، ولذلك تسلل من سالونيك ولجأ الى الجبال التي فر اليها مثله ضابط آخر من الأتراك الفتیان. ثم أن ضابطاً ثالثاً من ضباط الجيش هذا حذوهما وأخذ معه جنوداً وذخائر. وقد أرسل السلطان قوة لتتبعهم فانضمت هذه القوة الى المتمردين. لقد تفجرت في سالونيك بصورة عفوية ثورة غير دموية، وسيطرت جمعية الاتحاد والترقي على الوضع في المدينة، واستولى الأتراك الفتیان على مكتب البرق - ولعلها ليست مصادفة أن طلعت كان أحد موظفي المكتب - وأقاموا اتصالاً مع خلايا جمعية الاتحاد والترقي المتفشية في الجيش وفي الامبراطورية. فلما استقرت الأمور، أعيد العمل بالدستور واستؤنفت الحياة البرلمانية والسياسة الحزبية، وفي العام التالي تنازل السلطان عن العرش لأخيه.

أسندت المناصب الى السياسيين القدامى، وظل الأتراك الفتیان يعملون خلف الستار، ولكن جمعية الاتحاد والترقي أصبحت قوة يحسب لها حساب، ولم يكن مصدر قوتها ما لها من تمثيل قوي في أوساط ضباط الجيش فحسب، بل ما لها من فروع في كل مكان وفي سائر أنحاء الامبراطورية التي يسودها مجتمع مختل النظام.

لقد حظي قادة الانتفاضة الموفقة في أول الأمر بتعاطف في صحافة العالم الغربي، حتى أن عبارة «الأتراك الفتیان» صارت اصطلاحاً يجري على كل لسان ويعني أية جماعة نزقة من الشبان تحمل أفكاراً تحرك الهمم، وتتمرد

على قيادة عفا عليها الزمن. ومع أن وزارة الخارجية في لندن أخذت تنظر اليهم نظرة تعاطف، ظلت السفارة البريطانية في القسطنطينية كارهة ومزدريّة لهم. ولعل السفير، سير جيرارد لاوثر، وقع كلياً تحت تأثير جيرالد فيتزموريس، كبير مترجمة السفارة، أي الترجمان الرسمي ومستشار السفارة في الشؤون الشرقية. وكان فيتزموريس يمقت جمعية الاتحاد والترقي منذ أول نشأتها.

لقد كان تفسير فيتزموريس لأحداث عام 1908، يستند الى أن هذه الأحداث وقعت في مدينة سالونيك، ونحو نصف سكانها المئة والثلاثين ألفاً هم من اليهود أو الدومنه (أفراد مذهب يهودي اعتنقوا الإسلام في القرن السابع عشر). ثم أن سالونيك مدينة تضم محافل ماسونية. وقد أسس المحامي اليهودي إمانويل كاراسو محفلاً ماسونياً إيطالياً، فسمح، كما يبدو، لجمعية طلعت السرية أن تجتمع فيه عندما كانت ملاحقة من شرطة السلطان السرية. فاستنتج فيتزموريس أن جمعية الاتحاد والترقي تمثل مؤامرة ماسونية يهودية دولية خاضعة للنفوذ اللاتيني، فنقل السفير لاوثر حسب الأصول هذا الرأي الى وزارة الخارجية في لندن، ووصف جمعية الاتحاد والترقي في تقريره بأنها «اللجنة اليهودية للاتحاد والتقدم» [26].

بعد حين أجري فيتزموريس تحقيقاً عن جمعية الاتحاد والترقي، ونقلت نتائج هذا التحقيق الى تقرير سري أرسله لاوثر بتوقيعه في 29 أيار (مايو) 1910 إلى سير تشارلز هاردينج في وزارة الخارجية. وقد أشار لاوثر في تقريره الى أن كلمات «حرية، مساواة، اخاء» المكتوبة بالفرنسية هي كلمات مستمدة من الثورة الفرنسية، وهي في آن واحد شعار الماسونيين الإيطاليين (وهذا ما يفسر محفل كاراسو) وشعار حركة تركيا الفتاة، وادعى أن حركة تركيا الفتاة: «انما تقلد الثورة الفرنسية وأساليب الكفر والمساواة التي تأخذ بها. لقد أدت تطورات الثورة الفرنسية الى عدااء بين انكلترة وفرنسا، وإذا ما تطورت الثورة التركية في المنحى عينه، فقد تجد نفسها على غرار الثورة الفرنسية في حالة عدااء مع الأفكار والمصالح البريطانية» [27].

كان تقرير لاوثر مفصلاً ومؤلفاً من أكثر من 5,000 كلمة، وزعم فيه أن اليهود وضعوا أيديهم على شبكة ماسونية («اليهودي الشرقي حاذق في استثمار القوى التي تعمل في الخفاء...») وعبر هذه الشبكة تحكمت بالامبراطورية العثمانية. وذكر لاوثر ان من بين رؤوس المؤامرة اليهودية الماسونية السفير الأميركي لدى تركيا، أوسكار شتراوس؛ وشقيقاه يملكان في نيويورك محلات ماسي وابراهام وشتراوس.

وقال لاوثر في تقريره ان الخطر على انكلترة ناشيء عن أن «اليهودي يكره روسيا وحكومتها، وبما أن انكلترة الآن تربطها علاقة صداقة مع روسيا، فالنتيجة هي أن اليهودي يصبح معادياً إلى حد ما لبريطانيا... وهذا اعتبار تنبه له الألمان على ما اعتقد» [28]. وحقيقة الأمر أن لاوثر ختم تقريره قائلاً: «لديّ من الأسباب ما يدفعني الى الاعتقاد بأن زميلي الألماني قد أدرك إلى أي مدى تتلقى «اللجنة» الإلهام من الماسونية اليهودية واللاتينية، وانه أطلع حكومته سراً على هذه الظاهرة في سياسة حزب تركيا الفتاة» [29].

ومع ذلك، عندما انتخب البرلمان العثماني في عام 1908 لم يكن بين أعضائه المثنيين والثمانية والثمانين سوى أربعة من اليهود. وعندما أنشأت جمعية الاتحاد والترقي لجنتها المركزية في عام 1909 لم ينتخب كاراسو عضواً فيها، ولم يبلغ قط مكانة قيادية لا في الحزب ولا في الحكومة، ولم يكن إطلاقاً تلك الشخصية النافذة التي تصورها الأجانب. ثم ان كاراسو وأعضاء البرلمان اليهود الثلاثة الآخرين حرصوا على ألا يكون لهم مكان بارز لكي يثبتوا أنهم أتراك أولاً ويهود ثانياً، وثانياً فقط. بل انهم أيدوا اجراءات جمعية الاتحاد والترقي ضد الاستيطان الصهيوني في فلسطين [30]. وكان تفسير لاوثر لهذا الموقف أن هدف الصهيونية الجديد هو إقامة وطن قومي يهودي ليس في فلسطين بل في جزء مما يشكل العراق حالياً.

لقي تقرير فيتزموريس ولاوثر قبولاً واسعاً في أوساط الرسميين البريطانيين فحمل الحكومة البريطانية على الأخذ بأفكار خاطئة عميقة الغور وذات عواقب هامة.

أول هذه الأفكار تتعلق بالعمل الداخلي لجمعية الاتحاد والترقي. فقد ضلل فيتزموريس ولاوثر حكومتهما وجعلها تعتقد أن الأتراك الفتیان خاضعون لسيطرة رجلين هما طلعت و جاويد («وهو يهودي يتستر على ديانتة») اللذان وصفهما فيتزموريس ولاوثر بأنهما «الوجهان الرسميان لسلطة «اللجنة» التي تعمل في الخفاء. انهما الوحيدان من أعضاء مجلس الوزراء اللذان يحسب حسابهما، كما أنهما رأس الماسونية في تركيا» [31]. وحقيقة الأمر أن جمعية الاتحاد والترقي كانت مقسمة الى فئات، وكان باستطاعة الحكومة البريطانية أن تدبر المكائد مع هذه الفئات لو علمت بوجودها [32]. ومن غريب المصادفات ان جاويد، الذي خشيته فيتزموريس ولاوثر بصفته يهودياً متستراً على يهوديته، كان زعيم الفئة المحابية لبريطانيا، ولكن فيتزموريس ولاوثر جهلا هذا الواقع.

والفكرة الخاطئة الثانية هي الاعتقاد بأن مجموعة من اليهود تمسك بزمام السلطة السياسية في الامبراطورية العثمانية - أو في أي مكان آخر من

العالم آنذاك. لقد استخلص فيتز مورييس، بعد بضع سنين، استنتاجاً واضحاً من فكرته الخاطئة: كان ممكناً ربح الحرب (التي كانت بريطانيا في ذلك الحين تخوضها) عن طريق شراء تأييد هذه الجماعة القوية. ورأى أن تأييدها كان ممكناً بإصدار وعد بمساندة انشاء وطن قومي يهودي في فلسطين (فقد تحقق له في أثناء ذلك أن الحركة الصهيونية ترغب في العودة الى صهيون، لا الى العراق). وهذا التحليل ساعد على إقناع وزارة الخارجية البريطانية بأنه ينبغي لها أن تتعهد بتأييد بريطانيا للبرنامج الصهيوني - وهذا ما فعلته في عام 1917.

ثمة معلومة أخرى خاطئة من بنات أفكار فيتز مورييس أدت إلى استنتاج آخر ذي عواقب هامة هي: أن قادة حزب تركيا الفتاة أجنب وليسوا أتراكاً، وانهم يخدمون مصالح أجنبية. وكان هذا نقيض الصواب، وجعل المراقبين البريطانيين يخطئون حساب ما ستفعله حكومة تركيا الفتاة. إذ حقيقة الأمر هي، كما رأى الجميع بمن فيهم فيتز مورييس ولاوثر، أن إحدى علل جمعية الاتحاد والترقي هي شوفينيته التركية. فقد كانت تمارس التمييز ضد اليهود، والأرمن، واليونانيين، والعرب، وغيرهم. وقوتها ناشئة عن مقاومتها للمصالح الأجنبية كافة، وعداؤها للأوروبيين أكسبها تأييداً شعبياً واسعاً.

لم تعرف الحكومة البريطانية قط أن لاوثر وفيتز مورييس أمداها برأي زائف في السياسة العثمانية. أن جون بوشان، الذي شغل منصب مدير الاعلام في الحكومة البريطانية زمن الحرب، وصف قادة جمعية الاتحاد والترقي بأنهم «مجموعة من اليهود والفجر» ورسم للحكومة العثمانية صورة أداة في يد اليهودية العالمية، واعتبر أنور باشا «مغامراً بولندياً» - إذ التبس عليه اسمه مع اسم ضابط تركي آخر اسمه شبيه باسم أنور ووالده بولندي ولكنه غير يهودي [33].

## (5)

كانت السنوات التي أعقبت عام 1908 سنوات كارثة للامبراطورية العثمانية، في حربها مع إيطاليا وحربها الأخرى مع تحالف بلقاني. وكانت الامبراطورية العثمانية في عام 1913 تسير نحو خسارة حرب بلقانية ثانية فإذا بجمعية الاتحاد والترقي تتسلم فجأة زمام الحكومة. إذ أن أنور الشاب - الضابط عينه الذي فجر أحداث عام 1908 في سالونيك - قاد غارة هوجاء على الباب العالي، فقتل المغيرون وزير الحربية. واستولى أنور وأصدقائه على الوزارة، ورفقي أنور إلى رتبة قائد ميدان، وفي هذا المنصب كسا نفسه بالأمجاد، ثم استولى على منصب وزير الحربية في 4 كانون الثاني (يناير) 1914. كان آنذاك في الحادية والثلاثين من عمره، فتزوج ابنة أخت السلطان، وانتقل إلى القصر، وأصبح في مركز الاهتمام في السياسة التركية.

تولى جمال باشا منصب الحاكم العسكري لمدينة القسطنطينية، وبصفته هذه شدد قبضة جمعية الاتحاد والترقي على مقر الحكومة. وتولى خليل بك، رئيس مجلس النواب، دوراً هاماً، وكذلك محمد جاويد، وهو أستاذ في العلوم الاقتصادية عين وزيراً للمالية. أما طلعت، كبير قادة جمعية الاتحاد والترقي، فقد أصبح وزير الداخلية والقائد الحقيقي للحكومة. وأما رجل البلاط، الأمير سعيد حليم، فقد أضفى بصفته الصدر الأعظم ووزير الخارجية، مسحة الاحترام على الحكومة.

عينت الحكومة البريطانية سفيراً جديداً لها في القسطنطينية هو سير لويس ماليت، وكان متعاطفاً مع حزب تركيا الفتاة. ولكنه هو أيضاً كان مزوداً بمعلومات خاطئة عما يحدث في القسطنطينية. كان سلفه قد استشف سيطرة يهودية - ألمانية، أما هو فكانت تقاريره إلى لندن تشع بالتفاؤل المضلل بما ينتويه الباب العالي، وأخفق ماليت، كسلفه، في فهم ما يعتبره قادة الاتحاد والترقي مصالح تركيا.

وفي لندن، ظل مجلس الوزراء على اعتقاده بصواب الفكرة الخاطئة التي أوصى بها لاوثر وفيتزموريس، أن جمعية الاتحاد والترقي كتلة واحدة. وسبق أن ذكر لاوثر وفيتزموريس في تقاريرهما أن قيادة الجمعية في أيدي طلعت وجاويد، في حين أن التقارير اللاحقة - وقد أخذ بها معظم المؤرخين - ذكرت أن قيادتها كانت في أيدي ثلاثي دكتاتوري مؤلف من أنور وجمال وطلعت.

وحقيقة الأمر، وهذا ما تبينه الآن محفوظات الوثائق الألمانية، هي أن السلطة كانت في يد اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي، المؤلفة من

نحو أربعين عضواً، وبالأخص في يد المديرية العامة للجنة المركزية وتضم نحو اثني عشر عضواً يمارسون مهمتهم بصفة مكتب سياسي، وفي هذه المديرية العامة تراكمت المزاحمات الشخصية. وكانت قرارات اللجنة المركزية تنعكس في مواقف أعضاء الحزب داخل مجلس الوزراء وفي مجلس النواب.

لقد كانت جمعية الاتحاد والترقي وعاء لآراء متنوعة، ومسكونة بالفئوية والدسائس. بيد أنه لم يكن ثمة خلاف على طبيعة التهديد الذي تواجهه الامبراطورية العثمانية وطبيعة السياسة الواجب اتباعها لمجابهة هذا التهديد.

# الفصل الرابع

## الأتراك الفتیان يتعجلون

### البحث عن حليف

#### (1)

تأثرت نظرة حزب تركيا الفتاة الي الشؤون الراهنة بالكلم الذي أحدثه استمرار تفكك الامبراطورية اقليمياً. فاقليما البوسنة والهرسك (حالياً جزء من يوغسلافيا)، كانا إسمياً لا يزالان اقليمين تركيين، أما رسمياً فقد ضمتها امبراطورية النمسا - هنغاريا إليها في عام 1908 - وقد كان هذا الضم خطوة مزعجة هيأت في عام 1914 الخلفية لاغتيال الأرشيدوق النمساوي فرانسيس فرديناند واندلاع الحرب العالمية الأولى. كذلك فإن إيطاليا، حديثة العهد بالتوسع الامبراطوري، لم تخف ما تبته إزاء الأراضي العثمانية، فاستندت الى ذريعة واهية إذ هاجمت تركيا في 1911 - 1912 واحتلت ساحل ليبيا حالياً وجزيرة رودس وجزراً أخرى قرب الساحل التركي. وفي الوقت نفسه تقريباً، ثارت ألبانيا على الحكم العثماني، فأثارت تساؤلاً جدياً عن امكانية احتفاظ الامبراطورية بولاء رعاياها غير الأتراك.

وفي أثناء ذلك، وخلال الحرب البلقانية الأولى (1912 - 1913) انزلت الرابطة البلقانية (بلغاريا واليونان والجبل الأسود والصرب) هزيمة بتركيا وضمت اليها كل ما تبقى للامبراطورية العثمانية من مناطق في أوروبا، أو ما يقرب من ذلك. ثم وقعت الحرب البلقانية الثانية (1913) وتمكنت الامبراطورية العثمانية من استعادة بعض الأراضي في تراقيا، الاقليم الواقع مباشرة عبر الماء في مواجهة تركيا الآسيوية. ولكن هذا النصر بدا مجرد فترة قصيرة للتقاط الأنفاس في سياق تفكك الامبراطورية المستمر. ولذلك فإن عصبة الأتراك الفتیان التي استولت على السلطة في القسطنطينية وحكمت الامبراطورية كوزراء في حكومة السلطان، شعرت بالخوف من أن تكون ممتلكات الامبراطورية في خطر ماحق، وان الضواري الأوروبية تنهياً للطباق على الفريسة.

قبل ذلك بوقت قصير، كانت الدول الأوروبية قد تقاسمت القارة الأفريقية في ما بينها، وبعض هذه الدول كانت لديه شهية لفتوحات جديدة. ولكن الاتجاهات المفتوحة أمامها كانت ضئيلة. فالكثير من سطح الكرة الأرضية

كان مستولى عليه: ربه استولت عليه الامبراطورية البريطانية والسدس كان من نصيب الامبراطورية الروسية. أما نصف الكرة الأرضية الغربي فقد وقع في حرم مبدأ مونرو وبذلك نال حماية الولايات المتحدة. بقي الشرق الأوسط وحده منطقة قابلة للأخذ. كانت ثمة شائعات عن طموحات فرنسية في سورية، وعن مخططات ايطالية وروسية أبعد الى الشمال، وعن مطالب متزاحمة يونانية وبلغارية ونمساوية في الغرب. ووراء نيران المخيمات، كان قادة الاتحاد والترقي يحسون بحركة الضواري في الظلام استعداداً للانقضاض.



## (2)

كانت قناعة قيادة جمعية الاتحاد والترقي أن برنامجها لتحرير الامبراطورية من السيطرة الأوروبية - وهو برنامج لم يكن رجال الدولة البريطانيون وغيرهم على علم به أو انهم لم يفهموه - سيعجل في وقوع الهجوم. لقد كان موقف جمعية الاتحاد والترقي من أوروبا وسطاً بين الكره والاعجاب - فهي تنظر الى أوروبا غير المسلمة نظرة ازدراء، وتنظر الى أساليبيها وانجازاتها العصرية نظرة إعجاب - وفي نيتها أن تحطم الأصفاد الأوروبية في سبيل أن تقلد أوروبا فتزداد شبيهاً بها. ولعل الأتراك الفتيان لم تنهياً لهم خطة متماسكة لنفض السيطرة الأوروبية الاقتصادية، ومع ذلك كانوا عازمين على وضع نهاية لها بشكل من الأشكال.

أحد المواضيع الأساسية، التي أدرجت في برنامج جمعية الاتحاد والترقي الداخلي، تحديث النقل والاتصالات. كانت المصالح الأوروبية مستعدة لامداد الامبراطورية العثمانية بما تفتقر اليه من أنظمة وشبكات في هذا المضمار، على أن تعود ملكيتها إلى هذه المصالح، والأفضل أن يتم ذلك على أساس امتيازات حصرية. ولكن قادة الاتحاد والترقي رغبوا، مثلما رغب غيرهم من القادة العثمانيين، في ادخال التقنيات الأوروبية الى بلادهم، مصممين في الوقت عينه على تفادي الملكية الأوروبية أو الاشراف الأوروبي، وكانت تركيا قد أنشأت خلال القرن التاسع عشر خدمة بريدية خاصة بها، ولكن هذه الخدمة قامت جنباً إلى جنب ضمن الامبراطورية مع خدمات بريدية أوجدتها مختلف الدول الأوروبية لنفسها<sup>[34]</sup>. كذلك أنشأت الامبراطورية العثمانية شبكة اتصالات برقية خاصة بها<sup>[35]</sup> بعد أن رفضت عرضاً تقدمت به إحدى الشركات البريطانية. وكان ثمة عدد من الهواتف قيد الاستعمال في القسطنطينية وأزمير في عام 1914، وسبق أن مُنحت إحدى الشركات الأجنبية امتياز تمديد شبكة خطوط هاتفية في القسطنطينية عام 1911 ولكنها لم تحرز تقدماً كبيراً<sup>[36]</sup>.

ومع ظهور السفن البخارية انتقلت حركة الملاحة البحرية العثمانية في معظمها الى أيدي مصالح أجنبية<sup>[37]</sup>. كما أن الخطوط الحديدية في الامبراطورية، على ندرتها وعلى علاتها، كانت في أيد أجنبية<sup>[38]</sup> وكانت الطرق قليلة العدد، وأما السيارات التي تستخدمها، في عام 1914، فأقل منها عدداً: 110 في القسطنطينية و77 في بقية أنحاء الامبراطورية. كانت وسيلة النقل التقليدية هي قوافل الجمال، والخيول، والبغال، والعربات التي تجرها حيوانات - وهذه كانت أعجز من أن تنافس القطارات التي يملكها

الأجانب. والسرعة الاعتيادية لقافلة مختلطة كانت تتراوح بين ميلين وثلاثة أميال في الساعة، أما رحلتها اليومية فتتراوح بين خمسة عشر ميلاً وعشرين ميلاً فقط<sup>[39]</sup>. في حين كانت سرعة القطار لا تقل عن عشرة أضعاف سرعة القوافل، وأجور نقل السلع بالقطارات لا تتجاوز نسبة عشرة بالمئة من أجور النقل بواسطة القوافل<sup>[40]</sup>.

الورطة التي عانت منها جمعية الاتحاد والترقي تكمن في عزمها على التحول من القوافل الى السكك الحديدية من دون أن تخضع الامبراطورية لسيطرة الأوروبيين مالكي السكك الحديدية. ومن قبل، مارس الأوروبيون تسلطاً اقتصادياً مقتته جمعية الاتحاد والترقي ولكنها وجدت نفسها مغلولة اليدين ازاءه. فوضع تركيا كان وضعاً غير متكافئ إذ أن صادراتها مقتصرة على الثروات الطبيعية في حين انها مضطرة لاستيراد حاجياتها من المواد المصنعة. فكان لا بد من التصنيع من أجل إصلاح خلل التوازن. غير أنه لم يكن لدى الباب العالي برنامج لتحقيق ذلك. ولم يكن في قدرة الامبراطورية أن توفر سوى الأيدي العاملة غير المدربة، فإذا أنشأ الأوروبيون الخطوط الحديدية أو أي نوع من الآليات، أحضروا معهم أفراداً من أبناء جنسهم الأوروبيين لصيانتها. كانت ثمة حاجة الى تدريب أهالي البلاد في الامبراطورية، ومرة أخرى لم يكن لدى الباب العالي برنامج لهذه الغاية.

وكان للأوروبيين أيضاً نصيب في الاشراف على ما يمثل القلب لأي كيان سياسي: الشؤون المالية. لقد عجز الباب العالي عن سداد دين على الدولة تجاوز مبلغ ألف مليون دولار في عام 1875، فاضطر السلطان الى إصدار مرسوم (فرمان) في عام 1881 يضع إدارة الدين العام العثماني في أيدي الأوروبيين. وقد أنشئ لهذه الغاية مجلس كانت له سلطة الاشراف على نحو ربع إيرادات الامبراطورية العثمانية. واستأثر المجلس بالسلطة على الرسوم الجمركية التي تفرض على مواد أساسية كالمشروبات الكحولية، والطوايع، والملح، والسمك<sup>[41]</sup>. فلم يعد الباب العالي سيد خزينته أو إدارة جماركه. لقد عازمت جمعية الاتحاد والترقي على استعادة الاشراف على هذه المجالات، ولكنها لم تهيبىء برنامجاً لإعادة التمويل.

أشد ما كان يميته القادة العثمانيون كافة هو الامتيازات الأجنبية التي منحت الأوروبيين وضعاً اقتصادياً متميزاً ضمن الامبراطورية، ووضعتهم في أحوال كثيرة تحت الاشراف القضائي لقناصل بلدانهم عوضاً عن خضوعهم للقضاء العثماني. فلم يكن مسموحاً لشرطي تركي أن يدخل مسكن أوروبي أو أميركي ما لم يحصل على إذن من القنصل المختص. كانت رغبة جمعية الاتحاد والترقي أن تلغي هذه الامتيازات الأجنبية.

ثمة سبب آخر لاستياء جمعية الاتحاد والترقي هو أن الدول الأوروبية كانت أحياناً تنتهك السيادة العثمانية بتدخلها للدفاع عن الأقليات المسيحية أو حقوق المسيحيين. وهذا التوجه الأوروبي شكل تهديداً لبرنامج جمعية الاتحاد والترقي السري، إذ عزم الأتراك الفتيان على تثبيت سلطتهم ليس إزاء الأجانب فحسب، بل إزاء الجماعات الأخرى التي تقطن الامبراطورية أيضاً. وكان في هذا تناقض مع ما تعهدوا به عام 1908. فقد نادي البرنامج الذي أعلنته جمعية الاتحاد والترقي بالمساواة في الحقوق بين سائر الجماعات الدينية والاثنية واللغوية المقيمة على أرض الامبراطورية. ولكن ما إن تسلمت جمعية الاتحاد والترقي السلطة حتى كشفت عن الجانب المعتم لقوميتها بتأكيد هيمنة المسلمين الناطقين بالتركية على كل من سواهم. كانت هناك مساواة تقريبية في العدد بين السكان الناطقين بالعربية والسكان الناطقين بالتركية - نحو عشرة ملايين في كل جانب، أو ما يعادل أربعين بالمئة من مجموع السكان ومع ذلك كان مجلس النواب العثماني (مجلس المبعوثان) يضم مئة وخمسين تركياً وستين عربياً فقط. (هذه الأرقام غير دقيقة إذ ليس واضحاً في كلا الحالتين من هو عربي ومن هو تركي).

أما نسبة العشرين بالمئة المتبقية من السكان، ومن ضمنهم الجماعات الكبيرة من اليونانيين، والأرمن، والأكراد، واليهود، فقد عانوا من التمييز، وكان العرب هم الأشد معاناة من هذا التمييز لقد جاء في الطبعة الحادية عشرة للموسوعة البريطانية (1910 - 1911) أن القاطنين في الامبراطورية العثمانية آنذاك كانوا يتألفون من اثنين وعشرين «عرقاً» مختلفاً، ولكن «لم ينشأ قط شيء اسمه (أمة) عثمانية»، وإذا افترضنا أن فرصة قد سنحت لإنشاء أمة عثمانية، فقد هدرتها جمعية الاتحاد والترقي باستبعادها ستين بالمئة من السكان من حيز هذه الفرصة.

لقد كان طلعت وأنور وزملاؤهما قوميين من دون أمة. وفي نطاق الامبراطورية (بما هي مختلفة عن السهوب الواقعة شرقيها) كثيراً ما نجد أن الناطقين بالتركية ليسوا من أصول تركية. إن سير مارك سايكس، وهو عضو في البرلمان البريطاني قام برحلات واسعة إلى آسيا، استهل أحد الكتب التي ألفها بالتساؤل: «كم من الناس يدركون عندما يتحدثون عن تركيا والأتراك أن لا وجود لمكان كهذا أو لشعب كهذا...؟»<sup>[42]</sup>. لقد أصبح موطن الشعوب التركية القديم، تركستان، في حوزة روسيا والصين. وأكثر من نصف الشعوب التركية الآسيوية تعيش إما هناك أو في أماكن أخرى خارج الامبراطورية العثمانية، بحيث أن قيصر روسيا كان يوسعه أن يكون أحق من السلطان العثماني في ادعاء تمثيل من هم من أصل تركي. لقد ارتبط اسم أنور باشا بحلم إعادة توحيد جميع الشعوب والأراضي الآسيوية.

الناطقة بالتركية، ولا ريب في أن الفكرة راودته في عام 1914 - فكرياً كانت الفكرة رائجة - ولكنها آنذاك لم تكن بعد في نطاق مشاريعه. ثم ان أنور، الرجل الضئيل الجسم، المدمن على الحركات المسرحية والمهووس بالبرامج الكبرى التي كانت تسمياتها تبدأ بمقطع «عموم أو كل»، كانت له طموحات تتعلق بعموم المسلمين، بمعنى الوحدة الإسلامية. ولكن معاملته للمسلمين العرب أظهرت أن هذه أيضاً شعار لم يترجم الى خطة سياسية.

لقد رأت قيادة جمعية الاتحاد والترقي أن أوروبا لن تسمح للامبراطورية أن تستمر على قيد الحياة في أي حال - وحتماً لن تسمح لجمعية الاتحاد والترقي أن تطبق برنامجها - ما لم يكن هناك سبيل لاقتناع إحدى الدول الكبرى بأن تتولى حماية تركيا. فكان، بالتالي، البحث عن حليف أوروبي، هو الموضوع الملح الذي يأتي في رأس برنامج عمل جمعية الاتحاد والترقي. كان جمال باشا فرنسي الهوى، ولكنه بعدما سمع أنور يقترح تحالفاً مع ألمانيا، قال موافقاً: «لن أتردد في قبول أي تحالف ينقذ تركيا من عزلتها الحالية» [43].

### (3)

كانت جميع مشارب الراي ضمن جمعية الاتحاد والترقي متفقة في أن ما تحتاجه تركيا أشد الحاجة هو إيجاد حليف أوروبي قوي. وكان يقين الأتراك الفتیان أن أحد التكتلات الأوروبية أو إحدى الدول الكبرى الرئيسة - بريطانيا، أو فرنسا، أو ألمانيا - قادرة على حماية الامبراطورية العثمانية من الاعتداءات المقبلة على أراضيها. وباستثناء روسيا، فإن البلدان المرجح أن تغزو الامبراطورية العثمانية هي بلدان أدنى قوة مثل إيطاليا، والنمسا، وهنغاريا، واليونان، وبلغاريا.

كان جاويد، وزير المالية وعضو جمعية الاتحاد والترقي، بريطاني الهوى، وقد وجه نداء إلى بريطانيا في عام 1911، إبان الهجوم الإيطالي الأول على تركيا، وكان تشرشل وحده بين كبار الوزراء البريطانيين الذي رغب في إعطاء رد إيجابي. وقد دافع عن رأيه بأن صداقة تركيا أهم من صداقة إيطاليا، فكتب إلى وزير الخارجية البريطاني قائلاً: «إن تركيا هي أعظم سلاح في البر تستطيع ألمانيا استخدامه ضدنا»<sup>[44]</sup>. وإذ كتب جاويد في أواخر عام 1911 مقترحاً تحالفاً دائماً مع بريطانيا، أراد تشرشل ارسال رد مشجع، ولكن وزارة الخارجية البريطانية لم توافق<sup>[45]</sup>.

اتصل قادة الاتحاد والترقي سراً في ما بين أيار (مايو) وحزيران (يونيو) 1914، وبالحاح متزايد، بثلاث دول أوروبية كبرى غير بريطانيا بحثاً عن دولة حليفة<sup>[46]</sup>. كان جمال، وزير البحرية، ميالاً إلى فرنسا، ففاتحها مرات ولكنه قوبل بالصدود. أما طلعت فإنه، بدافع القنوط، فاتح روسيا - وكأنه يطلب إلى كبير اللصوص أن يصبح قائد الشرطة - فقوبل عرضه أيضاً بالصدود. أخيراً اجتمع قادة جمعية الاتحاد والترقي في دارة الصدر الأعظم وفوضوا أنور، الذي سبق أن أدى الخدمة في برلين، بمفاتيح ألمانيا بطلب التحالف معها. وقد أجري أنور اتصاله بألمانيا في 22 تموز (يوليو) 1914. لقد رفض عرضه من قبل هانز فون فانغنهايم، السفير الألماني في القسطنطينية. وهكذا اكتملت العزلة الدبلوماسية للامبراطورية العثمانية، إذ لم توافق أي من الدول الكبرى على توفير الحماية لها.

كان وزير الحربية العثماني صريحاً في بيانه للسفير الألماني سبب بحث الأتراك الفتیان عن حليف. فقد تبين للسفير فون فانغنهايم أنه لا يمكن تنفيذ الإصلاحات الداخلية التي رسمت لها جمعية الاتحاد والترقي ما لم تكن الامبراطورية العثمانية: «آمنة من هجمات تتعرض لها من الخارج»<sup>[47]</sup>. وأعرب عن اعتقاده بأن تأمين الامبراطورية من هذه الهجمات لا يتحقق إلا:

«بمساندة احدي مجموعات الدول الكبرى»[48]. والظاهر أنه عجز عن اقناع السفير الألماني بأن الامبراطورية العثمانية تملك شيئاً ذا قيمة كافية تقدمه بالمقابل.

في أثناء ذلك لم تكن حكومة بريطانيا على دراية بحركة النشاط الدبلوماسي التركي ولم تدرك أن الباب العالي يستعجل البحث عن دولة كبرى حليفة. ولم تمض أيام على رفض السفير الألماني في القسطنطينية الاقتراح العثماني حتى تلقى الوزراء البريطانيون أول اشعار باحتمال نشوء أزمة حرب في أوروبا قد تتورط فيها بريطانيا. وخلال المدة الواقعة بين 23 تموز (يوليو) 1914، عندما وجهت امبراطورية النمسا - هنغاريا انذاراً نهائياً إلى الصرب، و4 آب (أغسطس) من العام نفسه وجدت بريطانيا نفسها في حالة حرب بجانب دولتي التحالف (فرنسا وروسيا) ضد دولتي أوروبا الوسطى (ألمانيا والنمسا - هنغاريا)، قلما خطرت الامبراطورية العثمانية في بال المسؤولين البريطانيين، وحتى إذا خطرت في بالهم كان الافتراض العام أن ألمانيا قد تحاول إغراء الامبراطورية العثمانية بالتحالف معها.

لم يخطر في بال القادة البريطانيين آنذاك أن الأمر هو عكس ما تراءى لهم: أي أن تركيا هي الساعية إلى التحالف مع ألمانيا، وأن ألمانيا محجمة عن التجاوب. وحتى بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وانكشفت حقيقة أن طلعت وأنور هما اللذان سعيا للتحالف مع ألمانيا، ظل الغموض يكتنف تفاصيل كيفية افتعال الامبراطورية العثمانية وألمانيا حلفهما. معاصرو ذلك الزمن وبعض المؤرخين ألقوا التبعة على تشرشل الذي قيل أنه دفع الأتراك إلى أحضان ألمانيا. ولكن البيانات التي ما زالت تبرز إلى الوجود من محفوظات الوثائق الدبلوماسية تروي قصة مختلفة وأكثر تعقيداً - قصة بدأت في عام 1914 عشية أزمة حرب، لا تشرشل ولا زملاؤه في مجلس الوزراء رأوا نذرها.

# الفصل الخامس

## ونستون تشرشل عشية الحرب

### (1)

في عام 1914 بلغ ونستون تشرشل التاسعة والثلاثين من عمره، وكان على أبواب السنة الرابعة في منصب اللورد الأول للاميرالية في حكومة حزب الأحرار برئاسة هيربرت اسكويث. كانت إدارته لشؤون منصبه الهام تتسم بالكفاءة والنشاط، ولكنه لم يكن بعد تلك الشخصية التي تفرض نفسها والتي عرفها العالم في ما بعد.

إن طاقته ومواهبه - وملكة إعلان بطولاته - قد نقلته إلى المقدمة في سن مبكرة. غير أن ما ثبته في منصبه الحكومي إنما كان إلى حد بعيد ما لقيه من عطف لدى رئيس الوزراء، ومن رعاية قوية لدى ديفيد لويد جورج وزير المالية. كان يصغر بقية أعضاء مجلس الوزراء بعشر سنين أو أكثر، وكان الرأي الشائع أنه لم يبلغ مرحلة كافية من الثبات والنضج تؤهله لتسلم منصبه الرفيع.

وكان لا يزال يتكلم وفي نطقه اثر لثغة تلميذ مدرسة، ولم تبرح وجهه بعد آخر أمارات اليقظة. ولم تملكه عادة التخفر العدواني، وتقطيب الجبين ووضع السيجار بين الشفتين إلا منذ أمد قريب. وقد بدأ شعره الأشهب يخف قليلاً. وخلال السنوات الأخيرة ازداد وزنه، ولكنه لم يبلغ حد السمنة. متورد الوجنتين، ربع القامة، مكتنز الجسم، وليس في تكوينه ما يأخذ بمجامع القلوب. وما كان إلا لذي بصيرة أن يرى أنه سيبدو يوماً ما شخصاً مرهوباً.

لم يكن شخصه بل شخصيته المفعملة حيوية هي التي فتنت من شاءت لهم الصدف أن يقابلوه. كان شخصاً متقلباً، مسكوناً بشبح والده اللامع الذي وافاه الأجل في سن الخامسة والأربعين وهو يعاني من اخفاق سياسي، وإذ خشي أن يموت هو أيضاً في سن الشباب، أخذ دون حياء يزحم الصديق والعدو في اندفاعه إلى القمة خلال ما ظهر أنه الزمن المتبقي من عمره. بعض الناس حسبوه كوالده فاقد التوازن عاطفياً، وآخرون رأوا أن الأمر لا يعدو كونه صغير السن. كان يجمع بين جوانب العظمة وجوانب الطفولة، ولكن زملاءه كانوا أكثر استعداداً لرؤية جوانب الطفولة. كان عكر المزاج، ويعالج الأمور من زاوية شخصية، وكثيراً ما يطلق لسانه في المهاترة عندما

يقتضي الموقف منه الاصغاء والانتباه. ومع كونه سخيّاً طيب القلب، فلم يتحسس أفكار الآخرين ومشاعرهم، وكثيراً ما يسهو عن تأثير كلامه وسلوكه على الآخرين. كان ميالاً إلى الصخب، وينفعل في كل أمر يتعهد به. وزملاؤه الذين حاولوا البعد عن الخصام وتهوين الأمور وجدوه انساناً متعباً.

طالما كان يبدل آراءه. ولأنه دوماً ينفعل عند الأخذ بوجهة نظر ما، فإن العنف والتطرف والتكرار كانت سمات تبديل أفكاره. كان منتبهاً إلى حزب المحافظين فانتقل الآن إلى حزب الأحرار. وكان أشد الوزراء موالاة للألمان فصار أكثرهم عداً للألمان. وكان في طليعة دعاة الصداقة مع الأتراك في مجلس الوزراء فصار أشدهم عداوة للأتراك. بدا في نظر أعدائه أحق إلى درجة الخطر، وحتى أصدقاؤه لاحظوا أنه يفقد أعصابه بسهولة زائدة.

وخلافاً للآخرين، كان يأنف سلوك طريق السلامة. خدم الجندية في الهند، وشاهد الحرب في كوبا والسودان، وصار بطلاً بهروبه من معسكر لأسرى الحرب في جنوب أفريقيا. إقدامه على المجازفات أكسبه الشهرة ورفعته إلى القمة في السياسة. كان سعيداً في حياته الزوجية وفي منصبه الحكومي الرفيع، ولكنه كان عصياً لا يستقر على حال، كان ينشد عوالم تفتحها بريطانيا عنوة.

قبل ذلك بثلاث سنوات - في صيف عام 1911 - سنحت له، على غير توقع، فرصة لتحقيق بعض طموحاته. آنذاك، وخلال أزمة دولية قصيرة الأمد، صدمت حكومة اسكويث إذ علمت أن الأميرالية غير مهية للقيام بمهام لمساندة الجيش زمن الحرب. ولقد أصيب أعضاء مجلس الوزراء بالذهول إذ قيل لهم أن البحرية الملكية عاجزة عن نقل حملة بريطانية عبر القنال الانكليزي. ونمي اليهم أيضاً أن الأميرالية معرضة عن إنشاء هيئة أركان حرب للأسطول. وقد اتضح لرئيس الوزراء اسكويث وزملائه أنه لا بد من تعيين لورد أول جديد للأميرالية لكي ينهض باصلاحات أساسية.

كان تشرشل آنذاك وزيراً للداخلية، وقد شرع يتمحل المنصب الجديد، فأزره نصيحة لويد جورج ورشحه لهذا المنصب. ولم يكن مما يخفى على البصيرة أن حداثة سنه كانت عقبة أمام ترشيحه. كان في السادسة والثلاثين، وباستثناء لا سابق له كان أصغر من شغل منصب وزير الداخلية. وأعداؤه الكثر الذين ادعوا أنه تجاوز حدود الأصول في اندفاعه قد رأوا أنه جاوز أيضاً قدراته. فقد بدا لهم أن فيه الكثير من العيوب المميزة للشباب: العناد، وقلة الخبرة، وفساد الرأي، وعدم التروي. وقد عبر منافسه الرئيسي على منصب اللورد الأول للأميرالية عن شديد إعجابه بطاقة تشرشل وشجاعته، ولكنه ردد الاتهام المعتاد أن وزير الداخلية الشاب شديد الميل إلى التصرف أولاً فالتفكير ثانياً<sup>[49]</sup>.



ولسبب ما قرر رئيس الوزراء أن يجرب الحظ مع تشرشل. ويدل سجل أعمال الأميرالية من صيف عام 1911 الى صيف عام 1914 أن رئيس الوزراء ربح رهانه. وبإِجاء من اللورد فيشر، أميرال الأسطول المتقاعد والذي كان لا يزال مثيراً للجدل، حوّل تشرشل أسطول القرن التاسع عشر الذي يستخدم الفحم وقوداً، الى أسطول القرن العشرين الذي يستخدم النفط وقوداً.

## (2)

انتخب تشرشل عضواً في البرلمان للمرة الأولى في عام 1900، فمارس عضويته (عام 1901) نائباً عن حزب المحافظين: كانت تطلق على المحافظين آنذاك تسمية الاتحاديين. ولكنه في عام 1904 انتقل إلى صفوف الأحرار بسبب خلاف شديد حول موضوع حرية التجارة.

ولأنه منشق سياسياً، فقد ارتاب فيه كلا الحزبين - ولم تكن هذه الريبة دون أساس بالمرّة، إذ أن نزعاته السياسية لم تكن كلياً مع أي من الحزبين، كان يميل إلى الأحرار في المسائل الاجتماعية والاقتصادية، أما عندما تصل الأمور إلى السياسة الخارجية والسياسة الدفاعية فهو بالغريرة محافظ. وقد كان تشرشل بطبعه محارباً وغير متعاطف مع نهج المسالمة المثالي الذي يأخذ به حزب الأحرار.

لقد ورث عبقرية فن الحروب من أعظم قادة بريطانيا العسكريين، من أحد أجداده، دوق مارلبورو. وتلقى دراسته في أكاديمية عسكرية لا في إحدى الجامعات، وأدى الخدمة العسكرية ضابطاً في الجيش، وكانت مهنة السلاح تهيج خاطره.

وعندما سرحت فيوليت اسكويث بصرها من على متن اليخت انشانترس في عام 1914، في ساحل البحر الأبيض المتوسط، وهتفت هتاف التعجب: «ما أروع!»، أجابها هو: «نعم - المدى رائع - والرؤية رائعة - حبذا لو كانت لدينا بعض المدافع. من عيار ست بوصات لكان القصف أسهل...» [50].

وإذ أخذت غيوم الحرب تتلبد في أجواء صيف عام 1914 على نحو مفاجيء، بدأ المسالمون الأحرار على غير تماس مع الأحداث، في حين بدأ تشرشل في موقعه في الأميرالية أنه الرجل المناسب في المكان المناسب وفي الزمن المناسب.

# الفصل السادس

## تشرشل يستولي على السفن الحربية التركية

### (1)

بعد مدة وجيزة على اندلاع الحرب، أصبح تشرشل بطلاً في بريطانيا. ذلك أنه، بالرغم من رفض مجلس الوزراء اعطاءه الأذن، قام على مسؤوليته الشخصية بتعبئة الأسطول في أواخر أيام زمن السلم وأوعز بارساله شمالاً إلى «سكاي فلو» ليكون في مأمن من هجوم ألماني مباغت. لعل ما فعله كان مخالفاً للقانون، ولكن الأحداث سوغت تصرفاته التي قوبلت بالثناء من سائر الجهات في بريطانيا.

ذات مرة تساءلت مارغوت اسكويث، زوج رئيس الوزراء، في مفكرتها، ما الذي يجعل تشرشل متفوقاً، فكتبت تقول: «حتماً ليس ذهنه، وبالتأكيد ليس حسن تقديره - فهو في الحقيقة دائماً مخطيء جداً - ان ما يجعله متفوقاً انما هي شجاعته وحيويته - ذلك المزيج المدهش من الجد والاقدام، انه قادر دائماً ويعمل دائماً - ودائماً يضع نفسه في دائرة المجازفة. لا يتهرب قط، ولا يفتر قط ولا يحيط نفسه قط بالحماية - انه لا يني يقدم على مجازفات كبيرة» [51].

كانت تعبئة الأسطول بالرغم من مخالفته قرار مجلس الوزراء مجازفة هائلة انتهت بالظفر، حتى ألد أعداء تشرشل السياسيين كتبوا اليه في الأيام التي أعقبت دخول بريطانيا الحرب معبرين عن إعجابهم به. وظل هو، خلال جزء كبير من بقية حياته، يباهي أشد المباهاة بأن الأسطول كان مستعداً عندما نشبت الحرب.

في ذلك الحين، قبل استيلائه على بوارج تركية وضمها الى الأسطول البريطاني بالقدر نفسه من الثناء. لقد تضمنت صحيفة (تاتلر) في عدد 12 آب (أغسطس) 1914 صفحة مصورة زينتها بصورة فوتوغرافية لتشرشل وعلى وجهه سمات العزم، مع صورة لزوجته، تحت عنوان «مرحى ونستون! سرعة تعبئة الأسطول وشراء بارجتين أجنبيتين يغنيان عن مجلدات تحكي قصة جهدك وحكمتك» [52].

أما البارجتان فهما «رشادية» وأختها الأكبر «السلطان عثمان الأول». كلاتهما بنيتا في أحواض بناء السفن البريطانية وكلاتهما كانتا على جانب كبير من القوة. وقد جهزت البارجة «عثمان» بعدد من المدافع لم تجهز بمثله بارجة من قبل<sup>[53]</sup>. وكلاتهما أوصت عليهما في الأصل البرازيل، ثم كان بناؤهما لمصلحة الامبراطورية العثمانية، ومع أن «رشادية» أنزلت إلى البحر في عام 1913 فلم يتم تسليمها بسبب افتقار الأتراك إلى منشآت أحواض حديثة لرسوها. وقد نجح نائب الأميرال سير آرثر ليمبوس، رئيس البعثة البحرية البريطانية، بمساندة من تشرشل، في اتصالاته وراء الكواليس مع السلطات العثمانية، لتأمين حصول شركتين بريطانيتين هما شركة فيكرز وشركة أرمسترونغ وبتويرث، على عقد بناء منشآت الأحواض. وبعد أن اكتمل بناء هذه المنشآت، كان مقرراً أن تبحر البارجة «رشادية» من بريطانيا مباشرة بعد «السلطان عثمان الأول» التي كان مقرراً إنجاز بنائها في آب (أغسطس) 1914.

كان تشرشل مدركاً أن السفينتين تعنيان الشيء الكثير للامبراطورية العثمانية. فقد كانت النية أن تكونا مقدمة نشوء الأسطول العثماني العصري، وكان الرأي انهما ستمكنان الامبراطورية من مواجهة اليونان في بحر ايجه وروسيا في البحر الأسود، ويعود الفضل في شرائهما إلى التبرعات التي قدمت بدافع من الروح الوطنية في سائر أنحاء الامبراطورية. ولعل الحكايات التي تحكى لا تخلو من مبالغات، ولكن قيل أن النساء بعن حليهن وان تلامذة المدارس تخلوا عن مصروف الجيب للاسهام في التبرع الشعبي<sup>[54]</sup>. وقد غادر الأميرال ليمبوس القسطنطينية إلى عرض البحر في 27 تموز (يوليو) 1914 وبصحبه سفن من الأسطول التركي، بانتظار الترحيب بوصول «السلطان عثمان الأول» ومرافقتها عبر مضائق الدردنيل إلى العاصمة العثمانية، حيث تقرر احياء «أسبوع البحرية» باحتفالات تتسم بالبذخ تكريماً لوزير البحرية أحمد جمال، وعلى شرف الصداقة البريطانية - العثمانية.

كان تشرشل يعتبر أشد أعضاء وزارة اسكويث صداقة للأتراك، وقد تتبع بعناية وساند بحماسة بعثة الأميرال ليمبوس في تركيا منذ بدئها قبل سنوات. وكانت البعثة الاستشارية البريطانية إلى جيش العثماني، بقيادة الجنرال أوتو ليمان فون ساندرز، وهو جنرال بروسي من سلاح الفرسان. وإلى حد ما كانت البعثتان متكافئتين. كان الرأي أن النفوذ البريطاني قوي في وزارة البحرية العثمانية، وأن النفوذ الألماني أقوى ما يكون في وزارة الحربية. وقد كانت لندن لا تعرف إلا القليل عن شؤون الشرق الأوسط السياسية، ولكن تشرشل كان متميزاً بميزة نادرة، إذ التقى شخصياً ثلاثاً من

الشخصيات الخمس القيادية في الحكومة العثمانية: طلعت، وأنور ووزير المالية جاويد. ولذلك سنحت له الفرصة أن يعلم أن دور بريطانيا في الامداد البحري والمشورة البحرية يمكن أن تكون له عواقب سياسية في القسطنطينية.

بيد أن أزمة الحرب الأوروبية أضفت أهمية في كل من لندن وبرلين على السفينتين الحربيتين التركيتين الحديثتين. فقد كانت «رشادية» و«السلطان عثمان الأول» بارجتين من طراز «دريدنوت» الحديث. وهما بذلك تتفوقان على سائر السفن العائمة بل تجعلانها من طراز انقضى زمنه. ومع حلول صيف عام 1914، كان الأسطول الملكي البريطاني قد تسلم ما يكفي لاعطاء بريطانيا هامش تفوق على ألمانيا بسبع بوارج من طراز «دريدنوت». وإذا كان متوقعاً أن تكون الحرب الأوروبية حرباً قصيرة، بدا أن الوقت لا يسمح ببناء مزيد من هذه البوارج قبل دخول المعركة وحسمها. ولذلك كان الرأي أن إضافة البارجتين من طراز «دريدنوت» اللتين بنيتا لتركيا ستكون تعزيزاً هاماً لقوة الأسطول البريطاني، في حين أن امتلاكهما من قبل الامبراطورية الألمانية أو حلفائها سيحول ميزان القوى بصورة حاسمة ضد بريطانيا، ولم يكن ضرباً من الخيال الاعتقاد بأن البارجتين «شادية» و«السلطان عثمان الأول» يمكنهما أن تقوما بدور مادي في تقرير نتيجة ما كان مقدراً له أن يكون الحرب العالمية الأولى.

في مطلع الأسبوع الذي بدأ في 27 تموز (يوليو) 1914، وفيما كان اللورد الأول للأميرالية يتخذ إجراءات احتياطية لمواجهة أزمة الحرب، طرح مسألة امكانية استيلاء الأسطول الملكي البريطاني على البارجتين التركيتين. إن سلسلة الأحداث التي انسابت ظاهرياً من مبادرة تشرشل في هذا الشأن، قد أدت الى تحميله تبعة الاندلاع المأساوي للحرب في الشرق الأوسط. وهو بدوره حاول الدفاع عن نفسه بالتظاهر انه لم يفعل سوى تنفيذ أوامر معتمدة. أن تاريخ هذه الأمور ظل ملتبساً على الناس منذ ذلك الحين لأن رواية تشرشل ورواية خصومه كلاتهما كاذبتان.

وفقاً لتاريخ الحرب العالمية الأولى الذي كتبه تشرشل، كانت خطط الطوارئ البريطانية التي أقرت في عام 1912 تقضي بالاستيلاء على جميع السفن البحرية الأجنبية، التي يجري بناؤها في الأحواض البريطانية، إذا ما وقعت الحرب. فلما نشبت الحرب في عام 1914، كانت ثمة سفن حربية يجري بناؤها في الأحواض البريطانية لحساب تركيا، وتشيلي، واليونان، والبرازيل وهولندا. وما يقوله تشرشل هو أنه لم يفعل سوى تطبيق الأنظمة التي أقرت في عام 1912. وروايته للأمور تعني ضمناً أنه لم يختص السفن العثمانية بأجرائه، بل أصدر أوامر تنطبق على سائر السفن الحربية الأجنبية التي كانت قيد البناء. وكتب يقول ان تدابير الاستيلاء على هذه السفن

«تؤلف خطة محكمة ومفصلة» وضعت قبل سنوات وصيغت في صيغتها الأخيرة عام 1912[55].

ولكن هذه الرواية ليست صحيحة. ان الاستيلاء على السفن التركية كان فكرة منشئها تشرشل الذي خطرت له الفكرة في صيف عام 1914.

خلال الأسبوع الذي سبق نشوب الحرب، أثرت للمرة الأولى مسألة الاستيلاء على السفن الحربية الأجنبية يوم الثلاثاء 28 تموز (يوليو) 1914، في استجواب موجه من تشرشل الى لورد البحر الأول، الأمير لويس أمير باتنبرغ، وإلى لورد البحر الثالث، سير أرشيبالد مور. قال في استجوابه: «إذا ما اقتضت الضرورة الاستيلاء على البارجتين التركيتين اللتين يوشك أن ينتهي بناؤهما في الأحواض البريطانية، أرجو إعداد صيغة الخطط التفصيلية التي تبين بدقة الاجراء الاداري الذي يتطلبه الاستيلاء عليهما والمعاملات المالية التي تلي ذلك»[56].

نظر الأميرال مور في الأمر، فلم يعثر على أي إجراء قانوني أو إداري يسوّغ الاستيلاء على السفينتين التركيتين. وكان أن استشار أحد المسؤولين الحقوقيين في وزارة الخارجية، فأخبره هذا أن لا وجود لسابقة اتخاذ مثل هذا الاجراء، وقال حقوقي وزارة الخارجية انه لو كانت بريطانيا في حالة حرب لأمكنّت المحاجة بأن المصالح القومية لها أسبقية على الحقوق القانونية، أما وان بريطانيا ليست في حالة حرب[57] فلا سند قانونياً يبرر استيلاء تشرشل على سفن مملوكة من دولة أجنبية. وكانت نصيحة هذا الحقوقي انه إذا كانت الأميرالية حقاً في حاجة إلى السفينتين فينبغي لها أن تحاول اقناع الحكومة العثمانية ببيعهما[58].

ارتاب الأتراك في ما يدور في ذهن تشرشل، فقد أُنذرت وزارة الخارجية الأميرالية بأن البارجة «السلطان عثمان الأولى» تتزود بالوقود وتلقّت أوامر بالمغادرة الى القسطنطينية فوراً مع ان بناءها لم يكتمل[59]. عندها أصدر تشرشل في الحال أوامر الى الجهات التي تبني البارجتين باحتجازهما. وأصدر أيضاً أوامره الى قوات الأمن البريطانية بحراسة السفينتين ومنع بحارتهما الأتراك من الصعود اليهما أو رفع العلم العثماني عليهما (وهذا كان من شأنه، وفقاً للقانون الدولي السائد، أن يجعل منهما أرضاً عثمانية).

في اليوم التالي، أشار المدعي العام على تشرشل بأن ما هو فاعله لا يسوّغه القانون، ولكن مصلحة الكومونولث لها أسبقية على الاعتبارات الأخرى، وان هذه المصلحة قد توفر له العذر في احتجاز السفينتين مؤقتاً[60]. وأبدى مسؤول كبير من الموظفين الدائمين في وزارة الخارجية

وجهة نظر مماثلة في اليوم عينه، ولكنه وضعها ضمن منظور سياسي أوسع وعملي أكثر. قال في مذكرة: «أرى إنه يجب أن نسمح للأميرالية بأن تعالج هذه المسألة وفق ما تعتبره ضرورياً ثم ندافع عن تصرفنا أمام تركيا بقدر ما نستطيع» [61].

في 31 تموز (يوليو) أخذ مجلس الوزراء بوجهة نظر تشرشل القائلة أنه ينبغي له أن يضع يده على السفينتين التركيتين لتسليمهما إلى الأسطول الملكي البريطاني من أجل احتمال استخدامهما ضد ألمانيا في حال وقوع حرب، وبناء على ذلك صعد بحارة بريطانيون إلى البارجة «السلطان عثمان الأول». عندئذ جاء السفير العثماني إلى وزارة الخارجية البريطانية، طالباً تفسيراً للأمر، فكان كل ما قيل له أن البارجة محتجزة في الوقت الراهن [62].

قبل منتصف الليل في الأول من آب (أغسطس) وجه تشرشل تعليمات إلى الأميرال مور، بشأن تعبئة الأسطول، تقضي بإبلاغ شركتي فيكرز وأرمسترونغ أن البارجتين العثمانيتين قيد الاحتجاز وأن الأميرالية ترى الدخول في مفاوضات لابتياعهما [63].

وللمرة الأولى، أخذ تشرشل علماً بأن هناك سفناً حربية تبنيها أحواض بناء السفن البريطانية لبلدان أخرى غير تركيا. كان الأميرال مور قد لفت انتباهه إلى ذلك قبل عدة أيام، ولكن تشرشل لم يرسل رداً. أما الآن - بالرغم من أن السفن الأجنبية الأخرى لم تكن في مثل أهمية البارجتين التركيتين - فقد أمر باحتجازها أيضاً لاكمال بنائها وابتياعها في نهاية المطاف.

وفي الثالث من آب (أغسطس)، شرعت الأميرالية في إعداد التدابير مع شركة أرمسترونغ لتسليم «السلطان عثمان الأول» إلى الأسطول الملكي في الحال [64]. ومساء اليوم نفسه، أبرقت وزارة الخارجية إلى السفارة البريطانية في القسطنطينية بتعليمات لإبلاغ الحكومة العثمانية أن بريطانيا راغبة في نقل العقد الخاص بشراء البارجة «عثمان» إلى حكومة جلالته [65]. وفي اليوم التالي، أرسل سير ادوارد غراي برقية أخرى إلى القسطنطينية أبدى فيها يقينه أن الحكومة العثمانية سوف تتفهم موقف بريطانيا وأن «أية خسارة مالية أو خسارة أخرى لتركيا ستلقى ما تستحقه من اهتمام» [66].

ثمة نقطة رئيسية، ولكنها غابت عن الأبصار، هي أن الحكومة العثمانية لم تعلم للمرة الأولى باستيلاء تشرشل على البارجة من خلال الإشعار الرسمي في برقية الثالث من آب (أغسطس)، بل أن الأتراك علموا في 31 تموز

(يوليو) أن البارجتين هما في سبيل الاستيلاء عليهما، كما أنهم في 29 تموز أو قبل هذا التاريخ، كانت لديهم شبكات قوية بعزم بريطانيا على أخذ البارجتين؛ إن أهمية هذه التواريخ سوف تتضح للقارئ في الحال.



## (2)

عند نشوء أزمة الحرب في 23 تموز (يوليو) شهدت برلين إعادة نظر في قيمة تركيا كدولة حليفة. وفي 24 تموز (يوليو)، أبطل القيصر غليوم الثاني شخصياً القرار السلبي الذي اتخذته سفيره في القسطنطينية فأمر باستقصاء عرض التحالف الذي تقدم به أنور. كانت مذكرة الانذار النهائي النمساوي الى الصرب - التي فجرت أزمة الحرب في أوروبا - قد سلمت مساء اليوم السابق، وقرر القيصر الألماني أن المصلحة العثمانية في عقد تحالف يجب الاستفادة منها في الوقت الراهن الأسباب تتعلق بالمصلحة» [67].

بدأت في الحال محادثات سرية في القسطنطينية. وكان المفاوضون في الجانب العثماني الأمير سعيد حليم، الصدر الأعظم، ووزير الخارجية، وطلعت بك، وزير الداخلية، وأنور باشا، وزير الحربية. ومع أن أنور كان قد أبلغ السفير الألماني أن أغلبية أعضاء اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي تحبذ التحالف مع ألمانيا، فقد أخفى القادة العثمانيون الثلاثة مفاوضاتهم عن اللجنة المركزية بل عن زميلهم القوي جمال باشا وزير البحرية [68].

في 28 تموز (يوليو) أرسل القادة العثمانيون الى برلين مسودة معاهدة التحالف المقترحة من قبلهم، وبالرغم من وجهة نظر القيصر، ظل رئيس الحكومة الألمانية، المستشار تيوبالد فون بتمان هولفيغ، فاقد الحماسية لهذا الارتباط مع الامبراطورية العثمانية، وفي 31 تموز (يوليو)، أي في اليوم الذي طلبت إليه رئاسة الأركان الألمانية إصدار أمر إعلان الحرب، أرسل بتمان هولفيغ برقية إلى سفيره في القسطنطينية يأمره فيها بعدم التوقيع على معاهدة تحالف مع الامبراطورية العثمانية ما لم يبلغ حد اليقين «أن تركيا قادرة أو أنها ستأخذ على عاتقها القيام بعمل ضد روسيا جدير بأن يسمى عملاً ضد روسيا» [69].

كان الأول من آب (أغسطس) يوماً حاسماً في المفاوضات. أن تفاصيل ما قيل في سياق المساومة لا تزال مجهولة. لقد كان فون فانغنهايم، في الجانب الألماني، يتصرف وفق تعليمات مباشرة من رئيس حكومته؛ لقد أوضح المستشار في برلين تمام الإيضاح وجوب رفض الاقتراح العثماني ما لم يكن لدى الأتراك شيء هام على غير توقع يسهمون به في قضية الألمان في الحرب. والحق أن الأتراك لم تكن عندهم رغبة إطلاقاً في المشاركة في القتال. وقد أظهرت الأحداث اللاحقة أن الصدر الأعظم وشركاءه كانوا يأملون في ألا يُجَرَّوا الى الحرب. وهكذا لم يكن لديهم، حسب ظاهر الأمور،

ما يعرضونه على الألمان. ومع ذلك ما إن وصل ذلك اليوم الى ختامه حتى كان الأتراك الفتيان الثلاثة قد انتزعوا اتفاق تحالف من الألمان، مهره الجانبان بالتوقيع بعد ظهر اليوم التالي.

جرت المفاوضات في السر، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أن المادة الثامنة من المعاهدة نصت على بقاء الاتفاق سرياً. كانت المادة الرابعة في المعاهدة هي الهدف الرئيس الذي سعى قادة جمعية الاتحاد والترقي الى تحقيقه: «تأخذ ألمانيا على نفسها أن تدافع، بقوة السلاح إذا دعت الحاجة، عن الأراضي العثمانية في حالة تهديدها»<sup>[70]</sup>. كان هذا الالتزام الألماني التزاماً يستمر طوال مدة المعاهدة، التي ينتهي مفعولها في 31 كانون الأول (ديسمبر) 1918.

وتعهدت الامبراطورية العثمانية بدورها أن تراعي الحياد الدقيق في النزاع الذي كان قائماً آنذاك بين الصرب والنمسا - هنغاريا وألا تدخل الحرب إلا إذا اقتضت أحكام معاهدة ألمانيا مع النمسا أن تدخل ألمانيا الحرب<sup>[71]</sup>. في ظروف كهذه، وفي ظروف كهذه فقط، تعهدت الامبراطورية العثمانية أن تتدخل هي أيضاً، وأن تسمح للبعثة العسكرية الألمانية في القسطنطينية بأن تمارس «تأثيراً فاعلاً» على سير جيوشها.

في اليوم التالي للتوقيع على المعاهدة، أمر الباب العالي ببدء التعبئة العامة، ولكنه أعلن أيضاً الحياد في النزاع الأوروبي. ظلت المعاهدة سرية، وادعى أنور والمتواطئون معه أن برنامج التعبئة لم يكن موجهاً ضد الدول الحليفة. وبذل القادة العثمانيون جهداً خاصاً في أحاديثهم مع ممثلي الحلفاء لتأكيد امكانية قيام علاقات صداقة، بل ذهب أنور الى حد الايحاء بأن تركيا قد تنضم الى الحلفاء.

وبعد أن كانت برلين تراودها الشكوك حتى ذلك الحين في شأن ما تستطيع الامبراطورية العثمانية أن تقدم من اسهام في الحرب، استبد بها الآن الحرص على الحصول على مساعدة تركيا. وفي الخامس من آب (أغسطس)، أخذ رئيس هيئة الأركان العامة الألمانية يلح في الحصول على مساعدة تركيا ضد بريطانيا وضد روسيا أيضاً<sup>[72]</sup>، مع أنه قبل أسابيع فقط كان يرى أن وجود الامبراطورية العثمانية الى جانب المانيا ليس «مغنياً»، ولكن الأتراك ظلوا يرفضون التسرع في العمل. والحق أن افتقارهم الى وسائل النقل حال دون اسراع الامبراطورية في تحقيق التعبئة العامة.

لقد كان الجيش العثماني منذ سنوات عديدة خاضعاً لتوجيه بعثة عسكرية ألمانية، ولذلك يفترض في السفير الألماني انه كان يعرف أن دخول الامبراطورية العثمانية الحرب متعذر من الناحية المادية قبل أواخر الخريف

أو قبل الشتاء. ولما كان اعتقاد الجميع في الأول من آب (أغسطس) أن الحرب ستنتهي في غضون شهور قليلة، فإن السفير فون فانغنهايم منح الأتراك الفتیان حلفاً، مع انه كان يؤمن من غير شك أن الامبراطورية العثمانية غير مستعدة للقتال قبل أن تكون الحرب قد أوشكت على نهايتها، بيد أن التعليمات الصادرة اليه من برلين تقضي بعدم ابرام المعاهدة ما لم يبرهن له الأتراك الفتیان أن لديهم شيئاً ما ذا معنى يسهمون به في المجهود الحربي الألماني. فماذا كان هذا «الشيء ما ذو المعنى»؟

يبدو أن الاعتقاد العام لدى المؤرخين هو أن الأتراك لم يعرضوا على السفير الألماني شيئاً جديداً في ذلك اليوم - وان فون فانغنهايم تجاهل، في الواقع، التعليمات التي تلقاها من برلين. فإذا صح هذا الرأي، يمكن القول أنه ربما كان يسعى لارضاء قيصر ألمانيا، أو لعل خطر اندلاع حرب أوروبية عامة جعله يرى أن الامبراطورية العثمانية هي أهم عسكرياً مما كان يعتقد قبل عشرة أيام. أما إذا كان فون فانغنهايم حاول فعلاً أن يتقيد بالتعليمات التي تلقاها من برلين، فإن السؤال الذي لم يطرحه المؤرخون يصبح مثيراً للاستغراب: ما الذي عرضه انور على ألمانيا في الأول من آب (أغسطس) وكان من الأهمية بحيث غير السفير الألماني رأيه فوافق على أن تقدم ألمانيا، لقاء ذلك الحماية للامبراطورية العثمانية؟

### (3)

قبل عقدين من السنين تكشفت حقيقة غريبة. فقد أعلن احد دارسي محفوظات الوثائق الدبلوماسية الألمانية أن هذه الوثائق أظهرت أن أنور وطلعت عرضا على نحو مفاجيء خلال اجتماعهما مع السفير فون فانغنهايم في الأول من آب (أغسطس) 1914، تسليم ألمانيا أضخم بارجة في العالم: البارجة «السلطان عثمان الأول»<sup>[73]</sup>، فقبل فون فانغنهايم العرض. وذكرت تقارير المخابرات البريطانية من وراء الخطوط الألمانية بعد ذلك بأسبوعين، أن ضباطاً من الأسطول الألماني كانوا ينتظرون بشوق أن يتسلموا البارجة الجديدة البالغة الأهمية - وأصيبوا بخيبة مريرة عندما استولى عليها تشرشل<sup>[74]</sup>. لم يتفحص المؤرخون هذه الواقعة بكثير من التفصيل، ولعل ذلك عائد إلى أنها في ظاهرها تبدو عصية على التفسير. إذ لا يمكن أن يكون قد خطر لأنور وطلعت، أن يتخليا عن البارجة التركية الثمينة، التي تعلق بها السكان عاطفياً وتبرعوا من أجلها بالكثير من المال، وكانت موضع اعتزاز الامبراطورية وفخرها. بل ان مجرد اقتراح تسليمها كان يعني الانتحار السياسي لأي زعيم عثماني يقدم على ذلك. غير أن البيئة المتوفرة لا تقبل المناقشة، أنهما قدما سراً هذا العرض للسفير فون فانغنهايم.

في حادثة أخرى ذات علاقة، أتى أحد دارسي محفوظات الوثائق العثمانية، بصورة عابرة، على ذكر حديث قد يكون فيه التفسير. في اليوم عينه الذي قدم فيه أنور وطلعت عرضهما الى ألمانيا - الأول من آب (أغسطس) 1914 - كشف أنور لزملائه من قادة حزب تركيا الفتاة عن استيلاء بريطانيا على البارجة «السلطان عثمان»<sup>[75]</sup>. أي انه كان يعرف في الأول من آب (أغسطس) أن بريطانيا استولت عليها! وبما أنه صار الآن معروفاً أن الأتراك في لندن ارتابوا في 29 تموز (يوليو) وفي عزم تشرشل على الاستيلاء على البارجة «عثمان الأول»، وانهم في 31 تموز (يوليو) إحتجوا على استيلائه عليها فعلاً - فمن المحتمل تماماً أن أنور علم حتى قبل الأول من آب (أغسطس) أن بريطانيا استولت على البارجة.

ألا يعطينا هذا جواباً عن سؤال سابق؟ كان يفترض في السفير فون فانغنهايم ألا يمنح الامبراطورية العثمانية معاهدة تحالف ما لم يبين الأتراك انهم سيسهمون مادياً في هزيمة الحلفاء. مع ذلك وافق على التحالف في الأول من آب (أغسطس) بالرغم من أنه قبل أسبوع واحد كان يعتقد أن القوات المسلحة العثمانية عاجزة عن تقديم هذا الاسهام. إذا، ألم يكن

عرض البارجة «السلطان عثمان» في الأول من آب (أغسطس)، هو الاسهام المادي الذي ابتاع به أنور وطلعت التحالف مع ألمانيا؟

إذا صح أن أنور وطلعت قد علما قبل تقديم عرضهما السري انهما فقدتا «السلطان عثمان» بانتقالها الى أيدي البريطانيين - لصح أيضاً القول انه كان بإمكانهما أن يقدموا العرض، وأن يقدماه دون أن يخشيا العاقبة. والحقيقة أن الألمان لم يكتشفوا اطلاقاً انهم خدعوا. ويبدو انهم اعتقدوا أن أنور وطلعت قصدا الوفاء بقسطهما من الصفقة، ولم يعلموا بعجزهما عن الوفاء إلا عندما تلقوا بعد عدة أيام اشعاراً رسمياً بما فعله تشرشل - أي بعد أن وقّعت ألمانيا على تعهد بحماية الامبراطورية العثمانية من أعدائها، لقاء (حسب التخمين) وعد غير ذي جدوى حصلوا عليه من أنور وطلعت.

# الفصل السابع

## مكيدة في الباب العالي

### (1)

خلال المفاوضات السرية بين ألمانيا والأتراك الفتيان في القسطنطينية في الأول من آب (أغسطس)، انتحي أنور، وزير الحربية، جانباً فعقد اجتماعاً خاصاً في السفارة الألمانية في القسطنطينية مع السفير الألماني هانز فون فانغنهايم، ومع رئيس البعثة العسكرية الألمانية أوتو ليمان فون ساندرز<sup>[76]</sup>. وقد بحث الرجال الثلاثة الشكل الذي سيتخذه التعاون العسكري بين بلديهم إذا تعاقدت تركيا وبلغاريا على دخول حرب ضد روسيا وإلى جانب ألمانيا. وبدا لهم أن السيطرة البحرية أساسية من أجل القيام بحملة ناجحة واستخلصوا أن الأسطول الألماني في البحر الأبيض المتوسط، المؤلف من السفينة الحربية القوية (غوبين) وشقيقتها (بريسلاو)، يجب أن يصل إلى القسطنطينية لتعزيز الأسطول العثماني في البحر الأسود، من أجل إطلاق أيدي الجيوش التركية - البلغارية في غزو روسيا. ومما له دلالة، أن أحداً من الرجال الثلاثة لم يخطر له أن البارجة «السلطان عثمان» ستكون موجودة للقيام بالمهمة. والمفترض أن أنور كان يعلم أن بلاده فقدت البارجة باستيلاء بريطانيا عليها، أما الجانب الألماني فقد اعتقد أن البارجة - بناء على أوامر من أنور - ستلتحق بالأسطول الألماني في أحد موانئ بحر الشمال، بحيث يسهل على (غوبين) و(بريسلاو)، اللتين كانتا في البحر الأبيض المتوسط، الذهاب إلى القسطنطينية.

بعد هذا اللقاء، طلب ليمان وفون فانغنهايم إلى حكومتهما إرسال السفينتين الألمانيتين إلى تركيا. وفي الثالث من آب (أغسطس)، أرسلت الأميرالية الألمانية أوامر بهذا الشأن إلى الأميرال ويلهلم سوتشون، قائد سرب البحر الأبيض المتوسط. وقد وصلت الرسالة اللاسلكية إلى سوتشون في ساعة مبكرة من صباح الرابع من آب (أغسطس)، وكان آنذاك على مقربة من ساحل الجزائر وفي نيته أن يقطع تدفق الجنود من شمال أفريقيا الفرنسي إلى أراضي فرنسا. وإذ قرر سوتشون عدم العودة فوراً، قصف أولاً ميناءين جزائريين، وعندها فقط أخذ طريق العودة للتزود بالوقود في ميناء مسينا الإيطالي المحايد في جزيرة صقلية، حيث كانت بانتظاره محطات ألمانية

للامداد بالفحم. وقد تسبب خلل في أحد مراحل (غوبين) في إبطاء السرعة، فلم تبلغ سفنه ميناء مسينا حتى صباح الخامس من آب (أغسطس).

في أثناء توقف سوتشون للتزود بالوقود، تلقى برقية من برلين تضمنت كما يبدو تغييراً للأوامر الصادرة إليه سابقاً. ذلك أن أنور لم يستشر زملاءه قبل أن يوجه الدعوة إلى السفن الحربية الألمانية للمجيء إلى القسطنطينية. ولم يكن زملاؤه بأي حال تواقين لجر بلادهم إلى القتال، وعندما علمت الحكومة العثمانية أن السفن كانت في طريقها إلى تركيا، حذرت برلين من قدوم هذه السفن، فأبرقت برلين إلى سوتشون لإبلاغه أن الذهاب إلى العاصمة العثمانية «متعذر»، ولكن سوتشون اختار أن يفسر البرقية بأنها مجرد تحذير وليست أمراً، فصمم على متابعة الإبحار إلى تركيا لفرض الأمر الواقع. وقد كان هذا القرار الشخصي الذي اتخذه الأميرال الألماني منعطفاً في سير الأحداث.

في هذه الأثناء، كان الأسطول البريطاني قد تلقى أمراً من تشرشل بمراقبة (غوبين)، ولكنه فقد أثرها تحت جنح الظلام ليلة الرابع من آب (أغسطس). ثم إنها شوهدت من جديد في الخامس من آب (أغسطس)، فأصدر الأميرال البريطاني قائد السرب أمراً إلى سربه باتخاذ وضع يمكنه من اعتراض (غوبين) حالما تخرج من مضائق مسينا بعد التزود بالوقود. لقد وضع سربه غرب صقلية لملاقاتها لدى عودتها لمهاجمة شمال أفريقيا مرة أخرى، وهذا ما كان مفترضاً أن تفعل، ورابطت قوة أصغر كثيراً في بحر الأدرياتيك، بعيداً إلى الشمال الشرقي، لقطع الطريق عليها إذا ما حاولت العودة إلى ميناء موطنها، وهو ميناء بولا (كانت بولا آنذاك في النمسا، أما الآن فإنها في يوغوسلافيا).

لقد كان في الجانب البريطاني عجز هائل في التصور السياسي في لندن، يماثله عجز في الكفاءة العسكرية في البحر، ويبدو أنه لم يخطر قط في بال وزارة الخارجية أو وزارة الحربية أو الأميرالية أنه ينبغي أن يكون للامبراطورية العثمانية شأن في الحسابات الاستراتيجية، والذي حدث هو أن لا أحد من القادة في لندن ولا في ميدان القتال، فكر بإمكانية توجه الأميرال سوتشون إلى القسطنطينية. لقد ظنوا أنه إنما توجه شرقاً للمراوغة وأنه سوف يستدير عائداً إلى الغرب.

عند خروج (غوبين) وشقيقتها (بريسلاو) من مضائق مسينا في السادس من آب (أغسطس)، توقع الأميرال سوتشون أن تعترض طريقه قوة بريطانية متفوقة على سفنه، فإذا به يجد الطريق مفتوحة، وهكذا اتجه إلى بحر إيجه.

قالت ابنة رئيس الوزراء لتشرشل، فيما بعد: «إنها غلطة أمراء البحر، فمن سوى أميرال لا يضع طراداً على كلا طرفي مضائق مسينا، بدلاً من وضع

طرادين عند أحد الطرفين وترك الآخر حراً؟» [77]. وقد أشارت عليه بأن يعزل جميع أمراء البحر ويرقي من هم دونهم رتبة ليحلوا مكانهم. لقد واجه سوتشون فعلاً قوة بحرية بريطانية في أثناء إبحاره شرقاً، ولكن هذه القوة أثرت الانسحاب على المجازفة بمعركة مع (غويين) الرهيبة. وبعد جهود خارقة من جانب الألمان، وأغلاط من جانب مطارديهم الانكليز، وصلت القوة البحرية التي يقودها سوتشون إلى مدخل مضائق الدردنيل.



## (2)

عند الساعة الواحدة من صباح السادس من آب (أغسطس)، بحث الصدر الأعظم مصير (غوين) و(بريسلاو) مع السفير الألماني. وكانت القطعات البحرية البريطانية في البحر الأبيض المتوسط تتابع عن كثب السفينتين الألمانيتين، حتى إذا رفضت تركيا السماح لهما بعبور المضائق تقعان في الفخ بين القلاع التركية أمامهما والقطعات البحرية البريطانية وراءهما. وقد أعلن المصدر الأعظم، سعيد حليم، أن حكومته قررت السماح للسفينتين الألمانيتين بدخول المضائق لتتمكن من الهرب. ولكنه قال أن هذا الإذن بالدخول مقرون بشروط، فلما أفصح عن هذه الشروط تبين أنها شروط عسيرة. لقد أظهرت هذه الشروط أن حكومة تركيا الفتاة - بعكس ما اعتقد المراقبون البريطانيون - عاقدة العزم على التخلص من سيطرة الألمان، وسيطرة الأوروبيين الآخرين. فقد طلب الباب العالي أن تقبل ألمانيا ستة اقتراحات بعيدة المدى، أولها يأتي على رأس قائمة أولويات جمعية الاتحاد والترقي - إلغاء الامتيازات الأجنبية الممنوحة حتى ذلك الحين للألمان وغيرهم من الأوروبيين. وكان بين الاقتراحات الأخرى ما يضمن لتركيا حصة في غنائم الحرب إذا ربحت ألمانيا الحرب، كانت هذه الاقتراحات من وجهة النظر الألمانية فاحشة، ولكن لم يكن أمام فون فانغهايم من خيار سوى الموافقة، إلا إذا شاء أن يترك (غوين) و(بريسلاو) تحت رحمة مدافع الأسطول البريطاني البعيدة المدى. لقد تحكم به الأتراك وكأنه يتخذ قراره والمسدس مصوب الى رأسه.

رأت الأميرالية في لندن أن قرار تركيا السماح للسفينتين الحربيتين الألمانيتين دخول المضائق عبارة عن تواطؤ بين القسطنطينية وبرلين. ولم يرد في ذهن تشرشل وزملائه أن ما كان يحدث فعلاً إنما هو عمل ابتزازي. وفي سورة غضب أبرق تشرشل الى قواته يأمرها بفرض حصار على الدردنيل<sup>[78]</sup>. ولم يكن تشرشل مخولاً سلطة اصدار مثل هذا الأمر على مسؤوليته الشخصية، ولو صادف أن خرج الأمر إلى حيز التنفيذ لفسرته القسطنطينية بأنه عمل من أعمال الحرب.

لقد تلقت الأميرالية رداً على البرقية يطلب الايضاح فأجابت برقيةاً بأن هناك «غلطاً في صياغة الكلمات» وأنه «ليس القصد من البرقية فرض حصار»<sup>[79]</sup>. كان على السفن البريطانية بدلاً من ذلك أن تنتظر في المياه الدولية ريثما تخرج السفينتان الألمانيتان.

احتجت بريطانيا لدى حكومة السلطان قائلة أن تركيا ملزمة، وفقاً لأعراف القانون الدولي، وبصفتها دولة محايدة، إما باخراج السفينتين الألمانيتين أو

باحتمارهما. ولكن الحكومة العثمانية لم تفعل هذا أو ذاك، بل أن هذا الوضع القانوني حفز الباب العالي الى انتزاع مزيد من التنازلات الألمانية.

وما أن استفاق فون فانغنهايم من صدمة المطالب الابتزازية، التي قدمت إليه في السادس من آب (أغسطس)، حتى كان الصدر الأعظم يباغته في التاسع من آب (أغسطس) بأخبار جديدة.

لقد أعلن سعيد حليم أن الامبراطورية العثمانية قد تنضم الى اليونان في حلف حياد معلن في النزاع الأوروبي. ولذلك لا بد من عمل ما بشأن استمرار وجود (غوبين) و(بريسلاو) في المياه التركية لئلا يسيء وجودهما الى حياد تركيا. وقد اقترح الباب العالي شراء السفينتين الحربيتين صورياً؛ أي أن تتسلمهما تركيا وتتظاهر بأنها دفعت ثمنهما، وبذلك لا سبيل للاعتراض على بقائهما في المياه التركية، إذ لا يكون في ذلك انتهاك لقوانين الحياد.

في العاشر من آب (أغسطس)، أبرق المستشار الألماني الى فون فانغنهايم من برلين ليلغيه رفض هذا الاقتراح التركي وليحث على دخول تركيا الحرب فوراً، بيد أن قادة حزب تركيا الفتاة كانوا كارهين أن يورطوا الامبراطورية في النزاع الأوروبي. وقد استدعي فون فانغنهايم في ذلك اليوم الى الباب العالي، حيث أثبه الصدر الأعظم بكلمات تتسم بالغضب، على وصول (غوبين) و(بريسلاو) قبل الأوان. وقد تجاهل سعيد حليم تواطؤ حكومته في مسألة السفينتين الحربيتين الألمانييتين، فكرر اقتراحه بنقل ملكيتهما الى تركيا، ورفض فون فانغنهايم الاقتراح.

عندئذ أصدرت الحكومة العثمانية من جانب واحد بياناً أعلنت فيه كذباً انها ابتاعت الطرادين الألمانيين ودفعت ثمنهما ثمانين مليون مارك. وقد انتشي الراي العام في سائر أنحاء الامبراطورية بهذا البيان، وفي الرابع عشر من آب (أغسطس) أشار فون فانغنهايم، وقد أصيب بالاحباط، على حكومته في برلين بقبول «عملية البيع» إذ لا خيار آخر، لأن انكارها سيهيج عواطف سكان الامبراطورية ضد المانيا وقضيتها. وقد أخذت حكومته بمشورته، وهكذا تسلم جمال باشا، وزير البحرية، في حفل أقيم في السادس عشر من آب (أغسطس)، السفينتين ونقلهما رسمياً إلى الأسطول العثماني.

وبما أنه لم يكن لدى الأتراك الضباط والبحارة الذين يحتاجونهم لتشغيل وصيانة مثل هاتين السفينتين بما تحتويانه من أجهزة بالغة الدقة، فقد كان القرار أن يقوم الألمان، عوضاً عنهم، ومؤقتاً، بتشغيل السفينتين. وهكذا صدر قرار بتعيين الأميرال سوتشون قائداً للأسطول العثماني في البحر الأسود، ووزعت على بحارة السفينتين طرايش وأزياء عثمانية، وجرت مراسم تجنيدهم في بحرية السلطان<sup>[80]</sup>. أما في لندن فقد رأوا في

محمل هذه الواقعة مناورة ألمانية محسوبة تهدف الى إظهار ألمانيا بمظهر الدولة السخية التي تعوض الامبراطورية العثمانية بتقديم سفينتين حربيتين حديثتين من طراز السفينتين اللتين ارتكب تشرشل اساءة الاستيلاء عليهما. ولا يزال المؤرخون، حتى يومنا هذا، يرددون هذه الرواية.

لم يكن قد مضي سوى أسبوع أو أكثر قليلاً على تدفق تلاميذ المدارس الغاضبين الى شوارع القسطنطينية للاحتجاج على استيلاء تشرشل على البارجتين اللتين ابتيعتا بالأموال التي تبرعوا بها<sup>[81]</sup>. وكان قادة الحكومة البريطانية على يقين من وجود صلة بين الحداث. وكان تعقيب رئيس الوزراء البريطاني على «شراء» تركيا السفينتين الألمانية، هو: «أن الأتراك غاضبون جداً - وهذا أمر طبيعي - بسبب استيلاء ونستون على سفينتهما الحربيتين في مياها»<sup>[82]</sup>.

بدوره، صب تشرشل جام غضبه على الأتراك. ففي السابع عشر من آب (أغسطس) لاحظ رئيس الوزراء أن «تشرشل، بمزاجه الأشد عدوانية، متحمس كل الحماسة لإرسال أسطول صغير من سفن الطوربيد عبر الدردنيل - لتهديد (غوبين) وشقيقتها وإغراقهما إذا اقتضت الضرورة»<sup>[83]</sup>. غير أن الرأي في مجلس الوزراء انساق وراء وجهة نظر وزير الحربية ووزير الدولة لشؤون الهند، اللذين كانت حجتهم أن مما يسيء إلى بريطانيا أن تظهر بمظهر المعتدية على الامبراطورية العثمانية.

بيد أن الإمبراطورية العثمانية كانت في ما يبدو تتجه نحو معسكر الأعداء، وكان التفسير الذي يبدو صادقاً والذي لقي قبولاً عاماً في لندن هو أن سبب حدوث ما حدث إنما هو استيلاء تشرشل على السفينتين الحربيتين التركيتين. وكان أن عاد ويندهام ديدز من تركيا إلى انكلترا في رحلة تنسم بالجرأة عن طريق برلين، فذهب لمقابلة صديقه السفير العثماني في لندن، وقد اكتشف من خلال المقابلة أن هذا التفسير لم يكن فيه شيء من الصواب، وأن السفينتين الحربيتين لم تكونا لب المشكلة. فالباب العالي قد أزعه بطبيعة الحال الاستيلاء عليهما، ولكنه ليس عازماً على تغيير سياسته الموالية لألمانيا حتى لو أعيدت السفينتان.

كان الخوف من التوسعية الروسية في صلب سياسة الباب العالي. فقد، أبلغ السفير العثماني ديدز أن الحلفاء إذا ربخوا الحرب فسيقسمون الامبراطورية العثمانية أو يسمحون بتقسيمها، أما إذا ربحت ألمانيا الحرب فلن تسمح بشيء من هذا القبيل<sup>[84]</sup>. ولهذا السبب انحاز الباب العالي إلى ألمانيا. وقد أنكر ديدز عزم الحلفاء على السماح بتقسيم الامبراطورية العثمانية، ولكن السفير كان قد سمع من أنور أن الحلفاء سبق أن أعطوا

تأكيدات مماثلة قبل سنوات فلم يفوا بتعهداتهم. (لم يذكر أنور أن ألمانيا، أيضاً، أعطت تعهداً خطياً بحماية الأراضي العثمانية. فهو وزملاؤه ظلوا محافظين على سرية تحالفهم مع ألمانيا، ولم يكشف عن وجوده الى ما بعد سنوات عديدة).

جزع ديدز من حديثه مع السفير التركي، وأندز وزير الحربية البريطاني الجديد، اللورد كيتشنر، بأن تركيا تنزلق الى معسكر الأعداء نتيجة لمخاوفها من نيات الحلفاء. ولما كانت بريطانيا حليفة لروسيا - روسيا التي ما برحت تحاول تفتيت الامبراطورية العثمانية - منذ قرن ونصف القرن - فلم يكن من اليسير طمأنة الباب العالي، ومع ذلك فقد حث ديدز على القيام بالمحاولة.

في هذه الأثناء، ازداد حقد تشرشل على الامبراطورية العثمانية ورأى أنها أصبحت أرضاً عدوة. ودرد وقد بلغته معلومات خلال النصف الثاني من آب (أغسطس) تشير إلى أن ضباطاً ورجالاً ألمان ينتقلون براً، عبر بلغاريا المحايدة، لأخذ مواقعهم في القوات المسلحة العثمانية. وفي 26 آب (أغسطس)، أبلغ الأميرال ليمبوس تشرشل أن: «القسطنطينية تكاد تكون بكاملها في أيدي الألمان، في هذه اللحظة» [85].

ظل تشرشل يلح على اتخاذ اجراء. وفي الأول من أيلول (سبتمبر)، أنشأ محادثات على مستوى الأركان بين الأميرالية ووزارة الحربية لإعداد خطة هجوم على تركيا في حالة قيام حرب. وفي اليوم التالي، فوضه مجلس الوزراء بإغراق السفن التركية إذا غادرت الدردنيل بصحبة (غويين) و(بريسلاو). بعد ذلك، أعطى هو تفويضاً لقائد القوة البحرية البريطانية عند الدردنيل باستخدام فطنته بشأن إعادة السفن التي تحاول الخروج من الدردنيل وحدها. وكانت هذه غلطة: لقد دفعت الأتراك الى الرد بفاعلية مذهلة.

فعلى أثر التفويض الصادر عن تشرشل، أوقفت القوة البحرية زورق طوربيد تركياً في 27 أيلول (سبتمبر) وأرغمته على العودة، إذ كان الزورق، يحمل على متنه بحارة من الألمان، بما يشكل انتهاكاً للحياد العثماني. ورداً على ذلك، أذن أنور باشا للضابط الألماني قائد الدفاعات التركية في الدردنيل أن يأمر بإغلاق المضائق وإكمال بث حقول الألغام عبرها. وهكذا انقطعت حركة النقل البحري التجاري للحلفاء، وكانت هذه ضربة قاصمة. فالدردنيل كان الممر البحري الوحيد الخالي من الجليد أمام تجارة الصادرات الروسية، ولا سيما محاصيل القمح التي تنتجها، وبثمنها كانت روسيا تبتاع أسلحة وذخائر للحرب [86]. ولو كان الحلفاء أدركوا أن الحرب العالمية الأولى سوف تتطور الى حرب استنزاف طويلة، لعرفوا أن من

شأن بث الألغام التركية في المضائق أن يودي بروسيا القيصرية وان يودي معها بقضية الحلفاء.

كانت حرية المرور في الدردنيل مضمونة بمعاهدة. ومرة أخرى انتهكت السلطات العثمانية التزاماتها بموجب القانون الدولي، ومرة أخرى بدت تركيا وكأن أعمال ونستون تشرشل قد استفزتها لسلوك هذا المسلك.

مع ذلك لم تُقدم الامبراطورية العثمانية على أية خطوة لاعلان الحرب. إن موقف العداء السلبي الذي اتخذته قد أصاب تشرشل بالحيرة والاحباط<sup>[87]</sup>.

### (3)

كان الموقف محيراً ومسبباً للاحباط من وجهة نظر الحكومة الألمانية أيضاً، ولكن تشرشل لم يكن على علم بذلك. ذلك أن العسكريين الألمان الذين حاولوا جر تركيا الى الحرب وجدوا أنفسهم مدفوعين إلى الغضب واليأس.

لقد خاب أمل برلين إذ أن استمرار وجود (غوبين) و(بريسلاو) لم يستفز بريطانيا إلى إعلان الحرب. وكان سفيراً ألمانيا والنمسا لا يفتان يتسلمان طلبات متكررة من حكومتيهما لدفع الأتراك إلى القيام بعمل ما. بيد أن كلا السفيرين كان يعلم أنه بغض النظر عما يضمره الأتراك الفتيان من نيات، هنالك أسباب وجيهة لدى الصدر الأعظم وزملائه تمنعه من الاندفاع الى التدخل فوراً في النزاع الأوروبي. فلم تكن تعبئة القوات المسلحة قد اكتملت بعد، ولم يكن واضحاً كيف ستمكن الخزانة العثمانية من مواصلة الإنفاق على القوات المسلحة عند اتمام التعبئة. علاوة على ذلك لم تكن قد أثمرت بعد المفاوضات التركية مع بلدان البلقان المجاورة، ولا سيما مع بلغاريا.

لقد أوضح الباب العالي منذ البداية أن تركيا لا تستطيع التدخل في الحرب إلا بمشاركة مع بلغاريا. وبالفعل، فإن خطة الحملة التي اتفق عليها في الأول من آب (أغسطس) أنور وفون فانغنهايم وليمان فون ساندرز، كانت تفترض أن بلغاريا والامبراطورية العثمانية ستوحدان قواتهما المسلحة. لقد كان موقع بلغاريا على طريق تركيا البرية الرئيسية إلى بقية أوروبا، ثم أن بلغاريا - وهذا هو الأهم آنئذٍ - بلد جار طامع في مزيد من الأرض. فإذا ما غزت بلغاريا الأراضي التركية بينما الجيوش العثمانية بعيدة عن بلادها ومنهمكة في مقاتلة الروس، ستجد الامبراطورية نفسها مغلولة اليدين. ولذلك قال الصدر الأعظم للسفير الألماني: «يقيناً إن ألمانيا لا تريد من تركيا أن تنتحر» [88].

ومع أن طلعت أفلح في التفاوض مع بلغاريا على معاهدة دفاعية تم التوقيع عليها في 19 آب (أغسطس)، ونصت على مساعدات متبادلة في ظروف معينة إذا ما تعرض أي من البلدين لهجوم من طرف ثالث، فإن المعاهدة لا تنطبق على الحالة التي تنشأ عن انضمام تركيا إلى ألمانيا في حرب ضد روسيا. ولم تكن بلغاريا على استعداد لحشر نفسها في النزاع الروسي - الألماني، وهذا يعني أن الامبراطورية العثمانية أيضاً ستواصل المحافظة على حيادها، وهذا الأمر كان مفهوماً للألمان في القسطنطينية.

كانت برلين ولندن تنظران إلى القسطنطينية باعتبارها حالة تدعو إلى القنوط، ولا بد من التذكير هنا بأن تشرشل لم يعد يؤمن بالحياد التركي وأنه

اقترح على مجلس الوزراء ارسال أسطول صغير الى الدردنيل لاغراق السفينتين (غوبين) و(بريسلاو). ومن الناحية الأخرى، شعر الجنرال ليمان فون ساندروز، بعد ذلك بيومين فقط، باليأس من جر تركيا الى الحرب فأرسل رجا إلى القيصر الألماني للسماح له ولأعضاء بعثته العسكرية بالعودة إلى الوطن. وهو، شأنه شأن تشرشل، كان حاقداً على الأتراك الفتيان، وقد تحدث عن عزمه على تحدي أنور وجمال في مبارزة بالسلاح<sup>[89]</sup>. لقد قال ليمان في رجائه إلى القيصر، أن جمعية الاتحاد والترقي عازمة على ابقاء تركيا متفرجة حتى انتهاء الحرب أو على أقل تقدير حتى يتضح لها بما لا يقبل الشك أن ألمانيا ستربح الحرب. وأشار أيضاً إلى احتمال أن تنهار الجيوش العثمانية قبل دخولها الحرب، نتيجة الافتقار الى المال والغذاء، إذا أبقاها الباب العالي في حالة التعبئة<sup>[90]</sup>.

عندما كان الأميرال ليمبوس يبلغ تشرشل أن القسطنطينية تكاد تكون بكاملها في أيدي الألمان، كان الجنرال ليمان فون ساندروز في الوقت نفسه تقريباً يبلغ القيصر الألماني أن المناخ في القسطنطينية يكاد يجعل استمرار الضباط الألمان في تقديم خدماتهم فيها أمراً لا يطاق<sup>[91]</sup>.

بيد أن القيصر رفض رجا ليمان السماح له بالعودة إلى ألمانيا. ذلك أن خطة ألمانيا لربح الحرب بنصر سريع في الجبهة الغربية قد انهارت في معركة المارن الأولى في أوائل شهر أيلول (سبتمبر)، ومن ثم فقد شددت ألمانيا ضغطها على تركيا لدخول الحرب. ولم يفلح السفير الألماني فون فانغنهايم في أن يشرح لحكومته إلى أي مدى يبدو هذا المشروع في نظر القسطنطينية، على الأقل في ذلك الحين، مشروعاً غير واقعي، حتى أنور، الذي وصفه السفير ذات مرة أنه «صامد كالصخر الى جانب ألمانيا»<sup>[92]</sup>، كان يعتقد أن أوان العمل لم يحن بعد، فلم تكن تركيا بعد مستعدة عسكرياً، وكان زملاء أنور، في أي حال، معارضين للتدخل في الحرب.

ظهر بكل جلاء في الثامن من أيلول (سبتمبر) 1914، التباين بين الهدفين النهائيين للحكومتين العثمانية والألمانية، عندما أعلن الباب العالي من جانب واحد إلغاء الامتيازات لجميع الدول الأجنبية - ومن ضمنها ألمانيا - وقد احتدم صدر السفير الألماني غيظاً عند تلقيه النبأ وهدد بأن يحزم هو وأعضاء البعثة العسكرية حقائبهم ويعودوا إلى بلادهم في الحال. ولكنه لم يغادر لا هو ولا أعضاء البعثة. وبقاؤهم دل على تحسن قدرة تركيا على المساومة منذ أواخر تموز (يوليو).

حدثت مناورة خارقة للعادة إذ انضم سفيرا ألمانيا والنمسا الى أعدائهما في الحرب، سفراء بريطانيا وفرنسا وروسيا في تقديم احتجاج أوروبي مشترك

إلى الباب العالي، وهكذا تجلت مهارة القادة الأتراك في المغازلة دون التزام. إذ إن السفيرين الألماني والنمساوي أبلغا الباب العالي سراً أنهما لن يتابعا الموضوع مؤقتاً، أما سفراء الدول الحليفة فقد أسروا بدورهم للباب العالي بأنهم يقبلون القرار التركي إذا بقيت تركيا على الحياد.

مضى الباب العالي في تنفيذ قراره، فأغلقت في مطلع تشرين الأول (أكتوبر) جميع مكاتب البريد الأجنبية في الامبراطورية، وأخضع الأجانب للقوانين التركية والقضاء التركي، وبدأت جباية الرسوم الجمركية على المستوردات الأجنبية، بل زادت نسبتها.



## (4)

نظراً للفوائد الملموسة التي بدأت تنساب من انتهاج سياسة عدم التدخل، يبدو أمراً مذهباً شروع أنور باشا في ذلك الحين أو نحوه بالتآمر على تلك السياسة وعلى داعيتها الأول، الصدر الأعظم. ولعل الوجود العسكري الألماني الكبير في القسطنطينية، مدعوماً بالسفيتين (غوبين) و(بريسلاو)، قد كان له دور في حساباته. ولكن الأرجح أن ما كان يفكر به أنور باشا هو مجرى الحرب الروسية - الألمانية. كان الخوف من استيلاء روسيا على أراض تركية هو محرك سياسته في تموز (يوليو) وآب (أغسطس)، ولكنه أخذ في ما يبدو يفكر، في شهر أيلول (سبتمبر) وفي أعقاب الانهيار الروسي، في الاستيلاء على أرض روسية؛ أي أنه انتقل من السياسة الدفاعية إلى السياسة العدوانية. وكان انتقاله نقطة تحول في الشؤون العثمانية والشؤون الشرق أوسطية.

قد يمكن الحدس في أن الظفر العسكري الذي أحرزه الألمان على الروس في معركة تانينبرغ في نهاية آب (أغسطس) والمعركة المتواصلة عند بحيرات مازوريان التي بدأت في أيلول (سبتمبر)، قد أقنعا أنور بأن على تركيا، إذا شاءت أن تنال نصيباً من الأرض الروسية، أن تسارع إلى التدخل قبل أن تحقق ألمانيا نصراً من دون مساعدة منها.

كان الألمان قد قتلوا أو أسروا مئات الآلاف من الجنود الروس؛ وباستطاعة أي مراقب أقل اندفاعاً من أنور أن يستنتج أن روسيا على وشك أن تخسر الحرب. كان قطار النصر الألماني يغادر المحطة، ويبدو أن أنور الانتهازي اعتقد أنها فرصته الأخيرة للحاق بالقطار.

وفي 26 أيلول (سبتمبر)، أصدر شخصياً الأمر باغلاق الدردنيل في وجه جميع السفن الأجنبية (واقعيّاً، في وجه السفن الحليفة) دون أن يستشير زملاءه. وبعد ذلك بأسبوع أخبر فون فانغهايم أن الصدر الأعظم لم يعد يمسك بزمام الأمور.

كان ثمة سباق على السلطة يجري في القسطنطينية خلف الأبواب المغلقة. ووزارة الخارجية البريطانية، التي كانت شبه خالية الذهن مما يدور في نطاق السياسة الداخلية لجمعية الاتحاد والترقي، كان لها رأي مبسط في المسألة. ولقد تذكر سير ادوارد غراي، وزير الخارجية، في ما بعد أنه قال: «لا شيء سوى اغتيال أنور يمكنه أن يحول دون انضمام تركيا الى ألمانيا» وأنه أضاف إلى ذلك أنه: «في زمن الأزمة والعنف في تركيا، لا مفر من وجود فئتين من الأشخاص. قاتل ومقتول، والأرجح أن يكون الصدر الأعظم وليس خصمه، من الفئة الثانية» [93].

ترى هل كان بإمكان سفير بريطاني حسن الاطلاع أن يمارس شيئاً من التأثير على تطور الأحداث في القسطنطينية؟ هذا السؤال لا يزال المؤرخون يتداولونه، وبطبيعة الحال ما من سبيل الآن لوضع المسألة موضع الاختبار [94].

ومع أن التفاصيل تظل محاطة بالغموض، فإن ما جرى في خريف عام 1914 هو عملية كانت الفئات والشخصيات المتناحرة تناور ضمنها من أجل الحصول على المساندة داخل اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي. وكان تنامي نفوذ أنور ناشئاً عن استمالة طلعت بك إلى جانبه، إذ كان طلعت على رأس الفئة الرئيسة في الحزب.

ومع أن زعماء جمعية الاتحاد والترقي الآخرين، كانوا من رأي أنور في أن ألمانيا قد ترجح الحرب، فلم يروا حتى ذلك الحين سبباً لتعريض مستقبل امبراطوريتهم للخطر استناداً إلى دقة أو عدم دقة التنبؤ بالأحداث. كان هؤلاء سياسيين، أما أنور فكان رجل حرب وأصغر سناً وأكثر اندفاعاً من تشرشل ولكنه مفعم بالقدر نفسه من الرغبة الملتهبة في المجد. وهو بصفته وزير الحرية وأقرب أصدقاء ألمانيا إليها، كان مهياً للإفادة شخصياً من الفرص العديدة التي يتيحها دخول الحرب إلى جانب ألمانيا لكي يذيع صيته وتتعزيز مكانته. هذا الشخص المتهور الذي واثاه الحظ بغير حدود دون أن يظهر سوى كفاءة محدودة، لم يفطن إلى أن المرء قد يربح الرهان وقد يخسره. وإذ راهن على ألمانيا ظن أنه يقوم بعمل استثماري - مع أنه كان في الواقع يقامر مقامرة خاسرة.

في التاسع من تشرين الأول (أكتوبر) أعلم أنور السفير فون فانغهايم أنه كسب تأييد طلعت و خليل بك، رئيس مجلس النواب. وقال له أن الخطوة التالية هي محاولة كسب تأييد جمال باشا وزير البحرية. وتابع قائلاً: إذا أخفقت سأفجر أزمة وزارية، وعلى أساس ما له من أتباع في اللجنة المركزية - هم في الواقع أتباع طلعت - يستطيع عندها أن يأتي بحكومة مؤيدة للتدخل في الحرب. لقد بالغ أنور في تقويم قوته السياسية عندما أكد للألمان أنه قادر على إشراك تركيا في الحرب في موعد لا يتجاوز منتصف تشرين الأول (أكتوبر)، وأن كل ما يحتاجه هو إمداده بمبالغ من الذهب لدعم الجيش [95]. وكان الألمان، بطبيعة الحال، يعرفون أن القوات العثمانية بحاجة إلى المال. ورفع ليمان تقريراً إلى القيصر الألماني قائلاً فيه إن القوات العثمانية مهددة بالانهيار الوشيك إذا لم يتوفر لها المال.

انضم جمال إلى المؤامرة في العاشر من تشرين الأول (أكتوبر)، وفي الحادي عشر منه، اجتمع أنور وطلعت و خليل وجمال فأبلغوا الجانب الألماني أن الفئة التي تاتمر بأمرهم ملتزمة الآن بدخول الحرب وأن

الأميرال سوتشون سيحصل على الإذن بمهاجمة روسيا بمجرد أن تودع ألمانيا في القسطنطينية مليوني ليرة تركية ذهباً لدعم القوات المسلحة. وقد استجاب الألمان فأرسلوا مليون ليرة في 12 تشرين الأول (أكتوبر) ومليون آخر في 17 منه، وتم شحن الذهب بالقطار عبر رومانيا المحايدة. وقد وصلت الشحنة الثانية إلى القسطنطينية في 21 من الشهر نفسه.

عند ذلك بدل طلعت و خليل رأيهما: لقد أرادا الاحتفاظ بالذهب مع البقاء على الحياد في الحرب. وقد أطلع أنور الجانب الألماني على ذلك في 23 تشرين الأول (أكتوبر)، ولكنه ادعى أن هذا التبدل ليس بالأمر الذي يشغل البال، ما دام يعتمد على تأييد الوزير الآخر الذي تأتمر بأمره قوة عسكرية، أي جمال باشا. لقد أعلن أنور في ما بعد أن طلعت تراجع فعاد إلى تأييد التدخل في الحرب، ومع ذلك كف أنور عن محاولة إقناع حزبه وحكومته بدخول الحرب. وبما أنه لم يستطع حمل تركيا على إعلان الحرب على الحلفاء فقد علق آماله على خطة لاستفزاز الحكومات الحليفة كي تعلن هي الحرب على تركيا.

أصدر أنور وجمال أوامر سرية تأذن للأميرال سوتشون بأن يقود السفينتين (غوبين) و(بريسلاو) إلى البحر الأسود لمهاجمة السفن الروسية. وكانت خطة أنور أن يدعي أن السفينتين الحربيتين تعرضتا لهجوم روسي فاضطرتا للدفاع عن النفس. بيد أن الأميرال سوتشون خالف أوامر أنور وبدأ قتالاً علنياً بقصف الساحل الروسي. ومرة أخرى قام هذا الأميرال الألماني بحركة تاريخية. وقد قال في ما بعد أن غايته كانت «أن يرغم الأتراك، خلافاً لارادتهم، بتوسيع نطاق الحرب»<sup>[96]</sup>. ونتيجة لتصرفه، صار واضحاً كل الوضوح أن (غوبين) و(بريسلاو) قامتا بضربة مدبرة. وبذلك انعدمت الكذبة التي أرادها أنور أن توارى ما سمح هو بحدوثه.

أدت هذه الحادثة إلى مباحكة مكشوفة في القسطنطينية. فقد أرغم الصدر الأعظم ومجلس الوزراء أنور على الإبراق إلى الأميرال سوتشون بأمر وقف إطلاق النار. وأعقبت ذلك أزمة سياسية استمرت زهاء يومين، وحجبت تفاصيلها حتى عن الألمان والنمساويين المعروفين عادة بحسن اطلاعهم، وكانت ثمة اجتماعات لمجلس الوزراء العثماني وللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي. وقد جرت مناقشات، وصدرت تهديدات، وقامت تحزّبات، وقدمت استقالات، وسحبت استقالات. ويظهر أن اجماع الرأي كان قريباً من تفكير إسكويث في بريطانيا قبيل اندلاع نار الحرب: أن الأولوية التي لا تعلق عليها أولوية أخرى هي المحافظة على وحدة الحزب.

وبالرغم من أن أغلبية في اللجنة المركزية أيدت الثلاثي الجديد المؤلف من أنور وطلعت وجمال في وجهة نظره القائلة أنه ينبغي للامبراطورية

العثمانية أن تدخل الحرب، فقد رضخت هذه الأغلبية لوجهة نظر الأقلية بقيادة الصدر الأعظم ووزير المالية، خشية انشقاق الحزب.

في 31 تشرين الأول (أكتوبر)، أبلغ أنور الألمان أن زملاءه في مجلس الوزراء مصريون على إرسال مذكرة اعتذار الى الروس. وقد رأى الألمان في ذلك اقتراحاً خطراً. ولكن أنور قال لهم انه بعد أن «غُزر» بزملائه في مسألة الهجوم على روسيا، ألفي نفسه معزولاً في مجلس الوزراء، وأن يديه مقيدتان [97].

لم يكن هناك ما يستدعي الفزع، بالرغم من أن أنور والمتآمرين معه من الألمان قد جهلوا أن: مجلس الوزراء البريطاني في لندن قد ابتلع الطعم. لم يكن البريطانيون على دراية بالانشقاق العميق في صفوف حزب تركيا الفتاة، فاعتقدوا أن الباب العالي كان طوال الوقت متواطئاً مع ألمانيا، وجاء رد بريطانيا على الهجوم الذي قام به سوتشون قبل أن يتمكن الباب العالي من إعداد مسودة مذكرة الاعتذار، فقد سمح مجلس الوزراء البريطاني بإرسال إنذار نهائي يطلب إلى الأتراك طرد البعثة العسكرية الألمانية فوراً وإبعاد الضباط والبحارة الألمان عن (غوبين) و(بريسلاو). فلما امتنع الأتراك عن التجاوب، لم يهتم تشرشل بعرض المسألة على مجلس الوزراء، بل أرسل بمبادرة منه الأوامر إلى قواته في البحر الأبيض المتوسط بعد ظهر 31 تشرين الأول (أكتوبر) «بمباشرة الأعمال الحربية ضد تركيا في الحال» [98].

غير أن الأميرال البريطاني الذي تلقى الأمر من تشرشل لم ينفذه على الفور، ونتيجة لذلك لم تعلم تركيا أن بريطانيا أعلنت الحرب عليها. أما في القسطنطينية فقد كان أنور لا يزال متخوفاً من احتمال قبول روسيا الاعتذار التركي. ولكي يحول دون قبوله، زيف مرة أخرى نيات زملائه في مجلس الوزراء بأن أضاف الى المذكرة التركية زعماً فاحشاً بأن روسيا هي التي استفزت تركيا للهجوم [99]. وبطبيعة الحال رفضت حكومة القيصر الروسي هذا الزعم، ووجهت إنذاراً نهائياً إلى الباب العالي، وفي الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر)، أعلنت الحرب. شرعت القوات البحرية البريطانية بالعمليات الحربية ضد الامبراطورية العثمانية في الأول من تشرين الثاني (نوفمبر). وفي اجتماع مثير عقده الحكومة العثمانية ليلة 1 - 2 تشرين الثاني (نوفمبر)، لم يسع الوزراء، حتى الفئة المناصرة للصدر الأعظم، إلا الإقرار بأن الامبراطورية أمست في حالة حرب، شاءت أم أبت. ومع ذلك لم يصدر عن لندن إعلان للحرب.

قصفت السفن الحربية البريطانية في الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر)، بأمر من تشرشل، قلاع الدردنيل الخارجية، وقد رأى النقاد في ما بعد أن ذلك كان نوعاً من نزق الأولاد من جانب تشرشل، لأن هذا القصف نبه تركيا إلى مكن الضعف في القلاع. بيد أنه ليس من دليل على أن تركيا ردت على الانذار. لقد كان المغزى الرئيس للقصف في حينه أنه دلالة على أن الأعمال الحربية قد بدأت.

في الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر)، قال اسكويث في تكتم: «نحن الآن صراحة في حالة حرب مع تركيا»<sup>[100]</sup>. غير أن الشكليات أهملت. وظلت الحال هكذا حتى صباح الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر)، إذ جرى في اجتماع لمجلس الملك الخاص تعديل إعلان الحرب على امبراطوريتي آل هوهنزوليرن وآل هابسبورغ ليشمل أيضاً الامبراطورية العثمانية.

إن انزلاق بريطانيا بطريقة عرضية نسبياً إلى الحرب العثمانية، قد عكس مواقف الوزراء البريطانيين في ذلك الحين: فلم تكن حرباً علقوا عليها كبير أهمية، ولم يبذلوا كبير جهد لتفاديها؛ ذلك أنهم لم يروا في تركيا عدواً يمثل خطراً ذا بال.

## (5)

لم يكن بعد معروفاً في لندن - والحقيقة أنه ظل مجهولاً إلى ما بعد سنوات - أن أنور هو صاحب المبادرة في اقتراح معاهدة تحالف سرية مع ألمانيا، وهو الذي فاوض بشأنها وتولى تنفيذها حتى قبل أن تستولي الأميرالية البريطانية على السفينتين الحربيتين التركيتين. وكانت بريطانيا تجهل أيضاً أن الباب العالي استولى على (غوين) و(بريسلاو) بالرغم من احتجاج ألمانيا. كانت الرواية الرسمية هي الرواية التي أخذ بها مجلس الوزراء البريطاني، والتي تقول إن القيصر الألماني هو المبادر إلى تسليم تركيا السفينتين الألمانيتين تعويضاً عن (السلطان عثمان) و(رشادية) من أجل كسب تركيا إلى جانب ألمانيا بعد أن نُقِرَها تشرشل.

ولذلك، كانت وجهة النظر العامة أن تشرشل هو المتسبب بالحرب مع تركيا. والحقيقة ظل لويد جورج ينحي عليه باللائمة حتى عام 1921 [101]. كان سوتشون وأنور هما في الواقع البادئين بالحرب بين تركيا والحلفاء، أما عامة البريطانيين فقد تصوروا أن تشرشل هو البادئ بالحرب.

أخذ تشرشل من جانبه ينه في آب (أغسطس) 1914 - واستمر يفعل ذلك في ما بعد - إلى أن اعتبار الامبراطورية العثمانية بلداً عدواً له فوائده. كان رأيه أن بريطانيا وقد امتلكت حرية تقطيع الامبراطورية العثمانية وعرض أجزاء من أراضيها على بلدان أخرى عند تسوية الصلح في نهاية المطاف، تستطيع الآن أن تستخدم الاغراء بالمكاسب الاقليمية لكي تجتذب إيطاليا وبلدان البلقان إلى جانبها في الحرب.

كانت إيطاليا متأخرة عن غيرها في السعي لإقامة امبراطورية استعمارية، وقد رأت في الممتلكات العثمانية التي تشكل مكامن ضعف هي المناطق الرئيسية التي يمكن الاستيلاء عليها. وفي نهاية الأمر أغراها الاستيلاء على الأرض بدخول الحرب في صف الحلفاء.

وكانت بلدان البلقان أيضاً تواقه إلى مكاسب اقليمية إضافية. كان على بريطانيا أن توفق بين بعض الطموحات المتضاربة لبلدان البلقان لكي تستطيع أن تقيم تحالفاً معها جميعاً عن طريق الوعد بمنحها أجزاء من الأراضي العثمانية. فإذا ما نجحت في تحقيق ذلك تكون قد أوجدت تجمعاً لقوى كبيرة تؤثر على الامبراطورية العثمانية وامبراطورية آل هابسبورغ، وتتيح امكانية بلوغ الحرب ضد ألمانيا نهاية سريعة ومظفرة.

وكان اسكويث قد أخذ علماً في 14 آب (أغسطس): «أن لدي فينيزيلوس، رئيس وزراء اليونان، خطة كبرى جاهزة لاقامة اتحاد بين دول البلقان ضد

ألمانيا والنمسا...» [102]. وفي 21 آب (أغسطس)، صوّت اسكويث عدداً من وزرائه بأنهم يتطلعون إلى إيطاليا أو رومانيا أو بلغاريا كبلدان يمكن أن تكون دولاً حليفة لها أهميتها، وأن لويد جورج «حريص على قيام اتحاد بلقاني» وأن «ونستون عنيف في عدائه لتركيا». أما هو نفسه «فرفض أشد الرفض أي عمل عدواني موجه إلى تركيا من شأنه أن يثير تائرة مسلمينا في الهند وفي مصر» [103].

لم يكن تشرشل مندفعاً إلى الحد الذي بدا من اندفاعه. فهو، في الحقيقة، استوفي الوقت والجهد للاتصال شخصياً بأنور وغيره من القادة العثمانيين الذين كانوا يرجون بقاء بلادهم محايدة. لقد نفّض يديه منهم قبل الأوان بشهرين، ولكنه لم يتحول إلى التنبّه لفوائد دخول تركيا الحرب إلا بعد أن أيقن أن لا أمل في إبقاء تركيا خارج الحرب.

مع حلول نهاية آب (أغسطس)، كان تشرشل ولويد جورج من غلاة الداعين إلى مشروع البلقان.

وفي 31 آب (أغسطس) وجّه تشرشل رسالة غير رسمية إلى زعماء بلدان البلقان يحثهم فيها على إقامة اتحاد كونفدرالي يضم بلغاريا، والصرب، ورومانيا، والجبل الأسود، واليونان لينضم إلى الحلفاء. وفي الثاني من أيلول (سبتمبر)، شرع في محادثات غير رسمية مع الحكومة اليونانية لبحث شكل التعاون العسكري بين البلدين في حالة القيام بعملية هجومية على الامبراطورية العثمانية.

وفي نهاية أيلول (سبتمبر)، كتب تشرشل إلى سير ادوارد غراي قائلاً: «إننا في محاولتنا استرضاء تركيا إنما نحكم على سياستنا في البلقان بالشلل. وأرى أن نقوم بعمل هجومي على تركيا أو نعلن من جانبنا الحرب عليها، ولكن ينبغي لنا منذ الآن أن نتفق مع دول البلقان، وخصوصاً بلغاريا، على ترتيبات دون أن نولي مصالح تركيا أو وحدة أراضيها أي اعتبار». وختم كلامه بهذه الإضافة: «كل ما أطلبه هو ألا يكون لمصالح تركيا أو وحدة أراضيها أي اعتبار في أية جهود تبذل في سبيل تأمين عمل مشترك بين دول البلقان المسيحية» [104].

كان غراي واسكويث أكثر حذراً وحيطة في مقاربة الأمر، وأقل حماسة من تشرشل ولويد جورج للاتحاد الكونفدرالي المقترح لدول البلقان، ولكن تفكيرهما، من ناحية واحدة على أقل تقدير، كانا يسيران على خطين متوازيين. فقد صدرت تعليمات إلى ممثلي الحكومة البريطانية بإعطاء تأكيدات باحترام وحدة أراضي الامبراطورية العثمانية إذا بقيت تركيا محايدة. وتبعت هذا الكلام مقولة في الاتجاه المعاكس، أفصح عنها غراي



في 15 آب (أغسطس)، إذ قال: «أما إذا انحازت تركيا إلى ألمانيا والنمسا وهُزمت هاتان الدولتان، فإننا بطبيعة الحال لا نستطيع أن نكون مسؤولين عما سيؤخذ من تركيا في آسيا الصغرى» [105].

وعندما دخلت الامبراطورية العثمانية الحرب - مدفوعة إليها من قبل تشرشل كما بدا آنذاك، ومدفوعة إليها من قبل أنور وسوتشون كما يبدو الآن - لم يعد ثمة مفر من الاستنتاج الذي استخلصه صانعو السياسة البريطانيون. فقد تنبأ رئيس الوزراء البريطاني في خطاب ألقاه في لندن في 9 تشرين الثاني (نوفمبر) 1914، بأن الحرب «قرعت ناقوس الموت للممتلكات العثمانية، ليس في أوروبا فحسب، بل في آسيا أيضاً» [106].

في وقت سابق من عام 1914، كان سير مارك سايكس، عضو مجلس العموم البريطاني من حزب المحافظين، قد قال محذراً المجلس: «إن اختفاء الامبراطورية العثمانية هو الخطوة الأولى حتماً نحو اختفاء امبراطوريتنا» [107]. لقد كان شعور كل من ولينغتون، وكاينغ، وبالمرستون، وذررايلي أن المحافظة على وحدة أراضي الامبراطورية العثمانية أمر يهم بريطانيا وأوروبا. مع ذلك فإن الحكومة البريطانية سارت في أقل من مئة يوم في خط معاكس تماماً لسياسة عمرها أكثر من مئة عام، وأخذت الآن تسعى لتدمير الامبراطورية - الحاجز التي جازفت الحكومات البريطانية في أزمنة سابقة بشن حروب من أجل المحافظة عليها.

لقد استندت سياسة مجلس الوزراء البريطاني الجديدة إلى النظرية القائلة أن تركيا هدرت أي حق لها بنيل حماية بريطانيا. وفي لجة الحرب غابت عن بصر حكومة اسكويث إحدى أهم حقائق السياسة الخارجية التقليدية لبريطانيا: أنه لا بد من حماية وحدة أراضي الامبراطورية العثمانية ليس خدمة للمصالح العليا لتركيا بل خدمة لمصالح بريطانيا العليا.

وبالتالي، فإن قرار تفتيت الامبراطورية العثمانية الذي اتخذته بريطانيا، قد أعاد إلى المسرح فرضية تتعلق بالشرق الأوسط أخذ بها الأوروبيون على مدى قرون: أن مصير الشرق الأوسط بعد انتهاء الامبراطورية العثمانية ستقرره دولة أو أكثر من الدول الأوروبية.

وهكذا فإن الأمر الوحيد الذي رآه القادة البريطانيون في عام 1914 بوضوح تام هو أن دخول العثمانيين الحرب يمثل الخطوة الأولى على طريق إعادة تشكيل الشرق الأوسط: أي، في الحقيقة إلى خلق الشرق الأوسط الحديث.



# الجزء الثاني كيتشنر الخرطوم يتطلع إلى البعيد

# الفصل الأول

## كيتشنر يتسلم زمام القيادة

### (1)

خلال صيف وخريف عام 1914، وفيما كانت الإمبراطورية العثمانية تنجرف إلى الحرب، كان ثمة تعيين جديد وهام لمنصب حكومي في لندن قد بدأ يؤثر على السياسة البريطانية في الشرق الأوسط. وكانت بداية الأمر، كبداية أشياء كثيرة أخرى، مع ونستون تشرشل.

في 28 تموز (يوليو) 1914، أي في اليوم نفسه الذي اتخذ فيه تشرشل مبادرة الاستيلاء على السفينتين التركيتين، عقد غداء عمل مع الفيلد مارشال هوراميو هيربرت كيتشنر لبحث الأزمة الدولية المتعمقة. لقد كان كيتشنر، القائد المجرب لجيوش الإمبراطورية البريطانية، بصفته حاكماً في مصر، مسؤولاً عن أمن قناة السويس وعن القوات القادمة من الهند، التي ستنقل عبر القناة في حالة قيام حرب. وكان تشرشل، بصفته اللورد الأول للأميرالية، مسؤولاً عن الحماية البحرية لسفن نقل الجنود في رحلتها البحرية الطويلة إلى أوروبا. وقد تبادل السياسي الشاب والجندي المسن وجهات النظر خلال الغداء.

قال تشرشل مخاطباً كيتشنر: «إذا قامت حرب فلن تعود الى مصر» [108]. لم يكن هذا ما يرغب الفيلد مارشال في سماعه. فقد جاء كيتشنر إلى بريطانيا وفي نيته أن يمكث ما يكفي من الوقت لحضور احتفالات 17 تموز (يوليو) بمناسبة ترقيته إلى رتبة ولقب «ايرل كيتشنر الخرطوم»، وكان حريصاً على العودة إلى مركز عمله بصفته المعتمد البريطاني والحاكم العام في مصر، بأسرع ما يمكن. كان بصره دائماً موجهاً إلى الشرق، وقد أبدى للملك جورج رغبته في تعيينه نائباً للملك في الهند عندما يشغر هذا المنصب حسبما هو مقرر في عام 1915؛ ولو أنه خشي أن يقطع عليه «السياسيون» طريق هذا التعيين [109]. لقد كان كيتشنر الجاف والنزق يمقت السياسيين.

حتى الوضع الدولي الآخذ في التدهور ما كان ليقبه في لندن، فسافر في مطلع آب (أغسطس) إلى دوفر ليلحق بعثة للقنال الانكليزي. وكانت خطته أن يسافر بالقطار من ميناء كاليه الفرنسي إلى مرسيليا، ومن ثم

يذهب إلى مصر على متن طراد. وقد صعد إلى الباخرة في دوفر بعيد ظهر الثالث من آب (أغسطس)، فأخذ يتأفف ويتذمر مبدياً نفاد صبره لأن الباخرة لم تبحر في الموعد المحدد لبحارها.

وشاءت تصارييف القدر أن يوشك سفره على الالغاء بدلاً من التأخير، ففي مساء اليوم السابق، اندمج أحدهم في حديث مع عضو محافظ في البرلمان البريطاني، التقاه في قاعة التدخين في نادي بروكس، أحد أندية لندن، وجره الحديث إلى القول إن وزارة الحربية البريطانية تعاني من حالة فوضى مطلقة، وإن من المؤسف أن كيتشنر لم يكلف بمنصب وزير الحربية. وفي مساء اليوم عينه، نقل عضو البرلمان هذا الحديث إلى اثنين من زعماء حزبه كانا في حجرة شبه خاصة في النادي يتباحثان في الوضع الدولي، وهذان الزعيما اللذان نقل إليهما الحديث - أندرو بونار لو، وسير ادوارد كارسون - ناقشا الأمر مع آرثر بلفور، رئيس الوزراء المحافظ السابق، الذي بدوره نقل الاقتراح إلى تشرشل، وكان على صلة طيبة معه.

وقد صدرت صحيفة التايمز صباح الثالث من آب (أغسطس) - يوم إعلان ألمانيا الحرب على فرنسا - متضمنة مقالة بقلم مراسلها العسكري، بحث فيها على تعيين كيتشنر وزيراً للحربية. وصباح اليوم نفسه قابل تشرشل رئيس الوزراء واقترح تعيين كيتشنر ولكنه لم يذكر، كما يبدو، أن الاقتراح جاء منه ومن المحافظين أيضاً. وتشير مذكرات تشرشل إلى أنه ظن آنذاك أن اسكويث وافق على اقتراحه، لكن الواقع هو أن رئيس الوزراء تردد في إقرار هذا التعيين، فقرر بدلاً من ذلك، استبقاء كيتشنر في بريطانيا بصفة استشارية فقط.

كان كيتشنر على متن الباخرة التي لم تغادر دوفر بعد، عندما تلقى رسالة من رئيس الوزراء تطلب إليه العودة إلى لندن فوراً، وقد رفض الفيلد مارشال العودة في أول الأمر، وبصعوبة اقتنع بالنزول من الباخرة. ولدى عودته إلى لندن تبين له أن اسكويث لا يفكر في تعيينه في منصب نظامي، دعك من منصب ذي سلطات ومسؤوليات محددة بوضوح. وبالحاح من زملائه قرر كيتشنر أن يحسم المسألة، فذهب لمقابلة رئيس الوزراء مساء الرابع من آب (أغسطس) - الليلة التي قررت فيها بريطانيا أن تخوض الحرب، وبعد أن كانت الجيوش الألمانية قد اكتسحت بلجيكا - ودام اجتماعهما ساعة، قال خلاله كيتشنر أنه إذا أُجبر على البقاء في لندن فلن يقبل منصباً أقل من منصب وزير الحربية.

وتحت ضغط السياسيين والصحافة، وافق رئيس الوزراء في اليوم التالي، فعين كيتشنر وزيراً للحربية. وقد كتب رئيس الوزراء قائلاً: «لم يكن كيتشنر (لكي ننصفه) حريصاً إطلاقاً على قبول المنصب، أما وقد عرض عليه

باعتباره واجباً فقد وافق. ومفهوم بوضوح أنه لا دخل له بالسياسة وأن مكانه في القاهرة سيبقي شاغراً - بحيث يستطيع العودة إليه عندما يحل السلام. إنها تجربة محفوفة بالخطر ولكنها في ظني الأحسن في الظروف الراهنة» [110]. كان افتراض اسكويث، كافتراض الجميع تقريباً، أن الحرب لن تدوم سوى بضعة شهور، ولذلك لم يعين بديلاً لكيتشنر في منصب المعتمد والحاكم العام في مصر. كان اعتقاده أن الفيلد مارشال عائد قريباً إلى منصبه هناك. وفي السادس من آب (أغسطس) تسلم كيتشنر مهام منصبه الجديد في وزارة الحربية في وايت هول.

أقام اللورد كيتشنر في منزل مستأجر في لندن، مبنياً بوضوح أنه لا يعتزم البقاء [111]. وكان هذا المنزل عند تقاطع شارعي كارلتون هاوس تيريس و كارلتون غاردنز، على بعد مسيرة أقل من خمس دقائق عن وزارة الحربية، وهذا يعني أنه يستطيع أن يمضي كل لحظة من لحظات اليقظة في عمله.

كان يستيقظ عند الساعة السادسة صباحاً، ويصل إلى مكتبه عند التاسعة. ويتناول عادة غداء بارداً، ثم يعود إلى مسكنه الموقت عند السادسة مساءً ليقرأ صحف المساء ويأخذ غفوة ثم يقرأ بعد العشاء البرقيات الرسمية حتى ساعة متأخرة من الليل [112]. أما الكأس أو الكأسان من النبيذ مع العشاء وكأس الويسكي المسائي التي كان يستمتع بها في مصر فقد صارت محرمة، إذ أنه بطلب من الملك جورج الخامس تعهد بأن يكون قدوة في الوطن بعدم شرب الخمر طوال الحرب.

يبدو أن تردد اسكويث في تعيين هذا الجندي العلم وزيراً، منشؤه الخوف من أن يبرز كيتشنر وزير الحربية بدلاً من رئيس الوزراء، زعيماً لبريطانيا في زمن الحرب. ولم يسبق لجندي عظيم أن شغل منصباً كبيراً في الدولة منذ أن تولى ولينغتون الوزارة قبل زهاء قرن، وما من ضابط انضم إلى مجلس الوزراء وهو في خدمة الجيش منذ الجنرال جورج مونك الذي استعاد العرش في عام 1660 فكوفيء بمنصب رفيع. ومنذ ذلك الحين حوُظ على مبدأ السلطة المدنية بغيرية شديدة. ولكن اسكويث شعر أنه مجبر على إخضاع هذا المبدأ لحاجته الملحة إلى خدمات الفيلد مارشال كيتشنر.

كان كيتشنر شخصية أسطورية - كان أسطورة وطنية، وصورة معلقة على الجدران في سائر أنحاء المملكة. ومنذ أن تسلم منصبه الوزاري كانت جموع عديدة تحتشد يومياً لرؤيته داخلاً إلى وزارة الحربية أو خارجاً منها. وقد كتبت في ما بعد ابنة رئيس الوزراء قائلة: «كاد أن يكون شخصية رمزاً، وفي خلني انه يرمز الى القوة، والحسم، وفوق كل شيء إلى

النجاح... كل ما تمتد يده إليه لا محالة ناجح. ثمة شعور بأن كيتشنر لا يمكن أن يفشل. إن الأثر النفسي الذي أحدثه تعيينه كان عفويًا وعامًا شاملاً، وكذلك كانت القوة التي بثها في الطمأنينة العامة. وقد منح الحكومة، بجدارته الشخصية، صفة وطنية» [113].

لقد قيل أن العامة من الناس لا يحكمون العقل في ما يخص كيتشنر، بل يثقون به ثقة تامة قائلين: «ما دام كيتشنر هنا، فالأمور بخير» [114].

في الماضي كانت خاتمة الأشياء على يديه دوماً خاتمة ناجحة. فقد انتقم لمصرع الجنرال تشارلز جورج غوردون في الخرطوم عندما دمر امبراطورية الدراويش وأعاد فتح السودان. وقد حاول الفرنسيون آنذاك أن يقحموا أنفسهم في ممتلكات الامبراطورية البريطانية فتصدى لهم كيتشنر في عام 1898 وجابههم بحزم في قلعة فاشودا في السودان، فإذا بالقوة الفرنسية تنهزم وتنسحب من القلعة. وفي جنوب أفريقيا لم تكن الأمور على ما يرام عند بدء حرب البوير، فجاء كيتشنر ليمسك بزمام الأمور وأنهى الحرب نهاية مظفرة. ثم إنه عندما تولى قيادة الجيوش في الهند في مطلع القرن العشرين، فرض إرادته بالحزم الذي أبداه في مصر.

إن المواقع النائية في أنحاء الامبراطورية التي أحرز فيها انتصاراته الرائعة قد أضفت عليه بريقها. وبعد المسافة جعله يبدو ساحراً وأكبر من الحياة في آن واحد، وكأنه تمثال أبي الهول يبسط ظله وسط الصحراء. لقد كان شخصاً انطوائياً وكتوماً ولا يشعر بالطمأنينة، ومع ذلك بدا وكأنه البطل القوي الصامت في الأساطير الشعبية. إن إعراضه المؤلم عن الناس لم يكن في نظر الناس إعراضاً عنهم، وخوفه من زملائه السياسيين ظهر وكأنه احتقار لهم. لقد راقب موظف صغير في مقتبل العمر يعمل في وزارة الخارجية الفيلد مارشال في اجتماع ضمه ورئيس الوزراء، وسپر ادوارد غراي، وديفيد لويد جورج، فدوّن في مفكرته أن «كيتشنر بدا وكأنه ضابط اختلط بالعديد من اللاعبين وهم يتنزهون فحاول التظاهر بأنه لا يعرفهم» [115].

كان فارغ الطول، عريض المنكبين، مربع الفكين، غليظ الحاجبين، كث الشاربين، أزرق العينين فيهما حول، ذا نظرة شاردة مخيفة، وكان يطاول رفاقه جسماً، ويظهر بمظهر الدور الذي أعده له القدر وخصته به الصحافة الشعبية. كان منذ حملاته الأولى محظوظاً بالصحافيين الذين تابعوا سيرته ورسموا صورته التي عرفها الناس. وكان محظوظاً أيضاً بزمّن سيرته وهو زمن اضطرام الشعور والمؤلفات والعقيدة الامبراطورية في بريطانيا. إن دزرائيلي، وكيلنغ، وأ.أ. ميسون (مؤلف «الريش الأربع») وليونيل كورتيس

(مؤسس «الطاولة المستديرة» وهي حولية امبريالية) وجون بوتشان وغيرهم قد خلقوا موجة الشعور الجارفة التي ركب هو قمته.

إن جورج ستيفنز، من جريدة ديلي ميل، الذي ربما كان أهم مراسل حربي في زمنه، كتب لقراءه في عام 1900: «إن دقة كيتشنر لا يشوبها الخطأ حتى لتبدو وكأنها ليست من دقة البشر، ويبدو هو أشبه بالآلة منه بالإنسان» [116]. لقد ألف ستيفنز كتاباً عن حملة السودان روي فيه كيف قاد كيتشنر (الذي كان في ذلك الحين سردار، أي قائد الجيش المصري) جيوشه جنوباً مسافة تربو على ألف ميل من الأراضي الصخرية والرملية، من مياه وادي النيل إلى أراض لا يسقط عليها المطر أبداً، لكي يفتح بلداً مساحته مليون ميل مربع. لقد تجاهل المؤلف الوقائع التي كانت فيها مقدرة كيتشنر القيادية عرضة للنقد، فأسهب في الحديث على المقدرة التنظيمية التي اختص بها السردار واستمدها من ماضيه كضابط في سلاح الهندسة. ومما قاله ستيفنز إن كيتشنر كان يهييء لتحركاته بعناية شديدة «فلم يخض معركة قط قبل أن يتيقن من نصر كاسح...» [117]. وقال ستيفنز أيضاً في كتابه: «لقد اختفى فيه الإنسان... ليس ثمة إنسان بيدعى هيربرت كيتشنر، هناك السردار فقط، لا يطلب المودة ولا يعطيها، وضباطه وجنوده هم دواليب في آلة: يغذيهما بما يكفي لكي يكونوا أكفاء، ويقسو عليهم في العمل قسوته على نفسه» [118].

عندما انضم إلى مجلس الوزراء، بل ولأشهر عديدة بعد ذلك، كان بقية الوزراء - وهو في نظر أكثرهم غريب - يهابونه. ومع أن أقواله في الشؤون العسكرية كانت تزعجهم. لأنها عكس كل ما اعتادوا أن يؤمنوا به، فقد قبلوا آراءه دون مناقشة. كان اعتقادهم أن الجيش البريطاني المحترف يكفي من حيث عدد أفراد، ولكن كيتشنر قال في أول يوم أمضاه في وزارة الحربية: «ليس عندنا جيش» [119]. وكان الرأي السائد أن الحرب ستكون قصيرة، ولكن كيتشنر بعد نظر لا يخطيء، أبلغ مجلس الوزراء الذي أصيب بالذهول (والذي، وفقاً لكلام تشرشل قابل كلام كيتشنر بالشك) أنه ينبغي لبريطانيا أن تحتفظ في الميدان بجيش يضم ملايين الرجال، وأن الحرب ستدوم ما لا يقل عن ثلاث سنوات، ولن تحسمها إلا المعارك الضارية على أرض القارة الأوروبية وليس المعارك البحرية [120]. وخلافاً للرأي التقليدي القائل أنه لا يمكن إيجاد جيش كبير إلا بالتجنيد الإجباري، زاد كيتشنر عدد الجيش بحملة تجنيد متطوعين، الأمر الذي فاجأ معاصريه وحير الخلف.

لقد رأى كيتشنر أن يربح الحرب بواسطة تنظيم قواته بمثل شمولية تنظيمها استعداداً لحملة الخرطوم. وقد عزم على أن يمضي السنوات

الأولى في إيجاد وتدريب وتجهيز جيش هائل القوة وأن يفعل ذلك بمنهجية، ثم أن يركز قواته في منطقة ما، لا أن يبدها في معارك جانبية. وكان شعوره أن الحرب العثمانية المقبلة هي حرب جانبية، وأن ارسال المزيد من الجنود لمقاتلة الأتراك هو تبذير في الموارد. كان يخشى وقوع هجوم تركي على قناة السويس - همه العسكري الوحيد في الشرق الأوسط - ولكنه اعتقد أن القوات البريطانية في مصر قادرة على صد الهجوم. ولم يكن للشرق الأوسط دور في خطته لكسب الحرب. إلا أن ذلك لا يعني أنه لم يكن لكتشنر سياسة بشأن الشرق الأوسط، وسنرى أنه كانت له آراء ثابتة في الدور الذي يجب أن تؤديه بريطانيا في المنطقة حالما تنتهي الحرب الأوروبية.

## (2)

كانت محض مصادفة أن البطل العسكري الذي جيء به إلى الحكومة ليكون على رأس المجهود الحربي، رجل يرى أن له الحق، ويرى الآخرون أيضاً أن له الحق في أن يكون الشرق منطقته الخاصة به. ومن هذه المصادفة انبثقت الخطوط العامة المميزة للسياسة البريطانية.

قبل زمن قريب، حكم كيتشنر مصر، البلد الذي كان من وجهة رسمية لا يزال جزءاً من الامبراطورية العثمانية، ولكنه واقعياً كان بلداً مستقلاً حتى احتلته بريطانيا في عام 1882، معلنة أن هدفها هو إعادة النظام ثم تغادر البلد. ولكن بريطانيا بقيت فيه بدلاً من أن تغادره. وفي عام 1914 كانت مصر اضافة حديثة نسبياً إلى دائرة النفوذ البريطاني. وكان الضباط الذين خدموا فيها مع كيتشنر قد شرعوا في تكوين نظرة متميزة إلى الأحداث. وهم بحكم وجودهم في بلد ناطق بالعربية أخذوا يعتبرون أنفسهم خطأ، خبراء في الشؤون العربية، وقد أصيبوا بإحباط شديد إذ استبعدتهم وزارة الخارجية وحكومة الهند من صنع السياسة الخارجية، علماً أن وزارة الخارجية وحكومة الهند كانتا الجهتين اللتين تتعاملان تقليدياً مع الأجزاء الناطقة بالعربية في الامبراطورية العثمانية. ولم يكن لدي كيتشنر ولا لدى مساعديه إدراك حقيقي للفوارق الكبيرة بين التجمعات السكانية العديدة في الشرق الأوسط. فسكان شبه جزيرة العرب والمصريون، مثلاً، يتكلمون اللغة العربية، وفيما عدا ذلك هم مختلفون - من حيث التركيب السكاني، والتاريخ، والثقافة، والنظرة العامة، والظروف المحيطة بكل من البلدين. وحتى لو كان مساعده كيتشنر خبراء في شؤون مصر حسب اعتقادهم، فليس من شأن ذلك بالضرورة أن يجعلهم خبراء في شؤون شبه جزيرة العرب حسب ادعائهم.

عندما نفذ كيتشنر حملة السودان، التي قام بها رغم مآخذ وزارة الخارجية والحكومة المصرية برئاسة اللورد كرومر عليها، فإنه وسع كثيراً منطقة السيطرة البريطانية على العالم الناطق بالعربية. ولعله خلال حملة السودان بدأ يحلم باقتطاع ملك امبراطوري جديد وكبير لبريطانيا في الشرق الأوسط، على أن يكون هو نائب الملك في هذه الاقطاعية.

كان المسؤولون البريطانيون يعرفون منذ أواخر القرن التاسع عشر أن الخديوي - الأمير المصري الذي تحكم بريطانيا مصر من خلف عرشه - يطمح إلى توسيع سلطته. ومع أن الخديوي كان نظرياً نائب السلطان العثماني في مصر، فقد كانت ثمة شائعات متواترة عن أفكار تراوده بشأن إمكانية حله محل السلطان في الزعامتين الدنيوية والروحية - أي أن



يكون سلطاناً وخليفة للمسلمين - في الولايات الناطقة بالعربية في الامبراطورية، بهذا يقسم الامبراطورية مناصفةً. وثمة شائعة أخرى انه عزم على ضم الأماكن المقدسة الاسلامية في شبه الجزيرة العربية وتنصيب خليفة هناك تحت حمايته[121]. أما الضباط المصريون والبريطانيون الملحقون به فلا بد أن يفهموا أن تحقيق هذه الخطة سيعود عليهم بزيادة كبرى في سلطتهم.

آنذاك - عند نهاية القرن التاسع عشر - كانت فرنسا هي الدولة الكبرى الأشد معارضة لتوسع مصر البريطانية، وفرنسا كانت حليفة روسيا. وقد بدا تحالفهما من وجهة نظر المواقع التابعة لبريطانيا والمحاذية للبحر الأبيض المتوسط، انه موجه ضد بريطانيا، وحيال بُعد روسيا الجغرافي عن المنطقة، كانت النظرة في مصر والسودان إلى فرنسا أنها العدو الذي يشعرون بأن وجوده الخطر قريب منهم. ولذلك كانت السياسة التي تربي ضباط كيتشنر على خدمتها هي سياسة مزاحمة فرنسا على الموقع والنفوذ في العالم الناطق بالعربية.

كانت التجمعات الكبرى واعتبارات السياسة العالمية تتجاوز مدى تفكير الضابط العادي في القاهرة البريطانية التي كانت عبارة عن جيب يتمثل فيه (كما كتب أحد معاوني كيتشنر): «كل ضيق الأفق وضيق المحيط مما نجده في أية بلدة تضم حاميات عسكرية في انكلترا...»[122]. لقد كانت الجالية المؤلفة من المسؤولين البريطانيين وأفراد أسرهم متماسكة متجانسة، ومحور حياتها هو نادي سبورتينغ ونادي تورف وحفلات الرقص التي يحيونها في أحد الفنادق الرئيسة ست ليال في الأسبوع.

من هذه الجالية المطبوعة بطباع الحامية العسكرية الإقليمية - والتي تجاهل صانعو السياسة العالمية البريطانية وجهات نظرها - انبثق اللورد كيتشنر.

### (3)

اقتضى شن الحرب على الامبراطورية العثمانية توضيح طبيعة الوجود البريطاني في مصر وقبرص، إذ كانتا كلتاهما لا تزالان اسمياً جزءين من امبراطورية السلطان. وقد كان مجلس الوزراء البريطاني محبذاً لضم البلدين، بل قيل للمسؤولين في القاهرة أن القرار بهذا الشأن قد اتخذ. لقد احتج رונالد ستورز، سكرتير اللورد كيتشنر في القاهرة المختص بالشؤون الشرقية على هذا القرار قائلاً أنه يمثل نكثاً بوعود قطعتها الحكومات البريطانية على مدى أربعين عاماً بأن يكون الاحتلال البريطاني مؤقتاً. وكان رأي مكتب المعتمد البريطاني المقيم في مصر (أي اللورد كيتشنر) إعطاء مصر وضع المحمية البريطانية، مع إشارة رمزية على أقل تقدير إلى الاستقلال في نهاية الأمر - وقد دافع ميلن تشيثام (القائم بأعمال المعتمد البريطاني في غياب كيتشنر) دفاعاً مؤثراً عن هذا الرأي، فتخلى مجلس الوزراء عن وجهة نظره نزولاً عند وجهة نظر مكتب المعتمد البريطاني، وبذلك بين كيف سيكون اتجاه الأمور في مقلب الأيام.

إن مجلس الوزراء، في هذه الحالة، سمح لمقر المعتمد كيتشنر في القاهرة أن يقيم انموذجاً لشكل الحكم الذي أراد الفيلد مارشال ومعاونوه أن تمارسه بريطانيا في نهاية المطاف في سائر أنحاء العالم الناطق بالعربية. وهو لن يكون حكماً مباشراً على غرار ما تمارسه بريطانيا في أجزاء من الهند. ففي مصر كيتشنر هنالك أمير من أسرة مالكة ووزراء وحكام من أهل البلد مشاركون في إجراءات الحكومة. وهؤلاء يصدرون قرارات تحمل توقيعهم استناداً إلى توصيات يقدمها لهم المستشارون البريطانيون الملحقون بمناصبهم. ذلك كان شكل حكومة المحمية الذي دعت إلى تطبيقه جماعة كيتشنر. وقد عبر رונالد ستورز عن ذلك بكلمات فيها براعة في السبك: «استنكرنا صيغة فعل الأمر، وآثرنا عليها أفعال التمني الشرطية، بل صيغة ترجي ما لا يمكن ادراكه» [123].

هذا القرار المتعلق بمصر كان توطئة لقرارات أخرى اتخذها ستورز وغيره من حاشية كيتشنر بشأن السياسة البريطانية في الشرق الأوسط تحت حماية سلطة الفيلد مارشال التي لا ينازعه فيها منازع. فإذا ما تصادمت آراء الحكومة في مواضيع الشرق مع آراء اللورد كيتشنر، كان المرجح أن يكون الظفر من نصيب آراء كيتشنر، والقرارات التي تصدر في العادة عن رئيس الوزراء، أو وزير الخارجية، أو نائب الملك في الهند، أو مجلس الوزراء، كانت عوضاً عن ذلك تصدر عن موظفين ذوي مراتب دنيا نسبياً وتطرح

باعتبارها تمثل وجهة نظره. وما كان هذا ليحدث لولا مهابة الفيلد مارشال الفذة.

لقد كتب سير ادوارد فراي، وزير الخارجية، على إحدى البرقيات الواردة من القاهرة حاشية مضمونها: «هل يوافق اللورد كيتشنر؟ إذا كان موافقاً فأنا موافق» [124]. ولعله كتب الحاشية عينها على جميع البرقيات، كان كيتشنر حريصاً على عرض القرارات المتعلقة بالسياسة الخارجية على غراي، فكان هذا ينزل عند آراء كيتشنر، ويقر حتى تلك المقترحات التي يقدمها وزير الحربية مع أنه معارض لها.

إن أحد أسباب ترك أعضاء البرلمان والوزارة المسائل الشرقية إلى هذا الحد، لكيتشنر وحاشيته، هو إنهم لم يفقهوا الكثير عنها. إن جهل البريطانيين بشؤون الشرق الأوسط خلال حرب عام 1914 هو أمر لا يتصوره عقل موظف حكومي في الثمانينيات من القرن العشرين، إعتاد الرجوع إلى المراجع الضخمة، والتغطية الصحافية العالمية، والتزود بتفاصيل واسعة من المعلومات عن بلدان أجنبية، تقوم بجمعها الحكومات الكبرى. فبعد دخول بريطانيا الحرب ضد تركيا، اشتكى سير مارك سايكس، أحد قلة من أعضاء البرلمان البريطاني قامت برحلات إلى الشرق، من عدم وجود كتاب تاريخ واحد صادق المعلومات باللغة الانكليزية عن الامبراطورية العثمانية [125]. ولم يكن أي من كتب التاريخ المتداولة آنذاك يستند إلى بحث أصلي، بل كانت جميعها تستند إلى جهد ألماني توقف عند السنة 1744، ولذلك كانت كلها كتباً تقادم زمنها كثيراً [126]. وفي عام 1917، وفيما كانت الجيوش البريطانية تنهياً للغزو شمالاً باتجاه سورية، طلب الجيش إلى المخابرات البريطانية أن تزوده بدليل عن الأوضاع في سورية، فكان الجواب أن لا وجود لكتاب بأية لغة أوروبية يتضمن مسحاً للأوضاع الاجتماعية والسياسية في المنطقة [127].

لقد كانت الحكومة البريطانية تفتقر إلى أبسط أنواع المعلومات الأولية - بما فيها الخرائط - عن الامبراطورية التي دخلت الحرب ضدها. لقد حدث في المدة 1913 - 1914 أن قام أحد ضباط مخابرات كيتشنر سراً بمسح ورسم خريطة لمنطقة قفر قريبة من حدود سيناء التابعة لمصر التي تحكمها بريطانيا، فكان عمله أحد قلة من أعمال المسح القليلة التي قامت بها المخابرات البريطانية [128]. إن الضباط البريطانيين الذين قادوا العمليات في الأراضي العثمانية في سنوات الحرب الأولى كانوا معظم الوقت يعملون في الظلام. كان لاختفاق الغزو البريطاني لتركيا في عام 1915 أسباب عديدة، أحدها أن قوة الغزو البريطانية زودت بخريطة واحدة لشبه

الجزيرة التي كانت هدفاً للهجوم - وقد تبين أن هذه الخريطة غير دقيقة. وعندما جاء دور الشرق الأوسط، أدرك السياسيون، شأنهم شأن العسكريين، أنهم يتحركون في مناطق غير معروفة المعالم لديهم.

ولكن الوزراء البريطانيين الذين نزلوا عند إرادة كيتشنر في شؤون الشرق الأوسط، كانوا يجهلون مدى ضآلة فهمه للشرق الأوسط، أو فهم معاونيه في القاهرة والخرطوم الذين اعتمد عليهم من حيث المشورة والمعلومات.

# الفصل الثاني

## معاونو كيتشنر

### (1)

كان وزير الحربية لا يتجنب النساء فقط (كما كان يفعل دائماً) بل كان يتجنب العالم الخارجي كله، فعاش في محيط كل من فيه من الذكور، وكان سكرتيه العسكري الشخصي، الكولونيل أوزوالد فيتزجيرالد يكاد يكون مرافقه الوحيد والدائم. وقد أخذ فيتزجيرالد يرسل ويتحدث باسم كيتشنر، وعندما كان الناس يقولون انهم كتبوا الى كيتشنر أو سمعوا منه كانوا يقصدون انهم كتبوا الي فيتزجيرالد أو سمعوا منه.

كان كيتشنر يعتمد على الدوام اعتماداً شديداً على مرؤوسيه. أما وقد انتقل الآن إلى مركز السلطة في لندن فلم يكن فيتزجيرالد وحده هو الذي انتقل معه إلى مركز السلطة بل انتقل معه إليها أيضاً مرؤوسوه الذين ظلوا في مصر والسودان. وهكذا فإن اللورد كيتشنر فرض الشكل الذي رسمه على سياسة بريطانيا ليس عن طريق رسم مقاربة جديدة نحو الشرق الأوسط فحسب، بل عن طريق تفويض السلطة إلى ضباط مختارين في الميدان أيضاً، فكان أولئك الضباط يوجهون تلك السياسة وينفذونها. وبدلاً من أن يشعر المسؤولون البريطانيون في مصر والسودان انهم موضع تجاهل أو انهم مهملون كما كانوا يشعرون في الماضي، أتاحت لهم الفرصة الآن لجعلوا وزنهم ملموساً.

لقد صعد معاونو كيتشنر القدامى في العالم الناطق بالعربية مع كيتشنر نفسه إلى مكان الصدارة في صنع السياسة الشرقية. والأمر الذي كان بارزاً في نهاية عام 1914 هو أن كيتشنر كان قد طبع سياسات الحكومة بطابعه الشخصي، غير أن الأمر الذي تبين فيما بعد أنه أكثر أهمية وديمومة، هو أن كيتشنر كان قد اختار الأشخاص الذين كان عليهم إعلام الحكومة البريطانية وتقديم المشورة لها بشأن الشرق الأوسط طوال الحرب - وبعد الحرب أيضاً. إن ما فعله كيتشنر بنقل السلطة إليهم هو أنه نقل الكثير من عملية تقويم المعلومات وصنع السياسة من عاصمة امبراطورية عالمية، حيث المسؤولون - حتى ولو لم يكونوا ذوي معرفة خاصة بشؤون الشرق الأوسط - يميلون للنظر إلى الأمور نظرة واسعة، إلى عاصمتين مستعمرتين هما عاصمتا مصر والسودان حيث لا حدود ولا قيود

لتحد أو تقيد تحاملات الموظفين القدامى. أن الجيب البريطاني في كل من القاهرة والخرطوم كان يمثل البيئة التي كان وزير الحربية تواقاً للعودة إليها والتي لم ينفصل إطلاقاً عنها روحياً. ويقول أحد المراقبين إن ضعف وزير الحربية كان يتمثل في «كونه بشكل ما أجنبياً» في إنكلترا [129].

فقد كانت لندن بالنسبة له أكثر غربة من القاهرة أو كلكتا. وكان الفيلد مارشال يرتبك ارتباكاً شديداً أمام الوجوه غير المألوفة له. وبدلاً من أن يعتمد على وزارة الحربية ووزارة الخارجية في لندن لتلقي المعلومات والنصح بشأن الشرق الأوسط، ظل يرجع إلى مرؤوسيه في مصر، وعندما عُين وزيراً للحربية طلب إلى رونالد ستورز، سكرتيره للشؤون الشرقية أن يبقى معه في لندن. وقد نبه ستورز إلى أن الأنظمة الحكومية لا تسمح بذلك، ولكن لدى عودة ستورز إلى مصر ظل كيتشنر يستوحي مقترحاته. وقد كان ستورز ابن قسيس من الكنيسة الانجيلية، تخرج من بيمبروك في كامبردج وكان متفوقاً فكرياً، وهو آنذاك في منتصف الثلاثينات من عمره. ومع أنه لم يرتفع عن مستوى طالب جامعي في دراسة اللغات والآداب الشرقية، فإن عمله سكرتيراً للشؤون الشرقية في مقر المعتمد البريطاني في القاهرة مدة تزيد على عقد من السنين، قد ثبت وضعه خبيراً في شؤون الشرق الأوسط. إن رتبته المتدنية - عند نشوب الحرب حصل على مكانة دبلوماسية ولو أنها لم تتجاوز مستوى سكرتير ثان لم تكن مؤشراً إلى مكانته العالية لدى الفيلد مارشال.

## (2)

مع حلول نهاية عام 1914 بدا واضحاً أن الحرب لن تصل الى نهاية سريعة، وان الفيلد مارشال لن يتمكن من العودة الى القاهرة مدة من الزمن، ولا بد نتيجة لذلك من اختيار حاكم بريطاني جديد في مصر. ورغبة من كيتشنر في ابقاء هذا المنصب في القاهرة شاغراً حتى عودته، فقد اختار هو شخصياً سير هنري مكماهون ليخدم بدلاً عنه (حاملاً لقباً جديداً هو لقب المندوب السامي بدلاً من لقب المعتمد) وقد كان مكماهون موظفاً من الهند لا لون له وعلى وشك أن يتقاعد.

وبالرغم من تعيين مكماهون ظل رونالد ستورز وزملاؤه في مصر والسودان ينظرون الى وزير الحربية على أنه رئيسهم الحقيقي. فكان سير جون ماكسويل، القائد العام للقوات البريطانية في مصر يرفع تقاريره الى كيتشنر في وزارة الحربية مباشرة بدلاً أن يرفعها الى المندوب السامي الجديد أو عن طريقه.

وقد كان الجنرال سير فرنسيس رجينالد وينغيت، الذي خلف كيتشنر في منصبه سرदार الجيش المصري وحاكم السودان العام، هو الشخصية الرئيسية بين أتباع وزير الحربية في الشرق الأوسط. وقد أمضى وينغيت كامل حياته العملية في الخدمة العسكرية في الشرق، وبصورة رئيسة في المخابرات العسكرية، وحصل على شهادة عليا في اللغة العربية. وعن دوره في حملة الخرطوم التي قادها كيتشنر كتب الصحافي جورج ستيفنز يقول: «كان الكولونيل وينغيت يعرف بالتأكيد كل ما تنبغي معرفته، لأن شاغله كان أن يعرف كل شيء... أما ابن الأكاذيب الغامض، أي العربي، فقد كان الكولونيل وينغيت يستطيع أن يحادثه ساعات وأن يعرف في النهاية ليس فقط مدى الصدق فيما رواه بل كان يعرف أيضاً وبدقة مقدار الصدق الذي أخفاه... فلا شيء يخفي على الكولونيل وينغيت» [130].

وكان وينغيت يحكم السودان من مدينة الخرطوم هذه العاصمة التي لوحتها الشمس ويسكنها نحو 70000 نسمة، والتي أعيد بناؤها بالكامل وفقاً لمواصفات وضعها اللورد كيتشنر.

والخرطوم تبعد عن القاهرة، سواء كان السفر اليها بالبواخر النهرية أو بالقطار، مسافة 1345 ميلاً، ولذلك شعر وينغيت أنه مبعّد ومهمّل، وقد أرسل بتاريخ 15 شباط (فبراير) 1915 رسالة كتب عليها عبارة «خاص جداً» الى معتمده في العاصمة المصرية بثه فيها مقدار ما يشعر به من الم، قال فيها:

«وكلما فكرت في مسألة السياسة العربية والوضع الغريب الذي انزلت اليه بسبب عدد (الطباخين) الذين يشاركون في وضعها، قل استحساني لأظهار أنفسنا إلى العلن ما لم يكن مطلوباً منا رسمياً أن ندلي ببيان يتضمن وجهات نظرنا. أنى أتحدث عن نفسي - ولا بد لك من أن تتذكر أنه بالرغم من منصبي في مصر والسودان ووبالرغم من عدد السنين التي أمضيتها في هذا البلد، فإنهم لم يستفيدوا سوى استفادة ضئيلة: من خبرتي في هذا الأمر أو في غيره من الأمور ذات الصلة بالوضع. وكما سبق أن قلت مراراً، أعتقد أن وضعنا الجغرافي - السياسي وصلتنا بالولايات العربية الأقرب إلينا قد وفّرت لنا فرصاً لفهم الوضع هناك وفهم وجهات نظر مسلمي الأماكن المقدسة - فهماً أفضل من فهم كثيرين غيرنا، ولكن من الواضح أن لا سلطات وزارة الداخلية ولا سلطات وزارة شؤون الهند تشاظرنا وجهة النظر هذه ولذلك أفضل الصمت في الوقت الراهن» [131].

وحقيقة الأمر أن وينغيت لم يتحمل البقاء صامتاً، فلم يمض سوى اثني عشر يوماً حتى كتب يقول انه بدّل رأيه وقرر «أنه ينبغي لنا ألا نحفظ لأنفسنا بالمعلومات ووجهات النظر التي قد تكون نافعة» لأولئك المسؤولين عن صنع السياسة [132].

كان وكيل وينغيت في القاهرة - أي الممثل الرسمي لحكومة السودان في مصر - هو جيلبرت كلايتون، الذي سبق له أن خدم تحت امرة اللورد كيتشنر في حملة السودان. كان كلايتون قد أصبح ضابطاً في المدفعية الملكية في عام 1895 ثم ذهب الى مصر، ومنذ ذلك الحين استمر يعمل في مصر أو في السودان. وقد عمل بين عام 1908 وعام 1913 سكرتيراً خاصاً للجنرال وينغيت، ومنذ عام 1913 عمل وكيلاً للسودان في القاهرة وفي الوقت عينه مديراً لمخابرات الجيش المصري. وانتقل كلايتون الى موقع مركزي في صنع سياسة بريطانيا العربية عندما أصبح بتاريخ 31 تشرين الأول (أكتوبر) 1914، وبقرار من القائد العام في مصر سير جون ماكسويل، الذي كان على صلة مباشرة باللورد كيتشنر، رئيساً لكل أجهزة المخابرات في القاهرة - أي مخابرات السلطة المدنية البريطانية ومخابرات الجيش البريطاني ومخابرات الجيش المصري. وهكذا صارت لندن تتلقى من مصر صيغة واحدة فقط للمعطيات الاستخبارية، هي الصيغة التي يرسلها كلايتون، بدلاً من أن تتلقى صيغاً من ثلاثة مصادر. وما لبث كلايتون الذي كان نقيباً سابقاً في الجيش أن نال ترقية سريعة خلال الحرب فأصبح في نهايتها جنرالاً.

وقد عمل كلايتون بأسلوبه الأبوي ناصحاً وموجهاً لمحبي علم الآثار والمستشرقين الشباب المغامرين الذين تقاطروا إلى القاهرة للخدمة في



أجهزة المخابرات خلال الحرب، ولا بد انه كان يمتلك صفات انسانية فذة إذ أن أولئك الشباب الذين كان يوجههم قد أحبوه جميعاً واحترموه بالرغم من تباينهم عنه في مجالات أخرى. لقد رأوا فيه الانسان الحاذق والصبور والثابت. كان يكبر معظمهم بنحو عشر سنوات وكانوا جميعاً يستمعون الى نصحه سواء أخذوا أو لم يأخذوا بهذا النصح. لقد كان بالنسبة لهم تجسيدا للجيل القديم.

### (3)

مع أن وزارتي الخارجية وشؤون الهند كثيراً ما كانتا تختلفان مع وجهات النظر أو المقترحات التي كان يطرحها وينغيث وكلايتون، فما من أحد خلال الحرب ناقش قدرتهما المهنية أو معرفتهما المستندة الى تجربة طويلة في الشرق الأوسط. وقد مضت سنوات على انتهاء الحرب قبل أن يأخذ ديفيد لويد جورج، استناداً إلى معلومات توفرت من الجانب الألماني، بالرأي القائل انهما كانا عديمي الكفاءة الى حد خطر.

وحسب أقوال لويد جورج كانت السلطات البريطانية في القاهرة عمياء إزاء ما كان يحدث خلف خطوط العدو، وقد كتب يقول بصورة خاصة انه مرت فترة في عام 1916 كانت خلالها الإمبراطورية العثمانية شديدة الإجهاد الى حد العجز عن متابعة القتال. ويضيف لويد جورج انه لو كانت القوات البريطانية في مصر قد شنت آنذاك هجوماً على سيناء وفلسطين - بل لو فعلت ذلك في عام 1915 - لما احتاجت إلا إلى جهد ضئيل لتحطيم الأتراك، وهذا كان بدوره قد أتاح لبريطانيا أن تتحرك عبر البلقان لإلحاق الهزيمة بألمانيا<sup>[133]</sup>. ويرى لويد جورج أن الفرصة ضاعت لأن أجهزة المخابرات إما أنها لم تكن تعرف ما كان يجري في الإمبراطورية العثمانية أو إنها قصرت في الإبلاغ عن ذلك. وهو يدعي أن النتيجة كانت أن الحكومة البريطانية أخفقت في كسب الحرب خلال السنوات عندما كان بإمكانها أن تكسبها وفقاً للشروط البريطانية.

وثمة تقصير من جانب أجهزة المخابرات في القاهرة أسهل على الأثبات، وهو أن مخابرات القاهرة لم تكن مدركة مدى اختراق عملاء العدو للحكومة المصرية، فلم يتم تحطيم الشبكة التركية إلا بعد أن وصل الى القاهرة في عام 1916 ويندهام ديدز، ذلك الخبير في الشؤون العثمانية، ليعمل فيها ومن ثم يكتشف أن قوى الشرطة المصرية كانت مزروعة بالجواسيس.

إن إحدى الإشارات المبكرة إلى عدم كفاءة جهاز المخابرات في القاهرة التي كان ينبغي أن ترسل شارة تحذير ولكنها لم ترسلها، ظهرت في خريف عام 1914 قبل بدء الحرب العثمانية بنحو شهر، وكان ذلك عندما كتب الجنرال ماكسويل القائد المحلي للجيش البريطاني في مصر الى اللورد كيتشنر ليبلغه «أن من العسير جداً إعطاء قيمة حقيقية لجميع التقارير التي ترد من القسطنطينية وآسيا الصغرى وسورية... فانا لا أستطيع الحصول على معلومات مباشرة لأن الأتراك يحرسون الحدود حراسة شديدة - وعملاؤنا لا يستطيعون المرور عبرها - أما الذين هم في الجانب الآخر فقد وقعوا في الفخ». وأضاف بلهجة مقلقة بشأن عدم توازن المخابرات: «إن

الشرق مليء بالجواسيس الألمان وهم يحصلون على معلومات جيدة الى حد ما»<sup>[134]</sup> لقد كان ماكسويل على أقل تقدير مدركاً أنه لا يعرف ما يجري في القسطنطينية. أما وينغيت وكلايتون فقد وقعا في فخ الاعتقاد أنهما يعرفان. وقد أخذاً بنظرية جيرالد فيتزموريس الخاطئة ومفادها أن الحكومة العثمانية كانت في قبضات أيدي مجموعة من اليهود الموالين لألمانيا. وفي نهاية عام 1914 ألقى الجنرال وينغيت تبعة وقوع الحرب على «تجمع من اليهود وأصحاب رؤوس الأموال والمتأمرين الدون» في القسطنطينية<sup>[135]</sup>.

لقد ضاعف وينغيت وزملاؤه الخطأ بربطهم إياه بمعلومات مضللة عن حالة الرأي العام الإسلامي. فبعد بدء الحرب أرسل ستورز الى ماكسويل تقريراً ضمنه ملاحظات تلقاها من مخبر سوري عن الرأي العام خلف خطوط العدو. وقد قال ذلك المخبر أن سكان سورية يملأ نفوسهم كره الحكومة العثمانية لاعتقادهم أنها ستؤيد الصهيونية. وقال المخبر أيضاً «أن الصهاينة على علاقة وثيقة مع برلين ومع القسطنطينية وإنهم يمثلون العامل الأهم في السياسة المتعلقة بفلسطين»<sup>[136]</sup>. أن الشائعة الكاذبة القائلة إن برلين والقسطنطينية كانتا على وشك دعم الصهيونية تردد صداها جيئة وذهاباً طوال سنين، ثم أنها ضللت خلال الحرب مجلس الوزراء البريطاني وجعلته يعتقد أنه كان عليه أن يصدر فوراً إعلاناً مؤيداً للصهيونية. لقد كتب ستورز الى كيتشنر (بعبارة أخرى الى سكرتيره العسكري الخاص أوزوالد فيتزجيرالد)

في نهاية العام معقياً على الخطط الخاصة بالشرق الأوسط في فترة ما بعد الحرب فادعى أن المسلمين سيعارضون قيام فلسطين يهودية لأنهم يوجهون اللوم إلى اليهود في اشتعال الحرب.

«ثم، ألن يشعر الإسلام بغضب شديد إزاء فكرة تسليم البلاد التي نفتحها الى أناس لم يكن لهم دور في الحرب بصفتهم أمة، وساعد قسم منهم بلا ريب في دفع الأتراك الى حافة الهاوية؟»<sup>[137]</sup>. وحقيقة الأمر هي أن الرأي العام الإسلامي حتى في المناطق غير التركية كان بوجه عام مؤيداً للإمبراطورية العثمانية وتحالفها مع ألمانيا وهذا ما بينته لاحقاً تقارير وزارة الخارجية والمكتب العربي. وقد أخطأ ستورز أيضاً في افتراض أن معارضة المسلمين لقيام فلسطين يهودية هي بسبب الحرب إذ أن هذه المعارضة كانت قد ظهرت قبل الحرب بوقت طويل في أعقاب بناء المستعمرات الصهيونية عند نهاية القرن التاسع عشر.

إن إحدى المثالب التي طبعت بطابعها عملية جمع المعلومات التي أجراها كلايتون وستورز هي انهما كثيراً ما كانا يقيلان المعلومات التي يزودهما بها مخبر فرد من دون التثبت من صحتها، وبدلاً من ذلك بدا انهما يعتمدان على ذلك النوع من القدرة التي عزاها ستيفنز الى وينغيت، وهو يعني بذلك موهبة معرفة مدى الصحة في ما يقوله مواطن من أهل البلاد، إن جون بوتشان، الذي أصبح في ما بعد مدير الإعلام في لندن زمن الحرب، كتب في الفصل الثاني من رواية المغامرات التي أسماها (العباءة الخضراء - غرين مانتل) أن «الصدق هو أننا العرق الوحيد على الأرض الذي يستطيع إنتاج رجال قادرين على النفاذ إلى داخل جلود شعوب نائية. وقد يكون الأسكتلنديون أفضل من الإنكليز، ولكننا جميعاً أفضل من أي قوم آخر بمعدل ألف بالمئة». لقد تصرف وينغيت وكلايتون وستورز وكأنهم يفهمون أبناء الإمبراطورية العثمانية بقدر ما فهمهم البطل الأسكتلندي في رواية بوتشان. ولكن تبين أن قدرتهم على فهم أبناء البلاد كانت محدودة تماماً.

إن البريطانيين في القاهرة عند تقويمهم للتقارير التي تحدثت عن استياء الحكم العثماني في بعض أقسام الإمبراطورية قد أخطؤوا في فهم إحدى الخصائص البارزة للشرق الأوسط الإسلامي: أي أن هذا الشرق بقدر ما كان له من وعي سياسي لم يكن مستعداً للقبول بحكم غير إسلامي. لقد كان هناك خلف خطوط العدو مسلمون غير راضين عن حكومة حزب تركيا الفتاة ولكنهم كانوا يدعون إلى إبدالها بحكومة تركية مختلفة أو في أي حال بحكومة إسلامية مختلفة. فقد كانوا يعتبرون الحكم من قبل دولة أوروبية مسيحية مثل بريطانيا أمراً لا يطاق.

والظاهر أن ستورز اعتقد أن باستطاعته أن يلتف على هذا الأمر عن طريق التظاهر أن الحكم المصري سيحل محل الحكم التركي. وقد اقترح إنشاء ما من شأنه أن يبدو إمبراطورية مصرية جديدة لتحل محل الإمبراطورية العثمانية الناطقة بالعربية في الشرق الأوسط. وكان اللورد كيتشنر سيحكم من خلف هذه الواجهة بصفة نائب ملك بريطانيا. وقد استمد ستورز ارتياحاً خاصاً من التقارير القائلة إن الحكم العثماني فقد في سورية شعبيته، وأعتقد أن بإمكانه أن يقدم للسوريين بديلاً ذا شعبية. أن التقارير الدقيقة التي وصلت بشيء من التكرار دلت على أنه باستثناء الموارد الذين لهم روابط مع فرنسا كان معظم السوريين الذين لهم نظرة سياسية يرفضون إمكانية أن تحكمهم فرنسا في عالم ما بعد الحرب، وبما أن ستورز وزملاءه اعتبروا أن من الأمور المسلم بها أن الشعوب الناطقة بالعربية غير قادرة على أن تحكم نفسها بنفسها فإن إمكانية الوحيدة المتبقية هي تلك التي ينادي بها ستورز: أي دمج سوريا في مصر التي تحكمها بريطانيا.

في ضوء ذلك بدت التقارير القائلة إن السوريين يعتبرون الألمان والأتراك صهاينة وأنهم يكرهون الفرنسيين، وكأنها تعني أن السوريين لا بد أن يكونوا موالين لبريطانيا. لقد ذكر كلايتون في تلخيصه مذكرة قدمها زعيم سوري كان يدعو إلى استقلال العرب، أن «انكلترة، ووحدها انكلترة هي التي يتجه إليها السوريون المسيحيون منهم والعروبيون على السواء» [138]. وفي الثاني من شباط (فبراير) 1915 كتب ستورز إلى فيتزجيرالد / كيتشنر قائلاً: «لا شك في أن الشعور السوري المحلي، لدى المسيحيين والمسلمين على السواء، هو شعور قوي محبذ لإلحاق ذلك البلد من قبلنا بالسلطنة المصرية» [139]. فكان السؤال: هل ينبغي العمل لتنمية ذلك الشعور، وفي اليوم عينه سعى المندوب السامي الواصل حديثاً إلى القاهرة، أي مكماهون، للحصول على توجيه، فكتب إلى فيتز جيرالد / كيتشنر شارحاً البدائل، دون ريب، كما وصفها له ستورز وكلايتون فقال: «أن السوريين يريدون تدخلنا ويقولون إنه إذا لم نستطع أن نقدم لهم ضماناً بالتأييد فانهم سيضطرون للتوجه إلى الفرنسيين مع أنهم يفضلوننا على الفرنسيين» [140].

إن رجال بريطانيا في المنطقة، بأخطائهم وطموحهم المهني، قد افترضوا أن العرب يريدون أن يحكمهم أوروبيون فاعتمدوا على هذا الاعتقاد الخاطئ، بينما كان هدفهم أن يسيطروا على سورية. ورجال فرنسا في المنطقة أيضاً كانوا مخطئين وطموحين وهم أيضاً كان هدفهم الاستيلاء على سورية.

## (4)

خلال الحروب الصليبية كسب الفرسان الفرنسيون ممالك وبنوا قلاعاً في سورية. وفي عام 1914 - أي بعد الحروب الصليبية بألف عام - كان لا يزال هناك فرنسيون يعتبرون سورية جزءاً من فرنسا. وقد حافظت فرنسا على علاقات وثيقة مع إحدى المجموعات المسيحية على ساحل جبل لبنان في سورية، وكانت صناعة النقل البحري الفرنسي وصناعة الحرير والمصالح الأخرى الفرنسية تترقب إمكانات تجارية في المنطقة. وعلى ذلك فإن فرنسا لأسباب دينية واقتصادية وتاريخية رأت أن لها دوراً تقوم به في شؤون سورية.

وعند لحظة دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب، أعد الموظفون الفرنسيون في الشرق الأوسط (شأنهم شأن نظرائهم البريطانيين وبنغيت وكلايتون وستورز) خططاً لضم الولايات السورية التابعة لتركيا، وبادر الوزير المفوض الفرنسي في القاهرة والقنصل الفرنسي العام في بيروت إلى حث حكومتهما على غزو الساحل اللبناني. وقد دعت خطتهما الدونكيشوتية إلى إنزال نحو ألفي جندي فرنسي فقط، ينضم إليهم - حسب اعتقادهم - ثلاثون ألف متطوع من أهل البلد. وكان رأيهم أن عامل السرعة جوهري وأن على فرنسا أن تضرب قبل أن تتمكن تركيا من حشد جيش وقبل أن تتمكن بريطانيا من توجيه الضربة الأولى [141].

جاء اقتراحهما في أقل الأوقات ملاءمة. فقد تلقته الحكومة الفرنسية في تشرين الثاني (نوفمبر) 1914، وكانت لا تزال في المنفي في مدينة بوردو، بعد هربها من باريس أمام الزحف الألماني باتجاه المارن. صحيح أنه كانت في البرلمان الفرنسي وفي وزارة الخارجية ومجلس الوزراء شخصيات ذات سطوة من دعاة الاستعمار، لكن شهر تشرين الثاني (نوفمبر) كان شهراً لا يزال انتباه الجميع فيه مركزاً على الصراع المصيري في شمال فرنسا وبلجيكا. وهكذا فقد رفض اقتراح إرسال قوات إلى سورية.

بيد أن اقتراح غزو سورية لقي اهتماماً في الشهر التالي، بعد أن كانت الجيوش المتصارعة في أوروبا قد مكنت في خنادقها وعادت الحكومة الفرنسية إلى باريس. وقد حصل وفد من السياسيين دعاة الاستعمار على موافقة مبدئية من ألكسندر ميران وزير الحربية بتأييد الحملة على سورية.

غير أن وزير الخارجية تيوفيل ديلكاسيه ظل متشككاً بمعارضة الحملة قائلاً: «لا شيء يبدو أقل استحساناً من التدخل في سورية» [142]. وكان ديلكاسيه واحداً من مسؤولين فرنسيين كثيرين اعتقدوا أن ضم سوري أقل

قيمة لبلادهم بكثير من المحافظة على الإمبراطورية العثمانية. فحتى عام 1914 كانت فرنسا تزود القطاع الخاص في الاقتصاد العثماني بخمسة وأربعين بالمئة من راس المال الأجنبي الذي يحتاجه، وكانت مصدر ستين بالمئة من الدين العام العثماني، ولذلك كانت لها مصلحة ضخمة في استمرار بقاء وحيوية الإمبراطورية العثمانية [143].

خلال يومي 30 و31 كانون الأول (ديسمبر) 1914 زار باريس سير هنري مكماهون الذي كان على وشك أن يتولى مسؤولياته بدلاً لـ كيتشنر في القاهرة، فاجتمع بمسؤولين من وزارتي الخارجية والحربية ولكنه عجز عن تقديم أجوبة متماسكة عن أسئلة بشأن سياسة بريطانيا الشرق أوسطية. وكان صيت مكماهون أنه بليد الذهن وغير فعال، ولكن الفرنسيين الذين لم يسبق لهم أن عرفوه افترضوا فيه المهارة والحدق، وفسر ميران، وزير الحربية، أجوبة مكماهون التي لا تنم عن الكفاءة بأنها مراوغات مقصودة وذكية تخفي وراءها خطة بريطانيا السرية لغزو سورية واحتلالها [144].

وبادر ميران فوراً بإطلاع مجلس الوزراء الفرنسي على هذه المحادثات، وكان مجلس الوزراء قد عهد إليه بإنشاء قوة ضاربة لغزو سورية حالما تغزوها بريطانيا سواءً دعيت فرنسا للمشاركة في الغزو أو لم تدع. وقد ذهب ديلكاسيه الى لندن في شهر شباط (فبراير) 1915 وأثار مسألة سورية مع سير إدوارد غراي. واستمع وزير الخارجية الفرنسي الى تطمين بأن بريطانيا لن تغزو سورية دون إعطاء فرنسا أشعاراً مسبقاً، ويبدو أن وزيري الخارجية اتفقا على أن بريطانيا لن تعارض أهداف فرنسا في سورية إذا ما قسمت الإمبراطورية العثمانية، ولكن من الأفضل كثيراً ألا تقسم هذه الإمبراطورية.

وهكذا سوي وزيرا الخارجية الخلافات بين بلديهما - مؤقتاً. لكن رجالهما في الشرق الأوسط واصلوا إثارة المتاعب بين بريطانيا وفرنسا، كذلك فإن كيتشنر وأعوانه بسوء فهمهم للمنطقة مضوا يتابعون أهدافاً خطيرة أخرى هناك.

# الفصل الثالث

## كيتشنر ينطلق للسيطرة على الإسلام

### (1)

أساء كل من الغرب والشرق الأوسط فهم الجانب الآخر طوال معظم القرن العشرين، ولعل الكثير من سوء الفهم هذا عائد الى المبادرات التي اتخذها اللورد كيتشنر في السنوات الأولى للحرب العالمية الأولى. أن خصائص شخصيته، وعيوب فهمه للعالم الإسلامي، والمعلومات الخاطئة التي كانت تردده بانتظام من أعوانه في القاهرة والخرطوم، واختياره للسياسيين العرب الذين رأى التعامل معهم، هذه كلها ألقت بظلالها على مجرى الأحداث السياسية منذ ذلك الحين.

ولفهم الطابع الجديد لأسلوب كيتشنر في التعامل مع شؤون الشرق الأوسط، لا بد لنا من أن نتذكر انه عندما دخلت الإمبراطورية العثمانية الحرب العالمية الأولى لم يكن في نية اسكويث وغراي وتشيرشل أن يردوا على دخولها الحرب باستيلاء بريطانيا على أي من المناطق الخاضعة لسيطرتها. كانوا يرون فعلاً أن تسمح بريطانيا لحلفائها بالحصول على مكاسب إقليمية في أوروبا وآسيا الصغرى على حساب تركيا، ولكن بريطانيا في زمن رئيس وزرائها اسكويث لم تكن لها أهداف إقليمية لذاتها في الأراضي العثمانية، سواء في الشرق الأوسط أو في أي مكان آخر، أما كيتشنر فكان يرى أن لبريطانيا مصلحة حيوية في الاستيلاء على جانب كبير من الإمبراطورية العثمانية، وهو يقصد أجزاءها الناطقة باللغة العربية، بعد انتهاء الحرب، وكان هذا يعني تراجعاً كاملاً عن سياسة بريطانيا التقليدية.

لقد كان كيتشنر، شأنه شأن معظم البريطانيين الذين عاشوا في الشرق، يعتقد أن الدين في العالم الإسلامي مسؤول عن كل شيء. ولكن بدا أن الفيلد مارشال وزملاءه في القاهرة والخرطوم اعتقدوا اعتقاداً خاطئاً أن الإسلام هو تكوين ذو نظام مركزي الحكم فيه لفرد أو لنخبة. وقد اعتبروا الإسلام كيانه فرداً وكأنه منظمة. واعتقدوا أيضاً أن المسلمين يطيعون قادتهم. فقد سبق ذلك بقرون أن استطاع كورترز السيطرة على المكسيك عن طريق القبض على إمبراطور الأزتك. وفي القرون الوسطى حاول



ملوك فرنسا أن يسيطروا على العالم المسيحي بواسطة الاحتفاظ بالبابا أسيراً في أفينيون. وبهذه الروح اعتقد كيتشنر وزملاؤه أن الإسلام يمكن شراؤه أو استغلاله أو التحكم به عن طريق شراء أو استغلال أو التحكم بقيادته الدينية. وقد استمالتهم الفكرة القائلة إن من يسيطر على شخص الخليفة يسيطر على الإسلام.

كانت في لب تحليل كيتشنر القناعة بأن الخليفة قد يدفع بالإسلام ضد بريطانيا. وبما أن المسلمين السنة (الذين كانت لهم الغالبية بين مسلمي الهند) كانوا يعتبرون السلطان التركي خليفة المسلمين فقد رأى كيتشنر في ذلك تهديداً مستمراً وكان الاعتقاد في القاهرة والخرطوم في عام 1914 أن الخليفة صار في قبضة اليهود والألمان. ومما كان يقلق وزير الحربية البريطاني أن يصبح الخليفة بمجرد كسب الحرب العالمية، أداة في أيدي مزاحمي بريطانيا في الشرق الأوسط ولا سيما روسيا.

بعد اعتقد كيتشنر أن الخلافة إذا كانت في أيدي أعداء بريطانيا قد تستخدم لتقويض مركز بريطانيا في الهند ومصر والسودان. وقد كانت بريطانيا تحكم أكثر من نصف مسلمي العالم [145] ففي الهند وحدها كان نحو سبعين مليون مسلم، والمسلمون يؤلفون جزءاً كبيراً بلا تناسب من الجيش الهندي. وكانت بريطانيا تحكم ملايين من المسلمين الآخرين في مصر والسودان في جوار قناة السويس التي تمثل الطريق البحرية الي الهند، وكانت حاميات بريطانية صغيرة تتولي الحفاظ على الأمن بين هذه العشرات من الملايين من سكان البلاد الأصليين، ولكن كيتشنر كان يعرف أن هذه الحاميات لا تستطيع مجرد البدء بالتعامل مع الثورة إذا نشبت ثورة.

لقد كان هاجس التصور البريطاني هو التمرد الهندي (1857 - 1859) ذلك التمرد الغامض الذي أشعل ناره الدين، والذي أسقط حكم شركة الهند الشرقية. وبعد ذلك بكثير كانت انتفاضة السودان التي قضى عليها كيتشنر ببراعة، وكان محرك هذه الانتفاضة زعيم ديني جديد سمي نفسه المهدي وهو لقب ترجمه الأوروبيون الي كلمة «المسيح». ثم أن القلاقل الإسلامية في مصر بين عامي 1905 و1906 سببت قلقاً عميقاً لبريطانيا. إن إمكانية قيا حرب مقدسة إسلامية ضد بريطانيا كانت بالنسبة لكيتشنر وحاشيته كابوساً يقصّ مضاجعهم.

لقد اعطي جون بوتشان مدير الإعلام، هذه المخاوف شكلاً روائياً في روايته التي صدرت عام 1916 بعنوان العباءة الخضراء، وفي هذه الرواية تستخدم ألمانيا نبياً مسلماً مزعوماً في خطة لتدمير الإمبراطورية البريطانية إذ يظهر النبي المزعوم في تركيا بعد نذر تنبئ بظهوره فتكون هناك نبوءة قديمة ويكون هناك نزول وحي عصري، ثم تتضح المنطقة التي ينوي إشعال نار

الثورة إذ يقول: «ثمة ربح جافة تهب عبر الشرق، والهشيم ينتظر شرارة. أن الريح تهب باتجاه الحدود الهندية» [146].

لقد اعتقد كيتشنر أنه يمكن بأقوال أو أفعال زعماء دينيين إسلاميين آخرين، الحد من أثر دعوة يوجهها الخليفة الى حمل السلاح ضد بريطانيا خلال حرب عام 1914، ولكن بعد أن تربح بريطانيا الحرب سيتطلب الأمر عملاً أكثر حسماً. وسبب اعتقاده هذا هو اعتقاده الآخر بأنه من المؤكد أن تستولي روسيا بعد كسب الحرب على القسطنطينية وعلى الخليفة ما لم يتم عمل شيء ما في هذا الصدد. وكان كيتشنر يرى أن خليفة خاضعاً لسيطرة ألمانيا هو مجرد خليفة خطر سيحاول أن يثير القلاقل في الهند لإفقاد بريطانيا توازنها في الحرب الأوروبية. ولكنه كان يرى في خليفة خاضع للسيطرة الروسية خطراً قاتلاً للإمبراطورية البريطانية، إذ أن كيتشنر (خلفاً لأسكويث وغراي) كان يعتقد أن روسيا لا تزال تبيت طموحات الى انتزاع الهند من بريطانيا.

وكانت وجهة نظر كيتشنر أن ألمانيا دولة معادية في أوروبا وأن روسيا دولة معادية في آسيا؛ والمفارقة في حرب عام 1914 التي كانت فيها بريطانيا وروسيا حلفتين هي أن بريطانيا إذا ربحت في أوروبا تجازف بالخسارة في آسيا. كانت نتيجة الحرب الوحيدة التي تنال رضى كيتشنر التام هي أن تخسر ألمانيا الحرب من دون أن تربحها روسيا - ولم يكن واضحاً في عام 1914 كيف يمكن أن يتحقق ذلك. ولهذا خطط وزير الحربية لأن تكون بريطانيا صاحبة الضربة الأولى في الصراع الذي توقعه مع روسيا بعد الحرب من أجل السيطرة على طريق الهند وعلى الهند نفسها.

كان اقتراح كيتشنر أن تلجأ بريطانيا بعد الحرب الى تدبير ليكون مرشحها هو الخليفة. وبما أن النبي محمداً ولد في شبه الجزيرة العربية فقد رأى كيتشنر تشجيع الرأي القائل إن الخليفة يجب أن يكون من شبه الجزيرة العربية. وقد رأى ميزة في ذلك هي سهولة سيطرة الأسطول البريطاني على ساحل شبه الجزيرة العربية، وبذلك تستطيع بريطانيا أن تعزل الخليفة عن نفوذ منافسيها الأوروبيين. واعتقد كيتشنر أنه ما أن تتمكن بريطانيا من تنصيب خليفة داخل محيط نفوذها في شبه الجزيرة العربية حتى تتمكن من التحكم بالإسلام. وكان أعوان كيتشنر حتى قبل دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب قد نهوه الى أن أمير مكة، وهو مرشح عربي للخلافة لا تخطئه العين، كان قد أجرى اتصالاً معه.

## (2)

في نهاية صيف عام 1914 أو نحو ذلك، ومع دنو بداية الحرب العثمانية، استذكر جليبرت كلايتون، أن عبد الله، الابن الأثير إلى نفس الشريف الحسين، شريف مكة، سبق له أن زار القاهرة قبل ذلك ببضعة شهور وأوحى أن شبه الجزيرة العربية قد تكون ناضجة للثورة. كان عبد الله آنذاك يشعر بخوف من أن تكون جماعة تركيا الفتاة على وشك التحرك ضد والده، وكان عبد الله الذي يخفي شكله الهادي ذكاء وجرأة يبحث عن دعم من الخارج. ولكن بعد ذلك بوقت قصير سوى والده والباب العالي خلافتها بحيث انتفت الحاجة إلى المساعدة البريطانية.

وليس هناك حتى وقتنا الراهن ما يثبت ماذا قال عبد الله في القاهرة وماذا قيل له. والظاهر أن عبد الله التقى اللورد كيتشنر أول مرة في القاهرة عام 1912 أو 1913، والتقاء مرة أخرى في القاهرة في شباط (فبراير) ونيسان (أبريل) من عام 1914، والتقى أيضاً رونالد ستورز، ويبدو أنه طلب تأكيدات من بريطانيا بالمساعدة إذا ما سعى الباب العالي للإطاحة بوالده، وأن كيتشنر، الذي استوضح بالتفصيل عن الصعوبات في شبه الجزيرة العربية، قد نفي في ذلك الحين وجود أي اهتمام بالتدخل في الشؤون العثمانية الداخلية. ولعل عبد الله كان أقل تأثراً بما سمعه عن عدم الاهتمام بالتدخل مما سمعه من تعبير عن القلق [147].

والظاهر أن عبد الله ادعي - كاذباً - أمام ستورز أن الزعماء المنافسين لوالده في شبه الجزيرة العربية مستعدون للسير خلف والده في معارضة مخططات الباب العالي. وقد اقترح علاقة مستقبلية بين شبه الجزيرة العربية وبريطانيا على غرار العلاقة بين أفغانستان وبريطانيا التي تمارس بموجبها أفغانستان الحكم الذاتي داخلياً بينما تدير بريطانيا جميع العلاقات الخارجية.

ومع أن الفكرة راقبت ستورز فانه، شأنه شأن رئيسه، لم يستطع أن يقدم لعبد الله التشجيع الذي كان ينشده [148].

صحيح أن كثيرين من أمراء شبه الجزيرة العربية كانوا في نزاع مع قيادة حزب تركيا الفتاة في القسطنطينية منذ سنين، ولكن جليبرت كلايتون عجز عن معرفة مدى التناوب بينهم بسبب خلافات دينية وعائلية وخلافات أخرى. وربما كان المهاجرون الناطقون بالعربية الذين لجؤوا إلى القاهرة والذين التقاهم، قد ضلّوه في هذا الصدد. وحقيقة الأمر أن ما من أمير من أمراء شبه الجزيرة العربية كان مستعداً لقبول أي من الأمراء الآخرين زعيماً له.

كان بارزاً بين الناطقين بالعربية المنفيين الى القاهرة الذين تحدث إليهم كلايتون ضابط سابق في الجيش العثماني وسياسي من جمعية الاتحاد والترقي يدعى عزيز علي المصري، وهو من أصل شركسي وقد ولد ونشأ في مصر وانتسب الى المدرسة الحربية في الإمبراطورية العثمانية. وبعد خدمته العسكرية في الميدان برز باعتباره أحد قادة حزب تركيا الفتاة. غير انه كان مجرد ضابط برتبة رائد ملحق بالأركان العامة، بينما كان أنور زميله في الصف والذي كان المصري يزدرية قد أصبح وزيراً للحربية. وكان رد المصري، بدافع شعور الاستياء، هو تنظيم جمعية العهد، وهي جمعية سرية صغيرة من ضباط الجيش الذين اعترضوا على السياسة المركزية التي كانت تطبقها جمعية الاتحاد والترقي ويعترضون على عدم إعطاء هذه الجمعية الناطقين بالعربية حصتهم العادلة من المناصب الرفيعة. وكان ضباط جمعية العهد كلمة واحدة في معارضتهم لسياسات التتريك التي تبنتها جمعية الاتحاد والترقي، فينادون إما بإعطاء السكان الناطقين بالعربية حصة أكبر في السلطة في الحكومة المركزية أو تطبيق اللامركزية وإعطاء هؤلاء السكان قدراً أكبر من الحكم الذاتي على الصعيد المحلي، أو كلا الأمرين [149].

كان أنور باشا هو المسؤول عن إصدار الأمر باعتقال الرائد المصري وإدانته بتهم ملفقة في مطلع عام 1914. وهكذا وجد الرائد المصري نفسه يؤدي مكرهاً دور ثوري عربي - ونقول مكرهاً لأنه كان يطمح الي الزعامة في الإمبراطورية العثمانية بكاملها لا في جزء منها فقط. واستجابة للرأي العام في القاهرة توسط اللورد كيتشنر للرائد المصري، ونتيجة لهذه الوساطة دبر جمال باشا إصدار العفو عنه ونفيه الي بلده الأصلي مصر. إن عزيز المصري المعارض منذ طفولته للحكم البريطاني في مصر، والمناوئ لبريطانيا، والموالي لألمانيا، والمؤيد للإمبراطورية العثمانية معارضاً حكومتها فقط، والسياسي العسكري الذي عد حفنة فقط من زملائه ضمن مؤيديه، قد أخطأ فهمه ضباط المخابرات البريطانية فاعتبروه خطأ ذا سطوة وحليفاً محتملاً.

ويبدو أن المصري زار مقر المعتمد البريطاني في القاهرة في مطلع شهر أيلول (سبتمبر) 1914 والتقى كلايتون [150]. وكان المصري يعرف أن عبد العزيز بن سعود وغيره من زعماء شبه الجزيرة العربية كانوا يفكرون بالثورة على الباب العالي. ولعله نقل ذلك إلى كلايتون، ولعل كلايتون تذكر زيارة عبد الله وما قاله لكل من ستورز و كيتشنر.

وعقب لقائه مع المصري اجتمع كلايتون مع رونالد ستورز ورتب له كي يرسل مذكرة سرية الى الي اللورد كيتشنر. كانت مذكرة كلايتون ضمن

رسالة كان على ستورز أن يرسلها الى رئيسه السابق بشأن موضوع بريء  
هو موضوع الجمال.

### (3)

كان أحد الأمور التي تسبب قلقاً عاماً لبريطانيا عام 1914 هو أن تشن الإمبراطورية العثمانية، إذا ما دخلت الحرب، هجوماً على قناة السويس. وعلى غرار تفكير مسؤولي وزارات الحرية في أوروبا الذين كانوا يحللون القدرة العسكرية للبلدان المعادية المجاورة بمقاييس منشآت السكك الحديدية، ركّز رونالد ستورز انتباهه على ما تستطيع القوات العثمانية أن تحصل عليه من الجمال. وقد كتب في رسالته إلى كيتشنر يقول إن الجيش العثماني سيعتمد في الحصول على حاجته من الجمال على مربّي الجمال في المنطقة الغربية من شبه الجزيرة العربية، أي الحجاز، واقترح ستورز تشجيع أمير مكة على الامتناع عن تسليم الجمال.

كانت الرسالة المتعلقة بالجمال مجرد غطاء، ومعها بعث ستورز مذكرة كلايتون السرية المؤرخة 6 أيلول (سبتمبر) 1914 إلى كيتشنر، يحثه فيها على الدخول في محادثات مع أمير مكة لأغراض أخرى. إحدى المسائل التي أثارها كلايتون في المذكرة كانت إمكانية حلول زعيم من شبه الجزيرة العربية صديق لبريطانيا محل السلطان العثماني في مركز خليفة المسلمين. فإذا كان ذلك ممكناً فإن أمير مكة، حارس الأماكن المقدسة الإسلامية هو المرشح بوضوح لهذا المركز، لاسيما أنه في وضع يتيح له أن يقدم لبريطانيا مساعدة هامة في موضوع الحج، باعتبار أن الحج فريضة على من استطاع إليه سبيلاً من المسلمين مرة واحدة على الأقل في حياته، ولكن الحرب العالمية حالت دون أداء فريضة الحج وخصوصاً في عام 1915. وحتى إذا افترضنا أن مسلمي الهند مستعدون أن يغفروا لبريطانيا دخولها الحرب ضد الدولة الإسلامية المستقلة الوحيدة ذات الشأن، فالشك كبير في أن يغفروا لها انقطاع طريق الحج الذي له دور كبير في حياتهم.

ولما كانت الأماكن المقدسة في مكة والمدينة المنورة ضمن الحجاز، فإن من يحكم الحجاز هو في وضع للحفاظ على حق المسلمين البريطانيين في مواصلة أداء الحج بالرغم من الحرب. وإضافة إلى أن أمير مكة يحكم الحجاز فادعائه أنه من سبط النبي يجعله في وضع القادر على تولي مركز الخلافة.

لقد أخطأ كلايتون خطأ جسيماً عندما أكد في مذكرته السرية أن زعماء شبه الجزيرة العربية المتنافسين - أي حاكمي عسير واليمن وكذلك ابن سعود وربما أيضاً ابن الرشيد أمير نجد - سيتكاتفون مع أمير مكة للعمل من أجل أن تكون «شبه جزيرة العرب للعرب»<sup>[151]</sup>. ومما جاء في مذكرة كلايتون أن هذه الحركة تلقي التشجيع من الخديوي، الحاكم الاسمي لمصر تحت

إمرة السلطان، وكان الخديوي أيضاً يعتبر نفسه مرشحاً لأن يخلف السلطان في مركز خليفة المسلمين. وليس واضحاً كيف كان كلايتون ينوي أن يوفق بين المطامح المتضاربة لهذه المجموعة المتعددة الأهواء.

إن الادعاء بأن سائر الزعماء المنافسين سيتحدون خلف أمير مكة هو ادعاء كان عبد الله قد تقدم به نيابة عن والده في محادثاته مع رونالد ستورز قبل ذلك بنحو خمسة شهور. وإذ عرضه كلايتون على أنه معلومة جديدة، فربما كان يشير إلى أن هذه المعلومة قد أكدها له مؤخراً عزيز المصري أو شخصية عثمانية أخرى من الشخصيات التي تعيش في المنفى. والأمر الجديد في المذكرة يكمن في الإيحاء أن سكان شبه الجزيرة العربية يمكنهم أن يؤدوا خدمة لبريطانيا خلال الحرب وليس بعدها فقط.

وقد أرسل كيتشنر رده فوراً فأبرق إلى القاهرة بتاريخ 26 أيلول (سبتمبر) 1914 مصدراً أوامره إلى ستورز أن يبعث برسول يثق به إلى عبد الله لي طرح عليه سراً سؤالاً مفاده: هل ستكون الحجاز مع بريطانيا أم ضدها في حال نشوب حرب؟ وقبل أن يرسل كيتشنر برقيته أخذ موافقة سير ادوارد غراي عليها. وقد أعجب غراي بمذكرة كلايتون ووصفها بأنها «هامة جداً» [152].

عاد الرسول بعد بضعة أسابيع من رحلته إلى شبه الجزيرة العربية الخاضعة للإمبراطورية العثمانية بجواب غامض ولكنه مشجع، يهيب بوزير الحربية البريطاني أن يبين ما يدور في ذهنه. عندئذ أبرقت القاهرة إلى كيتشنر تقول «الرسالة متحفظة ولكنها ودية وإيجابية» [153].

في هذه الأثناء كان مقر المعتمد البريطاني قد أجرى اتصالاً جديداً مع الرائد عزيز المصري ومع غيره من المهاجرين العرب في القاهرة. أما هؤلاء العرب المنفيون من الإمبراطورية العثمانية فقد تابعوا البحث الذي كان مستمراً منذ عقود من السنين في موضوع من هي الشعوب الناطقة بالعربية في الإمبراطورية العثمانية أو من يجب أن تكون. ومسألة الهوية الوطنية هذه كانت مدار أحاديث تجري في مقاهي دمشق وبيروت وفي أوساط الطلبة في باريس منذ القرن التاسع عشر، مما أدى إلى نشوء أدبية أدبية وجمعيات سرية متنوعة ضمن الإمبراطورية العثمانية.

في سياق السياسة العثمانية كان العرب المنفيون في القاهرة يردون على سياسات حكومة حزب تركيا الفتاة التي كانت تخضع غالبية سكان الإمبراطورية العثمانية إلى هيمنة نحو أربعين بالمئة من السكان ينطقون بالتركية. إن ما كان ينادي به هؤلاء المنفيون بشكل أو بآخر هو أن يكون للناطقين بالعربية رأي أكبر في الشؤون الحكومية وعدد أكبر وأرفع من

المناصب الحكومية - أي أن تكون لهم النسبة المئوية عينها التي حصل عليها الناطقون بالتركية .

ومع أن هؤلاء الرجال كثيرا ما كانوا يوصفون أنهم قوميون فالوصف الأدق أنهم كانوا انفصاليين [154]. فهم لم يطالبوا بالاستقلال بل طالبوا بقدر أكبر من المشاركة ومن الحكم المحلي وكانوا راضين بأن يكون الحكم الى حد كبير حكماً تركياً لأن الأتراك مسلمون. وهم، خلافاً لما كان عليه القوميون الأوروبيون، أناس معتقداتهم قائمة في إطار ديني أكثر مما هي قائمة في إطار علماني. فقد كانوا يعيشون ضمن أسوار مدينة الإسلام بمعنى لم ينطبق على طريقة عيش في أوروبا ضمن العالم المسيحي منذ مطلع العصور الوسطى. ذلك أنه على غرار المدن التي شيدت في العالم العربي في العصور الوسطى كانت حياة المسلمين تقع ضمن دائرة نقطة المركز فيها هي المسجد. ولم يكونوا يمثلون جماعة أثنية إذ أن العرب «الحقيقيين» الوحيدين تاريخياً هم سكان شبه الجزيرة العربية، في حين أن السكان الناطقين بالعربية في ولايات مثل ولاية بغداد أو دمشق، أو في مدن مثل الجزائر أو القاهرة، كانوا خليطاً في أصولهم وخلفياتهم، وكان هذا الخليط واسع النطاق يشمل شعوباً وثقافات قديمة تمتد من المحيط الأطلسي الى الخليج الفارسي.

لم يكن هناك سوى بضع عشرات من الأشخاص الذين كانوا منافحين نشيطين عن القومية العربية (أي الانفصال) باعتبارهم أعضاء في واحدة أو أكثر من الجمعيات السرية كجمعية الفتاة وجمعية العهد التي أخذت السلطات البريطانية في القاهرة تزداد تعرفاً الهيا [155]. ونحن الآن نعرف عن هؤلاء الرجال وما كانوا يمثلونه أكثر كثيراً جداً مما كان يعرفه البريطانيون آنذاك.

فقد كانوا بصورة رئيسة أعضاء في النخبة العربية التي كانت على علاقة حسنة بالنظام الذي أطاح به حزب تركيا الفتاة وشعروا بخطر سياسة التتريك وميول المركزية لدى جمعية الاتحاد والترقي [156]. وبينما كان كيتشنر يفكر بمضمون رسالته التالية الى شبه الجزيرة العربية أبرق اليه ميلن تشيثام القائم بأعمال المعتمد البريطاني والقنصل العام في القاهرة بمذكرة استخبارية عن الجمعيات السرية.



## (4)

إن برقية كيتشنر، التي أقرها غراي وأرسلها من وزارة الخارجية طلبت الى مقر المعتمد البريطاني إبلاغ ستورز أن يرسل جواباً الى عبد الله يقول فيه أنه: «إذا ساعدت الأمة العربية انكلترا في هذه الحرب التي فرضتها عليها تركيا، ستضمن انكلترا عدم حدوث تدخل داخل شبه الجزيرة العربية وستقدم للعرب كل مساعدة ضد العدوان الخارجي». (كان كيتشنر يعني بكلمة «العرب» أولئك الذين يعيشون في شبه الجزيرة العربية). بعبارة أخرى إذا حرر زعماء شبه الجزيرة العربية شبه جزيرتهم من السلطان العثماني وأعلنوا استقلالهم ستساعدهم بريطانيا على حماية أنفسهم ضد أي غزو من الخارج.

في مقر المعتمد البريطاني كانت مسؤولية الإشراف على ترجمة هذه الرسالة إلى اللغة العربية تقع على عاتق تشيثام وستورز. ويبدو أنهما، بتشجيع من كلايتون، قد توسعا في لغة الرسالة بحيث صارت تتضمن تعهداً بتأييد بريطانيا «لخلاص العرب»<sup>[157]</sup>. وهذا كان توجهاً يسير الى حد بعيد في الاتجاه الذي رسمه رجينالد وينغيت. فقد كان وينغيت يؤمن بتحريض القبائل في شبه الجزيرة العربية لمصلحة بريطانيا، وخلافاً لكيتشنر الذي كان يرى معالجة موضوع شبه الجزيرة العربية عند نهاية الحرب، كان وينغيت نافذ الصبر ويحث على عمل فوري منذ بداية الحرب، وهدفه إغراء العرب بالابتعاد عن الإمبراطورية العثمانية، وقد كتب الي كلايتون بتاريخ 14 كانون الثاني (يناير) 1915 قائلاً: «أخشى أن يكون العمل البريطاني قد تأخر طويلاً حتى أنى بدأت اشك في إمكانية نجاحنا الآن في فصل العرب عن العثمانيين»<sup>[158]</sup>. لقد كانت شكواه المألوفة هي أن رؤسائه لا يلقون بالاً الى نصيحته في الوقت المناسب.

وبينما كانت رسالة كيتشنر ترسل الى مقصدها بالترجمة العربية كانت جماعات المهاجرين التي ظل كلايتون على اتصال بها في القاهرة قد أبلغته كما يبدو، أن عرب الحجاز سوف تساورهم الشكوك في نيات بريطانيا، وأن توضيحاً ما لما تعد به بريطانيا سيكون أمراً حسناً. وعلى الأثر فوض كيتشنر، بموافقة غراي، مقر المعتمد البريطاني، بإصدار بيان جديد. ومرة أخرى تجاوز مقر المعتمد التعليمات التي تلقاها فأصدر بيانات ليست موجهة إلى شبه الجزيرة العربية فحسب، بل موجهة عملياً الى كل آسيا الناطقة بالعربية (فلسطين وسورية وبلاد الرافدين) قاطعة وعداً بأن تعترف بريطانيا باستقلال سكان هذه البلدان وتضمنه إذا ما انقلبوا على الأتراك<sup>[159]</sup>.

ومع أن مقر المعتمد البريطاني تجاوز التعليمات بإصدار هذا العرض العلني، فإن التعهد في حد ذاته كان معقولاً. ذلك أن بريطانيا لم تكن بعد قد تقدمت إلى الدول الحليفة بأي التزام مناقض فيما يتعلق بمستقبل آسيا الناطقة بالعربية. فإذا ما وجهت الولايات الناطقة بالعربية، تجاوزاً لكل الاحتمالات، ضربة كبرى لصالح قضية الحلفاء تتمثل في الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية والظفر بحريتها بجهودها الخاصة، فلا يبقى عند بريطانيا سبب يحول دون ضمانها مساعدة هذه الولايات في حماية استقلالها المقبل. بل سيكون في مصلحة بريطانيا الوطنية أن تفعل ذلك سواء فيما يتعلق بالمنافسات في زمن الحرب أو بالمنافسات بعد الحرب.

على أن الرسالة التي سمح كيتشنر بإرسالها كانت مثيرة للمتعاب، إذ أنه - ترتيباً على اعتقاده بأن شبه الجزيرة العربية هامة ليس فقط بسبب الدور الذي يمكن أن تؤديه خلال الحرب بل الدور الذي يمكن أن تؤديه بعد الحرب - قد ختم رسالته إلى مكة بقنبلته المدوية التالية: «قد يحدث أن يتولى عربي أصيل الخلافة في مكة أو المدينة، وبذلك قد ينتج بعون الله، الخير من كل هذا الشر الذي يحدث الآن»<sup>[160]</sup>. لقد كانت إعادة الخلافة إلى شبه الجزيرة العربية حيث منشؤها ومولد النبي محمد، هي استراتيجية كيتشنر التي رسمها استعداداً للمنافسة مع روسيا التي لا بد أن تعقب انتهاء الحرب ضد ألمانيا. ولكن أنى للعرب الذين كانوا يعيشون في الإطار السياسي لشبه جزيرتهم أن يفهموا ما كان يدور في ذهن كيتشنر. وأنى لهم أن يعرفوا أنه ما أن بدأ صراع كبير بين الدول الأوروبية حتى بدا التفكير مسبقاً بالصراع اللاحق. بل كان الأرجح ألا يدركوا أن كيتشنر ووينغيت وكلايتون وستورز كانوا قاصرين عن فهم طبيعة الخلافة.

ما برح الباحثون منهمكين منذ ذلك الحين في إعطاء شروع للغربيين الذين يدرسون الشرق الأوسط مفادها أن الانشقاق بين السلطتين الدنيوية والروحية، الذي وضع البابا في مواجهة الإمبراطور في أوروبا القرون الوسطى، ليس له وجود في العالم الإسلامي. لقد أخطأ كيتشنر ووينغيت وكلايتون وستورز في اعتقادهم أن الخليفة يمكن أن يكون زعيماً روحياً فقط. ذلك أن الحياة كلها في الإسلام بما فيها الحكومة والسياسة تقع في نطاق حكم الشريعة بحيث أن المسلمين السنة، والسلطان العثماني وأمير مكة منهم، يرون أن سلطة الخليفة بصفته حامي الشريعة هي سلطة شاملة. إن ما أغفله البريطانيون في القاهرة هو أن الخليفة أمير أيضاً: أي أنه حاكمٌ وقائدٌ في المعركة مثلما هو إمام في الصلاة.

إن اتباع كيتشنر، بالرغم من كل معرفتهم المفترضة بالعالم الإسلامي، قد فاتهم أهمية نقطة أخرى: لقد جهلوا مدى انقسام المسلمين وشرذمتهم.

كانت خطة كيتشنر تدعو ابن سعود زعيم الطائفة الوهابية الشرسة، إلى الاعتراف بالسلطة الروحية لحاكم مكة السنّي. وما كان هذا الاعتراف ممكناً من الناحية الواقعية لأن الوهابيين والسنة، شأنهم شأن العشرات من المذاهب المتنافسة التي ينقسم إليها الإسلام، كانوا على خلاف شديد.

إن الاقتراح الذي أرسله كيتشنر واتباعه إلى مكة قد ضلّ متلقيه الذي رأى فيه عرضاً بجعله حاكم مملكة واسعة، إذ أن ذلك بطبيعة الحال سيكون خليفة المسلمين الجديد. وسنرى أنه عندما فتح حاكم مكة باب البحث فيما ستكون عليه حدود مملكته الجديدة أصيب ستورز بالفرع. إذ أنه هو وكيتشنر لم يخطر لهما توسيع المنطقة التي سيحكمها أمير مكة. وفي صيف عام 1915 كتب ستورز إلى فيتزجيرالد / كيتشنر قائلاً إنه إذا استطاع حاكم مكة أن يهدئ خواطر الأمراء والشيوخ الآخرين الحاكمين في شبه الجزيرة العربية وأن يقنعهم بأنه «لا يفكر بالمطالبة بأية حقوق دنيوية ضمن مناطقهم، فإن حظوظه في اعتراف عام - ولو أنه غير شامل - به كخليفة ستكون جيدة» [161].

لقد كانت نية البريطانيين أن يؤيدوا ترشيح الشريف حسين لمنصب «بابا» الإسلام - وهو منصب (غير معروف لهم) ولذلك فلا وجود له. في حين أن اللغة التي استخدمها البريطانيون (وهذا ما كان مجهولاً لديهم أيضاً) قد شجعت على محاولة أن يصبح حاكم العالم العربي كله - مع أن ستورز كان في الحقيقة يعتقد أن الشريف حسين يخطئ إذا وضع نصب عينيه أن يوسع نطاق حكمه. ولقد كان من شأن كيتشنر وأعوانه أن يصابوا بالذهول عندما يعرفون ما كان لرسالتهم من دلالة عند المسلمين في شبه الجزيرة العربية.

# الفصل الرابع

## الهند تحتج

### (1)

لم يطلع آرثر هيرتزل، سكرتير الدائرة السياسية في وزارة شؤون الهند، على رسائل كيتشنر الى الشريف حسين حتى 12 كانون الأول (ديسمبر) 1914 - أي بعد وصولها إلى مكة. وقد أصابه رعب، وسارع الى توجيه النقد الى «مراسلات بالغة الخطر» لأن بتلميحتها إلى خلافة عربية «تفعل الشيء عينه الذي فهمت هذه الوزارة أن حكومة صاحب الجلالة لن تقدم على فعله»<sup>[162]</sup>. وقد قال اللورد كرو وزير الدولة لشؤون الهند في حديث خاص مع نائب الملك في الهند، أن كيتشنر يرفض الانتباه إلى أن المكانة الروحية للخليفة الحالي - أي السلطان التركي - لم يمسه سوء، وأن مسلمي الهند، الذين يبجلونه، لن يقبلوا بديلاً يحل محله نتيجة لتدخل أجنبي، هذا إذا قبلوا بإبداله أصلاً<sup>[163]</sup>.

ولدي رؤية هيرتزل تعهد كيتشنر بحماية الاستقلال العربي احتج قائلاً إن هذا التعهد «وثيقة تمثل البداية» وأنه «ضمانة أعطيت كتابة من دون تفويض من حكومة جلاله الملك»<sup>[164]</sup>. وقد دعمت احتجاج هيرتزل مذكرة سبق أن أرسلتها دائرة الشؤون الخارجية في حكومة الهند الى وزارة شؤون الهند في لندن بتأييد من حكام عدن وبومباي وأماكن أخرى، وتقول هذه المذكرة: «ما نريده ليس شبه الجزيرة العربية موحدة، بل نريدها مقسمة وضعيفة، ممزقة الى إمارات صغيرة خاضعة الى اقصى ما يمكن لسيطرتنا - ولكنها عاجزة عن القيام بعمل منسق ضدنا، وتشكل حاجزاً في وجه قوى الغرب»<sup>[165]</sup>. لقد دلت هذه المذكرة على خطأ في فهم نيات البريطانيين في القاهرة: يدل على ذلك ما قاله كلايتون لاحقاً في رسالة الى وينغيت: «يبدو أن الهند مسكونة بهاجس الخوف من دولة عربية موحدة وقوية. هذه الدولة لن تظهر إلى الوجود ما لم تبلغ بنا الحماقة حد خلقها»<sup>[166]</sup>.

وقد حاول اللورد كرو أن يهدئ خاطر وزارة شؤون الهند وحكومة الهند بإعطاء تفسير مفاده إن عدم إجراء مشاورات مسبقة بشأن تعهد كيتشنر سببه «إن هذا التعهد هو مراسلة خاصة من قبل اللورد كيتشنر» وليس

مراسلة رسمية من قبل حكومة جلالة الملك»<sup>[167]</sup>. غير أن هذا الخلاف الحقوقي الذي اشتعل لم تطفئه هذه التأكيدات، بل ظل يلتهب طوال الحرب وبعدها.

## (2)

كانت نظرة المؤسسات الرسمية في الهند الى نفسها نظرة قلعة محاطة بالأعداء ممتدة على أرض ضيقة ذات طول بالغ. وكان شعورها الذاتي انه يجب تفادي ارتباطات جديدة، وكانت استراتيجيتها إزاء الشرق الأوسط تقضي بالحفاظ على الحد الأدنى فقط - أي الخط الساحلي للخليج من أجل إبقاء الطريق البحرية من بريطانيا واليها مفتوحة - ورفض جرها الى المناطق الداخلية.

مع ذلك فإن الحرب غير المرغوب فيها ضد الإمبراطورية العثمانية أتاحت لها إمكانية ضم البصرة وبغداد القريبتين. وكان الاعتقاد أن خيراً عميماً سينجم عن هاتين الولايتين وعن تنميتها اقتصادياً، فكان في ذلك إغراء لحكومة الهند، مع أن مسؤوليها طالما حذروا في الماضي من قبول مزيد من المسؤوليات الإقليمية. وكانت الهند البريطانية في كل ما تفعله عازمة على أن توائم بين مصالحها ومصالح رعاياها، وكثيرون منهم مسلمون، غير أن سياسة اللورد كيتشنر الإسلامية شكلت خطراً على هذه المصلحة الحيوية.

وكانت مبادرات كيتشنر أيضاً تمثل تطفلاً في محيط السياسة الخارجية الذي كانت حكومة الهند تحمي فيه حقوقها من افتئات منافسيها في الحكومة البريطانية. فقد كانت دائرة الشؤون الخارجية في حكومة الهند تمارس مسؤولية العلاقات مع مناطق مجاورة كالتيبت، وأفغانستان، وبلاد فارس، وشرقي شبه الجزيرة العربية. وكانت حكومة الهند كذلك تدير الحماية البريطانية على عدن ومشيخات الخليج عبر شبكة من الحكام والمعتمدين المقيمين، ولذلك فإن كيتشنر بدخوله في مباحثات مع حاكم مكة إنما كان يتدخل في مجال اختصاص الهند ونشاطها.

ومع أن حكومة الهند كانت منذ زمن طويل تنهج سياسة الاحتفاظ بالموانئ الساحلية على امتداد الطريق البحرية المارة عبر الخليج الى السويس، فقد كانت تتجنب التورط في سياسة المناطق الداخلية. غير أن هذا لم يمنع الكابتن وليم هنري شكسبير، وهو ضابط في الدائرة السياسية الهندية، من إقامة علاقات سياسية وصدقة شخصية، بصفته المعتمد السياسي في الكويت، مع عبد العزيز بن سعود الذي كان أميراً ذا بأس ونجمه صاعد في وسط شبه الجزيرة العربية، خلال السنوات التي سبقت نشوب الحرب مباشرة<sup>[168]</sup>. وقد عبر ابن سعود، كما فعل عبد الله في القاهرة عن استعداد له لكي تصبح أمارته دولة زبونة لبريطانيا. فوجد شكسبير نفسه مضطراً، شأنه شأن كيتشنر وستورز، للإشارة الى أن حكومته لم تكن مستعدة للتدخل في أمور محض داخلية تقع في اختصاص العثمانيين. ومما

زاد في صحة ذلك آنذاك أن وزارة الخارجية البريطانية دعمت آل الرشيد المواليين لتركيا، علماً أن آل الرشيد كانوا سادة وسط شبه الجزيرة العربية وأعداء آل سعود بالوراثة. ولكن ما أن نشبت الحرب حتى رأت الهند نفسها حرة في دعم صاحبها ابن سعود، إنما وجدت في الوقت عينه أن القاهرة كانت تدعم منافسه في مكة.

وقد وجدت القاهرة بدورها أن الهند تعطل مشاريعها. ففي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1914، وهو الشهر الذي دخلت فيه الإمبراطورية العثمانية الحرب، اقترحت القاهرة (بموافقة سير إدوارد غراي) إرسال الرائد عزيز المصري في حملة لتنظيم الهيجان وربما الثورة في بلاد الرافدين. ولكن الهند الخائفة دائماً من إشعال حريق قد لا تستطيع التحكم به، أبطلت تنفيذ الاقتراح.

كانت الهند تعتقد أنه إذا ما انقلب العرب يوماً على الحكومة التركية فيجب أن يقود هذه الثورة ابن سعود. ولكن في كانون الأول (ديسمبر) 1914 كانت حجة نائب الملك في الهند أن عملاً كهذا هو عمل سابق لأوانه [169]. وقد اتخذ كيتشنر وأتباعه في الخرطوم نظرة معاكسة فتطلعوا الى الشريف حسين باعتباره حليف بريطانيا العربي الهام، وأصدروا بيانات تحت العرب على الثورة.

وفضلاً عن هذا الاختلاف في الاستراتيجية العامة، كانت (سيملا) [170] مدركة على أساس اتصالاتها قبل الحرب أن في العالم الناطق بالعربية أناساً من شأن التأييد البريطاني لمطالب أمير مكة أن ينقّهم من بريطانيا. من هؤلاء الشيخ مبارك في الكويت وهو صديق منذ زمن طويل لبريطانيا، ومنهم أيضاً حاكم مرفأ المحمرة الفارسي، وهو صديق لبريطانيا أيضاً، ومنهم كذلك سيد طالب، ثري البصرة، مع أن هيرتزل كان يعتقد أنه «وعد خطر» [171]. وقد نبه أحد مسؤولي وزارة الخارجية الى العواقب المرتقبة في شبه الجزيرة العربية قائلاً إن عدوّي أمير مكة - ابن سعود والسيد محمد الإدريسي، حاكم عسير - هما في نظره صديقان لبريطانيا [172].

لقد شدد المسؤولون في الهند على أن سياسات القاهرة متهورة ولا حظاً لها من النجاح. وكان رأي هؤلاء المسؤولين أن رعاية بريطانيا لخلافة عربية لن تؤثر على الرأي العام الإسلامي في الهند تأثيراً سلبياً فحسب (وكان الرأي العام الإسلامي في الهند من وجهة النظر البريطانية هو محور موضوع الخلافة)، بل إن هذه الرعاية لن تعود بأي خير على العالم العربي. وقد جاء في تقرير رفعه بيرسي كوكس، أحد العاملين في الإدارة السياسية للهند،

في كانون الأول (ديسمبر) 1915، انه عقد اجتماعاً مع شيخ الكويت ومع ابن سعود وتبين له أن مسألة الخلافة لا تهمهما إطلاقاً. ومما قاله ابن سعود أنه ليس بين زعماء شبه الجزيرة العربية «البتة من هو معني بمن يسمي نفسه خليفة» وادعى أن أتباع مذهبه الوهابي لم يعترفوا بأي خليفة من الخلفاء الذين تعاقبوا بعد الخلفاء الأربعة الراشدين (وآخرهم توفي قبل أكثر من ألف سنة)<sup>[173]</sup>.



### (3)

والغريب في الأمر أن ما من أحد في لندن أو في سيملا كما يبدو، قد استخلص الاستنتاج المناسب من واقعةٍ حدثت في نهاية 1914 ودلت على أن سلطة الخليفة وضعت موضع الاختبار فتبين أنها وهمية.

ففي تشرين الثاني (نوفمبر) 1914، لدى دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب، دعا السلطان / الخليفة الى الجهاد ضد بريطانيا وسط مظاهرات حسنة التخطيط في القسطنطينية.

كانت هناك جموع وفرق موسيقية وخطابات، وقد أمرت وزارة الخارجية الألمانية بإرسال نسخ من إعلان الجهاد الى برلين فوراً لكي تترجم الى «العربية والهندية» (هكذا ورد في نص طلب الوزارة الألمانية) تمهيداً لتوزيع نشرات دعائية بين الجنود المسلمين في جيوش العدو<sup>[174]</sup>. وكان توقع موظفي وزارة الخارجية الألمانية أن تؤدي أعمال السلطان الى «إيقاظ التعصب العثماني» وقد تؤدي الى ثورة واسعة النطاق في الهند<sup>[175]</sup>.

وقد اعتقد الملحق العسكري الألماني في القسطنطينية أن إعلان الجهاد سيكون له تأثيره على الجنود المسلمين في الجيوش البريطانية والفرنسية بحيث يمتنعون عن إطلاق النار على الجنود الألمان. بيد أن السفير البريطاني المتشكك برهن على أنه أوسع إدراكاً؛ إذ كتب في رسالة خاصة يقول إن إعلان الجهاد «لن يخدع سوى عدد قليل من المسلمين»<sup>[176]</sup> بالانتقال الى جانب دول أوروبا الوسطى. وقد كان على حق، فالجهاد ثبت أنه، حسب التشبيه الذي استحدث في الحرب العالمية الأولى، قنبلة أطلقت فلم تنفجر<sup>[177]</sup>.

لقد كانت الحماسة للجهاد متدنية حتى في القسطنطينية، إذ أعلن الجهاد فلم يحدث شيء. ومع جاء ذلك ظل البريطانيون قلقين خشية أن تحدث أية حركة تجعل القنبلة الخاملة تنفجر فجأة. وقد كتب جلبرت كلايتون في تشرين الأول (أكتوبر) 1915 مذكرة ضمنها حجتة القائلة إنه بالرغم من فشل الدعوة الى الجهاد حتى ذلك الحين فقد تنشط من جديد<sup>[178]</sup>. وكان رأي اللورد كرو وزير الدولة لشؤون الهند، أن السبب الوحيد لفشل الدعوة هو أن الباب العالي لم يكن مسيطراً على الأماكن المقدسة في الحجاز: «فإذا ما استطاعت جمعية الاتحاد والترقي أن تتحكم بمكة فقد لا تستطيع

أن تعلن جهاداً نظامياً (هكذا ورد في كلامه)، وربما تأثرت بذلك أفغانستان وسببت متاعب خطيرة للهند» [179].

في أثناء ذلك كان وينغيت وكلايتون وستورز يتابعون بنشاط خطة كيتشنر الداعية إلى رابطة في عالم ما بعد الحرب مع شبه الجزيرة العربية ومع زعيم ديني عربي. وكان كلايتون حذراً فنبه إلى أن مسألة الخلافة العربية مسألة دقيقة ويجب أن يأتي اقتراحها من العرب أنفسهم [180].

ولكن وينغيت، المتعجل دائماً إلى التحرك نحو الأمام، أكد لفرترز جيرالد / كيتشنر «أننا سنفعل ما لا نستطيع لدفع الحركة العربية وقد وضعت أسياخاً عديدة في النار في هذا الصدد» [181].

غير أن مخاوف وزارة شؤون الهند استمرت، إذ أنها خشيت أن تؤدي هذه النشاطات إلى جر مكة نحو دوامة السياسة العالمية - الأمر الذي قد يسبب اضطراب الرأي العام في الهند في وقت يجب أن يكون فيه أي اضطراب قاتلاً. وقد كان على سيملا خلال الحرب أن ترسل الكثيرين من جنودها الأوروبيين إلى أوروبا وأن ترسل أيضاً أعداداً كبيرة من الجنود الهنود. ولذلك كانت طوال مدة الحرب في وضع ضعيف من حيث القدرة على إخماد أية انتفاضات قد تحدث. وبدأ لحكومة الهند أن كلاً من القاهرة والقسطنطينية تنهج سياسة تهدد بإلهاب مشاعر المسلمين في الهند وبالتالي تعرض الإمبراطورية الهندية للخطر.

ومع استمرار الحرب ازداد اعتقاد البريطانيين الذين كانوا يحكمون الهند أن أكثر أعدائهم خطراً لم يكونوا الأتراك ولا الألمان بل المسؤولين البريطانيين في حكومة مصر. ذلك أنه بالرغم من احتجاجات الهند مضى هؤلاء المسؤولون في حبك مؤامراتهم في مكة.

# الفصل الخامس

## الرجل الذي في الوسط

### (1)

أن مدينة مكة حيث مولد النبي، محمد، والمدينة المنورة التي كانت هجرته إليها، هما المدينتان المقدستان لدى المسلمين في كل مكان وبفضلهما تكتسب بلاد الحجاز الجبلية التي تقع في القسم الغربي من شبه الجزيرة العربية، الممتد طويلاً والضيق عرضاً بمحاذاة البحر الأحمر، أهمية فذة. وكلمة الحجاز بمدلولها اللغوي تشير إلى الجبال التي تفصل بلاد الحجاز عن الهضبة الواقعة إلى شرقها. وفي مطلع القرن العشرين كانت شبه الجزيرة العربية أرضاً قفراً ومعزولةً وكانت الحجاز، حسب وصف الموسوعة البريطانية طبعة عام 1910 «أكثر ولايات شبه الجزيرة العربية فقراً وتنفيراً»، وكانت أجزاء كثيرة منها قفراً خالية من الماء وغير مأهولة. وكانت أرض الحجاز الممتدة 750 ميلاً طويلاً والتي يبلغ أقصى عرضها نحو مئتي ميل، تكاد لا تكفي لإطعام سكان عددهم نحو 300000، نصفهم بدو والنصف الآخر حضر. ومع أنها كانت جزءاً من الامبراطورية العثمانية فإن بعدها عن القسطنطينية الذي تزيده بعداً على بعد الحالة البدائية للنقل والمواصلات، قد أتاح لها دوماً قدراً كبيراً من الحكم الذاتي.

ومحصولها الدائم هو التمر الذي يقال إن فيها مئة نوع منه، ولكن مصدر الدخل الحقيقي هو الحج السنوي. فقد كان نحو سبعين ألف حاج ييممون شطر مكة كل عام. وكانت حماية الحجاج من قبائل البدو الغازية هي المهمة الرئيسة لممثل الحكومة العثمانية المحلي. وقد درجت السلطات المحلية على تقديم معونات إلى القبائل بأمل إقناعها بأن حماية الحجاج أجدي من مضايقتهم.

تقع مكة على بعد نحو خمسة وأربعين ميلاً من أقرب مرفأ ساحلي، وهي مسافة تقطعها الجمال في يومين. ومكانها في وادٍ قاطئ قاحل، وتسيطر على الممرات في الشعاب المحيطة بها. وكان عدد سكانها يقدر بستين ألفاً. ودخول مكة وجوارها محظور على غير المسلمين. إن كل ممنوع مرغوب، وقد نجح عدد قليل من الرحالة الأوروبيين في النفاذ إلى مدينة مكة متكررين وعادوا بوصف تفصيلي لها.

وقد ذكر هؤلاء الأوروبيون أن بعض الممارسات السوداء ما زالت متبقية من الماضي البدائي حتى في هذه المدينة المقدسة. وحسب الموسوعة البريطانية فإن «الرذائل في مكة هي فضيحة للمسلمين جميعاً ومصدر دائم لاستغراب الحجاج الأتقياء، وتجارة الرقيق لها ارتباطات بالحج هي ارتباطات غير واضحة تماماً، ولكن قدراً كبيراً من استيراد وتصدير العبيد كان يجري تحت ستار الحج».

ومع ذلك فإن الرحالة الأوروبيين قالوا أيضاً إن شعب الحجاز، بل أهل شبه الجزيرة العربية كلها، هم بين نبلاء الناس طبعاً. وتقول الموسوعة البريطانية:

«إن العرب من حيث التكوين الطبيعي هم من أقوى وأنبل العروق البشرية في العالم. وهكذا فإنهم جسدياً لا يرضخون إلا للقلة من الأجناس البشرية هذا إذا رضخوا لأي منها، فأما ذهنياً فإنهم متفوقون على معظم أجناس البشر ولا يحد من مسيرة تقدمهم سوى النقص الملحوظ في القدرة على التنظيم وعجزهم عن القيام بعمل مشترك. ومع أن أشكال حكومتهم تتسم بالبلادة والنواقص فإن هذه الأشكال وصلوا إليها بجهد جهيد».

إذا أخذنا بما تقوله الموسوعة البريطانية فإن مهمة أمير مكة ليست بالمهمة السهلة.

إن مكة كانت دائماً في نظر المسلمين مركز العالم. وجاءت الآن طموحات كيتشنر واعوانه في القاهرة وطموحات جمعية الاتحاد والترقي في القسطنطينية لتنقل بلاد الحجاز القاحلة إلى مركز سياسات القرن العشرين. فالاهتمامات الجديدة التي حظيت بها مكة في حرب عام 1914 قد جعلتها في موقع المركز بطرق أخرى غير محبة إلى أميرها، لأنه وجد نفسه وسط نارين.

كان الحسين بن علي حاكم الحجاز نيابة عن السلطان العثماني، يلقب شريف مكة وأميرها.

والشريف من سبط النبي، والحسين مثل النبي محمد هو من آل هاشم [182]. وقد درج النظام العثماني منذ بعض الوقت على تعيين أمير مكة من بين الأشراف المتنافسين. وفي عام 1908 وقع اختيار السلطان شخصياً على الحسين وهو من قبيلة ذوي عون، بالرغم من معارضة جمعية الاتحاد والترقي التي ساندت مرشحاً من قبيلة منافسة.

وقد كان الحسين شأنه شأن صديقه الصدر الأعظم وشأن السلطان نفسه رجلاً ذا تربية ومعرفة من الطراز القديم ويتلفظ بعبارات منمقة. وقد كان ربع القائمة ذا لحية بيضاء، وكان في نحو الستين من عمره عام 1914،

وأَمْضى جزءاً كبيراً من حياته أسيراً مَجْلاً في بلاط السلطان في القسطنطينية. وهناك لم تستطع حتى عيون الخصوم أن تلاحظ في سلوكه ما يخالف الأصول.

وكان يمضي وقته في التأمل خلال وجوده في بلاط السلطان.

وكان الحسين لا يفتأ يعبر عن شدة ولاءه الشخصي للسلطان. بيد أن السلطان كان رئيساً رمزياً للدولة، أما السلطة الحقيقية الممثلة في الباب العالي فقد كانت لجماعة تركيا الفتاة وهؤلاء رجال جدد بلا حسب أو نسب انعدم التعاطف بينه وبينهم، ولذلك فانه بالرغم من ولاءه للسلطان وجد نفسه على خلاف متزايد مع حكومة السلطان ولا سيما مع سياستها القائمة على المركزية.

كان طموح الحسين أن يحتفظ بمنصب أمير مكة لنفسه ولأسرته من بعده، وعمل جاهداً لكي يزيد استقلاله بينما كانت حكومة جمعية الاتحاد والترقي المركزية تتآمر للحد من استقلاله. وقد اندفعت هذه الحكومة في العمل لإنشاء سكة حديد الحجاز التي كان من أهداف انشائها تقليص الحكم الذاتي الذي يمارسه الأمير. وسكة حديد الحجاز تمتد من دمشق إلى المدينة المنورة في الحجاز، وكانت حكومة الاتحاد والترقي عازمة على مد هذا الخط الحديدي إلى مكة المكرمة وإلى ميناء جدة. وكان هذا يشكل خطراً على قبائل الحجاز التي تملك الجمال وعلى تحكمها بطرق الحج الذي يعود عليها بربح وفير. وقد عازمت حكومة الاتحاد والترقي على ممارسة الحكم المباشر في مكة والمدينة وسائر الحجاز عن طريق استخدام السكة الحديدية وخطوط البرق، مما سيجعل من الشريف حسين مجرد موظف مرؤوس، فكان رده إثارة الاضطرابات الأهلية.

كان هذا تبديلاً في سياسة الحسين الذي كان قد بدأ إدارة شؤونه مستعيناً بالجنود الأتراك على القبائل العربية، ولكنه لم يكن تبديلاً في الولاء، إذ بقي في وضع يكتنفه الغموض: مؤيداً للإمبراطورية العثمانية معارضاً لحكومتها.

خلال السنوات التي سبقت بدء الحرب الأوروبية مباشرةً تعددت الاتصالات بين الجمعيات السرية في دمشق والزعماء المتنافسين في شبه الجزيرة العربية، وكان الهدف تقصي امكانية جمع الصفوف ضد جماعة تركيا الفتاة ومن أجل حصول العرب في الامبراطورية على نصيب أكبر من حقوقهم. وقد كان لمعظم زعماء شبه الجزيرة العربية من وقت إلى آخر ضلع في هذه المحادثات.

وفي عام 1911 طلب النواب العرب في مجلس المبعوثان العثماني إلى الشريف الحسين أن يقود الشعوب العربية في حركة للتخلص من النير العثماني فرفض الشريف حسين، ويبدو أن الجمعيات السرية اتجهت بعد

ذلك بعام الى منافسيه وليس إليه . والظاهر أن القوميين العرب اعتبروه في عام 1913 «أداة في يد الأتراك لضرب العرب»<sup>[183]</sup>. ومع ذلك كانت الحكومة التركية أيضاً ترتاب فيه ارتياباً شديداً وتستقصي امكانية الاطاحة به .

إثنان من أولاد الحسين كانا ناشطين سياسياً. أحدهما عبد الله ابنه الأثير الى نفسه الذي كان نائباً عن مكة في البرلمان العثماني، أما الآخر فقد كان فيصل النائب عن جدة. وقد أشار عبد الله على والده أن يقاوم الحكومة التركية، معتقداً أن هذه المقاومة ممكنة إذا لقيت مساندة الجمعيات السرية وبريطانيا، أما فيصل فكان معارضاً لهذا الرأي. كان عبد الله قصير القامة ممتلئ الجسم متوقد الذهن يتسم بطابع السياسي المهادن، ويدعو الى الجسارة. أما فيصل فكان طويل القامة، متسرعاً، عصبي المزاج وينادي بالحدز.

أمضى الحسين سنوات يستخدم خصومه الواحد ضد الآخر، وكان ميالاً إلى التآني، ذلك أنه مع مرور كل سنة من سنوات عمله أميراً لمكة كان يعزز مكانته وامساكه بزمام الأمور وسيطرته على شبكة العلاقات الشخصية والعائلية والقبلية المعقدة التي عبرها تتوفر السلطة في الحجاز. وكان قد حد من النفوذ السياسي لمحافل جمعية الاتحاد والترقي المحلية في مكة والمدينة. وقد رسخ مكانته الأولى ضمن امارته.

بيد أنه وجد نفسه في العامين 1913 و1914 محاطاً بأعداء خارجيين. كان هناك جيرانه ومنافسوه التقليديون، الأمراء العرب في الجنوب والشرق، الذين كانوا يهددونه ويهددهم. وكان هناك القوميون العرب، وبعضهم يعتبره في الأساس موظفاً لدى تركيا. وكان هناك البريطانيون، ويستطيع أسطولهم بسهولة أن يسيطر على ساحل الحجاز الطويل بمجرد أن يدخلوا الحرب ضد الامبراطورية العثمانية - وكان يعرف انهم سيصبحون أعداءه إذا ما ربط مصيره بالامبراطورية العثمانية، وأخيراً كانت هناك الحكومة العثمانية التي تهدد بحسم مسألة الحكم الذاتي الذي يمارسه الأمير.

ولكن جمعية الاتحاد والترقي ما لبثت أن أرجأت خلال مدة الحرب اكمال السكة الحديدية وأرجأت إقرار أنظمتها الحكومية الجديدة وخطتها السرية لتعيين أمير جديد مكان الحسين .

ولكنها أمرت الحسين أن يمد الجيش بالرجال. ولعل الحسين وعبد الله قد ساورتهما الشكوك في أن تكون جمعية الاتحاد والترقي قد أعدت مؤامرة هدفها إرسال رجال الحجاز المجندين إلى ساحات قتال بعيدة وإرسال الجنود الأتراك النظاميين لياخذوا مكانهم في الحاميات الحجازية ومن ثم يستولوا على السلطة .

لقد أكد الحسين لجميع جيرانه الخطرين أنه سيعمل وفق رغباتهم - ولكنه أرجأ ذلك الى وقت ما في المستقبل. وقد طلب النصيح من عبد العزيز بن سعود منافسه القوي في الشرق، هل ينبغي له أن يشرك مكة في دعوة السلطان الى الجهاد ضد بريطانيا وحلفائها. كما أنه بحث مع القوميين العرب القادمين من دمشق امكانية القيام بعمل مشترك ضد الباب العالي. ورداً على الطلبات التي وردته من الباب العالي، طلب تزويده بالمال لجمع جنود ومؤن للامبراطورية العثمانية ولكنه ظل يسوف في ارسال اية وحدات الى الجيش التركي.

وكان رده على رسائل كيتشنر ووعوده رداً ودياً حاراً. وفي الوقت عينه. في نهاية عام 1914 - عندما كان جمال باشا يتأهب لمهاجمة البريطانيين عند قناة السويس، كتب الحسين اليه واعداً بإرسال جنود للمشاركة في الهجوم، بينما أرسل عبد الله رداً الى ستورز في القاهرة يقول فيه إن الحجاز قررت أن تكون الى جانب بريطانيا في الحرب، ولكنه طلب أن يبقى الأمر سراً أذ ليس باستطاعته حالياً أن يكشف نيته بالتحالف مع بريطانيا وليس باستطاعته القيام بعمل، والسبب في رأي عبد الله والحسين أن الوقت لم يحن بعد.

## (2)

كان ستورز سعيداً لأن مراسلاته قد جعلت المعتمد البريطاني في القاهرة والمندوب السامي البريطاني على علاقة ودية وثيقة مع مكة. وقد كتب بتاريخ 27 كانون الثاني (يناير) 1915 الى فيتزجيرالد / كيتشنر قائلاً: «ما زلت على اتصال ودي جداً وحميم مع شريف مكة وأنا مقتنع اقتناعاً راسخاً أنه أجدر بعنايتنا واهتمامنا من أي زعيم آخر زعامته محلية محض (مهما كان قوياً في حد ذاته) ولا يستطيع أن يحظى بالاحترام الذي يجب أن يلقاه سنوياً من ممثلي الاسلام في سائر أنحاء العالم» [184].

في ذلك الحين كان كل ما يطلبه كيتشنر ومقر المعتمد البريطاني في واقع الأمر من الشريف حسين هو الحياد. ولما كانت رغبة الحسين هي أن يتجنب جره الى الحرب الخطرة فقد كان هناك وفاق بين الجانبين المتراسلين. ولم يفعل الحسين شيئاً لكي يشرك نفسه أو مكة بإعلان الجهاد.

وبالنسبة لمقر المعتمد البريطاني أنجزت المراسلات كل ما كان مرغوباً فيه منطقياً. وقد كتب المندوب السامي هنري مكماهون الى كيتشنر في 2 شباط (فبراير) 1915 قائلاً: «لا حاجة لأي عمل فوري... فكل ما هو لازم في الوقت الراهن، فيما يخص شريف مكة - قد أنجز» [185].

شعر وزير الحربية بالرضى. ولم يكن يشاطر وينغيت اعتقاده أن قيام ثورة قبلية في شبه الجزيرة العربية يمكن أن يؤثر على مصير بريطانيا في الحرب. ولذلك لم يبدِ ما يشير الى خيبة الأمل عندما تخلف الشريف حسين عن عرض نفسه لقيادة مثل هذه الثورة. فقد كان كيتشنر يعتقد أن ألمانيا هي العدو وأن أوروبا هي ميدان المعركة الوحيد الذي يحسب له حساب. أما خطته على المدى البعيد للاستيلاء على الخلافة فانما هدفها عالم ما بعد الحرب. فقد كان يرى أنه هو وخطته - والشرق الأوسط - أمرهم مؤجل الى ما بعد انتهاء الحرب.



# الجزء الثالث بريطانيا تُجرّ الى مستنقع الشرق الأوسط

# الفصل الأول

## القادة العسكريون الأتراك

### كادوا أن يخسروا الحرب

#### (1)

لم يكن في نية كيتشنر عند تعيينه وزيراً للحربية أن تجر بريطانيا للتورط في الشرق الأوسط خلال الحرب. وعندما بدأ الطريق التي قادت الى هذا التورط لم يكن مدركاً أن هذا ما كان يفعله. ثم انه عندما وجد بلاده فيما بعد، أي في عامي 1915 و1916 متورطةً تورطاً كاملاً في الشرق الأوسط فلا بد أنه تساءل كيف سمح بنشوء مثل هذا الوضع. فقد كانت عقيدته الثابتة منذ بداية الحرب أن يهمل الشرق وأن يركز أنظاره على الجبهة الغربية.

وكان رأي كيتشنر القائل إن إهمال الشرق الأوسط وتركيا خلال مدة الصراع الأوروبي هو أمر سليم، ناجم عن افتراضه أن الامبراطورية العثمانية لا تشكل تهديداً عسكرياً هاماً. وكان كثيرون يشاطرونه هذا الافتراض.

لقد كان المسؤولون البريطانيون ينظرون الى قدرة العثمانيين العسكرية نظرة ازدراء، وقد رسخت هذه النظرة معارك الأشهر الستة الأولى في الشرق. فمنذ تشرين الأول (أكتوبر) 1914، عندما فتحت البارجتان غويين وبرزلاو النار على الساحل الروسي وحتى شباط (فبراير) 1915 عندما بدأ الأسطول البريطاني يثار بقصفه مضائق الدردنيل ثم اتجه الى القسطنطينية، كانت الجيوش العثمانية تتعثر وتنتقل من هزيمة الى أخرى.

كان أنور باشا هو القائد الأعلى للقوات المسلحة التركية، وقبل بدء الحرب بأسبوع واحد كان قد أعلن نفسه «نائب القائد الأعلى». هذا المنصب وضعه نظرياً في مكان الشخص الثاني بعد السلطان ذي المنصب الرمزي، أما عملياً فلم يكن ثانياً لأحد.

كان أنور يتمتع بصفات المغامر ولم يكن يتمتع بصفات الجنرال. ومع أنه كان فطناً وماكراً، إلا أنه لم يكن قائداً عسكرياً كفوءاً. ان ليمان فون ساندرز الضابط البروسي الذي كان مستشاراً للجيش العثماني والذي كان

يجد نفسه دوماً على خلاف مع أنور باشا، كان يعتبر أنور مغفلاً في الشؤون العسكرية.

بيد أن أنور صوّر نفسه زعيماً من طبيعة مختلفة كلياً. لقد صور نفسه وريث مؤسسي الامبراطورية العثمانية، أولئك الغزاة الذين انطلقوا في القرن الرابع عشر من الغموض عبر حدود الامبراطورية البيزنطية الى مركز الصدارة في التاريخ [186].

عند بداية الحرب سارع أنور باشا الى مهاجمة الامبراطورية الروسية فوجد أمامه عقبة كاداء هي سلسلة جبال القوقاز التي تشكل الحدود البرية بين الامبراطوريتين. ولم يلق بالاً الى نصح ليتمان فون ساندرز فصمم على شن هجوم على طول الجبهة عبر تلك الحدود الطبيعية المخيفة التي حصنها الروس تحصيناً قوياً، لا سيما أنهم متمكنون بالأرض المرتفعة - وقد صمم أنور باشا أن يفعل ذلك في قلب فصل الشتاء. كان رأيه في البداية أن يجمع قواته على امتداد مساحة هائلة من الأرض داخل تركيا، 600 ميل طولاً و300 ميل عرضاً، وهي مساحة لا توجد فيها أية سكك حديدية لنقل الجنود والمؤن. أما الطرق القليلة في تلك المساحة، فقد كانت شديدة الانحدار أو ضيقة. وعبور الأنهر لم يكن ممكناً إلا بخوضها بعد أن انهارت الجسور، ولم يهتم أحد بإصلاحها. وبما أن أقرب محطة للسكك الحديدية كانت تبعد عن هذه المنطقة أكثر من 600 ميل فكان لا بد من نقل كل طلقة او كل قذيفة على ظهور الجمال - في رحلة تستغرق ستة أسابيع - وكان جزء كبير من هذه المساحة بلا طرق وغير مأهول ولم يسبق استكشافه ولا رسمت خريطة له، كما أن فصول الشتاء الطويلة والعواصف الثلجية الجبلية قد جعلت أجزاء كاملة منها عسيرة المرور في جزء كبير من السنة.

كانت خطة أنور باشا، كما شرحها للجنرال ليتمان فون ساندرز، أن ينطلق من منطقة التجمع فيعبر الحدود الى أراضي القيصر، ثم يهاجم الموقع الروسي المحصن في هضبة القوقاز بواسطة ذلك النوع من الحركة المنسقة التي تصورها كتب منهاج الدراسة في المدارس العسكرية، أي أن تقوم بعض الأرتال بهجوم مباشر، بينما تنتشر ارتال أخرى في حركة تشبه الزاوية ثم تستدير لتقوم بعملية التفاف على جناح الجيش المعادي أو بعملية تطويق. ولم يلق بالاً إلى التحذير من أن القدرة على الحركة الاستراتيجية التي تقتضيها التحركات العسكرية التي يرتئها لن تتوفر من دون وجود سكك حديدية أو وسائل نقل أخرى. بل لم تساوره شكوك في النجاح. وقد قال أنور باشا أنه بعد أن يسحق القوات الروسية سيزحف على الهند عبر أفغانستان لفتحها.

غادر أنور باشا القسطنطينية في 6 كانون الأول (ديسمبر) 1914 وتولي قيادة الجيش الثالث العثماني في 21 كانون الأول (ديسمبر)، وقاد بنفسه الهجوم على هضبة القوقاز، فذب الفرع في صفوف الروس فناشدوا بريطانيا أن تفعل شيئاً لمساعدتهم، ولم يخطر لهم انهم يواجهون عدواً عاجزاً كل العجز.

عندما بدا أنور باشا الهجوم خلف مدفعيته وراء القوات المهاجمة بسبب كثافة الثلوج. وكان على جنوده أن يبيتوا في العراء في جو من البرد القارس (كانت درجة الحرارة دون الصفر)، وقد نفذ طعامهم وانتشر وباء التيفوس بينهم، وتاهوا في الممرات الجبلية المتشابكة بعد أن غمرت الثلوج الطرق المألوفة. كانت خطة أنور باشا تقضي بأن تشن قواته هجوماً مفاجئاً ومنسقاً على قاعدة روسية تدعي ساريكاميش، وكانت هذه القاعدة عقبة على طريق الغزو. أما وقد فقدت الفيالق التركية الاتصال فيما بينها ووصلت إلى ساريكاميش في أوقات متفاوتة لتشن هجومها، فقد كان نصيبها الإفناء واحداً بعد الآخر.

إن ما كان جيشاً تحول إلى شراذم مشتتة هامت على وجهها وعادت إلى شرقي تركيا في كانون الثاني (يناير) 1915. ومن مجموع نحو مئة ألف رجل اشتركوا في الهجوم [187]، بلغت نسبة المفقودين 86 بالمئة. لقد قال ضابط ألماني ملحق بالأركان العامة العثمانية في وصف ما حدث للجيش الثالث: «لقد أصيب هذا الجيش بكارثة لا توازيها في سرعة حدوثها وشموليتها كارثة أخرى في التاريخ العسكري» [188].

مع ذلك فإن أنور باشا أمر لدى عودته من هذه الكارثة في شمال شرقي تركيا، بشن هجوم آخر ولدته فكرة خاطئة. وقد تولى قيادة هذا الهجوم جمال باشا، وزير البحرية، الذي كان ينظر إلى أنور باشا بعين الحسد، لأن مكانته وسلطته طغت على مكانة وسيطة بقية زعماء حزب تركيا الفتاة. وقد ذهب جمال باشا إلى الميدان قائداً للجيش العثماني الرابع، المرابط في سورية وفلسطين. وفي 15 كانون الثاني (يناير) 1915 بدأ الزحف نحو مصر لشن هجوم مفاجئ عليها عبر قناة السويس.

ومرة أخرى أهملت المشاكل اللوجستية. وقد كانت طرق سورية وفلسطين من السوء إلى حد أن المركبات التي تجرها الخيول لم تستطع أن تسلك الكثير منها [189]، أما مفاوز صحراء سيناء فقد كانت بلا مسالك. ومع ذلك فقد برهنت روح الجندي العثمانية على قيامها بمعجزات من طاقة التحمل والشجاعة. وقد نجحت القوات العثمانية بشكل ما في نقل الجنود والمعدات من سورية إلى السويس. وقام كريس فون كريسنشتاين، وهو

ضابط مهندس الماني، بحفر آبار على طول الطريق التي سلكتها هذه القوات وبذلك تمكنت من البقاء على قيد الحياة خلال مسيرتها عبر الصحراء. وقد اختير هذه المرة الوقت المناسب من أشهر السنة؛ ذلك أن شهر كانون الثاني (يناير) هو أفضل الشهور في مصر لتجنب الحر اللاهب.

ولكن ما أن وصل الجيش الرابع الى ضفاف قناة السويس حتى اكتشف جمال باشا أن معظم جنوده لا يستطيعون استخدام الجسور العائمة التي جيء بها من أجل عبورهم الى الضفة الأخرى. وكان المهندسون الألمان قد جاؤوا بهذه الجسور من ألمانيا، ولكن الجنود لم يتدربوا على استعمالها. ومع ذلك أصدر جمال باشا أمره ببدء الهجوم. وفي وقت مبكر من صباح 3 شباط (فبراير)، وقبل بزوغ الفجر بدأ الهجوم، فاستيقظ البريطانيون وراء استحكاماتهم ليكتشفوا وجود جيش عثماني على الضفة المقابلة للقناة الضخمة، ففتحوا النار عليه من أسلحتهم المتفوقة. وقد بلغ عدد قتلى الجيش العثماني في المعركة ألفي جندي - أي نحو عشرة بالمئة من قوات جمال باشا. عندها أصدر جمال باشا أمره بالتراجع ولم تتوقف قواته في تراجعها حتى وصلت الى سورية [190].

وهكذا أصبحت القيادة العسكرية التركية موضع تهكم. وقد قال أوبري هيربرت في رسالة كتبها من فندق شبرد في القاهرة إلى صديقه مارك سايكس قائلاً: إن آخر خطة عثمانية كانت تقضي:

بأن يحضر الأتراك آلاف الجمال الى حافة القناة ثم يشعلوا النار في وبرها. وعندئذٍ تستخدم الجمال ما عرفت به من حسن تدبير فتندفع إلى مياه القناة لاطفاء النار، وما أن تفعل الجمال ذلك بأعداد كافية حتى يعبر الجنود الأتراك القناة على ظهورها» [191].

وفي لندن استخف رئيس الوزراء بالغزو العثماني قائلاً: «لقد حاول الأتراك أن يقيموا جسراً عبر قناة السويس وأن يشقوا بعقريتهم طريقاً الى مصر. إن هؤلاء المساكين وجسرهم المزعوم قد تحطموا شر تحطيم وتقهقروا عبر الصحراء» [192].

## (2)

كان أنور باشا يفترض أن الحرب قصيرة وأنها ستحسم ببضع حملات صاعقة. ولم تكن لديه خطة لحرب استنزاف ولا فهم ما تنطوي عليه حرب كهذه. ولم تكن عنده موهبة التنظيم ولا فهم للأمور اللوجستية ولا أناة للإدارة. وبصفته وزيراً للحربية قاد بلاده دون تفكير الى الفوضى [193].

بدأ ذلك بإصداره أمراً إلى سائر الرجال القادرين على حمل السلاح في سائر ممتلكات الامبراطورية للمثول من أجل تجنيدهم في الجيش فوراً، على أن يحضروا معهم طعاما يكفيهم ثلاثة أيام. ولما مثلوا وفقاً للأمر الصادر إليهم - بعبارة أخرى وصلوا جميعاً في الوقت عينه - ضاقت بهم مكاتب التجنيد التي لم تستطع التعامل مع هذا العدد الكبير في آن واحد. وبما أن هؤلاء المجندين جاؤوا من المناطق الريفية فقد استنفدوا الطعام الذي جاؤوا به ليكفيهم ثلاثة أيام ولم يعد لديهم ما يأكلون. وسرعان ما بدأوا يتسللون هاربين، فاعتبروا فارين، وخافوا العودة الى مكاتب التجنيد وإلى بيوتهم.

إن جلب الطاقة البشرية من الريف أدى الى تدمير محصول كان يمكن أن يكون وافراً في عام 1914. واستمرت هذه الحال طوال الحرب، إذ أن سحب الرجال ومصادرة حيوانات النقل جلباً للبلاد المجاعة في سني الخير وسني المحل. وخلال سني الحرب تدنت إمدادات حيوانات النقل فانخفض عدد الخيول إلى 40 بالمئة وعدد الثيران والجاموس الى 15 بالمئة مما كان عليه سابقاً. وتقلص النشاط الزراعي بالنسبة المثيرة نفسها فانخفضت المساحة المزروعة حبوباً إلى النصف والمساحة المزروعة قطناً الى ثمانية بالمئة من مستوى إنتاج ما قبل الحرب. وأصبح التحكم بالمؤن النادرة من مواد غذائية وسلع أخرى مفتاح الثروة والسلطة. فكان في العاصمة القسطنطينية بامتدادها الواسع زعيم سياسي من طراز رؤساء عصابات شيكاغو يحارب المدير العام للقوميساريا التي عينها أنور باشا لإدارة الاقتصاد.

أما نظام النقل في الامبراطورية، فقد حطمته الحرب. وفي غياب السكك الحديدية والطرق الصالحة للاستخدام كان معظم البضائع في الماضي ينقل بحراً. أما الآن فإن سواحل الامبراطورية وطولها 5000 ميل أصبحت تحت رحمة مدافع أساطيل الحلفاء. وفي الشمال سحب الألمان والأتراك البارجتين غوبين وبرسلاو من أجل الدفاع عن الدردنيل، تاركين البحر الأسود للبوارج الروسية التي بنيت حديثاً. أما البحر الأبيض المتوسط فكان تحت سيطرة الأسطولين الفرنسي والبريطاني. وقطعت سفن الحلفاء الطريق

على تمويل العثمانيين بالفحم الحجري، فأصبح اعتماد الامبراطورية العثمانية في احتياجاتها من الوقود على التموينات الهزيلة التي أمكن نقلها براً من ألمانيا.

وعشية نشوب الحرب لم يكن في الامبراطورية العثمانية، وتعداد سكانها 25 مليون نسمة، سوى 17 ألف عامل صناعي. ولأسباب عملية لم يكن في البلاد صناعة [194]، كل ما كان فيها هو الزراعة التي حل بها الخراب الآن. ومع انتهاء الحرب انخفضت تجارة التصدير إلى الربع وتجارة الاستيراد الي عشر ما كانت عليه.

كان الباب العالي يعاني من عجوزات ضخمة في الميزانية خلال سنوات الحرب، وبدافع اليأس أخذ يصدر عملات ورقية جديدة لتسديد هذا العجز، فبلغ ارتفاع الأسعار في الحرب نسبة 1675 بالمئة.

وما لبثت الحرب أن جعلت الاقتصاد العثماني ينحدر الى الحضيض، ولم تكن لدى حكومة تركيا الفتاة أية فكرة بشأن معالجة هذا الوضع.

# الفصل الثاني

## كيتشينر يسمح لبريطانيا بمهاجمة تركيا

### (1)

واجهت الحكومة البريطانية بدورها مشاكل غير متوقعة ولم تكن لديها فكرة عن كيفية معالجتها. فعندما بدأت الحرب لم يخطر لأحد في بريطانيا أن الجيوش المتحاربة ستحفر خنادقها عبر أوروبا الغربية. أما وقد حدث ذلك فلم تكن لدى أحد في بريطانيا فكرة عن كيفية اختراق خطوط العدو.

ومع انتهاء عام 1914 وبداية عام 1915 ازداد استياء مجلس الوزراء البريطاني من طريقة إدارة الحرب. وبدا أن استراتيجية اللورد كيتشينر القاضية بتركيز كل القوات في أوروبا الغربية لا تعطي أي أمل في النصر في المستقبل المنظور. وكان ديفيد لويد جورج، أحدق السياسيين في مجلس الوزراء، هو أبرز الأعضاء المتطلعين إلى مخرج من هذه الحال.

كان لويد جورج أقوى السياسيين في حزب الأحرار وفي مجلس الوزراء بعد اسكويث، ولم يكن بالشخص المستعد عن طيبة خاطر للذهاب إلى قعر اليم في سفينة غارقة. فقد كان في المقام الأول شخصاً قادراً على النجاة: وسيتبين بعد ذلك بسنين أنه كان الوزير البريطاني الوحيد الذي نجح في البقاء في مجلس الوزراء منذ نشوب الحرب وحتى نهايتها.

أن هذا الساحر السياسي والنشط القادم من ويلز كان، في زمنه، المخطط الاستراتيجي الأول - وبعضهم يقول الانتهازي الأول - وقد كتب أحد معاصريه يقول: «بالنسبة إلى لويد جورج لا سياسة دائمة ولا تعهد نهائياً. أن التواءات سياسته جعلته يطلب التأييد من جماعة ثم يطلبها من جماعة أخرى، بحيث أصبح شبيهاً بمن يتنقلون من صهوة حصان إلى صهوة حصان آخر في السيرك، إذ أنه كان مضطراً للقفز من ظهر حصان إلى آخر» [195]. وقد عرف بتلونه حتى أن أحد المعجبين به قال إن الصدق عنده ليس خطأ مستقيماً بل هو على الأرجح خط منحني [196]. أما هو فقد تحدث عن نفسه



قائلاً: «ما آمنت قط بهجوم مجابهة لا في الحرب ولا في السياسة إذا ما كانت أمامي طريق للالتفاف» [197].

وما من وزير كان أكثر منه شعوراً بالإحباط بسبب الطريقة التي اتبعها قادة الحلفاء العسكريون في خوض الحرب في فرنسا والفلاندرز: أي أسلوب الهجمات المباشرة الميؤوس منها على مواقع العدو المتحصن في خنادقه، وكلما سعي لإيجاد مخرج ما وجد طريقه مقفلاً إما من قبل وزارة الحربية المعبرة عن آراء الجنرالات البريطانيين وإما من قبل وزارة الخارجية المعبرة عن آراء حلفاء بريطانيا.

كان لويد جورج منذ البداية يتطلع الى حل في الشرق. وكان هو أحد محبزي الدخول في تحالفات مع دول البلقان، ولا سيما مع اليونان، من أجل الحاق الهزيمة بالإمبراطورية العثمانية والالتفاف على ألمانيا. وقد وافقه وزراء آخرون وكذلك موريس هانكي، سكرتير مجلس وزراء الحرب وأكثر الموظفين المدنيين نفوذاً. إن المذكرة التي رفعها هانكي بتاريخ 28 كانون الأول (ديسمبر) 1914 مقترحةً الهجوم على الدردنيل بالتعاون مع حلفاء من دول البلقان، تضمنت بصورة مقنعة الحجج التي تسند اعتقاد مجلس الوزراء بأنه: «ربما كان بالإمكان ضرب ألمانيا بصورة أشد فاعلية وبنتائج أكثر ديمومة بالنسبة للسلام العالمي، عبر حلفائها وخصوصاً عبر تركيا» [198].

غير أن وزير الخارجية إدوارد غراي حال دون الأخذ بهذا الأسلوب. ويقول زملاء لويد جورج في الجناح اليساري لحزب الأحرار، إن غراي هو الذي أسقط البديل الذي كان متاحاً لبريطانيا بالبقاء محايدة في الحرب. وهم يدعون أنه فعل ذلك نتيجة الترتيبات السرية التي اتفق عليها مع فرنسا قبل الحرب [199][200]. (لقد كتب الفيلسوف برتراند راسل فيما بعد يقول: «كنت قد لاحظت خلال السنوات السابقة إلى أي حد كان إدوارد غراي حريصاً على الكذب لكي يحول دون اطلاق الرأي العام على الأساليب التي اتبعها لالزامنا بتأييد فرنسا في حال نشوب الحرب» [201]). ومرة أخرى كان غراي، الذي سبق أن أجرى ترتيبات سرية قبل الحرب مع روسيا بشأن الدردنيل، هو الذي اخذ الآن يحتاج قائلاً إن مطالب الحلفاء بالحصول على مكاسب إقليمية بعد الحرب إنما تحول دون زج دول البلقان في الحرب. لقد كانت وجهة نظر وزارة الخارجية البريطانية ليس فقط أن التنافس بين بلغاريا وكل من رومانيا واليونان يجعل أي تحالف يضم هذه الدول الثلاث تحالفاً غير عملي، بل كانت وجهة نظرها أيضاً أن الحصول على مساعدة اليونان من أجل الاستيلاء على القسطنطينية أمر غير مقبول لأنه سيغضب الروس.

ومع ذلك كان ثمة اتفاق بين الأميرالية، ووزارة الحربية ومجلس الوزراء أنه ليس بالإمكان الاستيلاء على القسطنطينية بواسطة الأسطول البريطاني وحده، وأنه لا بد من اشتراك جيش في الاستيلاء عليها، فإذا لم يكن مسموحاً للجيش اليوناني أو جيش آخر من جيوش دول البلقان أن يقدم المساعدة فلا بد من الاستعانة بالجيش البريطاني. ولكن اللورد كيتشنر ساند قادة الحلفاء في الميدان الذين تمسكوا بعدم نقل أي عدد من الجنود من خنادقهم في الجبهة الغربية حتى يتم كسب الحرب في أوروبا.

وعلى الرغم من النظرة المتفائلة التي أبدتها قادة الحلفاء في الميدان، لم يظهر في الأشهر والسنوات الأولى من الحرب ما يوحي للأعضاء الرئيسيين في مجلس الوزراء أن كسب الحرب على الجبهة الغربية وشيك أو أنه يمكن كسبها. ففي السابع من تشرين الأول (أكتوبر) 1914 ذكر اسكويث أن كيتشنر «يظن أنه ليس أمراً بعيداً عن الاحتمال أن تصل الجيوش الكبرى المتواجدة، ربما خلال بضعة شهور، إلى ما يشبه المأزق»<sup>[202]</sup>. وفي نهاية شهر كانون الأول (ديسمبر)، راي ونستون تشرشل (وقد باح بذلك إلى رئيس الوزراء): «إن ثمة إمكانية ألا تكون لأي من الجانبين القدرة على اختراق خطوط الجانب الآخر في مسرح الحرب الغربي». وفي الوقت نفسه أستبعد لويد جورج، في مذكرة لزملائه في مجلس الوزراء، إمكانية حدوث اختراق على الجبهة الغربية، لأن حدوثه «مستحيل»<sup>[203]</sup>.

لم يعرف التاريخ حالة تشبه حالة حرب الخنادق التي نشأت بنت ساعتها في خريف عام 1916، ومع أن كيتشنر رأى المشكلة بعين بصيرته، فقد اعترف أنه لا يرى حلاً لها. ذلك أن دول التحالف ولا ودول أوروبا الوسطى حشدت جنود في خطين متوازيين من التحصينات التي ما لبثت أن امتدت ومن المحيط الأطلسي إلى جبال الألب، وبذلك أغلق كل من الجانبين اغلاقاً محكمة الطريق أمام الجانب الآخر.

لم يعرف التاريخ حالة تشبه حالة حرب الخنادق التي نشأت بنت ساعتها في خريف عام 1914، ومع أن كيتشنر رأى المشكلة بعين بصيرته، فقد اعترف أنه لا يرى حلاً لها. ذلك أن دول التحالف ودول أوروبا الوسطى حشدت جنوداً في خطين متوازيين من التحصينات التي ما لبثت أن امتدت من المحيط الأطلسي إلى جبال الألب، وبذلك أغلق كل من الجانبين اغلاقاً محكماً الطريق أمام الجانب الآخر.

لقد بدأت حرب الخنادق باعتبارها مباراة في طاقة التحمل وانتهت باعتبارها سباقاً من أجل الأرض فيما طوله نحو 35,000 ميل من الخنادق التي حفرت، بحالة من القذارة الشديدة، وتبادل القصف المدفعي بغير انقطاع، وكان هذا القصف يقترن بهجمات انتحارية عقيمة على الأسلاك الشائكة

ومرايض المدافع الرشاشة من كل جانب على الجانب الآخر، فكان الوضع أشبه ما يكون بوجود فريقين أحدهما فريق من المحكوم عليهم بالإعدام، والآخر فريق تنفيذ الإعدام، وهذا الفريق يؤدي مهمته كلما شن الفريق الآخر هجوماً من هجماته المتكررة، دون أن يكسب أي من الجانبين أرضاً من الجانب الآخر. كانت حلقة مقفلة.

واتجه الوزراء المدنيون إلى الحكيم العسكري الذي في وسطهم طلباً للتوجيه، ولكن هذا الحكيم كان أحياناً يصمت صمتاً مزعجاً وكان أحياناً أخرى يتلفظ بكلام يقوض الإيمان بقدرته على التنبؤ. ولسوء الحظ أن فيتزجيرالد لم يكن له حضور في مجلس الوزراء ليتولى الكلام والاستماع نيابة عنه، وكان الفيلد مارشال / كيتشنر يجد دوماً صعوبة بالغة في شرح وجهات نظره العسكرية حتى لأقرب المقربين من زملائه. أما في حضور الذين كان يخشاهم - الغرباء والمدنيين والسياسيين - فكان ينعقد لسانه عن الكلام. ولكي يقطع حبل الصمت كان يشرع أحياناً في أحاديث عن أمور غير عسكرية لا يفقه فيها شيئاً. فكان يتحدث عن أيرلندا إلى الزعيم الأيرلندي كاريسون، وعن ويلز إلى لويد جورج، فيصاب كلاهما بالدهشة إذ يجدانه جاهلاً أحمق.

كان في داخله قدر من النبوغ، ولكنه لا يظهر إلا في المناسبات. وبعد الحرب بسنوات، تراجع لويد جورج عن رأي كان أبداه بأن كيتشنر «يتكلم كلاماً سخيفاً»، فقال:

«كلا؛ بل هو فنار (دوار) عظيم، فقد كان شعاع ذهنه ينتشر أحياناً، فيرينا أوروبا والجيوش المحتشدة في منظور واسع غير محدود حتى ليشعر المرء منا أنه ينظر إلى قلب الواقع - ثم يختفي الشعاع أسابيع فإذا هناك ظلام دامس» [204].

إن فشل كيتشنر في أن يدلّهم على مخرج من هذه الحالة المستعصية قد دفع بقاءة البلاد المدنيين إلى ابتكار خطط من عندهم، وقد تشابهت هذه الخطط من حيث إنها كلها ارتأت الالتفاف على الجبهة الغربية المنيعّة من أجل مهاجمة الألمان من الشمال أو الجنوب أو الشرق. كانت نظرية القادة العسكريين تقضي بمهاجمة العدو في أقوى مواقعه، أما نظرية السياسيين فكانت بمهاجمته في أضعف مواقعه.

وقد مال لويد جورج في تفكيره إلى التعاون مع اليونان في منطقة جنوب شرقي أوروبا، وهي منطقة ضعف. أما تشرشل فقد اقترح، بإيحاء من الأميرال اللورد فيشر (وكان تشرشل قد استدعاه بعد تقاعده للخدمة بصفة لورد البحرية الأول) إنزال قوة على إحدى الجزر في شمال غربي أوروبا

قرب ساحل ألمانيا على بحر البلطيق. بيد أن موريس هانكي اكتسح الجميع بمذكرته المقنعة التي تحمل تاريخ 28 كانون الأول (ديسمبر) 1914.

فقد اقترح هانكي أن تحرك بريطانيا ثلاثة فيالق لتشارك هذه الفيالق مع اليونان وبلغاريا ورومانيا في مهاجمة تركيا من الدردنيل وبالتالي احتلال القسطنطينية وإلحاق الهزيمة بحليفتي ألمانيا، الإمبراطورية العثمانية وإمبراطورية آل هابسبورغ. وقال انه يجب أولاً تذليل مشكلة التوفيق بين بلغاريا وكل من اليونان ورومانيا، ولكنه أعرب عن اعتقاده بإمكانية ذلك نتيجة لمشاركة الحلفاء العسكرية في الحملة وتقديم ضمانات من الحلفاء بأن تحصل هذه الدول الثلاث جميعها على حصة عادلة من غنائم النصر.

ولدي اطلاع تشرشل على المذكرة قال انه سبق أنه دعا هو نفسه قبل شهرين الى هجوم على الدردنيل، ولكن كيتشنر رفض إمداده بالقوة البشرية التي يتطلبها الهجوم، وقال أيضاً إن القيام بهذا الهجوم في كانون الثاني (يناير) سيكون أصعب مما لو نفذ في تشرين الثاني (نوفمبر). وظل تشرشل على اعتقاده بأن مشروع بحر البلطيق هو أكثر وعداً بالنجاح، ولكنه أقر بأنه وهانكي تفكيرهما واحد بدعوتهما الى القيام بعملية التفاف.

بيد أن خطة هانكي لم توضع قط موضع الاختبار، فقد تعثرت في المياه الضحلة المعتادة: امتناع كيتشنر عن تحويل قوات من الجبهة الغربية، وخشية سير إدوارد غراي من احتمال إزعاج روسيا إذا ما زحفت اليونان على القسطنطينية. ولم يكن لدي غراي أمل في التوفيق بين مطالب بلغاريا ومطالب دول البلقان الأخرى، ولكن كان في مقدمة ما جعله يعارض هجوماً يونانياً على الدردنيل خوفه من احتمال نجاح الهجوم، إذ أن اليونانيين إذا ما فتحوا عاصمة إمبراطوريتهم القديمة، القسطنطينية (استانبول)، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في أيام عزها، فمن غير المحتمل أن يتخلوا عنها، بينما روسيا (في رأي غراي) لن تسمح لبلد آخر بالاستيلاء على هذه المدينة، ولو كلفها الأمر أن تنتقل من جانب الى آخر في الحرب.

كان الوضع في أثينا أن رئيس الوزراء فينيزيلوس، الذي عرض عند بدء الحرب أن تدخل بلاده الحرب ضد تركيا، قد بقي على ميله للانضمام الى الحلفاء، في حين أن خصمه السياسي، صهر القيصر الألماني، الملك قسطنطين الموالي لألمانيا، كان يعمل لمنعه من الإقدام على ذلك. ولكن وزارة الخارجية البريطانية بدل أن تلقي بثقلها وراء فينيزيلوس، عارضت، شأنها شأن الملك قسطنطين، دخول اليونان الحرب.

إذا عدنا الى الماضي يبدو لنا واضحاً أنه لو زحف الجيش اليوناني على القسطنطينية في أوائل عام 1915، مدعوماً من الأسطول البريطاني، لوجد العاصمة العثمانية قاصرة عن حماية نفسها. أن العذاب الذي أمضَ ونستون

تشرشل لأن هذا الهجوم لم تتح له الفرصة، يبدو جلياً في عبارات رسالة خطها الى غراي في شتاء عام 1915 ولكنه لم يرسلها إليه:

«أتوسل إليك... إن الإجراءات التي تتسم بفتور الهمة سوف تدمر الجميع، وسيموت مليون رجل عبر إطالة أمد الحرب... يجب ألا توضع أية عقبة على طريق تعاون اليونان معنا - أخشى كثيراً إنك ستخسر اليونان ثم تدفع بالمستقبل كله الى أيدي الروس. إذا حالت روسيا دون مساعدة اليونان لنا فسأبذل قصارى جهدي لحرمانها الحصول على القسطنطينية... حاشية: إذا لم تساند اليونان الحالية - يونان فينيزيلوس - فستجد أمامك يوناناً أخرى تنشق عنا الى ألمانيا»<sup>[205]</sup>.

## (2)

عند بداية عام 1915 غير اللورد كيتشنر رأيه فجأة واقترح أن تهاجم بريطانيا الدردنيل، وكانت القيادة العليا الروسية قد طلبت بإلحاح شن هجوم تحويلي هناك، وخشي أن تخرج روسيا من الحرب إذا لم يلب طلبها - وهذا لو حدث آنذاك لكان مميتة بالنسبة لبريطانيا وفرنسا، إذ أنه كان سيسمح للألمان بتركيز قواتهم كلها في الغرب، غير أن كيتشنر أصر على أن يتولى الأسطول البريطاني وحده القيام بهذا الهجوم وقال انه لن يقدم قوات برية، مهما يكن من أمر فقد سارع الأعضاء المدنيون في مجلس الوزراء الى اغتنام هذه الفرصة بغية الخلاص من استراتيجية الجبهة الغربية التي اعتبروها (خلفاً لرأي جنرالات الحلفاء) حالة ميؤوساً منها.

كان هجوم أنور باشا على القوقاز هو سبب النداء الروسي بطلب المساعدة وبالتالي كان سبب تبدل رأي كيتشنر. ولكن استغاثة روسيا حدثت قبل انتصارها السريع والسهل والحاسم على قوات أنور باشا في كانون الثاني (يناير) 1915. وكان المنطق يقضي بعد سحق الغزو العثماني في ذلك الشهر أن يبلغ الروس اللورد كيتشنر أنه لم تعد ثمة ضرورة لشن الهجوم التحويلي على القسطنطينية - أو كان ينبغي لكيتشنر أن يستخلص هذا الاستنتاج بنفسه. ولكن بدلاً من ذلك ظل قادة بريطانيا طوال شهري كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) يفكرون بالطريقة المثلى لمهاجمة القسطنطينية من أجل إنقاذ روسيا من تهديد تركي لم يعد له وجود.

هكذا بدأت حملة الدردنيل التي قدر لها أن تبدل تبديلاً كبيراً مصائر تشرشل وكيتشنر واسكويث ولويد جورج وبريطانيا والشرق الأوسط.

# الفصل الثالث

## نحو النصر في الدردنيل

### (1)

عندما اقترح اللورد كيتشنر أن يقوم الأسطول البريطاني وحده بالحملة على الدردنيل، كان الرد الذي تلقاه تشرشل من أميرالية الأسطول وفيه ترديد صدى ما كان يقوله كل أنسان مطلع في القيادات العسكرية وفي الحكومة: إن الدردنيل لا يمكن اقتحامه إلا بعملية مشتركة ينضم فيها الجيش الى الأسطول. إن نظرة واحدة على الخريطة تكفي لبيان السبب. فالمضائق التي تمتد 38 ميلاً طويلاً لا يزيد عرضها في أي مكان على أربعة أميال. والسفن الحربية التي تحاول أن تشق طريقها في معاكسة التيار الشديد ستواجه صفوفاً من الألغام أمامها وستواجه أيضاً قصفاً مدفعياً من كلا الشاطئين الأوروبي والآسيوي. وبعد أن تقطع السفن الحربية ثلاثة عشر ميلاً عقب دخولها هذا الممر المائي تصل إلى أضيق النقاط، حيث المسافة بين الشاطئين لا تزيد على 1600 ياردة ويمكن السيطرة عليها بمدفعية قلاع الشاطئ. ولا يمكن إسكات مدفعية الشاطئ وإتاحة الفرصة أمام سفن الأسطول لكس الألغام التي تواجهها إلا إذا استولى جيش مهاجم على الشريط الساحلي.

وبعبارة أخرى كان لا بد من اقتحام قلاع الشاطئ وتدميرها لكي يتاح للأسطول اجتياز المضيق.

اجتمع كيتشنر مع مستشاريه في وزارة الحربية طالباً إليهم أن يعيدوا النظر في موقفهم إزاء فتح جبهة جديدة، ولكنهم ظلوا متشبثين بمعارضتهم توفير قوات برية لهذه الحملة. وقد اجتمع تشرشل بدوره صباح 3 كانون الثاني (يناير) 1915 مع مجموعة الحرب في قيادة الأميرالية لإعادة النظر في الرأي القائل إنه لا يمكن فعلاً القيام بعملية تقع كلها على عاتق الأسطول، آخذين بعين الاعتبار أهمية إبقاء روسيا شريكة في الحرب. وقد طرح في هذا الاجتماع فكرة استخدام سفن حربية قديمة يمكن الاستغناء عنها فحسب. وقررت مجموعة الحرب أن تطلب رأي قائد الأسطول في المنطقة.

وما إن رفع الاجتماع حتى استوضح تشرشل رأي قائد سفن الأسطول البريطاني المرابطة قرب الدردنيل الأميرال ساكفيل كاردن. وقد سأله تشرشل في البرقية التي وجهها إليه: «هل تعتبر اقتحام الدردنيل بسفن الأسطول وحدها أمراً عملياً؟» - وأضاف أن السفن الأكثر قدماً هي التي ستستخدم وإن أهمية هذه العملية تسوغ تحمل خسائر جسيمة [206].

ولدهشة الجميع رد الأميرال كاردن على برقية تشرشل قائلاً إن الدردنيل لا يمكن الاستيلاء عليها بهجوم واحد، ولكن يمكن اقتحامها بعمليات مطولة وباستخدام عددٍ كبيرٍ من السفن [207]. كان الأميرال كاردن في موقع القيادة قرب الدردنيل منذ شهور وآراؤه كانت لها المكانة الأولى في ذلك الحين. وهكذا تغلب مجلس الوزراء على رأي تشرشل - الذي كان يحتاج محبذاً القيام بضربة بحرية في البلطيق بدلاً من مهاجمة الدردنيل - وفُوض بتنفيذ خطة الأميرال كاردن بمهاجمة الدردنيل.

ولم يكن تشرشل معارضاً لخطة الدردنيل وإنما كان فقط يفضل خطة البلطيق. أما وقد اتخذ القرار بشأن خطة الدردنيل فقد انطلق لتنفيذها بكل ما لديه من طاقة وحماسة.



## (2)

كان تشرشل موهوباً من عدة وجوه ولكنه كان يفتقر الى الإحساس بمزاج زملائه وردود فعلهم، ويتغافل عن الأثر الذي يحدثه هو فيهم. وعندما أصدر أوامر يشعر ضباط البحرية انه ينبغي صدورهما عن واحد منهم، فقد أوجد حالة من العداء ضمن المؤسسة لم يكن واعياً لها، ولم يعرف انهم ينظرون اليه على أنه هاوٍ متطفل وأن عدم دقته في استخدام لغتهم التقنية تثير نقيمتهم.

ولم يعرف أيضا (إذ لم يخبره أحد) مدى نفور زملائه في مجلس الوزراء من خلاله الأخرى. فقد كان يثرثر بشأن أفكار تتعلق بوزاراتهم، الأمر الذي اعتبروه تدخلا من جانبه. وكان يستغرق في الكلام الى حد لا يطيقونه. ولم يجرؤ مرؤوسوه ولا زملاؤه أن يخبروه وجهاً لوجه أن العمل معه غالباً ما يكون مستحيلاً. وحتى اللورد فيشر، وهو معبود تشرشل وموجهه في الشؤون البحرية، والذي اختاره تشرشل لورد البحرية الأول، وجد صعوبة في التعامل معه، مع انه ينبغي القول إن المشكلة كانت متبادلة.

إن اللورد فيشر الذي كان نبوغه التوجيهي وذاتيته المفرطة شبيهين بما لدي كيتشنر، قد ارتأى فجأة في 19 كانون الثاني (يناير) أو قبل هذا التاريخ، أن من الغلط إرسال حملة بحرية إلى الدردنيل، ولكنه لم يستطع قط أن يشرح أساس هذا النذير، وبالتالي لم يستطع إقناع تشرشل بتغيير النهج.

كان تأييد حملة الدردنيل في البداية إجماعياً، ولكن بعد ذروة الحماسة حدث تحول من الجزر الى المد، وسرعان ما انعكس الاتجاه في غضون أيام.

وقد شرع موريس هانكي، الذي كان يشبه اللورد فيشر شكواه من تشرشل في شهر كانون الثاني (يناير)، يقيم الدليل على معارضته هو أيضاً للحملة ما لم يشترك فيها الجيش. ولما كان هانكي أمهر البيروقراطيين في زمنه، فقد كان أكثر تحسناً من تشرشل نفسه لتيارات الرأي السائدة في قيادة الأميرالية التابعة لتشرشل. ومع حلول منتصف شهر شباط (فبراير) تحقق هانكي من أن رأي الأميرالية قد تحول ضد فكرة القيام بعملية بحرية محض، بالرغم من أن الهجوم كان مقرراً له أن يبدأ في غضون أيام معدودة [208].

في 15 شباط (فبراير) وزع سير هنري جاكسون، الذي كان قبل شهر مضى قد حث تشرشل على تطبيق خطط الأميرال كاردن فوراً، مذكرة قال فيها أن هجوماً يقتصر على الأسطول «ليس بالعملية العسكرية السليمة» [209]. وقد شارك في هذا النقد أيضاً الكابتن هيربرت وليم

ريتشموند، مساعد مدير العمليات الذي كان قد كتب مذكرة في اليوم السابق على المنوال عينه وأرسل نسخة عنها الى هانكي.

وفي ساعة مبكرة من صباح 16 شباط (فبراير) أرسل اللورد فيشر تحذيراً مماثلاً الى تشرشل الذي أصابه الذهول، مما حمله على أن يطلب جلسة طارئة فورية بمن حضر من أعضاء مجلس الحرب التابع لمجلس الوزراء. وقد كان الوضع الرهيب كما يلي: إن أرمادا الأسطول البريطاني المرابطة قرب الساحل التركي كان محدداً لها أن تبدأ الهجوم في غضون ثمان وأربعين الي اثنتين وسبعين ساعة، ولم يكن باستطاعة هذه الأرمادا أن تؤجل هجومها ما دامت باقية في المنطقة، لأن غواصات العدو قد ترسل بسرعة لإغراقها<sup>[210]</sup>. أما إذا شرعت هذه الأرمادا في الهجوم فإنها ستفشل وفقاً لرأي القيادة البحرية في الأميرالية الذي تبدل فجأة، ما لم ترسل قوة كبيرة من الجيش لدعمها - هذه القوة الذي رفض كيتشنر المرة بعد المرة إرسالها والتي، في أية حال، لا يمكن توقع وصولها في الوقت المناسب حتى لو أرسلت فوراً.

تحدث كيتشنر قبل حضوره مجلس الحرب مع ويندهام ديدز، الضابط الذي خدم في الدرك العثماني قبل الحرب وأصبح الآن ضابطاً في المخابرات مقر عمله في لندن، فسأله رأيه في هجوم بحري على الدردنيل. وكان جواب ديدز انه يرى أن خطة كهذه هي في الأساس خطة غير سليمة.

وما أن بدأ يشرح رأيه هذا حتى احتد كيتشنر وأوقفه عن الكلام وقال له أنه لا يفقه ما يقول وصرفه فوراً.

ومع ذلك فإن اللقاء مع ديدز أحدث تبديلاً في تفكير كيتشنر. فبعد هذا اللقاء ببضع ساعات قال كيتشنر لأعضاء مجلس الحرب انه سيوافق على إرسال الفرقة التاسعة والعشرين - وهي فرقة الجيش النظامية الوحيدة المتبقية في بريطانيا - الى بحر إيجه لمساندة هجوم الأسطول. إضافة إلى ذلك يمكن إرسال الجنود الأستراليين والنيوزيلانديين الجدد الذين كانوا قد وصلوا حديثاً إلى مصر إذا اقتضت الضرورة. وكانت الخطة، التي استجابت الآن لمتطلبات فيشر وجاكسون وريتشموند وغيرهم، هي أنه ما أن تكسب سفن الأسطول معركة المضائق حتى تتبعها القوات البرية لتحتل الشاطئ المجاور ومن ثم تحتل القسطنطينية. وقد جاء في أسطر كتبت في مفكرة «كانت كلمات اللورد كيتشنر الى وينستون: اعبر المضائق! ساجد الرجال»<sup>[211]</sup>.

كانت للخطة مثالبها. فإذا كان المدافعون الأتراك لديهم القيادة الكفاء والكفاية من الذخيرة فلا بد من هجوم مشترك من قبل الأسطول والقوات

البرية. وبدلاً من أن ينتظر الجيش حتى يريح الأسطول المعركة كان عليه أن يساعد في مهاجمة قلاع الدردنيل. أن موريس هانكي المدني رأى هذا الأمر بوضوح، أما قادة الأسطول والجيش فلم يروه.

في 22 شباط (فبراير) أصدرت الأدميرالية بلاغاً عاماً يعلن بدء الهجوم على الدردنيل ويصف الهجوم وصفاً تفصيلياً، ونشرت الصحف النبأ مركزاً الانتباه على الهجوم ومثيرة التوقعات لدى الرأي العام. ومما قالته جريدة التايمز: «إن القصف من البحر لن يسير بهذا المشروع بعيداً جداً ما لم يترافق مع هجوم من القوات البرية» وقالت محذرة: «إن الشيء الوحيد الذي لا يملك الحلفاء المجازفة به هو فشل هجوم مركز على الدردنيل» [212].

وأصدر كيتشنر بدوره تحذيراً مماثلاً إلى زملائه في مجلس الوزراء. ومع أنه كان في الأصل قد اقترح «التخلي عن القصف البحري إذا لم يكن فعالاً» [213] فقد بدل رأيه عندما قدم لويد جورج حججه داعياً إلى التمسك بالخطّة ( «إذا فشلنا في الدردنيل ينبغي لنا أن نكون مستعدين فوراً لتجربة شيء آخر» ) وقد استشهد وزير الحربية في اجتماع مجلس الحرب بتاريخ 24 شباط (فبراير) ببلاغ الأدميرالية باعتباره سبب تبديل رأيه. «إن تأثير هزيمة في الشرق سيكون بالغ الخطورة. فلا مجال للتراجع. إن صدور البلاغ العلني قد رتب علينا التزاماً». وقال انه في حالة فشل الأسطول «ينبغي للجيش أن يكمل العمل» [214].

في أول الأمر اقترح إرسال الأسطول. والآن قرر إرسال الجيش. لقد سمح كيتشنر، دون أن يقصد، بجر بريطانيا خطوة خطوة إلى اشتباك كبير في الشرق الأوسط.

### (3)

كان الأتراك يتوقعون من تشرشل أن يهاجم الدردنيل، ولكنهم آنذاك لم تتوفر لهم وسيلة الدفاع عنه. ولم يعلم هذا السر أحد من البريطانيين حتى ويندهام ديدز - وهو عادة حسن الاطلاع على الشؤون العثمانية - مع أن الألمان كانوا يعرفون السر تمام المعرفة. فعند بدء الحرب، شرعت القوات العثمانية ومستشاروها الألمان بتعزيز القلاع على كلا جانبي مضائق الدردنيل، وإذا بجهودهم تذهب سدى بسبب الافتقار إلى الذخائر. وقد علمت برلين في نهاية عام 1914 وبداية عام 1915 أن ما هو متوفر من الذخائر في المضائق يكفي لخوض اشتباك واحد فقط، وأن بعض الزوارق الحربية العثمانية لديها من القذائف ما يكفي كلا منها مدة دقيقة واحدة فقط.

خلال الأسابيع الستة التي أعقبت ذلك، تلقت القيادة العليا العثمانية عدداً من تقارير المخابرات التي دلت على أن وقوع هجوم بحري من قبل الحلفاء على المضائق كان وشيكاً. وقد وردت بتاريخ 15 شباط (فبراير) 1915 معلومات مفصلة عن حشد من السفن البحرية البريطانية والفرنسية في شرق البحر الأبيض المتوسط.

صباح 19 شباط (فبراير) أطلقت البوارج البريطانية بقيادة الأميرال كاردن القذائف الأولى في الحملة على الدردنيل. وقد رأى السفير الأميركي لدى تركيا أن نجاح القوات الحليفة بدا أمراً محتوماً، وظن سكان القسطنطينية أن مدينتهم ساقطة لا محالة في غضون أيام [215].

وبدافع القنوط خطر للباب العالي أن يطلب مساعدة روسيا، عدو تركيا على مدى الزمن. وبعد بدء الهجوم البريطاني بيوم واحد اقترح السفير التركي لدى ألمانيا قيام تحالف روسي - تركي - ألماني: كان اقتراحه أن تعرض تركيا على روسيا حرية المرور في الدردنيل لقاء انتقالها من جانب إلى آخر في الحرب [216]. وقد شرح الصدر الأعظم التركي وجهة نظر حكومته في الأمر للسفير الألماني في القسطنطينية فقال: «ينبغي عقد صلح مع روسيا لنتمكن عندئذ من ضرب إنكلترا ضربة أشد» [217]. ونقل الألمان الاقتراح إلى روسيا ولكنه لم يسفر عن أية نتيجة.

وهكذا بدا للأتراك أنه لا مفر من أن يخسروا معركة المضائق.

إن هدير مدافع الأسطول البريطاني عند مدخل الدردنيل كان له صدى سياسي في عواصم بلدان البلقان ذات المواقع الاستراتيجية الهامة. ففي أثينا وبوخارست وِصوفيا أخذ السياسيون يتحركون متجهين صوب معسكر

الحلفاء. وكان جلياً أن هذه البلدان جميعها، وحتى بلغاريا، ستدخل الحرب الى جانب دول التحالف إذا ما نجحت حملة الدردنيل [218]. وكان لويد جورج لا يفتأ يردد حجته القائلة أن بريطانيا قادرة، إذا ما كسبت بلدان البلقان حليفة لها، أن تضع نهاية للحرب عن طريق الزحف عبر إمبراطورية النمسا - المجر الساخطة، وغزو ألمانيا من الجنوب الخالي نسبياً من وسائل الدفاع.

عندما شرعت سفن الأسطول البريطاني المدعومة بمجموعة فرنسية، إطلاق النار من مدى بعيد صباح 19 شباط (فبراير)، لم تكن بطاريات مدفعية الساحل التركية عند مدخل الدردنيل تتمتع بالمدي الكافي للرد على النار. وقد أمر الأميرال كاردن سفنه بأن تقترب أكثر الى الشاطئ بغية إلحاق المزيد من الأضرار بتحصينات الشاطئ التركية. في تلك الليلة تبدلت حالة الجو، واضطر الأسطول الى وقف عملياته خمسة أيام بسبب ضعف الرؤية والعواصف الثلجية. ثم استؤنف الهجوم في 25 شباط (فبراير)، وقد وجد رماة البحرية البريطانيون الذين تم إنزالهم على البر عند طرف شبه الجزيرة، أن القلاع القائمة عند مدخل المضائق قد هجرت، إذ انسحب الأتراك والألمان الى المضائق نفسها حيث كان تركيز المدفعية للدفاع عن الدردنيل.

أرسلت البعثة البريطانية في صوفيا تقريراً مفاده أن الجيش البلغاري قد يشترك في الهجوم على تركيا. كما أن رئيس وزراء رومانيا ذكر لممثل بريطانيا في بوخارست أن بلاده صديقة للحلفاء، وليس هذا فحسب، بل «إن إيطاليا أيضاً ستتحرك سريعا» [219]. وفي أوائل آذار (مارس) تلقى تشرشل، مبتهجاً ومنتشياً، برقية سرية من فينيزيلوس - وكان لا يزال رئيساً للوزراء - يعد فيها بأن تؤيد اليونان الحلفاء وأن تسهم بثلاث فرق من جيشها لاحتلال غاليبولي، كما أن الملك قسطنطين ذا الهوى الألماني مستعد - وفقاً لبرقية فينيزيلوس - للانضمام إلى الحلفاء [220].

كان الجو يعبق برائحة النصر. ومع أن تشرشل كان مصاباً بالأنفلونزا، فقد كان مزهواً. وقال مخاطباً فيوليت اسكويث، ابنة رئيس الوزراء: «أظن أن لعنة ستحل الفرط سعادتي، أنا أعرف أن هذه الحرب تزهق الأرواح وتدمر حياة الآلاف كل لحظة - ومع ذلك - لا يسعني إلا أن أمتع النفس بكل ثانية أحيائها» [221].

في 4 آذار (مارس) تلقى تشرشل برقية من الأميرال كاردن قال فيها أنه يمكن توقع وصول الأسطول الى القسطنطينية في نحو أربعة عشر يوماً، إذا سمحت حالة الجو [222]. وهكذا قفز مصير الإمبراطورية العثمانية بعد

الحرب الى رأس جدول الأعمال الدولي، حتى أن الإيطاليين، الذين لم يكونوا قد دخلوا الحرب بعد، بدؤوا يطالبون «بحصتهم في تقسيم تركيا الذي سيلبي الحرب» [223]. ويبدو أن تشرشل استشعر أن هذه المطالبات سابقة لأوانها: ففي رسالة مكتومة إلى وزير الخارجية اقترح تشرشل وجوب الاستيلاء على تركيا الأوروبية على أن يملي الحلفاء شروط هدنة تقضي ببقاء آسيا العثمانية في أيدي العثمانيين مؤقتاً على أقل تقدير [224].

ظل الأميرال فيشر وحده متشككاً بضعة أيام أخرى. فقد كتب يقول: «كلما ازددت تفكيراً في حملة الدردنيل قلت رغبتني فيها!» [225]. ولكنه هو أيضاً طرأ تحول على تفكيره عندما كشفت برقيات لاسلكية ألمانية التقطت في 10 آذار (مارس)، عن أن ما تبقى من قلاع الدردنيل، ومن ضمنها القلاع الرئيسة المتحكمة بالمضائق، توشك أن تستنفد ما لديها من الذخائر. وهكذا فإن فيشر، بدفق مفاجئ من الحماسة الشديدة اقترح أن يتوجه الى بحر إيجه وأن يتولى شخصياً قيادة الأسطول، لقد بدأ التهافت على اكتساب الفضل في النصر المقبل.

ذات مساء بعد مأدبة عشاء - وهي مناسبة اجتماعية نادرة بالنسبة لوزير الحربية - تحدثت فيوليت اسكويث الى اللورد كيتشنر فقالت له إن تشرشل هو من يستحق التكريم بالنصر. وقالت:

«إذا نجحت عملية الدردنيل فإن ونستون سيكون جديراً بأن ينسب اليه وحده كل الفضل. فقد أظهر الكثير من الشجاعة والثبات في حمل المسؤولية طوال كل التذبذب الذي أبداه فيشر والآخرين». وقد كتبت في مفكرتها أن «اللورد كيتشنر أجاب غاضباً: لا شيء من ذلك - فقد كنت دوماً محبذاً بقوة للأمر» [226].

# الفصل الرابع

## طمع روسيا في تركيا

### (1)

كان إلحاح روسيا هو الذي دفع كيتشنر وتشيرشل الى القيام بحملة الدردنيل، ولكن عندما بدا وكأن الحملة سيحالفها النجاح، دب الفرع في نفس حكومة القيصر الروسي. قد يبدو انتصار الحلفاء في الدردنيل مناسبة للابتهاج، ولكنه سيعني أن القسطنطينية ستقع في أيدي البريطانيين - وفجأة انتعشت في أذهان الروس مخاوف وضغائن اللعبة الكبرى التي دامت قرناً من الزمن. وكانت الحكومة الروسية تخشى أن يقرر البريطانيون الاحتفاظ بالقسطنطينية إذا ما استولوا عليها.

بتاريخ 4 آذار (مارس) 1915 أرسل وزير الخارجية الروسي، سيرجي سazanوف، برقية سرية إلى لندن وباريس متضمنة رسالة من القيصر نقولا الثاني، يطلب فيها إلى الحلفاء أن يسلموا روسيا القسطنطينية والمضائق والأراضي المحاذية لها. ومقابل ذلك وعد القيصر وسazanوف بأن يصغيا بتفهم وتعاطف الى خطط بريطانيا وفرنسا بشأن طموحاتهما الوطنية في مناطق أخرى من الإمبراطورية العثمانية وفي أماكن أخرى.

في باريس قوبل الطلب الروسي بشعور من الفرع. فقد كانت الحكومة الفرنسية تخشى أن تصبح روسيا باستيلائها على القسطنطينية منافسة لفرنسا في البحر الأبيض المتوسط، ولذلك حاولت أن ترد على روسيا بعبارات غامضة معبرة عن «حسن النية»<sup>[227]</sup>. وقد اقترح ديكلاسيه ارجاء البحث في تفاصيل التسوية الإقليمية الى ما بعد مؤتمر الصلح.

أما سير ادوارد غراي فقد زائد على الموقف الفرنسي. فهو بتعاطفه مع حساسيات حلفاء بلاده، وبما أنه كان قد بدّد شكوك فرنسا في نيات بريطانيا إزاء سورية، تحرك الآن لتبديد الشكوك الروسية في نيات بريطانيا إزاء الدردنيل. ولكنه بذلك فتح صندوق باندورا. فإذا منحت روسيا ما تطلبه قبل انعقاد مؤتمر السلام، سيدفع ذلك فرنسا الى تقديم مطالبها، وسيدفع أيضاً كيتشنر الى تقديم مطالبه. ومع أن غراي كان متنبهاً لهذه الأخطار، فقد كانت الأولوية عنده لطمأنة روسيا. وكان رأي وزارة الخارجية البريطانية أن

العناصر الموالية للألمان قد تزعزع موقف وزارة الخارجية في بتروغراد الموالية للحلفاء إذا لم تنل روسيا ما يرضيها في مسألة الدردنيل.

وقد شرح غراي في وقت لاحق كيف أن العناصر الموالية للألمان في البلاط الروسي - هذه العناصر التي كان يبدو أنه يخشاها خشية حقيقية - ستشوه تصوير العمليات العسكرية البريطانية في الدردنيل إذا لم تحصل روسيا على التطمين البريطاني. قال أن هذه العناصر ستصور الوضع على النحو التالي:

«كانت سياسة بريطانيا دائماً تقضي بإبعاد روسيا عن القسطنطينية والمضائق... وبطبيعة الحال ما زالت هذه هي سياستها. وبريطانيا تريد الآن احتلال القسطنطينية لتحرم روسيا من الحصول عليها في مؤتمر الصلح بعد أن تكون بريطانيا وفرنسا، بمساعدة روسيا، قد تمكنتا من كسب الحرب، وإلا فما الدافع إلى إرسال قوات بريطانية إلى الدردنيل في وقت تعاني فيه الجيوش البريطانية والفرنسية من ضغوط شديدة في فرنسا إلى حد أن الجيوش الروسية تقدّم تضحيات لا مثيل لها من أجل انقاذهم؟» [228].

في أي حال، كان غراي واسكويث، زعيما حكومة حزب الأحرار، يميلان إلى تقديم هذا التنازل الذي طلبته حليفة بريطانيا في الحرب. وبما أنهما من ورثة التقليد السياسي الذي بدأه غلادستون، فقد كانا معادين لتركيا متعاطفين مع الأمانى الروسية، وكان بوسعهما أن ينوها بالاستنتاج الذي توصلت إليه لجنة الدفاع الامبراطوري في عام 1903 خلال حكومة المحافظين، وهو أن استبعاد روسيا من القسطنطينية، لم يعد يمثل مصلحة بريطانية حيوية.

وقد كتب رئيس الوزراء عند بدء الحرب العثمانية قائلاً: «قليلة هي الأشياء التي تمنحني سروراً أكبر من سروري برؤية الامبراطورية التركية تختفي نهائياً من أوروبا ورؤية القسطنطينية وقد أصبحت روسية» (وهذا ما أظن أنه قدرها المناسب) وإذا لم يكن هذا ممكناً فلتكن محايدة» [229].

وفي آذار (مارس) 1915 عندما أثير الموضوع، كتب مبدياً رأيه في القسطنطينية والمضائق فقال:

«لقد أصبح واضحاً تمام الوضوح أن روسيا عازمة على ضمها إلى أراضيها الأوروبية»، وأضاف أنه: «شخصياً كان ولا يزال محبذاً لمطلب روسيا...» [230].

إن ما كان يجهله بقية أعضاء مجلس الوزراء هو أن سير ادوارد غراي قد رتب فعلاً التزاماً على بلاده بتأييده سيطرة روسيا في نهاية الأمر على



القسطنطينية، إذ كان قدم وعوداً بهذا المعنى الى الحكومة الروسية في عام 1908[231]. وكانت وجهة نظره أن الاستجابة لطموحات روسيا المشروعة في المضائق ستمنعها من الالاحاح على مطالبتها في بلاد فارس وشرق أوروبا ومضائق أخرى.

وكان غراي قبل ذلك بشهر قد رفض تشجيع انقلاب مناوىء لألمانيا في القسطنطينية بهدف إخراج تركيا من الحرب، لأن حدوث هذا الانقلاب سيمنعه من تقديم القسطنطينية الى روسيا[232].

ان ما فعله انما كان منسجماً مع القرارات البريطانية بشأن اليونان ودول البلقان، أي عدم ادخالها الحرب الى جانب الحلفاء لأن ذلك كان من شأنه، حسب قول غراي، «إضعاف صدق عزم روسيا في الحرب»[233].

وقد خالفه تشرشل الرأي. فقد كان معارضاً لاصدار أي شيء أكثر من بيان عام بالتعاطف مع الطموحات الروسية، وكتب الى غراي ليخبره أنه أصدر تعليمات الى الأميرالية بأن تتولى اعداد دراسة عن كيفية تأثير السيطرة الروسية على القسطنطينية والمضائق على المصالح البريطانية.

وقد حث تشرشل على التطلع الى ما وراء هموم الحرب الآنية، وقال محذراً: «هذه الحرب ليست نهاية التاريخ الانكليزي»[234].

وبالرغم من مشورة تشرشل فإن الحكومة البريطانية وافقت، بدافع الخوف المسيطر عليها من أن تسعى روسيا الى صلح منفرد، على الشروط التي اقترحها سazanوف والقيصر الروسي. وقد قبلت بريطانيا (في 12 آذار (مارس) 1915) رسمياً، وخذت فرنسا حذوها متأخرة (في 10 نيسان (ابريل) 1915) الاقتراح السري، مؤكدين أن قبولهما هذا الاقتراح مشروط بتحقيق رغباتهما بشأن الامبراطورية العثمانية ومشروط أيضاً بمتابعة الدول الثلاث الحرب حتى نهايتها المظفرة.

وفي مذكرة بريطانية اضافية، تحمل تاريخ 10 آذار (مارس) 1915، قدم غراي الى سazanوف عدداً من الملاحظات والتحفظات البريطانية الأخرى. فقد نوه بأن روسيا كانت أصلاً قد طلبت القسطنطينية والمضائق بينما هي تطلب الآن الأراضي المحاذية أيضاً. وأشار غراي الى أنه قبل أن تتاح لبريطانيا فرصة اتخاذ قرار بشأن أهدافها الخاصة في الحرب، «أخذت روسيا تطالب بوعده قاطع بتلبية رغباتها في ما يتعلق بما هو في الحقيقة أئمن غنائم الحرب كلها». وقد أكد غراي تكراراً أن الحكومة البريطانية إذ توافق على مقترحات القيصر الروسي، إنما

تقدم أكبر دليل ممكن على صداقتها وإخلاصها لروسيا. وقد كتب يقول انه يستحيل على أية حكومة بريطانية أن تفعل أكثر مما يفعله اسكويث لتلبية رغبات روسيا، لأن الالتزام الذي أخذه على عاتقه للتو «ينطوي على تراجع تام عن السياسة التقليدية لحكومة جلالتة، ويتعارض تعارضاً مباشراً مع الآراء والمشاعر التي كانت سائدة في انكلترا في وقت ما والتي لم تنطفئ حتى الآن».

ومضى غراي شارحاً ما هو متوقع من روسيا أن تقدمه لقاء ذلك، فأوضح أن حكومته لم تحدد بعد معظم أهدافها الخاصة في الشرق، غير أن أحد هذه الأهداف هو إعادة النظر في الاتفاقية الانكليزية - الروسية لعام 1907 على نحو يعطي بريطانيا ذلك الثلث من بلاد فارس الذي ما يزال محايداً إضافة الى الثلث الذي تحتله فعلاً. وأكد أيضاً أن الاتفاق الذي توصلوا اليه للتو بشأن القسطنطينية ينبغي أن يظل سرياً.

وقد أراد غراي أن يبقى هذا الاتفاق سرياً، لأنه كان يخاف من أثره على الرأي العام لمسلمي الهند إذا ما أعلن، إذ كان يخشى أن يرى مسلمو الهند في بريطانيا طرفاً مشاركاً في تدمير آخر دولة اسلامية مستقلة ذات أهمية. ولذلك قال غراي للروس انه سيعمد، إذا نشر الروس مضمون الاتفاقية، إلى التصريح علناً «بأن حكومة جلالتة اشترطت طوال المفاوضات أن تظل الأماكن الإسلامية المقدسة وشبه الجزيرة العربية في كل الظروف تحت سيطرة دومنيون اسلامي مستقل» [235].

وكان رأي غراي أن على بريطانيا أن تعوض المسلمين عن تدمير الامبراطورية العثمانية بإقامة دولة اسلامية في مكان آخر، وانه من وجهة نظر دينية، وبوجود مكة والمدينة، لا يمكن التفكير بإقامة هذه الدولة سوى في شبه الجزيرة العربية. إضافة الى ذلك، كان من السهل إعطاء هذا الوعد، لأن شبه الجزيرة العربية كانت أرضاً لا تشتهيها أية دولة من الدول الكبرى. وقد كتب ديفيد لويد جورج في وقت لاحق يقول: «ما من أحدٍ خطر له أن قوات أجنبية ستحتل أي جزء من شبه الجزيرة العربية. فهي بلاد قاحلة الى حد انها لا تستحق جهد أية دولة تبحث عن فريسة لاحتلالها باعتبارها مرعى دائماً» [236]. ولم يكن معروفاً آنذاك أن هذه الأرض تحتوي على مخزون هائل من النفط.

### (3)

بيد أن شبه الجزيرة العربية لعبت دوراً في الخطط التي أعدها وزير الحربية البريطاني لفترة ما بعد الحرب. ان مطالب روسيا بتاريخ 4 آذار (مارس) 1915 وقبول بريطانيا هذه المطالب بتاريخ 12 آذار (مارس) قد جعلت اللورد كيتشنر يوجه مذكرة الى مجلس الوزراء في 16 آذار (مارس) محذراً من أن «العداوات والضغائن القديمة التي سكنت بسبب الأزمة الراهنة في أوروبا قد تنبعث بعد الحرب»، وان بريطانيا قد تجد نفسها «في حالة عدااء مع روسيا أو مع فرنسا أو مع كليهما» [237]. ان ما كان يتوقعه لم يكن أقل من احياء اللعبة الكبرى. وهو قد حث أيضاً على خلق مملكة مستقلة في شبه الجزيرة العربية تشتمل على مكة والمدينة على أن تكون تحت رعاية بريطانيا. فقد كان أمراً جوهرياً أن تكون كذلك لاعطاء بريطانيا السيطرة على القيادة الروحية للعالم الاسلامي.

كان مخطط كيتشنر الشامل للشرق الأوسط في زمن ما بعد الحرب، يقضي بأن تسيطر بريطانيا انطلاقاً من جزيرة قبرص التي كانت قد ضمتها حديثاً، على طريق برية ملائمة الى الهند، وأمنه من أي محاولة فرنسية أو روسية لقطع هذه الطريق. وبموجب خطة وزير الحربية، كان على بريطانيا أن تستولي على اسكندرون [238]، وهي مرفأً طبيعي كبير على البر الآسيوي مقابل قبرص، ومن ثم بناء خط حديدي يمتد منها الى ولايات بلاد الرافدين (ما أصبح الآن العراق)، هذه الولايات التي يجب على بريطانيا أن تستولي عليها أيضاً. وكان هناك اعتقاد عام (مع أنه لم يكن مدعوماً بالبرهان) ان ولايات بلاد الرافدين تحتوي على احتياطي كبير من النفط، وقد اعتبر تشرشل والأميرالية هذا الاحتياطي امراً هاماً. وكان كيتشنر وغيره يعتقدون أيضاً بأن أراضي بلاد الرافدين العريقة والتي ترويه مياه دجلة والفرات يمكن تنميتها لانتاج محاصيل زراعية وافرة. ولكن كيتشنر كان يرى أن الميزات الرئيسة لاقتراحه هي ميزات استراتيجية. فخط السكة الحديدية البريطاني الممتد من البحر الأبيض المتوسط الى أعلى الخليج الفارسي، سيمكن القوات من الانتقال الى الهند ومنها بسرعة. كما أن المساحة العريضة من الأرض التي تملكها بريطانيا والتي سيجتازها الخط الحديدي، ستوفر درعاً يحمي الخليج الفارسي ويحمي الطريق الى الهند أيضاً. وكان يخشى أن تستولي روسيا على هذه الأرض إذا فشلت بريطانيا في الاستيلاء عليها.

لقد أعد آرثر هيرتزل، من وزارة شؤون الهند، مذكرة مماثلة في الوقت عينه تقريباً مع اختلاف واحد هام، إذ انه حث على دمج ولايات بلاد الرافدين

في امبراطورية الهند<sup>[239]</sup>. وكان يرى في هذه الولايات منطقة يمكن ربحها وجعلها منطقة غنية على يد معمرين من الهند. وبموجب خطته كان سيعهد بإدارة المنطقة الى حكومة الهند وتكون الولاية عليها لوزارة شؤون الهند. وقد بدا واضحاً أكثر فأكثر أن في لندن قوتين متنافستين تصارع احدهما الأخرى من أجل حصة من الامبراطورية العثمانية؛ وهاتان القوتان هما المندوب السامي البريطاني في القاهرة ونائب الملك البريطاني في سيملا.

ومما دعم مذكرتي هيرتزل و كيتشنر الاعتقاد لدى معظم أعضاء الحكومة انه صار في مصلحة بريطانيا أن تقسم الامبراطورية العثمانية وأن تحصل على قطعة كبيرة منها. وكان رئيس الوزراء هو الوحيد عملياً في رؤيته للحاجة إلى تفحص هذا الاعتقاد بدقة. بيد أنه أقرّ بأن السياسيين أمثال تشرشل، الذين يشعرون بأنه ينبغي لبريطانيا أن تخرج من الحرب بمكاسب تعادل مكاسب حلفائها، إنما يتكلمون بلسان الجميع في هذا الموضوع. فقد كتب اسكويث يقول:

«أعتقد، في هذه اللحظة، انني وغراي الوحيدان اللذان تساورهما الشكوك والريب في مثل هذه التسوية. فكلانا نعتقد أن أفضل شيء للمصلحة الحقيقية لمستقبلنا الخاص هو أن يتمكن، عند انتهاء الحرب، من القول... اننا لم نأخذ شيئاً ولم نكسب شيئاً. ولا أقول هذا من وجهة نظر أخلاقية وعاطفية فحسب... بل من منطلق اعتبارات مادية محض. فالاستيلاء على بلاد الرافدين، مثلاً - مع اسكندرون أو من دونها... يعني انفاق الملايين على الري والتنمية بغير مردود فوري أو مبكر، والاحتفاظ بجيش كبير من البيض والملونين في بلد غير مألوف، ومعالجة مختلف المسائل الادارية المعقدة، هذه كلها أسوأ من كل ما تعرضنا له في الهند، ثم هنالك عش الزنابير المؤلف من القبائل العربية»<sup>[240]</sup>.

وقد قال رئيس الوزراء لأعضاء مجلس وزرائه انهم عندما بحثوا مستقبل الأراضي العثمانية كان «بحثهم أشبه بما يدور بين عصبة من القراصنة»<sup>[241]</sup>. ولكن كان مما ينسجم مع طبعه أنه لم يتخذ موقفاً ضدهم. ان ما قاله لمجلس الوزراء هو انه مع تعاطفه مع رأي غراي القائل: «ان لدينا من المناطق قدر ما نستطيع أن نحافظ عليه»، فإنه لا يعتبر نفسه وزملاءه «وكلاء أحراراً» يحق لهم أن يمتنعوا عن أخذ المزيد. فإذا «ما تركنا الدول الأخرى تتهافت على تركيا دون أن نأخذ شيئاً لأنفسنا» فلا نكون قائمين بواجبنا<sup>[242]</sup>.

في المراسلات التي شكلت اتفاقية القسطنطينية، كانت روسيا في الواقع قد تحدّت الدول الغربية أن تحدد مطالبها الإقليمية. وقد قبل اسكويث التحدي: فقد عين مجموعة من مختلف الوزارات برئاسة دبلوماسي مخضرم، هو سير موريس دو بونسين، لدراسة المسألة وتقديم توصيات بشأن ما ينبغي لبريطانيا أن تطلب عند تسوية الصلح العثمانية. كانت هنالك خطوة كبرى أخرى قد اتخذت ومضت الى حد كبير دون أن يلحظها أو يبحثها أحد.

ففي الأيام المئة بين نشوب الحرب مع ألمانيا ونشوب الحرب مع الامبراطورية العثمانية، كانت بريطانيا قد قلبت رأساً على عقب سياستها الخارجية التي انتهجتها على مدى أكثر من قرن بتخليها عن أي التزام بالمحافظة على سلامة وحدة أراضي الامبراطورية العثمانية. أما الآن، وبعد انقضاء مئة وخمسين يوماً على نشوب الحرب العثمانية فقد تحولت حكومة اسكويث الى الرأي القائل ان تقسيم الامبراطورية العثمانية هو بالتأكيد أمر مرغوب فيه وان بريطانيا ستفيد من المشاركة فيه.

## (4)

ان ما دفع حكومة اسكويث الى التخطيط لتجزئة الامبراطورية العثمانية هو مطالبة روسيا بالقسطنطينية. وكان اللورد كيتشنر قد توقع هذه المطالبة منذ نشوب الحرب. وقبل شهور من تعيين اسكويث اللجنة الوزارية برئاسة الدبلوماسي سير موريس دو بونسين لتحديد أهداف بريطانيا في الشرق الأوسط بعد الحرب، كان كيتشنر قد شرع في استقصاءات غير رسمية على غرار ذلك، وتابع أعوانه القيام بهذه الاستقصاءات قبل وخلال وبعد انتهاء أعمال لجنة دو بونسين.

وقد استعان كيتشنر بجهاز موظفيه السابق في القاهرة لتوضيح تفاصيل خطته بشأن الشرق الأوسط بعد الحرب، مع انتباه خاص الى احتمال استئناف روسيا وفرنسا عداوتهما التقليدية لبريطانيا في ذلك الجزء من العالم.

والظاهر أن أوزوالد فيتز جيرالد، معاون كيتشنر، كتب الى ستورز طالباً ما لديه من قول بشأن دور فلسطين بعد الحرب، وما لهذا الدور من علاقة بالموقف الفرنسي و/ أو الروسي الى الشمال من فلسطين. كانت تلك احدى المرات الأولى التي دخلت فيها الصهيونية - حركة إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين - مجال التكهّنات البريطانية في زمن الحرب. وقد أجاب ستورز في نهاية عام 1914 فقال:

«في ما يخص فلسطين، افترض أنه مع عدم رغبتنا بطبيعة الحال في أن نأخذ على عاتقنا أعباء مسؤوليات جديدة كالتى سيفرضها علينا ضم أراض، فنحن، كما أفهم، كارهون لاحتمال حدوث تقدم روسي جنوباً الى سورية، أو لاحتمال امتداد زائد عن الحد للحماية الفرنسية الحتمية في لبنان الخ. ستكون فرنسا جاراً أفضل من روسيا، ولكننا لا نستطيع أن نركن الى دوام أي وفاق، مهما كان ودياً، بعد زوال الجيل المشيع بذكريات الحرب. ان الأفضل لنا هو وجود دولة حاضرة، ولكن هل نستطيع ايجادها؟ لست أرى عناصر من أهل البلاد يمكن أن ننشئ منها مملكة فلسطينية اسلامية. ان الدولة اليهودية هي، نظرياً، فكرة جذابة. ولكن اليهود، مع انهم يشكلون أغلبية في القدس نفسها، هم أقلية ضئيلة في فلسطين عامة، ويشكلون في الحقيقة نحو سدس مجموع السكان».

بعد أن درس ستورز البدائل استنتج أن المقاربة الأكثر جاذبية هي ضم فلسطين ودمجها في مصر. وقد ختم جوابه قائلاً: «أرجو أن تذكرني أمام القائد. ان المصريين يأملون في أن يواصل توجيه مصيرهم من بعيد» [243].

وقد عاد ستورز فكتب في بداية آذار (مارس) 1915 مقترحاً أن يعود كيتشنر الى فكرة «منصب جديد بصفة نائب للملك في شمال أفريقيا أو في الشرق الأدنى تتبعه مصر والسودان والمنطقة الممتدة من عدن الى اسكندرون» [244]. فذلك، في رأيه، سيوفر لكيتشنر بديلاً جذاباً لمنصب نائب الملك في الهند. في واقع الأمر كان ستورز يقترح تنظيم معظم العالم الناطق بالعربية في اتحاد كونفدرالي يكون محمية بريطانية يحكمها كيتشنر من القاهرة [245].

ان وزير الحربية قد استند في تطويره سياسة بريطانيا الشرق أوسطية، الى اقتراح ستورز. ففي 11 تشرين الثاني (نوفمبر) 1914 كتب الى سير ادوارد غراي قائلاً انه يجب اقناع الفرنسيين بالتخلي عن اهتمامهم التقليدي بسورية، بإعطائها لقاء ذلك حصة أكبر في شمال أفريقيا بعد الحرب، أما سورية فيجب أن تكون مستقلة اسمياً تحت حماية بريطانيا ويجب أن تنضم الى شبه جزيرة العرب تحت القيادة الروحية ل خليفة عربي. (كانت هذه المسألة التي تناولتها مراسلات كيتشنر مع الحسين، شريف مكة، قبل ذلك بشهور).

في وقت لاحق اقترح كيتشنر على غراي امكانية بدء مفاوضات مع القادة الناطقين بالعربية دون اطلاع الحكومة الفرنسية. ولكن اللورد كرو، وزير الدولة لشؤون الهند، أبلغ غراي أن هذا النهج لن يكون «قابلاً للتطبيق» [246]. في أية حال اعتقد كيتشنر وستورز وسير مارك سايكس، عضو مجلس العموم عن حزب المحافظين الذي انضم الى حاشية كيتشنر في عام 1915، اعتقدوا جميعاً خطأ انه يمكن اقناع الفرنسيين بالتخلي عن اهتمامهم بسورية (ما عدا المناطق المسيحية في جبل لبنان، حيث سيكون وجودهم، في رأي ستورز، أمراً «محتماً») [247].

أما الشعوب الناطقة بالعربية، فقد كان فعل ايمان لدى المسؤولين البريطانيين المتعاملين مع الشؤون الشرقية، منذ زمن طويل، ان هذه الشعوب غير قادرة على تحقيق استقلال حقيقي. ان جيرترود بل، وهي أشهر الرحالة البريطانيين الى الأراضي العربية قبل الحرب، قد كررت ما كان يعتبر أمراً جلياً عندما كتبت قائلة: «العرب لا يستطيعون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم» [248].

و«الاستقلال» للمناطق الناطقة بالعربية، كما ورد على السنة المسؤولين البريطانيين خلال أحاديثهم في أثناء الحرب، كان يعني فقط الاستقلال عن

الامبراطورية العثمانية، وكانت في ذلك اشارة الى أن هذه المناطق ستدور في فلك دولة أوروبية ما [249].

ظل كيتشنر وزملاؤه طوال السنتين التاليتين دائبين في العمل من أجل خطتهم. وبتاريخ 26 آب (أغسطس) 1915 كتب زميل الفيلد مارشال، ريجينالد وينغيت، حاكم السودان العام، الى حاكم الهند العام، قائلاً: «أرى أنه ليس بالأمر المستحيل أن يقوم في وقت ما من المستقبل اتحاد فيدرالي لدول عربية شبه مستقلة بتوجيه وتأييد أوروبيين، وتكون هذه الدول مرتبطة مع بعضها بعضاً على أرضية عرقية ولغوية، وتكون مدينة بالولاء الروحي لرأس عربي، وتتطلع الى بريطانيا على أنها ولىة أمرها وحاميتها» [250].

وقد وقف وينغيت في طليعة العاملين من أجل تعيين خليفة عربي، فأخذ يرسل مرشح كيتشنر لهذا المنصب - أي الحسين حاكم مكة والمدينة - عن طريق زعيم ديني عربي في السودان هو سير سيد علي الميرغني. وقد وضع الكابتن سايمز، سكرتير وينغيت الخاص، مذكرة تفصيلية تشرح خطة الاتحاد العربي التي ستكون الخلافة جزءاً منها. وقدم ستورز مذكرة أخرى تأييداً للخلافة العربية بتاريخ 2 أيار (مايو) 1915. ان جيلبرت كلايتون، رئيس الاستخبارات في القاهرة، بتأييده خطة استيلاء بريطانيا على سورية ونقل الخلافة الى شبه الجزيرة العربية، جعل الأمر يبدو وكأن أصواتاً كثيرة تحت على تطبيق الخطة، في حين أنه لم يكن هناك في الحقيقة سوى فئة واحدة تتكلم، ولكن بأصوات عديدة [251].

وأما في لندن، فقد شرح اللورد كيتشنر لزملائه - ومن ضمنهم ممثل حكومة الهند التي كان كيتشنر قد أفزعها قبل شهور بمراسلاته مع الشريف حسين - السبب الذي يجعل نقل الخلافة أمراً مركزياً في استراتيجيته لعالم ما بعد الحرب. وقد ذكر اللورد كرو، في اجتماع عقدته لجنة الحرب المنبثقة عن مجلس الوزراء بتاريخ 19 آذار (مارس) 1915 أن هناك وجهتي نظر مختلفتين في وزارة شؤون الهند بشأن مستقبل الامبراطورية العثمانية. فالدائرة السياسية في الوزارة تريد التضحية بتركيا لمصلحة شبه الجزيرة العربية، بينما تريد الدائرة العسكرية أن تجعل تركيا قوية أكثر ما يمكن لتكون حاجزاً في وجه أي تهديد روسي محتمل. وقد جاء في محضر الاجتماع:

«اعترض اللورد كيتشنر على خطة الدائرة العسكرية، وقال ان الأتراك سيتعرضون دائماً للضغط من جارتهم روسيا القوية، وينتج عن ذلك أن الخلافة قد تقع الى حد بعيد تحت السيطرة الروسية، وقد يفرض النفوذ



الروسي نفسه بصورة غير مباشرة على مسلمي الهند. أما إذا نقلت الخلافة الى شبه الجزيرة العربية فستبقى الى حد بعيد تحت نفوذنا»[252].

وقد رأت وزارة الخارجية البريطانية أن التدخل في الشؤون الدينية الإسلامية أمر يجانب الحكمة. وذهبت وزارة شؤون الهند الى أبعد من ذلك فوصفت هذا التدخل بأنه خطر. ولكن وزارة الخارجية لم تشأ، ووزارة شؤون الهند لم تستطع أن تتغلب على رأي هيربرت كيتشنر. فقد كان أكثر من وزير للحربية، وأكثر من عضو في مجلس الوزراء، وأكثر من متمرس في الشؤون الأفريقية والآسيوية، وأكثر من كونه أعظم جندي في الامبراطورية. لقد كان أسطورة حية في غرب وشرق السويس. كان كيتشنر الخرطوم، وعندما أشرفت حياته العملية على المغيب كان هذا الجندي العتيق الطويل القامة قد ألقى بظله المديد على مستقبل الشرق الأوسط[253].

# الفصل الخامس

## تحديد أهداف بريطانيا في الشرق الأوسط

لقد جرى تعيين لجنة دو بونسين - المجموعة الوزارية التي أوجدها اسكويث لتقديم النصح الى مجلس الوزراء بشأن ما ينبغي لبريطانيا أن تريده في الشرق الأوسط - بتاريخ 8 نيسان (ابريل) 1915، ووضعت هذه اللجنة تقريرها بتاريخ 30 حزيران (يونيو) 1915. كانت اللجنة مؤلفة من ممثل عن كل من وزارة الخارجية، والأميرالية، ووزارة شؤون الهند، والوزارات الأخرى ذات العلاقة. وكانت وزارة الحربية التي يرأسها كيتشنر ممثلة في هذه اللجنة بالجنرال سير تشارلز كالويل، المدير العام للعمليات العسكرية. وإضافة اليه عين كيتشنر ممثلاً شخصياً له في اللجنة هو سير مارك سايكس، (هو غير ممثل وزارته). وعن طريق سايكس سيطرت وزارة الحربية على أعمال اللجنة. وظل سايكس في ما بعد البيروقراطي اللندني المكلف بمسؤولية شؤون الشرق الأوسط طوال الحرب.

إن سايكس الثري الكاثوليكي المذهب المنتمي الى حزب المحافظين والحائز على لقب بارون والبالغ من العمر ستة وثلاثين عاماً، كان قد انتخب عضواً في مجلس العموم عام 1911. وخلال دراسته في كامبريدج وبعدها، سافر على نطاق واسع في القسم الآسيوي من تركيا ونشر مقالات عن رحلاته، مما جعله أحد خبراء حزب المحافظين في الشؤون العثمانية، ولكن بما أن الشؤون العثمانية لم يكن لها دور يذكر في السياسة البريطانية بين عامي 1911 و1914، وبما أن حزبه لم يكن في الحكم، لم يكن سايكس معروفاً معرفة جيدة لدى الرأي العام ولدى زملائه السياسيين على حد سواء.

وقد كان سايكس نتاج خلفية غربية. فهو الابن الوحيد لزواج تعس: فقد كانت أمه المحبة للمرح الجامحة الأهواء وأبوه العجوز القاسي، يعيشان منفصلين. وعندما بلغ الثالثة من عمره تحولت أمه الى الكاثوليكية فصار هو أيضاً كاثوليكياً. وفي السابعة من عمره اصطحبه أبوه في رحلة إلى الشرق. وقد ظل مذهبه الديني ورحلاته الى الشرق تملك عليه مشاعره طوال حياته.

حياته الدراسية كانت مزعزعة. فقد كان ينتقل من مدرسة الى أخرى، ومرت أوقات لم يكن يذهب فيها الى المدرسة اطلاقاً، وأمضى سنتين في كلية يسوع، جامعة كامبريدج، ولكنه لم يستمر لنيل الشهادة الجامعية. لم يكن مستقراً على حال، وعقاراته الشاسعة التي ورثها واسطبلاته لتربية الخيول لم تحمله على البقاء في وطنه. وقد تجول في الشرق وأمضى أربع سنين ملحقاً في السفارة البريطانية في القسطنطينية. وكان يقابل بالترحاب في كل مكان بسبب مواهبه، إذ أنه كان رسام كاريكاتور وبارعاً في تقليد حركات الآخرين، وفي الأمرين كاد يبلغ المؤهل المهني. لقد كان ظريفاً ويصادق الناس بسهولة. كان يعتنق الآراء بقوة ويبدلها بسرعة.

عندما وقعت الحرب بذل سايكس جهداً للعثور على عمل يستفاد فيه من خبرته في شؤون الشرق الأوسط. ففي صيف 1914 كتب رسالة الى ونستون تشرشل يطلب فيها عملاً «في الموقع» لكي يشتغل ضد تركيا، وعرض في رسالته «أن ينشئ فرقة من أوغاد أهل البلاد، وأن يربح النبلاء الى جانبه، وأن يقوم بأي عمل غريب آخر». وقال في رسالته: «أعرف أنك لن تظنني انساناً يسعى لمصلحة شخصية ان قلت لك انني أضع بتصرفك كل ما أملكه من معرفة بالاتجاهات والامكانات المحلية»<sup>[254]</sup>. ولكن إما أنه لم يكن لدى تشرشل منصب لهذا الرجل أو كان لديه منصب ولم يعرضه عليه.

وقد وقع سايكس في فلك كيتشنر نتيجة لقاء بينه وبين أوزوالد فيتز جيرالد، صديق الفيلد مارشال الحميم وسكرتيره العسكري الشخصي. وقد دبر فيتز جيرالد أمر تعيين سايكس في وزارة الحربية في مطلع عام 1915 حيث خدم تحت اشراف كالويل في إعداد كتيبات معلومات للجنود في منطقة البحر الأبيض المتوسط. وخلال وجوده في وزارة الحربية أنشأ صداقة خاصة مع المدعو ج. ماكدونو، وهو كاثوليكي مثله وكان زميله في الدراسة في مدرسة واحدة. وقد أثبت ماكدونو بصفته مديراً للمخابرات العسكرية انه حليف بالغ القيمة في مسيرة حياة سايكس العملية ودفعها الى الأمام.

وبعيد تعيين سايكس في وزارة الحربية أسندت له مهمته في لجنة دوبونسين. كان كيتشنر بحاجة الى سياسي شاب على دراية بالشرق الأوسط، وكان سير مارك سايكس أحد حفنة من أعضاء البرلمان الذين يعرفون المنطقة. وبما أنه كان في حزب المحافظين، فقد شاطر كيتشنر الكثير من مشاعره وتحاملاته. لقد كان الاثنان من الوجوه كافةً عضوين في نادٍ واحد<sup>[255]</sup>.

ومع ذلك كان سايكس عند تعيينه يكاد لا يعرف كيتشنر، ولم يتح له قط أن يعرفه معرفة أفضل.

وكانت التوجيهات التي تلقاها سايكس تقضي بأن يأتي كل مساء الى فيتزجيرالد ليقدم له تقريراً وافياً عن مباحثات لجنة دو بونسين. وكان فيتزجيرالد يخبره لاحقاً ما الذي يريد كيتشنر منه أن يقوله أو يفعله في الاجتماعات التالية. وقد أخفقت محاولاته القليلة لرؤية الرجل الأسطورة الوطنية المنطوي على نفسه. وقد قال سايكس في ما بعد: «كلما قلت رؤيتي له سهل علي أن أفعل ما يطلبه مني...» [256].

ومع ذلك فإن بقية أعضاء لجنة دو بونسين اعتقدوا منذ البداية انه يتكلم بدعم كامل من اللورد كيتشنر. ان هذا العضو في البرلمان، قليل الخبرة نسبياً، قد سيطر على اللجنة الوزارية، فكان مسموع الكلمة والرأي، وكان هو العضو الوحيد في اللجنة الذي سبق له أن زار معظم أجزاء الامبراطورية العثمانية، وكان وحده القادر على الكلام عن معرفة مباشرة. ثم انه كان سياسياً أيضاً. وقد نجح في جعل العضو الرئيس الآخر في اللجنة، موريس هانكي يصادقه ويؤيده شخصياً. كان هانكي، وهو أيضاً في الثلاثينات من عمره، سكرتيراً للجنة دفاع الامبراطورية وسكرتيراً لمجلس الحرب المنبثق عن مجلس الوزراء وسيصبح من بعد أول من تولى منصب سكرتير مجلس الوزراء البريطاني. وبإشرافه على جدول الأعمال وتدوينه محاضر الجلسات وما يقال فيها ويتخذ من قرارات، كان هانكي على الطريق ليصبح الرجل الأهم والأعلى قيمة في الجهاز البيروقراطي، وقد برهن أن تأييده لسايكس لا يقدر بثمن.

كان سايكس هو الذي يشرح البدائل المتوافرة لبريطانيا خلال اجتماعات لجنة دو بونسين. وهو الذي كان يتقصى المزايا النسبية لمختلف أنواع التسويات الاقليمية: أي ضم الأراضي العثمانية من قبل دول الحلفاء، أو تقسيم هذه الأراضي الى مناطق نفوذ بدلاً من ضمها ضمّاً صريحاً، أو ترك الامبراطورية العثمانية على حالها ولكن مع جعل حكومتها طيعة، أو تطبيق نظام اللامركزية في إدارة الامبراطورية وتقسيمها الى وحدات شبه متمتعة بالحكم الذاتي. (في نهاية الأمر أوصت اللجنة بالبدء في تجربة الخيار الأخير أولاً باعتباره الأسهل).

كان على اللجنة لكي تبحث هذه الأمور أن تقرر الأسماء التي ستطلقها على مختلف المناطق التي قد ترغب في تقسيم الامبراطورية العثمانية اليها. وكان مما يبين الروح التي قارن بها أعضاء اللجنة هذه المهمة انهم لم يروا حاجة للتقيد بخطوط التقسيمات السياسية التي كانت قائمة في الامبراطورية، أي الولايات، وشعر أعضاء اللجنة أن لهم الحرية في أن يعيدوا رسم خريطة الشرق الأوسط بالشكل الذي يروونه مناسباً. وفي أية حال فقد كان الاتجاه لدى أعضاء اللجنة، شأنهم شأن الطبقة البريطانية

الحاكمة بشكل عام، أن يسترشدوا في مثل هذه الأمور بالمؤلفات الاغريقية واللاتينية التي كانوا قد درسوها في المدارس الثانوية: فقد استخدموا التعابير الاغريقية الغامضة التي استخدمت من قبل جغرافي العصر الهيليني قبل نحو ألفي سنة.

وهكذا فإن المناطق الآسيوية الناطقة بالعربية الواقعة شمال شبه الجزيرة العربية أطلقوا عليها بصورة جماعية اسم «بلاد الرافدين» في الشرق، واسم «سورية» في الغرب، مع أن المناطق التي ستشملها كل تسمية لم تكن واضحة. وقد أطلق على القسم الجنوبي من سورية اسم «فلسطين»، وهي تحريف لكلمة «فلسطينا» أي الشريط الساحلي الذي كان يحتله الفلسطينيون قبل ظهور المسيح بأكثر من ألف عام. ومع أنه لم يكن هناك بلد على الإطلاق سمي نفسه فلسطين، فقد كان هذا الاسم تعبيراً جغرافياً دارجاً في العالم المسيحي الغربي عندما يصفون الأرض المقدسة.

وقد اقترحت اللجنة، بقيادة مارك سايكس، انشاء خمس ولايات متمتعة الى حد كبير بالحكم الذاتي داخل الامبراطورية العثمانية التي ارتأوا تفكيكها. وهذه الولايات هي سورية، وفلسطين، وأرمينيا، والأناضول، والجزيرة - العراق (أي الأجزاء الشمالية والجنوبية من بلاد الرافدين).

ووفقاً لرؤية اللجنة. سيكون النفوذ أو الاشراف البريطاني مستحسناً وجوده في حزام واسع يمتد عبر الشرق الأوسط من البحر الأبيض المتوسط الى الخليج الفارسي. وكانت الفكرة تقضي بمد خط للسكة الحديدية من أحد موانئ البحر الأبيض المتوسط الى بلاد الرافدين، من أجل توفير طريق للنقل البري الى الشرق. وظل كيتشنر يصر على أن تكون اسكندرون هي الميناء، أما سايكس فقد طلب أن تكون حيفا، ثم أن فيتز جيرالد توسط بينهما فرجح رأي سايكس.

كان سايكس من كل الوجوه يشق طريقه قريباً من خط كيتشنر، وان مع تعديلات طفيفة من عنده. فهو، مثل كيتشنر، كان يدعو الى نقل الخلافة جنوباً لتكون بعيدة عن متناول النفوذ الروسي، ولكنه أضاف الى ذلك أن الخلافة يجب أن تكون بعيدة عن متناول سيطرة فرنسا المالية، لأنه ادعى أن الشؤون المالية العثمانية ستخضع الى حد كبير للسيطرة الفرنسية نظراً للاستثمار الفرنسي الكبير في الدين العام العثماني [257].

بيد أن المقاربة بمعناها الكامل كانت تلك التي حددها كيتشنر. ان سايكس، الذي كان عضواً بارزاً في الكتلة المؤيدة لتركيا في البرلمان، وقد تخلص عن قناعته بوجوب الحفاظ على سلامة وحدة الامبراطورية العثمانية. وقد كتب بمناسبة الأول من نيسان (ابريل)، يوم كذبة نيسان (ابريل)، الى صديقه الحميم وزميله في تأييد تركيا عضو مجلس العموم أوبري هيربرت، قائلاً:

«استشف من رسالتك انك لا تزال على تأييدك لتركيا. لقد استدعاني الفيلد مارشال الى اجتماع تعقده الجمعية العثمانية التي لم أنتسب اليها قط... فأبرقت فوراً الى ماكيننا (وزير الداخلية) ولدي كل الأمل بأن يكون الجمع كله قد احتجز ضمن أسلاك شائكة - ها! ها! لا بد أن ذلك سيغيطك كثيراً. مرة أخرى ها! ها! سياستك سياسة خاطئة. يجب أن تزول تركيا من الوجود. أزمير ستكون يونانية، وأضاليا ايطالية، وجنوب طوروس وشمال سورية فرنسية، وفلسطين بريطانية، وبلاد الرافدين بريطانية وكل ما عدا ذلك روسي - ومن ضمنه القسطنطينية، وسوف أنشد «لنسبحك يا الله» في كنيسة القديسة صوفيا، وسأرسم في مسجد عمر «الآن أيها السيد تطلق سبيل عبدك فيذهب بسلام». سننشدها بلغة أهل ويلز، وباللغة البولونية، وباللغة الكلتيّة، وباللغة الأرمنية، تكريماً للأمم الصغيرة ذات الشهامة». وبعد أن قال مزيداً من مثل هذا الكلام ختم رسالته بملحوظة:

«الى الرقيب،

هذه رسالة من نابغة لامع الى نابغة لامع. الناس الدون لا يمكننا أن نتوقع منهم فهمها. أتوسل أن تسمح بمرور الرسالة دون خوف.

مارك سايكس (مع الألقاب)» [258].

## الفصل السادس

### عند مضائق الحظ

كانت لندن تتعامل بسرعة مع العواقب السياسية للنصر المرتقب في الدردنيل، أما في ساحة المعركة فقد كان الأسطول بطيء الحركة. لقد حال سوء الجو دون أن تستخدم السفن الحربية قوتها النارية الكاملة على نحو مؤثر. ومع مرور الأيام بدأ الجنود الأتراك على امتداد الشاطئ يستعيدون ثقتهم بأنفسهم، وتعلموا كيف يضيقون كاسحات الألغام البريطانية باطلاق النار عليها من مدافع الهاوتزر والمدافع الصغيرة المتنقلة. وفي 13 آذار (مارس) تلقى تشرشل برقية من كاردن قال فيها ان كنس الألغام لم يكن يجري بصورة مرضية، وان ذلك عائد الى ما ادعاه كاردن من كثافة النيران التركية، مع أنه لم تقع اصابات بين البريطانيين. وقد عقب تشرشل على البرقية بقوله: «ان هذا يجعلني أتلوى من الألم. فلست أفهم ما الذي يجعل اطلاق النار يقف في طريق كنس الألغام ما دامت النيران لا تسبب وقوع اصابات. ان مثني أو ثلاثمئة إصابة هي ثمن قليل ندفعه لمتابعة كنس الألغام حتى الوصول الى المضائق» [259].

إن جزءاً من المشكلة - وكان هذا الجزء هو أحد مثالب الخطة الأصلية التي وضعها الأميرال كاردن - كان يتمثل في أن بحارة كاسحات الألغام مستخدمون مدنيون، ولم يكونوا مستعدين للعمل بينما هم يتعرضون لاطلاق النار عليهم. ولكن المشكلة الرئيسة كانت أن الأميرال كاردن بدأ يفقد رباطة جأشه. فقد أبرق اليه تشرشل بتاريخ 13 آذار (مارس) ليلغّه: «ان لدينا معلومات أن القلاع التركية قد نفدت ذخيرتها وأن الضباط الألمان يرسلون تقارير تدل على القنوط» [260]، فرد كاردن على هذه البرقية بأنه سيشن الهجوم الرئيس على المضائق. وسيخوض المعركة من أجل هذه المضائق الهامة يوم 17 آذار (مارس) أو نحو ذلك التاريخ، تبعاً لحالة الجو.

ولكن الأميرال كان قلقاً، فلم يعد يأكل أو ينام. لم يكن قد فقد أية سفينة من سفنه، وكان قد أبلغ لندن أنه لم تقع اصابات في صفوف رجاله، غير أن حالة التوتر والقلق اشتدت عليه وصارت فوق طاقته للاحتمال، وفجأة أصيب بانهايار الأعصاب.

عشية المعركة الرئيسة لاحتلال المضائق، أبلغ الأميرال كاردن الضابط الذي يليه في القيادة أنه لم يعد قادراً على مواصلة القيادة. وقد استدعى طبيب

الأسطول الذي فحصه وأعطى تقريراً بأن الأميرال مصاب بسوء الهضم ويجب أن يوضع على قائمة المرضى مدة ثلاثة أو أربعة أسابيع. وبتاريخ 16 آذار (مارس) أبرق كاردن الى تشرشل قائلاً: «شديد الأسف لوضعي على قائمة المرضى. التقرير الطبي يتبع» [261].

بادر تشرشل فوراً الى تعيين جون دو روبيك، الضابط الذي يلي كاردن في القيادة، ليأخذ مكانه.

بعد ذلك بدأ دو روبيك، حسب تقريره البرقي الى الأميرالية، الهجوم الرئيس عند الساعة 10,45 من صباح 18 آذار (مارس).

أخذت الأمور في ذلك اليوم تسير سيراً سيئاً عندما انفجرت بارجة فرنسية بطريقة غامضة واختفت عند الساعة الثانية بعد الظهر. بعد مرور ساعتين على انفجارها اصطدمت بارجتان بريطانيتان بالغام. والسفينة التي أرسلت لانقاذ احدهما، وهي السفينة «أريز ستبل» اصطدمت هي الأخرى بلغم، فغرقت البارجة والسفينة «أريز ستبل» كلتاهما. ثم جنحت سفينة حربية فرنسية بعد أن لحقت بها أضرار من جراء اصابتها بنيران المدفعية. بيد أن دو روبيك أبلغ الأميرالية أن بقية سفنه ستكون مستعدة لمعاودة الهجوم في غضون ثلاثة أو أربعة أيام. كانت هناك حالة حبور في الأميرالية في لندن، ذلك أن المخابرات البحرية اكتشفت أن العدو سينهار عند معاودة الهجوم. فقد حدث بعد ظهر 19 آذار (مارس) أن جاء الكابتن وليم ريجينالد هول، مدير المخابرات البحرية، الى تشرشل وفيشر حاملاً اليهما برقية تم اعتراضها وفك رموزها. كانت البرقية من قيصر ألمانيا. وقد استوعبا مغزاها فوراً، فهتف تشرشل مبتهجا: «لقد استهلكوا كل ذخيرتهم»، وهذا ما كان قد حدث فعلاً. وأخذ فيشر يلوح بالبرقية فوق رأسه ويصرخ: «قسماً بالله، سأعبر المضائق غداً» ثم عاد يقول: «غداً! قد نفقد ست سفن، ولكني سأجتازها» [262]. ولم يطلع تشرشل وفيشر مجلس الوزراء على الأمر خشية فضح مصدر المخابرات، ولم يطلعا دو روبيك أيضاً، بل اكتفيا بإبلاغه برقياً أن من المهم ألا يعطي انطباعاً بأن العمليات متوقفة.

الأمر الذي كان تشرشل وفيشر يجهلانه هو أن الكابتن هول، مدير المخابرات البحرية كان قد شرع، بإيحاء من موريس هانكي، في مفاوضات مع طلعت بك، من قادة تركيا الفتاة، بهدف اقناع الامبراطورية العثمانية بالانسحاب من الحرب لقاء مبلغ كبير من المال. وقد اجتمع المفاوضون البريطانيون والأتراك في أحد الموانئ البحرية في الجزء الأوروبي من تركيا بتاريخ 15 آذار (مارس) [263]. واخفقت المفاوضات لأن الحكومة البريطانية شعرت انها لا تستطيع تقديم تأكيدات بأن الامبراطورية العثمانية



يمكنها الاحتفاظ بالقسطنطينية - كان التزام بريطانيا بارضاء طموحات روسيا التزاماً شديداً. ولكن الكابتن هول لم يكن قد علم بعد بانهيار المفاوضات عندما أُطلع تشرشل ليلة 19 آذار (مارس) على خطة لعرض أربعة ملايين جنيه على تركيا لقاء انسحابها من الحرب. ارتعد تشرشل رعباً واحتد فيشر غضباً. وتحت الحاحهما أبرق هول الى مبعوثيه يأمرهم بسحب العرض. وقد استذكر هول هذه الواقعة في ما بعد قائلاً ان فيشر وثب من كرسيه وهو يصرخ: «أربعة ملايين؟ لا، لا. أقول لك انني سأعبرها غداً» [264].

## (2)

كل ما كان يعترض طريق أسطول الحلفاء بقيادته البريطانية للوصول الى القسطنطينية، بضعة ألغام تحت سطح الماء، وكان مخزون العثمانيين من هذه الألغام قد تناقص الى حد أن الأتراك اضطروا لاصطياد وإعادة استخدام الألغام التي كان الروس يستخدمونها ضدهم.

انهارت المعنويات في القسطنطينية. وسط الشائعات وحالة الذعر بدأ إخلاء المدينة، وأرسلت وثائق الدولة واحتياطي المصارف من الذهب الى أمكنة آمنة. وأعدت قطارات خاصة للسلطان وللجاليات الدبلوماسية الأجنبية. أما الموسرون فقد أرسلوا زوجاتهم وعائلاتهم مسبقاً الى داخل البلاد. وأما طلعت، وزير الداخلية، فقد أرسل في طلب سيارة مرسيدس ذات قدرة عالية لاستعماله الشخصي وزودها بصفائح وقود إضافية استعداداً لسفر طويل الى مكان ناءٍ يلجأ اليه. وبدأت تظهر في شوارع المدينة لوحات تنذّر بالحكومة. وتوقعت السلطات أن ترحب الجاليات الأرمنية واليونانية بالحلفاء، ولكن الشرطة بدأت باعتقال المشتبه بهم من السكان الناطقين بالتركية أيضاً.

في هذه الأثناء قام أعضاء جماعة أنور - طلعت الذين أيدوا هذه الجماعة حتى النهاية المريعة، بجمع كميات من البنزين استعداداً لحرق المدينة عند وصول الحلفاء، ولغموا كنيسة القديسة صوفيا وغيرها من النصب الكبرى بالديناميت. وبدأت البارجة غويين تستعد للهرب الى البحر الأسود.

عزم أنور بشجاعة على البقاء للدفاع عن المدينة، ولكن تدابير العسكرية كانت تفتقر الى الكفاءة الى حد أن أية محاولة تركية - حسب قول لي مان فون ساندرز - لمقاومة انزال قوات الحلفاء على بر المدينة صارت مستحيلة.

### (3)

اغتبطت لندن وقنطت القسطنطينية. ولكن مزاج القيادة البريطانية عند مضائق الدردنيل كان معكراً. فالإصابات والخسائر الناجمة عن الاصطدام بالألغام في 18 آذار (مارس) أصابت الأميرال دو روبيك باليأس. كان خائفاً على مستقبله الوظيفي. ويقول أحد التقارير انه عند حلول مساء 18 آذار (مارس)، ولدى استعراض دو روبيك نتائج معركة ذلك اليوم قال: «أظن اني انتهيت» [265].

لقد توترت أعصاب دو روبيك لأنه لم يعرف سبب خسائره. وواقع الأمر أن سفنه اصطدمت بخط واحد من الألغام كان يمتد بموازية الشاطئ وليس عبر المضائق. وكانت هذه الألغام قد وضعت في الليلة السابقة ولم يلحظها الاستطلاع الجوي البريطاني. كانت ضربة حظ لا تتكرر.

ظهر القدر الآن في شخص انسان ساحر هو الجنرال سير أيان هاملتون، الذي كان كيتشنر قد أرسله ليسبق وصول القوات البرية المزمع ارسالها. وكان هاملتون سيتولى قيادة هذه القوات، أما الأوامر الصادرة اليه فكانت تقضي بأن يترك للأسطول كسب الحملة ومن ثم يقوم بانزال قواته الى البر ويستولي على الشاطئ. أما إذا فشل الأسطول في كسب الحملة وحده، فالأوامر البديلة لدى هاملتون تقضي بأن يغزو الشاطئ الأوروبي للمضائق، ويستولي على المضائق ليتمكن الأسطول من عبورها.

وما ان أدرك الأميرال دو روبيك أن أمامه بديلاً لاستئناف المعركة - وانهم في لندن رأوا أنه أمر مقبول أن يسلم المسؤولية الى هاملتون والى الجيش إذا اختار أن يفعل ذلك - حتى رأى أن لا سبب يدفعه الى مواجهة مزيد من الأخطار. وبغض النظر عن كان الأول في الاختيار، فقد اتفق دو روبيك وهاملتون على أن ينتظر الأسطول حتى يصل الجيش ويبدأ القتال. وكان هاملتون قد أبرق بوجهات نظره الى كيتشنر، الذي أطلع رئيس الوزراء على البرقية يوم 18 آذار (مارس).

ان هذه البرقية أقنعت اسكويث بأن «الأميرالية كانت مسرفة في تفاؤلها بما تستطيع السفن وحدها أن تفعله» [266]. وأبرق دو روبيك الى تشرشل بعد اجتماعه أيان هاملتون يوم 22 آذار (مارس) قائلاً: «بعد اجتماعي مع الجنرال هاملتون واستماعي الى مقترحاته أرى الآن» ان الجيش يجب أن يشترك في الحملة [267].

صباح 23 آذار (مارس) اجتمعت مجموعة الحرب في مقر الأميرالية لتبحث قرار دو روبيك. وقد شعر ونستون تشرشل بالفزع والصدمة، ولكن لورد

البحرية الأول، الأميرال فيشر، رأى أنه يجب قبول قرار الرجل الذي في الموقع، شئنا أم أبينا، وقد أیده في ذلك أميرال الأسطول سير آرثر ويلسون، والأميرال سير هنري جاكسون. أما تشرشل فقد خالفهم الرأي محتداً ورفع الأمر الى مجلس الوزراء بعد انتهاء اجتماع مجموعة الحرب. ثم ان تشرشل سطر نص برقية شديدة اللهجة الى دو روبيك وأخذ النص الى مجلس الوزراء للحصول على الموافقة، وكان نص البرقية يأمر بلهجة حازمة الأميرال بتجديد الهجوم. وعندما اجتمع مجلس الوزراء نال تشرشل تأييد رئيس الوزراء وكيثشنر اللذين أعدا برقيتين شديديتي اللهجة الى سير أيان هاملتون.

ولدى عودة تشرشل الى الأميرالية بعد ظهر اليوم نفسه وجد أن فيشر وويلسون وجاكسون ظلوا متشبثين بمعارضتهم لإرسال الأمر البرقي الى الأميرال دو روبيك. وبما أن تشرشل كان وزيراً مدنياً يحاول أن ينقض رأي لورد البحرية الأول وزملائه أمراء البحر في مسألة بحرية، فقد شعر أنه مضطراً للعودة الى اسكويث طالباً موافقة رئيس الوزراء. بيد أن اسكويث رفض إعطاء موافقته. وكانت وجهة نظره الشخصية أن الهجوم يجب أن يستأنف ولكنه لن يأمر باستئنافه متخطياً معارضة أمراء البحر في الأميرالية.

ولما كان تشرشل يعلم أن أزمة الذخيرة في تركيا تعني أن الطريق الى القسطنطينية مفتوح، فقد عاد يناضل ضدّ قرار السماح للأسطول بالتخلي عن الحملة. وبما أنه لم يكن قادراً على إصدار الأوامر الى دو روبيك باستئناف الهجوم، فقد حاول أن يجعله يستأنف الهجوم عن طريق الاقناع، فأرسل اليه برقيات حاول فيها اللجوء الى المنطق ليبين للأميرال سبب أهمية استئناف الهجوم البحري. وقد تحدث مرة أخرى مع رئيس الوزراء الذي أعرب عن «أمله» في أن يستأنف الهجوم قريباً<sup>[268]</sup>. ولكن كان ذلك دون جدوى. ومع أن عدد الاصابات لم يتجاوز بضع مئات، فان حملة الدردنيل البحرية قد انتهت.

## (4)

بعد معركة 18 آذار (مارس) - المعركة التي أفرغت دو روبيك الى حد أنه قرر أن يستدير بسفنه وابتعد - استنتج القادة العسكريون العثمانيون أن قضيتهم خاسرة. وبينما كان الأميرال دو روبيك، على متن سفينته، يصدر الأوامر بالكف عن القتال، كانت القوات التركية المدافعة عن الشاطئ، دون علم منها بقرار دوروبيك، تتلقى الأوامر بإطلاق آخر ما تبقى لديها من القذائف وأن تتخلى بعد ذلك عن مواقعها الساحلية. لو أن الأميرال دو روبيك، الذي قاد في المعركة يوماً واحداً فقط، قد انخرط في المعركة يوماً ثانياً، لكان رأى قوات العدو تنسحب وتتلاشى، ولكان باستطاعة سفنه كاسحة الألغام، لو عملت بضع ساعات دون توقف ودون أن تواجه مقاومة، أن تطهر الطريق البحرية عبر المضائق، إذ أنها لو تخلصت من صف الألغام المحيط بالمضائق لما كان لدى الأتراك ألغام أخرى لوضعها في المياه، ولكان باستطاعة الأسطول أن يشق طريقه الى القسطنطينية دون أن يعترضه شيء.

بالنسبة لونسون تشرشل، الذي كان على بعد ساعات فقط من النصر، صار دنو النصر منه - ومعرفته أن الأمر كاد يتحقق وأنه كاد يصبح في قبضة يده - سبباً لعذابه طوال حياته. ان ما انزلق من راحة يده كان أكثر من مجرد نصر شخصي. كان في نظره آخر فرصة أمامه لإنقاذ العالم الذي نشأ فيه: أي كسب الحرب بينما أوروبا التقليدية التي ألفها، أوروبا ذات الممالك والامبراطوريات الراسخة، لا تزال قائمة على قيد الحياة [269].

# الفصل السابع

## المحاربون

### (1)

إن أنور باشا الذي صدمه قصف القوات الحليفة يوم 18 آذار (مارس) أعلن قراراً هاماً لا يتفق مع طبيعة هذا الرجل: فقد تولى عن قيادة القوات العثمانية في الدردنيل للجنرال الألماني ليمان فون ساندرز. كان تسليم محاربيه المسلمين إلى قائد أجنبي - ومسيحي - أمراً مخالفاً لكل نزعات أنور. فقد كان حتى تلك اللحظة يقاوم الضغوط التي تمارس عليه لتسليم السلطة حتى للخبراء الألمان الذين كانوا يعملون بصفة مستشارين في وزارته وفي رئاسة الأركان. ومع أنه كان قد سمح للضباط الألمان في وزارة الحربية التي يرأسها أن يشغلوا مراكز رئيسة في فروع العمليات، والمخابرات، والسكك الحديدية، والتموين، والذخائر، والفحم الحجري، والقلاع، فقد كان بدافع الحسد، يشكك في آراء زملائه الألمان ويخفض من سلطتهم، وظل يفعل ذلك في مجالات كثيرة. ولكنه في مواجهة مدافع اسطول الحلفاء تولى في نهاية الأمر عن سلطته في ساحة المعركة الأهم.

لم يكن أمام الجنرال ليمان سوى القليل من الوقت، فلم يهدر أية لحظة، بل قام بتجميع ما وجده من قوات ومؤن وسط ركام موارد الامبراطورية. وقد أصدر أوامره الخاصة بالتعيينات للمناصب القيادية، ولا سيما إعطاء منصب مسؤول إلى مصطفى كمال، الضابط التركي المعجب بالأساليب الأوروبية والمزدري للتخلف العثماني، والذي كان يشعر بالمرارة لأنه كان متفوقاً على أولئك الذين تقدموا عليه بغير حق - هذه الأمور كلها أبقت حتى ذلك الحين في مناصب مغمورة وغير مجزية. كان مصطفى كمال مقبلاً على اثبات عبقريته في ميدان المعركة خلال القتال المقبل:

كان عليه أن يثبت أنه القائد الذي يضع نصب عينيه الموقع التكتيكي الرئيس والذي يستولي على المرتفعات ويسيطر على ميدان المعركة.

كان الجنرال ليمان على اطلاع مستمر بالتقدم الذي يحققه البريطانيون في تنظيم قوة للغزو. فقد كانت أخبار تجميع قوات الحملة البريطانية على السفن في مصر تنشر في صحف القاهرة، وكان ينقلها إلى الأتراك تجار الإسكندرية. ثم ان عملاء العثمانيين في اليونان المحايدة لا بد انهم لاحظوا

في وقت لاحق الأسطول الكبير وهو يمخر عباب الماء عبر جزر إيجة، إذ كانت أضواء ومصابيح الإشارة على سفنه تسطع في أثناء الليل، كما كان عزف فرقه العسكرية يعلو على صفير الرياح وهدير الأمواج في أثناء النهار. وهكذا فإن قوات الدفاع العثمانية بقيادة الجنرال ليمان الرجل العملي، وبعد أن توفر لها ضباط اكفاء، كانت تتقرب الغزو البريطاني عند وقوعه. لقد كان اشتباكاً من النوع الذي يستخدم فيه صمود الجندي العثماني ليحقق أفضل ميزة. وقد نوّه سير مارك سايكس بذلك في رسالة وجهها إلى تشرشل في أواخر شهر شباط (فبراير) إذ كتب فيها يقول إنه مع امكانية إبادة الأتراك في هجوم صاعق «فإنهم يصبحون رهبيين إذا أتيح لهم الوقت للتفكير» [270].

## (2)

كان بدء الحملة بالنسبة للقائد البريطاني سير أيان هاملتون صباح 12 آذار (مارس)، عندما استدعاه اللورد كيتشنر على غير انتظار - ودون تفسير - إلى وزارة الحرب ليعرض عليه قيادة الحملة. وقد قال آنذاك لوزير الحرب أنه لا يعرف شيئاً عن تركيا وأنه بالتالي يحتاج على أقل تقدير إلى بعض الشرح والتوجيه.

ويستذكر هاملتون في ما بعد ما دار في ذلك الاجتماع فيقول إن وزير الحرب أنذره وهو يسلمه قيادة الفرقة التي هيئت في أول الأمر لإرسالها إلى الدردنيل لدعم الاسطول، بأن الجنود «هم مجرد قرض يجب إعادته في اللحظة التي يمكن الاستغناء عنه فيها» وقال له أيضاً إن كل ما يهياً للإرسال إلى الشرق إنما تعتبره مصالح قوية في بريطانيا وفرنسا وكأنه قد سرق من الغرب» [271].

عندئذ قدم مدير العمليات العسكرية في وزارة الحرب إيجازاً إلى هاملتون وأطلعته على خريطة وخطة هجوم مستعارتين من الأركان العامة اليونانية، إذ إن وزارة الحرب البريطانية لم تكن قد كلفت نفسها عناء إعداد خريطة وخطة خاصتين بها.

مضى الجنرال هاملتون ومعه خريطة غير دقيقة عفا عليها الزمن ولا شيء آخر يسترشد به. ولدى رؤيته شبه جزيرة غاليبولي للمرة الأولى قال على الفور «تبدو شبه الجزيرة هذه أعتى مما بدت على خريطة اللورد كيتشنر الصغيرة غير المجسمة» [272]. لقد كانت شبه جزيرة غاليبولي مساحة من الشعاب والوديان التي كانت تقسم شاطئها إلى شواطئ صغيرة مفصولة عن بعضها بعضاً.

أبحر هاملتون من مرسيليا على طراد سريع فوصل إلى ساحل غاليبولي بتاريخ 18 آذار (مارس)، أي في الوقت المناسب لإقناع دوروبيك بوقف الحملة البحرية. وفي أواخر نيسان (أبريل) أبحر عائداً إلى المضائق ليتولى قيادة هجوم الجيش. وقد كان حريصاً على اتباع التعليمات التي زوّده بها وزير الحرب بشأن الحملة. كانت هذه التعليمات تقضي بأن يهاجم الجانب الأوروبي فقط من المضائق، أي شبه جزيرة غاليبولي، وألا يبدأ الهجوم إلا بعد وصول قواته كلها، وهذا ما جعله يأمر الأسطول أن يعيده من تركيا إلى مصر لتجميع قواته فيها (بالرغم من مأخذه على ذلك). وقد تطلب الأمر منه ثلاثة أسابيع لتنظيم القوة التي ستشارك في الحملة، ثم أعاد الأسطول إلى



تركيا لكي يبدأ غزوه لشبه جزيرة غاليبولي، أي الشاطئ الغربي (الأوروبي) للدردنيل.

كانت مجازفة مليئة بالمخاطر: وحقيقة الأمر أن الدراسات العسكرية البريطانية التي أجريت قبل الحرب وكشف اسكويث النقاب عنها في نهاية شباط (فبراير)، قد بينت أن قيام الجيش البريطاني بهجوم على غاليبولي عمل ينطوي على مجازفة بالغة [273]. مع ذلك أمر كيتشنر بشن هذا الهجوم قائلاً أنه يعتقد أن القادة العسكريين العثمانيين تركوا الجانب الأوروبي من المضائق بشكل أو بآخر خالياً من وسائل الدفاع.

عندما انعقد مجلس الحرب سأل العضو الوحيد في هذا المجلس من حزب المحافظين - رئيس الوزراء السابق آرثر بلفور - «هل من المحتمل إذا قطعت الامدادات عن الأتراك أن يستسلموا أم أنهم سيحاربون وظهرهم إلى الحائط؟» فقال لويد جورج «انه يرجح أن يصمدوا» ولكن كيتشنر اجاب قائلاً أنهم قد يستسلمون [274].

بعد ذلك بعام أصدرت جيوش الحلفاء المقاتلة في الميدان حكمها في هذا الموضوع. إن كومبتون ماكنزي، الروائي الشاب الذي تحول مراسلاً حربياً، بعث برسالة من الدردنيل قال فيها: «إن الضباط الفرنسيين الذين قاتلوا في الغرب يقولون إن تركيا واحداً يساوي اثنين من الألمان كإنسان مقاتل. فهو في الواقع يكون رائعاً عندما يحارب وظهره إلى الحائط» [275].

### (3)

فجر 25 نيسان (ابريل) 1915 أنزلت جيوش بريطانيا وبلاد الدمينون والجيوش الحليفة على ستة شواطئ ضيقة متصلة في شبه جزيرة غاليبولي، وقد أخذ الأتراك على حين غرة إذ انهم كانوا يعرفون موعد الهجوم ولا يعرفون مكانه، وربما كان بالامكان التغلب عليهم في ذلك اليوم.

غير أن موقع الغزو الأقصى شمالاً، وهو موقع أري بورنو، قد شكل مفاجأة للجنود الاستراليين والنيوزيلانديين الذين أنزلوا هناك - فقد أخذهم الاسطول خطأ إلى شاطئ غير الشاطئ المقرر لنزولهم. وبينما كانوا يتسلقون سفوح التلال السحيقة الإنحدار التي كانت أمامهم جابهوا جنوداً أتراكاً كانوا قد فروا فأعاد تجميعهم قائدهم مصطفى كمال. وقد احتدمت المعركة طوال اليوم. ومرت لحظات كان يمكن أن ترجح فيها كفة أي من الجانبين، ولكن الأتراك في نهاية الأمر دحروا الغزاة وردوهم عن السفوح.

عند طرف شبه جزيرة غاليبولي كانت هنالك خمسة رؤوس جسور أخرى محددة لنزول قوات الحلفاء وقد أعطيت أسماء رمزية فسمي كل واحد منها بحرف من حروف الهجاء الإنكليزية.

وفي أحدها لم يكن هناك جنود أتراك فتسلق الغزاة التل إلى قمته المشرفة على الشاطئ دون أن يواجهوا مقاومة. ولكنهم بدل أن يواصلوا الزحف توقفوا بسبب اشكال يتعلق بمن يتولى القيادة.

وفي رأس جسر آخر واجه المهاجمون مقاومة ضئيلة فتسلقوا المرتفع الصخري - ولكنهم توقفوا ايضاً. وفي موقع ثالث واجه الفريق المهاجم مقاومة ضئيلة ولكنه رابط على الشاطئ ولم يحاول الصعود إلى قمة المرتفع المطل على الشاطئ.

كان الحلفاء في ذلك اليوم يتمتعون بتفوق ساحق في عدد الجنود - فقد كان معظم قوات الجنرال ليمان قد تجمع كاحتياطي في مكان يبعد مسافة عن ساحة المعركة - وكان باستطاعة قوات الغزو في ثلاثة من رؤوس الجسور ان تستثمر الهجوم المفاجيء فتتقدم وتدمر الحامية التركية الصغيرة في جوارها.

مع حلول 26 أيلول (سبتمبر) تبدل الموقف. فقد بدأت تتدفق التعزيزات التركية، وبمعنى ما انتهى كل شيء: لم يعد احراز نصر رخيص الثمن في شبه جزيرة غاليبولي في متناول يد الحلفاء.

وقد نصح الجنرال بيردود، قائد القوات الاسترالية والنيوزيلندية، بناء على مشورة ضباطه، بالعودة إلى السفن والتخلي عن المواقع التي احتلتها

قواته. ولكن سير إيان هاملتون، باعتباره القائد الذي يتبعه بيردوود، قرر بدلاً من ذلك الثبات في المواقع.

إن هاملتون اقتر، دون أن يدري، بأن الحملة التي يقودها - والتي كانت الغاية منها كسر الجمود العسكري في الحرب - قد كتب لها الفشل. فحفر الخنادق، كما تبين في فرنسا والفلاندرز، يؤدي على الأرجح إلى جمود بدلاً من أن يكسر الجمود. والحقيقة ان غاليلوي، بما شهدته من هجمات دموية عقيمة على مواقع ثابتة، كانت ستتحول إلى ساحة لإعادة عرض رواية حرب الخنادق في الجبهة الغربية.

كان هاملتون قد وضع قواته في مواقع تستطيع منها في أحسن الحالات ان تقاتل الأتراك حتى التعادل، وفي أسوأ الحالات ان تمنى بكارثة. فالأتراك حفروا خنادقهم على المرتفعات المسيطرة على المنطقة، أما قادة القوات البريطانية فقد أمروا جنودهم بحفر خنادقهم على الشواطئ. وهناك على حافة الماء صار قتال الحلفاء في نهاية الأمر قتالاً من أجل البقاء. وما لبث معظم أعضاء الحكومة البريطانية في لندن ان رأوا في الجلاء الحل الوحيد، ولكن تشرشل وكيثشنر ناضلا ضد الجلاء: اتخذ تشرشل هذا الموقف لأنه لم يكن مستعداً لقبول الهزيمة، أما كيثشنر فلأنه اعتقد ان رؤية جيش بريطاني مهزوم من قبل جيش شرق أوسطي ستكون كارثة بالنسبة لبريطانيا.

# الفصل الثامن

## السياسيون

### (1)

تصميم تشرشل العنيد على مواصلة القتال في غاليبولي حتى النصر أبقاه في بقعة الضوء حتى بعد أن تسلم الجيش من البحرية مهمة حملة الدردنيل. وقد بدا أنه الرجل الذي تسبب في الحرب مع الامبراطورية العثمانية وأنه كذلك الرجل الذي تسبب في أن تُمنى بريطانيا بهزيمة بعد أخرى في تلك الحرب.

ومع أن معركة المضائق لم تعد منذ شهر نيسان (ابريل) عملية تقوم بها الاميرالية، فقد جعلوا من تشرشل كبش الفداء المسؤول عن استمرار الاصابات بين الجنود والنكسات التي أصابت جيوش الحلفاء وهي تقاتل بلا أمل في غاليبولي. ولأن مهابة كيتشنر كانت عظيمة فإن الصحافة، والرأي العام، والبرلمان رأوا أنه مما لا يخطر في البال أن يكون مسؤولاً عن الأخطاء التي ارتكبت.

أما تشرشل فكانوا ينظرون إليه على أنه مدني يتدخل في شؤون غيره، ولذلك كان من السهل أن تصدق هذه الجهات أمراء البحر في ادعائهم أن تدخله بأسلوب الهواة في المسائل البحرية كان سبب النكسات البريطانية. وقد عبرت جريدة «التايمز» عن اجماع في الرأي كان يتبدى في عام 1915 عندما أعلنت في مقالها الرئيس يوم 18 أيار (مايو):

«إن ما كان يتردد منذ مدة طويلة وراء الكواليس باعتباره مجرد شائعة، هو الاتهام الذي تردد تكراراً وبصورة مطلقة في أوساط الرأي العام، أن لورد الاميرالية الأول يتولى مسؤوليات ويخالف مستشاريه الخبراء إلى حد قد يعرض السلامة الوطنية للخطر في أي وقت... وعندما يسعى وزير مدني مسؤول عن سلاح مقاتل سعيًا متماديًا للقبض على سلطة ما كان ينبغي أن تنتقل إلى يديه غير الخبيرتين، ويحاول استخدام هذه السلطة بطرق تقود إلى الهلاك، يكون الوقت قد حان كي يتخذ زملاؤه في مجلس الوزراء اجراء محددًا» [276].

لم يكن معروفًا بصورة عامة خارج المجلس الوزاري الحربي أن اللورد كيتشنر هو واضع خطة ارسال الأسطول ليهاجم الدردنيل بهذه الخاصـ

وقد وجه الجميع اللوم إلى تشرشل في اتخاذ هذا القرار، ولذلك صار ملوماً أيضاً عن مهلة الانذار المسبق التي استمرت أسابيع عدة والتي أعطيت إلى أنور باشا وليمان فون ساندروز، الأمر الذي مكّنهما من تحصين جيوشهما في الخنادق لصد هجوم الحلفاء على غاليبولي. وقد رأى الضباط الذين كانوا على شواطئ غاليبولي أن الهجوم البحري السابق كان عملاً استعراضياً ناقصاً قام به اللورد الأول للأميرالية بدافع حب التظاهر، عملاً فاشلاً هددهم بخطر الموت. إن أوبري هيربرت، الذي كان يؤدي الخدمة هناك في القوات المسلحة، كتب في مفكرته اليومية «إن اسم ونستون يملأ نفس كل إنسان بالغضب. كان الأباطرة الرومان يقتلون العبيد من أجل اكتساب الشعبية، وهو يقتل رجالاً أحراراً من أجل اكتساب الشهرة. ولو كان قد ارتدع عن تجربة تلك الضربة وتعاون مع الجيش، لكان ممكناً أن نصل إلى القسطنطينية بخسارة ضئيلة جداً» [277]. وفي وقت لاحق كتب يقول «بالنسبة لونستون، أود لو أنه يموت من جراء بعض الآلام الممضة التي رأيت كثيرين هنا يموتون من جرائها» [278].

وانهالت عبارات التقريع والشتائم على تشرشل من كل الأوساط، وتدهور وضعه السياسي تدهوراً سريعاً. ووصلت الأمور إلى أقصى مداها نتيجة خلاف نهائي بين تشرشل وأعظم رجال البحرية في بريطانيا، أميرال الاسطول اللورد فيشر، أميرال البحرية الأول. كان تشرشل وفيشر قد اجتمعا واتفقا على برنامج تعزيزات للأسطول دعماً لحملة غاليبولي يوم الجمعة 14 أيار (مايو). وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي تسلم فيشر عدة مذكرات من تشرشل أجمل فيها النقاط التي اتفقا عليها ولكنه أضاف إليها مقترحات من عنده. فاحتد فيشر، الذي سبق أن أعلن في ثماني مناسبات سابقة أنه يرغب في الاستقالة، واتجه مشياً من مقر الاميرالية إلى رقم 11 شارع داووينغ المجاور لمقر الاميرالية وأبلغ وزير المالية، ديفيد لويد جورج، أنه عازم على الاستقالة من منصبه. وقد أرسل لويد جورج في طلب رئيس الوزراء الذي كان في البناء المجاور رقم 10 شارع داووينغ، وحاولا كلاهما اقناع فيشر بالبقاء في منصبه، على الأقل مؤقتاً. ولكن فيشر رفض، وعاد إلى حجرته في مقر الاميرالية، فأقفل الباب، وأسدل الستائر. بعد ذلك توارى عن الأنظار بعض الوقت.

علم تشرشل بالوضع من زملائه، إذ أن فيشر رفض أن يقابله. وكانت المشكلة الفورية، أن البحرية - في خضم الحرب - صارت من دون قائد أعلى وأن نيات الأعضاء الآخرين في مجلس الاميرالية لم تكن معروفة. وقد تلقى تشرشل يوم الأحد 16 أيار (مايو) تأكيدات بأن لوردات البحرية الثاني والثالث والرابع مستعدون للبقاء في مناصبهم. كذلك فإنه ضمن موافقة

أميرال الاسطول سير آرثر ويلسون على العودة إلى المنصب الذي شغله قبل الحرب بصفة لورد البحرية الأول ليحل محل فيشر. وبما ان الصحافة ودنيا السياسة لم تكن بعد قد اطلعت على استقالة فيشر، عزم تشرشل ان يعلن استقالة فيشر والتوجيهات الجديدة في الاميرالية أمام مجلس العموم صباح الاثنين - قبل ان يتاح للمعارضة الوقت لإفساد خطته.

غير ان فيشر أرسل تلميحاً بما فعله إلى أندرو بونار لو، زعيم المعارضة، وقد فهم بونارلو بحدسه معنى التلميح، فكانت مهمته الأولى صباح الاثنين زيارة لويد جورج، فسأل بونار لووزير المالية هل استقال فيشر فعلاً، وعندما أكد لويد جورج الاستقالة، عرض بونار لو رؤيته للعواقب السياسية الخطيرة التي يمكن توقعها نتيجة لذلك. وكانت المعارضة حتى ذلك الحين قد امتنعت عن تحدي الحكومة في زمن الحرب، ولكن بونار لو قال الآن انه لم يعد قادراً على ان يضبط اتباعه. كان فيشر هو البطل في نظرهم، ولن يسمحوا ببقاء تشرشل في الاميرالية إذا غادرها فيشر. كما انهم لن يتوقفوا في حملاتهم عند هذا الحد، لأن أعضاء البرلمان من حزب المحافظين شعروا انه لم يعد في مقدورهم، إزاء الاخفاقات العسكرية المتتالية، ان يؤيدوا حكومة من حزب الأحرار تأييداً غير مشروط.

كان الحل الذي طرحه بونار لو هو توسيع الحكومة. وقد اقترح ان تحل حكومة ائتلافية تمثل الحزبين الرئيسيين في البرلمان وحزب العمال، محل حكومة الأحرار.

لقد أدرك لويد جورج في الحال قوة حجة المعارضة، فطلب إلى بونار لو ان ينتظر في الرقم 11 شارع داوينغ بينما ذهب هو إلى البناء المجاور للتشاور مع رئيس الوزراء. وقد طرح لويد جورج فكرة الحكومة الائتلافية طرحاً قوياً على اسكويث، الذي وافق على الفكرة حالاً.

أما تشرشل فلم يعرف شيئاً مما يجري. فتوجه في ساعة مبكرة من بعد ظهر ذلك اليوم إلى مجلس العموم ليعلن ان لوردات البحر وافقوا على البقاء وقبلوا بأن يكون أميرال الاسطول ويلسون رئيسهم الجديد. ولدى وصوله تبين له ان لويد جورج واسكويث لن يسمحا له بإلقاء خطابه.

وقال اسكويث انه لا يريد ان يجري النقاش المقرر بين الأحزاب. وأبلغ اسكويث تشرشل انه سيؤلف حكومة جديدة تضم الأحرار والمحافظين والعمال.

أعلن تأليف الحكومة الجديدة في 19 أيار (مايو) 1915. وقد عزل تشرشل من الاميرالية ومنح منصباً ثانوياً بصفة مستشار دوقية لانكاستر - في واقع الأمر وزيراً من دون حقيبة وزارية - ولكنه بقي عضواً في مجلس الوزراء الحربي.

لم تكن الأوساط السياسية تعلم آنذاك انه لو لقي تشرشل أذناً صاغية لكانت حملة الدردنيل قد نجحت في وقت لم يكن فيه عدد الإصابات قد تجاوز بضع مئات، وان بريطانيا بسبب معارضة قادة الأسطول والجيش لآرائه، مقبلة على حملة من شأنها ان تكلفها أكثر من 200,000 اصابة، وهكذا فإن هذه الأوساط السياسية أخفقت في استيعاب حقيقة جوهرية وهي ان قادة قوات البر والبحر البريطانيين يخسرون الحرب وان بلادهم في حاجة ملحة ليس إلى اشراف مدني أقل، بل إلى اشراف مدني أكثر، على العسكريين.

وأخفقت الأوساط السياسية في بريطانيا أيضاً في استيعاب حقيقة جوهرية أخرى، وهي: ان الحلفاء كانوا الجانب الخاسر في الحرب الدائرة في الشرق، وليس هذا فقط، بل ان الجانب الآخر كان هو الجانب الراجح. لقد كانت نتائج الحملة تعبر عن حقيقة ان شجاعة وصمود الجنود الاستراليين والنيوزيلنديين والبريطانيين والفرنسيين كانت تماثلها شجاعة وصمود خصومهم العثمانيين.

## (2)

كان لويد جورج وراء انشاء هذه الحكومة الائتلافية الأولى التي حرم فيها تشرشل من منصب وزاري رئيس. وقد ادعى «انه كافح من أجل اسناد منصب رفيع إلى تشرشل... بيد ان زملاءه أبوا ان يسندوا إلى تشرشل سوى منصب ثانوي» [279]. غير ان لويد جورج كان يدري ان تشرشل المتأذي والغاضب يلقي الملامة عليه [280]. لقد تحدثت زوجة تشرشل بمرارة، حتى بعد مرور سنين، عن وزير المالية لويد جورج مشبهة إياه بيوضاس الذي خان السيد المسيح وقائلة ان «خداعه الذي يتصف به أهل ويلز» قد حطم مسيرة حياة اللورد الأول للاميرالية. كذلك فإن دوق مارلبورو، ابن عم تشرشل بعث بمذكرة في 24 أيار (مايو) قال فيها: «حقاً ان لويد جورج قضى عليك» [281]. أما تشرشل نفسه فقد هتف قائلاً: «أنا ضحية مكيدة سياسية. لقد انتهيت» [282].

كان لويد جورج دائماً يعتبر الحرب مع الامبراطورية العثمانية خطيئة تشرشل. وفي ربيع عام 1915 نظر لويد جورج نظرة أوسع إلى اخفاقات صنيعته السابقة. وعندما أصبح واضحاً أنه لا مفر من مغادرة تشرشل للاميرالية، كان تعقيب لويد جورج هو «هذا جزاء الرجل الذي كافح على مدى سنوات من أجل هذه الحرب، وعندما وقعت الحرب رأى فيها فرصة تحقيق المجد لنفسه، وهكذا أقدم على حملة خطيرة دون ان يهتم قيد أنملة بالبؤس والشقاء اللذين ستجلبهما هذه الحرب لآلاف الناس، مؤملاً ان يبرهن انه الرجل الفذ في هذه الحرب» [283].



# الفصل التاسع

## الضوء الذي خبا

### (1)

تولى الأعضاء الاتحاديون - المحافظون في الحكومة البريطانية الجديدة مناصبهم معتقدين ان مهمتهم هي حماية القيادة العسكرية في البلاد من تدخل المدنيين، وبعد النجاح في عزل تشرشل من الاميرالية، رأوا ان المادة التالية على جدول الأعمال هي حماية اللورد كيتشنر من خصمه الرئيسي، السياسي المنتمي إلى حزب الأحرار لويد جورج.

كانت ميزة ديفيد لويد جورج وزير المالية، انه كان أول عضو في مجلس الوزراء يسائل الفيلد مارشال كيتشنر في قرار اتخذه بعد ان أصبح وزير دولة للشؤون الحربية. ومنذ ان بدأ لويد جورج بمساءلة كيتشنر في احكامه، لم يعد يكف عن ذلك. ان هذا السياسي من حزب الأحرار، بدافع حرصه على تجنب الوقوع في مثل الحفرة التي قضت على تشرشل في الاميرالية، فلم يجرؤ في أول الأمر ان يتحدى الفيلد مارشال في مسائل عسكرية بحت. وإنما شنّ وزير المالية حملته على أرضية من اختياره هو. والمسألة التي أثارها هي نقص الذخائر والتموينات الأخرى. وبما ان هذه المسألة تشمل أمور اليد العاملة، والانتاج، والمالية، فقد كانت مسألة يتمتع بمؤهلات للكلام عليها تفوق مؤهلات كيتشنر.

في 19 أيار (مايو) 1915، اليوم الذي أعلن فيه تأليف الحكومة الجديدة، باشر لويد جورج المراحل النهائية لحملة نجحت في انتزاع مهمات الذخائر والتموين من وزارة الحربية التي يرأسها كيتشنر واسنادها إليه بصفته وزيراً للذخائر. وقد نجح في وزارته الجديدة في ان يحقق ما لم يستطع كيتشنر تحقيقه: توسيع الانتاج المدني للمواد الحربية وايجاد مصادر جديدة للتموين.

لقد بدأ أعضاء مجلس العموم الوندويون - المحافظون الذين دخلوا الحكومة الائتلافية الجديدة ينظرون نظرة جديدة إلى لويد جورج واللورد كيتشنر، بعد ان كانوا قد كوّنوا رأياً مسبقاً عن خصومتهم. وقد أصبح لويد جورج بصفته وزيراً للذخائر، أشبه بالعاصفة التي تزداد قوة ذاتية لتدمير العدو. وبدأ المحافظون ينظرون إليه نظرة اعجاب ويكيلون له ولجهوده الثناء. كان بونار لو وزملاؤه قد انضموا إلى مجلس الوزراء لحماية كيتشنر

والعسكريين من تدخل المدنيين أشباه الهواة التابعين لحزب الأحرار، فإذا بهم فجأة يجدون أنفسهم قد انضموا إلى صف لويد جورج في إثارة الشك حول كفاءة كيتشنر. كان القرار العسكري المسلح الذي واجه الحكومة الجديدة هو ما الذي ينبغي عمله بشأن حملة غاليبولي. لقد أعاد مجلس الحرب المنبثق عن مجلس الوزراء تكوين نفسه بشكل لجنة شؤون الدردنيل، فعقدت هذه اللجنة اجتماعها الأول في جناح اسكويث في مجلس العموم بتاريخ 7 حزيران (يونيو) 1915، لمناقشة المسألة. وتتابع بعد ذلك اجتماعاتها. وقد تبين للمحافظين أن وزير الدولة للشؤون الحربية لم يزودهم بالمعلومات التي يحتاجونها لإصدار حكم في المسألة. فقد كان كيتشنر كتوماً ومتربداً في الكشف عن معلومات عسكرية للمدنيين. وكان أحياناً يتجنب الرد على أسئلة، لأنه لم يكن يملك معلومات كافية ودقيقة وأحياناً أخرى كان يتخذ مواقف متناقضة.

كان بونار لو وزميله الرئيسي في حزب المحافظين، المدعي العام سير ادوارد كارسون، يميلان إما إلى التخلي عن هذه المجازفة أو إرسال تعزيزات كافية إلى غاليبولي ضماناً لنجاح الحملة. وكان السؤال هو: ما مستوى التعزيزات التي من شأنها ضمان النجاح، ولكن كيتشنر كان يمتنع عن بيان عدد الجنود لدى الجانب التركي في غاليبولي أو عدد الجنود البريطانيين الذين تدعو إليهم الحاجة لكسب المعركة. بل ظل بدلاً من ذلك يتحدث عن عدد الجنود الذين يمكن الاستغناء عنهم في الجبهة الغربية، وفي مطلع أيلول كتب كارسون بدافع الغيظ الشديد «إن الأمر الذي يمضني هو في حساباتنا كلها (إذا صح أن نكرمها بهذه التسمية) هي حسابات عشوائية على الإطلاق - فما يقال لنا دائماً هو كم نستطيع أن نرسل وليس كم هو ضروري» [284].

ولدى استجواب وزارة الحربية في إحدى المناسبات، تبين للوزراء أن معلومة هامة كانت قد وردت برقياً إلى الوزارة، مع أن وزير الحربية أنكر أي اطلاع عليها. فإما أن يكون كيتشنر قد سهي عن البرقية أو أنه أساء فهمها. وخلال اجتماع لمجلس الوزراء كتب كارسون على ورقة من قرطاسية رئاسة المجلس ملحوظة مَرَّرها إلى لويد جورج عبر طاولة الاجتماعات وقال فيها:

«كيتشنر لا يقرأ البرقيات ونحن لا نطلع عليها - أمر لا يطاق» [285].

بدأ كارسون يستجوب كيتشنر في اجتماعات مجلس الوزراء وكأنه مجرم متهم يقف في قفص الاتهام. إن مراوغة كيتشنر مقرونة بالتنبؤات الباعثة على الأمل التي كانت ترد من سير إيان هاملتون والتي بدت غير قابلة إطلاقاً للتحقيق، أشاعت في نفوس زعماء حزب المحافظين الإحباط

والياس. ومن العبارات التي تمثل نماذج لما كان يقال خلال جلسات لجنة الدردنيل، ان «سير ادوارد كارسون ذكر ان المذبحة المستمرة لا تحقق نجاحاً، وهو يسأل هل ينبغي ان تستمر» و«ان السيد بونار لو قد سأل ان كان يجب ان يواصل سير ايان هاملتون الهجوم ما دام واضحاً ان الهجوم لا يبعث على الأمل» [286].

مسألة ما يجب عمله طالبت وامتد بحثها حتى أواخر الخريف. وبدأ يتصلب الرأي في مجلس الوزراء المحبذ للانسحاب من غاليبولي، إذ ان كيتشنر عجز عن تقديم بديل واعد بالنجاح. ولكن كيتشنر خالف الرأي بحجة انه يجب على بريطانيا ان تثابر على القتال. وادعى ان «التخلي عن القتال سيكون أكبر حدث كارثي في تاريخ الامبراطورية» ولو انه في الوقت ذاته اعترف بأنه «يود ان يصفى الوضع» [287].

ولم يكن لدى مجلس الوزراء استعداد باصدار أمر الانسحاب من غاليبولي من دون موافقة كيتشنر لا سيما ان القائد في الموقع، سير ايان هاملتون، ظل يأمل في النجاح. ولكن الوضع على شواطئ غاليبولي كان يدعو إلى اليأس، وقد توافق الرأي على ضرورة عمل شيء ما، بين ويندهام ديدز، الضابط الذي سبق ان حذر كيتشنر من الإقدام على مجازفة الدردنيل، ولكنه مع ذلك كان يؤدي الخدمة العسكرية في منطقة الدردنيل، وضابطين آخرين هما جورج لويد وغي داوني، وقد رسموا خطة لإرسال أحدهم إلى لندن لإبلاغ مجلس الوزراء حقيقة الوضع. وتوفرت الفرصة للضابط داوني فاغتنمها.

لدى عودة داوني إلى لندن قابل كيتشنر وغيره من القادة البريطانيين، ومن ضمنهم تشرشل الذي تدنى مركزه مؤخراً. حاول ان يبلغهم رسالته، فإذا بهم مترددون في قبول الحقيقة غير المستساغة المذاق. وكان ديدز قد حزر هو أيضاً ما الذي سيكتشفه داوني وقال له: «أراهن ان أفضل الذين التقيتهم هو ونستون بالرغم من كل شيء!» [288].

في نهاية الأمر تم تعيين قائد آخر مكان ايان هاملتون، وقد رأى القائد البريطاني الجديد في الحال انه لا أمل في الوضع ودعا إلى جلاء فوري. ولكن مجلس الوزراء ظل متردداً. كانت المشكلة، هي هي، اللورد كيتشنر.

## (2)

خيال لويد جورج الساطع شبّه عقل كيتشنر بالفنار الدوّار. ولكن الضوء في هذا الفنار انطفأ فجأة في العاصفة الهوجاء التي ولدتها حملة غاليبولي. وظل زملاء الفيلد مارشال ينتظرون في الظلام وقد استبد بهم الغضب وازداد نفاد صبرهم، عسى ان يبدد عتمة الليل شعاع الضوء الذي لم يعد ثانية إلى الدوران من حولهم.

وحتى بونار لو المحافظ تحول في موقفه إلى حد انه اقترح ان يحل لويد جورج محل كيتشنر في وزارة الحربية، غير ان رئيس الوزراء قاوم الاقتراح. لم يكن أحد يدرك اخفاقات الفيلد مارشال سوى المجموعة الداخلية في الحكومة. فقد بقي للفيلد مارشال انصاره في البلد، وشعر اسكويث ان ابداله مستحيل سياسياً. وكان الحل النموذجي الذي ارتآه رئيس الوزراء هو ارسال كيتشنر إلى الدردنيل في مهمة لجمع الحقائق على أمل ان يحتجز هناك زمناً غير محدد.

الذي حدث، هو ما ان ذهب كيتشنر إلى هناك ورأى بنفسه ساحة المعركة حتى شعر انه مضطر للموافقة على التخلي عن غاليبولي. وهكذا فإن مجلس الوزراء، بعد ان تسلم بموافقة كيتشنر أصدر أخيراً التفويض الضروري، وفي بداية عام 1916 اكتملت عملية الجلاء - هذه العملية التي كانت بكل المقاييس أروع عملية في الحملة. وقد وصف ديدز الجلاء بأنه واحد من أبرز الأشياء في التاريخ» [289].

### (3)

في 25 نيسان (ابريل) 1915 كان باستطاعة الحلفاء ان يحصلوا على نصر سهل غير دموي بواسطة هجومهم المفاجيء، ولكن بعد ذلك التاريخ بمئتين وتسعة وخمسين يوماً، عندما انسحبوا مهزومين من مواقعهم الأخيرة على شواطئ الدردنيل التي روتها الدماء، تبين انهم خسروا واحداً من أكثر الاشتباكات العسكرية كلفة في التاريخ. كان عدد الجنود المشتركين في المعركة نصف مليون جندي في كل جانب، وقد بلغ عدد الإصابات في كل جانب من الجانبين ربع مليون جندي.

كانت معركة حاسمة، من حيث انه كان بإمكان الحلفاء ان يربحوها وان يربحوا معها حرب الشرق الأوسط - فلم يربحوها. وقد أُلقت هذه المعركة بظلالها أيضاً على ما هو مقبل من الأمور. إن جيشاً أسيوياً كان يفترض انه متخلف قد هزم جيشاً أوروبياً عسرياً.

كان لذلك تأثيره من حيث جر أوروبا إلى شؤون الشرق الأوسط على أساس طويل الأجل. والتورط العسكري الذي خشيه كيتشنر وفشل في منعه قد توقف مؤقتاً نتيجة جلاء الحلفاء، ولكنه سوف يستأنف بعد سنة. وأهم من ذلك ان النكسة التي أصابت الحلفاء قد دفعت ببريطانيا بالمعنى المحدد والمعنى العام إلى توريط نفسها بصورة أعمق في شؤون الشرق الأوسط. ومن حيث المعنى الخاص، كما سيتبين حالياً، دفعت هذه النكسة مساعدي كيتشنر إلى التحالف مع حاكم شرق أوسطي اعتقدوا ان بإمكانه ان يساعد في انقاذ جيوش سير إيان هاملتون في غاليبولي من الهلاك.

ومن حيث المعنى العام، فإن مجرد ضخامة التزام بريطانيا وخسارتها في غاليبولي جعلها ترى بعد مرور سنوات ذات أهمية حيوية انه ينبغي لها ان تلعب دوراً رئيساً في الشرق الأوسط بعد الحرب لكي تعطي معنى ما لتضحية بهذا الحجم الكبير.

## (4)

في 18 تشرين الثاني (نوفمبر) 1915، وبعد ان استقال تشرشل من منصبه كمستشار لِدوقية لانكستر، عبر البحر إلى فرنسا لِيخدم هناك، بناءً على طلبه، ضابطاً في الجيش على الجبهة الغربية. وقد ظل العالم السياسي يلقي عليه تبة ما حدث في غاليبولي. بيد ان كيتشنر أيضاً أخذ يتلقى اللوم في مجلس الوزراء، وكان يعرف انهم يلومونه.

أدرك اللورد كيتشنر ان زملاءه في مجلس الوزراء كانوا يأملون ألا يعود من رحلته إلى الدردنيل، ولكنه تعمد ان يخيب آمالهم. ولدى عودته إلى لندن في نهاية عام 1915 تحدث صراحة إلى رئيس الوزراء عن فقدانه للتأييد داخل مجلس الوزراء وعرض ان يستقيل. وبما انه لم يعثر على بديل له مقبول، فقد تبنى اسلوباً مختلفاً لمعالجة الموقف. وبموافقة رئيس الوزراء عمل على إحداث تبديل أساسي في طبيعة المنصب الذي كان يشغله بصفته وزيراً للحربية، وبهذا التبديل خفض سلطات ومسؤوليات شاغل هذا المنصب. ثم جيء بجندى مقاتل من الجبهة الغربية، هو الفيلد مارشال سير وليم روبرتسون، وعيّن في منصب رئيس هيئة الأركان العامة لقوات الامبراطورية ومنح سلطات موسعة كثيراً بعد ان كانت هذه السلطات ضمن اختصاص كيتشنر بصفته وزيراً للحربية.

مع ذلك احتفظ كيتشنر بسلطة صياغة السياسة تجاه الشرق الأوسط من الناحية السياسية.

وعندما عاد إلى لندن في نهاية عام 1915، عاد مساعده سير مارك سايكس إلى لندن أيضاً من رحلة لجمع الحقائق، حاملاً معه أنباء مثيرة عن حاكم شرق أوسطي يمكن ان يتحالف مع بريطانيا، وعن برنامج ثوري على أساس ذلك التحالف لتحويل التيار في الحرب العثمانية - وكان على كيتشنر ان يسعى لإقرار هذا البرنامج في مجلس الوزراء.

# الفصل العاشر

## إنشاء المكتب العربي

### (1)

في شتاء عام 1915 - 1916، وفيما كان الحلفاء يخططون للجلاء عن غاليبولي وينفذونه، وفيما تولى اللورد كيتشنر دوراً أصغر في توجيه الحرب، حدث تحول جديد في السياسة البريطانية تجاه الشرق الأوسط: لقد بدأ كيتشنر وزملاؤه التركيز بطريقة منظمة على الفوائد التي يمكن ان تجنيها بريطانيا من استخدام الزعماء العرب والجنود العرب الناقمين داخل الامبراطورية العثمانية. وكانوا يتصرفون على أساس توصيات عاد بها من الشرق سير مارك سايكس، الذي عيّنه كيتشنر شخصياً خبيراً في شؤون الشرق الأوسط. كان سايكس عائداً إلى بلاده من مهمة طويلة لاستقصاء كيفية تعامل الحلفاء مع الشرق الأوسط المهزوم - وهي مهمة لم يكن لها الكثير من صفة الاستعجال بعد النصر الذي حققته تركيا في غاليبولي. إن المشاريع كثيراً ما تولد من ذاتها قوة دفع: ففي شتاء عام 1915 استمر الهجوم البحري البريطاني على الدردنيل بعد ان حلت المشكلة الروسية التي كان القصد من الهجوم تخفيف أثارها، وبعد انتهاء فصل الشتاء استمر التخطيط لكيفية اقتطاع الشرق الأوسط بالرغم من ان الاستيلاء على القسطنطينية الذي كان يتوقعه تشرشل - والذي كان الدافع إلى هذا التخطيط - لم يتحقق.

وبعد ان قدمت لجنة دوبونسين - التي كان يوجهها سير مارك سايكس - تقريرها عن الشرق الأوسط بعد الحرب بتاريخ 30 حزيران (يونيو) 1915، أرسلت الحكومة البريطانية سايكس إلى الشرق لبحث توصية اللجنة مع الضباط والمسؤولين في المنطقة. وقد سافر إلى البلقان، وسافر إلى مصر مرتين (مرة في الذهاب وأخرى في الإياب)، وإلى الخليج الفارسي، وإلى بلاد الرافدين، وإلى الهند. كانت مهمة كبيرة. فقد استغرقت رحلة سايكس نصف عام، وأتاح له فرصة فريدة للاطلاع على وجهات نظر مختلفة، ولكنه لم يتمكن من الاجتماع مع أعضاء مجلس الوزراء في لندن ليطلعهم شخصياً على ما تجمع لديه إلا وكان عام 1916 على عتبة البداية.

لدى توقفه المرة الأولى في القاهرة - وكان ذلك في طريق الذهاب في صيف عام 1915 - اجتمع سايكس مع مستشاري كيتشنر لشؤون الشرق

الأوسط في مصر. وحدث ان رونالد ستورز، الذي تعرف إليه سايكس قبل الحرب، قدمه إلى جيلبرت كلايتون. وفي الحال شكل الدين رابطة بينهما:

فقد كان كلايتون مسيحياً متديناً وأعجب سايكس اعجاباً شديداً بجديته. وقد أصبحا صديقين وزميلين أيضاً، ولو ان سايكس كان أكثر انفتاحاً في تعامله مع كلايتون مما كان كلايتون في تعامله مع سايكس.

إن أصدقاء سايكس قد عرفوه إلى شخصيات ناطقة بالعربية ذات آراء مؤيدة لبريطانيا، وأصبح سايكس أحد دعاة الأخذ بوجهة نظر كلايتون القائلة ان سورية يجب ان تصبح بريطانية. وقد أقنعه كلايتون وستورز بأن سكان المنطقة سيرحبون بمثل هذا التطور. أما فرنسا - حسب قوله - فيمكن تعويضها في مكان آخر، وفي أية حال فإن الفئات الوحيدة في فرنسا التي تطالب بسورية هي فئات رجال الدين أو فئات الساعين وراء الامتيازات التجارية<sup>[290]</sup>. وقد استمالته الخطة التي كان يدعو إليها آنذاك أصدقاؤه كما كان يدعو إليها وينغيت للارتقاء بالشريف حسين إلى مركز الخليفة، وهي خطة تنسجم تماماً مع وجهة نظره في ان الخلافة يجب ان تنقل إلى الجنوب، وهكذا انحاز سايكس إلى مشروع «الامبراطورية المصرية» الذي كان ينادي به ستورز. وكان هذا المشروع يقترح كيانا عربياً واحداً يحكمه روحياً الشريف حسين ويحكمه دنيوياً واسمياً ملك مصر وهو ملك منصبه رمزي، على ان تدار شؤون الحكم من القاهرة ومن قبل المندوب السامي البريطاني - الذي كان يفترض ان يكون اللورد كيتشنر.

ولكن كان في القاهرة تيار رأي وجده سايكس مزعجاً؛ والمقصود بذلك هو الحديث عن منافسة بين بريطانيا وفرنسا في الشرق الأوسط. ولم يكن سايكس يرى وجود أية أسباب جدية لاختلاف الدولتين الحليفين في زمن الحرب. كان يظن ان فرنسا غير معنية فعلياً بسورية وان بالامكان اقناعها بأن تبحث في مكان آخر عن حصتها من الغنائم. وافترض سايكس ان الحديث عن المنافسة هو من وحي مروّجي الدعاية للعدو. ولم يتبين له إلا بعد مرور شهور عديدة ان الكلام المعادي لفرنسا (وما هو أكثر من الكلام) صادر عن بعض أصدقائه في القاهرة، ولم يعرف قط ان أحد زعماء هذه الجماعة كان صديقه جيلبرت كلايتون.



## (2)

عندما وصل سايكس إلى الهند، القطب السياسي الآخر، لقي فيها استقبالا أقل من ودي. كان سايكس شاباً في منتصف أول سنة يمضيها في عمل حكومي يتولاه، وكان قد انطلق من لندن ليتحدث إلى الهند عن الشرق. والرجل الذي جاء سايكس لمقابلته يكبره سناً بعقدين من السنين وأمضى حياته في العمل الحكومي، وكان واحداً من أبرز المتخصصين في بريطانيا في السياسة الخارجية. هذا الرجل هو تشارلز ردينج، وهو سفير سابق لدى فرنسا وسبق ان كان الموظف المحترف المسؤول عن وزارة الخارجية قبل مجيئه إلى الهند نائباً للملك. وبصفته حاكماً عاماً كان يؤدي عمله بتقاليد عائلية تعود إلى القرن السابق. فقد كان جده حاكماً عاماً للهند في الأربعينات من القرن التاسع عشر، أي في العقد الذي سبق حركة التمرد في الهند. وكانت السياسة التي ينادي بها هاردينج تقضي بأن تحتل الهند بلاد الرافدين وتضمها إليها، وكان يرى ان مقترحات القاهرة «خيالية بالمطلق» وانها «مميته تماماً». وقد رفض فكرة استقلال العرب، مهما كان اسماً. وكتب يقول: «يبدو ان سايكس غير قادر على استيعاب حقيقة ان في تركيا أجزاء غير مؤهلة للمؤسسات التمثيلية» [291].

وقد كان سايكس اكثر ميلاً من أي وقت آخر لتأييد القاهرة ضد سيملا، فبدأ يعتقد ان الاختلاف في وجهات النظر وفي الصلاحيات كان في حد ذاته ضاراً. وكان يقول: «ان طريقتنا التقليدية التي تسمح لأصحاب مناصب مختلفة بأن يقدم كل منهم عرضاً على طريقته، كانت صالحة في الماضي عندما كانت هذه القطاعات تتعامل مع مشاكل متباينة ولا رابطة بينها، أما الآن فهي طريقة سيئة لأن كلاً من هذه القطاعات يتعامل في الحقيقة مع عدو مشترك» [292]. لم تكن هناك سياسة مركزية:

فكل من سيملا، والقاهرة، ووزارة الخارجية، ووزارة الحربية، والاميرالية، كانت تدير عملياتها الخاصة، وهذا ما كان يفعله أيضاً المسؤولون في الميدان، إذ كان كل منهم يجهل في عمله ما كان يفعله الآخرون، وكثيراً ما كانت تتضارب الغايات. كانت هناك عقبات رهيبة تعترض طريق التوصل إلى سياسة: فقد أحصى سايكس ذات مرة ثمانى عشرة جهة يجب استشارتها قبل ان يكون بالإمكان التوصل إلى قرار متفق عليه [293].

وقد استكشف سايكس إبان رحلته فكرة انشاء مكتب جامع يتولى مسؤولية الشؤون العربية.

أظهرت القاهرة حماسة للفكرة، وفي 13 كانون الأول (ديسمبر) 1915. ذكر كلايتون انه شرع في تجميع نواة مكتب للشرق الأدنى وانه يأمل في ان يمضي سايكس قدماً في اقرار المشروع<sup>[294]</sup>. وقد مضى سايكس قدماً بالفعل عندما عاد إلى لندن في نهاية عام 1915، إذ اقترح انشاء وكالة مركزية لتنسيق السياسة: أي «المكتب العربي» الذي يجب انشاؤه في القاهرة على ان يكون بادارته. وفي الوقت نفسه حث وزير الدولة الجديد لشؤون الهند، أوستن تشامبرلين على انشاء مكتب اسلامي لمكافحة دعاية العدو في الهند وفارس وأفغانستان. وقد أوضح نائب الملك في الهند، في ردّه، انه يعارض انشاء أي مكتب غايته التدخل في مجالات تقع في نطاق اختصاصه، وخصوصاً إذا تولى سايكس واصدقاؤه المسؤولية في هذا المكتب. وفي أوائل كانون الثاني (يناير) 1916 أصدر اسكويث أمراً بعقد مؤتمر يضم ممثلين من مختلف الوزارات للنظر في انشاء مكتب اسلامي.

لقد توصل أعضاء المؤتمر إلى اتفاق على قبول اقتراح سايكس، ولكن مع تعديل هام قضى على مضمونه. فالمكتب العربي (هكذا تقرر ان يسمى) لن يكون هيئة منفصلة، بل مجرد قسم في دائرة المخابرات في القاهرة. وهذا ما أصر عليه كيتشنر (ممثلاً بـفيتز جيرالد) وأصرت عليه أيضاً وزارة الخارجية، فلم يكن في نيتهما التنازل عن الاشراف الذي يمارسه على السياسة البريطانية. لقد صدر تفويض إلى القاهرة بإقامة كيان جديد وتعيين جهاز موظفيه، ولكن لم يتم انشاء وكالة مركزية تكون مسؤولة عن السياسة العامة - مع ان هذا ما هدف إليه اقتراح سايكس. وقد استمرت الادارات الحكومية المختلفة في اقرار وتنفيذ سياساتها المستقلة والتي غالباً ما كانت متناقضة. وبقي الدور الرئيس هو دور كيتشنر الذي كان يرجع إليه وزير الخارجية. واستمر سايكس في صنع السياسة، ولكن فقط بصفته ممثلاً لكيتشنر وليس بصفته رئيساً لوكالة مستقلة. وقد أصر كيتشنر، الذي لم يكن يرغب في التخلي عن الاشراف، على بقاء الوضع على حاله.

لقد تساءل رئيس المخابرات البحرية عن الداعي لإنشاء المكتب الجديد في القاهرة على غرار ما اقترحه سايكس وكلايتون. ولتهدئة خاطره جرى تعيين مرشحه، ديفيد هوغارت، وهو خبير في علم الآثار من جامعة أوكسفورد عمل ضابطاً في المخابرات البحرية، رئيساً للمكتب. وكان هوغارت شخصاً يكتنفه الغموض وسبق ان عمل في أجهزة المخابرات البريطانية قبل الحرب.

لقد حلّ هوغارت محل القائم بأعمال رئاسة المكتب العربي، الفرد باركر، وهو ضابط في الجيش وابن شقيق كيتشنر. ومنذ البداية عمل هوغارت

تحت إدارة كلايتون مباشرة، ويبدو انه كان يشاطره آراءه الرئيسية .  
وقد كافح المكتب العربي برئاسة هوغارت لتثبيت آراء وينغيت وكلايتون -  
الذين أرادوا توسيع اشراف مصر البريطانية على العالم العربي - خلافاً لآراء  
وزارة الخارجية وحكومة الهند .

لقد حلّ في منصب نائب هوغارت ضابط هادىء الطبع من حكومة السودان  
يدعى كيناهاان كورنواليس، وعيّن ضابط يدعى ج. سايمز، سكرتيراً لوينغيت،  
وقد جاء هذا الضابط إلى المكتب العربي من السودان . وانضم إلى المكتب  
أيضاً فيليب غريفز، وهو مراسل سابق لجريدة «التايمز». وقد أرسل  
هوغارت في طلب توماس ادوارد لورانس، وكان شاباً عمل معه في متحف  
أشموليان في اكسفورد، وظل هوغارت رئيساً له في حياته العملية منذ ذلك  
الحين [295]. وقد اشتهر لورانس في ما بعد بلقب «لورانس العرب» .

في أول الأمر لم يكن لدى كلايتون خبير في الشؤون التركية - وبما انه كان  
يشن حرب مخابرات على تركيا، فقد كان ذلك نقصاً جلياً. ثم جاءت ضربة  
حظ، ففي 10 كانون الأول (ديسمبر) 1915 وصل إلى القاهرة قادماً من  
غاليبولي ويندهام ديدز، الذي سبق ان خدم في الدرك العثماني قبل الحرب .  
وقد نجح كلايتون في مطلع شهر كانون الثاني (يناير) في اختياره نائباً  
لرئيس المخابرات المصرية، حيث اثبتت معرفته بالشؤون التركية انها ميزة  
لا تقدر بثمن .

وما لبثت القاهرة ان أخذت تعج بالشباب من أعضاء البرلمان وغيرهم من  
أصحاب الطموح لأن يكون لهم كلمة في السياسة الشرق أوسطية، وكان  
هؤلاء جميعاً يدورون حول المكتب العربي .

ومن هؤلاء عضوا البرلمان اوبري هيربرت وجورج لويد وكلاهما صديقان  
لمارك سايكس منذ ما قبل الحرب . وأخيراً أصبحت القاهرة مركزاً لصنع  
السياسة البريطانية في الشرق الأوسط، وشعر كلايتون بالارتياح والرضى،  
إذ علم ان من يصنع فعلاً سياسة بريطانيا الشرق أوسطية في لندن هما  
زعيم القاهرة، اللورد كيتشنر وممثله، مارك سايكس .

# الفصل الحادي عشر

## اعطاء الوعود إلى العرب

### (1)

لدى عودة سايكس من الشرق في نهاية عام 1915، جلب معه إلى لندن شيئاً أكثر مدعاة للذهول في ذلك الحين وأهميته أكثر ديمومة من فكرته الخاصة بإنشاء مكتب عربي. إن ما عاد به إلى لندن كان نبأ عن شاب عربي غامض ادعى أمامه انه واصدقائه يستطيعون مساعدة بريطانيا على كسب الحرب. كان اسم هذا الشاب محمد شريف الفاروقي.

لا شيء كان معروفاً عن الفاروقي آنذاك، وقليل ما هو معروف عنه الآن. فقد برز في خريف 1915 بعد ان كان مجهولاً، واستحوذ على انتباه الحكومة البريطانية منذ ذلك الحين وخلال جزء كبير من عام 1916، قبل ان يعود كما كان انساناً مجهولاً ويموت وهو في مقتبل العمر في حادث من حوادث الطرق في العراق في عام 1920 خلال إحدى غارات القبائل. وخلال الأشهر حينما كان في بقعة الضوء في عامي 1915 - 1916 جعل بريطانيا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة تعد بتقديم تنازلات لفرنسا، وروسيا، والعرب، وغيرهم في الشرق الأوسط بعد الحرب. وهو كوسيط بين المسؤولين البريطانيين والزعماء العرب اما ان يكون قد أسيء فهمه أو ان يكون قد أساء عرض آراء كل من الجانبين للآخر. ولا يملك المرء إلا ان يخمن في عواطفه. لقد خلف هذا الشاب للشرق الأوسط في القرن العشرين تركة من سوء التفاهم لم يستطع الزمن بعد ان يبدها كلياً.

## (2)

إن خلفية واقعة الفاروقي المدهشة هي شبه اتفاق كان اللورد كيتشنر قد توصل إليه مع الشريف حسين أمير مكة عند بداية الحرب. وكما ذكرنا سابقاً فإن اللورد كيتشنر الذي كان ينظر إلى الشريف حسين باعتباره قوة روحية أكثر مما كان ينظر إليه باعتباره قوة مادية [296]، شرع في مراسلة أمير مكة في خريف عام 1914 وانتهت المراسلات بينهما إلى شروط مرضية لكليهما. ولم يكن مطلوباً من الحسين [297] أن يفعل شيئاً آنذاك. ما كان مطلوباً منه فقط هو ألا يستخدم مكانته الروحية ضد بريطانيا في الحرب العثمانية (وهذا ما كان كيتشنر يخشى أن يفعله الشريف حسين) وأن يستخدمها، في وقت ما في المستقبل لمصلحة بريطانيا (وهذا ما كان كيتشنر يأمل أن يفعله الشريف حسين عند انتهاء الحرب واستئناف المنافسة بين بريطانيا وروسيا).

بعد أن سوّيت الأمور في مطلع عام 1915 فوجيء مقر المعتمد البريطاني في القاهرة برسالة أخرى تلقاها من الشريف حسين بعد مرور نصف عام، أي في صيف عام 1915، يطالب فيها فجأة - ودون تفسير - بأن تصبح آسيا العربية كلها تقريباً مملكة مستقلة تحت حكمه. (أشرنا سابقاً إلى أن المسؤولين البريطانيين كانوا لا يعرفون أن الحسين سيفهم أنهم يعرضون عليه مملكة حينما اقترحوا عليه أن يصبح خليفة عربياً، ولم يدركوا أن المملكة لا الخلافة هي التي كانت تغريه في ذلك الحين).

إن طلب الحسين غير المتوقع، والذي جاء دون تفسير بعد شهر من الصمت، قد أثار الاستغراب والضحك في القاهرة البريطانية. وقال رونالد ستورز في تعقيب ساخر أنه ينبغي للحسين أن يرضى بأن نسمح له بالاحتفاظ بولاية الحجاز. وقال ستورز أن الحسين «يعرف أنه يطلب، ربما كأساس للمفاوضات، أكثر كثيراً مما له الحق، أو لديه الأمل، أو عنده القوة التي تسمح له بتوقعه» [298]. إن سير هنري مكماهون، المندوب السامي البريطاني في مصر، بدافع الرغبة في عدم تشييط همة الحسين، أرسل إليه جواباً رقيقاً قال فيه إن بحث الحدود في الشرق الأوسط ينبغي تأجيله إلى ما بعد انتهاء الحرب.

ولكن مطالبة الحسين المفاجئة بمملكة عربية مستقلة لم تكن بأي حال من الأحوال ذلك العمل المجانب للمنطق حسبما بدت آنذاك في القاهرة. والأمر الذي كان يجهله مكماهون وستورز هو أن ما حدث في مكة كان اكتشاف الحسين في شهر كانون الثاني (يناير) عام 1915 دليلاً خطياً على

ان الحكومة العثمانية تخطط للإطاحة به عند انتهاء الحرب - والحقيقة انها أرجأت الإطاحة به لا لسبب إلا لأن الحرب كانت مقبلة [299]. وقد سارع إلى إرسال ابنه فيصل لمقابلة الصدر الأعظم في القسطنطينية، مع علمه ان الأمل ضئيل في اقناع الباب العالي بالتراجع عن هذا القرار.

كانت خطة حزب تركيا الفتاة للإطاحة بالشريف حسين هي التي دفعته، بالرغم من ميوله، إلى معارضة تركيا في الحرب. وخوفاً من احتمال ان تكون هذه المعارضة سبباً لعزله في العالم العربي، أوفد ابنه فيصل إلى دمشق ليستقصي امكانية الحصول على تأييد الجمعيات السرية العربية التي كانت تتخذ من دمشق مقراً لها. ولكي يقوم بهذه المهمة، توقف فيصل في دمشق مرتين: مرة وهو في طريقه إلى القسطنطينية لمقابلة الصدر الأعظم، ومرة أخرى في طريق العودة من القسطنطينية.

ولدى توقفه في دمشق المرة الأولى، في أواخر آذار (مارس) 1915 قيل له ان هناك ثلاث فرق في الجيش العثماني غالبية أفرادها من العرب وهي مركزة في منطقة دمشق، وان الجمعيات السرية تعتقد ان هذه الفرق ستسير خلف قيادته. ومع ان أعضاء الجمعيات السرية تحدثوا عن القيام بثورة على تركيا، فقد عبروا أيضاً عن تحفظات في هذا الصدد. فمن ناحية كان معظمهم يعتقد ان تركيا ستريح الحرب سريعاً، وبذلك لا بد ان يسألوا أنفسهم ما الذي يجعلهم ينحازون إلى الجانب الخاسر. ومن ناحية أخرى، بالمقارنة بين الامبراطورية العثمانية والحلفاء الأوروبيين كانوا يفضلون ان يحكمهم أتراك مسلمون على ان يحكمهم مسيحيون أوروبيون.

ومع ندرة الأدلة على ما كانوا يخططون له، فالظاهر ان أعضاء الجمعيات السرية كانوا ميالين إلى طرح مزايده بين بريطانيا وتركيا من رجل كسب ولاء العرب. فقد نصحوا الحسين (عن طريق فيصل) بعدم الانضمام إلى الحلفاء ما لم تتعهد بريطانيا بتأييد استقلال معظم غربي آسيا العربية. وإذا ما حصلت الجمعيات السرية على هذا التعهد البريطاني تستطيع عندها ان تطلب إلى الامبراطورية العثمانية مضاهاة هذا التعهد.

انطلق فيصل بعد الاجتماعات التي عقدها في دمشق إلى القسطنطينية لمقابلة الصدر الأعظم.

ولدى وصوله إلى دمشق في 23 أيار (مايو) 1915، في طريق العودة إلى بلده، وجد ان الوضع قد تبدل تبدلاً كبيراً. ذلك ان جمال باشا، حاكم سورية التركي، كان قد شتم رائحة مؤامرة عربية واتخذ خطوات لسحقها، بعد ان سحق الجمعيات السرية واعتقل كثيرين من زعمائها وشتت شمل الآخرين،

كما انه قام بتجزئة فرق الجيش الثلاث ذات الأغلبية العربية، وأرسل الكثيرين من ضباطها إلى غاليبولي وأماكن أخرى [300].

بقيت حفنة من المتآمرين - ستة رجال حسب إحدى الروايات، وتسعة حسب رواية أخرى [301] - وقد أبلغ هؤلاء فيصل انه لم يعد في مقدورهم الشروع في ثورة على الامبراطورية العثمانية، فلا بد للحسين من اشعال الثورة ومن ثم يسиров خلفه - هذا إذا استطاع الحسين ان يقنع أولاً البريطانيين بأن يتعهدوا بتأييد استقلال العرب.

وكان أعضاء الجمعيات السرية قد أعدوا مسودة وثيقة تحدد المناطق التي ينبغي ان تكون عربية ومستقلة، وقد سميت هذه الوثيقة بروتوكول دمشق، فحملها فيصل معه من دمشق إلى مكة، وقد حددت الوثيقة المطالب التي كان على الأمير حسين ان يتقدم بها إلى بريطانيا. ولم يكن هناك ما يخسره الحسين من تقديم هذه المطالب، لأن طرحها يساعده في الحصول على تأييد الجمعيات السرية - مهما كانت قيمة هذا التأييد - عندما يعلن ثورته، كما ان طرحها سيعزز مطالبته بالزعامة في سياسة شبه الجزيرة العربية والسياسة العربية العامة، ويساعده أيضاً في تبرير تأييده المسيحيين ضد تركيا المسلمة. وهكذا فإنه أرسل في صيف عام 1915 رسالته المتضمنة مطالب بروتوكول دمشق إلى مقر المعتمد البريطاني في القاهرة، حيث لم تحمل هذه المطالب - كما رأينا - على محمل الجد.

### (3)

كان الملازم محمد شريف الفاروقي، وهو ضابط ركن عربي في الجيش العثماني من الموصل في الرابعة والعشرين من عمره، عضواً في جمعية سرية، وكان عمله في دمشق عندما توقف فيها فيصل المرة الأولى في أوائل عام 1915. وربما كان أحد الذين التقوا فيصل هناك في ذلك الحين. أما إذا لم يكن التقاه فيكون قد سمع من زملائه الذين حضروا اللقاء ما دار من حديث فيه.

وكان الفاروقي واحداً من ضباط الجمعيات السرية الذين أمر جمال باشا بإبعادهم عن دمشق وإرسالهم إلى جبهة غاليبولي حيث كانت الإصابات مرتفعة. وكان الناس يعتبرون إرسال العرب المشتبه بتآمرهم إلى خطوط الجبهة ليقتلوا هناك أنه سياسة متعمدة يتبعها جمال باشا لسحق التمرد. ومن ناحية أخرى كانت هناك أسباب عسكرية وجبهة لإرسال الجنود لتعزيز جبهة غاليبولي حيث كان النظام العثماني يقاتل من أجل البقاء. وربما كان الفاروقي قد ارتاب، دون أن يبلغ ارتيابه حد اليقين، أن إرساله إلى غاليبولي يدل على أن جمال باشا يشبهه بأنه ارتكب جرم الخيانة.

ظل الفاروقي على اتصال بضباط الجمعيات السرية الذين بقوا في دمشق. وقد اطلع منهم على مزيد من تفاصيل ما كان يفعله الحسين و فيصل، وعلم منهم أن البقية من أعضاء الجمعيات السرية في دمشق شجعوا الحسين على قيادة ثورة عربية ضد الامبراطورية العثمانية إذا ما وافقت بريطانيا أولاً على تأييد بروتوكول دمشق: أي برنامج الجمعيات السرية لاستقلال العرب. وعلم أيضاً أن الحسين كان في الواقع قد كتب رسالة إلى البريطانيين في القاهرة في صيف عام 1915 ضمنها بروتوكول دمشق عارضاً هذا البروتوكول على أنه مجموعة مطالبه شخصياً لتثبيتته ملكاً لمملكة عربية تشمل غربي آسيا العربية بكاملها تقريباً.

في خريف عام 1915 فرّ الملازم الفاروقي من القوات العثمانية في غاليبولي وانتقل إلى خطوط الحلفاء، مدعياً أن لديه معلومات هامة يريد أن ينقلها إلى المخابرات البريطانية في القاهرة، فأرسل فوراً إلى مصر لاستجوابه. ولعله خاف أن يكون جمال باشا على وشك الحصول على اثبات لعضويته في المؤامرة على تركيا فقرر أن يهرب ما دام الوقت متاحاً للهروب. وربما كان يأمل في أن يكتسب مجداً عن طريق القيام وحده بدور في عالم السياسة. وأياً كانت دوافعه فقد تصرف بحافز شخصي: إذ لا أحد عهد إليه القيام بأية مهمة.



كان الفاروقي يعرف القليل من اللغة الانكليزية، ومن الصعب ان نعرف من خلال السجل التاريخي غير المتكامل إلى أي مدى قد فهمه مستجوبوه فهما صحيحاً أو إلى أي مدى جرى تلقيه الكلام من قبل أولئك الذين أرادوا ان يسمعوا الكلام الذي ادعوا انهم سمعوه منه. لقد ادعى هذا الضابط الشاب عندما استجوبه ضباط المخابرات البريطانية انه عضو في جمعية العهد، وهي جمعية عسكرية عربية سرية. وأتى على ذكر اسم الشخصية القيادية في هذه الجمعية والموجود في دمشق، الفريق ياسين الهاشمي، رئيس أركان الفرقة العثمانية الثانية عشرة، ومع ان الفاروقي اعترف انه ليس مفوضاً بأن يبحث مع مستجوبيه رسمياً مقترحات جمعية العهد، فقد تظاهر - لسبب ما - بأنه المتحدث باسم المنظمة، فقبله جيلبرت كلايتون رئيس المخابرات البريطانية في القاهرة بصفته المتحدث باسم المنظمة [302]. ومع ان الرواية التي قدمها لم يتم التثبت منها، فقد صدقتها المخابرات البريطانية دون ان تجري مزيداً من التحقيق.

والحقيقة ان الفاروقي لم يكن ممثلاً لجمعية العهد بل ولا لآية جماعة أخرى: لقد خُذع كلايتون.

إن ما أضفى صدقية على ادعاء الفاروقي انه يمثل منظمة العهد، هو انه علم - من زملائه في دمشق - بتفاصيل المراسلات البريطانية مع الشريف حسين واطلع على المطالب التي قدمها الحسين إلى القاهرة في صيف عام 1915.

لقد طلب الفاروقي، المتظاهر بأنه يتكلم نيابة عن ضباط الجيش العرب في دمشق، ان تقدم بريطانيا تعهداً بتأييد دولة عربية مستقلة ضمن الحدود التي رسمها الحسين. وعندما فعل ذلك، بدت فجأة معلوماته متكاملة في نظر المخابرات البريطانية. وقد رسخ في ذهن كلايتون ان الحقيقة الجوهرية هي ان التطابق بين مجموعتي المطالب لم يمكن مصادفة، فكلتاها لا تختلفان عن المطالب عينها التي ما برح يقدمها المصري - مؤسس جمعية العهد - وغيره من العرب الذين يعيشون في المنفى في القاهرة منذ بداية الحرب. فإذا صح ان الجمعيات السرية تدعم الحسين، فلا يمكن في هذه الحالة النظر إلى أمير مكة على أنه يمثل فقط الجزء الذي يحكمه من شبه جزيرة العرب. فإذا كانت الجمعيات السرية العربية بالقوة التي صورها بها الفاروقي، وبما ان كلايتون تصور خطأ انها كذلك، فالحسين بالتالي ينطق باسم الألوف من الجنود العثمانيين والملايين من الرعايا العثمانيين.

وقد أُنذر الفاروقي كلايتون وزملاءه ان عليهم ارسال رد فوري إلى الحسين. ووفقاً لما قاله الفاروقي، كان على البريطانيين ان يضمنوا

استقلال الشرق الأوسط الناطق بالعربية إذا أرادوا ان تقود منظمة العهد تمرداً داخل الامبراطورية العثمانية. وقد أمهل هذا الشاب بريطاني، في اذار نهائي، مدة اسبوعين فقط لقبول العرض، وإلا فإن الحركة العربية، كما قال، سوف تلقي بكامل دعمها وراء المانيا والامبراطورية العثمانية.

لقد استُفزت القاهرة. وفي 10 تشرين الأول (اكتوبر) 1915 كتب رونالد ستورز إلى فيتز جيرالد / كيتشنر قائلاً: إن المسألة العربية بلغت حالة حادة» [303]. وفي الوقت نفسه أعد كلايتون مذكرة عرض فيها محادثاته مع الفاروقي فأرسلها إلى الجنرال ماكسويل، قائد الجيش البريطاني في مصر، الذي سارع إلى إرسال برقية إلى كيتشنر في 12 تشرين الأول (اكتوبر) قال فيها: «ان هنالك منظمة قوية» خلف خطوط العدو، وان مقترحات الحسين جاءت فعلاً من تلك المنظمة، وما لم يتم الوصول إلى اتفاق معها سينحاز العرب إلى العدو [304][305]

والظاهر ان اتباع كيتشنر في القاهرة اعتقدوا ان قيام ثورة عربية سيمكنهم من انقاذ جيوش الحلفاء التي كانت تقاتل في سبيل انقاذ ارواح جنودها عند أطراف شبه جزيرة غاليبولي في الدردنيل. كان قائد الجيش البريطاني في غاليبولي هو ايان هاملتون، من رجال كيتشنر، والمرجح ان اتباع كيتشنر في القاهرة كانوا على اتصال معه لمساعدتهم في اقناع المندوب السامي في مصر، سير هنري مكماهون، الذي غلب عليه التردد، بتلبية المطالب العربية. ومما يدل على انهم فعلوا ذلك، تصريح أدلى به مكماهون بعد عام، وتتصل فيه من مسؤوليته عن الثورة العربية (التي لم تكن ناجحة حتى ذلك الحين). قال مكماهون:

«كان أتعس يوم في حياتي عندما أنيطت بي مسؤولية الاشراف على الحركة العربية، وأرى أنه لا بد من بضع كلمات لأبين ان لا علاقة لي بذلك: انه عمل عسكري محض. بداية الأمر كانت طلباً عاجلاً من سير ايان هاملتون أرسله من غاليبولي. وقد توصلت وزارة الخارجية إليّ ان أتخذ اجراء فورياً لسحب العرب من الحرب. في ذلك الحين كان جزء كبير من القوات في غاليبولي وكامل القوة التي في بلاد الرافدين تقريباً، مؤلفة من العرب» [306].

وبينما كان مقر المعتمد البريطاني يناشد لندن بإلحاح ان تأذن بتلبية مطالب الفاروقي، ذكر مقر المعتمد البريطاني ان هذه المطالب قابلة للتفاوض: أي ان الشاب العربي سيقدم تنازلات حيثما تقتضي الضرورة. وقد أفلح الفاروقي في ان يبقى خلال الأسابيع والشهور التالية في قلب الحوار. وكان هذا الشاب، في ما أصبح خدعة كبرى، يرسم ويعيد رسم بلدان

وامبراطوريات، من خلال تبادل رسائل بين مقر المعتمد البريطاني، وأمير مكة وقادة القوميين العرب، وكان كل طرف من هذه الأطراف يظن ان الفاروقي هو مبعوث أحد الطرفين الآخرين، لقد قدم الفاروقي نفسه في رسالة إلى الحسين على انه عضو في جمعية العهد يلقي أذنًا صاغية من البريطانيين، أما في القاهرة فقد تظاهر بأنه يفاوض باسم الحسين. وقد حاول فيصل ان يكتشف هوية هذا العربي الغامض الذي اكتسب كل هذه الأهمية في القاهرة، فلم يستطع ان يعرف سوى اسمه، وهذا لم يكن يعني له شيئاً. وقال فيصل في تقرير كتبه لوالده الحسين «لم أعرفه» [307].

## (4)

كان كلايتون قوي النزعة إلى معارضة مطالب فرنسا في داخل سورية (عند خط يمتد من حلب إلى دمشق ماراً بحماة وحمص). وقد ذكر كلايتون ان الفاروقي قال ان الحسين لن يسمح لفرنسا بالاستيلاء على حلب وحماة وحمص ودمشق. وقد لا نعرف أبداً هل كان كلايتون ينقل بدقة ما قاله له الفاروقي فعلاً، أو كان يخطيء في نقل هذا الكلام، أو كان ينقل ما فهمه بعبارات من عنده. وكان كلايتون يقر بأنه لا يمكن استبعاد فرنسا من ساحل سورية - لبنان الذي يقطنه مسيحيون يحظون برعاية فرنسية. ومرة أخرى ذكر ان الفاروقي قبل بوجهات نظره، وانه يبدو مستعداً، باسم الحسين. للتنازل عن المطالب العربية في تلك المنطقة. أما الفاروقي فقد أبلغ الحسين ان الجانب البريطاني طلب إليه ان يقدم هذا التنازل - وانه رفض.

وعلى أساس تقارير كلايتون، أبرق المندوب السامي، سير هنري مكماهون، إلى وزارة الخارجية ناقلاً إليها قول الفاروقي ان أمير مكة لن يصّر على التمسك بمطلبه الأصلي بأن تمتد حدوده الغربية حتى البحر. غير انه سيقاوم «بقوة السلاح» أية محاولة فرنسية لاحتلال مقاطعات حلب وحماة وحمص ودمشق<sup>[308]</sup>. وكان مكماهون وكلايتون يطلبان تفويضاً بقبول هذه الشروط.

ولكن الكلمات التي استخدمها مكماهون عندما كان يشير إلى أماكن جغرافية، كانت كلمات ضبابية مبهمه. فهل كان، مثلاً، يشير إلى مدينة دمشق، إلى محيط دمشق أو إلى ولاية دمشق؟

هل كانت الكلمة الانكليزية التي استخدمها ومعناها مقاطعة (دستريكت) تعني محيط مدينة أم ولاية؟ وهل كان الفاروقي هو الذي تحدث عن مقاطعات، أم ان مكماهون وكلايتون هما اللذان تحدثا عن مقاطعات؟ وهل كان البريطانيون يقصدون بالمقاطعات مدناً؟

منذ ذلك الحين والنقاش المثير ما برح يدور حول مغزى المطالبة بحلب - حماة - حمص - دمشق. وخلال عقود انقضت منذ ذلك الحين طرح أنصار فلسطين العربية حجتهم القائلة ان هذه الأسماء الجغرافية الأربعة إذا ما فهمت فهماً صحيحاً، فهذا يعني ان القاهرة البريطانية وعدت بأن تكون فلسطين عربية، أما أنصار فلسطين اليهودية فيطرحون حجة معاكسة. هذا النقاش كان بمعنى ما دون جدوى. وسنرى انه عندما حان وقت اعطاء تعهدات، استخدم مكماهون عن قصد عبارات شديدة الالتواء قصد منها ألا يلزم نفسه بشيء البتة.

إذا كان كلايتون هو صاحب التعريف الجغرافي حلب - حماة - حمص - دمشق، فإنه ربما كان يفكر بسورية ولبنان وبكيفية فصل داخل البلاد عن الساحل الخاضع للنفوذ الفرنسي. إن ساحل البحر يمثل أحد خطين للحضارة في سورية يمتدان من الشمال إلى الجنوب. والمدن الأربع تمثل الخط الآخر. وهذه المدن بموقعها بين الجبال والبادية تحدد الممر الضيق الطويل الذي يشكل المنطقة المستثمرة زراعياً في داخل سورية. إن مدن دمشق وحلب وحمص وحماة تبدو على خريطة بريطانيا المثبتة في الموسوعة البريطانية طبعة عام 1910، وهي الطبعة التي كانت متداولة آنذاك، أنها المدن الوحيدة في داخل

سورية وهكذا فإنها كانت المدن التي يمكن لإنسان انكليزي ان يذكرها بالاسم إذا ما أراد تعريف المنطقة الداخلية من سورية. ومع التسليم بأن هذه المدن غير متماثلة، مما جعل كبار المؤرخين<sup>[309]</sup> يرون ان من غير المنطقي جمعها معاً في مجموعة واحدة، فإن منطق جمعها معاً يبدو أمراً جلياً بالنسبة لقارئ الموسوعة البريطانية.

وقد كانت لهذه المدن خاصية هامة أخرى مشتركة: فهي المدن الواقعة على خط السكة الحديدية.

إن خط «الجمعية العثمانية لسكة حديد دمشق - حماة وامتداداتها» الذي بناه الفرنسيون وافتتح في عام 1895، يصل حلب في الشمال بدمشق في الجنوب<sup>[310]</sup>. وفي دمشق يكمل المرء رحلته بواسطة الخط الحديدي الحجازي الذي يمتد جنوباً إلى المدينة المنورة، ويصل سورية بأرض الشريف حسين. ومن المؤكد ان ذلك بدا على جانب كبير من الأهمية آنذاك. وإذا كان الفاروقي وليس كلايتون، هو أول من ذكر هذه المدن الأربع بأسمائها، فلا ريب في ان هذا ما دار في ذهنه.

وفي عصر كانت السكك الحديدية فيه تعتبر ذات أهمية قصوى عسكرياً وسياسياً، فإنه يفترض في أي جندي أو سياسي يمثل الحسين ويفاوض على الأرض، ان يكون قد أصر على كسب السيطرة على محطات السكك الحديدية: ليس فقط محطة دمشق باعتبارها عاصمة الجنوب، ومحطة حلب باعتبارها عاصمة الشمال، بل أيضاً المحطتين اللتين تربط بينهما: حمص وحماة.

إن الخبرة المكتسبة حديثاً قد أملت هذه المطالبة. فقد كان قادة حزب تركيا الفتاة يخططون (قبل ان توقف الحرب خطتهم) للسيطرة على الحجاز عن طريق اشرافهم على الخط الحديدي الممتد من دمشق جنوباً إلى المدينتين الرئيسيتين في الحجاز. وكان أمراً مفروغاً منه ان يتوقع المرء من

الحسين إذا ما انحاز إلى الجانب الرابع في الحرب ان يسلك الطريق المعاكس لاستراتيجيتهم:

أي ان يسيطر على داخل سورية بالإشراف على خطها الحديدي.

وسواء أكان كلايتون وأصدقائه أم لم يكونوا هم الذين صاغوا مطالبة الفاروقي بخط حلب - دمشق، فقد كانوا يخشون ألا يفهم المسؤولون البريطانيون الآخرون أهمية تلبية هذا الطلب.

وفي إشارة من رونالد ستورز إلى سير ملني تشيثام، رئيسه في مقر المعتمد البريطاني، أي القائم في رئاسة المقر ريثما يصل مكماهون، كتب ستورز إلى فيتز جيرالد / كيتشنر يوم عيد الميلاد متوسلاً إليهما أن يعطيا الأولوية إلى التفاوض مع العرب ومضيفاً «أرجو المعذرة لأزعاجكم بهذه المصاعب، ولكن لو عرفت ما لقيناه، كلايتون، وأنا من عنت طوال فصل الخريف الماضي لكي نجعل سير ملني يتقدم بأي اقتراح أو يبدي أي اهتمام في المسألة العربية، لفهمتم سبب قلقنا» [311].

كان من حسن حظ كلايتون ان سير مارك سايكس توقف في القاهرة مرة أخرى - كما ذكرنا سابقاً - في طريق عودته من الهند إلى لندن في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1915. وإذ روى كلايتون وزملاؤه قصة الفاروقي أمام سايكس فقد نقلوا إليه عدوى اعتقادهم بالأمر المدهش، أي إمكانية انحياز النصف العربي من الامبراطورية العثمانية إلى جانب الحلفاء في الحرب. كان هذا هو النبأ المدهش الذي استقبل به سايكس عند وصوله إلى القاهرة، وهذا ما غير حتماً كل الحسابات.

لقد كان نبأ ذا خصوصية بالنسبة لسايكس ان يعلم ان العالم الناطق بالعربية يمكن ان يكون عاملاً رئيساً في الحرب. فقد كان ينظر إلى الأمور السياسية في المنطقة بمنظار الترتيبات التي كانت قد تمت بين الدول الكبرى الأجنبية المتنافسة. أما مصالح السكان أهل البلاد وأمانهم، فلم يكن لها أي شأن في حساباته. لقد كان دائم الإعجاب بالطبقة الحاكمة التركية ولكنه لم يلق بالآ إلى السكان رعايا الامبراطورية العثمانية في آسيا. وعندما كان يطلق أوصافاً على هؤلاء الرعايا خلال دراسته الجامعية، فقد كانت أوصافه عبارة عن تمرين في الألفاظ المهينة.

كتب عن العرب سكان المدن انهم «جناء» وانهم «وقحون» وانهم «أشرار بقدر ما تسمح لهم أجسامهم الهزيلة». ووصف العرب البدو بأنهم «حيوانات جشعة مفترسة» [312]، ومع ذلك فإن هؤلاء العرب كانوا سيصبحون حلفاء بريطانيا الرئيسيين في القتال الذي سيشهده الشرق الأوسط، وفقاً للمعلومات التي زوّده بها كلايتون. إن سايكس الذي كانت له شهرة قبول

الآراء والحجج دون ان يأخذ الوقت الكافي لتمحيصها، قد أظهر الآن انه قادر على نبذها بالسهولة نفسها. لقد تحول فجأة إلى نصير لقضية شعوب الشرق الأوسط.

كان سايكس منذ أيام الدراسة في المدرسة يشعر بخوف من اليهود لازمه منذ ذلك الحين، وكاد هذا الخوف يصبح هاجساً إذ كان يلمح شبكة مؤامرتهم الدولية الخطرة في الكثير من الزوايا المعتمة. ولكن كانت هنالك جماعة أخرى كان يشعر نحوها شعوراً أشد عنفاً، فقد كتب مرة يقول «حتى اليهود فيهم بعض الخصال الجيدة، أما الأرمن فليس لديهم شيء من ذلك» [313]. على ان سايكس التقى الآن بعض زعماء الأرمن في القاهرة، واقترح بحماسة انشاء جيش أرمني يتم تجنيد أفراده من أسرى الحرب ومن الأرمن المقيمين في الولايات المتحدة، من أجل غزو تركيا.

وذكر انه يستطيع ان يخرج هذا الجيش إلى الوجود خلال ثمانية أسابيع [314].

إن سايكس هذا الذي دبت فيه الحماسة حديثاً إزاء أبناء الشرق الأوسط، قد انحاز كلياً إلى رأي كلايتون القائل ان الجيوش العربية قد توفر مفتاح النصر. فأوعز إليه كلايتون ان يعود إلى لندن مستعداً لطرح المقولة الجديدة للقاهرة، أي ان الحسين يمكن ان يكون أهم من الفرنسيين من حيث التعجيل بإنهاء الحرب في الشرق.

وقد أقنع كلايتون أيضاً أوبري هربرت عضو البرلمان الذي كان يخدم في جهاز المخابرات في القاهرة، وكان يستعد للعودة إلى لندن، والذي تعهد بأن يقابل اللورد كيتشنر ووزير الخارجية سير ادوارد غراي، ليشرح الأمور لهما. وقد أعد هربرت، بمساعدة كلايتون، مسودة مذكرة شديدة اللهجة تحت الفرنسيين على التخلي عن مطالبتهم بدمشق وحلب وحمص وحماة، من أجل التنازل عن هذه المدن إلى الشريف حسين.

## (5)

عاد سايكس إلى لندن حاملاً معه الكثير من الأمور الجديدة التي سيبلغها إلى المسؤولين وينافح عنها، ليجد في انتظاره ترحيباً حاراً في كانون الأول (ديسمبر) 1915. كان ذلك عندما اقترح انشاء المكتب العربي واتخذ الخطوات الأولى لانشائه (أنظر الفصل العاشر).

ما من أحد غيره التقى بكل مسؤول بريطاني هام من العاملين في البلقان ومصر فالهند. وقد رتب له موريس هانكي مقابلة مع الملك جورج، كما رتب له ان يمثل أمام لجنة الحرب المنشقة عن مجلس الوزراء والتي كان هانكي أمين سرّها.

إن الرسالة الهامة التي نقلها سايكس إلى مجلس الوزراء هي ان العرب - الذين كان سابقاً يستهين بهم كعامل في الحرب - أصبحوا الآن على أهمية بالغة للحلفاء، وأنه كان أمراً حيوياً وبالع الأهمية التوصل إلى اتفاق مع الحسين.

كانت هناك حقيقة يبدو ان القاهرة وسايكس لم يدركاها، أما في لندن فقد عرفوها، وهي انه كان على بريطانيا ان تدفع ثمناً - وثنماً غالياً - لكي تنال موافقة فرنسا على اعطاء وعود إلى الشريف حسين، أي انه كان على بريطانيا ان تقدم لفرنسا تنازلات كبيرة لقاء السماح لها بتقديم تنازلات للعرب. كان كيتشنر وغراي على استعداد لدفع الثمن، أما الآخرون فلم يكن لديهم استعداد لذلك.

كان رأي اللورد كورزون، نائب الملك السابق في الهند، انه يجب ألا تعطى وعود للعرب لأنهم «شعب يقاتلنا في هذا الوقت بأقصى ما يستطيعون القتال» [315]. وكان اوستين تشامبرلين، وزير الدولة الجديد لشؤون الهند معارضاً أيضاً لإعطاء هذه الوعود. ولكن كيتشنر، الذي ساند سايكس وكلايتون وستورز، أصرّ اصراراً شديداً على تفويض القاهرة بالاستجابة فوراً والتوصل إلى اتفاق مع الحسين. وكانت آراء كيتشنر هي النافذة في ذلك الحين. وهكذا فإن سير هنري مكماهون، بتفويض وتوجيه من لندن، استأنف المراسلات مع مكة - مراسلات مكماهون الشهيرة، التي ما برح معناها موضوع نقاش طويل من قبل أنصار القضيتين العربية واليهودية في فلسطين [316].

في أثناء ذلك كان الحسين قد أرسل رسالة ثانية إلى مكماهون اتهمه فيها «بالتور والتردد» بسبب احجامة عن بحث موضوع الحدود. وقال الأمير في رسالته انه لو كانت هذه المطالب مطالبه وحده لكان البحث في هذا



الموضوع قابلاً للتأجيل إلى ما بعد إنتهاء الحرب. لكنها ليست مطالبه الخاصة بل انها لا تمثل اقتراحاته الخاصة. إنها طلبات صاغها آخرون: صاغها «شعبنا»<sup>[317]</sup>، وقد فهم المسؤولون في مقر المعتمد البريطاني في القاهرة آنذاك ان ذلك يعني أعضاء الجمعية السرية الغامضة التي تخيلوا ان لها اتباعاً على نطاق جماهيري في العالم العربي.

في 24 تشرين الأول (أكتوبر) 1915 أرسل رداً للشريف حسين بروحية مختلفة. فهو بعد ان تلقى تعليمات من اللورد كيتشنر باعطاء التعهدات اللازمة، وافق متردداً على الدخول في مباحثات بشأن مناطق وحدود محددة. ولكن من الجلي انه لم يكن مستعداً لأن يأخذ على عاتقه مسؤولية شخصية بشأن قطع التزامات محددة، ولذلك عمد إلى لغة تتسم بالمراوغة. فهو من جهة وافق على ان ينال العرب استقلالهم بعد الحرب، ولكنه، من جهة أخرى، أشار إلى ان الحاجة ستستدعي وجود مستشارين ومسؤولين أوروبيين لتأسيس إدارة للحكم في البلاد العربية، وأصرّ على ان يكون هؤلاء المستشارون والمسؤولون بريطانيين حصراً. بعبارة أخرى، ستكون أية مملكة عربية «مستقلة» في الشرق الأوسط بعد الحرب، محمية بريطانية.

ولدى سؤاله ما هي المناطق التي ستشملها المملكة العربية المستقلة المحمية من قبل بريطانيا، طالب مكماهون في رده بتقسيم الأراضي التي يطالب بها الحسين إلى أربع مناطق وأوضح ان بريطانيا لا تستطيع ان ترتبط بتأييد مطالبة الحسين بأي منها.

وقد بدأ مكماهون جوابه بالقول انه يجب على الحسين ان يتخلى عن مطالبته بالأرض الواقعة غربي مقاطعات دمشق وحلب وحمص وحماة. وكان الفاروقي قد أقر (أو ان مكماهون ظن على

أقل تقدير، ان الفاروقي أقر بذلك) بأن الحسين سيقبل بهذا التخلي. وفي وقت لاحق كتب مكماهون يقول إن الأراضي التي لن يحصل عليها الحسين والعرب هي سواحل سورية ولبنان وفلسطين، مع امكانية رسم خط حدودي في مكان ما من الأردن الحالي. إن اللغة التي استعملها يمكن قراءتها على هذا النحو، ولكن عند قراءتها قراءة طبيعية أكثر يكون قد أشار هنا إلى سورية ولبنان فقط، دون الإشارة إلى فلسطين.

وقد أبدى مكماهون ملاحظة بشأن الجزء الشرقي من الشرق الأوسط الناطق بالعربية، أي ولايتي البصرة وبغداد في بلاد الرافدين قائلاً ان موقف بريطانيا الثابت ومصالحها تقتضي ان توجد «ترتيبات إدارية خاصة» لهاتين الولايتين. أما هل ستترك هذه الترتيبات أية فسحة لتأكيد السيادة العربية - وإذا كان الأمر كذلك فمتى وإلى أي مدى - هذا الأمر بقي دون بحث.

أما بشأن القسم الغربي - سورية وفلسطين - فإن بريطانيا تستطيع ان تقدم للحسين ضمانات تتعلق فقط بتلك المناطق «التي يمكنها ان تتصرف فيها من دون الحاق ضرر بمصالح حليفتها فرنسا». وبما ان فرنسا كانت في ذلك الحين تدعي لنفسها تلك المناطق بكاملها (في الحقيقة بحث سايكس مع الفاروقي مطالبة فرنسا بفلسطين في تشرين الثاني (نوفمبر) 1915) فقد ترتب على ذلك ان بريطانيا لم تتمكن من التعهد بتأييد مطالب العرب فيها أيضاً - بل ولا حتى مطالبتهم بدمشق وحلب وحمص وحماة.

لم يبق إذن سوى شبه جزيرة العرب، التي كانت آنذاك مقسمة بين عدد من الزعماء، والحسين واحد منهم. وكانت بريطانيا في ذلك الحين تقيم علاقات مع زعماء آخرين في شبه الجزيرة العربية، من ضمنهم ابن سعود، خصم الحسين. وقد ذكر مكماهون في رسالته انه لا يستطيع ان يعد الحسين بأي شيء يسيء إلى علاقات بريطانيا مع الزعماء العرب الآخرين. ولذلك وبعملية الحذف لم تلزم بريطانيا نفسها البتة بتأييد مطالب الحسين في أي مكان.

ووفقاً لخلاصة نشرت لاحقاً في «النشرة العربية» (العدد رقم 5 تاريخ 18 حزيران (يونيو) 1916) وهي نشرة سرية تعد لاطلاع القادة العسكريين والسياسيين ورؤساء المخابرات البريطانيين، كانت نتيجة المراسلات ان حكومة جلالتة أبدت استعداداً لتشجيع الاستقلال في آسيا الناطقة باللغة العربية ولكنها رفضت إلزام نفسها في ما يتعلق بأشكال الحكومات التي ستقام في المنطقة أو بالحدود الدقيقة.

وكان مكماهون، وهو البيروقراطي صاحب الخبرة، قد رأى الحاجة لأن يكون غير ملتزم البتة، ولم تكن قد جرت بعد المفاوضات بين سايكس والجانب الفرنسي في موضوع مستقبل الشرق الأوسط - الذي كان يجري توصيفه آنذاك - ولم يكن أحد في الحكومة البريطانية يعرف معرفة أكيدة ما الذي ينبغي التنازل عنه لفرنسا، ولاحقاً لروسيا. وكانت أوامر كيتشنر إلى مكماهون تقضي بعدم خسارة التحالف مع الحسين. ولكن المندوب السامي خاف ان يجعلوا منه كبش الفداء إذا مضى فعلاً في تلبية مطالب الحسين، وتبين في ما بعد ان تلك المطالب تتضارب مع التزامات أخرى مناقضة لها قد يطلب إلى بريطانيا تقديمها.

ولم تكن هذه المخاوف بلا مسوغ، فوفقاً لتحليل ويندهام ديدز- الخبير في الشؤون العثمانية في جهاز المخابرات في القاهرة - للوضع في مطلع عام 1916، كانت هناك ثلاث فئات من العرب. وبكل صدق لم يكن باستطاعة بريطانيا ان تلبية مطالب أي من الفئات الثلاث. هذه الفئات هي: السوريون وهدفهم الرئيس عدم السماح بدخول الفرنسيين المكروهين إلى بلادهم

(وقد كتب يقول «يكاد يكون أمراً صعباً ان نفسر هذا الكره غير العادي...» ومع ذلك كان الكره موجوداً). وبطبيعة الحال كان ذلك عكس مطالب فرنسا. والفئة الثانية الحسين، وهدفه ان يكون على رأس مملكة عربية. ولكن ديدز قال ان معظم العرب وجميع الأتراك سيعارضون ذلك. وقد كتب قائلاً: «أظن ان وجهة نظر معظمنا ووجهة نظر كثيرين من العرب وجميع الأتراك» هي ان «هذه فكرة غير عملية». وكتب ديدز ان العرب الآخرين غير مستعدين لقبول الحسين زعيماً لهم. وأخيراً هناك الفئة الثالثة، أي عرب العراق الذين (حسب اعتقاده) يريدون ان يستقلوا ولكنهم يقاومون نية حكومة الهند بضمهم إليها وفرض حكمها عليهم. وكان ديدز يخشى ان تكون الصعوبات التي تعترض طريق التوصل إلى تفاهم مع العرب، تبعاً لذلك، صعوبات «لا يمكن تذليلها» [318].

ولذلك كان من الخطر بمكان بالنسبة لمكماهون، بصفته مندوباً سامياً، ان يقدم للحسين التزامات ثابتة. وكان يعتقد أن وينغيت بنفاد صبره قد حاول دفعه إلى تقديم هذه الالتزامات. ولكن رجينالد وينغيت كتب إلى كلايتون قائلاً: إن مكماهون أخطأ في تفسير آرائه، وهو ما فعله أيضاً اللورد هاردينج، نائب الملك في الهند. فقد قال في رسالته:

«أخشى أن يكون المندوب السامي واللورد هاردينج كلاهما قد حصلا على انطباع باني من المؤمنين بانشاء مملكة عربية موحدة برئاسة الشريف - بطبيعة الحال هذا التفكير بعيد كل البعد عن آرائي الحقيقية، ولكن كان مناسباً لي، وأعتقد انه مناسب لنا جميعاً، ان نعطي قادة الحركة العربية هذا الانطباع، ولنا تغطية كافية تماماً في المراسلات التي جرت لاطهار اننا نتصرف مع العرب بحسن نية إلى الحد الذي وصلنا إليه الآن» [319].

كان جيلبرت كلايتون يعارض معارضة شديدة تعريف علاقات بريطانيا مع العرب قبل ان تنتهي الحرب، وكان يعتقد ان رسائل مكماهون قد نجحت في تأجيل الأمر وفي تجنب اعطاء أي التزام ذي معنى. وبعد مرور شهور عدة لخص كلايتون ما فعله مكماهون فكتب قائلاً: «لحسن الحظ اننا كنا حقيقة حريصين جداً على عدم الزام أنفسنا بأي شيء» [320].

لقد رد الحسين على رسالة مكماهون بقوله إنه لا يستطيع قبول صيغة حلب - حماة - حمص - دمشق، وانه يصر على ان يحصل على ولايتي حلب وبيروت. وفي اشارة إلى مطالبة فرنسا بלבnan، كتب قائلاً: ان «أي تنازل يهدف إلى إعطاء فرنسا أو أية دولة أخرى ملكية قدم مربع واحد من الأرض في تلك الأجزاء هو أمر مرفوض». وهكذا أخفق الحسين في التوصل إلى اتفاق مع مكماهون، ومع ذلك شعر أنه مرغم على تأييد الحلفاء: لقد كان

قادة حزب تركيا الفتاة عازمين على عزله، ولذلك كان عليه ان يثور عليهم سواء قبلت بريطانيا بشروطه أو لم تقبل. وقد أشار الحسين بعد ذلك ببضع سنين في حديث بينه وبين ديفيد هوغارت، أحد العاملين في المكتب العربي للمخابرات البريطانية في القاهرة، إلى انه في ما يتعلق بفلسطين وبلبنان أيضاً وبقية الأراضي في الشرق الأوسط، لا يعتبر ان الأمور قد سويت، بل يرى ان كل الأمور قابلة للتفاوض في مؤتمر الصلح. ووفقاً لما قاله هوغارت «لقد شئنا، نحن وهو، بشخصين على وشك أن يسكنا بيتاً واحداً، ولكنهما لم يتفقا على توزيع الطوابق والغرف بينهما» [321].

في لندن، كانت وجهة نظر وزارة الخارجية ان الوعود لن يحين أبداً موعد الوفاء بها؛ ذلك ان بريطانيا تعهدت بتأييد استقلال العرب فقط إذا ثار النصف العربي من الامبراطورية العثمانية على السلطان - وهذا (حسب اعتقاد وزارة الخارجية) لن يحدث أبداً. وبما ان العرب لن يفوا بما يترتب عليهم بموجب الصفقة، فلن تكون بريطانيا ملزمة بأن تفي بما يترتب عليها منها. ان وزارة الخارجية، التي لم تكن تعتمد على كلايتون، بل كانت لها مصادر معلوماتها الخاصة، لم تعتقد بأن العالم الناطق بالعربية كان على وشك الانتقال من جانب إلى آخر في الحرب، ولكن وزير الخارجية، سير ادوارد غراي، لم ير ضرراً في السماح لكيتشنر وأعوانه بأن يعدوا بما يشاؤون على سبيل إغراء العرب بالانشقاق. وقد قال غراي لاوستن تشامبرلين انه يجب ألا يقلق من جراء العروض التي تقدمها القاهرة لأن «الأمر كله عبارة عن قلعة في الهواء لن تخرج إلى حيّز الوجود» [322].

أما مكماهون فقد كان، من جهة أخرى، قلقاً خشية ألا يكون الأمر كله قلعة في الهواء. انه قدم من حكومة الهند، التي كان مصدر قلقها الدائم احتمال حدوث اضطرابات وطنية. وقد اسرّ مكماهون لويندهام ديدز بأن خوفه ليس ناشئاً عن احتمال فشل خطة قيام ثورة عربية، بل هو ناشئ عن احتمال نجاحها - لأنها عندئذٍ ستشكل خطراً على بريطانيا [323].

ولما كان نائب الملك في الهند يدعي ان مصالح الهند قد أهملت في مراسلات مكماهون - الحسين، فقد قال له مكماهون «كان عليّ بالضرورة أن أتعمد الاتهام، فحكومة جلالته، من جهة، تكره ان تلتزم بعمل محدد في المستقبل، ومن جهة أخرى سيكون من شأن أي تحديد مفصل لمطالبنا ان يفرز العرب». وادعى ان المفاوضات مع الحسين «لن تثبت حقوقنا... ولن تقيّد أيدينا» [324].

إن هذا التفسير للأمور قد أزعج نائب الملك، فكتب إلى وزير الدولة لشؤون الهند بشأن إدعاء مكماهون «ان المفاوضات هي مجرد كلام ولن تثبت

حقوقنا ولن تقيد أيدينا في تلك البلاد. وقد يكون الأمر كذلك في نهاية الأمر، لا سيما إذا استمر العرب في مساعدة العدو، ولكنني لا أحب قطع تعهدات إذا لم تتوفر نية الوفاء بها»[325].

في أوائل عام 1916 كتب عزيز المصري، زعيم الجمعية السرية العربية، إلى اللورد كيتشنر، فطرح الجدل من الجانب الآخر. فقد كتب (بالفرنسية لغة الدبلوماسية) قائلاً إن بريطانيا لا يمكنها تحقيق أهدافها في الشرق الأوسط الناطق بالعربية ما لم تكن مستعدة لأن تترك لشعوب المنطقة حرية ممارسة الاستقلال الكامل والحقيقي. وقال في رسالته المكتوبة بالفرنسية إن الذين يتحدث باسمهم لا يريدون سيطرة بريطانيا ولا حمايتها[326]. فهم لن يقبلوا ما يسميه مكماهون وكلايتون الاستقلال العربي، بل يطالبون بالاستقلال الحقيقي. وقال انهم لن يؤيدوا بريطانيا إذا كان في نيتها ان تحكمهم - وهذا بطبيعة الحال هو بالضبط ما كان في نية مكماهون وكلايتون ان تفعله بريطانيا.

كان المصري قد كشف زيف الموقف البريطاني. فقد كان كيتشنر وأتباعه في حاجة ماسة إلى كسب التأييد العربي ولكنهم لم يكونوا مستعدين لدفع الثمن الذي يطلبه الأمير حسين لقاء هذا التأييد. ولذلك حاولوا الغش بتلبية مطالب الحسين مع انهم في الحقيقة كانوا يقدمون له عملة مزيفة هي كلام من دون معنى.

وكان المصري والفاروقي والأمير حسين بدورهم يقدمون لبريطانيا عملة مزيفة مماثلة، ولو ان كلايتون وزملاءه لم يتنبهوا إلى ذلك، فلم يكن عند الحسين جيش، ولم يكن للجمعيات السرية اتباع منظورون. وكان كلامهم عن حشد عشرات أو مئات الألوف من الجنود العرب لدعم قضيتهم. سواء أصدقوه هم أنفسهم أم لم يصدقوه، كلاماً من نسج الخيال.

إن الفاروقي الذي كان لدى وصوله أول مرة قد وعد بثورة عربية، قد بدّل قصته مع حلول الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر)، اليوم الذي قابل فيه سير مارك سايكس: فقد قال في هذه المقابلة انه لا يمكن قيام ثورة عربية ما لم يتم أولاً انزال جيوش الحلفاء بقوة كبيرة على الساحل السوري. والحسين أيضاً، الذي كان يأمل أن تكون بريطانيا هي البادئة عسكرياً، رفض الاقدام على عمل مدعي أن القيام بالثورة سابق لأوانه. بعبارة أخرى، لن يفعل العرب شيئاً ما لم تصل الجيوش البريطانية إلى مسرح العمل. وقد قبل سايكس هذا الكلام على علاته واستخلص منه انه أمر ملح ان تغزو بريطانيا سورية وفلسطين.

# الفصل الثاني عشر

## إعطاء وعود إلى الحلفاء الأوروبيين

### (1)

في كانون الأول (ديسمبر) 1915 رفع سايكس تقريراً إلى حكومته قال فيه إن الفاروقي أبلغه في القاهرة أن قيام مصر البريطانية بغزو فلسطين وسورية سيطلق شرارة ثورة ينحاز فيها الجنود العرب والولايات العربية في الامبراطورية العثمانية إلى جانب الحلفاء. وكانت المشكلة هي حاجة بريطانيا إلى إذن من فرنسا بتحويل قوات من الجبهة الغربية لشن هذا الهجوم. وقال سايكس لأعضاء مجلس الوزراء البريطاني أن عليهم أن يسعوا للحصول على هذا الإذن من فرنسا فوراً. (كانت فرنسا تعارض السماح بنقل أية موارد من أوروبا، ولم تكن معارضتها بغير سبب. ففي مطلع عام 1916 هاجمت ألمانيا فردان في معركة أصبحت مع حلول عام 1918 أكبر المعارك في تاريخ العالم. فقد أدت المعركة إلى سقوط سبعمئة ألف رجل من الجانبين قتلى، أو جرحى، أو مختنقين بالغاز أو أسرى في فردان عام 1916، وبلغ العدد في معركة السوم 1,200,000 رجل. ولذلك لم تكن سنة 1916 سنة يسهل فيها على الحلفاء إرسال قوة بشرية إلى مكان آخر).

أثار سايكس، في الوقت نفسه، مسألة ذات صلة: فقد كان الشريف حسين متردداً في أن يتحول إلى جانب الحلفاء (حسب كلام سايكس) خوفاً من أطماع فرنسا في العالم العربي. وقال أن الحل هو في مفاوضات مع فرنسا هدفها تبديد هذا الخوف. فإذا لم تحل هذه المشاكل مع فرنسا سريعاً - قال سايكس محذراً - هنالك امكانية أن يعزل الأتراك الشريف حسين، وأن يقتلوه، وبالتالي فإن الأحداث التي ستقع في الأراضي المقدسة قد تشعل نار حرب مقدسة حقيقية [327].

الرأي الراديكالي الجديد الذي عاد به سايكس من الشرق الأوسط هو أن العرب، من حيث كسب الحرب، أهم من فرنسا [328]. لقد كانت فرنسا دولة صناعية عصرية جُتدت ثمانية ملايين رجل للقتال في الحرب، بينما

الحسين بلا موارد صناعية أو مالية أو عسكرية أو قوى بشرية. ولم يعرض سوى امكانية غير مؤكدة لتقويض الولاء للامبراطورية العثمانية. وإذا نظرنا إلى الماضي نجد ان الرأي الجديد الذي عاد به سايكس غير متوازن، ومع ذلك حاولت حكومته اقناع فرنسا بتقديم التنازلات التي اعتقد سايكس انها ضرورية.

وحقيقة الأمر ان الحكومة البريطانية كانت قد شرعت في محادثات مع فرنسا. فلم يكن باستطاعة بريطانيا اعطاء الأمير حسين وعوداً بشأن سورية من دون إذن من فرنسا، لأن وزير الخارجية البريطاني كان يعترف باهتمام فرنسا الخاص بتلك المنطقة. علاوة على ذلك كان الفاروقي قد أقنع اللورد كيتشنر وأتباعه بوجود التجاوب مع مطالب الحسين في سورية، على أقل تقدير إلى حد ما. ولما كانت وزارة الخارجية قد فوّضت مكماهون باعطاء تعهدات إلى الشريف حسين في 20 تشرين الأول (أكتوبر) 1915، فقد طلبت فوراً إلى الحكومة الفرنسية ان ترسل مندوباً عنها إلى لندن للتفاوض بشأن مستقبل حدود سورية لمعرفة مدى حرية بريطانيا في التعامل مع الحسين. وهكذا لم تكن مراسلات مكماهون هي وحدها التي نتجت عن خدعة الملازم الفاروقي، بل كان من بين هذه النتائج أيضاً - ومن الناتج الأهم - المفاوضات التي أجرتها بريطانيا مع فرنسا وروسيا وفي ما بعد مع إيطاليا، والتي أدت في نهاية الأمر إلى اتفاقية سايكس - بيكو - سارانوف والتفاهات التعاهدية السرية اللاحقة بين الحلفاء.

## (2)

جاء المندوب الفرنسي، فرانسوا جورج بيكو، إلى لندن وبدأت المفاوضات في 23 تشرين الثاني (نوفمبر) 1915، وكان يرأس الفريق البريطاني المفاوض أول الأمر سير ارثور نيكولسون، الوكيل الدائم لوزارة الخارجية، وكان هذا الفريق يضم ممثلين لوزارات الخارجية وشؤون الهند والحربية من كبار موظفيها. ولدى عودة سايكس إلى لندن في كانون الأول (ديسمبر) كانت المفاوضات قد وصلت إلى طريق مسدود. وفي أواخر ذلك الشهر انتدبت الحكومة البريطانية سايكس - رجل كيتشنر - ليحل محل نيكولسون على رأس الفريق لكسر الجمود في المفاوضات. وفي الواقع عهدت وزارة الخارجية بالمسؤولية إلى اللورد كيتشنر.

كان سايكس يملك بعض المؤهلات للقيام بهذه المهمة، ويرغب رغبة شديدة في ان ينجح في التوصل إلى اتفاق مع الجانب الآخر. كان يميل إلى فرنسا. وبفضل سنواته الأولى التي أمضاها في المدارس خارج انكلترا كان يتكلم الفرنسية - مع انه ليس واضحاً مدى اتقانه لها. وبما انه كان كاثوليكياً فلم يكن متحاملاً على هدف فرنسا تنشيط وتشجيع المصالح الكاثوليكية في لبنان. وسبق له ان عاش وتجول في الشرق والتقى البريطانيين هناك، مسؤولين عسكريين أو موظفين مدنيين، وتعرف إلى وجهات نظرهم.

ومن ناحية أخرى لم يكن مضى سوى أقل من عام على توليه منصباً عسكرياً حكومياً، وكانت تلك أول مهمة دبلوماسية تسند إليه. ولم تكن لديه خبرة في التفاوض مع حكومة أجنبية، وكان موقفه التفاوضي ضعيفاً، إذ كان واضحاً جداً انه يريد ان يحصل من الجانب الآخر على أكثر مما يمكن الحصول عليه.

وحتى 3 كانون الثاني (يناير) 1916 كان سايكس يذهب إلى السفارة الفرنسية يومياً للتفاوض، وعند حلول المساء يقدم تقريراً مفصلاً إلى فيتزجيرالد وظل يتلقى عن طريقه توجيهات كيتشنر<sup>[329]</sup> الذي لا يراه. ويستحيل أن نعرف ماذا كان يقول سايكس أو ماذا كان يقال له؛ ذلك ان كيتشنر وفيتزجيرالد لم يكونا يحتفظان بأضابير مرتبة، ولم يترك أحد من هؤلاء الرجال الثلاثة سجلاً بما كان يحدث. ولعله كان بينهم سوء تفاهم بشأن ما كان مطلوباً من سايكس ان يطالب به وما كان مطلوباً منه ان يتنازل عنه. وقد ذكر مارك سايكس في وقت لاحق، في معرض وصفه لطريقة تعامله مع اللورد كيتشنر «لم أستطع قط أن أجعل نفسي مفهوماً، ولم أستطع إطلاقاً أن أفهم ما يدور في ذهنه، ولم يستطع هو قط ان يفهم ما يدور في ذهني»<sup>[330]</sup>.



إن الأدلة على حقيقة الآمال والخطط السرية التي لها علاقة بالمفاوضات متوافرة من الجانب الفرنسي في المفاوضات أكثر من توافرها من الجانب البريطاني. وتوجد وثائق تثبت ما الذي كان ييكو وزملاؤه السياسيون يأملون في كسبه من المفاوضات وكيف كانوا يأملون في تحقيق أهدافهم.

إن ييكو سليل أسرة فرنسية مؤمنة بالاستعمار - لقد كان والده مؤسس لجنة إفريقيا الفرنسية، وكان أخوه أمين صندوق لجنة آسيا الفرنسية التي كان أبوه عضواً فيها أيضاً - وقد عمل ييكو بصورة فعالة كمنافح عن أنصار الاستعمار في وزارة الخارجية الفرنسية، وكان خير من يمكن ان تختاره حكومته لتمثيلها من بين دعاة العمل من أجل سورية فرنسية [331]. وفي وقت سابق من عام 1915 كان ييكو مصدر الإلهام لحملة برلمانية في باريس معادية للوزراء الذين أبدوا استعداداً لإخلاء الطريق أمام بريطانيا في الشرق الأوسط. وقد قام البرهان على ان مزيجاً من المصالح التجارية والكنسية والسياسية الفرنسية المؤيدة لموقف ييكو كان ذا أثر فعال. وأرسلت غرفتا التجارة في مدينتي ليون ومرسيليا إلى وزارة الخارجية الفرنسية قرارات تأييد لسورية فرنسية. وصارت لدعاة سورية فرنسية السيطرة على لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب [332].

في عام 1915 أعدّ بيير - ايتان فلانندان، زعيم «حركة سورية فرنسية» في مجلس الشيوخ الفرنسي تقريراً أصبح بيان عمل للجماعة المسماة «الحزب السوري» في السياسة الفرنسية - وهو الحزب الذي كان نصيره الأول ييكو. وكانت حجة ان سورية وفلسطين تشكلان بلداً واحداً أخذ شكله بفضل فرنسا وعلى مدى قرون، إلى حد ان هذا البلد أصبح يشكل «فرنسا الشرق الأدنى». (كانت حجة هذه صدى لماض يعود إلى نحو ألف سنة، إلى أيام الصليبيين وإقامة ممالك الصليبيين اللاتين في سورية وفلسطين). ولذلك كتب قائلاً: يتحتم على فرنسا أن تواصل «مهمتها التاريخية» هناك. وقال ان ثروة هذا البلد هائلة، وهذا يعني ان امتلاكها من قبل الامبراطورية الفرنسية أمر حيوي لأسباب تجارية إلى جانب الأسباب التاريخية والجغرافية. ثم ان هذا البلد، حسب قول فلانندان، حيوي أيضاً لفرنسا لأسباب استراتيجية. ومن وجهة نظر موازية لوجهة نظر كيتشنر بشأن مكة والخلافة، ادعى فلانندان ان دمشق ثالث أقدس مدن الاسلام ومركز محتمل للاسلام العرب، ولا تجرؤ فرنسا على السماح بأن تتولى دولة أخرى ادارة هذا البلد وربما استخدامه ضد فرنسا [333]. وادعى فلانندان ان سورية - فلسطين فرنسية الهوى فعلاً، وان سكانها، في زعمه وزعم زملائه، مجمعون في رغبتهم في ان تحكمهم فرنسا.

لقد خدع الفرنسيون أنفسهم. فمعارضة الحكم الفرنسي كانت شديدة في أوساط الطبقات المثقفة في سورية (ما عدا الموارنة، الذين كانت ترعاهم فرنسا). وكان سايكس وأصداؤه في القاهرة يعتقدون أن الفرنسيين يتعاملون عن الحقيقة عندما يتجاهلون هذه المعارضة. (بيد أن كلايتون وزملاءه تعاملوا، بالطريقة نفسها، عن حقيقة أنهم يخدعون أنفسهم إذ يظنون أن شعوب تلك المنطقة شديدة الرغبة في أن تحكمها بريطانيا).

لقد أعد بيكو مسودة تعليماته التفاوضية التي تبين الخطوط العامة لاستراتيجية هدفها الحصول على التنازلات التي يريد الحصول عليها من بريطانيا. وتشير هذه التعليمات إلى أنه كان يفضل الإبقاء على الامبراطورية العثمانية على حالها دون تجزئتها، لأن «هزالتها» يوفر لفرنسا «مجالاً غير محدود» لمد نفوذها الاقتصادي<sup>[334]</sup>. أما وقد أصبح تقسيمها أمراً لا مفر منه، فمن المرغوب فيه أن تسيطر فرنسا على سورية وفلسطين ولو أن في ذلك تفتيتاً للامبراطورية العثمانية.

كانت وزارة الخارجية الفرنسية تقر بأن حفظ الأمن في داخل سورية سيرهق موارد فرنسا. وكان أكثر ما يرغب فيه بيكو وحكومته أن يؤكد الحكم الفرنسي المباشر على ساحل البلاد على البحر الأبيض المتوسط وعلى «لبنان كبير»، ومن ثم الاشراف على بقية سورية اشرافاً غير مباشر عن طريق حكام عرب يأمرون بأمرها. وكانت خطة بيكو أن يتظاهر أمام سايكس بأن فرنسا تصر على أن تحكم سورية كلها حكماً مباشراً، حتى إذا ما خفف من مطالبه حصل بالمقابل على تنازل ما. إن ما كان يأمل في الحصول عليه هو أن يمد منطقة النفوذ الفرنسي من سورية شرقاً إلى الموصل (وهي الآن جزء من العراق).

وعندما كان بيكو يخطط سراً لكي يأخذ الموصل، لم يكن يعرف أن كيتشنر وسايكس كانا يخططان سراً لإعطائه إياها. فقد كانا يريدان أن يمتد نطاق النفوذ الفرنسي من ساحل البحر الأبيض المتوسط في الغرب طول الطريق إلى الشرق بحيث يوازي ويجاذي المناطق الخاضعة لسيطرة روسيا، فتوفر المنطقة الفرنسية درعاً تحمي بريطانيا من روسيا. كانت الغاية أن تتوازن فرنسا وروسيا بحيث يكون الشرق الأوسط الفرنسي، مثل سور الصين العظيم، حماية للشرق الأوسط البريطاني من هجمات يقوم بها «البرابرة» الروس من الشمال. كانت هذه الفكرة قد وردت في مناقشات لجنة روبونسن. وسبق أن عرض هذا الاقتراح على كيتشنر، ربما من قبل ستورز، وأصبح في قلب خطته الاستراتيجية للشرق بعد الحرب. بل أن مطالبة بريطانيا بالموصل، بعد الاشتباه الشديد بوجود ثروات نفطية في منطقتها، كان سيضحي بها من أجل وضع الفرنسيين على الخط الأمامي،

في موضع قد يهاجمه الروس يوماً ما. وكانت وجهة نظر وزارة الحربية «ان مبدأ دق اسفين مؤلف من منطقة فرنسية، بين اية منطقة بريطانية والقوقاز الروسي، يبدو من كل الوجوه أمراً مرغوباً فيه من وجهة نظر عسكرية» [335].

في الجانب البريطاني في المفاوضات، كان سايكس ينشد موافقة فرنسا على شن هجوم مصري. فقد كان كيتشنر يريد اسكندرون وبيريد موافقة فرنسا على ان تغزو بريطانيا الامبراطورية العثمانية من اسكندرون. وكان التوجيه الذي تلقاه سايكس من القاهرة يقضي بأن يحتفظ بالمدن السورية التي أعطيت وعود بشأنها إلى الشريف حسين. وما من أحد في الحكومة البريطانية كان راغباً في أن يرى قوة عظمى أخرى تثبت قدمها على جانبي طريق الهند. إنه جدول أعمال ينطوي على تحد، وخصوصاً بالنسبة لسايكس، حديث العهد بالدبلوماسية.

كان البريطانيون يخشون ألا يتساهل بيكو في موضوع مطالبة فرنسا بأن تحكم سورية كلها حكماً مباشراً، أما الفرنسيون فكانوا يخشون عدم السماح لهم بأن يحكموا أي جزء منها، حتى لبنان الساحلي. كانت حجة بيكو ان لبنان المسيحي لن يطيق حكم أمير مكة، ولو كان حكماً اسمياً، في حين ان بول كامبون، السفير الفرنسي في لندن، قال محذراً ان الحكم الفرنسي ضروري تفادياً لنشوب حرب دينية. فقد قال «يكفي ان نعرف شدة المنافسات بين الديانات والمذاهب في الشرق لنقدّر مسبقاً مدى عنف النزاع الداخلي الذي سيحدث في لبنان بمجرد غياب سلطة خارجية تقوم بقمعه» [336].

في نهاية الأمر حصل كل من سايكس وبيكو على ما كان الواحد منهما يريد الحصول عليه من الآخر: تحكم فرنسا لبناناً أكبر وتمارس نفوذاً حصرياً في بقية سورية. لقد نجح سايكس في اعطاء، ونجح بيكو في الحصول على منطقة نفوذ فرنسية تمتد إلى الموصل. أما ولايتا البصرة وبغداد في بلاد الرافدين فهما من نصيب بريطانيا.

وكانت فلسطين العقبة الكأداء. فقد أرادها سايكس ان تكون من نصيب بريطانيا، ولو ان اللورد كيتشنر لم يكن راغباً فيها، في حين كان بيكو مصمماً على ان تكون من نصيب فرنسا. وقد توصلوا آخر الأمر إلى حل وسط: تأخذ بريطانيا مرفأ عكا وحيفا (بدلاً من اسكندرون في شمال سورية، التي كان كيتشنر يفضلها) وتأخذ معهما حزاماً من الأرض تنشئ فوقه خطاً حديدياً يمتد من عكا وحيفا إلى بلاد الرافدين، أما بقية فلسطين فتخضع لنوع من الادارة الدولية.

وباستثناء فلسطين والمناطق التي تمارس فيها فرنسا أو بريطانيا حكماً مباشراً، كان مخططاً للشرق الأوسط أن يؤلف دولة عربية أو اتحاداً كونفدرالياً لدول عربية مستقلة اسماً ولكنها في الواقع مقسمة إلى مناطق نفوذ فرنسية وبريطانية.

كان وضع اتفاقية سايكس - بيكو موضع التنفيذ مرهوناً بإعلان الثورة العربية. ولم تكن لدى بيكو والسفير الفرنسي كامبون قناعة بأن الحسين سيسهم بأي شيء ذي قيمة في قضية الحلفاء. ولذلك طلبا إلى وزير خارجية فرنسا الإسراع ما أمكن في إبرام الاتفاقية الأولية بين سايكس وبيكو (المعقودة في 3 كانون الثاني (يناير) 1916) قبل أن تنتهي فرصة إصابة البريطانيين بخيبة الأمل في العرب، فيندموا على التنازلات الواسعة التي قدموها إلى فرنسا لكي يملكوا حرية التعامل مع الحسين<sup>[337]</sup>.

### (3)

اعتقد مارك سايكس انه كسب للعرب ما طلبه الحسين والفاروقي. كان وصف سايكس للعرب انهم قوم يريدون الاعتراف بوحدتهم الجوهرية، ولكن فقط كممثل أعلى. أما من الناحية العملية فإن هذه الوحدة لن تنسجم مع سجيتهم القومية، ولن تكون قابلة للتطبيق من الناحيتين المالية والادارية. ومما قال في اجتماع لمجلس الوزراء الحربي ان العرب «ليست لديهم الروح القومية بالمعنى الذي نفهمه، ولكن لديهم شعور بالكبرياء العرقية، وهو لا يقل جودة عن الروح القومية» [338]. وقال إنهم سيكتفون «باتحاد كونفدرالي لدول عربية وبرعاية أمير عربي» [339]. لقد عجز سايكس عن إدراك ان الحسين والجمعيات السرية كانوا يطلبون دولة عربية موحدة، دولة مستقلة استقلالاً تاماً وليس محمية أوروبية.

وأساء سايكس أيضاً فهم اصدقائه وزملائه البريطانيين في القاهرة. تحت قشرته الدنيوية كان من سايكس بريئاً: فقد اعتقد ان الناس يقصدون ما يقولون. وكان كلايتون قد قال له مباشرة وعن طريق أوبري هيربرت ان من الأهمية بمكان ان يعد بأن تكون دمشق وحلب وحمص وحماة ضمن الاتحاد الكونفدرالي العربي المستقل وعلى رأسه الشريف حسين. ولهذا السبب طلب سايكس من بيكو الموافقة على ذلك (وتخيل انه كسب موافقة بيكو غير عارف ان بيكو أراد ان يعطيها له). فقد قضت اتفاقية سايكس - بيكو بأن تستثنى المدن الأربع من الحكم الفرنسي المباشر وان تكون بدلاً من ذلك في نطاق منظور دولة عربية مستقلة - ولكن، بطبيعة الحال، خاضعة للنفوذ الفرنسي حصراً. وبدا لسايكس انه صاغ الالتزامات لفرنسا والعرب بما يحقق التوافق بين هذه وتلك، وانه حصل بالضبط على التنازل الذي طلب إليه أصدقاؤه في القاهرة ان ينتزعه من فرنسا.

لقد كان تركيز سايكس على تلبية ما أبلغته القاهرة انه يمثل مطالب الشريف حسين، ولم يبصر ان القاهرة كانت تسعى من وراء ذلك إلى تحقيق مطالبها الخاصة. والأمر الذي لم يفهمه سايكس هو ان كلايتون وستورز، بقولهما انهما يريدان داخل سورية للعرب، إنما كانا في الواقع ويقصدان انهما يريدانه لبريطانيا، بل لهما بصفتها ممثلة بريطانيا في المنطقة، من وراء ستار عربي. وعندما قالوا إنهما يريدان الداخل السوري مستقلاً فقد قصدا انهما يريدان ان تكون إدارته لبريطانيا لا لفرنسا.

ولم يخطر لسايكس ان ممتلكات الحسين السورية ستكون أقل استقلالاً إذا ما كان مستشاروها فرنسيين لا بريطانيين. أما في القاهرة فقد كانوا يرون بوناً شاسعاً بين ادارة بريطانية وادارة فرنسية. ولم يكن هذا بلا سبب البتة.

إذ كان اعتقاد كلايتون وزملائه ان الادارة الاستعمارية الفرنسية لن تتيح للبلاد الاحتفاظ بطابعها. إن ما سماه الفرنسيون «مهمتهم التمديدية» كان ينظر إليه من قبل البريطانيين على انه عملية ضم. وغالباً ما كانت هذه العملية تبدو وكأنها تشتمل على فرض اللغة والثقافة الفرنسيتين على مجتمع البلد. أما البريطانيون، في مصر وغيرها، فقد نأوا بأنفسهم عن أهل البلاد وسكنوا في نواديهم ومجتمعاتهم، وباستثناء إشرافهم على إدارة الحكومة، تركوا البلاد وشعبها وشأنهما. وكان هذا في نظر كلايتون وزملائه أقصى ما يمكن ان يطمح إليه العرب من استقلال. ولقد قال أحد زملاء كلايتون لطلاب كلية الأركان العسكرية البريطانية بعد ذلك بسنوات، ان المثقفين العرب يعتبرون الحكم البريطاني «البديل الوحيد المحترم» للحكم العثماني [340].

عندما ساوى كلايتون وزملاؤه الوجود الفرنسي بالضم، والوجود البريطاني بالاستقلال، كانوا ينظرون إلى اتفاقية سايكس بيكو (ولو انهم لم يقولوا ذلك لسايكس) باعتبارها خيانة للتعهد بمنح الاتحاد الكونفدرالي العربي المقترح الاستقلال. لقد كان طموح اتباع كيتشنر ان يحكموا سورية بأنفسهم، وكان اعتقادهم ان سايكس قد خذلهم. لكنهم لم يفصحوا عن رأيهم على هذا النحو، بل قالوا ان سايكس قد خذل العرب (وكان العرب وليس هم الذين رغبوا في ان تتولى بريطانيا حكم سورية).

ومهما كان الأمر يعني لهما سياسياً، بل ربما شخصياً، فقد كان رأي كلايتون وستورز ان سايكس قد أغلق الطريق أمام امكانية انشاء امبراطورية مصرية جديدة. ولما كانت سيملا قد أكدت مطالبتها بولايتي بلاد الرافدين المجاورتين، صار في حكم المؤكد ان تخضع ولايتا بغداد والبصرة - وهما تشكلان المنطقة البريطانية الرئيسية في اتفاقية سايكس - بيكو - لحكم خصمهما، أي حكومة الهند، بينما تم التنازل لفرنسا عن سورية التي كان بالإمكان ان تقع في نطاق نفوذ القاهرة. وهكذا فإن الاتفاقية أتاحت للقاهرة والخرطوم التوسع فقط في شبه الجزيرة العربية القاحلة. ولما كان كيتشنر يستطيع بعد انتهاء الحرب ان يذهب إلى الهند نائياً للملك، فإن كلايتون وستورز، وكلاهما مستعرب ومرتبطة عاطفياً ومهنية، بمصير مقر المعتمد البريطاني في القاهرة، فقد أصابهما الأسى بسبب ما فعله سايكس.

ولم يفهم سايكس إطلاقاً ان أصدقاءه في القاهرة كانوا ينظرون إلى الأمر على هذا النحو، لأنه ظن انه فعل ما طلبوه. لقد اعتقد انه كسب داخل سورية للعرب، ولم يدرك أن اصدقاءه في القاهرة اعتقدوا انه قد خسره. ولم يخطر له مطلقاً ان القاهرة ستحاول تقويض اتفاقية سايكس - بيكو.

لقد كان فخوراً بالاتفاقية، ومن بواعث التهكم ان المكتب العربي - الذي كان هو قد أنشأه أصبح مركز المؤامرة للقضاء على الاتفاقية.

كان صديقه القديم اوبري هيربرت يعمل في المكتب العربي في القاهرة، ولذلك كان يعلم (اما سايكس فلم يعلم) ان كلايتون يعتقد اعتقاداً شديداً ان اتفاقية سايكس - بيكو قضت قضاء مبرماً على سياسة القاهرة تجاه العرب. فقد ألقى هيربرت باللوم على بيكو، فكتب يقول:

«أخشى ان ذلك الخنزير مسيو بيكو قد خذل مارك سايكس خذلانا شديداً. لقد عبرت له عن ظني بأن ذلك سيحدث. اني أتحسر لحدوث هذا الشيء وأتحسر على مارك وأتحسر أيضاً على قدامى الفيكتوريين الأوائل الذين كان بإمكانهم ان يقولوا (لقد حذرناكم، وهذه عاقبة الاستهانة بأجدية الدبلوماسية وترك الأمور في أيدي هواة عند الاقدام على مفاوضات دقيقة وهامة)» [341].

## (4)

وافق مجلسا الوزراء البريطاني والفرنسي على اتفاقية سايكس - بيكو في بداية شباط (فبراير) 1916. ولكن أحكامها بل ووجودها أخطيت بالسرية. ولم يكشف عن حقيقة توصل الحلفاء إلى اتفاقية بشأن الشرق الأوسط بعد الحرب إلا بعد نحو سنتين. وبعض القلة من المسؤولين في لندن الذين كانوا على علم بالاتفاقية، قد أعربوا عن تحفظات إزاءها. وكانت الشكوى البريطانية العامة هي ان الاتفاقية أعطت لفرنسا أكثر مما يجب ان تعطيه.

وبالنسبة لسايكس، فإن بعض مبرر إعطاء فرنسا ما حصلت عليه قد تم القضاء عليه سريعاً. لقد أراد سايكس ان يربح موافقة فرنسا على اقتراح القاهرة غزو سورية وبالتالي اطلاق شرارة الثورة العربية التي وعد الفاروقي بإشغالها. ولكن رئيس الوزراء البريطاني، الذي أخذ برأي الجنرالات الذين أصروا على تركيز كل القوات على الجبهة الغربية في أوروبا، قضى بعدم القيام بحملة جديدة في الشرق الأوسط بسبب ما ستطوي عليه من تحويل للموارد.

وقد ألقى سايكس المحتدم غيظاً خطاباً في مجلس العموم شجب فيه زعامة اسكويث، وطالب بإنشاء لجنة تضم أربعة من أعضاء مجلس الوزراء لإدارة شؤون الحرب. وبما ان خطاب سايكس جاء في وقت كان فيه رئيس الوزراء يتعثر في قيادة الحكومة، فقد اجتذب الخطاب تأييد الرأي العام على نطاق واسع. وأدى الخطاب أيضاً إلى لقاءين كانت لهما أهمية في تسلق سايكس السلم السياسي: أحدهما مع لويد جورج والآخر مع الحاكم السابق لجنوب افريقيا، اللورد ميلز، وبطانته صاحبة النفوذ، ومن ضمنها جوفري روبنسون، رئيس تحرير جريدة «التايمز».

وبالرغم من فشل سايكس في كسب الموافقة على غزو سورية فقد كان يعتقد بأهمية التوصل إلى ترتيبات مع فرنسا على الأساس المتفق عليه. لقد حققت اتفاقية سايكس - بيكو على أقل تقدير ما أراد كيتشنر تحقيقه: أي احتواء روسيا في الشرق الأوسط بعد الحرب. علاوة على ذلك، بدا ان سايكس كان يعتقد ان حل الخلافات بين الحلفاء وتوصلهم إلى اتفاقية محددة هو في حد ذاته أمر حسن. ولما كان ابرام الاتفاقية من قبل روسيا مطلوباً، كانت مهمة سايكس الفورية هي الانضمام إلى بيكو - الذي سبقه إلى بيتروغراد - لمساعدته في تأمين موافقة روسيا على الاتفاقية.



## (5)

كانت ثمة هفوة غريبة في الاتفاقية التي حملها سايكس وبيكو إلى بيتروغراد. ففي ما يتعلق بفلسطين أخذت هذه الوثيقة بالحسبان مصالح فرنسا وبريطانيا والحلفاء الآخرين والزعيم العربي المسلم الشريف حسين أمير مكة، دون أن تشير بأي شكل إلى مصالح شعب الأرض التوراتية المقدسة - أي اليهود. غير أن الصهيونية السياسية - وهي الحركة اليهودية المنظمة الرامية إلى عودة الشعب اليهودي إلى فلسطين - كانت قوة ناشطة في العالم منذ عقدين أو ثلاثة عقود. وكانت إعادة توطين اليهود في فلسطين جارية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وما أن حل عام 1916 حتى كان في فلسطين عدد كبير من السكان اليهود يعيشون فيها ويعملون.

قبل ذهاب سايكس إلى روسيا لفتت انتباهه ملاحظة في هذا الصدد أبداهها الكابتن وليم ريجينالد هول، رئيس مخابرات الأميرالية، فقد اعترض هول على الإجراءات التي كانت تعرض على العرب بقيادة الشريف حسين، إذ كان رأيته أنه يجب على بريطانيا أولاً أن تنزل قوات في فلسطين وعندها فقط ينضم العرب إلى الحلفاء. وادعى هول أن «القوة هي خير دعاية عربية»، وادعى أيضاً أن الوعود التي تقدم للعرب قد تلقى معارضة من اليهود الذين «لهم مصلحة مادية قوية، ومصلحة سياسية قوية جداً، في مستقبل هذا البلد»<sup>[342]</sup>. لقد ذهل سايكس عند ذكر اليهود، إذ لم يكن لهم شأن في حساباته حتى ذلك الحين. ولذلك اتصل سايكس قبل سفره إلى روسيا بوزير الداخلية هيربرت صامويل، وهو يهودي، آملاً أن يعرف منه شيئاً عن الصهيونية.

لا بد أن نتذكر أن سايكس وبيكو تمكنا في مفاوضاتهما من تسوية خلافتهما بشأن فلسطين عن طريق الموافقة على وضع معظمها تحت نظام دولي يتقرر شكله النهائي بعد التشاور مع الحلفاء الآخرين المعنيين بالأمر - روسيا وإيطاليا - ومع الشريف حسين. بيد أن كلام الكابتن هول أثار في نفس سايكس القلق من أن يكون الحل الوسط الذي توصل إليه مع بيكو قد أهمل عاملاً رئيساً؛ فهما لم يأخذا بعين الاعتبار احتمال اهتمام اليهود بمستقبل فلسطين السياسي.

ومن الجلي أن سايكس خاف عندما لفت انتباه بيكو إلى هذا السهو، أن يظن زميله الفرنسي أنه إنما فعل ذلك من أجل التراجع عن الاتفاقية. ولذلك بذل عند وصوله إلى بيتروغراد جهداً مضنياً لإثبات حسن نيته. إن صفاء طويته حال دون معرفته - أو حتى شكه - في أن الحكومة الفرنسية كانت

تعمل من وراء ظهره للانقلاب على الحل الوسط الذي كانا قد اتفقا عليه بشأن فلسطين. ذلك ان رئيس وزراء فرنسا، أريستيد بريان، كان قد شرع في مفاوضات سرية مع الروس، وتوصل الجانب الفرنسي في 25 آذار (مارس) 1916 إلى اتفاق مع روسيا على أن النظام الدولي المقترح لفلسطين - وهو الترتيب المتفق عليه بين سايكس وبيكو - سيكون نظاماً غير عملي ويجب ان يقوم بدلاً منه نظام فرنسي. وقد جرى تبادل سري للمذكرات بين فرنسا وروسيا في 26 نيسان (ابريل) 1916 تضمن اتفاقية بين الحكومتين بشأن منطقة نفوذ كل منهما في الأراضي العثمانية، وتضمن أيضاً تعهداً روسيا لفرنسا بأن تؤيد روسيا في المفاوضات مع الحكومة البريطانية أهداف حكومة الجمهورية الفرنسية في فلسطين» [343].

لم يكن الروس يكتفون أي تعاطف مع اليهود أو المطالبين اليهودية، ولدى وصول سايكس إلى بيتروغراد، أقنعه مضيفوه من رجال القيصر بأن اليهود الصهاينة هم قوة معادية كبيرة في داخل روسيا. ولذلك استحوذت على سايكس القناعة بأن اليهود قوة موجودة في أماكن عديدة وانهم قد يخربون قضية الحلفاء. ولكنه خلافاً للروس، رأى القيام بمحاولة لكسبهم. وقد ذكر في تقرير إلى وزارة الخارجية انه قد أبلغ بيكو ان بريطانيا غير مهتمة بالاستيلاء على فلسطين، وهذا ما يريده الصهاينة، فيجب إسترضائهم إذا ما أراد الحلفاء ان يربحوا الحرب [344]. وكانت فكرته ان يعرض على الصهاينة تأسيس شركة لشراء الأراضي في فلسطين، وكان السؤال الذي طرحه على وزارة الخارجية هو «هل تكفي شركة لشراء الأراضي؟» - وكان الجواب القاطع الذي تلقاه من وزارة الخارجية أنه يجب عليه ان يحتفظ بأفكاره لنفسه [345]. (ومن الجلي ان وزارة الخارجية أرادت من سايكس ألا يحشر نفسه في مسألة كان من الواضح انه لا يفقه فيها شيئاً).

اتخذ سايكس لدى عودته إلى لندن في نيسان (ابريل) 1916 خطوات جديدة لكي يعرف ما هي الصهيونية. ومرة أخرى قابل هيربرت صاموئيل الذي عرّفه إلى الدكتور موزس غاستر، الحاخام الأكبر للجالية اليهودية السفارادية [346]. يقول سايكس: «لقد فتح غاستر عيني على معنى الصهيونية» [347]. عندئذٍ قام سايكس بتعريف غاستر إلى المفاوضات الفرنسي جورج بيكو واقترح على بيكو ان تعمل فرنسا وبريطانيا معاً وصيتين على العرب واليهود بدلاً من ان تعمل كل منهما مستقلة عن الأخرى في الشرق الأوسط. لكن بيكو لم يعجب بغاستر ولا باقتراح سايكس بل تشبث بأهدافه الاقليمية.

وفي الوقت الذي بدا فيه نصر الحلفاء الحاسم في أحسن الحالات، أمراً بعيد الاحتمال، أخذ القلق يساور سايكس من امكانية ترجيح القوى اليهودية كفة الالمان والاتراك، وقد حاول ان يقنع بيكو بأنه إذا لم يعرض الحلفاء على اليهود موقعاً في فلسطين، قد تخسر فرنسا الحرب وتخسر معها مدناً ومقاطعات في فرنسا نفسها، وهذه أكثر أهمية للفرنسيين من فلسطين. وأخذ يحث بيكو على ابلاغ حكومته ان انقاذ باريس وفردان واستعادة الألzas يستحقان تقديم تنازلات في الشرق الأوسط.

وبينما كان سايكس في خضم عملية اكتشاف المسألة الصهيونية - قبل رحلته إلى بيتروغراد وخلالها وبعدها - كانت وزارة الخارجية في لندن أيضاً تفعل الشيء عينه، بتحريض من جيرالد فيتز موريس، صديق سايكس القديم. إن فيتز موريس زميل سايكس في الدراسة (مدرسة بومون) والذي تبنى الكثير من وجهات النظر والآراء الجائرة التي تبناها سايكس، كان - كما نتذكر - المصدر الرئيس في الحكومة البريطانية للترهة القائلة ان الباب العالي كان في قبضة اليهود. وفي أثناء عمله في الاميرالية في أوائل عام 1916 أخذ بالطرح المعاكس: فقد أوصى إلى زميل في وزارة الخارجية - زميل دراسة سابق في مدرسة بومون يدعى هيو اوبيرن - بأن يقترح انه «إذا أمكننا ان نعرض على اليهود ترتيباً بشأن فلسطين يستهويهم استهواءً شديداً، فمن الممكن ان نتمكن من عقد صفقة معهم يسحبون بموجبها تأييدهم لحكومة حزب تركيا الفتاة التي ستؤول عندئذٍ إلى الانهيار» [348]. وكما كانت القاهرة تعتقد بوجود جمعيات سرية عربية قوية وغامضة قادرة على الاطاحة بجماعة تركيا الفتاة، كانت لندن تعتقد أيضاً بوجود جمعيات يهودية قوية وغامضة قادرة على ذلك أيضاً.

ومن الجلي ان اوبيرن عزم على متابعة الأمر ضمن وزارة الخارجية نفسها، ولكن لم تتح له الفرصة: فقد مات في ربيع عام 1916. وهكذا ترك الأمر في نهاية الأمر لسايكس لإثارة الموضوع داخل الجهاز البيروقراطي البريطاني، بالرغم من ان معرفته باليهود وشؤونهم كانت ضئيلة.

لقد احتفظ سايكس، شأنه شأن فيتز موريس، باعتقاده الذي لازمه في حياته، بوجود أسرة يهودية عالمية متماسكة تتحرك بطرق خفية للسيطرة على العالم، ان ادوارد غرانفيل براون، الذي كان أعظم حجة أكاديمي بريطاني في شؤون الشرق الأوسط، وكان استاذ اللغة العربية في جامعة كامبردج، وسبق ان عرف سايكس عندما كان تلميذاً، وكان يثني عليه في أمور أخرى، قد قال في هذا الشأن «ان سايكس يرى اليهود في كل مكان» [349].



## (6)

بيد ان الصهيونية كانت أبعد ما تكون عن كونها المسألة الرئيسة التي عالجها سايكس في بيتروغراد في شتاء عام 1916. كانت الخطوط العريضة للتسوية الشرق أوسطية موضع مناقشة، ووجد لدى وصوله ان القادة الروس - مثلهم مثل المسؤولين البريطانيين في لندن - يدعون ان الوعود التي قدمت لفرنسا تجاوزت الحد. ورداً على ذلك أوضح السفير الفرنسي موريس باليولوغ، لوزير الخارجية الروسي ان السبب الذي حدا ببريطانيا لدفع فرنسا إلى التماهي في مطالبها تجاه الشرق هو توفير حاجز لبريطانيا يحميها من روسيا<sup>[350]</sup>. وكان هذا صحيحاً تمام الصحة. ولكن وزارة الخارجية في لندن احتدت لفصح موقفها فأغرقت بيتروغراد ببيانات النفي الرسمية. ولكن مسؤولي الوزارة في ما بينهم وصفوا باليولوغ بأنه «حقيقة انسان فاسد»<sup>[351]</sup>.

كان سبب اصدار الالتزامات، التي رهنّت مستقبل الشرق الأوسط بعد الحرب، من قبل حكومة اسكويث الائتلافية، هو ان القاهرة، وقد جازت عليها خدعة الفاروقي وصدقت تماماً قدرة الجمعيات السرية العربية، أقنعت لندن بأن الشريف حسين قادر على تمزيق الامبراطورية العثمانية. هل كان الأمر يستأهل دفع هذا الثمن؟ كان على بريطانيا ان تنتظر بضعة أسابيع بعد توقيع اتفاقية سايكس - بيكو - سازانوف لتعرف الجواب.

# الفصل الثالث عشر

## انتصار تركيا على ضفاف دجلة

### (1)

بينما كان المكتب العربي في القاهرة ينتظر آملاً حدوث الثورة العربية التي ستنتهي الأمبراطورية العثمانية، وجد نفسه مدعواً لمساعدة الهند البريطانية على تصفية مشروع آخر مدمر وغبي في الحرب ضد تركيا: معركة مماثلة لمعركة غاليبولي أضيق نطاقاً ولكنها أشد عاراً لبريطانيا، نشبت عند ضفاف نهر دجلة في بلاد الرافدين [352].

قبل شهر واحد من نشوب الحرب العثمانية في خريف عام 1914، كانت لندن قد أمرت بارسال قوة من الهند إلى الخليج الفارسي لتكون على أهبة الاستعداد لحماية تموينات النفط التي تأتي إلى بريطانيا من بلاد فارس إذا ما تعرضت للخطر. كان الهدف الأول لهذه القوة في حال وقوع حرب أن تحمي مصفاة النفط في عبادان، وهي جزيرة فارسية في شط العرب، المجرى المائي عند رأس الخليج حيث تلتقي مياه دجلة والفرات. وفي 6 تشرين الثاني (نوفمبر) 1914، وهو اليوم الذي أعلنت فيه بريطانيا الحرب على تركيا، تقدمت هذه القوة بعد دعمها. وقد سقطت القلعة التركية في الفاو عند مصب شط العرب بعد قصفها مدة قصيرة من قبل الزورق الحربي البريطاني أودين. ولم يمض أسبوعان حتى كان عدة آلاف من الجنود البريطانيين قد احتلوا مدينة البصرة. ومع أن القوة الهندية البريطانية نزلت في بلاد الرافدين، فقد كان نزولها من أجل حماية بلاد فارس المجاورة من وقوع هجوم عليها.

كانت المقاومة التركية هزيلة لأن جبهة البصرة كانت تبعد مئات الأميال عن الحشود الرئيسية للقوات العثمانية ومراكز التموين الواقعة قرب بغداد. وعندما كانت القوة الهندية البريطانية تثبت مواقعها في ولاية البصرة كانت تتعامل بسهولة مع الهجمات التركية المضادة.

كان ضابط بريطاني طموح قد عيّن حديثاً قائداً لهذه القوة هو سير جون نيكسون الذي وصل إلى المنطقة في شهر نيسان (أبريل) 1915. وقد أغراه التراجع التركي بالتقدم داخل مناطق المستنقعات في الجزء الأدنى من بلاد الرافدين. فأرسل أحد ضباطه وهو الجنرال تشارلز فيرفير تاونسند،

قائد القوة في الميدان للتقدم أكثر فأكثر شمالاً من أجل تحقيق انتصارات جديدة، دون أن يكون لدى هذا الضابط احساس كبير بالاتجاه أو بالغاية الاستراتيجية. وفي نهاية الأمر أمر نيكسون القوات - بالرغم من المآخذ التي أخذها عليه الجنرال تاونسند بأن تواصل زحفها بلا توقف حتى بغداد.

إن زحفاً ناجحاً من البصرة إلى بغداد كان يتطلب معرفة كاملة بالأمور اللوجستية، ووفرة في عدد الجنود، ووسائل نقل نهريّة، ومعدات مستشفى، ومدفعية، ومؤناً لم تكن الهند البريطانية قد وفرتها لهذه الحملة. كان الجنود يتقدمون داخل بلد مليء بالمستنقعات والصحارى، خالٍ من الطرق والسكك الحديدية، فكانوا لذلك مضطرين إلى اتباع مجرى نهر دجلة المتعرج والضحل والغدار. كانوا بحاجة إلى عدد كبير من الزوارق النهريّة الملائمة لنهر دجلة. وكان البلد موبوءاً بالحشرات - فقد كانت هناك أسراب من الذباب والبعوض مزعجة إلى حد الجنون وناقلة للأمراض - الأمر الذي كان يتطلب وجود مستشفيات متنقلة ومواد طبية. وكما أن الأتراك في البصرة الذين أضعفهم الهجوم كانوا عند نهاية خط تموينهم الطويل، كانت قوات تاونسند في جبهة بغداد أيضاً عند خط نهاية تموينها الطويل، وستجد نفسها بحاجة إلى كميات كافية من المواد الغذائية والذخائر كان يجب أن تحضرها معها.

وبالرغم من افتقار قوات تاونسند إلى هذه الأمور الضرورية، فإن تاونسند الذي تكاد موهبته للقيادة العسكرية تبلغ حد النبوغ، كان على وشك أن يشق طريقه إلى النصر. ولكن انتصاره النهائي، إذا صح أن نسميه كذلك - في موقع كيتيسيفون، على بعد خمسة وعشرين ميلاً جنوب شرقي بغداد وعلى بعد مئات الأميال النهريّة من قاعدة خطه التمويني في البصرة - كان كارثة: إذ أنه فقد نصف قوته الصغيرة. وقد بدأ التقهقر ليلة 25 تشرين الثاني (نوفمبر).

لقد علم تاونسند أن الفيلد مارشال كولمان فون ديرغولتز، الذي كان يعتبره واحداً من أعظم الاستراتيجيين في عصره، قد تولى القيادة العامة للقوات العثمانية في بلاد الرافدين. وعلم أيضاً أن 30,000 جندي تركي كانوا على وشك دعم القوة المؤلفة من 13,000 جندي التي قاومتها في كيتيسيفون. بينما انخفض عدد القوة المقاتلة التي يقودها تاونسند إلى 4500 رجل يعانون من نقص في الذخائر والمواد الغذائية.

اعتقد تاونسند - ولسبب وجيه - أن أقرب مكان آمن يستطيع التوقف فيه والصمود، يقع على بعد 250 ميلاً إلى الجنوب على مجرى النهر، ولكنه قرر - وكان قراراً غير حكيم - أن قواته المنهكة لا تستطيع أن تقطع هذه المسافة. وبعد أسبوع من التقهقر المضني مسافة تبلغ نحو مئة ميل،

تخللتها معارك مع مطارديهم الأتراك، وبعد ان منيت قواته بألف اصابة أخرى، اختار تاونسند التوقف والصمود في كوت العمارة.

كوت العمارة قرية بيوتها من الطين داخل منعرج لنهر دجلة، ولذلك فهي محاطة بالماء من ثلاث جهات. وإذ اتخذ تاونسند منها ملجأ وحصن الجانب الرابع، يكون قد سجن نفسه في موقع شبيه بالقلعة. أي انه صار عسيراً على الأتراك ان يدخلوا المكان وصار عسيراً عليه ان يخرج منه. وكانت الجيوش العثمانية بقيادة فون ديرغولتز قد أبقّت في كوت العمارة قوة تكفي لمنع أي خروج بريطاني، ثم تقدمت هذه القوة لتحصن نفسها في موقع إلى الجنوب لصد أية قوة قد ترسلها بريطانيا لانقاذ القوة المحاصرة.

كان تاونسند يخطط لانقاذ قواته ولكنه دمر بنفسه فرص انقاذها. كانت لديه تموينات تكفي حتى نيسان (ابريل) 1916، لكنه أبرق قائلاً انه يستطيع الصمود فقط حتى كانون الثاني (يناير). ولم يكن بالإمكان تجميع كامل القوة المتوافرة لانقاذه خلال المدة التي حددها - كانت ثمة حاجة إلى بضعة أسابيع أخرى - ولكن القوات المجزأة المتوافرة بدأت، تحت تأثير برقيات تاونسند المفتقرة إلى الثبات والتوازن، تشن الهجوم تلو الهجوم قبل الأوان فتهزم. ولو كانت هذه القوات المجزأة قد انتظرت حتى تستطيع ان تهاجم كقوة واحدة متكاملة لكان محتملاً ان تشق طريقها.



## (2)

في 26 نيسان (ابريل) كانت حامية كوت العمارة قد استهلكت آخر ما لديها من مواد غذائية، فعرضت وزارة الحربية في لندن على تاونسند خدمات الكابتن اوبري هيربرت والكابتن توماس لورنس في التفاوض على الاستسلام. كان كلاهما على علاقة مع المكتب العربي في القاهرة، ثم ان هيربرت، عضو البرلمان، قد اشتهر بأنه صديق الامبراطورية العثمانية قبل الحرب، وكلاهما وصلا للتو إلى بلاد الرافدين وأصيب لورانس بالحمى المنتشرة في تلك البلاد.

كان قد مضى على بدء حصار كوت العمارة 146 يوماً، أي ان المدة تجاوزت الرقمين القياسيين السابقين في حصارين شهيرين هما حصار ليدي سميث (في حرب البوير) وحصار بليفنا (في الحرب الروسية - التركية عام 1877). وقد شهد هذا الحصار قصة من قصص البطولة - لأن المدافعين كانوا يتعرضون للمرض والجوع والفيضانات - كما شهد أموراً مأساوية، لأن المؤن كانت تلقى إليهم بالمظلات فكانت الريح تقذفها إلى النهر، أما الزوارق النهرية التي أرسلت لمساعدتهم فقد جنحت أو أوقفتها السلاسل التي نصبها الأتراك عبر النهر.

فقد تاونسند توازنه العاطفي لا سيما انه لم يتعاف تماماً من الحمى التي أصابته في الصيف الماضي القائط. وقد خطر له في وقت ما خلال الحصار ان الأتراك قد يسمحون له ولرجاله بحرية المرور وان يمنحهم العفو لقاء مليون جنيه. وقد تلقى هيربرت ولورانس اللذان رافقاه من 27 آذار (مارس) إلى 8 نيسان (ابريل) لمفاوضة الشروط، تفويضاً من لندن بأن يعرضاً مبلغاً أكبر: وبالرغم من خجلهما إذ يعلان ذلك، عرضاً على الأتراك مليوني جنيه. غير ان القائد التركي رفض العرض بناء على أوامر تلقاها من أنور باشا الذي كان جلياً انه يستمتع بإذلال بريطانيا وهي تتوسل لابتياح حرية جنودها.

تبعاً لذلك دمر المدافعون البريطانيون في كوت العمارة مدافعهم واستسلموا دون شرط. وقد عومل تاونسند معاملة كريمة وأرسله الأتراك ليعيش في راحة - بل ليعيش عيشة بذخ - في القسطنطينية. أما جنوده الذين أنهكهم المرض والجوع فقد سيقوا إلى مسيرة موت قطعوا خلالها مئة ميل إلى بغداد وخمسمئة ميل أخرى إلى الأناضول، وهناك أرغموا على العمل في بناء السكك الحديدية وهم مقيدون بالسلاسل. ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى عدد قليل.

لقد منيت قوات تاونسند بأكثر من 10,000 إصابة منذ بدء زحفها نحو بغداد وحتى استسلامها. ومنيت القوات البريطانية التي جاءت لانقاذها في كوت العمارة بثلاثة وعشرين ألف إصابة، وكانت النتيجة ان الحامية وضعت في الأسر وواجهت الموت طول الطريق.

كانت هذه مذلة قومية أخرى حلّت ببريطانيا على يد عدو عثماني كان المسؤولون البريطانيون يعتبرونه دائماً عديم الفاعلية - وكان المكتب العربي يعتزم سحقه بواسطة عمل تخريبي داخلي في وقت لاحق من عام 1916.

# الجزء الرابع

## التخريب

# الفصل الأول

## خلف خطوط العدو

### (1)

في عام 1916 بدا ان السؤال هو: أي من الائتلافين المتحاربين، المانيا وحلفائها أو بريطانيا وحلفائها سينهار أولاً تحت ضغط الجهود الهائلة التي فرضتها الحرب. كانت القاهرة، ولها وجهة نظرها الخاصة، تراهن على ان تركيا هي التي ستتصدع أولاً. ويتبع ذلك السؤال الآخر: هل ستمكن ثورة الشريف حسين، المقرر حدوثها في أواسط عام 1916، من تقويض ولاء مئات الألوف من الجنود العثمانيين وملايين الرعايا العثمانيين؟ كان اعتقاد المخابرات البريطانية ان ذلك ليس أمراً غير محتمل، إذ انها كانت دائماً تعتبر نظام حكم السلطان العثماني نظاماً هزلياً.

وكان الاعتقاد السائد في العالم الغربي، منذ عقود ان الامبراطورية العثمانية المهتزة سوف تنهار أو تتفتت يوماً من الأيام. وبموجب هذا الحساب، فإن أعباء شن الحرب على بريطانيا وفرنسا وروسيا ستؤدي إلى انهيارها وان التخریب في الداخل سيزيد الأعباء شدة.

غير ان سجل الأحداث حتى منتصف عام 1916 كان يوحي بغير ذلك. فزعماء حزب تركيا الفتاة، باعتبارهم وطنيين يقودون حملة ضد النفوذ الأجنبي ومن أجل إزالة مظاهر الاستعمار، كانت لديهم حساسية إزاء أي وجود أجنبي في وسطهم - حتى إزاء وجود حلفائهم. وقد عبّر كل من أنور وطلعت عن قلقهما بشأن تمدد النفوذ الالمانى في إدارة المجهود الحربي التركي [353]. مع ذلك لم ينشأ خلاف خطير بين الأتراك والالمان.

ومع ان كثيرين من الالمان الذين كانوا يخدمون في القوات العثمانية عبروا عن شعورهم بالاحباط والاشمئزاز بسبب العراقيل التي كانت توضع على طريق تنفيذ أوامرهم، فلم يسمحوا بإنهيار علاقتهم مع الأتراك. كانت المانيا تمارس النفوذ لغاية واحدة هي كسب الحرب، ولم تقدم على أية خطوة لتقويض استقلال الحكومة العثمانية أو مكانة قادة جمعية الاتحاد والترقي. وقد أظهرت المانيا أكثر من أية دولة عظمى أخرى في الجانبين المتحاربين، قدرة على الحيلولة دون تدخل طموحاتها في آسيا لما بعد الحرب في قرارات زمن الحرب، ونتيجة لذلك كانت في أفضل وضع من حيث قدرتها

على الاستفادة من فرص اثاره المتاعب خلف خطوط العدو. كان الارتياح متبادلاً بين حكومة امبراطورية هابسبورغ والحكومة العثمانية، وكانتا بدورهما ترتابان أيضاً في الالمان، فتحدث مشادات لا مفر منها في الميدان بين الضباط المتحاسدين. ولكن الالمان، بوجه عام، فرضوا على حلفائهم في أولى سنوات الحرب في آسيا، ان يفهموا ان كسب الحرب له الأفضلية على الأهداف الأخرى [354][355].

افغانستان كانت الاستثناء: ففيما كان الأمر يتعلق بها، سمح المسؤولون في المنطقة لشكوكهم المتبادلة ان تأخذ مداها. كانت مهمة الضباط الالمان هي تقويض السيطرة البريطانية على ذلك البلد الإسلامي الشديد المراس - وهي سيطرة مارستها بريطانيا بموجب اتفاقية عام 1907 التي أنهت اللعبة الكبرى بين روسيا وبريطانيا. ونتيجة للمشادات بين الالمان والأتراك وبين الالمان بعضهم مع بعض، لم تنجح سوى حملة واحدة من الحملات الأربع التي أرسلت براً عند بداية الحرب في اكمال طريقها والوصول إلى كابول، حيث أمضى الالمان ستة شهور يحاولون عبثاً اقناع الأمير بدخول الحرب ضد بريطانيا. فقد امتنع الأمير عن الإقدام على ذلك ما لم تضع دول أوروبا الوسطى جيوشاً في الميدان لضمان نجاح الثورة. وبما انها لم تستطع ان تفعل ذلك، بقي الأمير بكل هدوء في الحظيرة البريطانية.

بيد ان الدول الوسطى حققت في بلاد فارس نجاحاً كبيراً. كان الالمان، قبل الحرب بزمان طويل، قد عززوا علاقاتهم مع كبار السياسيين الفرس. ثم نجحوا في عام 1915 في اقناع رئيس الوزراء بتوقيع معاهدة تحالف سرية. وحاز السفير الالمانى أيضاً تأييد قوة الدرك البالغ عددها سبعة آلاف رجل بقيادة ضباط سويديين، بينما حصل عملاؤه على تأييد مختلف القبائل التي شكلت نحو عشرين بالمئة من مجموع السكان. وفي نهاية عام 1915 رأى الحلفاء ان الوضع يهدد بالخطر، فاحتل الروس، بدعم من قوة الشركس - الفرس البالغ عددها ثمانية آلاف رجل بقيادة ضباط روس، الجزء الشمالي من البلاد واستولوا على العاصمة طهران، فأخضعوا لنفوذهم الشاه الضعيف المتوج حديثاً. وقد هرب السياسيون الأكثر ميلاً إلى الالمان، أولاً إلى مدينة قم المقدسة ثم إلى كرمنشاه، قرب الحدود العثمانية، حيث أوجدوا حكومة تابعة للألمان، بدعم من القوات العثمانية.

أما في الجنوب، فإن الأكثر نجاحاً بين الجواسيس الالمان، المدعو فيلهلم فاسموس، أثار تمرداً قليلاً عنيفاً أخمده بصعوبة باللغة البريغادير جنرال سير بيرسي سايكس، وهو من ضباط حكومة الهند، وكان قد أنشأ في عام 1916 قوة من أهل البلاد قوامها أحد عشر ألف رجل بقيادة ضباط بريطانيين، سماها قوة «سلاح البنادق لجنوب فارس»، وفرض سيطرته على

الجنوب متخذاً من مدينة شيراز قاعدة للسلطة. كانت قوة «سلاح البنادق لجنوب فارس»، والشركس الفرس، وما تبقى من قوة الدرك، والكونفدراليات القبلية برعاية الالمان، هي القوات المسلحة المنظمة الوحيدة التي بقيت في ما كان في زمن ما بلداً سيداً وهاماً. ولم تكن هناك قوات مؤثرة تحت تصرف الشاه لكي يحافظ على حياد فارس، ويطبق القانون، ويدافع عن وحدة أراضي بلاده. وكانت ولاية أذربيجان في الشمال ميدان معركة بين تركيا وروسيا منذ ان شن أنور هجومه على القوقاز في بداية الحرب. وبما ان الحرب استمرت، كانت القوات الروسية والعثمانية تذرع أراضي الولاية ذهاباً وإياباً، وتحتل الأراضي الفارسية كما تشاء.

لقد حول تحالف الالمان والعثمانيين فارس، التي كانت خاضعة للدول الحليفة وحدها، إلى ساحة قتال متنازع عليها. ومع حلول 1915 - 1916 كانت بلاد فارس. بالمعنى العملي، قد اختفت ككيان ذي سيادة، دعك عن كونها بلداً خاضعاً للدول الحليفة وحدها.

## (2)

لم تلق المحاولات البريطانية لإثارة السكان العرب وراء الخطوط العثمانية نجاحاً مماثلاً. ولكن جمال باشا، أحد ثلاثي قيادة الاتحاد والترقي، والذي كان يمارس عمله من دمشق، أخذ خطر إثارة العرب مأخذ الجد، إلى حد أنه شرع يفتك بالذين يشتهب بأنهم ارتكبوا جريمة الخيانة العظمى. وفي خضم غاراته على الجمعيات السرية العربية في سورية عام 1915، نشر في القسطنطينية في عام 1916 كتاباً باللغة الفرنسية يحمل شعار الجيش العثماني الرابع، عنوانه «حقيقة المسألة السورية»، وفي هذا الكتاب قدم الأدلة التي ادعى أنها تسوغ معاملته للمتآمرين المزعومين. وقد تضمن الكتاب بحثاً بشيء من التفصيل في الجمعيات السرية وأهدافها، وادعى أن الرجال المدانين خونة وليسوا قوميين.

لم يغير السكان العرب ولاءهم، ولا نعرف هل كان ذلك بسبب حملة باشا أو بالرغم منها. لكن الأمر الأهم للباب العالي أن الجنود العرب أظهرُوا ولاءهم ليس فقط للإسلام بل للحكومة العثمانية أيضاً. وقد جاء في مذكرة أعدتها المخابرات البريطانية على أساس مقابلات مع الضباط العرب الأسرى في معسكرات أسرى الحرب، أن معظم الضباط كانوا في الحقيقة مؤيدين لحزب تركيا الفتاة، وحتى الأقلية منهم التي لم تكن مؤيدة «لم تستطع بوازع الضمير أن تقبل القيام بثورة مسلحة والبلاد في مواجهة العدو» [356].

كان قادة حزب تركيا الفتاة يعتبرون ولاء السكان غير المسلمين في الامبراطورية مسألة مشكوكاً فيها. وكان الباب العالي يرتاب ليس فقط بالمسيحيين بل باليهود أيضاً. وخصوصاً الستين ألفاً منهم أو أكثر الذين يعيشون في فلسطين.

والأمر الذي أقلق طلعت وزملاءه، أن ما لا يقل عن نصف اليهود في فلسطين لم يكونوا رعايا عثمانيين. وجميع هؤلاء تقريباً، أي الذين لم يكونوا رعايا عثمانيين، جاءوا من الامبراطورية الروسية، وأكثرهم جاء خلال نصف القرن الذي سبق عام 1914 وظلوا - نظرياً - رعايا قيصر روسيا.

لم يكن لدى حركة تركيا الفتاة ما يدعوها لعدم الثقة بهم، لأنهم غادروا أوروبا هرباً من السياسة والمؤامرات وليس للإنخراط فيها. ولما كانوا قد هربوا من المجازر التي تعرضوا لها في روسيا واورانيا وبولندا، فقد كان همهم أن يعيشوا على وطن جديد - كما فعل كثيرون من اليهود - في بلاد تتوافر فيها الفرص مثل الولايات المتحدة، التي كانت ترحب بالمهاجرين. أما الذين اختاروا بدلاً من ذلك صعوبات الحياة الطليعية في فلسطين القاحلة،

فقد كانوا أناساً حالمين لا ينشدون سوى السماح لهم بممارسة دينهم أو المثل التي يؤمنون بها، في سلام.

كان الدين حافز بعضهم للمجيء إلى الأراضي المقدسة، وآخرون كانت تحدوهم فكرة استعادة القومية اليهودية التي كان الرومان قد قضوا عليها قبل ذلك بألفي عام. غير أن معظمهم كان من أصحاب الأفكار الاشتراكية، بل كان هدفهم إقامة مجتمع المساواة والتعاون في مستوطنات زراعية قادرة على الاكتفاء الذاتي في بلد بعيد عن معاداة السامية في أوروبا. ولدى وصولهم أحيوا اللغة العبرية القديمة وأحيوا التربة المتآكلة، وأوجدوا مبدأ الاعتماد على الذات. وفي مطلع القرن العشرين بدأت مستوطناتهم تزدهر، وانتشر أكثر من أربعين منها في الأرض المقدسة. وأقام اليهود مدناً أيضاً. وقد بدأوا في عام 1909 ببناء ما أصبح الآن مدينة تل أبيب فوق الكثبان الرملية القاحلة على الساحل، فوجدوا التشجيع والتأييد في الخارج من مجموعة صغيرة نسبياً من اليهود، برنامجها يدعو للعودة إلى صهيون: أي الحركة الصهيونية.

في نهاية عام 1914، بعيد دخول الامبراطورية العثمانية الحرب العالمية الأولى اتخذ جمال باشا، الذي أصبح حاكم سورية وفلسطين، اجراء عنيفاً ضد المستوطنين اليهود. فقد وقع جمال باشا تحت تأثير مسؤول عثماني شديد العداء للصهيونية يدعى بهاء الدين، فدمر المستوطنات الصهيونية وأمر بطرد اليهود الأجانب كلهم - بعبارة أخرى معظم يهود فلسطين. بدأت أعمال الطرد هذه قبل أن تبادر الحكومة الألمانية، بدافع الخوف من تنفير الرأي العام في البلدان المحايدة، إلى اقناع طلعت وأنور بالتدخل، وقد عالج الموضوع السفير الأميركي، هنري مورغنتاو، بالتعاون مع السفير الألماني فون فانغينهيم.

كانت الحكومتان الأميركية والألمانية عاجزتين عن التأثير على الباب العالي، ولم يكن الباب العالي في الوقت نفسه قادراً على الدوام ان يضبط أعمال جمال باشا الذي كثيراً ما تصرف بمفرده، وكان ينظر إلى الجالية اليهودية في فلسطين باعتبارها مكمّن خطر. وقد ثبت إلى حد ما ان نبوءته هذه أثبتت صحتها. ففي حين أن معظم - يهود فلسطين اختاروا تجنب التورط في الحرب العالمية، عرض دافيد بن غوريون واسحاق بن زفي، وكلاهما طالبا حقوق سابقان في جامعة القسطنطينية وكانا زعيمين للحركة العمالية الصهيونية، أن ينظما جيشاً يهودياً فلسطينياً في عام 1914 للدفاع عن فلسطين العثمانية. ولكن جمال باشا بدلاً من أن يقبل هذا العرض، تفاهم مع زعماء صهيانية آخرين في عام 1915، فذهب بن غوريون وبن زني إلى الولايات المتحدة، وهناك تابعا حملتهما لإنشاء جيش يهودي موالٍ للعثمانيين. ولكنهما في مطلع عام 1918 انضما إلى تشكيل جيش يهودي أعد للقتال



في فلسطين إلى جانب بريطانيا ضد الامبراطورية العثمانية. فلم يكن ثمة شيء في كل ما فعلته الحكومة العثمانية زمن الحرب يدعوها للبقاء على ولائها لتركيا.

ومع ذلك، وبالرغم من نزوات جمال باشا واجراءاته القاسية، لم يفعل المستوطنون اليهود في فلسطين شيئاً لتخريب الامبراطورية العثمانية. إلا أن أقلية صغيرة منهم، ولكنها بالغة الفعالية - كانت تعمل ضد الامبراطورية العثمانية. عن هذه الأقلية الصغيرة التي كانت بقيادة عالم زراعي يدعي أهارون اهارونسون، سنتحدث عنه في ما بعد.

### (3)

كان اعتقاد الأتراك أن أعمال التخريب الروسية خلف الخطوط العثمانية في المدة 1914 - 1915 كانت تتم عبر الحدود بالتعاون مع الأرمن في شمال شرقي الأناضول، أي في المنطقة المحاذية لأرمينيا الروسية. هذه الواقعة ما فتئت موضع جدل عنيف منذ ذلك الحين. كانت أرمينيا التركية منطقة انطلاق الهجوم الأول الذي شنته أنور باشا على هضبة القوقاز، وكانت الهدف الأول للجيوش الروسية عندما انحدرت بدورها من جبال القوقاز في عام 1915 لغزو تركيا. وبما أن الأرمن مسيحيون فقد كانوا يؤثرون القضية الروسية على القضية التركية. وما من شيء في تاريخ الحكم العثماني كان يحفزهم إلى البقاء على الولاء للقسطنطينية.

إن المجازر التي تعرضوا لها على أيدي الأتراك في الأعوام 1894، 1895، 1896 و1909 كانت لا تزال ذكرياتها ماثلة في أذهانهم. ثم أن أنور باشا كان قد أرسل اعداءهم الألدّة، أي الأكراد، إلى أرمينيا ضمن الوحدات العسكرية العثمانية، فأشعل من جديد نار خصومات قديمة وهياً لخصومات جديدة.

لقد ادعى أنور، بصفته وزيراً للحربية، وطلعت بصفته وزيراً للداخلية في أوائل عام 1915، أن الأرمن يؤيدون روسيا علناً وإنهم لجأوا إلى العنف الجماهيري. وانتقاماً منهم، أمرا بترحيل السكان الأرمن جميعهم من الولايات الشمالية الشرقية إلى مواقع خارج الأناضول. ويصر ممثلو الحكومة التركية حتى في الوقت الحاضر على أن «المتمردين الأرمن، بتحريض من روسيا القيصرية وبدعم منها، سعوا إلى إقامة دولة أرمنية في منطقة كانت في غالبيتها تركية»، وأنه قبل عمليات الترحيل «ارتكبت القوات الأرمنية مجازر ضد السكان المسلمين في مدينة فان واشتركت في هجمات خاطفة على جناحي الجيش التركي» [357].

إن عمليات الترحيل التي نظمها طلعت وزير الداخلية لا يزال يتذكرها الناس ويطلقون عليها اسم المجازر الأرمنية لعام 1915. كان اغتصاب النساء والضرب أمرين شائعين. والذين لم يقتلوا في الحال شردوا عبر الجبال والصحاري دون طعام أو شراب أو مأوى. وفي نهاية الأمر انهار أو قتل مئات الألوف من الأرمن. وتقول المصادر الأرمنية أن العدد بلغ 1,500,000، ومع أن الأرقام لا تزال موضع خلاف شديد فلا يمكن أن يكون هناك خلاف على النتيجة: لقد دمرت أرمينيا التركية وهلك نصف شعبها.

لا يزال هناك حتى الوقت الراهن مؤرخون يؤيدون ادعاء أنور وطلعت أن الحكام العثمانيين لم يتصرفوا إلاّ بعد تمرد الأرمن عليهم [358]. ولكن المراقبين الذين عاشوا تلك الفترة ولم يكونوا بأي حال معادين للأتراك، يقولون إن الأمر لم يكن كذلك. والضباط الألمان الذين كانت مواقعهم في المنطقة يقولون أيضاً أن المنطقة كانت هادئة حتى بدء أعمال الترحيل [359].

عندما تلقت السفارتان الألمانية والنمساوية الأنباء الأولى عن أعمال الترحيل عمدتا إلى تجاهلها: كان واضحاً أن موظفي السفارتين اعتقدوا أن مجازر ضد المسيحيين توشك أن تحدث، ولكنهم لم يريدوا أن يعرفوا شيئاً عنها. وقد قبلوا تطمينات طلعت بطيبة خاطر.

ولكن أنباء المجزرة قد أصبحت في شهر أيار (مايو) 1915 شديدة الاقناع، ولم يعد بالامكان تجاهلها. وأبلغ السفير النمساوي حكومته أنه يرى أنه ينبغي «تنبيه رجال الدولة الأتراك بأسلوب ودي» إلى ما يمكن أن ينجم عن أعمالهم من عواقب سلبية [360]. ثم عاد فأبلغها أنه تحدث فعلاً إلى طلعت وحثّ على معالجة المسألة معالجة متأنية، واقترح عليه تفادي «ملاحقة النساء والأطفال» لأن ذلك سيخدم دعاية الحلفاء [361]. وفي 24 أيار (مايو) شجبت الحكومات الحليفة سياسة «القتل الجماعي» التي يتبعها الباب العالي، فرد الباب العالي على ذلك قائلاً: إن المسؤولية تقع على عاتق الحلفاء لأنهم نظموا عملية التمرد في أرمينيا [362]. (ومسألة هل حدث فعلاً تمرد؟ وإذا كان قد حدث فهل نظمته روسيا أو شجعته فقط - هذه المسألة تظل، كما ذكرنا، موضع جدل شديد).

تدفقت التقارير من الموظفين الألمان الموجودين على الساحة متضمنة تفاصيل مخيفة عن الفظائع التي ارتكبت. وقد وجد السفير الألماني فون فانغينهيم صعوبة متزايدة في التغاضي عما كان يحدث، وفي منتصف شهر حزيران (يونيو) أبرق إلى برلين قائلاً: إن طلعت اعترفت له بأن «الاعتبارات العسكرية» [363] لم تكن وحدها سبب الترحيل الجماعي. وبالرغم من أن السفير الألماني والسفير النمساوي بالافيسيني لم يتلقيا أي توجيه من حكومتيهما، فقد نقلوا إلى الباب العالي مشاعرهما بأن أعمال الترحيل الجماعية والعشوائية، خصوصاً عندما تقترب أعمال نهب ومجازر، تخلق انطباعاً سيئاً جداً في الخارج، وخصوصاً في الولايات المتحدة، وهذا الأمر يؤثر تأثيراً سلبياً على مصالح ألمانيا وتركيا المشتركة [364].

وفي شهر تموز (يوليو) أبلغ السفير الألماني فون فانغينهايم مستشار المانيا انه لم يعد هناك أدنى شك في أن الباب العالي يحاول «إبادة العرق الأرمني في الامبراطورية التركية» [365]. وقد استنتج السفير الألماني ونظيره النمساوي أنه لن ينجم أي خير عن محاولة التدخل. وكانت توصيته إلى حكومته أن تثبت بالأدلة أن المانيا غير مسؤولة عما كان يحدث [366]. وقد خالفه الرأي مسؤولون المان آخرون فحاولوا التدخل مثلما حاول الكاهن الألماني يوهانوس ليبسيوس، ولكن المستشارية الألمانية قبلت نصيحة فون فانغينهايم فطلبت المانيا إلى الباب العالي في شهر تشرين الأول (أكتوبر) أن يصدر بياناً علنياً يبرئ المانيا من التواطؤ ويذكر أن ممثلي المانيا في الامبراطورية العثمانية حاولوا انقاذ الأرمن [367]. ولما رفض الباب العالي هددت مستشارية المانيا بإصدار بيان كهذا على مسؤوليتها، ولكنها ما لبثت أن تراجعت خشية الإساءة إلى تحالفها مع تركيا.

إن المجازر الأرمنية هيأت للدول الحليفة مادة دعائية مفيدة ومؤثرة، وهذا ما خشيه السفيران

الالمانى والنمساوي [368]. ولعل هذه المجازر قد أثرت أيضاً على تفكير الحلفاء بشأن شروط التسوية لما بعد الحرب، إذ أن هذه المجازر عززت الحجة القائلة أنه لا يمكن ائتمان الإمبراطورية العثمانية على سكان غير مسلمين بل ربما على سكان غير أتراك أيضاً.

وكان جلياً للرأي العام المحايد ان طلعت وأنور كانا سعيدين بالتخلص من الأرمن. وكان الموقف العلني الذي اتخذاه هو انهما أحبطا محاولة هدامة. ومن المؤكد انهما نجحا في القضاء نهائياً على القلاقل، إذ ان أرمينيا أصبحت هادئة هدوء الموت نفسه.

## (4)

لقد توافرت فعلاً للحلفاء فرصة واضحة لتقويض الامبراطورية العثمانية ولكنهم فوتوها عمداً.

والذي وقَّرها لهم هو جمال باشا. إذ انفرد جمال من بين أعضاء القيادة الثلاثية لحزب تركيا الفتاة في اتخاذ خطوات لتبرئة نفسه من المجازر الأرمنية. وكان هدفه الظاهر هو الابقاء على قنواته مفتوحة مع الدول الحليفة. ومنذ هزيمته عند قناة السويس في مطلع عام 1915 استقر جمال باشا في دمشق وصار حاكماً لسورية الكبرى - أي الولايات الجنوبية الغربية التي تؤلف اليوم سورية ولبنان والأردن وإسرائيل - وكأنه يحكم اقطاعية خاصة، وفي نهاية عام 1915 وفيما كانت تقع المجازر الأرمنية اقترح أن يستولي على العرش العثماني لنفسه بمساعدة الحلفاء.

لقد استخدم جمال باشا الجهة التي تمثل الجمعية السياسية الأرمنية الرئيسة، والتي تدعى (خداشناق تسوتيوم - أي الاتحاد الثوري الأرمني) لنقل مقترحاته. ويبدو أنه كان بعمله هذا يستند إلى اعتقاد خاطيء بأن انقاذ الأرمن - كعمل متميز عن مجرد استغلال محتتهم لأغراض دعائية - هو هدف هام من أهداف الحلفاء. وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) 1915 أخبر الدكتور زافرييف، وهو مبعوث الداشناق لدى الحلفاء الحكومة الروسية أن جمال مستعد للإطاحة بالحكومة العثمانية. وصادف أن كان ذلك الشهر هو الشهر الذي بدأ فيه انسحاب الحلفاء من غاليلوي. وفي أعقاب تلك الحملة الكارثية كان بوسع المرء أن يتوقع استعداد الحلفاء لدفع ثمن لإنهاء الحرب مع تركيا.

إن شروط جمال باشا، كما عرضها سazanوف وزير الخارجية الروسي، كانت ترمي إلى قيام تركيا

حرة ومستقلة (تضم سورية وبلاد الرافدين وأرمينيا المسيحية وكيلىكيا وكردستان كولايات ذات حكم ذاتي) ويكون حاكمها الأعلى جمال نفسه بصفة سلطان. وقد وافق جمال سلفاً على الطلب الروسي الذي لا مفر منه بالاستيلاء على القسطنطينية والدردنيل. وعرض أيضاً اتخاذ خطوات فورية لانقاذ الأرمن الذين ظلوا على قيد الحياة، فاقترح أن يزحف على القسطنطينية بمساعدة الحلفاء لخلع السلطان وحكومته، وطلب لقاء ذلك مساعدة مالية تعينه على تعمير بلاده بعد الحرب.

وقد رأى الروس أن يقبلوا اقتراح جمال، وبدأ سazanوف واثقاً أن حلفاءه سيوافقون أيضاً<sup>[369]</sup>. ولكن فرنسا رفضت الاقتراح في آذار (مارس)

1916 وأُصرت على أن تكون كيليكيا (في جنوب تركيا الحالية) وسورية الكبرى من نصيبها.

وبدا سير ادوارد غراي، وزير الخارجية البريطانية أيضاً غير مستعد للتشجيع على قيام ثورة خلف خطوط العدو، إذا كان هذا التشجيع يعني التخلي عن المكاسب الإقليمية في تركيا الآسيوية التي سبق لبريطانيا أن وعدت بها حلفاءها. إن حكومات الدول الحليفة في تهافتها على الغنائم أغفلت الشرط الذي تقوم عليه مكاسب المستقبل: وهذا الشرط هو كسب الحرب. لقد أعمأها التهافت على الغنيمة فلم تعد ترى أن هناك صراعاً.

إن عرض جمال باشا وقرّر للحلفاء فرصتهم الكبرى الوحيدة لتقويض الامبراطورية العثمانية من الداخل، وقد فوتها الحلفاء. ولم يكتشف أنور وطلعت إطلاقاً مراسلات جمال السرية مع الحلفاء واستمر جمال إلى جانبهم في القتال ضد الحلفاء.

## (5)

استفادت الامبراطورية العثمانية من أنها لم تكن الساحة الرئيسية للحرب بالنسبة لأي من أعدائها، الذين ركّزوا جميعاً كل قواتهم وطاقاتهم في أماكن أخرى. ومع ذلك كان أداؤها في زمن الحرب نجاحاً نجاحاً مذهلاً. فقد كانت تحارب على ثلاث جبهات، فهزمت بريطانيا وفرنسا في الغرب في الفترة 1915 - 1916، وسحقت قوات الهند البريطانية الزاحفة في الشرق في الوقت نفسه، وأوقفت قوات الغزو الروسي في الشمال [370].

وكان الأداء العثماني خلف خطوط العدو أيضاً مثيراً للإعجاب. فأعمال التخريب التركية والألمانية فككت الامبراطورية الفارسية التي كانت تحت سيطرة الحلفاء. والمفارقة المذهلة أن بريطانيا أخفقت حتى منتصف عام 1916 في جهودها لكسب الشعوب العربية في الامبراطورية العثمانية، أما محاولة روسيا لاستمالة الأرمن فلم ينجم عنها سوى مذبحتهم الرهيبة.

تري، هل تؤدي ثورة الشريف حسين الوشيكة في حزيران (يونيو) 1916 إلى قلب الموقف؟ هل

ستبرهن على أنها أكثر نجاحاً من محاولات الحلفاء السابقة لإثارة الاضطرابات وراء الخطوط العثمانية؟ إذا اعتمدنا مجرى الأمور حتى منتصف 1916 لكان يجب ان تعتبر فرص النجاح متدنية، لكن كلايتون وزملاءه كانوا كبيرى الأمل، وإذا كانت آمالهم في محلها فإنهم سيحققون كسباً عظيماً. كانت ثورة الحسين الوشيكة هي فرصة القاهرة لكسب الحرب في الشرق ولإنقاذ سمعة زعيم القاهرة في زمن الحرب، اللورد كيتشنر.

## الفصل الثاني

### مهمة كيتشنر الأخيرة

في لندن لم تعد إدارة دفعة الحرب في عهدة وزير الحربية بل في عهدة رئيس هيئة الأركان العامة للقوات الامبراطورية. وكان لدى مجلس الوزراء ما يدعوه للاعتقاد بأن اللورد كيتشنر فقد الاتصال حتى مع المنطقة التي كان يُفترض انه يعرفها أحسن معرفة - أي الشرق. والعملية العسكرية البريطانية الوحيدة التي ظل يعارضها حتى النهاية - عملية الجلاء عن غاليبولي - كانت العملية الوحيدة التي نجحت نجاحاً رائعاً.

ولما كان اسكويث يعتقد أنه يستحيل، لأسباب سياسية، السماح لكيتشنر بالاستقالة، ويربكه في الوقت عينه الاحتفاظ به في منصبه، تراءى له أن يرسل وزير الحربية في مهمة أخرى طويلة الأجل - مهمة إلى روسيا. ذلك أن رحلته إلى روسيا - وبطبيعة الحال كان لا بد له من السفر بحراً - ستستغرق معظم النصف الثاني من عام 1916. كان تجاوزاً للحدود تكليف هذا الجندي المتقدم في السن والقادم من المناطق شبه الاستوائية برحلة بحرية طويلة وخطرة في البحار المتجمدة الشمالية، ولكن كيتشنر قبل مهمته الجديدة وهياً نفسه للسفر.

لكن الحظ الذي حالفه طويلاً وصل أخيراً إلى النهاية. ولو انه مات في عام 1914 لبقيت ذكراه بصفته أعظم جنرال بريطاني بعد ولينغتون. ولو انه مات في عام 1915 لظلت ذكراه على انه الرجل الذي تنبأ بطبيعة الحرب العالمية الأولى ومدتها ومنظم جيش بريطانيا الضخم. أما في عام 1916 فقد أصبح محارباً قديماً متقدماً في السن ينتمي إلى عصر مضى وغير قادر على التعامل مع المتطلبات التي أُلقيت على كاهله في أوقات متبدلة. ويفترض أنه أسرَّ إلى أحد زملائه في مجلس الوزراء قائلاً: «هؤلاء الناس يتوقعون مني الكثير جداً. أنا لا أعرف أوروبا، ولا أعرف انكلترا ولا أعرف الجيش البريطاني»<sup>[371]</sup>، لقد ظل قلبه وذهنه مع جيوش زمن الاستعمار في مصر والهند التي كان قد أعاد تنظيمها والتي درّبت لكي تصدع لأوامره. أما في أوروبا الحديثة فقد وجد نفسه ضائعاً.

قبل ظهر الجمعة 2 حزيران (يونيو) 1916 ذهب اللورد كيتشنر إلى محطة كينغز كروس للقطارات، دون مرافقة تقريباً ودون أن ينتبه إليه أحد. وقد تأخر القطار دقيقة ونصف الدقيقة عن موعد انطلاقه، فاستبد به نفاد الصبر،



لأنه كان يكره التأخير. وبعد المغادرة انطلق القطار مسرعة إلى الميناء الذي سيبدأ منه كيتشنر رحلته.

في ميناء سكابا فلو، مقر قيادة الأسطول عند طرف اسكوتلندا الشمالي، صعد كيتشنر وصديقه المخلص فيتزجيرالد إلى الطراد المدرع هامبشاير بعد ظهر 5 حزيران (يونيو) 1916 في طريقهما إلى ميناء أركانجل الروسي، كان خط مغادرة الطراد هامبشاير قد رسم، ولكن حدث ما اقتضى تبديله. فالمخابرات البحرية التي سبق أن حلت الرموز الألمانية اللاسلكية قد اعترضت رسالة موجهة إلى الغواصة (يو 75) الباثة للألغام، وكان ذلك في أواخر شهر أيار (مايو). واستدلت المخابرات البحرية من الرسالة أنه كان مطلوباً من الغواصة أن تلغم الطريق التي كان الطراد هامبشاير ينوي سلوكها. وقد تأكدت هذه المعلومات من اعتراض رسالتين أخريين، كما تأكدت بمشاهدة الغواصة. لقد حدث ارتباك في مقر القيادة العامة البريطانية في سكابا فلو وفشل الأميرال سير جون جيليكو، القائد البحري البريطاني وضباط الأركان في قيادته في قراءة أو فهم التحذيرات التي وجهتها المخابرات البحرية إلى سفينة القيادة التي كانوا على متنها. (عندما انعقدت هيئة تحقيق في وقت لاحق من عام 1916 للنظر في المسألة، تمكن الأميرال جيليكو من اخفاء تحذيرات المخابرات وأنكر وجودها، ولم يكتشف أمرها إلا في عام 1985) [372].

كانت البحار عاصفة، ولكن كيتشنر رفض أن يؤجل مغادرته. وأخطأ ضباط الأميرال جيليكو في قراءة خرائط الأحوال الجوية التي كان لا بد أن تبين لهم أن العاصفة سوف تشتد، في حين اعتقدوا هم انها سوف تهدأ. وعند الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين بعد الظهر، بدأ الطراد هامبشاير رحلته وسط رياح عاتية. وكانت الحالة الجوية أعنف من أن تتحملها مدمرات مهمتها الحراسة والمرافقة، ولذلك عادت إلى الميناء بعد ساعتين، وواصل الطراد هامبشاير الرحلة وحده. وفي وقت ما بين الساعة السابعة والنصف والسابعة والدقيقة الخامسة والأربعين اصطدم بأحد الألغام التي بثتها الغواصة (يو 75) فغرق مع كل بحارته تقريباً.

لدى انفجار اللغم صعد كيتشنر وفيتزجيرالد إلى سطح الطراد يتبعهما ضباط من هيئة أركانها.

أحد الناجين من الحادث يستذكر «ان الكابتن قائد الطراد كان ينادي اللورد كيتشنر لركوب أحد الزوارق ولكن اللورد كيتشنر كما يظهر لم يسمعه أو انه لم يلق بالاً إليه» [373]. كانت النجاة من هذه السفينة التي تواجه قدرها المحتوم تبدو أمراً خارج الامكانية، ولم يقدم الفيلد مارشال على أية خطوة لمحاولة النجاة. لقد وقف على سطح الطراد هادئاً ووجهه خالٍ من أي تعبير

نحو ربع ساعة. إن الناجي الوحيد الذي بقي على قيد الحياة يعد غرق الطراد هامبشاير لم ينس قط منظره إذ لمح آخر مرة مرتدياً معطفه وواقفاً على السطح منتظراً بغير مبالاة أن تغرق السفينة<sup>[374]</sup>. بعد ذلك ابتلعت الأمواج الهائجة اللورد كيتشنر وسفينته.

لقد جرفت الأمواج جثمان فيتز جيرالد إلى الشاطئ، أما كيتشنر فقد اختفى في أعماق اليم سرت في بريطانيا اسطورة شعبية تقول إن اللورد كيتشنر نجا من الموت وسيعود يوماً ما.

# الفصل الثالث

## ثورة الحسين

### (1)

شاءت المصادفة التي كثيراً ما يجري الحديث عنها، أن يلقي اللورد كيتشنر نهايته في البحر، في الوقت الذي أعلن فيه الشريف حسين أمير بمكة ثورته على الامبراطورية العثمانية. لقد أمر الحسين بإعلان الثورة عندما اكتشف أن في نية قادة تركيا الفتاة أن يخلعوه. ولكن الأوساط الرسمية البريطانية في القاهرة والخرطوم، التي لم تكن على علم بذلك، اعتبرت الثورة انجازاً من انجازات مدرسة كيتشنر - أي انجازاً حققه بوينغيت وكلايتون وستورز - وانجازاً للتكتيك الذي اتبعوه، تكتيك التلويح أمام الأمير بإمكانات غامضة ولكنها فخمة بالنسبة لأمجاد المستقبل. كان مقر المعتمد البريطاني في القاهرة قد عمل مدة تقرب من تسعة أشهر من أجل إشعال شرارة الثورة. وعندما بلغ القاهرة نبأ الثورة في الصحراء قال وويندهام ديدز إنها «نصر عظيم لكلايتون» [375].

أما بالنسبة للحسين، كان الأمر شيئاً أقرب ما يكون إلى الاعتراف بالهزيمة، فقد كانت سياسته تقضي بأن يظل محايداً وإن يأخذ الرشاوى من كلا الجانبين. وقد انتقل إلى جانب الحلفاء كارهاً، حمله على ذلك الخطر الوشيك، خطر الإطاحة به على يد جماعة تركيا الفتاة. وبعد اكتشافه عزم هذه الجماعة على عزله وجد نفسه أمام أخطار جديدة بدءاً من صيف 1915، عندما شرع جمال باشا في سحق الانشقاق الذي ظهر في الأوساط العربية التي كان الحسين (بواسطة ابنه فيصل) يتصل بها في دمشق، لقد اتخذ جمال باشا إجراءاته على أساس وثائق حصل عليها من القنصليتين الفرنسيتين في بيروت ودمشق، وهي تكشف أسماء العرب المشاركين في المؤامرة واسم عميل بريطاني رئيس واحد على الأقل. فجرت اعتقالات وتبعتها تحقيقات وأعمال تعذيب ومحاكمات من قبل المحكمة العسكرية. وفي 21 آب (أغسطس) 1915 صدر حكم على أحد عشر شخصاً بتهمة الخيانة وأعدموا. وفي الأشهر التالية جرى المزيد من الاعتقالات والمزيد من المحاكمات. وكان عدد من المعتقلين شخصيات بارزة في الحياة العربية. وكان بين الذين تعرضوا للتعذيب والاستجواب في السجن أشخاص كان بإمكانهم أن يكشفوا تفاصيل محادثات فيصل مع جمعيتي العهد والفتاة

السريتين، وإن يكشفوا وعود الحسين إلى كيتشنر ومكماهون. ولم يكن الأمير متأكداً أن هؤلاء سيحافظون على الصمت فأرسل نداءات إلى جمال باشا والباب العالي طالباً الرحمة للسجناء. فما كان من نداءاته إلا أنها زادت موقفه ضعفاً على ضعف.

ثم أن الحسين علم من جمال باشا في نيسان (ابريل) 1916 ان قوة عثمانية منتقاة ومدربة تدريباً خاصاً على وشك أن تعبر الأراضي الحجازية إلى طرف شبه الجزيرة العربية، حيث ستقيم مجموعة مرافقة مؤلفة من ضباط ألمان محطة للبرق. وكانت القوة العثمانية في حد ذاتها كافية لسحق الحسين في أثناء عبورها عبر أراضيهِ. وهذا النبأ دفع بالأمير حسين إلى الإقدام على عمل متسرع، وحملته على أن يوجه الضربة الأولى وإن يطلب حماية الاسطول البريطاني على طول الساحل. وفي السادس من أيار (مايو) أعدم واحد وعشرون شخصاً آخر في دمشق وبغداد، ولم يكن هذا النبأ متوقعاً ولذلك أدى إلى تسريع برنامج الحسين.

كان الحسين بفطنته قد حصل على أكثر من 50,000 جنيه ذهباً من الباب العالي لإعداد وتجهيز قوات لمكافحة البريطانيين. إلى هذا المبلغ أضاف القسط الأول من دفعة كبيرة من بريطانيا لإعداد وتجهيز قوات لمكافحة الأتراك [376]. وقد أعلنت الثورة في الحجاز في وقت ما بين 5 و10 حزيران (يونيو) 1916، وتحرك الأسطول البريطاني فوراً على طول ساحل الحجاز فرّوع بذلك القوة الألمانية التركية وحال دون تقدمها أكثر.

كان اعتقاد المكتب العربي أن الثورة ستلقى التأييد في سائر أنحاء العالم الإسلامي والعالم العربي. والأهم أن المكتب العربي اعتقد أن الثورة ستلقى التأييد، مما اعتقد البريطانيون انه جيش عثماني أكثريته من العرب. وكان فيصل وأبوه الحسين قد قالا انهما يتوقعان ان ينضم إليهما نحو مئة ألف جندي عربي [377]. وهذا العدد كان يمثل نحو ثلث القوة المقاتلة للجيش العثماني. وفي أنباء أخرى ان الحسين توقع أن ينضم إليه نحو 250,000 جندي، أي كامل عدد الجنود المقاتلين في الجيش العثماني تقريباً [378].

لكن الثورة العربية التي كان الحسين يأمل في حدوثها لم تحدث اطلاقاً. فلم تنضم إليه أية وحدات عربية في الجيش العثماني، ولا انضم إليه وإلى الحلفاء أية شخصيات سياسية أو عسكرية من الامبراطورية العثمانية، والمنظمة العسكرية السرية القوية التي كان الفاروقي قد وعد بانضمامها إلى الحسين لم يظهر لها أثر. كانت قوات الحسين مؤلفة من بضعة آلاف من رجال القبائل الذين يحصلون على دعم مالي من بريطانيا. ولم يكن عند

الحسين جيش نظامي، وخارج الحجاز وما جاورها من القبائل لم يكن هناك أي تأييد منظور للثورة في أي جزء من العالم العربي. والعدد الضئيل من الضباط غير الحجازيين الذين انضموا إلى قوات الأمير المسلحة كانوا إما أسرى حرب أو منفين سبق أن عاشوا في أراضٍ خاضعة للسيطرة البريطانية.

أولى المشكلات العسكرية التي ظهرت أن العصبة الصغيرة من أتباع الأمير القبليين كانت بلا حول تجاه المدفعية العثمانية. فهجماتها على الحاميات التركية في مكة وبالقرب من الطائف قد مدت، وكذلك كان حال هجماتها على المدينة المنورة وميناء جدة. وقد هبَّت السفن والطائرات البريطانية لنجدتها فهاجمت جدة. وما أن ضمن البريطانيون السيطرة على الميناء حتى أنزلوا جنوداً مسلمين من الجيش المصري بدأوا تقدمهم إلى الداخل لمساعدة الشريف حسين في السيطرة على مكة والطائف. أما ميناء رابغ، الذي كان عدد المدافعين الأتراك عنه يقل عن ثلاثين جندياً، فقد تم الاستيلاء عليه بيسر، وكذلك الأمر بالنسبة لميناء ينبع. وهكذا سيطر الأسطول البريطاني على ساحل شبه الجزيرة العربية على البحر الأحمر، وأقام وجود بريطانيا على البر في الموانئ.

ولم يسمح الحسين لوحدات عسكرية بريطانية مسيحية بالتقدم إلى الداخل. وكانت وجهة النظر التي أبدّاها، والتي اعتبرها البريطانيون ضيقة الأفق، أن السماح لهذه الوحدات بدخول البلاد سيضعف وضعه في العالم الإسلامي وسيواجه باستياء شديد إذا ما دخل غير مسلمين الأراضي التي تضم الأماكن المقدسة.

المشكلة كانت أن الحسين بقواته وحدها لم يكن نداً للأتراك. وقد كتب الناشط ريجينالد وينغيت، حاكم السودان العام إلى كلايتون قائلاً: إن على بريطانيا أن ترسل جنودها شاء الحسين أم أبى، ونوّه بأنه كان طوال الوقت يحبذ إرسال حملة بريطانية إلى الحجاز<sup>[379]</sup>. ولكن رؤساء وينغيت خالفوه الرأي، ولذلك اتبعت بريطانيا سياسة تقديم المساعدة العسكرية المهنية إلى الحجاز، قدر الإمكان، من بين الضباط والجنود المسلمين. حتى هذه السياسة واجهت أيضاً صعوبات في أرض المكائد.

وبتوصية حازمة من السلطات البريطانية جرى تعيين الرائد عزيز المصري رئيس أركان القوات التي قادها اسماً الأمير علي ابن الشريف حسين. وقد تولى منصبه في أواخر عام 1916، وفي غضون شهر عُزل من القيادة نتيجة مكيدة سوداء، فحل محله رجل قدير هو جعفر العسكري، وهو ضابط عربي كبير في الجيش العثماني أسرته القوات البريطانية.

تقول إحدى الروايات أن المصري كان يخطط للقبض على زمام الأمور لكي يفاوض من أجل الانتقال من جانب إلى آخر، وقد تحدث عن التوصل إلى ترتيب تعود بموجبه قوات الحجاز إلى الحظيرة العثمانية لقاء موافقة الباب العالي على منح المناطق العربية حكماً ذاتياً محلياً<sup>[380]</sup>.

لم يكن الأمر مجرد اعتقاد المصري وزملائه بأن المانيا ستريح الحرب. فبعد مرور سنتين، وبعد أن أصبح واضحاً أن الحلفاء هم الذين سيربحون الحرب، كان الفريق ياسين الهاشمي، الذي كان في وقت ما قائد جمعية سرية عربية في دمشق (والذي زعم الفاروقي أنه يمثلها عندما خدع كلايتون وغيره في القاهرة)، مستمراً في رفضه الانتقال من جانب إلى آخر. لقد أخطأ جيلبرت كلايتون في قراءته لسياسة الجمعيات السرية العربية: فقد كانت هذه الجمعيات تعارض شديد المعارضة مخططات بريطانيا تجاه الشرق الأوسط. كانت هذه الجمعيات عازمة عند بداية الحرب على مساندة الامبراطورية العثمانية لمواجهة خطر الغزو الأوروبي<sup>[381]</sup>. وظلت وفيّة لما عازمت عليه.

لقد فضّلت الحكم الذاتي أو الاستقلال إذا أمكن تحقيقه، وإلاّ فإنها تفضل حكم المسلمين الأتراك على حكم المسيحيين.

وتابع الحسين نفسه، منذ الأيام الأولى لثورته، اتصالاته مع جماعة تركيا الفتاة بغية تبدل موقفه والعودة إلى جانب العثمانيين في الحرب. وقد نقلت «النشرة العربية» (العدد رقم 25 تاريخ 7 تشرين الأول (أكتوبر) 1916) عن عبد العزيز بن سعود، أحد زعماء شبه جزيرة العرب، قوله: «إن الشريف حسين كان يرمي أصلاً إلى أن يؤغر صدور البريطانيين على الأتراك، لكي يحمل الأتراك على منحه استقلالاً تضمنه المانيا».

ظل برنامج الحسين الأساسي ثابتاً: أن يحصل على مزيد من السلطة والحكم الذاتي بصفته أميراً في الامبراطورية العثمانية، وأن يجعل منصبه وراثياً. ومع أن البريطانيين لم يكونوا بعد على علم بمراسلات الأمير مع العدو، فإنهم ما لبثوا أن تبدد وهمهم به لأسباب أخرى. فقد تبين لهم أن الحسين أبعد ما يكون عن كونه قائد قومية عربية ناشئة حديثاً، بل هو حاكم لا يلقي بالاً إلى القومية، وهمه الوحيد أن يستولي على سلطات جديدة وأراض جديدة. وقد عقب على ذلك ديفيد هوغارت، ضابط المخابرات الذي كان على رأس المكتب العربي، فقال بجفاء: «واضح أن الملك يعتبر الوحدة العربية مرادفة لكونه ملكاً...»<sup>[382]</sup>.

لقد أصرّ الأمير على إعلان نفسه ملك العرب، مع أن رونالد ستورز كان قد حذره باسم القاهرة، من أن يفعل ذلك. وكتب ستورز في وقت لاحق قائلاً:

«كان يعرف أكثر مما نعرف انه لا يستطيع أن يتقدم بأي ادعاء حقيقي» أنه ملك جميع العرب<sup>[383]</sup>. وفي هذا الصدد، تبين لرونالد ستورز «ان ادعاءات الأمير بالملك تصل إلى حدود المأساة والهزل» ومع ذلك فهو يشعر أن على بريطانيا واجب مساندته إلى أبعد ما يمكن<sup>[384]</sup>. لقد أصيب المكتب العربي بخيبة أمل شديدة لأن زعامة الحسين فشلت في إثبات وجودها وترسيخ مكانتها.

## (2)

يعود الفضل إلى توماس لورنس، العضو ذي المرتبة المتدنية في المكتب العربي، في أن وجهات النظر الحقيقية لهذا المكتب قد سُجلت بشكل ملائم، الأمر الذي وُفّر بياناً بالملاحظات والأفكار الشخصية التي أبدتها في ذلك الحين تلك المجموعة الصغيرة الصغيرة من أتباع كيتشنر، التي تولت تنظيم ثورة الحسين وعلّقت عليها أملاً كبيراً. وكان لورنس هو الذي اقترح أن يصدر المكتب العربي نشرة معلومات، وصدرت النشرة أولاً بعنوان: «معلومات موجزة عن المكتب العربي» ثم صارت تصدر بعنوان: «النشرة العربية». بدأ إصدارها في 6 حزيران (يونيو) 1916 واستمر على فترات غير منتظمة حتى نهاية 1918. وقد تولى لورنس تحرير أول أعدادها. وخلال معظم الأشهر الثلاثة التي تبعت صدور العدد الأول، تولى تحريرها ديفيد هوغارت، المختص بعلم الآثار من جامعة أوكسفورد والذي عمل مديراً للمكتب العربي. وفي نهاية فصل الصيف تولى رئاسة التحرير بصورة دائمة الكابتن كيناهاان كورنواليس، نائب هوغارت.

كانت «النشرة العربية» تصدر عن مكاتب «المكتب العربي» في فندق سافوي في القاهرة وتحمل إشارة «سرية». ولم يطبع من أي عدد سوى ست وعشرين نسخة. وتضمنت قائمة التوزيع المحدود نائب الملك في الهند والقائدين العاملين البريطانيين في مصر والسودان. وكانت تُرسل أيضاً نسخة إلى كل من وزارة الحربية والأميرالية في لندن. وكانت أعداد النشرة توفر نطاقاً واسعاً من المعلومات السرية الراهنة والمعلومات التي تشكل خلفية بشأن العالمين العربي والإسلامي.

لقد أشار لورنس في العدد الأول (6 حزيران (يونيو) 1916)، الذي صدر في الوقت الذي بدأت فيه الثورة في الحجاز، إلى وجود مشكلات تعترض الجمع بين العرب حتى لغايات الثورة. وكتب يقول انه سرعان ما كانت تنشأ الانشاقات حيثما كانت هنالك تجمعات قبلية كبيرة، وبما أن الأتراك على علم بذلك، فقد كانوا يتربصون دون أن يفعلوا شيئاً. كانوا يؤجلون «بسبب توقعهم الأكيد أن الانشاقات القبلية لن تلبث أن تفتت خصومهم».

نقلت «النشرة العربية» في عددها الخامس (18 حزيران (يونيو) 1916) نبأ بدء الثورة التي كان الحسين قد أعلنها قبل ذلك بأسبوع أو أسبوعين. وأشار هذا العدد والعدد السادس (23 حزيران (يونيو) 1916) إلى أن العمليات العسكرية التي قامت بها قوات الحسين لم تحقق سوى نجاح زهيد، وحتى هذا النجاح الزهيد يعود الفضل فيه إلى القوات البريطانية. وجاء



في العدد السادس ان الأتراك على الساحل حوصروا من قبل السفن والطائرات البحرية البريطانية والعرب.

وقد احتفى الأتراك بالأسوار فأرغموا على الاستسلام بسبب فقدان الغذاء والماء، لأن الآبار التي يستقون منها كانت خارج الأسوار. ونقل العدد السابع (30 حزيران (يونيو) 1916) عن الأتراك الذين أسروا في جدة قولهم «ان القذائف والقنابل» الانكليزية «هي التي استولت على المدينة».

لقد كان هناك تعريض بأفراد قوات الحسين كجنود. فقد جاء في العدد السادس «لعلهم مجرد رجال قبائل» و«جميعهم غير مدربين، وليست لديهم مدفعية ولا رشاشات. إن الأفضلية عندهم هي للمظاهر في الحرب، ومن الصعب الإبقاء على تماسكهم مدة طويلة ما لم يكن الدفع والمخصصات الغذائية مغرية لهم». وكتب لورنس تحليلاً مفصلاً في العدد الثاني والثلاثين (26 تشرين الثاني (نوفمبر) 1916) نحا فيه المنحى نفسه فقال: «أظن أن مفرزة من الأتراك محصنة تحصيناً جيداً على أرض مكشوفة تستطيع أن تهزم جيوش الشريف حسين. إن قيمة القبائل هي قيمة دفاعية فقط ومجالها الحقيقي هو مجال حرب العصابات». وكتب أيضاً قائلاً: «إنهم فرديون للغاية لا يطبقون اصدار الأوامر إليهم، ولا يقتلون جماعة، ولا يساعد أحدهم الآخر. وأظن أنه يستحيل انشاء قوة منظمة منهم».

وقعت دعوة الحسين إلى الثورة على آذان صماء في سائر أنحاء العالمين العربي والإسلامي وفق ما ذكرته «النشرة العربية». وقد ورد في الأعداد الصادرة طوال عام 1916 ان استطلاعات الرأي على نطاق عالمي جاءت بررود تتراوح بين اللامبالاة والعداء. إن العدد التاسع والعشرين (8 تشرين الثاني (نوفمبر) 1916)، الذي نشر نبأ إعلان الشريف حسين أنه أصبح يحمل لقب ملك العرب، تضمن تعليقاً لاذعاً جاء فيه: «إن الأمير، الذي يدّعي الاعتراف به ملكاً هو أعجز من ان يثبت هذا الادعاء»، وان حكومة جلالته ليست عازمة على توقيع صك أبيض بشأن مستقبل التنظيم السياسي للشعوب العربية. وكتب هوغارت في العدد الحادي والأربعين (6 شباط (فبراير) 1917): «إن إمكانية توحيد شبه الجزيرة العربية تحت حكم ملك الحجاز أو أي شخص آخر تبدو بعيدة جداً. إن (القضية العربية) هي بكل جلاء عبارة عن اسمنت ضعيف للغاية في شبه الجزيرة العربية، وكره الأتراك أقوى من هذه القضية، والرغبة في وقفة جيدة معنا ربما كانت أقوى من هذا الكره».

بعد نحو عام من اعلان الحسين الثورة العربية كان هوغارت مستعداً للحكم عليها بالفشل. ففي عرض بعنوان «سنة في عمر الثورة» في الحجاز أعده ونشر في العدد الثاني والخمسين (31 أيار (مايو) 1917) قال إنه توصل

إلى الاستنتاج أن هذه الثورة لم تحقق الآمال المعلقة عليها ولا تبرر المزيد من التوقعات: «لقد ظهر بما لا يقبل الشك أن بدو الحجاز ليسوا إلا محاربين بطريقة العصابات، وحتى بهذه الصفة ليسوا من نوعية جيدة، وقد ظهر ذلك منذ الحصارات الأولى، ولم يعد هناك أي شك في أنهم لن يهاجموا الجنود الأتراك النظاميين ولن يصمدوا أمام هجومهم». وقال أيضاً أن أفضل ما يمكن أن نأمله في المستقبل من الحركة العربية بقيادة الحسين هو «أن تصمد في مكانها فقط».

لم يكن هذا مردوداً جيداً للاستثمار البريطاني. فقد جاء في بيان لاحق أعده رونالد ستورز أن بريطانيا أنفقت ما مجموعه أحد عشر مليون جنيه استرليني لدعم ثورة الحسين<sup>[385]</sup>. وهذا المبلغ كان في حينه يعادل نحو 44 مليون دولار، وإذا حسبناه بسعر العملة حالياً فإنه يناهز أربعمئة مليون دولار. إضافة إلى ذلك كان الاستثمار البريطاني العسكري والسياسي في ثورة الحسين كبيراً أيضاً. فقد كتب ريجينالد وينغيت بتاريخ 21 أيلول (سبتمبر) 1918، وكان في ذلك الحين قد خلف كيتشنر ومكماهون في منصب الحاكم العام البريطاني في مصر، قائلاً: «لقد نظر المسلمون عامة حتى الآن إلى ثورة الحجاز، وإلى نصيبنا فيها، بعين الريبة والكراهية». وقال إنه أمر هام ألا نسمح بأن يبدو الحسين فاشلاً لئلا تسوء سمعة بريطانيا<sup>[386]</sup>.

### (3)

بعد مرور ثلاثة أسابيع على اعلان الحسين الثورة، أبلغت وزارة الحربية البريطانية مجلس الوزراء في لندن أن العالم العربي لا يسير خلف قيادة الحسين. وقد جاء في مذكرة سرية أعدتها الأركان العامة لوزارة الحربية من أجل اطلاع اللجنة الحربية المنبثقة عن مجلس الوزراء بتاريخ الأول من تموز (يوليو) 1916، ان الحسين «قدم نفسه دائماً في مراسلاته مع المندوب السامي، بصفته الناطق باسم الأمة العربية، ولكن في حدود ما نعرف حتى الآن، لم تؤيده أية منظمة عربية، وليس هناك ما يضمن قبول الشروط التي وافق هو عليها قبولاً آلياً» [387]. واستنتجت المذكرة انه ينبغي للحكومة البريطانية ألا تعتقد بأن الاتفاقات التي توصلت إليها معه سيحترمها الزعماء العرب الآخرون.

وفي الوقت نفسه تقريباً أعد سير مارك سايكس مذكرة سرية عنوانها «مشكلة الشرق الأدنى» وتنبأ فيها بأن تسحق حركة الشريف الحسين في أوائل عام 1917 إلا إذا تلقى مساعدة بريطانية عاجلة. ورأى سايكس مكتئباً أن تركيا ستكون عند نهاية الحرب أكثر البلدان المتحاربة إرهاقاً وسوف تستولي عليها شريكها ألمانيا. وقال سايكس في مذكرته ان الامبراطورية العثمانية لن تكون أكثر من مستعمرة ألمانية [388]. وتحليله في هذا الصدد كان مقدمة للآراء الجديدة بشأن الشرق الأوسط التي كان مقدراً لها أن تسود الأوساط الرسمية البريطانية في العام التالي بتأثير من ليو أميري وزملائه.

كان سايكس قد أصبح مساعد صديقه موريس هانكي سكرتير مجلس وزراء الحرب الذي يرأسه اسكويث، وظل سايكس في منصبه الجديد يهتم بالشرق. وقد سبق له أن أصدر ما سمي «التقرير العربي» في لندن، فكان هذا التقرير المقدمة لصدور «النشرة العربية» في القاهرة. ولدى وصول صديقه جيلبرت كلايتون من مصر في النصف الثاني من عام 1916، مثّل كلاهما أمام اللجنة الحربية للبحث على دعم ثورة الحسين في الحجاز. وحث كلاهما أيضاً على ابدال سير هنري مكماهون المندوب السامي في مصر، إذ أن مكماهون كان تعيينه مؤقتاً لإبقاء المنصب شاغراً للورد كيتشنر، فلما مات الفيلد مارشال أراد أتباع كيتشنر ان يكون المنصب لواحد منهم هوريجينالد وينغيت [389].

أمضى سايكس جانباً كبيراً من وقته خلال صيف 1916 في القاء خطب عامة، وفي هذه الخطب أطلق على السنة الناس التعبير الوصفي الجديد

«الشرق الأوسط» الذي سبق أن ابتكره الضابط البحري والمؤرخ الأميركي الفريد تاير ماهان في عام 1902 تعبيراً منه عن المنطقة الواقعة بين شبه الجزيرة العربية والهند<sup>[390]</sup>. وقد عزز سايكس بهذه الخطب شهرته كخبير في شؤون هذه المنطقة من العالم.

وفي شهر أيلول (سبتمبر)، وفيما كانت تقارير المخابرات الواردة من القاهرة تشير إلى أن ثورة الحجاز كانت تنهار بأسرع مما كان متوقعاً، دعا سايكس إلى إرسال دعم عسكري فوري إلى الحسين - وفقاً لخطة قدمها وتحمس لها مكماهون ووينغيت - ولكن إلحاحه ذهب أدراج الرياح. ذلك أن روبرتسون، رئيس الأركان الجديد لقوات الامبراطورية ذا الصلاحيات المطلقة، رفض أن يحول جنوداً أو جهوداً من الجبهة الغربية.

بدأت قضية الحسين في أواخر صيف وخلال خريف عام 1916 انها تمر في أتعس أوقاتها، مع أن سيطرة بريطانيا البحرية على ساحل البحر الأحمر ضمنت بقاء أنصار الأمير، وخطرت للبريطانيين فكرة إرسال بضع مئات من أسرى الحرب العرب الموجودين في جبهة بلاد الرافدين التابعة للهند لكي يلتحقوا بالحسين. وعندما كرر سير أرشيبالد مري، القائد العام (منذ كانون الثاني (يناير) 1916) للجيش البريطاني في مصر، القول إنه لا يستطيع الاستغناء عن أي جنود لإرسالهم من أجل الدفاع عن الحسين، اقترح المندوب السامي سير هنري مكماهون طلب المساعدة من فرنسا، ثم أرسل مساعده رونالد ستورز في مهمة إلى شبه جزيرة العرب ليستوضح هل من شيء آخر يمكن عمله.

## (4)

في نهاية صيف 1916 أرسلت الحكومة الفرنسية بعثة إلى الحجاز لمحاولة منع انهيار ثورة الشريف حسين. كان على رأس البعثة الكولونيل أدوار بريمون، وقد وصلت البعثة إلى الاسكندرية في الأول من أيلول (سبتمبر) 1916 ومن هناك توجهت بحراً إلى شبه الجزيرة العربية فوصلت إلى ميناء جدة في العشرين من أيلول (سبتمبر) [391].

كان نظير بريمون في جدة هو الكولونيل ويلسون كبير الضباط البريطانيين في الحجاز وممثل حكومة السودان - أي ممثل وينغيت الذي كان سيتولى عما قريب الإشراف العملياتي من الجانب البريطاني على ثورة الحجاز. وكان الكابتن هيوبرت يونغ، مساعد ويلسون، موجوداً في السفارة البريطانية في جدة (التي كانت تسمى نفسها مكتب الحج لأنها تعني بشؤون الحجاج المسلمين من الهند البريطانية وأماكن أخرى) لكي يستقبل بريمون عند وصوله. وقد التقى بريمون أيضاً نائب الأميرال سير روسلين ويميس، الذي كان الأسطول البريطاني بقيادته يتحكم بالمرور عبر البحر الأحمر بين مصر والسودان وشبه جزيرة العرب، وكانت سفنه تنقل الضباط والجنود عبر هذا البحر.

كانت مهمة بريمون أن يدعم ثورة الحجاز عن طريق تزويدها بمستشارين عسكريين ممتنئين من بين المسلمين سكان الامبراطورية الفرنسية، باعتبار أنهم سيكونون مقبولين من قبل الشريف الحسين. كانت البعثة الفرنسية بقيادة بريمون تضم 42 ضابطاً و983 رجلاً. إن حجم البعثة الفرنسية حفز الجانب البريطاني المزاحم إلى إرسال دعم آخر من ضباطه للعمل تحت قيادة ويلسون. وفكر بريمون بدوره أن يزيد حجم قواته من أجل تعزيز قوات الشريف التي كانت ضعيفة إلى درجة الخطر. والحقيقة هي أن عبد الله، أقرب أبناء الشريف حسين إلى تفكير أبيه، كان يخشى قيام القوات العثمانية المرابطة في المدينة المنورة بمهاجمة واكتساح مواقع الثوار على الطريق المؤدية إلى مكة.

في منتصف شهر تشرين الأول (أكتوبر) غادر رونالد ستورز مصر إلى الحجاز بحراً حاملاً معه رأياً بديلاً في معالجة الموضوع. فقد جاء ستورز لدعم الرائد عزيز المصري الزعيم القومي للجمعية السرية الذي كانت القاهرة قد عهدت إليه بتدريب وإعادة تنظيم قوات الحجاز، وقد وصفنا في صفحة سابقة ما حدث له بعد أن أمضى مدة قصيرة في موقع القيادة. كان رأي عزيز المصري أن السماح لجنود الحلفاء، حتى ولو كانوا مسلمين، بأن يشاركوا بمزيد من العلنية في حملة الشريف حسين، سيشكل كارثة

سياسية. وكان رأيهِ أيضاً أن قوات مكة تستطيع ان تقاتل بفعالية ومن دون مساعدة إذا ما درّبت على أساليب العصابات.

وقد وضع ستورز ترتيبات من أجل مجيء صديقه الشاب، ضابط المخابرات الصغير توماس لورنس، إلى جدة بالباخرة. وكانت قد تجمعت للورنس بضعة أسابيع من الإجازات المتراكمة، فأراد أن يمضيها في شبه الجزيرة العربية التي لم يسبق له أن زارها. وقد استأذن ستورز في ان يصحبه لورنس فحصل على الإذن، فوصلا معاً إلى جدة.

كان توماس ادوارد لورنس في الثامنة والعشرين من عمره، ولو انه كان يبدو في التاسعة العشرة أو العشرين. وعندما تقدم للخدمة العسكرية رفضوه باعتباره صغير السن. كان طوله لا يتجاوز خمسة أقدام وبضع بوصات. وقد وصفه هيوبرت يونغ بأنه «رجل صغير فعلاً» [392]، أما رونالد ستورز، شأنه شأن أكثرية الآخرين، فقد كان يناديه «لورنس الصغير»، ولكنه في الوقت عينه كان يصفه بأنه «صاحب دماغ كبير» [393].

ظروف لورنس الشخصية بدت غير ممتازة. فالظاهر انه كان من أسرة فقيرة ومن خلفية متواضعة، وعمل في مجموعة المكتب العربي التي ضمت أعضاء في البرلمان، وأصحاب ملايين، وأشخاصاً من الطبقة الأرستقراطية. وكان قد ذهب إلى مدرسة المدينة في أوكسفورد بدل أن يذهب إلى مدرسة عامة (بالمعنى البريطاني) مثل ايتون وهارو، ووينشستر أو ما ماثلها. كان ذا مرتبة دنيا في جهاز المكتب العربي ولم تكن في سجله أية انجازات عسكرية.

سبق أن عمل لورنس مع ديفيد هوغارت المختص بعلم الآثار في المتحف الأشمولي، وبعد أن أصبح هوغارت رئيساً للمكتب العربي سعى لتعيين لورنس في القسم الجغرافي بوزارة الحربية في خريف 1914 بصفة ملازم ثانٍ مترجم مؤقت [394]. ومن موقعه في القسم الجغرافي ذهب إلى الشرق الأوسط لإعداد خرائط لقسم المساحة وبقي في القاهرة للقيام بأعمال أخرى.

عندما وصل ستورز ولورنس إلى جدة استقبلهما عبد الله ابن الشريف حسين. بدا عبد الله في نظر لورنس مخيباً للآمال، ولكن عبد الله أعجب بلورنس إلى حد أنه ضمن له الإذن الذي كان يتوق إليه لورنس بالذهاب إلى الميدان للقاء أبناء أمير مكة الآخرين. كان هذا نجاحاً كبيراً بالنسبة للورنس. وفي 24 تشرين الأول (أكتوبر) 1916 كتب الكولونيل الفريد باركر الذي كان أول رئيس للمكتب العربي والذي خدم رئيساً للمخابرات العسكرية في ثورة الحجاز، رسالة إلى كلايتون قال فيها: «قبل وصول لورنس كنت

متحمساً لفكرة الذهاب إلى داخل البلد وكان أملي أن أذهب. حذار أن تظن أنني أحسده، لا سيما أنه سيقوم بالمهمة خير قيام. إن حكومة الحجاز منذ ذهابه غير ميالة للموافقة على رحلات أخرى» [395].

في الميدان زار لورنس فيصل وزعماء آخرين وكتب في ما بعد إلى أحد زملائه ليخبره أنه وجد فيصل ساحراً «إنه فاتن حقاً» [396]... وقرر لورنس أن يكون فيصل القائد الميداني لثورة الحجاز فبين مؤهلات فيصل الأخرى، بدا أنه صاحب الدور المنشود.

أرسل لورنس بمبادرة منه تقريراً خطياً إلى ريجينالد وينغيت، حاكم السودان العام، الذي كان سيحل قريباً مكان مكماهون في منصب المندوب السامي في مصر، وعندما غادر لورنس الحجاز في تشرين الثاني (نوفمبر)، لم يعد إلى القاهرة مباشرة بل ذهب بحراً إلى السودان وقدم نفسه إلى وينغيت.

لا بد أن لورنس، عبر الصداقة التي جمعت بينه وبين جيلبرت كلايتون، ممثل السودان في القاهرة، قد تعرف إلى نظرة وينغيت المستقبل السياسية الشرق أوسطية، ولا بد أنه من خلال ذلك عرف أن وينغيت يهدف إلى تأمين سيطرة بريطانيا على الشرق الأوسط العربي بعد الحرب، وأنه يهدف (مثله) إلى منع فرنسا من إقامة مركز لها في المنطقة. ومع أن وينغيت رغب في انقاذ قوات الحسين من الهزيمة ومن إمكانية تدميرها، فمن غير الممكن أنه أراد أن يتم الانقاذ على أيدي فرنسيين - لأن ذلك ينطوي على مجازفة باخضاع الحركة العربية بزعامة الحسين إلى نفوذ فرنسي طويل الأجل.

اقترح لورنس على وينغيت مشروعاً بديلاً لمشروع بريمون القاضي باستخدام وحدات عسكرية نظامية فرنسية ومن دول حليفة أخرى للقيام بالجانب الأكبر من القتال عوضاً عن قوات الحسين. ومشروع لورنس هو استخدام رجال القبائل التابعين للشريف حسين كقوات غير نظامية في حرب عصابات بقيادة بريطانية. وكان عزيز المصري هو في الأصل الذي اقترح فكرة حرب العصابات على لورنس، وفي نيته استبعاد فرنسا وبريطانيا من شبه جزيرة العرب. لكن لورنس عدّل الخطة بحيث تؤدي إلى استبعاد فرنسا فقط. وأضاف لورنس أنه يجب تعيين فيصل قائداً للقوات الشريفة الضاربة، وطالب بأن يكون هو ضابط الاتصال الوحيد الذي سيتعامل فيصل معه.

كان وينغيت ميّالاً للموافقة، فهو في سنة 1914 كان أول من حثّ على تحريك القبائل في شبه جزيرة العرب لإثارة المتاعب في وجه تركيا.

وبمعني ما، كانت الخطة التي يدعو لورنس إلى تطبيقها هي خطة وينغيت عيناها. والحقيقة أن وينغيت ادعى في رسالة كتبها إلى جنرال رفيق له بعد مرور عشرين سنة، أنه هو وليس «لورنس الصغير المسكين» - الذي أطلق الحركة العربية وساندها وجعل قيامها ممكن [397].

كانت مقترحات لورنس ملائمة أيضاً للسلطات العسكرية البريطانية في القاهرة، فهي لم تتوقع أن تنجح حملة حرب العصابات التي اقترحها نجاحاً عظيماً - بل على العكس تماماً - ولكن لم يكن لديها جنود يمكن الاستغناء عنهم لإرسالهم إلى الحجاز، ولذلك ابتهجت هذه السلطات عندما علمت أن لا حاجة لإرسال هؤلاء الجنود. وقد ارتفعت مكانة لورنس في نظر هذه السلطات لأنه لم يطلب إرسال قوات.

غادر لورنس القاهرة مرة أخرى في 25 تشرين الثاني (نوفمبر) 1916 وفي أوائل كانون الأول (ديسمبر) تولى منصبه إلى جانب فيصل. وقد أصبح وينغيت مندوباً سامياً في كانون الثاني (يناير) 1917، وأمد لورنس بمبالغ كبيرة من الذهب متزايدة لibtاع بها تأييد القبائل العربية. مع ذلك انقضى فصل الشتاء وفصل الربيع عام 1917 من دون ورود أخبار عن تحقيق رجال القبائل أي نجاح عسكري ذي شأن.

كان أبرز اخفاق لثورة مكة هو فشلها في أن تضم إليها المدينة المنورة، المدينة المقدسة الكبيرة الأخرى في الحجاز. تقع المدينة المنورة على بعد نحو ثلاثمائة ميل شمال شرق مكة، وهي تقطع الطريق التي تمتد شمالاً إلى سورية. وقد هاجمها اتباع الشريف حسين في الأيام الأولى للثورة، فهزموا بسهولة ولم تتمكن قوات الحسين من الاستيلاء عليها خلال الحرب. كما أنهم لم يتمكنوا من تجاوزها لتهاجم حاميتها التركية الكبيرة في أحد جناحيها أو من وراء.

كانت المدينة المنورة محاطة بسور من الحجارة الصلبة، يقال أنه بني في القرن الثاني عشر، وأقيمت على السور أبراج، كما تقع إلى الشمال الغربي قلعة فيها الحامية العثمانية، وكانت محطة الخط الحديدي الحجازي الممتد من دمشق، تقع داخل السور، وبواسطتها تأتي الإمدادات والتعزيزات. ومع أن جماعات البدو بقيادة الحلفاء استمرت تنسف الخط الحديدي بالديناميت خلال الحرب فقد واصلت الحامية العثمانية إصلاحه وأبقته صالحاً للاستعمال.

إن وجود العثمانيين في المدينة المنورة، الذي قطع على رجال قبائل الشريف حسين الطريق التي كان عليهم أن يسلكوها ليشاركوا في مسرح العمليات الرئيسي في حرب الشرق الأوسط، بدا وكأنه يظهر عجز الحسين عن التقدم إلى أي مكان. وكان ظاهراً أن الثورة التي انطلقت من مكة قد



جمدتها أسوار عمرها قرون تحيط بالمدينة المنورة. أما بنية السلطة  
العثمانية فبقيت ثابتة في مكانها، ولم تكن في مرحلة متقدمة من الفساد  
كما سبق للمراقبين الأوروبيين أن ذكروا.

# الجزء الخامس

## الحلفاء في أدنى طالعهم



**اللورد كيتشنر**



2 Sir Mark Sykes at his desk in 1916

**مارك سايكس 1916**



3 Enver, who led the *coup d'état*



4 Talaat, civilian strongman of the Young Turk regime



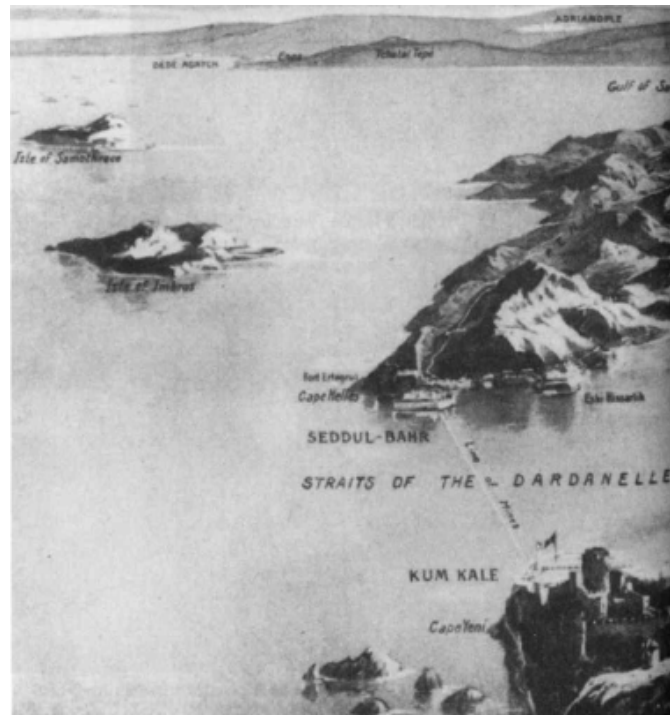
5 Djemal, a leading military figure in the Young Turk Party



6 Crowds gather outside the Sublime Porte after the Young Turk

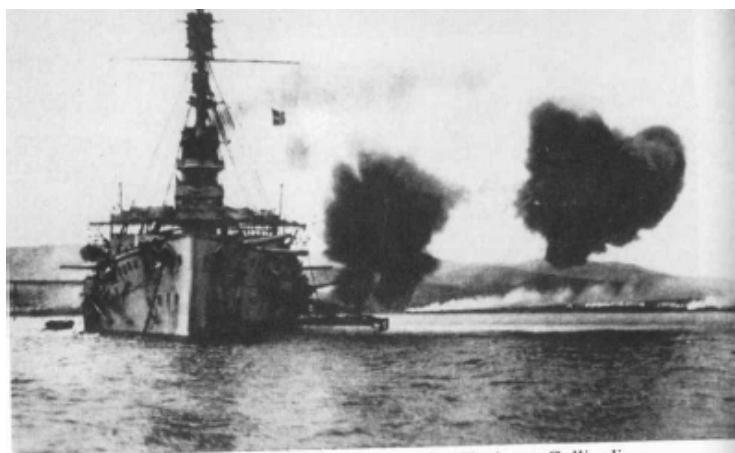


7 Turkish soldiers at Dardanelles fort with stone cannon balls, 1915



8 Allied fleet off the entrance to the Dardanelles

9 Pictorial map of the Dardanelles



10 H.M.S. Cornwallis firing at the Turks at Gallipoli



11 A view of Anzac beach



12 Australians charging uphill



13 Winston Churchill, as First Lord of the Admiralty



14 Russian column pressing forward



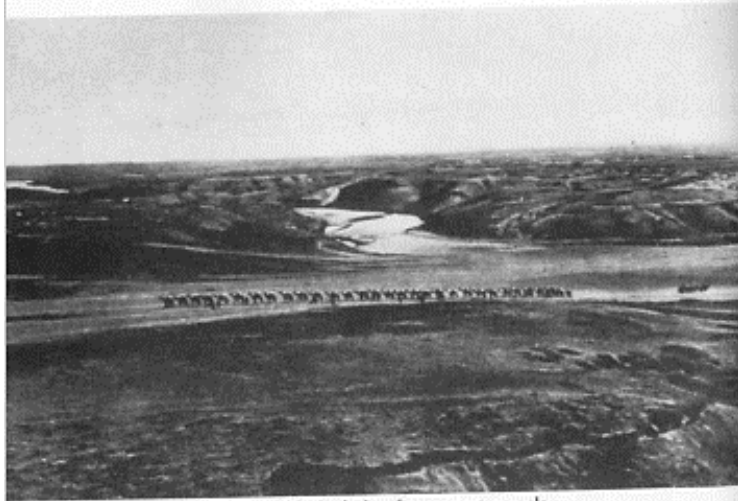
15 Russian advance-guard on snow-clad slopes in Turkey, 1916



18 A British camel column in the Jordan Valley



19 A British survey party in southern Palestine



20 A chain of transport camels



22 The Hejaz flag



23 Prince Feisal (second from right)



24 King Hussein of the Hejaz



25 T.E. Lawrence (left) with Lowell Thomas near Aqaba in Palestine in the autumn of 1917



26 David Ben-Gurion



27 Vladimir Jabotinsky



28 Chaim Weizmann (left) with Lord Balfour

# الفصل الاول

## سقوط حكومات الدول الحليفة:

### بريطانيا وفرنسا

#### (1)

بين خريف عام 1916 وخريف عام 1917 ظلت الامبراطورية العثمانية صامدة، بينما انهارت حكومات أعدائها، الدول الحليفة. وكان هذا بالضبط عكس ما توقعه القادة السياسيون والعسكريون الأوروبيون.

لقد لعب نجاح الجيش العثماني في الحفاظ على الدردنيل دوراً مباشراً في إسقاط حكومة رئيس الوزراء اسكويث في بريطانيا وحكومة القيصر نقولا في روسيا. وبسقوط الحكومتين البريطانية والروسية، ثم سقوط الحكومة الفرنسية في عام 1917، تولى السلطة في العواصم الحليفة الثلاث قادة جدد كانت لهم وجهات نظر متشددة تجاه الشرق الأوسط، وكانت آراؤهم هذه تختلف كل الاختلاف عن آراء أسلافهم.

إن رئيس الوزراء الذي جر بريطانيا إلى الحرب كان أول زعيم من زعماء الحلفاء يسقط ضحية الحرب. وقد قال بونارلو مرة في رسالة كتبها إلى اسكويث أن: «الضرورة في الحرب تتطلب ليس فقط أن يكون المرء نشطاً بل أيضاً أن يبدو نشطاً»<sup>[398]</sup>. وقد بدا اسكويث بأساليبه المتصفة بالبلادة والروح الأرستقراطية انه عكس ذلك، كان قد بلغ مكانة القمة في السياسة البريطانية، ولكن إحدى نواحي نبوغه الخاص أنه كان يجعل انتصاراته تبدو وكأنها تحققت بغير جهد. لم يكن متسرعاً في تعريف الشؤون السياسية والحكومية، وبدا دائماً وكأنه يملك الوقت الكافي لحضور مأدبة عشاء أخرى، ولزيارة أخرى إلى الريف أو- وهذا كان يحدث أكثر مما يجب - لارتشاف كأس أخرى من الكونياك.

وفيما تزايدت الكوارث العسكرية في بلاد الرافدين، وغاليبولي، وعلى الجبهة الغربية، بدا أسلوب رئيس الوزراء في إدارة الحكم من خلال مجلس الوزراء معتمداً على إجماع الآراء، أسلوباً غير حاسم، كما أن إحجامه عن دعوة الأمة إلى اقرار اجراءات شديدة كالخدمة العسكرية الالزامية، دلّ على انه دون الإخلاص الكامل لهدف كسب الحرب.



كان لويد جورج نقيض ذلك تماماً، إذ جعل من مسألة الخدمة الالزامية قضيته الخاصة. وهو بتقديمه الصفوف في هذه المسألة أظهر مقدار التبذل الكبير في موقفه السياسي. وفي حين أن اسكويث، الذي جرّ بلاده إلى الحرب، بقي متمسكاً بالحرّيات المدنية المعمول بها في زمن السلم وبالقيم الليبرالية، برز لويد جورج الراديكالي سابقاً والذي عارض حتى اللحظة الأخيرة دخول الحرب، كزعيم مستعد للتضحية بالحقوق الفردية في سبيل تحقيق النصر. أما الليبراليون التقليديون، الذين عارضوا دائماً الخدمة العسكرية الالزامية، فقد شعروا أن لويد جورج أخذ في الانتقال إلى المعسكر الآخر.

وإذ خسر لويد جورج اصدقاءه السياسيين القدامى، اكتسب أصدقاء جددًا، ثبت أن اثنين منهم كانا على أهمية خاصة. أحد هذين هوسير ادوارد كارسون، الايرلندي المتمرد على حزب المحافظين الذي قاد الكفاح من أجل التجنيد الالزامي في مجلس العموم. أما الثاني فهو المنافع عن الامبريالية الفرد ميلنر، الذي قاد الكفاح من أجل التجنيد في مجلس اللوردات، وقاد هذا الكفاح في البلد عمومًا بصفته رئيس رابطة الخدمة الوطنية. كان ميلنر إدارياً استعمارياً بارزاً، وسبق أن تحمل مسؤولية كبيرة عن شن حرب البوير، تلك المجازفة في جنوب افريقيا عند نهاية القرن الماضي التي عارضها لويد جورج، الشباب المثالي، معارضة شديدة [399]. آنذاك حمل لويد جورج حملة شديدة على ميلنر. كان لويد جورج الشاب القادم من ويلز، بصفته راديكالياً، يعارض التوسع الامبريالي، والتورط في الخارج والمجازفات العسكرية. أما اللورد ميلنر، الذي كان اتحادياً ليبرالياً، فقد تحول إلى ملهم للمحافظين من الجناح اليميني، وجعل من نفسه قطب الفكر الامبريالي. كان هدفه الأسمى هو اتحاد الامبراطورية [400]. وكان مع الشباب الذين تجمعوا حوله في جنوب افريقيا - أي ما كان يسمى «روضة أطفال ميلنر» - يشجعون حركة دمج الامبراطورية المترامية الأطراف في وحدة عضوية واحدة [401]. وقد كان ميلنر إدارياً من الطراز الأول، وتبين للويد جورج ان مهارات ميلنر لا تقدر بثمن في العمل لكسب الحرب.



## (2)

أصبح لويد جورج وزيراً للحربية بعد موت كيتشنر في عام 1916، ولكنه وجد نفسه بلا حول من حيث وضع نهاية للكوارث العسكرية المصنية في ذلك العام، ويفيد أحد التقديرات أن مجموع الاصابات العسكرية والمدنية في سائر النزاعات الأهلية والدولية في أوروبا خلال المئة سنة من عام 1815 إلى عام 1915 لم تزد على خسائر قتال يوم واحد في أي من معارك عام 1916 الكبرى. لقد جاء هجوم «سوم» في تموز (يوليو) 1916<sup>[402]</sup>. في أعقاب غاليبولي وبلاد الرافدين وفي أعقاب أحداث دامية كوقوع 142,000 إصابة في صفوف البريطانيين خلال أربعة أيام فقط من القتال في آراس، فرنسا، إن مجيء هجوم «سوم» بعد كل هذه الأحداث رفع حالة اليأس إلى الذروة. وقد فقد البريطانيون 60,000 رجل يوم الأول من تموز (يوليو)، وهذه أفدح خسارة لحقت بجيش بريطاني في يوم واحد<sup>[403]</sup>. وعند انتهاء الهجوم كانت الاصابات البريطانية في «سوم» قد ارتفعت إلى 420,000. في عداد هذه الإصابات كان ريموند اسكويث، ابن رئيس الوزراء.

لقد يؤس لويد جورج من النصر وهو يرى الاجتماعات الطويلة وغير الفعالة التي كان يعقدها مجلس الوزراء الحربي برئاسة اسكويث، ويسمع المناقشات التي لا تنتهي ولا تتخذ بنتيجتها أية قرارات. فقال في حديث مع موريس هانكي في 9 تشرين الثاني (نوفمبر) «سوف نخسر الحرب»<sup>[404]</sup>.

في الوقت عينه تقريباً، تجدد الجدل حول غاليبولي، مذكراً العالم السياسي كم كانت حكومة اسكويث خرقاء عندما شنت الحرب، وارتكبت الحكومة حماقة بموافقتها على إجراء تحقيق رسمي في حزيران (يونيو) بشأن حملة الدردنيل. ولما كان تشرشل لا يشغل أي منصب، فقد تفرغ لإعداد الوثائق التي تدعم حجته بأن زملاءه هم من يتحمل اللوم في كارثة غاليبولي. وقد دب الرعب في نفس رئيس الوزراء الذي عمل من أجل أن يقتصر التقرير على استنتاجات لجنة التحقيق، وأن تستبعد منه الشهادات والبيانات الأخرى التي استند إليها التقرير. بالرغم من ذلك، وقع الضرر السياسي، وأسهم التحقيق في مسألة غاليبولي في سقوط أول حكومة ائتلافية.

رُويت قصة سقوط اسكويث مرات عديدة، فلم تعد حاجة لتكرار سردها هنا مطولاً. لقد لعبت الصحافة البريطانية دوراً رئيساً في سقوطه، وكانت الصحافة البريطانية آنذاك خاضعة لسيطرة رجل واحد، وهو أمر لم يحدث

من قبل ولا من بعد. فقد كان الفرد هارمسورت، فايكونت نورثكليف، يسيطر على نصف صحافة لندن في زمن كانت فيه المطبوعات، قبل اختراع الإذاعة والتلفزيون، هي واسطة الاتصال الجماهيرية الوحيدة. وبامتلاكه جريدة «التايمز»، بما لها من مهابة، وجريدة «الديلي ميل»، بما لها من جاذبية شعبية استحوذ على «الطبقات والجماهير» [405]. وقد استخدم نورثكليف سلطته الهائلة ليضفي طابعاً درامياً على الحجة القائلة أن أسكويث وزملاءه المدنيين منعوا قادة الجيش والأسطول من كسب الحرب.

لقد احتشدت صحف نورثكليف وراء سير ادوارد كارسون، المحامي البريطاني الأول صاحب الشهرة في المحاكمات القضائية، الذي قاد الثورة على الحكومة في البرلمان وفي البلاد عامة. كان كارسون مهاجماً، يمثل أخطر حيوان في الغاب السياسي. وبدا هذا الرجل الإيرلندي النحيل الأسمر الحاقداً، في حملاته اللاذعة على الحكومة، أنه يمثل كل ما يفتقر إليه رئيس الوزراء. لقد كتب عنه أحد المؤرخين قائلاً: لقد انتشرت فكرة تقول إنه يمتلك قوة الدفع، والتصميم العتيد، والعداء الذي لا يفتر تجاه الألمان، هذه الصفات المتباينة تبايناً شديداً مع التسويف التعس الذي كان يعزى إلى اسكويث وزملائه [406].

في خريف عام 1916 بدأ لويد جورج يقيم صلة عمل وثيقة مع كارسون، مع أنه أنكر ذلك. ثم ان سير ماكس ايتكين (في ما بعد لورد بيفربروك) ضم إليهما بونار لو ليشكلوا معاً تجمعاً سياسياً. وقد استقال واسكويث بعد مناورات معقدة وصار في المعارضة بعد أن أخذ معه نصف حزبه الليبرالي وزعماءه جميعاً ما عدا لويد جورج. وبتحريض من ايتكين (قال لويد جورج: «إن اتيكين هو الذي جعل بونار لو يقرر تحطيم حكومة اسكويث» [407]، ألقي بونار لو بثقل الحزب الاتحادي - المحافظ وراء لويد جورج. (أحد الشروط الرئيسة التي فرضها المحافظون هو استبعاد تشرشل من الحكومة الجديدة). وقد انضم إليهم عدد كبير من الليبراليين أصحاب المقاعد الخلفية في مجلس العموم، وكذلك حزب العمال الصغير الحجم. وفي 7 كانون في الأول (ديسمبر) 1916 أصبح رئيس وزراء بريطانيا على رأس ثاني حكومة ائتلافية.

سارع لويد جورج إلى فرض دكتاتورية حالة الحرب. وقد عهد بإدارة شؤون الحرب إلى مجلس وزراء حربي تألف بداية من خمسة أعضاء، برئاسة رئيس الوزراء الجديد. وضم هذا المجلس في عضويته أيضاً بونار لو، الذي صار زعيماً لمجلس العموم ووزيراً للمالية، وكذلك ارثور هندرسون، من حزب العمال. كان معظم أعمال مجلس الوزراء الحربي يقوم به عضوا

المجلس الآخرا، اللورد ميلنر الذي كان لويد جورج قد يعتمد عليه اعتماداً خاصاً، وإلى درجة أقل اللورد كورزون. وأصبح موريس هانكي سكرتيراً لمجلس الوزراء الحربي وتولى مهمة متابعة تنفيذ قرارات المجلس.

كان هذا تبديلاً ثورياً كاسحاً في طريقة حكم البلاد. وقد تولى آرثر بلفور، رئيس الوزراء السابق، وزارة الخارجية في الحكومة الجديدة. وفي ملاحظة منه بشأن لويد جورج قال في ذلك الحين: «إذا شاء أن يكون دكتاتوراً فليكن. وإذا كان يعتقد أنه يستطيع أن يربح الحرب فانا مؤيد له في محاولته» [408].

كان أحد الآثار الناجمة مصادفة عن تغير الحكومة هو تغير أهداف بريطانيا في الشرق الأوسط، فقد خرج من الحكم اسكويث وغراي، الرجلان الوحيدان في الحكومة اللذان كان لديهما شك في رغبة الاستيلاء على أراض جديدة في الشرق. ومات اللورد كيتشنر الذي كان يفرض على مجلس الوزراء وجهات نظره الخاصة المتعلقة بالشرق الأوسط. وقد كان رئيس الوزراء الجديد معارضاً طوال الوقت لوجهات نظر كيتشنر.

فقد كان لويد جورج، خلافاً لكيتشنر، يعتقد أن الشرق يمكن أن يكون ذا أهمية كبرى في كسب الحرب وظل على اعتقاده هذا. ومما يدل على ذلك أن هانكي كتب في مفكرته اليومية بعد بضعة أيام على تولي لويد جورج رئاسة الحكومة «تناولت طعام الغداء مع لويد جورج، وكان حديثه معظم الوقت عن خطته لضربة عسكرية كبيرة في سورية» [409].

وفي ما يتعلق بمستقبل المنطقة، كان لويد جورج ينطلق إلى حد كبير من كراهيته لنظام الحكم التركي. فقد ورث من زعيمه السياسي الأول، عضو حزب الأحرار في القرن التاسع عشر، وليم غلادستون، كره الامبراطورية العثمانية بسبب قسوتها على رعاياها المسيحيين. وكان يتعاطف مع اليونان بما لها من مطامع إقليمية في آسيا الصغرى، ويتبنى طموحات الصهيونية في الأرض المقدسة. غير أنه في ما يخص هذه المسألة الأخيرة، أوضح أنه يتوقع قيام وطن قومي يهودي في نطاق حكم بريطاني. والأمر الذي لم يتضح إلا بعد مضي سنة أو سنتين على تولي لويد جورج السلطة أن هذا كان ينظر إلى الشرق الأوسط ليس باعتباره طريقاً إلى الهند فحسب، بل باعتباره أيضاً مكسباً يستحق في حد ذاته أن يسعى لنيه. وخلافاً للوزراء البريطانيين في القرن التاسع عشر، الذين كان يقتصر هدفهم على إبعاد الدول الأوروبية الأخرى عن المنطقة، سعى لويد جورج لفرض الهيمنة البريطانية على الشرق الأوسط.

لقد كان لويد جورج بصفته رئيساً للوزراء، يزداد تقارباً مع ميلنر والامبريالية. وقد كتب هانكي في وقت لاحق أن ميلنر «كان الوزير الذي يمنحه لويد جورج ثقته أكثر من أي وزير آخر ما عدا ربما، بونار لو- ولكنّه كان الأكثر اعتماداً عليه من حيث المشورة السياسية»<sup>[410]</sup>. وكان لويد جورج براغماتياً وانتهازياً. أما ميلنر، بخلفيته الألمانية، فقد كان منظماً في عمله وفي فكره وكان يمد رئيس الوزراء بما يفتقر إليه.

لقد شدد ميلنر قبضته على حكومة لويد جورج عن طريق تعيين أتباعه في هيئة أمانة السر التي يرأسها هانكي. وقد نجح هانكي في الاحتفاظ بمارك سايكس، اختياره الشخصي، كواحد من مساعديه الثلاثة<sup>[411]</sup><sup>[412]</sup>، أما مساعده الآخرا فهما ليو اميري، أحد أتباع ميلنر الخالص، ووليم اورمسبي - غور سكرتير ميلنر البرلماني.

وعندما حذا لويد جورج حذو الرئيس الأميركي في البيت الأبيض بتعيين هيئة مساعديه غير الرسميين، كانت لميلنر يد في ضم بعض أتباعه إلى هذه الهيئة، أمثال ليونيل كورتس أحد مؤسسي مجلة «المائدة المستديرة» التي كانت تدعو إلى اتحاد للإمبراطورية وأمثال فيليب كير رئيس تحرير هذه المجلة. وقد وضعت هيئة المساعدين في مبان مؤقتة في حديقة مبنى رئاسة مجلس الوزراء في شارع داوننج رقم 10 وأطلق عليها لقب «صاحبة الحديقة».

منذ الأيام الأولى لتولي رئيس الوزراء الجديد منصبه، نشأ نوع من دكتاتورية شخصين. ففي الحادية عشرة من قبل ظهر كل يوم كان لويد جورج يجتمع مع ميلنر بحضور هانكي ورئيس هيئة الأركان العامة لقوات الإمبراطورية، ولم يكن يجتمع مع بقية أعضاء مجلس الوزراء الحربي إلا عند حلول الظهر. وفي عام 1918 صار ميلنر وزيراً للحربية اسماً وواقعاً، وكان يملك الخبرة التي تتطلبها منصبه، إذ أنه كان قد تولى إدارة الجانب المدني لحرب البوير وها هو الآن، تحت رئاسة لويد جورج، يدير الجانب المدني للحرب العالمية الأولى.

كان ارتباط لويد جورج مع بطانة ميلنر ارتباطاً فكرياً وعملياً وبيروقراطياً. وكان رئيس الوزراء يحضر الاجتماعات التي تضم منتسبي الطاولة المستديرة لتبادل وجهات النظر. وفي منتصف عام 1917 أبدى هانكي ملاحظة بقوله إن «بين الأكثر نفوذاً في اللحظة الراهنة يأتي جماعة الطاولة المستديرة. إنهم يتناولون طعام العشاء كل يوم اثنين... وميلنر هو الزعيم الحقيقي لهذه الجماعة... أما لويد جورج فيحضر أحياناً لقاءاتهم»<sup>[413]</sup>.

لقد كان التأثير متبادلاً. فبعد ذلك بوقت قصير قال هانكي أن ميلنر «قد تحول تحولاً كاملاً فأخذ بوجهة نظر لويد جورج القائلة بضرورة توجيه جهودنا الرئيسة ضد تركيا»[414].

### (3)

سقطت في فرنسا حكومات كثيرة خلال الحرب، ولكن الفوارق بين حكومة وأخرى لم تكن دراماتيكية. ثم تبدل ذلك في عام 1917.

لقد أدى تمرد الجيش الفرنسي في أيار (مايو) 1917 إلى سقوط آخر حكومة من حكومات فرنسا زمن الحرب كان السياسيون يرتاحون إليها. لقد لحق العار بالقيادة التقليدية. فحكومات فيفياني، وبريان، وريبو سمح لها بأن تستقيل، أما حكومة بول بانليفيه فلم يسمح لها بالاستقالة بل أسقطها البرلمان الفرنسي في تشرين الثاني (نوفمبر) 1917. ولم يكن هناك سوى شخص واحد يمكنه أن يكون رئيساً للوزراء ولو أنه غير مجرب وإنما قادر أن يقاتل حتى النصر.

هذا الرجل كان أكثر انسان مرهوباً ومكروهاً في الحياة العامة. وقد قال عنه لويد جورج «لم يبق سوى رجل واحد وليس من المبالغة القول ما من أحد يريده» [415]. كان هذا هو الرجل الذي فضح ممارسات الفساد التي ارتكبتها زملاؤه السياسيون - وهم لم يغفروا له ذلك.

كان جورج كليمنصو، شأنه شأن لويد جورج، «وحيداً» سياسياً. وكان هو أيضاً راديكالياً، ولو أن هذه الصفة كان لها معنى مختلف في فرنسا. وهو مثل لويد جورج، كان حسب الاعتقاد السائد قد تخلص من مقولاته اليسارية التي آمن بها في شبابه [416]. وعلى غرار لويد جورج كان هو أيضاً قد شجب دعاة الصلح على أساس حل وسط فوضع حداً للمحادثات الجارية في هذا المنحى والتي كان الألمان قد بدأوها بواسطة أريستيد بريان في عام 1917. حاسة سمعه كانت قد بدأت تضعف، وزاد وزنه. كان في السادسة والسبعين من عمره، ولكنه ظل المناضل الذي عرفه الناس طوال حياته. وقد شعر رئيس الجمهورية أنه مضطر لتكليفه برئاسة الوزارة قائلاً عنه «هذا الإنسان الشيطان يقف جميع الوطنيين إلى جانبه وإذا لم أكلفه فإن قوته الأسطورية ستجعل أية وزارة بديلة ضعيفة» [417].

كان كليمنصو قبل أي شيء آخر إنساناً لا يعرف إلا الكراهية، وكراهيته الأشد موجهة إلى ألمانيا.

فكان آخر من بقي على قيد الحياة من أعضاء الجمعية الوطنية التي احتجت في عام 1871 على شروط الصلح القاسية التي فرضتها ألمانيا على فرنسا المهزومة. ولم يستسلم أبداً. كان يرى دائماً أنه يجب على فرنسا أن تركز على بناء قوتها ضد ألمانيا، ولذلك كان يرى أن من الخطأ تحويل جانب من هذه القوة لاستخدامها في مغامرات استعمارية. ولذلك رأى فيه أعضاء

مجلسي الشيوخ والنواب الذين كانوا يهدفون إلى ضم سوريا وفلسطين إلى فرنسا عدوهم الأكبر.

كانت فرنسا بين عامي 1881 و1885، وبالرغم من احتجاجات كليمنصو، قد انطلقت نحو توسع استعماري جديد. وبذريعة ما. قامت أولاً بغزو تونس واحتلالها، ثم احتلت الدول التي أصبحت في ما بعد تشكل الهند الصينية. والحقيقة أن الزعيم الألماني الأمير أوتو فون بسمارك أيد، بل شجع، هذه المغامرات الفرنسية. وفي 27 تشرين الثاني (نوفمبر) 1884 قال كليمنصو مخاطباً مجلس النواب الفرنسي «إن بسمارك عدو خطر وهو ربما كان أشد خطراً كصديق. لقد دلنا على تونس فأوقعنا في نزاع مع انكلترا» [418].

لقد استنكر كليمنصو في البرلمان كما في جريدته «لا جوستيس» (أي العدالة) الاستيلاء على المستعمرات، لأنه كان يعتبر المستعمرات عبئاً مالياً وعسكرياً ويرى أنها تصرف الانتباه عن مشكلة الحدود مع ألمانيا، كما كان يعتبر الاستيلاء على المستعمرات خطوة أوحى بها الألمان بذكاء، وكانوا يأملون من ورائها أن يدفعوا بفرنسا إلى الخصام مع بريطانيا. وهو في معارضته سياسة الاستعمار، كان يفضح الفساد المالي الذي يصاحب سياسة الاستعمار الفرنسية. إن حديث جريدته «لا جوستيس» عن الاستغلال الشريعة في مسألة تونس، لم يكن بعيداً عن الواقع: فقد كانت هناك مضاربات بالعقارات، وبامتيازات السكك الحديدية وامتيازات الكابل البحري للاتصالات البرقية، بغض النظر عما قد يكون لهذه كلها من علاقة بصياغة سياسية الحكومة. وكان الفساد المالي الذي أحاط بمغامرة الهند الصينية أكثر بشاعة. وقد أدت الاتهامات التي وجهها كليمنصو والأمور التي فضحها، إلى تدمير لسمعة كثيرين وإلى سقوط حكومات، فأصبح يُعرف بلقب «محطم الآخرين» قبل أن يطلق عليه لقب «النمر».

كتب ونستون تشرشل في وقت لاحق عن الحياة البرلمانية الفرنسية في ذلك الزمن فقال: «إن الحياة في مجلس النواب الفرنسي محمومة وشرسة ومسمومة، وهي تجري عبر تتابع الفضائح وأعمال الاحتيال وحوادث التعريض واليمين الزور والقتل والمؤامرات والمكائد وطموحات وأعمال تآمر شخصية وأعمال غش وخداع، وهذه الأمور المتلاحقة لا مثيل لها معاصراً إلا في عالم العصابات في شيكاغو» [419]. لقد شق كليمنصو طريقه عبر هذه الأمور كلها في سورة غضب طاحنة. وعاش في زمن كانت لا تزال العادة فيه أن تسوى الخصومات في ساحة المبارزة وكان هو مبارزاً مرهوباً. أحد رؤساء مجلس النواب الفرنسي قال متهمكاً على أعضاء المجلس الآخرين أن كليمنصو «يملك ثلاثة أشياء ترهبونها: سيفه، ومسدسه، ولسانه» [420].

وخوفاً منه ترددت الحكومة الفرنسية عام 1882 في الانضمام إلى بريطانيا في احتلال مصر، فكانت النتيجة أن استولت بريطانيا على مصر بكاملها، وكان أمراً سهلاً أن يصور خصومه معارضته للتوسع الاستعماري بأنها تصب في مصلحة الإمبراطورية البريطانية - وقد صوّروها هكذا فعلاً. وكان هذا الخط الذي اتبعه خصومه كلما أصبح هو عرضة لحملة سياسية. وقد أقدموا على عملية تزوير لكي يثبتوا أنه باع نفسه لبريطانيا، فاستؤجر بعض المشعوذين لكي يسيروا خلفه وهم يرددون الكلمتين الانكليزيتين: «أوه، يس» أي (آه، نعم)، ووزعت نسخ مجانية من جريدة تتضمن صورة كاريكاتورية تظهره وهو يلعب ألعاب خفية بأكياس من والجنيهاً الاسترلينية<sup>[421]</sup>. وقد كتب أحد السياسيين البريطانيين البارزين عام 1892 إلى سياسي بريطاني آخر يقول له: «كان هنا بالأمس رجل فرنسي وروى لي قصة ملفقة عجيبة يبدو أنهم يصدقونها في باريس، المدينة التي يصدقون فيها أي شيء... ومفادها أن جريدة «لا جوستيس» التي يملكها كليمنصو والتي يقال إنها خاسرة إنما تمّولها إنكلترة باسم كل من ألمانيا وإنكلترة». وفي عام 1893 هزم كليمنصو عندما رشح نفسه لإعادة انتخابه وهكذا أبعد عن الحياة البرلمانية مدة عشر سنوات.

كان هذا هو الرجل الذي لجأت إليه فرنسا اليائسة وهي في أحلك ساعاتها في عام 1917، والذي ما لبث أن فرض إرادته على حكومة بلاده. وقد أصبح هو أيضاً، مثل لويد جورج، شبه دكتاتور<sup>[422]</sup> لزمّن الحرب، مجسداً تصميماً شديداً على القتال حتى يتم سحق ألمانيا سحقاً كاملاً. وصادف أنه أيضاً، شأنه شأن لويد جورج، حمل معه إلى الحكم وجهة نظر خاصة بشأن السياسة في الشرق الأوسط وقد استمر كرئيس للوزراء لا يضع أهدافاً إقليمية لفرنسا خارج أوروبا. وفي ما يخص مطالبة فرنسا التقليدية بسورية، التي وجدت انعكاساً لها في اتفاقية سايكس - بيكو، قال كليمنصو أنه إذا استطاع لويد جورج أن يحصل لفرنسا على حق إقامة محمية هناك فلن يرفض ذلك، «لأن هذا سوف يسر بعض الرجعيين»، أما هو نفسه فلا يعطي الأمر أية أهمية<sup>[423]</sup>.

إن مجريات الحرب والسياسة قد جلبت إلى الحكم في بريطانيا أول رئيس وزراء بريد الاستيلاء على مناطق الشرق الأوسط، وجلبت إلى الحكم في فرنسا السياسي الفرنسي الوحيد العازف عن ذلك.



# الفصل الثاني

## خلع قيصر روسيا

### (1)

كانت سلسلة ظروف غير محتملة الظهور هي التي جعلت فرنسا تحتشد وراء زعيم معارض للإمبريالية الفرنسية في الشرق الأوسط، وكانت سلسلة ظروف أشد غرابة هي التي جعلت روسيا أيضاً تساق في الشهر نفسه خلف زعيم هو أيضاً ادعى أنه معارض للإمبريالية الروسية في المنطقة.

وإذا كان من شيء بدا واضحاً في مطلع عام 1917 فهو أن روسيا هي صاحبة الكفة الراجحة في حرب الشرق الأوسط ضد تركيا. إن هزيمة أنور الكارثية في أوائل عام 1915 في جبهة القوقاز تبعها الغزو الروسي الناجح لشرق الأناضول في عام 1916. وعزز الروس موقعهم الاستراتيجي بكسبهم السيادة على البحر الأسود، وبإنشائهم خطوطاً للسكة الحديدية من القوقاز إلى خط جبهتهم الجديدة في شرقي تركيا. وكان القائد الروسي، الدوق الكبير نقولا، يخطط للقيام بهجوم جديد فور اكتمال خطوط السكة الحديدية. وقد ذكر ضابط ركن ألماني ملحق بالقوات المسلحة العثمانية، أن هجوم الدوق الكبير كان من شأنه «أن يؤدي إلى نصر تام وربما إلى إخراج تركيا من الحرب في صيف عام 1917» [424].

مع ذلك قال لويد جورج بعد انقضاء سنوات في بيان أمام مجلس العموم أن «انهيار روسيا يعود بكامله تقريباً إلى الإمبراطورية العثمانية» [425]. والأساس الذي استند إليه لويد جورج في رأيه هذا، هو أن قادة تركيا الفتاة في القسطنطينية، بقطعهم الطريق على معظم صادرات روسيا ووارداتها، قد حرموها ما يأتيها من أسلحة وعائدات مالية. أما الذين يخالفونه الرأي، فحجتهم أنه حتى لو بقيت طريق القسطنطينية التجارية مفتوحة، فإن روسيا زمن الحرب، بغياب ملاحيتها عن أراضيهم والتحاقهم بالجيش، قلّ إنتاجها من المواد الغذائية وهبط عن مستواه المعتاد، وبالتالي قلّ ما تنتجه للتصدير، كما أن حلفاءها شح ما لديهم من الذخائر فلا سبيل لإمدادها بها. ولكن كلا الرأيين يقودنا إلى الحقيقة التناقضية الظاهرة، ألا وهي أن انتصارات روسيا

العسكرية على جبهة القوقاز كانت، بمعنى ما، غير ذات علاقة: لقد أصبحت الحرب الحقيقية سباقاً اقتصادياً واجتماعياً من أجل البقاء.

كان في مقدمة الذين فهموا هذه الحقيقة الصناعي الألماني فالتر راتيناو، وقد نظم هذا الصناعي في عام 1914 قسماً للمواد الأولية تابعاً لوزارة الحربية في برلين، مع أن الوزارة قابلته بالشك. ولذلك قدمت له سكرتيراً وغرفة صغيرة واحدة خلف مبنى الوزارة. وما إن حلَّ عام 1918 حتى كان هذا القسم أكبر الوحدات في الوزارة، وصار يشغل عدة مجموعات من المباني وكاد يطغي على بقية الأقسام<sup>[426]</sup>. وقد أدرك راتيناو وبصيرته الثاقبة أن العمليات الحربية تمر بثورتها الصناعية وأصبحت مسألة تمويل ونقل وإمداد على نطاق ضخم، وبالتالي فإنها تتطلب مركزية في توزيع المخصصات وفي التخطيط والرقابة على الاقتصاد بكامله.

وقد تعلم لويد جورج بطريقته البراغمية أن يرى الأمور بالمنظار نفسه، فطبق اشتراكية الحرب على الاقتصاد البريطاني، الذي كان حتى ذلك الحين يقوم على المشاريع الفردية. وعندما أوجد وزارة الذخائر في فندق مصادر، لم تكن للوزارة هيئة موظفين البتة. ومع انتهاء الحرب كان عدد مستخدمي الوزارة قد بلغ 65,000 مستخدم، وكانت الوزارة تمارس الإشراف على أكثر من ثلاثة أرباع مليون عامل<sup>[427]</sup>. وانضم إلى قوة اليد العاملة عمال جدد بينهم عدد كبير من النساء.

وفي روسيا، كما في ألمانيا وبريطانيا، أصيبت التبدلات الاجتماعية العنيفة والسريعة التي صاحبت الثورة الصناعية في زمن الحرب، بالإجهاد عند وصولها إلى بنية المجتمع، وأجهدت بالتالي الأعمدة والدعائم، التي لم يُراعَ في تصميمها أن تحمل وزناً ثقيلاً. حدثت تبدلات في الأخلاق، والسياسة وأنماط الاستخدام، وأنماط الاستثمار، وبنية الأسرة، والعادات الشخصية واللغة. ويمكن أخذ فكرة عن ضخامة التبدلات، من طول الدراسة التي أجرتها مؤسسة وقف كارنيجي وضمنتها مسحاً أعدته بعد الحرب، للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في واحد وعشرين بلداً: لقد جاء هذا المسح في مئة وخمسين مجلداً، وكانت المتعلقة ببريطانيا وحدها تقع في أربعة وعشرين مجلداً.

ثبت أن روسيا القيصرية من بين الدول الأوروبية الرئيسية المتحاربة في الحرب العالمية الأولى، كانت الأقل قدرة على مواجهة هذه التحديات بسبب ضعفها في عناصر البنية التحتية - أنظمة النقل، أنظمة الاتصالات، الصناعات الهندسية، وأسواق رأس المال - هذه العناصر التي تصنع اقتصاداً عصبياً قادراً على التعافي وقابلاً للتكيف، ولكن عجز روسيا كان أكثر من أي شيء آخر عجزاً في القيادة.

إن عواقب تشديد قبضة تركيا على الدردنيل أكدت فقدان الروح الوطنية لدى بعض عناصر الطبقات الحاكمة وفقدان الكفاءة لدى العناصر الأخرى. فلم يكن هناك أي عذر للنقص الرهيب في المواد الغذائية في عام 1916 وعام 1917. كانت روسيا بطبيعتها بلداً غنياً في الزراعة: كان الفلاحون يمثلون ثمانين بالمئة من عدد السكان، وكانت الحبوب وحدها تؤلف نصف صادرات روسيا<sup>[428]</sup>. ومع أنه حدث هبوط في الإنتاج الزراعي بسبب انتقال اليد العاملة إلى الجيش، كانت البلاد تنتج من المواد الغذائية أكثر من حاجتها<sup>[429]</sup>. أما النقص فكان نتيجة الخلل في النقل والتوزيع، وهذا الخلل عائد في جانب منه إلى الاختناقات والانهيارات، ولكنه عائد أيضاً إلى مناورات متعمدة: المضاربات، والاستغلال لجني الأرباح، وتخزين السلع.

لقد أهملت حكومة القيصر واجبها بإغفالها الحاجة إلى الضرب على أيدي المستغلين الذين زادوا حدة عواقب قطع تركيا طريق روسيا التجارية إلى الغرب. ولم تفلح الإضرابات التي انتشرت في المصانع وبوادر الفوضى المالية في جعل الحكومة تتخذ إجراء لمعالجة الوضع. ومع حلول عام 1917 كانت الفائدة الجارية والمبالغ المستحقة التسديد من الدين العام أكبر من مجموع إيرادات الدولة في عام 1916، وهذه الحالة من الإعسار المالي في البلد عالجتها الحكومة بطبع عملة ورقية، فارتفعت الأسعار خلال سنوات الحرب بنسبة ألف بالمئة<sup>[430]</sup>.

كان وضع نهاية للحرب هو أحد السبل الواضحة للخروج من الأزمة. وكانت الإمبراطورية العثمانية وألمانيا قد عرضتا على روسيا في عام 1915 حق المرور في الدردنيل إذا تخلت عن الحلفاء. واستمرت ألمانيا طوال عام 1916 في تقصي إمكانية عقد صلح منفصل مع روسيا. وقال بعض الناس أن العقبة كانت عدم استعداد قيصر روسيا للتخلي عن بولندا<sup>[431]</sup>. بيد أن الوزير الروسي المفوض لدى السويد أوضح للألمان أن روسيا «في رأيه الشخصي» ستضطر إلى متابعة الحرب إلى جانب الحلفاء حتى تتسلم «مفتاح البحر الأسود»: بعبارة أخرى القسطنطينية والدردنيل<sup>[432]</sup>. أما في ساحة القتال فكان جنود القيصر الجائعون المنهكون يكافحون من أجل البقاء على قيد الحياة، ولكن رد القيصر على المبادرات الألمانية أظهر أن القيصر نقولا الثاني ظل يعطي الأفضلية لطموحاته الإمبراطورية - وفي المقام الأول، ربما، الاستيلاء على الدردنيل.

## (2)

إن تاريخ الثورات الروسية في عام 1917، الذي لا يزال يُكتب والذي يبقى إلى زمن غير محدود ذا صلة بالوضع العالمي، لا يقع في نطاق الدراسة الحالية. ولكن أحد جوانب هذا التاريخ هو موضع اهتمام هنا وسنتابعه في الصفحات التالية: مؤامرة تحسين ظروف لينين الذي كان مجهولاً آنذاك، وقد حيكّت خيوطها في الإمبراطورية العثمانية.

خلال النهج الكارثي لاشتراك روسيا في الحرب الأوروبية، أظهر المشرفون على الحكومة والمال والصناعة في روسيا أن مصالحهم متباعدة عن مصالح السكان عامة. وفي أقصى يسار الحركة الثورية السرية المحظورة، كان شخص مغمور ومعزول قد قال مثل هذا الكلام - ولكن لأسباب نظرية من عنده - منذ لحظة بداية الحرب. وقد عاش هذا الشخص ودرس وكتب خلال الحرب في منفاه في زوريخ، سويسرا، وكان لا يملك شروى نقير، كان في منتصف الأربعينات من عمره ولم يكن معروفاً سوى لدى الشرطة والأوساط الثورية.

هذا الشخص هو فلاديمير إيليتش أوليانوف، وقد انتحل في عام 1901 اسماً مستعاراً هوليين. وكان محامياً سابقاً نذر حياته للنظرية الماركسية والنزاعات الفتوية. وكان ممتلئاً الجسم، قوي العضلات، له انحناءة كتفي مقاتل، وكان ذكياً حاد الطبع متوفراً يسير غير هباب وراء طاغوت منطقته غير عابئ بالنتائج. لقد صدم عند نشوب الحرب إذ رأى زملاءه الاشتراكيين يتجمعون لتأييد بلدانهم، إن نظرية لينين أدت به إلى أن يكون وحيداً في معارضة الحرب وبالتالي معارضة بلاده، وإلى عزله عن الآخرين. بل إن فئته السياسية، جماعة البلشفيك، لم تفهم آراءه في الحرب فهماً تاماً.

في بداية شهر أيلول (سبتمبر) 1914 كتب مسودّات أطروحاته السبع عن الحرب، وكتب فيها أنه «من وجهة نظر الطبقة العاملة والجماهير الكادحة من جميع شعوب روسيا، أهون الشرين هو أن تلحق الهزيمة بالنظام الملكي القيصري وجيشه، الذي يقهر شعب بولندا وشعب أوكرانيا وعدداً من الشعوب الأخرى في روسيا». وندد في أطروحاته بالحكم الإمبراطوري الذي يمارسه الروس على الشعوب الأخرى التي يحكمها القيصر [433]. كان روسيا، ولكنه كان يرى من واجبه أن يهدف إلى هزيمة روسيا وتفتيت الإمبراطورية الروسية.

كان يعيش في القسطنطينية في ذلك الحين زميل سابق للينين، زميل له في قيادة الأممية الاشتراكية الثانية، وكان هذا الزميل قد توصل هو أيضاً إلى استنتاجات مماثلة. إن ألكسندر إسراييل هيلفاند، الذي انتحل اسماً

مستعاراً هو «بارفوس» كان يهودياً روسياً هدفه السياسي الذي يسعى إليه هو تدمير إمبراطورية القيصر<sup>[434]</sup>. وبينما كان لينين يتخذ فقط موقف اللامبالاة من احتمال انتصار ألمانيا، كان هيلفاند شديد الحماسة لانتصارها. وقد صادف أن كان هيلفاند يملك المال وله اتصالات سياسية مكنته من متابعة ميوله نحو ألمانيا.

كان بارفوس من جيل لينين (ولد هيلفاند عام 1869 ولينين عام 1870) وكان أحد الشخصيات الفكرية القيادية في الجناح اليساري للحركة الاشتراكية الثورية. وقد غادر روسيا إلى ألمانيا في مطلع التسعينات من القرن التاسع عشر، وصار له اسم بصفته منظماً وصحفيًا مناضلاً إلى جانب روزا لوكسمبورغ، اليهودية الألمانية البولندية المولدة، من أجل موقف ثوري محض. وفي السنوات الأولى من القرن العشرين أصبح هو موجه ليون تروتسكي، ثم إنه في عام 1905 أوجد ما أصبح يسمى نظرية تروتسكي عن «الثورة الدائمة». ولدى عودته إلى روسيا أبعد إلى سيبيريا ولكنه ما لبث أن هرب إلى أوروبا الغربية.

غير أن شخصية هيلفاند / بارفوس كان لها جانب آخر أخذ يظهر تدريجاً: كان داعية يعمل في الظل وكان رفاقه المثاليون يرتابون في أنه يجني ثروة لنفسه. فقد سبق له أن أنشأ دور نشر القصد منها خدمة القضية الثورية، ولكن ظهر أنها تخدم مصالحه الشخصية بصورة أفضل.

وكان لدى لينين وجماعته من البلشفيك من الأسباب ما يحملهم على الاعتقاد بأن بارفوس ابتز في عام 1904 مبلغ 130,000 مارك<sup>[435]</sup> (نحو 30,000 دولار) من عائدات أعمال أدبية كان الأديب مكسيم غوركي قد تبرع بها للحزب الديمقراطي الاشتراكي. وقد جابهوه بالأمر فكانت تفسيراته غير مقنعة.

ثم إنه تخلص عن نشاطاته الثورية وعن أعمال دور النشر واتجه بكليته إلى أعمال تجارية متنوعة وانتقل عبر فيينا إلى دول البلقان والإمبراطورية العثمانية حيث أبدى اهتماماً بحركة تركيا الفتاة وأخذ يتاجر بالحبوب وسلع أخرى. ومع حلول عام 1912 كان قد أنشأ صلة وثيقة مع مسؤولي حكومة حزب تركيا الفتاة، وحصل بمساعدتهم على عقود لتأمين الإمدادات للجيش العثماني في حروب البلقان.

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى في أوروبا، نشر هيلفاند مقالة في الصحف التركية قال فيها، ناصحاً الحكومة العثمانية، أن مصلحتها تتحقق بانتصار ألمانيا، وعمل أيضاً على إثارة الشعور الموالي لألمانيا في بلدان البلقان. وعندما دخلت الإمبراطورية العثمانية الحرب ساعد الباب العالي

في الحصول على تموينات حيوية من القمح والآلات اللازمة للسكك الحديدية، وكان ذلك بطبيعة الحال على أساس ضمان أرباح لنفسه. كما أنه قدم النصح إلى الحكومة العثمانية بشأن مختلف أوجه تعبئة اقتصادها للمجهود الحربي. كان هدفه تدمير حكومة روسيا، وصار منزله في القسطنطينية ملتقى المتآمرين على القيصر.

وقد تمكن عبر معارفه من ترتيب لقاء بينه وبين السفير الألماني في الإمبراطورية العثمانية فاجتمع بالسفير فون فانغنهايم بتاريخ 7 كانون الثاني (يناير) 1915 وقال له: «إن مصالح الحكومة الألمانية متطابقة مع مصالح الثوريين الروس»<sup>[436]</sup>. وبعد يومين أبرق السفير الألماني بتقرير عن الاجتماع إلى وزارة الخارجية الألمانية وذكر في تقريره أن هيلفاند أبلغه «إن الديمقراطيين الروس لا يستطيعون تحقيق هدفهم إلا عن طريق تدمير النظام القيصري الروسي تدميرًا تامًا وتقسيم روسيا إلى دول أصغر»<sup>[437]</sup>. واقترح هيلفاند أن تساعد ألمانيا في توحيد الثوريين بتنفيذ برنامج هدفه تقويض الإمبراطورية الروسية.

أبدت الحكومة الألمانية على مستوى رفيع اهتمامًا باقتراحه. وفي نهاية شباط (فبراير) 1915 توجه هيلفاند إلى برلين لمقابلة مسؤولين في وزارة الخارجية، فطلبوا إليه أن يضع اقتراحه خطياً. وجواباً عن ذلك قدم إليهم في التاسع من آذار (مارس) مذكرة تتضمن خطة واسعة لتقويض روسيا القيصرية عن طريق تشجيع الثوريين الاشتراكيين والقوميين. وقد تحدث إلى الألمان عن لينين وعن جماعته من البلشفيك وقال لهم أن لينين وبعض أتباعه موجودون في سويسرا وخصهم بالذكر باعتبارهم جديرين بالدعم الألماني. بحث هيلفاند عن لينين فوجده وعرفه إلى الألمان.

لقد وافق القادة الألمان على تبني اقتراحات هيلفاند وسلموه في نهاية آذار (مارس) دفعة أولى قيمتها مليون مارك (أي ما يعادل في ذلك الحين نحو 240,000 دولار أميركي) لبدء العمل في محاولة توحيد مختلف الجماعات الثورية.

قوبلت مفاتحاته الأولى مع رفاقه السابقين بالصدود. بل إن روزا لوكسمبورغ عندما التقت في برلين لم تعطه فرصة للكلام وطلبت إليه الانصراف. وقد اعترف ليف دافيدوفيتش برونشتاين الذي سمى نفسه تروتسكي، بأن بارفوس كان في وقت من الأوقات شخصية هامة، وصديقاً ومعلماً، ولكنه تبدل في عام 1914 وأصبح الآن «في حكم الميت سياسياً»<sup>[438]</sup>. وقد وصف أحد زملاء بارفوس السابقين من الثوريين

الاشتراكيين موقف هؤلاء من بارفوس فقال أنهم يعتبرونه «مخبراً روسياً، ووعداً، وخائناً للثقة... وهو الآن عميل تركي ومضارب في التجارة» [439].

في ربيع ذلك العام قام بأهم محاولاته فذهب إلى زوريخ وأقام في فندق بور او لاك الفخم، وأخذ يعيش عيشة الفخفة فيشرب كل صباح عند تناوله طعام الإفطار زجاجة من الشمبانيا، ويدخن عدداً من السيجار ذي الحجم الكبير ويحيط نفسه بنساء عليهن مسحة الثروة [440]. كما أنه بدأ بتوزيع المال على الفقراء من المنفيين وأقنعهم بأنه أصبح أمر الصرف في الثورة.

وفي نهاية أيار (مايو) سعى لمقابلة لينين في المطعم الذي كان يرتاده عادة واتجه نحو الطاولة التي كان يجلس إليها لينين وجماعته لتناول الغداء فتحدث إليهم وصحبهم عندما عادوا إلى الشقة التي يقطنها لينين. وهناك شرح هيلفاند مهمته. وبعد أن أصغى لينين إليه اتهمه بأنه تحول إلى «شوفيني» الماني وأمره بأن ينصرف وألا يعود إطلاقاً [441].

مع ذلك انصرف أحد أصدقاء لينين مع هيلفاند للشروع في وضع الخطة التخريبية موضع التنفيذ. واتفقا على أن تكون استوكهلم قاعدة لعملياتهم. وقد استطاع لينين عن طريق صديقه أن يطلع على التطورات عند حدوثها. علاوة على ذلك قبل لينين والحزب البلشفيكي مالا قدمه هيلفاند عن طريق بولندي وروسي عضوين في الحزب الديمقراطي الاجتماعي. لقد أنكر لينين في ما بعد حدوث ذلك، ولكن مراسلاته تبين أن إنكاره لم يكن صحيحاً [442].

كان العمل التجاري الذي تظاهر هيلفاند بأنه يمارسه هو إدارة شركة تجارية. وفي الواقع عادت عليه نشاطات الشركة بشروة هائلة. فقد كان سراً ينظم العملية التخريبية ويصدر جريدة ثورية تمولها الحكومة الألمانية. ولم تحقق الجريدة نجاحاً كبيراً. وحاول أن ينظم إضراباً عاماً في روسيا حتى من دون مساعدة لينين والآخرين، فحقق في ذلك نجاحاً أكبر. صحيح أن الإضراب العام لم يحدث، غير أن هيلفاند أنزل نحو 45,000 شخص إلى شوارع بيتروغراد (وقد أصبحت العاصمة الروسية سانت بيترسبورغ تسمى بهذا الاسم منذ عام 1914) لكي يعلنوا احتجاجهم على الحكومة.

غير أن هيلفاند ركّز انتباه الحكومة الألمانية على أهمية لينين الخاصة باعتباره قوة مدمرة، فاتخذ الألمان عن طريق عملاء آخرين ترتيباً لرعاية المنظر البلشفيكي وإقراضه مبالغ إضافية من المال كلما احتاج دون أن تكون هناك ضرورة لأن يفصح عن مصدر المال.

وهكذا أدخل هيلفاند، صديق جماعة تركيا الفتاة الحميم الذي كان يتخذ من القسطنطينية قاعدة لنشاطه، سلاحاً جديداً وغريباً تستطيع به ألمانيا، حليفة تركيا، أن تحاول تحطيم العدو المشترك روسيا.



### (3)

كانت مدينة بيتروغراد تبعد مسافة طويلة عن اهراءات القمح في الجنوب، وسكانها يعانون من نقص المواد الغذائية وتضاعد أسعار هذه المواد طوال عامي 1916 و1917، وفي ذلك الزمن أصبحت الإضرابات والاحتجاجات إحدى طرق الحياة: وقد كان عدد الإضرابات التي حدثت بين منتصف عام 1915 وشباط (فبراير) 1917، ومن ضمنها تلك التي حرض عليها هيلفاند، 1163 إضراباً<sup>[443]</sup>. وأكثر من نصف هذه الإضرابات كان الدافع إليها سياسياً أكثر مما كان اقتصادياً، مما يبين أن الثورة على النظام كانت قد بدأت تتجاوز مسألة نقص المواد الغذائية.

قامت مظاهرات يوم 8 آذار (مارس) 1917 احتفاءً بيوم المرأة الدولي. وانضمت إلى المظاهرة ربات المنازل احتجاجاً على نقص المواد الغذائية، كما انضم إليها عدد كبير من نحو 90,000 عامل كانوا مضربين عن العمل في نحو خمسين مصنعاً. وفي اليوم التالي بلغ عدد المضربين نحو 200,000، وفي اليوم الذي تلاه صار الإضراب عاماً. وبعد ذلك بيومين انضم جنود أربع كتائب إلى الشعب مما عزز موقف المتظاهرين في مواجهة الشرطة التي كان يزداد عجزها. وكان تمرد الجيش حاسماً لسبب وحيد هو أن الحكومة الفعالة كانت قد تلاشت منذ وقت طويل. وقد أمر حاكم المدينة بالصاق إعلانات فرض الأحكام العرفية على الجدران ولكن لم تكن هناك مادة لاصقة<sup>[444]</sup>.

في 15 آذار (مارس) تنازل القيصر نقولا الثاني عن العرش اعتباراً من اليوم التالي لمصلحة أخيه الدوق الكبير ميخائيل، ولكن هذا امتنع عن الجلوس على العرش، فأصبحت روسيا جمهورية تحكمها حكومة مؤقتة كانت في البداية برئاسة الأمير لغوف ثم برئاسة ألكسندر كيرينسكي.

لقد فوجئ السياسيون من كل اتجاهات الرأي عندما ظهر لهم أن سكان بيتروغراد كانوا في الواقع يدفعون أمامهم باباً مفتوحاً. وقد كتب أحد كبار المؤرخين عن هذه الأحداث فقال: «لم تقم الأحزاب الثورية بأي دور مباشر في صنع الثورة، بل لم تكن تتوقع الثورة»<sup>[445]</sup>. هل كانت أحداث بيتروغراد إذن من ثمار المؤامرة التي ولدت في ذهن بارفوس، شريك جماعة تركيا الفتاة؟

لقد لعب هيلفاند وهيئة الأركان العامة الألمانية، عن طريق عملائهم ومبالغ الذهب التي قدموها دوراً في تحريض الروس على الإضراب والتمرد، ولكن بالتأكيد ليس إلى الحد الذي بدا للمخابرات البريطانية، بل إنه لم يكن

واضحاً أول الأمر هل تساعدكم الإطاحة بالقيصر على تحقيق هدفهم الذي هو هزيمة روسيا. وقد كانت جميع الأحزاب السياسية، ومن ضمنها البلشفيك، تحبذ في ذلك الوقت إنهاء الحرب. أما الآن وقد ذهبت الحكومة التي كانوا يكرهونها، أرادوا كوطنيين روس أن يهزموا أعداءهم الألمان والأتراك.

ولكن لينين، وهذا ما فهمه هيلفاند وحده، كانت له قناعة مختلفة - وكان يشعر بالإحباط. فهو في زوريخ، ومعزول عن المشاركة في الأحداث الكبرى التي تقع في روسيا. وأتباعه في بيتروغراد أخطأوا في فهم ما يريده منهم. وقد توقع هيلفاند رد فعل المنظر البلشفيكي، فشرع، دون طلب من لينين، في اتخاذ ترتيبات بالتعاون مع هيئة الأركان العامة الألمانية، لوضع قطار في تصرف لينين لكي ينقله مع أقرب المقربين إليه سياسياً، غريغوري زينوفيف، إلى بيتروغراد، ولما وجّه هيلفاند الدعوة إلى لينين رفضها لينين بدافع من الحيطة والحذر وحاول أن يتخذ ترتيبات لا دخل لهيلفاند بها. ثم إنه وضع شروطاً: السماح لعدد يتراوح بين عشرين وستين من المنفيين الروس بالصعود إلى القطار من دون أي اعتبار لوجهات نظرهم في الحرب، وأن يكون للقطار حق المرور في أراضي دول أخرى. وقد أبرق الوزير الألماني المفوض في بيرن إلى وزارة الخارجية الألمانية ليلغها أن لينين وزينوفيف «يعتقدان أنهما، بهذه الطريقة، يضمنان عدم تعرضهما للتأثير عليهما في روسيا»<sup>[446]</sup>. وتفهمّت الحكومة الألمانية فوافقت، وفي نيسان (أبريل) 1917 انطلق لينين بقطاره المغلق إلى روسيا.

ومنذ لحظة وصوله إلى محطة فنلندا في بيتروغراد، وبعد عبارات التحية اللاذعة التي وجهها إلى مستقبله والتي كانت جزءاً من طبعه، شرع لينين في تركيز جماعته من البلشفيك - حسبما توقع هيلفاند - في وضع الجماعة الوحيدة المنادية بإنهاء الحرب فوراً. وكان أتباعه يعتقدون أن من واجبهم أن يساندوا بلادهم بعد أن أصبحت فيها حكومة جمهورية من اليسار السياسي. ولكنهم كانوا مخطئين في نظر لينين. فقد كان يرى أن الحرب أظهرت أن الرأسمالية دخلت مرحلة الإمبريالية، وأن الإمبريالية هي المرحلة النهائية، ولذلك كانت هذه المرحلة هي الزمن الصح لكي تقوم الأحزاب الاشتراكية في جميع أنحاء أوروبا بثورات في بلدانها، إذ ليس ذلك وقت شن حرب دولية، وخصوصاً بالتحالف مع حكومات مثل حكومتي بريطانيا وفرنسا اللتين يجب الإطاحة بهما. وفي خريف عام 1917، عندما تولى لينين السلطة في بيتروغراد - بمساعدة مبالغ إضافية من الدعم المالي من ألمانيا - وأعلن نفسه دكتاتوراً على ما تبقى من الدولة الروسية المحطمة، بادر فوراً إلى إخراج بلاده من الحرب. وقد قبل الهزيمة في آذار (مارس) 1918 بموافقة على معاهدة صلح استجابت لشروط ألمانيا. وبدا أن هيلفاند قدم لأصدقائه

في القسطنطينية وبرلين خدمة جيدة، إذ أن دعم لينين، حسبما هو متوقع، ساعد على إخراج روسيا من الحرب.

## (4)

ذهل المراقبون البريطانيون وهم يتابعون الثورات الروسية في عام 1917 من جراء الترابط الظاهر بين البلشفيك والألمان واليهود. كان كثيرون من القادة البلشفيك من أصل يهودي. وهكذا كان أيضاً هيلفاند، الذي وفر لهم المال والتأييد الألمانين، والذي كان قد جاء من القسطنطينية وكان ذا صلة وثيقة بحزب تركيا الفتاة. وكانت عقيدة المسؤولين البريطانيين لمدة طويلة أن حزب تركيا الفتاة واقع تحت إشراف الماسونيين اليهود الذين جعلوا الإمبراطورية العثمانية تتحالف مع ألمانيا، وكان الاعتقاد البريطاني الراسخ أن ثمة علاقة وثيقة بين اليهود والألمان. كانت هذه الأمور كلها تبدو متكاملة.

إن جون بوتشان، الروائي ذا الشعبية والمدافع عن الإمبريالية، والذي سبق أن عمل سكرتيراً خاصاً للورد ميلنر في جنوب إفريقيا ثم أصبح، بتوصية من ميلنر، مدير الخدمات الإعلامية في حكومة لويد جورج، قد عبّر عن وجهة النظر هذه في الفصل الأول من روايته الكلاسيكية المثيرة «الخطوات التسع والثلاثون» في عام 1915:

«بعيداً وراء كل الحكومات والجيش هنالك حركة سرية جارية، دبّرها شعب خطر جداً... إن هذا يفسر أشياء كثيرة... أشياء حدثت في البلقان، وكيف صعدت دولة ما فجأة إلى القمة، وكيف قامت تحالفات وانهارت، ولماذا اختفى رجال معينون، ومن أين جاءت مصادر القوة للحرب. إن هدف المؤامرة كلها هو الإيقاع بين روسيا وألمانيا وجعلهما في حالة خصام. اليهودي وراء ذلك، واليهودي يكره روسيا أكثر من كرهه الجحيم... هذا هو الثأر للمذابح. إن اليهودي في كل مكان، وله عين كعين الحية ذات الأجراس... إنه الرجل الذي يحكم العالم الآن، وهو يغمد مديته في جسم إمبراطورية القيصر».

وهكذا لم تعد النظرة إلى البلشفيك أنهم روس ولا حتى أنهم متطرفون عقائديون، بل صارت النظرة إليهم أنهم عملاء سريون للعدو أوجدتهم الألمان الذين كانوا يؤدون عمل اليهود الذين بدورهم نذروا أنفسهم للثأر من روسيا بتدميرها. وظل المسؤولون البريطانيون يعتقدون في عام 1917 وسنين عديدة بعدها، أن البلشفيك لم يكونوا طرفاً رئيساً بذاتهم أو ببرنامجهم أو بأهدافهم بل كانوا أجراء لدى هيئة الأركان العامة الألمانية يتلقون أوامره من اليهود ومن البروسيين في برلين.

كانت إمكانية انهيار روسيا كابوساً أقلق بريطانيا منذ عام 1914، بقدر ما كان حلماً يتمنى أنور باشا تحقيقه - حلماً أوحى إليه أن تدخل الإمبراطورية

العثمانية الحرب إلى جانب دول وسط أوروبا. وقد حوّلت الثورة البلشفية كابوس بريطانيا وحلم أنور باشا إلى واقع. وما زال هناك خلاف بين الدارسين للأحداث في رواياتهم لكيفية حدوث الثورة، ولكن الأمر الذي لا يقبل الشك هو أن خروج روسيا من الحرب 1917 كان ضربة قاسية لبريطانيا وحلفائها ونصراً هائلاً ليس لألمانيا فحسب، بل لتركيا العثمانية أيضاً.

## (5)

كان ونستون تشرشل قد قال خلال مغامرة غاليبولي: «هذه واحدة من أعظم الحملات العسكرية في التاريخ. فكروا بما تمثله القسطنطينية شرقاً. إنها أهم من لندن وباريس وبرلين مجتمعة في مدينة واحدة غرباً. فكروا بسيطرتها على الشرق. وفكروا بما سيعنيه سقوطها» [447].

مع ذلك فإن سقوطها - الذي بدا في نظر تشرشل وشيكاً في آذار (مارس) 1915 - ظل هدفاً مراوفاً. فبعد إخفاق الحلفاء في اكتساح القسطنطينية في عام 1915، جاء دور الروس الذين حققوا نجاحات في أرمينيا التركية عام 1916 وكانوا يتهيؤون للزحف على القسطنطينية في عام 1917، ثم جاءت الثورات في بيتروغراد، وهكذا تخلت الجيوش الروسية المرابطة على الأرض التركية عن فكرة شن هجوم اعتقاداً منها أن الحرب مقبلة على نهايتها.

في ذلك الحين كان الإنهاك قد أصاب الأتراك إلى حد أنهم لم يستغلوا الموقف بشن هجوم على الروس. ولكن خصومهم كانوا منهكين أيضاً؛ منهكين إلى حد التفكير بالتخلي عن الأهداف الطموحة كهدف الاستيلاء على القسطنطينية. وفي عام 1917 داعبت ميلنر، وربما لويد جورج أيضاً، فكرة التوصل إلى تفاهم مع ألمانيا، يتم بموجبه تقاسم الإمبراطورية الروسية بدلاً من الإمبراطورية العثمانية كغنائم النصر [448].

لقد صمدت الإمبراطورية العثمانية في مواجهة كل الظروف المعاكسة، وقد تم إسقاط سائر الحكومات التي أدخلت الدول الكبرى الحليفة الحرب ضد تركيا - حكومة اسكويث في بريطانيا، وحكومة رينه فيفياني في فرنسا، والقيصر ووزيره سازانوف في روسيا. وبشكل ما، كان نجاح تركيا في الدفاع عن الدردنيل وراء إسقاط هذه الحكومات. ومع أنه بدا أول الأمر أن أنور وطلعت أقدما على عمل جنوني طائش بإدخالهما الإمبراطورية العثمانية المتضعضة الحرب، فقد صمدت بلادهم. لقد خسرا بعض الأراضي ولكن بدا أنهما مقبلان على كسب بعض الأراضي، وفي نهاية عام 1917 كانا يتمتعان بالسلطة في الباب العالي أكثر مما تمتعا بها في أي وقت سابق.

ولم يعودا يشعران بحاجة إلى التستر بالمكانة المحترمة للأمير سعيد حليم، فسمحا له في نهاية الأمر بأن يستقيل من رئاسة الوزارة. وبكل جرأة انتحل طلعت بك، الذي عين نفسه زعيماً للحزب، لقب رئيس الوزراء وأخذ زمام الأمور بيديه غير الأرستقراطيتين.

ذلك كانت الطريق أمام طلعت وأنور محفوفة بالمخاطر. زال الخطر الروسي، لكن التهديد البريطاني تجدد. وعدوهما، رئيس وزراء بريطانيا الجديد، كان دائم الحركة وقائداً نابغة للحرب.

ومع أن لويد جورج كان مستعداً لاستكشاف إمكانية صلح يقوم على حل وسط مع حزب تركيا الفتاة، فقد كان مقاتلاً - وهواه في القتال كان موجهاً نحو تدمير الإمبراطورية التركية.

# الجزء السادس العوالم الجديدة والأراضي الموعودة



# الفصل الأول

## العالم الجديد

### (1)

في الفترة 1916 - 1917 ألقت الولايات المتحدة بظلها أول ما ألقته على طموحات لويد جورج الإمبراطورية في الشرق الأوسط.

ومع حلول الربع الأخير من عام 1916 أصبح اعتماد الحلفاء على الولايات المتحدة غير مقتصر على الإمدادات، فحسب، بل على التمويل أيضاً، فقد كان يزداد عجز الحلفاء المالي، وقال الاقتصادي جون مينارد كينز، متحدثاً باسم الخزينة البريطانية في بيان أمام مجلس الوزراء أنه مع نهاية العام «ستكون السلطة التنفيذية الأميركية والشعب الأميركي في وضع لإملاء إرادتهما على هذه البلاد»<sup>[449]</sup>. وقد أكد الرئيس وودرو ويلسون هذا الأمر عندما تدخل لدى ج. ب. مورغان بشأن تمويله بريطانيا في كانون الأول (ديسمبر) 1916 - وأظهر بذلك أنه قادر على تدمير سوق القروض للحلفاء في الولايات المتحدة، وبذلك يسوق بريطانيا وفرنسا إلى العجز عن سداد التزاماتهما المالية<sup>[450]</sup>.

كان الحلفاء غير واثقين بنيات ويلسون، والحقيقة أنه كان معارضاً لطموحات الحلفاء الإمبريالية وكان عازماً على إفشالها، فقد قال «وجهات نظر إنكلترا وفرنسا في السلام ليست مماثلة لوجهة نظرنا، واقترح «إرغامهما على الأخذ بنهج تفكيرنا»<sup>[451]</sup>. وكان لا بد للتضارب بين أهدافه وأهدافهما - في الشرق الأوسط كما في مناطق أخرى - من أن يفرض شكل السياسة في السنين اللاحقة. ولذلك فإن دخول أميركا ويلسون المسرح العالمي، كان يخلق أخطاراً مثلما كان يفتح فرصاً أمام لويد جورج.

لم يكن من السهل على بريطانيا وفرنسا أن تفهما ويلسون وشخصيته الشعبية. فهو حفيد راعي كنيسة وابن قس من الكنيسة المشيخية. وقد درس ويلسون الحقوق ونظام الحكومة وأصبح أستاذاً ثم رئيساً لجامعة برنستون، فحاكماً لولاية نيوجرسي، وانتهى به الأمر رئيساً للولايات المتحدة. ولكنه بخلقه، وتفكيره، وبطبعه لم يكن محامياً، ولا استاذاً، ولا سياسياً بقدر ما كان والده وجده مختصاً بالعلوم الدينية<sup>[452]</sup>. كان هدفه أن يجتذب

الآخرين إلى رأيه أو - إذا أخفق - أن يهزمهم لا أن يشتريهم. إن السياسي يعتز مهنيًا بتحقيق الحلول الوسط، أما ويلسون - الذي كان عازفًا عن الظهور بمظهر السياسي - فكان يفخر بتجنب الحلول الوسط.

كان رجلاً سامي التفكير، والأخلاق والمبادئ، وكثيراً ما كان ينظر إلى المسائل الأخلاقية التي لا ينظر إليها الآخرون عند حدوث خصام. وكثيراً ما ألهم الآخرين مشاطرته وجهة نظره. لقد كان وما يزال شخصية مثيرة للجدل: فهذا الرئيس الأستاذ، الأنيق في لباسه، والذي يضع نظارة على عينيه والمحب للعزلة، والذي يبدو مظهره للمعجبين به مظهر إنسان شديد الزهد والتنسك، ويبدو للآخرين متجهماً مدعياً الاستقامة. كان شخصية معقدة متحلقة.

كان الحلفاء يخطئون أحياناً في تفسير كلام الرئيس ويلسون وأعماله، فيرون فيها كلاماً وأعمالاً للتظاهر من أجل غايات سياسية داخلية، وعجزوا عن تقدير صدق رغبته في إبقاء الولايات المتحدة خارج الحرب - وفي إبقائهم خارج المستعمرات الجديدة التي عزموا على إيجادها لأنفسهم في مناطق الشرق الأوسط. وهكذا فإنهم أخطأوا في فهم محاولة ويلسون التوسط لوضع نهاية للحرب - وهي مهمة أخذها على عاتقه بطلب من المستشار الألماني في نهاية عام 1916.

كان بيثمان هولفيغ، الرجل المدني الذي شغل منصب مستشار ألمانيا، والذي أبدى على مدى شهور رغبة في التوصل إلى تسوية عبر التفاوض، قد وجه مذكرة إلى الولايات المتحدة بتاريخ 12 كانون الأول (ديسمبر) 1916 عبر فيها عن استعداده لإجراء محادثات صلح. ولم يتمكن بيثمان، لأسباب تتعلق بالسياسة الداخلية، أن يجعل المذكرة أكثر تحديداً. ولكن ويلسون مضى قدماً فخرج بنغمة سلام من عنده بتاريخ 18 كانون الأول (ديسمبر)، طالباً إلى الحلفاء أن يحددوا أهدافهم في الحرب على أمل تضيق شقة الخلافات بين الجانبين.

كان لويد جورج قد تولّى لتوه رئاسة الوزارة، واعتقد هو والفرنسيون أن ويلسون كان حقيقة الأمر يطلب إليهم وضع برنامج تدخل الولايات المتحدة الحرب على أساسه - وهذا ما فهموه من وزير خارجية الولايات المتحدة روبرت لانسنغ. ذلك أن لانسنغ، الذي كان من أنصار التدخل في الحرب، كان في الواقع يسيء إلى سياسة رئيسة السلمية عن طريق إيحائه للحلفاء بما يجب أن يكون مضمون ردهم. وقد انصاع له الحلفاء، فحددوا أهدافهم بعبارات كاسحة، من ضمنها - «تحرير الشعوب التي تعيش الآن تحت طغيان الأتراك المدمر، وطرد الإمبراطورية العثمانية من أوروبا بعد أن أثبتت أنها غريبة جذرياً عن الحضارة الغربية»<sup>[453]</sup>. لم يكن هذا اقتراح سلام بل

صرخة حرب، فمن الواضح أن الإمبراطورية العثمانية ما كانت لتفاوض على هذا الأساس من أجل صلح يستند إلى حل وسط. كان ذلك عكس ما كان الرئيس الأميركي يسعى إليه، ومن غير الواضح كيف كان سيسير لو لم تدفعه ألمانيا فجأة إلى أحضان الحلفاء.

## (2)

فقد بيثمان كلياً السيطرة على حكومته في مطلع عام 1917. فقد كان رئيس هيئة الأركان العامة الجديد، بول فون هندنبرغ، وشبهه النابغة العسكري اريش لوديندورف، يعتقدان أن كسب الحرب بسرعة أمر ممكن ولا ضرورة لحل وسط. وكان القادة العسكريون هم الذين يملون سياسة ألمانيا، وأكد هؤلاء القادة لقيصر ألمانيا أن حرب غواصات غير مقيدة بقيود تستطيع أن ترغم البريطانيين على الاستسلام في غضون ستة شهور، وأن التدخل الأميركي في الحرب، إذا حدث، سيأتي بعد فوات الأوان.

إن حملة الغواصات الألمانية، التي زادت تفاقماً برقية تزيمرمان الشهيرة<sup>[454]</sup>، قد دفعت الولايات المتحدة إلى إعلان الحرب، بالرغم من أن عدداً كبيراً من الأميركيين قاوموا منطلق الأحداث وظلوا متمسكين بمعارضتهم للتدخل في الحرب. وقد واجه الرئيس الأميركي الذي انجرف إلى معسكر الحلفاء بالرغم من إرادته، التحدي المتمثل في توحيد البلاد وراءه.

كانت مشكلة الرئيس ويلسون السياسية - والتي كانت على وشك أن تلعب دوراً في تقرير شكل أهدافه في الشرق الأوسط ومناطق أخرى - هي أنه كان زعيم حزب الأقلية. فقد فاز بالرئاسة في عام 1912 لأن حزب الأغلبية، أي الحزب الجمهوري، كان قد انقسم إلى شقين، وصوّت البعض إلى جانب نظامي هوارد تافت، وصوّت آخرون إلى جانب تقديمي تيودور روزفلت. وفي عام 1916 أعيد انتخابه بفضل تأييد التقدميين في الولايات الوسطى وولايات أقصى الغرب التي هي في العادة ولايات جمهورية. ولكي يقنع البلاد بتأييد مرشحيه وبرنامجه في الانتخابات المقبلة، كان بحاجة لأن يحتفظ بالجماعات المقترعة نفسها التي سبق أن حققت له الفوز في عام 1916: أي الكاثوليك الأيرلنديين سكان المدن الكبرى الذين كانوا معادين لبريطانيا، والأميركيين الألمان

سكان الولايات الغربية الوسطى وأكثرهم من الجمهوريين (وعدد كبير منهم ولدوا في ألمانيا) والذين كانوا مؤيدين لألمانيا. فكيف إذن يستطيع إدخال الولايات المتحدة في معسكر الحلفاء من دون تغيير هذه الجماعات؟

غير أن الغواصات الألمانية لم تترك أمامه خياراً آخر: ففي 17 آذار (مارس) أغرقت الغواصات الألمانية ثلاث سفن تجارية أميركية. وقد اجتمع الرئيس في العشرين من آذار (مارس) مع مجلس وزرائه طالباً المشورة. جلس مصغياً إلى وجهات نظر أعضاء مجلس وزرائه وكان قليل الكلام، غير أنه

أبدى ملاحظة بشأن «الحالة المحزنة الجلية للشرق الأوسط» [455] باعتبارها مشكلة تذليلها. ولكنه لم يقل لمجلس الوزراء هل استقر رأيه على ما عمله.

وفي 24 آذار (مارس) كتب جوزيف باتريك تيومو، سكرتير الرئيس الخاص منذ مدة طويلة، إلى رئيسه لإبلاغه أن الرأي العام الأميركي، وفقاً لما تكشف عنه المقالات الرئيسية للصحف في سائر أنحاء البلاد، هو أنه إذا ما دخلت الولايات المتحدة الحرب ضد ألمانيا «فيجب أن يكون دخولها مسألة مباشرة بيننا وبينهم» [456]. وقال إن أميركا يجب ألا تقيد نفسها بأهداف الحلفاء في الحرب، بغض النظر عن قيمة هذه الأهداف، ويجب ألا يطلب من الأميركيين أن يموتوا من أجل قضايا شعوب أخرى.

وعندما توجه ويلسون إلى الكونغرس مساء 2 نيسان (أبريل) ليطلب إعلان الحرب على الإمبراطورية الألمانية، كان جلياً أنه يفكر بهذا المنحى، إذ أنه خصص جزءاً كبيراً من خطابه أمام الكونغرس للحديث عن أهداف الولايات المتحدة الخاصة. وعندما شرح السبب الذي يشعر أنه اضطره للمطالبة بإعلان الحرب، حصر تركيز حديثه عن الخلاف مع ألمانيا في الأسباب التي كان من الصعب تخطيطها: لقد أغرق الألمان ثلاث سفن تجارية أميركية وهم عازمون على إغراق المزيد. لقد ارتكبت أعمال حرب ضد الولايات المتحدة وليس أمامه خيار مشرف سوى أن يرد بالمثل. ولكي يؤكد الرئيس الأميركي أن النزاع كان يتعلق بإغراق السفن الأميركية، أرجأ النظر في موضوع العلاقات مع إمبراطورية آل هابسبورغ، حليفة ألمانيا، فقال: بما أن إمبراطورية النمسا - المجر لم تعلن الحرب على الولايات المتحدة، فإن الولايات المتحدة، في الوقت الراهن على أقل تقدير، لن تعلن الحرب عليها. (الذي حدث هو أن الولايات المتحدة لم تعلن الحرب على إمبراطورية آل هابسبورغ حتى نهاية عام 1917). وزيادة في التأكيد أنه عازم على دخول الحرب لأسباب سياسية من اختياره، لم يأت الرئيس الأميركي على ذكر الإمبراطورية العثمانية إطلاقاً، ولا على ذكر بلغاريا التي كانت قد انضمت حديثاً إلى دول أوروبا الوسطى.

وفي الحقيقة لم تعلن الولايات المتحدة الحرب على هذه الدول ولا دخلت الحرب ضدها، بالرغم من أن الباب العالي - تحت ضغط ألمانيا - قطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة.

ولكنه حاد عن الخصومة المحددة المتعلقة بالسفن التجارية لكي يتجدي الحكومة الألمانية - وحكومات الحلفاء أيضاً - لأسباب أعم. لقد قال أمام الكونغرس إن حكومة القيصر الألماني تشن «حرباً على جميع الأمم»

وبالتالي «فالتحدي هو للبشرية جمعاء»<sup>[457]</sup>. وقال إن الولايات المتحدة سوف تقاتل من أجل السلام الدائم في العالم، ومن أجل تحرير شعوب العالم، ومن ضمنها شعوب ألمانيا»، ثم أكد في عبارة أصبحت مشهورة «إن العالم يجب أن يكون آمناً من أجل الديمقراطية»<sup>[458]</sup>. وإذ ميّز الرئيس ويلسون بصورة ضمنية بين السياسة الأميركية وسياسية الدول الحليفة، أعلن «إننا يجب ألا تكون لنا غايات أنانية. فنحن لا نسعى وراء تعويضات لأنفسنا، ولا وراء تعويض مادي عن التضحيات التي سنقدمها بملء حریتنا»<sup>[459]</sup>.

هذه النقطة طرحت في ما بعد بصورة صحيحة عندما عزفت الولايات المتحدة - التي حافظت على مسافة بينها وبين الأوروبيين وطموحاتهم السياسية المشبوهة - عن أن تصبح إحدى الدول الحليفة، واختارت بأن توصف بأنها شريكة لا حليفة. كان هذا قراراً غير عادي: أن تقاتل الولايات المتحدة إلى جانب بريطانيا وفرنسا وروسيا وترفض أن تكون حليفتها، وأن تقاتل ضد ألمانيا وترفض أن تقاتل حلفاء ألمانيا. كان هذا القرار دليلاً على خلاف رئيس بين الدول الأوروبية المحاربة وأميركا ويلسون بشأن الغاية من الحرب وشكل السلام. إن تدخل الولايات المتحدة في الحرب سوف يلقي بظل طويل على المكاسب التي وعدت الدول الحليفة بأن تكافئ بها بعضها بعضاً في نهاية الحرب، ولا سيما في الشرق الأوسط.

### (3)

كان الرئيس ويلسون قلقاً من جراء الحملات التي شنّها على سياسته الحربية الزعماء التقدميون والاشتراكيون في الولايات الغربية الوسطى، لأن هؤلاء كانوا يمثلون كتلاً انتخابية لا يمكن تجاهلها. وقد نددوا بسياسته ووصفوها بأنها تساعد الإمبريالية، وادّعوا أن خوض الحرب إنما هو خدمة لمصالح مالية كبرى، وصوروا الحرب بأنها صراع جشع على الغنائم.

وقد ركّزوا حملتهم على النقطة التي شعر الرئيس ويلسون أنها مكمّن ضعفه، إذ أنه كان يعتقد صواباً أن الحكومات الحليفة قد دخلت في اتفاقيات سرية في ما بينها لتضخيم إمبراطورياتها، وخشي إذا كشف النقاب عن هذه الاتفاقيات أن تثبت التهمة الموجهة إليه بأنه أدخل الولايات المتحدة في حرب هي أساساً لخدمة مصالح الإمبريالية. فاتفاقية سايكس - بيكو السرية، على سبيل المثال، نصت على اقتسام بريطانيا وفرنسا الشرق الأوسط العربي. ونصت اتفاقيات أخرى على ضم كل من روسيا وإيطاليا أجزاء من تركيا الحالية. لقد استوضح ويلسون عن تفاصيل المعاهدات السرية - مع أن إدوارد ماندل هاوس، موضع ثقته سياسياً، شعر أنه من الأفضل عدم الخوض في هذه الأمور قبل كسب الحرب. ورداً على استيضاح الرئيس الأميركي أرسل وزير الخارجية البريطاني، آرثر بلفور، نسخاً من الاتفاقيات السرية إلى واشنطن في 18 أيار (مايو) 1917. لقد ابتأس إدوارد هاوس (الذي كان يعمل لقبه الفخري في تكساس، لقب كولونيل) عندما اطلع على مضمون الاتفاقيات. وقال هاوس عن خطة اقتسام الشرق الأوسط كلاماً فيه شيء من التنبؤ، إذ قال «هذه خطة كلها سوء، وهذا ما قلته لبلفور. إنهم يجعلون من الشرق الأوسط مكاناً يستولد حرباً في المستقبل» [460].

ولم يوافق الحلفاء على نبذ المطالب التي راهنوا عليها لأنفسهم في الاتفاقيات السرية. ولم يكن باستطاعة الرئيس الأميركي أن يستخدم أسلوب الإكراه لحملهم على نبذها؛ فما كان بوسعهم وهو يحارب إلى جانبهم أن يلحق بهم الأذى دون أن يلحقه بالولايات المتحدة. غير أنه كان يعرف أن أنباء هذه الاتفاقيات إذا تسربت ستلحق الأذى بهم جميعاً. ولأنه معارض، على أساس مبدئي، للمعاهدات السرية، وجد نفسه مدفوعاً إلى اتخاذ موقف فيه تناقض هو موقف محاولة إبقاء اتفاقيات الشرق الأوسط سرية، ولكنه لم يستطع أن يفعل ذلك. فعندما استولى البلشفيك على السلطة في بيتروغراد نشروا نسخ الاتفاقيات السرية التي اكتشفوا وجودها في محفوظات الوثائق الروسية. ولما كان ويلسون يخشى تأثير هذه الاتفاقيات

على الرأي العام الأميركي، فقد حاول - ولكنه فشل - أن يمنع نشر المعاهدات في الولايات المتحدة.

لقد لجأ الرئيس ويلسون إلى اقتراح عرضه مؤيده الصحفي الشاب اللامع وولتر ليبمان، وكان آنذاك رئيس تحرير صحيفة (نيو ريبابليك)، فعمد إلى أسلوب الهجوم عن طريق إعادة تعريف الأهداف التي تخاض الحرب من أجلها، بطريقة رأى أنها ستوفر النقاء لقضية الحلفاء، وبأمل رفع معنويات الجموع التي تقف في جانبه، وتوجيه نداء جديد إلى الشعب الألماني من فوق رؤوس قاداته [461].

حدد ويلسون الأهداف الجديدة للحرب بأساليب عديدة وفي عدد من المناسبات، أهمها كانت النقاط الأربع عشرة التي طرحها في جلسة مشتركة للكونغرس في 8 كانون الثاني (يناير) 1918.

بعض هذه النقاط كان ذا طبيعة عامة: الكف عن توقيع اتفاقيات سرية بين البلدان، الدبلوماسية والتفاوض يجب أن يجري دائماً على مرأى من الناس، حرية البحار، حرية التجارة، ووضع نهاية للتعريفات الجمركية وغيرها من العوائق الاقتصادية، نزع السلاح العام، وإنشاء جمعية أمم لضمان الاستقلال ووحدة الأراضي لجميع الأمم. ولكن نقاطاً أخرى عالجت مسائل محددة، ومن هذه النقاط النقطة الثانية عشرة التي بينت أهداف الولايات المتحدة في ما يخص الإمبراطورية العثمانية، بالرغم من أن الولايات المتحدة لم تكن في حالة حرب معها: «النقطة» (12) - الأجزاء التركية من الإمبراطورية العثمانية الحالية يجب تأمين سيادتها المضمونة، أما القوميات الأخرى التي الآن تحت الحكم التركي فيجب أن نضمن لها أمن الحياة الذي لا شك فيه وفرصة لا تشوبها شائبة إطلاقاً لتطوير حكمها الذاتي». كان ويلسون قد اقترح في مسودة سابقة أن تمحي تركيا من على الخريطة [462]. كان اهتمامه الرئيس في الشرق الأوسط منصباً على الإرساليات التبشيرية، ويبدو أنه، على غرار لويد جورج، ظل يتذكر مجازر المسيحيين التي ارتكبتها الأتراك.

غير أن الصيغة النهائية، التي أعد مسودتها مستشاروه، كانت منسجمة مع ادعاء الرئيس الأميركي أن الولايات المتحدة تحارب حكومات أعدائها لا شعوبهم.

لقد عبّرت النقطة الثانية عشرة عن وجهة النظر التي أخذ بها ويلسون وهاوس، والقائلة إنه يجب عدم تقاسم الشرق الأوسط بين الدول المتحاربة، وأن الشعوب الخاضعة حتى ذلك الحين لحكم الأتراك يجب أن تتمتع بالحكم الذاتي [463]. بيد أن ويلسون وهاوس كانا قبل سنة واحدة



فقط قد اتفقا على أنه ليس من الفطنة أن يتحدث الرئيس الأمريكي علناً عن خطته لتغيير النظام العثماني لئلا يعرض كلامه الكليات التابعة للإرساليات الأميركية في بيروت وخارج القسطنطينية للخطر [464].

بعد شهر، أي في 11 شباط (فبراير) 1918، تحدث ويلسون إلى الكونغرس فحدد بطريقة عامة المبادئ الأربعة التي ينبغي أن تركز إليها تسوية الصلح. وقد كان المبدأ الثاني والمبدأ الثالث كما يلي:

2- لا يجوز مقايضة الشعوب والمناطق لنقلها من سيادة إلى سيادة أخرى وكأنها متاع أو بياق في لعبة توازن قوى، حتى اللعبة الكبرى التي أصبحت الآن منبوذة إلى الأبد، ولكن، تشملها هذه الحرب.

3- كل تسوية إقليمية يجب أن تتم لمصلحة ومنفعة السكان ذوي العلاقة، وألا تكون جزءاً من أي توافق أو حل وسط للمطالب بين الدول المتنافسة...

وقد ألقى ويلسون خطاباً بتاريخ 4 تموز (يوليو) 1918 حدد فيه الأهداف الأربعة التي تحارب الولايات المتحدة وشركاؤها من أجل تحقيقها والتي من ضمنها:

«تسوية كل مسألة، سواء أكانت مسألة أرض أم سيادة، أم ترتيب اقتصادي، أم علاقة سياسية، على أساس القبول الحر لتلك التسوية من قبل الشعب المعني مباشرة، وليس على أساس المصلحة المادية أو الفائدة المادية لأية دولة أخرى أو شعب آخر قد يكون راغباً في تسوية مختلفة من أجل نفوذه الخارجي أو سيطرته الخارجية».

استقبلت مقترحات السلام التي طرحها ويلسون بحماسة شديدة، ولكن، مما له دلالة، ليس من قبل الحكومات الحليفة. وقد كتب مؤلف سيرة حياة وولتر ليبمان في هذا الشأن:

«في أول الأمر كان هذا محيراً للليمان، إذ أنه افترض أن ويلسون نسّق خطته الحلفاء قبل أن يعلنها. ولكن ويلسون لم يكن قد فعل ذلك، وليس بوجيه: فقد كان يعرف أنهم سيرفضونها، فلما أخفق في جهوده لإقناع الحلفاء بنذ المعاهدات السرية حاول إقناع شعوب أوروبا بالضغط على حكوماتها. ولكن هذا التكتيك فشل، ونتيجة لذلك صارت النقاط الأربع عشرة مجرد إعلان أميركي وحيد الجانب وليس بياناً بسياسة الحلفاء» [465].

والحقيقة أن هذه النقاط كانت تمثل تحدياً للحكومات الحليفة والحكومات الأعداء.



## (4)

النقطة الثانية عشرة لم تكن وحيدة الجانب فحسب، بل كانت تنطوي على مفارقة: فالرئيس الأميركي كان يدعو إلى تفتيت الإمبراطورية العثمانية، التي لم تكن الولايات المتحدة في حالة حرب معها. وثمة مفارقة أخرى بدت في إعلان الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا ثم على النمسا - هنغاريا من دون أن تعلن الحرب على حلفائهما أيضاً.

وقد بدت لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأميركي محبذة لإصدار إعلانات الحرب الأخرى. فرئيس اللجنة طلب إلى وزير الخارجية لانسينغ تفسيراً أوفى للأسباب التي منعت الإدارة الأميركية من أن تفعل ذلك. وقد ذكر وزير الخارجية عدداً من الأسباب في مذكرة جوابية مستفيضة [466]. آنذاك لم تكن للولايات المتحدة تجارة هامة أو مصالح اقتصادية أو تجارية تخشى عليها في الشرق الأوسط ما عدا كليتين مدعومتين من إرساليات بروتستانتية - كلية روبرت والكلية البروتستانتية السورية - اللتين كان معنياً بهما عناية شديدة صديق ويلسون وسنده المالي الأكبر، كليفلاند دودج. ولكن لانسينغ قال أن الحفاظ على هاتين المؤسستين هو في حد ذاته على جانب من الأهمية يسوّغ سياسة الإدارة الأميركية. وأشار إلى أن قيمة هاتين المؤسستين تقدر بملايين الدولارات، وفي حالة الحرب قد تتعرضان للمصادرة. كما قال محذراً أن المسيحيين واليهود في الإمبراطورية العثمانية قد يصبحون في حالة الحرب ضحايا مجازر جديدة. وقال لانسينغ أنه لا فائدة تُجنى من إعلان الحرب، وأشار إلى أن تركيا لم تهاجم الولايات المتحدة.

بالرغم من الأسباب العديدة التي أوردها لانسينغ في تفسيره قرار الإدارة، بقي الكونغرس غير مقتنع بها، وطرح على مجلس الشيوخ في عام 1918 مشروع قرار يدعو إلى إعلانات حرب إضافية. وقد قال لانسينغ في شهادته أمام لجنة العلاقات الخارجية لمجلس الشيوخ، أن القرار يعود أساساً إلى الكونغرس. وبناء على طلب اللجنة وافق على أن يستكشف رأي الحلفاء ليعرف منهم هل يعتقدون أن إعلانات الحرب الإضافية ستساعد أم تعرقل المجهود الحربي.

وفي شهر أيار (مايو)، أبلغ لانسينغ الرئيس الأميركي أن الحلفاء يرون أن إصدار الولايات المتحدة إعلانات الحرب الإضافية سوف يساعدهم. بيد أن لانسينغ نبّه الرئيس إلى أكثر من مليون دولار شهرياً ترسل إلى الإرساليات الأميركية في الإمبراطورية العثمانية لتوفير الطعام والعناية للسوريين والأرمن، وستنقطع عنهم هذه المساعدة في حالة إعلان الحرب [467].

عندئذٍ تبيّن الرئيس قراره بعدم إعلان الحرب. وقد أبلغت لجنة العلاقات الخارجية لمجلس الشيوخ بذلك فقبلت القرار على مضض. وهكذا ظلت الولايات المتحدة في حالة سلام مع الإمبراطورية العثمانية بينما واصل الرئيس الأميركي صياغة خطته لتجزئتها.

## (5)

بدأ الكولونيل هاوس في أوائل أيلول (سبتمبر) 1917، بناءً على طلب الرئيس، وبمعزل عن وزارة الخارجية، في تجميع فئة من المساعدين لمساعدته في صياغة خطط أميركا لعالم ما بعد الحرب.

كان الرأي أن تكون مجموعة مستقلة بعيدة عن الأعضاء، وأن يطلق عليها الاسم الرمزي «التحقيق». وقد عقدت اجتماعاتها الأولى في المكتبة العمومية في نيويورك. وبناءً على اقتراح ويلسون، جاء هاوس بالمشاركين في هذه المجموعة من الأوساط الجامعية بصورة رئيسة بدءاً بأسماء رشحها رئيس جامعة هارفارد ورئيس تحرير «نيو ريپابلِك». ووقع اختيار الرئيس ويلسون شخصياً على وولتر ليبمان. وبلغ عدد أعضاء المجموعة التي جمعها هاوس، في ذروته، مئة وستة وعشرين عضواً. والغالبية العظمى منهم كانوا من خريجي واحدة أو أخرى من الجامعات الأربع التي هي صفوة الجامعات الأميركية - شيكاغو، وكولومبيا، وهارفارد، وبيبل - وكثيرون منهم جيء بهم من كليات هذه الجامعات أو من معاهد مماثلة [468].

ومع ذلك فإن «التحقيق» - بمعزل عن خرائطها التي أعدتها بإتقان المحترفين [469] - كانت تدير أعمالها بأسلوب الهواة. فمجموعة الشرق الأوسط، المؤلفة من عشرة أساتذة من جامعة برنستون، لم تتضمن أي اختصاصي بالشرق الأوسط المعاصر. وكان رئيسها باحثاً مختصاً بالحروب الصليبية، أما ابنه، وهو أيضاً عضو في المجموعة، فكان مختصاً بدراسات أميركا اللاتينية. وبين أعضائها الآخرين خبير في شؤون الهنود الأميركيين، ومهندس، وأستاذان مختصان باللغات والآداب الفارسية القديمة [470].

أما اختيار المكتبة العمومية في نيويورك أول مقر لها، فكان يرمز إلى طريقة العمل التي تبنتها مجموعة «التحقيق». فبعد أن أثارت كل المسائل السياسية التي تقسم الجنس البشري، شرعت «التحقيق» في بحث هذه المسائل. وكثيرون من الباحثين لم يفعلوا أكثر من تلخيص المعلومات التي عثروا عليها في إحدى الموسوعات. وكثيرون منهم اتهموا في نبش مسائل في الأدب والهندسة المعمارية مما لا يخطر في البال أن تكون له أية علاقة بشروط معاهدة الصلح المقبلة. وقلة من التقارير كانت لها أية علاقة بمسألة المصالح الوطنية الأميركية [471].

وكما هو معهود في هذه المجموعة، لم ترد أية إشارة حتى في تقرير القسم الاقتصادي لمجموعة الشرق الأوسط، إلى إمكانية العثور على كميات كبيرة من النفط في ذلك الجزء من العالم. مع ذلك، ففي عام 1918، إذ احتدمت

حرب من حروب القرن العشرين ظهرت فيها الطائرات والدبابات لأول مرة، اكتشفت الولايات المتحدة (مثلما اكتشفت فرنسا في العام عينه، ومثلما اكتشف ونستون تشرشل في بريطانيا قبل نشوب الحرب) أن الكميات الهائلة من النفط التي تتطلبها الحرب الحديثة قد جعلت موارد النفط المحتملة المشتبه بوجودها في الشرق الأوسط، ذات أهمية بالغة. وإغفال تقارير «التحقيق» المتعلقة بالشرق الأوسط موضوع النفط كان دليلاً على جهل رجال الرئيس بالأمور الدنيوية، وانذاراً بالسوء لمؤتمر الصلح المقبل [472].

## (6)

ومع أن برنامج السلام الذي وضعه الرئيس ويلسون كان في بعض جوانبه خياليًا في مثاليته، فإن الاستجابة غير العادية التي لقيها في سائر أنحاء العالم دلت على أنه يعبر عن توق واسع النطاق إلى فهم سبب خوض الحرب. لقد قال بلفور، وزير الخارجية البريطاني إن الحرب «ربما كانت الحدث الأكبر في التاريخ» ولكن ذهنه لا يمضي إلى أبعد من ذلك: «إن الأجيال المقبلة قد ترى أن بالإمكان رؤية الشيء كما هو موجود فعلاً»، أما هو والجيل الذي ينتمي إليه فلا يقدر على ذلك<sup>[473]</sup>. كانت الحرب، مع حلول عام 1917، قد أصبحت أكبر كثيرًا من الأحداث المسببة لها، إلى حد أن مسبباتها بدت، إلى حد يقرب من العشية، عديمة الأهمية بالمقارنة مع الحرب نفسها.

في اليوم التالي لإلقاء وودرو ويلسون خطابه أمام الكونغرس الذي طلب فيه إعلان الحرب، كتب إليه وولتر ليبمان رسالة (بصيغة ظهرت في جريدة «نيو ريپابليك في وقت لاحق من الأسبوع) قال له فيها: «لا أحد سوى رجل الدولة الذي سيدعى عظيمًا كان باستطاعته أن يجعل التدخل الأميركي يعني الكثير جدًّا بالنسبة للقوى الكريمة في العالم، وأن يرفع الرعب المحتم الناجم عن الحرب إلى مرتبة عمل مفعم بالمعنى إلى هذا الحد»<sup>[474]</sup>. لقد وجد ليبمان، كما كان شأنه دائمًا، الكلمة المعبرة: إن الرئيس، بتبنيه الأهداف التي تبناها، قد أعطي الحرب معنىً.

بعد سنوات، وفي حديث غير رسمي على متن الباخرة في الطريق إلى مؤتمرات الصلح في عام 1919، قال ويلسون لمرافقيه «لديّ القناعة بأن هذا السلام إذا لم يركز إلى أسمى مبادئ العدالة، ستكونه شعوب العالم في أقل من جيل واحد، فإذا كان سلامًا من نوع آخر فأني سأهرب واختبئ... لأن ما سيعقبه لن يكون مجرد نزاع بل كارثة»<sup>[475]</sup>.

مع ذلك ما صاغ ويلسون ولا أولئك الذين اشتركوا في مجموعة «التحقيق» التي أوجدها، برنامجًا محددًا من شأنه أن يترجم الوعود إلى واقع: فقد كان برنامج الرئيس غامضًا مبهمًا وكان لا بد من أن يثير آلاف التوقعات - الأمر الذي أكد من الناحية العملية أن أية اتفاقية ينجزها السياسيون ستكون مخيبة للآمال.

# الفصل الثاني

## صهيونية لويد جورج

### (1)

بين البشر لا يمكن أن نجد رجلين أقل تشابهًا مما كان الحال بين الرئيس الأميركي المتقشف ورئيس الوزراء البريطاني الساحر والمنحل أخلاقيًا. بيد أنهما كرجلين سياسيين، كانا متشابهين: فكلاهما كان محبًا للعزلة ووصل إلى السلطة عبر ضربة حظ ناشئة عن انشقاق حزبي، وكلاهما طبق سياسة خارجية ذات طابع شخصي متجاوزًا وزارة الخارجية في بلده. وكان كل من ويلسون ولويد جورج كارهاً أن تتجر بلاده إلى الحرب، ثم بعد أن اختار كل منهما الحرب رأى من العسير أن يحافظ على دعم مؤيديه من دعاة السلم المعادين للحرب، وكلاهما كان من اليسار السياسي، ولكن أوجه الشبه بينهما تقف عند هذا الحد، إذ بينما كان ويلسون يسير في اتجاه متزايد التقدمية والمثالية، كان لويد جورج يفعل العكس تمامًا.

لو كان ماضي لويد جورج السياسي هو الدليل إلى أدائه في المستقبل، لكان ممكنًا أن نتوقع منه أن يشاطر الولايات المتحدة بغضها للأهداف الإمبريالية في الشرق الأوسط. فعندما كان راديكاليًا في شبابه كان معارضًا للإمبريالية البريطانية، ولكن مما يتفق مع سجيته أن ينقض، بعدما أصبح رئيسًا للوزراء، اتفاق وزارة اسكويث مع الحلفاء على توسيع إمبراطوريات الدول الحليفة - ولكنه لم يفعل ذلك.

لقد شعر لويد جورج بالحاجة عينها التي شعر بها ويلسون لإعادة صياغة أهداف الحرب، ولكنه توصل إلى استنتاجات مختلفة، ذلك أن ويلسون أعلن أن جسامه الحرب تستدعي سلامًا بغير ضم للأراضي. أما لويد جورج فقد تبني وجهة النظر الأخرى: أن جسامه الحرب تتطلب تعويضات وضمًا للأراضي على نطاق ضخم.

وعد ويلسون ولويد جورج كلاهما شعوب الإمبراطورية العثمانية بحياة أفضل، ولكن في حين أعطى ويلسون الأمل في الحكم الذاتي ارتأى لويد جورج، وهو يستخدم الكلام البلاغي عن التحرر القومي، إعطاء الشرق الأوسط حكومة أفضل مما يستطيع الشرق الأوسط أن يعطي نفسه. في هذا المجال توافقت أهداف رئيس الوزراء البريطاني مع أهداف معاوني



كيتشنر الذين كانوا يمارسون الإشراف اليومي على سياسة القاهرة البريطانية في الشرق الأوسط. وبذلك تحسنت فرص تنفيذ سياسته فعليًا.

عندما تولى رئيس الوزراء البريطاني الجديد منصبه في نهاية عام 1916 وبداية عام 1917 حمل معه الحماسة الراديكالية القديمة العهد، لأهداف انبثقت من الحرب، مثل تدمير الإمبراطورية العثمانية الرجعية - هذه الأهداف التي هي صدى أيام عز ليبرالية القرن التاسع عشر. كان أحد الإجراءات الأولى التي اتخذها لويد جورج عندما أصبح رئيسًا للوزراء أن يأمر جيوشه في مصر بالانتقال إلى مرحلة الهجوم. وكان أحد إجراءاته الأخرى أنه أمر جون بوتشان، وكان قد عيّنه بناء على اقتراح ميلنر مديرًا للإعلام، بأن يشرع في حملة دعائية تصور تدمير الإمبراطورية العثمانية هدفًا رئيسًا من أهداف الحرب. وقد استحوذت هذه الحملة على خيال الناس. وبرهن شعار «الأتراك يجب أن يذهبوا!» على أنه شعار فعال [476]. إن هذه الحملة الدعائية، شأنها شأن نقاط ويلسون ومبادئه، أثبتت، على الأقل في المدى القصير، أنها سياسة جيدة.

إن برنامج لويد جورج القاضي بإرسال قوات للقتال في الشرق قد وضعه في نزاع مباشر مع جنرالاته، إذ إنهم استمروا في المطالبة بأن يكون لهم الإشراف الأعلى على القرارات العسكرية، وقد أيدهم في ذلك الملك جورج. وكانت استراتيجيتهم، كعهدها دائمًا، تقضي بتركيز كل الموارد على الجبهة الغربية، وقد عبّروا عن تدمرهم لأن رئيس الوزراء الجديد يتحدى رأيهم المهني. وتناول الموضوع أصدقاؤهم الصحفيون في شارع الصحافة - شارع فليت. وفي أوائل شهر كانون الثاني (يناير) هدد قطب الصحافة، اللورد نورثكيلف، في محادثة حامية الوطيس، بأن «يحطم» لويد جورج ما لم يتراجع عن استراتيجيته الشرقية [477]. وعزا نورثكيلف إلى نفسه الفضل في إسقاط اسكويث في كانون الأول (ديسمبر)، وبدا واثقًا من قدرته على إسقاط لويد جورج في كانون الثاني (يناير) إذا شاء أن يسقطه.

في الوقت نفسه تقريبًا طلبت وزارة الحربية إلى شخص مقرب من لويد جورج أن ينذره بأن الجنرالات عازمون على مقاتلته وأنه «قد لا يخرج بخير من هذا القتال» [478]. وفي ألمانيا كانت هيئة الأركان العامة تتجه نحو عزل المستشار المدني. ولذلك فإن رئيس الوزراء البريطاني، بعدما رأى أن الملك وزعماء حزبه الليبرالي والصحافة والجنرالات يقفون جميعًا ضده، لم يعد واثقًا من أن هيئة الأركان العامة لقوات الإمبراطورية البريطانية لن تقدم على محاولة ممانعة. كان زمنيًا من أزمنة السياسة العالمية بدا فيه أي شيء ممكنًا حتى ما كان في السابق أمرًا لا يخطر في الخيال.

مع ذلك بقي متمسكًا قدر ما استطاع باستراتيجيته الشرقية، مزدريًا مستشاريه العسكريين. فقد كتب بعد ذلك بزمّن طويل «أن لا شيء ولا أحد كان يستطيع إنقاذ الأتراك من الانهيار التام في عام 1915 وعام 1916 سوى هيئة أركاننا العامة»<sup>[479]</sup>. وكان لويد جورج يرى أن تحقيق نصر على الإمبراطورية العثمانية قبل نهاية عام 1916، وبعد دخول بلغاريا الحرب، من شأنه «أن يحدث أثرًا حاسمًا على مصير الحرب»<sup>[480]</sup>. وقد قال إنه كان أمرًا سهلًا أن تهزم تركيا في أي وقت وإن «مظهر العزيمة الذي بدا به الأتراك أمام الحلفاء كان مظهرًا لا يخفي وراءه أي شيء، لأنه كان جزءًا من لعبة وزارة الحربية البريطانية للتظاهر بأن لدى الأتراك قوات رهيبة واحتياطيًا وافرًا. ولعل وزارة الحربية قد صدّقت ذلك، فإذا كانت قد صدّقت، إما أن تكون معلوماتها ناقصة أو أنها خدعت بسهولة»<sup>[481]</sup>.

كانت حجة لويد جورج التي دافع عنها منذ بداية الحرب، أنه يمكن إلحاق الهزيمة بألمانيا بواسطة هجوم عبر البلقان، وأن إلحاق الهزيمة بتركيا سيفتح البلقان أمام مثل هذا الهجوم. وقد تمكن من دعم موقفه عندما استشهد بعد ذلك بوقت طويل برئيس هيئة الأركان العامة الألمانية، فون هيندنبورغ، إذ نقل عنه قوله: «إذا كانت هناك فرصة لنصر استراتيجي ساطع فهي هنا... فلماذا لم نغتني إنكلترا قط فرصتها؟... إن التاريخ قد يوضح يومًا ما هذه المسألة...»<sup>[482]</sup>.

لقد أراد لويد جورج أن يقدم هذا الإيضاح، ولكن مشكلته كانت افتقاره إلى القوة السياسية التي يحتاجها لمجابهة الجنرالات والتي يحتاجها أيضًا لامتلاك القوات والمعدات بأعداد وكميات كافية للقيام بالمهمة. وقد بقي هو وقادة بريطانيا العسكريون طوال عام 1917 وخلال جزء كبير من عام 1918 يخوضون حرب مناورات ومكائد ضد بعضهم بعضًا. كان وضع لويد جورج حرجًا، إذ لم يكن لتأييده في البرلمان أي عمق، ذلك أن تأييده كان يأتي في ذلك الحين من خصوم سابقين، وكان الشك فيه يأتي من أصدقاء سابقين. وكان أخطر سياسي يهاجم الحكومة هو صنيعته السابق ونستون تشرشل. وقد كتب أحد أصدقاء الرجلين قائلًا: «إن لهجته في الحديث عن لويد جورج لهجة حقد ومن الجلي أنه بدأ يعتبره خصمًا كريهًا»<sup>[483]</sup>. كان لدى تشرشل ما يدعوه لأن يحقد، إذ إن لويد جورج استبعده من وزارته. أما رأي لويد جورج في تشرشل فهو «إن هذا الرجل جر تركيا إلى الحرب، وأمثاله هم أخطر من أن يتولوا مناصب رفيعة».

استعان تشرشل، في خطبه ومقالاته الصحفية، بمعرفته الواسعة للشؤون العسكرية وباستيعابه التفاصيل عند توجيه النقد إلى كيفية إدارة الحرب.

كان هناك الكثير مما يمكن انتقاده، وهذا أمر كان لويد جورج يعرفه معرفة جيدة. ولكنه كان قاصر اليدين عن فرض وجهات نظره على قادة الحلفاء العسكريين، وفي الآن نفسه كان بصفته رئيسًا للوزراء، مسؤولاً أمام البرلمان عن اخفقاتهم المستمرة والباهظة الثمن. لقد أبقى تشرشل خطوط اتصالاته مفتوحة فأرسل إنذارًا شخصيًا إلى رئيس الوزراء أبلغه فيه أن جماعات المعارضة المتباينة في مجلس العموم والناقمة على طريقة إدارة الحرب، قد توحد صفوفها لإسقاطه.

وصادف أن التقى تشرشل ولويد جورج في 10 أيار (مايو) 1917 بعد جلسة عقدها مجلس العموم، فأبدى رئيس الوزراء رغبته في أن يضم تشرشل إلى وزارته. ومع أنه كان لا يزال يرى أن تشرشل «أفسد نفسه بقراءاته عن نابليون» فقد أسرَّ إلى فرانسيس ستيفنسون، سكرتيه وعشيقته، أنه بحاجة إلى تشرشل لكي يدخل البهجة إلى نفسه ويشجعه في وقت كان فيه محاطًا بزملاء يرتسم على وجوههم الكآبة [484].

وكالعادة كان السؤال أيتها المجازفة الكبرى: إبقاء تشرشل خارج الحكومة أو ضمه إليها. في منتصف تموز (يوليو) عيّن تشرشل وزيرًا للذخائر، ومع أن هذا المنصب لا يقود إلى عضوية في مجلس الوزراء الحربي، فقد قوبل تعيينه على الفور بمقاومة عرضت وجود الحكومة للخطر بعض الوقت (485).

كتبت عمة تشرشل إليه مهنئة بتعيينه وزيرًا للذخائر فقالت: «نصيحتي أن تتشبث بوزارة الذخائر وإياك أن تحاول إدارة شؤون الحكومة» [486]. لقد دفع هذا التعيين الجديد جريدة «التايمز» إلى التحذير من أن البلاد «لا يتحمل مزاجها هذه المحاولة التعسة لإحياء استراتيجية الهواة» [487]. كانت عائلة تشرشل وكان أصدقاءه قلقين من أجله، وكانت جحافل أعدائه والناقمين عليه قلقة من أجل البلاد. ولا بد أنهم كانوا سيجزعون، دون أن يدهشوا، لو علموا أنه، في غضون أسبوع بعد تعيينه، تقدم إلى سكرتير مجلس الوزراء الحربي بخطة بعثها إلى الحياة من جديد لغزو الشرق الأوسط. فقد اقترح إنزال جيوش بريطانية في مرفأ أسكندرون لغزو شمال سورية وقطع خطوط النقل والمواصلات في الإمبراطورية العثمانية [488]. لكن مجلس الوزراء الحربي تجاهل اقتراحه فلم ينتج عنه شيء.

## (2)

لم تنقض أشهر علي تولي لويد جورج منصبه حتى كان قد شرع في مفاوضات سرية مع أنور باشا، أحد زعماء حزب تركيا الفتاة. وكان وكيله في المفاوضات هو فينسنت كيلارد، المدير المالي الشركة فيكرز الضخمة التي تنتج أسلحة، والذي سبق أن أمضى سنين عديدة في القسطنطينية رئيسًا لمجلس إدارة الدين العام العثماني. وكان كيلارد، بدوره، يقوم بهذه المهمة عبر شريك تجاري مقرب منه، هو بازيل زاخاروف، الذي شق طريقه من عالم الجريمة في أزمير ليصبح أشهر بائع سلاح سيء الصيت في العالم، وأطلقت عليه الصحافة لقب «تاجر الموت». وقد سافر زاخاروف إلى جنيف في عام 1917 وعام 1918، وأبلغ كيلارد أنه يستطيع إجراء مفاوضات مع أنور باشا أولاً عن طريق وسيط ثم وجهًا لوجه [489].

وقد عرض رئيس الوزراء البريطاني بواسطة مبعوثه رشاي - حسابات كبيرة في المصرف - إلى أنور وشركائه مقابل الخروج من الحرب بموجب شروط بريطانيا، وهي: أن تستقل شبه جزيرة العرب، وأن تتمتع أرمينيا وسورية بحكم ذاتي محلي ضمن الإمبراطورية العثمانية، وأن تصبح بلاد الرافدين وفلسطين محميتين بريطانيتين على أساس الأمر الواقع، مثل مصر قبل الحرب، ولكن تحت السلطة العثمانية من حيث الشكل، وضمان حرية الملاحة في الدردنيل. مقابل ذلك عرض لويد جورج أن تظل الامتيازات (أي المعاهدات التي تمنح الأوروبيين معاملة الأكثر رعاية) ملغاة، وتعامل تركيا معاملة مالية سخية لمساعدتها على انعاش اقتصادها. لقد اختلفت الشروط التي عرضها لويد جورج بطريقتين هامتين عن تلك التي ارتأتها حكومة اسكويث السابقة: فرنسا وإيطاليا وروسيا لن تنال شيئاً، وبريطانيا ستنال فلسطين وبلاد الرافدين.

تشير تقارير زاخاروف - التي يصعب الحكم على مدى الصدق فيها - إلى أن أنور، بعد تبدلات زئبقية في التفكير والمزاج، لم يقبل العرض الذي قدمه لويد جورج، ولا يبدو أنه كانت لديه النية جدًّا على الإطلاق أن يقبل العرض. ولكن التعليمات التي تلقاها زاخاروف تكشف نيات لويد جورج إزاء الشرق الأوسط.

### (3)

في جلسة سرية عقدها مجلس العموم البريطاني في 10 أيار (مايو) 1917، فاجأ رئيس الوزراء حتى أحد معاونيه المقربين عندما قال، دون أي لبس، إن بريطانيا لن تتخلى عن المستعمرات الألمانية في أفريقيا المستولى عليها في الحرب، ولن تسمح لتركيا بأن تحتفظ بفلسطين أو بلاد الرافدين<sup>[490]</sup>. كانت لدي لويد جورج أفكار محددة بشأن مستقبل الأراضي العثمانية المحررة، ولكن لا أحد من زملائه كان مطلعًا عليها. فهو قد تجنب القنوات الرسمية ولم يطلع أحدًا عليها بتفاصيلها سوى في مجرى مفاوضاته السرية مع أنور باشا. ومن هنا أهمية ما تكشفه.

كان في نية رئيس الوزراء أن ينكر على فرنسا الوضع الذي كان سير مارك سايكس قد وعدها به في الشرق الأوسط بعد الحرب، ورأى أن اتفاقية سايكس - بيكو ليست ذات أهمية، وكل ما يهم هو الحياة الفعلية. وفي ما يخص فلسطين فقد أبلغ السفير البريطاني لدى فرنسا في نيسان (أبريل) 1917 أن الفرنسيين سيجبون على قبول أمر واقع: «سنكون هناك بقوة الفتح وسنبقى»<sup>[491]</sup>.

كان لويد جورج الرجل الوحيد في حكومته الذي أراد دائمًا استيلاء بريطانيا على فلسطين. وأراد أيضًا أن يشجع قيام وطن قومي يهودي في فلسطين. وعجز زملاؤه عن معرفة مدى شدة تمسكه بهذه الآراء.

كانت لمعتقدات لويد جورج خلفية يجهلها زملاؤه إلى حد كبير. فهو، خلافًا لاسكويث وأعضاء مجلس الوزراء الآخرين، لم يدرس في مدرسة خاصة من المدارس البريطانية التي تشدد على تعليم اليونانية واللاتينية وآدابهما القديمة. لقد تربى على دراسة الكتاب المقدس. وكثيرًا ما ذكر أن أسماء الأماكن الواردة في الكتاب المقدس يعرفها بأفضل مما يعرف أسماء المعارك والحدود المتنازع عليها في الحرب الأوروبية. وكان في حديثه عن هذه الأماكن يعبر عن نفسه بحرارة. وقد كتب في ما بعد في مذكراته أنه كان قد اعترض على تقسيم فلسطين وفقًا لاتفاقية سايكس - بيكو (معظم فلسطين من نصيب فرنسا أو من حصة المنطقة الدولية) لأن هذا التقسيم يشوه البلد. وقال إن الأمر لا يستأهل كسب الأرض المقدسة لمجرد «تخطيطها إلى أجزاء أمام الرب»<sup>[492]</sup>. وأكد «أن فلسطين، في حال استعادتها، يجب أن تكون واحدة غير قابلة للتقسيم من أجل تجديد عظمتها ككيان حي»<sup>[493]</sup>.



## (4)

وخلافًا لزملائه كان يعرف معرفة أكيدة وجود اتجاهات عمرها قرون في فكر اتباع الكنيسة الإنجيلية والمنشقين عن الكنيسة البروتستانتية، نحو تقدم الصفوف لإعادة اليهود إلى صهيون. وحقيقة الأمر أن هذه الاتجاهات شكلت خلفية عقيدته الانشقاقية عن الكنيسة. وكان هو الأحدث في سلسلة طويلة من الصهاينة المسيحيين في بريطانيا، وتعود هذه السلسلة في بدايتها إلى البيوريتانيين (الصفويين) البروتستانت وإلى العصر الذي أبحرت فيه السفينة ميفلاور في طريقها إلى العالم الجديد. لقد كانت الأراضي الموعودة تخطر في البال كثيرًا في تلك الأيام، سواء في الولايات المتحدة أو في فلسطين.

في منتصف القرن السابع عشر، تقدم اثنان من البيوريتانيين الإنكليز يقيمان في هولندا - جوان وابن عيزر كارتررايت - بنداء إلى حكومتها قالا فيه: «إن هذه الأمة الإنكليزية وسكان هولندا، سيكونون الأوائل والأكثر استعدادًا لنقل أبناء وبنات إسرائيل في سفنهم إلى الأرض التي وُعد بها أجدادهم ابراهيم واسحق ويعقوب لتكون ميراثًا أبدًا»<sup>[494]</sup>. كان البيوريتانيون، مسترشدين بأسفار التوراة يعتقدون أن مجيء المسيح المخلص سيكون عندما يُعاد أبناء يهودا إلى موطنهم الأصلي.

عادت الفكرة إلى الظهور في منتصف القرن التاسع عشر، أصبح المصلح الاجتماعي أنطوني كوبر، والذي صار إيرل أوف شافتسبوري، مصدر إلهام لحركة إنجيلية قوية داخل كنيسة إنكلترا، هدفها إعادة اليهود إلى فلسطين، وإدخالهم الديانة المسيحية وتسريع «المجيء الثاني». وأوحى شافتسبوري أيضًا إلى بالمرستون، وزير الخارجية وقريبه عن طريق المصاهرة، بتوفير الحماية القنصلية البريطانية لليهود في فلسطين: لقد كتب شافتسبوري في مفكرته اليومية «إن الله اختار بالمرستون ليكون أداة خير لشعبه القديم»<sup>[495]</sup>.

تصرف بالمرستون بدافع مزيج من الأسباب المتعلقة بالمثل العليا والأسباب العملية التي تختلف عن الأسباب التي كانت حافز لويد جورج في القرن العشرين. كان بالمرستون يلح على الإمبراطورية العثمانية لإقامة فلسطين يهودية في سياق التنافس مع فرنسا خلال اللعبة الكبرى، وفي زمن من الثلاثينيات والأربعينيات في القرن التاسع عشر، كان فيه نائب السلطان المتمرد في مصر، محمد علي، بدعم من فرنسا، قد زحف من مصر على سورية لتهديد وحدة أراضي الإمبراطورية وتهديد عرش السلطان. وكالعادة، ساند بالمرستون القضية العثمانية. كانت إحدى غاياته من الدعوة إلى فلسطين يهودية أن يعزز النظام العثماني بتوفير الدعم اليهودي له. وكان

من غاياته الأخرى إحباط خطة الفرنسيين ورجلهم محمد علي بوضع وطن قومي يهودي تسانده بريطانيا على طريق زحفهم بغية إيقاف تقدم الزحف. وثمة غاية أخرى هي إيجاد جهة صنيعة لبريطانيا في الشرق الأوسط تهيب لها عذرًا للتدخل في الشؤون العثمانية. فالروس، بصفتهم حماة المذهب الأرثوذكسي، والفرنسيون باعتبارهم حماة الطائفة المارونية الهامة ذات الموقع الاستراتيجي في لبنان، كانتا تدعيان حق تمثيل مصالح وجماعات شرق أوسطية هامة. ونظرًا لقلة عدد البروتستانت في المنطقة كان على بريطانيا أن تتبنى جماعة أخرى لتتمكن من ادعاء حق مماثل.

وأثبتت فكرة بالمرستون المتعلقة بإعادة أرض الميعاد إلى الشعب اليهودي أنها أيضًا سياسة داخلية ذكية. فقد ضربت على وتر حساس في الرأي العام البريطاني يعود إلى الحماسة البيوريتانية<sup>[496]</sup>. ويقول أحد الثقات في معرفة دبلوماسية بالمرستون، إن سياسته أصبحت على صلة بفكرة صوفية لم تغب غيابًا تامًا في القرن التاسع عشر، مفادها «أن بريطانيا يجب أن تكون أداة الله في إعادة اليهود إلى الأرض المقدسة»<sup>[497]</sup>. وهذه الفكرة تعايشت بشكل ما، على أقل تقدير في الطبقات البريطانية العليا، مع معاداة السامية المنتشرة انتشارًا واسعًا.

في عام 1914 بدا وكأن دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب قد أوجد الظروف السياسية التي يمكن من خلالها أخيرًا تحقيق الحلم الصهيوني. فقد تساءل الكاتب ه. ج. ولز في رسالة مفتوحة كتبها لحظة دخول تركيا الحرب «ما المانع من أن يأخذ اليهود فلسطين ويعيدوا يهودا الحقيقية؟».

بعد ذلك بوقت قصير خطرت فكرة مماثلة في ذهن سير هيربرت صامويل، مدير البريد العام في وزارة اسكويث، وأحد زعماء حزب الأحرار، وأول شخص من العقيدة اليهودية يكون عضوًا في مجلس الوزراء البريطاني. فقد أرسل في كانون الثاني (يناير) 1915 مذكرة إلى رئيس الوزراء اسكويث مقترحًا أن تصبح فلسطين محمية بريطانية - لأنها ذات أهمية استراتيجية للإمبراطورية البريطانية - ومؤكدًا فوائد تشجيع الاستيطان اليهودي على نطاق واسع فيها. وكان رئيس الوزراء قد أنهى لتوه قراءة (تانكريد) - وهي رواية من تأليف بنيامين دزرائيلي، الزعيم البريطاني في القرن التاسع عشر (الذي تنصّر ولكنه ولد لأسرة يهودية)، وكان يدعو لعودة اليهود إلى فلسطين - وقد أسرّ اسكويث لبعضهم أن مذكرة صامويل «تكاد تكون طبعة جديدة من رواية (تانكريد) مع تغطية الأحداث حتى الوقت الحاضر. واعترف بأنه لا يشعر بالميل إلى هذه الإضافة المقترحة إلى مسؤولياتنا. ولكن المذكرة تصور تصويرًا عجيبًا مقولة دزرائيلي الأثيرة على نفسه أن [العرق البشري هو كل شيء] وها نحن نرى أن هذا التصوير العجيب والذي يكاد



يكون بأسلوب شاعري إنما يتدفق من عقل هيربرت صامويل المنظم والمنهجي»[498].

في شهر آذار (مارس) 1915 وُزعت على مجلس الوزراء صيغة منقحة لمذكرة صامويل، ولكنها لم تحظ بالتأييد وكان تعقيب اسكويث الخاص عليها أن «من الغريب أن النصير الآخر الوحيد لهذا الاقتراح هو لويد جورج الذي، لا حاجة بي إلى القول، لا يهتم أدنى اهتمام باليهود ولا بماضيهم ولا بمستقبلهم...»[499] ولم يكن رئيس الوزراء على دراية بمجموعة الدوافع وراء الموقف الذي اتخذه لويد جورج، الذي أبلغ مجلس الوزراء أن السماح بسقوط الأماكن المقدسة المسيحية في يد «فرنسا الملحدة العلمانية»[500] هو أمر فظيع. وقد رأى اسكويث غرابة في أن يدعو هيربرت صامويل ولويد جورج إلى جعل فلسطين محمية بريطانية لمثل هذه الأسباب المختلفة: «أليس أمرًا فريدًا أن يكون بالإمكان التوصل إلى النتيجة نفسها بواسطة مثل هاتين الطريقتين المختلفتين؟»[501]، لقد كان في هذه الملاحظة شيء من التنبؤ بالمستقبل، لأن المسؤولين البريطانيين الذين سلكوا في السنين التالية عدة طرق مختلفة، قد توصلوا إلى استنتاج واحد: هذا الاستنتاج هو أن إحدى الخصائص المميزة لسياسة بريطانيا التي لا تستقر على حال تجاه فلسطين هي أنه ليس هناك سبب واحد فرد لهذه السياسة.

لقد ألقى كيتشنر بوزن سلطته الكبير ضد اقتراح صامويل. فقد قال المجلس الوزراء أن فلسطين ذات قيمة ضئيلة من الناحية الاستراتيجية أو سواها، وليس فيها مرفأ واحد لائق[502]. ولذلك لم يأخذ مجلس الوزراء باقتراح صامويل، ولكن لويد جورج ظل يخالف كيتشنر الرأي في أهمية فلسطين الاستراتيجية.

## (5)

مع أن لويد جورج ينتمي إلى عائلة من ويلز، فقد ولد في مدينة مانشستر، ثانية كبرى المدن البريطانية وموطن الليبرالية الراديكالية التي استمر يدعمها طوال جانب كبير من حياته السياسية. وكانت مانشستر أيضًا، بعد لندن، موطن أكبر جالية يهودية في بريطانيا. وكان أعضاء البرلمان الذين يمثلون المنطقة، مثل بلفور وتشيرشل مدركين لاهتمامات اليهود الخاصة في منطقتهم الانتخابية.

إن ك. سكوت، رئيس تحرير صحيفة «مانشستر غارديان» الليبرالية الكبيرة، اعتنق الصهيونية في 1914 على يد حاييم وايزمان، العالم الكيميائي اليهودي الروسي الأصل الذي استقر في مانشستر. وكان سكوت يُعتبر موضع ثقة لويد جورج وأقرب المقربين إليه سياسيًا، وقد تبنى القضية بكل ما عرف عن طبيعته المثالية من عزم. ورأى المراسل العسكري لصحيفة «الغارديان»، والذي يدعى هيربرت سايدبوثام، جانبًا مكملًا للمسألة يتمثل في الفائدة العسكرية لبريطانيا. فقد كتب في عدد الصحيفة الصادر في 26 تشرين الثاني (نوفمبر) 1915 «إن مستقبل الإمبراطورية البريطانية كله بصفتها إمبراطورية بحرية» يعتمد على جعل فلسطين دولة عازلة يسكنها «عرق من البشر شديد الوطنية» [503].

لقد تحقق تحول جريدة «مانشستر غارديان» إلى الصهيونية في سياق الحرب العالمية الأولى، أما لويد جورج فقد انتقل إلى الصهيونية - أو بالأحرى انتقلت الصهيونية إليه - قبل ذلك بعشر سنوات. ففي عام 1903 عمل محاميًا بريطانيًا للحركة الصهيونية ولمؤسسيها، الدكتور ثيودور هرتزل، بشأن موضوع تسبب في انشقاق ممض في صفوف الحركة الصهيونية، وهو: هل يجب أن تكون الدولة اليهودية بالضرورة في فلسطين. وباعتباره كان يمثل هرتزل في لحظة اتخاذ القرار، فقد كان في وضع يمكنه من فهم الورطة التي تواجهها الحركة الصهيونية.

كانت الحركة الصهيونية حديثة العهد، أما جذورها فكانت قديمة قدم مملكة يهودا التي قوّضت استقلالها ثم سحقتها روما القديمة، وتشرّد معظم سكانها في أراضٍ أجنبية في القرن الثاني للميلاد. ولكن أبناء يهودا - أي اليهود كما عرفوا في ما بعد - ظلوا حتى أثناء وجودهم في النفي متشبثين بديانتهم وبقوانينهم وعاداتهم التي تميزهم، وعزلوا أنفسهم عن الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها. إن وضعهم في مرتبة دنيا، والاضطهادات التي تعرضوا لها والمجازر العديدة التي حلت بهم وتكرار طردهم من بلد إلى آخر، قد عزز شعورهم بهويتهم الخاصة ومصيرهم الخاص. في نهاية الأمر - وفقًا لتعاليمهم

الدينية - سيعيدهم الله إلى صهيون، ولذلك كانوا خلال احتفائهم بعيد  
فصحهم كل سنة يرددون الابتهاال «السنة القادمة في أورشليم».

العودة المستقبلية إلى صهيون ظلت مجرد رؤيا خلاصية إلى أن حولتها  
أيدولوجية أوروبا القرن التاسع عشر إلى برنامج سياسي معاصر. كانت  
إحدى الأفكار المعبرة عن ذلك الزمن - وهي فكرة غريستها في كل مكان  
جيوش الثورة الفرنسية فأينعت وازدهرت - هي أن كل أمة ينبغي أن يكون  
لها بلد مستقل (مع أن مفهوم الأمة وما الذي يشكل أمة كان بطبيعة الحال  
مسألة قابلة للنقاش). كان الثوري الإيطالي جيزيبي ماتزيني، أبرز الدعاة  
إلى هذه العقيدة التي بموجبها يجب إطلاق الحرية لكل أمة كي تحقق نبوغها  
الذي تتفرد به وتتابع رسالتها الخاصة في خدمة البشرية. وهكذا فإن قومية  
كل أمة لا تخدم مصالحها الخاصة فحسب، بل مصالح جيرانها أيضًا. وخدمة  
لهذه العقيدة ناضل جيزيبي غاريبالدي زميل ماتزيني - وأعظم أبطال  
إيطاليا - من أجل الأوروغواي وفرنسا مثلما ناضل من أجل إيطاليا.

كان نقيض هذا الطرح أن أحد الأسباب الأساسية للعلل التي يعاني منها  
العالم أن بعض الأمم قد حيل دون تحقيق وحدتها أو استقلالها - وهو وضع  
رأى ماتزيني وأتباعه وجوب تغييره عن طريق الحرب أو الثورة. وبرنامجهم  
هذا خطفه اليمين من اليسار - فإيطاليا وألمانيا أصبحتا بلدين موحدتين على  
يد (كافور) في إيطاليا و(بسمارك) في ألمانيا - وأصبح هذا البرنامج  
موضوعًا من مواضيع البحث السياسي المشترك في أوروبا. وتقدمت  
القومية خطوة أخرى في الحرب الأهلية السويسرية (1847) والحرب  
الأهلية الأميركية (1861 - 1865) عندما حاولت سبعة كانتونات سويسرية  
متحدة اتحادًا كونفيدراليًا، وإحدى عشرة ولاية أميركية متحدة اتحادًا  
كونفيدراليًا أن تنفصل؛ فسحقتها جيوش الحكومة الفيدرالية في الحاليتين.  
وهكذا كان على الشعوب أن تتوحد في أمة واحدة، شاءت أم أبت.

كان هذا يدل على أن القومية الجديدة قد يكون لها جانب مظلم: هو عدم  
التسامح إزاء مجموعات تختلف عن الأكثرية. وهذا ما واجهه اليهود في  
الحال. ففي البيئة الوطنية لأوروبا الغربية اتخذت المسألة اليهودية أشكالًا  
جديدة: هل يهود ألمانيا ألمان؟ وهل يهود فرنسا فرنسيون؟ فإن كانوا كذلك  
ماذا عن هويتهم الخاصة؟ مع نهاية القرن التاسع عشر كان يهود أوروبا  
الغربية قد حققوا الانعتاق القانوني من كثير من القيود التي فرضت عليهم  
على مدى قرون، فأصبح بإمكانهم الخروج من الغيتوات التي كانوا يقيمون  
فيها، وأن يمارسوا المهنة أو الحرفة التي يريدون حسب اختيارهم، وأن  
يشترخوا الأرض، وأن يتمتعوا بحقوق المواطنة - ولكنهم ظلوا يواجهون موجة  
عداء من جيرانهم الذين اعتبروهم غرباء.

كان وضع اليهود خطرًا للغاية في أوروبا الشرقية - الإمبراطورية الروسية ومن ضمنها بولندا، وبلدان البلطيق وأوكرانيا - كان معظم يهود العالم يعيش داخل ذلك القسم من الإمبراطورية الروسية، وقد حددت إقامتهم فيه ماداموا يعيشون ضمن ممتلكات قيصر روسيا: أي ضمن «الحظيرة» - وقلّة منهم فقط - البعض بصورة غير شرعية والبعض الآخر بإذن خاص - كانت تعيش في سانت بيترسبورغ أو موسكو أو أي مكان آخر خارج «الحظيرة». وكان ضمن هذه «الحظيرة» ستة ملايين من اليهود هم يهود روسيون لم يكن مسموحًا لهم أن يكونوا روسيين يهودًا. لم يكونوا مقيدين بقيد قانونية بل كانوا ضحية المجازر المنظمة التي يطلق عليها اسم (بوغروم). وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين تزايدت فظاعة هذه المجازر فهرب اليهود بأعداد كبيرة من الإمبراطورية الروسية طلبًا للنجاة والملجأ.

وبما أن القومية كانت آنذاك العلاج الشافي للعلل السياسية جميعها، فقد كان أمرًا محتومًا أن يقترح أحد ما القومية كعلاج للمشكلة اليهودية. والحقيقة أن الوحدة القومية وتقرير المصير ضمن كومنولث يهودي مستقل قد طرحا في كتب بليغة التعبير، توصل مؤلفوها إلى استنتاجاتهم بصورة مستقلة (504). إذًا لم يكن ثيودور هرتزل أول من صاغ مثل هذا البرنامج، بل كان أول من أعطاه تعبيرًا سياسيًا ملموسًا، في زمن كان فيه الرواد اليهود من روسيا قد بدأوا يقيمون مستعمرات في فلسطين دون أن ينتظروا تسوية الأمور السياسية.

وعندما جاء هرتزل، وهو يهودي اندمج في مجتمعه الجديد، بفكرة الصهيونية السياسية، كان يرى أن اليهود بحاجة إلى دولة يهودية خاصة بهم - أما موقعها فلم يكن ذا أهمية أولى. وكان هرتزل يكاد لا يفقه شيئًا عن اليهود واليهودية، ذلك أنه كان صحفيًا عصريًا، مراسلًا في باريس لإحدى صحف فيينا نسي أصوله اليهودية إلى أن حدثت صدمة العداء للسامية في فرنسا في قضية دريفوس فأقنعتة بالحاجة إلى إنقاذ يهود العالم من محتهم التاريخية.

وباعتباره رجلًا دينويًا فقد كان على دراية بكيفية عقد صفقات العمل السياسي في أوروبا زمانه، ومن ثم شرع في إنشاء منظمة صهيونية. ثم إنه بدأ مفاوضات باسم الصهيونية مع مسؤولي حكومات مختلفة. ولم يدرك الجاذبية الفريدة التي تتمتع بها البلاد التي تدعي فلسطين - أرض الفلسطينيين - والتي يسميها اليهود أرض إسرائيل، إلا بعد أن بدأ يجري اتصالات عمل مع يهود آخرين ومع منظمات يهودية كانت على مدى سنوات سابقة تشجع إقامة مستوطنات في الأرض المقدسة.

عند بدء القرن العشرين أجرى هرتزل مفاوضات مع الإمبراطورية العثمانية فاقنع بنتيجتها بأن السلطان لن يوافق على المقترحات الصهيونية - على أقل تقدير في الوقت الراهن. وهكذا بدأ يبحث في أماكن أخرى. وفي عام 1902 عقد اجتماعًا هامًا مع جوزيف تشامبرلين، وزير المستعمرات القوي في حكومتي سالزبورج وبلفور. كان تشامبرلين يعتبر أبًا للإمبريالية البريطانية الحديثة، وكان يؤمن أيضًا بحل قومي للمشكلة اليهودية، وقد أصغى متعاطفًا إلى اقتراح هرتزل الذي له أصل سابق يتمثل في إقامة تجمع سكاني سياسي يهودي، أول الأمر في مكان قريب من حدود فلسطين على أمل أن تكون فلسطين في متناول اليد بشكل أو بآخر في نهاية الأمر. وكان هرتزل يتحدث وفي ذهنه إما قبرص أو قطاع العريش على حدود شبه جزيرة سيناء المحاذية لفلسطين، وكلتا المنطقتين كانتا اسميًا جزئين من الإمبراطورية العثمانية وواقعيًا محتلتين من قبل بريطانيا. وقد استبعد تشامبرلين قبرص ولكنه عرض أن يساعد هرتزل في الحصول على موافقة المسؤولين البريطانيين المشرفين على شؤون سيناء.

ومن أجل الحصول على هذه الموافقة قرر هرتزل عبر ممثله البريطاني ليوبولد غرينبيرغ أن يستعين بخدمات محام ذي اطلاع واسع سياسيًا، فوقع اختياره على ديفيد لويد جورج، الذي تولى القضية باسم شركته اللندنية، شركة لويد جورج وروبرتز وشركاهما. ولكن الاقتراح أخفق نتيجة معارضة الإدارة البريطانية في مصر، فأرسلت وزارة الخارجية البريطانية رسالتين إلى الدكتور هرتزل بتاريخ 19 حزيران (يونيو) و16 تموز (يوليو) 1903، تبلغه فيهما أن اقتراحه غير عملي.

عندئذٍ قال تشامبرلين إنه يستطيع أن يعرض منطقة للاستيطان اليهودي تخضع لسلطة وزارته، فطرح إمكانية الاستيطان في أوغندا في شرق أفريقيا البريطانية. وقد أيد آرثر جيمس بلفور، رئيس الوزراء اقتراح تشامبرلين. وكان بلفور قد أولى المسألة اليهودية الكثير من تفكيره واستنتج أنها تتطلب حلًا قوميًا. وقد وافق هرتزل على اقتراح أوغندا، وبناء على ذلك أعدّ لويد جورج مسودة براءة للاستيطان اليهودي وعرضها رسميًا على الحكومة البريطانية لإقرارها. وفي صيف عام 1903 أجابت وزارة الخارجية البريطانية بتحفظ ولكن بإيجابية قائلة إنه في حال نجاح الدراسات والمحادثات خلال السنة التالية، ستنظر حكومة جلالتة نظرة إيجابية في المقترحات الهادفة إلى إنشاء مستعمرة يهودية. كان ذلك أول بيان رسمي صادر عن حكومة ما إلى الحركة الصهيونية، وأول بيان رسمي يقول بصورة ضمنية بإعطاء وضع قومي للشعب اليهودي [505]، أي أنه كان إعلان بلفور الأول.

انعقد بعيد ذلك اجتماع للمؤتمر الصهيوني العالمي، وفي هذا الاجتماع طرح هرتزل اقتراح أوغندا، وحث على الاستيطان في شرق أفريقيا كمحطة على الطريق، وكملجاً على الدرب إلى أرض الميعاد، حيث يستطيع يهود الإمبراطورية القيصريّة النجاة من فظائع المجازر. ومع أن المندوبين في الاجتماع أتاحوا لزعيمهم أن يحصل على تصويت بالموافقة، فإن معظمهم لم يبد أي اهتمام بأية أرض أخرى سوى أرض أسلافهم. ووجدت الحركة الصهيونية نفسها في نهاية طريق مسدود؛ لم يعرف هرتزل كيف يقود الحركة إلى فلسطين، ولم ترغب الحركة في أن تتجه إلى أي مكان آخر. وقد مات هرتزل في صيف عام 1904 مخلّفاً زعامة مفككة ومنقسمة على نفسها انقسامًا عميقًا.

عاد لويد جورج في عام 1906، أثر تشكيل حكومة ليبرالية جديدة في بريطانيا، فطرح اقتراح سيناء للدراسة بتحريض من ليوبولد غرينبورغ. ومرة أخرى رفضت الحكومة البريطانية الاقتراح، وكتب سير إدوارد غراي بتاريخ 20 آذار (مارس) 1906 قائلاً: إن موقف وزارة الخارجية لم يتغير [506].

عندما كانت الحركة الصهيونية في سنوات تشكلها كان يمثلها ديفيد لويد جورج في وقت كانت تسعى فيه لإعطاء تعريف لنفسها، ولم تكن الحركة الصهيونية إلا زبوناً واحداً من زبائنه الكثر - ولم تكن من هذه الناحية زبوناً كبيراً - مع ذلك، ونتيجة لتمثيله المهني لها، لم يكن أي زعيم سياسي بريطاني آخر في وضع أفضل من وضعه لفهم طبيعتها وأهدافها. وعندما راودته فكرة فتح فلسطين في عام 1917 وعام 1918، لم يكن أحد يملك فكرة أوضح من فكرته عما يجب أن يفعله بفلسطين إذا ما أصبحت تحت سيطرته.

لقد أراد لويد جورج، شأنه شأن وودرو ويلسون، الذي كان اهتمامه في الشرق الأوسط موجهاً إلى المدارس والإرساليات البروتستانتية الأميركية، أن تتولى بلاده ما كان يعتبره عمل الرب في المنطقة. ولكنه، خلافاً للرئيس الأميركي، كان يخطط لزيادة عظمة إمبراطورية بلاده بواسطة القيام بعمل الرب.

لقد تابع لويد جورج نهجه الفكري حتى انتهى إلى الاستنتاج أنه يجب على بريطانيا أن ترعى القومية اليهودية في الشرق الأوسط بعد الحرب. وقد توصل عدد من زملائه في الحكومة البريطانية إلى الاستنتاج نفسه في عام 1917، ولكن بالسير على طرق مختلفة - وطرق كثيرة أدت إلى صهيون. الغريب في الأمر هو أنهم بعد أن أيدوا الشريف حسين نتيجة أفكار خاطئة عن العرب والمسلمين أوشكوا الآن على تأييد الصهيونية نتيجة أفكار خاطئة عن اليهود.



# الفصل الثالث

## في الطريق إلى إعلان بلفور

### (1)

كان لويد جورج - وهو «ذو توجه شرقي» في استراتيجيته الحربية وفي أهدافه الحربية - قد نجح في كسب التأييد لوجهة نظره من أعضاء الحكومة المدنيين الهامين، الذين بدأوا ينظرون إلى الشرق الأوسط عامة، وإلى فلسطين خاصة كمصالح حيوية للإمبراطورية، وتوصلوا جميعًا إلى الاستنتاج كل بطريقته الخاصة، إلى أن إقامة تحالف مع الصهيونية من شأنه أن يخدم احتياجات بريطانيا في الحرب والسلام.

لقد أقنع لويد جورج اللورد ميلنر وشركاءه بالأهمية الاستراتيجية للحرب في الشرق في شتاء عام 1917، أي في وقت لم يكن واضحًا بأي شكل من الأشكال هل سيتمكن الحلفاء من إحراز نصر حاسم هناك أو في أية منطقة أخرى، وحتى بعد أن دخلت الولايات المتحدة الحرب في ربيع ذلك العام، بدا أن من الممكن تمامًا ألا يصل الأميركيون في وقت مناسب للحيلولة دون عقد اتفاقية صلح عن طريق التفاوض، تُبقي الأطراف المتحاربة بشكل أو بآخر في مواقعها. وكان هنالك أيضًا من شعروا بالقلق من ترك الألمان والأتراك يحتفظون بسيطرتهم على منطقة، أكد رئيس الوزراء البريطاني أهميتها الحيوية.

لقد أبدى مساعدا أمني السر في مجلس الوزراء الحربي، ليو إيميري ومارك سايكس، قلقهما من احتمال سقوط الإمبراطورية العثمانية كليًا في قبضة ألمانيا في عالم ما بعد الحرب. وإذا ما حدث ذلك تكون الطريق إلى الهند قد وقعت في أيدي عدوة - وهذا خطر لا تستطيع الإمبراطورية البريطانية تفاديه إلا بطرد الألمان والأتراك واستيلاء بريطانيا على الطرف الجنوبي للممتلكات العثمانية. وكان مجلس الوزراء البريطاني قد فكر منذ البداية بضم بلاد الرافدين... وفي ما يتعلق بشبه جزيرة العرب، فقد أعدت ترتيبات متفق عليها مع الحكام المحليين الذين أكدوا استقلاليتهم وبموجبها تدفع لهم إعانات، وبذلك يمكن الاعتماد على بقائهم مواليين لبريطانيا. بقيت فلسطين نقطة الضعف الوحيدة. فهي باعتبارها جسرًا يصل أفريقيا بآسيا تقطع الطريق البرية بين مصر والهند، كما أنها بحكم قربها من قناة السويس تهدد القناة وبالتالي تهدد الطريق البحرية إلى الهند أيضًا.



كان إيميري الشخصية الرئيسة من بين أعوان ميلنر في الحكومة، وقد بحث المسألة في مذكرة رفعها إلى مجلس الوزراء بتاريخ 11 نيسان (أبريل) 1917، فقال محذراً من السماح لألمانيا بتوجيه ضربة أخرى إلى بريطانيا عن طريق السيطرة على أوروبا أو الشرق الأوسط بعد الحرب «إن سيطرة ألمانيا على فلسطين هي أحد أعظم المخاطر التي يمكن أن تجابه الإمبراطورية البريطانية في المستقبل» [507].

جرى تعيين إيميري ومارك سايكس، ومن بعد وليم أورمسي - غور، مساعدين لموريس هانكي في رئاسة سكرتارية مجلس الوزراء الحربي. وبما أن إيميري كان عضواً في البرلمان وضابطاً في الجيش أدى خدمته في وزارة الحربية، فقد أصبح أحد أفراد المجموعة المركزية التي توجه المجهود الحربي. وعند توزيع المسؤوليات داخل جهاز السكرتاريا، لم يكن الشرق الأوسط في نطاق اختصاص إيميري بل كان في نطاق اختصاص سايكس. لكن إيميري كان قد أشرك نفسه في مسألة لها تأثير على السياسة الشرق أوسطية عندما مد يد المساعدة إلى صديق قديم.

والصديق القديم هو الكولونيل جون هنري باترسون، وهو ضابط في الجيش تعرف إليه إيميري في جنوب أفريقيا، وقد تولى هذا الضابط قيادة فيلق يهودي في حملة غاليبولي، وقد طلب إلى إيميري أن يساعده في الحصول على إذن من وزارة الحربية بإنشاء كتيبة من اليهود غير البريطانيين للقتال تحت قيادة بريطانية، على أن ترسل هذه الكتيبة للقتال في فلسطين عندما تغزو بريطانيا الإمبراطورية العثمانية من مصر وعبر سيناء. كان باترسون أيرلندياً بروتستانتياً، ومتبحراً في الكتاب المقدس، وضابطاً محترفاً في الجيش وهاوياً لصيد الأسود، ونال شهرة بسبب كتابه الذائع الصيت «أكلة البشر في تسافو» كما اشتهر بروح المغامرة التي يتصف بها القراصنة. وقد جاءت فكرة إنشاء كتيبة يهودية من فلاديمير جابوتنسكي، وهو صحفي يهودي روسي حاد الطبع، كان يعتقد أن الإنكليز يمتقنون أن يروا في بلادهم عدداً كبيراً من المهاجرين اليهود الروس الأقوياء الأجسام والذين لم يصبحوا بعد رعايا بريطانيين ولا يؤدون الخدمة العسكرية. وقد كان جابوتنسكي مأخوذاً بفكرة أن الكتيبة العسكرية اليهودية إذا ساعدت في تحرير فلسطين، تقطع شوطاً كبيراً نحو تحويل الحلم الصهيوني إلى واقع، غير أنه لم يبح بذلك أول الأمر [508]. وتحمس باترسون للفكرة، فالفيلق اليهودي الذي قاده في غاليبولي أنشئ إلى حد كبير بجهود شريك جابوتنسكي، الكابتن جوزيف ترامبلدور، وقد استمتع باترسون بقيادة الفيلق [509].

وافق إيميري على مساعدة باترسون، ولكن المهمة لم تكن سهلة. فزعماء الجالية اليهودية الرسميون عارضوا المشروع معارضة شديدة، لأنه في

نظرهم يعرض للخطر اليهود الذين يعيشون في الإمبراطورية الألمانية وإمبراطورية النمسا - هنغاريا والإمبراطورية العثمانية، إذ سيؤدي المشروع أن اليهود كيهود ينحازون للحلفاء، ومع أن القيادة الصهيونية كانت على خلاف مع الجالية اليهودية البريطانية في معظم الأمور الأخرى، فقد انضمت إليها في استنكار ربط القضية الصهيونية بإحدى التحالفات الأوروبية المتحاربة. وعندما أثار جابوتنسكي الموضوع لأول مرة في عام 1915 رأت السلطات البريطانية أن اقتراحه أن تساعد الكتبة اليهودية في تحرير فلسطين هو اقتراح ضئيل الجدوى. فقد قال أحد كبار المسؤولين: «لا أحد يعرف بعد متى سنذهب إلى فلسطين واللورد كتشنر يقول إننا لن نذهب إطلاقاً» [510].

ثابر إيميري طوال عامي 1916 و1917 فنحج في وضع طلب جابوتنسكي أمام مجلس الوزراء الحربي. بعد ذلك أخذت الحكومة البريطانية تتفاوض مع الحكومات الحليفة الأخرى بشأن اتفاق يسمح لكل بلد أن يقبل في الخدمة العسكرية مواطنين من البلدان الحليفة الأخرى مقيمين على أرضه. بعبارة أخرى، صار بإمكان اليهود الروس الذين يعيشون في بريطانيا أن ينضموا إلى الجيش البريطاني. وقد أقر البرلمان هذا الاتفاق، وفي صيف عام 1917 شُكلت وحدة يهودية «سُميت في ما بعد الفيلق اليهودي» ضمن الجيش البريطاني ووضعت تحت قيادة الكولونيل باترسون. كان لويد جورج شديد الحماسة للمشروع فقال: قد يتمكن اليهود من مساعدتنا أكثر من العرب» في حملة فلسطين [511].

لم يكن إيميري، قبل أن يحدثه زميله مارك سايكس عن الصهيونية، قد وضع اهتماماته الاستراتيجية بفلسطين وتأييده للفيلق اليهودي ضمن منظور واحد، مع أن ميوله العامة كانت نحو الصهيونية. لكن فكرة قيام كيان قومي يهودي كانت تجد سنداً لها في مكانة موجهه السياسي المتوفى، جوزيف تشامبرلين، وكانت الفكرة تلقي أيضاً الرعاية من زعيمه اللورد ميلنر الذي بدأ تعاطفه الصهيونية في وقت مبكر من حياته. وكان إيميري نفسه يشعر بتعاطف مماثل. وقد كتب في ما بعد يقول: «في ما عدا الولايات المتحدة، ما من بلد سوى إنكلترا الشغوفة بالكتاب المقدس والتي يغلب الكتاب المقدس على تفكيرها، يعتبر دائماً الرغبة في عودة اليهود إلى وطنهم القديم إلهاً طبيعياً لا يجوز التبرؤ منه» [512].

عندما انضم وليم أورمسي - غور إلى إيميري وسايكس بصفة أحد مساعدي أمناء السر الثلاثة في مجلس الوزراء الحربي، نقل معه إهتماماً أكثر تحديداً بالامكانيات المباشرة للفكرة الصهيونية. وكان أورمسي - غور، باعتباره عضواً في البرلمان وسكرتيراً للورد ميلنر، قد ذهب إلى الشرق

الأوسط للعمل في المكتب العربي. وأحد الذين كانوا تحت إمرته الشخصية شخص يدعى أهارون أهارونسون، قائد مجموعة شديدة الفعالية تعمل خلف الخطوط العثمانية في «فلسطين اليهودية» ومهمتها جمع معلومات للمخابرات عن تحركات القوات التركية. وقد تعرض أهارونسون مثلما تعرض جابوتنسكي، لحملة من بقية اليهود، لأنه أظهر مصالح اليهود كأنها مرتبطة بمصالح الحلفاء - وبذلك عرّض للخطر الجالية اليهودية في فلسطين، التي كان جمال باشا يجد ما يغريه بمعاملتها كمعاملة زملائه للأرمن. بيد أن المعلومات التي كان يجمعها أهارونسون عن الدفاعات والمواقع العسكرية التركية، أثبتت فائدتها الكبيرة للقيادة العسكرية البريطانية في مصر ولقيت التقدير من أورمسي - غور.

كانت ثمة ناحية أخرى في حياة أهارونسون أفتتن بها أورمسي - غور، هي أبحاثه واختباراته الزراعية والتي شكلت المجال الذي نال شهرته فيه. فقبل عقد من السنين اشترك أهارونسون في أبحاث أجريت على العرق الأصلي للقمح البري الذي ازدهر قبل آلاف السنين. ومنذ تلك السنين البعيدة أخذت حالة هذا النبات تزداد سوءًا بسبب تدجينه على نطاق واسع، وبذلك ازداد تعرضًا للأمراض النباتية. وقد أصبح إنقاذ هذا الصنف من الغذاء الأساسي لسكان الأرض عن طريق العثور على نبتته الأصلية في الطبيعة، هدفًا رومانسيًا يسعى وراءه أهارون أهارونسون ذو العينين الزرقاوين والشعر الأشقر. وفي ربيع عام 1906 حقق أهارونسون اكتشاف العمر: فقد عثر على القمح البري يتلاعب به النسيم قرب سفح جبل حرمون، على مقربة من مستوطنة روشينا اليهودية.

لقد أعجب أورمسي - غور بالعمل الذي أنجزه أهارونسون في مركزه الخاص بالأبحاث الزراعية في فلسطين، لأن ذلك يدخل في صلب الحجة المدافعة عن الصهيونية. وكانت المرافعة ضد الصهيونية التي قام بها اللورد كورزون في مجلس الوزراء هي أن فلسطين أرض قاحلة لا يمكنها إعالة ملايين اليهود الذين يراودهم أمل الاستيطان فيها. وكانت حجة الجماعات العربية التي تقدمت بها في ما بعد، والتي قامت على ادعاء أن فلسطين لا تتسع لمستوطنين إضافيين، هي، كما كتب جورج انطونيوس أحد المتحدثين العرب البليغين: «إن فلسطين لا تتسع لأمة ثانية إلا بانتزاع أو إبادة الأمة التي تملكها» [513]. فجاءت اختبارات أهارونسون لتدحض هذه الحجة (514). لقد أظهر عمله أن بالإمكان توطين ملايين أخرى على أرض يمكن جعلها غنية وخصبة بأساليب الزراعة العلمية من دون تشريد أحد من سكان فلسطين الغربية البالغ عددهم 600.000 أو نحو ذلك. وكانت لأعمال أهارونسون تطبيقات أوسع: فقد عاد أورمسي - غور إلى لندن حاملاً معه

فكرة مفادها أن اليهود الصهاينة قادرون على مساعدة الشعوب العربية وغيرها من شعوب الشرق الأوسط على إحياء منطقتهم بحيث تزدهر الصحراء مرة أخرى.

## (2)

ما أن أصبح لويد جورج رئيسًا للوزراء حتى بدأ ليو إيميري خطوة لوضع فلسطين في سياق مستقبل الإمبراطورية البريطانية. فقد اقترح إيميري في نهاية عام 1916 إنشاء مجلس وزراء حربي إمبراطوري، وأرسل مذكرة بهذا الموضوع إلى اللورد ميلنر، الذي هيا للويد جورج أن يطرح الفكرة على التصويت [515].

كانت الحرب قد أوجدت حاجة لهذه الهيئة: فالإمبراطورية كانت تسهم بالعديد من القوى البشرية في المجهود الحربي، وصار الجنود الذين من خارج بريطانيا يشكلون جزءًا كبيرًا من القوات المسلحة البريطانية. وممتلكات التاج البريطاني (الدومنيون) وحدها كانت تسهم بأكثر من مليون رجل للقوات المسلحة، في حين أن الإمبراطورية الهندية كانت تسهم بما لا يقل عن نصف مليون رجل مقاتل ومئات الآلاف من الجنود المساندين. ومع ذلك لم يسبق قط أن استشيرت كندا، وأستراليا، ونيوزيلندا، والهند، وشريكات بريطانيا الأخرى في القتال، بشأن خوض الحرب. فقد أعلن الملك جورج الخامس الحرب وقام الحكام العامون لممتلكات التاج في ما وراء البحار بإصدار إعلانات بالحرب من قبلهم. ولكن لا برلمانات ولا حكومات بلدان الدومنيون كانت شريكة في هذه القرارات. وقد هدف اقتراح إيميري إلى الاعتراف، ولو في وقت متأخر، بأهمية هؤلاء الشركاء عن طريق منحهم التمثيل في هيئة مركزية في لندن تتولى الإدارة العامة للحرب.

كانت قناعة إيميري، مثلما كانت قناعة أصدقاء اللورد ميلنر الآخرين، أنه يجب تغيير بنية الإمبراطورية البريطانية تغييرًا أساسيًا. ومع حلول نهاية عام 1916 وميوعة الوضع السياسي في لندن وانحياز الأحزاب والهيئات الأخرى، بدت أمور كثيرة ممكنة مع أنها ما كانت تبدو كذلك من قبل.

كان إنشاء الإمبراطورية حتى زمن دزرائيلي عملاً عشوائيًا بل قيل إنه عمل جاء سهواً، وقد أعطى دزرائيلي هذا العمل القًا وركز الانتباه عليه. وجاء بعد ذلك إيميري واصدقاؤه من بطانة ميلنر، الذين سبق أن عملوا بتنسيق مع سيسيل رودس وجوزيف تشامبرلين، فكانوا بين أوائل دعاة الإمبراطورية عن وعي ومنهجية، بينما كان شريكاهما روديارد كيبلينغ وجون بوتشان من بين ممجدي الإمبراطورية عمدًا. وكثيرون بين هؤلاء دعوا إلى إنشاء نظام اقتصادي يشمل الإمبراطورية ويكون مغلقًا على الخارج بواسطة التعريفات الجمركية. ودعا غيرهم، ممن رأوا أن الأجزاء المختلفة من الإمبراطورية غالبًا، ما تتخذ مواقف اقتصادية متناقضة، إلى شراكة سياسية أوثق. إن

ليونيل كورتيس، مؤسس جريدتهم المسماة «الطاولة المستديرة» ادعى أنه لا خيار أمام الإمبراطورية البريطانية سوى الاتحاد الفيدرالي أو التفكك. وكان يتحدث باسم الذين ينادون من ضمن أفراد بطانة ميلنر بإقامة اتحاد عضوي وسياسي في الإمبراطورية وإقامة برلمان إمبراطوري منتخب من بلدان الدومنيون ومن بريطانيا نفسها، بما يؤدي إلى قيام مجلس وزراء إمبراطوري يحكم الإمبراطورية كلها، وقد رفض برنامجهم هذا في مؤتمر إمبراطوري عقد عام 1911، ولكن بدا أن انهيار البنى السياسية العالمية خلال الحرب العالمية يوفر فرصة ثانية.

في 19 كانون الثاني (يناير) 1916، وبناء على اقتراح إيميري، أبلغ لويد جورج مجلس العموم. «إننا نشعر أن الوقت قد حان كي تستشار بلدان الدومنيون رسميًا وبصورة أفضل» في مسائل الحرب والسلام<sup>[516]</sup>، وتبعًا لذلك دعا إلى انعقاد مؤتمر حربي إمبراطوري أطلق عليه اسم مجلس الوزراء الحربي الإمبراطوري، على أن يجتمع المؤتمر في لندن بعد ذلك بثلاثة أشهر.

لا أحد كان أكثر ارتياحًا في نيات الحكومة من مندوب جنوب أفريقيا، جان كريستيان سمطس، وهو محام أصبح جنرالًا وقاتل البريطانيين في حرب البوير، ولم تكن عنده رغبة في أن تحكمه لندن. وصل سمطس إلى لندن في 12 آذار (مارس) 1917 لحضور المؤتمر وتعمقت شكوكه عندما تلقى في اليوم عينه دعوة إلى العشاء مع اللورد ميلنر عدوه السابق.

لدى افتتاح المؤتمر نوقش الموضوع فورًا. وأحرز سمطس نصرًا دائمًا. فقد دفع في 16 آذار (مارس) 1917 إلى التصويت قرارًا يقضي بتأجيل النظر في تفاصيل كيفية إعادة تنظيم الإمبراطورية البريطانية حتى انتهاء الحرب، ولكنه ألزم المشاركين في المؤتمر بالموافقة سلفًا على أن يكون أساس إعادة التنظيم هو استقلال جنوب أفريقيا، وكندا، وأستراليا، ونيوزيلندا.

لعل لويد جورج كان أقل شعورًا بخيبة الأمل في هذه النتيجة مما كان زملاؤه من بطانة ميلنر. فقد كانت لرئيس الوزراء أسبابه الخاصة، إذ إنه رأى سبلاً يستطيع بها سمطس دون غيره أن يخدمهم. كان سمطس إداريًا متفوقًا من طراز ميلنر وإيميري وهانكي، وبإمكانه مساعدتهم في إدارة المجهود الحربي. وباعتباره جنرالًا ناجحًا في أيام حرب البوير وبعد ذلك في شرق أفريقيا، وكممثل لبلاد الدومنيون، يستطيع أيضًا أن يساعد لويد جورج بأن يلقي بوزنه ضد الجنرالات البريطانيين. وقد أقنعه لويد جورج بالبقاء في لندن والعمل في مجلس الوزراء الحربي «معارًا» من مجلس وزراء بلاده. وهكذا فإن سمطس لم يعمل كعضو في مجلس الوزراء البريطاني فحسب، بل عمل أيضًا عضوًا في مجلس الوزراء الحربي الإمبراطوري (أو المؤتمر

الحربي الإمبراطوري) وكان هو العضو الوحيد في مجلس الوزراء البريطاني في تاريخ بريطانيا الحديث الذي لم تكن له صلة بأي من مجلسي البرلمان. وقد أمضى بقية الحرب بعيدًا عن بلاده مقيمًا في إحدى غرف فندق سافوي [517].

كتب لويد جورج في ما بعد «إن الجنرال سمطس عبّر عن وجهات نظر ثابتة جدًا إزاء الأهمية الاستراتيجية لفلسطين بالنسبة للإمبراطورية البريطانية» واستحوذ هذا الأمر على لويد جورج في الحال [518]. وقد تحرك سمطس وإيميري في الوقت نفسه لتمتين الروابط الجغرافية بين الكيانات التي تشكل النظام البريطاني، وربما كان تحركهما بسبب القرار الذي اتخذ بعدم تمتين الروابط السياسية للإمبراطورية. وقد ركّز كلا الرجلين على فلسطين. وإذا أردنا تعريف فلسطين بتوسع، وبالترايط مع بلاد الرافدين، نجد أن فلسطين توفر لبريطانيا الطريق البرية من مصر إلى الهند وتوفر الاتصال بين إمبراطورية أفريقيا وإمبراطورية آسيا. ذلك أن الاستيلاء على شرق أفريقيا الألمانية من قبل بوتا وسمطس، قد أوجد بسطة من الأراضي المتصلة التي تسيطر عليها بريطانيا تمتد من مدينة الكاب، الميناء الواقع على المحيط الأطلسي عند الطرف الجنوبي للقارة الأفريقية من جهة، والسويس التي تصل بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر عند الطرف الشمالي الشرقي للقارة الأفريقية من جهة أخرى. فإذا أضيفت فلسطين وبلاد الرافدين تصبح بسطة الأرض الممتدة بين مدينة الكاب والسويس مرتبطة ببسطة الأرض الممتدة عبر بلاد فارس الخاضعة لسيطرة بريطانيا وعبر الإمبراطورية الهندية لتتصل ببورما والملايو والبلدين الكبيرين من بلدان الدومنيون الواقعين في المحيط الهادي - أي أستراليا ونيوزيلندا. في عام 1917 كانت فلسطين هي الحلقة الرئيسية المفقودة التي يمكن أن تربط أجزاء الإمبراطورية البريطانية بعضها ببعض بحيث تشكل سلسلة غير منقطعة تمتد من المحيط الأطلسي إلى منتصف المحيط الهادي.

بطبيعة الحال، رأى رئيس الوزراء الأمور على هذا النحو. وقد كتب في ما بعد «القتال مع تركيا له أهمية خاصة بذاته بالنسبة للإمبراطورية البريطانية... إن الإمبراطورية التركية تقع تمامًا عبر الطريق البرية أو البحرية إلى ممتلكاتنا الكبيرة في الشرق - الهند، وبورما، والملايو، وبورنيو، وهونغ كونغ، وأستراليا، ونيوزيلندا» [519].

كان إيميري على وشك أن يشير على مجلس الوزراء بأن استمرار السيطرة العثمانية (وبالتالي الألمانية) على فلسطين يمثل في المستقبل خطرًا على الإمبراطورية البريطانية، وكان إيميري يشارك رئيس الوزراء اعتقاده بوجود غزو فلسطين فورًا - وبأن سمطس هو الجنرال الذي يجب



أن يقوم بذلك، لأن سمطس لم يكن جنرالاً ناجحاً فحسب، بل كان أيضاً يشاركهما أهدافهما الاستراتيجية المباشرة وأهدافهما الجيوبوليتيكية الأوسع. في 15 آذار (مارس) 1917، اليوم الذي أحرز فيه سمطس انتصاره في المؤتمر الإمبراطوري، كتب إيميري إليه قائلاً:

«إن الشيء الوحيد الجوهرى إذا ما أردنا أن نقوم بعمل كبير وسريع في اتجاه فلسطين، هو وجود جنرال أكثر اندفاعاً وجرأة... ولو كنت أنا ديكتاتوراً لطلبت إليك أن تقوم بالمهمة بصفتك الجندي القيادي الوحيد ذا الخبرة في الحرب المتحركة والذي لم تُحفر خنادق عميقة في عقله» [520].

لقد عرض لويد جورج القيادة على سمطس، فتردد في قبولها وأرسل يطلب نصيحة الجنرال لويس بوتا رئيس وزراء جنوب أفريقيا. كان سمطس ميالاً إلى قبول العرض، ومنطقه للقبول هو «أن الوضع على الجبهات الأخرى كان في غاية الصعوبة وأن فلسطين هي الوحيدة التي يمكن تحقيق نجاح عظيم فيها بهجمة كبيرة» [521]. لقد قرر بوتا وسمطس بعد التشاور أنه يجب قبول العرض إذا كانت الحملة ستشن «على نطاق واسع» وكانت حملة «من الطراز الأول برجالها وسلاحها» [522].

عندئذٍ اجتمع سمطس مع سير وليم روبرتسون، رئيس هيئة الأركان العامة لقوات الإمبراطورية، الذي أوضح له أنه لا ينوي الاستغناء عن القوات والإمدادات المطلوبة من الجبهة الغربية، ورفض فكرة الشرق الأوسط واصفاً إياها بأنها هاجس خاص عند رئيس الوزراء وأنها في أفضل حالاتها «مجرد عرض جانبي» [523]. لم يكن لويد جورج قد أمضى في منصبه سوى أشهر قليلة وكان مركزه ضعيفاً، وسلطته على العسكريين محدودة، فاستنتج سمطس أن لويد جورج لن يتمكن من الوفاء بالوعد الذي قطعه بتوفير الدعم الكامل. وهكذا رفض سمطس عرض توليه قيادة حملة فلسطين، شاعراً أن الحملة في الشرق سيخربها روبرتسون وزملاؤه.

مع ذلك ظل سمطس يبدى اهتماماً شديداً بفلسطين. وقد ذهب هو وإيميري في ما بعد معاً إلى الشرق الأوسط لدراسة الوضع وإعداد تقرير، فعادا كلاهما يحثان على شن هجوم قوي على فلسطين.

وبصفته من جماعة البوير، وتربى على قراءة الكتاب المقدس، كان سمطس مؤيداً قوياً للفكرة الصهيونية عندما أثبتت في مجلس الوزراء. وقد ذكر في وقت لاحق «إن شعب جنوب أفريقيا وخصوصاً السكان الهولنديين الأقدم عهداً، قد تربوا تربية كاملة على التقاليد اليهودية. إن العهد القديم هو عصب الثقافة الهولندية في جنوب أفريقيا» [524]. وقد



نشأ سمطس، مثل لويد جورج، على الإيمان «بأنه سيأتي اليوم الذي تتحقق فيه كلمات الأنبياء ويعود شعب إسرائيل إلى أرضه»<sup>[525]</sup>، كما أنه كان على اتفاق تام مع لويد جورج على وجوب إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين تحت رعاية بريطانية. وسواء أكان سمطس أم لم يكن هو صاحب الفكرة، فقد كان هو المسؤول عن إيجاد الصيغة - المقبولة من وودرو ويلسون - التي بموجبها تتولى بلدان كبريطانيا مسؤولية إدارة مناطق كفلسطين وبلاد الرافدين: فهي ستحكمها بموجب «انتداب» من عصبة الأمم التي ستنشأ في المستقبل. وستوضع هذه المناطق تحت الوصاية وتُحفظ لشعوبها - وهي صيغة هدفها التوافق مع الأفكار الأميركية المعادية للإمبريالية.

وضع إيميري تفاصيل هذه الرؤية الإمبراطورية في نهاية عام 1918، عندما أبلغ سمطس كتابةً أن سيطرة بريطانيا على الشرق الأوسط يجب أن تكون دائمة وألا تنتهي بانتهاء الانتدابات. وكتب يقول، دون أن يفصح عن التفاصيل، إنه حتى عندما تستقل فلسطين وبلاد الرافدين ودولة تنشأ في شبه الجزيرة العربية، يجب أن تبقى هذه المناطق ضمن النظام الإمبراطوري البريطاني. كان يرى أن إمبراطورية المستقبل البريطانية ستكون أشبه بعصبة أمم مصغرة، وأن عُصبة صغيرة أخرى ستنشأ في بقاع أخرى من العالم. ولذلك فإن عصبة الأمم الجامعة التي يدعو إليها وودرو ويلسون ستضم عددًا قليلًا نسبيًا من الأعضاء: إذ سيكون فيها ممثل واحد للنظام البريطاني وممثل واحد عن كل من الأنظمة الفرعية المتعددة الأخرى<sup>[526]</sup>.

ولم يكن في نظر إيميري تباين بين فلسطين بريطانية وفلسطين يهودية. ولم ير سببًا يحول دون انسجام الطموحات البريطانية أو اليهودية مع الطموحات العربية. وقد كتب بعد عقود من السنين عن الذين نافحوا عن الحلم الصهيوني في العامين 1917 و1918 فقال: «معظمنا نحن جيل الشباب الذين شاركوا في هذا الأمل كنا، مثل مارك سايكس، مؤيدين للعرب ومؤيدين للصهيونية، ولم نر تباينًا جوهريًا بين الفكرتين<sup>[527]</sup>».

# الفصل الرابع

## أرض الميعاد

### (1)

بينما كانت سنة 1917 المليئة بالأحداث تأخذ مجراها، كانت سياسة بريطانيا تجاه فلسطين لاتزال تصاغ بأيدي عديدة: بأيدي أعضاء في مجلس الوزراء من ناحية، وبأيدي بيروقراطيين غير معروفين إلا قليلاً خارج الأوساط الرسمية ولا يعرف عنهم سوى القليل الآن، من ناحية أخرى.

عند توزيع العمل في أمانة السر ذات السلطة الواسعة في مجلس الوزراء الحربي، جاء الشرق الأوسط ضمن اختصاص سير مارك سايكس، ربيب كيتشنر، كما سبق أن وقعت ضمن اختصاصه بعيد نشوب الحرب. ولم تكن لدى رئيسه، موريس هانكي، وجهة نظر متشددة في ما يتعلق بالشرق الأوسط، ولذلك كان سايكس، عقب موت كيتشنر وفيتزجيرالد يتصرف من دون أي توجيه فعلي من أعلى.

ولم يكن يعلم أن رئيس الوزراء الجديد يتبنى وجهات نظر ثابتة بشأن تسوية شرق أوسطية وأن وجهات النظر هذه تختلف اختلافاً كبيراً عن وجهات نظره. كما أنه لم يشارك في المفاوضات السرية التي جرت بواسطة زاخاروف والتي كشفت خلالها شروط رئيس الوزراء للصالح في الشرق الأوسط.

لذلك ظل سايكس آنذاك يدور حائراً وعلى مسؤوليته وبدون توجيه، حول مسألة فلسطين. كانت التعليمات التي تلقاها من كيتشنر وفيتزجيرالد تقضي بأن يعتبر فلسطين غير ذات أهمية استراتيجية لبريطانيا، ولم يقم أحد إطلاقاً بإلغاء هذه التعليمات. غير أنه علم من خلال المفاوضات مع فرنسا وروسيا في عام 1916 أن الأرض المقدسة تهم عاطفياً الكثير من اليهود الذين شعر سايكس آن تأييدهم قد يكون حيوياً بالنسبة للحلفاء. ومع ذلك فإن الرأي العام اليهودي قد تنقّر بعض الترتيبات التي يفاوض بشأنها حلفاء بريطانيا ومؤيديها المحتملين، والخاصة بالشرق الأوسط بعد الحرب. وبينما كان يجري مباحثات مع فرنسيين وروسيين وأرمن وعرب، تملكه خوف - وهو خوف لا أساس له ولكنه كان حقيقياً في نظره - من أن يتعرض كل عمل ينجزه مع طرف آخر لحظر إفشاله نتيجة المقاومة اليهودية.

في بداية عام 1917 كان سايكس يجري حواراً مع جيمس مالكولم، وهو رجل أعمال أرمني، بشأن إقامة دولة أرمنية قومية مستقلة. وقد فكراً بدعوة روسيا إلى الشرق الأوسط بعد الحرب كدولة حامية لأرمينيا موحدة. ولكن بما أن سايكس اعتقد ان الراي العام اليهودي يُكنّ لروسيا عداً شديداً، فقد رأى أنه لا بد من عمل شيء مسبقاً لإبطال المعارضة اليهودية المحتملة لمشروع يسمح بتوسيع روسيا الامبراطورية، ولذلك طلب إلى مالكولم أن يدلّه على زعماء الصهيونية ليتصل بهم في هذا الصدد.

سبق لمالكولم ان التقى ليوبولد غرينبرغ، الشريك في ملكية جريدة «جويش كرونيكل» ورئيس تحريرها، الذي صادف أن عمل بصفة الممثل البريطاني لتيودور هرتزل، فكتب مالكولم إلى غرينبرغ ليسأله من هم زعماء المنظمة الصهيونية، فلما تلقى الجواب، نقل المعلومات التي تلقاها إلى سايكس، وبدأ من هذه المعلومات ان اسمين لهما أهمية خاصة: ناحوم سوكلوف، أحد مسؤولي الحركة الصهيونية الدولية، والدكتور حاييم وايزمان، أحد مسؤولي الاتحاد الصهيوني البريطاني والذي كان معارضاً لقرار الحركة الصهيونية بالبقاء على الحياد في الحرب العالمية [528]. وقدم مالكولم نفسه إلى وايزمان، وبعد ذلك، في 28 كانون الثاني (يناير) 1917 قدم وايزمان إلى سايكس.

لم يكن وايزمان يعلم أن الحلفاء قد شرعوا فعلاً في اعداد الخطط للشرق الأوسط بعد الحرب، ولكنه رغب في أن يحصل على التزام من بريطانيّاً بشأن فلسطين بينما الحرب مستمرة. وبصفته عالماً كيميائياً، قدم إسهاماً هاماً إلى المجهود الحربي عندما تبرع للحكومة باكتشافه طريقة لاستخراج الاسيتون من الذرة الصفراء - والاسيتون هو أحد العناصر الهامة التي تدخل في صنع المتفجرات [529]. ولكن وايزمان بالرغم من خدمته للحرب واتساع دائرة معارفه في أوساط كبار المسؤولين المعنيين بإدارة المجهود الحربي، لم يعرف أنه كان في بريطانيا مسؤول مهمته هي التفاوض لتحديد شكل الشرق الأوسط بعد الحرب. فقد كان هناك زعيم صهيوني بريطاني آخر، هو الحاخام غاستر، على معرفة مع سايكس - وكان يعرف أيضاً أن المهمة موكلة إلى سايكس ولكنه اعتبر وايزمان منافساً له فاحتفظ بما لديه من معلومات لنفسه بدافع الغيرة. ولذلك عرف وايزمان بأمر سايكس بطريق المصادفة وذلك عندما تحدث سايكس عن مهمته إلى جيمس دوروتشيلد في مطلع عام 1917، في معرض حديث عابر عن اسطبلاتهما لتربية الخيول، وقد انتقل نقل روتشيلد المعلومات التي سمعها إلى وايزمان، وكان هذا على وشك أن يتخذ ترتيبات ليجتمع مع سايكس فإذا بجيمس مالكولم يضع ترتيبات لكي يجتمع سايكس مع وايزمان.

كلاهما كان يرغب في أن يفعل ما أراد منه الآخر أن يفعله. فقد رغب سايكس في العثور على شخص يستطيع ان يفاوضه من أجل تحالف بين المصالح البريطانية والمصالح الصهيونية ورغب وايزمان في أن يكون هو ذلك الشخص.

كانت اجتماعاتهما الأولى على أساس غير رسمي. وحاول سايكس منذ البداية، كعادته دائماً، ان ينسق جميع مشاريعه الشرق أوسطية في إطار اتفاقية سايكس - بيكو - سزانوف القائمة - والتي كانت لاتزال سرية، ولم يكن وايزمان يعرف شيئاً عنها. وهذه الاتفاقية تقضي بوضع الأماكن المقدسة تحت إدارة دولية. ولذلك بدأ سايكس الحديث باقتراح أن يكون الكيان اليهودي في فلسطين تحت حكم بريطاني - فرنسي مشترك (حكم ثنائي) - مع انه لم يستطع أن يكشف لوايزمان سبب تقديمه هذا الاقتراح، وكان سايكس، دون أن يدرك، غير مواكب ليس لخطوات الزعماء الصهيونيين فحسب، بل لخطوات رئيس الوزراء أيضاً. فقد كان لويد جورج يريد شأنه شأن وايزمان وزملائه - أن تكون فلسطين بريطانية. ومع أن سكوت، رئيس تحرير جريدة «مانشستر غارديان» ومحط ثقة لويد جورج، أشار على وايزمان بأن يبحث الأمر مع رئيس الوزراء، قرر وايزمان التركيز على تعديل أفكار سايكس بدلاً يأتيه من أعلى [530].

اجتمع سايكس مع وايزمان وصهيونيين بريطانيين آخرين في لندن بتاريخ 7 شباط (فبراير) 1917 فأبلغوه انهم يعارضون فكرة الحكم الثنائي ويريّدون أن تكون فلسطين تحت الحكم البريطاني. فأجابهم سايكس بأن كل الصعوبات الأخرى يمكن ايجاد حل لها (قال لهم: «العرب يمكن تدبير أمرهم») أما رفض الحكم الثنائي فيضعهم أمام مشكلة ليس عنده حل أكيد لها. وقال إن فرنسا هي «الصعوبة الجدية» [531]، مبيّناً أن فرنسا ترفض الاعتراف بأن إعطاء امتيازات للصهيونية يساعد في الحرب. واعترف سايكس للزعماء الصهاينة بأنه لا يستطيع فهم السياسة الفرنسية في هذا الصدد. وتساءل: «ما هو دافع فرنسا؟» [532]

في اليوم التالي قام سايكس بتقديم الزعيم الصهيوني الدنيوي ناحوم سوكولوف إلى فرانسوا جورج بيكو الذي أبلغ سوكولوف انه بعد ان رأي نتائج اقامة المستعمرات اليهودية في فلسطين، يعتقد بأن برنامج الاستيطان اليهودي قابل للتنفيذ. وقد حدث التعارف بين سوكولوف وبيكو في منزل سايكس في شارع بكنغهام غيت رقم 9 في لندن.

وقال سوكولوف مخاطباً بيكو أن اليهود يكونون لفرنسا إعجاباً شديداً ولكنهم «منذ أمد طويل يفكرون بأن تكون السلطة للحكومة البريطانية» [533]

فأجابه بـ"أن مسألة السلطة متروكة للحلفاء ليقرروها في ما بينهم". ثم أضاف أنه سيبدل قصارى جهده لاطلاع حكومته على الأهداف الصهيونية، ولكنه لا يرى إمكانية لأن تقرر حكومته التخلي عن مطلبها في فلسطين. وقال إن 95 ٪ من الشعب الفرنسي يريد من فرنسا أن تضم فلسطين إليها [534].

اتفق جميع المعنيين على انتظار ما تحمله الأحداث، ولم تكن الأحداث بطيئة في تتابعها. ففي غضون شهرين أطيح بقيصر روسيا ودخلت الولايات المتحدة الحرب. وسرعان ما تنبه سايكس إلى ما يعنيه هذان الحدثان بالنسبة لترتيباته مع بـ"يـ". فقد كان ملايين اليهود يعيشون ضمن امبراطورية القيصر، ورأى سايكس بعد الثورة الروسية في آذار (مارس) أن ضمان تأييد هؤلاء اليهود قد يساعد في استمالة الحكومة الروسية الجديدة إلى البقاء في الحرب [535]. وفي الوقت نفسه عزز دخول الولايات المتحدة الحرب قناعته بأن الحلفاء الأوروبيين سيضطرون إلى إثبات سلامة مطالبتهم بمركز لهم في الشرق الأوسط بعد الحرب عن طريق تبني رعاية الشعوب المقهورة، مثل اليهود والعرب والأرمن. ولهذين السببين شعر أن لديه حججاً جديدة يقنع بها الحكومة الفرنسية باتخاذ موقف أكثر تعاطفاً تجاه الصهيونية. في هذه الأثناء كانت محادثاته مع بـ"يـ" على وشك أن تستأنف: وقد نجح لويد جورج في إصدار أمر إلى الجيش البريطاني في مصر بمحاولة غزو فلسطين في عام 1917، وهذا ما حمل الحكومة الفرنسية على الإصرار على إرسال بـ"يـ" إلى مصر لمرافقة قوات الغزو البريطانية - فردّت الحكومة البريطانية على ذلك بإصدار أمر إلى سايكس بأن يذهب هو أيضاً إلى مصر ليكون صلة وصل بين بـ"يـ" والقائد العسكري البريطاني. كانت نظرة بـ"يـ" إلى الغزو البريطاني المقبل أنه هجوم على المصالح الفرنسية. وقد قال في تقرير كتبه «أن لندن تعتبر الآن اتفاقيتنا حبراً على ورق. فالجنود البريطانيون سيدخلون سورية من الجنوب - أي من مصر وفلسطين - وسوف يشتمون شمل مؤيدنا» [536].

أصبح لويد جورج متبرماً بمطالب فرنسا في الشرق الأوسط، فأبلغ وايزمان أن مستقبل فلسطين مسألة حلها بين البريطانيين واليهود [537]. وقال أنه لا يستطيع أن يفهم سبب اهتمام سايكس بالاعتراضات الفرنسية، وقال لوايزمان أن فلسطين «بالنسبة لي هي في الحقيقة الجانب الوحيد الجدير بالاهتمام في الحرب» [538].

بعد ظهر 3 نيسان (أبريل) 1917 توجه سايكس، المعين حديثاً لرئاسة البعثة السياسية لدى القائد العام لقوات الحملة المصرية، إلى شارع داوونغ

رقم 10 لتلقي التعليمات الأخيرة قبل سفره. وقد اجتمع هناك مع رئيس الوزراء واللورد كورزون وموريس هانكي. واقترح سايكس أن يحاول إثارة تمرد القبائل العربية وراء خطوط العدو، ولكن لويد جورج وكورزون شددوا على أهمية عدم إلزامه بريطانيا باتفاق مع القبائل، من شأنه أن يلحق الضرر بالمصالح البريطانية. وقد طلبا إليه علي وجه التحديد ألا يفعل شيئاً من شأنه أن يزيد المشكلة مع فرنسا تفاقمًا، وأن يضع في ذهنه «أهمية الإساءة إلى الحركة الصهيونية وامكانية تطويرها تحت رعاية بريطانية» [539]. ويفيد محضر الاجتماع أن «رئيس الوزراء شدد على أهمية ضمان إضافة فلسطين إلى المنطقة البريطانية في الشرق الأوسط بعد الحرب إذا كان ذلك ممكناً» [540]. وحذر رئيس الوزراء سايكس من إعطاء أية تعهدات إلى العرب «وخصوصاً إعطاء أي تعهد يتعلق بفلسطين» [541]

توقف سايكس أولاً في باريس حيث أقام في فندق لوتي في شارع كستليون، على بعد خطوات من ساحة فاندوم ونصبها التذكاري الذي يخلد نابليون بونابرت وفتوحاته. وخلال وجوده هناك قال ليكو انه ينبغي لفرنسا أن تغير طريقة تفكيرها وأن تتخذ موقف عدم ضم المناطق إليها، موضحاً أن ذلك قد ينطوي على رعاية أميركية أو بريطانية لإحياء يهودا ورعاية فرنسية لإحياء أرمينيا. وقد فوجي سايكس بأن بيكو بدا محرجاً بما سمع منه [542].

وقد أرسل سايكس من فندق لوتي بتاريخ 8 نيسان (ابريل) 1917 رسالة إلى وزير خارجية بريطانيا، آرثر بلفور، تفيد أن الفرنسيين يتخذون موقفاً عدائياً من فكرة المجيء بالولايات المتحدة إلى فلسطين بصفة راعية للصهيونية، وأنهم يخافون أن تصبح الولايات المتحدة إذا ما دخلت الشرق الأوسط، منافسة تجارية لفرنسا في المنطقة. وتابع قائلاً: «وفي ما يتعلق بالصهيونية نفسها، بدا الفرنسيون يدركون أنهم في مواجهة أمر كبير، وأنهم لا يستطيعون أن يغمضوا عيونهم عنه» [543].

كانت وزارة الخارجية الفرنسية تعتقد، مثلما كان سايكس يعتقد، في ذلك الحين، أن باستطاعة يهود روسيا أن يساعدوا في إبقاء روسيا شريكة في الحرب، في وقت كانت الكوارث العسكرية فيه على الجبهة الغربية تجعل الجبهة الشرقية بالغة الأهمية. وبدا ناحوم سوكولوف، الذي قدمه سايكس إلى وزارة الخارجية الفرنسية، مستعداً لتقديم المساعدة في هذا الشأن. وقد سارت مباحثاته مع المسؤولين الفرنسيين سيراً حسناً. وكتب سايكس إلى بلفور بتاريخ 9 نيسان (ابريل) قائلاً: «الوضع الآن هو أن الفرنسيين

يعترفون بأن الطموحات الصهيونية شرعية<sup>[544]</sup>. بيد ان فرنسا ظلت متشبثة بمطالبها في الشرق الأوسط. وقد اجتمع سايكس مع زعيم كتلة دعاة الاستعمار الفرنسيين، عضو مجلس الشيوخ بيير - إيتان فلاندان. وكتب في 15 نيسان (ابريل) إلى وزارة الخارجية البريطانية ليلغها أن فلاندان مستمر في إصراره على حصول فرنسا على ساحل سورية ولبنان وفلسطين بكامله حتى العريش في سيناء المصرية. وادعي فلاندان ان «بيكو أحرق وانه خان فرنسا» بما قدم من تنازل لبريطانيا في اتفاقية سايكس - بيكو<sup>[545]</sup>.

انتقل سايكس من باريس إلى روما حيث اتخذ ترتيبات لتمكين ناحوم سوكلوف من الدفاع عن القضية الصهيونية أمام البابا والمسؤولين في الفاتيكان. ولكن برزت مشكلة جديدة أفسدت أي أمل قد يكون استوحاه من اجتماعاته في الفاتيكان: فقد أكد وزير خارجية إيطاليا، البارون سيدني سونينو، تأكيداً شديداً مطالبة إيطاليا بحصة في الشرق الأوسط بعد الحرب. وما أن وصل سايكس إلى القاهرة، حتى جمع حلفاءه المختلفين لإقناعهم بالعمل معاً، فقدم أولاً بيكو إلى الزعماء العرب في القاهرة، ثم اتخذ ترتيبات لرحلة يقوم بها هو وبيكو إلى شبه جزيرة العرب للاجتماع بالشريف حسين وإطلاعه، ولو بطريقة عامة، على أحكام اتفاقية سايكس - بيكو - سazanوف السرية. وكان سايكس متفائلاً في اعتقاده أنه حمل الحسين على الاعتراف بأن الفرنسيين يمكنهم أن يكونوا على قدر من المساعدة للعرب في سورية، وانه أقنع القادة العرب بأن يفهموا أن العرب أضعف من أن يتولوا بأنفسهم المسؤولية في منطقة تتشابك فيها المصالح مثل فلسطين، وانه توصل إلى الفهم ان عرب فلسطين سيوافقون على وضع قومي<sup>[546]</sup> للجالية اليهودية في فلسطين إذا حصل السكان العرب على الوضع عينه<sup>[547]</sup>.

في القاهرة، تلقي سايكس تحذيراً من كلايتون وأصدقائه في المكتب العربي من الوجود الفرنسي في الشرق الأوسط، لأن هذا الوجود سوف يسبب المشاكل<sup>[548]</sup>. ولكن سايكس، بطيبة قلبه وصفاء طويته، ظل يعتقد أن أصدقائه قد وقعوا ضحايا «الفاشودية» - أي الرغبة في أن يبرّوا الفرنسيين على غرار ما فعل كيتشنر في فاشودا - وانه ينبغي لأصدقائه ان يظهروا المزيد من الوفاء لحليفهم، واستمر سايكس في محاولته لجعل بيكو شريكاً حقيقياً، واقترح أن يقوم المندوب الفرنسي بإعداد سياسة مشتركة مع أبناء الشريف حسين بحيث تتمكن بريطانيا وفرنسا من إقامة علاقات تعاونية وبناءة ومتوازية مع الحكام العرب في الشرق الأوسط بعد

الحرب. وفي 12 أيار (مايو) أبرق إلى لندن قائلاً: «لقد توصل بيكو إلى اتفاق مع ممثلي العرب»<sup>[549]</sup>.

وبعد بضعة أسابيع كتب إلى زميل له قائلاً: «أظن ان الفرنسيين مستعدون للتعاون معنا في سياسة مشتركة إزاء الشعب الناطق بالعربية»<sup>[550]</sup>.



## (2)

في النصف الأول من عام 1917، أرسل الجنرال سير ارشيبالد موري، قائد الجيش البريطاني في مصر - أي قوة الحملة المصرية - قواته في هجمات متقطعة باتجاه فلسطين. وسواء أكان السبب ان لندن ظلت تصدر تعليمات ثم تتبعها بتعليمات معاكسة، أو عدم كفاءة الجنرال موري، أو كان السبب كلا الأمرين، فقد أتاح موري للضباط القادة الألمان ولقواتهم التركية الوقت اللازم لإعادة تجميع هذه القوات. ثم انه بعد ذلك سارع إلى شن هجوم - على غزة، التي تسيطر على الطريق الساحلية إلى فلسطين - في وقت مبكر من صباح 29 آذار (مارس) فمُنَى بالهزيمة. كان كرييس فون كريسنشتاين، الضابط الألماني اللامع، قد حصّن غرة تحصيناً جيداً، فكانت الإصابات في صفوف قواته تعادل نصف عدد الإصابات في الجانب البريطاني. عندئذ طلب موري تعزيزات من مصر وشن هجوماً ثانياً على غزة المحصنة في 29 نيسان (أبريل) ومرة أخرى هزمه كريسنشتاين وكانت الهزيمة هذه المرة أشد وقعاً، فبلغت نسبة الإصابات في صفوف القوات البريطانية إلى الإصابات في صفوف القوات التركية نسبة ثلاثة إلى واحد. انسحبت القوات البريطانية منهكة ومحبطة، وفي غضون أسابيع أعفي سير ارشيبالد موري من قيادة الجيش البريطاني في مصر. كان لويد جورج مصمماً استئناف المعركة من أجل فلسطين في فصل الخريف، ولكن لندن لم تكن، في ذلك الحين، مستعدة لزج قوات جديدة في على الحملة.

بعد الهزيمتين اللتين لحقتا بالجنرال موري، خشي سير مارك سايكس أن يعتمد الأتراك - في المدة السابقة لاستئناف الهجوم البريطاني في الخريف - إلى الانتقام من السكان اليهود، والعرب والأرمن الذين كان يسعى هو باسّم الحلفاء إلى كسب تأييدهم، فأبرق إلى وزارة الخارجية البريطانية مقترحاً ألا تتابع بريطانيا مشاريعها المتعلقة بالصهيونيين والعرب والأرمن ما دامت هذه المشاريع تعرّض هذه الشعوب للخطر<sup>[551]</sup>. ولم يلق اقتراحه استجابة.

بعد الاحباطات التي سببتها أخبار الحرب - فشل الهجوم الفرنسي في شامانيا، وتمرد وحدات الجيش الفرنسي هناك، وتفكك روسيا، واخفاق الجنرال موري في غزو فلسطين - علق سايكس أهمية أكبر على كسب تأييد شعوب الشرق الأوسط. وقد بدا له، كما بدا لكل من ليو ايميري وزملائه، أن النصر قد لا يكون نهائياً حتى ولو ربح الحلفاء الحرب، وأن أية مواقع قد يكسبها الحلفاء في الشرق الأوسط قد تكون عرضة لضغط متواصل من تركيا الخاضعة لسيطرة المانيا، وأن تركيا سوف تستند في هذا الضغط إلى مكانة السلطان القيادية بين المسلمين.

ورأي سايكس أن ذلك يؤكد أن مطالب الضم التي قدمتها فرنسا ما قبل كليمنصو وإيطاليا البارون سونينو هي مطالب تدل على قصر النظر. وفي مذكرة عنوانها «مذكرة بشأن اتفاقية آسيا الصغرى» قال ما يلي:

«يجب حتماً استبعاد فكرة الضم، لأنها مناقضة لروح العصر، وإذا ما حدث في أية لحظة أن وقعت نسخة في أيدي المتطرفين الروس فإنهم قد يستغلونها أشد استغلال ضد دول التحالف كلها، لا سيما ضد المطلب الإيطالي الذي يجافي القومية والجغرافيا والعقل السليم، والذي لا يعدو كونه تنازلاً من البارون سونينو لفئة شوفينية لا هم لها إلا الهبش».

وتابع قائلاً إنه لو تحلّت فرنسا بالحكمة لتعاملت مع مناطق نفوذها في الشرق الأوسط على غرار ما تنوي بريطانيا أن تفعل في مناطق نفوذها، أي أن ترعى فرنسا استقلال العرب في سورية ولبنان، وإلا فإن على بريطانيا ألا تفعل شيئاً لمساعدة فرنسا في معالجة المشاكل التي ستجلبها لنفسها.

وكتب سايكس شارحاً رؤيته للمستقبل «أريد أن أرى تفاهماً بريطانيا - فرنسا بالتحالف مع اليهود والعرب والأرمن، يجعل الاسلام عديم الأذى ويحمي الهند وإفريقيا من الائتلاف التركي - الألماني الذي اعتقد أنه قد يستمر بعد غياب أسرة هوهنزولرن» [552]

لقد كان لوجهة نظر سايكس هذه الفوز على وجهة نظر إيميري، وقد كتب إيميري في ما بعد قائلاً:

«لا أحد غير اليهود يستطيع انشاء حضارة قوية في فلسطين، بها يستطيع ذلك البلد أن يصمد بذاته في وجه القهر الألماني - التركي... وسيكون أمراً قاتلاً إذا ما جُندت المصالح اليهودية في سائر أنحاء العالم إلى جانب الألمان» [553]

### (3)

انتخب حايم وايزمان رئيساً للاتحاد الصهيوني البريطاني في شباط (فبراير) 1917، وبذلك تمكن من أن يقترح رسمياً أن تصدر بريطانيا التزاماً علنياً بتأييد إقامة وطن يهودي في فلسطين. وبعد لقاءاته مع سايكس واصل الاجتماع بمسؤولين بريطانيين، فعبر هؤلاء عن تعاطفهم مع أفكاره.

إن اللورد روبرت سيسيل، وكيل وزارة الدولة البرلماني للشؤون الخارجية وثالث أبناء اللورد سالزبوري آخر رئيس وزراء في عهد الملكة فيكتوريا، قد غيّر عقيدته وأخلص لعقيدته الجديدة. لقد قُتل خمسة شباب من أسرة سيسيل في الحرب العالمية الأولى، وهذا ما دفع باللورد روبرت إلى إعداد مسودة مذكرة تتضمن الخطوط العامة لخطة من أجل السلام الدائم: هي المسودة الأولى لما أصبح لاحقاً ميثاق عصبة الأمم. ولكن أفكاره عن تقرير المصير أزعجت زملاءه السياسيين الذين تنبهوا إلى أن خطته ستؤدي منطقياً إلى حل الامبراطورية البريطانية<sup>[554]</sup>. وقد قال أحد كتّاب المقالات المعاصرين باستغراب «لقد حمل الصليب في حملة صليبية دولية غريبة من أجل السلام، فوجد حلفاءه في أماكن يبحث فيها عادة آل سيسيل عن أعدائهم<sup>[555]</sup>»، وتبني بالروح الصليبية عينها قضية إقامة فلسطين يهودية.

كان ثمة متعاطف آخر هو سير رونالد غراهام، وهو مستعرب عاد إلى وزارة الخارجية بعد أكثر من عشر سنين من الخدمة أمضاها في مصر، حيث كان هو أول مسؤول بريطاني بحث مع فلاديمير جابوتنسكي انشاء وحدة عسكرية يهودية ضمن الجيش البريطاني. ولدى عودته إلى لندن حث وزارة الخارجية على إعلان تأييدها للصهيونية. ومع أن فكرة التزام بريطانيا بالصهيونية كانت من وحي جيرالد فيتز موريس ومارك سايكس، فقد يكون غراهام مسؤولاً أكثر من أي شخص آخر في الحكومة عن تجسيد هذا الالتزام فعلياً في وثيقة رسمية، بالرغم من أن هناك ميلاً لدى المؤرخين لتجاهل دوره - وربما كان السبب انه لم يخلف محفوظات ووثائق أو أوراقاً خاصة.

كان غراهام وغيره من المسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية يعرفون معرفة أكيدة أن فرنسا هي العقبة على طريق إعطاء حايم وايزمان الالتزام العلني الذي طلبه. وقد استنتج غراهام، كما استنتج من قبله سايكس، أن ما يضعف الصهيونية هو ارتباطها ببريطانيا حصراً. وقد ألقاه أن يقامر الصهيونيون بكل شيء في رهانهم على امكانية أن تتولى بريطانيا حكم فلسطين - جهلاً منه باتفاقية سايكس - بيكو السرية التي تعهدت

بريطانيا بموجبها ألا تفعل ذلك. وفي 19 نيسان (ابريل) 1917 كتب غراهام إلى سايكس قائلاً إنه ليس بالأمر المريح ان تعتمد الحركة الصهيونية اعتماداً كاملاً على امكانية أن يكون الحكم في فلسطين لبريطانيا[556].

غير انه كان من العسير معرفة كيف يمكن للحركة الصهيونية ان تتجه إلى فرنسا طلباً للتأييد. ففي وزارة الخارجية البريطانية كانوا لا يتحدثون عن الصهيونية إلا باحتقار، كما أن شرائح هامة من الرأي العام الفرنسي كانت طوال الوقت تعبر عن عدااء للحركة الصهيونية وتعتبرها حركة موالية لألمانيا. ولم تجتذب الصهيونية سوى القليل من تأييد يهود فرنسا، ونتيجة لذلك استخفت الحكومة الفرنسية بقوة هذه الحركة، حتى جاءت الثورة في روسيا فجعلت اليهود يظهرون أهم سياسياً بكثير مما هم في واقعهم. بل ان الأحداث التي وقعت في روسيا جعلت كسب التأييد الصهيوني أمراً مرغوباً فيه، ولكن وزارة الخارجية الفرنسية ترددت في السعي وراء هذا التأييد خشية أن يكون أي التزام بالصهيونية من جانب الحلفاء معادلاً لتخلي فرنسا عن مطالبتها بفلسطين.

هذه المشكلة حلها ناحوم سوكولوف الذي تعمد في مفاوضاته مع وزارة الخارجية الفرنسية ألا يثير مسألة البلد الذي ينبغي أن يتولى الحماية في فلسطين. وهذا ما جعل المسؤولين في وزارة الخارجية الفرنسية يفترضون بقاء الصهيونيين على الحياد إزاء هذا الموضوع. ولم يكن لدى المسؤولين الفرنسيين استعداد لتأييد الصهيونية في فلسطين بعد الحرب - ولم يتبادر إلى ذهنهم السماح لليهود بتحقيق وضع قومي منفصل - ولكنهم لم يروا ضرراً في تقديم التشجيع للصهيونيين ما دامت هذه الكلمات بلا معني، معتقدين أن بالإمكان كسب الذين يؤمنون «بأحلام اليقظة» الصهيونية عن طريق منحهم شكلاً من أشكال التشجيع اللفظي الذي لا يرقى إلى مرتبة الالتزام الحقيقي[557]. ولقاء موافقة سوكولوف على الذهاب إلى روسيا ليستخدم تأثيره على اليهود هناك، سلمه جول كامبون، المدير العام لوزارة الخارجية الفرنسية، بتاريخ 4 حزيران (يونيو) 1917 تأكيداً خطياً رسمياً بتعاطف الحكومة الفرنسية، بالنص التالي:

«لقد تكلمت بعرض المشروع الذي نذرت جهودك له والذي يهدف إلى تنمية الاستعمار اليهودي في فلسطين. إنك ترى، فيما إذا سمحت الظروف من جهة، وأمكن الحفاظ على استقلال الأماكن المقدسة من جهة أخرى، أن المساعدة بواسطة حماية الدول الحليفة، في بعث القومية اليهودية في الأرض التي تُفي منها شعب اسرائيل قبل قرون عديدة هي عمل من أعمال اقرار العدل والتعويض.

والحكومة الفرنسية، التي دخلت الحرب الحالية دفاعاً عن شعب هُوجِم ظلماً، والتي تواصل الكفاح لضمان انتصار الحق على القوة، لا يسعها إلا أن تشعر بالتعاطف مع قضيتكم التي يرتبط انتصارها بانتصار قضية الحلفاء. يسعدني بذلك أن أقدم لكم هذا التأكيد [558].».

كان تأكيداً دقيق الصياغة. فالأمر الذي أغفله هذا التعهد هو صلب الفكرة الصهيونية: أي بعث الأمة اليهودية في نطاق كيان سياسي خاص بها. علاوة على ذلك، فإن الأماكن المقدسة، التي قضى تعهد التعاطف الفرنسي بأن تبقى مستقلة هي بموجب التعريف الفرنسي في اتفاقية سايكس - بيكو قطاع كبير يشمل معظم فلسطين المأهولة غربي نهر الأردن. وإذا ما طبق ذلك التعريف، يكون التعاطف الفرنسي مع الأمة اليهودية في فلسطين مقتصرًا على حيفا، والخليل، وشمال الجليل، وصحراء النقب. أي أن رسالة كامبون كانت، كما أريد لها أن تكون غير ملزمة [559].

على أية حال فإن الفرنسيين تذاكوا على أنفسهم بمناورتهم. فالتأكيد الرسمي الذي صاغوه صياغة حذرة ليكون بلا معني، يسمح للبريطانيين أن يصدروا تأكيداً من جانبهم. وعندما يصبح أمراً معروفاً أن الحلفاء يؤيدون الطموحات اليهودية في فلسطين، مهما كان تعريف هذه الطموحات، يكون للحركة الصهيونية دور هام في انتقاء دولة الحماية، وعندئذٍ ستختار بريطانيا. وهذه مسألة كانت أقل أهمية بالنسبة إلى غراهام وسايكس اللذين كان هدفهما الرئيس في ذلك الحين ضمان وطن لليهود في فلسطين، مما كانت بالنسبة إلى ليو ايميري وأصدقائه، الذين كانت الصهيونية تجتذبهم لأنها بصورة رئيسة تضمن أن تصبح فلسطين بريطانية.

وقد تسلح غراهام ويسييل بالبيان الفرنسي المكتوب الذي عاد به سوكلوف من باريس فأشار على بلفور في منتصف حزيران (يونيو) 1917، بأن الوقت قد حان لصدور التزام بريطاني بالصهيونية، كتابة وعلناً. كان بلفور مهياً لذلك فدعا وايزمان إلى المشاركة في إعداد مسودة وثيقة مناسبة. وهذا ما كان وايزمان وسايكس ينشدانه طوال الوقت.

استمرت عملية إعداد مسودة النص الملائم وتقرير الجهة التي يجب توجيه الوثيقة إليها طوال فصل الصيف حتى شهر أيلول (سبتمبر)، وعندها تولى الأمر ميلنر وليو ايميري. وكانت جميع الشخصيات الحكومية تقريباً التي يحسب لها حساب ميالة للموافقة على البيان المقترح، وسبق لسايكس، بدعم من اورمسبي - غور، أن أقنع أمانة سر مجلس الوزراء الحربي بتأييد الصهيونية. أما بلفور، وزير الخارجية، فكان منذ زمن طويل متعاطفاً الصهيونية واعتقد الآن بأن على بريطانيا أن تجهر بتأييد الصهيونية، وكان سيسيل وغراهام من محرضيه على ذلك من داخل وزارته. أما سمطس

فكان شديد الموالاة للصهيونية. إضافة إليه أخذ ميلنر ومجموعته، ومن ضمنها فيليب كير، أحد العاملين في أمانة سر رئيس الوزراء، ينظرون إلى إقامة فلسطين يهودية على أنها مصلحة حيوية للإمبراطورية البريطانية. كان رئيس الوزراء دائم السعي إلى تنفيذ برنامج صهيوني. وفي حين أنه لم يظهر اهتماماً بإعلان نيات بريطانيا مسبقاً فإنه لم يضع أية عقبة على طريق هذا الاعلان من قبل حكومته بمجرد أن يرى زملاؤه فائدة في ذلك.

ولكن ما لبث الاقتراح الداعي بلفور إلى إصدار إعلانه المؤيد للصهيونية، أن واجه معارضة حالت دون إصداره. هذه المعارضة جاءت من كبار الشخصيات في الجالية اليهودية البريطانية. وقاد فريق المعارضة من داخل مجلس الوزراء ادوين مونتاغيو، وزير الدولة لشؤون الهند. كان مونتاغيو، وابن عمه هيربرت صامويل، وروفوس ايزاكس (اللورد ريدينغ) متقدمين على أبناء ديارتهم، باعتبارهم أول ثلاثة من اليهود أعضاء في مجلس الوزراء البريطاني<sup>[560]</sup>. وكان مونتاغيو ثاني أبناء رجل ناجح من رجال المال، حصل على لقب من ألقاب النبلاء، وقد رأى في الصهيونية خطراً على المكانة التي بلغها بجهد كبير هو وأسرته في المجتمع البريطاني. وقد استند في دفاعه عن موقفه إلى أن اليهودية ديانة وليست قومية، والقول بغير ذلك يعني القول بأنه ليس بريطانيا مئة بالمئة.

كان مونتاغيو يُعتبر إلى حد كبير أكثر الشباب كفاءة في صفوف حزب الأحرار، واعتُبر نجاح رئيس الوزراء في انتزاعه هو وتشرشل من اسكويث ضربة معلم سياسية. ولكن مما له دلالة صدور تعقيب سياسي آنذاك (عن اللورد ديربي، وزير الحربية) قال فيه: «إن تعيين مونتاغيو، اليهودي في وزارة شؤون الهند، قد خلق، حسبما أرى، شعوراً بعدم الارتياح في الهند وهنا» غير أن ديربي أضاف: «أنا شخصياً، أحمل فكرة سامية عن كفاءته واتوقع له النجاح»<sup>[561]</sup>. ومما أزعج مونتاغيو أنه رغم عدم تدينه، لا يستطيع أن يتفادي وصفه بأنه يهودي. كان مليونيراً وابن لورد انكليزي، ولكن لم يجد مفرّاً من الانتخاب قائلاً: «كافحت طوال حياتي للهرب من الغيتو»<sup>[562]</sup>.

كانت البينات تشير إلى أن مونتاغيو بعدم انتمائه إلى الصهيونية إنما كان يتحدث باسم غالبية اليهود. ففي عام 1913، آخر تاريخ توفرت فيه أرقام، كانت نسبة يهود العالم الذين أظهروا ولاءهم للصهيونية لا تتجاوز نحو واحد بالمئة<sup>[563]</sup>. وقد أشارت تقارير المخابرات البريطانية إلى انبثاق الشعور الصهيوني خلال الحرب داخل منطقة المحيط المغلق للوجود اليهودي في روسيا، ولكن لا توجد أرقام تثبت ذلك أو تبين عدد اليهود الذين شعروا هذا

الشعور<sup>[564]</sup>. أما في بريطانيا فإن اللجنة المشتركة التي تمثل يهود بريطانيا في سائر الأمور المتعلقة باليهود في الخارج، فقد كانت منذ البداية معارضة للصهيونية واستمرت معارضة لها<sup>[565]</sup>.

معارضة مونتاغيو أوقفت كل الأمور، وهذا ما أثار اشمئزاز غراهام، فقال: إن مونتاغيو «علق» الإعلان المقترح. وقال أيضاً أن مونتاغيو «يمثل جزءاً معيناً من أغنياء اليهود الذين يبدو انهم يخافون طرده هو وأمثاله من انكلترا ويخافون الطلب إليهم أن يذهبوا إلى فلسطين للعمل في المزارع<sup>[566]</sup>».

حاول تبديد هذه المخاوف موظفون في مراكز دون مستوى مجلس الوزراء حريصون على صدور التزام مؤيد للصهيونية. وكان إيميري يساعد ميلنر في إعادة صياغة مسودة الإعلان المقترح، وقد شرح لأحد أعضاء مجلس الوزراء الفكرة من الإعلان بقوله: إن هذا الإعلان ليس موجهاً في الواقع إلى الرعايا البريطانيين من المذهب اليهودي، بل إلى اليهود المقيمين في بلدان تحرمهم المواطنة الحقيقية، وأنه «بصرف النظر عن اليهود الذين أصبحوا مواطنين في هذا البلد أو أي بلد آخر بالمعنى الكامل للمواطنة، هنالك عدد كبير من اليهود، وبخاصة في بولندا وروسيا، لا يزالون يشكلون أمة مختلفة عن غيرها بالمعنى الكامل للأمة<sup>[567]</sup>»، وبما أن هؤلاء محرومون من أن يصبحوا مواطنين روسيين سوف تتاح لهم فرصة إعادة بناء وطنهم في فلسطين.

بيد أن مونتاغيو كان قليل الاهتمام بوضع اليهود في بلدان أخرى. إن ما كان يعنيه، هو وضع اليهود في المجتمع البريطاني. وشعوراً منه بالخطر يهدد مكانته، قاوم مقاومة شرسة أدت إلى تجميد مداوات مجلس الوزراء في هذه المسألة.

كان مونتاغيو يلقي في موقفه الدعم من اللورد كورزون الذي رأى أن فلسطين فقيرة في ثرواتها ولا تستطيع استيعاب الحلم الصهيوني. أهم من ذلك أنه حظي بمساعدة أندروبونار لو- زعيم الحزب الرئيسي في الحكومة الائتلافية والشريك السياسي القوي لرئيس الوزراء - وكان بونار لو يحث على التريث، وحثه أن الوقت لم ينضج بعد للنظر في المسألة الصهيونية.

وحظي مونتاغيو كذلك بمساعدة الولايات المتحدة التي ظلت حتى منتصف تشرين الأول (أكتوبر) 1917 تنصح بالتريث على سبيل الحيطة. كان الرئيس ويلسون متعاطفاً مع الصهيونية ولكنه كان يرتاب في دوافع بريطانيا. كان محبباً لفلسطين يهودية ولكنه كان أقل حماسة لفلسطين البريطانية. وفي ما كان مجلس الوزراء البريطاني ينظر في إصدار إعلان بالفور، كان في الوقت نفسه يلتمس النص وبصورة ضمنية التأييد من



الرئيس ويلسون. وعندما وصفت الوزارة البريطانية الإعلان للحكومة الأميركية قالت إنه تعبير عن التعاطف مع الأمانى الصهيونية، وكأن الدافع الوحيد للحكومة البريطانية هو اهتمامها بمحنة اليهود المضطهدين. إن الكولونيل هاوس، مستشار الرئيس ويلسون للسياسة الخارجية، ترجم ذلك الوصف كما يلي:

«طبعي ان الانكليز يريدون إغلاق الطريق إلى مصر والهند، ولن يترفع لويدي جورج عن استخدامنا لتحقيق خطته [568]».

كان هذا تفسيراً منصفاً لآراء رئيس الوزراء البريطاني وآراء مجموعة ميلنر التي تقدم له المشورة. ويقول حاييم وايزمان أن فيليب كير (المساعد السابق للورد ميلنر والذي عمل سكرتيراً للويدي جورج) «يري في فلسطين اليهودية جسراً يربط افريقيا بآسيا وأوروبا على طريق الهند [569]»

ولكن هذا التفسير لم يكن منصفاً لراي وزارة الخارجية البريطانية التي انحازت إلى الرأي القائل إن صدور إعلان مؤيد للصهيونية سيكون سلاحاً حاسماً ضد ألمانيا خلال الحرب وبعدها.

فوزارة الخارجية كان اعتقادها أن الجاليات اليهودية في أميركا، وفي المقام الأول في روسيا، تملك قوة كبيرة.

غير ان السفير البريطاني في بيتروغراد، علماً منه أن اليهود في روسيا القيصرية أقلية ضعيفة ومضطهدة ولا تأثير سياسياً لها، أبلغ وزارة الخارجية ان الصهيونيين لا يستطيعون التأثير في نتيجة الصراع على السلطة في روسيا. بيد أن حكومته ظلت على اعتقادها بأن الجالية اليهودية في روسيا قادرة على إبقاء الحكومة الروسية في معسكر الحلفاء. ومع تعمق الأزمة في روسيا استبدت بوزارة الخارجية البريطانية الإحساس بالحاجة الملحة للسعي في سبيل كسب التأييد اليهودي.



## (4)

الخوف يولد الخوف، فالشائعات التي انتشرت بشأن ما تعتزم وزارة الخارجية البريطانية أن تفعله، أثار فزع الصحافة في ألمانيا. وفي حزيران (يونيو) 1917 تلقى رونالد غراهام من حايم وايزمان عدد جريدة تصدر في برلين معروفة بصلتها الوثيقة بالحكومة، وفيه خبر يقول إن البريطانيين تراودهم فكرة دعم الصهيونية من أجل الاستيلاء على الجسر البري الفلسطيني الواقع على الطريق بين مصر والهند، واقرحت الجريدة أن تفسد ألمانيا هذه المناورة بأن تكون البادئة بتأييد الصهيونية. (لم تكن الحكومة الألمانية شديدة الاهتمام باتخاذ موقف مؤيد للصهيونية، بل كانت الصحافة الألمانية هي المهتمة بالأمر، ولكن البريطانيين جهلوا ذلك).

في صيف ذلك العام نقل غراهام مخاوفه إلى بلفور. وقد كتب غراهام في مذكرته انه سمع انه سيكون هناك تأجيل آخر من شأنه، حسب اعتقاده «ان يعرض الوضع اليهودي بكامله للخطر»

وأكد أن ذلك يعرض للخطر الوضع في روسيا حيث اليهود جميعهم معادون للحلفاء، كما أنه بمقدار أقل سيغضب الراي العام في الولايات المتحدة. وقال محذراً انه يجب علي بريطانيا «ألا تلقي بالصهيونيين إلى أحضان الألمان، لأننا قد نواجه في أية لحظة تحرك ألمانيا في المسألة الصهيونية، ويجب أن نتذكر ان الصهيونية ان لم تكن أصلاً فكرة يهودية ألمانية فهي بأية حال فكرة يهودية نمساوية» [570].

الحق غراهام بمذكرته قائمة تواريخ تبين مدى تأخير الحكومة لمعالجتها المسألة الصهيونية. وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) احوال بلفور المذكرة وقائمة التواريخ إلى رئيس الوزراء قائلاً: أن القائمة تبين ان لدى الصهيونيين سبباً وجيهاً للشكوى، وأوصى من جانبه بأن يبحث مجلس الوزراء المسألة بأسرع ما يمكن [571].

بتاريخ 29 تشرين الأول (أكتوبر) 1917 نشرت جريدة «التايمز» مقالة رئيسة حملت فيها على استمرار التأجيل وقالت إنه ليس سراً ان الحكومة البريطانية وحكومات الحلفاء كانت تنظر في إصدار بيان بشأن فلسطين. وقالت جريدة «التايمز» أن الوقت قد حان لإصدار هذا البيان. وجاء في المقال:

«هل يعجز رجال الدولة عندنا عن إدراك الفائدة الكبيرة التي تجنيها قضية الحلفاء من تعاطف اليهود القلبي في سائر أنحاء العالم نتيجة صدور بيان خالٍ من الإبهام بشأن السياسة البريطانية؟ فألمانيا سرعان ما تبينت الخطر

على مشاريعها ودعايتها من جراء الترابط بين الحلفاء والألماني القومية اليهودية، ولم تتوان عن محاولة إفشالنا».

بتاريخ 31 تشرين الأول (أكتوبر) 1917 تغلب مجلس الوزراء على معارضة مونتاغيو وكورزون وفوز وزير الخارجية بإصدار صيغة ملطفة كثيراً لضمانة التأييد التي طلبها وايزمان، وسارع سايكس المبتهج إلى وايزمان ينقل إليه النبا قائلاً: «دكتور وايزمان، المولود صبي» ولكن الزعيم الصهيوني استاء بسبب تلطيف النص الأصلي إلى هذا الحد [572].

كانت رسالة وزير الخارجية البريطاني المؤرخة في 2 تشرين الثاني (نوفمبر) 1917 موجهة إلى أبرز اسم بين اليهود البريطانيين وجاء فيها ما يلي:

«عزيزي اللورد روتشيلد، يسرني كثيراً أن أنقل إليكم، نيابة عن حكومة جلالته، إعلان التعاطف مع الألماني الصهيونية اليهودية التالي نصه وقد عرض على مجلس الوزراء فأقره:

(تنظر حكومة جلالته نظرة ايجابية إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستستخدم أفضل مساعيها لتسهيل تحقيق هذا الهدف، على أن يكون واضحاً أنه لن يتم عمل شيء يمكن أن يسيء إلى الحقوق المدنية والدينية للسكان غير اليهود في فلسطين أو إلى الحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر). سأغدو ممتناً إذا ما أطلعت الاتحاد الصهيوني على هذا الاعلان».

لم يتوقع زعماء بريطانيا رد فعل معادياً من حلفائهم العرب. كانت فرنسا في نظرهم هي المشكلة الوحيدة في هذا الصدد واعتقدوا انهم حلوا هذه المشكلة. وكتب رئيس الوزراء في ما بعد يقول: «لا يبدو أن فلسطين سببت للزعماء العرب قلقاً شديداً» [573]. ونوّه بأن حكومته أطلعت الملك حسين والأمير فيصل على خططها لإعادة خلق وطن يهودي في الأرض المقدسة. ثم أضاف بلهجة حادة: «إننا لن نقيم اتصالاً مع عرب فلسطين لأنهم يحاربوننا» [574].

أُرجئ نشر إعلان بالفور حتى يوم الجمعة التالي، وهو يوم صدور جريدة «جوبش كرونكل» الاسبوعية. في هذه الأثناء طغت الأنباء الواردة من بيتروغراد عن استيلاء لينين وتروتكسي على السلطة، على نبا إعلان بلفور. كانت وزارة الخارجية البريطانية تأمل أن يساعد وعد بلفور في استمالة اليهود الروس إلى جانب الحلفاء ضد البلشفية. وظل هذا الأمل حياً إلى أن ربح البلشفيك بصورة حاسمة الحرب الأهلية الروسية في مطلع العشرينيات من هذا القرن. كانت المعركة ضد البلشفية في روسيا قد بدأت لتوها في

تشرين الثاني (نوفمبر) 1917، ولأن البريطانيين من مؤيدي إعلان بلفور اعتقدوا خطأ أن اليهود الروس كانوا أقوياء ويمكن أن يعودوا بالفائدة على الحلفاء، فقد دفعتهم الأخبار المثيرة الواردة من بيتروغراد إلى تأييد تلك المعركة.

لم تتمكن جريدة «التايمز» حتى 9 تشرين الثاني (نوفمبر) من نشر نبأ إعلان بلفور، ولم تنشر تعليقات مؤيدة له حتى 3 كانون الأول (ديسمبر). وجاءت التعليقات أثر احتفال أقيم في دار أوبرا لندن، نظمته الإتحاد الصهيوني البريطاني بتاريخ 2 كانون الأول (ديسمبر). وكان بين خطباء الاحتفال، إضافة إلى الزعماء الصهيونيين، كل من اللورد روبيرت سيسيل، وسير مارك سايكس، ووليم اورمسي - غور، ومسيحي سوري، وقومي عربي، ومتحدث باسم أرمينيا.

كان موضوع الحفل الذي تحدث فيه ببلاغة كثيرون من الخطباء، هو حاجة اليهود العرب والأرمن إلى مساعدة بعضهم بعضاً والسير قدماً في انسجام. والرأي الذي عبّرت عنه جريدة «التايمز» هو «إن حضور ممثلين للشعبيين العربي والأرمني من ذوي النفوذ والكلمات التي ألقوها وتأكيداتهم للموافقة على التعاون مع اليهود تكفي في حد ذاتها لتخليد هذا الحفل» [575].

وقالت «التايمز» عن الحفل «إن خصائصه البارزة هي روح التوراة التي سادته والشعور بأنه يجري الاحتفاء بإيمان وعاطفة حماسية، في المكان غير الملائم إلى حد ما في أحد مسارح لندن، بقرب تحقيق نبوءة قديمة» [576]. كان لا بد أن يكون الأمر كذلك، إذ أن النبوءة التوراتية كانت الدافع الأول والأكثر ديمومة من بين دوافع عديدة حدث البريطانيين إلى أن يرغبوا في إعادة اليهود إلى صهيون.

لقد عزم رئيس وزراء بريطانيا على تشجيع قيام وطن يهودي في فلسطين في أي حال من الأحوال، وكتب في وقت لاحق يقول إنه كان لا بد لمعاهدة الصلح من أن تنص على أن فلسطين وطن لليهود» حتى ولو لم يكن هناك تعهد أو وعد سابق [577]. وقال أيضاً أن أهمية إعلان بلفور هي اسهامه في المجهود الحربي، وبفضله قدم اليهود الروس دعماً لا يقدر بثمن للحرب ضد ألمانيا. وقد وعد زعماء الصهيونية بدافع الامتنان أن يعملوا من أجل انتصار الحلفاء، فوفوا بالوعد. وبعد عشرين سنة، وفي ما كانت الحكومة البريطانية توشك أن تتخلى عن وعد بلفور كتب يقول ان الصهيونيين «وفوا بوعدهم نصاً وروحاً، والمسألة الوحيدة المتبقية الآن هي هل ننوي الوفاء بوعدنا» [578]؟

لقد استهان رئيس الوزراء بالأثر الذي خلفه إعلان بالفور على تسوية الصلح المقبلة. إن طبيعة الإعلان بصفته وثيقة ذات صفة عامة - صادرة بموافقة الولايات المتحدة وفرنسا وبعد مشاور مع ايطاليا والفايكان ولقيت الترحيب لدى الرأي العام والصحافة في سائر أنحاء العالم الغربي - قد جعلت من الإعلان التزاماً يصعب تجاهله عند التفاوض على تسوية الصلح. لقد اكتسب هذا الإعلان حيوية وقوة دفع ذاتية.

## (5)

كان للإعلان أيضاً دور في تنمية الحركة الصهيونية في الجالية اليهودية الأميركية. كانت الصهيونية الأميركية حركة ضئيلة عندما بدأت الحرب. ومن بين نحو ثلاثة ملايين يهودي كانوا آنذاك يعيشون في الولايات المتحدة، لم ينتسب سوى 12,000 إلى تلك الجماعات التي تنشأ وسرعان ما تنحل، وكان يجمع بينها الاتحاد الصهيوني بقيادته المتسمة بأسلوب الهواة [579]. وكان صندوق الحركة يحتوي على 15,000 دولار [580]، ولم تتجاوز قط ميزانيتها السنوية مبلغ 5,200 دولار [581]. وأكبر تبرع تلقاه الاتحاد من جهة واحدة لم يتجاوز حتى عام 1914 مئتي دولار [582]. وكان عدد أعضاء الحركة في نيويورك خمسمئة عضو فقط [583].

كان لويس برانديس محامياً ذا مكانة كبيرة في بوسطن لم يسبق أن اقترن اسمه بالقضايا اليهودية بشكل خاص، ولكنه أصبح صهيونياً في عام 1912 وتولى قيادة الحركة الصهيونية في عام 1914. وبما أنه كان عملاق المفكرين في الحركة التقدمية في السياسة الأميركية، كان الاعتقاد السائد أنه يمارس تأثيراً كبيراً على الرئيس ويلسون. وربما كان برانديس أول يهودي يقوم بدور هام في السياسة الأميركية منذ الحرب الأهلية. إن يهودياً واحداً فقط سبق أن كان عضواً في مجلس وزراء الرئيس الأميركي [584]، وها هو برانديس عينه أصبح أول عضو يهودي في المحكمة الأميركية العليا.

كانت الموجات الكبيرة للهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة حديثة عهد، وكان معظم المهاجرين حريصين على تعلم اللغة الانكليزية، والتخلص من لكناتهم وأساليبهم الأجنبية، من أجل أن يصبحوا أميركيين. وكان اليهود المولودون في أميركا أيضاً يرغبون في التخلص من أية وصمة أجنبية ويخافون أن يجعلهم ارتباطهم بالصهيونية يظهرون وكأنهم أقل ولاءً قلبياً للولايات المتحدة.

هذه هي المسألة التي انطلق برانديس لمعالجتها قبل غيرها. وحسب رؤيته للأمر، فاليهود الأميركيون يفتقرون إلى شيء هام متوفر لبقية الأميركيين، هو الماضي القومي. فالآخرون يمكنهم أن يتحدثوا عن وطن للأجداد وأن يفخروا به وبأنفسهم. وأبدي برانديس إعجاباً خاصاً بالأميركيين من أصل أيرلندي في هذا الصدد، وبإظهار معارضتهم لاستمرار الحكم البريطاني في أيرلندا.

وإذ زعم برانديس أن هذا النوع من الاهتمام السياسي والعمل السياسي يتفق كل الاتفاق مع الروح الوطنية الأميركية، بل يعززها، فقد أعلن «إن كل أميركي من أصل أيرلندي يسهم في تشجيع الحكم الوطني هو انسان أفضل وأميركي أفضل لأنه يقدم تضحية. وكل أميركي يهودي يساعد في تشجيع الاستيطان اليهودي في فلسطين... هو بالمثل انسان أفضل وأميركي أفضل لأنه يفعل ذلك» [585]

لقد أثرت مثالية برانديس الأخلاقية تأثيراً شديداً في آرثر بلفور عندما زار وزير الخارجية البريطاني الولايات المتحدة في عام 1917 وبحث فيها مستقبل فلسطين. كذلك، فإن إعلان بلفور وفر دعماً للحجج التي استخدمها في نداءاته الموجهة إلى الجالية اليهودية الأميركية [586].

لقد تنامي التأييد للصهيونية تنامياً سريعاً سواء كان سبب ذلك هو اعلان بلفور أو كان السبب هو زعامة برانديس المهنية والفعّالة. فقد ارتفع عدد أعضاء الاتحاد الصهيوني في عام 1919 إلى أكثر من 170,000، ولو أن مؤيدي الصهيونية ظلوا أقلية ضمن اليهود الأميركيين وظلوا يواجهون معارضة شرسة من اليهود الأكثر ثراء والأرسخ قدماً في المجتمع - وهذه المعارضة لم يتم التغلب عليها في الواقع حتى الأربعينيات من هذا القرن، غير أن برانديس جعل من الصهيونية الأميركية منظمة ذات شأن على غرار ما سبق أن فعله الأميركيون من أصل أيرلندي الذين أبدوا استقلال أيرلندا. وقد ساعده إعلان بلفور في هذا الجهد - مع أن وزارة الخارجية البريطانية أصدرت الإعلان لأنها، إلى جانب أمور أخرى، افترضت وجود هذه القوة فعلاً ورأت حاجة إلى استرضائها.

## (6)

سنرى في التأمّلات التي دونها ليو ايميري في مفكرته في نهاية عام 1917 قدراً من التقدم الذي أحرزته بريطانيا نحو تحقيق أهدافها في الحرب خلال السنة التي انقضت منذ أن حلّ لويد جورج محل اسكويث. فقد استعرض ايميري الماضي وقوّم الانجازات التي تمكن من تحقيقها خلال تلك السنة، فكتب في مفكرته أن أحد إنجازاته الرئيسة في تعامله مع زملائه في الحكومة البريطانية هو «مجموع العمل في اعداد شروط الصلح، مما أقنعهم تدريجاً بأهمية شرق افريقيا وفلسطين وبلاد الرافدين والنظرة الامبراطورية بصورة عامة» [587].

لم تعد أهداف بريطانيا الرئيسة آنذاك في أوروبا، وهذا ما أشار إليه ايميري. فالدمار الذي أحدثته الحرب في السنوات الثلاث الأولى من الحرب جعل إحراز نصر ذي معنى في أوروبا أمراً مستحيلاً. ذلك أن التحالفات الأوروبية المتحاربة والمتنافسة قد دُمّرت. ولم يكن أمراً عملياً البحث عن منطقة في أوروبا لضمها أو الاستيلاء عليها تعويضاً عن خسارة. بل ان تدمير ألمانيا لا يلبي احتياجات بريطانيا. لقد نبّه سمطس في أحد خطابه خلال الحرب إلى ضرورة أن تبقى ألمانيا قوة هامة من أجل الحفاظ على توازن القوى في أوروبا، وهذا كان في مصلحة بريطانيا الحيوية [588].

والسؤال الذي كان مطروحاً للنقاش هو: هل بريطانيا التي أبحرت سفنها في محيطات العالم ودارت حول الكرة الأرضية بقيادة سير فرانسيس دريك، قد هلكت إلى الأبد مع هلاك جيل عام 1914 على الجبهة الغربية، وكان الراي أن بريطانيا هذه إذا أمكن أحيائها، فلا بد أن يتم ذلك عن طريق توسع الامبراطورية، في افريقيا جزئياً وفي الشرق الأوسط بصورة رئيسة - وكان هذا هو توجه رئيس الوزراء وبطانة ميلنر.

إن التحول الذي طرأ على النظرة إلى الأمور قد نقل الحرب العثمانية، التي بدأت كحادث عرضي خارج عن سياق الأحداث، من أطراف إلى مركز السياسة العالمية لرئيس الوزراء. لقد قال رئيس الوزراء منذ البداية أن الحرب الكبرى يمكن أن تربحها بريطانيا هناك. وها هو الآن يقول ان أهدافه لما بعد الحرب يمكن أن يربحها هناك أيضاً. لقد شعر بغريزته السياسية انها منطقة يستطيع ان يربح فيها منافع ملموسة لمواطنيه، ورأي ببصيرته الاستراتيجية - كما رأي كل من ميلنر، وايميري، وسمطس، وكير، واورمسي - غور - أن هذه المنطقة بتوفيرها الجزء الناقص من الخط الممتد من مدينة الكاب إلى الهند. فاستراليا ونيوزيلندا، إنما توفر عمراً جديداً للامبراطورية البريطانية في افريقيا وآسيا والمحيط الهادي. وبعد أن

كانت حكومة اسكويث تري في الهيمنة على أجزاء من الشرق الأوسط شيئاً  
يمثل فقط رغبة بريطانية، رأت حكومة لويد جورج في هذه الهيمنة أرضاً  
تحتاجها بريطانيا.



# الجزء السابع

## غزو الشرق الأوسط

# الفصل الأول

## في القدس عند حلول عيد الميلاد

(1)

عندما تولى لويد جورج منصبه رئيساً للوزراء في نهاية عام 1916، بدأ طالع بريطانيا في الشرق يتجه نحو التحسن. كانت أخطاء حكومة الهند وعدم كفاءتها في تسيير حملة بلاد الرافدين - الزحف على بغداد عام 1915 الذي انتهى في ربيع 1916 بهزيمة واستسلام الجيش الهندي البريطاني في كوت العمارة - قد هزت لندن وجعلتها تقوم بحملة تطهير عند القمة. وهكذا فإن قائداً جديداً لجيش الحملة، متفهماً لاحتياجاته اللوجستية، استأنف الحملة في عهد وزير دولة جديد لشؤون الهند، ونائب جديد للملك وقائد عام جديد للجيش الهندي، هو الجنرال ستانلي مود الذي قاد الجيش الهندي - الإنكليزي لمنطقة دجلة، في زحف نحو ولايات بلاد الرافدين في كانون الأول 1916، واستولى بحملة منهجية على بغداد في 11 آذار (مارس) 1917.

أن الاستيلاء على بغداد، العاصمة العريقة التي استمدت ألقها من ارتباط اسمها بقصص ألف ليلة وليلة، قد ألهب خيال رئيس الوزراء الجديد، مع أنه لم يكن واضحاً قط ماذا كانت الغاية من حملة بغداد في إطار الاستراتيجية الشاملة للحرب العالمية. لقد أدخل احتلال بغداد البهجة إلى نفس رئيس الوزراء في وقت كان فيه بحاجة ماسة إلى البهجة، وألهمته أن يضع نصب عينيه القدس هدفاً للنصر البريطاني العظيم الاتي بعد احتلال بغداد.

أن النجاحات التي حققها جيش دجلة قد طرحت السؤال عما يجب عمله بالولايات العثمانية التي احتلها هذا الجيش. وكانت حكومة الهند، بالرغم من رغبتها في عدم إلزام نفسها، تستهدف طوال الوقت أن تكون ولايتا البصرة وبغداد ضمن إطار نفوذها إذا ما سلختا عن الامبراطورية العثمانية. أما سير مارك سايكس وأصدقائه في المكتب العربي فقد اعتبروا إدارة هاتين المنطقتين بأسلوب حكومة الهند الأبوي أمراً مرعباً. وقد وجه سايكس مذكرة إلى مجلس الوزراء البريطاني كتبها في عام 1916 محذراً من «أن

ترك العمل للهند سيحمل معه الأفكار القديمة عن السود والبيض، وليس بالإمكان أن يُحكم العرب بنهج السود والبيض[589]»

واحتفاءً بالاستيلاء على بغداد أعد سير بيرسي كوكس، كبير الضباط السياسيين في حملة الجنرال مود، مسودة بيان موجه إلى الشعب، اقتصر أساساً على الدعوة إلى التعاون مع الإدارة البريطانية - الهندية المؤقتة. ولكن لندن أمرته بعدم إصداره. صيغت بعد ذلك مسودات عديدة في لندن، واختار مجلس الوزراء الحربي، بعد المناقشة مسودة أعدها سير مارك سايكس كأساس للنص الذي أقر في النهاية. ودعا هذا الاعلان قادة العرب - مع أنه لم يكن واضحاً من هم هؤلاء القادة - الى المشاركة في الحكومة بالتعاون مع السلطات البريطانية. وتحدث الإعلان - على عادة سايكس - بعبارات فضفاضة عن التحرير والحرية، وعن أمجاد الماضي، وعظمة المستقبل، وأعرب عن الأمل في أن تتوصل الشعوب العربية إلى الوحدة شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. وأشار، وإن بعبارات غامضة، الى اتحاد كونفيدرالي عربي شرق أوسطي بقيادة الملك حسين - المسلم السني، مع أن معظم سكان ولايتي البصرة وبغداد هم من الشيعة، والخلافات بين السنة والشيعة عميقة وتعود إلى أكثر من ألف سنة.

اعترض الجنرال مول على مسودة سايكس، ورأى بصفته رجلاً عسكرياً، أن الأمر الجوهري هو اقامة إدارة بريطانية لحفظ الأمن ما دامت الحرب مستمرة. إضافة إلى ذلك لاحظ أن الاعلان يعرضه قسماً من الحكم الذاتي على عرب بغداد، لم ينتبه إلى حقيقة أن غالبية سكان المدينة حسب زعمه - ليسوا عرباً بل هم يهود[590].

بالرغم من ذلك فرضت لندن المسودة التي أعدها سايكس على الجنرال مود وعلى سير بيرسي كوكس، محدثة بذلك ارتباكاً واسع النطاق. لقد كانت غاية الاعلان ظاهرياً أن يؤكد أن قوات الاحتلال التي جاءت من الهند البريطانية ليست عازمة على أن تحكم بلاد الرافدين، ولكن الاعلان لم يوضح من سيحكم بدلاً منها.

بتاريخ 16 آذار (مارس) 1917 أنشأ مجلس الوزراء الحربي لجنة إدارية لبلاد الرافدين برئاسة اللورد كورزون مهمتها أن تقرر شكل الحكومة التي ستنشأ في الولايتين المستولى عليهما. فقررت اللجنة أن ولاية البصرة يجب أن تصبح بريطانية - وليس هندية بريطانية - أما ولاية بغداد فيجب أن تنضم الى كيان سياسي عربي أو أن تصبح كياناً سياسياً عربياً خاضعاً لحماية بريطانية، ويجب في هذه الأثناء سحب الأشخاص الهنود من الولايتين المحتلتين.

كان الجنرال مود قد أبرق الى رؤسائه ليلغهم «أن الظروف المحلية لا تسمح باستخدام أحد في مواقع المسؤولية سوى ضباط بريطانيين لديهم الكفاءة للتعامل مع السلطات العسكرية ومع شعب البلاد. وقبل ايجاد أية واجهة عربية حقيقية للكيان، يبدو أمراً جوهرياً ارساء أسس القانون والنظام بصورة صحيحة وممتينة»<sup>[591]</sup>. وقد أثار سير بيرسي كوكس المسائل نفسها بطريقة مختلفة عندما سأل عمن سيكون زعيم بغداد العربي.

كان جلياً أن لندن إما أنها غير مدركة أو لم تعط بالاً، لتكوين سكان ولايتي بلاد الرافدين. فالبعض القائم بين الأقلية من المسلمين السنة والأغلبية من الشيعة، والتنافس بين القبائل والعشائر، والانقسامات التاريخية والجغرافية بين الولايتين، وسيطرة الجالية اليهودية تجارياً في مدينة بغداد، هذه الأمور كلها جعلت من الصعب تحقيق حكومة واحدة موحدة لها صفة تمثيلية وفعالة وتحظى بتأييد واسع.

وأثار كوكس مسائل عملية أخرى وملحة كان من الواضح أن لندن لم تفكر بها. فالعمال والفئات الأخرى المساندة وغير المقاتلة في جيش دجلة كانوا من الهنود. فإذا كان مجلس الوزراء جاداً في إصدار الأمر بمغادرة الهنود ولايتي بلاد الرافدين فمن سيحل محلهم؟ علاوة على ذلك، كان النظام القضائي في زمن الحكم التركي في الولايتين يعمل في ظل المحكمة العليا في إستانبول ويمنح حق الاستئناف إليها.

أما نظام القضاء تحت حكم الجنرال مود فقد منح النظام القضائي في الهند حقوقاً مماثلة لحقوق المحكمة العليا في إستانبول، فإذا قطعت الصلة مع الهند، ما الذي سيحدث لإدارة القضاء؟

لم يكن لدى لجنة إدارة بلاد الرافدين أجوبة جاهزة، لأن الادارة العثمانية في البلاد طردت ولم تكن هناك هيئة من الموظفين ذوي الخبرة تحل محل الادارة العثمانية سوى الموظفين القادمين من الهند البريطانية. كانت الحرب مستمرة، وكان لا بد من اصدار الأوامر واتخاذ قرارات إدارية يومية. وكان لا بد من الاهتمام بالمنشآت والخدمات العامة وإدارتها. فمن يفعل كل ذلك؟

اضطرت لندن إلى إعادة النظر، وإلى القبول بأن تتولى الادارة حكومة الهند ما دام هناك اتفاق على أن تكون غير دائمة. أن الجنرال مود، الذي صدر إعلان سايكس باسمه، وجد نفسه في وضع الواعظ الذي يبشر بالحكم الذاتي، بينما هو يثني الناس عن ممارسته. إن صيغة الحل الوسط التي توصل إليها البريطانيون ربما كانت تهدف صراحة إلى إثارة النقمة والاضطراب: فالسلطات العسكرية والمدنية لدولة الاحتلال، بعد أن تطوعت

بإعطاء ما بدا أنه تعهد بالاستقلال لمنطقة لم تطلب الاستقلال أخذت تعمل لحجب هذا الاستقلال.

كانت ولايتا بلاد الرافدين أول منطقة من مناطق الامبراطورية العثمانية تستولي عليها بريطانيا في الحرب. واخفاق رئاسة الوزارة البريطانية في التفكير ملياً في التفاصيل العملية لكيفية الوفاء بالوعود التي قطعت بسخاء الى قسم من السكان المحليين كان أمراً له دلالة، وكان نذير سوء للولايات الأخرى التي ستغزوها بريطانيا، أي فلسطين وسورية ولبنان. وقد أظهر هذا الفشل أن سير مارك سايكس وزملاءه تبنا سياسات للشرق الأوسط دون أن يأخذوا أولاً بعين الاعتبار هل يستطيعون عملياً في الظروف القائمة تطبيق هذه السياسات، وإذا كانت الظروف تسمح فهل يسمح لهم الضباط البريطانيون في المنطقة بتطبيقها فعلاً؟..

كانت بداية غير ميمونة دلت على مدى جهل الحكومة البريطانية بما أوقعت نفسها فيه عندما قررت أن تأخذ مكان الامبراطورية العثمانية في آسيا. فإذا حدث كل ذلك الارتباك عندما احتلت الهند البريطانية بلاد الرافدين المجاورة لها، فإن المنطقي أن نفترض حدوث ارتباك أكبر عندما تزحف مصر البريطانية على منطقة كـفلسطين تتشابك فيها المصالح الدولية تشابكاً كبيراً.

## (2)

كان القائد الجديد الذي أرسل الى مصر هو الجنرال ادموند اللبني، الضابط في سلاح الفرسان الذي خدم وتولى القيادة بامتياز في فرنسا. وقد وقع الاختيار عليه في حزيران (يونيو) 1917 بعد أن قرر سمطس نهائياً عدم قبول تعيينه، وكانت المهمة التي كلف بها اللبني من قبل رئيس الوزراء هي أن يغزو فلسطين ويحتلها ويستولي على القدس قبل عيد الميلاد.

لقد بث اللبني في قوات الحملة المصرية روح الاندفاع والانضباط وروحاً مراسية جديدة. وقد وقع اختياره على الكولونيل ريتشارد ماينرتزهاغن لرئيس المخابرات العسكرية. وكان هذا الضابط قد أظهر تفوقاً في عمل مماثل مع سمطس في شرق أفريقيا. ووقع اختيار ماينرتزهاغن على ويندهام ديدز ليعمل تحت امرته مسؤولاً عن القسم السياسي في الفرقة العسكرية.

أخذ ماينرتزهاغن على عاتقه مسؤولية عمليات التجسس خلف خطوط العدو هذه العمليات كان القصد منها تمهيد الطريق أمام اللبني لغزو فلسطين. ومع أن ماينرتزهاغن كان شديد العداء لليهود، فقد كان متأثراً بأهارون أهارونسون الذي نالت شبكته التجسسية في فلسطين اليهودية إعجاب ماينرتزهاغن، باعتبارها لا تقدر بثمن. ولكن أهارونسون دفع ثمناً غالياً لقاء كسب احترام وصداقة المخابرات العسكرية البريطانية: ذلك أن مجموعته التجسسية عرضت المستوطنين اليهود في فلسطين لأعمال انتقامية محتملة - وذلك في أسوأ الأوقات، لأن الإدارة العثمانية المحلية كانت عازمة على ضرب الجالية اليهودية بأي حال من الأحوال. ففي ربيع عام 1917، وعند حلول فصح اليهود، طرد جمال باشا اليهود والعرب من سكان يافا. ولم يكن واضحاً إلى أين أراد إرسالهم، ولكنه تحدث حديثاً غامضاً عن المنطقة الداخلية من سورية. لقد أعادت محنة اللاجئين، المحرومين من المتاع والزاد، ذكريات ما حل بالأرمن. وما لبث جمال باشا أن تحدث عن عزمه على إبعاد سكان القدس المدنيين، وغالبيتهم من اليهود. ولم يمنع حدوث المأساة سوى التدخل الحازم من قبل وزارة الخارجية الألمانية.

واجهت الجالية اليهودية في فلسطين خطر كارثة في تلك الظروف إذا ما اكتشف العثمانيون مدي وفاعلية نشاطات أهارونسون - وهذا ما حدث في نهاية الأمر. لقد ألقى القبض على سارة شقيقة أهارون وعدد من شركائها، من قبل الأتراك في تشرين الأول (أكتوبر) 1917 وعذبوا في أثناء استجوابهم، وأعدم بعضهم شنقاً، أما سارة أهارونسون فقد نجحت في

الانتحار بعد تعذيب استمر أربعة أيام. وكان ممكن أن تعقب ذلك أعمال انتقامية ضد اليهود لولا تدخل الألمان وطلعت. والذي حدث هو أن ثلث السكان اليهود فقط بقي في القدس في نهاية عام 1917 أما بقيتهم فقد ماتوا جوعاً أو فتكت بهم الأمراض.

### (3)

ان ماينرتزهاغن الذي أعجب بفاعلية يهود أهارونسون في اسهامهم بالاستعدادات للغزو البريطاني لفلسطين، كان أقل اعجاباً بفاعلية عرب فيصل.

قلما كانت السلطات المدنية البريطانية في القاهرة تتصل مع توماس ادوارد لورنس، ضابط الاتصال بينها وبين رجال حرب العصابات الذين يقودهم فيصل. وفي ربيع عام 1917 اختفى لورنس في الصحراء. ولم تبد السلطات العسكرية البريطانية في القاهرة سوى القليل من الاهتمام بما كان يفعله لورنس وفيصل، بعد أن فقدت في السنة السابقة اهتمامها بالثورة العربية.

كان لورنس قد ذهب بصحبة عودة أبو طايح، زعيم المقاتلين من أفراد تجمع القبائل البدوية في شمال شبه جزيرة العرب، بعد أن ضمن ولاءه بمبلغ 10,000 جنيه استرليني. كان هدفهما العقبة، ذلك المرفأ الصغير الغارق في السبات عند الطرف الجنوبي لفلسطين، وموقعها عند رأس قناة في البحر الأحمر، ضيقة جداً إلى حد أن الأسطول البريطاني لم يجرؤ على دخولها ما دامت بطاريات الشاطئ في أيدي عدوة. كان عدد العثمانيين المدافعين عنها بضع مئات ومدافعهم مصوبة الى البحر، ولذلك عازمت عصبة عودة أبو طايح على التسلل من خلف المدافع والاستيلاء على العقبة بهجوم مباغت [592].

قاد عودة الحملة، ولكن لورنس رافقه. وبدهاء البدوي قاد عودة أتباعه من ساحل شبه الجزيرة العربية شمالاً إلى الصحراء، حيث صارت تحركاتهم بعيدة عن الأنظار. فلما عادوا إلى الظهور في جنوب فلسطين بعد شهرين، كان قدومهم مفاجأة كاملة. وقد تغلبوا في 6 تموز (يوليو) على حامية العقبة التركية الصغيرة وغير المستعدة. وبالرغم من معاناته شهرين في الصحراء، انطلق لورنس على الفور في رحلة عسيرة وخطرة عبر القفار في أراض تحت سيطرة العدو متجهاً إلى السويس للإبلاغ عن استيلاء عودة على العقبة. وقد أذهل الجميع عندما برز على حين غرة في

صحراء سيناء، متنكرًا بلباس عربي، فخلق حالة من الإثارة في مقر القيادة العامة بُعيد وصول الجنرال اللنبي لتولي قيادته الجديدة.

كانت للورنس فضائل كثيرة لم يكن الصدق إحداها. فقد كان يروي حكاياته المختلفة على أنها حقائق. وكان قبل بضعة شهور قد أرسل رسالة الى الجنرال كلايتون ضمّنها ما كان مؤكداً أنها رواية من نسج الخيال عن حملة



أدعى أنه قام بها على مسؤوليته [593]. وها هو الآن يأتي وفي ذهنه بطولات شخصية يرويها ويبالغ في روايتها، إذ جعل مستمعيه يفهمون من روايته أنه قام بالدور الرئيس في حملة العقبة. ووصول لورنس ناقلاً أخبار العقبة أنهى تسعة شهور تحول فيها إلى بطل عسكري. أما عودة أبو طايح، شيخ عشيرة الحويطات الشرقية، الذي هو في الواقع صاحب الفضل في النصر، فلم يكن اسمه سهل اللفظ من قبل الضباط البريطانيين. لذلك فإنهم قالوا، كما قال المؤرخون في ما بعد، أن «لورنس احتل العقبة».

وبغض النظر عما يستحق الفضل، كان الاستيلاء على العقبة تحولاً في ثورة الحجاز التي ظلت حتى ذلك الحين محصورة داخل شبه جزيرة العرب بسبب الحامية التركية في المدينة المنورة.

وصار الآن بإمكان الأسطول البريطاني أن ينقل رجال القبائل العرب إلى فلسطين، وبذلك صار بإمكان قوات الشريف حسين، لأول مرة، أن تصل إلى ساحة قتال فعلي في الحرب البريطانية - التركية، إذ أن لورنس أقنع اللبني أن المقاتلين العرب غير النظاميين يستطيعون مساعدة القوات البريطانية في الحملتين المقبلتين لاحتلال فلسطين وسورية.

كان فيصل لا يزال في مقر قيادته في الحجاز عندما وافق اللبني على خطة لورنس لنقله بحرًا مع قوة ضاربة صغيرة من رجال القبائل التابعين له، من ساحل شبه جزيرة العرب الذي احتله البريطانيون إلى العقبة - وهي رحلة بحرية مسافتها 200 ميلاً. وفي العقبة تقوم هذه القوة بعملية لتحويل الانتباه على الجناح الأيمن للجيش البريطاني في حملة فلسطين المقبلة التي عزم اللبني على البدء بها في فصل الخريف. وقيل فيصل بالخطة مع أنها تعني عزله عن الحجاز وعن والده وأشقائه. وقد مُنح رتبة جنرال بريطاني ووضع تحت قيادة اللبني.

قبل بضعة شهور كان المكتب العربي قد درس المشكلات التي ستنشأ عن أية محاولة لاستخدام قوات فيصل في حملتي فلسطين وسورية. وبتاريخ 16 أيار (مايو) 1917 أبلغ المكتب العربي كلايتون أن بدو فيصل لا يقدر على الصمود في وجه قوات نظامية، وأن ثمة مأخذ آخر على استخدامهم هو أن إرسالهم إلى مناطق الحضر لن يُقابل بالترحاب من سكان المدن. وكان حل المشكلة الذي ارتآه المكتب العربي هو تجنيد السوريين الفارين من الجيش العثماني للعمل تحت قيادة فيصل. فذلك من شأنه «أن يغير طبيعة حملة الشريف حسين من سلسلة غارات متفرقة على الخط

الحديدي إلى محاولة منظمة لتحرير البلد» [594][595].



## (4)

غزا اللبني فلسطين في خريف عام 1917. وقد توقع الأتراك وضباطهم القادة الأتراك أن يشن هجومه على مدينة غزة الساحلية، باعتبارها بوابة فلسطين. ولكن دفاعات المدينة والمدافعين عنها كانوا مستعدين استعدادًا جيدًا، فتصَّعَّ اللبني مهاجمتها، بينما قامت قواته بعملية التفاف حولها، تسللاً وبسرعة، عبر الصحراء لتهاجم بدلاً منها بئر السبع المدينة الداخلية. وقد بوغتت القوات العثمانية وتراجعت في حالة فوضى.

كان أحد أسباب مباغته الأتراك خدعة ابتكرها ونفذها ماينرتزهاغن. ففي 10 تشرين الأول (أكتوبر) ذهب راكبًا حصانه الى المنطقة الفاصلة بين الجيشين. وعندما أطلقت عليه النار دورية من الفرسان العثمانيين تظاهر بأنه أصيب وخلف وراءه محفظة ملوثة بالدم احتوت أوراقًا بدت وكأنها وثائق بريطانية سرية تشير الى أن الهجوم الرئيس سيقع على غزة. وقد كتب لويد جورج لاحقًا: «إن خدعة ماينرتزهاغن قد أكسبتنا المعركة. إنه واحد من أكفأ وأنجح الأدمغة الذين صادفتهم في أي جيش من الجيوش. وغني عن القول إنه لم يحصل خلال الحرب على ترقية إلى رتبة أعلى من رتبة كولونيل» [596].

وبينما كانت قوات اللبني تندفع على خط غزة - بئر السبع، كانت قوات فيصل تناوش الأتراك على الجناح الأيمن للجيش البريطاني. وقد استمتع لورنس، الرائد ثم العقيد، بحملة مبهجة واكتسب في ما بعد شهرة واسعة - ومعها الكثير من الحسد.

قال بريمون، ممثل فرنسا في الحجاز، في ما بعد، بدافع الحسد، أن لورنس «يمثل» 200.000 جنيه استرليني [597]. ولكن المبلغ زاد على ذلك: فعند انتهاء الحرب كانت الثورة العربية قد كلفت بريطانيا أكثر من خمسين ضعف هذا المبلغ. ومهما كان المبلغ فقد كان يعتبر ضخماً في تلك الأيام - وهو ضخم بصورة خاصة بمقاييس بدو الصحراء. فلم يسبق للقبائل أن عرفت ثروة كالتى جلبها لها لورنس، وفي نهاية الأمر لم تغير هذه الثروة شكل الولاءات القبلية فحسب، بل غيرت أيضاً مظهر الشاب الانكليزي الذي كان أمر الصرف. إن رداءه العربي قد بز رداء فيصل جمالاً. وقد سُئل أحد شيوخ البدو بعد نصف قرن إن كان يتذكر لورنس فأجاب: «إنه الرجل الذي كان يأتي بالذهب» [598].

كان إعداد الترتيبات اللوجستية لإيصال الذهب بسلام الى لورنس يطرح بحد ذاته مشكلة. فليس هناك كثيرون يؤمنون على حيازة الذهب. وكان ويندهام

ديدز يمضي بعد ظهر أيام السبت وهو يرزم شخصيًا الجنيهاات الذهبية في صناديق خراطيش البنادق ويراقب تحميلها على الجمال لتنتقل في رحلتها إلى لورنس في الصحراء.

إلى جانب القبائل التي كان دورها متقطعًا، كان جيش فيصل مؤلفًا من نحو ألف بدوي يرفدهم نحو 2.500 من أسرى الحرب العثمانيين السابقين. وفي بداية الأمر أصيب البريطانيون بخيبة أمل في توقعاتهم أن يجعل أسرى الحرب السابقون من قوات فيصل شيئًا يشبه الجيش النظامي. وقد ذكر أحد ممثلي وزارة الخارجية الأميركية في القاهرة في نهاية عام 1917 أن جيش فيصل بقي «عاجزًا عن التعامل مع الجنود المنضبطين» ولا ريب في أن تقريره هذا كان صدى للرأي البريطاني الرسمي في القاهرة آنذاك [599].

كانت هناك خيبة أمل أخرى في أداء فريق الغارات الذي شكله لورنس عندما كان يعهد إليه اللبني بعملية معينة: فقد كان مطلوبًا من هذا الفريق أن ينسف قنطرة عالية لقطع خط السكة الحديدية الذي تستخدمه القوات العثمانية المرابطة في القدس. وقد أخفق لورنس ورجاله في هذه المهمة، ولكن اللبني بعد أن دفع أمامه الجناح الأيمن للجيش التركي شمال يافا اندفع هو بقواته عبر جبال اليهودية واستولى على القدس قبل حلول عيد الميلاد. ومع أن لورنس لام نفسه لومًا شديدًا على هذا الإخفاق، فإن اللبني لم يوجه إليه أي لوم - وقد ظهر ذلك في دعوته لورنس، بصفته ضابطًا من ضباط أركان الجنرال كلايتون إلى حضور حفلة دخول مدينة القدس.

## (5)

بتاريخ 11 كانون الأول (ديسمبر) 1917 دخل الجنرال سير ادموند اللنبي وضباطه مدينة القدس المقدسة مشياً من بوابة يافا. وعند وصولهم إلى قلعة المدينة تلا اللنبي بياناً يُعلن وضع المدينة تحت الحكم العسكري. وأوضح اللنبي لممثل فرنسا، بيكو، أن المدينة واقعة ضمن المنطقة العسكرية وأن السلطة فيها محصورة بالقائد العسكري. وقال إنه بصفته القائد العسكري سيقدر مدة بقاء المنطقة تحت الإدارة العسكرية حصرًا. وأضاف اللنبي أنه لن يسمح بإقامة إدارة مدنية إلا عندما يرى أن الوضع العسكري يسمح بذلك. وحتى ذلك الحين تبقى مسألة اتفاقية سايكس - بيكو والتصرف النهائي بفلسطين مؤجلة.

كانت بغية رئيس وزراء بريطانيا في مناسبة عيد الميلاد هي تحرير «أقدس مدينة في العالم». وكتب في ما بعد أنه «بتحريرها تمكن العالم المسيحي من استرداد أماكن المقدسة»<sup>[600]</sup>. وادعى أن الاستيلاء على بغداد والقدس أحدث تأثيرًا نفسيًا هائلًا، ولكنه أحدث أيضًا تأثيرًا ماديًا. «إن فضح الخدعة التركية لم يكن مجرد بداية لتصعد ادعاء القدرة العسكرية، ذلك الادعاء الذي أتاح له عدم كفاءتنا في إدارة شؤون الحرب أن يخيفنا سنوات عديدة، بل إن فضح الخدعة التركية في حد ذاته إسهام حقيقي في النصر النهائي»<sup>[601]</sup>.

بعد الاستيلاء على القدس أظهرت قوات فيصل العربية، بقيادة ضباط عرب وبريطانيين، جدارتها في الحرب. هذه القوات كانت تقوم بحملتها من شرق الأردن. وقد واصلت وحداتها المغيرة هجماتها الخاطفة، بينما القوات النظامية، التي دربها جويس وتولى مهمة نقلها زميله هيوبرت يونغ، أبطلت الادعاء - الذي كثيرًا ما روجه ضباط المخابرات البريطانية في السابق - بأنها لا تستطيع الصمود في وجه الجيش التركي. لقد هيا اللنبي للقوات العربية دورًا هامًا تؤديه في المرحلة التالية من حملته، دور نشر الفوضى في صفوف الأتراك عند الجناح الأيمن للجيش البريطاني.

صار اللنبي في وضع يسمح له بالزحف على دمشق، ومن ثم على القسطنطينية لتوجيه الضربة القاضية إلى الإمبراطورية العثمانية، ولكن حدث في تلك الآونة ما شل حركته. فقد كانت ألمانيا تستعد لهجوم على أوروبا الغربية، بعد أن استسلمت روسيا، الأمر الذي أتاح للودندورف أن يستعيد الجيوش الألمانية من الجبهة الشرقية. وفجأة اضطر اللنبي إلى إعادة جميع قواته البريطانية تقريبًا إلى أوروبا. وفي أول أيام فصل الربيع عام 1918 شنت القوات الألمانية هجومًا مباغتًا اخترق خطوط الحلفاء في

شمال فرنسا وهدد بكسب الألمان للحرب قبل أن تتمكن النجديات الأميركية من الوصول. ولم يَخَفْ عنف هجوم لودندورف حتى فصل الصيف. وفي أثناء ذلك بقي النبي في فلسطين وطفق يعيد بناء قواته من أجل المستقبل.

انتظر النبي من عيد الميلاد، وحتى نهاية الصيف أن تتاح له فرصة استئناف هجومه، بينما كانت ترتسم داخل الحكومة البريطانية وداخل معسكر الحلفاء خطوط المعركة السياسية بشأن التصرف النهائي بالأراضي التي تؤلف الامبراطورية العثمانية. خلال ذلك الوقت كان أنور باشا يستعد للشروع في هجوم كهجوم لودندورف، لحسابه في الشمال، بهدف الاستيلاء على أراضي الشعوب الناطقة بالتركية في إمبراطورية القيصر الروسي - أذربيجان وتركستان - وربما للزحف بعد ذلك على فارس وأفغانستان والهند لتدمير امبراطورية بريطانيا الشرقية بينما جميع القوات البريطانية بعيدة في أوروبا.

إن نظرة الى الورا تبين لنا أن هجوم أنور باشا، كهجوم لودندورف، بدا وكأنه رمية اليأس الأخيرة للنرد. ولكن لم يكن من السهولة بمكان في ذلك الحين تقدير إمكانات الامبراطورية العثمانية ونياتها. ثم إن الهجوم العثماني نقل مناطق شاسعة في شمال الشرق الأوسط لم تكن حتى ذلك الوقت موضع تنازع في الحرب، إلى دائرة الضوء في الحرب العالمية والسياسة العالمية.

وبينما كان أنور يهاجم في الشمال والشرق، تمكن النبي أخيرًا من مهاجمة قوات أنور في الغرب.

# الفصل الثاني

## الطريق إلى دمشق

### (1)

بين عيد الميلاد عام 1917 وصيف عام 1918 أرسى اللبني الأساس لاستئناف حملته على الأتراك. فقد استعاد في كانون الثاني وشباط خط السكة الحديدية الذي يصل القدس بالساحل وزاد في فروع هذا الخط، لكي يعفي جيشه من الاعتماد على حيوانات الجر والطرق التي أصابها التدمير، وظل يُغير على قوات العدو ليفقدها توازنها. وفي أثناء ذلك كان يدرب جنوده الهنود الأغرار استعدادًا للحملة المقبلة.

كانت دمشق الهدف التالي على خط زحفه. ودمشق أكثر أهمية حتى من بغداد والقدس في كل عصور التاريخ. ويُعتقد أنها أقدم مدينة استمرت مأهولة، ولكن أصولها ضاعت في ضباب الزمن. وقد كانت دمشق مدينة ضمن واحة ازدهرت من قبل أن يوجد يهود أو عرب، مسلمون أو مسيحيون، إنكليز أو ألمان. والاستيلاء على دمشق من شأنه أن يكمل من الناحية الرمزية ليس فقط الاحتلال البريطاني للأجزاء الناطقة بالعربية من الإمبراطورية العثمانية، بل إنه يضمن أيضًا مكانة بريطانيا في سلسلة التعاقب الشرعي لفاتحي العالم القدامى الذين ختموا انتصاراتهم بتحقيق السيطرة على واحات سورية.

وقد ادعت بريطانيا أنها أكثر من فاتح تقليدي، إذ إنها كانت تعمل نيابة عن مجموعة من القوى والقضايا المترابطة. وكان اللبني قائدًا لقوات الحلفاء، وجيوشه مستعدة للزحف تحت رايات عديدة، بينها الراية التي وضع تصميمها سير مارك سايكس لتكون راية للحسين وللقضية العربية. فألوانها - الأسود والأبيض والأخضر والأحمر - ترمز إلى أمجاد الماضي للإمبراطوريات العربية الإسلامية وتدل على أن الحسين هو حامل لوائها المعاصر. والتعديل الوحيد الذي أدخله الشريف حسين على العلم هو تغيير المستطيل الأحمر<sup>[602]</sup>. وكان سايكس قد أمر بصنع الأعلام من قِبَل هيئة الإمداد العسكرية البريطانية في مصر وتسليمها إلى قوات الحجاز.

إن علم القومية العربية الذي وضع تصميمه بريطاني وصنعه البريطانيون، كان ينبئ بمسألة دقيقة فيما كانت جيوش اللبني تستعد للزحف على

دمشق: هذه المسألة هي مدى إخلاص أو نفاق المسؤولين البريطانيين الذين كان لهم الشأن الأكبر في صياغة السياسة المتعلقة بالشرق الأوسط، في تبنينهم لقضايا مختلفة كان الظن أنهم آمنوا بها خلال مسيرتهم. إن سير مارك سايكس، الذي كان قبل عام 1914 معجباً بالأتراك كشعب مؤهل لأن يحكم غيره، تبدل خلال الحرب فأخذ يناصر قضية تحرير الشعوب من الطغيان العثماني. وبعد أن كان معادياً للسامية أخذ يعبر عن اهتمامه باليهود، شأنه شأن ماينرتزهاغن، الذي كان هو أيضاً معادياً للسامية شديد العداء لها. والموظفون الاستعماريون أمثال ستورز وكلايتون، الذين كان رأيهم دائماً أن سكان المناطق العربية غير قادرين على أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، ظهروا وكأنهم مؤيدين لمارك سايكس في إشارات بانبعث الاستقلال العربي. ولم تكن هذه التحولات كلها أصيلة.

عند أحد طرفي الصورة كان سايكس المؤمن بوجوب الوفاء بالتعهدات التي كان هو مسؤولاً إلى حد كبير عن إعداد صيغتها. وعند الطرف الآخر كان ضباط العمليات الذين أسفوا لهذه التعهدات وخالفوا أحياناً القضايا التي قُطعت باسمها. وقد انتقل سايكس في بداية عام 1918 إلى وظيفة في وزارة الخارجية في لندن تولى فيها مسؤولية السياسة المتعلقة بمسرح الحرب العثمانية، أما الذين كانوا مسؤولين ميدانياً عن السياسة المتعلقة بمسرح الحرب العثمانية - كلايتون في فلسطين، ووينغيت في مصر، وحكومة الهند في بغداد - فقد كانت لهم شكوكهم في السياسة المثالية التي تبناها سايكس، مع أنهم لم يخبروه بذلك صراحة. وتحت السطح الحضاري للتبدلات في الحكومة البريطانية في عام 1918، كان ثمة خيط خفي شده موظفو وزارة الخارجية البريطانية وضباط الميدان في اتجاهين متعاكسين. وهكذا كانت بغداد والقدس، وكذلك دمشق من وراء خطوط الحلفاء، تنتظر كلمة لتعرف مصيرها، غير مدركة أن هناك صراعاً داخل الجهاز البيروقراطي البريطاني قد يقرر هو مصيرها.



## (2)

عمل البريغادير - جنرال جيلبرت كلايتون بصفة كبير الضباط السياسيين في قيادة الجنرال اللنبي، ولكنه ظل «الأنا الآخر» السياسي لسير ريجينالد وينغيت، المندوب السامي البريطاني في القاهرة. وبذلك فإنه شغل منصبًا قياديًا في تقرير سياسة كل من مصر والسودان وكذلك سياسة جيش الاحتلال في فلسطين. كان كلايتون ضابطًا محترفًا في الجيش اعتاد بحكم حذره المهني أن يمتنع عن التعبير صراحة عن آرائه إذا تناقضت مع آراء رؤسائه. ولذلك فإنه كان صريحًا في التعبير عن آرائه لوينغيت الذي كان على وفاق معه، ومتحفظًا في التعبير عنها لسايكس، الذي كان على خلاف معه.

كان كلايتون وستورز يخططان لمملكة عربية أو لاتحاد كونفيدرالي عربي توجهه بريطانيا في شرق أوسط لا مكان فيه لفرنسا (ربما باستثناء لبنان). وقد أنكر كلايتون عداؤه لفرنسا. فليست الحكاية - حسب تفسيره - أنه يريد استبعاد الفرنسيين من سورية، إنما العلة هي في الفرنسيين أنفسهم، لأنهم مكروهون من السوريين، وإذا ما أُتيحت لهم الفرصة أن يحكموا سورية فسوف يفسدون الفرصة. وقال كلايتون أنه لن يتآمر لكي يسبب هذه النتيجة، وكل ما في الأمر أنه يتنبأ بها. وقد كتب إلى سايكس في 20 آب (أغسطس) 1917 قائلاً [603]: «لا حاجة بك أن تخشى أي توجه فاشودي من جانبي» كل ما في الأمر أنه كان يخشى أن يُوجّه اللوم إلى بريطانيا إذا فشلت فرنسا، وقد قال لسايكس إن من المهم إقامة الدليل الذي يبين أن الخطأ ليس خطأ بريطانيا.

أنكر كلايتون معاداته لفرنسا، ولكنه اعترف بأن لديه تحفظات تجاه حلفاء بريطانيا الآخرين في الشرق الأوسط. فحتى بمقاييس ذلك الزمن كان كلايتون وزميله وينغيت يميلان ميلاً شديداً إلى معاداة اليهود. وكان وينغيت يوجه اللوم إلى اليهود في التحريض على نشوب الحرب العثمانية.

وفي عام 1916 قال كلايتون في تقرير إلى وينغيت أن اليهود وراء حركة عقد صلح مع

الامبراطورية العثمانية [604].

ولكن عندما تطور الحديث عن موضوع الصلح مع تركيا على أساس حل وسط في عام 1917، احتج كلايتون قائلاً أن بريطانيا لا تملك الحق الأدبي في التفاوض «لأننا ملتزمون بتأييد العرب، والسوريين، واليهود، والأرمن» ولذلك علينا أن نمضي قُدماً لإحراز نصر كامل [605]. وفي الوقت عينه كان

معارضًا للدخول في هذه الالتزامات بالذات ومن ضمنها الالتزام بالصهيونية. وبينما كانت مسودة إعلان بلفور قيد الإعداد، كتب إلى سايكس قائلًا إنه من الأفضل إبقاء أهارون أهارونسون واليهود «في اللعبة» من دون إصدار أي بيان عن نيات بريطانيا<sup>[606]</sup>. وأضاف أن السياسة تتجه إلى استبعاد اليهود والعرب من المجهود الحربي. وبما أنه حذر بطبيعته، فلم يرَ حاجة في أي حال من الأحوال لإعطاء تعهدات مسبقًا.

وبعد انقضاء شهر على إصدار إعلان بلفور كتب كلايتون إلى سايكس مشيرًا إلى أن إصداره ربما كان غلطة: «لا أعرف معرفة تامة مقدار وزن الصهيونيين، وخصوصًا في أميركا وروسيا، ولا أعرف ما يترتب على ذلك من ضرورة اعطائهم كل ما يطلبون، ولكن لا بد من أن أشير إلى أننا إذ ندفعهم بقوة كما نبدو أننا نفعل، إنما نجازف بإمكانية جعل الوحدة العربية كأنها أمر واقع وكأنها موجهة ضدنا»<sup>[607]</sup>.

على أية حال لم يكن كلايتون مواليًا للعرب بمعنى تحييد الاستقلال العربي. بل على العكس من ذلك، إذ أنه اقترح هو ووينغيت في مطلع عام 1917 إلغاء استقلال مصر الذي كان استقلالًا اسميًا والتوجه نحو ضم مصر - وهو رأي عارضته وزارة الخارجية البريطانية بنجاح. وقد كتب آنذاك إلى سايكس لدعم اقتراحه ولانتقاد المسؤولين في لندن الذين حالوا دون تنفيذه، فادعى: «إنني أعارض سياستهم معارضة شديدة، ولكن سجلّ كلامي، إنني أعرف أنني على صواب. فكل هذا الهراء عن السلاطين والحكم الذاتي في مصر هو كلام تافه. إنهم غير مستعدين لذلك، فإذا كنت صاحب قصر فإن كل ذرة من السلطة والحكم الذاتي تظن أنك تعطيها للشعب، ستذهب مباشرة إلى أيدي السلطان ووزيره لاستخدامها ضدك. إن النظريات الجميلة كلها حلوة جدًا، ولكن الحقائق القاسية تبقى قائمة»<sup>[608]</sup>.

ومع أن كلايتون كان أول من هُوّل في أمر الجمعيات السرية العربية، حتى من قبل نشوب الحرب العثمانية، فقد تجاهل دائمًا ما أبلغته هذه الجمعيات: أي أنها لا تريد أن يحكمها مسيحيون أو أوروبيون حتى ولو كانوا بريطانيين، وقد جاء ما يذكر بذلك في مطلع عام 1918 ضمن الحقبة الدبلوماسية المرسلة من مدريد، حيث ألقى السفير البريطاني مع عزيز المصري، زعيم إحدى الجمعيات السرية، وقال السفير أنه تلقى من المصري اقتراحًا بتنظيم الإطاحة بحكومة أنور وطلعت في القسطنطينية، على أن يُعاد تنظيم الإمبراطورية العثمانية على قاعدة الفيدرالية وأن يعرض الحكم الذاتي على العرب وغيرهم، ويتبع ذلك التوفيق بين الإمبراطورية العثمانية المُعاد تنظيمها والدول الحليفة<sup>[609]</sup>. وقد سبق لعزيز المصري أن قال مثل هذا

الكلام مرارًا لكلايتون في القاهرة عند بداية الحرب. ولكن لا يبدو أن كلايتون فهم أن الذين يتحدث عزيز المصري باسمهم يقبلون أن يحكمهم الباب العالي التركي ويرفضون أن يحكمهم المعتمد البريطاني المقيم، والشيء الذي كان يقترحه كلايتون - أي أن يكون الشرق الأوسط العربي محمية بريطانية - هو ما أشار المصري إلى أنه غير مقبول إطلاقًا.

وهكذا فإن كلايتون، الضابط الذي كان يقدم النصح إلى اللنبي بشأن السياسات الواجب اتباعها في البلدان المحتلة، أي فلسطين وشرق الأردن ولبنان وسورية، والذي كان يدّعي أنه ليس عدوًا لفرنسا ويصرُّ على أنه صديق الصهيونيين والعرب، كان عمليًا يعارض طموحات هذه الجهات الثلاث.

### (3)

كان سير مارك سايكس مبتدئاً في العمل الحكومي - في عام 1917 تولى منصباً تنفيذياً مدة سنتين فقط - وكان ذا شخصية متقلبة تظل نهياً للحماسة المفاجئة. وكما ذكرنا سابقاً، سرعان ما كان يتبنى قضية أو يتخلى عنها. ولكنه بالرغم من عدم ثباته على حال، لم يكن عديم الأمانة: فهو لم يكن ينافق أو يخفي مشاعره. وبعد أن تحول من معادٍ للعرب، ومعادٍ لليهود، ومعادٍ للأرمن إلى موالٍ للعرب ولليهود وللأرمن، لم يعرف سوى طريق واحدة ليكون وفيّاً مع أصدقائه الجدد - ومن كل قلبه.

كان سايكس يؤمن بالوفاء بالوعود التي قطعها للعرب واليهود والأرمن والفرنسيين، وظلّ يجهد في العامين 1917 و1918 للتوفيق بين هذا الائتلاف المتباين الأطراف. وقد كتب حاييم وايزمان في وصف مناقب سايكس البارزة قائلاً: «لم يكن ثابتاً جداً أو منطقياً في تفكيره، ولكنه كان كريماً وعطوفاً»<sup>[610]</sup>. ونظراً لدوره في المساعدة على تحقيق أمانى اليهود القومية، كان ملائماً للزعيم الصهيوني ناحوم سوكونوف أن يطلق على باب مكتب سايكس اسم «باب الأمل»<sup>[611]</sup>. أما ضمن الحكومة البريطانية فكان ثمة من يعترض على هذا الكرم نحو الأجانب. وحقيقة الأمر أن مشكلة سايكس الرئيسة كانت أن يضمن تأييد زملائه الذين كانت تحيرهم وجهات نظره - كانت تحيرهم إذ لم يخطر في بالهم، كما يبدو، إنه وفق مقاييسهم انسان ساذج.

أحد جوانب مشكلة سايكس أنه لم يكن يعرف «مَنْ مِنْ زملائه يؤيد ماذا». ولم يكن يفهم أن بعضهم يخفي دوافعه وخططه. وكان يشعر أن باستطاعته في الاجتماعات والمراسلات السرية مع زملائه المؤتمنين في الحكومة البريطانية، أن يعبر عن وجهات نظره بصراحة وبالكامل، وافترض خطأ أن شعورهم مماثل لشعوره. كان الموظفون المدنيون وضباط الجيش المحترفون أمثال كلايتون يتصفون بالحذر بحكم المهنة، وهم، خلافاً لسايكس، يميلون إلى عدم اظهار أدوارهم. وكان سايكس عضواً في مجلس العموم، وحرفته هي إلقاء الخطب، أي أنه بحكم المهنة يتكلم، بينما رجال مثل كلايتون يحتفظون بأرائهم بحكم المهنة أيضاً.

عند عودة سايكس إلى لندن في صيف 1917 اكتشف أن موظفي وزارة الخارجية المؤيدين للعثمانيين، بالاشتراك مع هنري مورغنتاو السفير الأميركي السابق في القسطنطينية، حاولوا في غيابه أن يفاوضوا بشأن صلح منفرد مع تركيا - وقد أجهضت هذه المحاولة نتيجة المقاومة السريعة التي أبداهها حاييم وايزمان وآخرون. وقد كتب سايكس إلى كلايتون قائلاً:

«تبين لي عند وصولي أن وزارة الخارجية كانت تعمل بتؤدة لتدمير كل ما فعلته في السنتين الماضيتين. أي أنها كانت تؤجج المشاعر المعادية للتحالف (يقصد المشاعر المعادية لفرنسا) وتدفع إلى مفاوضات منفصلة مع تركيا. والحقيقة إنني وصلت في الوقت المناسب. ومن حسن الحظ أن الصهيونية حافظت على وضعها...»، كان على صواب في ما يتعلق بالصهيونية وكان مخطئاً في ما يتعلق بوزارة الخارجية التي لم تكن معادية لفرنسا، فإن الجهة التي كانت معادية لفرنسا هي المكتب العربي تحت إشراف كلايتون، ذلك المكتب الذي أوجده سايكس نفسه.

كان ديفيد هوغارت مدير المكتب العربي قد جاء الى لندن في عام 1917 قبيل عودة سايكس، ونشط وراء الكواليس في مقاومة اتفاقية سايكس - بيكو ومقاومة وجود دور لفرنسا في الشرق الأوسط، ونشط أيضاً في الدعوة إلى بسط حماية بريطانية على اتحاد كونفيدرالي عربي بزعامة الشريف الحسين. سرّاً، كانت وجهات نظر جيلبرت كلايتون تكاد تكون مطابقة لوجهات النظر التي يعبر عنها هوغارت، وهو رجل أكثر صراحة، ولم يكن سايكس يعرف هذا التطابق في وجهات النظر، فكتب إلى كلايتون قائلاً: «وصل هوغارت وأفسد الأمور بكتابة مذكرة معادية لفرنسا ومعادية للاتفاقية. لقد سكب ماءً بارداً على الحركة العربية ونشط من أجل... مكة بريطانية» وتابع سايكس مغتبطاً: «لقد نال عقوبته...».

وإذ كرر سايكس القول: «إن الشيء المهم هو ألا نرضخ إطلاقاً للفاشودية، فرنسية كانت أم بريطانية»، قال: إنه وبيكونيان حمل الحكومتين الفرنسية والبريطانية على أن تكونا صادقتين أحدهما مع الأخرى وأن تكونا صادقتين مع العرب: «... إذ ليس هناك سوى سياسة واحدة ممكنة، الوفاق أولاً وأخيراً والدولة العربية ابنة هذا الوفاق». وكان رأيه أن العرب أيضاً يجب ضبطهم وحملهم على أن يفهموا أنه لا يجوز لهم أن يحاولوا شق التحالف الانكليزي الفرنسي.

وقال في رسالته إلى كلايتون: «أطلب الى جماعتك الانكليز أن يوضحوا هذا الأمر للعرب، وعدم السماح لهم بقبول المداينة على طريقة (أنت رجل طيب جداً وهو رجل سيئ جداً)، وسأذهب الى باريس لأجعل الفرنسيين يؤيدون القضية العربية باعتبارها أملهم الوحيد. إن الاستعمار جنون، وأعتقد أنني وبيكو قادران على اثبات ذلك لهم»<sup>[612]</sup>. ويبدو أن سايكس لم يكن يرتاب في أن بيكو نفسه ظل استعمارياً يعتبر بريطانيا منافسة لبلاده في الشرق الأوسط، ولم يكن يرتاب أيضاً في أن كلايتون كان يأمل بإبقاء فرنسا خارج المنطقة كلياً.

لقد تبين أن كلايتون لم يكن مستعدًا حتى للعمل مع بيكو، وقد احتج على تنفيذ اتفاقية - تم التوصل إليها مع الفرنسيين في عهد حكومة إسكويث - تنشأ بموجبها إدارة انكليزية - فرنسية مشتركة في المناطق المحتلة خلال الحرب في الشرق الأوسط. وقد أكد بيكو، بصفته ممثل فرنسا لدى قيادة الجنرال اللنبي، أن سير ادوارد غراي وعده بالإدارة المشتركة. ولكن كلايتون كتب إلى سايكس قائلاً: «إذا كان الأمر كذلك فأنا لم أسمع شيئاً عنه، ولا يسعني إلا أن أحتج بشدة على ترتيب كهذا الترتيب الغادر والذي لا يمكن تطبيقه» [613]. على أية حال، مارس الجنرال اللنبي سلطته فأرجأ النظر في مثل هذه الأمور ريثما يكون الوضع العسكري في نظره ملائماً لذلك، الأمر الذي ألغى بالنتيجة تلك الاتفاقية إلى حين.

وفي ما يخص العرب واليهود والأرمن، عبّر كلايتون عن وجهات نظره لسايكس بعبارات أكثر تحفظاً. ففي الأسبوع الذي أعقب نشر إعلان بلفور، أرسل سايكس المتهور برقية كتبت بأسلوب الرموز (الشيفرة) إلى كلايتون غير المتحمس يبلغه فيها أن الحركة الصهيونية مستعدة أن تعمل نيابة عن العرب والأرمن وأنه هو، أي سايكس، يقوم بتشكيل لجنة مشتركة توحد الفئات الثلاث [614]. وسيمثل الصهيونيين حايم وايزمان، ويمثل الأرمن جيمس مالكولم، أما العرب فسيمثلهم بصورة مشتركة مسيحي سوري ومسلم عربي. وأضاف سايكس أن من المهم أن ينضم عرب آخرون لأن ذلك يساعد العرب في كل مكان.

بعد بضعة أسابيع أبرق سايكس إلى كلايتون من جديد ليبلغه أنه أقنع القيادة الصهيونية بأن تنهج نهجاً قوياً في تأييد العرب [615]، وطلب إلى كلايتون أن يبلغ الجماعات العربية السورية في القاهرة، أنه إذا ما استحوذ الأتراك والألمان على الدعم الصهيوني فسيكون ذلك وبالأعلى عليهم وعلى كل جهة أخرى ترتبط آمالها بالحلفاء. كان كلامه هذا يعني ضمناً أن إعلان بلفور صدر لمصلحة العرب ومصلحة بريطانيا أيضاً. وبُعِيدَ إرساله البرقية إلى كلايتون وجه سايكس رسالة إلى بيكو يبلغه فيها أن المصالح العربية ستكون مصونة صيانة كافية وأن اليهود في فلسطين سيوجهون اهتماماً شديداً إلى المصالح العربية [616]. ووجه سايكس أيضاً رسالة إلى كلايتون يبلغه فيها أن الزعماء الصهيونيين والأرمن متفقون اتفاقاً تاماً وأن من المهم أن ينضم الزعماء العرب إلى «التجمع» [617].

سكب كلايتون في رده البرقي ماءً بارداً على اقتراح سايكس إذ قال له: «بالرغم من كل الحجج فإن مكة تكره اليهود والأرمن ولا ترغب في أن تكون لها علاقة معهم، أما سورية وفلسطين فإنهم يخافون أن تتكرر قصة

يعقوب وأخيه عيسو. وفي كل الأحوال، إن قيام تجمّع عربي - يهودي - أرمني هو أمر غريب على أية تجربة سابقة وغريب على الشعور الحالي، ولذلك يجب أن نسير بحذر شديد» [618]. وأضاف إن إرسال وفدٍ عربي إلى لندن حسب طلب سايكس ليس أمرًا عمليًا لأن العرب منقسمون على أنفسهم انقسامًا شديدًا.

بعد بضعة أيام كتب كلايتون إلى سايكس، ولكن بلهجة أكثر استرضاء فقال: «أفهم الحجج التي تقدمت بها بشأن قيام تجمع عربي - يهودي - أرمني والفوائد التي ستنتج عنه إذا أمكن تحقيقه. سنقوم بالمحاولة، ولكن يجب أن نقوم بها بحذر شديد، وأقول صادقًا إنني لا أرى فرصة كبيرة لنجاح حقيقي. إذ أنها ستكون محاولة لكي نبذل خلال بضعة أسابيع شعورًا تقليديًا عمره قرون». وحذر كلايتون بصورة خاصة من الجانب اليهودي في التجمّع وأضاف: «علينا أن نفكر هل يتطلب الموقف اعطاء اليهود مزيدًا ومزيدًا من التأييد مجازفين بتغيير العرب في لحظة دقيقة» [619].

في اليوم التالي كتب سير ريجينالد وينغيت، المندوب السامي في مصر، وهو أيضًا أقرب المقربين إلى كلايتون - إلى اللبني قائلاً: «إن مارك سايكس يندفع وراء (اسرافه في الكلام) في ما يخص الصهيونية، وإذا ما لم يتمهل قليلًا فقد يقلب العربة من دون قصد. بيد أن كلايتون وجه إليه رسالة ممتازة، وإنني آمل أن يكون لها تأثير مهدئ» [620].

مهما يكن من أمر فقد عقد كلايتون اجتماعًا مع ممثلي سورية في القاهرة، وفقًا لطلب سايكس، ويبدو أنه قال لهم، بناءً على التعليمات التي تلقاها، إنه ما لم يتحقق الحصول على التأييد اليهودي للحلفاء فإن القضية العربية، المرتبطة أيضًا بالحلفاء، لن يكون لها حظ من النجاح. وأبلغهم أيضًا أن اليهود راغبون في أن يكون لهم وطن في فلسطين ولكن ليست لديهم النية في أن يقيموا دولة يهودية هناك [621].

كان رد العرب السوريين إيجابيًا، وُثقل تقرير أرسله المكتب العربي إلى كلايتون عن متحدث باسم اللجنة السورية قوله: «إن أعضاء اللجنة مدركون تمام الإدراك أن السياسة الوحيدة والفضلى التي يجب أن يتبعوها هي سياسة التعاون مع اليهود وفق الخطوط التي اقترحتها أنت. وقد أكد لي أن السوريين متفهمون تمامًا لقوة اليهود ومركزهم ويودّون الآن نشر دعاية تشدد على الأخوة والوحدة السورية - اليهودية في ما يتعلق بفلسطين» [622].

أبلغ كلايتون سايكس اعتقاده بأن اليهود والعرب يتقاربون فعلاً، وقال إنه أصدر تعليماته إلى لورنس، ضابط الاتصال البريطاني لدى فيصل، بأن يقنع فيصل بالحاجة إلى إنشاء تحالف مع اليهود [623].

غير أن المسؤولين البريطانيين لم يحاولوا عند إدارة المناطق المحررة في فلسطين أن يستفيدوا من هذا التوجه الإيجابي. ومع أن إعلان بلفور نُشر في لندن قبل شهر من دخول اللنبي إلى القدس، فقد رفضت السلطات العسكرية البريطانية أن تنشره في القدس. وهكذا فإن إعلان بلفور لم يدخل في سياسة الإدارة العسكرية المؤقتة التي أقامها اللنبي برئاسة رونالد ستورز، الذي امتنع عن إثارة أية مواضيع قد تسبب الاضطراب ما دامت الحرب مستمرة. وقد أبلغت مخابرات القاهرة وزارة الخارجية البريطانية أنه يجب رفض طلبات اليهود التي يقدمونها للاستيطان في فلسطين ريثما يصل الوضع العسكري إلى حل وريثما تنشأ منظمة لمعالجة مختلف المشاكل التي يمكن توقع نشوئها [624].

كان هناك ميل واضح لدى موظفي الإدارة العسكرية للاعتقاد بأن المسؤولين في لندن لم يقدّروا الصعوبة الحقيقية جداً في حمل مسلمي فلسطين على تقبل امكانية زيادة الاستيطان اليهودي في البلاد. ولذلك أعطى موظفو الإدارة العسكرية الانطباع بأنهم غير مستعدين لتنفيذ وبعد بلفور، ولاحظ بعض المراقبين أيضاً ميلاً لدى هؤلاء الموظفين لتفضيل المسلمين، الذين عوملوا باعتبارهم «سكان البلاد الأصليين»، على المسيحيين واليهود الذين كانت هناك صعوبة أكبر في معاملتهم على المنوال نفسه. إن وليم أورمسي - غور، أحد مساعدي أمناء السر الثلاثة في مجلس الوزراء الحربي، كتب من تل أبيب في صيف عام 1918 إلى زميله مارك سايكس قائلاً إن ضباط الاحتلال العسكري الذين سُحبوا من الخدمة في مصر والسودان، هم أشخاص «لا تؤهلهم خبرتهم لسرعة ادراك المسائل الواسعة النطاق للسياسة العالمية التي تتأثر بها فلسطين. ولا يسع المرء إلا أن يلاحظ الميل الراسخ لدى الانكليز الذين عاشوا في الهند أو السودان لتفضيل المسلمين، دون وعي منهم، على المسيحيين واليهود». وأضاف: «إن عرب فلسطين، حسبما توافر لدي من معلومات، أخذوا يُظهرون ميلهم القديم إلى أساليب الرشوة والبخشيش ويحاولون أن (يزحفوا خلسةً) على اليهود» [625].

أرسل كلايتون رسالة أورمسي - غور إلى سايكس مصحوبة برسالة من عنده مُبديةً فيها شعوره بأن رسالة أورمسي - غور تنطوي على تضليل، واحتجّ كلايتون بأنه هو شخصياً محبذ للصهيونية [626]. والظاهر أنه تحوّل



إلى وجهة النظر القائلة إنه يمكن تحقيق اتفاق بين العرب واليهود. لم تكن نظرتة إلى العرب المحليين نظرة احترام، فكتب الي جيرترود بل، وهي مؤلفة ورحالة إلى الشرق كانت آنذاك تعمل في الإدارة البريطانية في بغداد قائلاً: «إن هؤلاء الذين يسمونهم عرب فلسطين لا تجوز مقارنتهم بالعربي الحقيقي ابن الصحراء ولا حتى بعرب المناطق الأكثر تمدناً في سورية وبلاد الرافدين» [627].

وقد كتب رونالد ستورز، الذي عُيِّن حاكمًا عسكريًا للقدس، إلى سايكس في صيف عام 1918 قائلاً إن العناصر غير اليهودية من السكان التي لا بد لها في نهاية الأمر من أن تشغل «مكانة أدنى في الأرض التي يثق الآخرون ثقة مطلقة أنهم سيستولون عليها في نهاية المطاف، ولذلك يجب أن تُنجز العملية قدر المستطاع بلباقة ورفق وكياسة وأن تتوافر للحامية المغادرة بعض مراسم التكريم المتبعة في الحرب». وكتب ستورز داعياً إلى اتباع سياسة التمهّل فقال: «قد يتطلب الأمر شهوًراً وربما سنين من العمل الدؤوب لكي نبين لليهود أننا لا نُسيّر من قبل العرب، ونبين للعرب أن اليهود لم يبتاعونا» [628].

وكتب ستورز في الرسالة نفسها: «إن رؤية المستقبل المحتمل لهذا البلد بوضوح كافٍ هو شيء، والتقصير في أن نحسب حساباً لموقع العنصر الأضعف وربما المختفي، هو شيء آخر. إن نتائج التبدلات ستكون أبعث على الرضى وأكثر ديمومة إذا ما تحققت تدريجاً وبأناة، ومن دون التعبير بعنف عن سوء النية الذي يخلف وراءه حقداً لا يزول» [629].

المسألة التي أثارها ذلك أمام سايكس وزملائه في لندن هي: هل هذه السياسة التي يدعو إليها الرجل الموجود في الموقع، هي المثلى من حيث دقة الحساب لتحقيق، أو إفشال، أهدافهم.

## (4)

اتخذ سايكس وزملاؤه في وزارة الخارجية في مطلع عام 1918 خطوات لوضع سياستهم المتعلقة بفلسطين موضع التنفيذ. وأبرقت وزارة الخارجية في 13 شباط (فبراير) إلى ريجينالد وينغيت في مقر المعتمد البريطاني في القاهرة تبلغه أن لجنة صهيونية قد أنشئت وسوف تُرسَل إلى الشرق الأوسط، وأنها تضم ممثلين عن الحركة الصهيونية البريطانية والحركات الصهيونية الأخرى، وسيكون على رأسها الدكتور حاييم وايزمان وسيكون مسؤولاً عنها وليم أورومسبي - غور.. أما هدفها فهو تمهيد الطريق لتنفيذ إعلان بلفور [630].

لقد دشّن ألن داوئي، أحد ضباط الأركان في قيادة اللّبي، عمل اللجنة الصهيونية بترتيب لقاء بين وايزمان والأمير فيصل، ثم كتب إلى الكولونيل جويس كبير الضباط البريطانيين المرافقين لفيصل أنه: «يظن استنادًا إلى ما فهمه عن الأهداف الصهيونية، من خلال حديث قصير، إنه لن تكون هناك صعوبة في إقامة علاقة صداقة بينهما» [631].

جرى تقديم وايزمان إلى الأمير فيصل فشعر باندفاع حماسي نحوه وكتب وايزمان إلى زوجته عن فيصل قائلاً: «إنه أول قومي عربي حقيقي اجتمع به. إنه قائد! وهو ذكي جدًا وصادق جدًا ووسيم وكأنه صورة مرسومة! وهو غير مهتم بفلسطين، ولكنه من جهة أخرى يريد دمشق وسورية الشمالية بكاملها... وينظر نظرة احتقار إلى عرب فلسطين بل إنه لا يعتبرهم عربًا!» [632].

هذا الكلام يتفق مع ما قاله أورمسمبي - غور في اجتماع صهيوني عُقد في لندن بعد بضعة شهور. ووفقًا لتلخيص لخطابه فإنه قال أمام اللجنة السياسية الصهيونية: «إن الحركة العربية الحقيقية موجودة في الواقع خارج فلسطين، والحركة التي يقودها الأمير فيصل ليست مختلفة عن الحركة الصهيونية. إنها تضم عربًا حقيقيين وهم رجال حقيقيون. إن العرب المقيمين عبر الأردن أناس رائعون. أما الناس الذين غربي الأردن فليسوا عربًا وإنما هم فقط ناطقون بالعربية» [633]. ويجب على الصهيونيين أن يعتبروا الحركة العربية، ومركزها الحجاز أصلًا، ولكنها تنتقل الآن شمالًا، حركة زميلة ذات مثل سامية» [634].

لقد حضر الكولونيل جويس كبير مستشاري الأمير فيصل العسكريين البريطانيين، اجتماع وايزمان وفيصل، ثم نقل جويس رأيه الشخصي فقال إن فيصل رحب بإمكانية التعاون اليهودي، وإنه في الحقيقة اعتبر هذا

التعاون جوهريًا لتحقيق الطموحات العربية. وفي رأي جويس إن الأمير فيصل، بالرغم من عدم قدرته على ابداء آراء محددة من دون أن يتلقى تفويضًا من والده، سيقبل بفلسطين يهودية إذا كان في ذلك ما يقنع الحلفاء بتأييد مطالبته بسورية [635]. لقد سار الاجتماع سيرًا حسيًا ومهد الطريق للتأييد العلني للصهيونية الذي قدمه فيصل في مؤتمر الصلح السنة اللاحقة. أما في القدس فقد وجد وايزمان المسلمين الذين التقاهم أقل تقبلًا، مع أنه أكد لهم أن فلسطين كبيرة إلى حد يكفي لاستيعاب جميع فئات سكانها، وأن الاستيطان اليهودي لن يكون على حساب المسلمين أو المسيحيين. وقد أزعج وايزمان موقف المسؤولين الإداريين البريطانيين في فلسطين. فعندما دعاهم وايزمان إلى تبني سياسة حكومتهم المتعلقة بإعلان بلفور بصورة علنية وأن يشرحوها للسكان المسلمين، رفض رونالد ستورز وزملاؤه أن يستجيبوا له.

لقد رد ستورز في رسالة إلى وزارة الخارجية على ادعاء وايزمان أن مسؤولية الإدارة العسكرية اقناع السكان المسلمين بجدية التأييد البريطاني للصهيونية، فقال إن ذلك قد حدث فعلاً، وقام به بلفور في لندن وكذلك صحف العالم، والمطلوب هو أن تتخيل اللجنة الصهيونية نفسها في مكان سكان البلاد غير اليهود وأن تقر بمدى حاجتهم إلى الكثير جدًا من التطمينات. «إن فلسطين وهي حتى الآن بلد إسلامي، قد سقطت في يد دولة مسيحية أعلنت عشية فتح البلد أن جزءًا كبيرًا من أرضها سوف يُسلم لأغراض استعمارية إلى شعب ليست له شعبية كبيرة في أي مكان». لم يغب عن بال رونالد ستورز، ابن المدينة، أنه الآن حاكم القدس في سلسلة التعااقب منذ بيلاطس البنطي، ولذلك غسل يديه من مسألة لا يعتبر نفسه مسؤولاً عنها. بيد أنه أكد لدى وزارة الخارجية أنه إنما يتحدث «بصفته صهيونيًا مقتنعًا بصهيونيته» [636].

كان جيلبرت كلايتون أيضًا يدعو إلى التمهّل. كانت استراتيجيته، التي سبق أن قدم مؤشرًا إليها في مطلع عام 1918، غير مقتصرة على تأجيل المسألة الصهيونية، بل كانت تقضي أيضًا بربط هذه المسألة بمسألة سورية العربية، وهو ما كان فيصل أيضًا يقترحه. وقد قال كلايتون في رسالة إلى ليو أيميري الشديد الولاء للصهيونية: «إن أهم نقطتين هما عدم الاندفاع الزائد عن الحد محليًا مع الصهيونية قبل أن ينال العرب حصتهم من الكعكة، أي دمشق، وحمل الفرنسيين على أن يكونوا واضحين في نبذهم أية أفكار عن الضم الاستعماري وأن يؤكدوا التزامهم بفكرة الحكم الذاتي العربي» [637].

لم يعالج كلايتون ولا ستورز السؤال التالي: هل إذا رفضنا الاعتراف في القدس بأن حكومتها أصدرت إعلان بلفور في لندن، سيعتاد العرب واليهود في فلسطين أن يثقوا بالبريطانيين أكثر مما يثق المسلمون في سورية ولبنان بالفرنسيين. في تلك الأحوال كانت لدى الزعماء الصهيونيين أسباب للقلق من تقويض سياسة إعلان بلفور الذي صدر في لندن على أيدي كلايتون وستورز وضباط آخرين في فلسطين.

## (5)

وفي بغداد والبصرة، لم تحظ سياسة الاستقلال العربي التي أعلنها سايكس ووزارة الخارجية البريطانية بما هو أكثر كثيرًا من التأييد اللفظي. وقد اضطر سير بيرسي كوكس، للسفر في رحلة طويلة ثم للعودة إلى فارس. وقام بأعماله في غيابه نائبه الكابتن أرنولد ويلسون، ثم خلفه بصفة حاكم مدني. ولم يؤمن ويلسون، الضابط في الجيش الهندي، باستقلال الولايتين اللتين كان يحكمهما، ولا بدور للملك حسين، ملك الحجاز البعيدة، في شؤون الولايتين.

كانت جيرترود بل، أشهر من ألف كتبًا عن الأراضي العربية في زمنها، قد جاءت إلى بغداد مع جيش دجلة وعملت بصفة مساعدة لويلسون. وفي أول الأمر استخدمت مكانتها الكبيرة وشبكة صداقاتها الأسرية والاجتماعية الواسعة لدعم سياسته. ولم تكن لها مزايا المفكرين السياسيين، بل كانت تصاب بطفرات من الحماسة، وفي ذلك الحين تحمست لآراء ويلسون. وفي شباط (فبراير) 1918 كتبت إلى صديقها القديم تشارلز هاردينج، الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية، قائلة: «لقد تحققت خطوات مذهلة باتجاه إقامة حكومة منظمة... ولا يقف أي عنصر هام ضدنا... وكلما قويت قبضتنا ونحن نمسك بزمام الأمور هنا، زاد سرور السكان. إن ما يكرهونه هو أنصاف الحلول...». وختمت كلامها بالقول أن لا أحد في بغداد أو البصرة يستطيع التفكير بحكومة عربية مستقلة [638].

لقد كان هذا الكلام أبعد ما يكون عن البيان الذي أعد مسودته سير مارك سايكس بشأن تحرير بغداد، داعيًا فيه إلى بعث الأمة العربية، وفقًا لاقتراح أمير مكة في مراسلات الحسين - مكماهون، وكان في البيان تلميح إلى أن الحسين سيكون زعيم الأمة العربية.

في أمكنة أخرى أيضًا جرى تعديل في سياسة التحالف التي دعا إليها سايكس نتيجة تخلي مسؤولين بريطانيين عن حماساتهم في زمن الحرب لحاكم مكة، وفي حين استمر سايكس منافحًا عن قضية الحسين، لاحظ مسؤولون بريطانيون تدهور وضع الحسين مقابل وضع منافسه، عبد العزيز بن سعود، سيد نجد، الذي دعمته حكومة الهند طوال الوقت. وكان سايكس قد تلقى ايماءة إلى هذا التدهور عندما زار الحجاز في ربيع 1917، إذ كان الحسين على نحو مفاجئ مهادئًا بموافقته على التعاون مع بريطانيا في بلاد الرافدين، بل ومع فرنسا في سورية، مضيفًا: «لكننا نطلب إلى بريطانيا العظمى أن تساعدنا في مسألتنا ابن سعود» [639][640].

في كانون الثاني (يناير) 1918 أبلغ الملك حسين أحد ضباط المكتب العربي، الرائد كيناهاان كورنواليس، أنه يفكر بإعلان نفسه خليفة المسلمين. كانت هذه خطة كيتشنر قبل ثلاث سنوات، مدفوعًا إلى تبنيها بالمشكلات التي تلقاها من كلايتون وستورز، وكان الضباط الذين شكلوا في ما بعد المكتب العربي يدعون إلى تنفيذها.

ولكن مع حلول كانون الثاني (يناير) 1918 تبدلت وجهة نظر المكتب العربي إلى وجهة نظر معاكسة، نظرًا لتدني تقديرها للشريف حسين. وفي محاولة من كورنواليس، لكي يثني الشريف حسين عن هذا الهدف، أخذ يبصّره بالمشكلات الخطيرة التي ستنشأ إذا ما حاول أن يتولى الخلافة. وعندما تلقى المندوب السامي سير ريجينالد وينغيت الأخبار التي زوده بها كورنواليس، بادر إلى إرسال رسالة إلى وزارة الخارجية قائلًا أنه يأمل أن تتوافر فرصة «لإيقاف أي عمل سابق لأوانه أو غير مدروس دراسة حسنة» من جانب الحسين<sup>[641]</sup>. كان هذا الجنرال وينغيت نفسه الذي أقنع بتاريخ 17 تشرين الثاني (نوفمبر) 1915 زعيمًا دينيًا عربيًا بأن يقول للشريف حسين: «أنه الرجل المناسب لتسلم الإرث الذي هو من حقه ولتحقيق آمال شعبه - المحمديين والعرب في استعادة الخلافة السليلة» ودعا الزعيم الهاشمي إلى إقامة «الخلافة العربية الهاشمية»<sup>[642]</sup>.

رأى أتباع كيتشنر أنه ليس ملائمًا أن يتذكروا أنهم ورئيسهم شجعوا الحسين ذات يوم بأن يدّعي الخلافة، معتقدين أن محو هذه الذكرى في ذاكرتهم سيؤدي إلى اغفالها لاحقًا في كتبهم وإلى شطبها من الوثائق الرسمية. إن سير رونالد ستورز حذف من مذكراته التي نُشرت بعد ثلاثة عقود الجزء الذي يتحدث عن الخلافة في برقية كيتشنر التاريخية إلى الحسين عام 1914. وكتب لورنس أن كيتشنر وأتباعه آمنوا بالقومية العربية منذ البداية - مع إنهم في الحقيقة لم يؤمنوا بها قط، بل آمنوا بدلًا منها بقوة الخلافة، وبقدرة الحسين على الاستيلاء عليها من أجلهم، وآمنوا أن القوة في الشرق لا تعني شيئًا وأن الدين هو كل شيء<sup>[643]</sup>.

وحقيقة الأمر أن أجواء السياسة عام 1918 والرغبة في إعادة كتابة التاريخ، قد أملت حدوث تحول في التوكيد: لقد أخذ فيصل، وليس الحسين، يبرز بصفته الزعيم العربي المفضل لدى القاهرة، لأن فيصل أظهر توجهًا، يفتقر إليه والده، لقبول النصح والتوجيه البريطانيين.

في حسابات المصادر البريطانية في خريف عام 1918 كان مجموع الجيوش التي يقودها أبناء الحسين لا يتعدى بضعة آلاف من الجنود المدربين. وكان ادعاء البريطانيين في العلن أن أعداد هائلة من العرب

تقاطرت للقتال تحت راية الأمراء الحجازيين. أما في الأوساط الخاصة فكانوا يروون قصة مختلفة. إن الوثائق السرية للحكومة البريطانية التي صُنفت في عام 1919 تقرُّ «بأن الأرقام التي ذُكرت خلال الحرب عن عدد الأتباع كان مبالغًا فيها كثيرًا» [644]. إن تقريرًا رفعته الوكالة البريطانية في جدة عام 1919 قد رسم صورة للملك حسين أنه غير ذي شأن عسكريًا: لقد قُدِّر عدد أتباعه بألف جندي نظامي فقط، وألفين وخمسمئة من الجنود غير النظاميين وربما يُضاف إليهم بضعة آلاف من القبائل البدوية، وكان تقدير كفاءاتهم القتالية أنها «ضعيفة». وجاء في التقرير أيضًا أن الملك حسين «غارق في أحلام جامحة عن الفتوحات» ولكن سحب التأييد البريطاني سيتركه «تحت رحمة ابن سعود والموجة الوهابية الصاعدة» [645].

وذكر تقرير أعده المكتب العربي عن ثورة الحجاز في عام 1918 «لم نشعر بالأهمية الحقيقية لهذه الثورة إلا في بضعة الشهور الأخيرة وهي تنتشر يومًا بعد يوم. ولا بد في الوقت نفسه من القول أن تسعين بالمئة من جنود الشريف ليسوا أكثر من رجال سلب ونهب...» وجاء في التقرير أن العرب لم يثوروا على الأتراك إلا بعد وصول القوات البريطانية، وهكذا «يمكن القول بكلمة، أن مدى ثورة الشريف يعتمد اعتمادًا كليًا على قدرة القوات البريطانية على احراز تقدم» [646]. وكتب الكولونيل ماينرتزهاغن، رئيس الاستخبارات في قيادة اللبني، «أنه من الصواب أن نقول إن حملة لورنس في الصحراء لم يكن لها أدنى تأثير في ساحة الحرب الرئيسة غربي نهر الأردن» [647].

ولكن الآخرين خالفوا هذا الرأي، فقد استمر سايكس مدافعًا عن التحالف مع الحسين ومؤمنًا أن فيصل وأشقائه يسهمون اسهامًا كبيرًا في المجهود الحربي، وقال إن ثورة الحجاز في شبه الجزيرة العربية وأماكن أخرى شاغلت في عام 1918 ثمانية وثلاثين ألف جندي عثماني [648]. وتبيّن مذكرات قائد قوات العدو، ليتمان فون ساندروز، أنه عندما اتجه هو وجيوشه إلى الفرار في عام 1918 وجدوا أنفسهم يتعرضون لمضايقة مؤلمة من قبل البدو العرب [649]. كما أن لهجة مذكرات جيلبرت كلايتون تبيّن أنه كان يعتقد بأن فيصل ولورنس يحققان أهدافًا هامة على ميمنة جيش اللبني. وثمة أدلة أخرى تفيد أن القوات العربية في شرق الأردن نجحت في نشر الفوضى في المناطق التي في حوزة الأتراك.

إن مدى اسهام فيصل في نجاحات الحلفاء سؤال لم يجد جوابًا في وحل السياسة آنذاك، ولا يزال بغير جواب حتى الآن. ولكنه أثار سؤالًا آخر: هل

تدعم بريطانيا الحسين وفيصل ضد الزعامة العربية السورية التي هي من أهل البلاد الأصليين؟ وهل تؤيد بريطانيا فيصل ضد الحسين؟

نشأت في معسكر الشريف حالات تفسخ، إذ انقطع فيصل عن الحجاز وعن أسرته وانتقل إلى فلك بريطانيا. وقد التقطت السلطات العسكرية البريطانية سرًا برقيات شكا فيها الحسين من «أنهم جعلوا ولدي ينقلب عليّ ويعيش في بلدان أخرى، إنه متمرّد وخائن لوالده» [650]. وشكا أيضًا قائلاً: «إنني أعيش تحت أوامر ولد عاق وعاص، وهذا ما يثقل كاهلي بهذا الشقاء». وهدد بأنه «إذا استمر فيصل في تدمير مستقبله الطيب وأمته وشرفه» فلا بد من تعيين مجلس حربي يحل محله [651]. في أثناء ذلك أشار متحدثون باسم السوريين، وفقًا لتقارير المكتب العربي الواردة من القاهرة، أنهم مستعدون لقبول فيصل ملكًا دستوريًا عليهم، ولكن فقط بأهليته وليس إذا جاء بصفة مندوب للحسين أو ممثل له [652].



## (6)

كان القادة البريطانيون منذ عام 1914 فما بعد، يبدون ثقتهم بزعامة الحسين ضمن العالم العربي، ولكنهم في عام 1917 وعام 1918 انتابهم الشعور بوجوب إعادة النظر في صحة اعتقادهم.

وبينما كانت بريطانيا تُكمل فتح العالم العربي في الشرق الأوسط، بدأ القلق ينتاب المسؤولين البريطانيين من جراء المقاومة المحلية التي قد يواجهونها. إن المحاولات التي بذلها كلايتون في عام 1914 من أجل التوصل إلى تفاهم مع القادة الانفصاليين القادمين من بغداد ودمشق، تعثرت بسبب اعتراضهم على الخضوع لحكم غير المسلمين. كانت دمشق آنذاك على خط الزحف البريطاني، فنشأت مسألة كيفية كسب الدمشقيين لينحازوا إلى قضية الحلفاء وإلى مشروع الحلفاء بشأن مستقبل الشرق الأوسط. وقد لا يكون لموافقة فيصل على برنامج الحلفاء تأثير فيهم.

في صيف عام 1918 تحدث وليم أورمسي - غور أمام اللجنة السياسية الصهيونية في لندن فقال: «إن الفئة المثقفة السورية من محامين وتجار هي المشكلة الشائكة والأصعب في الشرق الأدنى. هؤلاء ليست لهم حضارتهم وقد امتصوا كل رذائل الشرق» [653].

ويبدو أن سير مارك سايكس بدأ يساوره القلق في السنة السابقة من جراء المشكلة السورية، وذلك في سياق التعهدات التي أراد من بريطانيا أن تفي بها لحلفائها - وأراد من حلفاء بريطانيا أن يفوا بتعهداتهم لها. كان مبعث قلقه ألا يوافق السوريون على اتفاقية سايكس - بيكو وبالشروط التي عرضها سير هنري مكماهون على الشريف حسين. وقد طلب في عام 1917 إلى المكتب العربي أن يهيئ له اجتماعًا مع الزعماء العرب السوريين في القاهرة، والظاهر أن هدفه كان أن يتوصل معهم إلى اتفاق يتلاءم مع الاتفاقات السرية المعقودة مع فرنسا ومع الحجاز - والتي لم يكن يستطيع أن يكشف عن وجودها. وقد ادعى أنه نجح، فكتب بخط يده يقول: «كانت المشكلة الرئيسة هي المناورة لجعل المندوبين يطلبون ما كنا نحن مستعدين لإعطائهم، دون أن ندعهم يعرفون أننا توصلنا إلى أية اتفاقية جغرافية محددة» [654]. ولا بد أن «الاتفاقية الجغرافية المحددة» كانت تعني خط دمشق - حمص - حماه - حلب الذي تقرر أن يكون الحد الغربي للاستقلال العربي في سورية بموجب الاتفاق مع الفاروقي في عام 1915 ومع فرنسا في عام 1916.

ولكن وصلت تقارير من أوساط عديدة تفيد أن الحكومة العثمانية ربما كانت تخطط لإجهاض القومية العربية عن طريق منح سورية الحكم الذاتي فورًا. ومن شأن ذلك أن يضع بريطانيا في وضع حرج من حيث رعايتها لمطالب الملك حسين بما هي متعارضة مع قيادة عربية من أهل البلاد في دمشق قد تكون لها شعبية أكبر كثيرًا في المحافظات السورية.

وقُبل نهاية عام 1917 أبرق سايكس إلى كلايتون قائلاً: «ينتابني القلق بشأن الحركة العربية. هناك رسائل تُشير إلى صعوبة الجمع بين نظام المشيخة المكية والمتقنين من سكان المدن السورية». وعلى عادة سايكس في ابتكار منفذ جديد، اقترح انشاء لجنة تنفيذية عربية لتشجيع الوحدة. ولا بد أن كلايتون قال إن انشاءها ليس ممكنًا إذ أن سايكس رد قائلاً: «أتفق معك بشأن الصعوبة ولكن النجاح العسكري يسهل الأمر». وقال سايكس أنه ينبغي اقناع بيكو بأن يطمئن السوريين إلى أن فرنسا تحبذ استقلالهم في نهاية الأمر. وفي الحديث مع بيكو دفاعًا عن العرب، يجب استخدام الحجج عينها التي استخدمت في الحديث معه دفاعًا عن الصهيونية: أي أن التنازل عن شيء ما في الشرق الأوسط البعيد أفضل من المجازفة بخسارة الحرب وخسارة فرصة لاستعادة الألباس واللورين - المقاطعتين الأقرب إلى فرنسا<sup>[655]</sup>.

كان سايكس يجادل قائلاً إن بريطانيا تستطيع الوفاء بكل تعهداتها، وأن تستوعب السوريين ايضًا، بشرط أن يقدم الجميع تنازلات معقولة. أما كلايتون فقد صوّر، على عادته، التزامات بريطانيا في زمن الحرب بأنها إحراجات ينبغي التخلص منها، وقال في جوابه إلى سايكس: «لا ريب في أن هنالك خوفًا حقيقياً جداً بين السوريين من أن يجدوا أنفسهم في ظل حكومة، السيطرة فيها للمشيخة المكية. فهم يدركون أن المبادئ الرجعية التي لا يستطيع شريف مكة فكاكاً منها، لا تنسجم مع التقدم على أسس عصرية». وقد اقترح الابتعاد عن التحالف مع الحسين قائلاً: أن فيصل، كإنسان فرد، قد يكون مقبولا كرئيس لاتحاد كونفيدرالي سوري بشرط أن يكون دور والده روحياً لا سياسياً، وتابع كلايتون قائلاً إنه ما لم تُعالج المشكلة الأساسية فلن يكون لأية خطة أولجنة أو إعلان أو دعاية أي تأثير. وقال تلميحاً (ولكنه لم يستخدم هذه الكلمات حرفياً)، إن المشكلة أوجدتها التعهدات التي قطعها سايكس للفرنسيين والصهيونيين. وتابع كلايتون شرح حجته قائلاً: ما من شيء سوف ينفع إزاء المناورة التركية المحتملة بإقامة حكومة سورية ذات حكم ذاتي، لأن في العالم العربي خوفاً عاماً من أن بريطانيا تخطط لتسليم سورية إلى فرنسا. ومما يُعقد الوضع، العهد العلني

الذي قدمناه للصهيونية. والحل الوحيد يتمثل في الحصول من فرنسا على إعلان واضح ينفي عزمها على ضم أي جزء من سورية إليها[656].

دعا أوزموند والروند، وهو عضو سابق في هيئة موظفي اللورد ميلز، سبق أن عرف مصر قبل الحرب وجاء للعمل في المكتب العربي في القاهرة، إلى معالجة أخرى للمشكلة. فقد رأى أن بريطانيا أهملت الجمعيات السرية العربية فبدأ يسعى للحصول على تأييدها، وكتب إلى كلايتون في صيف 1918 عن محادثات أجراها مع أعضاء ينتمون إلى هذه الجمعيات. فقال إنه طلب إليهم انتخاب لجنة صغيرة تمثلهم ليتمكن من التعامل معهم، فانتخبوا لجنة من سبعة أعضاء[657]. والظاهر أنه كان في نية والروند أن يكرر مناورة سايكس التي قام بها في السنة السابقة مع مجموعة أخرى من العرب في القاهرة المرتابين بالحسين: أي أن يدبر قبولهم بيانًا بخطط بريطانيا في الشرق الأوسط بحيث يرتبطون، مثلما ارتبط الحسين بقبول هذه الخطط.

بناءً على ذلك وجه سير مارك سايكس في منتصف عام 1918 بيانًا يتضمن النيات البريطانية، إلى اللجنة المؤلفة من سبعة سوريين التي تحدث عنها والروند، وكان البيان ردًا على أسئلة هم ظاهريًا الذين طرحوها. ومع أنه كان بيانًا رسميًا يحظى بموافقة رؤساء سايكس في وزارة الخارجية، فلم يأت بجديد. إذ أنه كاشىء كثيرة دبّجتها ريشة سايكس، كرر النيات عينها تجاه الشرق الأوسط بعد الحرب ولكن بكلمات مختلفة. وهي تعني أن العالم العربي خارج شبه جزيرة العرب سيقع تحت النفوذ الأوروبي أو السيطرة الأوروبية بدرجات متفاوتة. إن بيان سايكس إلى المندوبين السبعة - الذي صار في ما بعد موضوع جدل كثير - اعترف بالاستقلال العربي الكامل ضمن شبه جزيرة العرب فحسب، إذ أنه عرض هذا الاعتراف فقط بالنسبة للمناطق التي كانت مستقلة قبل الحرب أو المناطق التي حررها العرب أنفسهم حتى تاريخ الإعلان.

لم يكن في وسع سايكس أن يذهب إلى مدى أبعد لتبديد الشكوك العربية في نيات فرنسا تجاه سورية ولبنان، ما لم يحصل أولاً على تعاون فرنسا في إصدار تعهد مشترك. وقد اقتنعت الحكومة الفرنسية أخيرًا في خريف عام 1918 بالانضمام إلى وزارة الخارجية البريطانية في إصدار بيان جديد يتضمن نيات الحلفاء، وهدفه تبديد مخاوف العرب - وشكوك الأميركيين. وقد صيغ البيان البريطاني - الفرنسي الذي صدر بتاريخ 8 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918 بعبارات عامة توحى بالتأييد التام لإنشاء حكومات من أهل البلاد في الشرق الأوسط. ولكن البيان كان يهدف إلى التضليل، إذ أنه، بناءً على إصرار فرنسا، لم يتضمن أية إشارة محددة إلى «الاستقلال»

العربي[658]. وبدأ أن المسؤولين الفرنسيين، شأنهم شأن نظرائهم  
البريطانيين، لم يكن في نيّتهم أن يتبعوا الطريق المثالية التي حددها لهم  
مارك سايكس وفي ذهنه أن يستجيب لآراء الرئيس ويلسون والأميركيين.

# الفصل الثالث

## المعركة من أجل سورية

### (1)

مع اقتراب صيف 1918 من نهايته، أصدر سير ادموند اللبني الأمر بالزحف على سورية، وقدّر أن ليمان فون ساندرز سيتوقع منه أن يكرر الاستراتيجية التي اتبعها في جنوب فلسطين. ففي حملة القدس قام بهجوم مخادع على الساحل، ولكنه اندفع بقوة شرقاً ليشن هجومه في الداخل. ولذلك فإنه عند هجومه على شمال فلسطين فعل العكس تمامًا: قام بهجوم مخادع في الداخل وشن الهجوم الرئيس على الساحل. كانت غايته أن يحقق تفوقاً عددياً محلياً ساحقاً ليخترق الخطوط التركية في أفضل نقطة لفرسان قواته الأسترالية والنيوزيلندية.

ومع أنه كان يتمتع بميزة التفوق في عدد الجنود المقاتلين بنسبة اثنين إلى واحد (تقول بعض التقديرات أن النسبة كانت 69,000 مقابل 36,000) فقد ترك بجرأة جزءاً كبيراً من خطه الممتد على مسافة 65 ميلاً من دون دفاع لكي يحشد أقصى عدد من الجنود على الساحل، معتمداً على السيطرة في الجو وعلى عمليات الاستخبارات البالغة الفاعلية لإبعاد العدو عن الثغرات في خطه الدفاعي.

مع حلول الليل كان الجزء الأكبر من قوات اللبني قد تحرك بهدوء غرباً ليحتشد في بساتين الزيتون وبيارات الحمضيات في السهل الساحلي حيث الدفاعات ضعيفة، وقد تسترت هذه القوات بالأشجار ولم يُكتشف أمرها. ومع حلول النهار تحركت وحدات صغيرة شرقاً ثم عادت للتحرك شرقاً المرة تلو المرة، مثيرة سحباً ضخمة من الغبار، مما أقنع الأتراك بأن جيشاً ضخماً يزحف للهجوم في الداخل. وفي الشرق أيضاً أقامت وحدات بريطانية صغيرة ما بدا أنه معسكرات كبيرة، وضمنها إسطبلات وفيها ما بدا أنه خيول. وأما شرقي نهر الأردن فقد رتب عملاء بريطانيون لاكتشاف أنهم يعقدون صفقات لشراء كميات كبيرة من العلف.

جازت الخدعة على ليمان فون ساندرز فحشد قواته في الداخل في شرق فلسطين، ولما وقع الهجوم

بوغتت جيوشه وفقدت توازنها. لقد بلغ هجوم اللنبي حداً من الفاعلية بحيث لم يدرك قادة القوات العثمانية حقيقة الموقف إلا بعد انقضاء أيام على بدء الهجوم.

عند الساعة الرابعة والنصف من صباح 19 أيلول (سبتمبر) 1918 فتح نحو 400 مدفع بريطاني النار فجأة على المدافعين العثمانيين عن السهل الساحلي الذين بوغتوا وكانوا أقل عدداً من القوات المهاجمة (45000 مقابل 8000). وبعد خمس عشرة دقيقة بدأ هجوم المشاة، وقد اكتسح الجنود البريطانيون والفرنسيون والهنود القوات المدافعة التي غلبها التفوق العددي، وتدفق الفرسان عبر الثغرة التي فُتحت في الخطوط العثمانية ليربحوا معركة مجيدو - أرماجدون التوراة.

عند الفجر هاجمت أسراب خاصة من قاذفات سلاح الجو الملكي مقاسم الهاتف والبرق خلف خطوط العدو، فقطعت بصورة فاعلة جميع الاتصالات. وتولت طائرات أخرى من سلاح الجو الملكي مهمة الحراسة في الجو فوق مطارات العدو، فأقعدت طائرات الاستكشاف الألمانية وحالت دون تحليقها. وهكذا انقطعت المعلومات عن ليمان وضباطه في الميدان وانقطعوا عن بعضهم بعضاً.

وفيما كانت الوحدات العثمانية مندفة في تراجعها، وجدت أن خطوط تقهرها قد أغلقتها وحدات بريطانية كانت قد أسرعت من خلفها وسبققتها لتضمن السيطرة على الطرق الرئيسية. أما الفرسان الأستراليون والنيوزيلنديون، فقد اندفعوا شمالاً مسافة ثلاثين ميلاً على السهل الساحلي، ولكنهم بعد ذلك شقوا طريقهم إلى الداخل مهددين بقطع خط تراجع العثمانيين إلى دمشق. وقصفت الطائرات الحربية البريطانية الأتراك المتقهقرين بالقنابل والرشاشات. وفي أثناء ذلك قامت الوحدات القليلة التي كان اللنبي قد نشرها في الشرق بالهجوم على الداخل. وفي عتمة ما قبل بزوغ الفجر بتاريخ 23 أيلول (سبتمبر) سيطرت وحدات من الفيلق اليهودي على مخاضة أم الشرط الهامة في نهر الأردن، فاندفع عبرها لواء الخيالة الثاني الاسترالي، ومع حلول المساء وجدت القوات العثمانية شرقي نهر الأردن نفسها محاطة بكماشة هائلة.

وفي معان، الواقعة في جنوب شرق الأردن، شمالي العقبة، صمدت الحامية التركية التي حاصرتها قوات فيصل منذ وصولها من العقبة في السنة السابقة، إلى أن وصل الفرسان الأستراليون فاستسلمت الحامية لهم طالبة حمايتهم من المذبحة التي كانت تهددهم على أيدي محاصريهم العرب. وأبعد من ذلك شمالاً، قطعت قوات الهجانة التابعة لفيصل خطوط السكة الحديدية التي اعتمدت عليها القوات التركية الرئيسية.

في 25 أيلول (سبتمبر) أمر النبي بالزحف على دمشق، أما فلول القوات العثمانية فقد انهارت ولادت بالفرار<sup>[659]</sup>. كان احتلال المدن الرئيسة في المحافظات السورية وشيكاً، والقرارات الخاصة بسياسة الاحتلال اتخذت بسرعة. لكن الجدل بشأن من يتخذ القرارات ولماذا يتخذها، كان مستمراً.

## (2)

كان اللبني قد أبلغ لندن في الصيف انه، تبعاً لسلطته العسكرية العليا، سيقبل وجود مستشارين فرنسيين للتعامل مع الادارة المدنية في المناطق التي لفرنسا اهتمام خاص بها، بشرط أن تخبره لندن ما هي هذه المناطق وهل هي محددة في اتفاقية سايكس - بيكو<sup>[660]</sup>. ومع أن مجلس الوزراء ولجنته الشرقية حثّوا بقوة التخلي عن اتفاقية سايكس - بيكو، فقد ثبتت وزارة الخارجية الاتفاقية بواسطة توجيه اللبني الى اتباع الخطوط الإقليمية التي رسمتها. لقد وجه ليو اميري اللوم الشديد في ذلك الى كبار المسؤولين السياسيين في وزارة الخارجية، أي بلفور وسيسيل<sup>[661]</sup>.

بيد أن مارك سايكس، زميل اميري كان هو المسؤول المباشر في وزارة الخارجية عن السياسة تجاه سورية ويغلب على الظن انه هو الذي اتخذ القرار أو أوصى باتخاذها في المقام الأول.

بتاريخ 25 أيلول (سبتمبر) أصدرت وزارة الحربية تعليمات الى وينغيت في القاهرة والى اللبني في مقر قيادته، تقضي في حالة وقوع سورية ضمن نطاق نفوذ أية دولة أوروبية بأن تكون فرنسا هي الدولة<sup>[662]</sup>. وقد تركت صيغة التعليمات المجال مفتوحاً لاحتمال عدم وقوع سورية ضمن نطاق نفوذ دولة أوروبية - أي أن فيصل قد يحقق استقلالها. مع ذلك كانت التعليمات الصادرة الى اللبني تقضي باستخدام ضباط فرنسيين في جميع مناطق الادارة المدنية (وقد فرقت التعليمات بين الادارة المدنية والادارة العسكرية). وجاء في برقيات وزارة الحربية أنه إذا ما استولى اللبني على دمشق «سيكون من المرغوب فيه، انسجاماً مع الاتفاقية الانكليزية - الفرنسية لعام 1916 أن يعمل إذا أمكن عن طريق إدارة عربية بواسطة ضابط ارتباط فرنسي»<sup>[663]</sup>.

تقرر أن تكون الأعلام هي المؤشر للمناطق المخصصة للإدارة المؤقتة. وقد سمحت وزارة الخارجية البريطانية، بل أمرت برفع علم الحسين فوق دمشق والمدن السورية الهامة الأخرى عند الاستيلاء عليها<sup>[664]</sup>. وكان العلم هو العلم ذو الألوان الأسود والأبيض والأخضر والأحمر الذي وضع تصميمه سايكس والذي خدم غايتين سياسيتين: تعزيز مطالبة الحسين بالزعامة في سورية العربية<sup>[665]</sup> وتذكير فرنسا بأن سورية الداخلية محسوب لها أن تنال على أقل تقدير استقلالاً عربياً اسماً.



عقد بتاريخ 25 أيلول (سبتمبر) مؤتمر في مدينة جنين الفلسطينية أقر فيه اللبني الخطط التي رسمها الجنرال الاسترالي هاري شوفيل - مسؤول العملية - للتقدم نحو دمشق. وتفيد مذكرات كتبها شوفيل في ما بعد انه أثار موضوع سياسة الاحتلال، فقال أن دمشق مدينة يسكنها 300000 نسمة أي انها أكبر من أن تسلم الى حاكم عسكري وحفنة من المساعدين. فأجابه اللبني انه يستطيع الاحتفاظ بالحاكم العثماني والادارة العثمانية وأن يزودهما بأي عدد قد تدعو الحاجة اليه من الشرطة العسكرية لحفظ النظام. فسأل شوفيل عن الشائعات القائلة إن الحركة العربية ستحكم سورية، ولكن اللبني أجاب بأن أي قرار في هذا الشأن يجب أن ينتظر حتى يصل هو شخصياً الى دمشق. وأضاف: «إذا سبب لك فيصل أية متاعب، تعامل معه عن طريق لورنس الذي سيكون ضابط اتصال في تصرفك» [666].

جرى تبادل سريع للبرقيات بين لندن وباريس والشرق الأوسط. ومع أن اللبني أبلغ شوفيل أن يحتفظ بالإدارة التركية في دمشق في ذلك الحين، فان وزارة الخارجية أبلغت الحكومة الفرنسية أن اللبني سيتعامل مع إدارة عربية مؤقتة في دمشق - وفقاً لاتفاقية سايكس - بيكو بواسطة ضابط اتصال فرنسي [667]. ووافقت الحكومة الفرنسية بدورها على اعتراف الحلفاء بالعرب كقوة محاربة - بعبارة أخرى الاعتراف بهم كطرف حليف [668]. هذه المراسلات بين بريطانيا وفرنسا تبين أن وزارة الخارجية البريطانية توقعات من اللبني أن يستبدل بالإدارة التركية في دمشق إدارة عربية إن آجلاً أم عاجلاً، ولكنها كانت تعتقد أن ترتيبات سايكس - بيكو لن تدخل في الصورة حتى ذلك الحين.

تسلحت وزارة الخارجية البريطانية بهذه الاتفاقات، فجعلت وزارة الحربية ترسل الى اللبني تعليمات جديدة وهامة فيها تطوير للموضوعات السياسية التي سبق التلميح اليها. فالأراضي السورية التي كان اللبني على وشك احتلالها يجب أن تعامل بصفة «أرض حليفة متمتعة بمكانة دولة مستقلة» لا أن تعامل بصفة أرض عدوة محتلة. وفي هذا الصدد أصدرت وزارة الخارجية توجيهاتها التي كثر الحديث عنها والتي تقضي بأن: «من المرغوب فيه أن نعطي دليلاً على الاعتراف بحكم عربي من أهل البلاد وتأسيس هذا الحكم، وذلك بواسطة عمل بارز أوله صفة رسمية مثل رفع العلم العربي وأداء التحية له في المراكز الهامة» [669].

مضى سايكس في البرقية (ان صح انه هو الذي أعدها) شارحاً خطة تدل على نبوغ خاص. فالاتفاق القائم مع فرنسا هو انه حيثما أقامت بريطانيا

إدارة عسكرية في المحافظات السورية يحق لفرنسا أن يمارس ضباطها الإدارة المدنية كلها باسم الحلفاء. وكانت التعليمات إلى اللبني في البرقية التي تحمل تاريخ 1 تشرين الأول (أكتوبر)، أن يجعل منطقة الإدارة العسكرية الخاضعة له في الحدود الدنيا، مما يحد بالتالي من الدور الفرنسي. وأبلغته وزارة الخارجية أيضاً أن يخفض الإدارة العسكرية البريطانية في شرق الأردن أيضاً، بحيث لا تتمكن فرنسا من القول إن الاجراء الذي تتخذه بريطانيا في داخل سورية جزء من خطة لتخفيض دور فرنسا هناك - وبطبيعة الحال كانت هذه هي خطة بريطانيا.

كتب وينغيت، الذي قرا البرقيات، إلى اللبني قائلاً: «سيكون أمراً مثيراً جداً للاهتمام أن نرى كيف سيتقبل مختلف الأطراف علم الشريف حسين وضابط الاتصال الفرنسي» [670]. والواقع أن وزارة الخارجية البريطانية أصدرت تعليماتها إلى اللبني بأن يطبق المتطلبات الرسمية لاتفاقية سايكس - بيكو، مع تنقيح روح الاتفاقية (وفقاً لما دعا إليه مارك سايكس). ولم يكن هذا الحل ليرضي الفرنسيين، الذين أرادوا المزيد، ولا لفصل أو المكتب العربي، اللذين أرادوا ألا تحصل فرنسا على أي شيء البتة.

كانت اتفاقية سايكس - بيكو تقضي بإعطاء فرنسا السيطرة المباشرة على الخط الساحلي. أما سورية الداخلية فكان مقرراً أن تكون مستقلة - ليس استقلالاً بالاسم فقط كما منظور في الاتفاقية - بل أن يكون لها استقلال ذاتي مضمون. ولكن يكون لفرنسا ضابط اتصال، حسبما تقضي الاتفاقية، وربما في ما بعد مستشار رسمي في بلاط فيصل، ويكون حاكم سورية، وفق مراسلات مكماهون، هاشمياً. وسيرمز رفع العلم الذي وضع سايكس تصميمه فوق دمشق وحمص وحماة وحلب، إلى نسيج كل خيوط السياسة البريطانية الشرق أوسطية على النحو الذي دعا إليه سايكس دائماً. وكان سايكس يقول دائماً انه صاغ التزامات بريطانيا على نحو يجعلها متجانسة بعضها بعضاً، وان جميع هذه الالتزامات سوف تتلاءم ضمن الإطار الرسمي للاتفاقية التي ابتكرها.

في أثناء ذلك تقرر بتاريخ 29 أيلول (سبتمبر) في مقر القيادة الميدانية للجنرال اللبني أن يكون عرب فيصل الوحيدين من قوات الحلفاء الذين يدخلون دمشق ويحتلون، ربما لمنع المقاومة من قبل عاصمة اسلامية قد تكون معادية لاحتلال مسيحي [671].

ولكن فيصل كان على بعد مسيرة ثلاثة أيام من دمشق. ولذلك صدرت التعليمات في تلك الأثناء إلى وحدات الفرسان الاستراليين والنيوزيلنديين التي كانت تطارد الأتراك بالالتفاف حول دمشق بدلاً من عبورها.

ولكن ما حدث في فوضى التقدم والتقهقر، هو أن الممثلين في دراما تحرير دمشق لم يتقيدوا بالنص المكتوب الموجه إليهم من قبل اللبني وكلايتون. لم تبق الحكومة العثمانية في المدينة، بل هربت مع الجيش التركي المتقهقر ظهر 30 أيلول (سبتمبر)، مخلفة وراءها الفوضى. وفي لحظة ما، أمسك بزمام الأمور في المدينة وجيهان عريبان محليان، هما الأمير عبد القادر وأخوه سعيد، من نسل المناضل الجزائري الذي حارب الفرنسيين قبل قرن من الزمن وتلقيا إعانة مالية للعيش في المنفى، هذان الشقيقان اللذان رأى فيهما لورنس عدوين شخصيين وربما رأى فيهما أيضاً نصيرين للحسين وللإسلام بدلاً من أن يكونا نصيرين لفصل وللقومية، قد ادعى أنهما رفعوا علم الحجاز باسم الحسين بعد ظهر 30 أيلول (سبتمبر). ولذلك عندما رفع العلم العربي أخيراً لم يكن لرفعه علاقة بخطة وزارة الخارجية البريطانية. فقد رفعه عرب دمشق على مسؤوليتهم.

عند أول شعاع ضوء صباح الأول من تشرين الأول (أكتوبر)، قرر لواء من الفرسان الاستراليين صدر إليه الأمر بقطع خط تراجع العثمانيين إلى طريق حمص شمال دمشق، أن يمر عبر دمشق لقطع طريق حمص، فدخل المدينة، وعندها رحب سعيد عبد القادر ومن حوله الوجهاء، باللواء الاسترالي ترحيباً رسمياً. وهكذا نال الاستراليون، خلافاً للخطة، شرف كونهم أول من دخل دمشق من القوات الحليفة.

بعد مرور ساعة من الزمن انضم الجنرال شوفيل وأركان حربه إلى الميجور جنرال سير جورج بارو، القائد المحلي للفرقة، على بعد بضعة أميال جنوبي المدينة. وكان يفترض بلورنس أن يكون مع بارو، وقد رغب شوفيل في مقابلته للبدء في وضع الترتيبات للمحافظة على الإدارة المدنية القائمة في المدينة. ولحسرة شوفيل اكتشف أن لورنس تسلل خارجاً من المدينة من دون إذن ومن دون ابلاغ أحد، لكي يتبع فرقة الفرسان الخامسة إلى دمشق، وقد استعار شوفيل سيارة قادها بنفسه إلى دمشق ليتبين ما يحدث فيها.

آنذاك كانت الخطة التي أعدها اللبني - كلايتون ليكون فيصل هو محرر المدينة، في حالة يرثي لها. كان فيصل على بعد مسيرة أيام من دمشق بينما كان البريطانيون والاستراليون في داخلها، محاولين التحرك في شوارعها أو أملين أن يعرفوا ما يجري فيها. وبدلاً من أن ينفذ شوفيل الأمر الصادر إليه بعدم السير على رأس جنوده إلى داخل المدينة، كان الآن يتبعهم إليها.

أما لورنس، ضابط الاتصال الملحق بقيادة شوفيل، فقد توجه صباح ذلك اليوم في سيارته الأثيرة إلى نفسه، وهي سيارة رولز رويس مصفحة

تعرضت لضربات عديدة، ومعه فيها ضابط بريطاني زميل له يدعى و. سترلنغ، وكذلك نوري السعيد الضابط السابق في الجيش العثماني ومن كبار الموالين لفیصل - قاصداً مدينة دمشق، حيث وجد أن بعض رجال القبائل المتحالفين مع فیصل، قد سبقوه في الوصول وقبلوا بالشقيقيين عبد القادر حاكمين لدمشق. ولكن نوري السعيد قام بحركة انقلابية سريعة فأمر الشقيقيين عبد القادر بالانسحاب وعين مرشحاً، وهو من الموالين لفیصل، حاكماً للمدينة. عندها وصل الجنرال شوفيل محتداً وطلب تفسيراً لما حدث. اخذ لورنس يقدم أعذاراً فقال انه ظن أن شوفيل رغب منه أن يستكشف الموقف وادعى أنه كان على وشك العودة ليرفع تقريره.

ولما طلب شوفيل الى لورنس أن يحضر له حاكم المدينة أحضر لورنس مرشح نوري السعيد، مدعياً أنه الحاكم، ولكن شوفيل قال ان ذلك هراء، فمرشح نوري السعيد واضح انه عربي، بينما الحاكم العثماني لا بد أن يكون تركيا. وكان جواب لورنس ان الحاكم العثماني هرب من المدينة (وكان ذلك صحيحاً) وان الشعب انتخب مرشح نوري السعيد ليحل محله (وكان هذا تزويراً).

قبل شوفيل كلام لورنس على علاته فثبت تعيين مرشح نوري السعيد الموالي لفیصل حاكماً للمدينة. وقد روي شوفيل انه سرعان ما علم أن مرشح نوري السعيد كان مدعوماً من فئة صغيرة من أنصار فیصل، وان السكان عامة قد أزعجهم هذا التعيين بعد أن أعلنه على الملأ. بيد أنه وقد واجه اضطرابات خطيرة أدخل قواته البريطانية الى المدينة في محاولة لإدخال الرهبة في نفوس المعارضة. وكان هذا بالضبط ما كان اللبني وكلايتون يأملان في تجنبه: أي إثارة خواطر السكان، وإنزال أرتال جنود مسيحيين في شوارع مدينة اسلامية كبيرة لاستعادة النظام، بينما جنود فیصل العرب - وكان القصد من وجودهم هو طمأنة الرأي العام المحلي - لم يظهروا بعد في أي مكان من المدينة.

صباح 3 تشرين الأول (أكتوبر)، وليس قبل ذلك، أعلن لورنس ان فیصل وبضع مئات من أتباعه على وشك أن يصلوا، وطلب الاذن بالإعداد لوصولهم المدينة دخول المنتصرين. وكتب شوفيل في ما بعد متذمراً: «إنه لم يكن لفیصل شأن يذكر «بفتح» دمشق، ولذلك لم تستهوه كثيراً فكرة دخول المنتصرين، ولكنه لم ير فيها ضرراً فأعطى الأذن وفقاً لذلك» [672].

اتخذت الترتيبات ليكون هذا الدخول عند الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم، ولكن برنامج اللبني لم يسمح بالتنفيذ. فلم يكن وقت اللبني يتسع لأكثر من

بضع ساعات يمضيها بعد ظهر ذلك اليوم في دمشق، فطلب الي فيصل ولورنس موافاته في فندق فيكتوريا، الذي كان يقيم فيه.

كان الدافع لزيارة اللنبي هو تعيين شوفيل عربياً من أنصار فيصل في منصب الحاكم، الأمر الذي حرك اتفاقية سايكس - بيكو واتفاق الحلفاء على أن يتعامل اللنبي مع ادارة عربية في سورية عبر الفرنسيين. فلو كانت أوامر اللنبي الأصلية قد نفذت - أي الاحتفاظ مؤقتاً بحاكم تركي - لأمكن تأجيل هذا التعقيد، أما الآن فلا بد من مواجهته. ولم يوجه اللنبي اللوم الى شوفيل، ولكنه ذكر أن ما فعله قد أدى الى تعقيدات مع الفرنسيين تتطلب اجتماعاً فورياً مع فيصل.

حضر الاجتماع اللنبي وشوفيل وفيصل ورؤساء أركانهم وضباط من البعثة البريطانية في الحجاز ومسؤول من المكتب العربي في القاهرة والقائد العام لقوات فيصل، وقام لورنس بمهمة الترجمة.

وفي هذا اللقاء شرح القائد البريطاني للأمير العربي شرحاً مفصلاً الترتيبات التي اتفقت عليها بريطانيا وفرنسا، مؤكداً عزمه على تطبيقها مالم، وإلى أن، تُعدّل في مؤتمر الصلح. كانت أحكام الاتفاقية هي بالضبط تلك التي طلب اليه سير مارك سايكس ووزارة الخارجية أن يدعمها، وهكذا فقد تلاشت بعد ظهر ذلك اليوم أية آمال راودت لورنس، أو أوحى بها الى فيصل، بأن يساعد هما كلايتون واللنبي في تقويض سياسة وزارة الخارجية، ولم يكن سبب خيبة أمل فيصل المبررة أن الاتحاد الكونفدرالي العربي لن يشمل فلسطين - فهو قال انه يقبل بذلك - وانما لأنه لن يشمل لبنان (بعبارة أخرى الجبال «البيضاء») ولأن سورية لن تكون متحررة من الاشراف الفرنسي.

ووفقاً لمحضر الاجتماع الذي دونه شوفيل قال النبي (يشار اليه بكلمة «الرئيس») بعبارات بسيطة ليفصل:

(أ) ستكون فرنسا دولة الحماية في سورية.

(ب) سيتولى هو، أي فيصل، بصفته ممثل والده، الملك حسين، الادارة في سورية (ما عدا فلسطين وولاية لبنان) تحت توجيه فرنسا وبدعمها المالي.

(ج) الحيز العربي يشمل داخل سورية فقط ولا شأن لفيصل بلبنان.

(د) يجب أن يكون لدي فيصل في الحال ضابط اتصال فرنسي، وهذا الضابط يعمل راهناً مع لورنس الذي ينتظر منه أن يقدم له كل مساعدة.

اعترض فيصل اعتراضاً شديداً، وقال انه لا علم له بأية علاقة لفرنسا بهذا الشأن، وانه مستعد القبول المساعدة البريطانية، وانه فهم من المستشار الذي أرسله اليه اللنبي أن العرب سيحصلون على سورية بكاملها ومن

ضمنها لبنان ولكن باستثناء فلسطين، وانه يرفض قبول ضابط اتصال فرنسي أو الاعتراف بالتوجيه الفرنسي بأي شكل من الأشكال.

التفت «الرئيس» الى لورنس قائلاً: «ولكن ألم تخبره أن الحماية على سورية ستكون لفرنسا؟» فأجاب لورنس: «كلا يا سيدي، لا علم لي بشيء من ذلك». عندها قال «الرئيس»: «لكنك تعرف حتماً أن لا علاقة له، أي فيصل، بلبنان» فقال لورنس: «كلا، يا سيدي، لا أعرف».

وبعد مزيد من الحديث قال «الرئيس» لفيصل انه هو، سير ادموند اللبني، القائد العام وانه هو، فيصل، لواء تحت إمرته وعليه اطاعة الأوامر. ويجب عليه قبول الوضع إلى أن تسوى الأمور كلها عند انتهاء الحرب، وقبل فيصل هذا القرار وغادر مع حاشيته، باستثناء لورنس [673].

لم يكن فيصل ولورنس صريحين مع اللبني الواضح العبارة. فالأحكام التي تُليت عليهما هي احكام اتفاقية سايكس - بيكو التي كان جميعهم مطلعين عليها. وما قصده فيصل بإنكار معرفته لهذه الأحكام (حسب تفسير لورنس لاحقاً في لندن) أنها لم تبلغ اليه رسمياً [674]. أما لورنس فلم يكن له مثل هذا العذر، وكان ببساطة يكذب [675].

بعد مغادرة فيصل الاجتماع، قال لورنس لألبني أنه غير مستعد للعمل الى جانب مستشار فرنسي لفيصل. وقال لورنس ان له بعض الاجازات المتراكمة ويود أن يستفيد منها فوراً وأن يعود الى بريطانيا. فوافق اللبني، وكل المؤشرات تفيد بأنه لم يكن غاضباً البتة من لورنس، بل كان أبعد ما يكون عن الغضب، إذ أنه شجع لورنس على الذهاب الى لندن ليدافع عن قضيته شخصياً لدى وزارة الخارجية.

عاد فيصل، بعد انسحابه من الاجتماع، ليقود دخوله الى دمشق دخول المنتصرين، بعد أن تأخر هذا الدخول وفقد الكثير من مغزاه. وكان دخول فيصل على رأس ما بين 300 و600 فارس، ثم آن فيصل أرسل، ربما بتشجيع من لورنس (الذي أنكر ذلك في ما بعد) قوة مغاوير مؤلفة من مئة رجل من أتباعه الى بيروت، فدخلوها دون أن يلقوا مقاومة ورفعوا فوقها علم الحجاز العربي في الخامس من تشرين الأول (أكتوبر). وقد دعر الفرنسيون فأرسلوا في اليوم التالي سفناً حربية الى مرفأ بيروت وأنزلوا وحدة صغيرة من الجنود. وفي الثامن من تشرين الأول (أكتوبر) دخلت المدينة قوات هندية تابعة للحملة المصرية التي يقودها اللبني، وأخذ اللبني زمام الموقف بيده فأمر القوة التي أرسلها فيصل بإنزال العلم العربي والانسحاب. فلما انسحبت، ترك السيطرة على المدينة للفرنسيين، بعد ذلك

وصل فرانسوا جورج بيكو ليعمل بصفة ممثل فرنسا المدني والسياسي في المنطقة خاضعاً للسلطة العليا التي يتمتع بها النبي بصفته القائد العام.

أشار كلايتون على فيصل أن يستعيد أتباعه من لبنان. وكتب الى وينغيت بتاريخ 11 تشرين الأول (أكتوبر) قائلاً: «لقد أبلغت فيصل أنه لن يجني سوى الإساءة الى قضيته في مؤتمر الصلح إذا حاول أن ينتزع منطقة ما. انها ليست مشكلة سهلة. أمل في التوصل الى ترتيب موقت بشيء من الأخذ والعطاء من كلا الجانبين...» [676].

تبين أن القوات المسلحة الفرنسية في بيروت أضعف من أن تنفذ برنامج الضم بكامله، الذي كان يتوق إليه الحزب الاستعماري في فرنسا، ولذلك اتبع العملاء الفرنسيون موقفاً تراجعياً تهيئة لاحتمال اخفاق مطالبتهم بسورية كلها [677].

كانت الخطة، وهي من تدبير ضباط فرنسيين في الميدان، أن تقتطع فرنسا من سورية دولة مستقلة لا تشمل المناطق المسيحية من جبل لبنان فحسب بل تشمل أيضاً منطقة كبيرة من أراض أخرى. غالبية سكانها مسلمون، على أن يحكم هذه الدولة المسيحيون الموارنة تحت رعاية فرنسا [678]. أن الأنشطة التي جرت من أجل تنفيذ هذه الخطة أسهمت في زيادة تفتيت الحياة السياسية التي كانت قد أخذت تسبب الاضطراب خلف خطوط الحلفاء.

وتحت سطح الترتيبات المنتظمة التي أعدها النبي في سلسلة القيادة، كانت تحدث نزاعات ومؤامرات وروح طائفية في أعقاب اختفاء السلطة العثمانية. فالبدو اشتبكوا مع سكان المدن، والأعداء السابقون تحركوا لوضع أيديهم على حركة فيصل من داخلها، وسويت في أماكن مظلمة شجارات غامضة. وفي دمشق أطلقت شرطة فيصل النار على الأمير عبد القادر فقتلته، فزعموا أنه حاول الهرب عندما جاءت الشرطة لإلقاء القبض عليه.

وكانت بيئة الطبيعة أشد عصياناً. فقد انتشرت الملاريا بين الفرسان البريطانيين خلال مرورهم في أراض يسيطر عليها الأتراك حيث الرعاية الصحية مهمة. وبعد أسبوعين أصاب المرض كتائب بكاملها فيما كان فتح المحافظات السورية يكتمل. وجاءت الأنفلونزا بعد الملاريا فإذا بها لا تقل عن الملاريا انهاكا للجسم، وتحصد الأرواح على نطاق واسع.

### (3)

أوعز اللبني - من مقر قيادته في الشرق الأوسط، باتخاذ ترتيبات لاستقبال الكولونيل لورنس استقبالاََ حاراً في لندن عند وصوله اليها ليدافع عن قضيته ضد فرنسا. وفي نهاية تشرين الأول (أكتوبر) مثل لورنس أمام اللجنة الشرقية المنبثقة عن مجلس الوزراء، فأبلغ اللجنة أن بيكو أراد أن يفرض مستشارين فرنسيين على فيصل، ولكن فيصل أدعى الحق في اختيار من يشاء من المستشارين. إضافة الى ذلك فإنه يريد إما مستشارين بريطانيين أو - ويا للغرابة، نظراً للعداوات التي تطورت لاحقاً - مستشارين يهوداً صهيونيين أميركيين [679].

ووفقاً لما قاله لورنس، اعتمد فيصل على أحكام «الإعلان الى السبعة»، أي الوثيقة التي عرض فيها سير مارك سايكس نيات الحلفاء، والتي سلمها الى زعماء المهاجرين السوريين في القاهرة المناوئين لفيصل. وباسم فيصل، أساء لورنس تفسير الإعلان، مدعياً أن الإعلان وعد باستقلال العرب في أية منطقة حرروها بأنفسهم. (واضح من سياق الاعلان انه وعد بالاستقلال فقط في المناطق المحررة من قبل العرب حتى تاريخ صدور الإعلان في حزيران (يونيو) 1918، أما المناطق التي كانت لا تزال في أيدي العثمانيين حتى ذلك التاريخ، فقد وضعت في فئة منفصلة).

وكان تفسير فيصل نفسه للإعلان أشد خطأً، وقيل إنه ادعى أنه توصل الى اتفاق مع البريطانيين والفرنسيين، وبموجب هذا الاتفاق يكتسب أول من يصل الى مدينة ما الحق في أن يحكمها [680].

أخذ لورنس يتشبث بالقول إن قوات فيصل كانت في الحقيقة أول من دخل دمشق، وإن أربعة آلاف من رجال القبائل المرتبطين بقضية فيصل تسلموا تحت جنح ليل 30 أيلول (سبتمبر) - 1 تشرين الأول (أكتوبر) فكانوا أول جنود للحلفاء وصلوا الى المدينة. ولكن الأدلة الواردة من مصادرها مباشرة أفادت أن هؤلاء الأربعة آلاف من نسج الخيال كلياً. فلا أحد رآهم هناك، ولا أحد رآهم يدخلون أو يغادرون - مع انهم في دخولهم أو مغادرتهم كان لا بد لهم من اجتياز الخطوط البريطانية [681].

لقد وجد لورنس، مع ذلك، في اللجنة الشرقية وفي مجلس الوزراء مستمعين تعاطفوا مع مرافعته القائلة انه يجب عدم ادخال النفوذ الفرنسي أو السيطرة الفرنسية الى الشرق الأوسط الاسلامي الناطق بالعربية. ووجد أيضاً في الصحافة حلفاء لهم أهميتهم.



ففي نهاية تشرين الثاني (ديسمبر) 1918 نشرت جريدة «التايمز» عدة مقالات مغفلة التوقيع، كتبها لورنس، تضمنت رواية فيها الكثير من المبالغة لما أنجزته قوات فيصل، وذكرت المقالات ان هذه الرواية مستقاة من مراسل شاهد عيان. وأخذت رواية لورنس للحقائق تجد طريقها الى النشر في مطبوعات دورية أخرى أيضاً، الأمر الذي أزعج الجنود الاستراليين في سورية. وقد كتب مراسل «التجمع» الرسمي لصحف لندن المرافق «لقوات حملة النبي المصرية» أن: «مقالة طبعت في جريدة رسمية ووزعت على الجنود تفيد أن الجيش العربي كان أول من دخل دمشق. ان الفضل في الاستيلاء على دمشق ودخولها أولاً يعود الى الفرسان الاستراليين، وقد سارع الجنرال شوفيل الى تصحيح الخطأ» [682].

استمر لورنس، لأسباب شخصية وسياسية أيضاً، يتمسك بالادعاء أن قوات فيصل حررت دمشق. وكان على جانب عظيم من الكفاءة الفنية الى حد انه أفلح في دسّ جانب على الأقل من روايته في السجلات الرسمية. ولا بد انه عرف أن ادعاءه الزائف سينفضح إن عاجلاً أو آجلاً. وعندما عزم الشاعر والروائي روبرت غريفز، وهو صديق للورنس، كان يكتب في العشرينيات سيرة حياة لورنس، أن يستند في سرده لتحرير دمشق على ما ذكره لورانس في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة»، حذره لورنس قائلاً: «عندما كتبت الفصل المتعلق بدمشق كنت أمشي على طبقة رقيقة من الجليد، وكل من يقتبس عني سيسقط تحت هذه الطبقة إذا لم ينتبه. إن (الأعمدة السبعة) مليئة هنا بأنصاف الحقيقة» [683].

## (4)

استخدم لورنس روايته عن حملة دمشق ليحاول اقناع حكومته بنبذ اتفاقية سايكس - بيكو، التي أراد جميع من تحدث إليهم تقريباً من المسؤولين التملص منها، وكان جيلبرت كلايتون قد كتب الى لورنس في عام 1917 قائلاً انه مع التزام بريطانيا التزام شرف بالاتفاقية، فمن شأن الاتفاقية أن تموت من ذاتها إذا أهملت: «انها في الحقيقة ميتة، وإذا انتظرنا بهدوء، فسرعان ما تصبح هذه الحقيقة واقعاً» [684]. وفي عام 1918 أخبر كلايتون بيكو انه لم يعد ممكناً تطبيق الاتفاقية لأن «أوانها انتهى كلياً» [685].

كان أمل «اللجنة الشرقية» أن تلغي - لا أن تهمل فقط - اتفاقية سايكس - بيكو، وظنت أن وزارة الخارجية سوف تتدبر أمر تعديلها أو الغائها في سياق المفاوضات بشأن كيفية إدارة الأراضي المحتلة. أما وزارة الخارجية فلم تفعل شيئاً من ذلك، وإنما كان موقفها أن بريطانيا ملتزمة بالاتفاقية التزاماً مطلقاً ما لم توافق فرنسا على تغييرها أو الغائها. وعندما اطلع اللورد كورزون، رئيس «اللجنة الشرقية» على الأحكام التي صيغت بالاتفاق مع فرنسا، لاحظ بشيء من الحدة: «ان وزارة الخارجية بدت الآن معتمدة على اتفاقية سايكس - بيكو التي ما فتئت (اللجنة) تبذل قصارى جهدها للخلاص منها» [686].

وأما سير مارك سايكس، الذي صاغ مع الفرنسيين أحكام الترتيبات الادارية، فقد ظل يعتقد أن اتفاقية سايكس - بيكو تلبي الاحتياجات الراهنة. وقد كتب في ربيع عام 1917 الى كوكس، كبير الضباط السياسيين في الادارة البريطانية في بلاد الرافدين، ان إحدى فضائل الاتفاقية انها وضعت في قالب بحيث لا تنتهك المبادئ التي تتبناها أميركا وودرو ويلسون وروسيا الاشتراكية الجديدة في ما يتعلق بتقرير المصير القومي وعدم الضم. وكتب يقول: «قد تكون فكرة القومية العربية سخيفة، ولكن قضيتنا الجماعية ستكون بخير إذا استطعنا القول اننا نساعد على تطوير عرق من البشر على أسس قومية تحت حمايتنا». ومضى قائلاً إن الحسين قد لا يقدم كبير مساعدة في الحرب مادياً، ولكنه يقدم مساعدة معنوية ينبغي لفرنسا أن تقرّ بها «وأظن أن الفرنسيين سيكونون مستعدين للتعاون معنا في سياسة مشتركة إزاء الشعب الناطق بالعربية» [687].

وكتب ديفيد هوغارت، رئيس المكتب العربي الى جيلبرت كلايتون آنذاك قائلاً لا أحد، سوي سير مارك سايكس، يحمل اتفاقية سايكس - بيكو محمل الجد وبؤيدها [688]. وكان في هذا شيء من المبالغة، لأن مسؤولي وزارة

الخارجية التي التحق سايكس بها حملوا الاتفاقية على محمل الجد، ولكن هذا الكلام لم يكن بعيداً عن الصواب.

فقد ذكر اللورد كورزون ان اتفاقية سايكس - بيكو ليست اتفاقية عفا عليها الزمن فحسب «بل هي غير عملية اطلاقاً» [689]. وقد أوضح بصفته رئيس «اللجنة الشرقية» المكلفة بتعريف ما تشتهي بريطانيا تحقيقه في الشرق الأوسط بعد الحرب، أن بريطانيا تود خروج الفرنسيين من سورية كلياً [690]. ولكن ممثلاً لوزارة الحربية أبلغ اللجنة أن السبيل الوحيد لفسخ الاتفاقية هو العمل من وراء «واجهة عربية» لمناشدة الولايات المتحدة أن تدعم نظريات ويلسون بشأن تقرير المصير [691].

قال كورزون انه: «عندما أعدت صيغة اتفاقية سايكس - بيكو كانت نية مؤلفيها بلا ريب أن تكون نوعاً من مسودة تخيلوها، الغاية منها أن تلائم وضعاً لم ينشأ بعد، وكان الظن أن نشوؤه أمر بعيد الاحتمال جداً. وهذا، في زعمي، لا بد أن يكون التفسير الرئيس للجهل الكبير الذي اتسم به رسم الحدود في هذه الاتفاقية» [692].

شعر لويد جورج أيضاً أن الاتفاقية قد تجاوزتها الأحداث، ولكنه على أية حال كان معارضاً لها منذ البداية. وكعادته مع المحبين اليه، انتحل اعذاراً لسايكس وأعاد كتابة التاريخ لتبرئته من الملامة. فقد كتب بعد عقود من السنين:

«انه أمر لا تفسير له أن يمهر رجل في مثل ذكاء سير مارك سايكس الرائع، مثل هذه الاتفاقية بتوقيعه. كان دائماً يشعر بالخجل منها، وقد دافع عن موافقته على أحكامها بالقول انه كان يعمل وفق تعليمات محددة تلقاها من وزارة الخارجية. لهذا السبب كان شديد النعمة على التذكير الدائم والذي لا يمحي، بأن اسمه كان وسيظل دائماً مرتبطاً باتفاق ليس مسؤولاً شخصياً عنه سوي مسؤولية اسمية، اتفاق أنكره انكاراً كاملاً» [693].

في رأي لويد جورج «كانت اتفاقية سايكس - بيكو ترتيباً تافهاً من أية وجهة نظر حكماً عليها» [694].

حتى سايكس نفسه أقر بذلك في نهاية الأمر: فقد كتب بتاريخ 3 آذار (مارس) 1918 الى وينغيت وكلايتون قائلاً انه يجب التخلي عن الاتفاقية بسبب الأحداث التي وقعت كدخول الولايات المتحدة الحرب، والنقاط الأربع عشرة التي أعلنها وودرو ويلسون، والثورة البلشفية ونشر البلشفية أحكام اتفاقية سايكس - بيكو أمام عالم من الواضح انه مستاء [695]. وبتاريخ 18

حزيران (يونيو) 1918 أبلغ «اللجنة الشرقية» أنه بالرغم من أن أنصار الشريف حسين لا يحق لهم الاستياء من اتفاقية سايكس - بيكو، لأنه أطلع الحسين على أحكامها بالتمام، فيجب على بريطانيا أن تطلب من فرنسا الموافقة على أن الاتفاقية لم تعد قابلة للتطبيق [696]. وبعد مرور شهر آخر أبلغ اللجنة «أن اتفاقية عام 1916 ماتت ولو أن الفرنسيين يرفضون الإقرار بموتها. والمطلوب الآن ادخال تعديل عليها أو إيجاد بديل لها» [697]. أما وقد رفض الفرنسيون تعديل الاتفاقية فقد تابع التفاوض بشأن أحكام ادارة المناطق المحتلة على أساس أن الاتفاقية ظلت قائمة.

في 5 تشرين الأول (أكتوبر) 1918 دوّن ليو اميري في مفكرته ما يلي: «تحدثت الى سايكس حول ما يجب عمله بشأن اتفاقية سايكس - بيكو. لقد أوجد خطة جديدة تدل على نبوغ بالغ تتعد فرنسا بموجبها عن كامل المنطقة العربية ما عدا لبنان» وتحصل بالمقابل على كل كردستان وأرمينيا «من أضنة الى بلاد فارس والقوقاز» [698]. ولكن الفرنسيين لم يوافقوا.

وإذ تناول سايكس احتجاج فيصل لدي اللبي القائل: «انه لا يقبل ببلد لا مرفأ له»، استقصى امكانية ايجاد حل وسط تعدل بموجبه اتفاقية سايكس - بيكو بالحق مرفأ على الساحل في منطقة الاشراف الفرنسي المباشر، بالمنطقة التي سيحكمها فيصل. وقد بدا أن الجنرال اللبي يأمل في نجاح هذه المقاربة، فكتب بتاريخ 15 كانون الأول (ديسمبر) الى زوجته قائلاً: «ان سايكس مندفع لاسترضاء العرب واعطائهم مرفأ، وبيكو أقل شوفينية مما كان» [699]. ولكن هذه المقاربة أيضاً لم تسفر عن شيء.

رفض الفرنسيون التخلي عن أي حق من حقوقهم بموجب الاتفاقية. ولكن كانت ثمة وحدة رأي بين المسؤولين البريطانيين العاملين في الميدان بأن محاولة تطبيق أحكامها ستكون أمراً كارثياً.

أما أتباع اللورد كيتشنر المتوفي الذين كانوا يرددون الرأي نفسه ولكن كعادتهم بأصوات متعددة، فانهم كانوا منذ بعض الوقت يعربون عن رأيهم بوجوب الغاء اتفاقية سايكس - بيكو لمصلحة الصداقة الصهيونية - العربية في فلسطين. وكانت هذه الصداقة قضية آمن بها سايكس صادقاً. وثمة شكوك في أن زملاءه الذين أثاروا هذه النقطة كانوا يشاطرونه ايمانه.

لقد قال رونالد ستورز، حاكم القدس أن العرب مستعدون لقبول البرنامج الصهيوني فقط تحت حكم بريطاني في فلسطين [700]. وقال جيلبرت كلايتون أن القضيتين العربية والصهيونية «بينهما تكافل» ويمكن ارضاء كليهما وسوف يكون بينهما تعاون، ولكن فقط إذا أمكن جعل الفرنسيين

يوافقون على أن اتفاقية سايكس - بيكو «لم تعد أداة عملية» [701]. وقد ساعد حاييم وايزمان في الحملة فكتب إلى بلفور على غرار ذلك، مضيفاً أن الدسائس الفرنسية التي تهدف إلى ضمان امتيازات تجارية حصرية إنما تحجب قضية تقرير المصير لليهود كما للعرب [702]. وأبلغ لورنس «اللجنة الشرقية»، أنه: «لن تكون هناك صعوبة في التوفيق بين الصهيونيين والعرب في فلسطين وسورية بشرط أن تبقى الإدارة في فلسطين في أيدي بريطانية» [703].

إذا ما كان ممكناً إلغاء الاتفاقية في ما يتعلق بفلسطين، فما من سبب يمنع من إلغائها في ما يتعلق بسورية أيضاً - ولو أن رئيس الوزراء لويد جورج أكد تكراراً أن لا رغبة لدى بريطانيا في الاستيلاء على سورية لنفسها، كما أن المسؤولين البريطانيين في الميدان ادعوا مثل هذا الادعاء مؤكدين أنهم يريدون من فرنسا أن تتخلى عن مطالبها، لا لمصلحة بريطانيا وإنما لمصلحة دولة عربية مستقلة بقيادة فيصل. كان في هذا منتهى عدم الأمانة، لأن مسؤولي المكتب العربي لم يؤمنوا بأن العرب قادرون على حكم أنفسهم بأنفسهم. إن ما قصدوا بالبلد المستقل الذي يحكمه فيصل، هو بلد خاضع لتوجيههم بصفته ممثلي بريطانيا.

وقد جاء في تقرير أرسله ديفيد هوغارت، رئيس المكتب العربي الذي خلف كلايتون بصفة كبير الضباط السياسيين في الميدان، من دمشق المحررة حديثاً، أن إدارة فيصل العربية تفتقر إلى الكفاءة، وأنه لا بد من دولة أوروبية لتسيير الأمور [704]. فإذا استبعدت فرنسا كان جلياً من هي الدولة الأوروبية (من وجهة نظره) التي ستضطر إلى تولي المسؤولية.

## (5)

بعد نحو أسبوعين من لقائه مع فيصل في فندق فيكتوريا في دمشق، عاد سير ادموند اللبني الى دمشق ليكون ضيف الأمير فيصل في مأدبة عشاء. وكتب بعد ذلك إلى زوجته قائلاً: «أقام لي عشاء فاخراً. أطباق عربية، ولكنها كلها جيدة، قدمت بالطرق الحضارية المعتادة، المشروب ماء، ولكنه جيد، ماء نقي بارد، وليس ماء الشعير الفاتر!» وأضاف اللبني: «ستحبين فيصل. انه حاد البصر، نحيل، ممشوق، يده جميلتان كيدي امرأة، وأصابه دأبة الحركة عندما يتكلم. ولكنه قوي الإرادة مستقيم في المبدأ». أما في ما يتعلق بالأمور السياسية «فهو متوتر الأعصاب بشأن تسوية الصلح، ولكني لا أفتأ أقول له انه يجب أن يثق بأن دول التحالف ستعامله معاملة منصفة» [705].

«ثق بدول التحالف»: ما كان بإمكان فيصل أن يرى في ذلك أساساً صلباً لحظوظه في المستقبل.

فدول التحالف لا تثق حتى ببعضها بعضاً. ان الفرنسيين لا يصدقون أن البريطانيين يمنحون الأمانى اليهودية والعربية رعايتهم بنية صادقة، أما البريطانيون فانهم يبحثون كيف، وليس هل، يفسخون اتفاقاتهم مع فرنسا. ثم لا بريطانيا ولا فرنسا عازمة على الوفاء بالتزاماتها في زمن الحرب لإيطاليا. كذلك، لا بريطانيا ولا فرنسا ميالة الى تطبيق برنامج وودرو ويلسون المثالي الذي، عندما كانت واشنطن الطرف المستمع، تظاهرتا بالتعاطف معه.

كان فيصل يعلم أن القادة البريطانيين كانوا، الى سنة خلت، يمعنون الفكر من وراء ظهره في صلح توافقي يتم بموجبه تقاسم الامبراطورية الروسية بدلاً من الامبراطورية العثمانية - تاركينه ووالده تحت رحمة الأتراك. وكان يعرف أيضاً أن بريطانيا وفرنسا اتفقتا قبل ذلك بستتين على اقتسام العالم العربي بينهما، وانهما لم تكشفوا تفاصيل اتفاقهما له الا عندما اضطرتا الى ذلك.

لم تكن الثقة جزءاً من الأجواء التي كان يعيش فيها فيصل. فهو نفسه كان ذلك العام قد راسل الأتراك بشأن الانتقال من جانب الى آخر في الحرب. فلا هو ولا الجانب التركي كان صادقاً مع بريطانيا، ولم يكن فيصل صادقاً حتى مع والده.

جنوده النظاميون الوحيدون كانوا من الجنود الفارين من معسكر العدو. ويمكن بسهولة أن يتخلوا عنه أيضاً إذا أفل نجمه. أما رجال القبائل البدوية

حلفاؤه فقد كانت سمعتهم السيئة انهم متقلبون لا يثبتون على حال، وينتقلون من جانب إلى آخر في شبه جزيرة العرب وحتى في ساحة المعركة نفسها. ولم يقفوا الى جانبه أساساً إلا بفضل الذهب، ولم يكن الذهب من جيبه بل من المال الذي يصرفه لهم لورنس. أما السوريون فقد قبلوه لأن الجيش البريطاني فرضه عليهم.

حتى جسده كان يشي به. أن أصابعه كانت تنم عن القلق. كان متوتر الأعصاب - وكل الأسباب كانت تجعله متوتر الأعصاب.

# الجزء الثامن

## غنائم النصر



# الفصل الاول

## افتراق الطرق

### (1)

بعد أن أصيبت الامبراطوريتان العثمانية والبريطانية بالدوار من جراء الإرهاق واستحكمت بهما نوبات هستيريا الحرب، ألقيا بنفسيهما الى الصحاري النائية والبحار الداخلية لخوض سلسلة من الحملات الختامية التي لم تسفر عن نتيجة حاسمة وقلما تستعيدھا الذاكرة. ولكن نشأ في مجرى المناورات العسكرية والسياسية تطوران كان لا بد من أن يؤثر تأثيراً عميقاً على مستقبل القرن العشرين. فقد وجدت الجيوش الغربية نفسها في حالة حرب مع روسيا، الحليفة السابقة، وصار النفط مسألة بالغة الأهمية في المعركة من أجل الشرق الأوسط.

الأمر كله بدا لأن أنور باشا، بدلاً من أن يحاول معالجة وضع الهزيمة في سورية، فتح مسرح عمليات جديداً ضد خصم أقل هولاً. ونتيجة لذلك كانت بريطانيا تنتقل من نجاح الى نجاح في الولايات الناطقة بالعربية من الإمبراطورية العثمانية، بينما كانت القوات العثمانية الى الشمال تنتقل من نجاح الى نجاح في ما كان الامبراطورية الروسية. فكانت تركيا وبريطانيا في النصف الثاني من عام 1918 مشتبكتين في ما بدا انه ليس حرباً واحدة بل هما حربان متوازيتان كانتا فيهما تسعيان إلى أهداف متماثلة: أي حرمان حلفائهما من حصة في الأرباح. لقد كان أنور باشا، شأنه شأن لويد جورج، رجلاً استحوذت عليه فكرة غنائم النصر المقبلة بحيث لم يطق اقتسامها مع بلدان أخرى. فهذا الزعيم التركي شبه الدكتاتور، كنظيره البريطاني شبه الدكتاتور، جازف بتعريض تحالفاته للخطر في سبيل طموحات امبراطورية.

نظر لينين الى الأمور نظرة مختلفة وخاصئة. فالإمبريالية - وتعريفها هو السعي وراء الحصول على مستعمرات لم تكن هي مسببة الحرب، بل الحرب هي التي ولدت الامبريالية. أن الخسائر التي كانت تترنج تحت وطأتها الدول المتحاربة هي التي دفعت هذه الدول الى محاولة تعويض الخسائر بالبحث عن مكاسب جديدة. وكان انهيار الامبراطورية الروسية ملبياً للحاجة الى عوالم جديدة يمكن فتحها. فممتلكاتها جاهزة للاستيلاء عليها. كان مما يقلق اللورد ميلنر أن الحاق الهزيمة بألمانيا قد يزداد صعوبة إذا ما انسحبت روسيا من الحرب، الأمر الذي طرح احتمال صلح وفاقي عبر

التفاوض تحصل فيه بريطانيا على تعويض بواسطة اقتسام الامبراطورية الروسية بدلاً من الامبراطورية العثمانية. بيد أن ألمانيا بعد أن حطمت امبراطورية القيصر الروسي لم يكن مزاجها يسمح باقتسام مكاسبها مع دول التحالف. وقد واصل الألمان حملاتهم الحربية والتخريبية على روسيا. ومع ازدياد الحاجة في زمن الحرب الى منتجات زراعية ومواد أولية تنامت أهداف ألمانيا لما بعد الحرب، من حيث اكتساب العظمة، وصارت أبعد مدى، وفيما كان الألمان يسعون لتحقيق أهدافهم، تصادموا مع حلفائهم الأتراك.

كان حلم أنور باشا أن يأتي يوم يوحد فيه جميع الشعوب الناطقة بالتركية في آسيا تحت قيادة عثمانية، ولكن هذا الحلم لم يتحول الى برنامج سياسي عملي إلا عندما لاحت أمامه هذه الإمكانية نتيجة تفكك سلطة بيتروغراد. وقد شجع ونستون تشرشل وغيره بعد الحرب الأسطورة القائلة أن حزب تركيا الفتاة يعتنق عقيدة الوحدة التركية الشاملة (الطورانية) منذ البداية، وانه زج تركيا في الحرب سعياً وراء تحقيق خطط توسعية في آسيا الوسطى، غير أن الأدلة المتوافرة الآن تثبت عكس ذلك؛ فالمطالب التي قدمتها جمعية الاتحاد والترقي إلى ألمانيا منذ عام 1914 وحتى نهاية 1917 تبين أن تفكير القادة الأتراك آنذاك كان في جوهره تفكيراً دفاعياً أملين على أبعد تقدير أن يدعموا حدودهم لكي يكتسبوا استقلالاً أكمل داخل هذه الحدود. ولم يخطط أنور باشا جدياً لتوسيع الامبراطورية العثمانية شرقاً، إلا في عام 1917. وقد بدا له أن هنالك مناطق شاسعة لم تعد ملك قيصر روسيا وهي جاهزة لأخذها، ويمكن أن تعوض عما أخذته بريطانيا في الجنوب الناطق بالعربية.

جاء في تقرير للمخابرات البريطانية عن حركة توحيد الشعوب الناطقة بالتركية جميعها، الحركة الطورانية، وهو من اعداد دائرة الاعلام في خريف عام 1917، ان هنالك خارج الامبراطورية العثمانية عدداً يقدر بأكثر من سبعة عشر مليون انسان في آسيا يتكلمون لغة أو أكثر من اللغات ذات الجذور التركية. وقال التقرير: «ان آسيا الوسطى الناطقة بالتركية هي إحدى أكبر المناطق في العالم التي حافظت باستمرار على لغتها - أكبر من منطقة روسيا الكبرى وتكاد تعادل في مساحتها المنطقة الناطقة بالإنكليزية أو المنطقة الناطقة بالإسبانية في أميركا». ومع أن التقرير تحدث بازدياد عن الطورانية كعقيدة، فقد كانت الصورة التي رسمها لها، صورة أداة خطيرة في أيدي قادة حزب تركيا الفتاة. «السكان جميعهم أتراك، والسكان جميعهم مسلمون سنة، والمالك الحالي (أي روسيا) ليس دولة اسلامية عريقة بل هو فاتح مسيحي حديث عهد». وإذا ما أوجدت جمعية الاتحاد والترقي دولة تركية - إسلامية هناك، متحالفة مع فارس وأفغانستان،

ستواجه الهند تهديداً مباشراً»، أن هذه الدولة ستنشئ منطقة شاسعة معادية لبريطانيا في داخل آسيا، وموقعها خلف القبائل المعادية لبريطانيا في منطقة الحدود الشمالية الغربية للهند» [706].

ومع إدراك أنور باشا لهذه الامكانيات، فإنه لم يقدم على خطوة متهورة بل ترك الأحداث تأخذ مجراها لمصلحته. إن خلع قيصر روسيا خلف جيشاً روسياً تعداده نصف مليون جندي في شمال شرق تركيا، متحكماً بمدن كبيرة. مثل تبريزون، وأرضروم وفارس. وهؤلاء الجنود، بداية على أقل تقدير، ليسوا بلشفيكاً في عواطفهم، ولكنهم يعانون من أنهاك الحرب. ومع انهيار الانضباط فقد فروا وعادوا الى روسيا، وبالاتفاق مع هيئة الأركان العامة الألمانية، لم تهاجم القوات العثمانية الخطوط الروسية الداوية، بل تركت الجيش الروسي يتقلص من تلقاء نفسه الى أعداد لا يؤبه بها.

ومع استيلاء البلشفيك على السلطة في بيتروغراد في خريف عام 1917، لم يتبق عملياً سوى قوة متطوعين من مناطق عبر القوقاز القريبة من الحدود وبضع مئات من الضباط الروس [707].

لم يقم أنور بأي تحرك، متوقعاً أن يسعى البلشفيك للصالح، وهو ما فعلوه بعد عدة أسابيع.

وتحسن أيضاً من ذاته الوضع العسكري التركي على الحدود الشرقية مع فارس. فقد كانت القوات البريطانية في جنوب فارس تعمل خلف درع من القوات الروسية في الشمال، فلم تعد الآن قادرة أن تفعل ذلك وهي مطمئنة. وبعد أن استحوذت الحماسة الثورية على الجنود الروس، ازدادت صداقتهم للقوميين الفرس بعد أن كان هؤلاء الجنود يمنعون نشاطهم. وبتاريخ 27 أيار (مايو) عام 1917 سقط النظام الموالي للحلفاء في طهران، وحلت محله بتاريخ 6 حزيران (يونيو) حكومة وطنية المنحى اتصلت مع بيتروغراد بغية تقليص الوجود العسكري الروسي.

لقد خشي مسؤولون كبار في وزارة الحربية في لندن احتمال قيام تركيا بهجوم عبر فارس في اتجاه أفغانستان [708]. مع أن رئيس هيئة الأركان العامة لقوات الامبراطورية البريطانية لم يشاطرهم وجهات نظرهم. وتراوح مجلس الوزراء البريطاني في موقفه بين تقديم تنازلات الى النظام الفارسي الجديد وترك العلاقات تتدهور. كانت الأخطار ظاهرة في كلتا الحالتين.

وعندما تلاشت سلطة حكومة كيرنسكي في بيتروغراد، بدا للمسؤولين البريطانيين أنه لم يعد بالإمكان الاعتماد على الجيش الروسي في شمال فارس. وفي 31 تشرين الأول (أكتوبر) 1917 قررت لجنة وزارية في مقر

رئاسة الوزراء في بريطانيا أن تدفع رواتب الشرائح غير البلشفية من الجيش الروسي في شمال فارس، وبالرغم من ذلك تبين أن الروس غير مستعدين للانسحاق وراء بريطانيا.

وما أن استولى البلشفيك على السلطة في بيتروغراد في الأسبوع اللاحق، حتى وصلت الأمور بسرعة إلى حالة صدام. ففي غضون شهور، أي في 29 كانون الثاني (يناير) 1918، أعلن تروتسكي، القوميسار السوفياتي للشؤون الخارجية، نبد اتفاق عام 1907 الذي شكل أساس الاحتلال الانكليزي - الروسي لبلاد فارس. وإذ أنكر تروتسكي المسؤولية عن أية قوات روسية مناوئة للبلشفيك على الأرض الفارسية، أعرب عن الأمل في أن تنسحب أيضاً الجيوش الأجنبية الأخرى التي تحتل أرضاً فارسية - أي الأتراك والبريطانيين.

خشيت الحكومة البريطانية أن يؤدي الانسحاب الروسي إلى جعل الجيش الهندي في بلاد الرافدين مكشوفاً لهجوم من الخلف تشنه قوات عثمانية مندفعة عبر فارس. ذلك أنه بالرغم من النزاع الطويل بين الامبراطوريتين في تلك المنطقة، اعتادت بريطانيا أن تعتمد على روسيا في الوقوف في وجه الأتراك في شمال فارس، ولم تعد تدري أي نهج تسلك لدى انسحاب هذه الحماية بصورة مفاجئة.

## (2)

في شهر آذار (مارس) 1918 فرضت ألمانيا على الروس المهزومين شروط هدنة ساحقة. وما أن وقعت الامبراطوريتان العثمانية والألمانية الهدنة مع روسيا حتى بدأتا تتنازعان امتلاك المقاطعات المحاذية للحدود التركية التي كانت تحكمها الامبراطورية الروسية. كانت جورجيا وأرمينيا المسيحيتان واذربيجان الاسلامية - وثلاثتها مجتمعة تدعى بلاد عبر القوقاز - مستقلة الآن. وقد كانت ألمانيا في حاجة ملحة الى ثروة جورجيا الزراعية والمعدنية وشبكة السكك الحديدية فيها، وكانت في حاجة أشد الى آبار نفط أذربيجان، لتغذية مجهودها الحربي. وكان القادة الألمان ينظرون بعيداً الى عالم ما بعد الحرب، فعزموا على استخدام عبر القوقاز كراس رمح يشقون به طريقهم إلى أسواق الشرق الأوسط.

وتطلع القادة العثمانيون بدورهم الى الفوائد التجارية للمقاطعات الواقعة عبر حدودهم، فأخذوا يفكرون باستعادة الخط التجاري القديم مع إيران، وإحياء تجارتهم مع منطقة البحر الأسود والقرم، وكان هدف أنور في المقام الأول خلق امبراطورية تركية جديدة تمتد الى آسيا الوسطى، وتكون منطقة عبر القوقاز صلة الوصل بها.

كانت قناعة أنور أن ألمانيا تجاهلت المصالح التركية عندما فاوضت على شروط الهدنة مع روسيا، فشرع بدوره يتجاهل المصالح الألمانية في بلاد عبر القوقاز، وأرسل خيرة ما تبقى من جيوشه عبر الحدود لفتح جورجيا وأرمينيا والزحف على أذربيجان. ولهذه الغاية أنشأ فيلقاً خاصاً، سحبه من الجيش العثماني النظامي الذي كان يتغلغل فيه الضباط الألمان. وهكذا فان جيشه الجديد، «جيش الاسلام» لم يكن فيه المان، بل كان مؤلفاً فقط من جنود عثمانيين وتتار أذربيجانيين. وكانت الأوامر الصادرة الى هذا الجيش تقضي بالزحف على باكو، عاصمة أذربيجان، التي كان مجلس سوفيات محلي قد استولى عليها. وقد كانت باكو، المدينة الصناعية التي يقطنها نحو 300000 نسمة والواقعة على شاطئ بحر قزوين، نصف اسلامية ومختلفة تماماً عن المناطق الداخلية المحيطة بها وهي مناطق للتتار. وكانت آنذاك المدينة الكبيرة المنتجة للنفط في الشرق الأوسط.

مع حلول عام 1918 بدا الوعي العام لأهمية النفط العسكرية [709]. وكانت الأميرالية البريطانية وعلى رأسها تشرشل قد انتقلت قبل الحرب الى استخدام النفط وقوداً لسفن الأسطول، وبدأ الحلفاء خلال الحرب يعتمدون اعتماداً شديداً في النقل البري على الشاحنات التي تسير بالنفط. كذلك فان الدبابات والطائرات أخذت تؤدي دورها الكامل في الأيام الأخيرة

من الحرب، وهي أيضاً تستهلك كميات من النفط ومشتقاته. وفي عام 1918 بدأت حكومة كليمنصو في فرنسا ووزارة البحرية الأميركية تعيان ما صار للنفط من أهمية أساسية.

أما ألمانيا التي كانت تواجه نقصاً، فقد بنت حساباتها على تعويض مواردها من مناطق جنوب روسيا وغربها التي استولت عليها، كما أنها سيطرت على جانب كبير من اقتصاد جورجيا خلال عام 1918. ولكن الحكومة في برلين لم تعتبر ثروات جورجيا كافية. أن تسابق أنور باشا مع ألمانيا على احتلال باكو في أذربيجان كان يهدد بحرمان ألمانيا من النفط الذي كانت تحتاجه حاجة ماسة، وكان يهدد أيضاً بإفساد الهدنة التي تم ترتيبها مع روسيا. وقد وجه قادة الأركان العامة الألمانية الذين استشاطوا غيظاً مذكرات غاضبة إلى أنور، فتجاهلها.

لقد أبلغ وزير الدولة الألماني لشؤون البحرية كبار المسؤولين في وزارة الخارجية وهيئة الأركان العامة في بلاده أن السيطرة على نفط باكو أمر بالغ الأهمية بالنسبة لألمانيا، ولذلك يجب إيقاف الهجوم العثماني على المدينة<sup>[710]</sup>. وقد أبلغ القادة الألمان السفير الروسي في برلين انهم سيتخذون خطوات لوقف التقدم العثماني إذا ما أعطت روسيا تأكيدات بتزويد ألمانيا ببعض احتياجاتها على الأقل من نفط باكو، وقد أبرق لينين إلى ستالين ليلغ هذا التطور قائلاً: «بطبيعة الحال سنوافق»<sup>[711]</sup>.

وكانت باكو ذات أهمية استراتيجية أيضاً. فهي مرفأ هام يسيطر على الملاحة في بحر قزوين، ومن شأنها أن تمكن أنور من نقل جيوشه بحراً، إذا اختار ذلك، إلى الشاطئ الشرقي لبحر قزوين، حيث ينتظر من مسلمي تركستان أن يحتشدوا تحت لوائه، وحيث يستفيد هو من شبكة الخطوط الحديدية التي بناها الروس ليتمكنوا من الوصول إلى أفغانستان ومهاجمة الهند.

وبما أن البريطانيين أدركوا الخطر تمام الإدراك، فقد كانوا ينظرون إلى تقدم أنور بحذر شديد.

### (3)

كانت بعثتان عسكريتان بريطانيتان صغيرتان في شمال فارس تراقبان هذه الأحداث من وراء الحدود، دون أن تكون لديها فكرة واضحة عن الدور الذي ينبغي أن تقوموا به في هذه الأحداث [712].

عُين الميجر جنرال ل. دنسترفيل رئيساً للبعثة البريطانية إلى القوقاز في مطلع عام 1918. لو أنه وصل إلى مدينة تفليس العاصمة الواقعة عبر القوقاز لكان عُين إضافة لمنصبه ممثلاً لبريطانيا هناك، حيث يكون هدفه أن يساعد على تصليب مقاومة الجيش الروسي في تركيا للتقدم العثماني.

انطلقت قافلة دنسترفيل المؤلفة من إحدى وأربعين سيارة وشاحنة من طراز فورد عبر بلاد الرافدين إلى بلاد فارس، ثم اتجهت نحو مرفأ فارسي على بحر قزوين يدعي انزيلي (سمي بعد ذلك بهلوي) على الطريق إلى بلاد عبر القوقاز. وعندما وصل البريطانيون كان معظم منطقة عبر القوقاز قد سقط في أيدي العثمانيين أو الألمان. وقد أمرت الحكومة البريطانية القلقة دنسترفيل بأن يظهر الطريق إلى انزيلي من عصبة ثورية مؤلفة من القوميين الفرس ومتحالفة البلشفيك ولكنها تعمل أيضاً من أجل مصالح جيش الاسلام العثماني الزاحف.

ولدى اقتراب قوات أنور من مدينة باكو، ناقشت الحكومة البريطانية الدور الذي ينبغي أو الذي تستطيع القوة الصغيرة التي يقودها دنسترفيل أن تؤديه في المعركة غير المتوقعة من أجل آسيا الوسطى، والتي زج أنفسهم فيها الأتراك والألمان والروس وغيرهم. ونشأ السؤال عما ينبغي أن تفعله بعثة الميجر جنرال ولفريد مالميسون، كان الجنرال مالميسون ضابطاً في فرع المخابرات العسكرية في الجيش الهندي وقد خدم سنوات في جهاز قيادة اللورد كيتشنر. وكانت سيملا قد أرسلته مع ستة ضباط إلى مشهد، في شرق فارس، لمراقبة التطورات في أراضي تركستان الروسية، وهي أراض شاسعة كان الاعتقاد أنها الهدف التالي لأنور باشا. أي أن مهمة دنسترفيل كانت مراقبة الأراضي الواقعة غربي بحر قزوين، ومهمة مالميسون مراقبة الأراضي الواقعة إلى الشرق.

كانت ثمة أمور عديدة تهم القادة العسكريين البريطانيين في المنطقة التي عُهد بها إلى مالميسون، أحدها مستودع القطن الكبير الذي قد يقع في أيدي عدوة. وأحد الأمور الأخرى هو وجود نحو 35000 أسير حرب ألماني ونمساوي قد يخلي سبيلهم إما البلشفيك أو قوات أنور. وكان التفكك السياسي المتزايد في مناطق شرقي وغربي بحر قزوين يحجب عن القادة البريطانيين نيات قوات العدو العاملة في تلك المناطق. فمن الناحية

السياسية ظهر الألمان وكأنهم على علاقات مودة محلياً مع المعادين للبلشفيك في تفليسي وانهم في الوقت عينه على علاقة البلشفيك في بيتروغراد، بينما حل الجفاء بينهم وبين الأتراك، الذين أصبحوا حلفاءهم في العلن وأعداءهم في السر، وكانت قوة الحلف الذي يقوده أنور والمؤلفة من عثمانيين ومسلمين أتراك أذربيجانيين وتتار، تزحف نحو باكو، التي كان يحكمها مجلس سوفيات منقسم على نفسه، وانقسامه كان يعكس الانقسام داخل المدينة نفسها. فنصف سكانها المؤلف من الأذربيجانيين كان محبذاً للإمبراطورية العثمانية، بينما الأرمن، بدافع الخوف من المذابح، كانوا يحبذون أية جهة ما عدا الأتراك. وكان الثوريون الاشتراكيون وغيرهم من الروس البلشفيك يخافون التدخل البريطاني ولكنهم بدؤوا في النهاية يخافون تركيا أكثر مما يخافون بريطانيا. وفي حين كان ستيفان شوميان، الرئيس البلشفيكي لمجلس السوفيات يقود المقاومة ضد التحالف العثماني - الأذربيجاني، كان ذلك يفضل الحكم التركي على التدخل البريطاني، ولكنه في أية حال تلقى أوامراً مباشرة من لينين وستالين بعدم قبول المساعدة البريطانية.

أما في تركستان، فإن مجلس السوفيات الروسي الذي يسيطر عليه البلشفيك، كان هو المشرف على مدينة طشقند، وهي واحة في الصحراء. ولكن القوات التابعة لهذا المجلس السوفياتي هزمت على أيدي أهل بخاري الأتراك، فاضطر المجلس الى الاعتراف بأمير بخاري حاكماً استعاد استقلاله بعدما كانت بلاده قد وقعت تحت سيطرة الروس خلال اللعبة الكبرى في القرن التاسع عشر.

ووصلت الى لندن شائعات تشير إلى أن خانات بخاري وخيفا المستقلين حديثاً قد يتحالفون مع الباب العالي [713].

كانت النظرة من لندن إلى الفوضى في آسيا الوسطى انها مصدر خطر ومبعث أمل. أما الخطر فلأن هذا الوضع قد يسمح بهجوم على الهند وعلى الجيش الهندي في فارس وبلاد الرافدين، مما قد يشعل لهيباً يستحيل اخماده. وقد جاء في مذكرة لهيئة الأركان العامة البريطانية:

«أن ألمانيا ستستخدم الحركة الطورانية والعصبية المحمدية لكي تؤجج جمر الحرب الدينية الدائمة التوقد وتنشر لهيبتها، بحيث تطلق على الهند تيار الغزو الاسلامي المحصور حالياً...و عندما كانت روسيا متعافية وكانت بلاد فارس تحت السيطرة، كان بإمكاننا أن نتعامل مع صعوبة كهذه، أما إذا توفرت لعملاء الألمان حرية الوصول الى القبائل العاصية في أفغانستان وعلى حدود الهند، والتي نشأت وترتبت على حكايات الثراء الأسطوري من وراء النهب الذي هو تقليد من تقاليدها، فإن أعداداً لا تحصى من المقاتلين



المتوحشين قد تتدفق على السهول فتعمل فيها يد التخريب والقتل والتدمير. وعندها فإن المؤسسات التي شيدت خلال سنين طويلة من الحكم المتأني، سوف تزال خلال بضعة أسابيع قصيرة، وعندها ستدعو الحاجة الى نجدة حامية البلاد بعدد كبير من الجنود الذين تمس إليهم الحاجة في أماكن أخرى [714]. ولا يمكن الوثوق إلا بالجنود البيض» [715].

وبما أن صانعي السياسة البريطانيين اعتقدوا أن الحكومة البلشفية الروسية كانت تتلقى الأموال من ألمانيا الامبراطورية، وبما أنهم لم يكونوا مطلعين على مدى الفرقة بين الباب العالي ومسيئشارية ألمانيا، فقد بدا لهم في عام 1918 أن الألمان قد سيطروا على آسيا الشمالية وأنهم في الطريق إلى الاستيلاء على وسط آسيا وبالتالي أنهم يستعدون لشن هجوم على المواقع البريطانية في جنوب آسيا. وقد كان ذلك كله متفقاً مع وجهة النظر السائدة في زمن الحرب أن ألمانيا تهدف إلى إقامة امبراطورية عالمية، ومتفقاً مع الخوف من أن تكون آسيا كلها بعد انتهاء الحرب مستعمرة رقيق شاسعة في حوزة ألمانيا، فتغذي ثروات آسيا وموادها الأولية الصناعة الألمانية وتتيح لألمانيا أن تسيطر على الكرة الأرضية.

اقترح ليو إيميري على لويد جورج أن تتبنى بريطانيا استراتيجية لمجابهة هذا الخطر. فإذا استولت بريطانيا على وسط آسيا، يصبح عندئذ اقتسام روسيا بين ألمانيا وبريطانيا، هذا الاقتسام الذي سبق أن اقترحه ميلنر في السنة السابقة، حقيقة واقعة. وقد دَوَّن إيميري في مفكرته في نهاية عام 1917: «إن الحرب تتجه شرقاً بعنف وسنجد أنفسنا نقاتل خلال ما تبقى منها من أجل تقرير أين يجب أن يمر خط الحدود البريطاني - الألماني عبر آسيا». وقد تنبأ بأن الفرنسيين الذين يتطلعون إلى أوروبا الشرقية للحصول على مكاسبهم بعد الحرب سوف يفشلون. «في حين أننا نحن البريطانيين المساكين الخنوعين قد نجد امبراطوريتنا الصغيرة غير العدوانية تضم في نهاية الحرب تركستان وفارس والقوقاز!» [716].

كان هذا يمثل توسيعاً آخر لذلك الجزء الشاسع في الكرة الأرضية الذي اعتبره إيميري واقعاً أصولاً تحت هيمنة بريطانيا. وكان تركيزه الأساسي، شأنه شأن ميلنر وزملاء آخرين، على «كامل نصف الدائرة الكبير الذي يمتد من مدينة الكاب الى القاهرة، ثم عبر فلسطين، الى بلاد الرافدين وفارس ثم الى الهند ومنها عبر سنغافورة الى أستراليا ونيوزيلندا». وقد كتب الى رئيس وزراء أستراليا في أواخر عام 1917 «أن ما نريده في تلك المنطقة هو مبدأ مونرو بريطاني يصون ذلك الجزء من العالم ويمنع عنه تدخل القوى الطامعة في المستقبل...» [717].

بدأ إيميري يشعر في حزيران (يونيو) 1918 (ويشير على لويد جورج) أنه إذا لم يوقف التوسع الألماني في آسيا، فإن «هذا العالم البريطاني الجنوبي لن يتمكن من العيش بسلام ومن دون شعور دائم بالخوف من العدوان الألماني». وكتب يقول: «حالما ينتهي هذا (العرض الجانبي الصغير) في الغرب، يجب علينا أن نفكر جدياً بالحرب من أجل السيادة على آسيا» [718]. كان هذا الكلام انعكاساً لوجهة نظره القائلة إن أحد مثالب سياسة بريطانيا الخارجية أنها تعطي الأولوية للمصالح البريطانية في أوروبا على مصالح بريطانيا في أماكن أخرى. وقد كتب في عام 1917 قائلاً: «أرى أن الخطر الكبير يكمن في أن وزارة الخارجية والرأي العام... يتبنيان وجهة نظر مغرقة في أوروبيتها بشأن شروط الصلح، بدلاً من رؤية هذه الشروط بمنظور امبراطورية منتشرة في سائر أنحاء العالم...» [719]. وكان رأيه أيضاً أنهم في بريطانيا يتبنون وجهة نظر مغرقة في أوروبيتها بشأن الحرب، فقد كان يلحظ أخطاراً جديدة في آسيا.

وفي 16 تشرين الأول (أكتوبر) 1917 كتب إلى سمطس محذراً من أن أنور سيرج «نحو خمسة ملايين» تركي يقطنون في منطقة عبر القوقاز ومن ثم سيحقق الاتصال مع أتراك تركستان [720].

إن الأحداث التي وقعت في مطلع العام التالي بدت وكأنها تثبت وجهة نظره هذه.

وكان إيميري، شأنه شأن القادة السياسيين والعسكريين البريطانيين الآخرين في النصف الأول من عام 1918، مقتنعاً بأن الغزو الألماني والعثماني لمنطقة عبر القوقاز يدل على أن ألمانيا كانت في سبيل تنفيذ «الخطّة الكبرى» التي تحدث عنها جون بوتشان في روايته (غرين مانتل - العبادة الخضراء). ففي هذه الرواية، وهي رواية مغامرات، يخطط الألمان لاكتساح آسيا الإسلامية باتجاه حدود الهند واجتياز هذه الحدود لتدمير الامبراطورية البريطانية في الشرق ليقموا امبراطوريتهم مكانها [721]. ولذلك كان يرى إيميري أن القوات البريطانية سواء في الحرب أو في السلم يجب أن تنتقل إلى خط دفاعي يمتد طوال المسافة عبر الامبراطورية الروسية السابقة من جبال الأورال في الغرب إلى سيبيريا في الشرق [722].

ولم يكن لدى وزارة الحربية أو لدى حكومة الهند استعداد لتوفير القوات التي تقتضيها خطط كبيرة كهذه الخطّة وفي أماكن نائية. ولذلك مضى إيميري إلى حد اقتراح دعوة اليابان والولايات المتحدة إلى المشاركة في

مشروع احتلال الخط الممتد من الأورال الى سيبيريا<sup>[723]</sup>. واقترح القادة العسكريون البريطانيون وحلفاؤهم حث اليابان على إرسال جيوش عبر سيبيريا وآسيا للمشاركة في المعركة ضد قوات أنور غربي بحر قزوين<sup>[724]</sup>.

ولكن ما كان يشغل بال لويد جورج واللورد ميلنر كلياً هو الحرب في أوروبا وفلسطين، ولذلك لم يجتذب إيميري انتباههما، وفي غياب قيادتهما كان مرؤوسوهما عاجزين عن تطوير سياسة متماسكة. كان إيميري وكبار ضباط القيادة العسكرية العليا يرسمون خططاً جغرافية - سياسية طموحة باهرة، ولكن لم ترصد موارد ولا وضعت استراتيجية موضع التنفيذ لتحقيق هذه الأهداف.

وهكذا فإن البعثتين الصغيرتين اللتين أرسلتهما حكومة الهند البريطانية اتجهتا من دون توجيه أو مساندة إلى داخل آسيا.

## (4)

كانت مدينة باكو، عاصمة النفط في آسيا الوسطى، بؤرة النشاط في صيف 1918 عندما هرب القادة البلشفيك من المدينة. وقد شكلت فيها على عجل حكومة جديدة غير بلشفية دعت البريطانيين إلى دخول المدينة، فطلب دنسترفيل إذنًا من رؤسائه بدخول باكو والدفاع عنها وتلقى الإذن منهم. فوصلت طليعة قوته إلى باكو في 4 آب (أغسطس) وأحبطت بذلك آمال الألمان في الحصول على نفط باكو، وعندئذٍ قرر الألمان أن خطر تركيا أقل من خطر بريطانيا، أما البلشفيك فتوصلوا إلى استنتاج معاكس<sup>[725]</sup>. وقد طلب الألمان إذنًا من الحكومة البلشفية بشن هجوم على باكو التي سقطت في يد بريطانيا، إما وحدهم أو بالاشتراك مع جيش الإسلام الذي يقوده أنور. فوافقت الحكومة البلشفية على احتلال ألمانيا لمدينة باكو، ولكن ليس بالاشتراك مع جيش الإسلام. كانت بيتروغراد ترى أن البريطانيين أفضل من الأتراك. ولكن القوة الألمانية في جورجيا كانت أضعف من أن تستغني عن قسم من جنودها في الوقت المناسب للقيام بحملة على باكو - وهكذا لم يبق سوى جيش الاسلام والبعثة البريطانية تتنازعان وحدهما الساحة.

كان تعداد قوة دنسترفيل حسب أحد المصادر نحو 900 ضابط وجندي، وحسب مصدر آخر نحو 1400 ضابط وجندي<sup>[726]</sup>. وكان جيش الإسلام يقدر بعشرة أضعاف أو عشرين ضعف هذا العدد. وعندما هاجمت القوة البريطانية باكو اعتمدت على نفسها، إذ تبين أن القوات المحلية ضئيلة الجدوى. وفي 14 أيلول (سبتمبر) جلت قوة دنسترفيل عن المدينة وانسحبت إلى فارس بعد أن احتلت باكو - وحرمت العدو من النفط - مدة ستة أسابيع. وقد وصف نبالوكالة رويتر البريطانية الجلاء عن باكو بأنه واحد «من أكثر فصول الحرب إثارة»<sup>[727]</sup>.

وفي الوقت نفسه تقريبًا الذي زحف فيه دنسترفيل لإغاثة باكو، زحف الجنرال ماليسون، بناءً على دعوة أيضًا، لإغاثة تركستان التي تألفت فيها حكومة من المنشيفيك الروس المعادين للبلشفيك ومن الثوريين الاشتراكيين بمساعدة عمال السكك الحديدية. وأعلنت حكومة تركستان استقلالها عن السلطات البلشفية الروسية. وعندما استجاب ماليسون لنداء هذه الحكومة كان في الواقع يتدخل في حرب أهلية روسية - وكان الدافع إلى ذلك الخوف من استيلاء ألمانيا على إمدادات القطن في تركستان والخوف أيضًا من إخلاء سبيل أسرى الحرب الألمان والنمساويين.

ومع أن سكان تركستان الأصليين الناطقين بالتركية كانوا معارضين لوجود المستوطنين الروس سواء البلشفيك منهم أو المعادين للبلشفية، فقد أيدوا المعادين للبلشفية عندما اضطروا إلى الاختيار بين الفئتين. وكان أمرًا متوقعًا أن يساندوا جيش الإسلام بقيادة أنور عند وصوله.

وهناك في سهول تركستان - في وسط مكان مجهول بالنسبة للعالم الغربي - اشتبكت الجيوش التي سادها الارتباك. ففي ساحات القتال في دوشاك، وكاخا، وميرف، كانت قوات الجنرال مالميسون الهندية - البريطانية تقاتل إلى جانب مناصري أنور الأتراك ضد الروس السوفييات المدعومين من قبل أسرى الحرب الألمان والنمساويين الذين أخلى سبيلهم البلشفيك وسلحوهم. لقد انعكست التحالفات: فبريطانيا وتركيا كانتا ضد روسيا وألمانيا.

لم ينسحب الجنرال مالميسون من آسيا الوسطى حتى نيسان (أبريل) 1919، أي بعد نصف سنة من انتهاء الحرب. وهو لم ينسحب إلا عندما احتلت المنطقة جيوش البيض المعادين للبلشفيك بقيادة الجنرال دينيكن. وتدخله، الذي هدف في البداية إلى إيقاف تقدم الإمبراطوريتين العثمانية والألمانية، كان في النهاية موجّهًا ضد البلشفيك<sup>[728]</sup>. في ذلك الحين لم تميز السلطات البريطانية بين هذه الجماعات الثلاث، إذ بدت هذه الجماعات كلها متكاتفه في الجانب المعادي في الحرب العالمية.

كانت حكومة الهند قد أرسلت بعثة ثالثة مؤلفة من ثلاثة ضباط لم يكونوا على علم بدخول دنسترفيل ومالميسون إلى الأراضي الروسية السابقة. فقد أرسل هؤلاء الضباط إلى كاشغار في تركستان الصينية لمراقبة التطورات من وراء الحدود. ولدى وصولهم إليها قرروا اجتياز الحدود إلى تركستان الروسية والانطلاق نحو طشقند - مركز الحكومة السوفياتية المحلية - في محاولة لكسب تعاون السلطات البلشفية في مسألتهم أسرى الحرب والقطن. ولم يعلموا إلا بعد وصولهم إلى طشقند أن مالميسون كان قد تدخل نيابة عن الحكومة المنافسة.

عاد اثنان من الضباط الثلاثة إلى كاشغار. أما الثالث، وهو الكولونيل فريدريك مارشمان بيلي، فقد قرر البقاء في طشقند لتمثيل المصالح البريطانية إذا ما انهار النظام البلشفي المحلي. وعندما علم أن السلطات المحلية تستعد لاتخاذ إجراءات بحقه تنكر وتواري عن الأنظار، وقد انتحل هويات عديدة في أثناء تخفيه، من بينها هوية طباطبغا هنغاري، وهوية سائق مركبة خيل روماني، وهوية رجل الباني يجمع الفراشات. وظل متخفيًا حتى عام 1920، وخلال ذلك كان يجمع المعلومات بينما كانت الأحداث تتلاحق. وفي النهاية أظهر نفسه عميلًا لاستخبارات ضد الروس البلشفيك. وفي

مبالغة كبيرة نسبت إليه السلطات السوفياتية كونه العقل المدبر لمؤامرات واسعة ضدها.

إن لندن وبيتروغراد اللتين كانتا قبل حين حليفتين في زمن الحرب صارتا الآن عدوتين. لقد انقلب العالم السياسي رأسًا على عقب بين عامي 1917 - 1918.

## (5)

تحسن طالع العثمانيين في الشرق رافقه انهيارهم في الجنوب والغرب، وقد جاء في تقرير سري رفع إلى ديفيد لويد جورج في عام 1918 أن أنور يتحدث عن إمبراطورية عثمانية تمتد من بحر الأدرياتيك إلى الهند، ولكنه أحيانًا أخرى يتحدث، كما قيل، عن الاستسلام. وقيل أن أنور تنبأ مكتئبًا «بأن تركيا ستكون، إذا ربح الألمان الحرب، بلدًا عبدًا لألمانيا».[729]

وقد أدعى لودندورف، النابغة رئيس هيئة الأركان العامة الألمانية، أنه لا يمكن الوثوق بالباب العالي. وقال إن النفط باكو كان مسألة جوهرية لألمانيا، ولكن الأتراك أظهروا أنهم عازمون على الاحتفاظ بكل ثروات منطقة عبر القوقاز لأنفسهم [730]. وقال لودندورف ردًا على استجواب موجه من مستشار ألمانيا إلى الأركان العامة الألمانية في أيلول (سبتمبر) 1918، أن السلطات العسكرية تدرس العواقب المترتبة على إمكانية خيانة تركيا لألمانيا وانحيازها إلى الحلفاء [731]

لقد أغضب الباب العالي التعاون الوثيق الذي نشأ بين ألمانيا وروسيا البلشفية. وعلى خلفية انتقاد الصحافة التركية للتدخل الألماني في منطقة عبر القوقاز، أبلغ طلعت سلطات برلين إنه إذا استمرت ألمانيا في إعداد ترتيبات بينها وبين روسيا - «عدو الأمس وعدو الغد» - على حساب تركيا، فقد تجد الحكومة العثمانية نفسها مضطرة لأن تسلك طريقها الخاص في الحرب [732]. وقد توجه طلعت إلى برلين بتاريخ 7 أيلول (سبتمبر) 1918 ليحاج من أجل تنظيم ملايين الناطقين بالتركية في آسيا الوسطى للقيام بحملة عسكرية على بريطانيا - وعلى روسيا أيضًا [733].

وفي الوقت نفسه اقتربت بريطانيا أيضًا من خوض حرب على روسيا. لقد بقي مالميسون في آسيا الوسطى وألقت حكومة بيتروغراد اللوم على بريطانيا في ما يتعلق بإعدام مجموعة من القوميساريين البلشفيك من قبل حلفاء مالميسون المعادين للبلشفية. وعلى الجانب الآخر من بحر قزوين حدث انهيار مفاجئ في وضع دول أوروبا الوسطى أعقبته الهدنات التي تمت في خريف 1918 والتي سنتحدث عنها بعد حين في هذا الكتاب، مما دفع القوات البريطانية للعودة عبر باكو لكي تأخذ مكان القوات العثمانية والألمانية في جمهوريات عبر القوقاز المستقلة. وهكذا بدت الأراضي الجنوبية للإمبراطورية الروسية السابقة على كلا جانبي بحر قزوين، في أيدي جماعات معادية للبلشفية أو جماعات انفصالية تحت الحماية البريطانية.

لقد أبدى بريطاني شارك في المعركة الأولى بين القوة التي قادها مالميسون والجنود البلشفيك في آسيا الوسطى ملاحظة ذات أهمية. فقد كتب يقول: إن الجنود المعادين للبلشفيك والجنود البلشفيك كانوا يرتدون الأزياء العسكرية عينها، وقال: «كان يصعب حتى من مسافة قريبة التمييز بين الصديق والعدو»<sup>[734]</sup>. ومع حلول خريف 1918 كان كلامه هذا يصدق ليس فقط في آسيا الوسطى بل في كل أنحاء الشرق الأوسط.



# الفصل الثاني

## عند شواطئ طروادة

### (1)

في صيف 1918 أبلغ رئيس هيئة الأركان العامة لقوات الإمبراطورية البريطانية مجلس الوزراء الحربي الإمبراطوري في لندن أنه لا يمكن تحقيق النصر في أوروبا قبل منتصف عام 1919 والأرجح أنه لا يمكن تحقيق النصر إلا في صيف عام 1920. ولكن القادة العسكريين في الميدان كانوا أكثر تفاؤلاً بإمكانيات نصر مبكر، وبما أنهم كثيرًا ما أخطؤوا في الماضي فإن تنبؤاتهم المتفائلة قوبلت في لندن بكثير من الشك.

لقد تم إيقاف الهجمات القوية التي شنها لودندورف في فصل الربيع وأوائل الصيف والتي هددت باريس ذات مرة، وأخذ الألمان في التراجع. ولكن مع حلول شهر أيلول (سبتمبر) 1918 كان لودندورف قد أنشأ خطأ دفاعيًا قويًا، ولم يكن ثمة سبب للاعتقاد بأن الألمان لن يستطيعوا الصمود مدة طويلة. والحرب في الشرق أيضًا بدت وكأنها سوف تطول، إذ أن قوات أنور التي كانت تشق طريقها نحو بحر قزوين بدت جاهزة لمتابعة هجومها باتجاه فارس أو أفغانستان أو الهند.

بغته - وعلى غير توقع - حدث اختراق من قبل الحلفاء في بلغاريا حيث شنَّ الجنرال لويس - فليكس - فرانسوا فرنشي ديسبيري، القائد الفرنسي الجديد لقوات الحلفاء في منطقة سالونيك اليونانية التي كانت مهمة حتى ذلك الحين، هجومًا صاعقًا في نهاية فصل الصيف. وقد انهارت بلغاريا وطلبت الهدنة في 26 أيلول (سبتمبر) 1918. وكان يجب إرسال هذا الطلب إلى مجلس الحرب الأعلى للحلفاء في باريس، ولكن فرنشي ديسبيري لم يجرؤ أن يجازف بالتأخير، فقد وضع بنفسه شروط الهدنة وأنجز توقيعها في غضون أيام لكي يتفرغ فورًا لشن هجوم كاسح على الألمان والنمساويين عند الدانوب، منفذًا بنجاح الاستراتيجية «الشرقية» التي دعا إليها لويد جورج عبثًا منذ أن بدأت الحرب [735].

عندما علم لودندورف في 29 أيلول (سبتمبر) أنه تم توقيع اتفاقية هدنة مع بلغاريا في ذلك اليوم، أشار على حكومته بأن تطلب هي أيضًا الهدنة: إذ لم

يبقى لديه جنود للصمود في الجبهة الجنوبية الشرقية الجديدة - جبهة الدانوب التي فتحها فرنشي ديسبيرى.

لم يتوقع مجلس الوزراء البريطاني انهيار العدو بمثل هذه السرعة وبمثل هذه البغته، ولم يستعد لهذه الحالة ولم يصدق حدوثها. وشروط الهدنة بالنسبة لمختلف الدول المعادية لم توضع مسودة لها، بل إنها لم تكن موضع دراسة. وبعد مرور يوم على تسلم الجنرال فرنشي ديسبيرى طلب الهدنة من بلغاريا، استوضح رئيس هيئة الأركان العامة لقوات الإمبراطورية البريطانية «ماذا ستفعل وزارة الخارجية إذا ما حذت تركيا حذو بلغاريا»<sup>[736]</sup>. فأجاب وزير الخارجية بلفور - بمنتهى الصراحة - إنه لا يعرف.

ولكن كان لا بد من مواجهة المسألة فورًا، فالمسألة طرحت نفسها في غضون أيام. فخلال المدة بين الأول والسادس من تشرين الأول (أكتوبر) أرسلت حكومة الإمبراطورية العثمانية والعديد من القادة الأتراك البارزين من يستشعرون لهم إمكانية الصلح. وليلة 3 - 4 تشرين الأول (أكتوبر) أرسلت ألمانيا أيضًا مذكرة إلى الرئيس ويلسون وكانت هذه المذكرة بداية مفاوضات الهدنة التي استمرت أسابيع عديدة، في حين كان القتال مستمرًا والقوات الألمانية صامدة بنجاح في خطها الدفاعي الممتد عبر شرق فرنسا وعبر بلجيكا.

في الأول من تشرين الأول (أكتوبر) قرر مجلس الوزراء الحربي البريطاني أن يدعو إلى اجتماع لمجلس الحرب الأعلى للحلفاء لمعالجة مسألة شروط الصلح مع تركيا. بيد أن مجلس الوزراء الحربي قرر في الوقت عينه إرسال بارجتين بريطانيتين إلى بحر إيجه لتعزيز موقف بريطانيا ضد فرنسا في المياه القريبة من تركيا.

كان مجلس الوزراء البريطاني يخشى إلى حد الذعر إمكانية انتهاء الحرب قبل أن تتمكن القوات المسلحة البريطانية من احتلال مناطق الشرق الأوسط الحيوية التي تأمل بريطانيا في السيطرة عليها. وقد نبه إيميري كلا من سمطس ورئيس هيئة الأركان العامة الإمبراطورية إلى أن الاستيلاء الفعلي على الشرق الأوسط قبل دخول وقف إطلاق النار مرحلة التنفيذ، هو وحده الذي سيمكن مجلس الوزراء من إدخال المنطقة في فلك بريطانيا<sup>[737]</sup>. في ذلك الحين كانت جيوش الهند البريطانية في بلاد الرافدين لا تزال على مسافة أسابيع من الموصل ذات الأهمية الاستراتيجية والغنية بالنفط. وفي الثاني من تشرين الأول (أكتوبر) طلبت وزارة الحربية

إلى قائد هذه الجيوش «أن يحتل أكبر جزء ممكن من المناطق التي تحتوي النفط» [738].

في الثالث من تشرين الأول (أكتوبر) بحث مجلس الوزراء الحربي مطولاً مسألة الهدنة واتفاقية الصلح مع الإمبراطورية العثمانية، وقد أدلى رئيس الوزراء البريطاني، الذي كان يأمل في تخفيض حصة فرنسا وإيطاليا من مكاسب بريطانيا في آسيا العثمانية، بحجته القائلة أنه يعتقد بكل إنصاف أن حلفاء بريطانيا لا يستحقون ما وعدوا به أصلاً. وقد جاء في نسخة عن محضر الاجتماع:

«قال رئيس الوزراء إنه كان ينشّط ذاكرته بشأن اتفاقية سايكس - بيكو فاستنتج أنها لا تنطبق تمامًا على الظروف الراهنة وأنها من وجهة النظر البريطانية اتفاقية غير مرغوب فيها بالمرة وإلى أقصى حد. أما أنها عقدت قبل أكثر من سنتين فقد أغفلت إغفالاً كاملاً، حقيقة أننا كسبنا موقفنا في تركيا بفضل قوات بريطانية كبيرة جدًا في حين أن حلفاءنا كان إسهامهم في هذه النتيجة ضئيلاً» [739].

كان هذا تحليلًا منطقيًا، ولكن بلفور في رده على هذا التحليل وكأن رئيس الوزراء كان صادقًا في الدعوة إلى الإنصاف، نوه بفقدان العقلانية في تحليل رئيس الوزراء.

«قام بلفور بتذكير مجلس الوزراء الحربي قائلًا: إن الفكرة الأساسية كانت إن أية مناطق قد يستولي عليها الحلفاء يجب أن تكون من نصيبهم جميعًا وألا تعتبر ملكًا للدولة التي كسبتها. وكانت النظرية أن القتال في أحد مسارح الحرب، حيث لا يوجد إلا القليل للكسب، قد يكون مساهمة في قضية الحلفاء، لا تقل أهمية عن القتال الأسهل كثيرًا في مسارح أخرى للحرب حيث تحققت نجاحات كبيرة. وقال إنه يعتقد أن بيانًا ما بهذا المعنى قد صدر» [740].

وقد أيد بونارلو ما تذكره بلفور.

اتخذ لويد جورج أسلوبًا آخر في معالجة الموضوع، وأقام حجته على أنه يجب على بريطانيا وتركيا أن تتوصلا إلى اتفاقية صلح فورًا بدلًا من التوصل إلى هدنة فقط. (كان جليًا بعد أن احتلت الجيوش البريطانية معظم الإمبراطورية العثمانية أن معاهدة صلح يتم التفاوض عليها فورًا ستكون لمصلحة بريطانيا باعتبارها الدولة الوحيدة التي هي في وضع يسمح لها أن تنتزع تنازلات من الباب العالي).

كانت حجة لويد جورج أن من غير المحتمل أن تقبل الإمبراطورية العثمانية هدنة فقط من دون أن تعرف ما هي شروط الصلح التي ستفرض عليها في ما بعد. وقال إن ارتياب الباب العالي في المطامع الفرنسية والإيطالية سيجعله يرفض مثل هذا التدبير. ولذلك ستواصل تركيا القتال. وهذا أمر لا يطاق لأنه يعني أن على بريطانيا أن تواصل القتال هي أيضًا لمجرد تأمين طموحات فرنسية وإيطالية محض، وهذا ينبغي أن يكون أمرًا مرفوضًا. وقال رئيس الوزراء إنه سيطرح الأمر في ضوء ذلك على رئيسي الوزراء الفرنسي والإيطالي في باريس، وعبر عن ثقته بأنهما سيسمحان له بأن ينفذ ما عزم عليه.

على أية حال أعد مجلس الوزراء مسودة اتفاقية هدنة مقترحة أخذها رئيس الوزراء معه إلى باريس لبحثها مع رؤساء حكومات الدول الحليفة الآخرين في نهاية الأسبوع الأول من شهر تشرين الأول (أكتوبر). وفي باريس وافق الحلفاء على اقتراح هدنة قائمة بصورة رئيسة على أساس المسودة البريطانية واتفقوا على أن التفاوض على الهدنة يجب أن تقوم به باسم الحلفاء أية دولة تتصل بها تركيا في هذا الصدد. بيد أن رؤساء وزراء الدول الحليفة رفضوا بصورة قاطعة خطة لويد جورج لعقد معاهدة صلح فورية.

أحد المواضيع التي أثارت جدلاً متزايداً بين قادة الدول الحليفة هو مسألة من سيمارس القيادة العسكرية العليا في مسارح الحرب المتعددة ضد الإمبراطورية العثمانية. وقد سعى الفرنسيون الذين كانوا يمارسون القيادة العليا للأسطول في البحر الأبيض المتوسط لكي يحلوا محل القائد البريطاني للقوة البحرية في بحر إيجه نائب الأميرال سومرست آرثر كالثروب، الذي ادعى أن الفرنسيين «هم بوجه عام عاجزون عن القيام بحملة بحرية مبرأة من العيوب»<sup>[741]</sup>. ولم يكن الموضوع عسكرياً فقط، فالبلد الذي يتولى القيادة سيكون الأقدر على جني غنائم النصر.

في قيادة فرنشي ديسيري، كان يقود الجناح الشرقي (المواجه لتركيا) جنرال بريطاني هو جورج فرانسيس ميلني. آنذاك عزم فرنشي ديسيري، الذي كان مأخوذاً بنشوة النصر في بلغاريا، على أن يحل القوة البريطانية التابعة لقيادته، وأن يعهد بالجناح الشرقي إلى قائد فرنسي وأن يستعد للزحف لاحقاً على القسطنطينية بقيادته شخصياً ليدخلها دخول الطافرين. ولكن لويد جورج أبطل هذا الدخول المظفر، ونجح في إقناع كليمنصو بإصدار أمر يقضي بإعادة تعيين الجنرال ميلني قائداً لجهة سالونيك التركية. وتمكن لويد جورج، بمساندة من المارشال فوش، من تغيير استراتيجية كليمنصو - فرنشي ديسيري القاضية بتركيز كل القوات البرية الموجودة في مسرح البلقان في الحملة الأوروبية. وبدلاً من ذلك سحبت بعض القوات

من ذلك المسرح ووضعت تحت قيادة الجنرال ميلني للزحف على القسطنطينية دعمًا لهجوم بحري حليف عبر الدردنيل.

وقد اقترح لويد جورج، في رسالة إلى كليمنصو بتاريخ 15 تشرين الأول (أكتوبر)، أن يقود دخول النصر إلى القسطنطينية بحرًا أميرال بريطاني. وفي 21 تشرين الأول (أكتوبر) أجابه كليمنصو رافضًا الموافقة، وقدم اقتراحًا معاكسًا يقضي بأن يكون قائدُ فرنسي على رأس أسطول الحلفاء الذي سيشق طريقه في المضائق إلى العاصمة العثمانية. وكانت حجة كليمنصو أن جنرالًا بريطانيًا قد تولى قيادة حملة سالونيك ضد تركيا، ولذلك فإنه أمر لا يطاق أن يتولى ضابط بريطاني قيادة الحملة البحرية أيضًا. وأشار إلى الاستثمار الفرنسي الهائل في الدين العام العثماني باعتباره مصلحة وطنية هامة تتطلب من فرنسا أن تقوم بدور طليعي في الأمور المتعلقة بتركيا.

## (2)

كان المقدم ستيوارت نيوكومب يعيش متخفياً في بيت يوناني في بير، وهي القسم السكني في مدينة القسطنطينية. كان هذا الضابط البريطاني قد قام بدور نشط في الثورة العربية ووقع أسيراً قبل عام عندما كان يقود هجوماً جريئاً لتحويل الأنظار خلال حملة النبي على القدس، وقد حاول ثلاث مرات الهرب من الأسر التركي فنجح في المرة الثالثة، ومنذ 22 أيلول (ديسمبر) 1918 عاش متخفياً في بير حيث ما لبث أن علم أن هنالك سياسيين عثمانيين يسعون لهدنة فورية. كان الرأي في العاصمة العثمانية يمر بمنعطف. فحتى منتصف أيلول (ديسمبر) كان أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في معظمهم لا يزالون يعتقدون بأن النصر مقبل. وقد تقبل الأعضاء المدنيون في مجلس الوزراء تحت عامل الضغط تأكيدات أنور أن كل الأمور تسير سيراً حسناً. وادعوا في ما بعد أنهم صدقوا وزير الحربية عندما قال لهم إن التقهقر الألماني الظاهر في فرنسا كان في الواقع خدعة رائعة: أي كان مناورة من هيئة الأركان العامة الألمانية لإيقاع جيوش الحلفاء غير المنتبهة في الفخ والقضاء عليها. ومضى أنور إلى حد مطالبة أعضاء مجلس الوزراء بعدم الإفشاء بلعبة برلين وأن يقولوا في العلن - وكأنهم يصدقون ذلك - إن الألمان قد هزموا وإنهم يتقهقرون [742].

كان طلعت، الصدر الأعظم، أحسن اطلاعاً وكان يعلم أن الألمان يعانون فعلاً من الهزائم، ولذلك طالب بأن تسعى ألمانيا وتركيا إلى صلح توافقي. ولكن هو أيضاً اعتقد أن هذا المسعى لا يتطلب السرعة، لأن أنور ضلله كما ضل غيره وجعله يتخيل أن الوضع العسكري مريح في ذلك الوقت وأن هناك بعض الأسس الجديدة للأمل [743].

سافر طلعت في شهر أيلول (سبتمبر) إلى برلين وصوفيا واطلع على بعض جوانب حقيقة الموقف من حلفائه هناك: وفي طريق عودته شاهد انهيار الجيش البلغاري وأبلغ رسمياً أن بلغاريا تسعى لصلح منفرد. كانت بلغاريا حلقة الوصل البري مع ألمانيا، وخروجها من الحرب - في رأي طلعت يعني حتمية هزيمة تركيا. وقد عاد مصمماً على السعي لاتفاقية صلح. وسارعت حكومته، بالاتفاق مع الألمان، إلى استكشاف رأي الحكومة الأميركية في إمكانية الاستسلام للولايات المتحدة على أساس النقاط الأربع عشرة التي أعلنتها وودرو ويلسون. وبما أن واشنطن لم تكن في حالة حرب مع الباب العالي، فقد استوضحت من بريطانيا كيف يجب أن يكون ردها، ولكنها لم تتلقَ ردّاً من لندن. ومهما يكن السبب فإن الرد البريطاني لم يصل إلى واشنطن إطلاقاً، وهكذا لم تتمكن واشنطن من إرسال رد إلى الباب العالي.

وكان هذا يعني في الواقع أن الانتفاع بالنقاط الأربع عشرة لم يتوفر للإمبراطورية العثمانية، إذ لا تستطيع أية دولة أن تتوقع شروط صلح أميركية إلا إذا استسلمت للولايات المتحدة الأميركية.

عند هذه النقطة ساعد نيوكومب من مخبئه في معالجة الأمور. كان أنور مصممًا على الاستمرار في الحرب إذ إنه شعر أن تركيا بمواصلة الحرب تستطيع أن تحصل على شروط أفضل، وأشار إلى النجاحات التركية في القوقاز ومنطقة بحر قزوين باعتبارها برهانًا على أنه قادر على إحراز انتصارات في الشرق رغم بريطانيا على قبول شروط صلح ملائمة في عام 1919. كانت هذه هي الحجج التي طعن بها نيوكومب. فقد أعد ملاحظات وجهها إلى حزب تركيا الفتاة حاول فيها أن يثبت أن العكس هو الصحيح، أي أن بريطانيا ستمنح في عام 1918 شروطًا أفضل مما تمنحه في عام 1919. وقد وزعت ملاحظات نيوكومب بواسطة أصدقائه الأتراك في الباب العالي، وقال في ما بعد أنها أحدثت أثرًا عميقًا. وقال مخبروه إن ملاحظاته أحدثت انشقاقًا في قيادة جمعية الاتحاد والترقي [744].

وواقع الأمر أن سبب الانشقاق كان إدراك مجلس الوزراء التركي - نتيجة انهيار تركيا وقرار ألمانيا بأن تسعى وراء الصلح - أن أنور كان يخدع المجلس. فلم يكن حلفاء تركيا (كما ادعى أنور) يربحون الحرب. بل كانوا يواجهون التدمير - وسيتركون الإمبراطورية العثمانية معزولة، ومقطوعة عن إمداداتها من الوقود والذخائر والمال والنجدة المحتملة، لتواجه وحدها الدول الحليفة المنتصرة. وقد دوّن وزير المالية التركي في مفكرته في مطلع تشرين الأول (أكتوبر): «إن خطيئة أنور باشا الكبرى هي أنه لم يطلع أصدقاءه على حقيقة الموقف. فلو قال قبل خمسة أو ستة شهور أننا في مثل هذا الموقف الصعب، لكان من الطبيعي أن نعقد صلحًا منفصلًا ملائمًا لنا في ذلك الوقت. ولكنه أخفى كل شيء وغش نفسه وأوصل البلاد إلى هذه الحالة» [745].

صباح الأول من تشرين الأول (أكتوبر)، وبعيد معرفة طلعت أن ألمانيا على وشك أن تطلب الصلح، دعا أعضاء مجلس وزرائه إلى اجتماع ليلغهم أن عليهم أن يستقيلوا. وقال لهم إن الإمبراطورية العثمانية مجبرة على السعي فورًا لعقد هدنة. وقال لهم أيضًا أن الحلفاء سيفرضون شروطًا أقسى إذا ظنوا أنه هو وزملاءه من جمعية الاتحاد والترقي ما زالوا يمسكون بزمام الأمور [746]. ولكن أنور وجمال خالفاه الرأي بحجة أن مجلس الوزراء يستطيع أن يضمن شروطًا أفضل إذا ثبت في مكانه وصمد أمام العدو، ولكنهما كانا أقلية. وكانت الغلبة لرأي طلعت الذي أبلغ السلطان أنه وأعضاء مجلس الوزراء عازمون على الاستقالة.

بصعوبة كبيرة تمكن السلطان الجديد، محمد الخامس الذي اعتلى العرش قبل بضعة شهور عند وفاة شقيقه، من إيجاد رئيس الوزراء ومجلس للوزراء. وكان السلطان يفضل وزارة محايدة، أو ربما وزارة أعضاؤها من صفوف المعارضة السياسية، ولكن طلعت وحزب تركيا الفتاة ظلاً مسيطرين على البرلمان والشرطة والجيش، وقد طلبا تمثيلهما في مجلس الوزراء ليراقبا النظام الجديد. انقضى أسبوع قبل إيجاد رجل دولة يقبل به السلطان ومستعد للموافقة على شروط طلعت. وفي آخر الأمر قام المشير أحمد عزت باشا ذو المكانة المرموقة - وكان الاعتقاد أنه مقبول من الحلفاء - بتشكيل وزارة جديدة ضمت أعضاء عديدين من جمعية الاتحاد والترقي. وفي الثالث عشر من تشرين الأول (أكتوبر) قدم طلعت ووزرائه استقالاتهم رسمياً. وفي اليوم التالي توجه عزت باشا في سيارته وسط الجموع المكتظة والتي خيم عليها الصمت إلى الباب العالي ليتسلم منصبه.

كان الوضع العثماني أسوأ مما قدرت الدول الحليفة. ذلك أن سقوط بلغاريا قطع الطريق البرية إلى النمسا وألمانيا وقطع أيضاً الأمل والإمدادات. أما داخل تركيا نفسها فكان نصف مليون من الجنود الفارين من الجيش العثماني يجوبون البلاد وينشرون الفوضى. وقد شعر رئيس الوزراء الجديد أنه لم يعد بالإمكان الاستمرار في الحرب، ومع أنه كشف موقفه فإن ذلك لم يضعفه. وبعد مرور يومين على توليه منصبه حاول عزت باشا أن يرسل الكولونيل نيكومب إلى اليونان - أقرب مقر قيادة لجيش الحلفاء - لكي يحاول وضع نهاية للحرب. فلم يستطع إيجاد طائرة تنقله إلى اليونان.

ولذلك أرسل الباب العالي مبعوثاً عن طريق البحر، وهذا المبعوث هو أسير حرب بريطاني آخر، أي الجنرال تشارلز تاونسهند. وكان تاونسهند قد استسلم للجيش العثماني في كوت العمارة، في بلاد الرافدين، في ربيع عام 1916، وعاش منذ ذلك الحين في الإقامة الجبرية في جزيرة قرب القسطنطينية. وقد أكرمه القادة العثمانيون ورتبوا له جولات فكان يتحرك بحرية نسبية ضمن المجتمع السياسي في العاصمة. وقد علم في خريف 1918 بتنامي الرغبة في الصلح، فقرر، مثل نيكومب، أن يدفع الأحداث إلى الأمام [747].

وعندما علم تاونسهند أن وزارة طلعت قد سقطت سعى لمقابلة مع رئيس الوزراء الجديد، وذهب في 17 تشرين الأول (أكتوبر) إلى الباب العالي حاملاً معه بعض السطور التي خطها مبيناً فيها نوع شروط الصلح التي قد تطلبها بريطانيا. وقد أوحى هذه السطور أن بريطانيا ستكون مستعدة لإبقاء الإمبراطورية العثمانية حائزة على سورية وبلاد الرافدين وربما أيضاً القوقاز



إذا ما سمح لهذه المناطق بأن تتمتع بحكم ذاتي محلي ضمن إمبراطورية يعاد تكوينها وتكون شبيهة باتحاد ولايات كونفيدرالي.

عرض تاونسهند أن يساعد تركيا في الحصول على شروط سخية وفق هذه السطور وأن يجري اتصالاً فورياً مع السلطات البريطانية، وقد أبلغه رئيس الوزراء أن إعلان الإمبراطورية العثمانية الحرب على بريطانيا كان جريمة، والذنب هو ذنب أنور، وقبل رئيس الوزراء عرض تاونسهند أن يساعد في تأمين شروط صلح مشرّفة، ولكنه لم يدخل إلى روع تاونسهند أنه سيقبل الشروط التي يمكن الحصول عليها مهما كان نوعها.

مساء ذلك اليوم اجتمع تاونسهند مع وزير البحرية، الذي كان أفضل أصدقائه في الوزارة الجديدة، والذي طرح شروط الهدنة التي تقبل بها تركيا، فكانت شبيهة بتلك التي عرضها تاونسهند في مذكراته. عندئذ أعدت الترتيبات لإخراج تاونسهند من تركيا بحرّاً عبر ميناء أزمير وقد غادر أزمير في قارب جر تحت جنح الظلام.

وصل قارب الجر الذي نقل تاونسهند إلى جزيرة ميتيلين اليونانية في ساعة مبكرة من صباح 20 تشرين الأول (أكتوبر)، فكان بانتظاره قارب بخاري تابع للأسطول البريطاني. وقد أرسل تاونسهند لاسلكياً من جزيرة ميتيلين تفاصيل الموقف التركي إلى وزارة الخارجية في لندن. وبناءً على طلبه نقله زورق سريع إلى حيث كان قائد الأسطول البريطاني في بحر إيجه، الأميرال كالثورب، الذي كان مقر قيادته في جزيرة ليمنس اليونانية.

أبلغ تاونسهند لندن أن رئيس وزراء تركيا الجديد مستعد لعقد صلح على أساس نوع الشروط السخية التي وضع هو مسودتها في القسطنطينية. وقد أعطى لندن الانطباع بأن تركيا ستواصل الحرب إذا لم تحصل على هذه الشروط السخية. وأهم من ذلك أنه أشار إلى أن الباب العالي يرغب في التعاون مع بريطانيا وليس مع الحلفاء الآخرين. (الحقيقة - التي لم يكن يعرفها تاونسهند - هي أن أول محاولة قام بها عزت كانت محاولة إجراء اتصال مع فرنسا، ولكن مبعوثه لم يتمكن من الوصول إلى مقر القيادة الفرنسية<sup>[748]</sup>). وظل البريطانيون يعتقدون على مدى عقود من السنين - شأنهم شأن معظم المؤرخين - أن تركيا أصرت على أن تستسلم لهم وليس لفرنسا).

أبرق كالثورب أيضاً بالنبا إلى لندن في 20 تشرين الأول (أكتوبر)، وقد أكد (وفقاً لرئيس وزراء بريطانيا) «أن الأتراك راغبون بصورة خاصة في التعامل معنا وليس مع الفرنسيين»<sup>[749]</sup>. وفي الوقت عينه حمل كالثورب على الخطة الفرنسية الهادفة إلى تولي قيادة الأسطول الذي سيبحر إلى

القسطنطينية. وجاء في برقية كالثورب «أن تأثير إبحار أسطول بقيادة فرنسية إلى القسطنطينية سيكون مدعاة للأسى» [750]. ولم يكن بطبيعة الحال باستطاعة أي أسطول للحلفاء أن يدخل الدردنيل آمنًا إلا بتسليم قلاع الشاطئ إلى الحلفاء. وقد ذكر كالثورب أن تاونسهند قال إن الأتراك مستعدون لتقديم هذا التنازل ولكن لبريطانيا فقط وليس لجميع القوات الحليفة، بشرط أن توافق بريطانيا على حمايتهم من أي عمل قد تقدم عليه القوات الألمانية الباقية في الجوار، «يعتقد الجنرال تاونسهند أن الأتراك سيكونون مستعدين لإرسال مندوبين مطلقى الصلاحية لبحث الصلح مع ممثلي بريطانيا وسوف يسمحون للبريطانيين بأن يتسلموا قلاع الدردنيل إذا ما تأكدت لهم مساندة بريطانيا ضد الألمان الموجودين في تركيا والبحر الأسود» [751].

أدت البرقيات الواردة من تاونسهند وكالثورب إلى عقد أطول اجتماع لمجلس الوزراء البريطاني في زمن الحرب. كان مجلس الوزراء البريطاني لا يزال متخوفًا من أن تمتد الحرب ضد ألمانيا إلى عام 1919 أو عام 1920، فأراد تأمين المرور البحري للأسطول البريطاني عبر الدردنيل إلى البحر الأسود، حيث يستطيع الأسطول أن يصل إلى ساحل رومانيا ليقوم بدور هام في المراحل النهائية للحرب في أوروبا. وقد وافق مجلس الوزراء على التخلي، إذا اقتضى الأمر، عن بقية الشروط الأربعة والعشرين للهدنة المقترحة من قبل الحلفاء إذا أوقف الأتراك الأعمال الحربية، وسلموا قلاع الدردنيل وفعلوا كل شيء ممكن لضمان سلامة مرور الأسطول عبر المضائق إلى البحر الأسود.

فوض مجلس الوزراء كالثورب أن يفاوض بشأن هدنة بدلاً من اتفاقية صلح، لأن اتفاقية الصلح تستدعي مشاورات مع الحلفاء وتسبب تأخيرًا [752]. وأبلغه مجلس الوزراء ألا يقبل ما هو أقل من تسليم قلاع الدردنيل وحرية المرور في المضائق، وكانت تعليمات مجلس الوزراء إليه أن يطالب ببقية الشروط الأربعة والعشرين وأن يؤمن قبول أكبر عدد ممكن منها، على أن يتساهل إذا لم يوافق عليها الأتراك.

احتج وزير الخارجية الفرنسي لأنه لم يؤخذ رأي فرنسا قبل تفويض كالثورب من قبل مجلس الوزراء البريطاني بالتفاوض والانحراف عن شروط الهدنة التي كان الحلفاء قد اتفقوا عليها. كان كليمنصو حانقًا. ولم يكن سبب ذلك أن رئيس وزراء فرنسا بدّل آراءه وصار يضمن أهدافًا في الشرق الأوسط. كل ما في الأمر أنه لم يقبل أن تعامل فرنسا وكأنها مرؤوسة أو بلد مهزوم [753]. وسارع مجلس الوزراء البريطاني إلى إرسال اللورد ميلنر

إلى باريس لشرح الأمور لكليمنصو، وبدأ وقتها أن الفرنسيين هدأت  
خوابهم.

ظهر سبب جديد للخلاف عندما علم الفرنسيون بالتفسير البريطاني  
للاتفاقية التي توصل إليها الحلفاء بشأن من يجب أن يجري مفاوضات  
الهدنة. فقد نصت الاتفاقية على أن يتولى إجراء المفاوضات أول عضو في  
التحالف تتصل به تركيا لعقد هدنة. وبما أن الأتراك اتصلوا ببريطانيا بواسطة  
تاونسهند، فقد كان تفسير بريطانيا أنه يعود لها وحدها إجراء المفاوضات.

أرسلت الحكومة البريطانية تعليمات إلى الأميرال كالثورب، باستبعاد  
الفرنسيين من المفاوضات إذا ما حاولوا الاشتراك فيها. ولعل البريطانيين  
كانوا يخشون أن يصر الفرنسيون، إذا سمح لهم بالاشتراك في المفاوضات،  
على تقديم مطالب إلى تركيا من شأنها أن تؤخر أو تحول دون عقد  
الهدنة [754]. أو ربما كانت تلك (كما اعتقد كثيرون في فرنسا) خطوة أولى  
مكشوفة في الحملة البريطانية لحرمان فرنسا من الوضع الذي وعدت بأن  
تناله في الشرق الأوسط بعد الحرب.

### (3)

افتتح مؤتمر الهدنة عند الساعة التاسعة والنصف صباحًا الأحد 27 تشرين الأول (أكتوبر) 1918، على متن السفينة الحربية (أغاميمنون)، وهي بارجة بريطانية كانت راسية قبالة مرفأ مودروس في جزيرة ليمنوس اليونانية. كان على رأس الوفد العثماني الصغير صديق تاونسهند، رؤوف بك وزير البحرية الجديد. أما الوفد البريطاني فكان برئاسة الأميرال كالثورب.

أطلع كالثورب الوفد العثماني على رسالة كان قد تلقاها من نائب الأميرال جان آميه، كبير ضباط الأسطول الفرنسي في المنطقة، يبدي فيها رغبة حكومته بأن يشارك هو في المفاوضات. واقترح أن يحضر الاجتماعات على البارجة أغاميمنون بصفته ممثلًا لنائب الأميرال دومينيك غوشيه، القائد العام لقوات الحلفاء البحرية في البحر الأبيض المتوسط، وبذلك يكون رئيسًا للأميرال كالثورب. أما أعضاء الوفد العثماني، فقد ذكروا أن أوراق اعتمادهم تفوضهم أن يكونوا معتمدين لدى البريطانيين فقط، وليس لدى الفرنسيين. فأجاب كالثورب بأن اشتراك الفرنسيين ليس مرغوبًا فيه بأية حال من الأحوال. ورفض أن يوجه دعوة إلى الأميرال آميه للصعود إلى البارجة أغاميمنون.

جرت المفاوضات في قمرة القبطان على سطح البارجة. وشرع كالثورب، بما بدا أنه روح الصراحة، يتلو بصوت عال الشروط المقترحة للهدنة ويبحثها شرطًا شرطًا. وبما أن المندوبين العثمانيين لم يطلعوا سلفًا على الوثيقة بكاملها، فإنهم لم يستوعبوا على الفور الأثر التراكمي لبنودها الأربعة والعشرين، علاوة على ذلك طمأنهم كالثورب إلى أن بريطانيا لا تقصد إلحاق أي أذى، ولا تنوي سوى أن تمد يد المساعدة وشرح ما قال إنها غاية الحلفاء من صياغة مختلف البنود، وجاء شرحه لها موحياً أن الغاية هي تهيئة علاجات لأوضاع طارئة تحدث في زمن بعيد، إلى حد أنه ليس محتملاً قط اللجوء إلى تطبيقها. وفي الوقت عينه تمكن من الإيحاء بأن موقف الحلفاء لا ينطوي على كثير من العطاء؛ فإذا كانت رغبة الأتراك في هدنة، فعليهم أن يقبلوا المسودة التي تقدم بها الحلفاء إلى حد ما بكاملها.

وإذا رأى رؤوف بك، رئيس الوفد العثماني أن ليس أمامه بديل، وقّع مساء 30 تشرين الأول (أكتوبر) على اتفاقية هدنة تختلف اختلافاً بسيطاً عن مسودة الحلفاء الأصلية. وقد نصت الاتفاقية على توقف الأعمال الحربية بدءاً من ظهر اليوم التالي. كانت الهدنة في واقع الأمر استسلاماً يسمح للحلفاء باحتلال مواقع استراتيجية في الإمبراطورية العثمانية إذا ما تعرض أمنهم للخطر: عملياً كانت للحلفاء حرية احتلال أية منطقة يريدون احتلالها.

ولدى عودة رؤوف بك وأعضاء وفده إلى القسطنطينية، ادعوا أن الهدنة لا تشكل استسلامًا وصوروا شروطها وكأنها أرحم مما هي فعلاً<sup>[755]</sup>، وبذلك بذروا بذور الخيبة وبذور السخط. وبينما كانت مفاوضات الهدنة جارية، دعا طلعت إلى اجتماع عقده مع الزملاء السياسيين الموثوقين في دارة أنور، من أجل تأسيس منظمة سرية هدفها حماية قادة حزب تركيا الفتاة الذين سيقون في البلاد، من أية أعمال انتقامية محتملة من جانب الحلفاء، إذا حدثت أعمال كهذه، ولوضع الأساس للمقاومة المسلحة لشروط الحلفاء إذا اقتضى الأمر ذلك. وقد تم تنظيم خلايا سرية في القسطنطينية ثم في سائر أنحاء الولايات.

لقد أعد أنور وطلعت وجمال ترتيبات هروبهم (وقد علم بها رئيس الوزراء)<sup>[756]</sup>، وفي الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) هرب حكام استانبول السابقون مع حلفائهم الألمان. وفي اليوم التالي، الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر)، عمّد رئيس الوزراء إلى اتخاذ إجراءات مطالبة الألمان بإعادة الفارين، ولكن ألمانيا كانت تنهار وهكذا توارى الفارّون.

## (4)

استشاط كليمنصو رئيس الوزراء الفرنسي غضبًا لأن بريطانيا انفردت في اتخاذ قرارات في مودروس، واحتج على ذلك احتجاجًا شديدًا خلال جلسة عقدها مجلس الحرب الأعلى للحلفاء في وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ 30 تشرين الأول (أكتوبر). ولكن لويد جورج، حسب رواية المراقبين، رد بكلام أشد مما سمع. وقد قال الكولونيل هاوس، مبعوث وودرو ويلسون، أن رئيسي الوزراء «كانا يتقاذفان الكلام مثل أنثي سمك، على الأقل لويد جورج فعل ذلك» [757].

قال لويد جورج مخاطبًا كليمنصو والآخرين:

«فيما عدا بريطانيا لم يسهم أحد في حملة فلسطين بأكثر من حفنة من الجنود السود... وبريطانيا لها الآن على الأرض التركية نحو 500,000 رجل. وبريطانيا أسرت ثلاثة أو أربعة جيوش تركية ومُنيت بمئات الآلاف من الإصابات في الحرب مع تركيا. أما الحكومات الأخرى فإن كل ما فعلته هو إرسال بضعة رجال شرطة سود ليتأكدوا من أننا لم نسرق القبر المقدس ولكن عندما آن أوان توقيع هدنة، قام كل هذا الصخب» [758].

وأشار بلفور إلى أن فرنشي ديسيري فاوض بشأن الهدنة البلغارية من دون استشارة بريطانيا، وأن كالثورب ليس أقل حقًا في أن يفاوض بشأن الهدنة التركية من دون استشارة فرنسا. وبعد أن تشاور كليمنصو مع وزير خارجيته وافق في نهاية الأمر على أنه لم يعد هناك ما يمكن عمله بشأن هدنة مودروس ما دامت قد وقعت وانتهى الأمر، ولذلك يعتبر المسألة مقفلة.

بتاريخ 12 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918، أي بعد نحو أسبوعين من توقيع الهدنة التركية وبعد الهدنة على الجبهة الغربية بيوم واحد، دخلت مجموعة من السفن الحربية بقيادة الأميرال كالثورب مضائق الدردنيل، مارة على مقربة من موقع آثار طروادة القديمة [759]، وشقت طريقها بمظاهر الظفر إلى القسطنطينية رافعة العلم البريطاني.

## (5)

أحد الأسباب التي جعلت رئيس الوزراء البريطاني يتعجل الأمور في المسألة التركية، أنه رغب في تسوية الأمور قبل أن تتدخل الولايات المتحدة. وقد كتب موريس هانكي سكرتير مجلس الوزراء الحربي في مفكرته بتاريخ 6 تشرين الأول (أكتوبر) كلامًا صريحًا صراحة غير عادية قاله رئيس الوزراء مبيّنًا ما هو عازم أن يفعل:

«اتخذ لويد جورج موقفًا متعنتًا جدًا وأرادنا أن نتراجع عن اتفاقية سايكس - بيكو بحيث نحصل على فلسطين وندخل الموصل في المنطقة البريطانية بل ونستبعد الفرنسيين من سورية. وقام أيضًا بحركة مأكرة لمطالبة أميركا بأن تأخذ فلسطين وسورية وهدفه من ذلك أن يجعل الفرنسيين أكثر حرصًا على إعطائنا فلسطين لكي يكون لهم عذر للاحتفاظ بسورية. وكان أيضًا شديد الاحتقار للرئيس ويلسون وحريصًا على ترتيب اقتسام تركيا بين فرنسا وإيطاليا وبريطانيا العظمى قبل أن يتحدث إلى أميركا، وكان رأيه كذلك أن ابتلاعنا لحصتنا من تركيا الآن وابتلاع المستعمرات الألمانية في وقت لاحق يقلل من لفت الانتباه إلى مكاسبنا الهائلة في الحرب» [760].

أما بلفور فكان له رأي مختلف جدًا. فعندما اقترح الفرنسيون القيام بما كان يفكر به لويد جورج - أي تسوية الأمور قبل وصول الأميركيين - رأى بلفور أن الاقتراح لا يقل كثيرًا عن الجنون. «محاولتهم المتعمدة لإقصاء الأميركيين عن أي نصيب مؤثر في التسوية العالمية، ليست في مصلحتنا ولا في مصلحة الفرنسيين أنفسهم... لا شك في أن الكولونيل هاوس حريص على العمل معنا بأوثق ما يستطيع وسيكون أمرًا مهلكًا أن نعطي الانطباع بأننا نسوي مسائل كبيرة أو لدينا أقل رغبة في تسويتها من وراء ظهره» [761]. كان بلفور يعتقد أن استقرار تسوية السلام تتطلب المشاركة الأميركية. وهو خلافًا لرئيس الوزراء لم يكن مخلصًا في عرض الانتداب على فلسطين على الولايات المتحدة فحسب، بل كان يعتقد أنه أمر حيوي إقناعها بقبول هذا الانتداب.

أما ليو ايميري، المسؤول في وزارة الحربية وفي أمانة سر مجلس الوزراء الحربي، والذي أصبح وثيق الصلة سياسيًا برئيس الوزراء، فقد كان يغلب عليه الخوف أكثر من الأمل في أن تقبل الولايات المتحدة هذا العرض إذا قدم لها. وقد كتب إلى الزعيم الصهيوني الدكتور حاييم وايزمان طالبًا إليه أن يعمل لمقاومة الوصاية الأميركية، ونجح في تأمين بيان صادر عن

وايزمان يقول فيه إنه متفق مع إيميري أن بريطانيا هي الخيار الأفضل كدولة انتداب[762].

بيد أن موريس هانكي بصفته سكرتير مجلس الوزراء الحربي ورئيس إيميري المباشر، كان محبذًا لوصاية أميركية باعتبارها وسيلة لكي تضمن بريطانيا الفائدة الاستراتيجية المتمثلة في إقصاء أي عدو محتمل عن فلسطين دون أن تتحمل بريطانيا عبء القيام بذلك بنفسها. وقد أبلغ لويد جورج أنه يرغب في أن تأخذ الولايات المتحدة فلسطين «بهدف خلق دولة حازمة لحماية مصر»[763]. كان هذا الاقتراح ينطوي ضمًا على فكرة كيتشنر القديمة أن فلسطين لا قيمة لها في حد ذاتها. وبطبيعة الحال لم يوافق لويد جورج.



## (6)

في الأول من كانون الأول (ديسمبر) 1918 اجتمع كليمنصو ولويد جورج في مقر رئيس الوزراء البريطاني في لندن، كان ذلك بعد عقد الهدنات بشهر واحد وقبل افتتاح مؤتمر الصلح في باريس بشهرين. ولم يكن مقررًا أن يصل رئيس الولايات المتحدة إلى لندن قبل نهاية كانون الأول (ديسمبر) لكي يطرح رؤيته المثالية للمستقبل. ولذلك كان هناك وقت كافٍ للتوصل إلى اتفاقيات خاصة قبل ذلك الموعد. وقد اجتمع رئيسا الوزراء على انفراد ولم يدون أي منهما ملاحظات. ورواية ما حدث قدمت كتابة إلى مجلس الوزراء البريطاني بعد نحو ثمانية شهور من قبل بلفور،

الذي يعتقد أنه سمع الرواية من لويد جورج. وجاء تثبيت هذه الرواية لاحقًا في مذكرات لويد جورج التي تحدث فيها عن معاهدات الصلح.

وفي سياق حديث بدأ بالمسائل الأوروبية أثير موضوع الشرق الأوسط. فسأل كليمنصو ما هي التعديلات التي ترغب بريطانيا بإدخالها على المطالب الفرنسية. ورد لويد جورج: «الموصل»<sup>[764]</sup>. فقال كليمنصو: «هي لكم. هل من شيء آخر؟»، فأجاب لويد جورج: «فلسطين». ومرة أخرى قال كليمنصو: ستحصلون عليها»<sup>[765]</sup>. أن كليمنصو الرجل الذي يحترم كلمته قد حافظ على وعده طوال الملاسنات المريعة في مؤتمرات الصلح، بالرغم من أنه لم يكن هناك تثبيت خطي لتنازلاته، وحتى بالرغم من أن البريطانيين لم يرد في ذهنهم أنه يتوقع أن يتلقى تعويضًا عن هذه التنازلات<sup>[766]</sup>.

كانت سياسية كليمنصو طوال حياته السياسية المديدة أن يتنازل لبريطانيا في الشرق الأوسط لكي يضمن تأييدها في أوروبا ضد ألمانيا. وبدوا أن هذا هو ما اعتقد رئيس الوزراء الفرنسي أنه أنجزه في الأول من كانون الأول (ديسمبر)، والظاهر أن كليمنصو اعتقد - وتبين أنه كان مخطئًا في اعتقاده - إنه حصل على الأقل على موافقة ضمنية من لويد جورج بتأييد مطالب فرنسا في أوروبا مقابل موافقة كليمنصو الصحفية على مطالب بريطانيا في الشرق الأوسط.

ولكن رئيسي الوزراء لم يتوصلا في حقيقة الأمر إلى اتفاق بشأن الشرق الأوسط في الأول من كانون الأول (ديسمبر). فقد تبين خلال بضعة الشهور التالية أن لويد جورج لم يتقدم بكل طلباته الشرق أوسطية عندما طلب إليه كليمنصو أن يفعل ذلك في الأول من كانون الأول (ديسمبر)، إذ أنه إضافة

إلى المطالب التي ذكرها أراد أيضًا من فرنسا أن تتخلى عن مطالبتها بسورية.

لم يكن لويد جورج بذلك ينهج سياسة خارجية شخصية محض. ففي الثاني من كانون الأول (ديسمبر) - أي في اليوم التالي للقاء لويد جورج وكليمنصو - أبلغ اللورد كورزون «اللجنة الشرقية» لمجلس الوزراء أنه يعتقد بلزوم إقصاء فرنسا عن سورية. إن كورزون، الذي كان رئيسًا لهذه اللجنة - التي عهد إليها مجلس الوزراء بمهمة إعادة تحديد أهداف بريطانيا في الشرق الأوسط - تراجع عن منطق اللعبة الكبرى التي سبق له أن لعب فيها دورًا بارزًا. كان كورزون في ما مضى نائبًا للملك في الهند وقام برحلات على امتداد الحدود الروسية التي كانت تتوسع آنذاك، وقد اعتقد سابقًا، وعاد الآن للاعتقاد مرة أخرى، أن هدف بريطانيا الاستراتيجية هو منع أية دولة كبرى من قطع الطريق إلى الهند. ولم يكن هناك سبب للاعتقاد بأن فرنسا، شريكة بريطانيا الأوروبية، لديها أية نية لعرقلة طريق بريطانيا إلى الشرق، ولكن امتلاك فرنسا لسورية يجعلها في وضع القادر على فعل ذلك، ويجعل فرنسا في الحقيقة الدولة الكبرى الوحيدة القادرة على القيام بهذا التهديد.

وقد جاء في مذكرة لهيئة الأركان العامة البريطانية بتاريخ 9 كانون الأول (ديسمبر) 1918: «من الصعب أن يرى المرء كيف يمكن لأي ترتيب أن يكون أكثر قابلية للاعتراض عليه من وجهة النظر العسكرية، مما هي الحال اتفاقية سايكس بيكو لعام 1916، التي توضع بموجبها قوة أجنبية طموحة وذات أهداف على الخطوط الداخلية في ما يتعلق بوضعنا في الشرق الأوسط» [767]. وقد كان هذا رأي كورزون أيضًا.

أبلغ اللورد كورزون اللجنة الشرقية:

«جانب كبير من حياتي العامة أمضيته بأمور ذات علاقة مع طموحات فرنسا السياسية في كل منطقة نائية حيث للفرنسيين تأثير فيها. لقد وجدنا أنفسنا، لأسباب السلامة الوطنية، في تحالف مع الفرنسيين، وأنا أمل أن يستمر هذا التحالف، ولكن طبيعتهم القومية تختلف عن طبيعتنا، ومصالحهم السياسية تتصادم مع مصالحنا في حالات كثيرة. وأنا أخشى جدًّا أن تكون فرنسا هي الدولة الكبرى التي ينبغي أن نخافها أكثر من غيرها في المستقبل» [768].

لقد كان كورزون ينظر نظرة خاصة إلى المنطقة التي يجب تبعًا لذلك إقصاء فرنسا عنها في آسيا. وكان رئيس هيئة الأركان العامة لقوات الإمبراطورية، السير هنري ويلسون، ينظر إلى الأمور نظرة مماثلة فكتب يقول: «من الضفة اليسرى لنهر الدون إلى الهند هذه منطقة مصالحنا حصرها بنا» [769]. أما بلفور فكان متشككًا. فقد لاحظ أن البوابات المؤدية إلى

الهند «أخذت تبعد أكثر فأكثر عن الهند، ولا أعرف إلى أي مدى تريد هيئة الأركان العامة أن تنقلها غربًا» [770].

ولم تكن لرئيس الوزراء البريطاني ذهنية إقامة سياساته على أساس مثل هذه النظرية الجغرافية - السياسية. كل ما يستطيع المرء قوله، هو أن لويد جورج كان ببساطة يحاول الاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من الأرض المستولى عليها. وفي المسألة السورية، يبدو أنه كان مجرد انتهازي منغمس في غش لا ضابط له.

## (7)

جاء التأييد لأهداف رئيس الوزراء البريطاني من أنصار كيتشنر في الشرق الأوسط، الذين كانوا يقولون منذ أكثر من عام أنه يجب أن تحصل بريطانيا على فلسطين، وذريعتهم في ذلك أن بريطانيا بحاجة إليها من أجل التوفيق بين العرب واليهود. وبعد مرور أشهر على توقيع هدنة مودروس، توسع الجنرال جيلبرت كلايتون في هذا المنحى. فقد ادعى في مذكرة يبدو أنها وصلت إلى مكتب رئيس الوزراء أنه اتضح له بعد شهور من الخبرة في احتلال أراض عثمانية سابقة أن الالتزامات التي تعهدت بها بريطانيا لفرنسا - ليس في فلسطين فقط بل في سورية أيضًا - أصبحت من الناحية العملية لا تتلاءم مع الالتزامات التي قدمت للقومية العربية وللصهيونية. فلا بد إذن من أن يستمر الاحتكاك وأن يخلق أخطارًا لبريطانيا. ولذلك يجب أن نختار. ومضى كلايتون في جدله قائلاً: إذا كان لا بد من إعطاء سورية إلى فرنسا، فيجب عندئذ على بريطانيا أن تتخلى عن اهتمامها بفلسطين لمصلحة الولايات المتحدة أو لمصلحة بلد آخر مستعد لأن يحمل العبء. ولكن البديل الأفضل هو أن تتولى بريطانيا الحكم في فلسطين وسورية وأن تأخذ في الاعتبار الأماني اليهودية والعربية وأن تكافئ فرنسا في مكان آخر، ربما بإعطائها القسطنطينية<sup>[771]</sup>.

في شتاء 1919 وزع مكتب رئيس الوزراء البريطاني على الصحافة البريطانية مذكرة سرية تتضمن خلفية، القصد منها إظهار أن قوات فيصل «ساعدت ماديًا» الجنرال اللنبي وأنها دخلت «المدن الداخلية» الأربع الكبرى في سورية (دمشق، حمص، حماه، حلب) قبل أن تدخلها قوات أخرى تابعة لقيادة الجنرال اللنبي» وأن قوات فيصل فعلت ذلك ليس كقوة غزو أجنبية جاءت من الحجاز بل كقوة من أهل البلاد. «إن الأغلبية العظمى من الجنود العرب الذين ساعدوا على هذا النحو في تحرير سورية كانوا مواطنين من أهل المنطقة»<sup>[772]</sup>. كان توجه المذكرة أن تظهر أن سورية الناطقة بالعربية قد نهضت وحررت نفسها وأن من المخالفة للمبادئ التي تنادي بها الديمقراطية الغربية محاولة إعادة فرض الحكم الأجنبي.

كان عدد الجيش العربي الذي قاده فيصل في حملتي فلسطين وسورية يقارب 3,500 رجل، ولكن لويد جورج حصل من فيصل على تصريح علني قال فيه إن العرب الذين خدموا أو تحالفوا معه أو مع والده في وقت أو آخر خلال الحرب بلغ عددهم نحو 100.000، واستخدم رئيس الوزراء البريطاني هذا الرقم في مجادلته الفرنسيين. كان لويد جورج يعرف أن الرقم مضخم تضخمًا جامحًا، (كتب في ما بعد «المثل يقول إن علم

الحساب الشرقي علم خيالي»، بل كان يعتقد أن الإسهام العربي في فتح فلسطين وسورية «يكاد لا يذكر» [773]. أما في موقفه ضد الفرنسيين فقد كانت حجة أنهم يضعونه في موقف صعب عندما يطلبون إليه أن يعمل ضد حليفه الكبير الآخر، فيصل. وكان يقول إن فيصل وجيشًا كبيرًا من السوريين حرروا بلدهم وهم يحكمونها الآن، تحت قيادة الجنرال اللنبي، ومن العسير أن يتوقع أحد من بريطانيا أن تسمح لفرنسا بالتحرك ضدهم. كان من الناحية العملية يقول أن بريطانيا في حل من التزامات تحالفها مع فرنسا بسبب التزامات تحالفها مع سورية.

في نهاية شتاء عام 1919 جاء اللنبي لتناول طعام الغداء مع لويد جورج وسكرتيرته، فرانسيس ستيفنسون، وقد دُوِّنت السكرتيرة في مفكرتها «أن لويد جورج كان يحثه على تزويد فرنسا بالحقائق عن سورية، أي أن الفرنسيين لن يطاقوا هناك. وفي اعتقادي أنه فعل ذلك في اجتماع لاحق بين رئيس الوزراء وكليمنصو وونستون. إن الفرنسيين عنيدون جدًا بشأن سورية ويحاولون أن يعلنوا أن الانكليز يريدونها لأنفسهم». ولاحظت أن تعقيب لويد جورج على ذلك هو: «أن فرنسا رابح ضعيف. إنها لا تحسن الاستفادة من انتصاراتها» [774].

قبل غداء اللنبي كتب اللورد ميلنر من باريس إلى رئيس الوزراء عن محادثاته مع كليمنصو. قال ميلنر في رسالته إنه أخبر رئيس الوزراء الفرنسي «بكل صراحة أننا مع عدم رضانا عن خطة سايكس - بيكو التي هو نفسه أقرَّ بالحاجة إلى تغييرها تغييرًا جذريًا، ليست لدينا رغبة في أن ننهي وجود فرنسا في سورية أو أن نحصل على سورية لأنفسنا... الصعوبة السورية ليست من صنع أيدينا، بل تعود إلى أن الفرنسيين لسوء الحظ لم يلقوا هوى في نفوس العرب، هذا يضعنا في موقف محرج..» لأن العرب بقيادة فيصل «أسهموا ماديًا في انتصارنا».

كان ميلنر يعرف أنه لم يكن صريحًا مع كليمنصو في كلامه عن دوافع بريطانيا ونياتها، إذ أنه أضاف «أجد أن كل سلطة حكومية أخرى، عسكرية كانت أو دبلوماسية، تعاكسني. إنني معارض كل المعارضة فكرة محاولة الاحتلال على فرنسا لإخراجها من سورية» [775].

بطبيعة الحال ادعى لويد جورج - مثلما ادعى ميلنر في حديثه مع كليمنصو - أنه لا يريد أن يأخذ سورية لبريطانيا، وأنه في الحقيقة سيرفض انتدابًا بريطانيًا عليها، وإنما هو يؤيد قضية فيصل العربية. ولكن القضية العربية كانت مجرد واجهة تتوقع بريطانيا أن تحكم من ورائها، إذ أن كليمنصو قال

للورد ميلنر - ولم ينكر ميلنر - أن فيصل يفعل ما يطلبه مستشاروه البريطانيون [776].

وقد لفت ميلنر انتباه لويد جورج إلى أن كليمنصو كان في مسألة الشرق الأوسط متفوقًا كثيرًا في ليبراليته على حكومته والجهاز البيروقراطي الذي يعاونه. وكان المعنى الضمني لملاحظات ميلنر. إنه إذا لم يحصل رئيس الوزراء الفرنسي على شروط مرضية، فقد يحل مكانه شخص يكون التعامل معه أقل سهولة.

في خريف عام 1919 نقل الفرد موند، الصناعي من شركة (أمبيرال كميكالز) الذي كان لويد جورج قد ضمه إلى حكومته بصفته مفوض الأشغال، عن البارون آدموند روتشيلد إنه ذكر له أن ممالة بريطانيا للعرب ضد الفرنسيين سوف تنفر الرأي العام الفرنسي. وأكد موند «الأهمية الكبيرة للمحافظة على التحالف الانكليزي - الفرنسي في حالة سليمة» [777]. ولكن بدا أن رئيس الوزراء البريطاني تعامى عن الخطر الذي قد يلقي بهذا التحالف إلى التهلكة.

وحتى سير مارك سايكس، الذي أمضى سنوات في العمل كي يبين أن ثمة متسعًا للجميع للحصول على حصة عادلة في مستقبل الشرق الأوسط، عاد من سورية بإطار تفكير متغير (إذا كان لنا أن نصدق ملاحظات لويد جورج الشخصية التي أبداها بعد ذلك بوقت قصير - ولعلها يجب ألا تصدق). فقد قال رئيس الوزراء إن سايكس: «كان رجلًا قلقًا جزعًا... كان مسؤولًا عن الاتفاقية التي سببت لنا كل هذه المتاعب مع الفرنسيين. نحن نسميها (اتفاقية سايكس - بيكو) أن سايكس تفاوض بشأنها مع بيكو الفرنسي الذي تفوق عليه. لقد رأى سايكس الصعوبات التي ورطنا بها فكان بالنتيجة شديد القلق. قلت له شيئًا عن الاتفاقية وفي الحال رأيت كيف אני أذيته. أنا أسف. بودي لو أنني لم أقل شيئًا. إنني ألوم نفسي. لقد بذل قصارى جهده. لم أكن راغبًا في التشديد على غلطته أو أن أزيده تعاسة» [778].

وعلى غرار ذلك استنتج توماس ادوارد لورنس أن سايكس يود الآن «أن يكفر» عن استعداده سابقًا لاقتسام الشرق الأوسط مع حليفة بريطانيا [779].

«إذا كان الأمر كذلك، فقد فات الأوان. لقد مات سايكس في باريس بتاريخ 16 شباط (فبراير) 1919 في حجرته في فندق لوتي ضحية وباء الأنفلونزا الذي اكتسح العالم في عامي 1918 و1919» [780]، الذي عزت فرنسا بدايته إلى إسبانيا، وإسبانيا إلى فرنسا، والولايات المتحدة إلى أوروبا

الشرقية، وأوروبا الغربية إلى أميركا، وعزت جيوش النبي بداية الوباء إلى القوات التركية المتفهرة»[781].

# الجزء التاسع

## إنحسار التيار



# الفصل الاول

## دقات الساعة

النصر في الحرب العالمية الأولى أوصل الإمبراطورية البريطانية إلى ذروتها: فبعد أن أضيفت إليها المناطق التي احتلتها في الشرق الأوسط وبقاع أخرى، صارت أكبر مما كانت هي - أو أية إمبراطورية أخرى - في أي زمان سابق. ومع أن بريطانيا كانت قد تعبت من الحرب ومن المغامرات الباهظة الثمن في أماكن نائية، فقد سعى لويد جورج إلى التثبيت بأكثر قدر ممكن مما كسبته بريطانيا في الحرب. كان هذا هدفه الأكبر في المفاوضات التي كان على وشك أن يجريها مع الدول الحليفة والشريكة الأخرى. ولكن رئيس الوزراء اختار أن يطلب تفويضًا من الناخبين في بلاده قبل أن يتوجه إلى مؤتمر الصلح.

ليلة توقيع الهدنة مع ألمانيا، طلب رئيس الوزراء إلى اثنين فقط من السياسيين أن يتناولوا طعام العشاء معه ومع رئيس هيئة الأركان العامة لقوات الإمبراطورية سير هنري ويلسون، في مقر رئيس الوزراء، وكان السياسيان هما ونستون تشرشل والمدعي العام اللامع ف. سميث، وهو من خيرة أصدقاء تشرشل. وقد دوّن سير هنري ويلسون في مذكرته «بحثنا أشياء كثيرة ولكن بصورة رئيسة الانتخابات العامة!» [782].

إن رئيس الوزراء بنظرته الثاقبة إلى المنفعة السياسية، رأى فرصة للنجاح في الانتخابات إذا دعا إليها في أعقاب النصر مباشرة. وكان أمله، إذا ما حاز مجددًا أغلبية برلمانية مضمونة، أن يربح الوقت لتنفيذ برامجه. وقد سعى وراء التفويض الجديد من الناخبين عندما كانت شعبيته في أوجها. ففي نهاية عام 1918 كان لا يزال «الرجل الذي ربح الحرب». وقد كان زعيم حزب المحافظين يعبر عن رأي كثيرين عندما قال: «بوسعه أن يكون رئيسًا للوزراء مدى الحياة إذا شاء» [783].

أجريت الانتخابات العامة في 14 كانون الأول (ديسمبر) 1918، ولكن إحصاء أصوات الناخبين أرجىء حتى الثامن والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) بغية إتاحة الوقت لوصول أوراق اقتراع الجنود. وقاد الائتلاف الحكومي رئيس الوزراء الليبرالي لويد جورج وشريكه السياسي زعيم

المحافظين أندرو بونار لو. أما جناح الأحرار الذي تزعمه اسكويث فقد خاض الانتخابات منافسًا، وانسحب حزب العمال من الائتلاف ليكون منافسًا.

حقق الائتلاف نصرًا ساحقًا، حتى إن لويد جورج نفسه ذهل بحجم هذا النصر. فقد كان نحو خمسة وثمانين بالمئة من الذين حصلوا على مقاعد في مجلس العموم الجديد من أنصاره. أما الأحرار من جناح اسكويث فقد هزمهم مرشحو الائتلاف وفقد اسكويث نفسه مقعده في مجلس العموم، وهذا ما حدث أيضًا لزعماء بارزين لحزب الأحرار الذي كان قبل الحرب. وقد تفوق مرشحو حزب العمال على أحرار اسكويث، ولأول مرة استطاع حزب العمال أن يدعي أنه يمثل المعارضة الرسمية.

لقد تبدلت طبيعة كتلة الناخبين تبدلًا جذريًا نتيجة للتشريع الذي صدر في زمن الحرب وأعطى لأول مرة المرأة حق الانتخاب (من سن الثلاثين) وجميع الرجال (من سن الواحدة والعشرين). كان عدد الذين يحق لهم الانتخاب في عام 1918 واحدًا وعشرين مليون إنسان، مقابل سبعة ملايين ونصف مليون شخص فقط قبل الحرب. وكانت لدى كل من الطبقة العاملة الجديدة والناخبات من النساء أفكار مختلفة اختلافًا جذريًا بشأن مسائل مثل دفع أكلاف التوسع الإمبراطوري في الخارج.

كانت الناحية التي تنطوي على احتمال إزعاج لرئيس الوزراء لويد جورج في انتصاره المذهل، هي أن معظم المكاسب الانتخابية كانت من نصيب حزب المحافظين بزعماء بونار لو بدلًا من أن تكون من نصيب حزبه، حزب الأحرار. فقد سيطر المحافظون على أغلبية في مجلس العموم الجديد. وكثيرون من المحافظين كانوا جدًّا انشغولوا أعضاء في مجلس العموم للمرة الأولى، ومن هؤلاء كان عدد كبير من رجال الأعمال الذين مالوا إلى الجناح اليميني في حزبهم. ولم يكن جدول أعمالهم السياسي هو جدول أعمال رئيس الوزراء عينه.

بيد أن رئيس الوزراء حصل في ذلك الحين على تأييد كامل من بونار لو، ولذلك شعر أنه آمن سياسيًا. وقد أوجد لويد جورج شراكة عمل وثيقة مع زعيم حزب المحافظين وكانت هذه الشراكة مناسبة لكليهما. فقد كان بونار لو المتواضع الخجول يشعر بالسعادة إذ أتاح لرئيس الوزراء المفعم نشاطًا والبهي الطلعة أن يتولى القيادة وأن يكون في بؤرة الضوء. وقال بونار لو لأحد مساعديه، مشيرًا في كلامه إلى شاغل البناء رقم 10 شارع داووينغ «يجب ألا نسمح قط لهذا الرجل النحيل أن يغادر. فطريقه وطريقنا متلازمان في المستقبل» [784].

## (2)

طلب لويد جورج إلى ونستون تشرشل، السياسي الذي بلغ الخامسة والأربعين من عمره والذي كان يحاول أن يحيي ماضيه، أن يتولى منصب وزير الدولة لشؤون الحرب والطيران في وزارة ما بعد الحرب. قدم رئيس الوزراء عرض الوزارتين، («بطبيعة الحال سيكون هناك راتب واحد فقط»)، بتاريخ 9 كانون الثاني (يناير) 1919 [785]. وقبل تشرشل العرض في اليوم التالي. وعندما كان تشرشل وزيرًا للذخائر لم يكن عضوًا في مجلس الوزراء الحربي، ولذلك فإن توليه وزارة الحربية كان مؤشر عودته إلى الأوساط الداخلية للحكومة. وكما كان متوقعًا، فقد أثار تعيينه معارضة عنيفة.

وقد علقت إحدى صحف المحافظين قائلة: «لقد تابعنا مسيرته الرائعة والخاطئة وكنا على ثقة في توقعنا أنه سيفسد إن عاجلاً أو آجلاً كل عمل يتولاه. مصيره مرتبط بطباعه: ثمة مثلث مأساوي في السيد تشرشل يضعه كل مرة على الدرب الخطأ... هذا تعيين يجعلنا نرتجف بالنسبة للمستقبل» [786].

تغلب تشرشل على السمعة التي لصقت به - سواء أكان يستحقها أم لا - بأنه يبذر موارد البلاد، وانطلق ليظهر أنه يستطيع أن يكون مقتصدًا: فأخذ يقول إن السياسات الطموحة ينبغي تقليصها إذا لم تتوفر الموارد الداعمة لها. ولكن عندما ذكر أن بريطانيا قد تفتقر إلى المال والقوة البشرية لتنفيذ خطط لويد جورج الرامية إلى إحلال بريطانيا محل الإمبراطورية العثمانية في الشرق الأوسط، تجاهله رئيس الوزراء عامدًا.

لقد ادعى رئيس الوزراء أن لبريطانيا الحق بأن تقوم بدور السيادة في الشرق الأوسط، مستذكرًا أن مليونين ونصف مليون جندي بريطاني أرسلوا إلى المنطقة في وقت أو آخر، وأن ربع مليون جندي قتلوا أو جرحوا، في حين أن الفرنسيين، فيما عدا معركة غاليبولي، لم يمنوا عمليًا بأية إصابات في الشرق الأوسط، وإن الأميركيين لم يكونوا إطلاقًا في المنطقة [787]. ودافع لويد جورج عن موقفه في مؤتمر الصلح قائلاً إن ادعاءه يستند إلى وجود 1,048,000 جندي من بريطانيا

والامبراطورية يحتلون الامبراطورية العثمانية [788]، وأنه ليس في قوات الاحتلال وحدات غير بريطانية ذات حجم يذكر.

وحسب أقوال سكرتير مجلس الوزراء البريطاني «لم تغب عن بصر رئيس الوزراء إطلاقاً خلال الحرب، الفوائد التي يمكنه أن يأمل في جنيها عند انعقاد مؤتمر الصلح من جراء حيازة أراضي أعدائنا»<sup>[789]</sup>. وقد ذكر لويد جورج لأحد أصدقائه: «سيكون الفارق كبيراً بمجرد امتلاكنا الأرض عسكرياً»<sup>[790]</sup>.

الأمر الذي كان وينستون تشرشل لا يفتأ يكرره هو أن هذا الوضع - أي احتلال الشرق الأوسط من قبل مليون جندي بريطاني - هو وضع مؤقت، وأن الجنود يطالبون بإعادتهم إلى الوطن. وكانت هذه أول مشكلة واجهت تشرشل بصفته وزيراً للحربية، وكانت قناعته أن هذه المشكلة تفرض أولويات جديدة على الحكومة بكاملها.

بتاريخ 10 كانون الثاني (يناير) 1919، أول أيام تشرشل في منصبه كوزير دولة لشؤون الحرب، استشاره رئيس هيئة الأركان العامة لقوات الامبراطورية بصورة عاجلة بشأن أزمة في صفوف هذه القوات: لقد تظاهر الجنود مطالبين بتسريحهم فوراً. وقد عمّ الاضطراب وخشي تشرشل أن يؤدي هذا الاضطراب إلى انتفاضة بلشفية. فكتب في ما بعد قائلاً إن هذه المخاوف كانت صحيحة في وقتها «لأن أشياء كثيرة مخيفة كانت قد حدثت وشهدنا انهيارات رهبة لكيانات قائمة، كما شهدنا معاناة طويلة للأمم بحيث أن أية هزة، بل أي تشنج يزلزل أسس كل دولة»<sup>[791]</sup>. كان اعتقاد تشرشل أن الجنود يجب أن يعادوا إلى أوطانهم حالما تتمكن القطارات والسفن ناقلة الجنود من نقلهم.

بعد ذلك بأسبوعين حدث عصيان بين خمسة آلاف جندي بريطاني في ميناء كاليه طالبوا بتسريحهم، ولكن تشرشل كان سباقاً بإيجاد الحل إذ كان قد أعد خطة عادلة لتسريح الجنود، وقد نفذت الخطة بسرعة تحت إرشاداته طوال عام 1919.

ولكن تسريح الجيش كان يهدد بانتقاص فرص بريطانيا لفرض شروط الصلح. ففي 15 كانون الثاني (يناير) 1919 كتب الفيلد مارشال سير دوغلاس هيغ، القائد العام لقوة الحملة البريطانية في أوروبا، إلى تشرشل ليلبغه أن الجيش البريطاني الموجود «كان يختفي بسرعة» وأنه ما لم ينشأ جيش احتلال «فإن الألمان سيكونون في وضع للتفاوض على نوع آخر من الصلح»<sup>[792]</sup>.

كان هذا ينطبق أيضاً على الأتراك. وبعد مرور بضعة أيام قدم تشرشل مذكرة إلى رئيس الوزراء قال فيها: «ما لم نكن راغبين في أن نحرم من ثمار النصر وأن نرمي بكل ما كسبناه بكلفة ومشقة إنه كبيرتين فلا بد لنا

من أن يوفر خلال شهور عديدة مقبلة جيوشاً لاحتلال أرض العدو. ويجب أن تكون هذه الجيوش على قدر من القوة يكفي لانتزاع الشروط التي نطلبها من الألمان والأتراك وغيرهم» [793].

حاول تشرشل، من أجل إعطاء رئيس الوزراء الوقت اللازم لفرض شروطه للصالح، أن يحتفظ بجيوش احتلال مؤلفة من جنود مجندين حديثاً، على أساس أول قرعة سحب للمجندين في بريطانيا في زمن السلم. ولكن رئيس الوزراء الذي تنبه للحقائق السياسية الداخلية، أمر بتخفيض حجم الجيوش التي كان تشرشل ينوي إنشاءها. بعدئذ اضطر تشرشل إلى أن يعد بانتهاء التجنيد في موعد لا يتجاوز آذار (مارس) 1920. ومع أنه حذر مجلس العموم قائلاً:

«اياكم أن تحلوا جيشكم قبل أن تحصلوا على شروطكم» [794] فإن الاعتبارات السياسية فرضت سرعة تسريح الجنود إلى حد أن تشرشل اعترف في تشرين الأول (أكتوبر) 1919 بأن «الجيش قد تلاشى» [795]. مع ذلك لم تكن بريطانيا قد حققت شروطها في الشرق كما سنرى الآن. ففي عام 1914 كان تشرشل الأكثر ادراكاً من بين أعضاء مجلس الوزراء أن الجداول الزمنية للعبئة كانت تدفع الدول الكبرى إلى حرب عالمية. وفي عام 1919 كان هو الأكثر ادراكاً من بين أعضاء مجلس الوزراء أن الجداول الزمنية لتسريح الجنود ترغم الامبراطورية على التخلي عن الميدان قبل ضمان النصر.

ورأى تشرشل أيضاً أنه ينبغي للحكومة أن تقلص النفقات بسرعة لتتمكن بريطانيا من العيش في حدود إمكانياتها. وقد وعد تشرشل مجلس العموم قائلاً: «سأبذل قصارى جهدي لضمان إجراء تخفيضات كبيرة في القوات، إذ من دون هذه التخفيضات يستحيل أن تكون الأوضاع المالية في حالة جيدة» [796]. والحقيقة أنه خفض النفقات في السنين التالية إلى 17٪ فقط مما كانت عليه، أي من 604 ملايين جنيه في عام 1919 إلى 111 مليون جنيه في عام 1922 [797].

لقد ذكر أن هناك مشكلة أخرى لا بد من مواجهتها: فعند إعادة الجنود البريطانيين إلى وطنهم يبقى الشرق الأوسط في أيدي جنود هنود. كانت الهند البريطانية قد أرسلت خلال حرب عام 1914 أكثر من مليون جندي إلى ما وراء البحار، كثيرون منهم مسلمون [798]. وعند بداية عام 1920 نيه تشرشل مجلس الوزراء إلى العواقب السياسية المترتبة على كون هؤلاء الجنود، وهم في غالبيتهم مسلمون، يشكلون قوة الاحتلال التي تركت

في المنطقة وعُهد اليها بمهمة كريهة هي ممارسة الاكراه على أبناء دينهم المسلمين. وكتب تشرشل قائلاً: «ان كل وسائلنا المحدودة لتهدئة الأمور في الشرق الأوسط تعتمد على استخدام الجنود الهنود، ويجب ألا نفعل شيئاً من شأنه أن يثير المشاعر الهندية ضد استخدام هؤلاء الجنود أو يؤثر على ولائهم» [799]. وبما أنه كان على بريطانيا الآن أن تعتمد على جنودها المسلمين فلا بد من تعديل سياساتها في الشرق الأوسط بحيث لا تسيء الى الشعور الاسلامي. وكان رأيه - ولو أن هذا الرأي كان ضئيل التأثير على رئيس الوزراء - ان هذا يشير الى الحاجة لسياسة أكثر مودة تجاه الأتراك.

### (3)

عندما ألف ديفيد لويد جورج حكومته الائتلافية، بعد الحرب، كان مفعماً بالنشاط بالرغم من السنوات الشاقة التي أمضاها في قيادة بلاده في زمن الحرب، وكان تأليفها قبل بلوغه السادسة والخمسين من عمره بأسبوع واحد. والأمور الفورية التي كانت تشغله شخصياً تقع في مجال السياسة الخارجية. وقد أعد ترتيبات لتمضية الكثير من وقته خارج بلاده، لاعادة رسم الخريطة السياسية للعالم. ورغبة منه في التحرر من مشاغل السياسة الداخلية والتركيز على السياسة الخارجية، عهد بإدارة السياسة الداخلية ومجلس العموم الى بونار لو.

ولكن بونار لو أثبت أنه ليس كفوّاً لهذه المهمة. فقد أخفق في كسب الوقت لرئيس الوزراء ليتمكن من التركيز على اعادة بناء العالم من دون أن تزعجه أية مزعجات. وهذه المزعجات لم تقتصر على استئناف الحرب في ايرلندا، بل تعدته الى انتقال الخلافات الاجتماعية والاقتصادية ضمن بريطانيا من مراكز الاقتراع الى الشوارع والمصانع، فأرباب العمل والعمال حاولوا المحافظة على المكاسب التي جنىها في زمن الحرب بالرغم من تراجع الاقتصاد، فاتجه كلا الجانبين إلى الحرب الصناعية بعد مضي شهر واحد على الانتخابات، وتفجرت أعمال العنف، وعند ذلك طلبت الحكومة مشورة قادة الجيش والأسطول في الاجراءات التي يجب اتخاذها لقمع ما خشيت الحكومة - المسكونة بالخوف من البلشفية - انها قد تكون ثورة الطبقة العاملة.

لقد انهار اقتصاد بريطانيا في العامين 1920 و1921، فتدهورت الأسعار، وهبطت الصادرات، وتوقفت أعمال الشركات واجتاحت البلاد بطالة واسعة النطاق على نحو لم تشهده من قبل. وأخذ السياسيون يتساءلون هل تستطيع بريطانيا أن تتحمل أعباء مغامرات السياسة الخارجية في أمكنة مثل فلسطين وبلاد الرافدين، بل هل تستطيع أن تتحمل أعباء اجراءات

ترمي إلى ابتياع السلام الاجتماعي في الداخل . وكان رئيس الوزراء قد تبنى برنامجاً ايجابياً ليبرالياً للاسكان والاصلاح الاجتماعي - معظمه في يد زعيم حزبه في البرلمان، الدكتور كريستوفر اديسون - ولكنه اضطر الى التخلي عن البرنامج وعن الدكتور اديسون في مواجهة حملات حزب المحافظين على التبذير الحكومي. ومع ذلك كان رأي لويد جورج دائماً «ان السبيل لمنع انتشار الروح الثورية هو الشروع فوراً في مشروعات كبرى للتقدم الاجتماعي»<sup>[800]</sup>. وفي رأيه أيضاً أن التخلي عن هذه المشروعات سيترك الباب مفتوحاً أمام الهيجان والعنف، ومع ذلك فانه أثر أن يتخلى عن المشروعات، على أن يتخلى عن طموحاته الامبراطورية في الشرق الأوسط.

أمام هذه الخلفية خلفية جيش يختفي، واقتصاد يتدهور، ومجتمع يتفكك، ركز رئيس الوزراء - الرجل الذي اجترح المعجزات خلال الحرب - جهوده على إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط والعالم، في حين أن ونستون تشرشل واصل التحذير من أن الوقت يمر سريعاً، دون أن يصغي أحد الى كلامه.

# الفصل الثاني

## الخيانة

### (1)

تبين أن أحكام اتفاقية الشرق الأوسط التي استقرت عليها آراء رئيس وزراء بريطانيا وزملائه من الدول الحليفة، أقل أهمية من النهج الذي اتبع للوصول إليها. أحد جوانب هذا النهج انه اقتضى زمناً طويلاً، كانت الظروف خلاله، كما سنرى، تتبدل من سييء الى أسوأ. فالزعماء الأجانب الذين كانوا يظهرون الصداقة حل محلهم آخرون أقل رغبة في التعاون، ونشبت خصومات بين الحلفاء السابقين، والأعداء المهزومون أعادوا تجميع قواتهم وانتعشوا، والجيش البريطاني - الذي كان هم تشرشل الدائم - أخذ يذوي ويفقد القدرة على التشبث بالأراضي التي فتحها.

وثمة جانب آخر للمفاوضات، كان من شأنه أن يضعف التسوية التي ستتحقق في النهاية، هو الإحساس العام بأن سوء النية كان سمة المفاوضات، وإذا ما أطلقنا وصفاً راهناً على المفاوضات لكان لنا أن نقول أنها اتخذت الشكل الذي اتخذه نتيجة للاستراتيجية التي طبقها رئيس وزراء بريطانيا بهدف وضع الولايات المتحدة في مواجهة فرنسا وإيطاليا، مع الاعتماد في الوقت نفسه على الولايات المتحدة لحماية بريطانيا من أخطار قد تتعرض لها مستقبلاً من روسيا السوفياتية ألمانيا بعد أن تستعيد نشاطها وتستعيد تسليحها. ولم يكتشف لويد جورج أن الولايات المتحدة لا تنوي أن تكون حليفة بريطانيا ولا حليفة أية دولة أخرى، إلا بعد أن انتهت جولة مفاوضات 1918 - 1919 لتبدأ جولة 1919 - 1920. كانت الولايات المتحدة عازمة على الانسحاب من الشؤون العالمية ومن «الأحلاف المتشابكة». وسنرى أن لويد جورج أجبر في ذلك الحين على أن يعكس النهج الذي اتبعه، فسعى إلى تحالف مع فرنسا ما دام التحالف مع أمريكا ليس في متناول يده، وهذا، بالتالي، أجبره على أن يعكس سياسته المعادية لفرنسا في الشرق الأوسط. ولكن الأذى الذي لحق بالتحالف البريطاني - الفرنسي كان قد حدث وانتهى الأمر.

وقد شعر القادة البريطانيون في نهاية الأمر أن الأميركيين خذلوهم، بينما شعر الأميركيون أن البريطانيين خانوا بصفاقة المثل العليا التي يفترض أن الحرب العالمية كانت من أجلها. ونتيجة لافتقار لويد جورج الى وازع الضمير



وافتقار وودرو ويلسون إلى الحنكة، كانت بداية التفاوض بشأن تسوية الشرق الأوسط سيئة ونهايتها أسوأ.

## (2)

بلغ تصميم وودرو ويلسون على القيام بدور شخصي في صياغة أحكام معاهدات الصلح حداً دفعه الى المجيء إلى أوروبا ليتولى بنفسه المفاوضات - فكان أول رئيس أميركي يغادر نصف الكرة الغربي في أثناء مدة ولايته. وهذه الخطوة التي لا سابقة لها أثارت قلق الحلفاء. فقال كليمنصو انه وزملاءه رؤساء الوزراء، باعتبارهم رؤساء حكومات، سيكونون أدنى مرتبة من الرئيس الأميركي باعتباره رئيس دولة ورئيس حكومة. وبحكم الأسبقية سيكون للرئيس الأميركي الحق في رئاسة مؤتمر الصلح.

وردت في الصحف وغيرها اقتراحات بأن يبقى ويلسون في بلاده ناذراً كل وقته لكسب التأييد في مجلس الشيوخ وفي الولايات المتحدة عامة لشروط الصلح التي يقترحها، وتاركاً لمستشاره ادوارد هاوس أن يمثلها في أوروبا، ولكن الرئيس الأميركي رفض هذه الاقتراحات، وربما بسببها، بدأ يشك في اخلاص الكولونيل هاوس. وبعد أن عبر ويلسون ومستشاروه الأميركيون العديدون المحيط الأطلسي على الباخرة «جورج واشنطن» في كانون الأول (ديسمبر) 1918، وصلوا الى ميناء برست يوم الجمعة الثالث عشر من كانون الأول (ديسمبر).

كان ويلسون حينما ذهب يقابل بترحيب صاخب. وقد كتب جون منارد كينز قائلاً: «عندما غادر الرئيس ويلسون واشنطن كان يتمتع بمكانة عالية ونفوذ أدبي لا مثيل لهما في التاريخ في سائر أنحاء العالم» [801]. ولكن لا شيء قدم لنا وصفاً أفضل لما كان سيحدث في مؤتمر الصلح من خطابات ويلسون التي تحدث فيها عن الأمور التي لن تحدث في المؤتمر. كانت الشعوب والولايات «موضع مقايضة لتنتقل من سيادة دولة الى سيادة دولة أخرى وكأنها سلع أو ييادق في لعبة». ولم يكن ما حدث هو أن كل تسوية «تحققت لمصلحة وخير السكان ذوي العلاقة»، بل كان الأمر عكس ذلك، إذ أن هذه التسويات تحققت (مع أن ويلسون قال ان ذلك لن يحدث) من أجل تهئية «التوفيق بين مطالب دول متنافسة» تسعى وراء «النفوذ الخارجي والسيطرة» [802]. ان بلاد الرئيس ويلسون نفسها لم تسلك الطريق التي رسمها.

في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1918، أي قرابة الوقت الذي تم فيه التوقيع على اتفاقيات الهدنة، كان حزب الرئيس ويلسون قد فقد سيطرته على مجلس الشيوخ الأميركي في الانتخابات النصفية. وهكذا انتقلت الأغلبية في لجنة العلاقات الخارجية لمجلس الشيوخ الى خصوم الرئيس الأميركي. وقبل بدء مؤتمر الصلح تلقى الرئيس ويلسون ما يفيد أنه

سيواجه مشكلات في تأمين ابرام أية شروط للصالح سيتفاوض بشأنها. ولكن طبيعة الرئيس ويلسون التي تفتقر الى الليونة، حالت دون أن يقدم التنازلات أو ينخرط في عقد الصفقات السياسية التي من شأنها أن تخفف هذه المشكلات السياسية في بلاده.

وقد اتضح في الحال خارج الولايات المتحدة أنه لم يمعن النظر في السبيل الذي يجب أن يسلكه لوضع المبادئ المثالية والكريمة التي نادى بها، موضع التنفيذ. لقد وصل إلى أوروبا وفي ذهنه الكثير من الآراء ذات الصلة العامة ولم يحمل معه اقتراحات محددة لمعالجة الأمور التي تتطلب الحسم. وقد رسم كينز صورة للرئيس ويلسون لا تمحى من الذاكرة، أشار فيها إلى ما أعقب وصوله إلى أوروبا، فقال: «بما أن الرئيس لم يمحس أي شيء، كان المجلس بشكل عام يدير أعماله على أساس مسودة فرنسية أو بريطانية» [803]. وبما أن الرئيس ويلسون كان يفتقر إلى الاطلاع الواسع وإلى حذق المفاوضة، فقد انحدر دوره إلى دور المعرقل، فكان لا يفتأ يرفض مسامرة زملائه، وكان في الوقت نفسه عاجزاً عن حملهم على مسأيرته.

لقد أشار عليه هاوس بالتساهل - مع الحلفاء في الخارج ومع مجلس الشيوخ في الداخل، ولكن ويلسون رفض النصيحة بأزدراء، وعادى الصديق الحميم الذي أسداها. ثم انه قطع صلته بهاوس، ورفض منذ منتصف عام 1919 أن يراه مرة أخرى.

### (3)

كانت استراتيجية لويد جورج الشرق أوسطية تهدف الى جعل غيظ الأميركيين من الإمبريالية ينصب على مطالب إيطاليا وفرنسا، وإلى صرف انتباه الرئيس الأميركي عن المجالات التي قد يخلق فيها صعوبات لبريطانيا. وقد دَوّن موريس هانكي، السكرتير البريطاني لمؤتمر الصلح، في مفكرته، قبل انعقاد المؤتمر، أن لويد جورج: «عازم على محاولة اقناع الرئيس ويلسون بأخذ المستعمرات الألمانية في شرق أفريقيا لكي يحظى هو بفلسطين» [804]. ولم تكن هناك في حقيقة الأمر حاجة إلى جهد خاص معظم الوقت: فالقضايا الأوروبية كانت لها الأولوية العليا، أما القضايا الأخرى فكانت لها المكانة الدنيا نسبياً، فمسألة روسيا والخوف من حدوث ثورات بلشفية في سائر أنحاء أوروبا، كانا هاجس مؤتمر الصلح. أما القضية الكبرى فكانت مستقبل ألمانيا. وأما مستقبل الامبراطورية العثمانية فقد احتل مكانة دنيا، وكان ويلسون منشغلاً بأمور كثيرة حالت دون اعطائه الشرق الأوسط اهتمامه الكامل. فلما جاء دور هذه الأمور، استبعد لويد جورج بذكائه من جدول أعمال المؤتمر المسائل المتعلقة بالمناطق التي احتلتها بريطانيا في الشرق الأوسط، وبذلك وضع هذه المسائل خارج نطاق التمحيص من قبل الرئيس الأميركي. وفي الوقت نفسه حول رئيس وزراء بريطانيا جهود الرئيس الأميركي المعادية للإمبريالية لتنصب على التمحيص والتدقيق في طموحات الدول المزاحمة لبريطانيا في الشرق الأوسط - حليفاتها في زمن الحرب.

## (4)

كانت إيطاليا قد وافقت على دخول الحرب الى جانب الدول الحليفة لقاء وعود بريطانية وفرنسية باعطائها مكاسب اقليمية، من ضمنها في نهاية المطاف حصة تنالها عند تقاسم الامبراطورية العثمانية. وكان الوعد باعطائها أراض تركية قد جسده معاهدة وقعت عليها إيطاليا وبريطانيا وفرنسا وعرفت باسم اتفاقية سان جان دو مورين، التي عقدت في عام 1917. ونصت الاتفاقية على أن يكون تنفيذها خاضعاً لموافقة روسيا. وبما أن البلشفيك أطاحوا بالحكومة الروسية فإن الاتفاقية لم توضع إطلاقاً موضع التنفيذ، مع ذلك طالب الإيطاليون بالأراضي التي وعدوا بها، وبمعاملتهم على قدم المساواة مع غيرهم. فقال أحد أعضاء مجلس الشيوخ الإيطالي: «إذا لم يحصل الآخرون على أي شيء فلن نطلب أي شيء» [805].

كانت إيطاليا قد حصلت على وعد بأن تنال جزءاً من الأناضول - أو آسيا الصغرى كما كانت الأناضول تسمى أحياناً - إذا ما دخلت الحرب، ولكن لم تكن في الأناضول جاليات ايطالية تستدعي حماية ايطاليا، ولا جاليات أخرى تدعي ايطاليا أنها مسؤولة عن رعاية مصالحها.

والحقيقة أنه وفقاً لمبادئ تقرير المصير التي نادى بها وودرو ويلسون، لم يكن هناك من سبب يسوّغ احتلال إيطاليا أي جزء من آسيا الصغرى. وبدا أن رئيس وزراء إيطاليا إيمانويل أورلاندو أدرك صعوبات القضية التي يدافع عنها، ولكن الرأي العام الإيطالي كان في نوبة سعار قومي شأنه شأن البرلمان ومجلس الوزراء ممثلاً بوزير الخارجية البارون سيدني سونينو [806].

وكان أورلاندو وسونينو محقين في خوفهما من أن يؤدي الاخفاق في إقناع الحلفاء بالوفاء بوعودهم التي قطعوها لإيطاليا في زمن الحرب، الى تقويض موقفهما السياسي داخل إيطاليا، وبالتالي فقد شعرا أن عليهما اتخاذ اجراء ما.

شرعت القوات ايطالية بدءاً من منتصف آذار (مارس) 1919 في تنفيذ برنامج انزال في جنوب الأناضول عند أداليا (حالياً انتاليا) بحجة استعادة النظام ثم العودة الى السفن. ولكنها توقفت عند العودة الى السفن، وبعد شهرين كانت هنالك قوات ايطالية على أساس دائم الى حد ما في أداليا ومن ثم في مرماريس على الساحل [807]. وخشي الحلفاء أن يكون الإيطاليون، بعد أن أنزلوا قواتهم على البر، على وشك أن يزحفوا الى

الداخل لاحتلال كامل ذلك الجزء من الأناضول الذي ادعوا أن لهم حقاً في احتلاله.

عندئذ دفع لويد جورج الولايات المتحدة الى المقدمة لمعالجة هذه المسألة. فوجه وودرو ويلسون نداء الى الرأي العام الإيطالي مناشداً اياه أن يمارس تأثيراً ملطفاً على مطالب أورلاندو الاقليمية في أوروبا والشرق الأوسط، وهكذا غادر الوفد الإيطالي مؤتمر الصلح بتاريخ 24 نيسان (أبريل) 1919 عائداً إلى بلاده سعياً وراء المساندة في الداخل. وفي غياب إيطاليا عن مؤتمر الصلح، انقلبت عليها الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا. ومع أن إيطاليا كانت حليفة الأمم، فقد صارت بغتة دولة امبريالية عدوانية تخلق أخطاراً على السلام. وإذ تعصب الحلفاء عليها قال كليمنصو: «يا لها من بداية لعصبة الأمم!» [808].

وفي الثاني من أيار (مايو) 1919، استشاط الرئيس ويلسون غضباً لدى سماعه أنباء إرسال سفن ايطالية الى أزمير، فعرض إرسال الأسطول الأميركي وتحدث عن احتمال دخول الولايات المتحدة حرباً على إيطاليا من أجل الحاق هزيمة بالعدوان [809]. ومع حلول اليوم الخامس من أيار (مايو)، وفيما كان الرئيس ويلسون وغيره يحكون حكايات عن فطائع ادعوا أن الايطاليين اقترفوها، كان الحلفاء في أقصى حالات الغيظ، فصمموا على اتخاذ قرار قبل السابع من أيار (مايو)، موعد عودة الوفد الإيطالي. وبناءً على اقتراح تقدم به لويد جورج، اتفقوا على أن يطلبوا إلى اليونان، نظراً لقربها من الساحة، انزال قوات في أزمير، بحجة حفظ النظام، ولكن الهدف الحقيقي كان اجهاض العملية الإيطالية. وقد نزلت القوات اليونانية الى البر في 15 أيار (مايو).

كان قصد الحلفاء أن يكون انزال القوات اليونانية اجراءً مؤقتاً وموجهاً فقط الى الايطاليين، ولكن الانزال اليوناني اتخذ منذ البداية صفة مختلفة وأكثر ديمومة، وكان اعتقاد موريس هانكي، رئيس مجموعة أمانة السر البريطانية في مؤتمر الصلح، ان جيب أزمير، حيث أنزلت القوات اليونانية، يجب اقتطاعه من تركيا وضمه إلى اليونان [810]. ولم يكن هذا رأيه وحده، إذ أن لويد جورج وويلسون قد بهرهما اليوتيريوس فينزيلوس، رئيس وزراء اليونان، فاستمالهما الى رؤياه لرسالة اليونان التاريخية.

لقد سيطر فينزيلوس سيطرة مذهلة على مخيلات زملائه قادة الدول الحليفة، وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، فان حجته كانت قوية وحجة ايطاليا كانت ضعيفة. وكان موقفه بطبيعته يستهوي فهم ويلسون للمبادئ الأميركية وفهم لويد جورج للمصالح البريطانية. فمطالب فينزيلوس في

الأناضول، خلافاً لمطالب إيطاليا، تستند إلى قاعدة سكانية وإلى قاعدة تاريخية. ثم أن أزمير، العاصمة الساحلية، كانت مدينة يونانية، وكانت مركزاً للحضارة الاغريقية منذ أقدم العصور.

وقد ذكرت الموسوعة البريطانية في طبعتها المتداولة آنذاك (طبعة عام 1911)، أن عدد سكانها 250.000 نسمة «نصفهم بالتمام يونانيون». وأضافت الموسوعة البريطانية «أن أزمير الحديثة هي في كل شيء ما عدا الحكومة مدينة مسيحية...»، وفكرة نقل الحكم فيها من تركيا المسلمة الى اليونان المسيحية لقيت هوى شديداً في نفس لويد صاحب القيم المسيحية والهيلينية، ولقيت هوى أيضاً في نفس الرئيس ويلسون صاحب مبادئ تقرير المصير.

واليونان، شأنها شأن إيطاليا، دخلت الحرب متأخرة الى جانب الحلفاء، ولكنها، خلافاً لإيطاليا، كانت تحظى برعاية بريطانية منذ الأيام الأولى للعبة الكبرى. وحينما ربح الأسطول البريطاني الحرب في معركة نافارينو عام 1827، فقد ربح حرب استقلال اليونان، وكانت تجمع بين البلدين تقاليد صداقة. كان لويد جورج يرى في اليونان الحليف الطبيعي لبريطانيا [811].

تقدمت إيطاليا واليونان بمطالب متناقضة: فقد استهدفت كلتاهما مناطق معينة من الامبراطورية العثمانية التي كانت تحتضر. ولدى ارسال القوات اليونانية كان قصد ويلسون وقادة الدول الحليفة أن يمنعوا إيطاليا من الاستيلاء على هذه المناطق، وهي عينها التي تطالب بها اليونان، قبل التوصل إلى قرار يحدد الدولة التي يجب أن تؤول إليها هذه المناطق. ولكن الأثر الفعلي لهذا الاجراء كان انكار الادعاء الايطالي وتأييد الادعاء اليوناني. وكان في الجانب البريطاني أولئك الذين جزعوا لهذه النتيجة، ولكنها جاءت متطابقة مع نظرة لويد جورج الى المصالح والمبادئ البريطانية.

لقد حقق لويد جورج مقاصد عديدة في آن واحد، إذ استطاع أن يحول انتباه وودرو ويلسون عن أهداف بريطانيا إلى أهداف إيطاليا، عندما جعل الرئيس الأميركي يقف في الطليعة لفرض ما هو في الحقيقة سياسة بريطانيا ازاء أزمير. فلما أرف وقت حسم الأمور مع القادة الايطاليين، أثبهم ويلسون تأنيباً شديداً على «طموحاتهم الامبريالية» [812]. أما لويد جورج فقد نحا منحى آخر، فناشد فيهم نبالتهم في خطاب امتاز ببلاغته، إلى حد أنه أبكى أورلاندو، رئيس وزراء إيطاليا، الذي اتجه الى احدي النوافذ وأخذ ينشج نشجاً يعبر عن انفعاله، وقد شاهده أحدهم عبر الشارع فسأل: «ماذا فعلوا لهذا السيد الشيخ المسكين؟» [813].

الذي فعلوه له ما لبث أن اتضح. ففي التاسع عشر من حزيران (يونيو) 1919، وقد أضعفه اخفاقه في تحقيق طموحات ايطاليا الاقليمية في مؤتمر الصلح، اضطر أورلاندو للاستقالة من منصبه كرئيس لوزراء ايطاليا.



## (5)

كان المشروع الثاني الذي أعده لويد جورج لتحويل انتباه ويلسون من جهة الى أخرى، هو تحريضه على مقاومة مطالبة فرنسا بسورية.

لقد سمح مؤتمر الصلح للرئيس الأميركي بأن يشارك في المفاوضات الخاصة بالامبراطورية العثمانية، مع أن الولايات المتحدة لم تشترك البتة في الحرب على تركيا، وبالرغم من أن نقاط وودرو ويلسون الأربع عشرة لم تطبق على التسوية العثمانية (فخلاًفاً لألمانيا، لم يسمح لتركيا أن تستسلم على أساس تطبيق أي من هذه النقاط على استسلامها)، كانت نقاطه هذه تعبيراً عن فلسفة سياسية اعتمدها في مقاربة القضايا العامة. وقد أدرك لويد جورج هذه الناحية، فما ان تناول الرئيس ويلسون موضوع الولايات العثمانية الناطقة بالعربية، حتى صرف رئيس وزراء بريطانيا بذكائه انتباه الرئيس الأميركي عن أهداف بريطانيا وحوله الى أهداف فرنسا، وذلك عندما شدّ انتباهه إلى التهديد الفرنسي لاستقلال سورية - وهو تهديد يتنافى ونقاط ويلسون ومبادئه.

لم يصل الوفد البريطاني في تمادية الى حد التظاهر أمام الرئيس الأميركي وغيره من ممثلي الدول بأن فيصل حرر دمشق. فقد كان الجنرال اللنبي دقيقاً في قوله لأعضاء المؤتمر انه «بعيد الاستيلاء على دمشق، سمح لفيصل باحتلال المدينة وإدارتها»<sup>[814]</sup>. بيد أن الوفد البريطاني تظاهر بأن فيصل وأتباعه قاموا بدور هام في تحرير سورية. وادعى البريطانيون أن فيصل نتيجة لذلك اكتسب الحق في أن يكون حاكم سورية الحرة، وانه تحديداً يملك حرية رفض المشورة الفرنسية والمستشارين الفرنسيين إذا اختار أن يفعل ذلك. لقد طرح لويد جورج الموضوع على هذا الأساس، وكان هذه هي مسألة الخلاف، ووفقاً لما قاله رئيس الوزراء البريطاني فان طرفي الخلاف هما سورية فيصل وفرنسا كليمنصو، وادعى أن بريطانيا صديقة الطرفين ولذلك لن تنحاز الى أي منهما.

كان ويلسون بطبيعته ميالاً إلى تأييد حق السوريين في اختيار حكومتهم ومصيرهم. ولم يسعه إلا أن يتأثر ايجابياً باستعداد فيصل للتعاون في سبيل تحقيق تسوية. وقد اجتمع فيصل مع فليكس فرانكفورت، وهو ممثل للزعيم الصهيوني الأميركي لويس برانديز، وبعد الاجتماع قام فرانكفورت بإبلاغ برانديز «أن المسألة العربية لم تعد قائمة باعتبارها صعوبة على طريق تحقيق برنامجنا قبل مؤتمر الصلح»<sup>[815]</sup>. والحقيقة هي أن فيصل، بصفته ممثل العرب في مؤتمر الصلح، قال لأعضاء المؤتمر انه استبعد فلسطين من المنطقة التي يطالب بأن تكون منطقة الاستقلال لقد كان التباين حاداً

بين عقلانية فيصل الظاهرة في تعامله مع المطالب اليهودية، وتصلب كليمنصو في تعامله مع مطالبة العرب بالاستقلال - هذه المطالبة التي اعتبرها كليمنصو نفاقاً بريطانياً.

لقد قال البريطانيون انهم مستعدون للسماح قدر طاقتهم للفرنسيين بممارسة النفوذ على فيصل. وكان هذا القول، في نظر فرنسا، بعيداً كل البعد عن الصدق، لأن فيصل، كما يعرف الجميع، يرفض قبول التوجيه الفرنسي أو النفوذ الفرنسي. وكان جلياً أن فيصل يشعر أنه مدين للبريطانيين. فقد كان يتقاضى المال منهم، وكانت بريطانيا تتكفل نفقات وفده الى مؤتمر الصلح. وحيثما اتجه خلال مؤتمر الصلح كان يصحبه ضابط الارتباط البريطاني، توماس ادوارد لورنس، الذي كان صديقه ومستشاره ومحط ثقته والذي كان يقوم بمهمة المترجم له، أي أنه كان رفيقه الذي لا يفارقه.

وإذ أدرك الفرنسيون أن القبول بفيصل ناطقاً باسم سورية يعني في الواقع التنازل عن سورية الى بريطانيا، فقد جاؤوا بقيادة سوريين من اختيارهم. وأبرز هؤلاء كان مقيماً في فرنسا منذ سنين عديدة، وبعضهم كان يعيش في فرنسا تحت رعاية وزارة الخارجية الفرنسية. وادعى الفرنسيون أنه بالرغم من أوجه الشبه في اللغة والدين بين السوريين والعرب، فالسوريون ليسوا عرباً، وهم جديرون ببلد يخصهم تحت توجيه فرنسا.

رد لويد جورج بهجوم مضاد إذ ربط تعاون بريطانيا مع فرنسا في مواجهة ألمانيا في أوروبا بحل مسألة سورية. وكانت المسألة الألمانية ذات أهمية طاغية بالنسبة لكليمنصو، وكان قد أقام الدليل على هذه الأهمية في نهاية عام 1918 عندما تنازل عن فلسطين والموصل الى لويد جورج من أجل تعزيز التحالف الانكليزي - الفرنسي.

كان كليمنصو قد وصل إلى أقصى حد يستطيع الذهاب اليه من الناحية السياسية. فعندما قبل بفيصل زعيماً لسورية بشرط قبوله الشروط الفرنسية، كان قد قطع كامل الشوط. فإذا طلبت اليه بريطانيا ألا يكتفي بقبول فيصل بل أن يقبل أيضاً بالاستقلال العربي الكامل، تكون قد طلبت اليه تجاوز هذا الشوط وتدمير نفسه سياسياً. مع ذلك كان كليمنصو بحاجة إلى مساعدة بريطانيا في مواجهة ألمانيا، وعندما قرن لويد جورج المسألتين فانما وضعه في موقف ممض. وفي نطاق اجتماعاتهما، كثيراً ما انفجر رئيس وزراء فرنسا غيظاً بسبب ما أصابه من احباط، وذات مرة دفعه غيظه الى تحدي لويد جورج للمبارزة، وخيّر بين السيف والمسدس سلاحاً للمبارزة [816].

وهذا الوضع الذي وجد كليمنصو نفسه فيه ليس عائداً إلى أنه لم يبسط موقفه بصراحة.. فقد قال مرة لأحد مستشاري لويد جورج أن الرأي العام السياسي في فرنسا لن يسمح بالتخلي عن مطالب فرنسا في سورية: «وانه شخصياً غير معني عناية خاصة بالشرق الأدنى» ولكن فرنسا قامت دوماً بدور كبير هناك... وان الرأي العام الفرنسي يتوقع تسوية تتلاءم مع وضع فرنسا، وانه لا يستطيع... قبول أية تسوية لا تلي هذا الشرط» [817]. لم تكن في كلامه أية مبالغة، وهذا ما دلت عليه الحملة الصحافية التي نظمها مسؤولو وزارة الخارجية الفرنسية على رئيس وزراء بلدهم في جريدتي (لوتان) و(لوجورنال دي ديبا)، فزعموا انه فرط بالكثير للبريطانيين [818]. ولكن لويد جورج تابع الضغط من أجل مزيد من التنازلات، وواصل نقض ما اعتبرها كليمنصو التزامات بريطانية ثابتة لفرنسا. قال كليمنصو: «لن أراجع عن شيء بعد الآن، ان لويد جورج شخص غدار» [819].

لم يتضح بعد ما الذي جعل لويد جورج مصمماً إلى هذا الحد على استبعاد فرنسا من الشرق الأوسط. كان موقف لويد جورج المعلق من مطالب فرنسا في سورية، وفي كيكيا، أي المنطقة الواقعة شمال سورية والمحاذية لها، هو أن القوات البريطانية ستواصل الاحتلال من أجل المحافظة على السلام بين الفرنسيين وعرب فيصل [820]. ولكن هذا السلام كان سلاماً أحادي الجانب فرضته بريطانيا. لقد واصلت قوة فرنسية صغيرة احتلال منطقة ساحلية ضيقة مركزها بيروت، وواصلت الوحدات العربية، من جانب منطقة فيصل، القيام بغارات خاطفة على الفرنسيين، ووفر وجود قوات الجنرال اللنبي البريطانية الحماية لمنطقة فيصل من الأعمال الثأرية الفرنسية.

لقد أئذّر الجنرال اللنبي بأن الحرب قد تنشب بين العرب والفرنسيين. وبدا أن الرئيس ويلسون حمل هذا الانذار على محمل الجد، فكان رد فعله اقتراحاً باغت كلاً من لويد جورج وكليمنصو لقد دعا في اقتراحه الى ارسال لجنة الى الشرق الأوسط للتثبت من رغبات سكانه. وقد رأى المسؤولون الفرنسيون والبريطانيون المخضرمون أن هذا الاقتراح صياني اعتقاداً منهم لا وجود في الشرق الأوسط لرأي عام بالمفهوم الأوروبي أو الأميركي. أما بالنسبة الى لويد جورج فقد كان الاقتراح مرعباً لأن ارسال اللجنة يتطلب وقتاً طويلاً. مع ذلك حاول رئيس الوزراء البريطاني أن يستفيد من الاقتراح على أفضل وجه، وذلك بمحاولة جعل اللجنة تركز اهتمامها حصراً في مطالب فرنسا - ومقاومة هذه المطالب من قبل العرب الذين تريد فرنسا أن تحكمهم.

كان البريطانيون، مثلهم مثل الفرنسيين، قد تقدموا بمطالب ضخمة في الشرق الأوسط، ولكن لويد جورج أفلح في الحيلولة دون تمحيص المطالب البريطانية. وعندما جاءت لجنة التحقيق التي اقترحتها الرئيس ويلسون للثبوت من رغبات شعوب الشرق الأوسط، لم تذهب إلى بلاد الرافدين حيث أقامت الهند البريطانية حكماً مباشراً. وكذلك شجع البريطانيون، الذين أعلنوا مصر محمية بريطانية في تأمين الاعتراف الأميركي بهذا الامتداد لحكمهم، وبالتالي لم تدرج مصر في جدول أعمال مؤتمر الصلح. وفي مطلع عام 1919 أضيفت بلاد فارس أيضاً إلى منطقة النفوذ البريطاني باعتبارها محمية غير رسمية، وتحقق ذلك أيضاً خارج مؤتمر الصلح باتفاقية بين البلدين تم التوقيع عليها في 19 آب (أغسطس) 1919. ثم أن سيطرة بريطانيا على مشيخات الخليج الفارسي، التي جرى تنظيمها خلال الحرب، لم تبحث ولم ينازعها فيها أحد في مؤتمر باريس. وكان هذا أيضاً شأن وضع بريطانيا المتميز في شبه جزيرة العرب، الذي ضمنه تحالف بريطانيا مع الحسين وابن سعود، وقد جعل منهما هذا التحالف حاكمين مشمولين بحمايتها. وبما أنه تم الاتفاق مسبقاً بين لويد جورج وكليمنصو على أن تكون فلسطين من نصيب بريطانيا، فلم يبق موضوع نزاع على جدول أعمال اللجنة سوى سورية.

وفيما كانت الملاسنات تشتد وتزداد حدة في مؤتمر الصلح، رفض كليمنصو إرسال الفرنسيين الذين يفترض اشتراكهم في اللجنة. وشعر لويد جورج فجأة بالقلق من أن يكون قد ذهب بعيداً جداً في مناوأة فرنسا، فقرر هو أيضاً عدم إرسال أعضاء بريطانيين للمشاركة في اللجنة. وهكذا فان عضوي اللجنة الأميركيين - هنري كنج، عميد كلية أوبرلين في ولاية أوهايو، وتشارلز كرين، أحد رجال الأعمال في شيكاغو وأحد المتبرعين بالمال للحزب الديمقراطي - شرعا وحدهما في المهمة الموكلة اليهما.

سافرت لجنة كنج - كرين إلى سورية وفلسطين، حيث كان الضباط البريطانيون في أغلب الأحيان في وضع يمكنهم من تقرير من الذي يجب أن يدلي بشهادته ومن الذي يجب ألا يدلي بشهادته أمام اللجنة. وقد استشاط الفرنسيون غضباً من جراء الاستغلال البريطاني وتنظيم بريطانيا للشهود والشهادات. ولكن لم تكن لذلك أهمية في نهاية الأمر، إذ أن تقرير اللجنة لم ينظر فيه إطلاقاً، ولم يكن له أي دور رسمي، ولم يعلن نصه إلا بعد أكثر من ثلاث سنوات. لقد زاد تحقيق لجنة كنج - كرين من روح العداء بين فرنسا وبريطانيا، وخلق لدى فئات عربية عديدة آمالاً كاذبة، مما جعل جيرترود بل، الاختصاصية في شؤون الشرق الأوسط، تندد به وتعتبره خدعة إجرامية [821]. وعلاوة على ذلك، استغرقت تحقيقات اللجنة وقتاً طويلاً جداً - بينما كان لويد جورج يشعر انه لم يعد لديه الوقت الكافي.

## (6)

لم تكن بريطانيا قط جادة في فكرة انتداب أميركي على فلسطين، وإنما اقترحت أن يؤول انتداب عصبة الأمم الى الولايات المتحدة لكي تحتل وتحكم أجزاء من الأناضول، والقسطنطينية، والدردنيل، وأرمينيا، والقوقاز. وفي نهاية الأمر تقلصت هذه الانتدابات لتشمل فقط القسطنطينية، والدردنيل، وأرمينيا.

كان ثمة سببان لرغبة بريطانيا في أن تتولى الولايات المتحدة هذه الانتدابات: أولهما زج الولايات المتحدة في التسوية الشرق أوسطية من أجل تأمين مساعدة الولايات المتحدة في مساندة شروط التسوية، والثاني هو أن تراطب الولايات المتحدة على خطوط الجبهة إذا ما عنّ لروسيا السوفياتية أن تهاجم تركيا.

وقد أوضح ويلسون وغيره من الأميركيين في باريس أنهم سيواجهون صعوبة في اقناع الكونغرس بقبول الانتدابات. ومع ذلك أخذ الرئيس الأميركي على عاتقه أن يحاول. وتبين أن في هذا ما يبطل ما رسم له لويد جورج. فقد كان على رئيس وزراء بريطانيا، وبعد أن مر وقت طويل منذ أن اتضح أن الفشل مصير محاولة ويلسون، أن ينتظر رداً أميركياً رسمياً، وبدا أن الرد لن يأتي قبل انقضاء زمن طويل.

في 29 حزيران (يونيو) 1919، بعد انقضاء أكثر من ستة شهور على وصول الرئيس الأميركي إلى أوروبا من أجل مؤتمر الصلح، عاد ويلسون إلى الولايات المتحدة للمرة الأخيرة. وفيما كان ويلسون يوجه حملته إلى الشعب مباشرة، انهار من الاعياء، ودخل في حالة شلل جزئي جسدي وسياسي. لقد هزم مجلس الشيوخ الأميركي برنامج الرئيس، ومن ضمنه ابرام معاهدة فرساي والتزام الولايات المتحدة بعصبة الأمم، بينما كان الرئيس الأميركي يرتكب حماقة سياسية إثر أخرى، بحيث دفع الذين كان يأمل في مساندتهم إلى معارضته.

أصيب ويلسون بالشلل في الجانب الأيسر من جسمه، ولعل تفكيره أيضا قد تأذى. وبالرغم من علته، رفض هو وزوجته أن يوكل سلطته إلى آخرين. بعد ذلك بسنوات - بعد زمن طويل منذ وفاة ويلسون - كتب لويد جورج عن مرض الرئيس الأميركي فقال: «إن ملكته الوحيدة التي لم تصب بأذى حتى النهاية...هي عناده العجيب» [822].

منذ تموز وحتى تشرين الثاني (نوفمبر) 1919 أُرجئت جميع القرارات الخاصة بالامبراطورية العثمانية ريثما يتبين الموقف الذي ستتخذه الولايات

المتحدة من قبول الانتداب على القسطنطينية وأرمينيا. ولكن الرئيس ويلسون، وبعد أن تعافى جزئياً، لم يقترح الانتداب الأميركي على أرمينيا حتى 24 أيار (مايو) 1920. وفي الأسبوع التالي رفض مجلس الشيوخ الأميركي هذا الاقتراح.

وقد كتب موريس هانكي في مفكرته: «إننا لا نستطيع أن نمضي في المعاهدة التركية حتى نعرف هل سيقبل الأميركيون انتداباً في تركيا» [823]. ونبه في مفكرته الى احتمال وقوع حادثة في الأناضول ما لم تعقد معاهدة بسرعة. وقد اشتكى لويد جورج من أن ويلسون وضع الحلفاء «في موقف يستحيل قبوله» [824].

ان انهيار الحليف الأميركي دفع لويد جورج الى مصالحة فرنسا وإيطاليا. ولكن رئيس الوزراء البريطاني وجد نفسه الآن مضطراً للتعامل مع قادة من الحلفاء سهولة التعامل معهم أقل كثيراً من سهولة التعامل مع الحليف الأميركي. وكان القادة الايطاليون الجدد أكثر ميلاً للحصول على امتيازات تجارية، بدلاً من الحصول على تنازلات اقليمية، ولذلك كان توجههم نحو معارضة تقسيم تركيا الذي اقترحه لويد جورج، وليس الى المشاركة فيه، لا سيما أن وزير الخارجية الايطالي الجديد (1920 - 1921) الكونت كارلو سنورزا، كان متعاطفاً مع القومية التركية.

وفي فرنسا، أخفق كليمنصو في انتخابات الرئاسة في عام 1920، ولذلك استقال من رئاسة الحكومة واعتزل الحياة السياسية. وقد عزا لويد جورج اخفاق كليمنصو في جانب منه الى استعداده لتقديم تنازلات الى بريطانيا في الشرق الأوسط [825]. ولم يكن لدى ألكسندر ميران، الذي خلف كليمنصو في رئاسة الحكومة، ميل مماثل الى تقديم هذه التنازلات.

ولدى اجتماع الحلفاء في نهاية الأمر في رقم 10 شارع داوونينغ، مقر رئاسة الحكومة البريطانية، بتاريخ 12 شباط (فبراير) 1920، للبدء في صياغة المعاهدة العثمانية، تحدث اللورد كورزون باسم رئيس وزراء بريطانيا وباسمه شخصياً إذ قال: «إن التأخير في التفاوض على المعاهدة سببه حصراً أن القوى المعنية اضطرت الى انتظار قرار الولايات المتحدة» [826]. وكان أقرب إلى الصواب لو قال أن التأخير عائد الى محاولة لويد جورج أن يستغل الولايات المتحدة ضد حلفاء بريطانيا في زمن الحرب.

## (7)

كان وودرو ويلسون قد تنبأ بأن السلام لن يدوم ما لم تكن شروطه في أساسها منصفة لجميع الجهات. وقد رأى كثيرون آنذاك، ورأى كثيرون منذ ذلك الحين، أن الشروط التي فرضها الحلفاء على أعدائهم المهزومين، كانت فشلاً ذريعاً من هذه الناحية. وقد استذكر فليكس فرانكفورت في ما بعد: «إن الشهور التي أمضيتها في مؤتمر الصلح في باريس ربما كانت الأتعس في حياتي. فتزايد خيبة الأمل في الآمال الكبرى التي ولدها كلام ويلسون المفعم نبلاً لم تختلف عن المشاعر التي يولدها موت الأقرين» [827]. ولعل ويلسون قد رفع آمال العالم الى حدود عليا. وعندما حدثت في ما بعد انتفاضات في الشرق الأوسط، وجه موريس هانكي اللوم إلى النقاط الأربع عشرة التي أعلنها وودرو ويلسون وإلى «مبدأ تقرير المصير الذي أعلنه ويستحيل تطبيقه» [828]

وعلاوة على أية قرارات محددة اتخذت في مؤتمر الصلح، كان هناك شعور عام بأن ثمة خطأ جسيماً في مؤتمر الصلح عينه. وبالمفهوم العام، وفي ضوء حكم الناس على الحلفاء من خلال الوعود التي قطعوها والمبادئ التي أعلنوها في زمن الحرب، كانت طريقة اتخاذ القرارات تشكل خيانة. فالقرارات كانت بأي حساب، حتى بحساب المشتركين في مؤتمر الصلح، تتخذ من دون توافر إلا القليل من المعرفة أو القليل من الاهتمام بالأراضي والشعوب التي تتعلق بها هذه القرارات. وهذا ينطبق حتى على شروط الصلح التي فرضت في أوروبا، ويصدق أكثر من ذلك في الشروط التي فرضها الأوروبيون على الشرق الأوسط البعيد وغير المألوف. كان بلفور يراقب ويلسون ولويد جورج وكليمنصو في المؤتمر معتمداً من حيث الخبرة على موريس هانكي فقط (الذي كان في الحادية والأربعين من عمره عندما انعقد مؤتمر الصلح أي كان أصغر من بلفور بنحو خمس وثلاثين سنة) - والصورة التي رسمها بلفور لهم هي «انهم ثلاثة رجال جدّ أقوياء وجهلة يجلسون في المؤتمر ويتقاسمون قارات وقد أسلموا قيادتهم لأحد سوى لولد صغير» [829].

كتب أحد الدبلوماسيين الإيطاليين «إن المنظر العام في مؤتمر الصلح في باريس هو أن واحداً أو آخر من رجال الدولة في العالم يقف أمام خريطة ويتمتم لنفسه قائلاً: «أين ذلك أو تلك... اللعين؟» بينما هو يبحث بسبابته عن مدينة ما أو نهر ما لم يسمع بهما قط من قبل» [830]. إن لويد جورج الذي ما فتىء يطالب بأن تحكم بريطانيا فلسطين من دان الى بئر السبع



(حسب التعبير التوراتي) كان يجهل أين تقع دان. وقد بحث عنها في أطلس توراتي من أطالس القرن التاسع عشر، وانقضى نحو عام على توقيع الهدنة قبل أن يتمكن الجنرال اللنبي من إبلاغه أنه تمكن من معرفة موقع دان، وبما أن هذا الموقع ليس حيث يريده رئيس الوزراء أن يكون، فقد طالبت بريطانيا بحدود أبعد شمالاً.

خلق المشاركون في مؤتمر الصلح انطباعاً بأن معظم الأطراف المعنية، في الشرق الأوسط كما في مناطق أخرى، يجري اقصاؤها عن المداولات، وبدلاً من حضور جميع الدول الحليفة، اجتمعت خمس منها فقط في المرة الأولى لاعداد خطة المفاوضات. ثم حل محلها مجلس الأربعة: قادة الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا. وقد حدثت في إيطاليا خلافات وصعوبات داخلية حملتها على الانسحاب. كذلك فإن السياسة الداخلية حملت الولايات المتحدة أيضاً على الانسحاب. وعند بحث الشرق الأوسط بعد انقضاء عام على توقيع الهدنة، قال وزير الخارجية الفرنسي لوزير الخارجية البريطاني، الذي وافقه على كلامه، «انه لم يبق سوى فريقين يجب أن تُدرس مصالحهما دراسة جدية وأن يجري التوفيق بينهما، وهما بريطانيا العظمى وفرنسا»<sup>[831]</sup>. وانطلقا معاً في اتخاذ القرارات بشأن الممتلكات العثمانية.

مع ذلك كانت هناك عشرات الأطراف الأخرى التي تتأثر مصالحها بهذه القرارات، وقد ازداد عدد هذه الأطراف بازدياد عدد الناطقين باسمها. وعلى سبيل المثال كان في المؤتمر وفدان رئيسيان متنافسان من أرمينيا، وإضافة اليهما كان هناك نحو أربعين وفداً أرمينيا مستقلاً. لقد جاء عشرة آلاف انسان الى باريس من أجل مؤتمر الصلح. وقد أبرزت جحافل المطالبين بحقوقهم الجالسين على المقاعد الخلفية صغر حجم المصالح التي أخذتها بعين الاعتبار الحكومتان المتبقيتان لاتخاذ القرارات.

كانت المطالب الأدبية والوعود التي قطعت في زمن الحرب هي سلعة أولئك الذين جاؤوا لعرض قضاياهم. كانت نصوص التعهدات التي قطعها قادة الحلفاء في زمن الحرب، ولا سيما مسؤولون حكوميون بريطانيون مختلفون، يجري تمحيصها ومقارنتها، والحقيقة أن الباحثين ما زالوا يفعلون ذلك حتى الآن، لمعرفة هل يمكن قراءة تلك التعهدات بطريقة تجعلها متجانسة مع بعضها بعضاً، وكان تلك التعهدات قد أوجدت حقوقاً يمكن وضعها موضع التنفيذ بواسطة القضاء. ان اتفاقية القسطنطينية (1915)، ومعاهدة لندن (1915)، ومراسلات الحسين - مكماهون (1915 - 1916)، واتفاقية سايكس - بيكو (1916)، واتفاقية سان جون دو موربان (1917)، وعلان بلفور (1917)، ورسالة هوغارت (1918)، والاعلان الموجه الى



السبعة (1918)، والاعلان البريطاني الفرنسي (1918)، وكذلك النقاط الأربع عشرة التي أعلنها الرئيس وودرو ويلسون (8 كانون الثاني / يناير 1918)، ومبادئه الأربعة (11 شباط / فبراير 1918)، والأهداف الأربعة (4 تموز/يوليو 1918)، والخصوصيات الخمس (27 أيلول/سبتمبر 1918)، كانت ضمن بيانات كثيرة طرحها المدعون المتنافسون طالبين الوفاء بها وكأنها صكوك مالية أو عقود قانونية.

لقد كان ديفيد لويد جورج يري في المفاوضات عملية مساومة أكثر مما هي عملية قضائية، وكان فخوراً بما استطاع تحقيقه في التسوية الشرق أوسطية. لقد أحرز مكاسب مادية لبريطانيا. وفي إشارة منه إلى (الاسنيا) [832] قال رئيس الوزراء لصديق حميم: «لا بأس، لقد عاد ويلسون إلى بلاده حاملاً حزمة من أوراق الاسنيا. أما أنا فقد عدت وملء جيبي جنيهاً ذهبية بشكل المستعمرات الألمانية، وبلاد الرافدين، الخ. كل يتصرف حسب ذوقه» [833]. لقد نجح رئيس وزراء بريطانيا في نهاية الأمر، في إضافة نحو مليوني ميل مربع الى الامبراطورية البريطانية.

لم يكن لويد جورج متعامياً عن الاعتبارات الأدبية في الموضوع، لكن تفسيراته لها كانت شرسة في تحيزها. فقد كتب بعد أكثر من عقد من السنين مدافعاً عن معاهدات الصلح فادعى: «ان معاهدات باريس تشكل أكبر قدر من التحرير الوطني للأمم كانت محكومة من غيرها، وجاء تحريرها بموجب تسوية معروفة في أعقاب حرب من الحروب. فما من تسوية صلح حققت خلاصاً لمثل هذا العدد من القوميات التي كانت تترج تحت حكم الطغيان الأجنبي، كالخلاص الذي حققته تسوية عام 1919» [834].

كان يستشيط غضباً بصورة خاصة لدى سماعه الادعاءات القائلة أنه لم يفِ بالتعهدات التي قطعت للشعوب الناطقة باللغة العربية، وقد قال:

«لقد وفى الحلفاء بالوعود التي قطعوها في هذه الاعلانات وفاءً كاملاً. وما من عرق استفاد من اخلاص الحلفاء في الوفاء بوعودهم للأعراق المقهورة أكثر مما استفاد العرب. وبفضل التضحيات الجسيمة التي قدمتها الأمم الحليفة، وبصورة أخص بريطانيا وامبراطوريتها، كسب العرب الاستقلال في العراق وشبه الجزيرة العربية، وسورية، وعبر الأردن، بالرغم من أن معظم الأجناس العربية قاتلت طوال الحرب الى جانب الأتراك مضطهدين».

وأضاف بصورة خاصة: «ان العرب الفلسطينيين قاتلوا في سبيل الحكم التركي» [835].

لعله كان أقدر على فرض تسويته الشرق أوسطية بصورة أكثر فاعلية لو أنه توصل إليها في نهاية عام 1918. ولكن محاولة التراجع عن تعهدات بريطانيا في زمن الحرب استغرقت قدراً كبيراً من الوقت وفوّتت عليه تلك الفرصة. ومع حلول صيف 1920 كان قد فات الأوان لكي يفرض رئيس وزراء بريطانيا شروطه على حلفائه في الحرب، وعلى الشرق الأوسط الذي كان يزداد اضطراباً، لأن رئيس الوزراء لم يعد عنده في ذلك الحين العدد الكافي من الجنود لفرض هذه الشروط، وهذا ما حذر منه تشرشل مراراً.

# الفصل الثالث

## العالم غير الحقيقي لمؤتمرات الصلح

### (1)

«الدبلوماسية عن طريق المؤتمر»، عبارة تُعزى إلى موريس هانكي، في وصفه لوقائع أعمال لويد جورج في سنوات ما بعد الحرب [836]. وصارت هذه العبارة تمثل الوصف القياسي للعالم غير الحقيقي الذي عاش فيه رئيس وزراء بريطانيا. فقد أقصى نفسه إلى أبعد حد استطاعه، عن مسؤوليات منصبه الأخرى، وأمضى أكثر من ثلاث سنوات في حضور اجتماعات دولية هدفها تحديد شكل العالم بعد الحرب. وقد بدأت الاجتماعات بين الحلفاء بمجرد توقيع اتفاقيات الهدنة، وتطورت لتصبح حياة. لقد حضر لويد جورج في ما بين 1919 و1922 ما لا يقل عن ثلاثة وثلاثين مؤتمراً دولياً. بل انه كان قبل بدء هذه المؤتمرات، قد انهمك في اجتماعات غير رسمية كالتي عقدها مع كليمنصو ومع ويلسون في لندن في أواخر عام 1918. إن الأعمال التمهيدية الرسمية لمؤتمر الصلح بدأت في باريس في كانون الثاني (يناير) 1919، وانتقلت إلى أماكن أخرى بين وقت وآخر. وكان موضوع البحث هو الشروط التي ينبغي فرضها على الامبراطوريات الألمانية، والنمساوية - الهنغارية، والعثمانية، وبلغاريا حليفة هذه الامبراطوريات. إن القرارات المتعلقة بالامبراطورية العثمانية قد اتفق على الجانب الأكبر منها في المؤتمر الأول الذي انعقد في لندن (بدءاً من شباط (فبراير) 1920)، وتم تثبيتها في منتجع الريفيرا الإيطالي سان ريمو (نيسان (أبريل) 1920). واتخذت شكل معاهدة تم التوقيع عليها في سيفر، إحدى ضواحي باريس السكنية، في 10 آب (أغسطس) 1920.

كانت الحقيقة الحاسمة في ما يتعلق بالتفاوض على تسوية الصراع في الشرق الأوسط أن هذه المفاوضة استغرقت وقتاً طويلاً. والمعاهدة مع الامبراطورية العثمانية كانت آخر معاهدات الصلح التي تم التوقيع عليها. كانت البداية محادثات غير رسمية بين لويد جورج وكليمنصو بعد الهدنة، وتطلب الأمر ستة عشر شهراً للتوصل إلى اتفاق على الأمور الهامة، وأربعة أشهر أخرى للفراغ من بقية المواضيع والتوقيع على معاهدة. أي أن الأمر

بمجمله تطلب نحو سنتين للتوقيع على معاهدة الصلح مع الأمبراطورية العثمانية، مع أن لويد جورج كان تنبأ في البداية أن الأمر يتطلب نحو اسبوع فقط [837].

وبسبب التأخير الطويل تطورت الأوضاع واقتضت اتخاذ قرارات ثبت في النهاية انها أهم من أحكام المعاهدة نفسها. لقد ظن رجال الدولة الحلفاء انهم بما فعلوه في سان ريمو، قرروا مستقبل آسيا الناطقة بالعربية، وانهم بما فعلوه في سيفر، قرروا مستقبل الامبراطورية العثمانية الناطقة بالتركية، ولكن ثبت ان ما لم يفعلوه في عام 1918 وعام 1919 كان له تأثير أكبر على المنطقتين كليهما.

لقد أعلن لويد جورج في البداية انه يستحيل على بلاده أن تبقى إلى ما لا نهاية على جيشها المؤلف من 1.084.000 رجل والذي يحتل الامبراطورية العثمانية [838]. ولا بد أن نتذكر ان تشرشل وهيئة الأركان العامة أكدا له الحاجة إلى التوصل إلى تسوية ما دامت لديه قوات لتنفيذها. ولكن مع حلول صيف 1919، أي بعد انقضاء نحو ستة أشهر، تم ابلاغ مجلس الوزراء البريطاني أن جيش الاحتلال انخفض عدده بأكثر من الثلثين أي إلى 320,000 رجل [839]. ومع تلاشي الجيش إلتزم قادته بجدول زمني للانسحاب، فرض على رئيس الوزراء وهو في مؤتمر الصلح سلسلة من المواعيد النهائية، وهذا ما فعله أيضا استنزاف الموارد المالية البريطانية.

أما في الشمال، على امتداد حدود القوقاز مع روسيا، فقد بقيت القوات البريطانية في مكانها على أمل إقناع الولايات المتحدة أو ايطاليا أو فرنسا بأن تحل محلها لتدافع عن أرمينيا وجورجيا وأذربيجان التي استقلت حديثاً، إذا ما استعادت روسيا أو تركيا ما يكفي من القوة لمهاجمة هذه البلدان المستقلة. ولكن بريطانيا كانت تفتقر إلى الرجال والمال لتأخذ المهمة على عاتقها، مما اضطرها في نهاية الأمر إلى التخلي عن مسؤولياتها.

وعندما أمر رئيس الوزراء البريطاني القوات البريطانية بمغادرة هذه الأراضي التي كانت سابقاً روسية، تجاهل اعتراضات ونستون تشرشل الشديدة. لقد كان تشرشل، بالرغم من كل حماسه الأخيرة لسحب القوات البريطانية، مشاعباً في موضوع الشيوعية، وكان مستعداً لإرسال الرجال والمال إلى روسيا للإطاحة بالنظام السوفياتي. وحتى موريس هانكي الذي كان يؤمن «ان البلشفية ستكون في السنين القادمة الخطر الأعظم على أوروبا» [840] وصف تشرشل «بأنه مهووس في حماسه لمساندة أعداء البلشفية» [841]. كان تشرشل مصمماً إلى حد الهوس على الاحتفاظ بالقوات البريطانية شمال الحدود التركية لمساعدة البيض على محاربة

الحمز في الحرب الأهلية الروسية. ولكن مخاوف لويد جورج السياسية كانت من نوع آخر، فقد أبلغ رئيس الوزراء هانكي انه حريص على اخراج جميع القوات البريطانية من الأراضي الروسية السابقة لكي يحول دون أن تصبح هذه القوات «غير مستقرة»، ولعله كان يعني بذلك أنه يريد أن يحول دون اصابتها بعدوى الحمى الراضة الثورية<sup>[842]</sup>. وبناء على أوامره جلت القوات البريطانية في صيف عام 1919 عن المناطق الواقعة شمال الحدود الروسية - التركية.

أما جنوبي الحدود الروسية القديمة، في الوديان وبين الجبال التي يمر فيها خط حدود تركيا الحالية مع سورية والعراق وإيران، فتوجد منطقة تعرف بصورة غير دقيقة باسم كردستان، وكان المسؤولون البريطانيون يفكرون في فرض رعايتهم على محمية أخرى من محمياتهم في هذه المنطقة. ولكن المنطقة تقع ضمن الإطار الموعود لفرنسا بموجب اتفاقية سايكس - بيكو، ولذلك ارتأى البريطانيون إنشاء سلسلة من الدول الكردية ذات الحكم الذاتي، على أن يوجد فيها مستشارون سياسيون بريطانيون، وأن يطلب إلى الفرنسيين أن يقرروا للشعب الكردي بحق تقرير المصير وفقاً لروح مبادئ ويلسون. والأكراد شعب جبلي عريق لم يتوحد قط، وطاقاته وجهت إلى خصومات عنيفة مع الجيران، وخصوصاً العرب والأرمن. وقد نتجت عن المحاولة البريطانية لتنظيمهم في عام 1919 ثلاث انتفاضات، إذ أن الأكراد ثاروا على القادمين الجدد البريطانيين، وما لبثت القوات البريطانية أن انسحبت من كردستان أيضاً.

## (2)

وأما ضمن تركيا، فقد استمر الوضع البريطاني في التفكك. كانت السلطات البريطانية لا تزال معتمدة على هدنة مودروس. إن وثيقة الهدنة المقتضبة كانت بمجملها تقريباً تعالج أموراً تتعلق بشؤون سلاح البحرية والشؤون العسكرية وتطلب إلى السلطات التركية أن تسرح جميع قواتها المسلحة ما عدا تلك التي يتطلبها الحفاظ على النظام الداخلي. وقد كدست القوات العثمانية أسلحتها وذخائرها في حفر في الأرض، وأشرف ضباط بريطانيون على الاستسلام، وأخذوا يجوبون المناطق الريفية في مجموعات من اثنين أو ثلاثة. كانت أحكام الهدنة تسمح للسلطات العثمانية بأن تظل مشرفة على الجزء المتبقي من الإمبراطورية أي الجزء الناطق بالتركية، مع احتفاظ الحلفاء بحق احتلال نقاط استراتيجية إذا ما نشأ وضع يهدد أمنهم. ومن الناحية العملية حلت سيطرة الأسطول البريطاني على الساحل مقرونة بالاشراف على شبكات الاتصال والنقل، محل الاحتلال العسكري لتركيا.

بقيت القسطنطينية العاصمة نظرياً مدينة غير محتلة، مع أن قوات الحلفاء كثيراً ما كانت تشاهد فيها. وكان الأسطول البريطاني راسياً قبالة المدينة، كما أن الجنرال الفرنسي لويس فرنشي ديسبيري قائد قوات الحلفاء في الجزء الأوروبي من الإمبراطورية العثمانية، دخل إلى المدينة دخول الظافرين راكباً جواداً، أبيض.

غير أن الحكومة العثمانية التي تألفت لتفاوض على الهدنة سرعان ما عزلها محمد السادس، الذي اعتلى عرش السلطنة في حزيران (يونيو) 1918، وكان همّه الأكبر أن يحتفظ بعرشه. وتحقيقاً لهذه الغاية اتبع سياسة السعي لكسب رضا الحلفاء، وعندما أخذ السياسيون الأتراك يعارضون مطالب الحلفاء ومقترحاتهم، حل البرلمان وبدأ يحكم بمرسوم، وما لبث السلطان محمد السادس أن عيّن صهره زوج أخته لرئاسة الحكومة، وبذلك اكتملت العودة من الحكم الدستوري إلى الحكم الفردي.

غير أن حكومة السلطان لم تسلم من وجود من يتحداها. فقد كانت شبكات مدنية وعسكرية تابعة لحزب تركيا الفتاة ناشطة في سائر أنحاء الأناضول، كما أن وزارة الحربية - إقطاعية أنور - ظلت إلى حد كبير تحت إشرافه [843]. وهؤلاء جميعاً تأمروا على السلطان الجديد ووزرائه آملين أن يحملوا الحلفاء على عرض شروط أفضل للصالح.

وخارج العاصمة كانت السلطة بكاملها تتهاوى. وقد حدثت في الداخل فورة سلب وأعمال قطع طرق ونزاعات أهلية. لقد سبب إنهيار النظام في سائر أنحاء آسيا الصغرى قلقاً للحلفاء، وخصوصاً عندما نجمت عنه تهديدات

لسلامة المسيحيين . وعندما هاجم الأتراك المسلمون القرى اليونانية خلف ميناء صمسون الواقع على البحر الأسود، طلب الحلفاء إلى رئيس الوزراء التركي أن يتخذ إجراء. دب الرعب في نفس رئيس الوزراء فتشاور مع وزير الداخلية بالوكالة الذي أبلغه أن لا سبيل للسيطرة على الوضع من داخل القسطنطينية، وأنه لا بد من إرسال ضابط إلى الميدان لمعالجة الأمور في مواقعها. واقترح وزير الداخلية بالوكالة اسم صديق له، هو الجنرال مصطفى كمال، بطل غاليبولي، الذي حالت معارضته لأنور دون تسلمه المناصب القيادية الكبرى التي استحقها خلال الحرب. فوافق رئيس الوزراء على الاقتراح ونجح مصطفى كمال في الحصول على سلطات مدنية وعسكرية استثنائية واسعة بصفة مفتش عام للجيش التاسع الذي كان مسؤولاً عن معظم الأناضول.

مساء السادس من أيار (مايو) 1919 توجه إلى صمسون في بداية رحلة من أكبر الرحلات السياسية في القرن العشرين. وعند منتصف الليل سارع ويندهام ديدز - خبير المخابرات البريطانية في الشؤون العثمانية - إلى الباب العالي ليحذر الصدر الأعظم من السماح لكمال بالذهاب، ولكنه فوجيء بأنه وصل بعد فوات الأوان.

كان مصطفى كمال قد انطلق إلى صمسون وغايته - وهذا ما يبدو أن ويندهام ديدز قد استشعره - هي تجميع قوات من سائر أنحاء تركيا لمقاومة شروط الحلفاء للصالح إذا ما ثبت أنها شديدة القسوة. وكانت هذه القوات في جزء كبير منها تتألف من جنود عثمانيين في المناطق غير المحتلة في وسط تركيا وشرقها. وشرع مصطفى كمال يخطط لوضع نفسه على رأس هذه القوات متسلحاً بالتفويض الذي حصل عليه من السلطان وبمهاراته الهائلة.

### (3)

كانت تركيا في الفترة 1918 - 1919 بلاداً يخيم عليها الظلام وتعاني من البرد، فالوقود كان نادراً، ومصابيح استانبول كانت خافتة الضوء. وفي بقية البلاد أيضاً دخلت الأراضي التي كانت عند بداية الحرب تشكل الممتلكات العثمانية في حالة ما يسمى الوجود الغسقي، وهي حالة يعرّفها القانون الدولي بموجب الأنظمة الملحقة باتفاقية لاهاي لعام 1907 المتعلقة بقوانين وأعراف الحرب على الأرض. وبما أن بريطانيا كانت دولة الاحتلال في معظم هذه الممتلكات، فقد كان واجبها الأساسي المحافظة على الأمور كما كانت في ظل القانون العثماني ريثما يتخذ قرار نهائي بشأن مصيرها.

وكان لا بد لهذا القرار من أن يتخذ شكل معاهدة صلح بين الامبراطورية العثمانية والدول المنتصرة عليها. ولم تظهر أية صعوبة في الجانب العثماني. فالسلطان كان يعيش في ظل السفن الحربية البريطانية وفي خوف من فقدان عرشه، وربما كان مستعد للتوقيع على أية وثيقة يضعها أمامه قائد البحرية البريطانية. أما الحلفاء فما كان عليهم إلا أن يقرروا في ما بينهم الشروط التي يريدون فرضها.

تبدل الموقف تبديلاً كبيراً في أيار (مايو) 1919 عندما قرر الرئيس ويلسون ورئيس الوزراء البريطاني لويد جورج الإيقاع بين اليونانيين والitalيين في الأناضول. وكان الأثر غير المقصود لهذا القرار هو إثارة آمال اليونانيين ومخاوف الأتراك من أن تكون اليونان عائدة إلى آسيا الصغرى من أجل البقاء فيها. إن كراهية الأتراك المسلمين لمجموعتي السكان المسيحيين الكبيرتين في وسطهم - اليونانيين والأرمن - كان لها دائماً أثر شديد، وعاد هذا الأثر ليظهر الآن حتى في حالة الانهك التي تعاني منها تركيا. وبينما كان رجال الدولة الحلفاء لاهين ومتجهين بأبصارهم إلى ناحية أخرى، كان الجنود العثمانيون في المناطق الداخلية للأناضول يتجمعون ويعودون للاستيلاء على أسلحتهم من الأماكن التي كدسوها فيها.

بعد أيام من شيوع نبأ الانزال اليوناني في أزمير، صدر الأمر إلى المفتش العام مصطفى كمال بالعودة إلى القسطنطينية، ولكنه عصى الأمر، واجتمع بدلاً من تنفيذ الأمر بثلاثة من زملائه، في مدينة أمازييا، العاصمة الإقليمية القديمة، لإعداد مسودة إعلان استقلال. لقد تجاهل مصطفى كمال حكومة السلطان معتبراً إياها أسيرة الحلفاء، فحضر مؤتمراً إقليمياً للوطنيين في أرضروم، في شرق تركيا، ثم دعا إلى مؤتمر على مستوى الوطن في سيفاس الواقعة في المنطقة الداخلية من الأناضول، في منتصف الطريق بين أرضروم وأنقرة. وقد اكتسب ولاء عدد من ضباط الجيش ممن هم في



مثل سنه أو أصغر منه سنًا، وكثيرون منهم كانوا مثله مرتبطين بالجنح العسكري لجمعية الإتحاد والترقي. وفي الأغلب اجتذب إلى صفه الضباط من رتبة رائد ورتبة مقدم أكثر مما اجتذب الجنرالات [844]. ويبدو أنه تولى أيضاً قيادة شبكات المقاومة المدنية والعسكرية التي نظمها أعضاء حزب تركيا الفتاة، ولكنه بفطنته، نفى وجود أية علاقة له بجمعية الإتحاد والترقي التي صدر قرار رسمي بحلها. وبالرغم من توجه مصطفى كمال العلماني القوي، أثبت رجال الدين المسلمون أنهم أخلص اتباعه.

لم يكن قادة الحلفاء يعرفون سوى القليل عن مصطفى كمال، الضابط النحيل العنيد الذي يتحمل شظف العيش، والذي وهو في أواخر الثلاثينيات من عمره، كان ملهم وقائد الثورة عليهم. فلا وزارة الخارجية البريطانية ولا المخابرات البريطانية استطاعت أن تحدد لرئيس الوزراء موقع مصطفى كمال وهل كان في صف السلطان أو ضده.

ومع جهل قادة الحلفاء في أوروبا لما يحدث في تركيا، واصلوا مؤتمراتهم التي كانت الغاية منها تقرير مصير تركيا. وخلال مؤتمر عقد في لندن في 28 شباط (فبراير) 1920 ذهل قادة الحلفاء لدى سماعهم نبأ يفيد أن جيشاً قوامه 30,000 جندي تركي بقيادة مصطفى كمال هزم وحدة فرنسية صغيرة في مراش في جنوب الأناضول. وقد ادعى لويد جورج في ما بعد أن دهشتهم لم تنجم عن نتيجة المعركة (فقد كان عدد المهاجمين يفوق كثيراً عدد الفرنسيين) بقدر ما نجمت عن اكتشاف وجود جيش نظامي بقيادة مصطفى كمال. وقال لويد جورج أن تلك كانت أول مرة يسمع فيها هو وزملاؤه بوجود هذا الجيش. وقد كتب لاحقاً في مذكراته، ملقياً اللوم كعادته على الآخرين: «لم يسبق لمخابراتنا العسكرية إطلاقاً أن كانت عاجزة كلياً عن القيام بعمل المخابرات» [845].

## (4)

مع انتشار ثورة مصطفى كمال في الأناضول، نشأت حركة موازية في الجنوب الناطق بالعربية في الامبراطورية العثمانية، حيث كان الوجود الفرنسي الرمزى على طول الساحل في بيروت وطرابلس وصيدا وصور هدفاً مغرباً للمناضلين المسلمين في دمشق. فالمتطفلون الفرنسيون على ساحل سورية ولبنان كانوا يهددون بإسقاط التوازن الدقيق بين الطوائف الدينية المسيحية والاسلامية، مما استدعى رد فعل لا يختلف عن رد الفعل ضد اليونانيين في تركيا.

سمحت بريطانيا للمناطق الداخلية من سورية، مثلما سمحت للمناطق الداخلية من الأناضول، بالحكم الذاتي. وكانت الإدارة السورية نظرية برئاسة فيصل الذي كان غائباً عن سورية في مؤتمر الصلح، ولكنها عملياً كانت في أيدي أناس لا سلطة له عليهم إلا في ما ندر، وهؤلاء الناس كانوا يتنازعون في ما بينهم. كانت سورية الداخلية - وعاصمتها دمشق، تحكم منذ أكثر من عام بعد التقهقر العثماني، من قبل العرب، ولو بشيء من الفوضى. أما وقد ذاق العرب طعم الاستقلال الجديد فلم تكن لديهم رغبة في التخلي عنه.

لقد أُنذر أحد كبار ضباط المخابرات البريطانية وزير الخارجية في لندن عام 1919 بأن الحكومة العربية في دمشق وحركة مصطفى كمال في تركيا تستعدان للدخول في تحالف [846]. ولكن الحركتين العربية والتركية لم تكونا متشابهتين على النحو الذي اعتقده: ذلك أن مصطفى كمال كان قومياً بالمعنى الغربي، أما في دمشق العربية فالكل يتحدث الآن لغة القومية العصرية، ولكنها ليست لغة أهل البلاد الأصلية. فمعظم القادة الناطقين بالعربية الذين مارسوا الحكم من دمشق في عام 1919 - ربما أربعة من كل خمسة - لم يسبق أن كانوا حتى عام 1918 انصار هوية قومية عربية أو استقلال عربي [847]. والسوريون منهم كانوا في معظمهم من الأسر المالكة للأرض، ولهم مصلحة في المحافظة على النظام القائم. وبدل تحليل للشرائح المهنية التي جاؤوا منها [848]، أن القيادة كانت في جزء كبير منها مؤلفة من جنود وموظفين عثمانيين، كثيرون منهم جاؤوا من العراق وفلسطين، وكانوا بلا عمل. ومعظمهم بقي على الولاء لتركيا خلال الحرب مع بريطانيا.

وفي السنة التي انقضت منذ مغادرة الجيش العثماني دمشق، وتحت أنوف البريطانيين الغافلين الذين كان تفكيرهم منصرفاً إلى الفرنسيين، استعاد

العرب العثمانيون الذين قاوموهم خلال الحرب، السيطرة على المنطقة المحررة. بيد أن العرب العثمانيين كانوا مشرذمين على أسس جغرافية في اهتماماتهم السياسية الراهنة. فالذين جاؤوا من مدن كالقدس شجبوا الصهيونية في فلسطين، والذين جاؤوا من بغداد كانت شكواهم من البريطانيين في بلاد الرافدين.

والسوريون أرادوا طرد الفرنسيين من المنطقة الساحلية ومن لبنان، وفي أثناء ذلك كان زعماء الأسر التقليدية ذات الهوى العثماني والمعادية لفصل على خصام مع الشباب المناضلين الطموحين الساعين وراء مستقبلهم السياسي. ووراء بلاغة الأحزاب السياسية والجمعيات السرية التي عادت إلى الحياة، كانت تكمن نزاعات عائلية ومحلية غامضة. كان الوضع السياسي وضعاً مضطرباً ومحيراً، وفي هذا الوضع لم يكن من ضامن أساسي لوضع فيصل سويد مساندة بريطانيا، وهذه المساندة كانت ممثلة في الظاهر في جيوش الجنرال اللنبي وفي الحدس العربي العام أنه بفضل فيصل ستقاوم بريطانيا أهداف فرنسا الاستعمارية.

إذا عدنا إلى الماضي نستطيع أن نرى أن بريطانيا دخلت العام 1919 وأمامها فسحة من الوقت لا تقل عن تسعة أشهر لاستغلال فرنسا وحملها على الرضوخ. ولكن مع حلول صيف 1919 أكرهت الضغوط المالية وعدم الاستقرار الاجتماعي لويد جورج ووزارة الحرية على الاعتراف بأنه لم يعد بالإمكان تأجيل الانسحاب البريطاني من سورية. وفي 4 أيلول (سبتمبر) 1919 دعا رئيس الوزراء مستشاريه إلى مؤتمر عقد في المنزل الذي يقضي فيه صديقه اللورد ريدل إجازته، قرب تروفي على ساحل نورماندي الفرنسي، للنظر في ما يجب عمله بشأن الشرق الأوسط.

وقبل انعقاد المؤتمر ببضعة أيام دوّن اللورد ريدل في مفكرته أن لويد جورج «كان غاضباً من الفرنسيين بسبب موقفهم المتعلق بسورية. وقال رئيس الوزراء ان السوريين لا يريدون الفرنسيين. وتساءل كيف يستطيع الحلفاء إرغامهم على قبول انتدابات كريهة... لقد تبدل موقفه من الفرنسيين تبديلاً كبيراً... انه لا يفتأ يتحدث عن جشعهم» [849]. مع ذلك لم يجد رئيس وزراء بريطانيا ومستشاروه مفراً من إخلاء السبيل للفرنسيين.

بتاريخ 13 أيلول (سبتمبر) 1919 أعلنت الحكومة البريطانية أن الانسحاب سيحدث في تشرين الثاني (نوفمبر)، وقد رأى القادة البريطانيون انهم بذلك وفوا بالتزاماتهم لفرنسا والعرب. كان هذا إدعاء منافية للصواب. وقد سبق للبريطانيين ان تظاهروا بأن فيصل جاء إلى سورية على رأس جيش عربي كبير، مع أن مسؤولي الحكومة كانوا يعلمون أن هذا التظاهر لا يستند إلى مضمون. وخروج الجيش البريطاني من سورية معناه ترك فيصل تحت

رحمة الفرنسيين. وكان هذا بالنسبة لأتباع كيتشنر في بريطانيا والشرق الأوسط خذلاناً لكل ما عملوا من أجله، أما الفرنسيون فلم يغفروا لبريطانيا محاولتها طوال الأشهر التسعة لحملهم على الرضوخ، بالرغم من تخلي بريطانيا عن المحاولة.

أما بالنسبة لفیصل الأمير المتوتر الأعصاب والذي یفرج غمّه بالمسبحة، فقد كان إعلان الإنسحاب البريطاني منعطفاً مفاجئاً في متاهة الخداع التي حاول أن يتلمس طريقه فيها. ولكن فتحت أمامه لمدة قصيرة إمكانية ممضة وباعثة على الغیظ. ذلك أن كليمنصو، الذي كان كعادته دائماً مستعداً لتقبّل الأفضليات البريطانية في الشرق الأوسط إذا أمكن ذلك سياسياً - أبدي استعداداً للسماح لفیصل بأن يكون ملكاً على سورية (ما دام هذا ما تريده بريطانيا) إذا ما قابله فیصل في منتصف الطريق. لقد وافق رئيس الوزراء الفرنسي أن يدخل مرة أخرى في مفاوضات مع الزعيم العربي بهدف ضمان الاعتراف بالحد الأدنى من شروط فرنسا؛ أي أن تحكم فرنسا لبنان الكبير وأن تكون سورية مستقلة ولكن دولة زبونا لفرنسا. غير أن هذه الشروط الفرنسية وضعت فیصل في الوسط بين قوتين متصادمتين. فعرب دمشق المناضلون الذين ادعوا انهم يتبعونه، من دون أن يكون لهم ارتباط خاص به، كانوا مستعدين للسماح له نفسه حاكمهم ما دام قادراً على إبعاد الفرنسيين عن سورية. في حين أن الفرنسيين كانوا مستعدين للسماح له بأن يحكم بشرط أن ینجح في ادخالهم إلى سورية. ولم يكن في وسع فیصل الغریب في أرض سورية أن يفعل شيئاً سوى أن يتوسط. كل ما كان يستطيع فعله هو أن يحصل على تنازلات من كليمنصو ثم أن يحاول الحصول على تنازلات من المناضلين العرب في دمشق.

في مطلع كانون الثاني (يناير) 1920 توصل فیصل وكليمنصو إلى اتفاق سري - وقد أراد كليمنصو أن يبقى سرياً لأنه كان يسعى لأن يكون رئيساً للجمهورية الفرنسية وحاذر أن يتمكن خصومه من الادعاء بأنه أظهر ضعفاً في مسألة سورية. كان الاتفاق يمنح دولة فیصل العربية الإستقلال بشرط أن يكون مستشاروها فرنسيين حصراً. وكان هدف الاتفاق أن يؤدي إلى انتداب فرنسي ولكن من النوع الأكثر لينا. عند هذا الحد غادر فیصل إلى دمشق ليرى هل يستطيع إقناع القيادة العربية فيها بقبول هذه الشروط اللينة نسبياً. ولكن تبين أن مهمته هذه كانت انعطافاً آخر إلى المجهول في المتاهة السياسية، لأن كليمنصو الذي لم ینجح في سعيه لرئاسة الجمهورية، هجر الحياة السياسية في 17 كانون الثاني (يناير). وقد خلفه في رئاسة الوزراء ألكسندر ميران، الذي لم يكن عنده ميل إلى انقاذ ماء وجه بريطانيا في الشرق الأوسط، ولذلك لم يجد حاجة إلى السماح لسورية بأن تنال استقلالها، ولا إلى السماح لفیصل بأن يعتلي عرشها.



## (5)

في بداية عام 1920 كفت بريطانيا عن الوقوف في طريق طموحات فرنسا في سورية. وصارت الطريق ممهدة أخيراً أمام الدولتين الحليفتين لصياغة الشروط التي ستفرضها على الامبراطورية العثمانية المهزومة. أما الشروط التي اتفقتا عليها آنذاك، فهي فصل الأجزاء الناطقة بالعربية عن الامبراطورية لتتقاسمها هاتان الدولتان الأوروبيتان، بشرط أن تحتفظ بريطانيا بفلسطين وبلاد الرافدين، وتبقى شبه الجزيرة العربية مستقلة وعلى رأسها ملوك خاضعون للنفوذ البريطاني، وكانت بريطانيا قد أخذت فعلاً مصر وساحل الخليج. وتقرر أن تكون سورية، ومن ضمنها لبنان، من نصيب فرنسا. وكان مقدراً لفلسطين، ومن ضمنها شرق الأردن، وسورية ومن ضمنها لبنان والعراق، أن تستقل في نهاية الأمر، إذا كان للمرء أن يصدق لغة انتدابات عصبة الأمم التي بموجبها أعطى الحلفاء أنفسهم هذه الأراضي. ولكن فرنسا، بصورة خاصة، اعتبرت التعهد بالاستقلال مجرد زينة للناظرين وقاربت سورية ولبنان بروح الضم.

وباستثناء جزر الدوديكانيز، فإن معظم جزر بحر إيجه وكذلك تركيا الأوروبية (شرق تراقيا) قد سلخت وأعطيت لليونان. أما أزمير ومنطقة غرب الأناضول التي كانت أزمير كبرى مدنها، فقد تقرر أن تتولى اليونان إدارتها مدة خمس سنين، ثم يجري استفتاء، ربما يؤدي إلى دمج المنطقة هذه في المملكة اليونانية. وأما الدردنيل، حيث يستطيع الأسطول البريطاني أن يمارس تأثيره، فقد وضع تحت إشراف دولي، وأصبح هو والقسطنطينية، رهينتين لضمان حسن سلوك تركيا في أمور مثل معاملة الأقليات المسيحية. وفي شرق الأناضول مُنحت أرمينيا الإستقلال وأعطيت كردستان الحكم الذاتي. ووضعت الشؤون المالية التركية تحت إشراف بريطانيا وفرنسا وإيطاليا. وضمن هذه الحدود ووفقاً لهذه القيود، يكون القليل الذي تبقى من الأناضول الناطقة بالتركية مستقلاً استقلاً إسمية وعلى رأسه السلطان العثماني.

هذه الشروط التي إتفق عليها في لندن وسان ريمو في النصف الأول من عام 1920، والتي أُمليت على حكومة السلطان - فوقعت هذه الحكومة مكرهة على المعاهدة التي فرضت عليها في آب (أغسطس) 1920 في ضاحية مدينة سيفر الفرنسية. ويبدو أن الزعيم الفرنسي بوانكاريه كان الوحيد الذي لاحظ أن الاختيار لم يكن ميموناً بالنسبة لمكان توقيع معاهدة تنوي أوروبا الإعتماد عليها. فقد اشتهرت سيفر بصناعة أواني الخزف الصيني، وخزنها هش سهل الكسر.

كان لويد جورج الوحيد من بين الأربعة الكبار الأصليين الذي بقي في منصبه عند توقيع معاهدة الصلح النهائية، وكان العضو الوحيد في مجلس الوزراء البريطاني الذي ظل عضواً في مجلس الوزراء منذ بداية الحرب وطوال الحرب وحتى انتهائها. وهو كان السياسي البريطاني الوحيد حالفته النجاة في الحرب، وكان سيصبح الزعيم الوحيد من زعماء دول الحلفاء الذي سيستمر في السلم. ولكن التسوية العثمانية، التي كان فخورة بها، لن تلبث أن تبرهن أنها القاضية عليه.

# الجزء العاشر

## العاصفة تهب على آسيا



# الفصل الاول

## بداية المتاعب 1921 - 1919

عندما احتلت القوات المسلحة البريطانية الشرق الأوسط في نهاية الحرب، كانت المنطقة مستكينة. وسرعان ما بدأت الاضطرابات، كانت داران ايران در دوران بدايتها في مصر، مع مطالبات بالاستقلال في عام 1918 تبعتها أعمال شغب في عام 1919، وتلت ذلك دون أن تكون بين الأمرين صلة مباشرة ظاهرة - حرب 1919 في أفغانستان، عند حدودها مع الهند. وفي الوقت نفسه تقريباً، بدأت السياسة البريطانية في شبه الجزيرة العربية تتفسخ. كان بالإمكان الاعتقاد أن الأمر لا يعدو أن يكون سوء حظ جعل الأشياء تتلاحق ات وتسوء بالنسبة لبريطانيا في الشرق الأوسط. وكان بإمكان المرء أن يستمر في هذا الاعتقاد عندما حدثت اضطرابات قبلية أدت إلى فوضى في الأردن، أو عندما قام العرب في ربيع عام 1920 بأعمال شغب معادية لليهود في غرب فلسطين، أو عندما اشتعل لهيب الثورة في العراق في صيف عام 1920. والتفسير الواضح، ولا بد انه الصحيح، لهذه الاضطرابات، هو أن الحاميات البريطانية في الشرق الأوسط بعد الحرب النخفض عدد أفرادها انخفاضاً كبيراً جعل خصوم بريطانيا المحليين في كل مكان يتجرؤون على تحديها.

وقد ضعف وضع الفرنسيين في الشرق الأوسط مثلما ضعف وضع البريطانيين، نتيجة الضغوط من أجل الاقتصاد في النفقات وتسريح الجنود، فواجهوا مثل بريطانيا تحدياً من قبل السياسيين العرب، وما لبثوا أن شتوا حرباً هلى هؤلاء السياسيين في سورية. كذلك فإن روسيا المهزومة في الحرب والتي أقعدتها الثورات والحرب الأهلية، واجهت ثورات من قبل المسلمين وحركات استقلالية في آسيا الوسطى، أي المنطقة الروسية في الشرق الأوسط. ولكن بدلاً من أن يجد الفرنسيون والروس قضية مشتركة مع بريطانيا، تآمروا لتقويض وضعها في الشرق الأوسط، وبذلك جعلوا المسألة محيرة إذ صار مقبولا الافتراض انهم يسببون المصائب لبريطانيا وليس فقط يزدون في مصاعبها.

وبالعودة إلى الماضي يرى المرء بريطانيا تجتاز زمناً من المتاعب في كل مكان من الشرق الأوسط بين عامي 1919 و1920. ولكنها لم تكن صاحبة تجربة في هذا المجال، على أقل تقدير في البداية. وعلى سبيل المثال نظرت إلى أعمال الشغب التي وقعت في مصر عام 1919 على انها

مشكلة محصورة في مصر، أي مشكلة لحفظ القانون والنظام تمت السيطرة عليها، ولم تنظر إلى تلك الأعمال باعتبارها توطئة لأعمال الشغب التي نشبت في فلسطين في ربيع العام التالي أو توطئة للثورة التي انتشرت في العراق عند نهاية فصل الربيع وبداية الصيف. ولذلك فإن الفصول التالية تتحدث عن التحديات المتلاحقة التي واجهتها بريطانيا في الشرق الأوسط - وواجهتها فرنسا أيضا التي أسلمت بريطانيا سورية إليها - وسيكون الحديث عنها بترتيب زمن وقوعها، وكأنها مجرد مجموعات منفصلة من الصعوبات تأتي المجموعة منها تلو الأخرى.

ومع أن هذه الصعوبات لم يُنظر إليها في ذلك الحين على أنها تحدث متزامنة بحيث تشكل حدثاً شاملاً كبيراً، فقد كان الاعتقاد لدى عدد كبير من المسؤولين البريطانيين أن هناك مجموعة واحدة من المتأمرين هي التي حرّضت على المؤامرات والثورات المتفرقة على الحكم البريطاني.

وسنرى الآن من هم هؤلاء المتآمرون حسب اعتقاد المسؤولين البريطانيين. وكانت إحدى المسائل الرئيسية التي جابهت حكومة لويد جورج عندما انبثق التحدي للحكم البريطاني في الشرق الأوسط في عام 1919 و1920 وظل هذا التحدي ماثلاً أمام الرأي العام والصحافة والبرلمان في بريطانيا حتى عام 1921، هي مسألة هل كانت الاضطرابات والانتفاضات في الشرق الأوسط في الواقع أعمالاً مخططة ومنسقة أم أنها على عكس ذلك أعمال متفرقة.

## الفصل الثاني

### مصر شتاء 1919 - 1918

أول تحدٍ لوضع بريطانيا في الشرق الأوسط بعد الحرب كان في مصر، البلد الناطق بالعربية الذي حكمته «مؤقتاً»، مدة عقود من السنين، والذي أقنع حكامه البريطانيون أنفسهم في البداية بأن الشعوب الناطقة بالعربية تفضل الحكم البريطاني على أي حكم آخر. ولكن بريطانيا كانت قد وعدت مصر تكراراً بالاستقلال، ولم يكن بعيداً عن المنطق أن يصدق السياسيون المصريون التعهدات البريطانية وأن يفترضوا أنه بمجرد انتهاء الحرب نهاية ناجحة ستوافق بريطانيا على جدول زمني ما، يؤدي في نهاية الأمر إلى استقلال مصر<sup>[850]</sup>. لقد رأت فئة واحدة على الأقل من السياسيين المصريين أن تأخذ كلمة بريطانيا على علاتها. وفي 13 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918، أي بعد مرور أسبوعين على الاستسلام العثماني على متن السفينة الحربية أغاميمنون، منح وفد من السياسيين المصريين الذين لم يكونوا يشغلون مناصب رسمية مقابلة مع سير ريجينالد وينغيت، المندوب السامي البريطاني في القاهرة. وقد شكل الوفد وترأسه سعد زغلول، المحامي الذي كان في نحو الستين من عمره وسبق له أن كان قاضياً، وإدارياً، ووزيراً للتعليم، ووزيراً للعدل، ورئيساً للجمعية التشريعية، التي كان البريطانيون قد حلّوها إلى أجل غير محدود عند بداية الحرب. أوضح سعد زغلول لوينغيت أنه طلب المقابلة متوقعاً إلغاء الأحكام العرفية والحماية قريباً ما دامت الحرب قد انتهت. وقال أنه يتوقع من بريطانيا أن تفي بوعدها فتمنح مصر الاستقلال، وطلب أن يسمع الحلفاء كلمة مصر خلال مفاوضات الصلح. وطلب أيضاً أن يذهب إلى لندن ليفاوض بشأن التغييرات الموعودة في مكانة السياسية.

لكن لا المفاوضات ولا الاستقلال كانت آنذاك واردة في أذهان المسؤولين البريطانيين. إننا نجد ما يرشدنا إلى تفكيرهم في رواية مسؤول بريطاني، رواها في وقت لاحق، عن الاجتماع الذي عقد مع زغلول. قال هذا المسؤول: «في 13 تشرين الثاني (نوفمبر) قام بزيارة إلى المندوب السامي وأعرب عن الرغبة في الذهاب إلى لندن لي طرح برنامجاً للحكم الذاتي الكامل، فرفض هذا الاقتراح باعتبار أنه لا يخدم أي هدف جيد»<sup>[851]</sup>.

وبما أن زغلول لم يلق أي تشجيع من وينغيت، فقد أخذ في اليوم عينه يحاول فرض المسألة.

ولعله كان يعمل بتأييد سري من سلطان مصر الجديد، أحمد فؤاد [852]، فشرع في تنظيم وفد يستطيع أن يحظى بتأييد واسع من سائر الفئات والطبقات المصرية التي كان يطمح إلى تمثيل مصالحها. وهذا ما حمل شخصيات سياسية منافسة على تأليف وفود أخرى برئاسة. وفي 17 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918 أبرق وينغيت إلى وزير الخارجية قائلاً أن السياسيين المصريين يطالبون ببرنامج للحكم الذاتي الكامل»، وأنه حذرهم من إثارة الاضطرابات [853]، ولكن السلطان ووزرائه يشعرون أنهم ليسوا أقوياء بما يكفي لمقاومة المطالب الوطنية. والحقيقة أن وزراء السلطان، رغبة منهم في تحاشي النظر إليهم كمرشحي بريطانيا، أدعوا أنهم يرفضون رئاسة أي وفد إلى الخارج، إذا لم يسمح لزغلول وزملائه بالذهاب إلى أوروبا. في هذه الحالة لم تسمح بريطانيا لأي وفد بالذهاب إلى لندن أو إلى باريس خلال عام 1918.

في كانون الثاني (يناير) 1919، ومع اقتراب تاريخ افتتاح مؤتمر الصلح، زاد زغلول وحزبه، حزب الوفد، من نشاطهم، وقد ساءهم أن يعلموا بتاريخ 12 كانون الثاني (يناير) أنه سمح لوفد من سورية بحضور مؤتمر الصلح، وفي مؤتمر عام لحزب الوفد عقد في اليوم التالي في منزل أحد أعضاء الحزب، طالب زغلول بالحق نفسه لمصر ودعا إلى الاستقلال. وعلى أثر ذلك منعت الإدارة البريطانية زغلول من التحدث في العلن، وعندها استقال وزراء السلطان مفضلين الاستقالة على رئاسة وفد إلى أوروبا بينما زغلول ممنوع من الكلام. عندها ألقت السلطات العسكرية البريطانية القبض على زغلول وثلاثة من زملائه الرئيسيين، وفي التاسع من آذار (مارس) نفتهم إلى مالطا.

عمّت البلاد موجة مظاهرات واضرابات، ففوجئت السلطات البريطانية بهذا التطور. إن البرقيات التي أرسلت في ذلك الحين من القاهرة إلى لندن، تدل على أن مقر المندوب السامي البريطاني كان قليل الفهم لما حدث في مصر خلال سنوات الحرب [854]. فلم يكن مدركاً لما تنطوي عليه ضمناً التبدلات الاجتماعية والاقتصادية العميقة التي أحدثتها الحرب: أي الطبقات الجديدة والطموحات الجديدة التي انبثقت، والمصالح الجديدة والاستياءات الجديدة والمصادر الجديدة للخلاف والنقمة.

بل أن مقر المندوب السامي لم يكن يعلم أن كثيرين من المصريين كان يسعدهم أن يروا بريطانيا تخسر الحرب مع تركيا. وقد سبق لوينغيت وكلايتون وشركائهما أن أشاروا، في معرض جدلهم الفاشل، بأن بريطانيا

يجب أن تضم مصر وتحكمها حكماً مباشراً، إلى بعض الأخطار التي قد تنشأ إذا ما تولى مثل هؤلاء المصريين زمام الأمور في مصر. لقد كتب هوغانر باسم المكتب العربي مذكرة تاريخ 22 تموز (يوليو) 1917 تأييداً لاقتراح كلايتون ضم مصر، ادعى فيها أن مصر حالية يمكن أن تكون بلداً عدواً، وأن هذا الخطر لا يمكن تفاديه إلا بتولي بريطانيا مسؤولية إعادة تنظيم المجتمع المصري [855].

في عالم السياسة المصرية الموحد، كان السلطان الجديد.. ووزرائه وقادة المعارضة أمثال زغلول، ينادون جميعاً، أحياناً لمصلحة بعضهم بعضاً وأحياناً أخرى ضد بعضهم بعضاً، وكل منهم يغطي مناوراته بمقترحاته الوطنية، من أجل كسب تأييد مختلف الفئات الناقمة الساخطة ضمن الإقتصاد المصري والمجتمع المصري. ولكن السلطات البريطانية لم تظهر سوى قليل من الإدراك لهذه التيارات المقوضة لبنية المحمية والمهددة بزوالها يوماً ما. لقد رأت هذه السلطات في زغلول مجرد انسان متبرم يسعى وراء منصب ويستخدم طلباته السياسية وسيلة للحصول على وظيفة حكومية. وهو، حسب رأي مقر المندوب السامي في عام 1917 «أخذ يتقدم في العمر ولعله يرغب في تأمين دخل» [856]. ولكن لم يمض أسبوع على اعتقاله ونفيه حتى انتشرت المظاهرات من القاهرة والاسكندرية والمدن الأخرى إلى دلتا النيل، وأدت إلى أعمال عنف، وتبعثها اضطرابات واسعة النطاق. ودمّرت خطوط السكة الحديدية في أماكن رئيسة، ومن دواعي السخرية أن ذلك حدث وفقاً لخطة رسمتها بريطانيا في زمن الحرب لتقطيع أواصر البلاد في حالة حدوث غزو عثماني.

وقد أضرب عمال النقل. وفي 16 آذار (مارس) 1919، أي بعد مرور اسبوع على نفي زغلول، انقطعت مواصلات السكك الحديدية والاتصالات البرقية بين القاهرة وكل من الدلتا العليا، وحوصرت تجمعات الجاليات الأجنبية، وانتشر لهيب الفوضى إلى حدود لا يمكن السيطرة عليها. واتسع نطاق مهاجمة العسكريين البريطانيين وبلغ الذروة في 18 آذار (مارس) بقتل ثمانية منهم - ضابطين، وخمسة جنود ومفتش سجون - على متن قطار كان متجهاً من أسوان إلى القاهرة.

وقد أبلغت إدارة المندوب السامي الجهات المختصة انه ليست لديها «أية وسيلة لاستعادة السيطرة على الوضع في مصر العليا، ولا تصلها عملية أية أخبار من هناك» [857]. ووفقاً لرواية حديثة، «بدا الهيجان في وقت ما وكأنه سيؤدي إلى ثورة على نطاق لا نظير له في امبراطورية بريطانيا

الشرقية منذ التمرد في الهند» [858]. لقد كانت في هذه المخاوف مبالغة - ولكن الشعور بها كان شعوراً حقيقياً وواسع النطاق.

إن ما صدم مكتب المندوب السامي هو أن الثورة كانت «ذات توجه بلشفي» وان «الحركة الحالية في مصر هي حركة وطنية بالمعنى الكامل للكلمة. إذ أنها تحظى الآن بتعاطف جميع الطبقات والمذاهب...» [859]. لقد كان الأقباط يتظاهرون جنباً إلى جنب مع المسلمين. وطلاب المعاهد الدينية كانوا يتظاهرون جنباً إلى جنب مع طلبة المدارس العلمانية. والنساء، وان كن فقط من الطبقات العليا، خرجن للتظاهر مع الرجال [860]. ولكن الأمر الذي أوهن عزيمة السلطات البريطانية هو اشتراك الفلاحين في الريف - هذه الجماهير المسالمة التي اعتمدت السلطات البريطانية على خمولها. ومما أفقد هذه السلطات رباطة الجأش أيضاً اكتشافها لاحقاً أن الانتفاضة كانت منظمة. وفجأة وجدت السلطات البريطانية نفسها في مواجهة سياسي من أهل البلاد بدا أن له أتباعاً على مستوى وطني - وهذا الأمر أدهشها وربما أدهش هذا السياسي نفسه.

أرسلت الحكومة البريطانية الجنرال اللنبي على عجل لمعالجة الوضع، فوصل إلى القاهرة في 25 آذار (مارس) وأعلن عزمه على وضع نهاية للاضطرابات. وفي السابع من نيسان (ابريل) أعلن الإفراج عن زغلول. وشيئاً فشيئاً استعادت القوات البريطانية النظام في ربيع وصيف 1919، ولكن الاضرابات والمظاهرات استمرت.

في نهاية عام 1919 أرسلت لندن لجنة تحقيق برئاسة اللورد ميلنر، واستخلصت اللجنة من تحقيقها أنه لا بد من إلغاء الحماية لتحل محلها علاقة جديدة ما، وأما طبيعة هذه العلاقة فقد حاولت بريطانيا تحديدها عن طريق التفاوض طوال السنوات 1920 و1921 و1922.

لقد ثبت أن هذا النهج يبعث على الإحباط، وان نفي زغلول مرة أخرى لن يفيد كثيراً، وهكذا فإن الوهم البريطاني الكبير بشأن الشرق الأوسط - أي أن الشرق الأوسط يرغب في أن تحكمه بريطانيا أو أن يُحكم بمساعدتها - اصطدم بجدار صلب من الواقع. فقد رفض السلطان وزعماء مصر الآخرون أن يقبلوا بحكم ذاتي فقط أو حتى باستقلال إسمي. فقد طالبوا باستقلال كامل ناجز، وهذا ما ترفض منحة بريطانيا المعتمدة على قناة السويس. لقد حاول المسؤولون البريطانيون أن يتوصلوا إلى اتفاق ما مع الزعامة المصرية، فأخفقوا، ولذلك اضطرت بريطانيا أن تحتفظ في السنين التالية بوجودها العسكري وهيمنتها في مصر رغم إرادة السياسيين المصريين.

ولكن برز على الجانب الآخر من الشرق الأوسط، أي في افغانستان، سؤال حقيقي. عما إذا كان باستطاعة بريطانيا أن تحتفظ بهيمنتها من دون موافقة القادة المحليين.

## الفصل الثالث

### أفغانستان: ربيع عام 1919

كانت مصر، وفيها قناة السويس الحيوية، أحد المواقع الاستراتيجية الرئيسية على طريق بريطانيا إلى الهند. وكانت أفغانستان، بممراتها الجبلية المؤدية إلى سهول الهند، موقعا آخر من هذه المواقع الاستراتيجية الهامة. وخلال قرن من الزمان سالت دماء كثيرة من الجيوش البريطانية في محاولتها منع القوى المعادية من السيطرة على هذه المملكة الجبلية الشرسة. واعتقد رجال الدولة البريطانيون أن المسألة وجدت حلا مرضية لهم في عام 1907 عندما وافقت روسيا على أن تصبح المملكة محمية بريطانية.

غير أن أمير أفغانستان اغتيل في 19 شباط (فبراير) 1919، وبعد مدة قصيرة ناور خلالها المتنافسون على خلافته، كتب ثالث أبنائه، أمان الله خان البالغ من العمر ستة وعشرين عاما، إلى الحاكم العام للهند ليبلغه انه اعتلى عرش «أفغانستان الحرة المستقلة»<sup>[861]</sup>، ولم تكن أفغانستان، بطبيعة الحال، كاملة الحرية والإستقلال بموجب أحكام اتفاق بريطانيا مع روسيا عام 1907، إذ كانت بريطانيا مسؤولة عن إدارة علاقات أفغانستان الخارجية. مع ذلك انطلق الحاكم الجديد ليؤكد استقلاله التام في الشؤون الخارجية والشؤون الداخلية على السواء.

رسم أمان الله في السر خطة لمهاجمة الهند البريطانية - عبر ممر خيبر - وعلى أن يتزامن الهجوم مع انتفاضة وطنية هندية في بيشاور، المدينة التي تقع فيها الحامية البريطانية الرئيسة قرب الحدود<sup>[862]</sup>. واعتقد أمان الله ان انتفاضة هندية شاملة لسائر أنحاء الهند ستتيح انتفاضة بيشاور.

بيد أن قائد جيش أمان الله بدأ الهجوم قبل الأوان، أي قبل أن يتوافر الوقت لتنظيم انتفاضة بيشاور، وبذلك نبه البريطانيين من دون وعي منه إلى الخطر الذي يهددهم. ففي 3 أيار (مايو) 1919 عبرت وحدة من الجنود الأفغان الحدود إلى الهند البريطانية عند قمة خيبر، واستولت على قرية حدودية ومحطة ضخ تتحكم بمورد الماء الذي يعتمد عليه مركز عسكري هندي قريب. وفي 5 أيار (مايو) أبرق الحاكم العام للهند إلى لندن قائلاً: أنه يبدو أن حرباً - الحرب الأفغانية الثالثة - قد بدأت.

قال أمان الله انه أمر قواته بالتوجه إلى الحدود رداً على القمع البريطاني للاضطرابات في الهند.



وأشار إلى مذبحة امریتسار [863]، وإلى السياسة التي ترمز إليها المذبحة، فقال انه باسم الإسلام والإنسانية يرى أن الشعوب الهند الحق في الثورة على الحكم البريطاني، وأن قواته اتجهت إلى الحدود لتمنع انتشار الفوضى. لم يكن البريطانيون متيقنين من نيّاته. كل ما بلغهم هو أن بعثة عسكرية ألمانية كادت خلال الحرب أن تقنع الحكومة الأفغانية بغزو الهند، واعتقدوا أيضاً أن زملاء أنور باشا القدامى من أنصار الحركة الطورانية، وكذلك الحكومة البلشفية الجديدة في روسيا، قد يؤثرون على الحكومة الأفغانية بطرق خطيرة. وتلقت السلطات البريطانية معلومات مفرّعة في شهر أيار (مايو)، عندما عبرت قوات أمان الله الحدود، تفيد أن الأفغان قد خططوا لهجوم على ثلاث جبهات في آن واحد، وأن طليعة هذا الهجوم مؤلفة من جموع غفيرة من المتعصبين دينية، استجابوا لنداء الجهاد، ويساندتهم جنود نظاميون بالتنسيق مع القبائل الحدودية [864]. وهذا كله يحدث في وقت شلت فيه حركة القوات البريطانية نتيجة لأعمال شغب واسعة النطاق في الهند [865].

كان اعتقاد الضباط البريطانيين في المنطقة الحدودية أنه لا بد من عمل فوري، فهاجموا المواقع الأفغانية، وحدث قتال لم يسفر عن نتيجة نهائية، في نقاط متفرقة على امتداد جبهة واسعة. وقد تبين للبريطانيين أن انعدام الثقة بالوحدات المسلحة من أهل البلاد هو واحد فقط من أمور مزعجة عديدة اكتشفوها خلال حملة تتسم بالفوضى ولا شعبية لها ولا تبعث على الرضى. وبينما كانت حكومة الهند البريطانية تجد صعوبة في تدبير المال، وجدت نفسها مضطرة إلى زيادة ميزانيتها زيادة ضخمة بمقدار 16.750.000 جنيه لتغطية أكلاف حملة شهر واحد [866].

لقد نجحت القوات البريطانية في طرد القوات الأفغانية من الهند، وكانت لها اليد العليا في نهاية شهر أيار (مايو)، ولكن عددها لم يكن كافياً لكي تأخذ على عاتقها غزو المملكة الأفغانية وإخضاعها. إن ما حقق النجاح للقوات البريطانية هو استخدام الطائرات التي عجز رجال القبائل عن مقاومتها بأسلحتهم البدائية. وكان قصف سلاح الجو الملكي للمدن الأفغانية هو على وجه الخصوص السبب الذي أفقد أمان الله رباطة جأشه وحمله على أن يطلب الصلح. لكن حصيلة الحرب، من وجهة النظر الأفغانية، كانت أفضل من التكافؤ. صحيح أن الأفغان انسحبوا من الهند ولكنهم استردوا حريتهم ضمن حدود بلادهم.

إن معاهدة راوالبندي التي تم التوقيع عليها صباح 8 آب (أغسطس) 1919 وضعت النهاية للحرب الأفغانية الثالثة، وبموجبها سلمت بريطانيا باستقلال

أفغانستان الكامل وتنازلت عن إشرافها على علاقات أفغانستان الخارجية - هذا الإشراف الذي كانت بحاجة إليه لإقصاء الدول الأجنبية المعادية، وفي مقدمتها روسيا، عن المملكة الجبلية ذات الموقع الاستراتيجي الهام. ولكن ما أن عقدت معاهدة راوالبندي حتى سارعت حكومة أفغانستان إلى الاستفادة من استقلالها الجديد للدخول في معاهدة مع البلاشفة، ومن ضمن أحكام هذه المعاهدة السماح لروسيا بإنشاء قنصليات لها ضمن المملكة الأفغانية. ومع حلول عام 1921 أخذت السلطات البريطانية التي فقدت رباطة جأشها، تطالب الأفغان بتغيير اتفاقيتهم مع البلاشفة بحجة أن الروس يقيمون قنصلياتهم «في أماكن بعيدة جدا عن نطاق مصالح روسيا المشروعة؛ وهذا يدل بوضوح على أن هذه القنصليات لا هدف لها إلا المساعدة على التآمر العدائي قرب الحدود الهندية» [867]

وفي عام 1921 دخلت بريطانيا مفاوضات جديدة مع نظام الحكم الأفغاني. وقد كتب مراسل جريدة «التايمز» بتاريخ الأول من أيلول (سبتمبر) 1921 انه يجب تقديم تنازلات سخية. وقال:

«إن مجلس الوزراء البريطاني، بالرغم من نفوذ اللورد كورزون، الذي صارت معرفته الواسعة بالشرق من مخلفات الماضي»، يجب أن يقتنع بضرورة الاعتراف بالقومية الأفغانية وباستقلال أفغانستان، فإذا ما حدث ذلك، فستكون حكومة كابول مستعدة لإظهار الصداقة لبريطانيا.

ولكن سنوات الوصاية التي فرضتها بريطانيا على أفغانستان، لم تولد الصداقة بل ولدت الاستياء. وخلال مفاوضات عام 1921 تمكن الوفد البريطاني من تقديم البرهان على أن الأفغان شاركوا في مؤامرة على بريطانيا، إذ أن المخابرات البريطانية كانت قد حلت الرموز السوفياتية وعلمت منها بخطط للقيام بعمل عسكري أفغاني وروسي مشترك ضد الإمبراطورية البريطانية [868].

وبالرغم من التنازلات السخية التي قدمها الوفد البريطاني، استمر نظام كابول في تقديم التسهيلات إلى ممثلي البلشفيك، وسرعان ما تبين أن عملاء من الروس يتآمرون مع قبائل الحدود ذات النزعة الحربية، وأن تأمرهم يحقق نجاحاً [869].

يمكن القول بطبيعة الحال ان أفغانستان كانت دائما تخلق مشاكل صعبة وان النكسة التي أصيب بها النفوذ البريطاني هناك هو حدث معزول واستثنائي. ولكن السياسة البريطانية في شبه الجزيرة العربية أيضاً كانت في حالة يرثى لها - مع ان شبه الجزيرة العربية كانت تبدو مفتوحة للنفوذ البريطاني ويحكمها ملوك ينادون بالصداقة مع بريطانيا. وفي ربيع عام

1919، في أثناء الحرب الأفغانية الثالثة، واجهت بريطانيا فجأة وضعاً ينبئ بالخسارة في شبه الجزيرة العربية. وبالرغم من عدم وجود صلة ظاهرة بين الأمرين أو بين أي منهما والوضع في مصر، فقد أوحى تزامن حدوث الصعوبات في الأطراف الغربية والشرقية والجنوبية لامبراطورية الشرق الأوسط البريطانية، أن بريطانيا قد تكون تمادت في توسعها بالتزاماتها الامبراطورية.

# الفصل الرابع

## شبه الجزيرة العربية: ربيع عام 1919

بدأت شبه الجزيرة العربية أنها من بين كل أراضي الشرق الأوسط هي المنطقة الأكثر ملاءمة بطبيعتها لأن تكون منطقة محظورة على غير البريطانيين. فسواحلها الطويلة يسهل على الأسطول البريطاني أن يسيطر عليها. واثنان من ساداتها الرئيسيين: الشريف حسين، في الغرب وابن سعود في الوسط والشرق، هما بحماية بريطانيا ويتلقيان دعماً مالياً كبيراً ومنتظماً من الحكومة البريطانية. ومنذ عام 1919 لم تحاول أية دولة أوروبية منافسة أن تدس أنفها في الشؤون السياسية لشبه الجزيرة العربية. لقد بقيت الساحة خالية لبريطانيا.

ولكن ما كادت الحرب العالمية الأولى تنتهي حتى اضطر مجلس الوزراء البريطاني للاعتراف بأن سياسته في شبه جزيرة العرب قد اختلت. فالخصومة بين حليفي بريطانيا - الحسين ملك الحجاز وابن سعود سيد نجد - كانت على أشدها. وقد اشتكى الحسين من أنه مضطر لإنفاق 12,000 جنيه شهرياً من الدعم البريطاني الذي يتلقاه، في سبيل الدفاع عن نفسه من هجمات يشنها عليه ابن سعود، الذي يتلقى بدوره 5,000 جنيه شهرياً على سبيل الدعم<sup>[870]</sup>. وكان رأي ممثلي بريطانيا الذين نقلوا شكوى الحسين أن تمويل بريطانيا لابن سعود والحسين اللذين يتقاتلان هو نوع من السخف<sup>[871]</sup>. وهكذا نشأ نزاع مرير داخل الحكومة البريطانية بشأن ما ينبغي عمله، وهذا النزاع أدى إلى شلل عملية اتخاذ القرار، وبالتالي لم يتخذ أي قرار. فقد كانت مسودات التعليمات والإنذارات النهائية تكتب دون أن ترسل إلى الجهات المعنية. والمسؤولون الذين كانوا يتخذون القرارات لم يخبرهم أحد أن مسؤولين آخرين قد ألغوا قراراتهم. وكانت الأفكار تتبدل بين يوم وآخر.

كان النزاع يتركز على ملكية خرمة وترابة، وهما موقعان للحضر صغيران عند إحدى الواحات، ومكانهما عند الحدود الفاصلة بين منطقتي نفوذ الحسين وابن سعود. كانت المسائل المتنازع عليها أكبر مما تبدو، ويعود هذا جزئياً إلى أن امتلاك خرمة وترابة يعني كسب ولاءات قبلية وبالتالي

مساحات واسعة من المراعي، ولكن أهم من ذلك أن النزاع كان ذا صبغة دينية. كانت النشرة العربية» قد نشرت في مطلع عام 1918 شكاوي من الحسين لأن سلطته يقوضها تغيير مذهب الناس الديني على أيدي المواليين لابن سعود. ذلك أن مطالبة السعوديين بخربة وتربة منشؤها تغيير المذهب الديني.

كان ابن سعود منافحاً بالوراثة عن تعاليم محمد بن عبد الوهاب، الزعيم الديني الذي ظهر في القرن الثامن عشر وتعزز تحالفه مع آل سعود في عام 1745 بالتزواج بين الأسرتين. وكان الوهابيون (كما يسميهم خصومهم) شديدين في اصلاحاتهم التطهيرية التي كان يرى فيها خصومهم تعصبا. وقد عرف ابن سعود بنبوغه، كيف يستفيد من طاقات هؤلاء المتعصبين لأغراض سياسية.

بدأت في نهاية عام 1912 حركة انبعاث ديني قدر لها أن تغير طبيعة الأمور السياسية في شبه الجزيرة العربية لمصلحة ابن سعود. فقد بدأ رجال القبائل يبيعون خيولهم وجمالهم وممتلكاتهم الأخرى في المدن ذات الأسواق، لكي يستقروا في تجمعات زراعية تعاونية ويعيشوا الحياة الدينية الوهابية بقسوتها. وقد عرفت حركتهم هذه باسم «الإخوان» وعلى الفور وضع ابن سعود نفسه على رأس هذه الحركة [872] التي وقّرت له جيشاً من البدو الحقيقيين - أعظم المحاربين في شبه الجزيرة العربية. وقد أخذت تتقلص سلطة شيوخ كل قبيلة ضمن حركة الإخوان ويتقلص معها الانفصال بين القبائل، بينما أخذت تنمو سلطة ابن سعود.

لقد رأى الحسين في انتشار هذه العقيدة التطهيرية غير المهادنة في الحجاز المجاورة خطراً يهدد بتقويض سلطته. كان الحسين سنياً، وبالنسبة له كان الوهابيون أعداءه في العقيدة والسياسة.

وقد أرسل حملة تلو حملة فاشلة إلى خربة وتربة لكي يدعو سكانهما إلى الرجوع عن طرقهم الوهابية. وكانت الحملة النهائية في ربيع عام 1919 إبان النشوة بانتصار الحلفاء على الامبراطورية العثمانية. كان على رأس الحملة عبد الله بن الحسين وقوامها 5.000 رجل من الجيش الحجازي المدرب ومعه أسلحته الحديثة التي زوده بها البريطانيون خلال الحرب. وفي 21 أيار (مايو) 1919 احتل جنود عبد الله تربة، وعند ذلك انطلق ابن سعود من الرياض لمهاجمتهم. ولكن المعركة الحاسمة والشرسة التي استعدّ لها كلا الطرفين لم تحدث إطلاقاً. فقد وصلت قوة من الإخوان قوامها 1,100 رجل من الهجانة انطلقت قبل تحرك قوات ابن سعود للقيام بعملية استكشاف، فهاجمت معسكر عبد الله ليلة 25 أيار (مايو). لقد باغت هؤلاء الإخوان المسلحون فقط بالسيوف والرماح والبنادق القديمة الجيش

الحجازي الذي كان يغط في النوم وقضوا عليه. ونجا عبد الله بن الحسين بنفسه هاربة بقميص النوم، أما جنوده فلم يستطيعوا النجاة [873] كانت هزيمة قوات الحسين هزيمة كاملة، مما استدعى مجيء بريطانيا لإنقاذه، فأرسلت طائرات بريطانية إلى الحجاز، وأرسلت انذارات بريطانية إلى ابن سعود [874]. ولكن ابن سعود، بما عهد عنه من دبلوماسية، تفادي المجابهة وتظاهر بالنزول عند رغبات بريطانيا مدعياً أنه يبذل قصارى جهده لضبط الإخوان أصحاب الرؤوس الحامية. أما الحسين فقد كان على النقيض تماماً وظل على تعنته، وبصعوبة تمكنت بريطانيا من حمله على قبول هدنة مؤقتة في آب (أغسطس) 1920.

وبذلك بدا أن القاهرة ولندن دعمتا الجانب الخطأ، خصوصاً أن ابن سعود حقق انتصارات جديدة باستيلائه على، الجبلية في عام 1920 وبإطاحته بالرشيد منافسيه في شبه الجزيرة العربية، في نهاية عام 1921. وهكذا مضت قوات ابن سعود يتقدمها الإخوان الذين قدر عدد المقاتلين منهم بنحو 150000 [875]، تعزز انتصاراتها في شبه الجزيرة العربية.

في العشرين من أيلول (سبتمبر) 1920 كتب مراسل خاص لجريدة «التايمز» في الشرق الأوسط، ان الاقتراح القديم الذي طرحه المكتب العربي بأن يصبح الحسين خليفة المسلمين - وهو اقتراح من وحي اللورد كيتشنر في خريف 1914 - قد ثبت أنه كارثة. وتنبأ المراسل بأن ابن سعود سوف يغزو الحجاز ويستولي عليها. والحقيقة أن هذا ما فعله ابن سعود بعد ذلك بأربع سنوات، ودفع بالحسين إلى المنفى.

وجد البريطانيون أنفسهم على غير رغبة منهم في موقف المخاصم لابن سعود بسبب حاجتهم إلى دعم الحسين. كان الأمر يتعلق بهيبة بريطانيا. وقال مسؤول في وزارة الخارجية البريطانية تعليقا على ذلك: «سنبدو كلنا حمقى في سائر أنحاء الشرق إذا ما هزم صنيعتنا بمثل هذه السهولة [876]. لكن لم يكن باستطاعة بريطانيا أن تفعل الكثير في هذا الشأن. وكما كانت الحال في أفغانستان، كانت هنا أيضاً طبيعة أرض البلد موحشة. بل انه بدا أن أية تظاهرة باستخدام القوة لن تكون عملية. وعندما سُئل مسؤولون بريطانيون في منطقة الساحل الخليجي عن الأهداف التي يمكن أن يقصدها الأسطول البريطاني على ساحل شبه جزيرة العرب، كان ردهم انه لا وجود لأي هدف يستحق أن يقصف [877].

وهكذا بدأ المسؤولون البريطانيون في عام 1919 يجدون أنفسهم عاجزين عن السيطرة على الأحداث على الحدود الجنوبية والغربية والشرقية الامبراطوريتهم الشرق أوسطية، لأسباب لم يستطيعوا مباشرة أن يسبروا

غورها، ولم يكن واضحة لهم ما هو منهج السلوك الذي يمكن بواسطته ترويض السكان المحليين.

ولكن ربما كان التحدي الأخطر الذي واجهه المسؤولون البريطانيون هو ذلك الذي واجهوه في تركيا - قلب الامبراطورية العثمانية التي يفترض أن بريطانيا سحقتها في عام 1918.

# الفصل الخامس

## تركيا: كانون الثاني 1920

مصير ما تبقى من الامبراطورية العثمانية كان في صلب مسألة الشرق الأوسط بينما واصلت الدول الحليفة - طوال الأعوام 1919 و1920 و1921 - مجادلاتها الصاخبة حول مصير وسط الأناضول الناطق باللغة التركية. وقد بدّل لويد جورج أفكاره بشأن ما ينبغي عمله. كان في مطلع عام 1919 مجبّداً لخطة تحصل بموجبها الولايات المتحدة على القسطنطينية وأرمينيا، وتأخذ اليونان جيباً مركزه إزمير، وما تبقى من البلاد تتقاسمه فرنسا فتأخذ الجزء الشمالي وإيطاليا تأخذ الجزء الجنوبي، وبعد بضعة شهور بدل رأيه تبديلاً كاملاً وأخذ بوجهة نظر مجلس وزرائه معلناً: «ان ليس للحلفاء حق تقسيم تركيا أكثر مما كان لألمانيا، في الزمان السابق، حق تقسيم بولندا» [878]. مع ذلك كانت المعاهدة التي رأي فرضها على السلطان في السنة التالية معاهدة قاسية، وتبين أن فرض أحكامها على الحكومة التركية في عام 1920 أصعب مما خُل للويد جورج.

وفي نهاية عام 1919 جرت انتخابات في سائر أنحاء الامبراطورية العثمانية ما بعد الهدنة الانتخاب مجلس نواب تركي جديد، فأحرز القوميون الأتراك نصراً ساحقاً. وحتى قبل أن ينعقد المجلس، تقاطر النواب المنتخبون حديثاً على انغورا (حالياً أنقرة) في عمق داخل البلاد وبعيدة عن البحر وعن مدافع الأسطول البريطاني. وكان مصطفى كمال، الجنرال القومي البالغ من العمر وثلاثين عاماً، قد اتخذ من انغورا مقراً لقيادته، وهناك أضافوا تواقيعهم إلى بيان مبادئ سياسية وضعه مصطفى كمال وعرف باسم الميثاق الوطني، وقد دعا الميثاق الوطني إلى إنشاء دولة - أمة إسلامية تركية مستقلة. إن الاستجابة الواسعة النطاق التي لقيها الميثاق أكدت ملاحظة أرباها قائد الأسطول البريطاني في البحر الأبيض المتوسط إذ قال: «إن احتلال إزمير من قبل اليونان أهاج روحاً وطنية تركية لعلها أكثر مطابقة للحقيقة من أي روح وطنية استطاعت الحرب ان تستثيرها» [879].

انعقد مجلس النواب الجديد في استانبول في منتصف كانون الثاني (يناير) 1920. وفي جلسة سرية عقدت في 28 كانون الثاني (يناير) 1920 اقترح النواب بالموافقة على الميثاق الوطني. وفي 17 شباط (فبراير) أعلنوا نأ هذه الموافقة. وبينما كان قادة فرنسا وبريطانيا مجتمعين في أوروبا بغية



التوصل إلى اتفاق نهائي على شروط تسوية الصلح التي أرادوا فرضها، حدد مجلس النواب العثماني بمبادهة منه، الحد الأدنى للشروط التي كان مستعداً لقبولها. إذا رأينا في المقولة السياسية للقرن العشرين أنها نهاية حكم أوروبا للقارات المجاورة، فلا بد من أن نرى في اعلان الاستقلال الذي أقره مجلس النواب العثماني بزوغ، فجر القرن العشرين.

لقد أُنذر القادة العسكريون الفرنسيون والبريطانيون رئيسي وزراء بلديهما بأن فرض الشروط التي قررها رئيسة الوزراء على الأتراك المتمردين، يستدعي وجود ما لا يقل عن سبع وعشرين فرقة من فرق الجيش [880]. وهذا العدد يفوق كثيراً ما كان في قدرة الحلفاء زجه في الميدان. ومع أن هيئة الأركان العامة لقوات الامبراطورية البريطانية حثت لويد جورج على إعادة النظر في شروط الصلح التي يريتها، فقد رفض أن يفعل ذلك. بدأت الأعمال الحربية في أوائل عام 1920. ونشب القتال في كيليكيا، المنطقة الجنوبية الناطقة بالتركية (المحاذية لسورية التي سمحت بريطانيا لفرنسا باحتلالها. ومنذ شباط (فبراير) وحتى أواخر نيسان (ابريل)، ألحقت القوات الكمالية هزائم متلاحقة بالفرنسيين، واستولت على مواقعهم وأنزلت مئات الإصابات، وأخذت آلاف الأسرى. وقد وجد مديران، رئيس الوزراء الفرنسي نفسه بين الضغوط التي يواجهها التسريح الجنود، والضغوط الأخرى لحماية المصالح الفرنسية في سورية، فأمر القائد المحلي ان يحاول التوصل إلى اتفاق ما مع القوميين الأتراك [881].

أما لويد جورج فقد رفض المهادنة، وواجه القوة بالقوة. ففي منتصف آذار (مارس) قادت بريطانيا احتلا عسكريا حليفة لمدينة القسطنطينية [882]، فدخلت القوات الحليفة المدينة وحلت محل الشرطة العثمانية، ثم أعلنت الحكم العسكري وحلت مجلس النواب. وعلى الفور اعتقل جيش الاحتلال الحليف مئة وخمسين مسؤولاً عسكرياً ومدنياً عثمانياً، ومن ضمنهم عدد كبير من النواب المنتخبين فنفاهم إلى مالطا، حيث نفي زغلول وزملاؤه المصريون (ثم أُخلي سبيلهم) في السنة السابقة [883]. وسارعت فرنسا وإيطاليا إلى طمأنة مصطفى كمال إلى أن هذه الإجراءات تمثل السياسة البريطانية، لا سياستهما [884].

إن احتلال القسطنطينية، عاصمة السلطان، لم تسبب ضرراً لمصطفى كمال. وبعكس ما اعتقدت السلطات البريطانية أو بعضها، لم يعد مصطفى كمال يسير في ركاب السلطان - وهكذا كان أحد الآثار غير المقصودة لاحتلال الحليف هو تدمير ما تبقى من مهابة وشرعية لحكومة السلطان وانتقال المهابة والشرعية إلى نظام حكم مصطفى كمال. وقد ظهر ذلك

في الشهر التالي عندما شهدت انغورا انضمام مئة من أعضاء مجلس النواب الذين ظلوا طليقيين إلى مئة وتسعين عضوا آخرين من جماعات المقاومة لتأليف برلمان جديد؟ [885]. ثم اقترحوا جميعهم بالموافقة على إنشاء حكومة الجمعية الوطنية الكبيرة التي انتخب مصطفى كمال رئيساً لها [886]. بعد ذلك اعتبر السلطان أسير الحلفاء واعتبرت أعماله باطلة، فردّت حكومة السلطان، الموجودة في القسطنطينية المحتلة بوحم الزعماء الموجودين في انغورا بالخيانة. أما حكومة مصطفى كمال في انغورا، فقد اختارت بفطنتها ان تترك علاقتها مع حكومة السلطان غامضة.

لقد خيم على النزاع في الأناضول ظهور أسياذ حرب شبه متمتعين بالحكم الذاتي، وظهور عصابات خارجة على القانون، تعمل أحياناً لذاتها، وأحياناً أخرى بالتحالف مع إحدى الحكومتين، أو مع البريطانيين، أو مع اليونان، أو مع الشيوعيين (روسيين كانوا أو غير روسيين).

وحدثت أعمال تمرد محلية، قامت بها في بعض الحالات أسر كبيرة مالكة للأراضي كانت تسعى لتثبيت مصالحها. وكانت هناك أيضاً جماعات بوابة من الرجل واللاجئين، من الأكراد والشركس والتتار من القرم وآسيا الوسطى. ومع أن جماعات أخرى كالجيش الأخضر نشأت كتعبير عن قضية من القضايا السياسية، فإنها مالبت ان انحطت إلى مستوى قطاع طرق لهم مهابة [887].

وهكذا فإن الامبراطورية العثمانية الناطقة بالتركية التي مزقتها الفوضى والحرب الأهلية، أخذت تتحول على نحو متزايد إلى ما يشبه الأراضي التي كانت سابقاً تؤلف روسيا القيصرية والتي شكلت في عام 1918 ساحة معركة واسعة وغير واضحة المعالم اشتبك فيها البيض والحمير، والعصابات وأسياد الحرب، والجيوش الأجنبية وحركات الاستقلال من أهل البلاد، في نزاع محير ومتعدد الأطراف. أما الحدود بين الامبراطوريتين القديمتين، فقد غشاها الابهام بسبب الانتفاضات المحلية وتحركات جماعات مسلحة مختلفة، بينما بدا نتيجة لتدفق العلماء البلشفيك والدعاية البلشفية إلى الأناضول، أن الحدود الفعلية بين الامبراطوريتين السابقتين الشاسعتين والمضطرتين، لم يعد لها وجود.

كان أول قرار اتخذته حكومة مصطفى كمال الجديدة في انغورا، هو إرسال بعثة إلى روسيا وصلت في أيار (مايو) 1920، ربما وفقاً لاتفاقات سابقة بين القوميين الكماليين والبلاشفة اللينينيين [888]. لقد أساءت السلطات البريطانية فهم علاقة العمل التي انبثقت، وجاء انبثاقها بصعوبة شديدة، إلى حد أنها لم تتوسط قبل مرور نحو عام (في معاهدة 16 آذار (مارس)

1921). وكان البلاشفة الروس قد منحوا أنور باشا، الزعيم المنفي من الإمبراطورية العثمانية، الملجأ والتشجيع. وطن البريطانيون خطأ أن أنور كان وراء حكومة انغورا<sup>[889]</sup>، مع أن أنور وكمال كانا في الواقع خصمين لدودين. وعندما اتضح ذلك للروس دأبعتهم فكرة استخدام أحدهما ضد الآخر، ولكنهم اضطروا في النهاية إلى الاختيار بين الإثنين لقد أخطأ البريطانيون في اعتقادهم أن مصطفى كمال كان يعمل سراً باسم السلطان، وأخطأوا أيضاً في ارتيابهم أنه كان يعمل لحساب أنور، كذلك أخطأوا في ارتيابهم أنه يعمل لحساب البلشفيك. فقد كان مصطفى كمال في الواقع عدواً لا هواة في عداوته للبلشفية الروسية، وما أن شعر بالقدرة، حتى قمع الحزب الشيوعي التركي الذي يتلقى وحيه من روسيا فقتل قاداته وقتل أو سجن عملاءه. ونتيجة لذلك مال كثيرون من القادة الروس إلى معاملة مصطفى كمال معاملة العدو، وقد حصل الكماليون على انطباع بأن روسيا وافقت على التعامل مع انغورا نتيجة تدخل قوي من قبل ستالين وعلى الرغم من اعتراضات وزارة الخارجية السوفياتية<sup>[890]</sup>. وواضح أن ستالين الذي كان قوميسار القوميات والرقابة على الدولة، قد وضع المصالح الروسية الوطنية فوق الأيديولوجية البلشفية، وأدرك أن مصطفى كمال قد يستطيع إلحاق الأذى بالبريطانيين.

وكان إلحاق الأذى بالبريطانيين أحد أهداف ستالين الرئيسة، لأن هذا البلشفي الواقعي - أو الصفيق - كان مستعدة لأن يؤيد حتى مصطفى كمال في سبيل تحقيق هدفه. وهكذا أخذ المال السوفياتي والإمدادات السوفياتية تتدفق عبر الحدود الروسية - التركية، بكميات لا تزال مجهولة حتى الآن، لمساعدة القوميين المعادين للبلشفية. كانت تلك المساعدة العسكرية الهامة الأولى التي قدمتها روسيا السوفياتية إلى حركة أجنبية، ولكن لا بد أن المعارضة ضمن الحكومة البلشفية لإعطاء المساعدة إلى الأتراك المعادين للبلشفية، كانت شديدة، إذ أن إتمام الترتيبات لإرسال هذه المساعدة استغرق عاماً من الزمن - بدءاً من ربيع 1920 عندما جاءت البعثة التركية إلى روسيا لتطلب الدعم.

في هذه الأثناء كان احتمال ارتقاء تركيا في أحضان السوفيات، من العوامل التي عززت وجهة نظر المسؤولين العسكريين في دول الحلفاء، الذين اعتقدوا أن ارغام حكومة السلطان على توقيع معاهدة قاسية الشروط، يشكل غلطة من غلطات لويد جورج. كان رأي قادة الأسطول والجيش في الجانبين البريطاني والفرنسي على حد سواء، أن الطاقة البشرية اللازمة لفرض شروط على الأتراك المتمردين غير متوافرة لديهم. لقد قال رئيس الوزراء اليوناني فينيلوس لقادة الحلفاء الآخرين أن القوات اليونانية وحدها

قادرة على القيام بالمهمة، ولكن قادة القوات المسلحة البريطانية لم يشاطروه هذه الثقة.

سأل أحد الأصدقاء الحميمين لويد جورج أن كان لا يزال يرى من الحكمة إعطاء ازميز إلى اليونان، فأجابه: «لا شك عندي في ذلك. يجب على المرء أن يقرر من هي الجهة التي يريد أن يدعمها. إن الأتراك كادوا أن يلحقوا بنا الهزيمة في الحرب. كان الأمر وشيك الحدوث. ثم ان المرء لا يستطيع أن يثق بهم. إنهم عرق منحط، أما اليونانيون فإنهم أصدقاءنا وهم شعب ناهض. لا بد لنا من تأمين القسطنطينية والدردنيل. ولا يمكن أن يتحقق ذلك بصورة فعالة إلا بسحق القوة التركية». وفي إشارة منه إلى الشكوك التي يبديها القادة العسكريون البريطانيون في سياسته، قال: «العسكريون هم بطبيعة الحال ضد اليونانيين. هكذا كان موقفهم دائما. إنهم يمالئون الأتراك. عسكريونا محافظون ملتزمون. وسياسة حزب المحافظين تقضي بتأييد الأتراك» [891].

ليلة 14 - 15 حزيران (يونيو) 1920 هاجمت قوات مصطفى كمال التركية القومية فوجاً من القوات البريطانية قرب القسطنطينية، مهددة بذلك القوات التي احتلت العاصمة العثمانية حيث كان السلطان أسير الحلفاء. إن هذا الهجوم التركي قد أثار الفزع، لا سيما أنه وقع بعد مرور شهر واحد على إرسال مصطفى كمال بعثته إلى روسيا (ولكن قبل سنة من اتمام الترتيبات الروسية - التركية وبعيد الهزائم التي ألحقها القوميون بالفرنسيين في كيليكيا. لقد أبرق القائد البريطاني طالبة نجدات. ولم يسع رئيس هيئة أركان قوات الأمبراطورية في لندن إلا أن يقر مكرها بأن القوات الوحيدة المتوافرة للنجدة هي القوات اليونانية، وإن يقترح على مجلس الوزراء الطلب إلى فرقة يونانية أن تساعد في الدفاع عن القسطنطينية. وكان فينزيلوس مستعدة لتقديم الفرقة بشرط أن يسمح الحلفاء لليونان بأن تتقدم من ازميز. وهذا من شأنه أن يتيح للجيش اليوناني الإستيلاء عليها، واحتلال الجيب الهام الذي يعتزم فينزيلوس ضمه إلى اليونان. وبذلك يكتمل تحويل القوات اليونانية من قوة شرطة مؤقتة إلى جيش احتلال دائم.

أما لويد جورج فكان أكثر من مستعد. وقد سبق له أن اجتمع مع فينزيلوس وقال له محذرة إن الحلفاء الآخرين لن يمدوا يد المساعدة، وطلب إلى اليونان أن تطبق أحكام معاهدة سيفر بنفسها، واتفق مع فينزيلوس في الرأي أن مستشاريهما العسكريين يبالغون في تقدير صعوبة القيام بذلك [892]. وبتاريخ 20 حزيران (يونيو) 1920 اتفق رئيس الوزراء الفرنسي مديران مع لويد جورج على السماح بتقدم يوناني محدود من ازميز. وهكذا شئ اليونانيون في الثاني والعشرين من حزيران (يونيو)

هجوماً على ثلاثة محاور، فاستولوا في أوائل تموز (يوليو) على سائر آسيا الصغرى حتى هضبة الأناضول. وفي أثناء ذلك شقت القوات اليونانية، على الجانب الآخر للدردنيل، طريقها عبر شرق تراقيا. كان الحلفاء لدي احتلالهم القسطنطينية، قبل ذلك بشهور، قد سحقوا المقاومة في العاصمة. وبدا الآن أن الجيش اليوناني سحق المقاومة خارج العاصمة أيضاً - إذا تجاهلنا وجود مصطفى كمال، قال لويد جورج المنتشي بالظفر «لم يعد تركيا وجود»<sup>[893]</sup>. وفي 10 آب (أغسطس) 1920 وقع ممثلي السلطان التركي الذي كان في حكم الأسير فعلية، وممثلو حكومته التي لا حول لها، على معاهدة سيفر.

جسدت معاهدة سيفر جميع الشروط تقريباً التي كان لويد جورج وفنيزيلوس يرغبان فيها أشد الرغبة. لقد قلصت المعاهدة الدولة العثمانية إلى ما يقرب من عدم الوجود، وأعادت إلى اليونان أراضي آسيا الصغرى الساحلية التي كان اليونانيون قد استوطنوها قبل نحو ثلاثة آلاف سنة.

واليونانيون، شأنهم شأن العرب، تجمع بينهم رابطة اللغة المشتركة والحضارة المشتركة أكثر مما تجمع بينهم الروابط السياسية، أي أن ما حققته اليونان في عام 1920 بدعم سياسي من بريطانيا هو توسيع حدود أراضيها في أوروبا إلى حدودها الثقافية في آسيا الناطقة باليونانية إنه الحلم الكبير للهيلينية والمسيحية الطافرتين، شجع عليه ديفيد لويد جورج، وريث غلادستون السياسي.

بيد أن المشكلة التي ما لبثت أن واجهت فنيزيلوس ولويد جورج بعد توقيع المعاهدة في سيفر مباشرة، هي كيفية الحيلولة دون إسقاط أحكام المعاهدة مع مرور الزمن، كانت القوات المسلحة البريطانية قد سرحت، وكان في اليونان أيضاً ضغط سياسي داخلي كبير لتسريع القوات المسلحة.

ولكن ما أن يغادر الحلفاء تركيا حتي ينحدر مصطفى كمال من هضبة الأناضول لاستعادة الساحل وإبطال المعاهدة. وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1920 بحث فنيزيلوس مع لويد جورج البديل الآخر: أن يرسل جيشه إلى الداخل للقضاء على القوميين أتباع مصطفى كمال ما دامت لدى اليونان القوات المسلحة للقيام بذلك<sup>[894]</sup>. وكما حدث لنابليون وسط خرائب موسكو المحترقة واجه فنيزيلوس ولويد جورج تحدياً من عدو لا يقف ليقا تل ولكنه لا يستسلم. والحقيقة أن خطة مصطفى كمال كانت تقضي بإتباع الاستراتيجية التي طبقها الروس بنجاح ضد نابليون في حرب 1812: أن يجر قوات العدو إلى الداخل وأن يفنيه أولاً بأول.

لا يمكن قط أن نعرف على وجه اليقين ما الذي كان فينيزيلوس ولويد جورج سيقرران أن يفعلاه،

لأن حادثة من أشد الحوادث السياسية غرابة في التاريخ الحديث، أخرجت المسألة من أيديهما. ففي

30 أيلول (سبتمبر) 1920 كان ملك اليونان الشاب الكسندر يتمشى في حدائق قصره فعضه قرد. أصيب الملك بحمى شديدة ومات في 25 تشرين الأول (أكتوبر). وقد كتب تشرشل في ما بعد عبارة مشهورة قال فيها: «لعلها ليست مبالغة أن نقول أن ربع مليون انسان لاقوا حتفهم بسبب عضه هذا القرد»<sup>[895]</sup>، إذ كان اعتقاده أنه لو استمر الكسندر وفينيزيلوس في حكم اليونان، لكان بالإمكان تفادي النتيجة المأساوية للحرب التي عذمت اليونان أن تشنها على تركيا في العامين 1921 و1922.

برزت مسألة الخلافة على العرش، وهي مسألة بالغة التعقيد، في موعد الانتخابات اليونانية. كانت النتائج مذهلة. فعلى عكس كل التوقعات، هزم فينيزيلوس الذي يفترض أنه كان ذا شعبية. وعاد إلى السلطة الزعماء الموالون لألمانيا المعادون للحلفاء الذين كان فينيزيلوس والفرنسيون قد أطاحوا بهم ونفوههم خلال الحرب.

إن قسطنطين الأول، والد الكسندر، الذي أزيح بالقوة عن العرش في عام 1917، عاد ملكاً من جديد. وأمسك بزمام الحكومة ديمتريوس غوناريس، العدو اللدود لفينيزيلوس والحلفاء، والعائد من المنفى الذي فرضته عليه فرنسا. كان قسطنطين ووزرائه تواقين إلى التقدم في تركيا. ولكن التحول الذي حدث في اليونان وقر مناسبة متقنة لكل من أراد من الحلفاء أن ينفذ يديه من تعقيدات التورط في آسيا الصغرى، واستفاد الفرنسيون والإيطاليون من الموقف بسحب تأييدهم لليونان، وبذلك سحبوا ضمناً تأييدهم لمعاهدة سيفر. كان البلدان يشعران باستياء متزايد من سياسة لويد جورج المغامرة. وفرنسا، بصورة خاصة، كانت تشعر أنها مقيدة فقط بالتزام شخصي نحو فينيزيلوس، فحلتها هزيمته في الانتخابات من هذا الالتزام. ومنذ ذلك الحين أخذت كل من إيطاليا وفرنسا تتطلع بصورة متزايدة إلى الحكومة الكمالية المستقبلية في تركيا كمصدر للامتيازات والمنافع المالية.

أما في بريطانيا، فقد كان تشرشل ووزارة الحربية يدعوان إلى تقديم تنازلات إلى مصطفى كمال الانتزاعه من روسيا البلشفية. والحقيقة أن تشرشل حث على إقامة سلام مع مصطفى كمال لإعادة خلق ذلك «الحاجز في وجه الطموحات الروسية»، داعياً بذلك للعودة إلى السياسة البريطانية

التقليدية خلال اللعبة الكبرى[896]. ولكن لويد جورج قاوم كل هذه الاقتراحات[897]. إن البطالة الواسعة النطاق في بريطانيا - إضافة إلى المشاكل في مصر، وأفغانستان، وشبه الجزيرة العربية وفي أمكنة أخرى من الشرق الأوسط - لم تحمل لويد جورج على الاستنتاج (كما استنتج تشرشل / أن بريطانيا غير قادرة على تخصيص موارد لممارسة الإكراه على تركيا.

بيد أن الحلفاء، في محاولة واضحة منهم لتسوية الأمور، دعوا إلى عقد مؤتمر مائدة مستديرة في لندن، ودُعي إليها وفد يمثل مصطفى كمال. عقد المؤتمر أولى جلساته بالحضور الكامل في 21 شباط (فبراير) 1921. وقد وافقت الحكومة اليونانية على حضور المؤتمر، ولكن قبل انعقاده أمرت القيادة العليا للجيش اليوناني باستكشاف دفاعات مصطفى كمال. ومن الواضح أن القائد العام اليوناني كان تفكيره منصرفاً إلى عمل عسكري لا إلى تسوية عن طريق التفاوض، ولذلك دفع بقوة استطلاع إلى خطوط مصطفى كمال في الداخل. كانت القوة اليونانية تتقدم على أرض عالية وغير مستوية في جو الشتاء القاسي، واصطدمت بقوة تركية ردت القوة اليونانية على أعقابها. وكانت القوة التركية بقيادة عصمت، زميل مصطفى كمال، وحدثت المواجهة قرب قرية صغيرة تدعى اينونو. كانت الحصيلة بالنسبة للأتراك بشرى بانتصارات مقبلة. أما اليونانيون فقد عادوا من الاشتباك بانطباع أنهم اختبروا نوعية الأتراك القتالية وتبين لهم أن الدفاعات التركية يمكن اختراقها.

عندما انعقد مؤتمر لندن في شهر شباط (فبراير) أحرز تقدماً ضئيلاً نحو حل الخلاف على مصير الأناضول. فالإيونانيون كانوا قد حزموا أمرهم سلفاً وكانوا مستعدين للحرب لكي يحققوا انتصاراً كاملاً. أما الأتراك الكماليون فكانوا غير مستعدين لأن يسمحوا لليونان بأن تحتفظ بجيب ازميز، في حين أن أية حكومة يونانية تسلم هذا الجيب إنما تخلق لنفسها صعوبات سياسية وداخلية. وقد سبق لرئيس وزراء اليونان السابق فينيزيلوس، الذي مازال ناشطاً سياسياً، أن أبلغ لويد جورج أن زعماء حزبه في الأناضول اليونانية سيعلمون ازميز جمهورية مستقلة ويعلمون الحرب على الأتراك إذا تخلت حكومة الملك قسطنطين عن ازميز. وقال في رسالة كتبها إلى رئيس الوزراء البريطاني: «إن الهيلينية قوة أوسع كثيراً من حدود المملكة اليونانية، وإذا ما كانت هذه المملكة غير راغبة أو غير قادرة على الاحتفاظ بازميز والمنطقة المحيطة بها، فإن باستطاعة الهيلينية في تركيا نفسها أن تتولى هذه المهمة، بشرط أن يكون الحلفاء، وبصورة أدق أنكلترا، مستعدين



لمساندة هذه المهمة»[898]. ورد لويد جورج بعبارات تتسم بالتحفظ مشيراً إلى انه قد يكون ميالاً إلى تقديم هذه المساندة»[899].

لم يحقق مؤتمر لندن أي شيء، فلم يكن أي جانب مستعداً لحل وسط. ونظراً لتوق فرنسا وإيطاليا إلى التفاوض منفردتين مع وفد مصطفى كمال، فقد رأى الوفد في ذلك ما يشجعه على الاعتقاد بأن لا حاجة لتخفيف مطالبه. وبالمثل وجد الجانب اليوناني في حماسة رئيس وزراء بريطانيا في معاداة تركيا ما يشجعه على الإستمرار في التعتن. لقد كان لويد جورج مقتنعاً أن فينيزيلوس كان على حق تماماً عندما قال: «أن النتيجة الأهم للحرب الكبرى بالنسبة للإنسانية هي اختفاء الأمبراطورية التركية وليس حل امبراطورية النمسا - المجر، ولا تقليص الأمبراطورية الألمانية»[900].

ولكن الانتصار على قوات المقاومة العثمانية ظل يراوغ رئيس الوزراء البريطاني. أما في تركيا نفسها فقد واصل مصطفى كمال تحديه للحلفاء بينما في الجنوب - أي في سورية - أعلن الضباط والموظفون والوجهاء العثمانيون تحدي العرب أيضاً للحلفاء.



# الفصل السادس

## سورية ولبنان: ربيع وصيف 1920

### (1)

كان حاكم سورية اسماً هو فيصل، ذلك الأمير الذي جاء من مكة وقاد القوة العربية الضاربة على الجناح الأيمن لجيوش الحلفاء في حملتي فلسطين وسورية. وكان الجنرال اللنبي قد سمح لفيصل بأن يدير شؤون سورية من العاصمة دمشق بدءاً من خريف عام 1918 ريثما يجري التفاوض على تسوية الصلح. أما فيصل نفسه، فقد أمضى جانباً كبيراً من عام 1919 في أوروبا حيث كان يفاوض الحلفاء، وعهد بإدارة سورية إلى آخرين.

إن دمشق عاصمة المناطق الناطقة بالعربية التي سمحت لها بريطانيا بالاستقلال المؤقت هي مدينة - واحة عريقة - وكانت في نهاية الحرب المركز الذي تقاطرت عليه شخصيات عربية سياسية وعسكرية مستاءة، جاءت من مختلف أنحاء الامبراطورية العثمانية السابقة<sup>[901]</sup>. كانت دمشق تدار بإهمال باسم فيصل من قبل أشخاص متنافسين، وكانت في حالة مستمرة من الاضطراب طوال العامين 1919 و1920 إذ كانت الأسر التقليدية الحاكمة تقاوم أطماع القادمين الجدد المغامرين، بينما المناضلون المنتمون إلى النوادي السياسية الرئيسة كانوا منقسمين إلى حد بعيد على أسس إقليمية.

دعا فيصل إلى انعقاد مؤتمر سوري عام، فانعقد المؤتمر في 6 حزيران (يونيو) 1919. ولما كان فيصل مدركاً أنه غريب في دمشق وامتدحراً المبادئ التي أعلنها الرئيس وودرو ويلسون، فقد دعا إلى انعقاد المؤتمر لإقرار المطالب التي كان عازماً على تقديمها لمؤتمر الصلح، وليثبت للمؤتمر أنه الناطق الحقيقي باسم شعوب المحافظات السورية. ولكن فيصل لم يتنبه إلى ضرورة تسليم الإشراف على المؤتمر السوري العام إلى رجال مستعدين للموافقة على التنازلات الواسعة التي سيضطر، بحكم طبيعة السياسة الدولية، إلى تقديمها لمؤتمر الصلح في باريس.

كانت الأسر الحاكمة التقليدية من الحرس القديم في سورية بين أولئك الذين لم يهتز ولاؤهم للامبراطورية العثمانية طوال الحرب. وهذه الأسر بقيت معادية لفیصل وللحلفاء ولنوادي المناضلين العرب القوميين، ومع ذلك فإن هذه الأسر حصلت على مقاعد في المؤتمر عن دمشق وحمص وحماة وحلب. وبالرغم من ذلك، نجحت نوادي القوميين الراديكاليين في كسب الإشراف على المؤتمر السوري العام، ويعود ذلك جزئياً إلى أن هذه النوادي عقدت صفقات مع بعض عناصر الحرس القديم المحافظ [902].

أحد نوادي القوميين الرئيسة الثلاثة هو نادي العهد، أي منظمة الضباط العرب في الجيش العثماني، وكانت السيطرة في هذا النادي لأعضائه الذين جاؤوا من ولايات بلاد الرافدين، وكان همهم الرئيس هو مستقبل ولاياتهم. وثاني هذه النوادي هو النادي العربي والسيطرة فيه لأعضائه القادمين من الأراضي الفلسطينية، وقد أنشئ كمُنظمة مناوئة للصهيونية همها أن تحمل فیصل على التخلي عن التزامه تجاه الصهيونية. وقد شغل أعضاء كثيرون في اللجنة التنفيذية للنادي العربي مراكز مهمة في إدارة فیصل، بالرغم من أن الفلسطينيين استمروا إلى حد كبير، موالين للعثمانيين ومعادين لفیصل طوال الحرب. وقد حصل الفلسطينيون أيضاً على مراكز قيادية في حزب الاستقلال ذي القاعدة الواسعة الذي أنشأه ثالث وأبرز النوادي القومية، أي نادي الفتاة.

انكشف توجه المؤتمر السوري العام بمجرد انعقاده في منتصف عام 1919، عندما دعا إلى استقلال تام لسورية الكبرى التي تشمل كل المنطقة التي تشغلها حالياً سورية، ولبنان، والأردن، وإسرائيل. كان فیصل يأمل في نظام انتداب أميركي أو بريطاني وتأييد أميركي وبريطاني وصهيوني في مواجهة مطالب فرنسا، ولكن بدا له أن الأمور افلتت من سيطرته، ولا بد له من اتخاذ خطوات «لتخفيف غلواء المؤتمر السوري» [903]. بيد أنه كان مضطراً للابتعاد عن المسرح من أجل حضور مفاوضات الدول الكبرى في أوروبا.

في نهاية المفاوضات التي جرت في أوروبا في عام 1919، نجح فیصل في التوصل إلى التفاهم السري الذي وصفناه سابقاً مع رئيس الوزراء الفرنسي كليمنصو. وذلك الاتفاق يسمح لفیصل بأن يكون ملكاً على سورية المستقلة التي تمارس عليها فرنسا وصاية سهلة الشروط [904]. كان رأي كليمنصو أن تلك كانت شروطاً سخية؛ فما من سياسي فرنسي آخر كان يمكنه أن يوافق على

السماح لسورية بأن تحتفظ بأي قسط من الإستقلال أو أن يقبل ببقاء فيصل الموالي لبريطانيا في دمشق - دءك من أن يكون ملكاً على سورية. وعندما نُحي كليمنصو عن السلطة، كان من المؤكد أن الكتلة الاستعمارية في البرلمان الفرنسي المنتخب حديثاً، سوف تحول دون تطبيق هذه الشروط، وبقي لفيصل أمل وحيد في أن يشعر الفرنسيون أنهم ملزمون بالاتفاقية السرية إذا ما علموا بوجودها - ما دام العرب السوريون يشعرون بدورهم أنهم ملزمون بها. ولكن عندما عاد فيصل من أوروبا إلى سورية في 14 كانون الثاني (يناير) 1920، تبين له أن القوميين العرب غير مستعدين لقبول أي دور تمارسه فرنسا في توجيه شؤون سورية. وعبثاً حاول فيصل تحذير لجنة إحدى الجمعيات القومية العربية في دمشق من أن رفض اتفاهه مع كليمنصو يعني الحرب مع فرنسا. فقد ردت اللجنة بقولها: «نحن مستعدون لإعلان الحرب على انكلترة وفرنسا»<sup>[905]</sup>. وفي وقت لاحق من شهر كانون الثاني (يناير)، وبعد أن تولى القوميون العرب ذوو النزعة إلى النضال السيطرة على المؤتمر السوري العام، اقترح هذا المؤتمر بالموافقة على إسقاط أحكام اتفاقية فيصل - كليمنصو.

أما وقد عزز فيصل عن اقناع القوميين باتباع سياسته الداعية إلى مهادنة فرنسا - وبعبارة أخرى عزز عن أن يتولى قيادة القوميين - بدا وكأنه غير نهجه وشرع يتحدث وكأنه يقصد أن يحذو حذوهم، وعُزي إليه أنه تحدث في شهر شباط (فبراير) عن نيل الإستقلال العربي من فرنسا «بحد السيف»<sup>[906]</sup>. ولكن ظهر أن كلامه كان مجرد استثارة لمشاعر العامة، بهدف منافسة كلام القوميين الرامي إلى اجتذاب التأييد الشعبي. إذ أن فيصل، ببلاغته المتسمة بالعنف، لم يستهو إلا القوة الوحيدة ذات الشأن التي يمكن إغواؤها بتأييد سياسة مهادنة فرنسا: وهذه القوة هي أعداؤه القدامى، الأسر التقليدية المحافظة في دمشق ومدن الداخل، التي كانت مؤيدة الامبراطورية العثمانية في الحرب العالمية ومعادية للحلفاء ولفيصل. لقد أقنع فيصل هذه الأسر بإنشاء حزب سياسي جديد - الحزب الوطني - فأخذ هذا الحزب ينادي في العلن باستقلال سورية الكبرى، أما في الخفاء فكان مستعداً لقبول اتفاقية فيصل - كليمنصو وقبول وجود فرنسي. والحقيقة أن الحزب الوطني لم يكن مصراً على استقلال سورية استقلاً تاماً وفورياً وكان مستعداً للاعتراف بوطن قومي يهودي في فلسطين<sup>[907]</sup>.

سارعت الأندية القومية ذات النزعة النضالية للوقوف في وجه الحزب الوطني باتخاذ اجراء قبل أن ينظم الحزب قواه. وهكذا دعت هذه الأندية المؤتمر العام للعودة إلى الانعقاد. فانعقد المؤتمر السوري العام الثاني في

أوائل آذار (مارس) 1920، ووافق فوراً على قرار بإعلان سورية مستقلة استقلالاً تاماً ضمن حدودها «الطبيعية»، التي تضم لبنان وفلسطين، وعلى رأسها فيصل ملكاً دستورياً<sup>[908]</sup>. وفي الوقت نفسه جابه وفد عربي في فلسطين الحاكم العسكري البريطاني بقرار يعارض الصهيونية ويلتمس أن تكون فلسطين جزءاً من سورية مستقلة، بينما اجتمع فريق من أهل بلاد الرافدين لإعلان استقلال ولايتيهما - البصرة وبغداد - على أن يكون عبد الله<sup>[909]</sup>، شقيق فيصل، ملكاً على الدولة المستقلة. وهكذا، في أوائل عام 1920، وفي غضون أسابيع من تحدي مجلس النواب العثماني في القسطنطينية للحلفاء علناً بإعلانه استقلال الجزء الناطق بالتركية من الامبراطورية، بدا أن الجزء الناطق بالعربية ينهج النهج عينه.

وإذ استبد الفرع بالجنرال اللنبي، اتصل برؤسائه محذراً من أنه إذا تشبثت بريطانيا وفرنسا بموقفهما الذي يعتبر الاجراء الذي اتخذه فيصل والمؤتمر السوري باطلاً، أشعر شعور اليقين أن الحرب واقعة. وإذا نشب القتال سيعتبر العرب الفرنسيين والبريطانيين أعداءهم، وبذلك تجرنا فرنسا إلى حرب مناقضة لمصالحنا ولسنا مستعدين لها استعداداً حسناً<sup>[910]</sup>. وقد وجهت بريطانيا اللوم إلى فرنسا في هذا الموقف، فاستدعى اللورد كورزون السفير الفرنسي إلى وزارة الخارجية البريطانية لينبهه إلى الأخطاء التي ارتكبتها فرنسا، وليفصح عن رأيه أن انعطاف الأحداث المريع تقع مسؤوليته بكاملها على عاتق فرنسا<sup>[911]</sup>.

لقد أفرغت اعلانات دمشق الفرنسيين، بل أفرغت البريطانيين أكثر. وحذر الفرنسيون فيصل من مغبة العواقب الوخيمة المترتبة على أية محاولة لتنفيذ هذه الإعلانات<sup>[912]</sup>. ولكن فيصل، الذي أخذ يسيّره مؤتمر لا يستطيع أن يسيطر عليه، لم يسمح فقط لأتباعه بشن هجمات على غرار حرب العصابات، على الفرنسيين والمسيحيين في المنطقة الساحلية<sup>[913]</sup>، بل تحرك أيضاً لمساندة تركيا مصطفى كمال، التي حالفها التوفيق في الحاق الهزائم بالفرنسيين في كيليكيا، شمال الحدود. وحال فيصل ومناصروه دون استخدام فرنسا خط سكة حديد حلب، فقطعوا بذلك طريق إرسال النجذات براً، وأرغموا الفرنسيين على إرسال الامدادات إلى حاميتهم المحاصرة في كيليكيا عن طريق البحر<sup>[914]</sup>.

ولكن القوميين السوريين أخفقوا في إدراك مدى اعتماد وضعهم ووضع فيصل على المساندة البريطانية. إن إعلاناتهم التي حملت على بريطانيا وادعائها الحق بأن تحكم بلاد الرافدين وفلسطين، قد أرغمت بريطانيا فعلاً

على الارتقاء من جديد في أحضان فرنسا، وأعادت لمدة قصيرة تحالف الدولتين الأوروبيتين في الشرق الأوسط. حتى أن لويد جورج، الذي كان رد فعله الأول هو الابتهاج بالأنباء عن التحدي الذي تواجهه فرنسا، لم يجد بداً من التوصل إلى اتفاق مع الفرنسيين. كانت سياسات لويد جورج وقوات الجنرال اللنبي تشكل الدرع الواقية التي أتيحت للسوريين كي يمارسوا سياسة استفزازية وإن يأمنوا في الوقت نفسه سوء العقاب. أما وقد زالت هذه الدرع، فإن الحكومة الفرنسية - حسب رأي المجموعة الاستعمارية فيها - رأت أنها حرة التصرف.

كان هم فرنسا الرئيس أن تنتزع السوريين من تحالفهم الخطر مع قوات تركيا الكمالية. ولذلك فإن روبير دوكي، الداعية الرئيس للجمعية الاستعمارية المسماة «لجنة آسيا الفرنسية» والذي أصبح كبير ممثلي فرنسا السياسيين في سورية، توجه على رأس وفد إلى انغورا في 20 أيار (مايو) 1920 ليتفاوض مع مصطفى كمال شخصياً بشأن عقد هدنة، وقد نجح في ترتيب هدنة مؤقتة، وبهذه الهدنة، مقرونة باتفاق مع بريطانيا، وجدت فرنسا الطريق ممهدة للقيام بإجراءات عسكرية.

بتاريخ 27 أيار (مايو) 1920 أمرت باريس قائد قواتها في بيروت، الجنرال غورو، بالاستعداد للنزول إلى ميدان المعركة ضد فيصل. وفي يوم الباستيل، 1920 أرسل الجنرال غورو، مدفوعاً إلى ذلك من باريس، إنذاراً نهائياً إلى فيصل يحدد شروطاً لم يتوقع من هذا الزعيم العربي أن يقبلها، ومن ضمنها حل الجيش العربي. ولكن فيصل، الذي كان واضحاً أنه فقد رباطة جأشه، وافق على الشروط الفرنسية، وعلى أثر ذلك قامت غوغاء دمشق بأعمال شغب ضده. وبناء على أوامر من باريس، قال الجنرال غورو إن الرد الذي أرسله إليه فيصل - بالرغم من كونه رداً متخاذلاً - لم يكن مرضياً. وسارع فيصل لإرسال رد جديد، يعرض فيه الاستسلام بلا قيد أو شرط، ولكن غوروتلقي من دوكي توجيهاً بأن يرد قائلاً: لقد فات الأوان، وإن يأمر قواته بالزحف على دمشق.

كان عدد الجنود الفرنسيين المتوافرين لهذه الحملة قليلاً، كما أن انهيار هدنة الفرنسيين مع مصطفى كمال عرضهم للأخطار على كلا الجانبين: مصطفى كمال في الشمال، وفيصل في الشرق، وبدا أن الفرنسيين قد وقعوا في الفخ بين أعداء على جبهتين. ولكن الحظ ساعدهم، إذ لم يواجهوا مقاومة مؤثرة من السوريين. وقد تقدم جيش الشرق الفرنسي، ومعظم جنوده سنغاليون، عبر الأودية المتعرجة التي كان يستطيع خصم كفاء أن ينصب له كميناً فيها. ولكن لسبب غير واضح انتظر مناصرو فيصل حتى خرج السنغاليون من هذه الأودية ثم واجهوهم [915]. عند ذاك حلق سرب من

سلاح الجو الفرنسي، فذعر المدافعون عن دمشق وولوا الأدبار دون إبداء أية مقاومة [916]. وفي 26 تموز (يوليو) 1920 احتل الفرنسيون دمشق، وفي 27 (يوليو) أمروا فيصل بمغادرتها إلى المنفى، فغادرها في اليوم التالي. وقد أعلن رئيس وزراء فرنسا أن فرنسا ستحتفظ منذ ذلك التاريخ فصاعداً بسورية «كلها وإلى الأبد» [917].

باشرت السلطات الفرنسية بتقسيم سورية إلى وحدات فرعية، إحداهما لبنان الكبير الذي كان مقدمة لنشوء البلد الذي يدعى الآن لبنان. وقد أعلن الجنرال غورو قيام لبنان الكبير بتاريخ الأول من آب (أغسطس) 1920، وكان لبنان الكبير هذا مطابقاً تقريباً لمنطقة الحكم المباشر التي وعدت بها فرنسا بموجب اتفاقية سايكس - بيكو. وقد اشتمل لبنان الكبير، إضافة إلى متصرفية لبنان القديم في العهد التركي - الذي يتركز فيه الموارد المسيحيون المشمولون بحماية فرنسا وكذلك أعداؤهم التقليديون الدروز - مدن بيروت وطرابلس وصيدا وصور الساحلية ووادي البقاع الطويل الذي يشغل مساحة كبيرة من داخل البلاد. وما من منطقة من هذه المناطق الإضافية - أي بيروت وطرابلس وصيدا وصور والبقاع - واقعة ضمن متصرفية لبنان التي هي قاعدة القوة المسيحية، بل إن ضم هذه المناطق أضاف إلى لبنان عدداً كبيراً من السكان المسلمين السنة والشيعة.

ليس بالإمكان أن نجزم هل كان توسيع لبنان على هذا النحو - الذي أدى إلى الكثير من سفك الدماء في السبعينات والثمانينات من هذا القرن نتيجة مهاجمة جماعات مختلفة الموقع القيادي للأقلية المارونية في ما أصبح بلداً أغليته من المسلمين - هو نتيجة ضغط سياسي ماروني أو ضغط سياسي فرنسي [918]. إن جهات عديدة دفعت الجنرال غورو إلى اتخاذ قراره. ولم يكن هناك في حينه تقدير كامل لخطر هذا القرار.

## (2)

إن السهولة التي تم بها احتلال دمشق بدت فاضحة لادعاءات فيصل والقومية العربية، باعتبار هذه الإدعاءات خدعة من ابتكار بريطانيا لكي تغش فرنسا وتحرمها مطالباتها بسورية. وكان طبيعياً كلما حدثت انتفاضات محلية في سورية - وكانت تحدث اضطرابات من حين إلى آخر طوال مدة الانتداب الفرنسي - أن يوجه الفرنسيون اللوم إلى البريطانيين، وكان البريطانيون بدورهم يوجهون اللوم إلى الفرنسيين<sup>[919]</sup>. إن لويد جورج الذي أفقد حسن النية من جانب فرنسا بسبب محاولته أن يمنعها من الحصول على سورية، لم يسترد حسن نيتها عندما غيّر سياسته فسمح لفرنسا بالإستيلاء على سورية.

وحقيقة الأمر أن لويد جورج عندما سحب القوات البريطانية في عام 1919، فقد السيطرة على الأحداث في سورية بمقدار ما فقد سيطرته على الأحداث في داخل الأناضول، وفي صحارى شبه جزيرة العرب، وعلى جبال افغانستان، وفي قري الفلاحين في مصر. وكانت النتيجة في سورية أن كل الجهات وجّهت اللوم إلى البريطانيين. فالفرنسيون لاموهم لأنهم نصبوا فيصل على العرش وأن العرب لاموهم لأنهم تخلوا عن فيصل.

لقد وضع العرب انصار فيصل في فلسطين والعراق أنفسهم في صف أعداء بريطانيا - وهذا ما طرح السؤال عن سبب إبقاء بريطانيا وجوداً لها في الشرق الأوسط. فقد قيل سابقاً للرأي العام البريطاني أن أحد أهداف بريطانيا هو تأييد حركة فيصل العربية، أما الآن فما الداعي إلى استمرار تأييد العرب الموالين لفيصل بعد أن أصبحوا أعداء بريطانيا؟ علاوة على ذلك، فإن مؤيدي فيصل قد عرّضوا للخطر علاقات بريطانيا مع فرنسا في فلسطين شرقي نهر الأردن التي تحتلها بريطانيا إضافة إلى أماكن أخرى. وبدت نشاطاتهم وكأنها تحقّز فرنسا على غزو شرق الأردن، وهذا كان من شأنه أن يزج بريطانيا في نزاع دولي خطر لا رغبة لها فيه. كانت العلاقات بين بريطانيا وفرنسا هشة بما فيه الكفاية، خصوصاً في ما يتعلق بفلسطين التي اشتتها فرنسا لنفسها، فخشى البريطانيون أن يهيء أنصار فيصل في شرق الأردن عذراً للمجموعة الاستعمارية الفرنسية لإرسال قوات عبر الحدود.



# الفصل السابع

## شرق فلسطين (عبر الأردن):

### 1920

شرعت الحكومة الفرنسية في الوقت نفسه الذي أصدرت فيه الأمر بغزو سورية واحتلالها، بحملة دبلوماسية ودعائية، هدفها الحيلولة دون تحويل فلسطين المجاورة إلى «دولة صهيونية»<sup>[920]</sup>. وبما أن بريطانيا كانت ترعى الصهيونية في فلسطين، فقد اتخذت الحملة صبغة العداء لبريطانيا. ولكن الحكومة الفرنسية كانت أشد معارضة «لفلسطين يهودية» من معارضتها «لفلسطين بريطانية»، فقد خشيت أن تتعرض مصالح فرنسا التجارية والكهنوتية في الأرض المقدسة للخطر على يد الصهيونية التي ترعاها بريطانيا.

إن اللغة التي استعملتها وزارة الخارجية الفرنسية كانت تعبر عن أسلوب مهذب لمعاداة السامية، أما اللغة في الصحافة الفرنسية فكانت تعبر عن أسلوب فج في معاداة السامية<sup>[921]</sup>. ولكن عندما دخلت بريطانيا وفرنسا في حزيران (يونيو) 1920 مفاوضات تفصيلية لرسم الحدود بين فلسطين من جهة، وسورية ولبنان من جهة أخرى (كلمتا فلسطين وسورية كانتا تعبيرين غامضين إذ لم يكن واضحاً في ذلك الحين أين تنتهي حدود إحداهما وتبدأ حدود الأخرى)، تبين أن الموقف المتصلب الذي اتخذته المفاوضون الفرنسيون كان يعبر عن مصلحة فرنسية ذاتية. ذلك أن الفرنسيين صوروا الحدود بين فلسطين وسورية ولبنان وكأنها حدود بين فرنسا وبريطانيا في المشرق، واتخذوا موقفاً غير مهادن بتحريض من المجموعة الاستعمارية التي اتهمت قادة فرنسا بالتخلي عن الكثير جداً من حقوق فرنسا ومصالحها في آسيا. إن الرئيس الجديد للجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب الفرنسي، والذي كان أيضاً رئيس إحدى الجمعيات الاستعمارية الفرنسية المسماة «لجنة المشرق»، لم يكن أقل استعداداً من الصحافة الشعبية لوصم أي حل وسط بأنه خيانة. والمسألة التي كانت تدور بشأنها المفاوضات حول حدود فلسطين هي مناع نهري الأردن واليرموك البالغة الأهمية - والتي نجح الفرنسيون في إصرارهم على أن تكون ضمن سورية - لبنان.



إن «مؤسسة مدارس الشرق» التي تمثل البعثات التبشيرية الكاثوليكية الفرنسية في الشرق الأوسط، صوّرت الوطن القومي اليهودي بأنه «مجرد وسيلة يستخدمها الإنكليز لتقويض موقفنا»<sup>[922]</sup> وادعت هذه المؤسسة أيضاً أنها تبصر وجود مؤامرة يهودية عالمية تكمن وراء الصهيونية والبلشفية «تسعى بكل السبل المتاحة لها لتدمير العالم المسيحي»<sup>[923]</sup>. لقد وافق على هذا الرأي روبرت دوكي، الذي كان يتولى مصالح فرنسا السياسية في سورية، مدعياً «أن روح النبوءة والثورة التي تنتشر كثيراً بين اليهود قد اتجهت إلى البلشفية» لدى الصهيونيين القادمين إلى فلسطين من أوروبا الشرقية<sup>[924]</sup>. وهكذا رأى الفرنسيون أن وضعهم في سورية ولبنان مهدد من قبل حركة اعتقدوا أنها في آن واحد بريطانية، يهودية، صهيونية، وبلشفية. وقد رأى رئيس «مؤسسة مدارس الشرق» أن ليست المصالح الوطنية الفرنسية وحدها هي التي تقتضي القيام بعمل ضد المواقع البروتستانتية واليهودية في فلسطين، بل تقتضي ذلك أيضاً المشاعر الدينية. وقال: «ليس مسموحاً أن تصبح «بلاد المسيح» فريسة الهرطقة اليهودية والانغلو - سكسونية. يجب أن تبقى هذه البلاد تركة لا تمس لفرنسا والكنيسة. وسيكون عاراً وطنياً وجريمة لا يمكن تلافيتها إذا لم ننقذ هذه الأرض المقدسة من الجشع الوحشي لحلفائنا»<sup>[925]</sup>.

في ذلك الحين كانت الحكومة الفرنسية تمول نادياً سياسياً مناوئاً لبريطانيا يدعى الجمعية الأدبية، وكانت لهذا النادي فروع في القدس ومدن فلسطينية أخرى. بيد أن التهديد الفرنسي المباشر للمصالح البريطانية في عام 1920 كان يكمن في المنطقة الواسعة وقليلة الكثافة السكانية الواقعة شرقي نهر الأردن والتي سميت «عبر الأردن» والتي تمثل خمسة وسبعين بالمئة تقريباً من الأرض التي يشملها الانتداب البريطاني على فلسطين. وكانت منطقة عبر الأردن (سميت بالعربية شرق الأردن) من حيث الحياة القبلية ومن حيث البنية القبلية، مثيلة لشبه الجزيرة العربية. أما من حيث التعابير التاريخية، فإن جانباً كبيراً منها كان جزءاً من أرض التوراة، وكانت أيضاً في وقت من الأوقات تشكل جزءاً من الولاية الرومانية المسماة «العربية». ومنذ خريف 1918، عندما طرد الجنرال اللنبي الأتراك، ظلت من الناحية الجوهريّة بدون حكومة، لأن السلطات البريطانية العسكرية تركتها تحت إدارة فيصل الضعيفة في دمشق، وقد تبين لاحقاً (من وجهة نظر بريطانيا) أن تلك كانت غلطة، لأنه عندما اقتلع الفرنسيون فيصل ووزرائه وحلوا محلهم حكماً لدمشق، فقد وضعوا أنفسهم في وضع يستطيعون منه الادعاء بالمطالبة بهذه المنطقة باعتبارهم ورثة فيصل.

كانت منطقة شرق الأردن منطقة نزاع قبلي تفتقر إلى النظام. وخشي البريطانيون أن يستغل الفرنسيون انعدام القانون في المنطقة فيتخذوا منه عذراً لاحتلال المنطقة من أجل إحلال النظام والمدنية. كان أعداء الحكم الفرنسي في سورية - المدعون انهم يكافحون لإعادة فيصل إلى دمشق - قد تجمعوا، وربما كان في نيتهم شن غارات من شرق الأردن على الفرنسيين في سورية. وهذه الغارات قد يستخدمها الفرنسيون مسوغاً لشن غزو انتقامي.

وقد اقترحت الإدارة البريطانية، ومركزها في فلسطين الغربية، إرسال جنود بريطانيين، ولكن لم يسمح لها بذلك، لأن لندن كانت معارضة لهذه المجازفة. وكل ما سمحت به لندن هو إرسال حفنة من الإداريين المدنيين [926].

إن الكابتن بروتون، الضابط البريطاني الذي كان يخدم في شرق الأردن، أبلغ رؤسائه أن الناس كانوا يتقوّلون أن البريطانيين سوف ينسحبون من البلاد «ولا أحد يبدو راضياً عن الاحتلال» [927]. وكان رأيه أن أمراً تافهاً قد يغرق البلاد في فوضى كاملة. وشرح رأيه قائلاً:

«الناس هنا لا يشكلون كياناً سياسياً متجانساً. فهناك انفصال حاد بين السكان الحضري والبدوي. فالأولون يرغبون في حكومة مستقرة وحماية من أعمال الابتزاز والعنف التي ترتكبها الفئة الثانية. أما البدو فيفضلون الفوضى على النظام لأنهم يعيشون من الخوات التي يفرضونها على الفلاحين ومن أعمال السلب والنهب وكذلك من قطعان ماشيتهم. ولا يمكن للمرء أن ينتظر منهم تأليف حكومة للمصلحة العامة في البلاد» [928].

إن الأمر المباشر الذي كان يقلقه هو وجود ممثل لأسرة فيصل الهاشمية يلهب المشاعر ضد الفرنسيين. وفي 9 أيلول (سبتمبر) 1919 أبلغ بروتون رؤسائه أن ممثل الهاشميين أعلن الجهاد لمقاومة الفرنسيين في سورية، ويجمع المتطوعين، ويخرج المجرمين من سجن مدينة عمان للالتحاق بحركته [929]. وبعد يومين، وبلهجة اهدأ، أبلغ رؤسائه أن ممثل الهاشميين

لم يجمع سوى خمسين متطوعاً [930]. ولكن بروتون ظل مستاء من أسلوب الحكومة البريطانية في حكم شرق الأردن. فقد كتب يقول: «قد يخيل أن فكرة السيطرة على بلاد مأهولة جزئياً بقوم متوحشين مفترسين بواسطة منحهم حكماً ذاتياً وبضعة مستشارين بريطانيين، هي فكرة جذابة على سبيل التجربة» ولكنها من الناحية العملية غير ناجحة» [931].

وبما أن بريطانيا لم تحتفظ بجيش في شرق الأردن، لم يكن باستطاعتها أن تدافع عنه إذا غزته فرنسا، ولذلك كان عليها أن تتجنب استفزاز فرنسا لكي تحتفظ بشرق الأردن لنفسها. وبما أن الغارات العربية على المواقع الفرنسية في سورية - إذا انطلقت من شرق الأردن - قد تستفز فرنسا لتقدم على غزو شرق الأردن، فلا بد من منع حدوثها. والسياسة التي اتبعها ف.سومرست، أحد المسؤولين البريطانيين في شرق الأردن، لمنع القبائل العربية من شن غارات على سورية الفرنسية، هي الإيقاع بين هذه القبائل.

وإذا ما نجحت سياسة سومرست، فإنها تحرم فرنسا من سبب - أو ذريعة - لغزو شرق الأردن الذي يفتقر إلى الدفاع عنه. ولكن ما العمل إذا هاجمت فرنسا الأرض الخاضعة للوصاية البريطانية - ليس شرق الأردن فقط بل بقية فلسطين أيضاً - بوسائل أخرى: وسائل سياسية، وسائل إعلامية أو وسائل التخريب وليس بالغزو المسلح؟ في عام 1920 كان القوميون العرب يكرهون فرنسا، فما العمل إذا أقنعتهم فرنسا بأن يكرهوا بريطانيا بدلاً منها؟ إن ما كان يخشاه سومرست هو أن تنش فرنسا حملة دعاية لقيام سورية كبرى تضم شرق الأردن وغرب فلسطين، على أساس برنامج معادٍ للصهيونية<sup>[932]</sup> يلقي شعبيته لدى العرب في كل أنحاء فلسطين. فقد تقطع فرنسا وعداً للعرب بأن تضع حداً للصهيونية إذا سمح لها بأن تنتزع فلسطين (ومن ضمنها شرق الأردن) من بريطانيا - وعلى أساس هذا البرنامج قد يحتشد العرب وراء فرنسا. كان رأي سومرست، وشاطره هذا الرأي قسم كبير من الجهاز الرسمي البريطاني، أن الصهيونيين يضعون القضية البريطانية، وكذلك قضيتهم، موضع الريبة بإفصاحهم علناً عن نياتهم النهائية. وكتب يقول: «إنهم اليهود وليس نحن من يخاصمهم الجميع. فلو خرس اليهود ولم يفتحوا أفواههم السخيفة لاستطاعوا شراء البلد كله»<sup>[933]</sup>. أما توماس لورنس فكان له رأي آخر: «كان واثقاً أن مقاومة الصهيونية سوف تقل، إن لم تزل كلياً في غضون أربع أو خمس سنوات، في ظل وتحت تأثير سياسة عادلة»<sup>[934]</sup>.

أما في ذلك الحين فقد كانت المقاومة العربية للصهيونية صاخبة وناشطة ومعركة للسلام في فلسطين الخاضعة للسيطرة البريطانية.

# الفصل الثامن

## فلسطين - العرب واليهود:

### 1920

عندما انتزع الجنرال اللنبي فلسطين من الأتراك، في المدة 1917 - 1918، أنشأ في البلاد ادارة عسكرية بريطانية. ومنذ ذلك الحين، وطوال مدة الادارة العسكرية، ظل هناك شعور قوي بالنقمة على العباء الذي ألقته لندن على عاتق هذه الادارة، عباء تطبيق سياسة لا شعبية لها ويصعب تنفيذها: سياسة خلق وطن قومي يهودي في فلسطين وفقاً لاعلان بلفور. ومنذ البداية، تحاشى جيلبرت كلايتون، كبير ضباط الشؤون السياسية في قيادة الجنرال اللنبي، ورونالد ستورز، بصفته حاكم القدس، إعطاء أية إشارة إلى عزمهما على مساندة هذه السياسة. وكان كلاهما يزعم أنه مؤمن بالصهيونية، مع أن كلايتون على وجه الخصوص، بدا كأنه يضع لها تعريفاً في أضيق مفهوم ممكن: أي أنها رعاية جالية يهودية موسعة في فلسطين مهمتها أن تكون مركزاً ثقافياً وعاطفياً لليهود في سائر أنحاء العالم، ولكن ضمن فلسطين متعددة القوميات وذات ادارة بريطانية، ولن تصبح دولة يهودية. أما الضباط البريطانيون الآخرون الذين يؤدون الخدمة في فلسطين فلم يتعاطفوا مع الصهيونية حتى في اطار هذا المفهوم المحدد، بل انحازوا إلى العرب الذين قاوموا الصهيونية برمتها. وكانت نظرة هؤلاء الضباط إلى سياسة لندن الصهيونية، أنها قد تكون سياسة رسمت صراحة لاثارة الاضطراب، ولا بد أن مبتكرها هم موظفون بعيدون عن مسرح الحدث وغير ملزمين بالعيش في الظروف المحلية ومعالجتها.

وأما الزعماء الصهيونيون، من الجهة الأخرى، فقد بدا لهم أن الموقف المتذبذب أو العداء الساخر من قبل الادارة البريطانية يعرقل جهودهم لضمان قبول العرب اعلان بلفور. وادعى الزعاء الصهيونيون انه لو جعلت الادارة البريطانية سكان البلاد العرب يشعرون أن اعلان بلفور هو سياسة غير قابلة للتبديل تتبناها الحكومة البريطانية، وان هذه السياسية ستأخذ حتماً طريقها إلى التنفيذ، لكان العرب قد أذعنوا - بل ربما كانوا قد تقبلوا منافع هذه السياسة، لقد أكد الدكتور وايزمان وزملاؤه في القيادة الصهيونية رغبتهم في التعاون مع السكان العرب، وشددوا على أن المهاجرين اليهود الجدد لن يأخذوا أي شيء من السكان الموجودين، وانما سيشترون

ويستعمرون ويفلحون الأراضي التي كانت بوراً. وكرروا القول ان الاستعمار اليهودي سيجلب فوائد اقتصادية هامة للبلد كله، بل للشرق الأوسط العربي بأسره.

كان بين السكان الناطقين بالعربية في فلسطين، خلاف كبير على معظم المواضيع، وربما حتى على الصهيونية. وقد ظهر هذا الخلاف في مؤتمر عقده «الجمعية الاسلامية - المسيحية» المناهضة للصهيونية. فقد تمكنت أغلبية الثلاثين سياسياً ناشطاً الذين حضروا المؤتمر، من ستر خلافاتها بالاتفاق على برنامج يدعو إلى اتحاد فدرالي عربي برئاسة فيصل ويرتكز على سورية. ولكن كان هناك مع ذلك، شعور محبذ لايجاد فلسطين منفصلة عن سورية، وبعض الشعور الموالي لبريطانيا، وبعض الشعور الموالي لفرنسا. وكان هنالك الكثير من الشقاق إلى حد أن خمسة من أعضاء المؤتمر الثلاثين لم يوقعوا على قرار يناهض الصهيونية. وقد ظهر الكثير من التقلب في وجهات النظر السياسية لأعضاء المؤتمر وزملائهم خلال السنتين التاليتين، إذ أن الذين كانوا ينادون بتنصيب فيصل ملكاً تحولوا ضده، والفئات الموالية لبريطانيا والمناهضة لبريطانيا غيرت مواقفها، ودعاة سورية الكبرى اضطروا، بسبب فتح الفرنسيين لمدينة دمشق، إلى قصر تركيز آرائهم على الأرض التي كانت على وشك أن يشملها الانتداب البريطاني على فلسطين.

كانت السياسة العربية داخل فلسطين تتخذ شكلها من خلال المنافسة بين الأسر الكبيرة من سكان المدن. والمنافسة الأبرز طوال الاحتلال البريطاني كانت بين أسرتين مقدسيتين هما أسرة الحسيني وأسرة النشاشيبي. أن سياسة آل النشاشيبي تحولت من العداء لبريطانيا إلى موالة بريطانيا وتأييد المصالحة في عام 1920، وفي السنوات التي تلت عام 1920 اعتقدت القيادة الصهيونية انها توصلت إلى أساس للتعاون المتبادل مع آل النشاشيبي، قد يؤدي إلى انسجام عربي - يهودي. بيد أن آل الحسيني الذين تحولوا في الوقت عينه من مؤيدين إلى منائين للبريطانيين، وجدوا أن كفتهم راجحة في التنافس على زعامة العرب في المنطقة، بفضل تعاطف الادارة البريطانية المحلية مع قضية المعادين للصهيونية. فإذا كان المسؤولون البريطانيون أنفسهم يرون أن العرب يجب ألا يقدموا تنازلات، فكيف يستطيع الزعماء العرب دعاة المصالحة اقناع أتباعهم بوجوب تقديم تنازلات؟

تفجرت أعمال العنف في أواخر عام 1919 عندما هاجمت قبائل بدوية مستوطنات يهودية في الجليل الأعلى، في الأرض الحرام بين منطقتي الادارتين العسكريتين البريطانية والفرنسية. وفي أوائل عام 1920 دخل عرب غزة إلى المستوطنات الصهيونية، فقتل في تبادل النيران الذي تبع

دخولهم عدة مستوطنين من ضمنهم بطل الحرب اليهودي الروسي الكابتن جوزف ترامبلدور.

إثر ذلك عُمّت الشائعات عن أعمال عنف مقبلة في القدس في ربيع ذلك العام. ورداً على ذلك أفصح فلاديمير جابوتنسكي - الصحفي اليهودي الروسي الذي سبق أن نظم كتيبة يهودية قاتلت في جيش اللنبي - في تأمين موافقة الزعماء الصهيونيين الآخرين على السماح له بتأليف مجموعة دفاع عن النفس، تتألف أساساً من متطوعين مثله من أفراد الفيلق اليهودي في الجيش البريطاني. وقد أبلغ جابوتنسكي حاكم القدس البريطاني عزمه على تأليف هذه المجموعة، وطلب إصدار تفويض إلى مجموعته وأن تعطيها الادارة البريطانية سلاحاً. فلما رفض البريطانيون طلبه، ابتاع سلاحاً من تاجر سلاح أرمني في المدينة القديمة.

العنف الذي تنبأ البعض بوقوعه في القدس تفجر في اليوم الرابع من نيسان (ابريل) 1920. فخلال موسم النبي موسى الذي يحييه المسلمون في فصل الربيع، أهاج بعض الخطباء خواطر الجموع العربية ودفعوها إلى ما تحول إلى أعمال شغب ضد اليهود استمرت ثلاثة أيام، فقتل عدد من اليهود وجرح مئات منهم<sup>[935]</sup>. أما في القدس الجديدة فلم تقع أية إصابات، لأن قوات جابوتنسكي كانت تقوم بأعمال الدورية فيها. كل الاصابات وقعت في مدينة القدس القديمة التي حالت وحدات الجيش البريطاني دون دخول قوات جابوتنسكي إليها.

لقد أضفى صبغة شؤم على سفك الدماء في المدينة القديمة هتاف الجموع المشاعبة «أن الحكومة معنا!»<sup>[936]</sup>. ومما أظهر أن هذا الهتاف كان له ما يسوغه، هو أن السلطات العسكرية البريطانية خففت العقوبة، فلم يعاقب سوى عدد قليل من المشاعبين بأحكام جدية من المحاكم، في حين أن جابوتنسكي وزملاءه قدموا بسرعة إلى محكمة عسكرية مغلقة بتهمة توزيع الأسلحة على مجموعة الدفاع عن النفس، وحكم عليهم بالسجن مع الأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً في سجن عكا<sup>[937]</sup>. هذه القرارات سببت احتجاجاً حمل الحكومة البريطانية على إصدار أمر بأن تحقق إحدى المحاكم في كيفية قيام العسكريين بحكم فلسطين.

عقدت محكمة التحقيق الحكومية جلساتها في القدس، وخلال هذه الجلسات ادعى المسؤولون العسكريون أن اليهود مذنبون لأنهم استفزوا المسلمين، أما الشهود اليهود فقد اتهموا الحكومة العسكرية البريطانية بتشجيع المشاعبين. كان ريتشارد ماينرتزهاغن، رئيس المخابرات العسكرية في القاهرة، قد أرسل إلى فلسطين ليضع تقريراً عما إذا كانت سياسة

لندن المؤيدة للصهيونية هي قيد التنفيذ، وعندما أدلى بشهادته أمام محكمة التحقيق مؤكداً صحة أقوال الشهود اليهود، صدمت الحكومة بقبول صحة شهادتهم [938].

لقد دوّن ماينرتزهاغن في مفكرته ما يلي: «لست متيقناً إن كان العالم لا يزال ممعناً في الأنانية إلى حد عدم تقدير قيمة مزايا الأهداف الصهيونية. إن العالم بالتأكيد شديد العداء للسامية وشديد الارتياح في الأدمغة اليهودية والمال اليهودي. وعلى أية حال أجد نفسي هنا وحيداً، بين غير اليهود، في دعمي للصهيونية. وهنا تكمن السخرية في الموقف بكامله، إذ انني أنا أيضاً مفعم بالمشاعر المعادية للسامية» [939]. وبما أنه ارتاب في أن يكون زملاؤه الضباط قد تحولوا من العواطف إلى الأعمال، فقد أخذ يتجسس عليهم خلال وجوده في فلسطين. وقال في تقرير رفعه في ما بعد إلى الجنرال اللنبي أنه زرع جاسوساً داخل الإدارة العسكرية وعرف عن طريقه أن الكولونيل البريطاني الذي كان يعمل رئيس أركان للإدارة العسكرية، إنما كان يتآمر مع مفتي القدس العربي للتحريض على أعمال شغب جديدة معادية لليهود [940].

لم تمض أسابيع على انعقاد محكمة التحقيق الحكومية، حتى حلت لندن الإدارة العسكرية في فلسطين وأقامت مكانها إدارة مدنية. وعين لويد جورج على رأس هذه الإدارة هيربرت صاموئيل بصفة مندوب سام جديد. إن صاموئيل اليهودي وأحد البارزين من حزب الأحرار، كان أول عضو في الحكومة البريطانية اقترح إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين برعاية بريطانية. وحدث ذلك عام 1914 عندما بدأت الحرب ضد تركيا. وقد جاء تعيينه دليلاً على أن رئيس وزراء بريطانيا لا يتأرجح في سياسته تجاه فلسطين. غير أن أعمال العنف التي شجعتها الإدارة العسكرية، جعلت الآخرين في لندن يعيدون النظر في تأييد الوطن القومي اليهودي، حتى أن ونستون تشرشل الذي كان طوال حياته أحد المتحمسين في تأييد الصهيونية، كتب بتاريخ 13 حزيران 1920 إلى لويد جورج قائلاً: «إن الاحتفاظ بفلسطين يكلفنا ستة ملايين سنوياً. وسوف تسبب الحركة الصهيونية استمرار الاحتكاك بالعرب، والفرنسيون يعارضون الحركة الصهيونية وسوف يحاولون أن يقنعوا العرب بأننا العدو الحقيقي. إن مغامرة فلسطين لن تنتج أي ربح من نوع مادي» [941].

لقد ازدادت هذه الشكوك بسبب الانتفاضات المثيرة التي وقعت في العراق في الوقت نفسه تقريباً واستنزفت موارد بريطانيا، والتي - بمجيئها بعد أعمال الشغب في مصر، والحرب في أفغانستان والحرب الدينية في شبه

الجزيرة العربية، والثورة القومية في تركيا، والمتاعب مع سورية الفرنسية -  
أوحت لكثيرين من الانكليز أن بريطانيا يجب أن تنسحب انسحاباً كاملاً من  
الشرق الأوسط.



# الفصل التاسع

## بلاد الرافدين (العراق): 1920

صار واضحاً في الأيام العنيفة الأولى للقومية العربية في دمشق بعد الحرب، أن أحد أهم الفوارق الإقليمية بين مختلف الناشطين العرب، هو أن الذين جاؤوا منهم من ولايتي بلاد الرافدين - النصف الشرقي من العالم الناطق بالعربية - كان معظمهم رجالاً عسكريين. ومع أن عسكري بلاد الرافدين ادعوا أنهم إنما يعملون باسم فيصل وأشقائه، فقد كان معظمهم ضباطاً سابقين في الجيش العثماني ظلوا على ولائهم للسلطان العثماني ولحزب تركيا الفتاة حتى نهاية الحرب تماماً. وبما أنهم أصحاب مراسٍ في ساحات القتال وخصوم ثابتون في خصومتهم لبريطانيا، فقد كان أمراً متوقعاً أن يشكلوا تهديداً محتملاً للخطط البريطانية أشد خطورة مما يشكله السياسيون والخطباء في دمشق أو القدس.

في أول الأمر لم تر الإدارة البريطانية في ولايتي بلاد الرافدين الأمور على هذا النحو. فقد بدا لها أن الأوضاع المتوترة بين مختلف فئات السكان تطرح مشكلات أكبر، وأن الخروج على القانون من قبل جماعات كالأكراد والقبائل البدوية يطرح خطاراً أكبر، وقد رأت الإدارة البريطانية أن التحدي يكمن في التفكك والخصام بين السكان والفوضى المعتادة وليس في القومية المنظمة. والكلام على الحكم الذاتي الوطني كان مصدره في الأغلب الأعم (وفقاً لأقوال السلطات البريطانية المحلية) متأمرين ذوي مطامح وطباع مريبة من شأنهم أن ينحدروا إلى التفاهة لو أن قادة الحلفاء كفوا فقط عن دعايتهم المزعجة لمبادئ ويلسون.

عند نهاية الحرب كانت إدارة الولايتين الموقته في يد الكابتن (في ما بعد الكولونيل) أرنولد ويلسون، القادم من الهند البريطانية، والذي تولى منصب الحاكم المدني. وكانت مساعده الشهيرة هي جيرترود بل، وهي آنذاك أشهر من كتب من البريطانيين عن البلدان العربية. كان توجه جيرترود بل نحو أسلوب الحماية، أما هو فكان ميله إلى الحكم المباشر، ولكنهما كانا في عام 1918 على وفاق في الرأي، بحيث أنه رفع مع الموافقة مذكرتها التي تقول فيها أن الكلام على تقرير المصير قبل مؤتمر الصلح وفي مؤتمر الصلح هو كلام مسبب للأذى. وقد سبق لها أن كتبت: «إن شعب بلاد الرافدين، الذي شهد نهاية الحرب الموفقة، اعتبر بقاء البلاد تحت الاشراف البريطاني أمراً مسلماً به، وكان بمجموعه راضياً بقبول ما يقرره السلاح.

أما البيانات الصادرة عن وودرو ويلسون وغيره تأييداً لتقرير المصير الوطني في مؤتمر الصلح «فقد فتحت امكانيات أخرى ينظر إليها الجميع تقريباً نظرة قلق، ولكن هذه الامكانيات تتيح للعناصر الأقل استقراراً والأكثر تعصباً، فرصاً لتأمر السياسي» [942].

وعندما أصدر مجلس الوزراء البريطاني، تبعاً للمبادئ الأميركية المأخوذ بها - أو على أقل تقدير المعمول بها - في لندن تعليماته إلى أرنولد ويلسون أن يسأل شعوب بلاد الرافدين ما هي الدول أو الحكومات التي ترغب هذه الشعوب في اقامتها في المنطقة، كان رد ويلسون أن لا سبيل إلى التيقن من معرفة الرأي العام [943].

وفي حين أنه كان مستعداً لإدارة الحكم في ولايتي البصرة وبغداد، وكذلك ولاية الموصل (التي كان لويد جورج قد انتزعها من المنطقة الفرنسية بموافقة كليمنصو، وكان عازماً على حرمان تركيا منها) فلم يكن معتقداً أن هذه الولايات تشكل كياناً متماسكاً. فقد بدا له العراق (وهي تسمية عربية استخدمها البريطانيون على نحو متزايد للدلالة على أراضي بلاد الرافدين) أنه بالغ الشرذمة بحيث لا يمكن أن يشكل كياناً متماسكاً. إن أهمية ولاية الموصل الاستراتيجية جعلها تبدو إضافة ضرورية إلى العراق. كما أن الاحتمال القوي لاحتوائها آبار نفط ذات قيمة كبيرة جعلها إضافة مرغوبة فيها، غير أنها كانت جزءاً مما يفترض انها كردستان. وكان رأي أرنولد ويلسون أن الأكراد ذوي النزعة الحربية الذين أخضعوا لإدارته «وعددهم نصف مليون نسمة لن يقبلوا اطلاقاً حاكماً عربياً» [944].

وفي رأي ويلسون، كانت هناك مشكلة أساسية هي أن المسلمين الشيعة في بلاد الرافدين وعددهم نحو مليونين، لن يقبلوا بسيطرة الأقلية التي يمثلها المسلمون السنة، ومع ذلك «فلم يكن قد إرُئيَ بعد أي شكل للحكومة لا ينطوي على سيطرة سنية» [945]. وكان الخصام بين الطائفتين يزداد حدة كلما أنجبت احدهما جمعية وطنية عربية منافسة [946]. وكان لا بد أيضاً من أن تؤخذ بعين الاعتبار الجالية اليهودية الكبيرة المسيطرة على الحياة التجارية في بغداد، والجالية المسيحية ذات الحجم الكبير التي تضم النساطرة الكلدانيين اللاجئين من تركيا والذين تجمعوا في منطقة الموصل. أبلغ ويلسون السلطات في لندن أن خمسة وسبعين بالمئة من سكان العراق قبليون «لم يتعودوا سابقاً اطاعة أية حكومة» [947]. وعلى المنوال نفسه كتبت جيرترود بل إلى أبيها قائلة: «إن الأقطاب في الولايات المتحدة يتجهون بقوة إلى مقاومة وجود أمير عربي، كما أرى، بل هم يعارضون وجود

حكومة عربية. وهم يقولون انهم لا يريدون أن يتخلصوا من طغيان ليقعوا في قبضة طغيان آخر»[948].

وخلافاً للقوميين العرب، الذين كانوا يفكرون بوحدة عربية على نطاق واسع[949]، كان ثمة من يقولون أليست محاولة توحيد ولايات بلاد الرافدين هي محاولة مغرقة في الطموح بحيث انها غير عملية. أما جيرترود بل، التي كانت تضع خططها الخاصة لتوحيد العراق، فقد حذرها أحد أعضاء الإرساليات التبشيرية الأميركية من أنها تتجاهل في عملها وقائع تاريخية عميقة الجذور. وكتب اليها قائلاً: «انك بمحاولتك رسم خط حول العراق ومن ثم تسميته كياناً سياسياً، انما تصطدمين بأربعة آلاف سنة من التاريخ. فامبراطورية آشور كانت تتطلع دوماً غرباً وشرقاً وشمالاً، أما بابل فكانت تتطلع جنوباً. ولم تكونا اطلاقاً وحدة مستقلة. وعليك أن تتمهلي وتأخذي الوقت الكافي لتحقيق دمجهما، وهذا يجب أن يتم تدريجاً. فليس هناك بعد مفهوم الأمة»[950].

غير أن شخصية سياسية عربية كبرى في بغداد أخذت منحى آخر في تحذيرها. لقد تحدثت هذه الشخصية اليها في 12 حزيران (يونيو) 1920 فقالت بلهجة التقرير أن بريطانيا ما زالت بعد مضي ثلاث سنوات على احتلالها بغداد في الحرب، تتحدث عن إقامة حكومة مستقلة دون أن تفعل شيئاً في هذا الصدد. وأشارت الشخصية إلى المفارقة بين هذا الوضع والوضع في دمشق حيث أقام البريطانيون حال وصولهم إلى دمشق ادارة مستقلة برئاسة فيصل. وبما أن هذه الشخصية كانت تعرف تمام المعرفة أن جيرترود بل هي واحدة من المسؤولين البريطانيين الذين كانوا يخططون لحكومة في بلاده، فقد دكرها بأنها قالت في بيانها انها ستقيم حكومة من أهل البلاد تستمد سلطتها من مبادرة الشعب المعني بالأمر واختياره الحر، ولكنها بالرغم من ذلك مستمرة في رسم خطتها دون أن تستشير أحداً. وقال انه من السهل عليها أن تضم واحداً أو اثنين من قادة البلاد إلى مجالسها، ولو فعلت ذلك لتحاشت التقرير الموجه إلى خطتها[951].

لقد استبعدت جيرترود بل خطر قيام انتفاضة أهلية. أما رئيسها، أرنولد ويلسون (الذي كانت تتآمر عليه) فلم يستبعد هذا الخطر، حتى أنه أندر لندن بأن تسريح الجنود قد جعل قواته المسلحة خفيضة العدد إلى حد الخطر. لقد نشر العسكريون قوة ضئيلة فقط مؤلفة من جنود يستخدمون آليات للقيام بأعمال الدورية في منطقة مساحتها 170,000 ميل مربع[952]. وأشار إلى الخطر الذي يمثله أنصار فيصل. ومع أن نوري السعيد وغيره من كبار ضباط بلاد الرافدين الذين خدموا في قوات الحجاز

مع لورنس والحلفاء، قد منعوا من العودة إلى وطنهم بسبب الارتياح في كونهم مثيرين للشغب، فان عدداً من الناشطين - وكثيرون منهم خدموا في صفوف العدو خلال الحرب - قد تسللوا عائدين إلى البلاد بعد بيانات دمشق الداعية إلى استقلال بلاد الرافدين. وكان هناك حديث عن عملاء أرسلتهم تركيا الكمالية [953].

كانت أعصاب البريطانيين مشدودة إلى أقصى حد نتيجة الشائعات الغامضة والاضطرابات المستمرة وأعمال القتل المتكررة. ففي صيف عام 1919 قتل ثلاثة ضباط بريطانيين شباب بمرتبة نقيب في كردستان. فأرسلت حكومة الهند موظفاً ذا خبرة وتجربة ليأخذ مكانهم في تشرين الأول (أكتوبر) 1919. وبعد شهر قتل هو أيضاً.

وفي عيد الميلاد من ذلك العام، اتصل أرنولد ويلسون بلندن يستنجد بمساعدة الكولونيل جيرالد ليتشمان، وهو ضابط أصبحت أعماله الفذة في الترحال والمغامرة والحرب في الصحارى الشرقية أعمالاً أسطورية، عاد ليتشمان إلى بلاد الرافدين قبل حلول ربيع عام 1920 ليجد أن ستة ضباط بريطانيين قتلوا في الأيام العشرة السابقة لعودته [954]. والمزيد كان على الطريق: ففي الشهر التالي تمكن ليتشمان من انقاذ مجموعة من الضباط البريطانيين هاجمها فريق أغار عليها في الصحراء، ولكنه عجز في مطلع الصيف عن انقاذ اثنين من ضباطه السياسيين اختطفوا كرهينتين ثم قتلوا. كانت الصحراء تعج بالمجموعات العربية المغيرة، وقد رأى ليتشمان أن السبيل الوحيد للتعامل مع القبائل الناقمة هو سبيل «الذبح بالجملة» [955].

هبت القبائل في شهر حزيران (يونيو) في ثورة كاملة بدا أن سببها هو محاولة الحكومة أن تفرض ضرائب. ومع حلول 14 حزيران (يونيو) ادعت جيرترود بل الوثائق بنفسها سابقاً، والتي كانت تنتقل من نقيض إلى نقيضه، أنها تعيش حكم ارهاب قومي [956]. لقد بالغت في كلامها، ولكن المراكز الواقعة عند منتصف الفرات اكتسحت وقتل الضباط البريطانيون وقطعت الاتصالات [957]. ولسبب أو آخر هبت المنطقة كلها ضد بريطانيا وانتشرت الثورة إلى الفرات الأدنى أيضاً. مع أن للثورات عدداً من الأسباب وللثوار المتعددين أهدافاً مختلفة. وأعلن الجهاد ضد بريطانيا في مدينة كربلاء التي يقدسها المسلمون الشيعة [958]. وعند الحدود الشمالية الغربية اكتسح الفرسان العرب، وكانوا في البداية بقيادة ضابط سابق في قوات فيصل، المراكز البريطانية المتطرفة وذبخوا المدافعين عنها.

كان هناك المزيد من أخبار السوء: ذلك أن ليتشمان الذي غادر بغداد في 11 آب (أغسطس) ليحضر اجتماعاً مع حلفاء قبليين في محطة على نهر الفرات، قد تعرض لخدعة جعلته يبعد حرسه المسلح، ثم أطلقت عليه النار من الخلف وقتل بأمر من شيخ القبيلة الذي كان يستضيفه. وكان عنوان النبا الذي بثته وكالة «رويتير» عن حادث الاغتيال «الغدر العربي» أما العنوان في جريدة التايمز فكان «من سييء إلى أسوأ في بلاد الرافدين» [959]. لقد أدى نبا مقتل ليتشمان إلى مزيد من الانتفاضات القبلية على البريطانيين على طول نهر الفرات. وحدثت انتفاضات جديدة إلى الشمال والغرب من بغداد. ومع حلول منتصف آب (أغسطس) شعرت مجموعة من الثوار بالثقة إلى حد اعلان قيام حكومة عربية مؤقتة [960].

لقد طلبت جريدة «التايمز»، في مقالة رئيسة نشرتها في 7 آب (أغسطس) 1920، أن تعرف «إلى متى تستمر التضحية بأرواح لها قيمتها في محاولة عبثية هدفها فرض ادارة مكلفة ومعقدة على السكان العرب الذين لم يطلبوها قط، ولا يريدونها؟» وقالت «التايمز» في مقالة مماثلة نشرتها في 10 آب (أغسطس) «اننا ننفق مبالغ في بلاد الرافدين وبلاد فارس قد تبلغ مئة مليون جنيه في هذا العام» لمساندة ما وصفتها «بالسياسة الحمقاء التي تتبعها الحكومة في الشرق الأوسط».

لقد دفعت حكومة الهند بتعزيزات من الرجال والامدادات من أجل استعادة النظام. وتمت بسرعة اعادة الأمن إلى مراكز السكان الرئيسة، أما استعادة السيطرة على الريف، فقد تطلب وقتاً أطول. فلم تتحقق اغاثة المدن المقطوعة في منطقة الفرات قبل شهر تشرين الأول (أكتوبر)، ولم تتم استعادة النظام الكامل إلى حد ما، حتى شهر شباط (فبراير) 1921. ولكن بريطانيا منيت قبل اخماد الثورة بنحو ألفي اصابة من ضمنها 450 قتيلا [961].

لقد حار البريطانيون في معرفة مصدر الثورة. وقد عرض أرنولد ويلسون قائمة تتضمن ثلاثة عشر من العوامل التي أسهمت في تفجير الثورة، مشدداً في المقام الأول على مشاركة أنصار فيصل وتركيا الكمالية الذين قد تكون ساندتهم، حسب ادعائه، مصالح شركة النفط الأميركية (ستاندارد أويل) [962]. وتقدم ضابط مخابرات ملحق بوزارة شؤون الهند بخريطة تشرح التآمر، وتدين فيصل ولكنها تدين أكثر منه الأتراك الذين، كما أكد هذا الضابط، يستمرون في تلقي الأوامر من برلين عن طريق موسكو وسويسرا [963]. وقد وزعت خريطة على أعضاء مجلس الوزراء البريطاني في لندن.

ان الانتفاضات الغامضة في العراق أفقدت الادارة البريطانية في الهند توازنها، مع أنها في العادة إدارة رصينة. لقد أبلغ سير أرنولد ويلسون مجلس الوزراء البريطاني في نهاية عام 1920 أن «لا رغبة حقيقية في بلاد الرافدين في حكومة عربية، وان العرب سيكونون ممتنين للحكم البريطاني» [964]. لو كان الأمر كذلك، لما أمكن تفسير الانفجار في بلاد الرافدين بأنه حركة استقلال عربية. قال ويلسون: «ان ما نواجهه هو الفوضى مضاف اليها التعصب» أما القومية فليس لها وجود او لها وجود ضئيل» [965]. وقال أيضاً إن رجال القبائل: «يقاومون أي شكل من أشكال الحكومة» ولا فكرة لديهم عما ييغونه من القتال [966]. وفي منتصف آب (أغسطس) قال: «ان الحركة الثورية لم يعد لها منذ وقت مضى أي وجه سياسي وأصبحت بكاملها فوضوية» [967].

لم يكن هذا تفسيراً مرضياً، لا سيما أنه جاء - كما جاءت الانتفاضات العراقية نفسها - فوق كل المتاعب التي حدثت في كل مكان آخر من الشرق الأوسط. فما سر نجاح الأتراك المحترقين، بقيادة مصطفى كمال، في مواصلة تحديهم للحلفاء؟ وما سبب اخفاق رجل بريطانيا، الملك حسين، في كفاحه من أجل السيادة على شبه جزيرة العرب؟ وما سبب استمرار رفض المصريين التفاوض - على أي أساس - بشأن بقاء القوات البريطانية في بلادهم؟ ولماذا كان فيصل خاسراً أمام فرنسا ثم سمح لاتباعه أن يحملوا على بريطانيا؟ ولماذا يقوم العرب بأعمال شغب في فلسطين ويتمردون في العراق - وهذا كله يحدث بينما الاقتصاد البريطاني قد انهيار وبينما الحكومة البريطانية في حاجة إلى كل الوقت والطاقة والموارد المتاحة لها لانعاش الاقتصاد؟

لم يكن في لندن اتفاق على تفسير ما حدث في الشرق الأوسط، ولكن كان هنالك جانب كبير من الرأي العام يرى أن ما حدث سببه أشخاص من خارج المنطقة وأن الاضطرابات في سائر أنحاء الشرق مرتبطة بعضها ببعض الآخر. وظلت هناك أسماء معينة تتردد على الألسنة في معرض التكهّنات البريطانية حول مصادر الاضطرابات: هذه الأسماء، هي أنور باشا، مصطفى كمال، فيصل، رابطة الإسلام، الألمان، شركة ستاند ارد أويل. اليهود، والبلشفيك.

وفي ما يتعلق بالبلشفيك، ثبت أن الشكوك البريطانية لها أساس صحيح. فالروس، الذين كانوا يتحينون فرصة لتقويض الوضع البريطاني في آسيا، قرروا أن تأثير ضغطهم على بريطانيا في أماكن أخرى، سوف يوفر امكانية النجاح للتمرد في العراق. وقد وقع اختيار الروس على بلاد فارس باعتبارها

موطن الضعف البريطاني الذي يمكن استغلاله، وبلاد فارس كانت ساحة  
النزال السياسي التي طالما تصادمت على أرضها بريطانيا وروسيا في  
سياق اللعبة الكبرى.

# الفصل العاشر

## بلاد فارس (إيران): 1920

عندما انتهت الحرب العالمية الأولى كان انتباه رئيس الوزراء البريطاني منصرفاً بكليته الى أماكن أخرى، فلم يول بلاد فارس الكثير من انتباهه، وهو، على أية حال، لم يكن كثير الاهتمام بهذه المنطقة من العالم المجاورة للامبراطورية العثمانية شرقاً. واهماله لها فتح الطريق أمام جورج كورزون، رئيس «اللجنة الشرقية» المنيثقة عن مجلس الوزراء، والذي شغل منذ عام 1919 في ما بعد منصب وزير الخارجية، كي يتولى المسؤولية. عملياً، كان اهتمام اللورد كورزون ببلاد فارس يفوق اهتمامه بأي مكان آخر.

لقد كان كورزون ميالاً الى المبالغة بأهمية المناطق التي له خبرة فيها، ولا ريب في أنه كان خبيراً ببلاد فارس. فقد ذاعت شهرة رحلته الى تلك البلاد التي لم تكن معروفة عام 1889، كما أن كتابه «فارس والمسألة الفارسية» اعتبر مرجعاً باللغة الانكليزية في هذا الموضوع وبالتالي، كان رأيه أن لبريطانيا مصالح ضخمة في تلك البلاد.

وقد نقل اللورد كورزون معه من القرن التاسع عشر استراتيجية ترمي إلى خلق «سلسلة دول اسلامية في الشرق الأوسط لتكون درعاً واقية من التوسع الروسي»<sup>[968]</sup>. لقد كان للأهداف التوسعية الروسية حضور بارز في الأفكار التي عبر عنها وفي مؤلفاته عندما استكشف آسيا الوسطى في أواخر القرن التاسع عشر، وكان لها حضور بارز في سياسته عندما أصبح نائباً للملك في الهند في مطلع القرن العشرين. فلما أدت الثورة البلشفية إلى انسحاب روسيا من مواقعها الأمامية، رأى كورزون اغتنام هذا الوضع لتحل سلسلة الدول الاسلامية محل تلك المواقع. وكان من شأن هذه السلسلة في القرن التاسع عشر ان تؤلف شريطاً يمتد عبر الشرق الأوسط بدءاً من الامبراطورية العثمانية، مروراً بالامبراطورية الفارسية ووصولاً إلى بلاد الخانات والامارات في آسيا الوسطى وافغانستان، ولكن كورزون لم يكن في وضع يسمح له باعادة تكوين شريط يمثل هذا الطول.

إن سياسة التقليل الجذري للنفقات التي اتبعها ونستون تشرشل، أجبرت القوات البريطانية على الانسحاب من كل الأماكن تقريباً في آسيا، وبالتالي فقد جلت عن المواقع التي تمنى اللورد كورزون المحافظة عليها. فلم يبق من سلسلة الدول الاسلامية سوى فارس، وفي هذه البلاد استبقى اللورد



كورزون سيطرته الفريدة على السياسة البريطانية. لقد لاحظ أدوين مونتاغيو، عضو «اللجنة الشرقية» المنبثقة عن مجلس الوزراء، أن مسودة محضر اجتماع عقده اللجنة وتغيب عنه سائر الأعضاء ما عدا كورزون، قد ذكرت «أن اللجنة أقرت رأي رئيسها». فكتب مونتاغيو الى كورزون قائلاً: «حتمًا لن تسمح ببقاء هذا الكلام. فاللجنة كانت مؤلفة من رئيسها، والرئيس بطبيعة الحال وبصورة غير مخالفة للطبيعة إنما يوافق الرئيس» [969]. لقد كان هذا هو الأسلوب الذي اتبعه كورزون في ما يخص فارس، ممسكاً بزمام السياسة كلها بيديه متغافلاً عن تمعّع زملائه في مجلس الوزراء عن اتباع خطواته.

وكان قبل عقدين من السنين قد كتب: «إن سلامة أراضي فارس يجب أن تسجل كقاعدة أساسية من قواعد عقيدة ايماننا الامبراطوري» [970]. لقد ظلت حماية هذه السلامة من الاعتداءات الروسية في المستقبل الهدف الأول لسياسته. ولكن الوسائل التي يتصرفه كانت قليلة ضئيلة.

ان انتهاء الحرب ألغى بريطانيا (والهند البريطانية) وقد بقيت لها قوات صغيرة في أربع مناطق في فارس. ففي الشمال الشرقي والشمال الغربي كانت البعثتان العسكريتان الصغيرتان بقيادة الجنرال ماليسون والجنرال دنسترفيل، وقد تتبعنا في صفحات سابقة مغامراتهما في روسيا. وعلى ساحل الخليج كانت توجد بضع حاميات من الجنود الهنود. أما في الجنوب فكانت هناك قوة من أهل البلاد تم تجنيد أفرادها خلال الحرب، وهي بقيادة ضباط بريطانيين، وتدعى «وحدات البنادق لجنوب فارس». ولكن كانت هنالك حالات تمرد وفرار قبل الهدنة، سببتها ثورة القبائل على الحكم البريطاني، مما أثار الشك في فاعلية هذه القوة.

وهذه القوات جميعها لم تف بالغايات التي هدف اليها اللورد كورزون، حتى ولو لم تكن هناك ضغوط من وزارة الحرية ومن الهند لاجراء تخفيضات أخرى في عدد الجنود وأموال الدعم. ولذلك ركز اللورد كورزون طاقاته في تنظيم حكم جديد في فارس بإشراف بريطانيا، بحيث يتمكن الحكم الجديد من تحويل هذا البلد الفوضوي شديد الانقسام على نفسه، الى بلاد تتمتع بالكفاءة والفاعلية وقادرة على الاعتماد على نفسها والدفاع عن نفسها، وبالتالي تستغني عن أموال الدعم والقوات البريطانية.

لقد وجدت هذه الخطة تجسيدا لها في معاهدة بين بريطانيا وفارس فرضها اللورد كورزون على حكومتي البلدين. لم يكن احمد شاه في حد ذاته مشكلة. ان هذا الشاب الضعيف، وآخر من اعتلى عرش فارس من سلالة الغجر، كان يخاف على حياته، وكان، على أية حال، يتلقى دعماً مالياً منتظماً من الحكومة البريطانية لقاء إبقائه على رئيس وزراء موالٍ لبريطانيا،

وباشراف اللورد كورزون تفاوض رئيس وزراء بريطانيا في طهران مع رئيس الوزراء الفارسي واثنين من زملائه على معاهدة، طلب رئيس وزراء فارس وزميله مقابل توقيعها مبلغ 130,000 جنيه تدفع لهم سرا وقد حصلوا على هذا المبلغ.[971]

كان كورزون فخوراً بالاتفاق الانكليزي - الفارسي الموقع في 9 آب (أغسطس) 1919 وكتب يقول: «انه نصر عظيم، وقد حققته وحدي»[972]. لقد نص الاتفاق على أن يقوم ضباط بريطانيون بإنشاء شبكة سكك حديدية في البلاد، وأن يقوم خبراء بريطانيون بإعادة تنظيم الشؤون المالية، وأن تقدم بريطانيا قرضاً لإنجاز هذه المشاريع، وأن يشرف موظفون بريطانيون على جباية الرسوم الجمركية لضمان تسديد القرض.

في زعم كورزون، كان هدف الاتفاق تعزيز استقلال فارس. ولكنه لم ير بعين بصيرته أن الآخرين سيفسرون الاتفاق تفسيراً مغايراً. ولم يأخذ الحيلة لامكانية حدوث رد فعل من قبل الحلفاء الواعين لموضوع النفط - فرنسا والولايات المتحدة - والذين سيقاومون منح بريطانيا احتكاراً سياسياً. ويبدو أنه لم يدرك أيضاً اتجاه تيارات الرأي العام في فارس نفسها: فقد توهم أن الفرس، كما في الأزمنة الماضية، يخافون التوسع الروسي ويرحبون بالحماية منه، ولكن بدا أن الخوف الفارسي من هذا التوسع قد زال مع انهيار الامبراطورية الروسية في عام 1917، فصارت بريطانيا في عام 1919 تمثل التهديد الأوروبي الوحيد للحكم الذاتي الذي تمارسه الجماعات ذات المصالح - وخصوصاً الزعامات المحلية وزعامات الولايات والزعامات القبلية - وكانت هذه الجماعات تمارس سلطتها وفق ما هو متبع في أراضي فارس التي تعدمها الفوضى. وفي ما يتعلق بالرأي العام، فإن خمساً وعشرين صحيفة ودورية أخرى من مجموع ست وعشرين، كانت تصدر في ذلك الحين، قد نددت بالاتفاق الانكليزي - الفارسي[973].

ولم يمض إلا وقت قصير على وضع الاتفاقية موضع التنفيذ، حتى اكتشفت سلطات لندن وطهران أن في الدستور الفارسي نصاً يقضي بإبرام جميع المعاهدات من قبل المجلس التشريعي الفارسي. ولكن هذا المجلس لم يلتئم منذ عام 1915 وأغفلته الحكومتان عندما توصلتا إلى الاتفاق.

كان الرأي في عالم الدبلوماسية التقليدية المغلق أنه ليس أمراً مشرفاً أن يمتنع مجلس تشريعي عن إبرام معاهدة نفذتها الحكومة أصولياً. ولذلك اعتبر مطلب الإبرام مجرد مسألة فنية يسهل على المتفاوضين التغاضي عنها. ولكن ما ان أثير الموضوع حتى اكتسب أهمية، فقد كان أمراً هاماً بالنسبة للورد كورزون أن يظهر لزملائه في مجلس الوزراء وللنقاد في

فرنسا والولايات المتحدة أن الاتفاق كان تعبيراً أصيلاً عن إرادة الأمة الفارسية، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا باقتراع إيجابي في المجلس (بغض النظر عن سوء تمثيل هذا المجلس للشعب). غير أن رؤساء وزراء فارس، الواحد تلو الآخر (لأن الوزارات في طهران كانت تسقط في تتابع سريع) أرجؤوا دعوة المجلس إلى الانعقاد بسبب خوفهم من عدم القدرة على ضبط أعضائه. وبما أنه لم يكن بالإمكان اتخاذ أية خطوة لتنفيذ الاتفاق قبل إبرامه، فقد ظلت فارس تعيش حالة الفوضى وظلت (حسب مخاوف المسؤولين البريطانيين) سهلة المنال من قبل الدعاية البلشفية والتحريض البلشفي.

أما سياسة نظام الحكم البلشفي المعلنة إزاء فارس، فقد كانت طوال الوقت تمثل نقیضاً للسياسة البريطانية يستميل أهالي فارس. ففي بداية عام 1918 تخلت الحكومة السوفياتية عن ادعاءاتها السياسية والعسكرية الروسية في فارس باعتبار أنها لا تنسجم مع حقوق السيادة الفارسية. ومنذ بداية صيف عام 1919 تخلت الحكومة السوفياتية أيضاً عن سائر الادعاءات الاقتصادية العائدة إلى روسيا أو إلى الروس في بلاد فارس، وألغت كل الديون الفارسية لروسيا، كما ألغت كل الامتيازات الروسية في فارس، وتخلت عن كل الممتلكات الروسية في فارس. قد يقال بطبيعة الحال أن الحكومة الروسية إنما كانت تتخلى عن حقوق هي أضعف من أن تستطيع وضعها موضع التنفيذ، وإنما بهذا المعنى لم تكن تتخلى عن أي شيء. مع ذلك فإن تخليها عن مطالبها الاقتصادية في صيف عام 1919 أبرز بشكل صارخ الامتيازات الاقتصادية البعيدة المدى التي طلبها اللورد كورزون لبريطانيا وحصل عليها في الاتفاقية الانكليزية - الفارسية التي وقعت في صيف العام عينه. أما وقد شعر الوطنيون الفرس أنهم تحرروا، على الأقل بصورة مؤقتة، من مخاوفهم من روسيا، فقد أخذوا يعبرون عن استيائهم من قسوة السيطرة الأجنبية الماثلة في خطة اللورد كورزون لحمايتهم.

وهكذا أخذ الرأي العام الوطني يتصلب. انقضى شتاء 1919 - 1920 وانساب إبرام الاتفاق الانكليزي - الفارسي شيئاً فشيئاً وعلى نحو مسبب للاحباط، من قبضة اللورد كورزون. ثم أخذ سير الأحداث في ربيع ذلك العام منعطفاً جديداً.

كان الكابتن ديفيد نوريس الضابط في الأسطول البريطاني قد نظم في آب (أغسطس) 1918 أسطولاً بريطانياً صغيراً للإشراف على بحر قزوين، حينما احتلت البعثة العسكرية التي قادها الجنرال دانستر فيل مدينة باكو ثم انسحبت منها. وفي صيف 1919 سلمت الحكومة البريطانية هذا الأسطول إلى القوات الروسية البيضاء بقيادة الجنرال دينيكن لاستخدامه في الحرب الأهلية الروسية. فلما انهارت قوات دينيكن لجأت بقية هذا الأسطول، أي

نحو ثماني عشرة سفينة بملاحيتها الروس المعادين للبلشفية، الى ميناء إنزيلي، وهذا الميناء هو قاعدة الأسطول البريطاني والميناء الفارسي الرئيس على بحر قزوين. وفي هذا الميناء وضعت هذه السفن تحت حماية المسؤولين الفرس وحماية الحامية البريطانية والهندية الموجودة في الميناء. ولكن الحكومتين البريطانية والفارسية لم تقررا حتى ربيع عام 1920 ما يجب أن تفعله بهذا الأسطول الذي ما زال بحجمه وقوته قادرة على التأثير في أي صراع من أجل السيطرة على بحر قزوين.

فجر 18 أيار (مايو) 1920 قامت ثلاث عشرة سفينة حربية روسية سوفياتية بهجوم مباغت على إنزيلي. ونزل الجنود السوفيات الى البحر تحت غطاء من القصف المدفعي من سفنهم، وعزلوا الحامية البريطانية في معسكرها عند طرف شبه الجزيرة. لقد طلب الجنرال البريطاني قائد الحامية المحاصرة تعليمات من رؤسائه في طهران دون أن يتلقاها، فقبل بالشروط التي أملاها عليه القائد السوفياتي المنتصر: لقد سلمت الحامية البريطانية امداداتها العسكرية وأسطول الجنرال دينيكن الى البلشفيك ثم انسحبت من إنزيلي.

وفي غضون أسابيع أعلن قيام جمهورية اشتراكية فارسية في جيلان، وهي الولاية التي يقع فيها ميناء إنزيلي، وتأسس حزب شيوعي فارسي في الولاية لمساندة الجمهورية. ومع أن الروس قاموا بدور رئيس في هذه الأحداث، فإن روسيا السوفياتية تحملت عناءً شديداً لانكار ذلك. بل إن موسكو أنكرت انها أمرت بالهجوم على إنزيلي. وقال ناطقون سوفيات إن الهجوم قام به القائد المحلي للبحرية الروسية وعلى مسؤوليته الخاصة.

لو كان هناك أي مسوِّغ لاتفاق الانكليزي - الفارسي ولحضور بريطاني مسيطر في البلاد، فقد قضت عليه سلسلة الأحداث التي كانت بدايتها في إنزيلي. فبريطانيا التي أخذت على عاتقها أن تدافع عن فارس وتحميها من روسيا والبلشفية، كان واضحاً انها اخفقت في ذلك. والانسحاب من إنزيلي حمل وزارة الحرية على أن تطلب انسحاب بقية القوات البريطانية من فارس. وكتب ونستون تشرشل الى جورج كورزون قائلاً: هناك ما يمكن قوله بشأن عقد صلح مع البلشفيك، وهناك ما يمكن قوله بشأن شن حرب عليهم، ولكن لا يوجد ما يمكن قوله بشأن السياسة الراهنة<sup>[974]</sup>. وبحسب رأي رئيس وزراء فارس الجديد، أصبحت الاتفاقية الانكليزية - الفارسية «معلقة». وقد ألقى رئيس وزراء بريطانيا اللوم في ما حدث على وزير خارجيته قائلاً ان كورزون مسؤول مسؤولية كاملة تقريباً عن تحميل بريطانيا مسؤوليات في فارس ما كان ينبغي لها أن تأخذها على عاتقها<sup>[975]</sup>.

في نهاية صيف عام 1920، جاء المندوب الروسي البلشفيكي، ليف كامينيف، الى لندن بصفته رئيس وفد للصلح، مهمته التفاوض على وضع نهاية للنزاع بين روسيا وحلفائها السابقين في زمن الحرب. وكان كامينيف أحد ستة قادة رئيسيين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، وكان منذ سنين عديدة واحداً من أقرب الزملاء السياسيين الى لينين. ويبدو أن كامينيف اطلع في لندن على مدى فقدان التوازن لدى الحكومة البريطانية بسبب انتفاضات العراق، ووجدها فرصة كي تستغل حكومته الوضع في فارس لزيادة متاعب بريطانيا في العراق. وقد أرسل برقية سرية (حلت المخابرات البريطانية رموزها) من لندن إلى وزير الخارجية السوفياتي في موسكو، قال فيها: «ان الضغط على القوات البريطانية في شمال فارس يعزز موقف الثوار في بلاد الرافدين». وتابع في برقيته قائلاً ان قيام ثورة على امتداد خط جغرافي من أنزيلي في فارس الى بغداد في العراق «سيهدد أهم المصالح الحيوية للامبراطورية البريطانية وينهي الوضع القائم في آسيا» [976]. إذاً، ما هي الصلة بين انتفاضة وأخرى، التي كان المسؤولون البريطانيون يؤمنون بها ايمان الذين يعتقدون بالخرافات. ولكن على عكس ما اعتقدوا، كانت أحداث شمال فارس وحدها (وإلى حد ما أحداث أفغانستان) موحى بها مباشرة من روسيا السوفياتية.

وصل في خريف عام 1920 قائد بريطاني جديد، هو الميجر جنرال ادموند ايرونسايد، ليتولى زمام الوضع في شمال فارس. وكانت له آراء مغايرة جداً لآراء اللورد كورزون بشأن ما ينبغي عمله. كان ايرونسايد شخصاً مهيباً، ضخم الجثة، طوله ستة أقدام وأربع بوصات ووزنه 275 باونداً، ولم يتردد في فرض سياسته [977]. كان رأيه مماثلاً لرأي تشرشل أن من الحماقة مقاومة البلشفيك ان لم يكن مسموحاً بالدخول في حرب شاملة للاحاق الهزيمة بهم، وخير ما كان يؤمل به، حسب رأيه، هو أن تسحب بريطانيا وروسيا قواتهما، إذا أمكن أن تحل مكانها حكومة فارسية تستطيع أن تصمد وحدها.

لم تكن في شمال فارس كله سوى قوة واحدة فقط من أهل البلاد بشكل ما ولها بعض الأهمية، ويستطيع إيرونسايد أن يستفيد منها، هذه القوة هي فرقة القوزاق الفارسية، وكان قيصر روسيا قد أوجدها في عام 1879 لتكون قوة الحرس الشخصي للشاه الفارسي. ولكن علتها انها روسية الإلهام وروسية القيادة: فقائدها وعدد من ضباطها وصف ضباطها روس، وعلى مدى السنين كانت الحكومة الروسية تدعمها دعماً مالياً كبيراً. أما بعد الثورات الروسية، فقد تولت الحكومة البريطانية تقديم الدعم المالي، غير أن قائد هذه القوة، الكولونيل الروسي ستاروسيلسكي، رفض في عام

1920 أن يستجيب للطلبات البريطانية، وبالرغم من أنه معادٍ للبلشفية فقد أصر على دعم «المصالح الروسية» [978].

لقد رأى الجنرال إيرونسايد في القوزاق الفرس وسيلة لتحقيق برنامجه. لقد كان العنصر الفارسي في هذه القوة كبير العدد، والمجموعة الروسية قليلة العدد: كان عدد الجنود الفرس 6000 وعدد الضباط الفرس 237 ضابطاً يقابلهم 52 ضابطاً روسياً و66 ضابط صف روسي [979]. وكان القائد الروسي ستاروسيلسكي في موقف الضعف لأنه بعد أن حقق نجاحات أولية على الجمهورية الاشتراكية الفارسية مُنيَ بفشل ذريع.

بادر إيرونسايد الى العمل فوراً في سبيل عزل ستاروسيلسكي، ثم عمل في سبيل استبعاد البديل الذي كان سيحل محله. وعين إيرونسايد مكانهما رضا خان، وهو ضابط فارسي برتبة كولونيل يتصف بالصلابة. وقد وصفه إيرونسايد في وقت لاحق بأنه «الفارسي الأكثر رجولة» الذي التقاه في حياته [980].

ولما كان إيرونسايد مدركاً لخطط وزارة الحربية البريطانية الرامية إلى اكمال جلاء القوات البريطانية عن فارس في عام 1921، فقد انطلق يعد الترتيبات كي يتولى رضا خان حكم البلاد عندما تغادرها بريطانيا. وفي 12 شباط (فبراير) 1921 قال إيرونسايد لرضا خان ان القوات البريطانية المتبقية لن تقاومه إذا ما قام بالانقلاب، بشرط أن يوافق - وقد وافق - على عدم الإطاحة بالملك أحمد شاه [981] الذي يتلقى دعماً مالياً من بريطانيا.

بتاريخ 15 شباط (فبراير) اجتمع إيرونسايد مع الشاه وحاول دون جدوى اقناعه بتعيين رضا خان في أحد مراكز السلطة. ولذلك، زحف رضا خان على طهران فدخلها على رأس قوة مؤلفة من 3000 من القوزاق واستولى على السلطة ونصب نفسه قائداً عاماً للقوات المسلحة. ولما سمع إيرونسايد النبأ، قال: «حتى الآن الأمور جيدة. أتخيل أن الناس جميعاً يظنون أنني مخطط هذا الانقلاب، إذا توخينا الدقة في الكلام، أظن انني فعلت ذلك» [982].

في حقيقة الأمر، أن دور إيرونسايد في هذه الأحداث كان مجهولاً تماماً، وظل مجهولاً إلى أن اكتشفه وكشفه باحث أميركي بعد أكثر من نصف قرن [983]. أما في لندن - حيث لم يكن المسؤولون على علم بمشاركة إيرونسايد في الانقلاب - فقد قبل مجرى الأحداث في فارس أولاً بالحيرة ثم بالقنوط.. ففي 21 شباط (فبراير) 1921، بعد مضي خمسة أيام فقط على استيلاء الحكومة الجديدة على السلطة في طهران، ألغت هذه

الحكومة رسمياً الاتفاق الانكليزي - الفارسي. وفي اليوم نفسه أرسلت إلى الممثل الدبلوماسي الفارسي في موسكو توجيهاً بتوقيع معاهدة (هي الأولى منذ توليها السلطة) مع روسيا السوفياتية. هذان الحدثان التوأمان اللذان وقعا في 26 شباط (فبراير) كانا مؤشراً لانقلاب في موقف فارس، إذ انتقلت من الحماية البريطانية من روسيا إلى الحماية الروسية من بريطانيا. وقعت هذه الأحداث في الوقت عينه عندما وقعت روسيا معاهدة مع أفغانستان، البلد المسلم، وقبل شهر واحد من إبرام النهائي لمعاهدة روسيا مع تركيا الكمالية. ونلاحظ أن الحكام الجدد في تركيا، وفارس، وأفغانستان - البلدان الثلاثة الحاسمة التي كانت موضوع النزاع مع روسيا خلال اللعبة الكبرى مدة تزيد على قرن من الزمان - فاوض كل منهم موسكو على معاهدة في أول خطوة له في السياسة الخارجية. إضافة إلى ذلك، كانت أول معاهدة عقدتها تركيا الكمالية مع دولة إسلامية هي المعاهدة التي أبرمتها مع أفغانستان، وجرى التفاوض على هذه المعاهدة في موسكو بتشجيع من روسيا. وقد تكاثف جميع المسلمين الذين أسبغت روسيا حمايتها عليهم حديثاً، تحت رعاية روسيا، ضد بريطانيا. كانت نصوص المعاهدات التي عقدت موجهة ضد الإمبريالية، ولم تترك اللغة التي صيغت بها المعاهدات مجالاً للشك في أن الامبريالية البريطانية هي المقصودة، ومرة أخرى استحوذ على المسؤولين البريطانيين إحساس بأن الثورات العديدة في الشرق ضد بريطانيا مرتبطة ببعضها بعضاً.

كان اللورد كورزون قد قال في عام 1918: «إن القوة الكبرى التي يجب أن نخشاها أكثر من سواها في المستقبل هي فرنسا»، ولكنه ادعى في عام 1920: «إن الخطر الروسي في الشرق هو أكبر بما لا يقبل المقارنة من أي شيء آخر حدث في زمني للامبراطورية البريطانية» [984] ومرد ذلك ليس إلى كون روسيا قوية على نحو خاص، فالحرب، والثورة، والحرب الأهلية حصدت أعداداً كبيرة من الناس بحيث لا يصح القول أن روسيا قوية. وإنما مرد ذلك إلى أن البلشفيك كان ينظر إليهم على أنهم مصدر الهام لقوى خطيرة في كل مكان من الشرق. لقد ذهب جمال باشا، زميل أنور في حكومة حزب تركيا الفتاة، إلى أفغانستان في عام 1920 بتشجيع من روسيا ليعمل مستشاراً عسكرياً. ومهمته هذه القت الضوء على الأمر الذي كانت الحكومة البريطانية تخاف منه أشد الخوف. إن جمعية الاتحاد والترقي، وتأثير ألمانيا المستمر حتى في حال الهزيمة والحركة الإسلامية، والبلشفية، وروسيا - هذه القوى كلها تعاضدت وكانت تتأهب للانقضاض على الامبراطورية البريطانية وهي اقصى مرحلة من مراحل الضعف.

إذاً كان السوفييات يساندون القومية الفارسية ضد بريطانيا. وقد فعلوا ذلك لأن كامينيف أعتقد أن الضغط على الوضع البريطاني في فارس قد يساعد

الجماعات الثائرة في العراق المجاور على مقاومة الحكم البريطاني في تلك البلاد. وفي أثناء ذلك، اخذت القومية التركية بقيادة مصطفى كمال وبالهام من (حسب اعتقاد البريطانيين) حركة تركيا الفتاة، تهدد بتمزيق معاهدة الصلح التي فرضها لويد جورج على الامبراطورية العثمانية. في الوقت عينه نزل المشاغبون العرب في مصر وفلسطين الى الشوارع. ونزل ابن سعود في شبه الجزيرة العربية وفيصل في سورية إلى ميدان القتال بجيوشهما لمقاومة ما أعدته بريطانيا من اتجاهات لمصيرهما. أما بالنسبة لبريطانيا - التي كانت في الحضيض اقتصادياً، وفي وضع العجز عن التعامل مع الاضطرابات الخارجية - فكانت متاعب الشرق الأوسط ساحقة، وبدا لها أن هذه المتاعب أثّرت عن قصد من عدو متفان في العداء لها - روسيا السوفياتية.



# الجزء الحادي عشر روسيا تعود إلى الشرق الأوسط

# الفصل الأول

## إزالة الأقنعة عن

### وجوه أعداء بريطانيا

#### (1)

صحيح أن السوفييات شجعوا القومية الفارسية، وساندوا القومية التركية، وعملوا على تقديم العون للثورة في العراق، ولكن الروس لم يكونوا مصدر إلهام - ولم يوجهوا - أيّاً من هذه الحركات. ان اقتناع بريطانيا المتزايد بأن روسيا البلشفية لها ضلع في مؤامرة دولية بعيدة المدى فجرت الثورة في سائر أنحاء الشرق الأوسط، انما كان وهماً مضللاً. فالذي حدث كان سلسلة من انتفاضات ليس بينها تنسيق، وكثير منها كانت بنت ساعتها، وجذورها في ظروف محلية فردية. ومع أن السوفييات حاولوا الاستفادة من هذه الحركات المحلية، فإن البلشفية والبلشفيك لم يكن لهم دور هام فيها. ولكن كان ثمة جانب من الصواب في الاحساس البريطاني أن بريطانيا وقعت في نزاع مع الدولة الروسية الجديدة، وان البلشفيك - أملاً منهم في استغلال المقاومة المحلية للحكم البريطاني - ينظرون الى الشرق الأوسط باعتباره مسرح عمليات لهذا النزاع.

كان الاعتقاد العام بين المسؤولين البريطانيين وغيرهم من المسؤولين في الدول الحليفة، أن مساعدة المجهود الحربي الألماني لم تكن مجرد أثر عابر من آثار الانقلاب البلشفيكي، بل كانت هي غايته الدافعة، فالألمان، بتحريض من الكسندر هيلفاند، كانوا قد مولوا البلشفيك وأعادوا لينين ليتولى قيادتهم. ولعل لينين لم يكن ليالي سواء أساعد تحقيق برنامجه أم أساء إلى أي من التحالفين الراسماليين المتصارعين. ولكن وجود بيئة تثبت التمويل الألماني، قد أظهر أن لينين كان راغباً في مساعدة ألمانيا وعازماً على ذلك. ولذلك كان ينظر أولئك المسؤولون الى البلشفيك على أنهم جواسيس للعدو، وكانوا يعتبرون النظريات الشيوعية التي يؤمن بها البلشفيك انها مجرد تورية أو دعاية أو أمراً خارجاً عن الموضوع. وبالتالي، فإن هذه النظرة إلى البلشفية انسجمت مع الريب التي تكونت لدى المسؤولين البريطانيين، وخصوصاً من كان منهم في الشرق الأوسط، قبل الحرب بزمان طويل، وظلت تراودهم - الريب التي وضعت البلشفية التي تستمد الالهام من

ألمانيا، في سياق نظرية أقدم زمناً تقول بوجود مؤامرة يهودية دولية موالية لألمانيا.

لقد بدا أن الأحداث التي وقعت في الامبراطورية العثمانية في مطلع القرن العشرين، توقّر الاثبات الكون اليهود مناصرين لألمانيا. ونحن نذكر أن جيرالد فيتز موريس أبلغ حكومته أن أعضاء حزب تركيا الفتاة هم أدوات في أيدي اليهود. ومع أن تقرير فيتز موريس كان زائفاً، وهذا ما يعرفه المؤرخون الآن، فقد كان الاعتقاد في حينه أنه صحيح. فلما تولت جمعية الاتحاد والترقي السلطة ونقلت الامبراطورية العثمانية في فلك ألمانيا، راي المسؤولون البريطانيون في سياسة جمعية الاتحاد والترقي مثلاً على فاعلية التحالف اليهودي مع ألمانيا.

وكان اعتقاد قدامى الموظفين البريطانيين في الشرق الأوسط الذين أسهموا في هذه النظرة - أمثال وينغيت وكلايتون - أن الاسلام سلاح يستطيع أن يشرعه السلطان - الخليفة في القسطنطينية حسب مشيئته. فعندما سيطر أعضاء حزب تركيا الفتاة المفترض انهم يهود على الباب العالي، اعتقد الرسميون البريطانيون أن الإسلام، ومعه الامبراطورية العثمانية والحركة الطورانية انتقلت الى أيدي التجمع الألماني - اليهودي.

وفي هذا السياق رأي المسؤولون البريطانيون في الثورة الروسية الثانية أحدث مظهر لمؤامرة أكبر. كان اليهود بارزين بين القادة البلشفيك، ولذلك رأى كثيرون داخل الحكومة البريطانية أن استيلاء البلشفيك على السلطة عمل ليس من وحي الألمان فحسب بل بتوجيه من اليهود أيضاً.

وعندما حدثت الانتفاضات في الشرق الأوسط بعد الحرب، كان من الطبيعي أن يكون تفسير المسؤولين البريطانيين لهذه الانتفاضات انها جزء من مخطط شرير رسمه المتآمرون القدامى. لقد صورت المخابرات البريطانية البلشفية، والمال الدولي، والقوميين العرب والقوميين الأتراك، والاسلام وروسيا انهم عملاء لليهودية الدولية ولألمانيا البروسية، الشريكتين اللتين تديران المؤامرة الكبرى. وكان في ذهن الرسميين البريطانيين ان أعداء لدودين مثل أنور ومصطفى كمال إنما يمارسون لعبتهم في الجانب نفسه، وكان هذا رأيهم في العرب واليهود أيضاً.

وبطبيعة الحال كان المسؤولون البريطانيون يعرفون أن أعداداً هامة من المسلمين العرب الفلسطينيين، في رد فعلهم على الاستعمار الصهيوني، يعبرون عن مشاعر عدااء عنيف لليهود، ولكن هذه الملاحظة لم تلغ بالضرورة رأيهم بأن الاسلام خاضع للسيطرة اليهودية. والاسلام، بالمعنى الذي يخشاه البريطانيون، كان القوة التي يعتمد عليها الخليفة، الذي ينظرون اليه باعتباره بيدقاً يحركه خصوم بريطانيا - والغريب في الأمر أنهم

ظلوا على هذا الرأي حتى بعد أن صار السلطان - الخليفة أسيرهم في القسطنطينية. وكان جلياً، حسب نظرهم إلى الأمور، أن العرب غير قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم، ومن هنا انحصر السؤال في ما إذا كان الشرق الأوسط الناطق بالعربية ينبغي أن يحكمه الألمان واليهود، عبر الأتراك، أم ينبغي أن تحكمه بريطانيا. وكان شعورهم أن جاذبية الحكم البريطاني هي في كونه كريماً وصادقاً. أما جاذبية خصوم بريطانيا فهي في كون الحكومة التركية حكومة إسلامية. وهكذا كان الرأي أنه يجري استغلال الإسلام والبلشفية وكذلك الأتراك والروس من قبل عصبة من رجال المال اليهود والجنرالات البروسيين للاحاق الأذى ببريطانيا.

وفي حين أن نظرية المؤامرة هذه تبدو في ضوء التاريخ الساطع سخيفة إلى حد البلاهة، فقد كان يؤمن بها كلياً أو جزئياً عدد كبير من المسؤولين البريطانيين العاقلين والمتزنين والمطلعين في حدود المعقول. علاوة على ذلك، كانت هناك بينة واحدة حقيقية تسند هذه النظرية: انها سيرة حياة ألكسندر هيلفاند. كان هيلفاند فعلاً يهودياً تآمر لمساعدة الألمان ولتدمير الامبراطورية الروسية. وكان فعلاً وثيق العلاقة مع نظام حكم حزب تركيا الفتاة في القسطنطينية. ولعب فعلاً دوراً هاماً في اختيار لينين وارساله الى روسيا للحض على ثورة بلشفية بغية مساعدة ألمانيا في ربح الحرب. وقد تابع فعلاً نسج شباكه التآمرية بعد الحرب. لقد كان هيلفاند مطابقاً للصورة التي كانت في ذهن وينغيت عن اليهودي: غنياً، مفسداً وموالياً للألمان.

إزاء هذه الخلفية يبدو توجه تقويمات المخابرات البريطانية في السنوات التي أعقبت الحرب مباشرة أقل بعداً عن العقلانية مما كانت ستبدو لولا هذه الخلفية. ففي 5 أيار (مايو) 1919، بعد نصف سنة فقط من الهدنة التي أنهت الأعمال القتالية في الحرب العالمية الأولى، رفع أحد عملاء المخابرات البريطانية تقريراً إلى المكتب العربي، أعده على أساس محادثات مستفيضة أجراها مع عدد من قادة حزب تركيا الفتاة وجدوا الأمان في سويسرا. وقد جاء في التقرير أن انتصار الحلفاء لم يضع حداً لأعمال اثارة المشاعر من قبل الأعداء ضد بريطانيا. على عكس ذلك، فإن النشاط الذي كان يمارسه مكتب الدعاية الإسلامية في برلين في زمن الحرب، مستمر في الهند، ومصر، وفارس وأماكن أخرى، والهدف هو التحريض على «ثورة إسلامية». وقال أيضاً: «إن أعداء بريطانيا العظمى الشرقيين قد اتحدوا ونذروا أنفسهم لهدف الاطاحة بالحكم البريطاني في الشرق، معتمدين على مساندة ألمانيا والبلشفيك الروس...»<sup>[985]</sup>. وتابع التقرير قائلاً أن الوسيط بين ثوار الشرق الأوسط والبلشفيك هو الكسندر هيلفاند.

أن تفجر أعمال العنف في بلاد الرافدين في العام التالي، قد استدعى كتابة تقارير مخابرات أخرى على المنوال عينه، ولا سيما من قبل الرائد ن. براي، ضابط المخابرات الخاصة الملحق بالدائرة السياسية في وزارة شؤون الهند. والرائد براي هو الذي وزعت خريطته التي شرح فيها المؤامرة المزعومة، على أعضاء مجلس الوزراء في نهاية صيف عام 1920 (راجع ص 517-518).

كان رأي براي: «ان الحركة القومية والحركة الاسلامية في بلاد الرافدين تستمدان الالهام من برلين - عبر سويسرا وموسكو. ويزداد الوضع تعقيداً بالمكائد الايطالية والفرنسية والبلشفية» [986].

لقد حث براي الحكومة على اكتشاف «المنظمة المركزية الصغيرة نسبياً» وهي منظمة سرية ومكانها في مركز المؤامرة الدولية البعيدة المدى [987]. وبما أنه لم يكن لهذه المنظمة وجود، فلم يعثروا عليها قط. بالرغم من ذلك، كان الرأي السائد ضمن الحكومة، لمدة ما على أقل تقدير، أن الثورات التي تفجرت في ممتلكات بريطانيا الشرق أوسطية هي نتيجة قوى معادية في الخارج تنسق في ما بينها. لقد كان في وزارة الخارجية البريطانية عدة مسؤولين يرون أن مصدر مختلف المتاعب الشرق أوسطية يجب العثور عليه ضمن بلدان الشرق الأوسط نفسها، ولكن هؤلاء المسؤولين كانوا يمثلون وجهة نظر الأقلية.

وحقيقة الأمر أنه كانت هناك قوة خارجية ذات صلة بكل عمل من أعمال العنف التي تفجرت في الشرق الأوسط، وكانت هذه القوة هي الوحيدة التي غشت عنها أبصار الرسميين البريطانيين. هذه القوة هي بريطانيا نفسها. ففي منطقة من الكرة الأرضية اشتهر سكانها بكرهم الخاص للأجانب، وفي عالم الأغلبية فيه هي من المسلمين، كان ينبغي لبلد أجنبي مسيحي أن يتوقع مجابهة العداء إذ حاول أن يفرض حكمه على المنطقة. فالظلال التي رافقت الحكام البريطانيين حيثما ذهبوا في الشرق الأوسط كانت في الحقيقة ظلالهم.

ان ما واجهته بريطانيا في الشرق الأوسط ربما كان سلسلة لا نهاية لها من الثورات المنفصلة عن بعضها بعضاً، وفي الأغلب كانت ثورات محلية وبنت ساعتها ضد السلطة البريطانية. وهذه الثورات لم يوجهها الأجانب بل كانت موجهة ضد الأجانب. ربما لو أن الامبراطورية البريطانية احتفظت بجيش الاحتلال المؤلف من مليون رجل في الشرق الأوسط، لكان سكان المنطقة قد أذعنوا لحتمية الحكم البريطاني وعدم جدوى محاولة تحديه. أما وقد سرحت بريطانيا جيشها، فقد أصبحت سلسلة الثورات في الشرق الأوسط أمراً يمكن التنبؤ به.. بيد أن ممثلي السياسة البريطانية في الشرق الأوسط

استمروا في توجيه اللوم في متاعبهم - مثلما وجه كيتشنر وزملاؤه اللوم في كل اخفقاتهم في الشرق الأوسط منذ عام 1908 - الى قيادة حزب تركيا الفتاة التي زعموا أنها خاضعة للسيطرة اليهودية والنفوذ الألماني، وإلى التشعبات الدولية لهذه القيادة، وفي المقدمة الاسلام ثم البلشفية، وفي خط يمتد من أنورمرورا بالكسندر ميلفاند وصولا الى لينين.

## (2)

نشر عرض حقائق يعتمد الاثارة في لندن لأول مرة في عام 1920، بقصد كشف أصول هذه المؤامرة العالمية النطاق. هذا العرض تضمنه كتاب عنوانه «الخطر اليهودي» وهو ترجمة الى الانكليزية لكتاب عنوانه «بروتوكولات حكماء صهيون». ونشرت ترجمة فرنسية في باريس في الوقت عينه. ويفهم من «البروتوكولات» انها محضر اجتماعات عقدها يهود وماسونيون في نهاية القرن التاسع عشر وخططوا فيها لاسقاط الرأسمالية والمسيحية واقامة دولة عالمية تحت حكمهما المشترك.

كانت «البروتوكولات» قد ظهرت أول ما ظهرت في روسيا، في احدى الصحف عام 1903 ثم في كتاب عام 1905، وزُعم أن مكتشفها هو سيرجي نيلوس، أحد المسؤولين في عهد قيصر روسيا. ولم تجتذب سوى القليل من الاهتمام الى أن قامت الثورات الروسية في عام 1917 فلوحظ على نطاق واسع أن كثيرين من القادة البلشفيك هم يهود، وأن العقيدة الشيوعية فيها شبه بالعقيدة التي تضعها «البروتوكولات». ولذلك كان ثمة في لندن وباريس عام 1920 من تقبلوا مكتشفات نيلوس على أنها أصيلة. وهكذا تكون «البروتوكولات» قد فسرت - في جملة أمور أخرى - الثورات الغامضة ضد بريطانيا في كل مكان من الشرق.

واستمر الأمر على هذه الحال حتى صيف عام 1921 - أي بعد مرور سنة على ظهور «البروتوكولات» في لندن وباريس - حتى جاء البرهان على أن هذه «البروتوكولات» مزورة من قبل فيليب غريفز، مراسل جريدة «التايمز» في القسطنطينية، الذي كشف عن أنها من تلفيق الشرطة السرية القيصرية. بل ان الشرطة لم تتعين تأليف الوثائق المزورة، وانما انتحلتها، حسبما علم غريفز من أحد اللاجئين الروس البيض يدعي ميخائيل رازلوفليف (الذي لم يكشف عن اسمه حتى عام 1978). ورازلوفليف هذا، الذي أفضى بهذه المعلومة لأنه فقط كان «في حاجة ماسة جداً للمال»، اطلع غريفز على ان اجزاء كاملة من «البروتوكولات» محورة عن رواية تهجو نابوليون الثالث كتبها محام فرنسي ونشرت في جنيف عام 1864 ثم في بروكسل عام 1865<sup>[988]</sup>. لقد كانت الرواية عملاً مغموراً، ولم يبق منها سوى بضع نسخ، واطلع رازلوفليف المراسل غريفز على النسخة التي ابتاعها من مسؤول سابق في الشرطة السرية الروسية، ثم عثرت جريدة «التايمز» في لندن على نسخة في المتحف البريطاني. وقال رازلوفليف أنه لو لم تكن الرواية الهجائية نادرة التداول، لكان أحد ما قد انتبه إلى أن «البروتوكولات» منتحلة فور نشرها. (وتبين لاحقاً أن مقاطع في

«البروتوكولات» مسروقة من كتب أخرى أيضاً، من ضمنها رواية من روايات الخيال نشرت في نحو الوقت الذي نشرت فيه الرواية الهجائية الفرنسية).



### (3)

وفقاً لقناعة ذلك الجانب الهام من الرأي العام البريطاني الذي تمثله جريدة «التايمز»، لم يكن المسؤولون عن النكسات التي منيت بها بريطانيا في الشرق الأوسط متآمرين أجنب، بل كانوا موظفين بريطانيين - وفي طليعتهم المستعربون البريطانيون. ان مراسلاً خاصاً لجريدة «التايمز» في الشرق الأوسط، أفزعته انتفاضات العراق، أرسل رسالة نشرتها الجريدة في 20 أيلول (سبتمبر) 1920 وقال فيها: «يقيني المرتكز إلى دراسة متأنية، هو أن المكتب العربي في القاهرة، والقيادة العامة للقوات في القاهرة، و«إدارة أراضي العدو المحتلة» في فلسطين، ثم في العام الماضي في سورية، تتحمل مسؤولية ضخمة عن التبدد الراهن للأرواح والأموال البريطانية في بلاد الرافدين». وقال متهماً: «ان الدعاية البريطانية للقومية العربية هي أحد أشد الأخطار جدية التي تهدد السلام العالمي». وقد ندد: «بالمسؤولين البريطانيين الخطرين للغاية الذين ليس عندهم ايمان كبير بقدرة العرب على الحكم، ولكنهم يؤمنون ايماناً شديداً بمهمتنا الامبراطورية»، لتسيير الشؤون العربية خلف واجهة من الاستقلال العربي الاسمي. وقد استثنى من هذا التنديد القلة من المسؤولين البريطانيين الذين يؤمنون ايماناً صادقاً باستقلال العرب. وهو لم يذكر وينغيت، وكلايتون، وهو غارت بأسمائهم، ولكن الوصف الذي قدمه ينطبق عليهم. وهم، حسب روايته، وليس البلشفيك، سبب الاضطرابات في سائر أنحاء الشرق الأوسط.

وفي اليوم التالي نشرت «التايمز» مقالة رئيسة نددت فيها بالاعتقاد الذي تمسك به المكتب العربي منذ زمن طويل. بإمكان قيام اتحاد كونفدرالي عربي في الشرق الأوسط على رأسه الملك حسين: «... ان الحلم المضلل باتحاد فدرالي عربي ضخم يجب ألا يخطر بعد الآن في بال أية جهة رسمية». وبعد عام، أي في 27 أيلول (سبتمبر) 1921، رفضت «التايمز» فكرة المكتب العربي القديمة عن وجود مهمة بريطانية خاصة في العالم الاسلامي. وإذ أبصرت «التايمز» موضوعاً مشتركاً بين العديد من ثورات الشرق الأوسط الإسلامي على الحكم المسيحي الأوروبي، فقد كان رأيها: «ان المشكلة أكبر كثيراً من أن تعالجها دولة أوروبية واحدة بمفردها...».

والخطر الرئيس، كما صورته «التايمز»، يكمن في تمادي بريطانيا في التزاماتها. وكان رأيها أن التحدي الرئيس الذي تواجهه البلاد، هو تحد داخلي وهو تحد اقتصادي، فبريطانيا كانت بحاجة إلى استثمار أموالها في تجديد نفسها اقتصادياً واجتماعياً، وكانت مهددة في وجودها نفسه بالميل الحكومي الى تبديد المال على مغامرات شرق أوسطية. وقد نددت «التايمز»

بالحكومة لهذا السبب، في مقالة افتتاحية نشرتها في 18 تموز (يوليو) 1921، قائلة أنه: «بينما أنفقت الحكومة ما يقرب من 150 مليون جنيه منذ توقيع الهدنة على أقوام شبه رُحْل في بلاد الرافدين، لم ترصد سوى 200 ألف جنيه سنوياً لإصلاح أكواخ أحيائنا الفقيرة واضطرت الى منع الانفاق بموجب قانون التعليم لعام 1918».

ولكن بينما كانت «التايمز» تدافع عن رأيها القائل أن الخطر على بريطانيا مصدره الرسميون البريطانيون، ظل كثيرون من هؤلاء الرسميين يركزون على الخطر السوفييتي في الشرق الأوسط وعلى كيفية الرد على هذا التهديد.

# الفصل الثاني

## التحدي السوفياتي في الشرق الأوسط

كان رؤساء الهيئات الكبرى الثلاث في الحكومة، المكلفون بمعالجة المسألة الروسية في الشرق الأوسط - وزارة الخارجية، ووزارة الحربية ووزارة شؤون الهند - مختلفين في ما بينهم بشأن طبيعة التحدي السوفياتي وكيفية الرد عليه.

ان اللورد كورزون، حارس شعلة اللعبة الكبرى الذي أصبح في عام 1919 وزيراً للخارجية، قد دعا الى اقامة موقع بريطاني عسكري متقدم في الشرق الأوسط تحسباً لروسيا. وقد حث الجيش البريطاني على اتخاذ مواقع للدفاع عن منطقة عبر القوقاز (التي انفصلت عن روسيا) وعن شمال فارس. وادعى هو والوكيل الدائم لوزارة الخارجية، اللورد هاردينج - وكلاهما نائب سابق للملك في الهند - أن خسارة أية منطقة واحدة في الشرق الأوسط نتيجة عدوان روسي ستؤدي بدورها، الى خسارة المنطقة التي تليها، في عملية تفاعل على غرار لعبة الدومينو، وقد تؤدي هذه العملية في نهاية المطاف الى فقدان الهند [989].

ولكن وزير الدولة لشؤون الهند، أدوين مونتاغيو، ونائب الملك في الهند، فريدريك جون نايبير شيجر، بارون تشيلمسفورد الثالث، خالفهما الرأي، ففي اعتقاد مونتاغيو وتشيلمسفورد أن روسيا البلشفية تمثل تهديداً سياسياً لا عسكرياً لوضع بريطانيا في الشرق الأوسط، وأنه ينبغي لبريطانيا أن تنافس روسيا على كسب تأييد القوى الوطنية في سائر أنحاء آسيا الإسلامية. ولكن بريطانيا، في رأيهما، تنهج بدلاً من ذلك سياسة قد تكون مرسومة صراحة لدفع هذه القوى الى أحضان موسكو، وأن وجود الجيوش البريطانية قد ينتظر منه أن يزيد في تنفير هذه القوى.

في مطلع عام 1920 كتب مونتاغيو الى كورزون قائلاً: «إن خطر البلاشفة على فارس والهند» هو الى حد بعيد نتيجة للسياسات التي تتبعها الحكومة البريطانية نفسها، ووصف هذه السياسات بأنها معادية للديانة المحمدية. وكتب قائلاً: «كان بوسعنا أن نجعل الحركة الاسلامية تظهر الصداقة لبريطانيا العظمى»، ولكننا، بدلاً من ذلك جعلناها معادية لها» [990]. كانت

الهند البريطانية، بطبيعة الحال، معارضة لسياسة لندن الشرق أوسطية منذ أن تولى اللورد كيتشنر مسؤولية هذه السياسة في عام 1914، وما كتبه مونتاغيو في عام 1920 إنما كان متسقاً مع الانتقادات التي وجهها طوال الوقت الى سياسات حكومته المؤيدة للعرب والمؤيدة للصهيونية، وكذلك الانتقادات التي وجهها الى مدرسة كيتشنر التي كانت ترى أن الاسلام قوة يسيّرُها ويوجهها أعداء بريطانيا.

أما تشيلمسفورد، فقد وضع في برقيات أرسلها الى مونتاغيو في بداية عام 1921، المسألة في منظورها التاريخي، منوهاً بأن البريطانيين كانوا حتى عام 1914 «المنافحين عن الاسلام في مواجهة الغول الروسي» [991]. أما الآن فان معاهدة سيفر القاسية التي فرضها لويد جورج على الامبراطورية العثمانية التي لا حول لها، والمعاهدة الأحادية الجانب التي فرضها كورزون على الامبراطورية الفارسية الخائرة القوى، بدت كل منهما لمسلمي الهند انها مثال على «تحتيم بريطانيا للإسلام» [992]. من جهة أخرى، جاءت الحرب بنظام حكم جديد في روسيا يتحدث بلغة الاستقلال الوطني - على أقل تقدير في الشرق الأوسط. وكان رأي نائب الملك ان «الدفاع الحقيقي» ضد التوسع البلشفي الروسي في الشرق الأوسط على المدى البعيد، لا يكمن في اقامة مواقع عسكرية متقدمة بل في مساندة «الروح الوطنية» بين الشعوب الإسلامية في المنطقة، وهي شعوب معتقداتها الدينية معادية للبلشفية، ووطنيتها ستقودها الى مقاومة الزحف الروسي [993] وتابع يقول انه سيكون خطأ إذا احتفظت بريطانيا بوجود عسكري في الشرق الأوسط، بل حتى بوجود اقتصادي فقط، لأن ذلك قد يحمل القادة المحليين على الاستنتاج أن الخطر الحقيقي على استقلالهم مصدره لندن.

كان الميجر جنرال ادموند إيرونسايد يعتقد اعتقاداً قوياً خلال المدة التي أمضاها قائداً للقوات البريطانية المتبقية في شمال فارس، أن قواته يجب ألا تكون حيث هي. وكان يرى أن طبيعة الأرض الوعرة عند الحدود الشمالية الغربية للهند تشكل خطأ دفاعياً فعالاً، فلا تعود هناك ضرورة لدفاع أمامي عن الهند، في حين أن خط الاتصالات الطويل الذي يتطلبه دفاع أمامي عن الهند من فارس، يجعل هذه الاستراتيجية غير عملية [994].

في نهاية المطاف، أنهت وزارة الحربية الجدل الذي كان قائماً بين وزارة الخارجية، ووزارة شؤون الهند. فقد حسم الموقف سير هنري ويلسون، رئيس هيئة الأركان العامة لقوات الإمبراطورية، باتخاذ موقف ضد وزارة الخارجية على أساس أنه لا تتوافر لديه القوات اللازمة لتنفيذ السياسة التي

ينادي بها اللورد كورزون، أي سياسة المواقع المتقدمة في الشرق الأوسط. وقد عرض في عام 1920 على مجلس الوزراء ورقة يذكر فيها أن بريطانيا لا تتوافر لها قوات احتياط لتعزز بها حامياتها في أي مكان من العالم، إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك<sup>[995]</sup>. ومن وجهة نظره، فإن السياسة الوحيدة المجدية هي الاقتصاد في استخدام الموارد المتوافرة وتركيز قوات بريطانيا العسكرية في المناطق الأكثر أهمية - وليست فارس ولا حدود القوقاز بين هذه المناطق.

وكان رأي ونستون تشرشل وزير الحربية والطيران في أوائل عام 1920 أنه حتى لو توافرت قوات لإرسالها إلى فارس وحدود القوقاز، فينبغي إرسالها بدلاً من هاتين المنطقتين إلى روسيا المساندة جنرالات الحكم القيصري في جردهم لإسقاط الحكومة البلشفية<sup>[996]</sup>. وقد دان تشرشل حكام الكرملين الجدد من أفواههم: فقد صوّرهم بأنهم أمميون وثوريون. وفي اعتقاده أن معظمهم لم يكونوا روسيين إطلاقاً - بل كانوا يهوداً. ولذلك اعتقد تشرشل أنهم لا يسعون وراء أهداف روسية، سواء أكانت أهدافاً وطنية أم امبريالية. ولكنه أخفق في تفسير سبب التشابه المفضوح بين أهدافهم في الشرق الأوسط وأهداف القياصرة.

لقد أكد محضر اجتماع لأعضاء مجلس الوزراء البريطاني عقد في عام 1920 الخطر عينه الذي شعر تشرشل وبعض زملائه، أن البلشفية يشكلونه في آسيا الإسلامية. فقد جاء في المحضر: «إنهم يومياً يتقدمون بخطوات واسعة نحو الشرق، باتجاه بخارى وأفغانستان، إنهم ينفذون خطة دعاية منتظمة وعلمية وشاملة في آسيا الوسطى ضد البريطانيين»<sup>[997]</sup>. وقال رئيس هيئة أركان قوات الامبراطورية محذراً الوزراء: «إن بحر قزوين سيسقط في أيدي البلاشفة الذين يمكنهم... إثارة الاضطراب في شمال فارس، وسيمتد الاضطراب إلى أفغانستان، وهي منذ الآن شديدة الاضطراب، وإلى الهند أيضاً التي يقال إنها اليوم في حالة أخطر مما كانت خلال الثلاثين سنة الماضية»<sup>[998]</sup>. وقد ردد ونستون تشرشل هذه المخاوف فكتب إلى رئيس الوزراء يسأله: «ماذا نحن فاعلون إذا اكتسح البلشفية القوقاز والتحموا مع القوميين الأتراك، وإذا سيطروا على بحر قزوين وقاموا بغزو شمال فارس، وإذا سيطروا على تركستان واشتركوا مع أفغانستان في تهديد الهند من الخارج محاولين إشعال ثورة في الداخل؟»<sup>[999]</sup>.

كان الرأي العام يرى في حملة الروس البيض المدعومة من بريطانيا في الحرب الأهلية الروسية التي نشبت بين البلشفية وخصومهم، أنها حرب

تشرشل شخصياً، فلما تعثرت جيوش الروس البيض في أواخر عام 1919 ثم تفرقت مشتتة في أوائل عام 1920، رأى الرأي العام فيها اخفاقاً آخر من اخفاقات تشرشل المكلفة. وقد كتب إليه رئيس الوزراء قائلاً: «لقد وجدت ذهك مسكوناً بهاجس روسيا بحيث شعرت أن لديّ سبباً وجيهاً للخوف من ألا تكون قدراتك، وطاقتك وشجاعتك مندورة لتخفيض النفقات» [1000]. وتحدث رئيس الوزراء بعد بضعة شهور عن تشرشل وروسيا، فكان أقل ضبطاً للنفس. وكتب رئيس هيئة الأركان العامة للقوات الامبراطورية في مفكرته أنه: «يظن أن تشرشل أصابه مسٌّ من الجنون» [1001].

وبما أن لويد جورج رئيس وزراء ينتمي الى حزب الأحرار ويعتمد على الأغلبية التي يتمتع بها الجناح اليميني لحزب المحافظين في مجلس العموم، فقد شعر انه مضطر للسماح لوزير الحرية في حكومته بأن يساند الروس البيض الى أن يظهر فشلهم بوضوح. ولكن عندما انهار الروس البيض، شعر رئيس الوزراء أنه يملك حرية السعي لعقد اتفاق مع الحمر. وهو لم يشعر بخوف من أطماعهم الامبراطورية في الشرق الأوسط، ولم يسبق أن شعر بالخوف في هذا الصدد من أطماع القياصرة.

لقد كان رئيس الوزراء، في اعتقاده بإمكانية التوصل إلى تسوية مع روسيا، انما يطبق تقاليد حزب الأحرار الذي ينتمي اليه. ان زميله السابقين، اسكويت وغراي، كانا يعتقد أن للروس مظالم مشروعة في الشرق الأوسط، مثل افتقارهم الى ميناء على المياه الدافئة، وإذا استجيبت مظالمهم فانهم سيقنعون ولن يتقدموا أكثر من ذلك. وبالروح عينها قال لويد جورج أن التهديد الروسي المزعم للهند هو من نسج الخيال. وفي اعتقاده أن روسيا البلشفية تفتقر الى الموارد اللازمة لتشكيل مثل هذا التهديد، وحتى عندما تمتلك روسيا التجهيزات الجيدة فان الروس لن يتمكنوا من عبور الجبال» [1002]. ومع موافقته على أن الدعاية البلشفية في الهند قد تمثل خطراً، فقد قال: «ان المرء لا يستطيع بواسطة طوق عسكري منع الأخطار من الوصول الى بلد من البلدان» [1003].

خلال عام 1920 وأوائل عام 1921 دخل لويد جورج في مفاوضات مع موسكو بشأن اتفاقية تجارية تمنح نظام الحكم البلشفي اعترافاً على أساس الأمر الواقع وتعيد روسيا الى أسرة الأمم. وقد أبلغ ريدل انه يجب أن يصر على شرط أول للتفاوض، هو وجوب ايقاف الدعاية البلشفية كلها في الخارج، أي في فارس وأفغانستان وأي مكان آخر في الشرق. وكتب ريدل في مفكرته: «ان لويد جورج يظن أن لينين سيوافق» [1004]. وقد

تبين أن العكس هو الصحيح. فقد ذكرت الحكومة السوفياتية في برقية تعليمات موجهة إلى ممثلها: «نحن لا نستطيع أن نوافق على تقديم تنازلات محددة في الشرق الا في مؤتمر سياسي نعقده مع انكلترة، بشرط أن نحصل على تنازلات مماثلة من انكلترة وفي الشرق أيضاً. أما ما هي هذه التنازلات، فأمر سنبحثه عندما يحين الوقت»<sup>[1005]</sup>. لقد كان ذلك تلميحاً إلى طموحات امبراطورية روسية مستمرة في الشرق الأوسط أبعد مدى بكثير مما ظن لويد جورج.

# الفصل الثالث

## أهداف موسكو

### (1)

بينما كان قادة بريطانيا مختلفين في الرأي بشأن العلاقة بين الشيوعية البلشفية والامبريالية الروسية، كان القادة البلاشفة أنفسهم يناقشون طبيعة هذه العلاقة مع كل مضامينها بالنسبة لسياستهم في الشرق الأوسط بعد الحرب.

حتى العقد الذي سبق نشوب الحرب العالمية الأولى، كانت الامبراطورية الروسية تتوسع على حساب جيرانها بمعدل هائل ولمدة طويلة. وكانت الحسابات آنذاك أن الإمبراطورية الروسية كانت تستولي على أراضي جيرانها بمعدل خمسين ميلاً مربعاً في اليوم وسطياً على مدى أربعين سنة [1006]. ومع الاستيلاء على أراضٍ أجنبية، ضمت إليها أيضاً شعوباً أجنبية. وقد أظهر أول إحصاء ذي طابع علمي للسكان أجري في عام 1897، أن معظم رعايا الامبراطورية الروسية هم من غير الروس. فالشعوب الناطقة بالتركية وحدها كانت تمثل أكثر من عشرة بالمائة من مجموع السكان، والمسلمون كانوا يمثلون ما لا يقل عن أربعة عشر بالمائة، وكان الآن على روسيا لينين أن تقرر هل تحاول أن تستولي من جديد على أراضي الشعوب الإسلامية والشعوب الأخرى غير الروسية التي كان القيصرية قد أخضعوها لحكمهم. كان الرأي الذي دافع عنه لينين على مدى سنوات أن الشعوب غير الروسية يجب أن تتمتع بحق تقرير المصير. ومن الناحية النظرية كان لينين معارضاً حازماً لما أسماه شوفينية «روسيا الكبرى». وقد كتب في عام 1915 قائلاً: «نحن شغيلة روسيا الكبرى يجب علينا أن نطلب خروج حكومتنا من منغوليا، وتركستان وفارس...» [1007].

وفي عام 1917 تغلب على مقاومة زملائه في «المؤتمر الديمقراطي الاجتماعي السابع» فجعلهم يوافقون على قرار يعلن أن الشعوب غير الروسية، في الامبراطورية الروسية، يجب أن تكون لها حرية الانفصال.

غير أن الزميل الذي أوكل إليه المسؤولية عن موضوع القوميات، كان ذا ذهنية مختلفة. هذا الزميل هو جوزيف رجوغاشفيلي، البلشفيكي من منطقة عبر القوقاز، الذي بعد أن أطلق على نفسه عدة أسماء متحولة أخرى،



أطلق على نفسه الاسم الروسي ستالين. ومع أنه كان ظاهرياً يذعن لمدة من الزمن الى آراء لينين في مسألة القوميات، فلم يكن يشاطره هذه الآراء. والحقيقة هي أنه كان شرساً في اختلافه مع لينين حول موضوع القوميات ودستور الاتحاد السوفياتي. كان اقتراح لينين أن تكون كل البلدان السوفياتية - روسيا، وأوكرانيا، وجورجيا ومختلف البلدان الأخرى - بلداناً مستقلة، وان تتعاون في ما بينها كبلدان متحالفة على أساس معاهدات تعقدها في ما بينها. أما خطة ستالين فكانت تقضي بولاء أوكرانيا وجورجيا وسائر البلدان الأخرى للدولة الروسية - وكانت الغلبة لخبطه. وفي 30 كانون الأول (ديسمبر) 1922، وافق المؤتمر الأول لمجالس السوفيات لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتي على تشكيل الاتحاد السوفياتي والسيطرة فيه لروسيا.

## (2)

ما مدى الأهمية، من الناحية العملية، للاختلافات بين لينين وستالين؟ كان لينين يرى أن الأمم الأوروبية ضمن الامبراطورية الروسية، يجب السماح لها بالاستقلال - وفي هذا كان، بالتأكيد، على خلاف مع ستالين. بيد أن هناك بعض ما يثبت بالبيئة أنه كان يعتقد في الخفاء بعدم السماح باستقلال قوميات الشرق الأوسط حتى وقت متأخر جداً [1008] - وفي هذا كان يختلف عن اعتقاد ستالين بأنها يجب ألا تستقل إطلاقاً، ولكن الرجلين على المدى القصير كانا يصلان إلى الشيء نفسه.

ومع أن لينين كان معارضاً لإكراه غير الروس على الرضوخ للحكم الروسي، فانه، شأنه شأن ستالين، لم يشعر بأي تحرج أو تأنيب ضمير إزاء إكراه غير البلشفيك على الرضوخ للحكم البلشفي - وهنا أيضاً لا تبدو سياسة لينين مختلفة من الناحية العملية اختلافاً واسعاً عن سياسة ستالين، بقدر ما يبدو الاختلاف بينهما من الناحية النظرية. فقد استولت روسيا السوفياتية، بقيادة لينين، على الأجزاء غير الروسية من الامبراطورية الروسية السابقة، وفرضت على هذه الأجزاء بقوة السلاح، أنظمة حكم سوفياتية بلشفية محلية. وفي كل حالة أنشئت قوة شرطة سياسية، متفرعة عن الشرطة السرية في روسيا السوفياتية، من قبل حكومة لينين، للمساعدة على تثبيت نظام الحكم السوفياتي المحلي. وهذا يتفق اتفاقاً كاملاً مع ما فعله لينين في روسيا؛ فقد كان نظام حكمه نظام أقلية استولت على السلطة بالقوة وثبتت نفسها في السلطة باستخدام نحو ربع مليون من رجال الشرطة السرية.

أما في آسيا الوسطى الروسية، فقد كانت الأقلية البلشفية مؤلفة من الروس، في حين أن الأكثرية غير البلشفية كانت من أهل البلاد. وحكم البلشفيك لغير البلشفيك (وفقاً لسياسة لينين) كان يعني عملياً أن يحكم الروس غير الروس (وفقاً لسياسة ستالين).

### (3)

في البداية، وعدت الحكومة البلشفية السكان من أهل البلاد في آسيا الوسطى بأن ينالوا حريتهم. وفي نهاية عام 1917، بعد الاستيلاء على السلطة في بيتروغراد، أصدر السوفييتيون نداء من أجل تأييدهم، يحمل توقيع لينين وستالين، ويعترف النداء بحق السكان المسلمين في «أن تنظموا حياتكم الوطنية في حرية تامة» [1009].

ترى، هل يحاول القادة البلشفيك، مع ذلك، أن يستولوا من جديد على مستعمرات القيصر في الشرق الأوسط؟ ان سياستهم في هذا الصدد ستوفر للندن دليلاً هاماً تعرف من خلاله هل هم ثوريون شيوعيون أو امبرياليون روس.

ان الشرق الأوسط الروسي - تركستان الروسية [1010] - هي امبراطورية مستعمرة انتزعتها القياصرة من العالم الإسلامي المستقل سابقاً. وتركستان هذه، شأنها شأن الجزائر، والمغرب والسودان وعشر أخرى من المناطق القبلية في أفريقيا وآسيا، كانت قد أخضعت بقوة الأسلحة الأوروبية الحديثة. وقد وجدت، مثلها مثل المستعمرات الأخرى المشابهة لها، أن السادة الأوروبيين يستغلون اقتصادها لمنفعتهم. وشأنها أيضاً شأن هذه المستعمرات، كانت كارهة لاستيطان مستعمرين أوروبيين فيها. فما من شيء يكرهه المسلم الناطق بالتركية أكثر من كرهه للروسي الذي يأتي لامتلاك أرضه.

أن تركستان الواقعة في عمق قلب أوراسيا، هي منطقة ظلت مجهولة لدى العالم الخارجي. والجزء الذي تحكمه روسيا منها، يعادل نحو نصف مساحة أراضي الولايات المتحدة في القارة الأميركية، أي نحو مليون ونصف مليون ميل مربع، وسلاسل الجبال الشاسعة الواقعة على حدودها الشرقية، تمنع عنها السحب المشبعة بالرطوبة القادمة من فوق المحيط الهادي، ولذلك فإن معظم أراضيها قاحلة، وأكثرها سهول خالية من الغابات. وفي زمن الحرب العالمية الأولى، كان يمكن تصنيف ما بين 20 و25 بالمئة من سكانها الذين يبلغ عددهم نحو عشرة ملايين نسمة انهم رُحَّل أو شبه رحل، أما بقية السكان، وأكثريتهم من الناطقين بالتركية، فكانوا يعيشون في تجمعات حول مدن الواحات الخصبة.

لقد جلبت حرب عام 1914 وثورتا 1917 البلبلة والفوضى الى آسيا الوسطى، وهذا يعود جزئياً الى اتساع البلاد وطبيعة أرضها وسكانها المختلطين. ثم انها بلاد حدودية، وحتى في أحسن الأزمنة لم تكن تخلو من

الاضطراب نتيجة النزاعات القبلية ومقاومة أهل البلاد الأصليين للاستعمار الروسي. وبالرغم من بعد تركستان عن الحرب، فقد كانت ساحة لثورة قبلية على إجراءات زمن الحرب. ثم انها عانت من انهيار الحكومة نتيجة لثورتي بيتروغراد. وقامت صراعات اجتماعية عندما قاومت الطبقة المتوسطة الصغيرة من سكان المدن محاولة الزعماء الاقطاعيين لإعادة تثبيت سلطتهم. وارتفعت رايات العديد من الزعماء والعديد من القضايا، ونزل الكل الى الميدان، فاكتمحت الصحاري والسهول الشاسعة جيوش وعصابات مسلحة وجماعات مغيرة لا يدري أحد من أين جاءت ولا كيف اختفت بلمح البصر.

وقدفت الحرب والثورة ركامهما البشري: لاجئين يبحثون عن سبيل للخروج ومغامرين يبحثون عن سبيل للدخول. وتدفقت من معسكرات أسرى الحرب الذين أطلقوا من الأسر، جماعات من الجنود الألمان والهنغاريين والتشيكيين ومن عدة قوميات أخرى بحثاً عن هدف ما. وثمة أصناف من البشر من العسير سبر أغوار هوياتهم أو مهماتهم أو دوافعهم يملؤون القوافل ومركبات السكك الحديدية المزرية لما أصابها من تكسير، والتي كانت تعبر مترنحة أرض آسيا الوسطى العارية من الشجر. وقد اعتقد نظام الحكم السوفياتي - أو حُمل على الاعتقاد بأن مؤامرات موحى بها من جهات أجنبية أخذت تترعرع وتبلغ مرحلة النضج تحت شمس تلك المناطق شبه المدارية.

وخلال سنوات الفوضى التي أعقبت الثورة. أعلنت أنظمة حكم جديدة من أهل البلاد الأصليين عن وجودها في سائر أنحاء المنطقة. وتعاملت موسكو معها باعتبارها تحديات لا بد من التغلب عليها. وفي نهاية عام 1917 أقام مسلمو آسيا الوسطى نظام حكم في خوقند، عاصمة ما كانت امارة أحد الخانات في وادي فرغانة الغربي، لمقاومة مجلس سوفيات طشقند (الذي تألف من مستوطنين روس ولم يكن بين أعضائه مسلم واحد). وبسبب افتقار نظام الحكم في ذات خوقند الى المال والسلاح، فقد أخذ يبحث عن حلفاء فلم يوفق. وقد أنكر ستالين على نظام خوقند حقه في ممارسة الحكم. وفي 18 شباط (فبراير) 1918 استولى الجيش الأحمر على خوقند ونهبها ودمر معظم المدينة وذبح سكانها. ولكن انبثقت من خرائب المدينة حركة ضعيفة التنظيم، قوامها عصابات نهب وسلب دعيت بأسماء أقصت مضاجع الروس سنوات عديدة.

وخلال بضع السنوات التالية، دمرت روسيا السوفياتية مراكز المقاومة الواحد تلو الآخر، وقد علم شعب كازاخستان في عام 1918 انه لم يكن هناك أمل في الحصول على مساندة من الروس البيض الذين هم أيضاً يقاومون تطلعات أهل البلاد الأصليين. كان شعب كازاخستان قد أعلن

الحكم الذاتي وطلب مساعدة القائد القيصري، الأميرال كولتيشاك، في الدفاع عن أنفسهم ضد البلشفيك - وإذا بهم يكتشفون انه هو أيضاً عدوهم.

على أن التهديد الأخطر للطموحات السوفياتية كان مصدره «الدولتان من أهل البلاد»، خيفا وبخاري، وهما محميتان سابقتان من محميات القيصر في آسيا الوسطى. وبما أنهما دولتان حدوديتان مجاورتان لبلاد فارس وأفغانستان والصين، فقد كان لهما حظ الاتصال بالعالم الخارجي، ويمكنهما أن تشكلا بؤرة لتحالفات معادية للسوفيات.

لقد استغلت موسكو حدوث خصام داخلي في خيفا، فاستولى عليها الجيش الأحمر في 13 أيلول (سبتمبر) 1920 وأقام نظام حكم تحالف مع السوفيات. ومنذ ذلك الحين أمرت موسكو بسلسلة تصفيات في زعامة خيفا مهدت الطريق لدمج خيفا، في نهاية المطاف، في الاتحاد السوفياتي.

بقيت بخاري وحدها، وقد خطر للسوفيات في التعامل مع آخر حصن من حصون المقاومة التركية الأهلية، أن يستفيدوا من أنور باشا، زعيم حزب تركيا الفتاة - الذي صورته المخابرات البريطانية أنه عضو في المؤامرة التي توجه الحركة البلشفية طوال الوقت.

# الفصل الرابع

## حادث موت في بخاري

### (1)

كانت معلومات المخابرات البريطانية تفيد أن زعماء حزب تركيا الفتاة أعضاء في المؤامرة الألمانية واليهودية المسيطرة على نظام الحكم البلشفي. ولكن بينما كان قادة بريطانيا يحاولون من عام 1918 حتى عام 1922 أن يسبروا غور نيات القادة البلشفيك، كان يفعل مثلهم زعماء حزب تركيا الفتاة الطريدون - والذين لم تكن لهم سيطرة على البلشفيك، بل ولا يعرفون الشيء الكثير عنهم.

في تشرين الثاني (نوفمبر) 1918 هرب أنور باشا وجمال باشا وطلعت بك من خرائب الامبراطورية العثمانية بمساعدة الألمان المتقهقرين وفروا عبر البحر الأسود الى أوديسا. بعد ذلك تمكن أنور وطلعت من الوصول الى برلين، وهناك، في أواخر صيف 1919 قاما بزيارة الى ممثل البلشفيك، كارل راديك في زنزانة سجنه. وراديك هو أحد الوسطاء بين هيئة الأركان العامة الألمانية ولينين في عملية تمويل حزب البلشفيك التي كانت من وحي هيلفاند. وقد سجنته الحكومة الألمانية الجديدة في عام 1919 في نطاق اخماد الانتفاضة الشيوعية في ألمانيا. ولكنه عومل معاملة شخص ذي شأن وقام بتصريف أعمال سياسية من زنزانيته.

كان الاقتراح السياسي المفزع الذي عرضه راديك على زعمي حزب تركيا الفتاة هو أن ينطلق أنور الى موسكو للتفاوض على ميثاق بين البلشفية الروسية والقومية التركية موجه ضد بريطانيا. ولكن أنور كان طوال عمره خصماً لروسيا ولا تجمععه صداقة مع البلشفيك. غير أن راديك طمأنه إلى «أن روسيا السوفياتية ترحب بكل من يساند الحملة على الامبريالية الإنكليزية» [1011].

كان لأنور صديق حميم في برلين هو الجنرال هانز فون سيكت، المؤسس اللامع للجيش الألماني الجديد وقائده - وهذا الجيش هو القوة العسكرية المحدودة والمقلصة تقليصاً شديداً التي سمح بها الحلفاء لألمانيا بموجب القيود التي تضمنتها معاهدة فرساي. كان فون سيكت، بالمونوكل الذي يضعه على عينه، وبقسمات وجهه الجهم، نموذج الضابط الألماني المحترف،

الذي لجأ الى مشورته زعماء حزب تركيا الفتاة خلال الحرب، والحقيقة أنه خلال الأشهر الأخيرة من الحرب كان رئيس أركان الجيش التركي.

وافق فون سيكت على مساعدة أنور في القيام بالرحلة الصعبة والخطرة الى موسكو عبر أوروبا الشرقية التي تسودها الفوضى، إذ كانت القوى الوطنية في بولندا، ولاتفيا، واستونيا، ولتوانيا، وهنغاريا، تخوض المعارك ضد الثوريين الشيوعيين أو البلشفيك الروس، بينما الحرب الأهلية الروسية ما تزال محتدمة. قدم أنور الى فون سيكت تقويماً جديداً للإمكانيات التي يوفرها البلشفيك لضرب الحلفاء. وكتب كارل راديك في ما بعد أن أنور: «هو أول من أوضح للعسكريين الألمان أن روسيا السوفياتية قوة عالمية جديدة وصاعدة ينبغي لهم الاعتماد عليها، إذا كانت لديهم رغبة حقيقية في مقاتلة الحلفاء»<sup>[1012]</sup>. أن هذه الأفكار، التي نقلها أنور إلى فون سيكت قد أثمرت بعد سنوات عديدة، عندما اتجه فون سيكت نحو إقامة تحالف بين الآلة العسكرية الألمانية وروسيا السوفياتية.

أعد ضابط في هيئة أركان فون سيكت الترتيبات لسفر أنور الى موسكو في تشرين الأول (أكتوبر) 1919 بطائرة شركة يملكها صاحب مصنع للطائرات. ولكن الترتيبات أجهضت، إذ تعطل محرك الطائرة فاضطرت الى الهبوط هبوطاً اضطرارياً في لتوانيا، وبما أن أنور كان يحمل أوراقاً مزورة فلم تكتشف هويته الحقيقية، ولكنه ظل سجيناً مدة شهرين في لتوانيا - التي كانت هي ولاتفيا واستونيا في حالة حرب مع روسيا السوفياتية - للاشتباه بأنه جاسوس. ولدى خروجه من السجن عاد الى برلين وبدأ محاولة ثانية للوصول الى موسكو، ولكنه هذه المرة اعتقل وسجن في لاتفيا. وقد روى في ما بعد أن ضباط مخابرات استجوبوه مراراً ولكنه نجح في اقناعهم بأنه يدعى التمان وانه «شيوعي الماني يهودي لا أهمية له»<sup>[1013]</sup>. وأخيراً وصل إلى موسكو في صيف عام 1920 أي بعد نحو عام من مغادرته برلين للمرة الأولى.

ان رحلته السياسية الطويلة المحفوفة بالمخاطر التي ابتعد فيها عن العداء للشيوعية والعداء للروح الروسية، بدت وكأنها اكتملت. فقد كتب من موسكو الى فون سيكت في 29 آب (اغسطس) 1920 يحثه على مساعدة السوفيات مدعياً أنه:

«يوجد هنا حزب ذو قوة حقيقية، وتروتسكي أيضاً ينتمي الى هذا الحزب الذي ينادي باتفاق مع ألمانيا. وهذا الحزب مستعد للاعتراف بحدود ألمانيا كما كانت عام 1914. ويرى أعضاء الحزب سبيلاً وحيداً للخروج من الفوضى العالمية الراهنة، ألا وهو التعاون مع ألمانيا وتركيا. ألا يمكن من أجل تعزيز

موقف هذا الحزب وكسب الحكومة السوفياتية كلها إلى جانب القضية، تقديم مساعدة غير رسمية، وهل بالامكان أيضاً بيعهم السلاح؟» [1014].

في الوقت نفسه أبلغ أنور فون سيكت، «أول أمس عقدنا معاهدة صداقة تركية - روسية وبموجبها سيقدم الروس لنا الدعم ذهباً وبكل الوسائل» [1015]. (إذا صح أن القادة البلشفيك كانوا آنذاك عازمين فعلاً على مساعدة أنور لتولي قيادة الثورة التركية، فانهم بدلو رأيهم في ما بعد عندما علموا بتعقيدات الوضع السياسي التركي).



## (2)

عقد البلشفيك في اليوم الأول من أيلول (سبتمبر) 1920 «المؤتمر الأول لشعوب الشرق» في مدينة باكو عاصمة أذربيجان الإسلامية المستولى عليها حديثاً. وقد ضم المؤتمر 1891 مندوباً من مختلف الشعوب الآسيوية، بينهم 235 مندوباً تركياً. وكان المؤتمر برعاية الأمم المتحدة (أو الشيوعية) - أي الكومنتيرن كما سُمّي - ولكن نسبة مئوية كبيرة من المندوبين لم يكونوا شيوعيين. حضر أنور المؤتمر بصفته ضيفاً على الكومنتيرن الذي مثله في المؤتمر كارل راديك وغريغوري زينوفيف والهنغاري بيلاكون. وترأس المؤتمر زينوفيف قائد الأمم المتحدة الشيوعية.

ومع أن أنور ادعى أن لينين استقبله وأن زينوفيف وضعه تحت رعايته في المؤتمر، فقد كانت شهرته الأوسع أنه شريك ألمانيا الإمبريالية وقاتل الأرمن. كانت بين المندوبين معارضة قوية للسماح له بالمشاركة في المؤتمر، ويتم الوصول إلى حل وسط يقضي بأن يُتلى بيان باسم أنور في المؤتمر بدلاً من أن يلقيه هو شخصياً. ومع ذلك قوطع البيان بهتافات الاستنكار والاحتجاجات. لقد ادعى أنور في بيانه أنه يمثل «اتحاد منظمات ثورية في المغرب، والجزائر، وتونس، وطرابلس، ومصر، وشبه جزيرة العرب، وهندستان» [1016]. موضوعياً كان يتطلع إلى تولي قيادة تركيا، ولكن المندوبين الأتراك الذين يؤيدون مصطفى كمال أوضحوا للسوفيات أن مساندة موسكو لأنور ستغضبهم.

وبالرغم من أن الدعوة إلى المؤتمر صيغت باللغة الشيوعية، لغة الثورة العالمية، فقد بدا زينوفيف، لدى حضوره المؤتمر، أنه يناشد المندوبين المجتمعين أن يساعدوا في صراع قومي قائم بين روسيا وبريطانيا. ففي خطاب الافتتاح صاح بالحضور قائلاً: «أيها الأخوة، ندعوكم اليوم إلى حرب مقدسة هي في المقام الأول ضد الامبريالية الانكليزية!» [1017]. ولما كان كثيرون من الذين ناشدهم الانضمام إلى هذه الحملة غير شيوعيين بل معادين للشيوعية، فقد شعر الكومنتيرن أنه مضطر لأن يدفع عن نفسه الاتهام بأنه يستخدمهم بصفقة كأدوات للسياسة الخارجية السوفياتية، قال كارل راديك مخاطباً المؤتمر: «إن السياسة الشرقية للحكومة السوفياتية ليست مناورة دبلوماسية، وليس هدفها دفع شعوب الشرق إلى خط النار ومن ثم الغدر بها بغية الحصول على فوائد للجمهورية السوفياتية... نحن وياكم نرتبط بمصير مشترك...» [1018]. ولكن حضور أنور بصفته ضيف الكومنتيرن هو تكذيب لهذا الكلام، أو هذا على الأقل هو ما قيل في الأوساط الاشتراكية الأوروبية خلال بضعة الأسابيع التي أعقبت انعقاد المؤتمر.

فالكومنتين، وفقاً لما قاله أحد زملاء لينين السابقين، قد رضح لاغراء «اعتبار شعوب الشرق يبادق على رقعة الشطرنج في الحرب الدبلوماسية التي تخاض ضد دول الحلفاء» [1019]. وادعى أحد الديموقراطيين الاجتماعيين أن البلشفيك تخلوا في باكو عن الاشتراكية لمصلحة سياسة الدولة [1020].

بعد مرور شهر على انعقاد مؤتمر باكو عاد أنور الى برلين، وشرع في شراء أسلحة - ربما لمصلحته، إذ كان يأمل في أن يعود إلى الأناضول لينحي مصطفى كمال جانباً ويتسلم قيادة القوات التي تقاوم الحلفاء، كان أنور لا يزال يحظى بالتأييد بين قدامى مناضلي جمعية الاتحاد والترقي، وكان أيضاً يسيطر على منظمة مكانها على حدود منطقة عبر القوقاز، ولم تكن آماله في العودة الى السلطة داخل تركيا بعيدة بالمرة عن الواقع.

كانت مساندة موسكو لأنور أحد البدائل التي تستطيع بواسطتها أن تهدد مصطفى كمال إذا ما اقتضت الضرورة ذلك، أما في الوقت الراهن فليس لدي البلشفيك ما يكلفون به أنور [1021]. وسنرى الآن أن عاماً سيمر قبل أن يجد السوفييات مهمة يرسلونه فيها - والمهمة هي الذهاب الى بخارى في تركستان المضطربة.

في أثناء انتظار أنور أن تسند اليه مهمة يكلف بها، استقر في موسكو خلال عام 1921 بصفته ضيفاً على الحكومة السوفياتية. كان حينما يسير في شوارع العاصمة الروسية يبدو شخصية طريفة تلفت الانتباه بطربوشه الكبير الذي لا يتناسب مع قامته الضئيلة. وقد أصبح في رأي الكاتبة الأميركية لويز بريانت، التي عاشت بجواره مدة نصف عام وكانت تراه كل يوم، نجماً من نجوم المجتمع في موسكو. وقد كتبت قائلة: «لا ريب في أنه فائن، بالرغم من انتهازيته الواضحة جداً، وقسوته... وانعدام الضمير لديه» [1022]. وكان شعورها انه متضايق بالرغم مما يلقاه من تبجيل [1023].

كان نجم أنور الى أفول في موسكو، لأن نجم منافسه مصطفى كمال كان الى صعود. فالتدبير العملي الذي توصل اليه الكرملين مع حكومة مصطفى كمال التركية القومية، أتاح لروسيا السوفياتية أن تسحق جورجيا وأرمينيا وأذربيجان. ان عداء مصطفى كمال المكشوف للشيوعية - في 28 كانون الثاني 1921 قتل الكماليون سبعة عشر من القادة الشيوعيين الأتراك باغراقهم في البحر الأسود - لم يسمح له لينين أو ستالين أن يقف في طريق الاتفاق. وبدا أن موسكو بدخولها سلسلة أحلاف مترابطة مع القادة المسلمين المعادين للشيوعية في تركيا وفارس وأفغانستان، انما تسير على الدرب المرسوم في مؤتمر باكو: التخلي عن الأهداف الثورية لمصلحة

الأهداف الروسية التقليدية، كما كانت في اللعبة الكبرى. وقد شجع السوفييات تركيا الكمالية الثورية على الدخول في حلف تعقده تركيا، في موسكو، مع أفغانستان التقليدية، الغاية منه (كما تشير المادة الثانية) هي التعاضد في مقاومة استغلال وعدوان الامبراطورية البريطانية.

في صيف عام 1921 ربح مصطفى كمال النصر الأول في سلسلة انتصارات مذهلة على الجيش اليوناني المدعوم من بريطانيا. كان التيار يجري لمصلحته، وفي خريف ذلك العام ازداد اقتراب السوفييات من عقد حلف معه. ورأى أنور أنه يخسر أمام مصطفى كمال.

في صيف عام 1921 هيا السوفييات، بطلب من أنور، وسيلة نقل إلى القوقاز. وقد أكد أنور لوزير الخارجية السوفياتي أنه لا يعتزم أن يشاغب هناك على مصطفى كمال، ولكنه حنث بوعده هذا، فما أن وصل إلى منطقة عبر القوقاز حتى استقر في باطوم، في جورجيا، على الحدود التركية، وعقد فيها مؤتمرا لأنصاره ثم حاول اجتياز الحدود إلى تركيا. ولكن السلطات السوفياتية احتجزته بالقوة. وصار وجود أنور عند الحدود التركية مصدر إحراج للقادة السوفييات، ولذلك أبعدوه. لقد عهدوا إليه، إما بطلب منهم أو بطلب منه، بمهمة في آسيا الوسطى.

كانت موسكو تحاول أن تستكمل في آسيا الوسطى، سيطرتها على السكان المسلمين أهل البلاد الناطقين بالتركية، فطلبت إلى أنور أن يساعد في ذلك.

هذه المهمة التي عهد بها إليه هي نقيض كل ما يمثله أنور في السياسة: فقد كان هدفه تحرير الشعوب الناطقة بالتركية من الحكم الروسي. وكانت المهمة أيضاً نقيض ما كان البلشفيك يبشرون به قبل وصولهم إلى السلطة: فقد كان ادعاؤهم أنهم يحبذون السماح للشعوب غير الروسية في الامبراطورية الروسية أن تملك حرية اختيار طريقها. إن تعليمات السوفييات لأنور، وقد جاءت في أعقاب إعادة الاحتلال الروسي لجورجيا وأرمينيا وأذربيجان، وبعد الكشف عن تحالف موسكو مع القادة المسلمين المعادين للشيوعية، أثارت التساؤل عما إذا كان البلشفيك قد وضعوا في مرتبة أدنى، أو أرجأوا أو حتى تخلوا نهائياً عن المثل العليا الثورية التي نادوا بها. وكانت الأنور بطبيعة الحال آراؤه في هذا الموضوع، ولكنه أخفاها عن مضيفيه البلشفيك فيما كان يتهيا للانطلاق إلى بخارى في آسيا الوسطى.

### (3)

كانت بخارى في صيف عام 1920 - أي السنة السابقة لايفاد أنور اليها - آخر حصن تبقى من حصون استقلال الناطقين بالتركية في آسيا الوسطى. وهي تمتد على مساحة تناهز 85 ألف ميل مربع على الضفة اليمنى لنهر أوكسوس، عند الزاوية الجنوبية الشرقية لتركستان الروسية، وخلف الحدود الجبلية الجنوبية والشرقية المحاذية لأفغانستان والصين، وعدد سكانها يتراوح بين مليونين ونصف مليون وثلاثة ملايين نسمة، نجحوا في رفع مستوى بلادهم الى ما فوق مستوى المناطق المجاورة المأهولة بسكان أتراك، وهي مناطق قليلة كثافة السكان. كانت بنيتها كمحمية روسيا، قد تلاشت خلال ثورات عام 1917، وأعاد أميرها، عبد السيد مير عالم خان، الأخير من سلالة منجيت، تثبيت استقلال بخارى وتثبيت سلطات الحكم المطلق التي كان يمارسها أسلافه. لقد نمت الى السوفييات شائعات عن تواطؤ بريطاني وراء تحدي الأمير لسلطتهم. والواقع أن الهند البريطانية أرسلت فعلاً حمولة مئة بعير من المؤن لمساعدة الامارة. وقد هاجمت روسيا البلشفية بخارى في عام 1918، ولكن جيشها الصغير، وتعداده رسمياً 11 ألف رجل، ربح الحرب القصيرة.

عندما حدث الهجوم البلشفي، كانت بخارى لا تزال ثرية وحسنة التموين، وقد اشتهرت أمانة بخارى على مر الزمن بخصوبة واحاتها وظلت عاصمتها - وتدعى أيضاً بخارى - أهم المراكز التجارية في آسيا الوسطى. وفي أسواقها المسقوفة التي تبلغ سبعة أميال طولاً وتشبه نخارب النحل، كان النشاط التجاري مستمراً كعادته (وفقاً لأقوال رحالة واحد على أقل تقدير) [1024]. كانت تعج بتبادل منتجات الحرفيين، والمعادن الثمينة، والجواهر، والسجاد، والمنتجات الجلدية والحزير، والعملات وكل أنواع المأكولات. وكانت بخارى مركزاً لتجارة المخطوطات النادرة، ومركزاً لدور الكتب، وحافظت على مكانتها كأكبر سوق للكتب في آسيا الوسطى.

ولكن أميرها، بعد انتصاره على البلشفيك في عام 1918 قطع التجارة مع روسيا فوضع بذلك نهاية لذلك الرخاء التجاري. وفي الوقت نفسه أوقف مشروعات الري. ومع حلول عام 1920 ساء وضع بخارى الاقتصادي ولم تعد قادرة على توفير الطعام لسكانها [1025]. وتفجرت النقمة الشعبية والنزاع الاجتماعي، بينما احتجت حركة سميت «حركة بخارى الفتاة» (كانت معارضة للتدخل السوفيياتي) وحزب شيوعي أصغر حجماً من الحركة (كان مرحباً بالتدخل السوفيياتي) على السياسات المتسمة بالجهل وأساليب القرون الوسطى التي يتبعها حاكم البلاد. وفي الواقع كان الأمير قد أعاد

البلاد، من بعض النواحي، الى القرون الوسطى، فقد أعيد استعمال «قاليان منارة»، أو برج الموت، الذي كان المجرمون المحكوم عليهم بالإعدام يقذف بهم من أعلاه في القرن الثاني عشر. وكان الأمير يحكم حكماً مطلقاً من قصوره، وسط غلمانه وحريمه، وبأسلوب لا يقل تعسفاً عن أسلوب أي من أسلافه.

انتهر الجيش الأحمر انعدام شعبية الأمير، فقرر التدخل. وفي صيف عام 1920 هاجم بخارى مرة أخرى، وقصفت القوات الروسية بقيادة ميخائيل فرونزي، مدينة بخارى، وفيما كانت جماعة «بخارى الفتاة» تقوم بانتفاضة في المدينة، كان الجيش الأحمر بطائراته وسياراته المصفحة يشق طريقه الى داخل المدينة بتاريخ 2 أيلول (سبتمبر)، منهياً نظام القرون الوسطى في بخارى. وقد اتهمت السنة اللهيب المكتبة التي ربما كانت تحتوي على أعظم مجموعة في العالم من المخطوطات الإسلامية.

أما الأمير فقد تلقى في قصره اتصالاً هاتفياً نبهه الى ما يحدث، فيهرب مع حريمه وحمولة ثلاث مركبات من الذهب والحجارة الكريمة أخذها من خزائنه. تقول قصة رويت في ما بعد ان الأمير كان يترك وراءه عند نقاط على الطريق واحداً من غلمانه الذين يجيدون الرقص، لصرف انتباه مطارديه عنه وابطاء مطارديهم له. وكانت أولى نقاط توقفه منطقة التلال الشرقية، ومن هناك عبر الحدود لائذاً بأفغانستان.

بعد استيلاء روسيا السوفياتية على مدينة بخارى، أعلنت اعترافها بالاستقلال المطلق لجمهورية بخارى الشعبية. ولكنه كان اعترافاً شكلياً فقط. فقامت فرونزي بقيت في البلاد، وفرضت عليها مصادرات. وكان التدخل السوفياتي في شؤون بخارى مؤشراً إلى دمجها في روسيا السوفياتية في نهاية المطاف. لقد قاوم قادة «حركة بخارى الفتاة» السيطرة الروسية وحاولوا تثبيت الاستقلال.

وفي التلال الواقعة في شرق بخارى، بدأت جماعات الباسماش الموالية للأمير تقوم بمضايقة الفاتحين الروس، ولم تنشأ روابط حقيقية بين مختلف جماعات الباسماش، ذلك شكلت هذه الجماعات تحدياً للحكم السوفياتي، وعجز الجيش الأحمر حتى نهاية 1921 عن قمع هذا التحدي.

## (4)

وصل أنور باشا الى بخارى بتاريخ 8 تشرين الثاني (نوفمبر) 1921، وقد عهد اليه الروس بدور يؤديه في تهدئة تركستان.

وفيما كان مقبلاً على المدينة عبر بساتين الأشجار المثمرة، ومزارع البطيخ وكروم العنب وجنائن الورود ومزارع الخشخاش والتبغ، تصور نفسه يدخل جنة عدن العقيدة الطورانية التي يؤمن بها: أي الوطن التاريخي للشعوب التركية. كانت بخارى عند فتحها مدينة عمرها قرون، محاطة بأسوار عالية من الحجر على امتداد ثمانية أميال، في أعلاها فوهات لمقاومة العدو، ومئة وواحد وثمانون برج مراقبة، وعدد أبوابها أحد عشر باباً، وكانت تجسيدا لفن العمارة في الماضي الاسلامي الذي يمجده أنور باشا. ومر زمن كانت فيه أقدس مدن آسيا الوسطى، ومساجدها الثلاثمئة والستون تمثل له عقيدته الدينية التي يشاركه فيها سكان المدينة، رجالاً يمارسون الشعائر الدينية ونساء يضعن الحجاب. ورجال بخارى يعتمدون ويرتدون الأقبية التقليدية المخططة ويسمونهم خلاط، في حين وصل أنور ببزة عسكرية أوروبية الطراز. لكنه شعر أن رابطة الاخوة تجمع بينه وبينهم.

بل ان صلات القربى التي تجمعهم بهم امتدت الى حكومة بخارى الجديدة. فلم يكن حزب بخارى الفتاة بعيد الشبه عن حزب تركيا الفتاة الذي كان أنور أحد قادته في استانبول. وكان لقادة مصلحين أمثال زكي وليدي طوغان البشكيري أتباع هناك، ولما غادر أنور المدينة بعد دخوله اليها بثلاثة أيام، أخذ معه كبار شخصيات الحكومة: رئيسها وقوميسار الحرية وقوميسار الداخلية. وقد زعم للروس انهم ذاهبون في رحلة صيد. ولكنهم في الواقع يمموا شطر منطقة التلال في شرق بخارى، حيث اتصل أنور بأنصار الأمير. ثم ان الأمير عينه قائداً عاماً، وهكذا تسلم قيادة حزب الباسماش من أجل الاستقلال عن روسيا.

صار أنور بعد أن نال تأييد الأمير وقادة حزب بخارى الفتاة، في وضع يسمح له بالتأليف بين جميع الفئات. وانطلق مبعوثوه سعياً وراء عصابات الباسماش في سائر أنحاء تركستان لتوحيدها تحت رايته. وكان هدفه المعلن انشاء دولة اسلامية مستقلة في آسيا الوسطى. وكعادته شدد على وحدة الشعوب الإسلامية. ورسالته الاسلامية القوية النبيرة أكسبته تأييد رجال الدين، الذين التفوا حوله دعماً لقضيته، كما أكسبته تأييد جار ذي أهمية، هو أمير أفغانستان المسلم.

بيد أن مواطن الضعف في شخصية أنور عادت إلى الظهور. كان مغروراً مختلاً هاوياً للأزياء والأوسمة والألقاب، وقد أمر بصنع خاتم ذهبي يختم به

الوثائق الرسمية، وحمل الخاتم لقب «القائد العام لسائر جيوش الاسلام، صهر الخليفة وممثل النبي» [1026]. وما لبث أن لُقّب نفسه أمير تركستان، وكان هذا تصرفاً لا يقود إلى علاقات حسنة مع الأمير الذي كان يدافع عن قضيته. وفي وقت ما خلال النصف الأول من عام 1922 قطع أمير بخارى علاقاته مع أنور، ومنع عنه القوات والأموال التي كان في أمس الحاجة إليها. ولم يبادر أمير أفغانستان إلى نجدة.

حققت ثورة أنور بعض الانتصارات الأولى. فقد شن غارة جريئة على مدينة بخارى أوهنت عزيمة خصومه. ولكن لا يزال هناك خلاف على مدى هذه الانتصارات. وتقول بعض الروايات أنه تمكن من السيطرة على معظم أراضي بخارى، بينما تقول روايات أخرى أن أنور كان مجرد زعيم من عدة زعماء يقود عصاة لا يتجاوز عددها ثلاثة آلاف (من مجموع يقدر بستة عشر ألف رجل من الباسماش المنتشرين في البلاد) [1027]. والأمر الواضح هو أن نشاطاته، مؤثرة كانت أو غير مؤثرة، سببت قلقاً شديداً للكرملين.

في أواخر ربيع عام 1922 كتب أنور إلى حكومة روسيا السوفياتية طالباً إليها أن تسحب القوات الروسية وأن تعترف باستقلال دولته الإسلامية في تركستان، وعرض لقاء ذلك السلام والصداقة. لكن موسكو رفضت العرض.

وفي صيف عام 1922 قام الجيش الأحمر، بتساعده الشرطة السرية، بحملة تهدئة، وكانت مواطن ضعف أنور عاملاً مساعداً في هذه الحملة. ظل أنور القائد العسكري هبة من الله للجانب الآخر، وظل أنور السياسي أخرق بالقدر عينه. لقد أبعد عنه زعماء الباسماش الآخرين، وكثيرون منهم انقلبوا عليه، وما أن حل منتصف فصل الصيف حتى كان الروس قد قضاوا على أتباعه فلم يبق منهم سوى فئة صغيرة من الطرائد.

أخذ الجواسيس الروس والدوريات الروسية يقتفون أثره في الشعب الضيقة، وفي النهاية اهتموا إليه في مكمنه الجبلي، وسرعان ما طوق الجيش الأحمر قواته. وفجر الرابع من آب (أغسطس) 1922 بدأ الجنود السوفيات الهجوم، فتشتت رجال أنور.

الروايات عن موت أنور متعددة [1028]، أكثرها اقناعاً تقول أنه عندما شن الروس هجومهم قبض على المصحف الذي يحمله في جيبه، وكعادته اندفع إلى الأمام مهاجماً. بعد ذلك عثر على جثته المتعفنة على أرض المعركة، وقد انتزع المصحف من بين أصابعه التي جمدها الموت وضم إلى محفوظات الشرطة السرية السوفياتية.

## (5)

تصفية روسيا السوفياتية لآخر حركات الاستقلال التركية في آسيا الوسطى، أكملت النهج الذي أظهر أن السلطات البلشفية غير عازمة على الوفاء بوعد السماح للشعوب غير الروسية أن تنفصل عن الحكم الروسي. وصار جلياً أن هذه السلطات تنوي الاحتفاظ بالإمبراطورية وبالحدود التي حققها القيصرية.

في صيف عام 1920، أبلغ سير بيرسي كوكس، العائد حديثاً من الشرق الأوسط الى لندن، مجلس الوزراء البريطاني، أن البلشفيك سيحتفظون بحدود الامبراطورية الروسية القديمة، ولكن دون ارسال جيوشهم عبر الحدود سعياً وراء فتوحات جديدة<sup>[1029]</sup>. وكان ونستون تشرشل أبرز الذين اعتقدوا في لندن بخطأ رأي كوكس. ولكن أحداث ذلك الزمن سلطت القليل من الضوء في هذا الاتجاه أو الآخر، ومن المؤكد أن الكرملين كان ناشطة في تخريب الامبراطورية البريطانية في الشرق الأوسط. ولكن قلما كان هناك اتفاق في الرأي، لا في زمن حكومة لويد جورج ولا في الوقت الراهن، بشأن النيات البعيدة المدى التي كان يضمها الكرملين وهو يقوم بهذا النشاط.

بيد أن مغامرات أنور باشا بعد الحرب ألقت الضوء على عدد من المسائل التي أثارها المسؤولون البريطانيون خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة، والمتعلقة بالمقاومة التي يواجهونها في الشرق الأوسط. لقد كانت فكرة المسؤولين البريطانيين عن أنور أنه شخص ينذر بالشؤم وذو سطوة، وأنه يساند مصطفى كمال في مقاومته للحلفاء. غير أن الأحداث بينت أن أنور ومصطفى كمال كانا عدوين لدودين، وأن مصطفى كمال - وليس أنور - هو الذي كان يستحوذ على الدعم الأقوى داخل تركيا، ولذلك استطاع أن يحصل على أسلحة من روسيا السوفياتية. ان المسؤولين البريطانيين صوروا أنور أيضاً أنه صنيعة الآلة العسكرية الألمانية، ولكن بالرغم من أن أنور كان يستطيع أن يلجأ إلى أصدقاء شخصيين مثل فون سيكت ليطلب إليهم معروفاً، فقد كان في السنوات التي أمضاها في روسيا يعمل كليا على مسؤوليته الخاصة. وعندما قام أنور بحملته الأخيرة عام 1922، كان الجيش الألماني الجديد بقيادة فون سيكت يعمل سرا مع البلشفيك وليس مع أنور.

ظل أنور سنوات يهدد بريطانيا وروسيا بانتفاضة شاملة للشعوب التركية، فلما أصدر أخيراً نداءه إلى الثورة، لم يلق استجابة تذكر، وحتى في وسط العصابات التي قادها، كان الدين الاسلامي وليس مشاعر الانتماء التركي، هو الرابطة الموحدة. كذلك فان الوحدة الاسلامية التي ظل المسؤولون



البريطانيون يكتبون عنها فرعين، قد أظهرت حملة بخارى أنها شعار أجوف: فالشعوب العشائرية في الشرق الأوسط لم تتعود على الولاءات الأوسع، ولم يهب أي بلد مسلم - حتى أفغانستان الصديقة - لنجدة أنور، صحيح أن المسلمين أهل البلاد في أجزاء مختلفة من تركستان قاوموا المستوطنين الروس، مثلما قاوم المسلمون في فلسطين المستوطنين اليهود، ولكن رد فعل كل فئة من المسلمين، كان محلياً ولغايتها هي فقط: كان المسلمون في سائر أنحاء الشرق الأوسط متشابهين في العمل ولكن غير موحدين في العمل.

عندما سافر أنور الى موسكو كانت وجهة النظر البريطانية أنه وشركاءه الروس الجدد عناصر في تجمع سياسي قائم من زمن طويل، وأن هذه العناصر تعمل من أجل أهداف سياسية واحدة. والواقع أن أهدافها كانت متباعدة. وقد حاول أنور والبلشفيك أن يستغل كل منهما الآخر فلم ينجحا كلاهما. لقد برهن البلشفيك أنهم خبراء في سرعة التقاط أي إنسان يرون أنه قد يفيدهم - وفي سرعة نبذه بعد انتهاء الفائدة منه، ولكن لندن أساءت الفهم باستمرار وفسرت هذه التحالفات التكتيكية التي دخلها الكرملين بسهولة وصفاقة على أنها تجمعات طويلة الأجل. ولعله كان مما يشرح صدر أنور لو علم في الدقائق الأخيرة التي سبقت الاطاحة برأسه على يد الروس، أن المخابرات البريطانية اعتبرته رجل موسكو.

لو كانت المخابرات البريطانية عرفت القصة الكاملة لمغامرات أنور في حينها، لتبين لها أن البريطانيين أخطأوا في آرائهم المتعددة بشأن من يمسك بزمام الأمور في روسيا البلشفية. كان الرأي البريطاني السائد أنه يجري تسخير أمور البلشفيك من قبل الجنرالات الألمان في برلين، ولكن عندما وصل أنور الى برلين عام 1919 تبين له أن الجيش الألماني ليس له اتصال مع روسيا وغير معني أو مهتم بحكام الكرملين الجدد. وكان أنور هو الذي أوحى للجيش الألماني انه قد يستفيد من إقامة علاقة مع نظام الحكم البلشفي، وليس العكس. ولم يشرع فون سيكت في تطبيق ما أوحى به أنور حتى عام 1921.

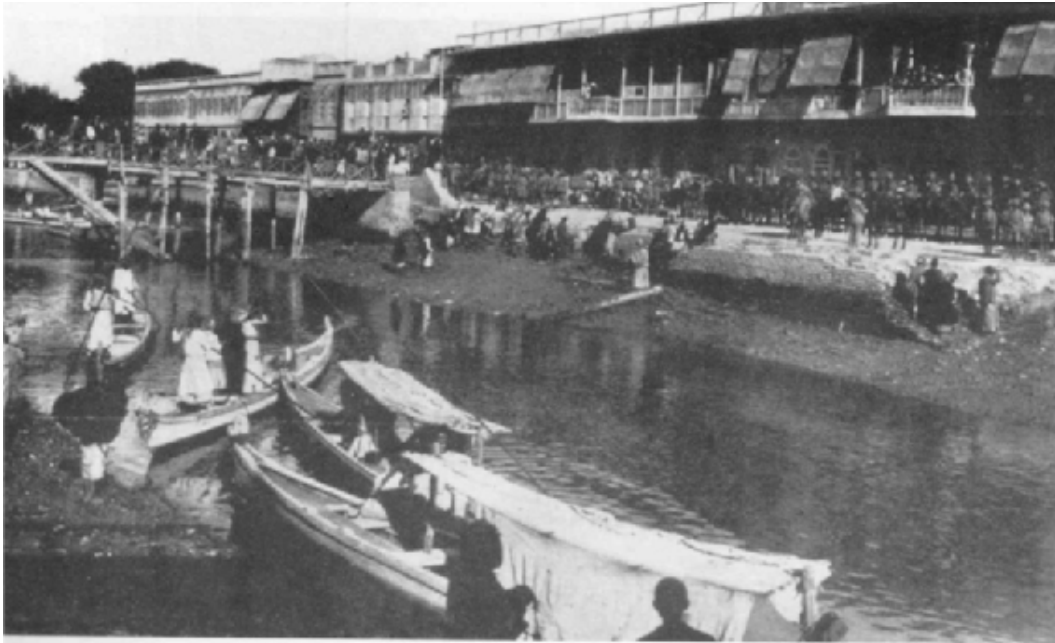
وحقيقة ما تبين لأنور، هو أن لينين وزملاءه هم الذين يحددون جدول أعماله: وهذا في المقام الأول ما أخطأ ضباط المخابرات البريطانية في معرفته. فالمسؤولون في الكرملين كانوا يصدرون الأوامر ولم يكونوا يتلقونها، ولم يكونوا أدوات في مؤامرات الغير، وعندما اقتضى الأمر أن تحاك مؤامرات فقد حاكوا مؤامراتهم بأنفسهم. ومع أن ونستون تشرشل أصاب في ملاحظته لكل هذه الأمور، فقد أفسد تحليله بالذهاب الى حد الادعاء أن القادة السوفييات ليسوا روسيين ولا موالين للروس. هذه النظرية كان ينبغي حذفها من الأذهان هي وغيرها من النظريات الخيالية البريطانية بشأن القوة

التي تعمل ضد بريطانيا في الشرق الأوسط، وكان ينبغي أن تموت هذه النظرية مع موت أنور باشا في بخارى.

# **الجزء الثاني عشر**

## **التسوية الشرق أوسطية لعام**

### **9221**



29 The Union Jack is hoisted above Basra in January 1915







31 The reading of General Allenby's proclamation of martial law in Jerusalem in December 1917









35 British sentry before the imperial palace in Constantinople in April 1920





37 Woodrow Wilson



38 Lloyd George (right)



39 The Sultan's representative reluctantly signs the Treaty of Sèvres, 1920



40 British bluejackets on the march in Constantinople, 1920



42 French troops enter Damascus, deposing King Feisal and bringing an end to Syria's brief independence, 1920



Mustapha Kemal of Turkey





45 Reza Khan of Persia (Iran)



49 Sons of King Hussein of the Hejaz (seated, left to right): Feisal, King of Iraq; Abdullah, Emir of Transjordan and later King of Jordan; and Ali, briefly King of the Hejaz before its capture by Ibn Saud



50 Ibn Saud with Sir Percy Cox and Gertrude Bell. A powerful enemy of King Hussein and his family, Ibn Saud nonetheless remained on friendly terms with the British who protected

# الفصل الأول

## ونستون تشرشل يتولى المسؤولية

### (1)

ان روسيا التي أزعجها بعد الحرب ظهور حركات استقلالية في آسيا الاسلامية الواقعة على حدودها الجنوبية، قد سحقت هذه الحركات، وفيما كانت تسحقها، وضعت تعريفاً لنفسها عن طريق رسم مستقبل علاقتها مع الشعوب غير الروسية في ما كان سابقاً امبراطورية القيصرية. لقد عازمت على اخضاع هذه الشعوب، قدر استطاعتها، لحكم الدولة الروسية، وأقرت هذه السياسة رسمياً في الثلاثين من كانون الأول (ديسمبر) 1922 عندما وافق المؤتمر الأول لمجالس سوفيات اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية على تشكيل الاتحاد السوفياتي.

لقد أزعج فرنسا أيضاً بعد الحرب ظهور حركات استقلالية في المناطق التي كانت تسعى للسيطرة عليها في الشرق الأوسط الإسلامي، وقد سحقتها في عام 1920 كما رأينا في الصفحات السابقة. كانت رغبة كليمنصو أن يحافظ على وضع فرنسا باعتبارها قوة في أوروبا، وكان دائماً يصور السعي وراء امبراطورية في ما وراء البحار بأنه انحراف خطر، ولكن خلفاءه، بغزوهم سورية، حددوا دور فرنسا في السياسة العالمية لما بعد الحرب بمفاهيم أكثر طموحاً وأقل واقعية. لقد أعطى انتداب عصبة الأمم بتاريخ 24 تموز (يوليو) 1922 شرعية رسمية لاحتلال فرنسا السورية ولبنان.

عند بداية الحرب العالمية الأولى، اتفقت الدول الحليفة الثلاث على أن تقسم في ما بينها الشرق الأوسط بعد الحرب. ولكن بعد فقدان وحدة الهدف في سنوات ما بعد الحرب، سلكت كل دولة طريقها الخاص للتغلب على اضطرابات ما بعد الحرب في آسيا الإسلامية، وحددت كل منها رؤيتها لمصيرها السياسي وهي تسلك هذه الطريق. لقد سلكت كل منها طريقها الخاص الى عام 1922 - اذ أن وضع بريطانيا ضمن منطقتها في الشرق الأوسط، شأنه شأن وضع روسيا وفرنسا، قد جسده رسمياً الوثائق التي صدرت في ذلك العام.



ومن بين الدول الحليفة الثلاث كانت بريطانيا هي التي واجهت أوسع التحديات انتشاراً على خريطة الشرق الأوسط بعد الحرب. وكان عليها أن تواجه هذه التحديات وهي في خضم أزمة اقتصادية وفي زمن تبدل سياسي واقتصادي عميق في الداخل. أن السياسة الشرق أوسطية وصولاً إلى عام 1922 كانت امتحاناً قاسياً لأبرع اثنين من السياسيين البريطانيين وأوفرهم روحياً ابداعية، وهما لويد جورج وتشرشل. ذلك أنه نتيجة لمتاعب بريطانيا بعد الحرب التي روينها أنفاً، في كل مكان بدءاً من مصر ووصولاً إلى أفغانستان، كانت سياسة بريطانيا في الشرق الأوسط في حالة يرثى لها - تماماً كما قال ونستون تشرشل دائماً - في مواجهتها مقاومة أهل البلاد والنزاع بين السكان والاضطرابات المحلية.

## (2)

كان تشرشل، منذ انتهاء الحرب، هو الأشد انتقاداً داخل الحكومة لسياسة رئيس الوزراء الشرق أوسطية، منذراً بأن بريطانيا في زمن السلم لا تتوافر لها القوات، وأن البرلمان يرفض انفاق الأموال على قهر الشرق الأوسط. ولذلك كان رأيه أنه ينبغي لبريطانيا أن ترضى بشروط يقبلها الأتراك. وفي 25 تشرين الأول (أكتوبر) 1919 عبّر بوضوح عن قلقه من أن تقوم اليونان بتدمير مغامرتها في أزمير، ومن أن تحالف بريطانيا مع فرنسا قد يتأذى من جراء الغزو الفرنسي لسورية بأعداد هائلة من الجنود الجزائريين. وكان قلقاً خشية «أن يزعم الإيطاليون العالم التركي»، وقلقاً من جراء «اليهود»، الذين تعهدنا بإدخالهم إلى فلسطين، في حين أنهم يعتبرون إبعاد السكان المحليين على النحو الملائم لهم، أمراً مسلماً به». وقدم تشرشل حجته القائلة إن سياسة الحلفاء في الشرق الأوسط يجب أن تكون عكس ما هي عليه، وحث على إعادة الامبراطورية العثمانية إلى حدودها قبل الحرب، واقترح أن تتخلى الدول الأوروبية عن ادعاءاتها في سورية وفلسطين وما مثلهما من المناطق. وقال: «ينبغي لنا بدلاً من تقسيم الامبراطورية إلى مناطق منفصلة مهياة للاستغلال، أن نعمل معاً للحفاظ على وحدة أراضي الامبراطورية التركية كما كانت قائمة قبل الحرب، على أن نخضع هذه الامبراطورية الشكل من الاشراف الدولي الصارم...» [1030].

ان تشرشل المدرك ادراكاً حاداً للأغراض التي هدفت إليها استراتيجية بريطانيا الشرق أوسطية خلال القرن التاسع عشر، دعا إلى تبني استراتيجية مماثلة من قبل حكومة لويد جورج. وقال مدافعاً عن رأيه في مذكرة قدمها إلى مجلس الوزراء في 23 تشرين الأول (أكتوبر) 1920: «ينبغي أن نتوصل إلى اتفاق مع مصطفى كمال وأن نتوصل إلى سلام جيد مع تركيا» لكي نكف عن جفاء «القوى التركية والمحمدية وهي قوى دائمة وضرورية. ولذلك يجب علينا أن نعيد خلق ذلك الحاجر التركي الذي يصد الطموحات الروسية والذي كان دوماً بالغ الأهمية لنا» [1031].

بعد ذلك بوقت قصير، أكد تشرشل في رسالة وجهها إلى رئيس الوزراء عن استيائه لأنه مضطر بصفته وزيراً للحربية، أن يطلب إلى البرلمان مبالغ ضخمة من أجل اخضاع الشرق الأوسط، في حين أن ما استوجب هذا الانفاق هو فقط «روح الانتقام من الأتراك» لدى لويد جورج. وكتب يقول: «يبدو أننا أصبحنا الأشدّ عداءاً للأتراك والأكثر موالاة للسلطة البلشفية في العالم، مع أننا، كما أرى، يجب أن نكون عكس ذلك تماماً»، وبعد أن نوه بأن الفضل في بقاء الحكومة يعود فقط إلى تأييد حزب المحافظين، ذكر رئيس

الوزراء بأن المحافظين مرتبطون بسياسة القرن التاسع عشر التقليدية، سياسة مساندة تركيا ضد روسيا.

«إن نجاحك الكبير كله وسلطتك الشخصية الطاغية هما نتاج الارتباط بين أتباعك من حزب الأحرار من جهة وحزب المحافظين من جهة أخرى... أما الآن - مع ضعفنا الشديد نحن الأحرار المشاركين في حكومة الائتلاف داخل دوائرنا الانتخابية - فمن المؤكد أننا نزيد من مصاعبنا عندما نتبع سياسات إزاء الأتراك والبلشفيك تتعارض تعارضاً أساسياً مع نزعات وتقاليد المحافظين» [1032].

وانتقل تشرشل من السياسة الداخلية إلى السياسة الخارجية، فكتب أوسع نقد معلن يديه للسياسة البريطانية الشرق أوسطية، في مذكرة إلى مجلس الوزراء بعد مرور نحو اثني عشر يوماً فأكد: «إن مجرى الأمور قادنا إلى أن نكون في آن واحد فاقدين تعاطف القوى الأربع جميعها التي تمارس تأثيراً محلياً»، في الشرق الأوسط: الروس، واليونان، والأتراك والعرب. أن السياسة الناجحة تقتضي بدلاً من ذلك «أن نثير الفرقة بين القوى المحلية بحيث يكون لنا في أي حال بعض الأصدقاء إذا كان لنا بعض الخصوم، فهذا ما فعلناه دائماً في ماضي تاريخنا. فعندما كانت روسيا عدوتنا كانت تركيا صديقة لنا، وعندما كانت تركيا العدو كانت روسيا الصديقة» [1033]. ووفقاً لتحليل تشرشل، لا تود روسيا لينين، ولا تستطيع يونان الملك قسطنطين، أن تساعد بريطانيا على تحقيق أهدافها. والنهج العملي الوحيد، في رأيه، هو التحالف مع الأتراك والعرب.

كتب سير هنري ويلسون، رئيس هيئة أركان قوات الامبراطورية في مفكرته، تأييداً لأقوال تشرشل، أن تشرشل: «أعد ورقة جيدة لمجلس الوزراء مبيناً فيها أننا الآن مكروهون من البلشفيك والأتراك واليونان والعرب، وهذه حتماً سياسة سيئة، وأنه ينبغي لنا أن نصادق الأتراك والعرب وأن نعادي البلشفيك وأن نتجاهل اليونانيين. وقد كانت هذه وجهة نظري طوال الوقت» [1034].

على الصعيد الإداري، اتهم تشرشل بريطانيا (على غرار ما فعل سير مارك سايكس في الأيام الأولى للحرب العالمية؛ بأن سياستها الشرق أوسطية لم تعد متماسكة نظراً لعدد الدوائر الحكومية التي تدير مناطقها وعملياتها في معزل عن بقية الدوائر. وقد كرر القول للجنة المالية المنبثقة عن مجلس الوزراء، أن هذا قد حدّ من إحراز تقدم نحو خفض النفقات. وفي 31 كانون الأول (ديسمبر) 1920 قرر مجلس الوزراء، بناء على اقتراح تشرشل، إنشاء دائرة مختصة بالشرق الأوسط ضمن وزارة المستعمرات، لتكون

مسؤولة عن منطقتي الانتداب المضطربتين، فلسطين (ومن ضمنها شرق الأردن) والعراق.

لم يوافق اللورد ميلنر، وزير المستعمرات، وقد ساءت حالته الصحية وهبطت معنوياته، أن يحمل هذا العبء الجديد من المسؤوليات، فبادر إلى الاستقالة من الحكومة. وبتاريخ الأول من كانون الثاني (يناير) 1921 عرض لويد جورج وزارة المستعمرات على تشرشل فوافق، بعد تردد، على قبولها. وأعدت الترتيبات لانتقال الوزارة من اللورد ميلنر إلى خلفه في السابع من شباط (فبراير)، لكن تشرشل شرع فوراً في الانشغال بترتيبات وشؤون دائرة الشرق الأوسط.

حاول تشرشل في الحال أن يوسع سلطات وزارته الجديدة، وسعى للحصول على سلطات عسكرية فضلاً عن السلطات المدنية الكاملة، وحاول ادخال شبه جزيرة العرب كلها في إطار وزارته. كذلك عبر عن آراء حاسمة في مستقبل مصر. لقد احتج مراراً اللورد كورزون، وزير الخارجية على تعديلات تشرشل على اختصاصاته. واشتكي كورزون من أن: «ونستون... يريد أن يحوز كل شيء في وزارته الجديدة وأن يكون شبه وزير خارجية للشؤون الآسيوية»<sup>[1035]</sup>. وقد ادعى مسؤول في وزارة الحربية أن تشرشل يفكر في اقامة «شبه وزارة حربية خاصة به»<sup>[1036]</sup>.

لقد عين رئيس الوزراء، بناء على اقتراح تشرشل، لجنة خاصة تمثل عدة وزارات برئاسة سير جيمس ماسترسون سميث (وهو موظف متفرغ لوظيفته خدم تحت رئاسة تشرشل) لدراسة - وتوسيع، حسبما كان يأمل تشرشل - سلطات دائرة الشرق الأوسط الجديدة في وزارة المستعمرات.

لقد أقبل تشرشل، الذي لم يعد يتحدث عن إعادة الامبراطورية العثمانية إلى ما كانت عليه، على مسؤوليته الجديدة بذهن منفتح وبرغبة جلية في الحصول على الارشاد من أكفأ موظفي الحكومة في برنامج يهدف إلى خفض النفقات مع محاولة الحفاظ على الالتزامات.

### (3)

مع حلول عام 1921 كانت حكومة الهند قد انحازت الى وجهات نظر القاهرة، بتأثير من جيرترود بل في بغداد. فحكومة الهند، شأنها شأن القاهرة، صارت تؤمن بالحماية بدلاً من الحكم المباشر، وأخذت تساند أبناء الملك حسين المرشحين لقيادة العرب. وهذا ما وضع حداً لحرب أهلية طويلة في الصفوف البريطانية، وكان من حسن حظ تشرشل أن قدامى البريطانيين المشتغلين بشؤون الشرق الأوسط، صاروا الآن يتكلمون بصوت واحد، وهذا يعني أنه، خلافاً للوزراء السابقين، لن يقع بين نارين من نيران المسؤولين البريطانيين.

مدّ تشرشل يده الى أجهزة موظفي الوزارات الأخرى لتهيئة جهاز موظفين حسن التوازن وواسع الخبرة لحمل مسؤولياته الشرق أوسطية الجديدة. وفيما كان يجري تجميع هذا الجهاز، اعتمد تشرشل على المعلومات والمشورة والتوجيه المهني التي زوده بها سير آرثر هيرتزل، مساعد وكيل وزارة الدولة لشؤون الهند، وهو موظف محترف خدم في وزارة شؤون الهند منذ عام 1894. رفض هيرتزل العرض الذي تقدم به اليه تشرشل ليرأس دائرة الشرق الأوسط الجديدة، ورشح بدلاً منه لهذا المنصب موظفاً محترفاً آخر هو جون ايفلين شاكبرو، الذي سبق أن عمل تحت رئاسة هيرتزل وخدم في وزارة شؤون الهند منذ عام 1900. وكتب هيرتزل الى تشرشل قائلاً أن شاكبرو هو: «في الحقيقة من الطراز الأول - سديد الرأي، هادئ دائماً، دقيق جداً ولا يرضن بجده: ربما كانت علته الوحيدة ميله الى الحذر الزائد عن الحد» [1037].

وقع اختيار تشرشل على هيوبرت وينشروب يونغ، من وزارة الخارجية، ليكون مساعد شاكبرو. كان يونغ ضابطاً برتبة رائد خلال الحرب، وكان مسؤولاً عن النقل والإمدادات في قوات فيصل العربية. وقد وافقت لجنة ماسترسون سميث بحماسة على تعيينه، وتعيين شاكبرو، ورأت اللجنة أن شاكبرو «خير رجل» لهذا المنصب وأن خدمات يونغ «جوهريّة» [1038]. بيد أن اللجنة أبدت تحفظات شديدة على مرشح آخر اقترح تشرشل تعيينه، وهذا المرشح هو توماس ادوارد لورنس، الذي اقترحه تشرشل مستشاراً للشؤون العربية. وقالت اللجنة محذرة تشرشل أن لورنس «ليس ذلك النوع من الرجال الذي يتلاءم بسهولة مع أي جهاز رسمي» [1039].

وحقيقة الأمر أن لورنس كان قد اكتسب سمعة عصيان رؤسائه والقفز من فوق رؤوسهم الى سلطات أعلى. وكان هو أيضاً في طليعة منتقدي

السياسة البريطانية ازاء عرب بلاد الرافدين - وهذه سياسة صارت الآن ضمن مسؤولية تشرشل. وقد كتب لورنس مقالاً عن العراق في صيف عام 1920 في جريدة «صاندي تايمز» قال فيه:

«حكومتنا أسوأ من النظام التركي البائد. انها تبقي على أربعة عشر ألف مجند محلي، وتقتل مئتي عربي وسطية في السنة من أجل المحافظة على الهدوء. اننا نحفظ بتسعين ألف رجل مع طائرات وسيارات مصفحة وزوارق حربية وقطارات مصفحة. لقد قتلنا في انتفاضة هذا الصيف نحو عشرة آلاف عربي وليس في مقدورنا أن نحافظ على هذا المعدل: أنه بلد فقير، قليل الكثافة السكانية...» [1040].

ان توماس، الذي كان ذات يوم موظفاً من مرتبة دنيا في المكتب العربي في القاهرة، أصبح الآن من المشاهير بفضل جهود أميركي يدعي لويل توماس. وهذا الرجل، توماس، مقدم عروض ناشئ في الخامسة والعشرين من عمره، ومن أوهايو، وكان حتى ذلك الحين قد طرق الأبواب في أميركا الشمالية بحثاً عن الشهرة والثروة والمغامرة، واشتغل في عمل اضافي مدرّباً على القاء الخطب في الجموع، في مدينة برنستون، ثم وفر في نهاية عام 1917 مبلغاً من المال يكفي للسفر الى انكلترا ومنها قصد جبهة الحرب في الشرق الأوسط وبرفقته مصور، بحثاً قصة خيالية ذات لون محلي يمكنه تسويقها. والتقى لورنس يرتدي لباساً عربياً، فقرر أن يجعل منه بطل قصة مثيرة كان على وشك أن يكتبها - قصة العرب أتباع الحسين وفيصل ودورهم في الحرب ضد تركيا. وهذه القصة أرادها أن تكون الأساس لعرض مسرحي - تخضع فيها الحقيقة للقيم الترفيهية - وفي هذا العرض يقدم توماس صورة للورنس على أنه ملهم وقائد ثورة عربية دمرت الامبراطورية العثمانية.

كان العرض الذي قدمه توماس عبارة عن محاضرة مرفقة بالصورة، وعنوانه «الحملة الصليبية الأخيرة» وكان افتتاح العرض في مسرح سنشوري (مسرح القرن) في نيويورك، في آذار (مارس) 1919، بدعم من جريدة «غلوب» النيويوركية. وبعد بضعة أسابيع نقل العرض الى حديقة ميدان ماديسون، وهي مكان فسيح يتسع للجموع التي كان توماس يأمل في اجتذابها. ثم أن متعهداً انكليزياً عمل على نقل العرض الى لندن، حيث جرى تقديمه في أكبر القاعات: دار الأوبرا الملكية في (كوفنت غاردن) وقاعة (ألبرت هول).

لقد كان العرض تحفة فنية من حيث الجلبة الدعائية، وضرب رقماً قياسياً في مجال العروض. فقد استمر تقديمه في لندن ستة شهور وشاهده فيها نحو مليون انسان. ثم أخذ توماس يطوف بالعرض حول العالم. أن هذا

العرض جعل لويل توماس الشاب ثرياً ومشهوراً، وجعل من «لورنس العرب» بطلاً عالمياً<sup>[1041]</sup>.

صدق الجمهور رواية لويل توماس. وهكذا، حينما أصبح لورنسي مستشاراً لونسون تشرشل طغى تعيينه في منصبه على كل التعيينات الأخرى. وذاع صيته، وأجاز قصصه الخيالية على أنها تاريخ<sup>[1042]</sup>، وادعى لورنس في السنين التالية فضلاً لنفسه في انجازات تشرشل وزير المستعمرات تفوق ما يستحق.

ولكن تأثير لورنس غير المباشر على السياسة كان كبيراً، إذ أن تشرشل صدق روايته لأحداث الثورة العربية، لا سيما أن تشرشل كان يفتقر الى اطلاع شخصي على أحداث الثورة، لأنه لم يكن له ضلع في شؤون الشرق الأوسط خلال الحرب بعد عام 1916. وبسبب جهله لمدى مبالغة لورنس ومساعدتي لويد جورج في رواية الدور الذي قام به عرب فيصل في كسب الحرب، فقد كان تشرشل مستعداً لقبول اطروحة لورنس القائلة أن بريطانيا مدينة بالكثير لفيصل وأتباعه.

## (4)

منذ عام 1918 انقلبت آراء كثيرين من قادة بريطانيا ازاء الشرق الأوسط انقلاباً تاماً. ففي تلك الأيام الهوجاء، عندما كانت الحرب تدنو من نهايتها المضطربة، بدا أمراً هاماً الاستيلاء على كل بقعة من الشرق الأوسط والاستئثار بها ما دامت فيها فائدة استراتيجية. أما بعد عام 1919 فقد صج البرلمان والصحافة في المطالبة بالانسحاب من هذه المواقع النائية التي يكلف الاحتفاظ بها مبالغ طائلة [1043].

لقد تجاوب تشرشل مع المزاج السياسي المتغير، منذ اليوم الذي تسلم فيه منصب وزير الحربية ووزير الطيران في بداية عام 1919 [1044]. فلما انتقل الى وزارة المستعمرات في بداية عام 1921، جعل مرة أخرى من خفض النفقات أولويته الأولى. فقد أعلن بصفته وزيراً للمستعمرات: «أن كل شيء آخر يحدث في الشرق الأوسط هو ثانوي بالقياس الى تقليص النفقات» [1045]، فكان يختبر كل الاقتراحات والبرامج بهذا المقياس الذي يفوق كل مقياس آخر. أن الأرقام النهائية تبين لنا مقدار نجاحه: فمع حلول شهر أيلول 1922 كان تشرشل قد أنقص خمسة وسبعين بالمئة من نفقات بريطانيا الشرق أوسطية، أي من خمسة وأربعين مليون جنيه الى احد عشر مليون جنيه سنوياً [1046].

كان تشرشل محبذاً لمهادنة فرنسا - رغبة في توفير المال المترتب على معارضتها - وكان ميالاً إلى تنصيب فيصل وأشقائه - الأشراف، أو الهاشميين - حكاماً محليين لجانب كبير من العالم العربي، لأن ذلك يوفر لبريطانيا استراتيجية تتسم باقتصاد في النفقات: إذ أن هذه الاستراتيجية تمكن «حكومة جلالته من ممارسة الضغط على منطقة عربية لتحقيق أهدافها في منطقة أخرى» [1047]. كان اعتقاده أن توجيه الضغط الى أحد أفراد الأسرة يمكن بريطانيا من انتزاع تنازلات من سائر الأعضاء، فإذا حكم كل فرد من الأسرة مملكة، عندها يكفي أن تهدد بريطانيا احدى الممالك فقط لجعل سائر الممالك تعود الى الطاعة.

كان من حين إلى آخر يفكر في انسحاب جزئي أو كامل من الشرق الأوسط، وبتاريخ 8 كانون الثاني (يناير) 1921 أبرق الى المندوب السامي في بلاد الرافدين قائلاً أنه ما لم يكن حكم هذه البلاد ممكناً بكلفة أقل، فإن على بريطانيا أن تنسحب منها الى جيب ساحلي [1048]. وفي وقت آخر،



أخذ بما اعتقد انه اقتراح خرج به لويد جورج، فاقترح بدوره التخلي كلياً عن فلسطين وبلاد الرافدين الى الولايات المتحدة [1049].

وعندما قبل تشرشل منصب وزير المستعمرات، كتب الى رئيس الوزراء قائلاً: «أشعر ببعض المآخذ في ما يخص العواقب السياسية التي ستلحق بي نتيجة موافقتي على أن أخذ على عاتقي عبء ومعة ورطة بلاد الرافدين» [1050]. كان يحاذر أن يلام بسبب اخفاق سياسة بدأها آخرون، كما حدث له في حملة الدردنيل. ومن جهة أخرى، كان عكس طبيعته أن يأمر بتراجع تحت ضغط القوة، ولذلك كان توجهه أن تبقى بريطانيا في فلسطين وبلاد الرافدين، لأن عدم البقاء هو تفريط بالتزامات تعهدت بها بريطانيا، سواء أكانت هذه الالتزامات صواباً أم غير ذلك.

عندما شغل تشرشل منصب وزير المستعمرات، جاء معه الى الوزارة بمفهوم استراتيجي عريض لكيفية اخضاع الشرق الأوسط دون نفقات باهظة. فعندما كان وزيراً للحربية والطيران، اقترح تخفيض نفقات الشرق الأوسط بواسطة حكم بلاد الرافدين بالطائرات [1051] والسيارات المصفحة. وكتب في ذلك الحين أن بضع قواعد جوية محمية حماية جيدة سوف تمكن سلاح الجو الملكي «من القيام بمهامه في كل جزء من أجزاء المحمية وتطبيق السيطرة، في مكان أو آخر، دون الحاجة الى الاحتفاظ بخطوط مواصلات طويلة تستنفد الجنود والمال» [1052].

لقد أقر تشرشل أن هذه الاستراتيجية لن تحمي بلاد الرافدين من غزو، وأن غايتها الوحيدة هي «الحفاظ على الأمن الداخلي» [1053]. وهذا يعني أن تشخيص تشرشل لمتاعب بريطانيا في الشرق الأوسط، هو أن منشأ الاضطرابات منشأ محلي. وعندما اقترح تبني وضع عسكري قليل الفائدة في مواجهة الروس أو الألمان المستعدين قوتهم أو الأتراك، فقد كان اقتراحه يعني ضمناً اعترافه بأن التهديد الذي تواجهه بريطانيا في بلاد الرافدين ليس ناشئاً عن هذه الجهات [1054].

كانت استراتيجية تشرشل تنطوي ضمناً على مفهوم قديم العهد الامبراطورية مغايرة للرؤية المثالية التي كانت رؤية كل من سمطس، وايميري، وهوغارت، وتوماس ادوارد لورنس، تلك الرؤية التي كان لها دور في الايحاء الى بريطانيا بأن تسعى للسيطرة على آسيا العربية. كان لورنس لا يزال متشبيهاً برؤيا دومنيون شرق أوسطي عربي حر ينضم طوعاً إلى الكومونولث البريطاني شريكاً على قدم المساواة مع الأعضاء الآخرين. كانت له عبارة كثيراً ما استشهد بها إذ كتب في عام 1919 يقول: «أن

طموحي الشخصي أن يكون العرب أول دومنيون أسمر لنا وليس آخر مستعمرة سمراء لنا»[1055]. أما استراتيجية تشرشل الهادفة إلى قمع ثورة أهل البلاد، فكانت تدل على أن بريطانيا تبغي أن تحكم رعاياها العرب بالإكراه لا بالإقناع. وكانت هذه الاستراتيجية صدى لتجاربه في حملة كيتشنر في السودان ولسهولة اخضاع الأسلحة الأوروبية الحديثة سكاناً محليين مسلحين فقط بأسلحة تقليدية.

وقد استرشد في فرض استراتيجيته بتجربة أحدث، هي كارثة الدردنيل، حيث كان تقويض سياساته على أيدي مرؤوسيه في لندن وضباط قواته في الميدان، وهذا ما جعل تشرشل يتحمل عناء شديداً لجعل كبار المسؤولين في وزارته يشعرون أن برنامجه يبدأ بهم - وهي حيلة تدل على فطنة، إذا أخذنا في الحسبان المعارضة القوية من قبل وزارة الحربية والمندوب السامي في بلاد الرافدين لاستبدال الطائرات بالجنود.

قال تشرشل في برقية وجهها الى سير بيرسي كوكس، المندوب السامي البريطاني في بلاد الرافدين: «ان المسائل المطروحة لا تسوى بتبادل البرقيات. لا أستطيع أن أجد الوقت لزيارة بلاد الرافدين. لذلك أقترح عقد مؤتمر في مصر يبدأ في الأسبوع الأول أو الثاني من آذار (مارس)... ويستمر أسبوعاً. سوف يصحني كبار موظفي دائرة الشرق الأوسط في وزارة المستعمرات»[1056]. ثم استدعى تشرشل موظفي وزارته الموجودين في المنطقة من فلسطين والخليج الفارسي لموافاته في المؤتمر، وفي 18 شباط (فبراير) 1921 ارسل الملاحظات التي دونها بشأن بلاد الرافدين الى جون شاكبرو، وعهد اليه بمسؤولية محورية هي مسؤولية اعداد جدول أعمال المؤتمر حول بلاد الرافدين وفلسطين.

## (5)

كانت مصر التي وقع عليها اختيار تشرشل مكاناً لعقد المؤتمر، ملائمة جغرافياً وغير ملائمة سياسياً، فقد كان المصريون يعرفون شعور تشرشل أن مصر يجب ألا تنال الاستقلال. وفي 21 شباط (فبراير) 1921 كتب الى زوجته: «ان الشعب في مصر منفعل بسبب مجيئي، ويبدو أنهم في مصر يظنون أن لمجيئي علاقة بهم. وهذا، بطبيعة الحال، ظن خاطئ. ليست لي مهمة في مصر ولا سلطة لي لمعالجة أية مسألة مصرية. يجب أن أوضح ذلك تمام الايضاح، وإلا فانهم سيزعجوننا بالمظاهرات والوفود» [1057].

غير أن اللبني، الذي كان آنذاك المندوب السامي البريطاني في مصر، لم يصدر نفياً رسمياً لقدم تشرشل من أجل التشاور في شؤون مصرية. أما وزير الخارجية، اللورد كورزون، فقد وجه الى تشرشل رسالة مكتومة في 24 شباط (فبراير) يحثه فيها على نقل مكان المؤتمر الى القدس. وقال كورزون ان وجود تشرشل في القاهرة قد يسيء في لحظة دقيقة إلى جهود اللبني والحكومة المصرية الرامية إلى التوصل الى اتفاق. بيد أن تشرشل أبي أن يغير ترتيباته [1058].

وهكذا انعقد مؤتمر القاهرة حسب الخطة المرسومة، ولكن مكان انعقاده أظهر التباين الحاد بين السياسة التي يتبعها تشرشل وتلك التي يناهز بها اللبني: كان تشرشل يخطط للوقوف في وجه القومية العربية، ولم يكن هذا موقف اللبني. ان اللبني، بالرغم من وزن الرأي السائد في مجلس الوزراء، وخلافاً لرغبات رئيس الوزراء ورغبات تشرشل - وانسجاماً مع توصيات كان قد تقدم بها سابقاً اللورد ميلنر - ثابر في جهوده لإعطاء مصر قسطاً من الاستقلال بواسطة وضع نهاية للحماية البريطانية على مصر.

تغلب رأي اللبني بعد أن هدد بالاستقالة، فأصدرت الحكومة البريطانية من جانب واحد، ما اعلان اللبني في 28 شباط (فبراير) 1922، الذي أقر باستقلال مصر رسمياً (ولكن مع تحفظات بعيدة المدى، من بينها تمكين بريطانيا من الاشراف على سياسة مصر الخارجية واستخدامها بغير قيود أرض مصر للقيام بتحركات عسكرية). كان اللبني يفضل عقد معاهدة على اعلان أحادي الجانب. ولكن ما من حكومة مصرية كانت مستعدة للموافقة على وثيقة تحتفظ لبريطانيا بمثل هذا العديد من السلطات.

ويظهر أن تشرشل خشي أن يؤدي اقرار اللبني باستقلال مصر، ولو كان استقلالاً اسمياً، إلى هدم سياسته الرامية إلى الاحتفاظ بالبلدان الأخرى الناطقة بالعربية. وقد حدث بمصادفة جغرافية أن وضعت تفاصيل سياستي

اللنبي وتشرشل في مدينة القاهرة، فكان بينهما شبه في المضمون، إذ كانتا  
كلتاهما تمثلان قرارات بريطانية متخذة من جانب واحد بشأن كيفية إدارة  
العالم العربي - ولم يوافق القادة العرب على أي منهما.

## (6)

انعقد مؤتمر القاهرة رسمياً في فندق سميراميس صباح السبت 12 آذار (مارس) 1921. وخلال الأيام التي تلت هذا التاريخ، عقدت أربعون أو خمسون جلسة. وبحسب أحد الاحصاءات، حضر المؤتمر أربعون مسؤولاً. لقد كتب توماس ادوارد لورنس الى أخيه الأكبر قائلاً: «كل من له علاقة بالشرق الأوسط موجود هنا» [1059].

كان الموضوع الأول - والرئيس - في المؤتمر، هو كيفية تخفيض أكلاف احتلال بلاد الرافدين وقد انبثقت عن المؤتمر لجنتان لدراسة المسألة، احدهما سياسية والثانية عسكرية، وكان عمل اللجنتين يجري على أساس جدولي اعمال اعدهما تشرشل ومعاونوه في الباخرة وهم في طريقهم لحضور المؤتمر. وخصصت اللجنتان أيامهما الأربعة الأولى للعمل من أجل اعداد خطة بشأن بلاد الرافدين.

كان تشرشل ومعاونوه بحذقهم، قد توقعوا المشورة التي يتقدمها المسؤولون العاملون في المنطقة. وقد كتبت في ما بعد جيرترود بل، التي جاءت من بغداد مع رئيسها سير بيرسي كوكس، «ان تشرشل مثير للإعجاب، وعلى أتم استعداد لمقابلة كل شخص في منتصف الطريق، وكان أيضاً أستاذاً في ادارة لقاء سياسي كبير وفي توجيه اللجان الصغيرة التي تفرعت عن المؤتمر. ولم يكن أقل الظروف ملائمة لنا أن نجد، سير بيرسي وأنا، وقد جئنا ببرنامج محدد، أن ما جئنا به يتفق تمام الاتفاق» مع ما اقترحه تشرشل [1060].

مساء 15 آذار (مارس) أرسل تشرشل برقية وصلت الى لندن في اليوم التالي، أبلغ فيها رئيس الوزراء: «ان جميع السلطات توصلت الى اتفاق بشأن جميع النقاط، السياسية منها والعسكرية» [1061]. كان هذا في حد ذاته انجازاً عظيماً.

في الأساس كان في خطة مؤتمر القاهرة أربعة عناصر، أحدها أن يعرض عرش بلاد الرافدين على فيصل، مع بذل كل جهد لجعل العرض يبدو وكأنه جاء من السكان أهل البلاد وليس من بريطانيا. ومن أجل المحافظة على وجود بريطاني في البلاد، ينبغي للعسكريين أن يأخذوا باستراتيجية قواعد سلاح الجو التي اقترحها تشرشل، ولكن - بما أن قائد سلاح الجو، سير هيو ترنشارد، قدر المدة اللازمة لتنفيذ هذه الاستراتيجية بعام - فيجب على بريطانيا أن تزيد من اعتمادها على فيصل في المحافظة على الهدوء في البلاد خلال تلك المدة. ومع أن الخبراء البريطانيين كانوا على خلاف شديد

في ما بينهم بشأن استيعاب المناطق الكردية [1062] في شمال غرب العراق في دولة العراق الجديدة أو جعلها بدلاً من ذلك كردستان مستقلة، فقد كان الاتفاق بينهم مؤقتاً على بقاء هذه المناطق كياناً منفصلاً ضمن سلطة المندوب السامي البريطاني في بلاد الرافدين. وإضافة إلى الأكراد، هناك جماعات أخرى ذات هوية متميزة ولها احتياجات تطرح مشاكل. فهناك خصوصاً في الشمال الغربي جماعات صغيرة ليس أمامها مكان تقصده، ومن هذه الجماعات المسيحيون الآشوريون (النساطرة) الذين طردوا من بيوتهم في تركيا خلال الحرب بسبب تعاطفهم مع الحلفاء. وقد شعر أعضاء مؤتمر القاهرة أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً يذكر لهذه الجماعات المشردة المكافحة من أجل البقاء.

أما وقد اختار مؤتمر القاهرة حلاً هاشمياً للعراق، فقد فعل الشيء عينه - ولكن على أساس مؤقت لشرق الأردن. كانت منطقة شرق الأردن موبوءة بالاضطراب، وكان رأي رئيس هيئة أركان قوات الامبراطورية أن بريطانيا لا تستطيع البقاء فيها، إذا لم ترسل فوجين إضافيين «وهما بطبيعة الحال غير متوافرين» [1063]. وعندما كان المؤتمر يعقد جلساته في القاهرة، وصلت أنباء مفزعة مفادها أن عبد الله، شقيق فيصل، وصل إلى مدينة عمان في شرق الأردن، يصحبه ثلاثون ضابطاً ومئتا بدوي، والظاهر أنه كان في طريقه إلى سورية لمهاجمة دمشق. ولكن عبد الله ادعى أنه جاء إلى عمان لتغيير الهواء واستعادة عافيته بعد أن أصيب باليرقان. ولم يصدق أحد روايته.

كان الحل الذي ارتآه تشرشل، في الواقع، هو استمالة عبد الله: أن يعرض عليه منصباً في شرق الأردن إذا ما امتنع عن مهاجمة سورية الفرنسية. (نتذكر هنا أن بريطانيا كانت تخشى أن ينتقم الفرنسيون بمهاجمة فلسطين البريطانية إذا هاجم العرب الفرنسيين في سورية منطلقين من أرض فلسطين البريطانية). والمنصب الذي رأى تشرشل أن يعرضه على عبد الله هو منصب حاكم مؤقت مكلف باستعادة النظام. وكان تشرشل يأمل في أن يحقق أهدافاً أخرى من خلال الاستفادة من عبد الله في استعادة النظام في شرق الأردن. لقد حضر تشرشل معه إلى مؤتمر القاهرة مذكرة أعدها معاونوه في نهاية شباط (فبراير) وهي تعالج مطالب العرب واليهود في فلسطين. كانت المذكرة من إعداد شاكبرو ويونغ ولورنس، وكان تفسيرها للتعبير الجغرافية المستخدمة في مراسلات مكماهون - الحسين عام 1915 أنها تعني أن منطقة الاستقلال العربي، لن تمتد غرباً إلى ما بعد نهر الأردن. وبما أن إعلان بلفور لم يتضمن أي تحديد جغرافي، فقد استنتج مستشارو تشرشل أن بريطانيا تستطيع أن توفق توفيقاً تاماً بين تعهداتها في زمن الحرب، وأن تفي بهذه التعهدات، إذا أقامت وطناً قومياً يهودياً في

فلسطين غربي نهر الأردن، وكياناً عربياً منفصلاً في فلسطين شرقي نهر الأردن [1064]، وبإمكان عبد الله، في حال تنصيبه في مركز ذي سلطة في شرق الأردن، أن يكون على رأس انشاء هذا الكيان العربي.

ظهرت في مؤتمر القاهرة عدة اعتراضات هامة على خطة تشرشل المتعلقة بشرق الأردن، فقد أشار سير هيربرت صامويل، المندوب السامي في فلسطين، وسكرتيره العام، ويندهام ديدز، الى أن عصبة الأمم أدخلت شرق الأردن في منطقة فلسطين (وعصبة الأمم كانت تعرض على بريطانيا أن تكون دولة الانتداب على المنطقة) فليس مسموحاً لبريطانيا منفردة أن تفصل شرق الأردن عن بقية أرض فلسطين. ان ما كان يخشاه صامويل هو أن تستخدم منطقة شرق الأردن العربية المنفصلة قاعدة للتحريض على الأعمال المعادية للصهيونية في غرب فلسطين [1065]. وأعرب لويد جورج عن خوف آخر، فإن ما أقلقه هو أن يرى الفرنسيون - الذين كان فيصل بالنسبة لهم شخصاً غير مرغوب فيه - أن رعاية بريطانيا لشقيقين هاشميين - أحدهما في بلاد الرافدين والآخر في شرق الأردن، والمنطقتان كلتاهما على عتبة سورية عملاً استفزازياً. وقد أرسل رئيس الوزراء برقية إلى تشرشل في 22 آذار (مارس) ذكر فيها: «إن مجلس الوزراء... بحث اقتراحاتك بشأن شرق الأردن وكانت هناك مأخذ كثيرة عليها. ان هناك شعوراً بأن تنصيب شقيقين في الوقت نفسه في منطقتين ملاصقتين لمنطقة النفوذ الفرنسي، سوف ينظر اليه من قبل الفرنسيين بكثير من الريبة وسوف يفسرونه بأنه خطر على وضعهم في سورية، وسيعتقدون اننا خططنا له عمداً» [1066].

كان رئيس الوزراء يتفهم الأسباب التي حدثت بونستون تشرشل أن يقترح «حلاً عربياً لا فلسطينياً» لمشكلة شرق الأردن [1067]، ولكنه خاف أن تؤدي أية محاولة لإقامة كيان عربي منفصل شرقي نهر الأردن، الى زج بريطانيا في ارتباطات وورطات جديدة مكلفة.

لقد نجح تشرشل في اقناع مجلس الوزراء انه لا يمكن اقامة أية حكومة اطلاقاً في شرق الأردن من دون ارسال قوة عسكرية بريطانية، صغيرة على أقل تقدير، الى المنطقة. وأشار الى أنه من غير المتوقع أن يبقى عبد الله في البلد أكثر من بضعة شهور، ولكن عبد الله يمكنه على أساس تجريبي أن يساعد في تثبيت النظام، ثم يساعد في اختيار شخص من أهل البلد ليشغل منصب الحاكم. لقد وافق تشرشل على الأخذ بفكرة الحل الوسط التي يطرحها لويد جورج بشأن شرق الأردن: «مع الاحتفاظ بالطابع

العربي للمنطقة وإدارتها، فتُعامل على أنها محافظة عربية أو أنها ملحقة بفلسطين» [1068].

كانت وجهة نظر تشرشل أن عبد الله سيساعد على ضبط الحركات المعادية لفرنسا والصهيونية، وإلا فإن هذه الحركات ستقيم مقرها في شرق الأردن. كان رأيه أن الحل الهاشمي يساعد على حل هذه المشاكل ولا يؤدي (كما يقول النقاد) إلى خلقها. وقد رأى توماس لورنس أن عبد الله يصلح أن يكون وكيلاً مثالية لبريطانيا في المنطقة لأنه «شخص لا يتمتع بسلطة كبيرة، وليس من أهل شرق الأردن، ولكنه يعتمد على حكومة جلالته في الاحتفاظ بمنصبه» [1069].

كانت هناك مشكلة أخيرة في رد فعل آل سعود المنافسين للهاشميين، إزاء هذا الارتقاء بآل هاشم ومنحهم تكريماً جديداً. وكان الحل الذي اقترحه تشرشل هو رفع الدعم المالي لابن سعود إلى 100 ألف جنيه سنوياً [1070].

اختتم مؤتمر القاهرة جلساته في 22 آذار (مارس)، وعند منتصف ليل 23 آذار (مارس) غادر تشرشل القاهرة بالقطار إلى فلسطين. ولدى وصوله عقد أربعة اجتماعات مع عبد الله وتوصل إلى اتفاق معه. قال تشرشل في مذكرة أعدها المجلس الوزراء: «إن موقف عبد الله كان معتدلاً وودياً وأشبه بموقف رجل دولة»، وموقفه من المتظاهرين العرب المعادين للصهيونية «موقف صحيح بالمطلق، فهو يؤنب المتظاهرين، ويقول إن البريطانيين أصدقاؤه، وأن الحكومة البريطانية ستفي بوعودها لليهود والعرب على السواء» [1071]. وقد وافق عبد الله على أن يحكم شرق الأردن ستة أشهر، وأن يتلقى النصح من ضابط بريطاني بصفته كبير الضباط السياسيين، مع دعم مالي بريطاني، ولكن دون قوات بريطانية. ووافق أيضاً على المساعدة في إنشاء القواعد الجوية التي، وفقاً لخطة تشرشل، سيرتكز عليها الإشراف البريطاني في نهاية المطاف.

كانت آمال بريطانيا المباشرة المعلقة على عبد الله في تهدئة الأردن، لا تقل عن آمالها المعلقة على فيصل في تهدئة العراق. ومن كاب ديل، في الريفييرا الفرنسية، حيث توقف تشرشل في طريق العودة إلى الوطن، كتب إلى اللورد كورزون قائلاً: «لقد تبين لي أن عبد الله قد انحاز كلياً إلى أسلوبنا في معالجة المشكلة العربية. أمل ألا يحز أنصاره عنقه. إنه شخص مهذب ومحبب إلى النفس» [1072].



ضمن تشرشل لدى عودته الى لندن تأييد مجلس الوزراء ومجلس العموم لسياسته الشرق أوسطية. وبما أنه كان قد ضمن في القاهرة تأييد الموظفين البريطانيين في المنطقة، فقد حظي بدعم قيادة بلده مؤقتاً على أقل تقدير - في محاولته أن يفرض مخططه الجديد على الشرق الأوسط. ولكن جريدة «التايمز» أشارت في 15 حزيران (يونيو) 1921 الى وجود «جوغير مريح، هو جو قلب الأمور عاليها سافلها في البنية التي يسعى إليها»، وأشارت الى أن محاولته الذكية للتوفيق بين المطالب المتضاربة واعطاء شرعية لمطالب دون أن تتوافر لديه الامكانيات لتحقيق ذلك، قد قادت الى القبول باسم بريطانيا، بأعباء طارئة لا يمكن الوفاء بها عندما يحين وقت سدادها.

في أثناء ذلك، وفيما كان مؤتمر القاهرة يقترب من نهايته، كان المسؤولون البريطانيون يستعدون الادارة المسرح لعملية اختيار فيصل ملكاً لدولة العراق التي كانت على وشك أن تخرج الى حيز الوجود، على أن يبدو الأمر وكأن فيصل قد اختير اختياراً حراً وعفوياً من قبل شعوب العراق.

وكان المسؤولون البريطانيون قد تلقوا ما يطمئنهم الى أن فيصل مستعد للتعاون.

## (7)

قبل أن يتسلم تشرشل منصب وزير المستعمرات، استغل العلاقة الوثيقة بين توماس ادوارد لورنس وفيصل من أجل التعرف الى وجهات نظر فيصل. كان لورنس قد أبلغ سكرتير تشرشل الخاص في منتصف كانون الثاني (يناير) أن فيصل مستعد للدخول في مباحثات مع بريطانيا دون أي ذكر لسورية التي احتلتها فرنسا، وأن فيصل وافق على التخلي عن كل مطالب والده في فلسطين. وكتب لورنس: «إن فائدة هذه الأرضية الجديدة التي يقترحها للمباحثات، هي أن كل مسائل التعهدات والوعود، ما تم الوفاء به منها وما حثنا به، ستكون ملغاة، وستبدؤون معه بحثاً جديداً يتناول المواقف القائمة فعلاً الآن وخير السبل للقيام بعمل بناءً انطلاقاً منها» [1073].

في أثناء انعقاد مؤتمر القاهرة، أعدّ لورنس، وكوكس، وجيرترود بل، وغيرهم من أعضاء اللجنة السياسية، جدولاً زمنياً لترشيح فيصل لعرش العراق. كانت خطتهم تقضي بأن يسافر فيصل الى مكة ومنها يرسل برقيات الى كبار الشخصيات في العراق، وأن يقول في برقياته ان أصدقاء له قد حثوه على الذهاب الى العراق، وانه بعد أن تداول في الأمر مع والده وأشقائه، قرر أن يعرض خدماته على شعب العراق.

لدس انفضاض مؤتمر القاهرة، أرسل لورنس برقية عاجلة الى فيصل، الذي كان في لندن، قال فيها: «الأمر سارت بالضبط كما كنا نأمل. أرجو التوجه في الحال الى مكة بأسرع وسيلة ممكنة... سألتقيك على الطريق وأشرح لك التفاصيل. لا تقل شيئاً سوى أنك ذاهب لتقابل والدك، ولا تعطِ بآية حال أي تصريح للصحافة» [1074].

في الوقت نفسه تقريباً، تسلم سير بيرسي كوكس رسالة مزعجة من الضابط الذي أوكل اليه الأمور في بغداد. قالت الرسالة: «منذ رحيلك تبدل الوضع تبدلاً كبيراً». ان سيد طالب، الزعيم السياسي الكبير في البصرة، توصل الى اتفاق مع النقيب، وجيه بغداد الكبير المتقدم في السن، وبموجب هذا الاتفاق يساند أولهما ترشيح الثاني لقاء اعطائه فرصة في خلافته. أن كليهما «يطالبان بأن يكون حاكم العراق عراقياً. وثمة مؤشرات تدل على أن هذا المطلب يلقي قدراً كبيراً من التأييد، ولا ريب عندي في أن ترشيح فيصل سيواجه مقاومة شديدة» [1075]. سارع كوكس للعودة إلى بغداد لاقتناع المرشحين المتنافسين بالانسحاب من المنافسة - وأحد هؤلاء المتنافسين هو ابن سعود، المعارض على ترشيح أحد الهاشميين، ولكنه استرضي بالمال وغير ذلك صنائع المعروف البريطانية.

في أثناء ذلك جال سيد طالب في العراق. والتقى زعماء العشائر وألقي خطباً في الجماهير، مؤكداً.

الحاجة الى التعاون مع بريطانيا ومردداً في الوقت عينه أن شعاره هو «العراق للعراقيين!» [1076]، وجاء في تقارير ضباط المخابرات البريطانية المتسمة بالفرع ان طالب يلقي «استقبالاً رائعة حيثما ذهب» [1077]. كان سيد طالب قد تلقى دعوة مضي على تسلمه اياها وقت طويل، لحفلة شاي في منزل بيرسي كوكس في بغداد في منتصف نيسان. وعند وصوله، وجد اعتذاراً من كوكس عن عدم وجوده في منزله، تاركاً زوجته للاهتمام بالضيوف. فلما غادر طالب المنزل بعد حفل الشاي، اعتقله أحد الضيوف المدعويين معه الى منزل كوكس، بأمر من سيربيرسي كوكس، مضيفه الغائب عن منزله.

ثم نفي طالب الى جزيرة سيلان في المحيط الهندي. في اليوم التالي لاعتقال طالب، أعلن سيربيرسي انه أمر بعملية النفي حفاظاً على القانون والنظام في مواجهة تهديد طالب بالتحريض على العنف [1078].

بالرغم من ذلك استمرت المقاومة لترشيح فيصل، ولكنها اتخذت أشكالاً أخرى. فقد كانت هناك اقتراحات مختلفة، أحدها يدعو لقيام جمهورية، وآخر يدعو الى تعيين حاكم تركي، وثالث لابقاء ولاية البصرة منفصلة عن ولاية بغداد، ورابع لابقاء الأمور على حالها تحت ادارة سير بيرسي كوكس بصفته مندوباً سامياً.

في هذه الأثناء سافر فيصل، بتوجيه من مستشارية البريطانيين (بناء على طلبه)، من لندن الى الحجاز، حيث سوى الأمور مع والده، ومن ثم غادر، على نفقة بريطانيا الى البصرة، فنزل الى البر في 24 حزيران (يونيو). وخلال وجوده على المركب، تلقى النبأ السار ان القيادة الرسمية في العراق - مجلس الوزراء في بغداد برئاسة النقيب - قد دعت ضيفاً على الأمة.

جهاراً، استمرت الحكومة البريطانية متمسكة بالقصة الخيالية الرسمية، أي أنها محايدة وغير منحازة. وفي السر، كان كوكس يطلب الى فيصل أن يخرج ويقوم بحملة لكسب التأييد الشعبي لكي تتمكن بريطانيا من الادعاء انها قبلت قرار الشعب [1079].

في 11 تموز (يوليو) وافق مجلس الوزراء بالاجماع، على قرار يعلن فيصل ملكاً دستورياً للعراق.

وفي 16 تموز (يوليو) سمح المجلس باجراء استفتاء للموافقة على خياره، وفي 18 آب (أغسطس) أعلنت وزارة الداخلية أن فيصل حقق نصراً كاسحاً في الاستفتاء الذي يتطلب الاجابة بـ «نعم» أو «لا». وفي 23 آب (أغسطس) كان الاحتفال بتتويج فيصل، وحلت تسمية «العراق» محل «بلاد الرافدين» لمملكة فيصل الجديدة.

غير أن فيصل بدأ حتى قبل تتويجه، يزعج البريطانيين باصراره على الاستقلال الرسمي واعتراضه على انتداب عصبة الأمم، الذي كان وصاية. واقترح تحديد العلاقات بين العراق وبريطانيا بمعاهدة بين البلدين. فادعى البريطانيون انهم لا يملكون حقاً شرعياً لتغيير وضع العراق من دون تفويض من عصبة الأمم، لكنهم وافقوا على التفاوض بشأن معاهدة ما دامت المعاهدة تأتي على ذكر الانتداب. وقد اعترض فيصل على تضمين المعاهدة أية اشارة الى الانتداب، وهكذا استمرت المفاوضات أكثر من سنة، مسببة الغضب والأسى في لندن.

في أواخر صيف عام 1922 كتب تشرشل الى لويد جورج قائلاً: «ان فيصل يلعب معنا لعبة دينئة جداً وغادرة» [1080]. وقال تشرشل لرئيس الوزراء انه وزملاءه الوزراء يجب أن يجتمعوا لبحثوا الوضع ويقرروا هل يعزلون فيصل، أو هل تنسحب بريطانيا من العراق. وبعد بضعة أيام، قال تشرشل في اجتماع لأعضاء مجلس الوزراء:

«ان الملك فيصل يخلق صعوبات كبيرة ويربك الوضع في العراق. لقد اعترض على الانتداب ولكنه أبدى استعداداً للموافقة على معاهدة، غير أنه ليس مستعداً للاعتراف بالانتداب كأساس لها لأنه يرى في نظام الانتداب لطفة للعراق. وما من حجة أثمرت معه، ومؤخراً استمال المتطرفين الذين يعتبرونه الآن ولي أمرهم» [1081].

بعيد ذلك، كتب تشرشل الى رئيس الوزراء قائلاً: «أشعر بقلق عميق بشأن العراق. المهمة التي ألقيتها على عاتقي أصبحت في الواقع مستحيلة». وقال: «يندر أن تجد صحيفة واحدة - سواء أكانت من صحف المحافظين أم الأحرار أم العمال» «غير معادية باستمرار» لبقاء بريطانيا في العراق. وأضاف: «من صميم قلبي لا أرى ما الذي نستفيد منه العراق» [1082]. واقترح أن نرسل انذاراً نهائياً الى فيصل، فإذا لم يقبله «سأترك البلاد فعلاً» [1083].

ورد رئيس الوزراء قائلاً: «وفقاً للمبادئ العامة، أنا ضد سياسة الهروب، في العراق أو في أي مكان آخر...» [1084]. وأشار أيضاً الى الاعتقاد

السائد باحتمال اكتشاف احتياطي كبير من النفط في المنطقة: «إذا تركنا البلد فقد نجد بعد عام أو عامين أننا سلمنا الفرنسيين والأميركيين حقلاً من أغنى حقول النفط في العالم...»[1085].

ولذلك ثابر سير بيرسي كوكس على المفاوضات. وبعد أن جرت عدة أزمات سياسية دراماتيكية في مجراها، أفلح في عقد معاهدة، في 10 تشرين الأول (أكتوبر) 1922، تضمنت العديد من الأحكام الهامة للانتداب. كان مقرراً أن تستمر المعاهدة عشرين عاماً، ولكن نتيجة للمعارضة في العراق، جرى بعد نصف سنة تعديلها بانقاص مدتها من عشرين عاماً إلى أربعة أعوام، مع ذلك استمر الهيجان العراقي من أجل استقلال أوفي، بينما تدمرت جريدة «التايمز» في لندن، لأن المعاهدة ليست منصفة لبريطانيا، إذ فرضت عليها عبء التزامات أثقل من أن تحتمله.

والحقيقة هي أنه كان مطلوباً مباشرة من بريطانيا أن تحمي العراق من قوة ابن سعود المتنامية.

أن هذا العاهل العربي، العدو بالسلالة للهاشميين، كان يهدد فيصل وأخاه عبد الله. وقد شعرت الحكومة البريطانية أنها ملزمة بحمايتهما. وفي نهاية عام 1922، وفي اجتماع عقد في مرفأ يدعى عقير، فرض سير بيرسي كوكس على ابن سعود اتفاقية تحدد حدود المملكة السعودية مع الكويت والعراق.

أن السياسيين العراقيين، بالرغم من حاجتهم الى الحماية البريطانية، نشطوا لتثبيت وضعهم.

لقد كانت المعاهدة الانكليزية - العراقية لعام 1922، شأنها شأن اعلان اللبني عن استقلال مصر رسمياً في العام نفسه، دليل تبدل في المناخ السياسي للشرق العربي[1086][1087][1088]. فلم تمنح مصر ولا العراق أكثر من حكم ذاتي محدود، ومع ذلك كان معترفاً بهما كيانين يتمتعان بكل مؤهلات الدولة، وفي كلا البلدين كان الزعماء السياسيون يهيجون النفوس من أجل الاستقلال، ولم يكن الملكين اللذين عينتهما بريطانيا الاحتفاظ بمنصبيهما الا باتباع الأسلوب نفسه.

## (8)

ظل شرق الأردن، شأنه شأن العراق، موضوع قلق في وزارة المستعمرات. ولكن في حين بدا

فيصل ممعنا في استقلاليته، بدا عبد الله ممعناً في الخمول. لم يصمد الحل الهاشمي لمشاكل شرق الأردن.

أحد أسباب استخدام عبد الله من قبل بريطانيا، هو الحجة القائلة أن استخدامه يردعه عن مهاجمة سورية الفرنسية. وادعى لورنس في ما بعد أنه طمأن تشرشل قائلاً: «أنا أعرف عبد الله. لن تجد حاجة إلى إطلاق رصاصة واحدة» [1089]. لقد كان هذا الأمير العربي الأريب والخامل لا يميل عادة إلى زج نفسه في اختبارات قوة. فلم تمض أسابيع على استخدام عبد الله حاكماً مؤقتاً، حتى بدأ المراقبون البريطانيون يستنتجون أنه أضعف من أن يحكم. وظهر التحدي لسلطته في شهر نيسان (أبريل) عندما أرسل مندوبين عنه للتوسط في خلاف عشائري فكان مصير مندوبيه القتل. وعوضاً عن سحق الفتنة بنفسه، ناشد المندوب السامي البريطاني أن يقوم بسحقها. وقد استجاب المندوب السامي بإعطائه الإذن باستخدام الطائرات والسيارات المصفحة، علماً أن تنصيب عبد الله في عمان كان أساساً لتجنب الحاجة إلى استخدام القوات المسلحة البريطانية.

في الوقت نفسه تقريباً، قدم سفير فرنسا في لندن احتجاجاً على وجود عبد الله في شرق الأردن قائلاً أن وجوده يمثل تحريضاً على العنف ضد الفرنسيين في سورية. وكان الرد البريطاني أن الأمر عكس ذلك، وأن عبد الله يمنع حدوث هذا العنف. وسرعان ما ظهر أنه عاجز أو غير مستعد لأن يمنع هذا العنف. ففي أواخر حزيران (يونيو) كمن أربعة رجال وحاولوا اغتيال الجنرال هنري غورو، الفاتح الفرنسي وحاكم سورية. والمعلومات التي تلقاها تشرشل من المندوب السامي البريطاني في فلسطين هي: «إن الشبهة تقع على أهالي شرق الأردن» [1090]. وقدمت السلطات الفرنسية احتجاجاً على اخفاق بريطانيا وعبد الله في منع مثل هذه الهجمات. وزاد احتجاج السلطات الفرنسية عندما شوهد القتل المزعومون يتجولون بحرية في شرق الأردن.

لم يكن المندوب السامي البريطاني مرتاحاً إلى نتائج تجربة عبد الله، ونقل شعوره هذا إلى تشرشل في شهر حزيران (يونيو)، فأبلغ تشرشل أن أحد الأسباب العديدة للسخط الشعبي هو أن أهالي شرق الأردن ينظرون إلى شركاء عبد الله السوريين على أنهم مبذرون وعديمو الكفاءة [1091]. وفي

الوقت نفسه كتب القائد العام للجيش البريطاني في مصر وفلسطين: «إن عبد الله شرق الأردن هو انسان مخادع... وإذا شئنا أن نجعل منه شيئاً نافعا فيجب أن نعطيه رجلاً انكليزياً كفواً وقوياً يقوم بتسيير كل أموره، وقوات بريطانية لدعمه» [1092].. وبعد ذلك قال هيوبرت يونغ في تقرير الى شاكبرو: «إن ما نواجهه هو إما أن نستمر في الإنفاق على عبد الله الذي تردى نفوذه الى حد التلاشي تقريباً، والذي لم يعد بديلاً حتى لوحدة صغيرة من المشاة، أو أن نتحلى بالشجاعة فنرسل قوة صغيرة الى ذلك البلد. ولو مؤقتاً...» [1093].

كان لورنس الوحيد في الحكومة البريطانية الذي ظل آنذاك يرى من الناحية العملية، مجالات للافادة من عبد الله في شرق الأردن - ولو انها مجالات مؤقتة. «إن مجموع كلفته يقل عن كلفة فوج واحد. ونظام حكمه لايسبب لنا أية اساءات، بغض النظر عن الحل النهائي الذي ننفذه، بشرط ألا يتمتع بشعبية كبيرة وألا يكون بالغ الكفاءة» [1094]. وبما أن الحكومة البريطانية لم تكن بعد قد حزمت أمرها بشأن فصل شرق الأردن بصورة دائمة عن فلسطين - إما بجعله كياناً قائماً بذاته، أو بالسماح للملك حسين بضمه الى الحجاز - فإن الفكرة القائلة ان نظام حكم عبد الله الموقت يؤخر ساعة الحسم، كانت فكرة جذابة. بيد أن ادعاء لورنس أن الحل المستند الى بقاء عبد الله هو الحل الأقل كلفة، كان يمثل الحجة التي تستهوي ونستون تشرشل أكثر من غيرها.

أظهر عبد الله عزمه على مساعدة بريطانيا، بتوقيعه على معاهدة انكليزية - هاشمية أحضرها لورنس معه الى الشرق الأوسط. لقد جاء لورنس بصفته ممثل تشرشل المطلق الصلاحية، وأمضى شهوراً في الحجاز محاولاً اقناع الملك حسين بالتوقيع على المعاهدة. كانت الغاية من المعاهدة أن تكون تسوية شاملة لكل المطالب التي تقدم بها الحسين لنفسه وللعرب منذ الأيام الأولى للحرب العالمية الأولى. وتضمنت أحكام المعاهدة تأكيداً، لاعتراف بريطانيا به ملكاً للحجاز، وستدفع له معونة سنوية مقدارها 100,000 جنيه، ومقابل ذلك تطلب إليه الاعتراف بالانتداب الفرنسي على سورية والانتداب البريطاني على فلسطين. كان الحسين يقول أحياناً أنه سيوقع على المعاهدة، ثم يبدل رأيه. ويقول لورنس ان الحسين طلب في وقت ما: «الاعتراف بسيادته على سائر الحكام العرب في كل مكان» [1095]. وكان اعتقاد لورنس ان هذا الرجل الطاعن في السن في مكة، أصبح التعامل معه مستحيلاً. وقد حصل لورنس على توقيع عبد الله، ولكن رفض الحسين التوقيع على المعاهدة، جعلها بلا معنى. مع ذلك يبدو أن لورنس كان شاكراً لعبد الله محاولته. أن يكون نافعا.

بعد مضي بضعة شهور على توليه منصب حاكم شرق الأردن، أخذ عبد الله يغير رأيه بشأن خطط المستقبل. كان في أول الأمر قد أوحى للبريطانيين أنه ينوي البقاء مدة قصيرة في شرق الأردن، لأن المنطقة غير هامة له نسبياً، نظراً لطموحاته الكبيرة في أماكن أخرى. غير أن لورنس أبلغ رؤسائه في تشرين الأول (أكتوبر) 1921 أن عبد الله عازم على البقاء. لقد كان عبد الله طامحاً إلى اعتلاء عرش سورية، والظاهر أن تطورات جديدة شجعتة على الاعتقاد بأن فرنسا قد تكون مستعدة للتفاوض على مصالحة تتيح له تحقيق هدفه. ولذلك مال إلى البقاء على مقربة من سوريا.

في الوقت نفسه لم تعد الحاجة ملحة لاستبدال حاكم أكثر فعالية بعبد الله. ذلك أن سانت جون فيلي، وهو شخصية بريطانية ذات بأس - واحد كبار مستكشفي شبه الجزيرة العربية - أصبح المستشار الرسمي الجديد لعبد الله. وأهم من ذلك، أن صديق لورنس، الكولونيل ف. بيك، بدأ في تشكيل قوة بدوية من جنود نظاميين بقيادة بريطانية، وأصبحت هذه القوة لاحقاً - بقيادة خلفه، جون غلوب - الجيش العربي المرهوب. وبدأ أن وضع القانون والنظام يتحسن وفقاً للخطوط التي رسمها لورنس، أي من دون انفاق مبلغ اضافي كبير من المال. وبدأ لورنس يعتقد أن بقاء عبد الله هو، في نهاية المطاف، فكرة حسنة.

ولكن مساندة عبد الله - القادم من شبه جزيرة العرب - كحاكم لشرق الأردن، والمحافظة على شرق الأردن كمحمية عربية لا يستطيع اليهود الاستيطان فيها لاقامة وطنهم القومي، يعنيان الخروج على سياسة اعلان بلفور التي تقضي بتشجيع الوطن القومي اليهودي. فإذا كانت بريطانيا عازمة عزمًا حقيقياً على جعل فلسطين بلداً يهودياً، فلن يكون بداية ميمونة، منع اليهود من الاستيطان في خمسة وسبعين بالمئة من البلد أو تسليم الادارة المحلية الى شخص من شبه جزيرة العرب، وليس الى يهودي. ان اعلان بلفور قد وجد تجسيدا له في انتداب عصبة الأمم الذي عهد بفلسطين الى بريطانيا، وفي المدة 1921 - 1922 كان صك الانتداب - الذي يفوض بريطانيا أن تكون وصية على فلسطين، ويجعل مهمتها انشاء وطن قومي يهودي، مع حماية حقوق غير اليهود يأخذ طريقه من عصبة الأمم الى البرلمان البريطاني للموافقة عليه. ولما كان قرار تشرشل الموقت هو عدم التشجيع على - أو حتي السماح - اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين الشرقية، يناقض أحكام الانتداب، فقد قرر أن يغير أحكام الانتداب، ولذلك أعيدت صياغتها بحيث تنص على أن بريطانيا غير ملزمة بتطبيق سياسة اعلان بلفور شرقي نهر الأردن.

لقد شعر الزعماء الصهيونيون بالقلق، لأن تقليص حدودهم الشرقية، من شأنه أن يوهن برنامجهم، لا سيما أن بريطانيا عندما تفاوضت مع فرنسا



لتعيين الحدود بين فلسطين من جهة وسورية ولبنان من جهة أخرى، تنازلت عن أرض تقع على حدودهم الشمالية. وقد كتب حاييم وايزمان الى تشرشل في أوائل عام 1921 ان الاتفاق مع فرنسا: «حرم فلسطين من الوصول الى الليطاني، وحرّمها امتلاك أعالي نهر الأردن ونهر اليرموك، وسلبها السهول الخصبة شرقي بحيرة طبريا، هذه السهول التي كانت تعتبر حتى الآن أحد أهم الأماكن الواعدة لاستيطان يهودي واسع النطاق». ثم جاء على ذكر شرق الأردن، فكتب قائلاً: «ان حقول جلعاد، ومؤاب، وأدوم مع نهر أرنون ونهر جابوك... مرتبطة تاريخياً وجغرافياً واقتصادياً بفلسطين، وعلى هذه الحقول يعتمد الآن الى حد كبير نجاح الوطن القومي اليهودي بعد أن سلخت سهول الشمال الغنية عن فلسطين ومنحت الى فرنسا» [1096]. وقد أرسل القاضي برانديز، زعيم الصهيونية الأميركية رسالة برقية الى بلفور قبيل نهاية عام 1921 مشدداً على الموضوع عينه، ومتأسياً لفقدان مياه نهر الليطاني (في ما هو الآن لبنان) ولاحظاً الانتباه لى الأهمية الاقتصادية لسهول شرق الأردن [1097].

مع ذلك لم يقم الزعماء الصهيونيون بحملة قوية لمعارضة فصل شرق الأردن ادارياً. ذلك انهم اعتبروا هذا الفصل - وليس من دون سبب - مجرد اجراء مؤقت. وهكذا نظرت وزارة المستعمرات الى الأمر. لقد كانت وجهات نظر كبار المسؤولين مختلفة، غير أن شاكبرو أوجز الاتفاق الذي توصل اليه هو وزملاؤه، فقال انه تقرر عدم السماح للصهيونية بالدخول الى شرق الأردن في الوقت الراهن، ولكن مع عدم ايجاد الباب في وجهها نهائياً» [1098].

لم يتبين لتشرشل ان ابقاء عبد الله في شرق الأردن سيورط بريطانيا في الحرب الدينية الشرسة القائمة في شبه جزيرة العرب بين آل سعود وآل هاشم. ولكن «الاخوان الوهابيين» المتعصبين عبروا الحدود غير الواضحة المعالم في الصحراء لمهاجمة عبد الله في عام 1922، ولما تمض سنة واحدة على وصوله الى الأردن. لقد وصلت قوة من المغيرين جماعة «الاخوان» تقدر بما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف الى نقطة تبعد عن عمان (الآن عاصمة الأردن) مسيرة ساعة واحدة على ظهور الجمال، فسحقتها الطائرات والسيارات المصفحة البريطانية [1099]. وقد جرّت تطورات السنين اللاحقة بريطانيا الى القيام بدور في حكم شرق الأردن والدفاع عنه، أكثر مباشرة مما اتوى تشرشل أن يكون هذا الدور، وما لبث المسؤولون البريطانيون أن أخذوا يرون في عبد الله مشكلة لا حلاً لمشكلة.

بالرغم من ذلك فان مجموعة الترتيبات التي أعدتها وزارة المستعمرات باعتبارها ترتيبات مؤقتة وإدارية فقط، اتخذت مع الزمن شكل واقع سياسي دائم. وقد أستقر الأمير القادم من شبه جزيرة العرب وحاشيته الأجنبية، في عمان وأصبحوا عاملاً جديداً ودائماً في السياسية المعقدة لنظام الانتداب على فلسطين. والاقتراح الذي كان لا يفتأ يتكرر بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، كان يصطدم بمشكلة أن خمسة وسبعين بالمئة من البلاد قد أعطي الى أسرة عربية غير فلسطينية. أن منطقة شرق الأردن المحدثه أصبحت في ما بعد دولة الأردن المستقلة، وانجرفت تدريجاً الى الوجود ككيان منفصل عن بقية فلسطين. والحقيقة، اننا كثيراً ما ننسى الآن أن الأردن كان جزءاً من فلسطين.

# الفصل الثاني

## تشرشل ومسألة فلسطين

### (1)

واجه تشرشل بصفته وزيراً للمستعمرات في السنتين 1921 و1922 وفي أثناء معالجته المشاكل المزعجة في فلسطين غربي نهر الأردن، صعوبة أكبر مما واجه في تعامله مع شرق الأردن والعراق. كانت المسألة في فلسطين هي مسألة الصهيونية التي ألهمت المشاعر الهاباً شديداً، الى حد انه لم يكن من السهل دائماً أن يتذكر المرء ما المشكلة في الواقع. لقد صور الصهيونيون فلسطين - وبصورة صحيحة كما نعرف الآن - انها بلد قادر على اعاشة ما لا يقل عن خمسة أو عشرة أضعاف الناس الذين كانوا يعيشون فيها آنذاك. ولذلك كان هناك متسع لقدوم ملايين المستوطنين اليهود دون تشريد أحد من السكان العرب الذين ربما كان عددهم 600,000 نسمة.

في ذلك الوقت لم يكن العديد من اليهود مستعدين للاستيطان كطلائع في فلسطين، ولكن الصهيونيين كانوا يأملون، والعرب كانوا يخشون أن يقدم على ذلك العديد من اليهود، ولهذا صار حق اليهود في دخول البلاد دون قيد، المسألة المركزية في السياسة الفلسطينية. لقد ادعى أصدقاء الصهيونية - وبرهنوا في ما بعد - أن المشروع اليهودي يمكنه أن يغني البلاد، ولكن كان ثمة من أقنع الفلاحين العرب الفقراء بأن المطلوب إليهم هو اقتسام القليل الذي يملكونه مع الغرباء.

وقد رأينا سابقاً أن أعمال شغب عربية معادية للصهيونية، حدثت في فلسطين قبل سنة من تسلم تشرشل منصب وزير المستعمرات في شهر شباط (فبراير) 1921. ولم يمض وقت طويل على محاولته حل مشاكل الشرق الأوسط خلال مؤتمر القاهرة في آذار (مارس) من ذلك العام، حتى تفجر الوضع في فلسطين مرة أخرى. فقد حدثت أعمال شغب في يافا في اليوم الأول من أيار (مايو) 1921، وكانت بداياتها أعمال نهب تطورت الى أعمال قتل: فخلال اليوم الأول قتل الغوغاء العرب خمسة وثلاثين يهودياً. وخلال أسبوع أريق في الدماء، امتد القتال الى سائر أنحاء البلد، إذ حاصر العرب المستعمرات الزراعية اليهودية خارج المدن الرئيسية، كانت أعمال الشغب العربية التي بدأت في يافا هي في الأصل تفجراً للغضب على فئة

صغيرة من الشيوعيين اليهود الذين شقوا طريقهم الى وسط المدينة المنافسة مظاهرات سبقتهم وقامت بها مجموعة أكبر مؤلفة من الاشتراكيين اليهود. ولذلك تشكل لدى البريطانيين انطباع بأن الاضطرابات كانت في أساسها بلشفية، وقد ادعى الكابتن بروتون، الذي خدم مدة ما في الادارة العسكرية، أن الذين تسببوا في أعمال الشغب هم «اليهود البلاشفة» وأكد أن: «انفجارات اليوم قد تصبح ثورة في الغد»<sup>[1100]</sup>. لقد كان رد فعل المندوب السامي سير هربرت صاموئيل، على الهجمات العربية، إيقاف الهجرة اليهودية الى فلسطين مؤقتاً، فخاف الزعماء الصهيونيون أن تؤدي مكافأة العنف العربي من قبل صاموئيل الى ضمان تجدد العنف، وإلى أن يكون الانتداب البريطاني على فلسطين انتداباً عاصفاً. لقد تباطأت ادارة صاموئيل في استعادة النظام. وفي 10 آب (أغسطس) 1921 ذكرت جريدة «التايمز»: «أن الأمن العام، ولا سيما في الشمال مفقود من سائر الوجوه العملية، فالغارات تشن يومياً تقريباً من شرق الأردن...»، وادعى مراسل جريدة «التايمز»: «أن الثقة بالسلطات مفقودة لدى اليهود والعرب على السواء» وأضاف: «أن السكان الأكبر سناً يقولون ان الأمن العام كان أفضل كثيراً في عهد الأتراك».

ومع أن أعمال الشغب العربية بدت وكأنها قد تتكرر، واصل الزعماء الصهيونيون سعيهم للتفاهم مع العرب والتعبير عن ثقتهم بأن معظم العرب يحبذون السلام والتعاون<sup>[1101]</sup>.

## (2)

في زعم تشرشل ان احدى المشاكل الكبيرة التي واجهها في محاولة اخماد أعمال الشغب العربية مع الاستمرار في تنفيذ البرنامج الموالي للصهيونية، هي أن القوات البريطانية التي يعتمد عليها لم تكن مستعدة لتطبيق سياسته.

كانت حالة العداء للصهيونية أمراً سهلاً فهمه على البريطانيين في فلسطين: فقد عاش العرب في البلاد عصوراً عديدة وهم لا يريدون تغيير حياتهم أو أرضهم. ثم ان الجنود والمسؤولين البريطانيين يعملون يومياً وسط العرب، وهؤلاء يعبرون لهم عن هذا الرأي. واليهود بطبيعة الحال يعيشون أيضاً في فلسطين، وعلاقتهم بالأرض أعمق عمراً، ولكن جزءاً كبيراً من قضية الصهيونية، على قوتها، لم يكن ملموساً بالكامل: فهي من ناحية قضية تاريخية، ومن ناحية أخرى نظرية، ومن ناحية ثالثة خيالية (بمعنى أن المشروع اليهودي لن يجلب مستوى معيشة أعلى كثيراً لجميع سكان البلاد إلا في المستقبل). وكانت القضية الصهيونية تستند أيضاً الى معاناة اليهود في أماكن مثل روسيا وبولندا. ولكن أعضاء الادارة البريطانية في فلسطين لم يروا بأعينهم قط هذه المعاناة ولم يكونوا بالضرورة مطلعين عليها.

يقول فلاديمير جابوتنسكي، المناضل الصهيوني الذي أسس الفيلق اليهودي في جيش اللبني، ان العسكريين البريطانيين رأوا أن الصهيونية نظرية «خيالية» بعيدة المدى تهدف الى معالجة علل العالم، وبالتالي لا تقوم على أساس سليم. ويقول جابوتنسكي أن هذه الخطط الخيالية لتحسين العالم، جاءت معاكسة لنزعات الانكليزي العادي المنتمي الى الطبقات الحاكمة [1102].

وأشار جابوتنسكي أيضاً الى أن الادارة في فلسطين ملأى بالمستعربين المحترفين، وهؤلاء (كتب يقول) مغرمون بالعالم العربي (كما تصوره في أذهانهم) الى حد انهم تحملوا عناء دراسة اللغة العربية وتأهيل أنفسهم للخدمة المدنية، وكانوا مستعدين لمغادرة بريطانيا من أجل تمضية حياتهم المهنية في الشرق الأوسط العربي. ومن الطبيعي انهم لا يرغبون في رؤية طابع فلسطين العربي وقد تغير.

لقد مس جابوتنسكي مسأ خفيفاً، ودون تشديد، ما قد يكون السبب الرئيس للمعارضة البريطانية لسياسة اعلان بلفور: السبب هو أن هذه السياسة تسبب المتاعب. فليست لها شعبية لدى العرب الذين يشكلون الجزء الأكبر من السكان، في حين أن مهمة الادارة الاستعمارية البريطانية هي الحفاظ على هدوء السكان وارضائهم. ثم ان العسكريين والمدنيين البريطانيين في

فلسطين، لديهم من الأسباب ما يدعوهم للاعتقاد أنهم يستطيعون أن ينعموا بحياة هنيئة وسلمية خلال خدمتهم في بلادٍ تشعر بالرضى، لولا السياسة التي تبنتها لندن، لأسباب لا يمكن فهمها فوراً، وهذه السياسة تسبب التوتر والعنف بين السكان وتعرض الادارة المحلية البريطانية للمصاعب والخطر.

ومما يدعو للسخرية، أن السخط في أوساط البريطانيين أدى الى زيادة المصاعب والخطر، لأنه شجع المقاومة العربية والتعنت العربي. في حين أن لندن لم تكن مستعدة للرضوخ. لقد حدثت واقعة معينة قدر لها أن تؤدي الى عواقب دائمة؛ انها تدخل الادارة في فلسطين في اختيار زعيم ديني للسكان المسلمين.

بداية هذه الواقعة كانت وفاة مفتي القدس في 21 آذار (مارس) 1921. والمفتي موظف مهمته الافتاء في الشريعة الاسلامية، ومفتي القدس هو كبير رجال الافتاء في منطقته. غير أن الادارة البريطانية التي أنعمت عليه بلقب يبدو انه من ابتكارها، سمته المفتي الأكبر وزعيم المسلمين في فلسطين<sup>[1103]</sup>. ووفقاً للقانون العثماني، الذي دمج البريطانيون في قانونهم، تختار الحكومة المفتي الأكبر الجديد من بين ثلاثة مرشحين تسميهم الهيئة الانتخابية الاسلامية.

لم يكن أمين الحسيني، وهو سياسي مثير للشغب، في أواسط العشرينات من عمره، سبق أن حُكم بالسجن عشر سنوات (ثم صدر عفو عنه) بسبب دوره القيادي في أعمال الشغب التي وقعت عام 1920، واحداً من المرشحين الثلاثة، ومع ذلك عُين في منصب المفتي الأكبر الجديد نتيجة مكيدة دبرها موظف عنيف في عداوته للصهيونية يدعي أرنست رتشموند، وهو عضو في مكتب سكرتارية المندوب السامي البريطاني.

رتشموند مهندس معماري خدم قبل الحرب في ادارة الأشغال العامة المصرية، وكان مديناً بوظيفته في فلسطين الى رونالد ستورز، صديقه الحميم الذي قاسمه في القدس منزلاً واحداً بعض الوقت، كان عمله في ادارة فلسطين موظف ارتباط مع المسلمين، ومهمته (على حد تعبير الجنرال جيلبرت كلايتون) «أن يكون الى حد ما نظيراً للمنظمة الصهيونية»<sup>[1104]</sup>، يقول مسؤول في وزارة المستعمرات في لندن ان رتشموند كان «عدواً يجره بعداوته للسياسة الصهيونية» التي تتبعها الحكومة البريطانية<sup>[1105]</sup>. وقد شن حملة على هذه السياسة، وبعد ذلك بسنوات - أي في عام 1924 - كتب الى المندوب السامي البريطاني في فلسطين قائلاً: أن المندوب السامي وموظفيه، ودائرة الشرق الأوسط في وزارة المستعمرات في لندن، واللجنة الصهيونية في فلسطين، باتباعهم

الصهيونية، «إنما يقعون تحت سيطرة والهام روح لا يمكنني إلا أن أعتبرها شريرة» [1106].

عندما ضمن ريتشموند منصب المفتي الأكبر وزعامة المسلمين الفلسطينيين لأمين الحسيني في عام 1921، لا بد أنه كان يعتقد بأنه وجه ضربة إلى الصهيونية. ولكن الزمن أظهر أنه وجه ضربة أقسى وأعمق أثراً تدميراً إلى عرب فلسطين الذين كان المفتي الأكبر سيقودهم إلى درب مسدود ومليء بالدماء. فالمفتي الأكبر، وهو مغامر يريد كل شيء أو لا شيء، قد جازف بأراضي العرب وأرواحهم، عندما رفع الرهان في الصراع العربي - اليهودي إلى حدود تدمير أو طرد أحد الطرفين - اليهود أو العرب. إن طريق المفتي الأكبر قاده في النهاية إلى ألمانيا النازية وإلى التحالف أدولف هتلر. ومع أن أمين الحسيني لم تكن له السيطرة على فلسطين العربية - إذ كان له منافسون كثيرون على زعامته - فإن منصب المفتي الأكبر منحه ميزة في التنافس على ولاء السكان العرب في فلسطين المنقسمين على أنفسهم انقساماً شديداً.

ليس بالامكان إطلاقاً أن نعرف هل كان مسلمو فلسطين سيتبعون زعماء آخرين لو استخدمت الإدارة البريطانية سلطتها ونفوذها بطرق أخرى، ولكن في حدود مدى الأثر الذي أحدثته مبادرة ريتشموند المعادية للصهيونية، نجد أن هذه المبادرة لم تكن عوناً للقضية العربية - ولا لقضية تشرشل والحكومة البريطانية في محاولتهما إحلال السلام وتحقيق التقدم في فلسطين المضطربة.

### (3)

قارب تشرشل مسألة فلسطين المعقدة والمثيرة للمشاعر والمربكة، ببرنامج بسيط وعقلاني وواضح. كان يؤمن باختبار التجربة الصهيونية ويعتقد انها مفيدة للجميع. وعندما زار فلسطين بعد مؤتمر القاهرة، قال لوفد عربي فلسطيني بتاريخ 30 آذار (مارس) 1921:

«إنه صواب جلي أن اليهود المشرذمين يجب أن يكون لهم مركز قومي أو وطن قومي يستعيدون فيه وحدتهم، وأين يكون هذا الوطن ان لم يكن في فلسطين التي ارتبطوا بها ارتباطاً حميماً وعميقاً لأكثر من ثلاثة آلاف سنة؟ نحن نرى أن ذلك سيكون لخير العالم، ولخير اليهود، ولخير الامبراطورية البريطانية، ولكنه أيضاً لخير العرب القاطنين في فلسطين، ونحن عازمون على أن نجعله هكذا... سيكون للعرب في فلسطين نصيب في الفوائد والتقدم الناجمة عن الصهيونية» [1107].

كان تشرشل على الدوام متعاطفاً الألماني اليهودية ومع محنة اليهود المضطهدين من قبل قياصرة روسيا. وكان، مثله مثل بلفور، يشعر أن اضطهاد اليهود في روسيا وأمكنة أخرى، قد خلق مشكلة للعالم بأسره، وإن انشاء وطن قومي يهودي في فلسطين يحل المشكلة.

وكان رأي تشرشل أن هناك ثلاثة أنواع من اليهود الناشطين سياسياً: المشاركون في الحياة السياسية للبلد الذي عاشوا فيه، والذين اتجهوا الى العنف وعقيدة البلشفية الدولية الهدامة، والذين ساروا وراء الدكتور حايم وايزمان على طريق الصهيونية. وفي رأيه أن المسألة بالنسبة لأغلبية يهود العالم، الذين نشأوا في بلدان مثل روسيا، محرومين المواطنة الكاملة على قدم المساواة مع غيرهم، هي هل يكونون بلاشفة أو صهاينة. وبما أنه هو نفسه وطني متقد الحماسة، فقد اعتبر القومية اليهودية ظاهرة صحية ينبغي تشجيعها.

فقد قال:

«إذا ما حدث ما أرى أنه قد يحدث، أن أنشئت في زمن حياتنا على ضفاف نهر الأردن وبحماية التاج البريطاني دولة يهودية قد تضم ثلاثة أو أربعة ملايين يهودي، فسيكون ذلك حدثاً في هذه المرحلة من تاريخ العالم، وسيكون هذا الحدث كيفما نظرنا اليه، نافعاً، وسيكون على نحو خاص منسجماً مع أصح مصالح الامبراطورية البريطانية» [1108].

هذا ما كتبه تشرشل - قبل أن يتسلم منصب وزير المستعمرات - في أوائل عام 1920.



لم يكن تشرشل غافلاً عن معارضة الصهيونية من قبل عرب فلسطين، ولكنه اعتقد انه يمكن التغلب على هذه المعارضة ببرنامج يجمع بين الحزم في الأساس، والاغراءات الترغيبية، والحلول الوسط، وقد حاول عندما تولى وزارة المستعمرات، استرضاء شعور الفلسطينيين العرب بتخفيف مساندة بريطانيا للصهيونية، وكما أشرنا آنفاً، قرر اختبار الصهيونية أولاً في ربع فلسطين الواقع غربي نهر الأردن فحسب، وعدم اتخاذ قرار في أثناء ذلك بشأن امتدادها لاحقاً إلى ثلاثة الأرباع الأخرى - إلى شرق الأردن. علاوة على ذلك، حاول تشرشل إعادة تعريف الالتزام البريطاني: فقد اقترح إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين بدلاً من محاولة جعل فلسطين نفسها كياناً يهودياً، وادعى ان هذا هو المقصود بصيغة اعلان بلفور. (في حديث خاص جرى في منزل بلفور في صيف عام 1921، ناقضه بلفور ورئيس الوزراء كلاهما وقالاه: «انهما قصدا دائماً باعلان بالفور قيام دولة يهودية في نهاية المطاف» [1109].

إضافة الى ذلك، حاول تشرشل تبديد الريب التي ساورت العرب، باظهاره ان مخاوفهم الاقتصادية لا تستند الى أساس. فقد كان يحتاج دائماً بأن المهاجرين اليهود لن يسلبوا العرب أعمالهم ولا أراضيهم، بل هم على العكس سيخلقون فرص عمل جديدة وثروة جديدة تعود بالفائدة على السكان جميعاً.

وفي حزيران (يونيو) 1921 قال في مجلس العموم: «ليس هناك في الحقيقة ما يخيف العرب...»

فلن يسمح بقدوم أي يهودي زيادة عن العدد الذي يمكن توفير معيشتته عن طريق الثروة المتزايدة وتنمية ثروات البلد» [1110]. وفي شهر آب كرر القول لوفد عربي جاء الى لندن:

«أخبرتكم المرة تلو المرة انه لن يسمح بقدوم اليهود إلا بحدود ما ينشئون من وسائل لمعيشتهم...»

ولن يستطيع اليهود أن يأخذوا أرض أحد. ولن يتمكنوا من سلب أي انسان حقوقه أو ممتلكاته... أما إذا شاؤوا أن يشتروا أرض الغير وأراد الغير بيعها لهم، وإذا شاؤوا تنمية وفلاحة مناطق هي الآن بور وتحويلها الى مناطق خصبة، فلهم الحق... (في أن يفعلوا ذلك) [1111].

وقال للوفد [1112]: «هنالك متسع للجميع... ولا أحد أصابكم بسوء... والمهمة التي أمام اليهود أصعب كثيراً من مهمتكم. فأنتم لا همّ لكم إلا أن تنعموا بما تملكون، أما هم فمجبرون أن يحاولوا أن يبدعوا من القفار ومن

الأراضي البور، ما يقيم أود الناس الذين يأتون بهم»[1113]. وفي المناسبة نفسها قال للوفد العربي شاكيًا أنه ليس من الانصاف أن يرفضوا التفاوض: «ليس من الانصاف أن يأتي المرء الى مباحثات وفي ظنه أن أحد الجانبين يجب ألا يعطي شيئاً، وأن الجانب الآخر يجب أن يقدم تنازلات كبيرة وهامة، دون ضمانة لأن تكون هذه التنازلات وسيلة للسلام».

## (4)

أمضي تشرشل حياته منغمساً في الثقافة السياسية الأوروبية، فكان أمراً عادياً عند طرح اقتراح ما، أن يحسب حساب حاجات جميع الأطراف المعنية ورغباتها، ومن ضمنها حاجات الخصوم ورغباتهم. وهكذا، عندما فكر كيتشنر وكلايتون وستورز في العامين 1914 و 1915 في استبعاد فرنسا من الشرق الأوسط العربي بعد الحرب، تنبهوا الى أنه ينبغي لبريطانيا أن تعوض فرنسا عن ذلك بالحرص على حصولها على مكاسب اقليمية في أماكن أخرى من العالم. ومع أن هذا قد لا يكون تقويماً واقعياً لما تقبله فرنسا، فقد كان اقراراً واقعياً بأنه إذا ما حققت بريطانيا مكاسب اقليمية فسوف تصر فرنسا على أن تماثلها.

وعلى غرار ذلك، حدد مصطفى كمال - وهو رجل دولة ذوهنية أوروبية - في تركيا ما بعد الحرب، مطالب اقليمية للقومية التركية ليس فقط على أساس حاجات تركيا، بل أيضاً على أساس فهمه لما قد يقبل به جيران تركيا.

كان هذا نوعاً من حنكة رجل الدولة ألفه تشرشل، ولكنه لم يتبينه في الوفد العربي الذي جاء الى لندن، إذ لم يفعل هذا الوفد شيئاً سوى تكرار مطالبه. كانت فلسطين منطقة مستهدفة بمطالب معقدة ومتضاربة، ولكن الوفد العربي لم يحسب حساباً لأية مطالب أو مخاوف أو حاجات أو أحلام إلا ما كان يخصه. وخلافاً للزعماء الصهيونيين، الذين سعوا لتعويض القومية العربية بمساندة العرب ضد المطالب الفرنسية في سورية، والذين ارتأوا اقامة مناطق حكم ذاتي عربية ضمن فلسطين، وأعدوا خططاً لفوائد اقتصادية وغير اقتصادية تعود على العرب الذين يختارون العيش ضمن حدود الوطن القومي اليهودي، لم يحاول القادة العرب أن يتوافقوا مع الأمانى اليهودية أو أن يحسبوا حساباً للحاجات اليهودية.

لقد تبين أن التعامل مع شرق أوسطيين على شاكلة هؤلاء الناس، هو أشد احباطاً بكثير مما تخيلته لندن في زمن الحرب، عندما أثرت لأول مرة امكانية ادارة الشرق الأوسط بعد الحرب. ان أعضاء الوفد العربي - في نظر تشرشل - لم يفعلوا ما يفترض بالسياسيين أن يفعلوا: فلم يكن هدفهم التوصل الى اتفاق - أي اتفاق. وكان ظاهراً عدم استعدادهم لتقديم واحد بالمئة من أجل الحصول على تسعة وتسعين بالمئة، ولذلك لم يعرضوا على الجانب الآخر أي حافز لتقديم تنازلات. لقد جادل تشرشل القادة العرب - ولكن دون جدوى.



## (5)

كان الوفد العربي الى لندن، برئاسة موسى كاظم باشا الحسيني [1114]، رئيس الهيئة العربية، ممتنعاً في الظاهر عن فهم ما يقوله تشرشل. فما أن طرح أعضاء الوفد سؤالاً ويجيب عنه تشرشل، حتى يطرحوا السؤال عينه مرة أخرى وكأنهم لم يسمعوا رد تشرشل. وقد أظهر تشرشل امارات الاحباط والغضب ازاء هذا الأسلوب، ولكنه ظل يكرر اجوبته على أمل أن يفهموه في نهاية الأمر، وبهذه الروح كرر القول ان الأرض لن تؤخذ من العرب، ولن يبيع العرب أرضاً الى اليهود إلا إذا شاؤوا بيعها.

نادراً ما كانت الأمور في الشرق الأوسط في واقعها كما تبدو في ظاهرها. ومسألة الأرض في فلسطين مثال على ذلك. فالوفد العربي الى لندن فهم فعلاً ما عناه تشرشل بكلامه عن العرب الذين يشاؤون بيع أرض لليهود، لأن موسى كاظم باشا، رئيس الوفد، نفسه كان أحد الذين باعوا أرضاً للمستوطنين يهود [1115]. وهذا ما فعله أيضاً الأعضاء الآخرون في الوفود العربية التي جاء بها الى لندن في العامين 1921 - 1922 وفي الأعوام التي لحقتها.

كان الأمير فيصل والدكتور حاييم وايزمان قد اتفقا في عام 1918 على انه ليست في فلسطين ندرة في الأرض، وانما المشكلة هي أن جزءاً كبيراً من الأرض تسيطر عليه قلة من الملاكين والمرابين العرب [1116]. والكثرة الساحقة من الفلاحين تكد لتحصل بشق النفس على كفاف المعيشة من حصص في الأرض ضئيلة المحصول، هزيلة التربة، شحيحة الري، في حين أن الممتلكات الكبيرة من الأراضي الخصبة تعود الى الأسر المتنفذة والملاكين الغائبين.

كانت الخطة الصهيونية التي عرضها وايزمان على فيصل عام 1918 تقضي بعدم التعدي على الأرض التي يفلحها الفلاحون العرب، وبدلاً من ذلك استصلاح الأراضي القفر وغير المقلوحة واستخدام الأساليب الزراعية العلمية لاستعادة خصوبتها. بيد أنه تبين أن كبار الملاكين العرب كانوا تواقين لبيع أراضيهم الخصبة أيضاً الى المستوطنين اليهود - بأرباح كبيرة جداً [1117].

والحقيقة أن مشتري الأراضي اليهود كانوا يعرضون أسعاراً مرتفعة جداً، الى حد أن احدى العائلات العربية في بيروت باعت قطعاً من الأرض في وادي جرزيل الى مستوطنين يهود بأسعار تتراوح بين أربعين وثمانين ضعف سعر الشراء الأصلي [1118]. لم يكن العرب مجبرين من قبل اليهود على

البيع، بل على العكس كانوا يعرضون الكثير من الأرض على اليهود الى أن أصبح العامل الوحيد الذي يحدّ من الشراء هو المال: فلم يكن المستوطنون اليهود يملكون مالاً كافياً لشراء كل الأرض التي عرضها العرب عليهم [1119].

ولم يقتصر الأمر على العرب غير الفلسطينيين، بل أن الطبقة المتزعمة العربية الفلسطينية نفسها كانت شديدة التورط في بيع الأراضي، مع انها تستنكر هذا البيع في العلن. ان ما لا يقل عن ربع أعضاء القيادة الرسمية المنتخبة للعرب الفلسطينيين باعوا أرضاً للمستوطنين اليهود، إما مباشرة أو عن طريق أفراد عائلاتهم في المدة الواقعة بين عامي 1920 و1928 [1120].

لعل هذه الصفقات قد ضللت القيادة الصهيونية فجعلتها تسيء فهم عمق المعارضة المحلية الحقيقية للاستيطان اليهودي، ومن جهة أخرى، فإن الحكومة البريطانية لم تخطيء في فهم هذا العمق فحسب، بل أخطأت أيضاً في الحكم على طبيعة الرد العربي: أي انها عالجت مسألة الأرض وكأنها مسألة حقيقية وليست مزورة، ولذلك فإن تشرشل وزملاءه إما أنهم أخطأوا في فهم الأساس الحقيقي لمقاومة العرب للصهيونية أو تظاهروا باسائة الفهم. فمقاومة العرب للاستيطان اليهودي لها جذور عاطفية ودينية، ولها جذور في الخوف من الأجانب، وفي مجموعة المشاعر التي تستحوذ على الناس عندما يتدفق قادمون جدد بقصد تغيير محيطهم. لقد كان عرب فلسطين يدافعون عن نمط حياة مهدد بالخطر. والوفود العربية التي جاءت لمقابلة ونستون تشرشل، لم تفصح عن هذا الأساس الحقيقي لمعارضة الصهيونية، بل كانت بدلاً من ذلك، تقيم حجتها على أساس أن البلد لا يستطيع اعاشة المزيد من السكان. وقد قبل تشرشل كلامهم على علته، وقبل قولهم انهم يعترضون لأسباب اقتصادية، ثم أخذ يعمل ليثبت لهم انه ليس هناك ما يسوغ مخاوفهم الاقتصادية.

## (6)

في عام 1922 اتخذ تشرشل قراراً كان له أثر دائم، وأظهر أن مخاوف العرب الاقتصادية ليس لها مسوغ، عندما وافق على منح امتياز المشاريع كهربائية - مائية في وادي العوجة ووادي نهر الأردن. وقد منح الامتياز الى بنحاس روتنبرغ، وهو مهندس بل يهودي من روسيا. وقد كان هذا القرار دافعاً لخطوة بعيدة المدى من أجل توفير الطاقة ومياه الري، مما يجعل بالامكان استصلاح الأراضي واستثمارها اقتصادياً وفق مقاييس القرن العشرين. كانت تلك أول خطوة جبارة على الطريق لاثبات الادعاء الصهيوني أن فلسطين تستطيع إعاشة سكان يقدر عددهم بالملايين وليس بمئات الألوف كما يدعي الناطقون العرب.

لقد أعجب تشرشل بصورة خاصة بأن جري طرح المشروع وتمويله على أساس غير تجاري، وهذا ما جعله يبلغ مجلس العموم أن ليس غير الصهيونيين وحدهم من هم مستعدون لتنفيذ مشروع كهذا على أساس كهذا. «قيل لي أن العرب بوسعهم تنفيذ المشروع بأنفسهم. فمن يصدق هذا الكلام؟ لو ترك عرب فلسطين وشأنهم لما أقدموا خلال ألف سنة على اتخاذ خطوات فعلية لتوفير مياه الري والكهرباء في فلسطين، ولاكتفوا - وهم حفنة من الناس المتفلسفين - بالاقامة في السهول القفر التي تحرقها أشعة الشمس، تاركين مياه نهر الأردن تستمر في تدفقها سائبة ودون احتجازها لتصب في البحر الميت» [1121].

استمر تشرشل في أنذار العرب - مثلما أنذرهم منذ البداية - بأن عليهم أن يستخلصوا أحسن الفوائد من الوضع القائم، لأن بريطانيا عازمة في كل الأحوال على الوفاء بالتزاماتها. وفي صيف عام 1921 قال تشرشل للوفد العربي الفلسطيني المتصلب الرأي الذي جاء الى لندن: «إن الحكومة البريطانية تنوي تطبيق اعلان بلفور. وقد قلت لكم هذا الكلام المرة تلو المرة. قلته لكم في القدس. وقلته في مجلس العموم قبل أيام، وأقول لكم الآن. أن الحكومة البريطانية عازمة على تطبيق وعد بلفور. وانها لفاعلة» [1122].

ولكن موظفي الادارة البريطانية في فلسطين شجعوا الزعماء العرب على الاعتقاد بغير ذلك. كان تشرشل مكتئباً عندما قدر أن 90% من الجيش البريطاني في فلسطين مشحونون بمعارضة سياسة اعلان بلفور [1123]. وقد جاء في تعميم وجهه الجنرال كونغريف، قائد الجيوش البريطانية في مصر وفلسطين، الى جميع الجنود، «يفترض في الجيش رسمياً ألا يشتغل

بالسياسة، ولكن له عواطف «وفي حالة فلسطين عواطفه هي بجلاء مع العرب الذين ظهر حتى الآن للمراقب غير المنحاز انهم ضحايا سياسة ظالمة فرضتها عليهم الحكومة البريطانية». وأشار كونغريف الى التفسير الضيق الذي أعطاه تشرشل لإعلان بلفور، فأعرب عن ثقته ألا تعطي الحكومة البريطانية قط أي تأييد لسياسة المتطرفين الصهاينة التي ترمي الى انشاء فلسطين يهودية ليس للعرب فيها وجود إلا على سبيل التسامح فقط» [1124]. وعندما نقل جون شاكبرو هذا التعميم الى تشرشل، أبلغه «ان الجيش في فلسطين لسوء الحظ معظمة معاد للصهيونية وسيبقى كذلك مهما قيل له» [1125].

في صيف عام 1921 كتب هيوبرت يونغ، نائب شاكبرو، مذكرة عممها تشرشل على مجلس الوزراء، داعياً فيها: «الى عزل جميع الموظفين المدنيين المناوئين للصهيونية مهما سمت مكانتهم» [1126]. ولكن هذه المذكرة لم تعالج مشكلة المسؤولين العسكريين. كما أن وجود سير هيربرت صاموئيل وويندهام ديدز على رأس الادارة المدنية، لم يكن له في الظاهر تأثير في التوجه السياسي للموظفين الأدنى مرتبة.

كان هناك ضمن السكان اليهود أيضاً من أصابه القنوط من الحصول على مساندة السلطات البريطانية. وقد قال فلاديمير جابوتنسكي، مؤسس الفيلق اليهودي، أن اليهود مضطرون للدفاع عن أنفسهم، فهذه المهمة لن يؤديها الجيش ولا الشرطة. وفي 27 آذار (مارس) 1922 قال مراسل جريدة «التايمز» في الشرق لأدنى: «ان بعض الصهيونيين الأكثر تطرفاً قد ارتكبوا خطأ اجرامياً بتهريب أسلحة الى البلاد وتكوين قوة دفاع سرية تسمى هاغانا».

ومع مرور الزمن، بدأت شخصيات ذات نفوذ في بريطانيا تتساءل عما إذا كانت بريطانيا تملك الامكانيات للاستمرار في احتلال فلسطين، تأييداً لبرنامج صهيوني تبينت صعوبة تنفيذه. لقد كانت جريدة «التايمز» متحمسة في دعمها لسياسة اعلان بلفور التي وصفتها (بتاريخ 27 نيسان/ أبريل 1920) بأنها: «السياسة السليمة الوحيدة التي يمكن أن يتبناها الحلفاء ازاء الشعب اليهودي»، ولكن حماستها فترت مع تراكم الصعوبات. وفي ربيع عام 1922 نشرت جريدة «التايمز» سلسلة مقالات في ست حلقات بقلم فيليب غريفز، الذي سبق أن خدم في المكتب العربي خلال الحرب، وشرح فيها تزايد الكراهية لبريطانيا في فلسطين، وألقى باللائمة على يهود فلسطين بسبب أعمال الشغب التي تقع ضدهم، أكثر مما وجه اللوم الى الجيش. بسبب وتعاطفه مع المشاعيين. وكانت حجتة أن الجيش البريطاني قد سئم الحرب والحقيقة أن الرأي العام البريطاني سئم الحرب أيضاً.



وفي عدد 11 نيسان (أبريل) 1922 الذي تضمن الحلقة الختامية في سلسلة مقالات غريفز، نشرت جريدة «التايمز» مقالة رئيسة تعبر عن وجهة نظر «دافع الضرائب البريطاني» أعادت فيها الى الذاكرة قيمة التجربة الصهيونية في فلسطين، ولكنها تساءلت هل تستطيع بريطانيا أن تستمر في تأييد هذه التجربة. وقالت: «انها لتجربة مثيرة للاهتمام، ولكن السؤال هو هل حسبنا التكاليف؟».

وهكذا وجد وزير المستعمرات أن سياسة حكومته في فلسطين يجري تقويضها في بريطانيا نفسها بعد أن حظيت في السابق بتأييد واسع. وفي 21 حزيران (يونيو) 1922 قدم الى مجلس اللوردات اقتراح يعلن أن الانتداب على فلسطين (وهو تجسيد سياسة اعلان بلفور) غير مقبول، فوافق المجلس على الاقتراح بأكثرية ستين صوتاً مقابل تسعة وعشرين. ومع أن قرارات مجلس اللوردات غير ملزمة، فإن قراره هذا أدى الى تركيز الانتباه على مناقشة وزارة المستعمرات في مجلس العموم التي جرت مساء 4 تموز (يوليو). لقد حمل عدد من أعضاء المجلس في كلماتهم على تشرشل لمحاولته وضع اعلان بلفور موضع التنفيذ. وكان كثيرون ممن حملوا على تشرشل مؤيدين سابقين لاعلان بلفور، فاستخدم تشرشل أقوالهم السابقة ضدهم بتأثير واضح. وقد تلا تشرشل اثني عشر بياناً مؤيداً لاعلان بلفور أدلى بها أصحابها عند صدوره. وقال مخاطباً مجلس العموم انه يستطيع أن يقرأ مزيداً من مثل هذه البيانات. وقال مخاطباً معارضيهم انهم بعد أن أيدوا القيام بالتزام وطني، لا يحق لهم أن ينقلبوا على الالتزام وأن يهاجموه هو شخصياً لأنه يحاول تطبيق هذا الالتزام<sup>[1127]</sup>. لقد تحدث تشرشل بحرارة، كما فعل في عدد من المناسبات السابقة، عن حاجة بريطانيا الى الوفاء بتعهداتها، وقال مخاطباً مجلس العموم: ان اعلان بلفور صدر، «ليس فقط لما فيه من حسنات، مع اني أرى أن حسناته كبيرة»، بل بسبب الاعتقاد في ذلك الحين بأن الدعم اليهودي «سيكون ميزة جليلة وأكيدة» في كفاح بريطانيا لكسب الحرب<sup>[1128]</sup>. ولفت الانتباه إلى انه لم يكن آنذاك عضواً في مجلس الوزراء الحربي، ولم يكن له أي دور في المداولات التي انبثق عنها اعلان بلفور. ولكنه، كغيره من أعضاء البرلمان، أيد باخلاص سياسة مجلس الوزراء الحربي، ولذلك قبل أن يحمل مسؤولية انجاز التزامات قطعها مجلس الوزراء الحربي باسم بريطانيا عندما حان وقت الوفاء بهذه الالتزامات.

جاء خطاب تشرشل على سلسلة المسائل التي تحداه فيها المعارضون، ومن ضمنها امتياز روتنبرغ، الذي أثار معارضة شديدة. فردّ بأنه خفض تكاليف ادارة فلسطين من ثمانية ملايين جنيه في عام 1920 الى أربعة

ملايين في عام 1921 وإلى مبلغ يقدر بمليوين في عام 1922 وأن الحكومة البريطانية سوف تتمكن، نتيجة لبرنامج روتبرغ للتنمية، من استعادة الأموال التي أنفقتها<sup>[1129]</sup>. حقق خطاب تشرشل نجاحاً رائعاً وكانت نتيجة الاقتراع على سياسة الحكومة في فلسطين 292 صوتاً مؤيداً و35 صوتاً معارضاً، فأبرق تشرشل إلى ديدز في القدس ليخبره أن الاقتراع في مجلس العموم: «انقلاب مباشر على قرار مجلس اللوردات»<sup>[1130]</sup>. بعبارة أخرى، بريطانيا عازمة على قبول الانتداب على فلسطين من عصبة الأمم.

عندئذ أرسلت الهيئة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني برقية إلى وزارة المستعمرات ضمنيتها رفضها لأحكام انتداب عصبة الأمم، ورفضها أيضاً للكتاب الأبيض الحكومي الذي عرض فيه تشرشل تخفيض حكومته الكبير لالتزامها بالصهيونية، غير أن الدكتور حاييم وايزمان قبل، نيابة عن المنظمة الصهيونية، وبغض النظر عن مقدار الاحجام عن هذا القول، هذه الأحكام المخفضة كثيراً، على أمل أن توفر إطاراً تنشأ ضمنه أغلبية يهودية في فلسطين، ثم تحقق هذه الأغلبية حكومة ذاتية. وقبل وايزمان أفضل الشروط التي أمكنه الحصول عليها آملاً أن تتحسن هذه الشروط مع مرور الزمن. أما الهيئة العربية فقد رفضت قبول أفضل الشروط التي أمكنها الحصول عليها من تشرشل آملة أن تتمكن، مع مرور الزمن من املاء شروطها.

## (7)

أمعن اثنان من زعماء الصهيونية ذوي النفوذ، هما دايفيد بن غوريون وفلاديمير جابوتنسكي، النظر في مغزى المعارضة العربية وردود الفعل البريطانية عليها وتوصلا (كما كان يحدث لهما في كثير من المرات ) الى استنتاجات متناقضة .

ان بن غوريون، زعيم الحركة العمالية الصهيونية، هو من مواليد بولندا وقد استوطن كمزارع في فلسطين عام 1906، ولم يكن قد تجاوز العشرين من عمره، ومع انه عند بداية الحرب العالمية الأولى كان من مؤيدي الامبراطورية العثمانية، فقد انخرط في ما بعد في الجيش البريطاني. كان اشتراكياً مؤمناً أن الاستعداد للعمل وحده هو الذي يمنح المرء الحق في أن يحل في بلد ما، وأن لليهود والعرب على قدم المساواة حق العيش والعمل في فلسطين. كان تفسيره لأعمال الشغب العربية التي وقعت في عام 1920 وعام 1921 انها اعمال «أناس همج» ضللتهم الادارة البريطانية فاعتقدوا أن العنف يؤدي ثماره [1131]. وبما أنه زعيم نقابي عمالي، فقد كانت سياسته المعلنة أن ينظم العمال العرب، مدعياً أن للعمال والفلاحين العرب واليهود مصالح مشتركة - في مواجهة أرباب العمل وملاك الأراضي - وكان هدفه أن يبين للعرب أن الأمر كذلك. وكانت رؤيته لفلسطين انها بلد سيشتمع فيها السكان العرب واليهود بالحكم الذاتي.

في رأي بن غوريون، أظهرت أعمال الشغب عام 1920 وعام 1921 ان الصهيونيين لم يوضحوا للعرب أيضاً كافياً أن حقوقهم الدينية والمدنية لن تنتهك أبداً [1132]. ولذلك راي كعادته أن الحل يكمن في التثقيف والتواصل. ومع أنه رأى من البداية أن العرب قد لا يقبلون بهجرة اليهود واستيطانهم، فانه لم يتوقف عند هذه الامكانية ولم يشأ أن يصدق انها ستحدث فعلاً. ويعتقد بعض المؤرخين الآن انه لم يكن صريحاً كل الصراحة عندما زعم أنه يؤمن بالتعاون العربي اليهودي [1133]، ولكن هناك تفسيراً أكثر اقناعاً يقول ان بن غوريون من النوع الذي يعتقد أن التفكير بما قد يضل عن الصواب، ليس مجلبة لأي خير، كان «ذا تفكير بناء» يميل الى الاعتقاد بأن المرء أن يبدع ويعمل ويترك المستقبل ليهتم بنفسه. كان مؤمناً أن فوائد العمل اليهودي والابداع اليهودي سينال منها عرب فلسطين نصيبهم، وظلت سياسته هي سياسة التعاون مع العرب والادارة البريطانية.

أما جابوتنسكي، الصحفي الروسي المولد الذي أوجد الفيلق اليهودي في جيش اللنبي، فقد كان اعتقاده أن العرب لن يستكينوا ولن يسمحوا لليهود

أن يصبحوا أكثرية في فلسطين، ولذلك لا بد من «جدار حديدي» من القوة العسكرية لحماية المستوطنين اليهود في ما هم يعملون لجعل اليهود أكثرية. وفي اعتقاده أيضاً أن البريطانيين أظهروا أنه لا يمكن الركون اليهم لتوفير هذه الحماية، فلا مناص بالتالي من أن ينشئ اليهود جيشهم الخاص لحماية أنفسهم [1134]. كان هذا تقويماً يدل على اليأس، وقد وجد جابوتنسكي نفسه في مصاف الأقلية التي أخذت برأيه.

والمفارقة هي أن بن غوريون الذي حاول عند بداية الحرب العالمية الأولى، أن ينشئ جيشاً يهودياً ليقا تل الى جانب الامبراطورية العثمانية، أخذ الآن يعتمد على الحكومة البريطانية، بينما جابوتنسكي الذي أوجد كتية يهودية قاتلت الى جانب بريطانيا، فقد الآن ايمانه ببريطانيا.

وكان أن حدث أن بن غوريون برز في السنين اللاحقة بصفته زعيم النهج الرئيس ضمن الحركة الصهيونية، بينما قاد جابوتنسكي المعارضة ضد الزعامة الصهيونية الرسمية طوال العشرينات من هذا القرن، ثم - في نهاية الثلاثينات - انشق وأسس منظّمته الصهيونية التحريفية المنافسة، مستنكراً قرار تشرشل في عام 1922 أن يفصل شرق الأردن عن أرض الوطن القومي اليهودي، ومطالباً باقامة دولة يهودية على كلا جانبي نهر الأردن. ولا تزال الهوة قائمة حتى يومنا هذا في الحياة السياسية لدولة اسرائيل، حيث يدعي حزب العمال أنه وريث بن غوريون، ويدعي حزب حيروت أنه وريث جابوتنسكي.

والأمر الآخر المستمر في اسرائيل، ولا سيما في صفوف حزب حيروت، هو الرأي القائل ان الأردن هو، أو ينبغي أن يكون، دولة عربية فلسطينية: وان فصل عبر الأردن (كما كان يسمى في ذلك الحين) من قبل تشرشل في عام 1922 عن بقية فلسطين الخاضعة للانتداب، لم يكن شرعياً.

## (8)

تمت الآن إعادة رسم الشكل السياسي للجزء الناطق بالعربية من الامبراطورية العثمانية. فلم يعد الأتراك حكاماً لهذا الجزء. وفي الشرق جرى تجميع السكان الأكراد والسنة والشيعة واليهود معاً في بلاد رافدين جديدة سميت العراق، يحكمها أمير من شبه جزيرة العرب، وبدا العراق في الظاهر بلداً مستقلاً، ولكن بريطانيا اعتبرته محمية بريطانية. أما سورية ولبنان الذي جرى تكبيره كثيراً فكانا تحت حكم فرنسا، واقتطع من فلسطين كيان عربي جديد وأصبح الأردن، وفي غربي نهر الأردن كانت هناك فلسطين ستحتوي وطناً قومياً يهودياً. كان هذا الرسم أبعد ما يكون عما نادى به تشرشل في ما يتعلق بالامبراطورية العثمانية.

بيد أن تشرشل حقق الأهداف الرئيسة التي وضعها نصب عينيه في الشرق الأوسط عندما أصبح وزيراً للمستعمرات. كان هدفه الذي لا يعلو عليه هدف آخر، أن يخفض النفقات، وقد خفضها تخفيضاً حاداً. علاوة على ذلك، كان يؤمن أنه أوجد نظاماً يمكن إدارته على نحو اقتصادي في المستقبل. أن مجموعة القواعد الجوية التي أوجدها والممتدة من مصر الى العراق مكنته من السيطرة على بلدان الشرق الأوسط بحد أدنى من النفقات.

كان هدفه الآخر أن يبرهن أن بريطانيا وفت بتعهداتها. ومع أنه لم يحقق هذا الهدف بالتمام في ما يخص الصهيونية، فقد حققه في كل ما كان مستحقاً لأسرة الملك حسين. ان توماس لورنس الذي كان سابقاً أقسى البريطانيين انتقاداً للحكومة في هذا الصدد، قد أبدى رأيه بأن تشرشل حقق استحقاقات أسرة الملك الحسين وأكثر. واستذكر لورنس في نهاية عام 1922 المراسلات التي جرت في زمن الحرب بين الحسين وسير هنري مكماهون، الذي كان في ذلك الحين مندوباً سامياً بريطانياً في مصر، بشأن حدود الاستقلال العربي، فكتب يقول: «انه (تشرشل) نفذ كامل تعهد مكماهون (بعض الذين لم يروا هذا التعهد سموه معاهدة) بشأن فلسطين، وشرق الأردن وشبه جزيرة العرب. أما في بلاد الرافدين فقد تجاوز احكام التعهد... لا أريد أن أقدم ايضاحات مستفيضة، لكن لا بد لي من تسجيل اقتناعي أن انكلترا خرجت من المسألة العربية بيدين نظيفتين» [1135].

ولكن لم تكن المسألة العربية هي هم تشرشل الأول في الشرق الأوسط، ولو انها كانت مسؤوليته الأولى. كان همه الرئيس هو البقية الناطقة بالتركية من الامبراطورية العثمانية. وكان رأي تشرشل أن سياسة لويد جورج في تلك المنطقة خاطئة وخطرة وتهدد بتدمير الوضع البريطاني بكامله في الشرق الأوسط.



# الفصل الثالث

## افتراق الحلفاء

### (1)

مآخذ تشرشل على سياسة لويد جورج التركية لم يبال بها رئيس الوزراء، لأن لويد جورج المعترز بموقعه وبمكانته وبسجله الذي أثبت صواب رأيه، عندما كان جميع الخبراء من حوله يقولون بخطئه، لم يلق بالاً إلى آراء زملائه. فقد كان متفرداً في الرأي ومتعجرفاً، لا يستوعب التجمعات السياسية المختلفة، في الداخل وفي الخارج، التي كان يستمد سلطته منها.

وعلى مدى سنين عديدة، كان لويد جورج كوكب النظام الشمسي للحكومات الائتلافية. وبصفته رئيس ائتلاف برلماني يضم المحافظين ومجموعته من حزب الأحرار، ظل يحظى بتأييد أغلبية في مجلس العموم ساندته في منصبه كرئيس لحكومة ائتلافية. وبصفته رئيس وزراء بريطانيا، كان يمارس أيضاً زعامة ائتلاف آخر يضم الامبراطورية وبلاد الدومينيون التي تحكم نفسها بنفسها، أي كندا، وتيوفاندنلاند، وجنوب أفريقيا، وأستراليا، ونيوزيلندا.. هذا الائتلاف الذي انضم الى الحلفاء في القارة الأوروبية لمقاومة دول وسط أوروبا في الحرب العالمية الأولى. وعند حلول عام 1921 كان لويد جورج الوحيد من بين قادة تحالف زمن الحرب الذي ظل في السلطة.

ولم يبدأ هذا النظام من التحالفات في التفسخ الا في ممتلكات الامبراطورية العثمانية التي كانت ما تزال عصية على الخضوع.

كانت روسيا أول دولة أوروبية حليفة انسحبت من ائتلاف زمن الحرب، ثم شرعت تحارب هذا الائتلاف. بل ان نظام الحكم البلشفي دخل قبل انتهاء الحرب في نزاع مع حلفاء روسيا السابقين على طول خط جنوبي ممتد في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى.

وانقلبت الحكومة السوفياتية الى اتجاه معاكس بالدخول في تحالف عمل مع عدوتها في زمن الحرب، تركيا، خلال السنوات التي أعقبت مباشرة توقيع اتفاقات الهدنة، متواطئة مع كل من أنور باشا ومصطفى كمال، وهي التي أمدت مصطفى كمال بالمال والسلاح مما ساعده على مواصلة كفاحه ضد الحلفاء. وفي عام 1921 عقدت الحكومات السوفياتية في روسيا

والبلدان التي تدور في فلكها، اتفاقيات شاملة مع حكومة مصطفى كمال التركية، فأقامت حدوداً وأنشأت علاقة عمل في ما بينها.

وفي عام 1921 أيضاً انتقلت روسيا السوفياتية إلى علاقة عمل مع دولة أخرى من الدول العدو السابقة. فقاد الجيش الألماني الجديد دخلوا، بناء على اقتراح مع أنور باشا، في علاقة سرية مع نظام الحكم السوفياتي. وأنشأ قائد الجيش، الجنرال فون سيكت، صديق أنور، «فرعاً خاصاً هو الفرع (ر)» في وزارة الحربية لإدارة هذه العلاقة التي شملت الانتاج الحربي والتدريب العسكري وتطوير أسلحة جديدة. فصار مسموحاً للضباط الألمان أن يدرسوا على الأرض الروسية أسلحة حرمها عليهم الحلفاء المنتصرون، سيما الدبابات والطائرات [1136] وأقامت المنشآت الصناعية الألمانية مصانع في روسيا لإنتاج الغاز السام والقذائف المتفجرة والطائرات الحربية. وأنشأ الجيش الألماني كليات لتدريب قادة سلاح الدبابات والطيارين الحربيين على الأرض السوفياتية. وفي الوقت نفسه أرسلت روسيا السوفياتية ضباطاً إلى ألمانيا للتدريب في كلية الأركان العامة. وهذه الترتيبات السرية أقرتها الحكومة الألمانية في الأحكام السرية المعاهدة رابالو [1137] لعام 1922. ومن دلالة الوضع الجديد أن الجنرال هانزفون سيكت، الذي عمل في استانبول رئيساً الأركان الجيش العثماني عند نهاية الحرب، وصار قائداً للجيش الألماني منذ عام 1919، كان يطلع هيئة الأركان العامة الروسية على الوضع العسكري في الدردنيل في عام 1922. كان هذا مقياساً لمدى التحول في موقف روسيا منذ حربها في عام 1914 ضد ألمانيا وتركيا. صارت هذه الأمم الثلاث صفاءً واحداً ضد بريطانيا.



## (2)

إيطاليا كانت الدولة الثانية التي انتقلت من جانب إلى آخر، فما أن وُقعت الهدنة حتى أخذت تظهر تعاطفاً مع محنة الإمبراطورية العثمانية، ولعلها تأثرت بتقليد العلاقة الرفاقية بين الحركات القومية المستمد من تعاليم الوطني الإيطالي جيزيبي مازيني في القرن التاسع عشر، ومن رغبة في المحافظة على، وتوسيع، الوجود الاقتصادي الإيطالي في تركيا قبل الحرب، كان الكونت كارلو سفورزا، الذي عين مندوباً سامياً إيطالياً في القسطنطينية عند انتهاء الحرب عام 1918، رجل دولة وعملياً يؤمن بمبادئ ذات سمة إنسانية، وقد أخذ على الفور المبادرة في إقامة علاقة عمل مع مصطفى كمال، وفي تشجيع الأتراك على مقاومة مطالب الحلفاء الأكثر تطرفاً. ولم يكتفِ الإيطاليون معارضتهم ضمن مجالس الحلفاء لشروط الصلح المقترحة من بريطانيا وفرنسا. وعندما كان السلطان العثماني في عام 1920 على وشك التوقيع على معاهدة سيفر، مرغماً على ذلك من بريطانيا وفرنسا، ذكر مسؤول رفيع المستوى في وزارة الحربية البريطانية أن إيطاليا تحركت لمساندة مصطفى كمال، الرفض للمعاهدة. وقبل التوقيع على معاهدة سيفر بشهر واحد، أنب اللورد كورزون الكونت سفورزا «لموقف عدم الوفاء» الإيطالي في الشرق الأوسط [1138].

ومنذ الهدنة فصاعداً، اتسعت شقة الاختلاف بين أهداف إيطاليا وأهداف حلفائها في الشرق الأوسط. ولم يكن لإيطاليا حافز يذكر لتأييد برنامج الحلفاء، لا سيما بعد إرسالهم الجيش اليوناني إلى أزمير لاجهاض مطالبة إيطاليا بها. وتراءى للحكومات الإيطالية المتعاقبة أن سياسة الحلفاء تهدف بصورة رئيسة إلى تحقيق منفعة لليونان - ولم تجد روما مصلحة لها في العمل من أجل هذه الغاية. وقد أخذت إيطاليا تعامل اليونان، وخصوصاً بعد أن أصبح الكونت سفورزا وزيراً للخارجية في عام 1920، معاملة الدولة المنافسة التي يجب مضاهاة مكاسبها، لا معاملة الحليف الذي تنبغي مساندة مطالبه. وعندما شددت إيطاليا على مطالبها، لم تلق مساعدة من الحلفاء. وقد حدث اشتباك مع القوات الكمالية في قونية، في وسط الأناضول، ولد لدى السلطات الإيطالية الشعور بأن إيطاليا سوف تترك وحدها في القطاع الذي تحتله من تركيا التواجه منفردة زحف القوات الكمالية - وأنها قد تُهزم. وجاءت الأحوال الاقتصادية والمالية والاجتماعية المتردية في الداخل فحملت إيطاليا في نهاية الأمر على التخلي عن مطالبها في الأراضي التركية واجلاء قواتها عن الأناضول: كان أملها أن يكافئها نظام حكم مصطفى كمال في أنغورة على هذا التصرف بمنحها

امتيازات اقتصادية. وعقد سفورزا اتفاقاً سرياً مع الكمالين تزودهم بموجه إيطاليا بشحنات كبيرة من المعدات العسكرية إذا منحوها هذه الامتيازات.

واستمر الكونت سفورزا، وزير الخارجية، يضغط على الحكومتين البريطانية والفرنسية لتنقيح معاهدة سيفر، وأنذر اللورد كورزون بأن حكومة أنغور قد تضطر الى التحالف مع موسكو، ما لم يفلح الحلفاء في التوصل الى تفاهم مع مصطفى كمال - وقال ان امكانية التحالف التركي مع موسكو مفعمة بالخطر<sup>[1139]</sup>. ثم أن الحكومة الإيطالية واصلت، لعدد من الأسباب، الافتراق عن السياسة التي تجسدها معاهدة سيفر، ولكنها لم تقدم على أي تحرك مكشوف لمعارضتها، لعدم جرأتها على المجازفة بمجابهة علنية مع بريطانيا.

كانت في إيطاليا مطالبة بأسلوب أشد تأثيراً لتحقيق طموحات البلاد. ان الحماسة الطاغية التي استقبل بها استيلاء غابرييل دانونزيو على ميناء قيوم في دلماسيا عام 1919 - كان هذا الكاتب الوطني قد سار على رأس أنصاره للاستيلاء على البلدة - قد أظهرت أين هي ينابيع العواطف الدافقة التي تنتظر من يستغلها. وقد استخدم بنيتو موسوليني جريدته «بوبولو ديتاليا» لاستغلال المرارة لدى أولئك الذين يشعرون أن إيطاليا مغبونة لحرمانها جوائز النصر، كان موسوليني شخصاً مثيراً للخواطر، وكان لا يفتأ يتنقل في تأييده أقصى مواقف سائر الفئات من اليسار الى اليمين - كان بتعبيره الذي جاء على لسانه «مغامراً يسلك كل الطرق» - فأطلق التهمة أن إيطاليا تتعرض للاحتيال عليها لسلبها «الغنيمة» في الشرق الأوسط<sup>[1140]</sup>. وقد أعلن أن «مستقبلاً امبراطورياً عظيماً» ينتظر بلاده التي لها الحق في أن تكون القوة المسيطرة في البحر الأبيض المتوسط<sup>[1141]</sup>. وكان يرى أن القوة العظمى التي تقطع الطريق على إيطاليا هي بريطانيا، فدعا الى مساعدة القوى المتمردة في مصر والهند وايرلندا.

وعندما أصبح موسوليني، بمساندة أتباعه السياسيين الذين عرفوا باسم الفاشيست، رئيساً لوزراء إيطاليا في عام 1922، أخذت خلافات إيطاليا المحلية مع بريطانيا على المطالب الإقليمية في تركيا وشرق البحر الأبيض المتوسط تتطور إلى افتراق أعم ودائم. كان برنامج موسوليني السياسي يدعو الى طرد بريطانيا كلياً من البحر الأبيض المتوسط<sup>[1142]</sup>. وتحولت إيطاليا بقيادته، مثل روسيا، من حليف الى عدو للامبراطورية البريطانية.

### (3)

انسحبت الولايات المتحدة من ائتلاف الحلفاء في المدة 1919 - 1920 بعد أن رفض مجلس الشيوخ الأميركي معاهدة فرساي ورفض العضوية في عصبة الأمم، واستنكف عن قبول الانتداب عليّ أرمينيا. لقد حدد وزير الخارجية الأميركي، باسم الرئيس ويلسون، ورداً على مذكرة من السفير الفرنسي، الموقف الأميركي الجديد في مذكرة تاريخها 24 آذار (مارس) 1924، وقال فيها: أن الولايات المتحدة لن ترسل من يمثلها الى مؤتمر الصلح ولن تشارك في، أو توقع على، معاهدة الصلح مع الامبراطورية العثمانية، ولكنها تتوقع أن تأخذ المعاهدة في الحسبان وجهات النظر الأميركية. وازافة الى وجهات نظر الرئيس ويلسون في أمور شرق أوسطية محددة، جاءت المذكرة على ذكرها، أصرت الولايات المتحدة على اتباع سياسة «الباب المفتوح»<sup>[1143]</sup>، وعدم التمييز ضدّ غير الموقعين على المعاهدة، والمحافظين على الحقوق الأميركية القائمة في المنطقة. شرعت وزارة الخارجية الأميركية عام 1919 في برنامج يثبت قانونياً الحقوق الأميركية في المناطق العثمانية المحتلة، ومن ضمنها ليس فقط الحقوق المستمدة من اتفاقات الامتيازات التي تحكم حقوق الأميركيين وامتيازاتهم في تركيا، بل أيضاً حرية الملاحة في الدردنيل، وحماية الكليات والأنشطة الإرسالية الأميركية، واعطاء الولايات المتحدة فرصة كافية للقيام بأنشطة للتنقيب عن الآثار وأنشطة تجارية. وأبرز المصالح التي شددت عليها الولايات المتحدة هي مصالح شركات النفط الأميركية. كانت هذه المصالح هي التي قادت الولايات المتحدة وبريطانيا الى التصادم.

أثيرت مسألة النفط للمرة الأولى نيابة عن شركة (ستاندارد أويل كومباني أوف نيويورك - شركة نفط ستاندارد النيويوركية) «سوكوني» التي كانت تقوم بالتنقيب عن النفط في الشرق الأوسط قبل الحرب بموجب امتيازات حصلت عليها من الحكومة العثمانية - أي ترخيص حصري بالتنقيب عن النفط في مناطق معينة - في فلسطين وسورية. ولم تكن لها امتيازات في العراق ولكنها رغبت في الحصول على امتيازات هناك، لأنها كانت الممون الرئيس للمنتجات النفط في المنطقة. كانت استراتيجية التسويق التي تطبقها الشركة تقضي بالحصول على موارد لجهازها التسويقي في مكان المبيعات أو بالقرب منه.

أرسلت شركة سوكوني في شهر أيلول عام 1919 مهندسين جيولوجيين للتنقيب عن النفط في العراق. أحدهما لم يراع الحيلة والحذر فأرسل الى زوجته رسالة ليخبرها: «انني ذاهب إلى أكبر امكانيات نفط متبقية في

العالم» وان «الفطيرة كبيرة جداً» إلى حد أنه ينبغي عمل أي شيء لا بد منه من أجل أن «تعال الحقوق التي هي قطعاً حقوق المواطنين الأميركيين» [1144]. اعترضت الرقابة البريطانية البريدية في مدينة القسطنطينية المحتلة من قبل الحلفاء الرسالة ونقلت نسخة عنها إلى الحكومة البريطانية في لندن. وعلى الفور وجهت لندن أوامر إلى سير أرنولد ويلسون، المندوب السامي في العراق بمنع الجيولوجيين الأميركيين من التنقيب. وقد احتجت وزارة الخارجية الأميركية استجابة لطلب شركة سوكوني، ولكن اللورد كورزون، وزير خارجية بريطانيا، تخلص من الأميركيين بحكاية معقولة في ظاهرها وغير صادقة بكاملها: ان القيود المطبقة في زمن الحرب الجنسيات تحظر هذه النشاطات حتى ابرام الصلح.

كانت شركة (ستاندارد أويل كومباني أوف نيو جيرسي) الثانية التي دخلت في الصورة. كان كبير مهندسيها الجيولوجيين قد استنتج في عام 1910 ان في العراق امكانية نفطية، ولكن الشركة لم تفعل شيئاً في هذا الشأن حتى انتهاء الحرب. وقد اقترح رئيس الشركة على مجلس الادارة في شباط (فبراير) عام 1919 بذل جهد للبحث عن النفط في العراق. وبعد مرور شهر أوفدت الشركة رئيس قسم الانتاج الخارجي الى باريس للتداول في الأمر مع الوفد الأميركي الى مؤتمر الصلح.

ثم ان السيد أ. بدفورد، رئيس مجلس الادارة، ذهب الى أوروبا لمعالجة الأمر بنفسه. وكانت مختلف الترتيبات التي جرى التفاوض بشأنها بين بريطانيا وفرنسا في زمن الحرب، لاقتسام ثروة النفط في الشرق الأوسط بعد الحرب، قد ظلت سرية - وجرى التخلص من الحكومة الأميركية بتطمينات كاذبة، مفادها انه لم يتقرر شيء بشأن المصالح الأميركية المستثناة - وكانت هذه هي الأمور التي جاء بدفورد لاستقصائها. وفي 27 نيسان (أبريل) 1920، خلال مؤتمر سان ريمون عقدت بريطانيا وفرنسا صفقة نفط سرية نهائية اتفقتا بموجبها على احتكار كامل الانتاج المستقبلي من نفط الشرق الأوسط في ما بينهما. وقد حصل بدفورد على نسخة من الاتفاق سلمه اياها أحد أعضاء الوفد الفرنسي، فأحالها الى السفارة الأميركية.

ونظراً لصخامة الاحتكار الانكليزي - الفرنسي المقترح، فقد اعتبرت الحكومة الأميركية اتفاق سان ريمو مؤذياً ليس فقط لشركة أو أكثر من الشركات الأميركية، بل مؤذياً لمصالح الولايات المتحدة كدولة. كانت الحرب قد ركزت الانتباه لأول مرة على الأهمية الحيوية للنفط بالنسبة للجيش والأسطول، ثم مرت الولايات المتحدة في أعقاب الحرب بحالة فزع من

ندرة النفط. وقد ارتفعت أسعار النفط الخام، وارتفعت أصوات كثيرة تعبر عن الخوف من نفاذ احتياطي النفط الداخلي. وقد كتب المستشار الاقتصادي لوزارة الخارجية: «أنه لأمر جوهري اقتصادياً... الحصول على موارد خارجية مضمونة من النفط» بغية تأمين موارد النفط لخزانات الأسطول التجاري والأسطول الحربي، وبغية بقاء الولايات المتحدة المصدر الرئيس في العالم للنفط والمنتجات النفطية [1145].

في صيف عام 1920 نشرت اتفاقية سان ريمو، فاحتجت الولايات المتحدة بعد أن صار بإمكانها أن تقر بأنها على علم بالاتفاقية. وكان رد اللورد كورزون وزير الخارجية البريطاني أن بريطانيا تسيطر على 4/5 بالمئة فقط من انتاج النفط العالمي، في حين أن الولايات المتحدة تسيطر على ثمانين بالمئة - كما أن الولايات المتحدة تستبعد المصالح غير الأميركية من المناطق الواقعة تحت إشرافها [1146]. ورد وزير الخارجية الأميركي بينبريدج كولبي على الرد البريطاني قائلاً أن الولايات المتحدة تمتلك جزءاً فقط من اثني عشر جزءاً من احتياطي النفط المعروف في العالم، وأن الطلب على النفط يزيد على المعروض منه، وأنه لا سبيل لتلبية الحاجة المتزايدة الى النفط إلا بعدم عرقلة تطوير المصادر الموجودة [1147].

أدرك المسؤولون البريطانيون انهم أغضبوا الولايات المتحدة، فراودهم الشك في أن مصالح النفط الأميركية كانت وراء التمرد على بريطانيا في العراق ووراء الحركة الكمالية في تركيا. وهناك من زعم أن ضباط الأمن البريطانيين في العراق ألقوا القبض على أحد قادة التمرد وعثروا معه على رسالة من إحدى شركات «ستاندارد أويل» النفطية الأميركية، تبين أن القنصل الأميركي في بغداد كان يوزع أموالاً أميركية على الثوار الشيعة في مدينة كربلاء المقدسة [1148].

مواقع الأمر أن القنصل الأميركي في بغداد كان معارضاً للحكم البريطاني في العراق، أما واشنطن فلم تكن معارضة له، بل العكس هو الصحيح: فقد كانت وزارة الخارجية الأميركية وشركات النفط محبذة للهيمنة البريطانية في المنطقة، ذلك أن شركات النفط لم تكن على استعداد للعمل في التنقيب والتطوير والانتاج الا في المناطق التي تحكمها أنظمة تعتبرها الشركات مستقرة ومسؤولة. وقد أبلغ رئيس شركة «نيو جرسي ستاندارد» وزارة الخارجية الأميركية أن العراق هو مجموعة من العشائر المتحاربة، وأن الأمل الوحيد في اقرار القانون والنظام يتمثل في حكومة عراقية تسيطر عليها بريطانيا [1149].

لقد كان ألن دالس، رئيس قسم شؤون الشرق الأدنى في وزارة الخارجية الأميركية، أحد مسؤولين كثيرين عبروا عن الأسى لفكرة احتمال تخلي بريطانيا وفرنسا عن الإشراف على المناطق التي فتحتها الدولتان في الشرق الأوسط، وعبروا أيضاً عن الخوف على مصير المصالح الأميركية إذا ما فعلت ذلك بريطانيا وفرنسا<sup>[1150]</sup>، وقد ذكر دالس أن غاي ويلمان، محامي شركات النفط الأميركية التي كانت تنشد حصة في تطوير النفط العراقي، يرى أن الشركات التي هو موكلها ستكون في وضع أفضل إذا تفاوضت على شراكة مع المصالح البريطانية، مما لو عملت بمفردها<sup>[1151]</sup>.

بدأ ينشق حل للنزاع بين بريطانيا وأميركا في صيف عام 1920 عندما أشار مهندسون جيولوجيون على الحكومة البريطانية بأن امكانات النفط في العراق أغني مما هو معتقد<sup>[1152]</sup>، وفي الوقت عينه بلغ وزارة الخارجية البريطانية أن هذه الامكانات - إذا صحت فعلاً - ضخمة الي حد أن بريطانيا تفتقر إلى الرأسمال اللازم لكي تتمكن من تطويرها بنفسها، ولذلك لا بد من الاستعانة بالمشاركة الأميركية<sup>[1153]</sup>. لهذه الأسباب، ولأسباب سياسية، أوفد سير جون كادمان، وهو شخصية هامة في صناعة النفط البريطانية، إلى الولايات المتحدة للشروع في محادثات. وفي 22 حزيران (يونيو) 1922 قام أ. بدفورد، ممثلاً شركة «ستاندارد أويل كومباني أوف نيوجيرسي» بزيارة وزارة الخارجية الأميركية ليلغها انه نيابة عن سبع شركات نفط أميركية يقترح اجراء مفاوضات من أجل مشاركة في الشركة ذات الامتياز المملوكة من قبل بريطانيا في العراق. وردت وزارة الخارجية الأميركية قائلة أنه ليس لديها اعتراض على ذلك، بشرط عدم استبعاد أية شركة نفط أميركية مؤهلة للمشاركة وترغب فيها. وعلى هذا الأساس بدأت المفاوضات<sup>[1154]</sup>.

وهكذا حلت بريطانيا خلافها مع الولايات المتحدة. ولكن عبء فرض السيطرة الأوروبية على الشرق الأوسط تركته أميركا ملقى على كاهل بريطانيا، دون مساعدة من أحد.

## (4)

كانت فرنسا، خليفة بريطانيا الكبرى والأقرب، الأخيرة في الخروج من الحلف. ان الخصام الطويل الذي دار حول ما إذا كانت اتفاقية سايكس - بيكو قد احترمت، هذا الخصام، شأنه شأن رعاية بريطانيا للمطالب السياسية للأسرة الهاشمية، قد أخذ ضريبته. ومع اعتزال كليمنصو، صارت النظرة إلى أريستيد برايان، السياسي اليساري المحنك الذي شغل منصب رئيس الوزراء مرات عديدة، انه زعيم الذين ظلوا على ولائهم للتحالف بريطانيا. مع ذلك حدث الانفصام النهائي بين البلدين عندما تولى هو من جديد رئاسة الوزراء في كانون الثاني (يناير) 1921.

حدث ذلك لأن برايان لم ير سبيلاً للحفاظ على وضع بلاده في كيليكا، الولاية الجنوبية في تركيا التي كانت لا تزال محتلة من قبل فرنسا، وقد أصبحت قوة الاحتلال الفرنسية المؤلفة من 80,000 جندي عبئاً يستنزف الموارد الفرنسية ولم تعد فرنسا تطيق هذا العبء، فلم يكن البرلمان الفرنسي مستعداً للموافقة على استمرار دفع نفقات قوة الاحتلال، وثبت أن كيليكا مكان مربك لجيش احتلال فرنسي، إذ أنها واقعة بين الأتراك الكماليين وسورية المثيرة للمتاعب. ولذلك أوفد رئيس الوزراء برايان في ربيع عام 1921 عضو مجلس الشيوخ الفرنسي هنري فرانكلان - بويون، المعروف بميله إلى تركيا، إلى أنغورا في مهمة مكلفاً بالتفاوض من أجل إيجاد مخرج. كان فرانكلان - بويون، وهو رئيس سابق للجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب الفرنسي، زعيم المجموعة الاستعمارية ومؤمناً أشد الإيمان بأهمية تركيا كدولة اسلامية حليفة.

نجح فرانكلان - بويون خلال مهمته الثانية في أنغورا، في خريف عام 1921، في التوصل إلى اتفاق وضع نهاية الحرب بين فرنسا وتركيا، وتضمن اعترافاً فعلياً بنظام أنغورا القومي حكومة شرعية لتركيا، كان اتفاق أنغورا بالنسبة للقوميين الأتراك أعظم انتصاراتهم الدبلوماسية. وقد قال مصطفى كمال: «ان الاتفاق قد برهن للعالم بأسره» ان معاهدة سيفر هي الآن «مجرد خرقه بالية» [1155]. أما البريطانيون فقد اعتبروا الاتفاق خيانة فرنسية، لأنه كان صلحاً منفرداً أطلق أيدي الأتراك لمهاجمة البلدين المعتمدين على بريطانيا - اليونان والعراق. وقد تحققت شكوك البريطانيين، إذ سلم الفرنسيون حكومة أنغورا كميات من الامدادات العسكرية [1156]. وهكذا فان الأتراك الذين حصلوا على هذه الامدادات من فرنسا، كانوا في حالة حرب مع اليونان التي تدعمها بريطانيا، وبذلك ألقت دول التحالف نفسها



متباعدة وعلى طرفي نقيض في الحرب العثمانية التي كانت قد دخلتها معاً كدول متحالفة في عام 1914.

في 6 تشرين الأول (أكتوبر) 1921 قدم تشرشل مذكرة الى مجلس الوزراء منبهاً فيها الى نيا المساعدة التي تعتزم فرنسا تقديمها للكماليين الأتراك. وقد قال في المذكرة: «يبدو انه ليس بالامكان أن نصدق هذه المعلومة التي، إذا صحت، ستكون بلا ريب ادانة للحكومة الفرنسية بما لا يمكن وصفه بأرقى الصيغ دبلوماسية إلا أنه (عمل غير ودي)» [1157]. لا بد من أن يكون مفهوماً أن القاموس الدبلوماسي، وهو مرجع في هذه الأمور، يقول: «عندما ترغب دولة في إنذار دول أخرى أن قيامها بأعمال معينة قد يؤدي الى حرب، فمن المعتاد أن تذكر هذه الدولة أن عملاً كهذا (سيعتبر عملاً غير ودي)» [1158]. ولذلك كان كلام تشرشل في مذكرته تصريحاً شديد اللهجة، إذ أن كلماته تعني ضمناً أن اتفاق أنغورا قد يؤدي الى حرب بين فرنسا وبريطانيا.

كان تشرشل منذ بعض الوقت يخشى أن تتجه تركيا القومية شرقاً لتهاجم نظام حكم فيصل الهزيل في العراق، وكان يعتقد أن فرنسا - بسماحها لتركيا أن تستخدم الجزء المار في كيليكيا من سكة حديد بغداد - على وشك أن تسهل هذه الخطوة. ووفقاً لما جاء في مذكرة تشرشل: «من الواضح أن الفرنسيين يفاوضون، بواسطة السيد فرانكلان - بويون، لعقد معاهدة لا تهدف الى صيانة المصالح الفرنسية في تركيا فحسب، بل لضمان هذه المصالح حيثما اقتضت الضرورة على حساب بريطانيا العظمي. انهم، كما يظهر، يعتقدون أن لدينا ترتيباً مماثلاً مع اليونان معادياً لفرنسا. وهم، بطبيعة الحال، غاضبون جداً بشأن الملك فيصل»، إذ أجلسه بريطانيا على عرش العراق [1159]. وحسب أقوال تشرشل، ما كان شيء أحب الى فرنسا من رؤية انهيار فيصل والسياسة البريطانية في المنطقة، وهذا يعني أيضاً تدمير ما صنعه بيدها.

لقد أخفق رئيس الوزراء الفرنسي برايان في ادراك مقدار شدة تأثير اتفاق أنغورا على السياسة البريطانية في أوروبا. واتجه برايان في عام 1921 الى بريطانيا ليضمن حماية فرنسا من تجدد التحدي الألماني، بعد أن علم أن الحكومة الأميركية هي في الأساس غير متعاطفة مع كامل اتجاه السياسة الفرنسية بعد الحرب ازاء المانيا [1160]. وخوفاً من وقوع فرنسا في العزلة، تقدم برايان الى لويد جورج وكورزون باقتراح لعقد تحالف ثنائي بين بريطانيا وفرنسا لتأمين فرنسا في وجه المانيا. ولكن الزعماء البريطانيين رفضوا النظر في انشاء هذا الحلف ما لم تجد فرنسا حلاً



للخصومة الناجمة عن اتفاق أنغورا، وعقب هذا الرفض البريطاني سقطت حكومة برايان.

أصبح رئيس الجمهورية السابق ريمون بوانكاريه رئيس وزراء فرنسا الجديد. كان بوانكاريه يمثل القطب النقيض لبرايان، فلم يحمل الكثير من المودة لبريطانيا. وكانت دبلوماسيته ترمي الى الاستغناء عن بريطانيا فتسلك فرنسا منفردة مسلك الدولة الكبرى بواسطة خلق شبكة تحالفات مع بلدان أقل قوة في وسط أوروبا وشرقها من ضمنها بولندا، ورومانيا، ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا. وزاد التباعد بينها وبين بريطانيا، ابحاؤها لقادة بريطانيا أن فرنسا تهدف الى الهيمنة على قارة أوروبا، مثلما فعلت في عهد لويس الرابع عشر وعهد نابوليون. لقد زالت نهائيا امكانية التحالف بين بريطانيا وفرنسا في حزيران (يونيو) 1922 عندما أوقفت بريطانيا المفاوضات. ومنذ ذلك الحين اتسعت شقة الخلاف بين البلدين.

## (5)

العزلة الدبلوماسية التي وجدت بريطانيا نفسها فيها كانت الى حد ما نتيجة الدبلوماسية الحصيفة التي اتبعها مصطفى كمال. فقد تعمدت حكومة أنغورا أن توقع بين الحليفين.

بيد أن قرار بريطانيا أن تفرض حكماً أوروبياً على الامبراطورية العثمانية السابقة هو الأمر الأساسي الذي قاد الى فسخ التحالف أو كان على أية حال - على فرض وجود عوامل أخرى أسهمت في فسخ التحالف - سبباً لانجراف الانشقاق في هذه الاتجاهات الخطرة. وهنا نستطيع أن نلمح بأوضح صورة التباين بين سياسة بريطانيا الشرق أوسطية قبل عام 1916 وسياستها الشرق أوسطية بعد عام 1916.

لم يكن الأمر مجرد نجاح بريطانيا في أغلب الأحيان في منع اضطرام نار النزاع بين الدول الأوروبية في القرن التاسع عشر بواسطة ضمان توصلها الى اتفاق متبادل يردع التعدي على الشرق الأوسط. بل ان أسلوبها في تحقيق ذلك أسهم أيضاً في صيانة الاستقرار الدولي. فتكرار احالة المسائل الى مجموعة الدول الأوروبية، وعادةً التشاور والتعاون المتعدد الأطراف التي نجمت عن ذلك، قد ساعدا في جعل السياسة العالمية أكثر تمديناً. وبهذا المعنى أسهمت مسألة الشرق الأوسط في الوئام الدولي، بالرغم من الطابع التفريقي المتأصل فيها.

ولكن ما ان وافقت حكومة اسكويث عام 1915 على مطالب روسيا الاقليمية، حتى صار الشرق الأوسط مصدر خلاف. فإذا ما قُبِضَ لقيصر روسيا أن يسيطر على الجزء الشمالي من الامبراطورية العثمانية الناطق بالتركية إذن لا بد لبريطانيا - وفقاً لما قاله اللورد كيتشنر - من أن تهيمن على الجنوب الناطق بالعربية. وبالتالي، فان ذلك أدخل في اللعبة مطالبة فرنسا بسورية وفلسطين. وهكذا قاد كل مطلب الى مطلب آخر، واعتقدت كل دولة أن الدول الأخرى تتماذى في مطالبها. وحتى لو أن بريطانيا قسمت بعد الحرب مباشرة الامبراطورية العثمانية بين الحلفاء بموجب التعهدات التي قطعتها للحلفاء وتطلبت مساومات شديدة، ل بقي بعض الخطر أن يقع نزاع بين الدول المتحالفة إذا ما سعت احداها لتحقيق أهداف توسعية، ولكن النزاع صار محتوماً عندما حاول لويد جورج أن يأخذ كل شيء للامبراطورية البريطانية. وازدادت الأمور سوءاً عندما حاول أن يفعل ذلك دون أن تتوافر له الموارد اللازمة لدعم خطوته.

تميل الأحلاف الى الانشقاق عند نهاية حرب. علاوة على ذلك، فقد الشركاء الذين عملت معهم بريطانيا قبل الحرب من أجل الوئام الدولي، السيطرة

على السياسة العالمية. إلا أن مسألة الشرق الأوسط هي التي أدت في نهاية الحرب الى الصدامات الأولى بين بريطانيا وحلفائها السابقين: روسيا، وإيطاليا، وفرنسا، والولايات المتحدة. كانت المرارة التي ولدتها السياسة الشرق أوسطية هي التي عرقلت جهود بريطانيا ليجاد أرضية سياسية مشتركة مع حلفائها السابقين في أماكن أخرى من العالم، وهذا أدى في نهاية المطاف الى تفسخ الأحلاف.

# الفصل الرابع

## مأساة يونانية

### (1)

كان لويد جورج في العامين 1919 و1920 شديد الاعتزاز إذ يتذكر ان سلطته مستمدة من أحلاف وائتلافات كان يرأسها، ولكن لم يكن يسيطر عليها. لقد هيات له الأحداث الآن ما يذكره بالماضي، وفيما أخذت تحالفاته الخارجية تؤول إلى الانقسام في عام 1921، ألقى رئيس الوزراء نفسه معزولاً على نحو متزايد ضمن حكومته بسبب سياسته الحربية ضد تركيا. وبعد أن تغير الملك وتغيرت الحكومة في اليونان، وبعد الاطاحة بفينزيلوس المؤيد للحلفاء، أخذ بونار لو يحبذ التوصل إلى اتفاق مع الأتراك. ولم يكن تجاهل بونار لو ممكناً، فهو قائد الحزب الذي يتمتع بأغلبية المقاعد في مجلس العموم، ولو كان بقي في الحكومة لكان نجح في فرض تغيير في السياسة. كان أنصاره يميلون إلى تركيا وكان طوال بقائه في الحكومة لا يفتأ يذكر لويد جورج بوجهات نظرهم، ولكن بونارلو اعتزل الحياة العامة في شتاء 1921 بسبب إعتلال صحته، فحرم رئيس الوزراء شريكاً سياسياً كان يستطيع ان يضبط تصرفه. وعندما ترك بونارلو الحكومة ازداد ابتعاد رئيس الوزراء عن التحسيس بالشعور السائد في مجلس العموم. لقد كان مدركاً أن زملاءه في مجلس الوزراء، ووزارة الخارجية ووزارة الحربية، معارضون أيضاً لسياسته اليونانية - التركية، ولكنه لم يعط وجهات نظرهم أي اعتبار.

عندما انتهى مؤتمر لندن في آذار (مارس) 1921 - المؤتمر الذي اخفق فيه الحلفاء واليونان والكماليون في التوصل إلى اتفاق - أرسل لويد جورج موريس هانكي إلى فندق كلاريدج ليخبر الزعماء اليونانيين المقيمين في الفندق، انه لن يقف في طريقهم إذا شعروا انهم مضطرون لمهاجمة قوات مصطفى كمال<sup>[1161]</sup> وفهمت الحكومة اليونانية من هذا الكلام، أنه إذن لها باستئناف الحرب، فشنت هجوماً جديداً في 23 آذار (مارس) 1921. وبالرغم من الأخطاء في عمل ضباط الأركان والمقاومة الصلبة، تحرك الجيش اليوناني ضُعفاً من السهل إلى الهضبة.

لقد صحب ارنولد توينبي، المؤرخ والاستاذ في العلاقات الدولية، الجيش اليوناني بصفة مراسل الجريدة «مانشستر غارديان». وجاء في إحدى

رسائله إلى الصحيفة أنه بينما كانت مركبته تصعد من السهل «بدأت أتيقن من مدى ضيق هامش مقامرة اليونانيين لتحقيق حسم عسكري في الأناضول، ومدى الظروف المعاكسة التي يعملون فيها لتحقيق انتصار على مصطفى كمال» [1162]. في نهاية الأسبوع صدّ الضابط عصمت، أحد ضباط مصطفى كمال، القوات اليونانية عند قرية اينونو واضطرها للنكوص.

أنحت الحكومة اليونانية باللائمة على القادة العسكريين، وفي 7 نيسان (ابريل) اجتمع غوناريس - الذي صار الآن رئيساً للوزراء - وزملاؤه مع يوانيس ميتكساس، الشخصية العسكرية الفذة في اليونان وطلبوا إليه أن يقود هو الهجوم التالي في الأناضول، لكن ميتكساس رفض قائلاً للسياسيين أن اليونان لا يمكنها أن تربح الحرب في تركيا. وقال لهم انه نشأ عند الأتراك شعور قومي «وهم مصممون على القتال من أجل حريتهم واستقلالهم... ومدركون أن آسيا الصغرى بلادهم واننا غزاة. وليس للحقوق التاريخية التي نستند إليها في مطالبنا أي تأثير عليهم أو على مشاعرهم القومية. أما هل موقفهم صواب أو باطل فتلك مسألة أخرى، فالمهم ما هو شعورهم» [1163].

قال رجال السياسة لميتكساس انه صار مستحيلاً من الناحية السياسية أن تتخلى الحكومة عن الحرب. ومع انهم يبصرون المجازفة التي سيقدمون عليها، شعروا انهم مجبرون على المقامرة بكل شيء في سبيل النجاح في هجوم واحد وأخير، حددوا موعداً له فصل الصيف.

في 22 حزيران (يونيو) أرسل الحلفاء رسالة إلى الحكومة اليونانية يعرضون فيها وساطتهم في الحرب، فردت اليونان برفض مهذب. وقالت اليونان أن الاستعدادات لشن الهجوم ماضية في طريقها ولم يعد إيقافها أمراً عملياً.

لم يترك الملك قسطنطين وغوناريس أمامهما خياراً سوى خيار القيام بحملتهما، وارتبط مصير لويد جورج بمصيرهما. ولم يكن ثمة ما يفعله رئيس الوزراء البريطاني سوى أن يراقب و ينتظر بينما الجيشان الأجنيان يشتبكان في مجاهل الداخل في آسيا الصغرى، وقد ذكرت سكرتيرته وعشيقتها في مفكرتها انه:

«كافح كفاحاً عظيماً في مجلس الوزراء، من أجل دعم اليونانيين (معنوياً وليس في ميدان القتال) وكان هو وبلفور الوحيدين المؤيدين لليونانيين في المجلس... وقد كان له ما أراد، ولكنه كان وجلاً شديد الوجل أن يفشل الهجوم اليوناني، وان يثبت أنه كان مخطئاً. وهو يقول أن سمعته السياسية تتوقف إلى حد بعيد على ما يحدث في آسيا الصغرى... فإذا انتصر

اليونانيون كان المعاهدة فرساي ما يبررها، وينتهي الحكم التركي. عندها ستقوم امبراطورية يونانية جديدة صديقة لبريطانيا وتمد يد المساعدة إلى مصالحنا في الشرق. ولديه قناعة تامة بصواب موقفه هذا، وهو مستعد للرهان بكل شيء على هذا الموقف» [1164].

في 10 تموز (يوليو) 1921 قام الجيش اليوناني بهجوم ناجح نجاحاً رائعاً على ثلاثة محاور. وقد تعلم القادة العسكريون اليونانيون من الأخطاء التي اقترفوها في كانون الثاني (يناير) وآذار (مارس)، فلم تتكرر الأخطاء. وتوج الهجوم بالاستيلاء على اسكي شهر، مركز السكك الحديدية الذي يعتبر المفتاح الاستراتيجي لغربي الأناضول.

استطار لويد جورج فرحاً، فأطلق لبلاغته ولسانه العنان في الحملة على معارضيه. وقد كتب إلى وزير الحربية في حكومته قائلاً:

سمعت من أوساط يونانية انه تم الاستيلاء على اسكي شهر وان الجيش التركي يتراجع تراجعاً كاملاً. إن هذا نبأ ذو أهمية بالغة من أية زاوية نظرت إلى المسألة. إن مستقبل الشرق سيتقرر إلى حد بعيد جداً من خلال هذا الصراع، مع ذلك فإن وزارة الحربية، حسبما أرى، لم تتعز أن تعرف ما حدث... ان هيئة الأركان أبدت أقصى حالات البلادة في هذه المسألة. ومعلوماتها عن قوة ونوعية كل من الجيشين قد ظهر عندما تم تحري الحقائق انها معلومات خاطئة على نحو مخيب للأمل، وقد تم تحري الحقائق بمبادرة من السياسيين الذين ينظر إليهم العسكريون باحتقار».

وأبقى رئيس الوزراء «تحيته» المثلّى إلى نهاية كلامه: «أليس لديك في الوزارة دائرة تعرف باسم دائرة المخابرات؟ حاول أن تعرف ما هو عملها. إنها تظهر في رقم كبير عند اعداد تقديرات الميزانية، ولكن لا أثر لها عندما يتعلق الأمر بالمعلومات» [1165].

بالقرب من اسكي شهر لم يقو الجنرال التركي عصمت، على التأقلم مع التقهقر، عند ذاك أزاح مصطفى كمال العباء عن كاهله، فقال عصمت مرتاحاً إلى أحد رفاقه «الباشا قادم». ووصل مصطفى كمال ليتولى شخصياً مسؤولية اصدار أمر التراجع [1166]. وقد اعترف مصطفى كمال بأن شعبه سيشعر «بصدمة معنوية» عندما يعلم انه عازم على التخلي عن غربي الأناضول للعدو [1167].

والذي حدث هو أن المجلس الوطني التركي شهد صخباً عندما تكتل أعداء مصطفى كمال السياسيون، من منافسيه الشخصيين، وأتباع أنور، والانهاميون ضد مصطفى كمال. ثم أن مصطفى كمال بعد مضي وقت ما،

دعا المجلس الوطني إلى جلسة سرية، واقترح نهج عمل على غرار نهج امبراطورية روما: ان ينتخبه اعضاء المجلس دكتاتوراً لمدة ثلاثة أشهر، فإذا ما أخفق بصفته قائداً أعلى، فإنه سيتحمل كامل التبعة. إن هذا الاقتراح قد جمع بين مؤيديه الذين يؤمنون بالنصر وبين أولئك المتيقنين من الهزيمة، وبذلك أقر الاقتراح.

مصطفى كمال قواته إلى منطقة تبعد خمسين ميلاً عن عاصمته انغورا، ونشرها وراء سحب منعرج عظيم لنهر ساكاريا. وخلال ما توافر له من الوقت صادر موارد ومؤناً من سائر السكان، فوضع يده على أربعين بالمئة من مخزون الناس من الطعام واللباس، والمصنوعات الجلدية، وصادر الخيول وأخذ أهبطه لحرب شاملة. وأصدر أمره إلى قواته بأن تتحصن على المرتفعات والتلال التي تنتصب بارتفاع حاد بمحاذاة ضفة النهر القريبة ممتدة نحو انغورا. وما أن انتصف شهر آب (أغسطس) حتى كان جيشه قد تحصن في هذا الموقع الدفاعي الطبيعي المنيع، محيطة بمدينة انغورا على مسافة ستين ميلاً وراء منعرج النهر ومسيطرًا من أماكنه المرتفعة على مجرى النهر.

بدأ الجيش اليوناني في 14 آب (أغسطس) 1921 زحف النصر على انغورا. كان رئيس مكتب الإمداد في رئاسة الأركان قد حذر من أن خط المواصلات والنقل الطويل للجيش اليوناني سينقطع إذا تقدم الجيش إلى ما بعد نهر ساكاريا، لكن زملاءه رأوا أن لا سبب للقلق ما داموا لا ينوون التقدم أبعد من ذلك كثيراً<sup>[1168]</sup>. واعتقد القادة العسكريون اليونانيون انهم قد هزموا العدو ولم يبق إلا أن يجهزوا عليه. ولذلك وجهوا دعوة إلى ضباط الارتباط البريطانيين الذين اصطحبوهم لحضور الاحتفاء بالنصر في انغورا بعد انتهاء المعركة.

حدث أول تماس بين الجيش اليوناني الزاحف وقوات العدو في 23 آب (أغسطس)، وبدأ الجيش اليوناني هجومه على طول الخط الدفاعي في 29 آب (أغسطس). وبعد أن عبر المشاة اليونانيون النهر شقوا طريقهم شبراً شبراً في صعودهم، نحو المرتفعات، طاردين أمامهم العدو من خطوط خنادق على قمم المرتفعات إلى خطوط أعلى منها. واستمر القتال الضاري أيام ثم أسابيع كانت القوات اليونانية خلالها تتقدم على الأرض بمعدل ميل واحد في اليوم. وفي نهاية المطاف سيطرت القوات اليونانية على المرتفعات الرئيسة لكن النصر أفلت منها. فقد انقطعت عنهم امدادات الطعام والذخيرة بسبب غارات الفرسان الأتراك، وبلغ منهم الإعياء مبلغاً شديداً. وإزاء العجز عن مواصلة القتال، انحدرت القوات اليونانية من المرتفعات وعبرت نهر ساكاريا في طريق العودة في 14 أيلول (سبتمبر)،

واستمر تراجعها حتى اسكي شهر، التي بدأت منها زحفها قبل شهر، وهكذا انتهت الحملة.

أما في انغورا فإن المجلس الوطني المعترف بالجميل رقي مصطفى كمال إلى رتبة مشير وأنعم عليه بلقب «غازي» - وهذه اللفظة التركية الاسلامية تعني «المجاهد في سبيل الدين».



## (2)

بين صيف عام 1921 وصيف عام 1922 ساد الهدوء ساحة المعركة، وخلال هذه المدة سافر غوناريس، رئيس وزراء اليونان، ومعه وزير خارجيته غرباً ينشدان العون من الحلفاء، ولم يلقياً في القارة الأوروبية سوى القليل من التعاطف. أما في لندن فقد جلسا في قاعة إنتظار السفراء في وزارة الخارجية، وقبعتهما في أيديهما بانتظار ان يجد اللورد كورزون حلاماً لمشاكلهما. وقد قال لهما لويد جورج: «أنا شخصياً صديق لليونان، ولكن... جميع زملائي يعارضونني. ولا أستطيع ان اكون ذا نفع لكما، أنه أمر مستحيل، مستحيل» [1169].

لم يعد لدى رئيس وزراء بريطانيا ما يقدمه لليونانيين، ومع ذلك حرّضهم على القتال. كانت سياسته (حسبما هي في الواقع) أن تستمر اليونان في نهجها على أمل أن تتغير الأمور إلى الأفضل. وفي ربيع عام 1922 قال لفنيزيلوس (الذي كان يزور لندن بصفته مواطناً عادياً وجاء المقاتلة في مجلس العموم) ان الرأي العام في البلدان الحليفة سيعاود مساندة اليونان لدى اختفاء الملك قسطنطين عن مسرح الأحداث في نهاية المطاف. وقال له: «يجب على اليونان في هذه الأثناء أن تتشبث بسياستها»، مضيفاً: «ان هذا زمن امتحان الأمة اليونانية، فإذا تابرت الآن ضمنت المستقبل... يجب على اليونان ان تجوب البرية وان تتغذى على المن تقطفه من الصخور، ويجب أن تكافح عبر التجربة القاسية للزمن الراهن». وقال أيضاً: «انه لن يصافح يونانياً يتراجع عن أهداف بلاده في ازмир» [1170].

وجد لويد جورج نفسه وقد ازداد عزلة، حتى ضمن حكومته، فأخذ وزير الخارجية اللورد كورزون زمام الأمور في يده، وتولى الإشراف الفعلي على الجهود البريطانية لحل الأزمة. وقد اتجه، بالتعاون مع الحلفاء، نحو التوصل إلى تفاهم مع تركيا القومية.

في صيف ذلك العام خشي الملك قسطنطين ان يغدر به الحلفاء، فسحب ثلاث كتائب وفوجين من الجيش اليوناني في الأناضول وأرسلها إلى تراقيا، المنطقة الأوروبية من تركيا مقابل القسطنطينية. عندئذ أعلنت حكومته أن اليونان عازمة على احتلال القسطنطينية لوضع نهاية للحرب. وبدافع القنوط كان حسابه أن هذا التهديد سيجبر الحلفاء على اتخاذ اجراء ما لحل النزاع اليوناني - التركي، ربما بطريقة ملائمة لليونان. كان يقامر، وحسب ان الحلفاء، في أسوأ الأحوال، سيوافقون على السماح لقواته بالمرور عبر القسطنطينية لكي تلتحم مع جيوشه المنهكة المدافعة عن ساحل الأناضول.

لكن ما حدث هو ان جيش الاحتلال الحليف قطع الطريق على القوات اليونانية.

إن سحب قسطنطين للوحدات اليونانية من ساحل الأناضول في هذه الأثناء، حفّز مصطفى كمال إلى الإسراع في مهاجمة خط الدفاع اليوناني هناك، الواهن والبالغ الامتداد على ذلك الساحل.

وقد حشد قواته في سرية تامة، ثم شن هجوماً على الجبهة الجنوبية عند فجر السادس والعشرين من آب (أغسطس). وبعد يومين من القتال الضاري تراجعت القوات اليونانية بغير انتظام. إن القائد العام للجيش اليوناني في آسيا الصغرى «قد أصابه الجنون حسب القول الشائع» (هذا ما جاء في تقرير بريطاني من أثينا)، وبعد ذلك وصف لويد جورج حالته «بأنها مرض عقلي».

وسواء أكانت هذه مبالغات أم لم تكن، فقد كان هذا القائد عاجزاً عن التعامل مع الوضع [1171] وفي 4 أيلول (سبتمبر) عيّنت الحكومة اليونانية قائداً عاماً جديداً ليحل محله، ولكن انهيار المواصلات كان كاملاً إلى حد أن الحكومة اليونانية لم تعرف أن الجنرال الذي عيّنته قائداً عاماً كان قد وقع أسيراً في أيدي الأتراك. ويقال انه سمع نبأ تعيينه من مصطفى كمال [1172].

كان اللورد ريدل مجتمع مع لويد جورج يوم الأحد 3 أيلول (سبتمبر) عندما تلقى رئيس الوزراء البريطاني اتصالاً من أصدقاء اليونان في لندن:

لقد توسلوا إلى لويد جورج أن يفعل شيئاً من أجل اليونان، شرح لهم مطوّلاً الاستحالة (استحالة القيام بأي عمل) ووجّه نقداً شديداً إلى تصرف الملك قسطنطين الذي، كما قال لويد جورج، يتحمل مسؤولية ما حدث. فهو بين أمور أخرى عيّن جنرالاً عديم الكفاءة واللياقة. وقال لويد جورج أيضاً أنه بقدر ما يرى، ليس في بريطانيا سوى ثلاثة أشخاص مؤيدين لليونان: هو وبلفور وكورزون. إنه يشعر بالأسى لهذا الوضع ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً» [1173].

حشدت اليونان اسطولاً لإجلاء جيشها من آسيا الصغرى، وعلى امتداد الساحل كانت حشود الجنود اليونانيين تتجه إلى السفن على أمل العثور على مكان فيها. إن هذه المحاولة الجماعية للنجاة كانت سباقاً مع الزمن، وسباقاً مع أمطار أيلول المقبلة وسباقاً مع الجيش التركي الزاحف طلباً للثأر أصيبت الجالية اليونانية العريقة في آسيا الصغرى بالهلع. وقد كتب رئيس أساقفة ازмир إلى فينيزيلوس في 7 أيلول (سبتمبر) قائلاً:

«الهيلينية في آسيا الصغرى، والدولة اليونانية والأمة اليونانية كلها تنحدر الآن إلى الجحيم، وما من قوة تستطيع ان تنتشلها وتنقذها... وقد رأيت ضرورة لتوجيه هذا النداء الأخير إليكم، من بين ألسنة لهيب الكارثة التي يعاني منها الشعب اليوناني في آسيا الصغرى... وانه لسؤال حقيقي هل سنكون احياء عندما تقرأون رسالتي هذه، فنحن قدرنا الفداء والشهادة» [1174].

كانت النداءات دون جدوى. فقد كان فينزيلوس لا حول له لتقديم المعونة. وبعد يومين سيق رئيس الأساقفة إلى الشهادة التي توقعها: فقد أسلمة القائد التركي المحلي إلى الغوغاء، عدة مئات من المسلمين المسلحين بالمدى، فأخذه إلى صالة حلاقة وشوّهوه قبل أن يقتلوه [1175].

إن حالات التوتر الدينية والقومية المهلكة تلاقت مع التاريخ في ازمير، كبرى مدن آسيا الصغرى، عند نهاية صيف 1922. لقد اشتعل لهيب الكراهية في الحي الأرمني في المدينة يوم الأربعاء 13 أيلول (سبتمبر). وبعد يومين امتدت النيران - أو كان ثمة من جعلها تمتد - إلى الحي اليوناني والحي الأوروبي. وحل التدمير بما بين 75 بالمئة من هذه العاصمة العريقة. أما الحي التركي فلم يصب بأي سوء. كان يعيش في المدينة المسيحية مئات الآلاف من الناس، وثبت انه يستحيل إحصاء عدد الذين ماتوا منهم في مرحلة النزاع الأخير، كان مراسل لجريدة «شيكاغو ديلي نيوز» هو أول من طبع رسالته الصحفية على أته الكاتبة المحمولة وسط الدمار، وقال فيها:

«فيما عدا الحي التركي القذر، لم يعد المدينة ازمير وجود. ومشكلة الأقليات فيها قد حلت إلى الأبد. ولم يعد هناك شك في أصل النار التي اشتعلت... ان قبس النار جاء به جنود أتراك نظاميون» [1176]. إن الباحثة ذوي الهوى التركي مازالوا حتى اليوم ينكرون هذا الإتهام الذي لقي تصديقاً واسعاً [1177].

قامت سفن الأساطيل الأميركية، والفرنسي، والبريطاني، والايطالي، بإجلاء مواطني بلدانها من رصيف الميناء المشتعل. ورفض الأميركيون والبريطانيون في أول الأمر ان يساعدوا أحداً من غير جنسياتهم، أما الايطاليون فأخذوا على ظهر سفنهم كل من استطاع الوصول إليها، وأما الفرنسيون فقد قبلوا كل من قال انه فرنسي - بشرط ان يقول هذا الكلام باللغة الفرنسية. ولكن مالبت البريطانيون والأميركيون أن مدوا يد المساعدة إلى اللاجئين بغض النظر عن الجنسية.

وخلال بضعة الأسابيع اللاحقة ردّت اليونان والحلفاء على تهديد مصطفى كمال بأن يعامل جميع الرجال اليونانيين والأرمن الذين في سن الجندية

معاملة أسرى حرب، فنظموا عملية أجلاء الجموع غفيرة من المدنيين، بينما أتمت اليونان جلاءها العسكري.

مع حلول نهاية عام 1922 كان نحو 1,500,000 يوناني قد هربوا أو طردوا من تركيا. في ذلك الحين كتب أرنست همنغواي [1178]، الذي كان آنذاك مراسلاً حربياً لجريدة «تورونتو ستاره» انه راقب مواكب اللاجئين اليونان البائسين التي بلغ طولها نحو عشرين ميلاً ولم يستطع أن يمحو المشهد من ذهنه. وقد روت له ربة منزل كرواتية الفت هذه المشاهد أكثر منه، مثلاً تركيا يقول:

«ليس الذنب ذنب الفأس وحده بل ذنب الشجرة أيضاً» [1179]. إنه كلام يسهل على المرء أن يقوله، وقد أعقبه في الأسابيع اللاحقة عدد من الأقوال السهلة الأخرى، بينما كان رجال الدولة في الدول الحليفة ينبشون في ضمائرهم ليكتشفوا، كل بطريقته الخاصة، أن اللوم في هذه الكارثة يجب أن يقع على عاتق جهة ما أخرى.

كان الشائع في بريطانيا توجيه اللوم إلى فرنسا وإيطاليا وروسيا البلشفية، ولكن في المقام الأول إلى الولايات المتحدة. والتفسير الذي قدمه السفير البريطاني في واشنطن إلى وزير الخارجية الأميركي في شهر تشرين الأول (أكتوبر)، هو أن الحلفاء سبق أن اتفقوا على اقتسام الشرق الأوسط بالأسلوب الحديث الذي يتطلب وقتاً طويلاً، أي أسلوب الانتدابات الصادرة عن عصبة الأمم - وانهم فعلوا ذلك فقط لإرضاء الولايات المتحدة التي مالبت أن انسحبت انسحاباً كلياً من عملية السلام في الشرق الأوسط، وأن الولايات المتحدة سبق أن وافقت على قبول انتدابات الإحتلال وحماية القسطنطينية والدردينل وأرمينيا، ثم نكمت بعد ذلك بعامين. لقد كان السفير يشير بصورة ضمنية إلى أنه كان في وسع الحلفاء أن يفرضوا نوع التسوية التي يشاؤون في عام 1919 وأن ينهوا كل المسألة، ولكن بريطانيا اضطرت أن تنتظر سنتين من أجل إرضاء الولايات المتحدة وضمن تعاونها، فاضطرت إلى حمل مسؤوليات جديدة، وها هي الآن قد تركت كلياً لكي تحمل منفردة العبء الثقيل، عبء الدفاع عن فكرة الانتدابات التي هي فكرة أميركية» [1180].

وقد رد وزير الخارجية الأميركي تشارلز ايفانز هيوز بقوله:

إنه يود أن يقول إنه لا يستطيع أن يوافق لحظة واحدة على وجهة النظر القائلة أن حكومته مسؤولة بأي شكل من الأشكال عن الأوضاع القائمة... فالولايات المتحدة لم تسع لاقتطاع مناطق نفوذ... ولم تشارك في مكائد دبرت في القسطنطينية... وليست مسؤولة عن الكارثة التي حلت بالجيش

اليونانية خلال آخر سنة ونصف السنة... ان دبلوماسية أوروبا خلال تلك المدة هي المسؤولة عن الكارثة التي حدثت أخيراً» [1181].

كان وراء هذا التقرير المتبادل التحول الرئيس في السياسة الخارجية الأميركية الذي حدث عندما حلّ وارن غامالييل هاردنغ محل الرئيس وودرو ويلسون. كان أحد الأهداف الرئيسة السياسة الرئيس ويلسون في الشرق الأوسط أن يساند الديانة المسيحية وبخاصة الكليات التبشيرية الأميركية والنشاطات التبشيرية الأميركية. ولكن الرئيس هاردنغ لم يشاطره النظرة إلى هذه المصالح. فعندما زحف الأتراك على أزمير، أهابت جماعات كنسية أميركية، مثل مؤتمر الكنيسة المشيخية، بالحكومة الأميركية أن ترسل قوات لإيقاف مجزرة المسيحيين، ولكن الرئيس هاردنغ قال لوزير خارجيته هيووز: «بصراحة، أجد من العسير أن أظل دائماً محافظاً على الأناة تجاه أصدقائنا الطيبين في الكنيسة الذين يدعون بحماسة وإخلاص إلى السلام، عندما يصل الأمر إلى حد التحارب مع جهة ما تنتمي إلى الدين المنافس...» [1182].

كان الهدف الرئيس الآخر لسياسة وودرو ويلسون الشرق أوسطية أن يضمن لشعوب المنطقة ان تحكمها حكومات من اختيارها. ومرة أخرى لم يكن الرئيس هاردنغ مشاركاً في هذه الاهتمامات. لقد قصّر جهود إدارته على حماية المصالح الأميركية. وكان هذا يعني في الغالب بالنسبة للشرق الأوسط حماية المصالح التجارية الأميركية التي كانت في المقام الأول مصالح نفطية. وقد كانت الحكومة الكمالية في تركيا مستعدة لمنح إحدى المجموعات الأميركية امتيازات نفطية، وبدا أنها قد تتمكن من توفير الأمن الداخلي والبيئة المستقرة للأعمال التجارية، وهما الأمران اللذان تطلبهما شركات النفط. وقد رحبت وزارة الخارجية الأميركية بالاستعداد التركي لفتح الأبواب أمام الشركات الأميركية، ولعل هذا الاستعداد قد ترك أثره على نظرة الوزارة إلى نظام الحكم الكمالي.

لقد تناول وزير الخارجية الأميركي في خطاب ألقاه في بوسطن في شهر تشرين الأول (أكتوبر) محنة اليونانيين والأرمن وغيرهم من المسيحيين في أعقاب تدمير أزمير فقال: «في حين أن لا شيء يمكن أن يشكل عذراً بأدنى درجة، أو يخفف من قسوة الأتراك الهمجية، فلا يمكن لأي تقويم عادل للموقف إلا أن يأخذ بعين الاعتبار تعدي الجيش اليوناني على الأناضول، والحرب التي اشتعلت ناراها هناك، والحوادث الفظيعة التي وقعت خلال تقهقر ذلك الجيش من حيث حرق المدن والتدمير العام والأعمال الفظيعة». وبعد أن نوه وزير الخارجية الأميركي بأن الجانبين قد اقترفا الفظائع، رفض الإدعاء القائل إنه كان على الولايات المتحدة أن تتدخل. وأشار إلى أن

الوضع بكامله نتج عن حرب لم تكن الولايات المتحدة طرفاً فيها. وما دام الحلفاء الذين كانوا على صلة وثيقة بالوضع، قد اختاروا عدم التدخل، فمن المؤكد أن التدخل ليس مسؤولية أميركا.

وخاطب الحضور قائلاً إن الولايات المتحدة قصرت جهودها على نحو صحيح تماماً، على حماية المصالح الأميركية في تركيا<sup>[1183]</sup>.

### (3)

كانت القسطنطينية وتركيا الأوروبية - شرقي تراقيا - الهدفين التاليين والأخيرين علي طريق زحف مصطفى كمال. ولكن جيش الاحتلال الحليف الذي يفترض أنه محايد، كان يحول بينه وبين هدفه. ولما تقدمت الجيوش التركية القومية نحو مواقعها، أصيب الحلفاء بالفزع، فقد كانت الحرب حتى ذلك الحين بعيدة عن هذه الجيوش. أما إذا هاجم مصطفى كمال، فهي نفسها التي ستضطر للقتال.

كانت الأنباء مفزعة في بريطانيا للسبب نفسه. ففي الرابع من شهر أيلول (سبتمبر)، ذكرت جريدة «التايمز»: «إن الجيش اليوناني قد تعرض بلا ريب للتراجع، ولكن مدى هذا التراجع مبالغ فيه من دون مسوّغ». ولكن عنوان الجريدة الرئيس كان في 5 أيلول (سبتمبر) «هزيمة الجيش اليوناني». وفي 6 منه كان عنوانها الرئيس «وضع خطر». ومنذ منتصف هذا الشهر فصاعداً أخذت تتكرر بشكل منتظم وعلى نحو مفرّغ عناوين مثل «تهلكة الشرق الأدنى» و«أزمة الشرق الأدنى». وقد حلت صور ازмир المحترقة محل صور حفلات الزفاف وصور افتتاح المسارح وصور بطولات لعبة الغولف. لقد صُدم البريطانيون إذ قيل لهم فجأة بعد أربع سنوات من الهدنة انهم قد يضطرون إلى خوض حرب للدفاع عن مدينة القسطنطينية النائية. كان هذا آخر شيء في العالم يرغب معظم البريطانيين في أن يفعلوه، ونشأ اتجاه فوري نحو التخلص من الحكومة التي رجّتهم في هذا الوضع.

ولكن القسطنطينية والدردنيل بسبب أهميتهما العالمية للملاحة، وتراقيا الشرقية، نظراً لوجودها في أوروبا، مواقع لها مكانة خاصة في أذهان القادة البريطانيين. إن ونستون تشرشل، الذي كان حتى الآن موالياً لتركيا، هبّ مرة أخرى لنجدة سياسة لويد جورج فأبلغ مجلس الوزراء في أيلول (سبتمبر): «إن خط المياه العميقة الذي يفصل آسيا عن أوروبا هو خط ذو أهمية كبيرة وينبغي لنا أن نجعل هذا الخط آمناً بكل ما يتوافر لنا من قوة. فإذا أخذ الأتراك شبه جزيرة غاليبولي والقسطنطينية سنكون قد خسروا كل ثمار انتصارنا...» [1184] وقد عبّر لويد جورج عن موافقته الشديدة على هذا الكلام، قائلاً: «إننا لا نستطيع بأي حال وتحت أية ظروف ان نسمح للأتراك بالاستيلاء على شبه جزيرة غاليبولي. إنها أهم موقع استراتيجي في العالم، وإغلاق المضائق قد أطال الحرب سنتين. ولا يخطر في البال ان نسمح للأتراك ان يمتلكوا شبه جزيرة غاليبولي ويجب ان نقاتل لمنعهم من ذلك» [1185].

عند حلول منتصف أيلول (سبتمبر) كان آخر ما تبقى من القوات اليونانية الفاصلة بين الأتراك والحلفاء قد اختفى، وبدأ أن اشتباكاً مسلحاً مباشراً قد صار وشيكاً. فعقد مجلس الوزراء البريطاني سلسلة جلسات طارئة بدءاً من 15 أيلول (سبتمبر). وفي هذه الجلسات قال تشرشل لزملائه: «مصائب الحلفاء قد تكون عائدة إلى أن جيوش الحلفاء تلاشت بسبب تأخر أميركا في إعلان موقفها». وكان رأيه أن ثمة حاجة للجيش، «لأنه يعارض كل المعارضة محاولة القيام بخدعة لا تسندها القوة» [1186]. وأكد ضرورة الحصول على مساندة من بلدان الدومنيون [1187] ومن فرنسا لتعزيز القوات البريطانية لمواجهة لجيوش مصطفى كمال.

في 15 أيلول (سبتمبر) 1922 أوعز مجلس الوزراء إلى ونستون تشرشل أن يعد مسودة برقية - يوقع عليها لويد جورج - موجهة إلى بلدان الدومنيون لإبلاغها أن بريطانيا قررت الدفاع عن المنطقة المحايدة في تركيا وتطلب إليها مساعدتها العسكرية. وبعد منتصف الليل أرسلت البرقية بأسلوب الرموز إلى رئيس وزراء كل بلد من بلدان الدومنيون.

واتخذ مجلس الوزراء قراراً آخر باطلاع الرأي العام البريطاني على خطورة الوضع. ولهذه الغاية هيأ تشرشل ولويد جورج بياناً صحفياً في 16 أيلول (سبتمبر) نشر في صحف مساء اليوم نفسه. ولم يطلع أحد من أعضاء مجلس الوزراء سوى لويد جورج وتشرشل على البيان الصحفي قبل نشره، لقد عبّر البيان عن رغبة الحكومة البريطانية في عقد مؤتمر للصلح مع تركيا، وقال إن هذا المؤتمر لا يمكن عقده تحت تهديدات تركيا باستخدام القوة. وعبّر البيان أيضاً عن الخوف مما قد يفعله العالم الإسلامي إذا تبين له أن تركيا، الدولة المسلمة الضعيفة نسبياً، تمكنت من إلحاق هزيمة كبيرة بالحلفاء. إذ أن ذلك قد يشجّع بقية العالم الإسلامي على التخلص من الحكم الاستعماري، وأشار البيان إلى مشاورات أجرتها بريطانيا مع فرنسا وإيطاليا وبلدان الدومنيون بغية القيام بعمل عسكري مشترك تفادياً للتهديد الكمالي [1188].

إن لهجة الحرب التي طبعت البيان الصحفي بطابعها قد أفرغت الرأي العام في بريطانيا، فصدرت جريدة «الديلي ميل» تحمل عنواناً عريضاً يقول: «أوقفوا هذه الحرب الجديدة!» [1189].

وآثار البيان الفزع في الخارج أيضاً. لقد استشاط رئيس وزراء فرنسا بوانكاريه، إذ بدا له أن الحكومة البريطانية تتحدث باسمه، فأمر بسحب القوات الفرنسية من خط الجبهة في المنطقة المحايدة وحذت إيطاليا حذوه، فبقيت القوات البريطانية وحدها لمواجهة العدو.



شعر رؤساء وزراء بلدان الدومينيون أيضاً بالامتناع - فالبيان الصحفي - الذي كتب بطبيعة الحال باللغة الانكليزية العادية - نشر في صحف كندا وأستراليا ونيوزيلندا قبل أن تتاح الرؤساء وزراء هذه البلدان حل رموز البرقيات التي تلقوها. وكان هذا دلالة على أن تشرشل ولويد جورج يحاولان دفعهم إلى شيء ما دون إعطائهم فرصة التفكير فيه. وقد رفضت كندا وأستراليا في ردهما إرسال قوة، أن ثورة قد حدثت في دستور الامبراطورية البريطانية، فلأول مرة ترفض بلدان من الدومينيون البريطاني أن تتبع خطى البلد الأم إلى حرب. وأما جنوب افريقيا فقد لزمّت الصمت. وحدهما نيوزيلندا ونيوفاوندلاند ردتا بالإيجاب.

في 22 أيلول (سبتمبر) طلب لويد جورج إلى تشرشل أن يتولى رئاسة لجنة وزارية لمراقبة التحركات العسكرية في تركيا<sup>[1190]</sup>. إن ف. سميث، الذي أصبح لورد بيركينهد، وشغل منصب رئيس مجلس اللوردات، وهو صديق لامع من أصدقاء تشرشل، كان في الماضي ينتقد تشرشل لأنه غير موقفه إلى موقف العداء من تركيا، ولكنه في نهاية أيلول (سبتمبر) انضم إلى لويد جورج وتشرشل كزعيم للفئة المنادية بالحرب. كان شعوره أن المسألة هي مسألة كرامة ويجب ألا تظهر بريطانيا اطلاقاً وكأنها ترضخ للقوة<sup>[1191]</sup>.

استمرت حملة الصحافة في بريطانيا على الحرب، وعقدت اجتماعات احتجاج عامة، وتوجه مندوبون عن نقابات العمال إلى مقر رئيس الوزراء لتسليمه احتجاجهم باليد.

توجّه اللورد كورزون وزير الخارجية إلى باريس ليحاول تنسيق استراتيجية مع الحلفاء. وفي 23 أيلول (سبتمبر) توصل مع بوانكاريه وسفورزا إلى اتفاق على برنامج مشترك يسلم بمطالب مصطفى كمال جميعها - تراقيا الشرقية والقسطنطينية، والدرديل - إذا أمكن الحفاظ على المظاهر، أي أن الأمر يجب أن يبدو وكأنه تسوية عبر التفاوض وليس استسلاماً. ولم يكن هذا اللقاء لقاء يشرح الصدر بالنسبة لوزير الخارجية البريطاني. فبعد أن تعرض كورزون لعبارات تنديد لاذعة من بوانكاريه إنهار فانزوي في غرفة مجاورة وسالت الدموع من عينيه.

في هذه الأثناء تجابهت القوات البريطانية والتركية في تشنق (تسمى الآن تشنق قلعة) وهي بلدة ساحلية على الجانب الآسيوي من الدردنيل، وهي الآن نقطة انطلاق للرحلات السياحية إلى خرائب طروادة. ولما كانت الوحدات الفرنسية والايطالية قد لجأت إلى خيامها، وقفت وحدة بريطانية صغيرة في موقف الحراسة خلف الأسلاك الشائكة، وكانت الأوامر الصادرة لها تقضي بعدم إطلاق النار. ما لم تتعرض هي لإطلاق النار، تقدمت أول

مفرزة من الجنود الأتراك إلى الخط البريطاني في 23 أيلول (سبتمبر)، ولم يطلق الجنود الأتراك النار ولكنهم ثبتوا في أمكنتهم ورفضوا الانسحاب. وبعد بضعة أيام وصل مزيد من الجنود الأتراك. وما أن حلت نهاية أيلول (سبتمبر) حتى كان في المنطقة المحايدة 4500 جندي تركي يتحدثون عبر الأسلاك الشائكة إلى الجنود البريطانيين، وقد جعلوا اخمص بنادقهم إلى الأمام دلالة على أنهم لن يكونوا البادئين بإطلاق النار. لقد كانت مجابهة غريبة موهنة للأعصاب. وفي 29 أيلول (سبتمبر) أبلغت المخابرات البريطانية مجلس الوزراء ان مصطفى كمال، مدفوعاً من روسيا السوفياتية، عازماً على الهجوم في اليوم التالي. ومع أن تقرير المخابرات كان كاذباً، فقد أخذ به مجلس الوزراء وبموافقة هذا المجلس أعد قادة القوات العسكرية مسودة انذار حازم يسلمه القائد البريطاني المحلي إلى مصطفى كمال، وفيه تهديد بإطلاق النار.

ولكن القائد البريطاني المحلي تجاهل التعليمات الصادرة إليه من لندن - والتي كان من شأنها أن تزج بريطانيا في حرب - فلم يسلم الإنذار، بل توصل إلى اتفاق مع مصطفى كمال للتفاوض، على هدنة - وبذلك وضع نهاية للأزمة. ولأسباب عديدة منها الخوف مما قد يقدم عليه لويد جورج وتشيرشل في تهورهما - أبدى مصطفى كمال استعداداً لقبول صيغة تسمح بانقاذ وجه الحلفاء بتأجيل احتلال تركيا لبعض المناطق التي ستحتلها في نهاية الأمر. فلو أقدم مصطفى كمال على غزو أوروبا لكانت الحرب قد وقعت. ويبدو أن اتخاذ القادة البريطانيين وضعاً قتالياً وإذا أخذنا في الحسبان واقع ضعف مركز لويد جورج وتشيرشل، فقد كانت هذه النتيجة تمثل نصراً رائعاً لهما.

بعد مساومات مضنية انتهت المفاوضات على الهدنة في بلدة مود اينا الساحلية صباح 11 تشرين الأول (أكتوبر) وتقرر ان تدخل حيّز التنفيذ عند منتصف ليل 14 تشرين الأول (أكتوبر). وبقيت مسائل جوهرية وهامة ترك النظر فيها إلى حين انعقاد مؤتمر للصلح. ومن الناحية الجوهرية حمل مصطفى كمال على الشروط التي حددها في الميثاق القومي والتزم بها منذئذٍ أي انشاء دولة مستقلة لأمة تركية في الأناضول وشرقي تراقيا. ولم يمض زمن طويل حتى كانت تركيا بقيادة مصطفى كمال قد استعادت فعليا من الحلفاء المغادرين القسطنطينية والدردينل وتراقيا الشرقية.

في تشرين الثاني (نوفمبر) 1922 قرر المجلس الوطني التركي عزل السلطان فهرب محمد الخامس من القسطنطينية إلى المنفى. وهكذا جاءت في عام 1922 نهاية الامبراطورية العثمانية التي عمرت قروناً. أما تركيا التي بسطت سلطتها على الشرق الأوسط مدة 500 سنة فقد خرجت من تاريخ الشرق الأوسط واتجهت إلى جعل نفسها دولة أوروبية.



## (4)

ثمة جانبان من جوانب الأزمة ومفاوضات الهدنة أحدثا تأثيراً خاصاً في بريطانيا. أحدهما أن المندوب الفرنسي في مؤتمر الهدنة قام بدور الخصم، إذ حث الأتراك على مقاومة المطالب البريطانية. وكان هذا الموقف يمثل ذروة نهج سلكته فرنسا طوال الأزمة التركية واعتبرته بريطانيا متسماً بالغدر، وكما أن سياسة بريطانيا الشرق أوسطية حملت فرنسا على إعادة تقويم تحالفها مع بريطانيا وبالتالي فسخه، فإن سياسة فرنسا الآن جعلت قادة الامبراطورية البريطانية ينظرون إلى فرنسا نظرة جديدة هي نظرة الريبة. بعد ذلك بوقت قصير كتب رئيس وزراء جنوب افريقيا إلى رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الحين قائلاً: «ها هي فرنسا تعود إلى زعامة القارة الأوروبية وقد تجددت فيها كل نزاعاتها القديمة السيئة... إن الفرنسيين يريدون أن يكونوا قوة عالمية. لقد لعبوا مع مصطفى كمال أخطر لعبة يلعبها حليف ضد حليفه. وهم في سياق طموحاتهم لا محالة أن يتراءى لهم ان الامبراطورية البريطانية هي العدو الوحيد المتبقي» [1192].

الجانب الآخر في الأزمة الموهن للأعصاب، هو ما ظهر من تهور في سلوك المجموعة الخاصة في مجلس الوزراء: لويد جورج، بيركينهد، وتشيرشل، ووزير المالية سير روبرت هورن، وزعيم المحافظين أوستن تشامبرلين. فالانطباع الذي أعطوه ليس فقط للصحافة والرأي العام بل إلى زملائهم السياسيين أيضاً، هو نزعتهم إلى إثارة حرب أخرى. فقد قال اللورد الأول للميرالية انه يشعر أن: «لويد جورج، وونستون، وبيركينهد، وهورن وحتى أوستن يريدون بالتأكيد أن ينشب القتال» [1193]. وكتب موريس هانكي، سكرتير مجلس الوزراء، في مفكرته بتاريخ 17 تشرين الأول (أكتوبر) 1922 أن وونستون تشيرشل، «بصراحة تامة، آسف لأن الأتراك لم يهاجمونا».

وكان اعتقاد هانكي ان لويد جورج متفق في ذلك مع تشيرشل [1194].

لقد حملت جريدة «التايمز» على أعضاء مجلس الوزراء واصفة إياهم بأنهم متهورون، ومتأرجحون وغير أكفاء»، وقالت في 2 تشرين الأول (أكتوبر) على سبيل الإنذار: «إذا بدأت هذه البلاد تشتبه في أنهم، أو أن أحدهم، عاكف على جني منفعة سياسية داخلية بسلوك نهج يقودنا إلى حرب، فلن تغفر البلاد لهم موقفهم».

كان ستانلي بولدوين أحد صغار أعضاء الحكومة من حزب المحافظين، وكانت نظرته بينه وبين نفسه إلى رئيس الوزراء أنه شخص «شيطاني»،

وقد أسرّ إلى زوجته: «إنه تبين لي أن لويد جورج كان طوال الوقت يتجه إلى الحرب، وقد رسم لجعل هذا البلد يخوض الحرب مع تركيا لكي تكون حرباً «مسيحية»، ضد «المحمديين»... ثم يدعو على هذا الأساس إلى انتخابات عامة في الحال... وفي حسابه أن الانتخابات ستعيده إلى السلطة مرة أخرى» [1195]. أما بونارلو فكان يخشى العكس، أي كان يخشى أن يتجه رئيس الوزراء إلى الصلح لكي يربح الانتخابات، فما أن يعاد انتخابه حتى يعود إلى شن الحرب [1196].

قال اللورد ريدل لصديقه لويد جورج: «إن البلاد لن تتحمل حرباً جديدة». فأجابه رئيس الوزراء: «أختلف معك في الرأي، فالبلاد سوف تساند عن طيبة خاطر ما نفعه بقوة السلاح من أجل المضائق إذا دعت الحاجة إلى استخدام القوة» [1197]. لقد كتب لويد جورج مذكراته بعد عقود من السنين وعندما أشار فيها إلى أزمة تشنق قال: «كنت بالتأكيد أنوي القتال وكنت متأكداً أننا سننتصر» [1198].

## (5)

فيما كانت أزمة تشنق تتجه نحو الحل، حدثت ثورة عسكرية في اليونان قام بها ثلاثي من الضباط العاملين في الميدان: ضابطان في الجيش برتبة كولونيل وكابتن في البحرية. حدث في البلاد ارتباك شديد، ولكن في النهاية لم تحدث أية مقاومة. فاستقالت الحكومة في 29 أيلول (سبتمبر). وتنازل الملك قسطنطين عن العرش صباح اليوم التالي، وبعد ظهر اليوم نفسه اعتلى ابنه العرش باسم جورج الثاني. وقد زحفت الكتلة الرئيسة من قوات الثورة على أثينا في 28 أيلول (سبتمبر).

تولى ثلاثي الضباط الثائرين السلطة وأمر على الفور باعتقال زعماء الحكومة السابقة. وجرّت محاكمة عسكرية لرئيس الوزراء غوناريس وكثيرين من الوزراء السابقين في 13 تشرين الثاني (نوفمبر) بالرغم من احتجاجات الحكومة البريطانية. أما التهم المطولة التي وُجّهت إليهم وغلفت بلغة حقوقية، فلم تكن لها قيمة قانونية. كانت خلاصة التهم إدانة سياسية لرئيس الوزراء ومعاونيه لأنهم جروا البلاد إلى كارثة وطنية.

فجر 28 تشرين الثاني (نوفمبر) نطق رئيس المحكمة العسكرية بالحكم. فالأشخاص الثمانية المتهمون دينوا جميعاً بالخيانة العظمي، وحكم على اثنين منهم بالسجن مدى الحياة. أما الستة الآخرون، ومن ضمنهم رئيس الوزراء غوناريس فقد صدر الحكم عليهم بالموت، وسيقوا خلال ساعات إلى ساحة الإعدام في شرق أثينا، في ظلّ جبل هيميتوس. كانت قد حفرت حفر صغيرة لدفنهم بفاصل اثني عشر متراً بين الواحدة والأخرى، ووقفت قبالة كل من الرجال المحكوم عليهم بالموت، وعلى مسافة خمس عشرة خطوة، مفرزة إعدام مؤلفة من خمسة جنود. وقد جرى تنفيذ الإعدام قبل الظهر. لقد رفض غوناريس ومعاونوه أن تعصب أعينهم فواجهوا الموت وعيونهم غير مغمضة [1199].

## (6)

في 8 تشرين الأول (أكتوبر) 1922 كتب اندرو بونارلو زعيم حزب المحافظين الاتحادي المتقاعد، رسالة إلى جريدتي «التايمز» و«الديلي اكسبرس»، نشرت في اليوم التالي وبدأ فيها أنه يعبر عن مساندته للوقفة القوية التي وقفتها حكومة لويد جورج أمام تركيا في تشنق. ومن جهة أخرى ذكر أن المصالح التي تبدو بريطانيا مدافعة عنها، مثل حرية المرور في الدردنيل ومنع مجازر المسيحيين في المستقبل، ليست مصالح تخص بريطانيا وحدها بل هي مصالح عالمية ولذلك: «ليس من الصواب أن يقع عبء اتخاذ إجراء على عاتق الامبراطورية البريطانية وحدها». وادعى: «إننا موجودون في المضائق وفي القسطنطينية ليس بفضل عملنا وحدنا، بل بإرادة الدول الحليفة التي ربحت الحرب، وأميركا واحدة من هذه الدول».

لقد وردت في رسالة بونارلو عبارات كثر الاستشهاد بها، قال فيها أنه إذا لم تكن الولايات المتحدة والحلفاء مستعدين لتقاسم عبء المسؤولية، فيجب على بريطانيا أن تنفض هذا العبء عن كاهلها. «نحن لا نستطيع وحدنا أن نقوم بدور شرطي العالم، فهذا مستحيل بسبب الأحوال المالية والاجتماعية في هذا البلد». ودعا إلى إنذار فرنسا باحتمال تخلي بريطانيا عن تنفيذ التسوية مع ألمانيا، واحتمال أن تقلد الولايات المتحدة بالاهتمام بمصالحها الوطنية حصراً إذا لم تعترف فرنسا بوجوب اعتماد وقفة في آسيا على غرار الوقفة في أوروبا<sup>[1200]</sup>.

عند قراءة رسالة بونارلو بمجملها، نجد أنها لم تشكك في السياسة التي اتبعتها الحكومة حتى ذلك الحين، بل اكتفت بتقديم النصح للمستقبل، بيد أن لهجتها الانعزالية والجملة التي وردت فيها عن القيام بدور شرطي العالم - والتي غالباً ما استشهد بها خارج سياقها - قد أصابت وتراً حساساً في صفوف أولئك الذين رأوا أن سياسات لويد جورج خطيرة ومتجاوزة الحدود في طموحها، علاوة على ذلك فإن قبول بونارلو باتخاذ موقف علني أوحى أن بالإمكان إقناعه، بعد ما ظهر من استعادة صحته، بأن يعود إلى مضمار السياسة - الأمر الذي هدد بتغيير توازن القوى الدقيق داخل حزب المحافظين وتعريض الحكومة الائتلافية للخطر.

لقد كان بونارلو حاذقاً في اختيار سياسته الخارجية. فالمحافظون عاطفتهم تقليدياً هي عاطفة تأييد لتركيا، ثم بدّلتها إلى العداء حملة رئيس الوزراء المؤيدة لليونان. وقد كتب زعيم المحافظين الخارجيين على خط الحزب بتاريخ 2 تشرين الأول (أكتوبر) مؤكداً: إن تفاهماً طيباً مع تركيا كان يمثل سياستنا القديمة وهذا التفاهم جوهري...»، لقد كانت هذه حالة أخرى

وجدت فيها قواعد حزب المحافظين أن حكومة الإئتلاف تستخف بمبادئها وبما يلحق بها من إجحاف [1201]. إن سياسة العداء لتركيا التي اتبعتها لويد جورج في أعقاب الاعتراف باستقلال أيرلندا والاعتراف بروسيا البلشفية، كانت تنذر بأن تكون الكيل الذي طفق. وقد بدد رئيس الوزراء ما كان له من مكانة، وفعل ذلك بينما انهيار الاقتصاد، وتفشي البطالة، وركود الصادرات، والفضائح المتعلقة ببيع ألقاب الشرف إلى الأنصار السياسيين، وسلسلة فضائح السياسة الخارجية التي بلغت ذروتها في أزمة تشنق، لم تترك له إلا القليل من رصيده الانتخابي. ولم يعد يشعر المحافظون أنهم مضطرون للسير في ركابه من أجل النجاح في الانتخابات.

أما رئيس الوزراء، فكانت نظرتة إلى الأمور مختلفة. إن حزم حكومته في تشنق قد أوقف الجيوش التركية عند حدودها، ورأى في ذلك نصرة شخصية له ولتشرشل. وكان مخطئاً في اعتقاده أن الناهيين يرون الأمور كما يراها، وعلى أساس هذا الاعتقاد الخاطي، اقترح الدعوة إلى انتخابات عاجلة في فورة النصر، على غرار ما فعل في نهاية عام 1918 بعد الانتصار في الحرب العالمية الأولى.

لقد وافق أوستن تشامبرلين واللورد بيركينهد، زعيما المحافظين في الحكومة، على الانضمام إلى لويد جورج في خوض الانتخابات مرة أخرى على أساس ائتلافي. ولكي يدافع تشامبرلين عن هذا القرار، دعا بصفته زعيم الحزب الأعضاء المحافظين في مجلس العموم والحكومة إلى اجتماع عقد صباح الخميس 19 تشرين الأول (أكتوبر) في نادي كارلتون، أكبر أندية المحافظين.

كان بونارلو في أفضل وضع لمعارضة تشامبرلين وإسقاط الحكومة الائتلافية والحلول محل لويد رئيسا للوزراء. ولكنه تردد، إلا أن الصحافة قامت بحملة قوية لحثه على تولي رئاسة الوزراء، وقادت هذه الحملة صحيفة «التايمز» وصحف بيفر بروك.

كان اللورد بيفر بروك أعز صديق سياسي لبونار لو وكان مسؤولاً إلى حد كبير عن قيام الحكومة الإئتلافية برئاسة لويد جورج خلال الحرب. وها هو الآن يعمل على إسقاطها. وقد كتب في 11 تشرين الأول (أكتوبر) إلى صديق أميركي قائلاً: «نحن الآن في غمرات أزمة سياسية. وقد نتج عن فشل سياسة رئيس الوزراء اليونانية انهيار تام لهيبته وهيبة المحافظين... إن المستقبل القريب سيقدر هل سيبقى حزب المحافظين كتلة واحدة أم أن رئيس الوزراء يملك القوة الكافية لشقه. إن تحطيم حزبين خلال ولاية قصيرة في الحكم إنجاز عظيم. وهذا ما يستطيع ادعاءه إذا نجح في تدمير المحافظين» [1202].



لقد نجح بيفر بروك في التغلب على شكوك بونار لو، وحمل هذا الزعيم السابق لحزب المحافظين على حضور الاجتماع الحاسم المقرر عقده في نادي كارلتون. وتحدث بونار لو في هذا الاجتماع ضد الائتلاف، ومع أنه لم يكن موفقاً في كلامه، فقد ثبت أن مداخلته كانت حاسمة. وقرر المجتمعون بأغلبية ساحقة، أغلبية 187 صوتاً مقابل 87 صوتاً، خوض الانتخابات المقبلة على أساس حزبي محض.

وعندما تلقى ديفيد لويد جورج النبأ، قدم في الحال استقالته إلى الملك جورج. بعد ذلك بوقت قصير، تسلم اندرو بونارلو منصب رئيس الوزراء ودعا إلى انتخابات تجرى في 15 تشرين الثاني (نوفمبر).

كانت نتائج الاقتراع في 15 تشرين الثاني (نوفمبر) متقاربة، ولكن النظام الانتخابي البرلماني يعطي الراجح كل أصوات الدائرة الانتخابية. وبذلك أحرز حزب المحافظين نصراً وحاز أغلبية المقاعد في مجلس العموم الجديد. وصار لويد جورج منبوذاً، فلم يكن له ولا لأسكويث عدد كافٍ من التابعين يؤهله لزعامة المعارضة، إذ أن حزب العمال هزم حزب الأحرار وجاء ثانياً في الانتخابات.

خلال الحملة الانتخابية حملت صحف بيفر بروك حملة شرسة على سياسة حكومة الإئتلاف في الشرق الأوسط، وطالبت بانسحاب بريطانيا من المناطق التي استولت عليها حديثاً: العراق، وفلسطين وشرق الأردن. ومع أن حملة بيفر بروك لم تحظ بموافقة بونار لو، فقد أوقعت الحكومة الجديدة في إدانة عامة شاملة لسياسة بريطانيا بعد الحرب في الشرق الأوسط، كما أنها وضعت موضع المساءلة التزام بريطانيا باستمرار تأييد الأمانى العربية واليهودية في المنطقة.

ونتيجة لذلك، كان وزير المستعمرات ونستون تشرشل واللورد كورزون (الذي تولى عن منصبه لبونار لو) موضع خلاف وجدل عام خلال الحملة الانتخابية بشأن سجل بضع السنوات الماضية في الشرق الأوسط. وقد وجه تشرشل إلى اللورد كورزون الاتهام قائلاً: «إنه لا يقل عن أي إنسان على قيد الحياة، مسؤولية عن الوعود التي قطعت لليهود والعرب» [1203]. وكتب توماس لورنس إلى رئيس تحرير جريدة «ديلي اكسبرس» مؤيداً رئيسه السابق قائلاً: «إذا خرجنا من انتدابات الشرق الأوسط محمودين، فالفضل يعود إلى ونستون. إن له شجاعة ستة رجال، وفيه كل ما يتحلى به رجل الدولة من طلاوة الحديث والحذق والثقة بالنفس ومراعاة شعور الآخرين. وطالما رأيتَه ينبذ نهج رجل الدولة ليفعل ما تقتضيه الأمانة» [1204].

وفي خضم ما أصاب الائتلاف من انهيار، هزم تشرشل في دائرته الانتخابية في داندي، فكتب لورنس قائلا: «لا أستطيع أن أفصح عن أسفي لما أصاب تشرشل، رجائي ألا تقسو الصحافة في الإساءة إليه. يا لشعب داندي من حثالة» [1205].

وحده لويد جورج من بين قادة حزب الأحرار المشاركين في الحكومة الائتلافية احتفظ بمقعده البرلماني، ولكنه لم يتسلم من بعد أي منصب وزاري. وشأنه شأن اللورد كيتشنر وونستون تشرشل، رأى مركزه السياسي مدمراً بسبب الشرق الأوسط. إن هذا الوزير الذي كان ذات يوم ذا سلطة لا تدانيها سلطة، متحكماً بمصائر العالم، أخذ على مدى قرابة ربع قرن بعد عام 1922 يطوي الأيام في حالة من العجز السياسي والعزلة السياسية، يخافه من هم دونه قدرة ويرتابون فيه، ويزدرونه لأنه كان على رأس حكومة تتصف بالحقارة خلقياً. وإلى حد ما بسببه عيوبه، حرم فرصة استخدام نبوغه في مواجهة تحديات سنوات الكساد الكبير، وسنوات التهذئة والحرب العالمية الثانية، ولم ينس الناس قط انحرافه السياسي وانحلاله الخلقي والمالي. ولم يعد أحد يحتفظ بذكرات كافية عن هذا الرجل الذي حال منفرداً دون خسارة بريطانيا للحرب العالمية الأولى، والذي قال زملاؤه ذات يوم أنهم يقبلون به رئيساً للوزراء مدى الحياة. وقد فارق الحياة في عام 1945.

نذر لويد جورج نفسه في سنواته الأخيرة لخوض المعارك القديمة مجدداً عبر مذكراته شديدة التحريف، البعيدة عن الحقائق، ولكنها مكتوبة بأسلوب رشيق. وقد روى فيها أن حملته الأخيرة الخاسرة في الشرق الأوسط كان القصد منها أن يجعل العالم مكاناً أفضل كثيراً. وكتب عن القرار الذي اتخذ في نادي كارلتون يقول: «وهكذا سقطت الحكومة وطار معها تحرير أرمينيا واليونان الآسيوية، وبالتالي عصبة الأمم وسائر مشاريع استبدال الأسلحة بالمصالحة» [1206][1207]

# الفصل الخامس

## تسوية مسألة الشرق الأوسط

### (1)

كتب لويد جورج وزملاؤه فصلاً هاماً في التاريخ شرقي السويس. إن تثبيت سيطرة الحلفاء في الشرق الأوسط، كان ذروة استيلاء أوروبا على بقية العالم، والفصل الأخير في حكاية مغامرات شديدة الخطر - حكاية بحارة واتهم الجرأة على عبور محيطات لم تستكشف من قبل، ومستكشفين تتبعوا مجاري الأنهار حتي منابعها. وجماعات صغيرة من الجنود توغلت إلى داخل قارات مجهولة فقاتلت جيشاً عرمرماً لإمبراطوريات نائية. كانت بداية المجازفة قبل قرون في أعقاب سفن كولومبوس الشراعية، عندما اندفع الأوروبيون لإخضاع واستعمار الأراضي التي اكتشفوها في الأمريكتين وفي المياه التي تحدهما شرقاً وغرباً. واستمرت هذه المجازفة طوال القرن التاسع عشر، عندما حكمت بريطانيا إمبراطورية الهند واقتسمت الدول الكبرى في ما بينها القارة الإفريقية. وما أن بزغ فجر القرن العشرين، حتى كان الشرق الأوسط الحصن الوحيد، باستثناء شرق آسيا، الذي لم يقتحمه الأوروبيون على أهله الأصليين. أما في نهاية الحرب العالمية الأولى، فقد استطاع لويد جورج أن يباهي بأن جيوشه قد اقتحمت هذا الحصن.

وخلال ما لا يقل عن قرن سابق لحرب عام 1914، كان الأوروبيون يرون أن من البديهي أن يأتي يوم تحتل فيه دولة أو أكثر من الدول العظمى الشرق الأوسط. وكان الخوف الكبير الذي استحوذ عليهم، هو أن تؤدي الخلافات على الحصص إلى خوض الدول الأوروبية حروباً مدمرة في ما بينها.

ولذلك رأت الحكومة البريطانية في التسويات التي تم التوصل إليها عام 1922 إنجازاً يتوج نجاحاتها مرتين. فالحصص التي حازتها بريطانيا في الشرق الأوسط أكبر كثيراً مما بدا ممكناً من قبل (وحصة روسيا، منافسة بريطانيا، أصغر كثيراً). وأهم من ذلك أن الدول بدت مستعدة القبول تقسيم المناطق التي انبثقت في مطلع العشرينيات من هذا القرن دون اللجوء مجدداً إلى السلاح.

وهكذا فإن مسألة الشرق الأوسط المزعجة والقاتلة للانفجار التي كانت قائمة في السياسة العالمية منذ حملة بونابرت على مصر، قد سوّيت بنجاح بواسطة ترتيبات ما بعد الحرب التي توصلت إليها الدول مع حلول عام 1922. كانت هناك مسألة رئيسة موضع أخذ ورد، هي أين ترسم حدود روسيا السياسية في الشرق الأوسط. ومع حلول عام 1922 وجدت هذه المسألة حلاً: فقد رسم الحد الروسي في النهاية بمحاذاة سلسلة شمالية من الدول تمتد من تركيا إلى إيران وأفغانستان - وهي بلدان ناورت لتظل مستقلة عن روسيا والغرب، وهذا الخط من الحدود صمد على مدى عقود من السنين. أما المسألة الرئيسية الأخرى التي كا موضع أخذ ورد منذ زمان نابليون فهي المصير النهائي للإمبراطورية العثمانية - وهذه المسألة حلت أيضاً في عام 1922 بانتهاء السلطنة العثمانية وتقاسم ممتلكاتها في الشرق الأوسط من قبل تركيا وفرنسا وبريطانيا. هكذا كانت تسوية عام 1922.

## (2)

لم تكن تسوية عام 1922 عملاً منفرداً أو اتفاقية منفردة أو وثيقة منفردة، بل كانت رسماً انبثق من أعمال واتفاقيات ووثائق عديدة ومنفصلة يعود تاريخ معظمها إلى ذلك العام.

فالحُدود الإقليمية الروسية في الشرق الأوسط، أوجدتها مسودة دستور الاتحاد السوفياتي التي أقرت في نهاية عام 1922، أما حدود روسيا السياسية فقد انبثقت من المعاهدات التي وقعتها مع تركيا وبلاد فارس وأفغانستان، وإلى حد ما، من الاتفاقية التجارية التي وقعتها مع بريطانيا عام 1921.

إن خلع السلطان العثماني وإقامة دولة قومية تركية (مقتصرة على الجزء الناطق بالتركية من الامبراطورية التي حلت) كانا نتيجة اقتراع بإجماع الأصوات في المجلس الوطني التركي الكبير يومي الأول والثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) 1922. أما حدود تركيا التي تبعت ذلك، فقد كانت إلى حد كبير نتيجة الهدنة التي توصلت إليها مع الحلفاء في خريف 1922 وأعقبها معاهدة الصلح مع الحلفاء التي جرى التوقيع عليها في مدينة لوزان السويسرية في العام التالي [1208].

وتقاسمت بريطانيا وفرنسا ما تبقى من الممتلكات العثمانية السابقة في الشرق الأوسط بموجب الانتداب على سورية ولبنان الذي حصلت عليه فرنسا من عصبة الأمم (1922) والانتداب على فلسطين ومن ضمنها شرق الأردن الذي حصلت عليه بريطانيا من عصبة الأمم (1922)، ومعاهدة عام 1922 مع العراق التي أرادت بريطانيا تثبيتاً لانتداب تحكم بموجبه ذلك البلد الذي خرج حديثاً إلى حيز الوجود.

وحددت بريطانيا توجهاتها ضمن منطقة نفوذها في الشرق الأوسط بموجب أعمال ووثائق يعود معظمها إلى عام 1922. فقد أجلس في الأول على عرش مصر في ذلك العام، وجعلت مصر محمية بريطانية مستقلة اسمياً بموجب إعلان اللوبي الصادر عام 1922، وأنشأت محمية في العراق بموجب معاهدتها التي عقدتها في العام نفسه مع ذلك البلد الذي أوجدته وأجلست على عرشه مرشحها فيصل. وبموجب أحكام الانتداب على فلسطين لعام 1922 والكتاب الأبيض الذي أصدره تشرشل عن فلسطين في 1922، وضع شرق الأردن على الطريق ليشكل وجوداً سياسياً منفصلاً عن فلسطين - وتقرر أن يكون عبد الله، الذي عينته بريطانيا، على رأس هذا الكيان الجديد بصورة دائمة بموجب قرار اتخذ في عام 1922 - أما في غرب الأردن فقد وُعد اليهود بوطن قومي ووُعد غير اليهود بحقوق كاملة.

وأما استقلال الأكراد أو تمتعهم بالحكم الذاتي الذي كان على جدول الأعمال في عام 1921، فقد اختفى بشكل ما من جدول الأعمال في عام 1922، وبذلك لم توجد كردستان: كان هذا قراراً اتخذ شكل عدم اتخاذ قرار في عام 1922، وفي العام نفسه أيضاً فرضت بريطانيا اتفاقيات حدودية على ابن سعود أقيمت بموجبها الحدود بين المملكة العربية السعودية والعراق والكويت.

وهكذا فإن بريطانيا - شأنها شأن فرنسا في منطقة نفوذها في الشرق الأوسط وروسيا في منطقة نفوذها - أنشأت دولاً، وعيّنت أشخاصاً يحكمونها، ورسمت حدوداً في ما بينها. وقد فعلت معظم ذلك في عام 1922 أو حوالي ذلك العام. إن الدول الأوروبية كان لها ما أرادت أن تفعله منذ زمن طويل، أي أن تأخذ بأيديها المصائر السياسية لشعوب الشرق الأوسط - وقد فعلت ذلك ما اسميتها تسوية عام 1922.

### (3)

في كل مكان آخر من العالم - كل مكان خارج آسيا - أدى الإحتلال البريطاني إلى تدمير البنى السياسية لأهالي البلاد الأصليين وإبدالها ببنى جديدة ذات أشكال أوروبية. فالأميركيتان، وأستراليا، ونيوزيلندا، وإفريقيا لم تعد مقسمة على أسس قبلية، بل قسمت إلى بلدان كما هي الحال في أوروبا. والإدارة الحكومية في معظم الكرة الأرضية كانت على نمط أوروبي وبموجب قوانين أوروبية ووفقاً لمفاهيم أوروبية.

ذلك، ثمة ما يدعو إلى التساؤل عما إذا كان الإحتلال الأوروبي سيحدث في الشرق الأوسط ما أحدثه في أمكنة أخرى من أثر عميق ودائم. ومنشأ هذا التساؤل ليس فقط أن الشرق الأوسط منطقة حضارات عريقة يفخر بها أصحابها، ومعتقدات عميقة الجذور في الماضي، بل لأن التغييرات التي تقترح أوروبا إدخالها هي من العمق بحيث يجب أن تمر أجيال قبل أن تضرب هذه التغييرات جذورها في الأرض. إن هذه الأمور تتطلب وقتاً. إن روما القديمة أعطت أوروبا شكلها، وأوروبا الناهضة أعطت الأميركيتين شكلهما، وفي هاتين الحالتين كان هذا عملاً استغرق قرناً. وفي عام 1922 لم يكن مزاج أوروبا الغربية - ولا حالتها - يسمحان لها بأن تشرع في عمل يمثل هذه الضخامة.

ولذلك فإن المغامرة الامبراطورية الأوروبية في الشرق الأوسط، بدأت متأخرة جداً عن أوانها. ولم يعد الأوروبيون قادرين على متابعتها، لا من حيث كفاية الموارد ولا من حيث الحماسة. وأوروبا نفسها التي اكتسحت كارثة 1914 - 1918 عالمها الذي كان قائماً قبل الحرب، كانت هي أيضاً تتبدل في أسابيع أو أشهر بسرعة فاقت سرعة تبدلها من قبل في عقود أو قرون، وبدأت الإمبريالية في نظر عدد متزايد من الأوروبيين أمراً إدياً في العصر الحديث.

في سنوات الحرب الأولى، كان لا يزال أمراً مقبولاً أن تجهز الدول بالعزم على ضم مستعمرات جديدة. ولكن بعد أن جابهت أوروبا القديمة تحدي أميركا ويلسون وروسيا لينين وما صدر عنهما من كلام معادٍ للإمبريالية، أخذت تتبدل الأفكار والمفردات السياسية. إن سير مارك سايكس الذي كان دائماً شديد التأثير بتبدلات تيارات الرأي، رأى في 1917 أن المفاهيم الإمبريالية التي أخذ بها هو وبيكو قبل عام في ميثاقهما المتعلق بالشرق الأوسط إنما كانت مفاهيم عصر ولى.

ومع انتهاء الحرب صار المجتمع البريطاني يتجه إلى رفض حجة الدفاع المثالي عن الإمبريالية (أي أنها تنقل خيرات المدنية المتقدمة إلى منطقة

متخلفة) ويعتبر هذا الدفاع خيالياً، كما أخذ يتجه إلى رفض حجة الدفاع العملي (أي أن من المفيد لبريطانيا أن توسع امبراطوريتها) ويعتبر هذا الدفاع غير صحيح. فالجزء الأكبر من الصحافة البريطانية والرأي العام البريطاني والبرلمان البريطاني الذي رأى في الامبريالية مصدر نرف مكلف لمجتمع يحتاج إلى استثمار كل ما تبقى من موارده في إعادة بناء نفسه، قد وافق على السماح للحكومة أن تلزم نفسها بوجود في الشرق الأوسط العربي، والسبب الوحيد لهذه الموافقة هو أن استراتيجية ونستون تشرشل الذكية جعلت السيطرة على المنطقة دون كلفة عالية تبدو أمراً ممكناً.

ولذلك فإن الاعتقاد السائد بين المسؤولين البريطانيين خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها، بأن بريطانيا جاءت إلى الشرق الأوسط لتبقى - على الأقل تبقى لإعادة تكوين المنطقة وفقاً للمصالح السياسية والأفكار السياسية والمثل السياسية الأوروبية إنما كان يستند إلى الاعتقاد الهش بأن استراتيجية الطائرات والمصفحات التي ابتكرها تشرشل، قادرة على لجم المعارضة المحلية إلى زمن غير محدود. كذلك كان هذا الاعتقاد تعبيراً آخر عن الاستهانة بالشرق الأوسط التي طبعت السياسة البريطانية بطابعها طوال الوقت. لقد ظهرت هذه الاستهانة عندما ازدرى غراي العرض الخاص بالتحالف مع الامبراطورية العثمانية عام 1911، وعندما اعتبر اسكويث في عام 1914 دخول الامبراطورية العثمانية الحرب أمراً غير ذي بال، وعندما أرسل كيتشنر في 1910 جيوشه إلى حتفها لمهاجمة عدو متحصن ومتمن به للهجوم في غاليلوي، مع أن الحكومة البريطانية كانت تعرف أن هذا هجوم انتحاري إذا كانت القوات المدافعة عن غاليلوي من النوعية الأوروبية - وكان اعتقاد كيتشنر القائل أنها لم تكن من هذه النوعية.

توصلت الحكومة البريطانية في عام 1922 إلى حل وسط سياسي مع المجتمع البريطاني يقضي بأن تؤكد بريطانيا سيادتها على الشرق الأوسط ما دامت قادرة أن تفعل ذلك بكلفة ضئيلة. كان هذا يعني بالنسبة للمسؤولين البريطانيين الذين هؤنوا الصعاب التي ستواجهها بريطانيا في حكم المنطقة - والذين لم تكن لديهم في الواقع فكرة عن ضخامة ما هم مقدمون عليه - أن بريطانيا وجدت في الشرق الأوسط لتبقى. ولكن إذا نظرنا إلى الوراء نجد أن ذلك كان مؤشراً مبكراً إلى احتمال مغادرة بريطانيا للمنطقة.



## (4)

أصبحت تسوية عام 1922، من وجهة النظر البريطانية، متخلفة إلى حد بعيد عن الزمن الذي وضعت فيه موضع التنفيذ. فهذه التسوية جسّدت جانباً كبيراً من البرنامج الذي صاغته الحكومة البريطانية للشرق الأوسط بعد الحرب (في الأغلب بواسطة سير مارك سايكس بين عامي 1915 و1917. ولكن الحكومة البريطانية غيرت، والتفكير الرسمي البريطاني تغير، ولذلك فإن الترتيبات التي تمّ التوصل إليها في الشرق الأوسط في عام 1922 لم تعكس بالضبط ما كانت حكومة ذلك العام ترغب فيه.

مثال على ذلك منح فرنسا في عام 1922 انتداباً من عصبة الأمم تحكم بموجبه سورية (ومن ضمنها لبنان). ففي عام 1915 وعام 1916 كان وزير الخارجية سير ادوارد غراي والمفاوض البريطاني سير مارك سايكس متعاطفين مع مطالبة فرنسا بسورية - وقد قبل بها. أما في عام 1922 فإن رئيس وزراء بريطانيا ووزير خارجيتها والمسؤولين فيها، كانوا جميعاً قد رأوا منذ سنوات أن السماح لفرنسا باحتلال سورية هو استجلاب لكارثة.

وحتى ضمن منطقة النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط، لم تكن الحكومة البريطانية راضية عن توجهاتها في عام 1922. فقد اختار اللورد كيتشنر ومعاونوه بين عامي 1914 و1916 رعاية الهاشميين - الحسين شريف مكة وأبنائه - كزعماء للشرق الأوسط العربي بعد الحرب. ومع حلول عام 1918 أخذ المسؤولون البريطانيون يعتبرون الحسين عبئاً عليهم، لأنه يزجّهم في نزاع خاسر مع ابن سعود. ومع حلول عام 1922 أخذ السياسيون والمسؤولون البريطانيون ينظرون إلى فيصل بن الحسين باعتباره غادراً، وإلى عبد الله بن الحسين باعتباره عبئاً وغير فعّال. ومع ذلك كان فيصل وعبد الله حاكمي العراق وشرق الأردن اللذين عيّنتهما بريطانيا، إذ التزمت بريطانيا بدعم قضية الهاشميين.

مثال آخر هو مسألة فلسطين: في عام 1922 قبلت بريطانيا انتداباً منحتها إياه عصبة الأمم لتنفيذ برنامج صهيوني مألّته بحماسة في عام 1917 - وفقدت حماستها له في مطلع العشرينات من هذا القرن. فلا عجب إذناً، أن يحكم المسؤولون البريطانيون في السنين اللاحقة الشرق الأوسط دون أن يكون لديهم كبير إحساس بالقصد أو كبير إحساس بالامتناع. وكان هذا نتيجة لخاصية تسوية عام 1922: فمصانعو السياسة البريطانيون، بعد أن قضوا على النظام القديم في المنطقة، ونشروا الجنود والمصفحات والطائرات الحربية في كل مكان من مساحة ممتدة من مصر إلى العراق، فرضوا على الشرق الأوسط في عام 1922 تسوية لم يعد أكثرهم مؤمناً بها.



## (5)

أصبح الشرق الأوسط ما هو عليه الآن لأن الدول الأوروبية أخذت على عاتقها أن تعيد تشكيله من جهة، ولأن بريطانيا وفرنسا أخفقتا في ضمان استمرارية بقاء الأسر الحاكمة، والدول، والنظام السياسي، التي أوجدتها، من جهة أخرى. فخلال الحرب العالمية الأولى وبعدها قضت بريطانيا وحلفاؤها قضاء مبرماً على النظام القديم في المنطقة، وحطمت هاتان الدولتان الحكم التركي للشرق الأوسط الناطق بالعربية تحطيماً لا خلاص منه [1209]. ولكي تأخذ الدولتان مكان النظام القديم، أوجدتا بلداناً، وعيّنتا حكماً، ورسمتا حدوداً، وأدخلتا نظام دول من النوع الموجود في كل مكان آخر، ولكنهما لم تقضيا على كل معارضة محلية هامة لقراراتهما.

ونتيجة لذلك وضعت أحداث 1914 - 1922 نهاية لمسألة الشرق الأوسط في أوروبا، ولكنها ولدت مسألة شرق أوسطية في الشرق الأوسط نفسه، إن تسوية عام 1922 (كما نسميها في هذا الكتاب، مع أن بعض الترتيبات تم التوصل إليها قبيل أو بعيد هذا العام)، قد حلت، في ما يخص الأوروبيين مسألة ماذا - وكذلك من - ينبغي أن يحل محل الامبراطورية العثمانية. مع ذلك لاتزال حتى يومنا هذا قوى محلية ذات بأس في الشرق الأوسط غير متوافقة مع هذه الترتيبات - وقد تطيح بها.

إن بعض الخلافات، كالتي نجدها في أي مكان آخر من العالم، هي على الحكام والحدود، ولكن ما يميز الشرق الأوسط هو أن ثمة مطالب تطرح هي أكثر صلة بالجوهر، وهذه الخلافات لا تضع موضع البحث المساحات والحدود فحسب، بل تطرح أيضاً حق الوجود لبلدان انبثقت فوراً أو في ما بعد من القرارات البريطانية والفرنسية التي اتخذت في أوائل العشرينيات من هذا القرن كالعراق، وإسرائيل، والأردن ولبنان. ولذلك لايزال الشرق الأوسط حتى هذا الزمن من القرن العشرين، المنطقة التي تستمر تشهد بشيء من التكرار حروباً من أجل البقاء الوطني.

وهذه الخلافات تذهب إلى غور أعمق، فتحت سطح مسائل محدودة ولكنها تبدو مستعصية على الحل، فالمستقبل السياسي للأكراد أو المصير السياسي للعرب الفلسطينيين، تكمن مسألة أعم هي: هل يستطيع البقاء في تربة الشرق الأوسط الغربية عن أوروبا، ذلك النظام السياسي الحديث الذي ابتكرته أوروبا ونقلته إلى المنطقة - ومن صفاته تقسيم الأرض إلى دول علمانية مستقلة أساسها مواطنة قومية.

إن الأفكار السياسية الأوروبية تعتبر في بقية العالم من الأمور المسلم بها فلا يناقشها أحد، ولكن واحدة على الأقل من هذه الأفكار هو الإيمان

المعاصر بحكومة مدنية علمانية، يعتبر عقيدة غريبة عن منطقة معظم سكانها، ولمدة تربو على ألف عام، أكدوا إيمانهم بشرعية دينية تحكم كل جوانب الحياة، ومن ضمنها الحكومة والسياسة.

لقد أقر فعلاً رجال الدولة الأوروبيون في زمن الحرب العالمية الأولى - وإلى حد ما - بوجود المشكلة وبأهميتها. فما أن بدأ قادة الحلفاء يخططون لضم الشرق الأوسط إلى دولهم، حتي أدركوا أن سلطة الإسلام على المنطقة هي الخاصة الرئيسة للخريطة السياسية التي يتحتم عليهم أن يجابهوها. ونحن نذكر أن اللورد كيتشنر شنّ في عام 1914 سياسة هدفها جعل الاسلام تحت سيطرة بريطانيا. فلما ظهر أن هذه السياسة لن تنجح - بعد أن وقعت دعوة الشريف حسين المؤمنين إلى الجهاد على آذان صماء - رأي معاونو كيتشنر البديل في رعاية ولاءات أخرى (الولاء لاتحاد شعوب عربية، أو لأسرة الملك حسين، أو لبلدان كانت على وشك ان تخرج إلى الوجود كالعراق)، وأن تكون هذه الولاءات منافسة للوحدة الاسلامية. والحقيقة أنهم عندما صاغوا تسوية الشرق الأوسط لما بعد الحرب، كان هذا الهدف (بين أهداف أخرى) نصب أعينهم.

بيد أن فهم المسؤولين الأوروبيين في ذلك الحين للإسلام كان ضئيلاً. فقد هوّنوا الأمور باقتناعهم أن المعارضة الإسلامية للعصرنة - لإضفاء الصبغة الأوروبية - كانت في طريقها إلى التلاشي. ولو كان بوسعهم أن يبصروا بعيداً فيروا النصف الثاني من القرن العشرين، لأدهشتهم حمية المذهب الوهابي في المملكة العربية السعودية، وعاطفة الإيمان الديني في أفغانستان المتحاربة، واستمرار حيوية الإخوان المسلمين في مصر، وسورية، وغيرهما من العالم السني، والثورة الخمينية في إيران الشيعية.

إن استمرارية المقاومة المحلية، سواء أكانت على أسس دينية أم أسس غيرها، لتسوية عام 1922 وللأفكار الأساسية التي قامت على أساسها، تفسّر لنا الخاصة التي تميز سياسة المنطقة: هذه الخاصة هي أنه لا وجود في الشرق الأوسط للإحساس بالشرعية - أو لا وجود لاتفاق على قواعد اللعبة - وليس في المنطقة ايمان يشارك فيه الجميع، بأن الكيانات التي تسمي نفسها بلداناً والرجال الذين يدّعون أنهم حكام - وبغض النظر عن الحدود التي تقع ضمنها هذه البلدان - لها أو لهم حق الاعتراف بهم كبلدان أو حكام. وبهذا المعنى لا يمكن القول إن الذين خلفوا السلاطين العثمانيين قد نُصبوا في مناصبهم بصفة دائمة، مع أن هذا ما اعتقد الحلفاء أنهم فاعلوه بين عامي 1919 و1922.

قد يأتي يوم تتراجع فيه التحديات التسوية عام 1922 - أي لوجود الأردن، وإسرائيل، والعراق، ولبنان على سبيل المثال، أو لإقامة حكومات علمانية

قومية في الشرق الأوسط. أما إذا استمر زخم هذه التحديات، فإننا سنرى يوماً ما الشرق الأوسط الذي عرفناه في القرن العشرين في وضع شبيه بوضع أوروبا في القرن الخامس الميلادي، عندما ألقى انهيار سلطة الامبراطورية الرومانية في الغرب، رعايا الامبراطورية في خضم أزمة حضارة فرضت عليهم العمل من أجل إيجاد نظام سياسي من صنعهم. إن التجربة الأوروبية تدلنا على ما قد تكون عليه أبعاد أزمة حضارة سياسية ذات طبيعة جذرية كهذه الأزمة.

لقد احتاجت أوروبا إلى ألف وخمسمئة سنة لتحل أزمة هويتها الاجتماعية والسياسية بعد زوال الامبراطورية الرومانية: منها نحو ألف سنة لكي يستقر النظام السياسي على شكل الدولة - الأمة، وقرابة خمسمئة سنة أخرى لتقرير من هي الأمم التي تملك الحق بأن تشكل دولاً. ثمة مسائل احتاجت تسويتها في أوروبا إلى عمل مضمّن خلال عصور من البحث والصراع مثل: هل تنجو المدينة من غارات وصراعات العصابات المتقاتلة والمتنافسة، وهل يكون الحكم للكنيسة أو للدولة، وهل يكون الحاكم هو البابا أو الامبراطور، وهل تسود الكاثوليكية أو البروتستانتية في العالم المسيحي، وهل يكون الولاء والطاعة لإمبراطوريات تحكمها سلالات أو للدولة القومية أو لدول المدن، وهل على سبيل المثال، المواطن في مدينة ديجون ينتمي إلى الأمة البورغندية أو إلى الأمة الفرنسية. كل هذه المسائل تطلب حلها بصورة من العمل المضمّن والبحث والصراع، وخلالها كثيراً ما كان مصير الخاسرين الإبادة - أمثال الالبجوزيين في جنوب فرنسا. لقد انبثقت أخيراً خريطة مقبولة لأوروبا الغربية، ولكن هذا لم يحدث إلا في نهاية القرن التاسع عشر، مع ظهور ألمانيا وإيطاليا، أي بعد أن عفا الزمن على الخريطة الرومانية القديمة بنحو ألف وخمسمئة سنة.

قد تبين لنا أن أزمة الشرق الأوسط المستمرة في زمننا، ليست بأية حال في مثل هذا العمق وطول الزمن. ولكن موضوعها هو مثل موضوع أزمة أوروبا الغربية المذكورة: كيف تستطيع شعوب متنوعة أن تعيد تجميع نفسها لخلق هويات سياسية جديدة لنفسها بعد انهيار نظام امبراطوري طويل العهد اعتادت عليه. لقد اقترحت الدول الحليفة في مطلع العشرينيات من هذا القرن شكلاً للمنطقة بعد زوال الامبراطورية العثمانية. والسؤال الذي لايزال قائماً هو: هل تقبله شعوب المنطقة.

ولذلك فإن تسوية عام 1922 لا تخص، بكاملها أو في معظمها، الماضي، بل هي في قلب الحروب والنزاعات والسياسات الراهنة في الشرق الأوسط، لأن المسائل التي أثارها كيتشنر، ولويد جورج وتشيرشل لا تزال حتى الآن هدفاً للتصدي لها بقوة السلاح، عاما بعد عام، في شوارع بيروت التي حل بها الدمار، وعلى ضفاف دجلة والفرات، وقرب مياه نهر الأردن التوراتي.



## (6)

لم يمتد بصر السياسيين والمسؤولين البريطانيين إلى بعيد في مطلع العشرينيات من هذا القرن ليروا مسبقاً المستقبل المفعم بالمشاكل لتسوية عام 1922. بل إنهم لم يروا مسبقاً المستقبل السياسي المباشر لأولئك الذين كانت لهم علاقة شخصية بهذه التسوية - ومنهم ونستون تشرشل، أحد مهندسي التسوية الرئيسيين - مع أن هذه كانت أمور آتية، ولهم معرفة بها أوثق من معرفتهم بسياسة الشرق الأوسط.

كان في بريطانيا عام 1922 إجماع في الرأي أن تشرشل انتهى سياسياً. وبدا تشرشل محطماً بعد أن فقد مقعده الوزاري في تشرين الأول (أكتوبر) ومقعده في مجلس العموم في تشرين الثاني (نوفمبر). وفي حين لم يخافه شك في أنه قادر على العودة في وقت ما إلى البرلمان، فقد بدا أمراً غير محتمل أن يُدعى قط لشغل منصب حكومي - أو على أقل تقدير منصب كبير.

يتذكر أحد الذين صحبوا تشرشل إلى مأدبة عشاء في نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) أن: «تشرشل كان شديد الكآبة فلم ينبس ببنت شفة طوال الأمسية إلا في ما ندر. كان يرى أن عالمه وصل إلى النهاية - على أقل تقدير عالمه السياسي. وكان رأيي أن حياته العملية قد انتهت» [1210].

افتتح البرلمان الجديد في 27 تشرين الثاني (نوفمبر) 1922، ولم يكن تشرشل عضواً فيه، فلم ير ما يشده إلى البقاء في بريطانيا. وقد أبحر في بداية كانون الأول (ديسمبر) إلى البحر الأبيض المتوسط. كان قد انقضى عقد واحد من السنين منذ أن قام في أوائل صيف حياته العملية، على اليخت انشانترس برحلة سياحية في البحر الأبيض المتوسط مع الشابة فيوليت اسكويث ووالدها، ولكن تلك الرحلة السياحية حدثت، من الناحية السياسية في قرن آخر - بل في عالم آخر.

وما أن وصل تشرشل إلى جنوب فرنسا حتى استقر في دارة استأجرها قرب مدينة كان، واستأنف كتابة مذكراته عن الحرب - وكان قد بدأ كتابتها في وقت سابق. وقد أنجز جانباً كبيراً منها، فاعتقد أن الأجزاء الأولى من المذكرات ستكون خلال شهر جاهزة للنشر مسلسلة في الصحف. كان عازماً على أن تكون مذكراته في عدة مجلدات.

في سياق كتابة مذكراته ركز على سوء الحظ الذي واجهه ولم يجد له تفسيراً في كل ما كانت له صلة بالشرق التركي. لقد استذكر الحوادث، والارتباكات، والغلطات التي جعلت البارحة غويين تصل إلى القسطنطينية

ويكون لها سهم في دفع الامبراطورية العثمانية إلى الحرب - هذه الحرب التي وقعت تبعثها عليه هو شخصياً. وركز على السلوك الذي يكاد لا يصدق الذي سلكه قادة الأسطول في الدردنيل بفرارهم من المضائق - عشية اليوم الذي كان ممكناً أن يربحوا فيه الحرب التركية وأن يعودوا عليه بأكاليل النصر، بدلاً من العار والطرْد. وروي لقرائه كيف إن قرداً عض ملك اليونان فكانت العضة سبباً في تجدد الحرب التركية مما أطاح بحكومة لويد جورج - وأطاح به معها.

بعد أن أتم تشرشل كتابة ونشر المجلد الأول من مذكراته، عاد إلى بريطانيا في منتصف عام 1923، وإلى الحروب السياسية الميؤوس منها. وفي أواخر فصل الخريف رشح نفسه مرة أخرى في الانتخابات البرلمانية ولكن شبح الفشل في الدردنيل زمن الحرب ظل يلاحقه، فهزمه المرشح العمالي. وعاد فرشح نفسه في أواخر فصل الشتاء، ولكن في دائرة انتخابية أخرى، فهزم من جديد، وكانت هزيمته هذه المرة أمام مرشح من حزب المحافظين.

ولكن وضع تشرشل أخذ يتبدل، ففي أواخر 1926 عاد إلى البرلمان، وذهل العالم السياسي إذ تنأهى إليه أن ونستون تشرشل لم ينته سياسياً بل أصبح وزيراً للمالية، وهو منصب يعتبر عادة الثاني من حيث الأهمية في مجلس الوزراء.

أخذت الغيوم تتبدد، وكتب إليه زميل سابق من نواب حزب الأحرار، هو جورج لامبرت، مهنئاً بالمنصب الجديد، فتوقع له مستقبلاً أكثر مدعاة للدهشة. فقد قال في تهنئته: «ونستون يا بني. عندي حاسة لا تخطئ في السياسة. أظن أنني سأعيش لأراك رئيساً للوزراء» [1211].



# Contents

مكتبة Telegram Network

مقدمة

الجزء الأول عند مفترق الطرق في التاريخ

الفصل الأول آخر أيام أوروبا القديمة

(1).

(2).

الفصل الثاني تركة اللعبة الكبرى في آسيا

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

(6).

الفصل الثالث الشرق الأوسط قبل الحرب

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

الفصل الرابع الأتراك الفتیان يتعجلون البحث عن حليف

(1).

(2).

(3).

الفصل الخامس ونستون تشرشل عشية الحرب

(1).

(2).

## الفصل السادس تشرشل يستولي على السفن الحربية التركية

(1).

(2).

(3).

## الفصل السابع مكيدة في الباب العالي

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

## الجزء الثاني كيتشنر الخرطوم يتطلع إلى البعيد

## الفصل الأول كيتشنر يتسلم زمام القيادة

(1).

(2).

(3).

## الفصل الثاني معاو نو كيتشنر

(1).

(2).

(3).

(4).

## الفصل الثالث كيتشنر ينطلق للسيطرة على الإسلام

(1).

(2).

(3).

(4).

## الفصل الرابع الهند تحتج

(1).

(2).

(3).

## الفصل الخامس الرجل الذي في الوسط

(1).

(2).

## الجزء الثالث بريطانيا تُجبر إلى مستنقع الشرق الأوسط

## الفصل الأول القادة العسكريون الأتراك كادوا أن يخسروا الحرب

(1).

(2).

## الفصل الثاني كيتشينر يسمح لبريطانيا بمهاجمة تركيا

(1).

(2).

## الفصل الثالث نحو النصر في الدردنيل

(1).

(2).

(3).

## الفصل الرابع طمع روسيا في تركيا

(1).

(3).

(4).

## الفصل الخامس تحديد أهداف بريطانيا في الشرق الأوسط

## الفصل السادس عند مضائق الحظ

(2).

(3).

(4).

## الفصل السابع المحاربون

(1).

(2).

(3).

## الفصل الثامن السياسيون

(1).

(2).

## الفصل التاسع الضوء الذي خيا

(1).

(2).

(3).

(4).

## الفصل العاشر إنشاء المكتب العربي

(1).

(2).

## الفصل الحادي عشر إعطاء الوعود إلى العرب

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

## الفصل الثاني عشر إعطاء وعود إلى الحلفاء الأوروبيين

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

(6).

## الفصل الثالث عشر انتصار تركيا على ضفاف دجلة

(1).

(2).

## الجزء الرابع التخریب

### الفصل الأول خلف خطوط العدو

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

### الفصل الثاني مهمة كیتشنر الأخيرة

### الفصل الثالث ثورة الحسين

(1).

(2).

(3).

(4).

## الجزء الخامس الحلفاء في أدنى طالعهم

### الفصل الاول سقوط حكومات الدول الحليفة: بريطانيا وفرنسا

(1).

(2).

(3).

### الفصل الثاني خلع قيصر روسيا

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

## الجزء السادس العوالم الجديدة والأراضي الموعودة

### الفصل الأول العالم الجديد

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

(6).

### الفصل الثاني صهيونية لويد جورج

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

### الفصل الثالث في الطريق إلى إعلان بلفور

(1).

(2).

### الفصل الرابع أرض الميعاد

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

(6).

### الجزء السابع غزو الشرق الأوسط

### الفصل الأول في القدس عند حلول عيد الميلاد

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

### الفصل الثاني الطريق إلى دمشق

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

(6).

### الفصل الثالث المعركة من أجل سورية

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

### الجزء الثامن غنائم النصر

### الفصل الاول افتراق الطرق

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

### الفصل الثاني عند شواطئ طرودة

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

(6).

(7).

### الجزء التاسع إنحسار التيار

## الفصل الاول دقات الساعة

(1).

(2).

(3).

## الفصل الثاني الخيانة

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

(6).

(7).

## الفصل الثالث العالم غير الحقيقي لمؤتمرات الصلح

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

## الجزء العاشر العاصفة تهب على آسيا

### الفصل الاول بداية المتاعب 1919 - 1921

#### الفصل الثاني مصر شتاء 1918 - 1919

#### الفصل الثالث أفغانستان: ربيع عام 1919

#### الفصل الرابع شبه الجزيرة العربية: ربيع عام 1919

#### الفصل الخامس تركيا: كانون الثاني 1920

#### الفصل السادس سورية ولبنان: ربيع وصيف 1920

(1).

(2).

#### الفصل السابع شرق فلسطين (عبر الأردن): 1920



الفصل الثامن فلسطين - العرب واليهود: 1920

الفصل التاسع بلاد الرافدين (العراق): 1920

الفصل العاشر بلاد فارس (إيران): 1920

الجزء الحادي عشر روسيا تعود إلى الشرق الأوسط

الفصل الأول إزالة الأقنعة عن وجوه أعداء بريطانيا

(1).

(2).

(3).

الفصل الثاني التحدي السوفياتي في الشرق الأوسط

الفصل الثالث أهداف موسكو

(1).

(2).

(3).

الفصل الرابع حادث موت في بخارى

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

الجزء الثاني عشر التسوية الشرق أوسطية لعام 1922

الفصل الأول ونستون تشرشل يتولى المسؤولية

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

(6).

(7).

(8).

## الفصل الثاني تشرشل ومسألة فلسطين

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

(6).

(7).

(8).

## الفصل الثالث افتراق الحلفاء

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

## الفصل الرابع مأساة يونانية

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

(6).

## الفصل الخامس تسوية مسألة الشرق الأوسط

(1).

(2).

(3).

(4).

(5)

(6)

# Notes

[←1]

فیولیت بونهام کارتر، ونستون تشرشل کما عرفته، ص 263.

[←2]

المرجع نفسه، ص 264.

[←3]

المرجع نفسه، ص 263.

[←4]

المرجع نفسه .

[←5]

تظل شبكة حديد بغداد أفضل مثال على توغل ألمانيا الاقتصادي في المنطقة . والقصة معقدة وكثيراً ما يساء فهمها، ولكن البريطانيين شجعوا المشروع في الأصل وساندوه، غير مدركين في البداية ما قد يشكله من أخطار. وما لبث المشروع أن أصبح مصدر خلاف بين بريطانيا وألمانيا، ولكن الخلاف وجد حلاً في الاتفاق الذي توصل إليه البلدان عام 1914.



[←6]

من أجل بحث أوفى راجع ديفيد فرونكين، «اللعبة الكبرى في آسيا»، مجلة فورين أفيرز (عدد ربيع 1980)، ص 936. وراجع أيضا ادوارد انغرام، الالتزام بأوروبا: تنبؤات اللعبة الكبرى في آسيا 1797 - 1800، (اوكسفورد: مطبعة كلارندن، 1981)، وادوارد انغرام، بدايات اللعبة الكبرى في آسيا 1828 - 1834، (اوكسفورد: مطبعة كلارندن، 1979).

[←7]

جورج كورزون، بلاد فارس والمسألة الفارسية، (لندن: فرانك كاس، 1966)، المجلد الأول  
الصفحتين 3 و4.

[←8]

ج. كلايتون، بريطانيا والمسالمة الشرقية: من ميسولونغي إلى غاليلوي، (لندن: مطبعة جامعة لندن، 1971)، ص 139

[←9]

ج. كاي كما رواه هـ. و. ديفيز، اللعبة الكبرى في آسيا، 1800 - 1844. محاضرة رالي عن التاريخ (لندن: الأكاديمية البريطانية، 1926)، الصفحتان 3 و4.

[←10]

يقصد بعض الكتاب بعبارة اللعبة الكبرى أنشطة أجهزة المخابرات المتنافسة، وآخرون يستخدمون العبارة بالمعنى الأوسع الذي استخدمت به في هذا الكتاب.

[←11]

ماريان كنت، النفط والامبراطورية: السياسة البريطانية و النفط بلاد الرافدين، 1900 - 1920،  
(لندن: مطبعة مكميلان لحساب مدرسة الاقتصاد في لندن، 1976)، ص 6 والملحق 8.

[←12]

الاقتباس في ارثر سوينسون، الحدود الشمالية الغربية: الناس والأحداث، 1839 - 1947،  
(لندن: هاتشنسون، 1967)، ص 162.

[←13]

م. س. اندرسون، المأساة الشرقية 1774 - 1923: دراسة في العلاقات الدولية. (لندن وبيزنس توك: مطبعة مكميلان، 1966)، ص 224.



[←14]

الليدي غويندولين سيسيل، حياة روبرت مركيز سالزبوري، (لندن: هودر وستوتن، 1921)،  
المجلد 2 ص 326.

[←15]

بول كنيدي، الحقائق الواقعية خلف الدبلوماسية: التأثيرات الخلفية على السياسة الخارجية البريطانية 1865 - 1980، (غلاسكو: فونتانا، 1981)، ص 2. بول كنيدي، «مؤرخ للانحدار الإمبراطوري يلقي نظرة على أميركا» (انترناشيونال هيرال تريبيون)، (3 تشرين الثاني/نوفمبر 1982) ص 6.

[←16]

ب. ل. كوتريل، الاستثمارات البريطانية في ما وراء البحار خلال القرن التاسع عشر، (لندن: مطبعة مكميلان، 1975)، ص 9.

[←17]

وولتر بيجهوت، مجموعة الأعمال (لندن: الاكونومست، 1974)، المجلد الثامن، ص 306.

[←18]

فايكونت غراي اوف فالودين، خمس وعشرون سنة، 1892 - 1916، (لندن: هودر وستوتون، 1925)، المجلد الأول ص 152.

[←19]

ثلاثون مليوناً: تشارلز عيساوي، تاريخ تركيا الاقتصادي: 1800 - 1914، (شيكاغو ولندن: مطبعة جامعة شيكاغو 1980)، ص 1؛ خمسون مليوناً: جورج ليتشوفسكي، الشرق الأوسط في الشؤون العالمية، الطبعة الرابعة (إيتاكا ولندن: مطبعة جامعة كورنيل، 1980)، ص 28.

[←20]

الحرب العربية، معلومات سرية إلى مقر القيادة العامة من جيرترود بل، وهي رسائل أعيدت طباعتها نقلاً عن (النشرة الغربية) السرية (بريطانيا العظمى: مطبعة غولدن كوكيريل) ص 9.

[←21]

عيساوي، تاريخ تركيا الاقتصادي، ص 353.



[←22]

الموسوعة البريطانية ، الطبعة الحادية عشرة «القسطنطينية».

[←23]

برنارد لويس، انبثاق تركيا الحديثة، الطبعة الثانية (لندن، أوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة  
أوكسفورد، 1968)، ص 228.

[←24]

جون بريزلاند (الاسم المستعار لـ غلاديس سكيلتون)، ديدز بك: دراسة عن سير ويندهام ديدز  
1883 - 1923، (لندن: مكميلان، 1942) ص 19.

[←25]

مارغريت فيتزر هيربرت، الرجل الذي كان العباءة الخضراء: سيرة حياة أوبري هيربرت، (لندن: جون ميري، 1983)، ص 83.

[←26]

ايلي كدوري، مذكرات سياسية عربية ودراسات أخرى، (لندن. فرانك كاس، 1974)، ص 244.

[←27]

المرجع نفسه، ص 260.

[←28]

المرجع نفسه، ص 257.

[←29]

المرجع نفسه، ص 261.



[←30]

مع ذلك حاول كراسو فعلاً في أوقات مختلفة أن يوفق بين أهداف الصهيونية والأهداف القومية لجمعية الاتحاد والترقي.

[←31]

المرجع نفسه، ص 255.

[←32]

للحصول على روايات عن أصول حركة تركيا الفتاة وأعمالها الداخلية راجع فيروز أحمد،  
**جماعة تركيا الفتاة: جمعية الاتحاد والترقي في السياسة التركية 1908 - 1914**  
(أو كسفورد: مطبعة كلارندون، 1969)، وارينست ادmondسون رامور الابن، **تركيا الفتاة: مقدمة لثورة 1908** (برنستون، مطبعة جامعة برنستون، 1957).

[←33]

جون بوتشان، العباءة الخضراء (نيويورك: غروسييت ودلاب، 1919) الفصل الأول، لويس،  
تركيا الحديثة، الصفحتان 207 - 208.

[←34]

تشارلز عيساوي، **تاريخ تركيا الاقتصادي 1800 - 1914** (شيكاغو ولندن: مطبعة جامعة شيكاغو، 1980) ص 151.

[←35]

المرجع نفسه .

[←36]

المرجع نفسه .

[←37]

المرجع نفسه، ص 146 - 147 و 152 - 177.



[←38]

«من دلائل تدني درجة التطور في الامبراطورية العثمانية أن أطول السكك الحديدية في مساحتها البالغة 1,900,000 كيلومتر مربع لم تتجاوز 5,991 كيلومتر في عام 1914» وكلها ذات مسار واحد.

[←39]

المرجع نفسه، ص 177.

[←40]

المرجع نفسه، ص 178.

[←41]

هاري هوارد، **تقسيم تركيا: تاريخ دبلوماسي 1913 - 1923** (نيويورك: هوارد فيرتيغ، 1966) ص 47 وما يتبعها.

[←42]

سير مارك سايكس، **تراث الخلفاء الأخير: تاريخ مختصر للامبراطورية التركية** (لندن: مكميلان، 1915)، ص 2.

[←43]

أحمد جمال باشا، **مذكرات رجل دولة تركي 1913 - 1919** (نيويورك: جورج دوران، 1922)، ص 108.

[←44]

مارتن جيلبرت، **ونستون تشرشل، المجلد 3، 1914 - 1916 تحدي الحرب (بوسطن: هرتن ميغلين، 1971)، ص 189.**

[←45]

المرجع نفسه، ص 190.



[←46]

أولريس ثرومينير، المانيا والامبراطورية العثمانية 1914 - 1918 (مطبعة جامعة برنستون، 1968)، ص 20.

[←47]

المرجع نفسه، ص 19.

[←48]

المرجع نفسه .

[←49]

تيد مورغان، **تشرشل: شاب في عجلة من أمره، 1874 - 1915** (نيويورك: سايمون آند شوستر، 1982)، ص 314.

[←50]

فایولیت بوتھام کارتر، **ونستون تشرشل کما عرفته**، (لندن: الییر وسپورتسوود وکولنز، 1965)، ص 262.

[←51]

مارتن جيلبرت، **ونستون تشرشل المجلد 3: 1914 - 1916، تحدي الحرب (بوسطن، هيوتن ميغلين، 1971)، ص 179 - 180.**

[←52]

المرجع نفسه ، الصفحة المقابلة 156 .

[←53]

ريتشارد هاد، **الحرب الكبرى في البحر: 1914-1918** (أوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة أوكسفورد، 1983)، ص 71.



[←54]

اللورد كينروس ، اتاتورك: **سيرة حياة مصطفى كمال ابي تركيا الحديثة** (نيويورك: وليم مورو، 1965) ص 79، وستانفورد شو وايزل كورال شو، **تاريخ الامبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة المجلد 2: الإصلاح، الثورة والجمهورية: نشوء تركيا الحديثة 1808** - 1975 (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، 1977)، ص 311.

[←55]

ونستون تشرشل، **الأزمة العالمية: 1911 1914** (لندن: ثورنتون بتروورث، 1923)، ص 208 - 209.

[←56]

مارتن جيلبرت، ونستون تشرشل: **مجلد مرافق، المجلد 3 الجزء الأول: تموز 1914**  
- نيسان 1915، (بوسطن: هوتن ميغلين 1973) الصفحتان 1 - 2.

[←57]

هذا الرأي قُدم قبل اندلاع الحرب بين بريطانيا وألمانيا بأسبوع.

[←58]

المرجع نفسه، ص 3.

[←59]

المرجع نفسه ، الصفحتان 2 - 3 .

[←60]

المرجع نفسه، ص 5.

[←61]

المرجع نفسه .



[←62]

المرجع نفسه، ص 10.

[←63]

المرجع نفسه ، ص 9 .

[←64]

المرجع نفسه، ص 16.

[←65]

المرجع نفسه .

[←66]

المرجع نفسه، ص 19.

[←67]

اولريش ترومينر، **المانيا والامبراطورية العثمانية: 1914 - 1918** ، (برنستون: مطبعة  
جامعة برنستون: 1968) ص 150.

[←68]

المرجع نفسه ، الصفحتان 19 ، 20 .

[←69]

المرجع نفسه، ص 16.



[←70]

ج. ا. س. غرينفيل، **المعاهدات الدولية الرئيسية 1916-1973، تاريخ ودليل مع نصوص** (نيويورك: ستين آند داي، 1970) ص 24. هاري هوارد، **تقسيم تركيا: تاريخ دبلوماسي 1913 - 1923** (نيويورك: هوارد فيرتيغ، 1966)، ص 49.

[71←]

جرى التوقيع على المعاهدة بعد يوم من اعلان المانيا الحرب على روسيا ولم يكن مطلوباً من المانيا أن تعلن الحرب بمقتضى أحكام معاهدتها مع النمسا. والذي حدث هو أن المانيا أعلنت الحرب قبل أن تعلنها النمسا - هنغاريا بعدة أيام. ولذلك فإن المعاهدة مع الامبراطورية العثمانية التي صيغت صياغة غريبة لم تلزم - إذا قرئت بحرفيتها - الأتراك بدخول الحرب.

[←72]

ترومبينر، الإمبراطورية العثمانية، الصفحتان 14، 22.

[←73]

ترومبينر، المصدر نفسه .

[←74]

جیلبرت، تشرشل، **مجلد مرافق**، ص 36.

[←75]

ي. ت. كوراث «كيف انزلت تركيا إلى الحرب العالمية الأولى»، في: ك. بورن ود. وات،  
**دراسات في التاريخ الدولي** (لندن: لونغمان، 1997)، ص 299.

[←76]

الرواية الواردة في النص تلي تلك التي في: أولريش ترومبينر، ألمانيا والامبراطورية العثمانية 1914 - 1918 (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، 1968).

[77←]

فایولت بونهام کارتر، ونستون تشرشل کما عرفته (لندن: ایمیر وسبوتیسوود ولولینر،  
1965)، الصفحتان. 321 - 322



[←78]

مارتن جيلبرت، ونستون تشرشل: مجلد مرافق، المجلد 3 الجزء الأول: تموز 1914 - نيسان 1915 (بوسطن: هيوتن ميغلين، 1973)، ص 73.

[←79]

المرجع نفسه .

[←80]

ستانفورد شو دايزل كورال شو، تاريخ الامبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة المجلد 2:  
الإصلاح، الثورة والجمهورية: نشوء تركيا الحديثة 1808 - 1975، (كامبريدج، مطبعة جامعة  
كامبريدج، 1977)، ص 312.

[←81]

المرجع نفسه، ص 311.

[←82]

هـ. هـ. اسكوپث، رسائل إلى فينيشيا ستانلي، حررها مايكل واليانور بروك (أوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، 1982)، ص 168.

[←83]

المرجع نفسه، ص 171.

[←84]

جون بريسلا ند (الاسم المستعار لغلاديس سكلتون)، ديدز بك: دراسة عن سير ويندهام ديدز  
1883 - 1923، (لندن: مكميلان، 1942). الصفحتان 9 - 138.

[←85]

جیلبرت ، تشرشل ، مجلد مرافق ، ص 58.



[←86]

هاري هوارد، تقسيم تركيا: تاريخ دبلوماسي 1913 - 1923 (نيويورك: هوارد فيرتيغ، 1966)، ص 49.

[←87]

مارتن جيلبرت، ونستون تشرشل المجلد 3: 1914 - 1916، تحدي الحرب، (بوسطن: هوتن وميغلين، 1971) ص 210.





[←90]

المرجع نفسه .

[←91]

المرجع نفسه .

[←92]

المرجع نفسه، ص 32.

[←93]

فايكاونت غراي او فالودين، خمس وعشرون سنة 1892 - 1916، (لندن: هودر وستوتون،  
1925) المجلد 2 ص 164.



[←94]

جوزف هيلر، السياسة البريطانية تجاه الامبراطورية العثمانية 1908 - 1914، (لندن: فرانك كاس، (1983).

[←95]

ترومبينر، الامبراطورية العثمانية، ص 48.

[←96]

هاري هوارد، تركيا والمضائق وسياسة الولايات المتحدة (بالتيمور ولندن: مطبعة جامعة جون هوبكنز، 1974)، ص 27 رقم 2.

[←97]

ترومبينر، الامبراطورية العثمانية، ص 58.

[←98]

جیلبرت، تشرشل تحدي الحرب، ص 216.

[←99]

شواند شو، الإمبراطورية العثمانية، ص 312.

[←100]

اسکویٹ، رسائل، ص 309.

[←101]

مارتن جيلبرت، ونستون تشرشل المجلد 4: 1916 - 1922 العالم الموبوء (بوسطن: هوتن وميغلين، 1975) الصفحتان 752 - 753.



[←102]

اسکویٹ، رسائل، الصفحتان 165 - 166.

[←103]

المرجع نفسه ، ص 186 .



[←105]

غراي، خمس وعشرون سنة، ص 167.

[←106]

اسکویٹ، رسائل، ص 402.

[←107]

كريستوفر سايكس، دراستان في الفضيلة (لندن: كولنز، 1953)، ص 205.

[←108]

مارتن جيلبرت، ونستون تشرشل المجلد 3: 1914 - 1916، تحدي الحرب (بوسطن: هوتن وميفلين، 1971)، ص 12.

[←109]

جورج كسار، كيتشنر: مهندس النصر، (لندن: وليم كيمبر، 1977)، ص 172.



[←110]

هـ. هـ. اسكوپث، رسائل إلى فينيشيا ستانلي، حررها مايكل وإليانور بروك (أوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة أوكسفورد، 1982) ص 157.

[←111]

في آذار (مارس) 1915 انتقل الى يورك هاوس، قصر سانت جيمس، وهو مسكن قدمه له الملك جورج.

[←112]

مفكرة اللورد ريدل في الحرب 1914 - 1918 (لندن: ايفور نيكولسون وواطسون، 1933)،  
ص 48، وكسار، «كيتشنر»، ص 193.

[←113]

فایولیت بونهام کارتر، ونستون تشرشل کما عرفته (لندن، ایمیر وسیوتیسوود وکولینز،  
1965)، ص 316.

[←114]

اللورد بيفر بروك، السياسيون والحرب 1914 - 1916 (لندن: شركة اولدبورن بوك، 1960)  
ص 172.

[←115]

داف كوبر، كبار السن ينسون، (نيويورك: أ. ب. دتون، 1954)، ص 54.

[←116]

ج. ستيفنز، مع كيتشنر إلى الخرطوم، (نيويورك: رود، ميد، 1900)، ص 46.

[←117]

المرجع نفسه، ص 48.



[←118]

المرجع نفسه، ص 45.

[←119]

الموسوعة البريطانية ، الطبعة الثانية عشرة «كيتشنر».

[←120]

كسار «كيتشنر»، ص 196.

[←121]

إلى كدوري، في المتهاة الانكليزية العربية: مراسلات مكماهون - الحسين ومترجموها 1914 - 1939 (كامبريدج، 1976)، الصفحتان 12 - 13، ول. هيرشوفيتش، السلطان والخيوي 1892 - 1908، دراسات شرق أوسطية (تشرين الأول، 1972)، جوكا نيفاكيفي، «اللورد كيتشنر وتقسيم الامبراطورية العثمانية 1915 - 1916»، في: ك. بورن ود. وات، دراسات في التاريخ الدولي (لندن: لونجمان، 1967) ص. 318.

[←122]

اللورد ادوارد سيسيل، وقت الفراغ لمسؤول مصري، (لندن: هودر وستوتن، 1921) ص 187.

[←123]

مذكرات سير رونالد ستورز (نيويورك: غ. ب. بوتمانز وأولاده، 1937) ص 206.

[←124]

كدوري، في المتاهة الانكليزية العربية، ص 29.

[←125]

سير مارك سايكس، تراث الخلفاء الأخير: تاريخ مختصر للامبراطورية التركية (لندن: ماكميلان، 1915)



[←126]

الموسوعة البريطانية، الطبعة الحادية عشرة «تركيا»، ولورد ايفرسلي، الامبراطورية التركية من عام 1288 إلى عام 1914 (نيويورك: هوارد فيرتيغ، 1969)، ص 6.

[←127]

النشرة العربية، العدد 47، 11 نيسان 1917.

[←128]

هـ. ف. ف. وينستون، المغامرة غير المشروعة (لندن: جوناثان كيب، 1982)، ص 107 -  
109 و220.221

[←129]

مذكرات الحرب للورد ريدل 1914 - 1918 (لندن: ايفور نيكولسون وواطسون، 1933)، ص 75.

[←130]

ج. و. ستيفنز، مع كيتشنر إلى الخرطوم (نيويورك: رود، مير، 1900)، الصفحتان 64 - 65.

[←131]

جامعة دورهام، محفوظات وثائق السودان. أوراق جيلبرت كالايتون، 469/8.



[←133]

مذكرات ديفيد لويد جورج عن الحرب، المجلد الثالث 1916 - 1917 (يوسطن: ليتل، براون،  
1934)، الصفحتان 304 - 305.



[←134]

كيو، مكتب السجلات العامة، أوراق كيتشنر 30/57 45 الوثيقة 45...

[←135]

جامعة دورهام، محفوظات وثائق السودان، اوراق جيلبرت كلايتون 470/4

[←136]

كيو. مكتب السجلات العامة ، أوراق كيتشنر 30/57 45 الوثيقة 71 ..

[←137]

المرجع نفسه ، الوثيقة 73 ..

[←138]

جامعة دورهام، محفوظات وثائق السودان، اوراق كلايتون الأساس ج/س 513 الملف 1.

[←139]

كيو. مكتب السجلات العامة. أوراق كيتشنر 30/57 45 الوثيقة ق.ق. 16.

[←140]

المرجع نفسه ، الوثيقة ق.ق. 15.

[←141]

كريستوفر. اندرو واس. كانيا □ فورستينر، ذروة التوسع الإمبراطوري الفرنسي 1914 -  
1924 (ستانفورد مطبعة جامعة ستانفورد، 1981)، ص 68.



[←142]

المرجع نفسه، ص 69.

[←143]

المرجع نفسه، ص 40

[←144]

المرجع نفسه ، الصفحتان 69 - 70 .

[←145]

الموسوعة البريطانية ، الطبعة الثانية عشر الحرب العالمية .

[←146]

جون بوتشان، العباءة الخضراء (نيويورك، غروسييت ودانلوب، 1916)، ص170.

[←147]

ك. ارنست دون، من العثمانية إلى العروبة: مقالات عن أصول القومية العربية، (أوربانا، وشيكاغو ولندن: مطبعة جامعة ايلينوي، 1973)، الصفحات 54 - 68.

[←148]

السرد الوارد في نص الكتاب يقتضي أثر كتاب ايلي خضوري، في: المتاهة الانكليزية - العربية  
مراسلات مكماهون - الحسين ومترجموها 1914 - 1939 (كامبردج، مطبعة جامعة كامبردج،  
1976)، ص 4 - 11.

[←149]

مجيد خضوري، «عزيز علي المصري والحركة القومية العربية»، في: كتاب ألبرت حوراني،  
شؤون شرق أوسطيه رقم أربعة أوراق سانت أنطوني رقم 17 (لندن: مطبعة جامعة  
أوكسفورد، 1965)، الصفحات 140-143.



[←150]

هـ. ف. في. وينستون، المغامرة غير المشروعة (لندن: جوناثان كيب، 1982)، ص 380.

[←151]

كدوري ، المتاهة الانكليزية - العربية ، الصفحتان 13 - 14 .

[←152]

المرجع نفسه، ص 25.

[←153]

المرجع نفسه، ص 17.

[←154]

زين ن. زين، انبثاق القومية العربية مع خلفية مؤلفة من دراسة للعلاقات العربية - التركية في الشرق الأدنى (بيروت: خياط، 1966).

[←155]

دون، العثمانية، ص 152.

[←156]

ألبرت حوراني، انبثاق الشرق الأوسط الحديث (بيركلي، لوس أنجلوس ولندن، مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1981)، الصفحات 193 - 215.

[←157]

جورج أنطونيوس، يقظة العرب: قصة الحركة القومية العربية (نيويورك: كتب كامبريكوون، 1965)، ص 133، وكدوري، المتاهة الإنكليزية - العربية، ص 19.



[←158]

جامعة دورهام «مخطوطات وثائق السودان. أوراق جيلبرت كلايتون» 469/8.

[←159]

كدوري، المتاهة الانكليزية - العربية، ص 22.

[←160]

المرجع نفسه ، الصفحتان 17 - 18 .

[←161]

كيو، مكتب السجلات العامة. أوراق كيتشنر 30/57 47 الوثيقة ق.ق 38.

[←162]

أيلي كدوري، في المتاهة الإنكليزية - العربية: مراسلات مكماهون - الحسين ومترجموها  
1914 - 1939 (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، 1976)، ص 30

[←163]

بريتون كوبر بوش، بريطانيا والهند والعرب، 1914 - 1921 (بيركلي ولندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1971)، ص 62.

[←164]

كدوري، المتاهة الإنكليزية - العربية، ص 30.

[←165]

بوش، بريطانيا والهند والعرب، ص 62.



[←166]

كدوري، المتاهة الإنكليزية - العربية، ص 120.

[←167]

المرجع نفسه، ص 30.

[←168]

هـ. في. ف. وينستون، الكابتن شكسبير (لندن: جوناثان كيب، 1976).

[←169]

بوش، بريطانيا والهند والعرب، ص 60.

[←170]

اسم سيملا كثيراً ما يعني حكومة الهند، لأن مدينة سيملا كانت العاصمة الصيفية لهذه الحكومة.

[←171]

المرجع نفسه، ص 11..

[←172]

كدوري، المتاهة الانكليزية - العربية، ص 52.

[←173]

المرجع نفسه ، المفحات 47 - 51 .



[←174]

اولريش ترومبينير، ألمانيا والإمبراطورية العثمانية 1914 - 1918 (برنستون: مطبعة جامعة  
برنستون، 1968)، ص 117.

[←175]

( فريتز فيشر، أهداف ألمانيا في الحرب العالمية الأولى (نيويورك، و. و. نورتن، 1967)، ص 126.

[←176]

ترومبينير، الإمبراطورية العثمانية، ص 118.

[←177]

أن الاضطرابات التي أثارتها جماعات كقبائل السنوسي الرحل على حدود مصر مع ليبيا، لم تكن ذات أهمية وكان يمكن حدوثها في أي حال.

[←178]

كدوري، المتاهة الإنكليزية - العربية، ص 76.

[←179]

س. ج. لاو. وم. ل. دوكريل، سراب القوة، المجلد 3: الوثائق، السياسة الخارجية البريطانية 1902-1922 (لندن وبوسطن: روتليدج وكيجان بول، 1972)، ص 538.

[←180]

جامعة دورهام، محفوظات وثائق السودان، أوراق كلايتون الرئيسية ج / س 513: ملف 1.

[←181]

كيو، مكتب السجل العام. أوراق كيتشنر 30/57 45 الوثيقة 74.



[←182]

كان الحسين يقول عن نفسه وأسرته انهم هاشميون

[←183]

س. أرنست دون، من العثمانية إلى العروبة: مقالات عن أصول القومية العربية (أوربانا وشيكاغو ولندن: مطبعة جامعة إيلينوي، 1973)، ص 14 والحاشيتان 2 و63.

[←184]

کیو، مکتب السجل العام . أوراق کیتشنر 30/57 47.

[←185]

المرجع نفسه ، الوثيقة ق.ق 15 .

[←186]

مادة النص بشأن حملة القوقاز تترسم خطى الرواية المباشرة التي رواها الرائد فرانز كارل اندريز في الموسوعة البريطانية الطبعة الثانية عشر تحت عنوان: الحملات التركية.

[←187]

90,000 وفقا لرواية اندريز، المرجع نفسه، الطبعة الراهنة الخامسة عشرة، للموسوعة البريطانية، تحت عنوان: الحروب العالمية، تورد رقم 180,000.



[←189]

أحمد أمين، تركيا في الحرب العالمية (نيوهافن: مطبعة جامعة بيل، 1930)، ص 88



[←190]

فرانك ج، ويبر، نسور على الهلال: المانيا والنمسا ودبلوماسية التحالف التركي 1914-1918  
(ايناكا ولندن: مطبعة جامعة كورنيل، 1970)، ص 98، وس، ر.م. في. كراتويل، تاريخ الحرب  
الكبرى، الطبعة الثانية (اوكسفورد: مطبعة كلاريندون، 1939)، ص 351.

[←191]

مارغريت فيتزهيربرت، الرجل الذي كان العبء الخضر: سيرة حياة أوبري هيربرت (لندن: جون مري، 1983)، ص 147.

[←192]

هـ. هـ. اسكويٲ رسائل إلى فنيشيا ستانلي، أ؁دها للطباعة مايكل واليانور بروك (أوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة أوكسفورد، 1982)، ص 414.

[←193]

الإحصاءات التي تلي أخذت من: تشارلز عيساوي، تاريخ تركيا الاقتصادي: 1800 - 1914  
(شيكاغو ولندن: مطبعة جامعة شيكاغو، 1980)، المفعه 366 وما يتبعها.

[←194]

أمين ، تركيا ، ص 92 .

[←195]

اللورد بيغبروك، الرجال والسلطة 1917 - 1918 من (لندن هتشينسون، 1956)، ص 17  
بالأرقام اللاتينية.

[←196]

وولتر هاينز بيچ، ا اقتباس عنه في: كتاب كنيث مورغان، لويد جورج (لندن: ويندنفيلد ونيكولسون، 1974)، ص13.

[←197]

أ. ج. ب. تيلور، التاريخ الانكليزي 1914 - 1945 (أوكسفورد: مطبعة كلارندون، 1965)، ص 74.



[←198]

مارتن جيلبرت، ونستون س. تشرشل، المجلد 3، 1914 - 1916، تحدي الحرب (بوسطن: هوتن ميغلين، 1971)، ص 230.

[←199]

أن البيانات التاريخية المتوافرة الآن تدل على أن ذلك لم يكن صحيحاً (19). لكن الجناح اليساري في حزب الأحرار ظل يعتقد أنه صحيح.

[←200]

( زارا سينر، بريطانيا ومنطلقات الحرب العالمية الأولى، (لندن وبيزينغستوك: مكميلان، 1977).

[←201]

سيرة حياة برتراند رسل بقلمه (لندن: كتب اندين ذات الغلاف الرخيص، 1978)، ص 239.

[←202]

ه.هـ. اسكويت، رسائل إلى فنيشيا ستانلي، أعدها للطباعة مايكل واليانور بروك (أوكسفورد  
ونيويورك:  
المطبعة جامعة أوكسفورد، 1982)، ص 266.

[←203]

جـيلبرت، تشرشل: تحدي الحرب، ص 266، وجون غريغ، لويد جورج: من السلم إلى الحرب 1912 - 1916 (لندن: ميتوين، 1985)، ص 194.

[←204]

اللورد بيغبروك، السياسيون والحرب 1914 - 1916 (لندن: اولدبورن، 1960)، ص 175.

[←205]

جیلبرت ، تشرشل: تحدي الحرب ، الصفحتان 328 - 329.



[←206]

مارتن جيلبرت، ونستون تشرشل، المجلد 3: 1914 - 1916، تحدي الحرب (بوسطن: هوتن  
ميغلين، 1971)، ص 234

[←207]

مارتن جيلبرت، ونستون س. تشرشل: المجلد المرافق، المجلد 3 الجزء الأول، تموز 1914 -  
نيسان 1915 بوسطن: هوتن ميفلين، (1973)، ص 380.

[←208]

هذا ما قاله لمجلس الوزراء، وهذا ما قاله لرئيس الوزراء، وقد سجل رأيه في رسائل ومذكرات. وقد كتب في إحدى صفحات مفكرته بتاريخ 19 آذار (مارس) انه: «منذ اليوم الأول لعرض الاقتراح أذرت رئيس الوزراء واللورد كيتشنر ورئيس الأركان ولويد جورج وبلفور بأن الأسطول لا يستطيع أن يحقق العبور وأن هذا هو رأي جميع ضباط البحرية». والحقيقة هي أن هانكي كان قد أصدر هذه الإنذارات، ولكن بعد شهر من الموعد الذي ادعي انه أصدرها فيه. فهو لم يصدرها في 13 كانون الثاني (يناير) عندما قررت اللجنة الوزارية الموافقة على حملة الدردنيل) وإنما في العاشر من شباط (فبراير) عندما كتب رسالة إلى بلفور بهذا المعني، وفي وقت لاحق تحدث الى اسكويث. وفي 13 شباط (فبراير) سجل رئيس الوزراء في مفكرته ما يلي: «تحدثت للتو مع هانكي الذي تستحق أراؤه الإصغاء اليها، أنه يرى وبشدة أن العمليات البحرية يجب أن تكون مدعومة بإنزال قوة عسكرية كبيرة على البر، وأنا ما فتئت منذ بعض الوقت أرى الراي نفسه».

[←209]

جیلبرت ، تشرشل: تحدي الحرب ، ص 287.

[←210]

المرجع نفسه ، الصفحتان 296 - 297 .

[←211]

المرجع نفسه ، ص288.

[←212]

فیولیت بدنهام کارتر، ونستون تشرشل کما عرفته (لندن: ایبر و سبوتسوود وکولتز، 1965)،  
الصفحتان مم 288..359-360.

[←213]

المرجع نفسه .



[←214]

جیلبرت ، تشرشل: المجلد المرافق ، الصفحتان 558 - 559.

[←215]

ألان مورهد، غاليلوي (نيويورك: كتب بالتاين، 1956)، ص 59.

[←216]

( اولريش ترومينر، ألمانيا والإمبراطورية العثمانية 1914- 1918 (برنستون: مطبعة جامعة  
برنستون، 1968)، ص 142.

[←217]

المرجع نفسه، ص (146)

[←218]

ل . س . ستافريانوس ، البلقان منذ عام 1453 (نيويورك: راينهارك ، 1958) ، ص 560 .

[←219]

بونهام كارتير، تشرشل، ص 368.

[←220]

المرجع نفسه، ص 399

[←221]

المرجع نفسه ، ص361.



[←222]

جیلبرت ، تشرشل: المجلد المرافق ، ص 625

[←223]

بونهام کارتر، تشرشل، ص 326

[←224]

جیلبرت ، تشرشل: تحدي الحرب ، ص 315.

[←225]

المرجع نفسه، ص 326

[←226]

بونهام كارتير، تشرشل، الصفحتان 365 - 366.

[←227]

كريستوفر م. اندرو وا. س. كانيا، فورستينر، ذروة التوسع الإمبراطوري الفرنسي: 1914 -  
1924 (ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، 1918)، ص 73.

[←228]

فايكونت غراي اوف فالودين, خمس وعشرون سنة 1892\_ 1916 (لندن: هودر وستوتن),  
المجلد 2, الصفحتان 180\_181.

[←229]

ه. ه. اسكويت، رسائل إلى فينشيا ستانلي، أعدها للطباعة مايكل واليانوربروك (اوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة اوكسفورد، 1982)، ص 300.



[←230]

المرجع نفسه , ص 463.

[←231]

مارتن جيلبرت, ونستون س. تشرشل, المجلد 3, 1914\_1916, تحدي الحرب (بوسطن:  
هوتن ميغلين, 1971), ص 320.

[←232]

المرجع نفسه .

[←233]

اسكويث, رسائل, ص 183 حاشية 5.

[←234]

جیلبرت , تشرشل: تحدي الحرب , ص 320 .

[←235]

ايلي كدوري, في المتاهة الانكليزية - العربية: مراسلات مكماهون - الحسين ومترجموها  
1939\_ 1914 (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج, 1976), الصفحتان 22 \_ 23.

[←236]

ديفيد لويد جورج , مذكرات مؤتمر الصلح (نيوهافن: مطبعة جامعة بيل , 1939), المجلد 2, ص 669.

[←237]

جیلبرت , تشرشل: تحدي الحرب , ص 349 .



[←238]

موقعها في أقصى جنوب ما هو الآن تركيا قرب حدود ما هي الآن سورية .

[←239]

بريتون كوبريوش، بريطانيا والهند والعرب 1914 \_ 1921 (بيركلي ولندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا، (1971)، الصفحات 40 \_ 42.

[←240]

اسکویٹ, رسائل, ص 510.

[←241]

المرجع نفسه , ص 469.

[←242]

مارتن جيلبرت , ونستون س. تشرشل: المجلد المرافق , الجزء 1 تموز 1914 \_ نيسان 1915  
(بوسطن: هوتن ميغلين , 1973), ص 716.

[←243]

الوثيقة 73 .. 45 57/30 كيو, مكتب السجل العام. أوراق كيتشنر

[←244]

الوثيقة ق.ق. 718 . 57/30 المرجع نفسه ,

[←245]

كدوري , المتاهة الانكليزية - العربية , ص 33 .



[←246]

المراجع نفسه , الصفحتان 49\_50.

[←247]

المرجع نفسه , ص 34 .

[←248]

هـ. ف. ف. وينستون, جيرترود بل (لندن: جوناثان كيب, 1978), ص 165.

[←249]

ماريان كنت, «تركيا الآسيوية 1914 \_ 1916» في: ف. ه. هنسلي (تحرير), السياسة الخارجية البريطانية في عهد سير ادوارد غراي (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج, 1977), ص 445.

[←250]

كدوري , المتاهة الانكليزية - العربية , ص 43 .

[←251]

المرجع نفسه , ص 41 .

[←252]

س. ج. لاو وم. ل. دوكرويل, سراب السلطة, المجلد 3: «الوثائق», السياسة الخارجية  
البريطانية 1902 \_ 1922 (لندن وبوسطن: روتلج وكيجان بول, 1972), الصفحتان 524 \_  
525.

[←253]

هذه الصورة استخدمها اللورد بييفر بروتك .



[←254]

مارتن جيلبرت, ونستون س, تشرشل, المجلد المرافق, المجلد 3 الجزء 1: تموز 1914 \_  
نيسان 1915 (بوسطن: هوتن ميغلين, 1973), الصفحتان 52 \_ 53.

[←255]

كلاهما كان ينتمي الى «النادي الآخر» الذي أسسه ونستون تشرشل وف. سميث.

[←256]

روجر ادلسون, مارك سايكس: لوحة هاو (لندن: جوناثان كيب, 1975), ص 180.

[←257]

المرجع نفسه , ص 182 .

[←258]

مارغريت فيتنز هيربرت , الرجل الذي كان العباءة الخضراء: سيرة حياة اوبري هيربرت (لندن:  
جون مري, 1983), الصفحات 147 \_ 149.

[←259]

مارتن جيلبرت, ونستون س. تشرشل, المجلد 3, 1914\_1916, تحدي الحرب, (بوسطن:  
هوتن ميغلين, 1971), ص 343.

[←260]

المرجع نفسه .

[←261]

مارتن جيلبرت, ونستون س. تشرشل: المجلد المرافق, المجلد 3 الجزء 1: تموز 1914 -  
نيسان 1915 (بوسطن: هوتن ميلغين, 1973), ص 703.



[←262]

جیلبرت , تشرشل: تحدي الحرب , ص 358.

[←263]

ستيفن روسكيل, هانكي: رجل الأسرار, المجلد 1: 1788\_1918 (لندن: كولنز, 1970), ص 159.

[←264]

جیلبرت , تشرشل: تحدي الحرب , ص 359.

[←265]

المرجع نفسه , ص 371.

[←266]

ه. ه. اسكويت، رسائل إلى فنيشيا ستانلي، أعدها للطباعة مايكل واليانور بروك (اوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة اوكسفورد، 1982)، ص 488.

[←267]

جـلبـرت , تـشـرشل: تحـدي الحـرب , ص 375.

[←268]

جیلبرت , تشرشل: المجلد المرافق , ص 731.

[←269]

لا يزال المؤرخون يناقشون مسألة هل كان النصر في الحرب على العثمانيين في عام 1915 سيؤدي إلى انتصار سريع للحلفاء في الحرب ضد ألمانيا. «أنصار الاستيلاء على الشرق» وفي طليعتهم لويد جورج، لم يشكوا قط في أنه كان سيؤدي إلى ذلك.



[←270]

مارتن جيلبرت, ونستون س. تشرشل: المجلد المرافق, المجلد 3, الجزء 1, تموز 1914  
\_نيسان 1915 (بوسطن: هوتن ميغلين, 1973), ص 582.

[←271]

سير ايان هاملتون , مفكرة غاليلي , المجلد 1 (لندن: ادوارد ارنولد , 1920), ص 5.

[←272]

المرجع نفسه , ص 25 .

[←273]

مارتن جيلبرت, ونستون س. تشرشل, المجلد 3: 1914\_1916 تحدي الحرب (بوسطن:  
هوتن ميلغين, 1971), ص 294.

[←274]

جون غريغ، لويد جورج: من السلم إلى الحرب 1912\_ 1916 (لندن: ميتوين, 1985), ص 211.

[←275]

كومبتون ماكنزي, حياتي والتايمز, الثمانية الخامسة 1915\_ 1923 (لندن: شاتو دوندوس, 1966), ص 269.

[←276]

مارتن جيلبرت, ونستون س. تشرشل, المجلد 3: 1914\_1916, تحدي الحرب, (بوسطن: هوتن ميغلين, 1971), ص 450.

[←277]

مارغريت فيتنز هيربرت, الرجل الذي كان العبادة الخضراء: سيرة حياة اوبري هيربرت (لندن:  
جون مري, 1983), ص 151.



[←278]

المرجع نفسه , ص 155 .

[←279]

مفكرة اللورد ريدل عن الحرب 1914\_1918 (لندن: ايفور نيكولسون ووطسون, 1933), ص 94.

[←280]

المرجع نفسه , ص 109 .

[←281]

جیلبرت , تشرشل: تحدي الحرب , ص 476.

[←282]

ريدل , مفكرة , ص 89 .

[←283]

جیلبرت , تشرشل: تحدي الحرب , ص 440.

[←284]

مارتن جيلبرت, ونستون س. تشرشل, المجلد 3: 1914\_1916, تحدي الحرب (بوسطن:  
هوتن ميغلين, 1971), ص 529.

[←285]

هـ. مونتغمري هايد، كارسون (لندن: وليم هاينمان، 1953)، ص 393.



[←286]

مارتن جيلبرت, ونستون س. تشرشل: المجلد المرافق, المجلد 3, الجزء 2, أيار 1915 \_  
كانون الأول 1916 (بوسطن: هوتن ميغلين, 1973), ص 1158.

[←287]

جیلبرت , تشرشل: تحدي الحرب , ص 549.

[←288]

جون بريسلا ند ( الاسم المستعار لغلاديس سكيلتون), ديدز بك: دراسة عن سير ويندهام ديدز  
1923\_ 1883 (لندن: مكميلان, 1942), ص 226.

[←289]

المرجع نفسه , ص 231.

[←290]

روجر ادلسون, مارك سايكس: لوحة هاو (لندن: جوناثان كيب, 1975), ص 187.

[←291]

بريتون كوبر بوش، بريطانيا والهند والعرب 1914\_ 1921 (بيركلي ولوس انجلس ولندن:  
مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1971)، ص 69.

[←292]

ادلسون , سايكس , ص 192 .

[←293]

س.ج. تلاووم. ل. دوكريل, سراب السلطة, المجلد 2, السياسة الخارجية البريطانية 1914  
\_1922 (لندن وبوسطن: روتليدج وكيجان بول, 1972), ص 209.



[←294]

ه.ف.ف. وینستون، جیرترود بل (لندن: جونائان کیب، 1978)، ص 162.

[←295]

عمل لورانس مع المكتب العربي وكانت صلته به وثيقة , ولكنه لم يعين فيه رسمياً حتى نهاية عام 1916.

[←296]

كان ريجينالد وينغيت، الذي كان حاكماً للسودان، الوحيد بين أتباع كيتشنر الذي اعتقد منذ بداية الحرب العثمانية، ان الشريف حسين يمكن أن يعين بريطانيا عسكرياً.

[←297]

الحسين بن علي، شريف مكة وأميرها يذكر اسمه بأشكال مختلفة فيقال الحسين، الشريف، الشريف حسين، الأمير حسين ولاحقاً الملك حسين. ويشار إليه أيضاً أنه حاكم الحجاز ولاحقاً ملك الحجاز.

[←298]

روجر ادلسون, مارك سايكس: لوحة هاو (لندن: جوناثان كيب, 1975), ص 187.

[←299]

المرجع نفسه , ص 189 .

[←300]

الرسائل السرية من شبه الجزيرة العربية, بقلم ث. ا. لورانس (مطبعة غولدن  
كوكيريل), ص 69.

[←301]

س. ارنست دون, **من العثمانية إلى العروبة مقالات عن أصول القومية العربية**  
(اوربانا وشيكاغو ولندن: مطبعة جامعة ايلينوي, 1973), ص 30.



[←302]

ايلي كدوري, **في المتاهة الانكليزية \_ العربية: مراسلات مكماهون \_ الحسين و مترجموها 1914\_ 1939** (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج, 1976), ص 75.

[←303]

المرجع نفسه , ص 77 .

[←304]

المرجع نفسه , ص 78 .

[←305]

انه تأكيد غريب , اذ كان العرب فعلاً في معسكر العدو.

[←306]

ايلي كدوري, رواية شاثام هاوس ودراسات شرق أوسطية أخرى (لندن: ديدنفيلد ونيكولسون, 1970), ص 14.

[←307]

48.. الوثيقة ر.ر. 26. 57كيو, مكتب السجل العام» أوراق كيتشنر, 30/

[←308]

لندن, مكتب سجلات مجلس اللوردات, مجموعة بيفريبروك, أوراق لويد جورج. ف \_205  
\_203. الوثيقة 17.

[←309]

البروفسور ايلي خضوري واحد منهم .



[←310]

كارل بايدكر, فلسطين وسورية: مع الطرق عبر بلاد الرافدين وبابل وجزيرة قبرص, دليل الرحالة, الطبعة الخامسة, أعيد تشكيله وتم تعزيه (لايبيغ: كارل بايدكر, 1912), ص 157.

[←311]

47 الوثيقة ق.ق. 46. 57/30 كيو, مكتب السجل العام, أوراق كيتشنر

[←312]

هذه وغيرها من الأقوال المقتبسة تمّ جمعها في كتاب: إيلي كدوري , انكلترا والشرق الأوسط:  
تدمير الامبراطورية العثمانية , 1914\_ 1921 (هاسوكس , سكس: مطبعة هارفستر , 1978),  
ص 69.

[←313]

المرجع نفسه .

[←314]

ادلسون , سايكس , ص 189 .

[←315]

كدوري , شائام هاوس , ص 15 .

[←316]

كما ذكرنا سابقاً حاجج أنصار فلسطين العربية على مدي عقودٍ من السنين بأن التعابير الجغرافية التي استخدمها مكماهون، إذا ما فسرت تفسيراً صحيحاً، تدل على أن مكماهون تعهد بأن تكون فلسطين عربية. أما أنصار فلسطين يهودية فقد قدموا حججاً معاكسة.

[←317]

مذكرة الشريف حسين الثانية إلى سير هنري مكماهون , 9 أيلول 1915 .



[←318]

جون بريسلا ند (الاسم المستعار لغلاديس سكيلتون)، ديدز بك: دراسة عن سير ويندهام ديدز  
1883 - 1923 (لندن: مكميلان، 1942)، الصفحتان 244 - 245.

[←319]

جامعة دورهام، محفوظات وثائق السودان. أوراق جيلبرت كلايتون، ص 470 - 472.

[←320]

رونالد ساندرز، أسوار القدس العالية: تاريخ اعلان بلفور ونشوء الانتداب البريطاني على فلسطين (نيويورك: هولت دراينهارت وونستون، 1983)، ص 253.

[←321]

دون، العثمانية، ص 115.

[←322]

كدوري، المتاهة الانكليزية - العربية، ص 108.

[←323]

ريسلاند، ديدز بك، ص 247.

[←324]

كدوري ، المتاهة الانكليزية - العربية ، الصفحتان 119 - 220 .

[←325]

المرجع نفسه، ص 121.



[←326]

كيو، مكتب السجل العام، أوراق كيتشنر. 48 30/57، الوثيقة ر.ر. 8.

[←327]

روجر ادلسون، مارك سايكس: لوحة هاو، (لندن، جوناثان كيب، 1975)، الصفحتان 196 - 197.

[←328]

المرجع نفسه، ص 199.

[←329]

جوكا نيفاكيفي، «اللورد كيتشنر وتقسيم الامبراطورية العثمانية 1915 - 1916»، في كتاب:  
ك. بورن ود. واط، دراسات في التاريخ الدولي (لندن: لونجمان، 1967)، ص 328، وفيليب  
ماغنوس، كيتشنر: لوحة امبريالي (هارموند سوورث: بنغوين، 1968)، الصفحتان 374 -  
375.

[←330]

اوکسفورد، کلیة سانت انطوني. مرکز الشرق الأوسط اوراق مارک سایکس. د. س. 42/1.

[←331]

كريستوفر م. اندرو وا. س. كانيا، فورستتر، ذروة التوسع الامبراطوري الفرنسي 1914 -  
1924 (ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، 1981)، ص 66.

[←332]

المرجع نفسه، ص 75.

[←333]

المرجع نفسه، الصفحات 75 - 77. كلية سانت انطوني مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس. د. ر 588/25. اقتباس عن «ريغو ابدومادير»، اتيان فلاندا «حقوقنا في سورية وفلسطين».



[←334]

اندرو وکانیا فورستئر، التوسع الامبراطوري الفرنسي، ص 89.

[←335]

ماريان كنت، النفط والامبراطورية: السياسة البريطانية و النفط بلاد الرافدين 1900 - 1920  
(لندن: ويزينغستوك: مطبعة مكميلان من أجل مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية، 1976)، ص  
122.

[←336]

اندرو وکانیا - فورسنتر، التوسع الامبراطوري الفرنسي، ص 93.

[←337]

المرجع نفسه، ص 96.

[←338]

اوکسفورد، کلیة سانت انطوني. مرکز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايکس د. س. 42/1.

[←339]

ادلسون، سايكس، ص 200.

[←340]

اوكسفورد، كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط، أوراق هيوبرت يونغ. ملاحظات لالقاء محاضرة في كلية اركان الحرب.

[←341]

مارغريت فيتنز هيربرت، الرجل الذي كان العبء الخضر: سيرة حياة أوبري هيربرت (لندن: جون ميري، 1983)، ص 173.



[←342]

ادلسون، سايكس، الصفحة 202 وما يليها.

[←343]

اندرو وکانیا - فورسنتر، التوسع الامبراطوري الفرنسي، ص 101

[←344]

س.ج. لاو وم.ل. دوكريل، سراب السلطة، المجلد 2، السياسة الخارجية البريطانية 1914 - 1922 (لندن وبوسطن: روتلج وكيجان بول، 1972)، الصفحتان 228 - 229.

[←345]

المرجع نفسه، ادلسون، سايكس، الصفحة 202 وما يليها.

[←346]

السفارة هم اليهود الذين عاش أجدادهم خلال القرون الوسطى في اسبانيا والبرتغال .

[←347]

ادلسون، سايكس، الصفحة 202 وما يليها.

[←348]

رونالد ساندرز، أسوار القدس العالية: تاريخ اعلان بلفور ونشوء الانتداب البريطاني على فلسطين (نيويورك: هولت وراينهارت وونستون، 1983)، ص 334.

[←349]

ادلسون، سايكس، ص 226.



[←350]

كنت، النفط والامبراطورية، ص 123.

[←351]

المرجع نفسه .

[←352]

الرواية في هذا النص تترسوم خطى رسل برادون، الحصار، (نيويورك: مطبعة فايكنغ، 1969)، وأعمال مرجعية قياسية أخرى. فيما يخص دور اوبري هيربرت يرجى الرجوع إلى كتاب: مارغريت فيتز هيربرت، الرجل الذي كان العبء الخضر: سيرة حياة اوبري هيربرت (لندن: جون مري، 1983)، الصفحة 169 وما يليها.

[←353]

بعد غاليلوي، استأنف أنور حملته السابقة للحد من النفوذ الألماني. وقد أشار في مطلع عام 1916 إلى أن الجنود الألمان الذين كانوا آنذاك في الامبراطورية العثمانية وعددهم 5,500 - حتى هؤلاء عددهم زائد عن الحد ويجب سحبهم. ولكي يظهر أن تركيا في غنى عنهم أُصِرَّ على إرسال سبع فرق عثمانية إلى جنوب أوروبا لتقاتل جنبا إلى جنب مع جيوش بقية دول أوروبا الوسطى. ولم تنجح جهوده نجاحاً كاملاً، فمع انتهاء الحرب كان 25,000 ضابط وجندي ألماني يخدمون في الامبراطورية العثمانية.

[←354]

لم يكن الأمر سهلاً. ان محفوظات وثائق امبراطورية النمسا - المجر تبين أن المسؤولين في امبراطورية آل هابسبورغ عبروا عن شك عميق في طموحات التوسع التي عزوها الى الامبراطوريتين الألمانية والتركية. كانت امبراطورية النمسا - المجر تتجاوز على مدى قرون حدود الأراضي العثمانية في أوروبا. وقد أدى ضمها للبوسنة والهرسك الى حروب البلقان وهيا المسرح لحادثة سيراغيفو. واستمرت تبازع الامبراطورية العثمانية على ألبانيا، التي احتلتها في أوائل الحرب العالمية. وبما أن أسرة هابسبورغ كانت لها أهدافها الاقليمية، كان مسؤولوها يشتبهون بأن مسؤولي أسرة هوهنزولرن يفكرون على المنوال نفسه، الى حد أن حملة جمال باشا على السويس جعلتهم يعبرون عن القلق خشية أن تحاول ألمانيا ضم مصر. في حين أن المسؤولين العثمانيين كالعادة كانوا لا يثقون بشركائهم الأوروبيين.

[←355]

فرانك ج. ويبر، النسور على الهلال: المانيا والنمسا ودبلوماسية التحالف التركي 1914-1918 (ايتاكا ولندن: مطبعة جامعة كورنيل، 1970)، الصفحات 100 - 106.

[←356]

اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس. د. ر. 588/25.

[←357]

سوكرو ايليكداغ، سفير الجمهورية التركية، رسالة إلى رئيس التحرير، نيويورك تايمز 11 ايار  
1983 ص22.



[←358]

ستانفورد ج. شو وايزل كورال شو، تاريخ الامبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة، المجلد 2  
الاصلاح والثورة والجمهورية: نشوء تركيا الحديثة 1808 - 1975، (كامبريدج: مطبعة جامعة  
كامبريدج، 1977)، الصفحة 314 وما يليها.

[←359]

اولريش ترومبينير، المانيا والامبراطورية العثمانية 1914 - 1918، (برنستون: مطبعة جامعة  
برنستون، 1968)، ص203.

[←360]

المرجع نفسه، ص 208.

[←361]

المرجع نفسه ، الصفحتان 208 - 209.

[←362]

المرجع نفسه ، الصفحات 208 - 210 .

[←363]

المرجع نفسه ، ص212.

[←364]

المرجع نفسه ، الصفحات 213 - 216 .

[←365]

المرجع نفسه ، ص213.



[←366]

المرجع نفسه، ص 213.

[←367]

المرجع نفسه ، ص225.

[←368]

أن رجل الدولة والمؤرخ والحقوقي الليبرالي جيمس برايس، وهو رجل مؤيد للأرمن، ترأس لجنة للتحقيق في المجازر الأرمنية 1915 - 1916 خلال الحرب، أصدر تقريراً كان له وقع الصاعقة على حكومة جمعية الاتحاد والترقي. والناطقون الأتراك ما زالوا يدعون أن تقرير برايس هو تقرير منحاز وعمل مشوه من أعمال دعاية الحرب، ويستشهدون باعتراف أرنولد توينبي أحد مساعدي برايس، بأن التقرير قصد به خدمة الدعاية البريطانية وأهداف السياسة البريطانية(14). وقد حقق التقرير نجاحاً في ذلك.

[←369]

سوكرو ايليكداغ، «الأرمن مقابل الأتراك: وجهة النظر من استانبول»، جريدة وول ستريت جورنال، 21 أيلول (سبتمبر) 1983، ص 33.

[←370]

فيروز كاظم زادة، الصراع على بلاد عبر القوقاز (1917 - 1921)، (نيويورك: المكتبة  
الفلسفية واوكسفورد: جورج رونالد، 1951)، الصفحات 27 - 30.

[←371]

هـ. مونتغمري هايد، كارسون (لندن: وليم هاينمان، 1953)، ص 390.

[←372]

تريغور رويل ، لغز كيتشنر (لندن: مايكل جوزيف ، 1985) ، الصفحة 355 وما يليها.

[←373]

المرجع نفسه، ص373.



[←374]

«فصح الغلطة التي قتلت اللورد كيتشنر»، جريدة صندي تايمز أيلول 1985، ص 13. انظر أيضاً: جورج كسار، كيتشنر: مهندس النصر (لندن: وليم تيمبر، 1977)، ص 478. لكن ناجياً آخر ادعى ان كيتشنر لم يكن مرتدياً معطفاً، انظر: فيليب وارنر، كيتشنر: الرجل وراء الاسطورة (لندن: هاميش هاملتون، 1985)، ص 199.

[←375]

جون بريسلا ند (الاسم المستعار لغلاديس سكيلتون)، ديدز بك: دراسة عن سير ويندهام ديدز  
1923\_1883 (لندن: مكميلان، 1942)، ص 263.

[←376]

س. ارنست دون، من العثمانية إلى العروبة: مقالات عن أصول القومية العربية (أوربانا وشيكاغو ولندن: مطبعة جامعة أيلينوي، 1973)، ص 33.

[←377]

كيو، مكتب السجل العام، أوراق كيتشنر. وزارة الخارجية 882 المجلد 19 آ. ب/5/16.

[←378]

أوكسفورد، كلية سانت انطوني، مركز الشرق الأوسط، أوراق مارك سايكس د.ر. 588  
(د.س. 244/4) جيلبرت كلايتون 4 / 470.

[←379]

جامعة دورهام، محفوظات وثائق السودان. أوراق جيلبرت كلايتون 470/4.

[←380]

مجيد خضودي، «عزيز علي المصري والحركة القومية العربية»، في: البرت حوراني، شؤون الشرق الأوسط، رقم أربعة أوراق سانت انطوني، رقم 17 (لندن: مطبعة جامعة أوكسفورد 1965)، الصفحات 140 - 163، والصفحات 154 - 155.

[←381]

جورج انطونيوس، يقطة العرب: قصة الحركة القومية العربية (نيويورك: كتب كابريلكورن، 1965)، ص 153.



[←382]

دون، العثمانية، ص 47.

[←383]

مذكرات سير رونالد ستورز (نيويورك: ج. ب. بوتمان وأولاده، 1937)، ص 167.

[←384]

المرجع ص 168.

[←385]

المرجع نفسه، ص167.

[←386]

ايلي كدوري، في المتاهة الانكليزية - العربية: مراسلات مكماهون - الحسين ومترجموها  
1914 - 1939 (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، 1976)، ص201.

[←387]

اوکسفورد. کلیة سانت انطوني. مرکز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايکس. د.ر. 588  
(د.س. 244/4).

[←388]

المرجع نفسه .

[←389]

لقد نجحوا في نهاية الأمر فيين وينغيت مندوباً سامياً، ولكن تعيينه تأخر حتى كانون الثاني (يناير) 1917.



[←390]

برنارد لويس، الشرق الأوسط والغرب (نيويورك ولندن: هاربر كتب تورتنس)، ص 9.

[←391]

الرواية عن أنشطة بريمون تستند إلى الجنرال اد. بريمون، الحجاز في الحرب العالمية (باريس: مايو، 1931).

[←392]

الرائد سير هيوبرت يونغ، العربي المستقل، (لندن: جون مري، 1933).

[←393]

ديزمونڊ ستيوارت وت.ا. لورنس (نيويورك ولندن: هارپر ورو، 1977)، ص148.

[←394]

رواية أنشطة لورنس تستند اساساً إلى ستيوارت، لورنس، وإلى يونغ، العربي المستقل، وإلى كتابات لورانس.

[←395]

مفكرات باركر باشا، أَعَدَهَا لِلطَبَاعَةِ هـ. ف. ف. دنيستون، (لندن ونيويورك: كتب كوارتيت، 1983)، ص 158.

[←396]

اوڪسفورڊ، كليۃ سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق ن.أ. لورنس. ديس، 244/4.

[←397]

لندن . المتحف الحربي الامبراطوري . أوراق ت . ا . لورنس 69/48/2 .



[←398]

روبرت بليك، رئيس الوزراء المجهول: حياة وازمنة اندرو بونار لو 1858 - 1918 (لندن: ايير وسبوتسود، 1955)، ص 290.

[←399]

مسؤولية ميلنر عن الحرب أکدها توماس باکنهام في كتابه: حرب البوير (نيويورك، راندوم هاوس، 1979).

[←400]

كان هدف ميلنر الأسمى إقامة اتحاد يضم الشعوب البيضاء في الامبراطورية البريطانية. بيد أن الأعضاء الآخرين في بطانة ميلنر كانوا يدعون إلى اتحاد متعدد العروق في الامبراطورية.

[←401]

ليونيل جورج كوريتس، سكرتيه السابق، ساعد في عام 1910 في إنشاء المجلة الفصلية «المائدة المستديرة» التي كانت تدعو إلى قيام فيديرالية للامبراطورية البريطانية. وكان سكرتيه السابق الآخر، جون بوتشان، داعية متحمساً للامبراطورية، وكسب جمهوراً واسعاً عن طريق الروايات التي كتبها، وهي روايات مغامرات نالت شعبية. أما جفري روبنسون، وهو خريج آخر من خريجي «روضة الأطفال» فقد أصبح رئيس تحرير جريدة «التايمز».

[←402]

نورمان ستون، تحول أوروبا 1878 - 1919 (لندن: فونتانا ذات الغلاف الرخيص، 1983)، ص366.

[←403]

1. ج. ب. تيلور، الحرب العالمية الأولى: تاريخ مصور (لندن: هاميش هاملتون، 1963)، ص103.

[←404]

کنیث مورغان، لوید جورج (لندن: ویدنفیلد ونکولسون، 1974)، ص 92.

[←405]

بليك، رئيس الوزراء المجهول، ص 294.



[←406]

المرجع نفسه ، ص 297.

[←407]

مفكرة اللورد ريدل عن الحرب 1914\_1918 (أوكسفورد: ايفور نيكولسون ووطن، 1933)،  
ص334.

[←408]

1. ج. ب. تيلور، التاريخ الانكليزي 1914- 1945 (أوكسفورد: مطبعة كلارندون، 1965)، ص 73.

[←409]

ستيفن روسكيل، هانكي: رجل الأسرار، المجلد 1، 1877 - 1918 (لندن: كوليتز، 1970)،  
ص 339.

[←410]

تيرنس هـ. أوبريان، ميلنر، (لندن: كونسٽابل، 1979)، ص 79.

[←411]

كتب هانكلي إلى لويد جورج يبلغه أن سايكس كان «بصورة رئيسة خبيراً في الشؤون العربية» ولكنه لم يكن «بأي حال من الأحوال خبيراً في مجال واحد» بل أن سعة أفقه يمكن أن تكون صفة لا تقدر بثمن عند وضع شروط الصلح».

[←412]

جون غريغ، لويد جورج. من السلم إلى الحرب 1912 - 1916 (لندن: متوين، 1985)، ص 489.

[←413]

روسكيل، هانكي، الصفحتان 422 - 423.



[←414]

المرجع نفسه، ص 436.

[←415]

المرجع نفسه، ص 358.

[←416]

تيودود زيلدين، فرنسا 1848 - 1945، المجلد 1، الطموح والحب السياسة (اوكسفورد، مطبعة كلاريندون، 1973)، الصفحة 698 وما يليها.

[←417]

ديفيد روبين واطسون، جورج كليمنصو.. سيرة حياة سياسية (لندن أير ميتوين، 1974)، ص 269.

[←418]

المرجع نفسه، ص 90.

[←419]

ونستون س. تشرشل ، المعاصرون العظام (لندن: فونتانا، 1959)، الصفحتان 248 - 249.

[←420]

وطسون، کلیمنصو، ص 127.

[←421]

زیلدين، فرنسا، ص 703.



[←422]

وطمسون، کلیمنصو، ص 28.

[←423]

روسکيل، هانکي، ص 466.

[←424]

**الموسوعة البريطانية،** الطبعة الثانية عشرة تحت عنوان، **الحملات التركية (1)**، مقالة كتبها **الرائد فرانز كارل أندرس.**

[←425]

مقتبس في مقال: ي. ت. كورات، «كيف انزلت تركيا إلى الحرب العالمية الأولى»، في ك. س. بورن ود. سن واط، دراسات في التاريخ الدولي، (لندن: لونجمان، 1967)، الصفحات 291 - 315. عند الصفحة 294.

[←426]

هارفي أ. دو ويرد، «تشرشل ولويد جورج وكليمنصو: انبثاق المتمدن»، في كتاب: إدوارد ميد  
إيرل، **صانعو الاستراتيجية العصرية: الفكر العسكري عن مكيا فيلي إلى هتلر**  
(برنستون: مطبعة جامعة برنستون، 1943)، الصفحات 287 - 305، عند الصفحتين 290 -  
291، وجيمس شوتويل، القرار الكبير (نيويورك: مكميلان، 1944)، الصفحتان 8 - 9.

[←427]

ا. ج. ب. تيلور، **التاريخ الإنكليزي 1914 - 1945** (أوكسفورد: مطبعة كلarendون، 1965)، ص 34.

[←428]

شيلا فيتز باتريك، **الثورة الروسية** (أوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة أوكسفورد، 1982)، ص 10، وأليك نوف، **تاريخ اقتصادي للاتحاد السوفياتي** (هارموندسورث: بنغوين، 1982)، الصفحات 20 - 25، والموسوعة البريطانية، الطبعة الحادية عشرة تحت عنوان: **روسيا**.

[←429]

هيو ستيون - ولسنون، **الإمبراطورية الروسية 1801 - 1917** (أوكسفورد: مطبعة  
كلارندون، 1967)، الصفحتان 704 - 705.



[←430]

نورمان ستون، **الجبهة الشرقية 1914 - 1917** (لندن: هودر وستوتن، 1975)، ص 288،  
ومايكل كتيل، **الحلفاء والانهار الروسي آذار 1917 - آذار 1918** (لندن: أندريه  
دويتش، 1918)، ص 98.

[←431]

غوردون أ. غريغ، **ألمانيا 1866 - 1945** (أوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة أوكسفورد، 1978)، ص 153.

[←432]

أولريش ترومبينير، ألمانيا والإمبراطورية العثمانية 1914 - 1918 (برنستون: مطبعة  
جامعة برنستون، 1968)، ص 153.

[←433]

برترام د. وولف، **الثلاثة الذين قاموا بثورة: تاريخ سيرة حياة**، الطبعة الرابعة منقحة (نيويورك: دل، كتب دلتا، 1965)، الصفحة 620 وما يليها. وإدموند ويلسون، **إلى محطة فنلندا: دراسة في كتابة التاريخ وفعله** (غاردن سيتي، نيويورك: كتب دبل واي انكور، 1953)، الصفحة 445، وما يليها.

[←434]

الرواية التي ترد مستندة إلى ز. ا. ب. زيمان و. ب. شارلو، **تاجر الثورة: حياة ألكسندر إسرائيل هلفاند (بارفوس) 1867 - 1924** (لندن: مطبعة جامعة أوكسفورد، 1965)، وإلى الوثائق السرية المستمدة من المحفوظات الألمانية منسوخة في كتاب: ز. ا. ب. زيمان، **ألمانيا والثورة في روسيا 1915 - 1918** (لندن: مطبعة جامعة أوكسفورد، 1958).

[←435]

هنالك خلاف حول الرقم الحقيقي .

[←436]

زيمان وشارلو، **تاجر الثورة**، ص 136.

[←437]

زيمان ، ألمانيا ، ص 1.



[←438]

زيمان وشارلو، **تاجر الثورة**، ص 155.

[←439]

المرجع نفسه، ص 154.

[←440]

المرجع نفسه ، الصفحتان 156 - 157 .

[←441]

المرجع نفسه، ص 158.

[←442]

ليونارد شاپيرو، **الثورات الروسية في عام 1917: أصول الشيوعية الحديثة** (نيويورك، الكتب الأساس (بيزبك بوكس)، 1984)، ص 95.

[←443]

كتيل ، **الانهيار الروسي** ، الصفحات 13 - 35 .

[←444]

نورمان ستون، **تحول أوروبا 1878 - 1919** (لندن: فونتانا، 1983)، ص 371.

[←445]

إدوارد هاليت كار، **الثورة البلشفية 1917 - 1923**، المجلد 1 (نيويورك: مكميلان، 1951)، ص 70.



[←446]

زيمان ، ألمانيا ، الصفحتان 35 - 36.

[←447]

**مفكرة اللورد ريدل في الحرب 1914 - 1918** (لندن: ايفور نيكولسون ووطسون،  
1933)، ص 82.

[←448]

تيلور، التاريخ الإنكليزي، الصفحتان 94 - 95.

[←449]

أرثور س. لينك، **ولسون، حملات من أجل التقدمية والسلام، 1916 - 1917**  
(برنستون: مطبعة جامعة برنستون، 1965)، الصفحتان 179 - 180.

[←450]

المرجع نفسه ، الصفحات 201 - 203 .

[←451]

تشارلز سيمور، أوراق الكولونيل هاوس الشديدة الخصوصية، المجلد 3 (بوسطن، هوتن ميغلين، 1928)، ص 51.

[←452]

جون مينارد كينز، **عواقب السلام الاقتصادية** (نيويورك: هاركورت وبريس وهاد، 1920)، ص 42.

[←453]

مذكرات ديفيد لويد جورج عن الحرب، المجلد 3: 1916 - 1917 (بوسطن: ليتل وبراون، 1934)، ص64.



[←454]

أرسل وزير خارجية ألمانيا، أرثور تيزمرمان برقية سرية إلى وزيره المفوض في المكسيك طالباً إليه أن يسعى من أجل تحالف مع المكسيك ضد الولايات المتحدة، ومقابل ذلك تحصل المكسيك على ولايات تكساس، ونيومكسيكو وأريزونا. وقد اعترضت الحكومة البريطانية برقية تيزمرمان فأرسلت نسخة عنها إلى الرئيس ويلسون، فنشرها الرئيس الأمريكي.

[←455]

**أوراق دودرو ولسون**، أعدها للطباعة أرثور س. لينك وآخرون، المجلد 41، 24 كانون الثاني - 6 نيسان 1917، (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، 1983)، ص 438.

[←456]

لمرجع نفسه ص 462.

[←457]

المرجع نفسه، ص 520.

[←458]

المرجع نفسه، ص 525.

[←459]

المرجع نفسه .

[←460]

سيمور، أوراق الكولونيل هاوس، المجلد 3 ص 45.

[←461]

رونالد ستيل، **وولتر ليبمان والقرن الأميركي** (بوسطن وتورونتو: ليتل براون وشركاه، 1980)، ص 133.



[←462]

سيمور، أوراق الكولونيل هاوس، المجلد 3، ص 323.

[←463]

المرجع نفسه .

[←464]

سيمور، أوراق الكولونيل هاوس، المجلد 2، ص 415.

[←465]

ستيل ، لييمان ، ص 135 .

[←466]

لورانس إيفانز، **سياسة الولايات المتحدة وتقسيم تركيا 1914 - 1924** (بالتيمور: مطبعة جامعة جون هوبكنز، 1965)، ص 39.

[←467]

المرجع نفسه ، الصفحات 40 - 42 .

[←468]

لورنس أ. جيلفاند، **التحقيق: الاستعداد الأميركي للسلام 1917 - 1919** (نيوهافن: مطبعة جامعة ييل، 1963)، ص 47.

[←469]

المرجع نفسه، ص 273.



[←470]

المرجع نفسه ، الصفحات 60-62.

[←471]

المرجع نفسه ، الصفحات 240 - 250 .

[←472]

المرجع نفسه ، الصفحات 250 - 252 .

[←473]

سيمور، أوراق الكولونيل هاوس، المجلد 3، ص 39.

[←474]

ولسون، أوراق، المجلد 41، الصفحتان 537 - 538.

[←475]

جيفاند، التحقيق، ص 173.

[←476]

روجر أدلسون، مارك سايكس: لوحة هاو (لندن: جوناثان كيب، 1975)، ص 222.

[←477]

اللورد بيغبروك، الرجال والسلطة 1917 - 1918 (لندن: هتشنسون، 1956)، ص 47.



[←478]

المرجع نفسه، ص 48.

[←479]

مذكرات ديفيد لويد جورج عن الحرب، المجلد 4، 1917 (بوسطن: ليتل وبراون، 1934)، ص 68.

[←480]

المرجع نفسه، ص 66.

[←481]

المرجع نفسه، ص 432.

[←482]

المرجع نفسه ، الصفحتان 573 - 574.

[←483]

مارتن جيلبرت، ونستون س. تشرشل: المجلد المرافق، المجلد 4 الجزء (1): كانون الثاني 1917 - حزيران 1919 (بوسطن: هوتن ميغلين، 1978)، ص 59.

[←484]

مارتن جيلبرت، ونستون س. تشرشل، المجلد 6، 1916 - 1922، العالم المضروب،  
(بوسطن: هوتن ميغلين، 1957)، ص 18.

[←485]

كان إنقاذ لويد جورج على يد بونار لو الذي كبح جماح جماعته المحافظين الغاضبين. كان بونار لو يكره تشرشل، وقد استاء لعدم أخذ رأيه في الأمر، ولكنه ظل وفيًا لرئيس الوزراء. واعتمد لويد جورج على نباهته فقال له إن اسكويث كان قد تعهد في حال عودته رئيسًا للوزراء، بأن يعيد تشرشل إلى السلطة في منصب لورد الأيرالية الأول (جيلبرت، تشرشل: المجلد المرافق، ص 99). كانت الرسالة الضمنية التي أراد إيصالها إلى بونار لو، هي أن حكومة لويد جورج التي يقتصر دور تشرشل فيها على منصب أقل أهمية نسبيًا، هي الحكومة الفصلى.



[←486]

جیلبرت ، تشرشل: المجلد 4 ، ص 30.

[←487]

جیلبرت، تشرشل: المجلد المرافق، ص 101.

[←488]

المرجع نفسه، ص 108.

[←489]

لندن. مكتب سجلات مجلس اللوردات. مجموعة بيفربروك. أوراق لويد جورج. ف. - 6 - 1.  
الوثائق من 1 إلى 16 (ب).

[←490]

جیلبرت ، تشرشل: المجلد المرافق ، ص 60.

[←491]

إيلي كدوري، في المتاهة الإنكليزية - العربية: مراسلات مكماهون - الحسين. ومترجموها  
1914 - 1939 (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، 1976)، ص 159.

[←492]

ديفيد لويد جورج، مذكرات مؤتمر الصلح (نيوهاتن: مطبعة جامعة ييل، 1939)، المجلد 2 ص 721.

[←493]

المرجع نفسه، ص 722.



[←494]

بريارة و. توسمان، الكتاب المقدس والسيف: إنكلترا وفلسطين من العصر البرونزي إلى  
بلغور (نيويورك: فنك وواغنالز، 1956)، ص 121.

[←495]

رونالد ساندرز، أسوار القدس العالية: تاريخ إعلان بلفور ونشوء الانتداب البريطاني على فلسطين (نيويورك: هولت وراينهارت وونستون، 1983)، ص 5.

[←496]

كانت هذه رؤيا ألهمت أيضًا دعاة المثالية العلمانيين أيضًا، إن جورج إليوت، في روايتها دانيال ديروندا، اقترحت برنامجًا صهيونيًا.

[←497]

سير تشارلز ويست، سياسة بالمرستون الخارجية 1830 - 1841: بريطانيا والحركة الليبرالية والمسألة الشرقية (نيويورك: مطبعة هيومانيتيز، 1969)، المجلد 2 ص 761. أنظر أيضًا: "ليونارد سيتن، إعلان بلفور (لندن: فالتاين ميتشل، 1961)، الصفحات 5 - 9، وكذلك توشمان، الكتاب المقدس والسيف، الصفحات 80 - 224.

[←498]

ه. ه. اسكويت، رسائل إلى فنيشيا ستانلي، أعدها للطباعة مايكل وإليانور بروك (أوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة أوكسفورد، 1982)، ص 406.

[←499]

المرجع نفسه، ص 477.

[←500]

المرجع نفسه .

[←501]

المرجع نفسه .



[←502]

المرجع نفسه ، الصفحتان 477 - 478 .

[←503]

اشعيا فريدمان، مسألة فلسطين، 1914 - 1918، العلاقات البريطانية - اليهودية - العربية  
(لندن: روتلج وكيجان بول، 1973)، ص 129.

[←504]

من هذه الكتب كتاب موزيس هيس وعنوانه، روما والقدس (1862)، وكتاب ليو بنسكر وعنوانه، الانعتاق الذاتي (1882).

[←505]

الكس بين، تيودور هرتزل: سيرة حياته، مترجمة من قبل موريس صامويل (فيلادلفيا: جمعية النشر اليهودية في أميركا، 1941)، ص 411 وما يليها.

[←506]

لندن مكتب سجلات مجلس اللوردات. مجموعة بيغبروك، أوراق لويد جورج. غ. - 33 - 1.  
الوثائق من 14 - 16.

[←507]

اشعيا فريدمان، مسألة فلسطين، 1914 - 1918، العلاقات البريطانية - اليهودية - العربية  
(لندن: روتلج وكيعان بول، 1973)، ص 123.

[←508]

فلاديمير جابوتنسكي، قصة الفيلق اليهودي، مترجمة من قبل صامويل كاتز (نيويورك: بيرنارد  
اكرمان، 1945)، ص 31.

[←509]

جوزف ب. شيشتمان، المتمرد ورجل الدولة: قصة فلاديمير جابوتنسكي، السنوات الأولى (نيويورك: توماس يوزلوف، 1956)، الصفحات 204 - 207، ينسب القسط الرئيس من الفصل إلى ترومبلدور.



[←510]

جابوتنسكي، الفيلق اليهودي، ص 66.

[←511]

رخوبدت، إسرائيل، محفوظات وثائق وايزمان. مذكرة اجتماع 7 شباط 1917، روجر أدلسون،  
مارك سايكس، لوحة هاو (لندن: جوناثان كيب، 1975)، ص 226.

[←512]

ل. س. إيميري، حياتي السياسية، المجلد 2، الحرب والسلام، 1914 - 1929 (لندن: هتشنسون، 1953)، ص 115.

[←513]

جورج انطونيوس، يقطة العرب: قصة الحركة القومية العربية (نيويورك: كتب كابرېكورن، 1965)، ص 412.

[←514]

في نهاية عام 1984 كان عدد سكان إسرائيل 4.235.000 وعدد سكان الضفة الغربية 1.300.000 - أي ما مجموعه 5.535.000 نسمة يعيشون الآن في نحو 25% من أرض فلسطين حسب تعريف صك الانتداب البريطاني.

[←515]

مفكرات ليو إيميري ، المجلد 1 ، 1896 - 1929 أعدها للطباعة جون بارنز وديفيد نيكولسون  
(لندن: هتشنسون ، 1980) ، ص 137.

[←516]

و. ك. هانكوك، سمطس: السنوات الدموية 1870 - 1919 (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، 1962)، ص 426.

[←517]

اللورد بيغبروك، الرجال والسلطة 1917 - 1918 (لندن: هتشنسون، 1956)، الصفحات 24 - 25 (بالأرقام اللاتينية)، أ.ج.ب. تيلور، التاريخ الإنكليزي 1914 - 1945 (أوكسفورد، مطبعة كلارندون، 1965)، ص 82.



[←518]

مذكرات لويد جورج عن الحرب، المجلد 4: 1917 (بوسطن: ليتل وبراون، 1934)، ص 90.

[←519]

المرجع نفسه ، الصفحتان 66 - 67 .

[←520]

مختارات من أوراق سمطس، المجلد 3: حزيران 1910 - تشرين الثاني 1918 أعدها للطباعة و.ك. هانكوك وجان فان رد بويل (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، 1966)، ص 465.

[←521]

المرجع نفسه، ص 500.

[←522]

هانكوك، سمطس، الصفحتان 434 - 435.

[←523]

مختارات من أوراق سمطس، المجلد 5، أيلول 1919 - تشرين الثاني 1934 أعدها للطباعة  
فان در بويل (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، 1973)، ص 25.

[←524]

المرجع نفسه ، صفحة 18 .

[←525]

هانكوك، سمطس، الصفحتان 434 - 435.



[←526]

أوراق سمطس، المجلد 4، تشرين الثاني 1918 - آب 1919 أعدها للطباعة و. ك. هانكوك  
وجان فان دربويل (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، 1966)، الصفحتان 26 - 27.

[←527]

إيميري، حياتي السياسية، ص 116.

[←528]

ولد وايزمان في روسيا واكتسب الجنسية البريطانية فأصبح من رعايا بريطانيا، وكان متحمساً في تأييده للحلفاء، ويعتقد أن الديموقراطيات الغربية وحدها تتجانس مع المثل العليا اليهودية. وبما أنه لم يكن يشغل أي منصب رسمي في الحركة الصهيونية الدولية، كان له مطلق الحرية في أن يفترق عن حيادها، ولكن بصفته مسؤولاً في الاتحاد الصهيوني البريطاني كان يستطيع أن يتحدث بصفة تمثيلية.

[←529]

عندما كتب لويد جورج مذكراته بعد انتهاء الحرب بسنوات، اخترع قصة مفادها أن اعلان بلفور صدر من قبيل الامتنان لاكتشاف وايزمان. ومع أن اكتشاف وايزمان الهام هو حقيقي، إلا أن قصة لويد جورج هي نسج الخيال.

[←530]

رخوبوت اسرائيل، محفوظات وثائق وايزمان. رسالة شاسر 2 شباط 1917، رسالة سكوت 3 شباط 1917، ورسالة وايزمان 3 شباط 1917.

[←531]

رخوبوت، اسرائيل، محفوظات وثائق وايزمان. مذكرة حول اجتماع 7 شباط 1917.

[←532]

المرجع نفسه .

[←533]

رخوبوت، اسرائيل، محفوظات وثائق وايزمان. ملاحظات عن اجتماع 8 شباط 1918.



[←534]

رونالد ساندرز، اسوار القدس العالية: تاريخ اعلان بلفور ونشوء الانتداب البريطاني على فلسطين (نيويورك: هولت وراينهارت وونستون، 1983)، ص 466.

[←535]

روجر ادلسون، مارك سايكس: لوحة هاو (لندن: جوناثان كيب، 1975)، ص 255.

[←536]

كريستوفر م. اندريو وا.س. كانيا فوستنر، ذروة التوسع الامبراطوري الفرنسي: 1914 - 1924.  
(ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، 1981)، ص 124.

[←537]

أدلسون، سايكس، ص 255.

[←538]

ساندرز، أسوار القدس العالية ص 493.

[←539]

رخوبوت، اسرائيل. محفوظات وئائق وايزمان. أوراق سليدمير، ملاحظات عن مؤتمر عقد في شارع داوونينغ رقم 10، 3 نيسان 1917.

[←540]

المرجع نفسه .

[←541]

المرجع نفسه .



[←542]

ادلسون، سايكس، ص 227.

[←543]

اوکسفورد. کلیة سانت انطوني. مرکز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايکس. د.س. 149.

[←544]

المرجع نفسه . د . س . 149 ( د . ر . 588/25 ) .

[←545]

كنغستون ابون هل . جامعة هل . مكتبة براينمود جونز أوراق مارك سايكس . د.د.س.ي (2) 12  
- 7.

[←546]

كان الكلام هنا على «ملة» وهي اصطلاح كان مستخدماً في الامبراطورية العثمانية للدلالة على مجموعة من السكان تُمنح قدراً معيناً من الحكم الذاتي لإدارة شؤون أفرادها.

[←547]

اوکسفورد. کلیة سانت انطوني. مرکز الشرق الأوسط. اوراق مارک سایکس. د. س. 149.  
ادلسون، سایکس، ص 229.

[←548]

ادلسون، سايكس، ص 231.

[←549]

اوکسفورد. کلیة سانت انطوني. مرکز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايکس، د.س.  
588/25.



[←550]

المرجع نفسه . د.ر . 588/25 (د . س . 42/1) .

[←551]

أدلسون، سايكس، ص 229.

[←552]

رخبوت، اسرائیل، محفوظات وثائق وایزمان. أوراق سلیدمیر. 14 آب 1917.

[←553]

مفكرات ليو ايميري ، المجلد 1: 1896 - 1929 أعدها للطباعة جون بارنز وديفيد نيكولسون  
(لندن: هتشنسون، 1980)، ص 170.

[←554]

كنيث روز، أواخر أصحاب اسم سسيل (نيويورك ولندن: هاربر وراد، 1975)، ص 153.

[←555]

فيليب جاد الله، رجال ذوو شؤون (لندن: هودر وستوتن، بلا تاريخ)، ص 193.

[←556]

اوکسفورد. کلیة سانت انطوني. مرکز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايکس. د. ر. 588/25.

[←557]

اندرو وکانیا - فورستتر، التوسع الامبراطوري الفرنسي، ص 1329.



[←558]

ساندرز، أسوار القدس العالية، ص 534.

[←559]

يقال أحياناً إن إعلان بالفور كان مبهم بالمقدار نفسه. ولكن إعلان بلفور، خلافاً لرسالة كامبون، (1) نُشر (ب) تحدث عن فلسطين كلها (ج) أشار إلى إنشاء كيان ليست له هوية قومية يهودية محددة - بل أشار إلى وطن قومي.

[←560]

كان دزرائيلي، بطبيعة الحال، من أصل يهودي، ولكنه تعمد واعتنق المسيحية.

[←561]

مارتن جيلبرت، ونستون س. تشرشل: المجلد المرفق، المجلد 4، الجزء 1 كانون الثاني 1917 - حزيران 1919 (بوسطن: هوتن ميغلين، 1978)، ص 107.

[←562]

ديفيد لويد جورج، مذكرات مؤتمر الصلح (نيوهاتن: مطبعة جامعة ييل، 1939)، المجلد 2، ص 733.

[←563]

وفقاً لكتاب ليونارد ستين، اعلان بالفور (لندن: فالنتاين ميتشيل، 1961)، ص 66. كان هناك 130,000 من مشتري الشيكال الذين اظهروا ولاءهم. وقدر عدد سكان العالم من اليهود من قبل الكتاب السنوي اليهودي الأميركي لعام 1909 - 1910 بـ 11,500,000 الموسوعة البريطانية، الطبعة الحادية عشرة تحت عنوان: يهود.

[←564]

اشعيا فريدمان، مسألة فلسطين، 1914-1918، العلاقات البريطانية - اليهودية - العربية  
(لندن: روتلج وكيجان بول، 1973)، ص 178.

[←565]

وولتر لاکور، تاریخ الصهيونية (نیویورک: هولت ورائنہارت وونستون، 1972)، ص 184.



[←566]

رخوبوت، اسرائيل، محفوظات وثائق وايزمان. رسالة سير ر.، غراهام إلى الجنرال وينغيت،  
21 ايلول 1917.

[←567]

مفكرات ايميري، ص 170.

[←568]

ستين، اعلان بلفور، ص 529، ولاكور، الصهيونية، ص 181.

[←569]

التجربة والخطأ: سيرة حياة حاييم وايزمان بقلمه (نيويورك: هاربر، 1949)، ص 179.

[←570]

لندن، مكتب سجلات مجلس اللوردات، مجموعة بيفريوك. أوراق لويد جورج. ف -3 - 2 - 34.

[←571]

المرجع نفسه .

[←572]

ويزمان ، التجربة والخطأ ، ص 208 .

[←573]

لويد جورج، مؤتمر الصلح، المجلد 2، ص 669.



[←574]

المرجع نفسه، المجلد 3، ص 737.

[←575]

أوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط، اعلان بلفور.

[←576]

المرجع نفسه .

[←577]

لويد جورج، مؤتمر الصلح، المجلد 2، ص 723.

[←578]

المرجع نفسه، ص737.

[←579]

حزقيال راينوفيتش، القاضي لويس برانديز: الفصل الصهيوني في حياته (نيويورك: المكتبة الفلسفية 1968)، ص 69.

[←580]

مايكل باريش، فليكس فرانكفورتير وزمانه - سنوات الاصلاح (نيويورك: المطبعة الحرة «فري برس» ولندن: كولبير مكميلان، 1982)، ص 135.

[←581]

ليونارد بيكر، برانديز وفرانكفورت: سيرة حياة ثنائية (نيويورك: هاربر دراو، 1984)، ص 74.



[←582]

المرجع نفسه .

[←583]

رابینوفیتش، براندیز، ص 4.

[←584]

اوسكار شتراوس وزير التجارة والعمل من عام 1906 إلى عام 1909.

[←585]

الفوس توماس ميسون، برانديز: حياة رجل حر (نيويورك: مطبعة فايكنغ، 1946)، ص 446.

[←586]

رسائل لويس د. برانديز، المجلد 4: (1916 - 1921): القاضي برانديز، أعدها للطباعة ملفيل اورنسكي وديفيد ليفي (الباني: مطبعة جامعة نيويورك، 1975)، ص355.

[←587]

مفكرات ايميري، ص 189.

[←588]

مختارات من أوراق سمطس، المجلد 3: حزيران 1910 - تشرين الثاني 1918 أعدها  
للطباعة و.ك. هانكوك وجان فان در بويل (كامبريدج، 1966)، ص 503.

[←589]

بريتون كوبر بوش، بريطانيا والهند والعرب، 1914 - 1921 (بيركلي ولندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا 1971)، ص 121.



[←590]

بعض النظر عما إذا كانوا أغلبية في المدينة أو لم يكونوا - والموسوعة البريطانية أشارت في ذلك الحين الى أنهم لم يكونوا - فقد كانت لليهود السيطرة الاقتصادية في بغداد. وكانت بغداد، الى جانب القدس، احدى مدينتين يهوديتين كبيرتين في آسيا، وكانت قبل ألف سنة مقر رئيس الديانة اليهودية في الشتات الشرقي - أي عاصمة اليهودية الشرقية. وقد عاش اليهود بأعداد كبيرة في بلاد الرافدين منذ سبي بابل - نحو عام 600 قبل الميلاد - أي انهم استقروا في هذه البلاد قبل ألف عام من مجيء العرب في سنة 634 ميلادية.

[←591]

المرجع نفسه ، الصفحتان 139 - 140 .

[←592]

الفكرة كانت فكرة لورنس، مع أن من الممكن انها خطرة لعودة و/ أو فيصل بمعزل عن لورنس.

[←593]

ديزموند ستيوارت، ت. 1. لورنس (نيويورك ولندن: هاربر دراو، 1977)، الصفحات 1998 - 1999.

[←594]

كيو، مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية 882. المجلد 18. الوثيقة  
تي يو/ 3/17.

[595←]

وضع الضباط البريطانيون هذا البرنامج موضع التنفيذ لدى وصول فيصل الى العقبة، وعملوا معه في تقديم المشورة المهنية والتوجيه. كان الكولونيل بيرس تشارلز جويس، في موقعه في العقبة، كبير الضباط البريطانيين العاملين في فيلق فيصل بصفة قائد لعمليات الحجاز، وكان مسؤولاً أمام الكولونيل آلن داووبي، من هيئة أركان النبي. وكان داووبي على مستوى التخطيط وجويس على مستوى العمليات، أكبر ضابطين في موقع المسؤولية عن الفيلق العربي. وقد كتب في ما بعد الجنرال هاري شوفيل، قائد الجيش الأسترالي في حملتي فلسطين وسورية «أن جويس كان منظم القوة المقاتلة الوحيدة التي لها قيمة حقيقية في كل الجيش العربي، وكان رأيي دائماً أن الفضل يعود إليه أكثر من أي ضابط بريطاني آخر في نجاح عمليات الحجاز». (أوكسفورد. كلية سانت أنطوني. مركز الشرق الأوسط، أوراق النبي، د. س. 4/26 4).

[←596]

مذكرات ديفيد لويد جورج عن الحرب، المجلد 1918: (بوسطن: ليتل وبراون، 1937)، ص 203.

[←597]

الجنرال ا.د.بريمون، الحجاز في الحرب العالمية (باريس: بايو، 1931)، ص:9.



[←598]

ديفيد هولدن وريتشارد جونز، آل سعود: نشوء وسقوط أقوى سلالة في العالم العربي (نيويورك: هولت وراينهارت وونستون، 1981)، ص 53.

[←599]

أوكسفورد. كلية سانت أنطوني. أوراق ولیم بیل. د. س. 149 د. س. 244/4 د. س. 126/1.

[←600]

مذكرات ديفيد لويد جورج عن الحرب، المجلد 4: 1917 (بوسطن: ليتل وبراون، 1934)، ص 98.

[←601]

المرجع نفسه، ص 573.

[←602]

أوكسفورد. كلية سانت أنطوني، مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس. د. ر. 588/25.

[←603]

المرجع نفسه، (د. ر. 588/25) د. س. 42/1.

[←604]

كان كلايتون في لندن في صيف 1916 عندما دعا اللورد لانسداون، زعيم حزب المحافظين، سرًا إلى صلح يقوم على حل وسط. ولدى عودته إلى القاهرة كتب إلي وينغيت قائلاً: «إن أحد الانطباعات التي حصلت عليها والتي تثبت ما كنت أظنه دائمًا، الأمر الذي أعرف أنه يهمل، هو نفوذ اليهود الواسع النطاق. إنه موجود في كل مكان ودائمًا يدعو إلى الاعتدال. إنهم لا يريدون أن يروا سقوط أحد، هنالك يهود انكليز، ويهود فرنسيون، ويهود ألمان، ويهود نمساويون، ويهود من سالونيك - ولكنهم جميعًا يهود. إنك تسمع الحديث عن الصلح وتجد بشكل عام أن اليهودي وراء هذا الحديث. وإنك تسمع أيضًا حديثًا مواليًا للأتراك وحديثًا عن رغبة في صلح منفرد مع تركيا - ومرة أخرى اليهودي وراء ذلك (إنه أصل حركة الاتحاد والترقي)» (المرجع نفسه، رسالة سير جيلبرت كلايتون 3 - 8 - 16. د. ت. 107/2 سي. جي. (د س 42/1)).

[←605]

رخوبوت، اسرائیل، محفوظات وثائق وایزمان، من کلايتون إلی دیدز 6 أيلول 1917.



[←606]

أوكسفورد. كلية سانت أنطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس (د.ر: 588/25)  
د.س. 42/1.

[←607]

المرجع نفسه، (د.ر. 588/25) د.س. 149.

[←608]

المرجع نفسه، (د.ر. 588/25) د.ت. 82/97.

[←609]

كيو. مكتب السجل العام. مجلس وزراء الحرب، لجنة الشرق الأوسط. سي. آي. بي. 27/23  
ص 154.

[←610]

التجربة والخطأ: **سيرة حياة حاييم وايزمان** بقلمه (نيويورك: هاربر، 1949)، ص 181.

[←611]

روجر أدلسون، مارك سايكس: لوحة هاو (لندن، جوناثان كيب، 1975)، ص 264.

[←612]

کنگستون آیون هل . جامعة هل . مكتبة براتيمور جونز ، أوراق مارك سايكس . د.س . 42/1 د.ر .  
588/25

[←613]

رخوبوت، اسرائيل. محفوظات وئائق وايزمان. من كلايتون إلى سايكس 15 كانون الأول 1917.



[←614]

المرجع نفسه، من سايكس إلى كلايتون، 14 تشرين الثاني 1917.

[←615]

المرجع نفسه ، من سايكس إلى كلايتون ، 1 كانون الأول 1917 .

[←616]

المرجع نفسه ، من سايكس إلى بيكو ، 12 كانون الأول 1917 .

[←617]

أوكسفورد. كلية سانت أنطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس. د. س. 42/1  
د. 25/ 588.

[←618]

المرجع نفسه ، ( د.س . 149 ) د.س. 161.

[←619]

رخوبوت، اسرائيل، محفوظات وثائق وايزمان. من كلايتون إلى سايكس، 15 كانون الأول 1917.

[←620]

المرجع نفسه ، من وينغيت إلى اللنبي . 16 كانون الأول 1917 .

[←621]

أوكسفورد. كلية سانت أنطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق وليم بيل. د.س. 125/52،  
د.س. 126/1 د.س. 151/92.



[←622]

كيو، مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية 882، المجلد 7 آ الوثيقة  
19 آ الصفحتان 5-4

[←623]

المرجع نفسه ، المجلد 24 ، الوثيقة 36757.

[←624]

رخوبوت، اسرائيل، محفوظات وثائق وايزمان. من ديدز إلى وزارة الخارجية، 19 تشرين الثاني 1917.

[←625]

أوكسفورد. كلية سانت أنطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس (د.س. 125)  
د.س. 125/3/1.

[←626]

المرجع نفسه ، د.س . 125 .

[←627]

دورهام، جامعة دورهام. محفوظات وثائق السودان. أوراق كلايتون الرئيسة. جي. / اس 513  
الملف 1.

[←628]

أوكسفورد. كلية سانت أنطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس (د.س. 125)  
د.س. 149.

[←629]

كينغستون ايون هل . جامعة هل . مكتبة براتيمور جونز . أوراق مارك سايكس . 101-11 .



[←630]

كيو. مكتب السجل العام. مجلس وزراء الحرب، لجنة الشرق الأوسط. سي.اي.بي. 27/23  
ص132.

[←631]

اوکسفورد. کلیة سانت انطوني. مرکز الشرق الأوسط. أوراق فیصل. ب - 31.

[←632]

رسائل وأوراق حاييم وايزمان، المجلد 8، السلسلة آ: تشرين الثاني - 1917 تشرين الأول  
1918، أعدها للطباعة دفورة بارزيبا وبارنت ليتفينوف (القدس: مطبعة الجامعة الاسرائيلية،  
1977)، ص 210.

[←633]

ربما كانت هذه أول اشارة إلى أن كبار المسؤولين البريطانيين كانوا يفكرون بحصر الصهيونية في تلك الأقسام من فلسطين التوراتية الواقعة غربي نهر الأردن .

[←634]

بذور النزاع، أُعيدت طباعته في: أوراق فلسطين 1917 - 1922 صنفها وعلّق عليها دروين انغرامز (لندن: جون مري، 1972)، ص 33.

[←635]

المرجع نفسه، ص 37 كيو. مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية 882.  
المجلد 24، الوثيقة 105824.

[←636]

كيو، مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجي 882. المجلد 24. الوثيقة 92392. انغرامز، أوراق فلسطين، الصفحات 24 - 26.

[←637]

مفكرات ليو ايميري ، المجلد 1: 1896 - 1929 أعدها للطباعة جون بارنر وديفيد نيكولسون  
(لندن: هتشنسون، 1980)، ص206.



[←638]

بريتون كوبر بوش، بريطانيا والهند والعرب، 1914 - 1921 (بيركلي ولندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1971)، ص 156، ه. ف. ف. ويندستون، جيرترود بل (لندن: جوناثان كيب، 1978)، ص 202.

[←639]

أوكسفورد، كلية سانت أنطوني، مركز الشرق الأوسط. «أوراق ماركس سايكس». د.ر.  
588/25.

[←640]

كان أحد الإخفاقات الكبيرة لكيشنر وزملائه في مجال الاستخبارات، جهلهم الانتعاش المذهل للمذهب الوهابي التطهيري في شبه جزيرة العرب. وقد بدأ هذا الانتعاش تحت رعاية ابن سعود، وأدى في أواخر 1912 إلى نشوء أخوية تنزع إلى القتال، هي جماعة الإخوان. ويفيد محضر اجتماع عقده لجنة الحرب المنيقة عن مجلس الوزراء بتاريخ 16 كانون الأول (ديسمبر) 1915 للاستماع إلى شهادة من سير مارك سايكس عن المسألة العربية أن اللورد كيتشنر سأل: «ألا تزال الوهابية موجودة؟» فأجاب سايكس: «أظن أنها نار تخبو» (المرجع نفسه، د.ز. 588). وبعد سنتين - وخمسي سنوات بالتمام عقب نشوء جماعة الإخوان الوهابية - أبلغ جيلبرت كلايتون سايكس للمرة الأولى: «إن لدينا ما يشير إلى حركة انبعاثية كبيرة وفق الخط الوهابي في أواسط شبه جزيرة العرب، على غرار ما كان يحدث سابقاً كلما هبطت مكانة الإسلام. ولسنا بعد في وضع يسمح لنا بتقويم قوة هذه الحركة»، ولكن الظروف تغري بتغذيتها. هذه المسألة تحظى باهتمامنا الجدي هنا... وقد تغير الموقف كله تغييراً كبيراً (المرجع نفسه، د.ز. 588/25) د.س. 149).

[←641]

كيو. مكتب السجل العام. مجلس وزراء الحرب، لجنة الشرق الأوسط. سي.اي.بي. 27/23  
الصفحتان. 128-127

[←642]

كيو. مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية 882. المجلد 18 (تي يو).  
25/5 (6).

[←643]

لو كانت غايتهم حقًا قيام ثورة قومية لما لجأوا إلى الحسين، حارس الأماكن المقدسة المُعَيَّن من قبل الأتراك والذي استعان بالقوات التركية لإخماد التذمر العربي، بل كان عليهم أن يبحثوا عن زعيم قومي مقاتل.. بهذه الطريقة روى لورنس القصة في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» فصور فيصل، وليس والده، أنه هو الزعيم المنشود.

[←644]

المرجع نفسه ، المجلد 20 . م 1/19/3 .

[←645]

المرجع نفسه، المجلد 20، انش، ام/ 19/1.



[←646]

المرجع نفسه ، المجلد 17 الوثيقة 26 .

[←647]

الكولونيل ر.ماينرتزهاغن، مفكرة الشرق الأوسط 1917 - 1956 (لندن: مطبعة كريسييت،  
1959)، ص 28

[←648]

أوكسفورد. كلية سانت أنطوني. مركز الشرق الأوسط. «أوراق مارك سايكس». د.ر. 588.

[←649]

ليمان فون ساندرز، خمس سنوات في تركيا (انابوليس: المعهد البحري للولايات المتحدة،  
1927)، الصفحات 306 - 320.

[←650]

أوكسفورد، كلية سانت أنطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق فيصل. - 14.

[←651]

دورهام . جامعة دورهام . محفوظات وثائق السودان أوراق ريجينالد وينغيت . 149/7/1 - 109 .

[←652]

كيو، مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية 882. المجلد 17 الوثيقة 33.

[←653]

انگرامز، «أوراق فلسطين»، ص 33



[←654]

أوكسفورد. كلية سانت أنطوني، مركز الشرق الأوسط، أوراق مارك سايكس. د.س.  
588/25.

[←655]

المرجع نفسه، د.ر. 588/25.

[←656]

المرجع نفسه .

[←657]

كيو. مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية 882. المجلد 17 الصفحات 97 - 103.

[←658]

كريستوفر اندرو وا.س. كانيا مورستينر، ذروة التوسع الإمبراطوري الفرنسي 1914 - 1924  
(ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، 1981)، ص 162.

[←659]

الرواية الواردة في النص مدينة بالكثير إلى السرد المفعم بالحيوية من قبل هوارد م. ساتشار في: انبثاق الشرق الأوسط: 1914-1924 (نيويورك: الفرد كنوف، 1969) من الصفحة 238 وما يليها، وكذلك إلى روايات شهود عيان في: الموسوعة البريطانية، الطبعة الثانية عشرة تحت عنوان: «الحملات التركية».

[←660]

كيو، مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية 883، المجلد 17 الصفحتان 105-104.

[←661]

مفكرات ليو ايميري، المجلد 1: 1896-1929 أعدها للطباعة جون بارتز وديفيد نيكولسون  
(لندن: هتشنسون، 1980)، ص 241.



[←662]

اوكسفورد. مكتبة بودليان. أوراق ميلنر، فلسطين. 140/164.

[←663]

المرجع نفسه ، 140/154 .

[←664]

المرجع نفسه ، 140/156 .

[←665]

في مطلع 1918 كتب جيلبرت كلايتون الي سايكس قائلاً: «إذا أجاد فيصل العمل بالمفهوم العسكري فسينال سورية»، أما إذا لم يجد العمل فيما من أحد من مكة ستكون له علاقة بالسياسة السورية. إن رفع العلم سيكون تأكيداً رمزياً لنجاح فيصل العسكري الذي قد يمهد الطريق لزعامته السياسية.

[←666]

أوكسفورد، كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط، أوراق النبي. د.س. 244/4.

[←667]

دورهام، جامعة دورهام. محفوظات وثائق السودان. أوراق ريجينالد وينغيت. 158-190/9/1.

[←668]

المرجع نفسه ، 105-150/1/1 .

[←669]

اوکسفورد. مکتبة بودلیان. أوراق میلنر، فلسطین. 140/64.



[←670]

دورهام . جامعة دورهام . محفوظات وثائق السودان . أوراق ريجينالد وينغيت ، 105-150/1/1 .

[←671]

ليس هناك دليل كاف على من الذي اتخذ القرار ولماذا اتخذه. أن تقريره رفعه الجنرال جيلبرت كلايتون كبير الضباط السياسيين في قيادة اللنبي، الى وزارة الخارجية، يدل على أن كلايتون لا بد أن يكون قد خشي حدوث اضطراب في المدينة إذا احتلها الاستراليون، ربما لأن الدمشقيين قد يظنون أن بريطانيا تنوي تسليمهم للفرنسيين، وكان كلايتون يعبر طوال الوقت عن مخاوفه من أن تثير بريطانيا - بظهورها مظهر الشريك لفرنسا - عدااء العرب السوريين. وقد جاء في تقرير رفعه كلايتون في ما بعد الى وزارة الخارجية «أن سماحنا لقوات الشريف باحتلال دمشق قد بدد بعض الريب في نيات فرنسا»  
**كيو. مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية 882، المجلد 17 الصفحتان 119-120.**

[←672]

أوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق النبي. د.س. 244/4.

[←673]

المرجع نفسه .

[←674]

كيو، مكتب السجل العام. مجلس وزراء الحرب. اللجنة الشرقية. سي.اي.بي. 27/24  
الصفحات 152-148.

[←675]

في الفصل 101 من كتابه «أعمدة الحكمة السبعة»، اعترف بأنه كان مطلعاً على الاتفاقية و«لحسن الحظ كنت قد وشيت لفیصل بوجود الاتفاقية...»

[←676]

دورهام . جامعة دورهام . محفوظات وثائق السودان . أوراق ريجينالد وينغيت. 112-150/2/1.

[←677]

بعض الجنود الفرنسيين كانوا من اللاجئين الأرمن الذين جرى تجنيدهم، وآخرون كانوا جنوداً من أهالي شمال أفريقيا. وقيل إن القوة بكاملها كانت مؤلفة فقط من 3000 أرمني، و3000 أفريقي ومن (800 فرنسي تلقوا وعداً بالاضطرار للقتال).

**كريستوفر م. اندرو واس. كانيا - فورسترن، ذروة التوسع الامبراطوري الفرنسي: 1914-1924 (ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، 1981)، ص 11.**



[←678]

المرجع نفسه، ص 161.

[←679]

كيو. مكتب السجل العام. مجلس وزراء الحرب، اللجنة الشرقية، سي.اي.بي. 27/24  
الصفحات 152-148.

[←680]

جوكا نيفاكيفي، بريطانيا وفرنسا والشرق الأوسط العربي 1914 - 1920 (لندن: مطبعة  
اتلون، 1969)، ص 72 الحاشية 3.

[←681]

أوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق النبي. د س. 244/4.

[←682]

وت ، ماسي ، انتصار النبي النهائي (نيويورك: أ. ب. دوتون ، 1920) ، الصفحتان 18 - 19 .

[←683]

من ت. أ. لورنس إلى كاتب سيرة حياته، روبرت غريفز (نيويورك: ديلداي، دوران، 10938)،  
ص104.

[←684]

دورهام. جامعة دورهام. محفوظات وثائق السودان. أوراق كلايتون الرئيسة، جي/أ.س. 513.  
الملف 1.

[←685]

اوکسفورد. مکتبة بودلیان. أوراق میلنر. فلسطین 22-140/21.



[←686]

نيفاكيقي ، بريطانيا وفرنسا والشرق الأوسط العربي ، ص74 .

[←687]

اوکسفورد. کلیة سانت انطوني. مرکز الشرق الأوسط. أوراق مارك سایکس. د.ر. 588/25.  
(د.س. 42/1).

[←688]

اوکسفورد. کلیة سانت انطوني. مرکز الشرق الأوسط. أوراق دیفید هوغارت 30 (2).

[←689]

كيو. مكتب السجل العام. مجلس وزراء الحرب، اللجنة الشرقية. سي. آي. بي 27/24.  
ص186.

[←690]

المرجع نفسه ، ص 187 .

[←691]

المرجع نفسه ، ص169 .

[←692]

ديفيد لويد جورج، مذكرات مؤتمر الصلح (نيوهافن: مطبعة جامعة بيل، 1939)، المجلد 2،  
الصفحات 664-665.

[←693]

المرجع نفسه ، ص665.



[←694]

مذكرات ديفيد لويد جورج عن الحرب، المجلد 4: 1917 (بوسطن: ليتل وبراون، 1934)، ص86.

[←695]

رسائل وأوراق حاييم وايزمان، المجلد 8، السلسلة آ، تشرين الثاني 1917 - تشرين الأول 1918، أعدها للطباعة دفورة بارزيلاي وبارينت ليتفينوف (القدس: مطبعة الجامعة الاسرائيلية، 1977) ص 230.

[←696]

كيو. مكتب السجل العام. مجلس وزراء الحرب، اللجنة الشرقية. سي. آي. بي. 27/24 محضر اجتماع 18 حزيران 1918.

[←697]

المرجع نفسه ، محضر اجتماع 18 تموز 1918 .

[←698]

مفكرات ايميري، ص 237.

[←699]

لندن، كلية كينغ (الملك). مركز ليدل هارت لمحفوظات الوثائق العسكرية. أوراق اللنبى. 1-9-21.

[←700]

كيو. مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية 882. المجلد 24. الوثيقة 92392.

[←701]

المرجع نفسه ، الوثيقة 123904 .



[←702]

المرجع نفسه ، الوثيقة 138908 .

[←703]

مكتب السجل العام. مجلس وزراء الحرب، اللجنة الشرقية. سي.اي.بي. 27/24 الصفحات  
161-153.

[←704]

دورهام . جامعة دورهام . محفوظات وثائق السودان . أوراق ريجينالد وينغيت . 137-150/10/1 .

[←705]

لندن . كلية كنع (الملك) . مركز ليدل هارت لمحفوفات الوثائق العسكرية . أوراق اللنيي .1-9-  
.15

[←706]

كيو، مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية 882 المجلد 18 الوثيقة  
تي يو. 17/17.

[←707]

اولريش ترمينر، المانيا والامبراطورية العثمانية:1914-1918 (برنستون: مطبعة جامعة  
برنستون،1968)، ص 167.

[←708]

فريدريك ستانوود، الحرب والثورة والامبريالية البريطانية في آسيا الوسطى (لندن: مطبعة  
ايتاكا 1983)، الصفحتان 32-33.

[709←]

كان ونستون تشرشل هو الذي وعي هذه الأهمية قبل الحرب واتخذ في ذلك الحين ترتيبات لكي تبتاع الحكومة البريطانية غالبية أسهم شركة النفط الأنكلو - فارسية ، فأثار بذلك معارضة شديدة من قبل مسؤولين بريطانيين لم يروا الحاجة الى ذلك، وخصوصاً من داخل حكومة الهند.

**\*ماريان كنت، النفط والامبراطورية: السياسة البريطانية و النفط بلاد الرافدين 1900 - 1920 (لندن وبيزنغستوك: مطبعة مكميلان لمدرسة العلوم الاقتصادية في لندن، 1976)، ص 118.**



[←710]

ترومبينير، الامبراطورية العثمانية، ص 186.

[←711]

فيروز كاظم زادة، الصراع على مناطق عبر القوقاز (1917 - 1921) (نيويورك، المكتبة  
الفلسفية واوكسفورد: جورج رونالد، 1951)، ص 135.

[←712]

الرواية الواردة تالياً مستندة إلى حد كبير على كتاب سي. اتش. اليس، واقعة عبر قزوين:  
1918 - 1919 (لندن: هتشنسون، 1963)، وكتاب ريتشارد اولمان، العلاقات الانكليزية -  
السوفياتية 1917-1921: التدخل والحرب (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، 1961).

[←713]

ستانوود، آسیا الوسطی، ص 139.

[←714]

اولمان ، العلاقات الانكليزية - السوفياتية ، ص 304 .

[←715]

«الجنود البيض»: هم الجنود البريطانيون مقارنة مع الهنود في جيش الهند.

[←716]

مفكرات ليو ايميري، المجلد 1:1896-1929، أعدها للطباعة جون بارنز وديفيد نيكولسون  
(لندن: هتشنسون، 1980)، ص 188.

[←717]

المرجع نفسه ص 173.



[←718]

ستانوود، آسیا الوسطی، ص 139.

[←719]

مفكرات ايميري، ص 173.

[←720]

المرجع نفسه ، الصفحتان 175-176.

[←721]

المرجع نفسه ص194.

[←722]

ستانوود، آسیا الوسطی، الصفحتان 175-176.

[←723]

المرجع نفسه .

[←724]

اولمان ، العلاقات الانكليزية - السوفياتية ، الصفحتان 304-305 .

[←725]

ترومبينير، الإمبراطورية العثمانية، الصفحات 188 - 191.



[←726]

اليس، **واقعة عبر قزوين**، ص 39، كاظم زادة، **عبر القوقاز**، الصفحة 135 وما يليها.

[←727]

دورهام . جامعة دورهام . محفوظات وثائق السودان . أوراق ريجينالد وينغيت . 149/8/1 - 93 .

[←728]

تدخلات القوات البريطانية وقوات الحلفاء في أماكن أخرى من الإمبراطورية الروسية هي خارج نطاق هذا الكتاب. إن حكومة الهند لم تقم بالتنسيق مع بعثاتها الثلاث التي ذكرناها أعلاه وبين التدخلات الأخرى، كما أن سيملا لم ترسل البعثات الثلاث في سياق خطة أعم أو شكل أعم من خطط أو أشكال التدخل.

[←729]

لندن. مكتب سجل مجلس اللوردات. مجموعة بيفربروك. أوراق لويد جورج. ف - 6 - 1.  
الوثيقة 13.

[←730]

كاظم زادة، **عبر الفوقاز**، ص (147)

[←731]

ترومبينير، الإمبراطورية العثمانية، ص 194.

[←732]

المرجع نفسه .

[←733]

المرجع نفسه، ص 194.



[←734]

اليس، واقعة عبر قزوين، ص 52

[←735]

ولكن يمكن بطبيعة الحال أن يقال إن هذه الاستراتيجية ما كانت لتنجح قبل عام 1918

[←736]

غوين داير، «الهدنة التركية لعام 1918: 2 - فرصة ضائعة: مفاوضات الهدنة في مودروس». **دراسات شرق أوسطية** (تشرين الأول 1972)، ص 315.

[←737]

**مفكرات ليو ايميري**، المجلد 2: 1896 - 1929، أعدها للطباعة جون بارنز وديفيد نيكولسون (لندن: هتشنسون، 1980)، ص 194.

[←738]

هيلموت ميجر، «النفط والسياسة البريطانية تجاه بلاد الرافدين»، **دراسات شرق  
أوسطية**، (تشرين الأول 1972)، ص 387.

[←739]

س. ج. لاو وم. ل. دوكريل، **سراب السلطة**، المجلد 3: **الوثائق السياسية الخارجية البريطانية 1902 - 22** (لندن: وبوسطن: روتلج وكيفان باول، 1972)، ص 553.

[←740]

المرجع نفسه ، الصفحتان 553-554.

[←741]

ارثور ج. ماردر، **من السفن الحربية طراز دريدنوت إلى سكابا فلو: الأسطول الملكي في عصر فيشر، 1904 - 1919**، المجلد 5: النصر وما أعقبه، كانون الثاني 1918 - 1919، (لندن: مطبعة جامعة أوكسفورد، 1970)، ص 37.



[←742]

غرين داير، «الهدنة التركية لعام 1918: 1 - القرار التركي بعقد هدنة منفصلة، خريف عام 1918»، **دراسات شرق أوسطية** (أيار 1972)، ص 171، الحاشية 30.

[←743]

المرجع نفسه ، الصفحتان 148 - 149

[←744]

كيو. مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية 882. المجلد 18 الوثيقة  
تي يو/18/3.

[←745]

داير الهدنة التركية: 1 ص 148.

[←746]

المرجع نفسه، ص (152)

[←747]

تشارلز فير فيريس تاونسهند، **حملتي**، (نيويورك: جيمس ا. مالكان، 1920)، المجلد 2،  
الصفحة 276 وما يليها.

[←748]

داير، الهدنة التركية: 1، ص 161.

[←749]

مذكرات ديفيد لويد جورج عن الحرب، المجلد 6:1918 (بوسطن: ليتل وبراون،  
1937)، ص 278.



[←750]

المرجع نفسه .

[←751]

المرجع نفسه .

[←752]

ستيفن روسكيل، **هانكي: رجل الأسرار**، المجلد 1: 1877 - 1918 (لندن: كولنز، 1970)، ص 619 وما يليها.

[←753]

ديفيد روبين واطسون، جورج كليمنصو: سيرة حياة سياسية (لندن: ايير ميتوين، 1974)، ص 371.

[←754]

داير، الهدنة التركية: 2.

[←755]

صلاحي رامسدان سونييل، **الدبلوماسية التركية**، 1918 - 1923: مصطفى كمال  
**والحركة القومية التركية** (لندن وبيفرلي هيلز: منشورات ساج، 1975)، ص3

[←756]

أريك جان زورشر، العامل الوجودي: دور جمعية الاتحاد والترقي في الحركة القومية التركية 1905 - 1926 (ليدن: أ.ج. بريل، 1984)، ص 72.

[←757]

واطسون، **كليمنصو**، ص 367.



[←758]

لويد جورج، **مذكرات الحرب**، المجلد 6 - الصفحتان 279 - 280.

[←759]

قبل ثلاثة آلاف سنة، شهدت طروادة انتهاء تحالف أوروبي حربي آخر إلى حالة محزنة عندما فعل اغاميمنون، قائد ذلك التحالف، ما فعلته بريطانيا على متن البارجة اغاميمنون: فقد منع حليقًا من الحصول على جائزة من جوائز النصر كان قد استحقها.

[←760]

روسكيل ، **هانكي** ، المجلد 1 ، ص 609 .

[←761]

لاو ودوكريل ، **سراب السلطة** ، المجلد 2 ، ص 359.

[←762]

**رسائل وأوراق حاييم وايزمان**، المجلد 8، السلطة آ: تشرين الثاني 1917 - تشرين الأول 1918، أعدها للطباعة رفدرة بارزبلاي وبارنيت ليتفينون (القدس: مطبعة الجامعة الإسرائيلية، 1977)، الصفحتان 278-279.

[←763]

روسكيل ، **هانكي** ، المجلد 1 ، ص. 594.

[←764]

الموصل مركز تجاري في المنطقة الغنية بالنفط التي تشكل الآن شمال العراق، وكان سايكس وكيثشنر قد وعدا فرنسا بها خلال المفاوضات التي جرت بين سايكس وبيكو في عام 1916.

[←765]

مذكرة بلفور مقتبسة في كتاب اليزابيث مونرو، **لخطة بريطانيا في الشرق الأوسط:**  
**1914 - 1971**، طبعة منقحة، (بالتيمور: مطبعة جامعة جونز هوبكنز، 1981)، الصفحتان 50 - 51.



[←766]

كان الاعتقاد السائد في الدوائر السياسية الفرنسية أن لويد جورج أعطى تأكيدات بالمقابل -  
ولو أنه ليس واضحًا ماذا كانت تلك التأكيدات.

[←767]

مايكل ل. دوكريل وج. دوغلاس غولد، **سلام غير واعد: بريطانيا ومؤتمر الصلح 1919-1923** (لندن: باتسفورد اكاڊميك اند اڊيوڪيسنال، 1981)، ص 146.

[←768]

كريستوفر اندرو و ا.س. كانيا - فورستينر، **ذروة التوسع الإمبراطوري الفرنسي، 1914 - 1924** (ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، 1981)، ص 172.

[←769]

بريتون كوبر بوش، **بريطانيا والهند والعرب 1914 - 1921**، (بيركلي ولندن: مطبعة  
جامعة كاليفورنيا، 1971)، ص 163

[←770]

جون داروين ، بريطانيا ومصر والشرق الأوسط: السياسة الإمبراطورية في أعقاب الحرب، 1918 - 1922 (نيويورك: مطبعة سانت مارتين ، 1981)، ص 160.

[←771]

لندن. مكتب سجلات مجلس اللوردات. مجموعة بيفربروك. أوراق لويد جورج. ف. - 205 -  
3. الوثيقة 9.

[←772]

المرجع نفسه . الوثيقة 7 .

[←773]

ديفيد لويد جورج، **مذكرات مؤتمر الصلح** (نيوهاتن: مطبعة جامعة بيل، 1939)، المجلد 2، الصفحتان 665-668.



[←774]

فرانسيس ستيفنسون، **لويد جورج: مفكرة**، أعدها للطباعة ا.ج. ب. تيلون (نيويورك ولندن: هاربر وراو، 1971)، ص 174.

[←775]

لندن . مكتب سجلات مجلس اللوردات . مجموعة بيفربروك . أوراق لويد جورج . ف 10-1-39 .

[←776]

المرجع نفسه. ف - 205 - 3. الوثيقة 7.

[←777]

المرجع نفسه. ف - 36 - 6 - 56.

[←778]

**مفكرة اللورد ريدل شديدة الخصوصية عن مؤتمر الصلح وما بعده: 1918 - 1923**  
(نيويورك: رينال وهيتشكوك، 1934)، ص 25.

[←779]

ديزمووند ستيوارت، ت. 1. **لورنس** (نيويورك ولندن: هاربر وراو، 1977)، ص 133، **وت. 1.**  
**لورنس أعمدة الحكمة السبعة** (غاردن سيتي، نيويورك: ديلداي ودوران وشركاؤهما،  
1935)، الفصل 6.

[←780]

قضى وباء الأنفلونزا على أكثر من عشرين مليون إنسان، فطغى على الملايين الثمانية والنصف الذين قتلوا في الحرب. وقيل إنه مع حلول عام 1919 كان كل رجل وامرأة وطفل على وجه البسيطة قد أصيب بعدوى هذا المرض

[←781]

وليم هـ. ماكنيل، **الجوانح والشعوب** (غاردن سيتي نيويورك: كتب دبلو اي انكور، 1976)، ص 255.

\***الموسوعة البريطانية**، الطبعة الرابعة عشرة، تحت عنوان: **س. انغلونزا**، وأيضًا الطبعة الثانية عشرة تحت عنوان: **الحملات التركية**.



[←782]

مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل، المجلد المرافق**، المجلد 4، الجزء (1): كانون الثاني 1917 / - حزيران 1919 (بوسطن: هوتن ميغلين، 1978)، ص 412.

[←783]

کنیث مورغان، **لوید جورج**، (لندن: ویدنفیلد و نیکولسون، 1974)، ص 126.

[←784]

تشارلز لوك موفات، **بريطانيا بين الحربين 1918 - 1940**، (لندن: كتب جامعة ميتوين ذات الغلاف الرخيص 1968)، ص 11.

[←785]

جیلبرت ، تشرشل: **المجلد المرافق** ، ص 450.

[←786]

مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل**: المجلد 4: 1916 - 1922، **العالم المضروب**  
(بوسطن: هوتن ميغلين، 1975)، الصفحتان 179 - 180.

[←787]

هوارد ساشار، **انبثاق الشرق الأوسط: 1914 - 1924** (نيويورك: الفرد ا. كنوبف، 1969)، ص 246.

[←788]

بول هيلمريش، من باريس إلى سيفر: تقسيم الامبراطورية العثمانية في مؤتمر الصلح 1919- 920 (كولومبوس: مطبعة جامعة ولاية أوهايو، 1981)، ص 28.

[←789]

اليزابيث مونرو، لخطة بريطانيا في الشرق الأوسط: 1914 - 1917، طبعة منقحة (بالتيمور، مطبعة جامعة جونز هوبكنز، 1981)، ص 37.



[←790]

المرجع نفسه، ص 38.

[←791]

ونستون س. تشرشل، العاقبة: كونها لاحقة للأزمة العالمية (لندن: مكميلان، 1941)، ص 60.

[←792]

جیلبرت ، تشرشل: العالم المضروب ، ص 182 .

[←793]

جیلبرت ، تشرشل: المجلد المرافق ، الصفحتان 463-464.

[←794]

جیلبرت ، تشرشل: العالم المضروب ، ص194.

[←795]

المرجع نفسه ، ص196 .

[←796]

المرجع نفسه، ص 194.

[←797]

كنيث مورغان، الوفاق والتفكك. حكومة لويد جورج الائتلافية 1918 - 1922 (أوكسفورد: مطبعة كلارندون، 1979)، ص 146.



[←798]

جون داروين، بريطانيا ومصر والشرق الأوسط: السياسة الامبراطورية في أعقاب الحرب  
1918-1922 (نيويورك: مطبعة سانت مارتين، 1981)، ص 12، والموسوعة البريطانية،  
الطبعة الخامسة عشرة تحت عنوان: شبه القارة الهندية، تاريخها.

[←799]

جیلبرت ، تشرشل والعالم المضروب ، الصفحتان 477 - 478 .

[←800]

اند ج. ماير، السياسة والدبلوماسية في صنع السلام: الاحتواء والثورة المضادة في فلسطين 1918-1919 (نيويورك: الفرد كنوبف، 1067)، ص 139.

[←801]

جون ماينارد كينز، العواقب الاقتصادية للسلام (نيويورك: هاركورت وبريس وهاد، 1920)، ص 38.

[←802]

للاطلاع على خطب الرئيس ويلسون يرجى الرجوع الى الفصل الأول من القسم السادس.

[←803]

المرجع نفسه، ص 46.

[←804]

ستيفن روسكيل، هانكي، رجل الأسرار، المجلد 2: 1919-1931 (لندن: كولنز، 1972)، ص 38.

[←805]

بول هلمريش، من باريس إلى سيفر: تقسيم الامبراطورية العثمانية في مؤتمر الصلح 1919  
- 1920 (كولومبوس، أوهايو: مطبعة جامعة ولاية أوهايو، 1974)، ص 18.



[←806]

المرجع نفسه ، الصفحتان 19 - 20.

[←807]

المرجع نفسه ، ص 954.

[←808]

المرجع نفسه، ص 95.

[←809]

المرجع نفسه .

[←810]

روسكيل ، هانكي ، المجلد 2 ، ص 72 .

[←811]

يجب أن نتذكر أن فنيزيلوس عرض دخول اليونان الحرب على الإمبراطورية العثمانية كحليفة لبريطانيا منذ صيف عام 1914. كان ذلك قبل أن اتخذت تركيا وبريطانيا قراراً نهائياً بدخول الحرب.

[←812]

المرجع نفسه ، ص 80.

[←813]

المرجع نفسه، ص 81.



[←814]

ديفيد لويد جورج، مذكرات عن مؤتمر الصلح (نيوهافن: مطبعة جامعة ييل، 1939)، المجلد 2 ص 691.

[←815]

ليونارد بيكر، برانديز وفرانكفورت: سيرة حياة ثنائية (نيويورك: هاربر وراو، 1984)، ص 171.

[←816]

كريستوفر م اندرو واس. كانيا - فورستتر، ذروة التوسع الامبراطوري الفرنسي: 1914 - 1924 (ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، 1981)، ص 197.

[←817]

المرجع نفسه، ص 162.

[←818]

المرجع نفسه، ص 194.

[←819]

المرجع نفسه، ص 189.

[←820]

هلمريش، من باريس إلى سيفر، ص 131.

[←821]

المرجع نفسه، ص 139.



[←822]

لويد جورج، مذكرات، ص 818.

[←823]

المرجع نفسه، ص 26.

[←824]

لويد جورج، مذكرات، ص 818.

[←825]

المرجع نفسه، ص 711.

[←826]

المرجع نفسه، ص 820.

[←827]

بيكر، برانديز وفرانكفورت، ص 170.

[←828]

روسكايڤ ، هانكي ، المجلد 2 ، ص 213 .

[←829]

المرجع نفسه ، ص 89.



[←830]

دانييل فاربه ، الدبلوماسي الصالح ، (لندن: جون مري ، 1938) ، ص 155 .

[←831]

هلمريش، من باريس إلى سيفر، ص 178.

[←832]

هي العملة الورقية الفاقدة القيمة التي صدرت في فرنسا خلال الثورة الفرنسية.

[←833]

مفكرة اللورد ريدل شديدة الخصوصية عن مؤتمر الصلح وما بعده: 1918-1923 (نيويورك: رينال وهيتشكوك، 1934)، ص 24.

[←834]

لويد جورج، مذكرات، ص 491.

[←835]

المرجع نفسه ، الصفحتان 723 - 724 .

[←836]

ستيفن روسكيل، هانكي: رجل الأسرار، المجلد 2: 1919 - 1931 (لندن: كولنز، 1972)، ص 141.

[←837]

جوكا نيفاكيفي، بريطانيا وفرنسا والشرق الأوسط العربي 1914 - 1920 (لندن: مطبعة  
اتلون، 1969)، ص 104.



[←838]

بود هلمريش، من باريس إلى سيفر: تقسيم الامبراطورية العثمانية في مؤتمر الصلح 1919 -  
1920 (كولومبوس: مطبعة جامعة ولاية أوهايو، 1974)، ص 28.

[←839]

جون داروين، بريطانيا ومصر والشرق الأوسط: السياسة الإمبراطورية في أعقاب الحرب،  
1918 - 1922 (نيويورك مطبعة سانت مارتين، 1981)، ص 172.

[←840]

روسكيل ، هانكي ، المجلد 2 ، ص 70 .

[←841]

المرجع نفسه، ص 155.

[←842]

المرجع نفسه .

[←843]

أريك جان زورشر، العامل الوجدوي: دور جمعية الاتحاد والترقي في الحركة القومية التركية 1905 - 1926 (لايدن: أ. ج. بريل، 1984)، ص 68 وما يليها.

[←844]

المرجع نفسه ، الصفحتان 95 - 96 .

[←845]

ديفيد لويد جورج، مذكرات عن مؤتمر الصلح (نيوهافن: جامعة ييل، 1939)، المجلد 2، ص 830.



[←846]

نيفاكيقي ، بريطانيا وفرنسا والشرق الأوسط العربي ، ص 210

[←847]

سي ارنست دون، من العثمانية إلى العروبة: مقالات عن أصول القومية العربية (اوربانا وشيكاغو ولندن: مطبعة جامعة ايلينوي، 1973)، ص 158.

[←848]

المرجع نفسه، ص 178، الملحق 7، متابعته في كتاب: ايلي كدودي، انكلترا والشرق الأوسط:  
تدمير الامبراطورية العثمانية، 1914- 1921 (هاسوكس، سسكس: مطبعة هارفستر،  
1978)، ص 159.

[←849]

مفكرة اللورد ريدل شديدة الخصوصية عن مؤتمر الصلح وما بعده: 1918 - 1923 (نيويورك: رينال وهيتشكوك، 1934)، ص 112.

[←850]

عندما دخلت بريطانيا الحرب ضد الامبراطورية العثمانية في نهاية عام 1918، أعلنت حكومة اسكويث رسمية أن مصر قد حررت من السيادة العثمانية وأصبحت محمية بريطانية. ولكن السلطات البريطانية أعلنت أيضا أن حرية مصر واستقلالها هما من بين الأهداف التي تقاتل بريطانيا من أجلها.

ب.ج. كاتيكيوتيس، تاريخ مصر، الطبعة الثانية، (بالتيمور: مطبعة جامعة جونز هوبكنز، 1980)، ص 250 وما يليها. الرواية الواردة في النص تستند أساسًا الى هذا الكتاب والى كتاب: جون داروين، **بريطانيا ومصر والشرق الأوسط: السياسة الإمبراطورية في أعقاب الحرب، 1918-1922** (نيويورك: مطبعة سانت مارتن، 1981)

[←851]

سير جيمس رينيل رود، عضو في بعثة اللورد ميلنر إلى مصر، 1920. الموسوعة البريطانية، الطبعة الثانية عشرة، تحت عنوان: **مصر**.

[←852]

أصبح أحمد فؤاد سلطان مصر عند وفاة أخيه في تشرين الأول (أكتوبر) 1917.

[←853]

داروين . الشرق الأوسط ، ص68 .



[←854]

المرجع نفسه ، ص

[←855]

دورهام . جامعة دورهام . محفوظات وثائق السودان . أوراق ريجينالد وينغيت . 7/ 470 .

[←856]

داروين، الشرق الأوسط، ص. 77.

[←857]

المرجع نفسه، ص72.

[←858]

المرجع نفسه، ص 74.

[←859]

المرجع نفسه .

[←860]

فاتیکيوتيس، مصر، ص. 265.

[←861]

ت. ا. هيتكوت، الحروب الأفغانية: 1839 - 1919 (لندن: اوسبري، 1918)، ص 172



[←862]

ليون ب. بولادا، الاصلاح والتمرد في افغانستان 1919 - 1929: اخفاق الملك امان الله في  
عصرنة مجتمع قبلي (ايتاكا ولندن: مطبعة جامعة كورنيل، 1973)، ص 239.

[←863]

بتاريخ 11 نيسان (أبريل) 1919 فتحت قوة عسكرية بريطانية مغيرة في مدينة امريتسار الهندية، المدينة المقدسة عند الشيخ، النار على جماعة من الناس كانوا مجتمعين في حديقة عامة اجتماعا سياسية، فقتلت 379 شخصا منهم

[←864]

الموسوعة البريطانية، الطبعة الثانية عشرة، تحت عنوان: افغانستان.

[←865]

هينكوت، الحروب الأفغانية، ص 179.

[←866]

بولادا، الإصلاح والتمرد، ص 238، الحاشية 11.

[←867]

الموسوعة البريطانية، الطبعة الثانية عشرة تحت عنوان: افغانستان، وفقاً لها أبرمت  
المعاهدة في عام 1920.

[←868]

بولادا، الاصلاح والتمرد، ص 228.

[←869]

المرجع نفسه، ص 267، الحاشية 29.



[←870]

بريتون كوبر بوش، بريطانيا والهند والعرب 1914 - 1921 (بيركلي ولندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1971)، ص 324

[←871]

المرجع نفسه .

[←872]

ديفيد هولدن وريتشارد جونز، آل سعود: نشوء وسقوط أقوى سلالة في العالم العربي (نيويورك: هولت واينهارت وونستون، 1981)، ص 69، وكريستين موس هيلمن، تماسك المملكة العربية السعودية: تطور الهوية السياسية (بالتيمور: مطبعة جامعة جونز هوبكنز، 1981)، ص 129.

[←873]

هولدن وجونز، آل سعود، ص 71، وغاري ترويلر، ولادة المملكة العربية السعودية: بريطانيا  
وصعود آل سعود (لندن: فرانك كاس، 1976)، ص 142

[←874]

ترويلر، المملكة العربية السعودية، الصفحتان 142 143. بوش، بريطانيا والهند والعرب،  
الصفحة 328 وما يليها. هولدن وجونز، آل سعود، ص72

[←875]

المملكة العربية السعودية، ص 127

[←876]

روبرت فانستييارت ، مقتبس في كتاب يوش، بريطانيا والهند والعرب ، ص 330

[←877]

هولدن وجونز، آل سعود، ص 72.



[←878]

مايكل ل. دوكريل وج. دوغلاس غولد، سلام غير واعد: بريطانيا ومؤتمر الصلح، 1919 -  
1923 (لندن: باتسفورد أكاديميك اند اديوكيشنال، 1981)، ص 198.

[←879]

المرجع نفسه، ص 199

[←880]

المرجع نفسه ، ص210.

[←881]

كريستوفر م. اندرو واس كانيا - فورستتر، ذروة التوسع الامبراطوري الفرنسي: 1914 -  
1924 (ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، 1981)، ص215

[←882]

فردريك هـ. دافيزون، «الدبلوماسية التركية من مودروس إلى لوزان»، في: غوردون. أ. وكريغ  
ومليكس جيلبرت، الدبلوماسيون، 1919 - 1939 (برنستون: مطبعة جامعة برنستون،  
1953)، ص 181.

[←883]

ستانفورد ج. شووايزيل كورال شو، تاريخ الامبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة، المجلد 2،  
الاصلاح والثورة والجمهورية: نشوء تركيا الحديثة 1880 - 1975 (كامبريدج: مطبعة جامعة  
كامبريدج، 1977)، ص 348.

[←884]

دافيزون، الدبلوماسية التركية، ص 181

[←885]

شو وشو، الإمبراطورية العثمانية، ص 349.



[←886]

دافيزون، الدبلوماسية التركية، ص 181

[←887]

شو وشو، الامبراطورية العثمانية، المفتحان 352 - 353.

[←888]

دافيزون ، الدبلوماسية العثمانية ، ص183 .

[←889]

الموسوعة البريطانية ، الطبعة الثانية عشرة تحت عنوان: تركيا (القومية).

[←890]

صلاحي رامسدان سونييل، الدبلوماسية التركية، 1918 - 1923: مصطفى كمال والحركة القومية التركية، (لندن ويفرلي هيلز: منشورات ساج، 1975)، الصفحات 92 - 65.

[←891]

مفكرة اللورد ريدل شديدة الخصوصية عن مؤتمر الصلح وما بعده: 1918 - 1923 (نيويورك: رينال وهيتشكوك، 1936)، ص 208.

[←892]

مايكل لوبلين سميث، الرؤيا الأيونية: اليونان في آسيا الصغرى، 1919 - 1922 (نيويورك: مطبعة سانت مارتن، 1973)، ص 124

[←893]

دوکرویل و غولد، سلام غیر واعد، ص 215.



[←894]

سميث، الرؤيا الأيونية، المفتتان 132 - 133

[←895]

ونستون س. تشرشل، العاقبة: كونها تالية للأزمة العالمية (لندن: مكميلان، 1941)، ص 386.

[←896]

سميث، الرؤيا الايونية، ص 163.

[←897]

المرجع نفسه، ص 164.

[←898]

المرجع نفسه، ص 185.

[←899]

المرجع نفسه، ص 186.

[←900]

المرجع نفسه، ص 184.

[←901]

ايلى كدورى، انكلترا والشرق الأوسط: تدمير الامبراطورية العثمانية 1914 - 1921  
(هاسوكس، سسكس: مطبعة هارفستر، 1978)، الصفحات 157 - 162.



[←902]

فيليب س. خوري، وجهاء المدن والقومية العربية: السياسة الدمشقية 1860 - 1920  
(كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، 1983)، الصفحات 86 - 88.

[←903]

المرجع نفسه ، ص 88.

[←904]

كريستوفر م. اندرو وا.س. كانيا - فورستتر، ذروة التوسع الإمبراطوري الفرنسي: 1914 - 4192 (ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، 1981)، ص 204.

[←905]

المرجع نفسه، ص 215.

[←906]

جوكا نيفاكيفي، بريطانيا وفرنسا والشرق الأوسط العربي: 1914 - 1920 (لندن: مطبعة التون، 1969)، ص 216.

[←907]

الرواية الواردة في النص تستند إلى كتاب خوري، وجهاء المدن والقومية العربية، وكتاب ي. بورات، انبثاق الحركة القومية العربية - الفلسطينية 1918 - 1929 (لندن: فرانك كاس، 4197).

[←908]

نيفاكيغي ، بريطانيا وفرنسا والشرق الأوسط العربي ، ص216.

[←909]

أهارون س. كليمان، أسس السياسة البريطانية في العالم العربي: مؤتمر القاهرة عام 1921  
(بالتيمور: مطبعة جامعة جونز هوبكنز، 1970)، الصفحتان 46 - 47.



[←910]

المرجع نفسه .

[←911]

المرجع نفسه .

[←912]

المرجع نفسه .

[←913]

اندرو وکانیا - فورستتر، التوسع الامبراطوري الفرنسي، ص 215.

[←914]

المرجع نفسه، ص 216.

[←915]

هوارد م. ساشار، انبثاق الشرق الأوسط: **4191 - 4192** (نيويورك: الفرد كنويف، 6919)، ص 287.

[←916]

المرجع نفسه ، ص 288.

[←917]

كليمان، أسس السياسة البريطانية، ص 51.



[←918]

ايلي كدوري، الإسلام في العالم الحديث ودراسات أخرى (نيويورك: هولت واينهارت وونستون، 1981)، الصفحة 85 وما يليها.

[←919]

جون داروين، بريطانيا ومصر والشرق الأوسط: السياسة الامبراطورية في أعقاب الحرب،  
**1922-1918** (نيويورك: مطبعة سانت مارتين، 1981)، ص 183.

[←920]

كريستوفر م. اندرو واس. كانيا - فورستينر، ذروة التوسع الامبراطوري الفرنسي: 1914 - 4192 (ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، 1981)، ص 200.

[←921]

المرجع نفسه .

[←922]

المرجع نفسه .

[←923]

المرجع نفسه .

[←924]

المرجع نفسه .

[←925]

المرجع نفسه، ص 217.



[←926]

أهارون كليمان، أسس السياسة البريطانية في العالم العربي: مؤتمر القاهرة عام 1921  
(بالتيمور: مطبعة جامعة جونز هوبكنز، 1970)، ص 72.

[←927]

اوکسفورد. کلیة سانت انطونی، مرکز الشرق الأوسط، أوراق سی.دی. برونستون د.س.  
612 - د.س. 154/5 حاشیة 3.

[←928]

المرجع نفسه .

[←929]

المرجع نفسه ، الحاشية 3.

[←930]

المرجع نفسه .

[←931]

المرجع نفسه .

[←932]

اوکسفورد. کلیة سانت انطوني. مرکز الشرق الأوسط. أوراق ف. ر. سومرست.  
د.س. 59/97.

[←933]

المرجع نفسه ، د.س. 126. 149 ، د.س. 149 ، د.س. 5/154.



[←934]

المرجع نفسه .

[←935]

هوارد م. ساشار، تاريخ اسرائيل: من نشوء الصهيونية إلى عصرنا (نيويورك: الفرد كنوبف، 6197)، ص 123.

[←936]

جوزف ب. شيشتمان، متمرّد ورجل دولة: قصة فلاديمير جابوتنسكي: السنوات الأولى (نيويورك: توماس يذيلوف، 6195)، ص 328.

[←937]

المرجع نفسه، ص 329 وما يليها وسأشار، تاريخ اسرائيل، ص 123.

[←938]

ساشار، تاريخ اسرائيل، الصفحتان 123 - 412.

[←939]

اوکسفورد. رودس هاوس. «مفکرات ریتشارد ماینرتزهاغن» المجلد 21، ص 612 (12 - 31 - 19).

[←940]

المرجع نفسه، ص 143 (4 تموز 1920).

[←941]

مارتن جيلبرت، ونستون س. تشرشل، المجلد 4: 6191 - 1922، العالم المضروب  
(بوسطن: هوتن ميغلين، 5197)، الصفحتان 484 □ 485.



[←942]

هـ. ف. ف. وينستون، جيرترود بل (لندن: جوناثان كيب، 1978)، ص 207.

[←943]

المرجع نفسه، ص 209.

[←944]

المرجع نفسه، ص 215.

[←945]

المرجع نفسه .

[←946]

ايلى كدورى انكلترا والشرق الأوسط: تدمير الامبراطورية العثمانية، 1914 - 1921  
(هاسوكس، سسكس: مطبعة هارفستر، 1978)، ص 191

[←947]

وينستون، بل، ص 215.

[←948]

المرجع نفسه، ص 219.

[←949]

ان نوري السعيد، الضابط من بلاد الرافدين الذي خدم بصفته واحداً من قادة قوات فيصل العاملة مع الحلفاء، خلال الحرب، كان ينادي بإيجاد حكومة واحدة لسورية وبلاد الرافدين. أما مندوبو بلاد الرافدين الذين كانت لهم علاقة بالمؤتمر السوري العام في دمشق، فكانوا ينادون بدلاً من ذلك بقيام حكومتين منفصلتين في دمشق وبغداد.

\*جوكا نيفاكيفي، بريطانيا وفرنسا والشرق الأوسط العربي، 1914 - 1920 (لندن: مطبعة اتلون، 1969)، ص 177.



[←950]

وينستون، بل، 220.

[←951]

المرجع نفسه، ص 222.

[←952]

هوارد م. ساشار، انبثاق الشرق الأوسط 1914 - 1924 (نيويورك: الفرد كنبوف، 1969)، ص 371.

[←953]

كدوري، الشرق الأوسط، ص 192.

[←954]

هـ. ف. ف. وينستون، ليتشمان: الضابط آمر الصحراء (لندن ونيويورك: كتب كوارتت، 1982)، ص 208.

[←955]

المرجع نفسه، ص 215.

[←956]

أهارون س. كليمان، أسس السياسية البريطانية في العالم العربي: مؤتمر القاهرة عام 1921 (بالتيمور: مطبعة جامعة جونز هوبكنز، 1970)، ص 56.

[←957]

كدوري، الشرق الأوسط، ص 192.



[←958]

بريتون كوبر بوش، بريطانيا والهند والعرب 1914 - 1921 (بيركلي ولندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1971)، ص 408.

[←959]

اوکسفورد . کلیة سانت انطوني . مرکز الشرق الأوسط . أوراق ليتشمان .

[←960]

ساشار، الشرق الأوسط، ص 372.

[←961]

بوش، بريطانيا والهند والعرب، الصفحتان 408 - 409.

[←962]

كليمان ، أسس السياسة البريطانية ، ص 57.

[←963]

المرجع نفسه ، ص 58.

[←964]

ستيفن روسكيل، هانكي: رجل الأسرار، المجلد 2: 1919 - 1931 (لندن: كولنز، 1972)، ص 201.

[←965]

جون داروين، بريطانيا ومصر والشرق الأوسط: السياسة الامبراطورية في أعقاب الحرب،  
**1918 - 1922** (نيويورك: مطبعة سانت مارتين، 1981)، ص 200.



[←966]

المرجع نفسه .

[←967]

المرجع نفسه .

[←968]

كنيث مورغان، الوفاق والتفكك: حكومة لويد جورج الائتلافية 1918 - 1922 (اوكسفورد: مطبعة كلارندون، 1979)، ص 119.

[←969]

هارولد نيكولسون، كورزون: المرحلة الأخيرة 1919- 1925 (بوسطن: هوتن ميفلين، 1934)، ص 134.

[←970]

المرجع نفسه، ص 122.

[←971]

ريتشارد هـ اولمان، العلاقات الانكليزية - السوفياتية 1917 - 1921، المجلد 3: الاتفاق الانكليزي السوفياتي (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، 1972)، ص 353.

[←972]

نیکولسون، کورزون، ص 138.

[←973]

اولمان ، العلاقات الانكليزية - السوفياتية ، المجلد 3 ، ص 352 الحاشية 11 .



[←974]

مارتن جيلبرت، ونستون س. تشرشل: المجلد المرافق، المجلد 4، الجزء 2: «تموز 1919 - آذار 1921» ص 1103.

[←975]

ستيفن روسكيل، هانكي: رجل الأسرار، المجلد 2: 1919 - 1931 (لندن: كولنز، 1972)، ص 202.

[←976]

اولمان ، العلاقات الإنكليزية - السوفياتية ، المجلد 3 ، ص 374 .

[←977]

المرجع نفسه ، ص 380.

[←978]

المرجع نفسه، ص 378.

[←979]

المرجع نفسه، ص 377.

[←980]

المرجع نفسه ، ص 386.

[←981]

مع ذلك استولى رضا خان على العرش في عام 1925 فعزل احمد شاه، الذي كان آنذاك يقيم في باريس، ونصب نفسه مكانه متخذاً اسم رضا شاه بهلوي. وفي عام 1935 غير رضا شاه اسم المملكة من فارس إلى إيران. المرجع نفسه، ص 388.



[←982]

المرجع نفسه، ص 388.

[←983]

البروفسور ريتشارد هـ. اولمان ، من جامعة برنستون ، في العمل المستشهد به اعلاه .

[←984]

جون داروين، بريطانيا ومصر والشرق الأوسط: السياسة الامبراطورية في أعقاب الحرب  
1918 - 1922 (نيويورك: مطبعة سانت مارتن، 1981)، ص 214.

[←985]

كيو، مكتب السجل العام. أوراق المكتب العربي. وزارة الخارجية 882. المجلد 23. الوثيقة م  
9/19/1.

[←986]

أهارون س. كليمان، أُسس السياسة البريطانية في العالم العربي: مؤتمر القاهرة 1921  
(بالتيمور: مطبعة جامعة جونز هوبكنز، 1970)، ص 58.

[←987]

المرجع نفسه .

[←988]

جريدة التايمز، 16 آب (اغسطس) 1985، ص 11.

[←989]

ريتشارد اولمان، العلاقات الانكليزية - السوفياتية 1917 - 1921، المجلد 3: الاتفاق الانكليزي - السوفياتي (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، 1972)، ص.324.



[←990]

المرجع نفسه، ص 328.

[←991]

المرجع نفسه .

[←992]

المرجع نفسه ، ص 329.

[←993]

المرجع نفسه .

[←994]

المرجع نفسه، ص 327.

[←995]

المرجع نفسه ، الصفحتان 326 - 327.

[←996]

المرجع نفسه ، ص 326.

[←997]

مارتن جيلبرت، ونستون س. تشرشل، المجلد المرافق، المجلد 4، الجزء 2: تموز 1919 -  
آذار 1921، الصفحتان 988 - 989.



[←998]

المرجع نفسه ، ص 989.

[←999]

المرجع نفسه، ص 1025.

[←1000]

مارتن جيلبرت، ونستون س. تشرشل، المجلد 4، 1916 - 1922، العالم المضروب  
(بوسطن: هوتن ميغلين، 1975)، ص 331.

[←1001]

المرجع نفسه، ص 371.

[←1002]

مفكرة اللورد ريدل شديدة الخصوصية عن مؤتمر الصلح وما بعده: 1918 - 1923 (نيويورك: رينال وهيتشكوك، 1934)، ص 163.

[←1003]

المرجع نفسه .

[←1004]

المرجع نفسه .

[←1005]

اولمان ، العلاقات الانكليزية - السوفياتية ، المجلد 3 ، ص 427 .



[←1006]

ريتشارد بايز، تشكُّل الاتحاد السوفياتي، الشيوعية والقومية 1917 - 1923، طبعة منقحة  
(كامبريدج، مساشوستس: مطبعة جامعة هارفارد، 1964)، ص 1.

[←1007]

لينين، أعمال مجموعة، المجلد 19، ص 254، مقتبسة في كتاب: الن س. واينتنغ، السياسة  
السوفياتية في الصين 1912 - 1924 (كتب الغلاف الرخيص لمطبعة جامعة ستانفورد،  
1968)، ص 21.

[←1008]

كتب زعيم بشكيريا، زكي والدي توغان (بعد انقضاء سنوات) أن لينين أبلغه في عام 1920 أن المشكلة في البلدان المستعمرة هي أنها تفتقر إلى البروليتاريا (الطبقة العاملة). والبروليتاريا وفقاً للنظرية الشيوعية هي الطبقة التي تملي إرادتها وتقود، ولكن فلاحي الشرق لم تكن عندهم طبقة عاملة في الصناعة تتولى القيادة. والحصيلة أن هذا يعني أن شعوب الشرق لم تكن بعد مستعدة لممارسة حقها في الحرية. وحسب أقوال توغان. فإن لينين ذكر له أنه حتى بعد أن تنجح الثورة الاشتراكية في سائر أنحاء العالم، لا بد من بقاء المستعمرات السابقة للدول الأوروبية الكبرى تحت وصاية سادتها السابقين ريثما تنشأ فيها طبقة عاملة في الصناعة.

\*أولاف كارو، **الامبراطورية السوفياتية: أترك آسيا الوسطى والستالينية**، الطبعة الثانية (نيويورك: مطبعة سانت مارتن، 1967)، ص 111.

[←1009]

بايز، تشکل الاتحاد السوفياتي، ص 155.

[←1010]

كلمة تركستان تستخدم هنا بمفهومها الجغرافي العريض وليس بمفهومها الفني بوصفها البلاد التي كان يحكمها من طشقند حاكم عام في عهد القياصرة.

[←1011]

ادوارد مالييت كار، الثورة البلشفية 1917 - 1923 (هارموند سورث: بنغوين، 1966)، المجلد 3، 249، الحاشية 1.

[←1012]

المرجع نفسه، ص 313.

[←1013]

لويز، مرايا موسكو (نيويورك: ت. سلتزر، 1923)، ص 157.



[←1014]

كار، الثورة البلشفية، ص 327.

[←1015]

المرجع نفسه، ص 266، الحاشية 2.

[←1016]

المرجع نفسه، ص 267.

[←1017]

المرجع نفسه، ص 263.

[←1018]

المرجع نفسه، ص 264.

[←1019]

المرجع نفسه، ص 268.

[←1020]

المرجع نفسه ، الحاشية 2 .

## [←1021]

بيد أنه تبين أن جمال باشا، زميل أنور يمكن الاستفادة منه فوراً. ففي عام 1920، وبناءً على اقتراح (وعلى أية حال بتشجيع من) موسكو، ذهب جمال إلى أفغانستان حيث ساعد في تديد شكوك الأفغان في روسيا. ويقال إن ملك الأفغان كتب رسالة إلى لينين في نهاية عام 1920 قال فيها: «إن سمو جمال باشا اطلعنا على الأفكار والنيات النبيلة للجمهورية السوفياتية بشأن تحرير العالم الشرقي بكامله<sup>(1)</sup>...». إن جمال، بصفته مستشاراً للملك أمان الله خان، ساعد في وضع مسودة دستور جديد وشارك في إعادة تنظيم الجيش. وقد أسرَّ جمال إلى زميل مسلم أن غايته من إعادة تنظيم الجيش الأفغاني وتعزيزه هي زيادة التهديد السوفياتي للهند<sup>(2)</sup>. وإضافة لعمله في الجيش أسس أيضاً منظمة سميت «الرابطة الثورية الإسلامية» المنذورة لتحرير الهند من الحكم البريطاني. إن المكائد التي حاكها مع قبائل الحدود النزاعة إلى الحرب قد ساعدت على إبقائها في حالة هيجان ضد بريطانيا. وعلاوة على هذه النشاطات كلها كان وجود جمال بحد ذاته في كابول المطللة على الامبراطورية الهندية المضطربة من موقع استراتيجي له خاصة اضطراب البريطانيين، مدعاة للقلق والهم في سيملا وفي مقر رئاسة الوزارة البريطانية.

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص 290.

<sup>2</sup> ليون ب. يولادا، الإصلاح والتمرد، في أفغانستان، 1919 - 1929: اخفاق الملك امان الله في عصنة مجتمع قبلي (ايتاكا ولندن: مطبعة جامعة كورنيل، 1973)، ص 248.



[←1022]

برایان، مرایا موسکو، ص 149.

[←1023]

المرجع نفسه، ص 160.

[←1024]

لفتنانت كولونيل ف.م. بيلي، مهمة في طشقند (لندن: جوناثان كيب، 1949).

[←1025]

ادوارد الـورث، آسيا الوسطى: قرن من الحكم الروسي (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، 1967).

[←1026]

فیتزروی ماکلین، شخص من انکلترا ورحالة آخرون (لندن: جوناٲان کيب، 1958).

[←1027]

ريتشارد بايز، تشكّل الاتحاد السوفياتي، الشيوعية والقومية 1917 - 1923، طبعة منقحة  
كامبريدج، مساشوستس: مطبعة جامعة هارفارد، 1964)، ص 258.

[←1028]

ماكليين، شخص من انكلترا، الصفحتان 307 - 358؛ فيتزروي ماكليين، إلى خلف الما وراء،  
(لندن: جوناثان كيب، 1974)، الصفحتان 95 - 96، واولاف كارو، الامبراطورية السوفياتية:  
أترك آسيا الوسطى الستالينية، الطبعة الثانية (نيويورك: مطبعة سانت مارتين، 1997)،  
الصفحات 24 - 125.

[←1029]

مارتن جيلبرت، ونستون س، تشرشل: المجلد المرافق المجلد 4، الجزء 2: تموز 1919 -  
آذار 1921 (بوسطن: هوتن ميغلين، 1978)، الصفحتان 1165-1166.



[←1030]

مارتن جيلبرت، ونستون س. تشرشل: المجلد المرافق، المجلد 4، الجزء 2: تموز 1919 - آذار 1921 بوسطن: هوتن ميغلين، (1978)، ص 938.

[←1031]

المرجع نفسه ، ص 1249 .

[←1032]

المرجع نفسه، ص 1261.

[←1033]

المرجع نفسه، ص 1267.

[←1034]

المرجع نفسه، ص 1269.

[←1035]

مارتن جيلبرت، ونستون س. تشرشل، المجلد 4: 1916 - 1922، العالم المضروب  
(بوسطن: هوتن ميغلين، 1975)، ص528.

[←1036]

المرجع نفسه، ص 523.

[←1037]

المرجع نفسه، ص 524.



[←1038]

المرجع نفسه، ص 527.

[←1039]

المرجع نفسه .

[←1040]

رسائل ت. ا. لورنس، أعدها للطباعة ديفيد غارنت (لندن: جوناثان كيب، 1938)، ص 316.

## [1041←]

بعد بضع سنوات ألف توماس كتاب بعنوان «مع لورنس في شبه جزيرة العرب»، استند فيه الى قصة العرض، مكرراً هذه القصة التي رواها للملايين من مشاهدي عروضه في انحاء العالم. لقد حفل الكتاب بالثناء على جرأة لورنس في اثناء خدمته - وكثير مما تضمنه غير صحيح - معتمداً على المبالغات المجازية. كانت «النشرة العربية» تصدر في ست وعشرين نسخة، فجعلها لويل توماس في كتابه تصدر في اربع فقط<sup>(1)</sup>. كان جيش فيصل يضم 3,500 رجل، يضاف اليهم بضعة آلاف قاتلوا بقيادة اشقاء فيصل خلال الحرب، فلما قام لويل توماس بعملية الجمع كانت الحصيلة جيشاً عربياً قوامه 200,000 رجل<sup>(2)</sup>.

لقد ألقى لويل توماس كلاً من كيتشنر، ووينغيت، وكلايتون، وداوني، وجويس، ويونغ ومسؤولين بريطانيين آخرين ذوي أهمية في الظل، وقدم توماس ادوارد لورنس الشاب باعتباره الرجل الذي اشعل بمفرده ثورة الحجاز وقادها. وزعم كتاب توماس أن لورنس كان في صحراء شبه جزيرة العرب في شباط (فبراير) 1916 محرصاً على اشعال ثورة الحجاز<sup>(3)</sup>، مع ان لورنس كان موظفاً في عمل وراء طاولة في القاهرة آنذاك، وزار شبه جزيرة العرب لأول مرة في شهر تشرين الأول (أكتوبر) من ذلك العام<sup>(4)</sup>.

<sup>1</sup> لويد توماس، مع لورنس في شبه الجزيرة العربية (نيويورك ولندن: سنشوري، 1924)، ص 308.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 131.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص 407.

<sup>4</sup> جون ا. ماك، امير اضطرابنا: حياة ت. ا. لورنس (بوسطن: ليتل وبراون، 1976)، ص 276.

[←1042]

ديزمونت ستيوارت، ت. ا. لورنس (نيويورك ولندن: هاربر دراو، 1977): ماك، امير اضطرابنا،  
وفيليب نايتلي وكولين سيميسون، أسرار حياة لورنس العرب (لندن: توماس نلسون،  
1969).

[←1043]

لقد كتب سير هيو ترنشارد، قائد سلاح الجو الملكي الى قائد هذا السلاح في الشرق الأوسط بتاريخ 5 أيلول (سبتمبر) 1919 قائلاً: «ان برقياتك العديدة جداً تبعث في نفسي الخوف من انك لم تستوعب الجو السائد هنا. هذا الجو هو: الاقتصاد في النفقات بأي ثمن...»<sup>(1)</sup>.

<sup>1</sup> جيلبرت، تشرشل: المجلد المرافق، ص 841.

## [1044←]

كان برنامجه يقتضي بتقليص الالتزامات دون هواده في سبيل تخفيض النفقات . والحقيقة هي أنه خفض الميزانية العسكرية تخفيضاً جذرياً حتى أن الفرع دب في قلب كبير مستشاريه لشؤون الجيش. وقد كتب رئيس هيئة أركان قوات الامبراطورية في مفكرته في العام التالي، أن برنامج تشرشل: «مؤلف من تخفيض للحاميات العسكرية لأسباب مالية، بغض النظر كلياً عما إذا كانت القوات المتبقية خاضعة أيضاً للتقليص». واستنتج في مفكرته: «إن ونستون... يلعب دور الغبي ويتجه مباشرة الى كوارث»<sup>(1)</sup>. والواقع أن تشرشل لم يفعل أكثر من أن ينسجم مع المزاج السياسي لزمه باصراره على خفض النفقات مهما كان الثمن بالمعنى غير المالي. لقد وضع تشرشل الاعتبارات المالية فوق كل الاعتبارات الأخرى، اللهم الا عندما يتعلق الأمر بروسيا البلشفية - المجال الوحيد الذي كان فيه تشرشل، بأرائه وسلوكه، يذكر العالم السياسي بتجاوزاته واسرافه في الماضي.

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص 1076.

[←1045]

جیلبرت، تشرشل: العالم المضروب، ص 638.



[←1046]

المرجع نفسه، ص 894.

[←1047]

المرجع نفسه ، ص545.

[←1048]

المرجع نفسه، ص 511.

[←1049]

المرجع نفسه، ص 592.

[←1050]

المرجع نفسه، ص 509.

[←1051]

قام تشرشل، بصفته وزيراً للطيران منذ عام 1919 - بالتعاون مع سير هيو ترنشارد، رئيس أركان سلاح الجو والذي يعتبر أباً لسلاح الجو الملكي - بدور قيادي في استكشاف المضامين الثورية للقوة الجوية في السياسة البريطانية بعد الحرب.

[←1052]

المرجع نفسه، ص 217.

[←1053]

المرجع نفسه .



[←1054]

كان خوف تشرشل الدائم أن تؤدي سياسات لويد جودج المعادية للأتراك، إلى هجوم تركي على العراق بينما القوات البريطانية غير مجهزة لمواجهته.

[←1055]

رسائل ت. ا. لورنس، ص 291.

[←1056]

جیلبرت ، تشرشل ، المجلد المرافق ، ص 1334 .

[←1057]

المرجع نفسه، 1367.

[←1058]

المرجع نفسه ص 1377.

[←1059]

المرجع نفسه، ص 1405.

[←1060]

ه. ف. ف. وينستون، جيرترود بل (لندن: جوناثان كيب، 1978)، ص 235.

[←1061]

جیلبرت، تشرشل: المجلد المرافق، ص 1391.



[←1062]

الأكراد شعب قبلي مشتت يقطن الهضاب والجبال التي تتداخل فيها حدود العراق وإيران وأرمينيا الروسية وتركيا. والأكراد معظمهم مسلمون سنة ولغتهم هي إحدى مجموعات اللغات الإيرانية، ويعتقد أنهم من أصل هندي - أوروبي. كان عددهم في عام 1921 نحو مليونين ونصف مليون، ولكن لا توجد أرقام يركن إليها. وقد يكون عددهم الآن سبعة ملايين. ولا يزالون يكافحون من أجل الحكم الذاتي، وهم مصدر قلق راهن لحكومتَي العراق وتركيا.

[←1063]

المرجع نفسه ، الصفحتان 552 - 553.

[←1064]

جیلبرت، تشرشل: العالم المضروب، ص 537.

[←1065]

المرجع نفسه ، الصفحتان 552 - 553.

[←1066]

جیلبرت، تشرشل: المجلد المرافق، الصفحتان 1407 - 1408.

[←1067]

المرجع نفسه، ص 1408.

[←1068]

المرجع نفسه، ص 1413.

[←1069]

جیلبرت، تشرشل: العالم المضروب، ص 553.



[←1070]

جیلبرت ، تشرشل: المجلد المرافق ص 1414 .

[←1071]

المرجع نفسه، ص 1428.

[←1072]

المرجع نفسه ، ص1432 .

[←1073]

جیلبرت ، تشرشل: العالم المضروب ، ص516.

[←1074]

جیلبرت ، تشرشل: المجلد المرافق ، ص1414 .

[←1075]

أهارون كليمان، أسس السياسة البريطانية في العالم العربي: مؤتمر القاهرة عام 1921  
(بالتيمور: مطبعة جامعة جونز هوبكنز، 1970)، ص 140

[←1076]

المرجع نفسه، ص 145.

[←1077]

المرجع نفسه ، ص146 .



[←1078]

انه أمر شكوك فيه أن يكون قد ورد على لسان طالب أي تهديد فعلاً هو مايلي:أولم طالب مأدبة عشاء لمراسل جريدة ديلي تلغراف، وخلال المأدبة قال طالب كلاماً بما معناه انه إذا لم تكن بريطانيا منصفة وغير منحازة في تعاملها مع المرشحين المتنافسين، فقد تهب العشائر الى الثورة أخرى. والروايات عن كلماته الفعلية متباينة. الرواية التي سمعها كوكس مصدرها جيرترود بل التي لم تكن حاضرة المأدبة.

[←1079]

المرجع نفسه ، ص156 .

[←1080]

جیلبرت ، تشرشل: المجلد المرافق ، ص 1966 .

[←1081]

المرجع نفسه، ص 1967.

[←1082]

جیلبرت، تشرشل: العالم المضروب، ص 817.

[←1083]

المرجع نفسه .

[←1084]

المرجع نفسه، ص 818.

[←1085]

المرجع نفسه .



[←1086]

أحدى علامات ذلك الزمن اقتراح تقدم به سير بيرسي كوكس في مطلع عام 1922 لارسال الآثار المكتشفة في سامراء، البلدة العريقة الواقعة على نهر دجلة، الى المتحف البريطاني قبل أن تتولى الحكم في العراق حكومة من اهل البلاد. كان قناصل ورحالة وعلماء آثار اوروبيون على مدى أكثر من قرن يأخذون الى بلادهم آثاراً وقطعاً فنية من مواقع في الشرق الأوسط دون أي عائق. وفجأة خشي كوكس أن يكون هذا الوضع قد وصل الى نهايته في العراق. وعلى شاكلة ذلك، وفي الوقت نفسه تقريباً، عندما حقق هوارد كارتير، اكتشاف القرن في وادي الملوك في مصر، بعثوره على موقع ضريح الملك توت عنخ آمون، فعل كارتير ما لم يضطر قط علماء الآثار من قبل الى فعله. فقد دخل مع شركائه ليلة 26 تشرين الثاني (نوفمبر) 1922 الى الضريح سرا وأخذوا ما حلا لهم من مواد، وأعادوا ختم الضريح ثم قاموا بتمثيل ما ادعوا أنه دخولهم الأول الى الضريح لمصلحة السلطات في المملكة المصرية الناشئة، في اليوم التالي. ومنذ 27 تشرين الثاني (نوفمبر) أصبح يتولى مسؤول من مصلحة الآثار المصرية الحراسة طوال الوقت، فلم يعد بإمكان الأجانب أن يأخذوا أجزاء أخرى من كنز توت عنخ آمون.

[←1087]

وينستون، جيرترود بل، الصفحتان 242 - 243

[←1088]

توماس هوفنغ، توت عنخ آمون: القصة التي لم تُروَ (نيويورك: سايمون وشوستر، 1978)،  
الصفحة 89 وما يليها.

[←1089]

من ت.ا. لورنس إلى كاتب سيرة حياته ليدل هارت (نيويورك: دبلو اي، دوران، 1938)، ص 131.

[←1090]

كليمان ، أسس السياسة البريطانية ، ص215 .

[←1091]

المرجع نفسه، ص216.

[←1092]

المرجع نفسه، ص 217.

[←1093]

المرجع نفسه، ص223.



[←1094]

المرجع نفسه، ص 217.

[←1095]

ماك ، امير اضطرابنا ، ص306 .

[←1096]

كليمان ، أسس السياسة البريطانية ، الصفحات 285 - 288 .

[←1097]

المرجع نفسه ، ص229.

[←1098]

المرجع نفسه، ص233.

[1099←]

ان بريطانيا بحمايتها عبد الله ، إنما جزأت في الواقع عالم عرب الصحراء بين أسرتين مالكتين متخاصمتين ، وجعلت من الحدود الأردنية خط التجزئة . والبلدان الوحيدان اللذان لا تزال تسميتهما في عام 1988 تدل على انهما ملك عائلي هما المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية الهاشمية . والحد الدولي بينهما لا يزال هو خط التجزئة بين أسرتي شبه الجزيرة العربية المالكتين .

[←1100]

اوکسفورد. کلیة سانت انطوني، مرکز الشرق الأوسط، أوراق سي. دي. بروننتون.

[←1101]

قال ناحوم سوكولوف عند افتتاحه المؤتمر الصهيوني الثاني عشر في صيف عام 1921 ان اليهود: «مصممون على العمل بسلام مع الأمة العربية». وإذ أكد الروابط التاريخية بين الشعبين قال انهما بالتعاون قادران: «على خلق حياة جديدة تتصف بمنتهى الكمال لشعوب الشرق»، وان: «مصالحهما متطابقة» وقد اعتبر أعمال الشعب العربية الأخيرة من صنع جماعة صغيرة من المجرمين، وأكد للسكان العرب أن اليهود: «لا يأتون الى الأرض المقدسة التسلط انهم بالجد والسلام والاعتدال سيفتتحون مصادر جديدة للانتاج ستكون بركة لهم وللشرق كله»(1).

(1) ورد كلامه في جريدة التايمز، 2 أيلول 1921.



[←1102]

فلاديمير جابوتنسكي، قصة الفيلق اليهودي، ترجمة صامويل كاتز (نيويورك: برنارد اكرمان، 1945)، الصفحتان 168 □ 169.

[←1103]

ايلي كدوري، رواية تشاثام هاوس ودراسات شرق أوسطية أخرى، طبعة منقحة (هانوفر  
ولندن: مطبعة الجامعة في نيو انغلاند، 1984)، الفصل 4.

[←1104]

المرجع نفسه، ص 65.

[←1105]

المرجع نفسه .

[←1106]

المرجع نفسه .

[←1107]

مارتن جيلبرت، ونستون س. تشرشل: المجلد المرافق، المجلد 4، الجزء 2، تموز 1919 -  
آذار 1921 (بوسطن: هوتن ميغلين، 1978)، ص1420.

[←1108]

المرجع نفسه، ص 1028، الحاشية 1.

[←1109]

المرجع نفسه ، الجزء 3: نيسان 1921 - تشرين الثاني 1922، ص1559.



[←1110]

مارتن جيلبرت، ونستون س. تشرشل، المجلد 4، 1916 - 1922، العالم المضروب،  
(بوسطن: هوتن ميغلين، 1975)، ص 597.

[\[←1111\]](#)

المرجع نفسه ، ص 629.

[\[←1112\]](#)

المرجع نفسه، ص 630.

[\[←1113\]](#)

المرجع نفسه .

[←1114]

حذار الالتباس بينه وبين قرية المفتي الأكبر الشاب .

[←1115]

كنيث ستي، مسألة الأرض في فلسطين 1917 - 1939 (تشابل هيل ولندن: مطبعة جامعة كارولينا الشمالية، 1984)، ص 67.

[←1116]

المرجع نفسه، ص37.

[←1117]

لأسباب مختلفة، هبط الناتج الاقتصادي للممتلكات الزراعية الفلسطينية الى مستويات متدنية خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة، ولم تتمكن طبقة الملاكين العرب من المحافظة على مستوى الدخل الا نتيجة فورة شراء اليهود للأرض بأسعار متضخمة. كان الاستيطان اليهودي فرصة للأثرياء العربي، بغض النظر عما يقولونه خلاف ذلك أمام الناس، واما ادعاؤهم أن اليهود أرغموهم على البيع فهو تزوير. والظلمة الحقيقية هي ظلمة الفلاحين العرب الفقراء. ولما كان المزارعون اليهود اشتراكيين فقد كانوا يعارضون استغلال الآخرين، ولهذا السبب كانوا يعملون بأنفسهم. وهكذا عندما كان اليهود يشترون مزارع عربية كانت الأيدي العربية العاملة في هذه المزارع تفقد عملها.



[←1118]

المرجع نفسه ، ص65.

[←1119]

المرجع نفسه، ص37.

[←1120]

المرجع نفسه، ص 67.

[←1121]

جیلبرت ، تشرشل: العالم المضروب ، الصفحتان 655 - 656 .

[←1122]

المرجع نفسه، ص 627.

[←1123]

جیلبرت، تشرشل: المجلد المرافق، المجلد 4، الجزء 3، ص 1647.

[←1124]

المرجع نفسه ، ص1659 .

[←1125]

المرجع نفسه ، الحاشية 1 .



[←1126]

جیلبرت ، تشرشل: العالم المضروب ، ص624 .

[←1127]

المرجع نفسه ، الصفحتان 652-653.

[←1128]

المرجع نفسه .

[←1129]

المرجع نفسه ص659.

[←1130]

المرجع نفسه .

[←1131]

شاباتاي تيفيث، بن غوريون والعرب الفلسطينيين (أوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة  
أوكسفورد 1985)، الصفحات 6.5، 37، 47 - 55، 75 - 81.

[←1132]

المرجع نفسه ، الفصول 5 و6 و7.

[←1133]

المرجع نفسه .



[←1134]

المرجع نفسه، الصفحتان 55 - 56، وجوزف شيشتمان، مقاتل ونبي: قصة فلاديمير جابوتنسكي، السنوات الأخيرة (نيويورك: توماس يوزيلوف، 1961)، ص 324.

[←1135]

جیلبرت، تشرشل، المجلد المرافق، المجلد 4، الجزء 3، ص 2125.

[←1136]

وولتر غوبرليتز، تاريخ هيئة الأركان العامة الألمانية: 1907 - 1990، ترجمة برايان باترشو (نيويورك: براينغر، 1953)، ص 231 وما يليها.

[←1137]

هذه المعاهدة عبارة عن اتفاق بين روسيا والمانيا عقد في 16 نيسان (أبريل) 1922، نص على إقامة اتصالات سياسية وقنصلية بين البلدين.

[←1138]

صلاحي رامسدان سونييل، الدبلوماسية التركية 1918 - 1923: مصطفى كمال والحركة القومية التركية (لندن: ويفرلي هيلز: منشورات ساج، 1975)، ص 83.

[←1139]

المرجع نفسه، ص 87.

[←1140]

دنيس ماك سميث، موسولينى (نيويورك: كنت فنتاج، 1983)، ص 33.

[←1141]

المرجع نفسه .



[←1142]

المرجع نفسه ، ص43

[←1143]

بعبارة أخرى أن تكون أسواق المنطقة مفتوحة تماماً في وجه رجال الأعمال الأميركيين.

[←1144]

وليم ستايفرز، التفوق والنفط: العراق وتركيا والنظام العالمي الأنكلو اميركي، 1918 -  
1930 (ايتاكا ولندن: مطبعة جامعة كورنيل، 1982)، ص1111.

[←1145]

المرجع نفسه ، المصفحات 190 - 199 .

[←1146]

لورنس ايفانز، سياسة الولايات المتحدة وتقسيم تركيا، 1914 - 1924 (بالتيمور: مطبعة جامعة جونز هوبكينز، 1965)، ص300.

[←1147]

المرجع نفسه، ص 303.

[←1148]

هـ. ف. ف. وينستون، المغامرة غير المشروعة (لندن: جوناثان كيب، 1982)، ص 348.

[←1149]

ستايفرز، التفوق والنفط، ص 127



[←1150]

المرجع، 123، الحاشية 36.

[←1151]

المرجع نفسه ، ص126 .

[←1152]

المرجع نفسه ، ص 89.

[←1153]

المرجع نفسه، ص 90.

[←1154]

لم يتم التوصل الى الاتفاق النهائي، المعروف باسم «اتفاقية الخط الأحمر» حتى 31 تموز (يوليو) عام 1928.

[←1155]

سونبيل ، الدبلوماسية التركية ، ص.138 .

[←1156]

المرجع نفسه، ص 139. ورودريك ها. دافيزون، «الدبلوماسية التركية من مودروس إلى لوزان»، في كتاب: غوردون أ. كريغ وفيلكس جيلبرت، الدبلوماسيون 1919 - 1939 (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، 1953)، ص 193.

[←1157]

مارتن جيلبرت، ونستون س. تشرشل: المجلد المرافق، المجلد 4، الجزء 3: نيسان 1921 -  
تشرين الثاني 1922، (بوسطن: هوتن ميغلين، 1978)، ص 1656



[←1158]

هارولد نيكولسون ، الدبلوماسية ، الطبعة الثالثة (نيويورك: مطبعة جامعة أوكسفورد ، 1964) ، ص 130 .

[←1159]

جیلبرت ، تشرشل: المجلد المرافق ، الصفحتان 1656 - 1657.

[←1160]

في أعقاب الهدنة مباشرة بني المارشال فوش حسابه على اساس تحريك حدود فرنسا مع المانيا الى نهر الراين، بحيث توفر الحدود الطبيعية الأمن الذي تنشده فرنسا. ولكن في مواجهة وودرو ويلسون ونقاطه الأربع عشرة اضطرت فرنسا للتخلي عن هذا المطلب مقابل معاهدة ضمان يوقعها حلفاؤها الرئيسيون. ولم توضع المعاهدة ابداً موضع التنفيذ، لأن مجلس الشيوخ الأميركي رفضها في 19 تشرين الثاني (نوفمبر) 1919. وعلاوة على ذلك، بدأت تتضائل امكانية توجه فرنسا فعليا إلى الولايات المتحدة في المستقبل طلباً للمساندة.

[←1161]

ستيفن روسكيل، هانكي، رجل الأسرار، المجلد 2: 1919 - 1931 (لندن: كولنز، 1972)، ص 199.

[←1162]

ارنولد توينبي، المسألة الغربية في اليونان وتركيا، إعادة طباعة الطبعة الثانية (نيويورك: هوارد فيرتيغ، 1970)، ص247.

[←1163]

مايكل لويلين سميث، الرؤيا الايونية: اليونان في آسيا الصغرى 1919 - 1922 (نيويورك: مطبعة سانت مارتن، 1973)، ص203.

[←1164]

المرجع نفسه، ص 226.

[←1165]

المرجع نفسه .



[←1166]

اللورد كنروز، اتاتورك: سيرة حياة مصطفى كمال، أبي تركيا الحديثة (نيويورك: وليم مورو،  
1990)، ص 307

[←1167]

المرجع نفسه ، ص309

[←1168]

سميث ، الرؤيا الايونية ، الصفحتان 228-229.

[←1169]

المرجع نفسه، ص237.

[←1170]

المرجع نفسه ، ص371.

[←1171]

المرجع نفسه، ص 273.

[←1172]

صلاحي رامسدان سونييل ، الدبلوماسية التركية 1918 - 1923: مصطفى كمال والحركة القومية التركية (لندن وبيفرلي هيلز: منشورات ساج ، 1970) ، الصفحتان 172 - 173 .

[←1173]

مفكرة اللورد ريدل شديدة الخصوصية عن مؤتمر الصلح وما بعده: 1918-1923 (نيويورك: رينال وهيتشكوك، 1934)، ص 385.



[←1174]

سميث، الرؤيا الايونية، ص 303.

[←1175]

تصاعدت الفظائع المرتكبة من قبل السكان المسلمين والمسيحيين منذ أن بدأت الحرب. وعند نزول الجيش اليوناني إلى البر في أزمير أول مرة في عام 1919، ذبح الجنود اليونانيون الأتراك العزل، وذكر أرنولد توينبي أنه عندما زار القرى اليونانية التي دمرها الأتراك، لاحظ أن المنازل أحرقت عمداً وتهدمت واحداً إثر الآخر. وبدا أن الأتراك تلذذوا بهذا العمل (1). وادعى الملك قسطنطين أن الجانب الآخر سلخ جلود جثث اليونانيين (2). وادعى توينبي أنا عيش اليوناني طرد عامداً في حملة عام 1921 السكان المدنيين في قرى بكاملها من بيوتهم (3).

(1) توينبي، المسألة الغربية، ص 152.

(2) سميث، الرؤيا الأيونية، ص 232.

(3) توينبي، المسألة الغربية، الصفحات 315 - 317.

[←1176]

مارجوري هادسيان، ازمير 1922: تدمير مدينه (لندن: فابر، 1972)، ص 166.

[←1177]

كنروز، اتاتورك، ص 270، وستانفورد ج. شو وايزيل كورال شو، تاريخ الإمبراطورية العثمانية  
وتركيا الحديثة، المجلد 2: الإصلاح والثورة والجمهورية: نشوء تركيا الحديثة 1808 - 1975  
(كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، 1977)، ص 363.

[←1178]

أن الفطائع التي ارتكبت في زمير وفرت له خلفية روايته «على رصيف زميره وهي إحدى القصص الخالدة في مجموعته الأولى «الطابور الخامس والقصص التسع والأربعون الأولى».

[←1179]

وليم وايت، الخط الثانوي: ارنست همنغواي (نيويورك: أولاد تشارلز سكراييز، 1967)، ص 60.

[←1180]

لورنس ايفانز، سياسة الولايات المتحدة وتقسيم تركيا، 1914 - 1924 (بالتيمور: مطبعة  
جامعة جونز هوبكنز، 1965)، الصفحتان 374 - 375.

[←1181]

المرجع نفسه، ص344.



[←1182]

المرجع نفسه ، ص. 375.

[←1183]

المرجع نفسه ، الصفحتان 373 - 374.

[←1184]

مارتن جيلبرت، ونستون س. تشرشل: المجلد المرافق، المجلد 4، الجزء 3: نيسان 1921 -  
تشرين الثاني 1922 (بوسطن: هوتن ميغلين، 1978)، ص 1980.

[←1185]

المرجع نفسه .

[←1186]

المرجع نفسه ، ص 1988 .

[←1187]

نشأت الحاجة الى مساندة من بلدان الدومنيون عن تبدل موقف هذه البلدان بعد الحرب العالمية الأولى - ونتيجة لها. ففي مؤتمر الصلح في باريس عام 1919، نجح جان كريستيان سمطس باسم جنوب أفريقيا، روبرت بوردن رئيس وزراء كندا، ووليم هيوز رئيس وزراء استراليا، في تثبيت حق بلدانهم في أن تكون لها في المؤتمر مقاعد بصفتها دولا ذات سيادة على قدم المساواة مع بريطانيا وغيرها من دول الحلفاء. فلما عرضت بريطانيا في ذلك الحين على فرنسا معاهدة ضمان، انتزع سمطس ورئيس وزراء جنوب أفريقيا لويس بوثا من لويد جورج اعترافاً بأن هذه المعاهدة غير ملزمة لهما. وكتباً يقولان انه صار من الناحية النظرية بإمكان بريطانيا أن تخوض حرباً بينما يبقى بلد أو أكثر من بلدان الدومنيون محايداً(1). أن هذه الامكانية النظرية وضعت موضع الامتحان في عام 1922.

(1) و.ك. هانكوك، سمطس: ميادين النار. 1919 - 1950 (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، 1968) الصفحتان 4 - 5.

[←1188]

جیلبرت ، تشرشل ، المجلد المرافق ، الصفحات 1993 - 1995 .

[←1189]

مارتن جيلبرت، ونستون س. تشرشل، المجلد 4: 1916 - 1922، العالم المضروب،  
(بوسطن: هوتن ميغلين، 1975)، ص 829.



[←1190]

المرجع نفسه، ص 834.

[←1191]

جون كامبل، ف. 1. سميث، إيرل بيركينهيد الأول، (لندن: جوناثان كيب، 1983)، ص 606.

[←1192]

من سمطس إلى بونار لو، هانكوك، سمطس، ص 130.

[←1193]

كامبل، ف. ا. سميت، ص 607.

[←1194]

روسكيل ، هانكي ، المجلد 2 ، ص. 293.

[←1195]

روبرت بليك، **بولدوين واليمين في عصر بولدوين**، تحرير جون ريموند (لندن: **ايبروسبوتسود**، 1960)، الصفحتان 37 و41.

[←1196]

اللورد بيفريوك، **هبوط وسقوط لويد جورج: وكان سقوطه عظيما** (لندن: كولنز، 1963)، ص 171.

[←1197]

ريدل ، **المفكرة شديدة الخصوصية** ، الصفحتان 388 - 389.



[←1198]

ديفيد لويد جورج، **مذكرات عن مؤتمر الصلح** (نيوهافر: مطبعة جامعة ييل، 1939)،  
المجلد 2 ص 871.

[←1199]

سميث، **الرؤيا الايونية**، الصفحات 329 - 328.

[←1200]

روبرت بليك، رئيس الوزراء المجهول: حياة وأزمة اندرو بونار لو 1858 - 1923  
(لندن: ايير وسبوستوود، 1955)، الصفحتان 447 - 448.

[←1201]

وزير الزراعة، ارنور س. د. غريفيت - بوسكادين، مقتبس في كتاب: كنيث مورغان، **الوفاق والتفكك: حكومة لويد جورج الائتلافية 1918 - 1922** (اوكسفورد: كلارندون، 1979)، ص 325.

[←1202]

ا.ج. ب. تيلور، **بيغريروك** (نيويورك: سايمون وشوستر، 1972)، ص 197.

[←1203]

جیلبرت ، تشرشل: **المجلد المرافق** ، ص 2105.

[←1204]

المرجع نفسه، ص 2122.

[←1205]

المرجع نفسه، ص 2125.



[←1206]

لويد جورج، مذكرات، ص 872.  
سقط لويد جورج ومعه المحافظون المشاركون في الائتلاف لأنهم أخفقوا في مراعاة الشعور السياسي لدى ممثلي القواعد الحزبية في البرلمان. وفي سبيل ضمان عدم تكرار هذا الاخفاق أنشأ المحافظون منذئذ منظمة أصحاب المقاعد الخلفية في البرلمان لاطلاع قيادة الحزب على وجهات نظرهم. ولا تزال هذه المنظمة قائمة حتى يومنا هذا، وتدعى لجنة عام 1922.

[←1207]

لويد جورج، مذكرات، ص 872.

[←1208]

لا تزال بعض المسائل الحدودية دون حل . فحدود تركيا مع سورية ، على سبيل المثال لم يتم تثبيتها إلا في نهاية الثلاثينات من هذا القرن .

[←1209]

هذا لا ينفي أن الأتراك أيضا كان لهم دور في تدمير امبراطوريتهم، وأنه كانت في الشرق الأوسط، على أية حال، قوى تعمل من أجل التغيير.

[←1210]

مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل**، المجلد 4: 1919 - 1922، العالم المضروب  
(بوسطن: هوتن ميغلين، 1975)، ص. 892.

[←1211]

مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل**، المجلد المرافق، المجلد 5، الجزء 1: سنوات وزارة المالية، 1922 - 1929 (بوسطن: هوتن ميغلين، 1981)، ص. 236.